أحمد عبدالباقي

عاصمة الدولة العربية في عهد العباسيين

سامرا



الجزء الأول

الدار العربية للموسوعات

عاصمة الدولة العربية في عهد العباسيين

سامـــرا

عاصمة الدولة العربية في عهد العباسيين

سامرا

أحمد عبد الباقي

الجزء الأول

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠٠٧م - ١٤٢٧هـ

الدار العربية للموسوعات

الحازمية - ص.ب: ٥١١ - هاتف: ٠٠٩٦١٥/٩٥٢٥٩٤ - فاكس: ٠٠٩٦١٥/٤٥٩٩٨٢

هاتف نقال: ٠٠٩٦١٣/٢٨٨٣٦٣ - ٠٠٩٦١٣/٥٢٥٠٦٦ - بيروت - لبنان

الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com

البريد الإلكتروني E-mail. info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني

فهرست كتاب سامرا عاصمة الدولة العربية

في عهد العباسيين

الباب الأول : تأسيس سامرا وعمرانها :

الفصل الاول : تأسيس سامرا

الفصل الثاني : منشآت المعتصم بالله في سامرا

الفصل الثالث : سامراء في عهد المتوكل على الله

الفصل الرابع : تأسيس مدينة المتوكلية

الفصل الخامس : سامراء بعد المتوكل على الله

الفصل السادس : العودة الى بغداد وهجر سامرا

الفصل السابع : دور السكن في سامرا

الفصل الثامن : زخارف سامرا

الباب الثاني : خلفاء سامرا

الفصل الاول : الخلافة والمبايعة وولاية العهد

الفصل الثاني : المعتصم بالله

الفصل الثالث : الواثق بالله

الفصل الرابع : المتوكل على الله

الفصل الخامس : المنتصر بالله

الفصل السادس : المستعين بالله

الفصل السابع : المعتز بالله

الفصل الثامن : المهتدي بالله

الفصل التاسع : المعتمد على الله

الباب الثالث : مؤسسات الدولة العربية في سامرا

الفصل الأول : وزراء سامرا

الفصل الثاني : الكتّاب

الفصل الثالث : القضاة في عهد سامرا

الباب الرابع : خلفاء سامرا والأتراك

الفصل الأول : الاتراك في عهد المعتصم بالله وابنه الواثق بالله

الفصل الثاني : الصراع بين المتوكل على الله والأتراك

الفصل الثالث : ايام الفتنة

الباب الخامس : العلويون وخلفاء سامرا

الفصل الاول : خلفاء سامرا والعلويون

الفصل الثاني : خروج العلويين في عهد خلفاء سامرا

الباب السادس : الفتن والاضطرابات في عهد سامرا

الفصل الأول : الفتن الكبرى

الفصل الثاني : الاضطرابات الاخرى

الباب السابع : خلفاء سامرا والمحنة

الفصل الاول : المعتزلة وأهل السنة

الفصل الثاني : المعتصم بالله والمحنة

الفصل الثالث : المحنة في عهد الواثق بالله

الفصل الرابع : نهاية المحنة

الباب الثامن : علاقات الدولة العربية بمملكة الروم

الفصل الاول : الحروب بين العرب والروم

الفصل الثاني : المفاداة بين العرب والروم

الفصل الثالث : العلاقات الثقافية والتجارية بين العرب والروم

الباب التاسع : الامارات شبه المستقلة في عهد سامرا

الفصل الاول : امارة بني الاغلب

الفصل الثاني : امارة الطاهريين

الفصل الثالث : امارة بني طولون

الفصل الرابع : امارة الصفارين

الباب العاشر : مجالس خلفاء سامرا

الفصل الأول : مجالس المعتصم بالله

الفصل الثاني : مجالس الواثق بالله

الفصل الثالث : مجالس المتوكل على الله

الفصل الرابع : مجالس خلفاء سامرا الآخرين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمـة :

هناك قسم من تاريخ الدولة العربية في عهد العباسيين يؤلف وحدة تاريخية كاملة ، امتدت من سنة ٢٢١هـ حتى سنة ٢٧٩هـ ، كانت فيه مدينة سامرا حاضرة الخلافة الاسلامية • وهذه المدينة التي انشئت لتكون عاصمة الخلافة في ايام المعتصم بالله ثامن الخلفاء من بني العباس ، شاء لها القدر ان تكون عاصمة لامبراطورية من اعظم الامبراطوريات التي ظهرت على مسرح التاريخ • فقد امتدت الامبراطورية العربية من سواحل المحيط الأطلسي غربا حتى تخوم الصين شرقا ورغم اختلاف اجناس رعاياها واختـلاف السنتهم ، وقيام بعض الامارات شبه المستقلة على اطرافها المتباعدة ، فقـد كانت ولاياتها جميعا مرتبطة برباط الدين الاسلامي والحضـارة العربية وتخضع كلها لخليفة سامرا • وكمـا يقـول المستشـرق الهولندي كرامرز « انها كانت تؤلف كتلة دينية واحدة فضلا عن وحدة سياسية متينة العرى متراصة البنيان ، جمعت بينها قـوة السلاح ، وجعلت سكانها يقفون في العالم كأعظم قوة مركزية عرفها البشر » • [تراث الاسلام / ١٢٥]

ونستطيع ان نعتبر تأسيس مدينة سامرا اهم اعمال المعتصم بالله وابقاها اثراً • وتقوم هذه الأهمية على ما تطلبه تأسيسها من

تصميم مسبق ، وجهد كبير متواصل ، ومال وفير ، وما لعبته العاصمة الجديدة من دور مهم في مسيرة الحضارة العربية خلال الشطر الاكبر من القرن الثالث • وقد تيسر للمعتصم بالله ان ينهض بذلك العمل العظيم بما وهب من حب للعمران ، وللجندية والحياة العسكرية ، وما توفر له من المال • وقد اختار المكان المناسب للمدينة من حيث حسن الجو والمناخ ، وتوفر المياه ، وحصانة الموقع • وخططها بما يسد احتياجات عسكره من الأتراك ، ومتطلبات الحياة المدنية • ووزع الاعمال الانشائية المطلوبة لتأسيس المدينة على قواده وكبار رجاله بما كفل سرعة انجازها • ولم يبخل ببذل ما احتاجه لذلك من الاموال • فاستطاع ان يقيم مدينة واسعة كاملة المرافق في خلال مدة وجيزة تعتبر قياسية ـ اذ ابتدأ ببنائها في سنة (٢٢١هـ) وتم انجازها في اواخر السنة التالية ـ • ومع ان الصفة العسكرية غلبت على مؤسساتها ومرافقها عند تأسيسها ، اذ كان معظم سكانها في اول أمرها من الجند الأتراك الذين كانوا اهم أسباب تأسيسها ، بحيث اطلق عليها اسم « العسكر » • الا انها ما لبثت ان قصدها اصناف الناس واستوطنوها باعتبارها حاضرة الخلافة • ولم تمض مدة يسيرة على تأسيسها حتى غدت من أمهات مدن الدنيا آنذاك • وقد أتدم اليها الخليفة نفسه من كل بلد من يعمل عملا من الاعمال ، او يعالج مهنة من مهن الزرع والغرس ، وحمل من سائر البلدان من اهل كل مهنة وصناعة فانزلهم في المدينة وأقطعهم فيها لبناء منازل لهم • فاتسعت عمارة المدينة واتصلت بيوتها وقصورها وأسواقها ، وانتقل اليها عدد كبير من وجوه الناس واهل النباهة من سائر المدن والأمصار لطيب جوها وحسن موقعها وعمارتها •

الا ان المدينة لم تلبث ان امتد اليها الخراب عندما انتقل الخليفة المعتضد بالله عائداً الى بغداد في سنة (٢٧٩هـ) بحيث لم يبق منها بعد سنين قلائل سوى اطلالها • غير ان هذه الاطلال حفظت لنا

طيلة عدة قرون اسس الابنية الفخمة التي كانت فوقها مما ساعد الآثاريين على استكشاف كثير من معالمها وتحديد الشوارع الرئيسة وكثير من القصور ودور السكن وثكنات الجيش ، التي كانت فيها • والتعرف على الأسس الفنية والمعمارية التي قام عليها تخطيط المدينة وعمرانها • اذ كشفت الحفريات والتنقيبات الحديثة من المعلومات عن البناء والزخرفة ما يعطي فكرة جلية عن جمال الحضارة العربية الاسلامية التي أفاءت على العالم آنذاك ، والتي تمثلت في تلك المدينة الخالدة •

ومع أهمية سامرا عاصمة الدولة العربية في ازهى عصورها ودورها الكبير في بناء الحضارة العربية ، فانها لم تنل ما تستحقه من عناية المؤرخين واهتمامهم • فقد أقام بهـا عدد من الخلفاء كان لهم اثر مهم في تاريخها ، ووقعت في ايامها احداث جسام تركت آثارها العميقة على مسيرة الدولة العربية • وكان عهدها عهد القمم من اعلام الرجال ممن تفخر بهم في مختلف ميادين العلم والأدب • فقد عاصرها الامام أحمد بن حنبل الشيباني ، واماما الحديث محمد ابن اسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج القشيري ، والمؤرخ العصي العالم محمد بن جرير الطبري ، والمؤرخ البلداني احمد بن اسحاق اليعقوبي • واماما اللغة والنحو المبرد محمد بن يزيد وثعلبه احمد ابن يحيى الشيباني ، وعميد ادباء عصره عمرو بن بحر الجاحظ . والشاعران العبقريان ابو تمام والبحتري ، وفيلسوف العرب يعقوب بن اسحاق الكندي ، وابرز اطباء عصرهم يوحنا بن ماسويه ويختيشوع بن جبرائيل وحنين بن اسحاق ، وآخرون كثيرون • كما تميز عهد سامرا باحداث خطيرة ، منها ان الدولة العربية بلغت اوج قوتها حينما هدد المعتصم بالله في سنة (٢٢٢هـ) مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية بعد ان اجتاح قواعد الروم وحصونهم وافتتح عسورية أهم مدنهم • كما قضت الدولة العربية في هذا العهد على خطرين تعرضت لهما هما حركة بابك الخرمي وفتنة الزنج •

وفي هذا العهد ايضا ظهرت نتائج تتريك الجيش العربي ، اذ طغى القواد الأتراك وتسلطوا على شؤون الدولة وبخاصة منذ ايام المتوكل على الله حتى ايام المعتمد على الله حينما استطاع اخوه الموفق المهيمن على شؤون الخلافة ان يكبح جماحهم الى حين • وكان ابرز مظاهر تسلط الاتراك استبدادهم بالخلفاء وقد قتلوا اربعة منهم وخلعوا ثلاثة من الخلافة •

ويظهر ان ما أصاب سامرا من اهمال كان سببه الرئيس سرعة خرابها بعد عودة عاصمة الدولة الى مدينة السلام التي استعادت مكانتها في التاريخ العربي الاسلامي • وعسى ان نوفق في تلافي بعض هذا الاهمال بما سنعرضه في الصفحات التالية من تاريخ الدولة العربية في عهد سامراء في مختلف جوانبه • ونرجو ان تكون المواضيع التي تناولنا بحثها وعرضها بشيء من التفصيل كافية لأن تعطي صورة واضحة عن التاريخ المذكور بما يتفق والمركز الذي شغلته مدينة سامرا ما يزيد على نصف قرن كانت فيه حاضرة الخلافة الاسلامية وعاصمة الدولة العربية •

وقد جاء هذا البحث في عشرة أبواب ، يضم كل منها عددا من الفصول يتناسب وطبيعة المواضيع التي يتضمنها الباب وسعتها • فكان الباب الأول خاصا بتأسيس سامرا وعمرانها ، وقد اشتمل على منشآت المعتصم بالله فيها ، وسامرا في عهد المتوكل على الله ، وتأسيسه المدينة المتوكلية «الجعفرية» ، وسامرا بعده ، والعودة الى بغداد وهجر سامرا ، ثم دور السكن في المدينة ، والزخارف التي اشتهرت بها • واشتمل الباب الثاني على دراسة خلفاء سامرا من حيث المبايعة وولاية العهد مع نبذة مختصرة عن سيرة كل منهم لاسيما ما يتعلق منها بالدولة والمجتمع • وخصص الباب الثالث لدراسة موسسات الدولة العربية في عهد سامرا فضم دراسة عن الوزارة والكتابة والقضاء • اما الباب الرابع فقد تناول علاقة

خلفاء سامرا بالاتراك وما قام بين الطرفين من صراع ومظاهر ذلك الصراع وما انتهى اليه • وخصص الباب الخامس لموقف العلويين من خلفاء سامرا • واشتمل الباب السادس على دراسة الفتن والاضطرابات التي واجهت خلفاء سامرا ، الكبرى منها كحركة الخرمية وفتنة الزنج ، والمؤامرات التي استهدفت الخلافة ، والاضطربات الاخرى التي كانت أقل خطراً رغم تعددها • وضم الباب السابع موضوع المحنة التي آثارها المعتزلة وموقف خلفاء سامرا منها • واختص الباب الثامن بدراسة علاقات الدولة العربية بمملكة الروم فشمل الحروب والمفادات والعلاقات التجارية والثقافية بين الطرفين في خلال عهد سامرا • واشتمل الباب التاسع على الامارات شبه المستقلة في عهد سامرا من حيث ادارة شؤونها وعلاقاتها بالخلافة • وخصص الباب العاشر لمجالس خلفاء سامرا العلمية والادبية منها ومجالس الأنس والسمر •

وقد انتهجنا في دراستنا هذه اسلوبا يختلف عن الطريقة التي الفناها في كتابة التاريخ العربي • وهو اسلوب لا يهتم بالاشخاص قدر اهتمامه بالاحداث التاريخية من حيث اسبابها ونتائجها ومسرح حدوثها • اي ان الاحداث هي محور الدراسة والبحث وليس الاشخاص • وحاولنا جهد استطاعتنا ان نلم بتفاصيلها ومكوناتها لنضع امام القارىء صورة جلية لذلك العهد متمثلة بمجريات الاحداث التي وقعت خلاله . وما أحاط بها من الظروف المختلفة التي أدت بها الى ان تسير في الاتجاه الذي صارت اليه ، مع دراسة آثارها على المجتمع آنذاك • فعرضنا ذلك بشكل وحدات « ابواب » تتناول مواضيع تكوّن بمجموعها تاريخه • ومن الواضح ان دراسة الوقائع التاريخية بشكل وحدات تساعد

على فهمها بمختلف جوانبها ، رغم امتداد زمنها . وما نشأ عنها من نتائج ، مما يجعلها متكاملة واضحة • ونحسب ان هذا الاسلوب سيعطي من الصور عدداً اكثر ومن الشمول والوضوح مجالا اوسع ، مما توفره الطريقة التقليدية في عرض المادة التاريخية ، لاسيما ان هذا الاسلوب يتيح مجالا رحبا للتعرف على مختلف جوانب حياة الدولة العربية برمتها آنذاك • تلك الجوانب التي لا تنال الاهتمام الكافي في الطريقة التقليدية •

وقد راعينا في دراستنا بعض الاسس التي التزمنا بها في مختلف الابواب . اهمها : ١ ـ الحرص على التأكيد على عروبة عهد سامرا والتطور الحضاري خلاله . باعتباره امتدادا للدولة العربية التي قامت في المدينة المنورة اثر هجرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم اليها وامتدت حتى منتصف القرن السابع الهجري • اذا لم تعد كلمة العرب بمعناها الواسع تقتصر على سكان بلاد العرب فقط ، بل انها شملت جميع الامم والشعوب التي حمل العرب اليها الدين الاسلامي ، واتخذت من العربية لغة لها ، وانضوت تحت راية الدولة العربية ، ومن ثم كانت الحضارة التي ازدهرت آنذاك وآتت اكلها في القرن التالي حضارة عربية • ٢ ـ ومما له علاقة بذلك اجتهدنا ان نكشف عن اسباب وضع بعض الأخبار بصيغة معينة ، او تحريفها بشكل او بآخر ، وبخاصة ما يتعلق بمحاولة الحط من شأن العرب وقادتهم • مما كان يدسّه اعداء الأمة العربية في ثنايا الوقائع والاخبار • ٣ ـ والتزمنا جهد الاستطاعة بلغة العصر واسلوبه السائد في عهد سامرا من حيث التعابير والمصطلحات والمحتوى دون ان نتوسع بالاستعانة بالمعارف الحديثة وذلك للحفاظ على التراث اللغوي ، وتقديم صورة صادقة عن العهد المذكور من جهة ، وللتمتع بنكهة ذلك الاسلوب من التعبير المتميز بقدر كبير من الفصاحة والبلاغة • ٤ ـ وقد أرّخنا جميع الاحداث والوقائع بالتاريخ العربي «الهجري» لأنسجام ذلك مع طبيعة الموضوع • على اننا

وضعنا في آخر الكتاب جدولا بما يقابل السنوات الهجرية الواردة فيه من السنوات الميلادية، تسهيلا لمن يريد معرفة ذلك • ٥ ـ وعند البحث في سيرة الخلفاء اجتهدنا ان نتحرى رعايتهم للمصالح العامة في اعمالهم وتصرفاتهم ، واهتمامهم بكل ما له علاقة بالدولة والمجتمع ، لنتبين مدى ما قدموه في خلال حكمهم مما يثبت اركان الدولة وما بذلوه لصالح النفع العام ، ولرفع ما يلحق الناس من عنت وارهاق •

واننا لا نستطيع ان ندعي بأن هذه الدراسة قد حققت ما نصبو اليه من اعادة مدينة سامرا الى المركز الذي تستحقه في التاريخ العربي • الا اننا نأمل ان تكون قد القت بعض الضوء على ذلك واوضحت دور سامرا في تطور الحضارة العربية ، وذلك حسبنا ، والله تعالى من وراء القصد انه نعم المولى ونعم النصير •

المؤلف

الباب الأول

تأسيس سامرا وعمرانها

١ ـ تأسيس سامرا

٢ ـ منشآت المعتصم بالله في سامرا

٣ ـ سامرا في عهد المتوكل على الله

٤ ـ تأسيس مدينة المتوكلية (الجعفرية)

٥ ـ سامرا بعد المتوكل على الله

٦ ـ العودة الى بغداد وهجر سامرا

٧ ـ دور السكن في سامرا

٨ ـ زخارف سامرا

الباب الأول

تاسيس سامرا وعمرانها

الفصل الأول

تأسيس سامرا

١ ـ اسباب الانتقال من بغداد :

لما قدم المعتصم بالله بغداد من طرسوس بعد ان بويع بالخلافة في سنة (٢١٨هـ) نزل دار المأمون في الجانب الشرقي من بغداد، واقام حتى سنة (٢٢١هـ)، وكان معه عدد كبير من الجند الاتراك . ويجمع قدامى المؤرخين على ان الجند الاتراك، الذين توسع الخليفة المعتصم بالله في استخدامهم في الجيش العربي. وقد اشتدت شوكتهم، كانوا اهم الاسباب التي دفعته الى الانتقال من العاصمة بغداد وان يتخذ له عاصمة جديدة غيرها . يقول اليعقوبي : « وكان اولئك الاتراك العجم اذا ركبوا الدواب ركضوا فيصدمون الناس يمينا وشمالا فيثب عليهم الغوغاء فيقتلون بعضا ويضربون بعضا، وتذهب دماؤهم هدراً لا يعدون على من فعل ذلك . فثقل ذلك على المعصتم وعزم على الخروج من بغداد » (١)، اي انه خرج بهم ليحميهم من العامة .

---

(١) كتاب البلدان / ٢٥٦ .

ويقول الطبري : « حدثني جعفر بن محمد الفراء ان سبب خروج المعتصم الى القاطول كان ان غلمانه الاتراك كانوا لايزالون يجدون الواحد بعد الواحد منهم قتيلا في ارباضها . وذلك انهم كانوا عُجما جفاة يركبون الدواب ، فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها ، فيصدمون الرجل والمراة ويطأون الصبي . فيأخذهم الابناء فيدكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم ، فربما هلك من الجراح بعضهم . فشكت الأتراك ذلك الى المعتصم . وتأذت بهم العامة . فذكر انه رأى المعتصم راكبا منصرفا من المصلّى في يوم عيد اضحى او فطر ، فلما صار في مربعة الحرشي(٢) ، نظر الى شيخ قد قام اليه فقال له : يا ابا اسحاق ، قال : فابتدره الجند ليضربوه ، فاشار اليهم المعتصم فكفهم عنه ، فقال للشيخ : مالك : قال : لا جزاك الله عن الجوار خيراً ، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج فاسكنتهم بين اظهرنا فايتمت بهم صبياننا ، وارملت بهم نسوانتا ، وقتلت بهم رجالنا . والمعتصم يسمع ذلك كله . قال : ثم دخل داره فلم يُر راكبا الى السنة القابلة في مثل ذلك اليوم . فلما كان في العام المقبل في مثل ذلك اليوم خرج فصلى بالناس العيد ، ثم لم يرجع الى منزله ببغداد ، ولكنه صرف وجه دابته الى ناحية القاطول ، وخرج من بغداد ولم يرجع اليها » (٣) .

وما ذكره ابن الأثير لا يخرج عما ذكره الطبري (٤) . ويقول المسعودي : « وكانت الاتراك تؤذي العوام فى مدينة السلام بجريها الخيول في الأسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك ، فكان اهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة او شيخ كبير او صبي

---

(٢) كذا في الاصل ، والصحيح الخرسي ـ دليل خارطة بغداد المفصل/١٢٢ ، وبغداد في عهد الخلافة العباسية / ١٩٠ .

(٣) الطبري ١٨/٩ .

(٤) الكامل ٤٥٢/٦ .

او ضرير • فعزم المعتصم على النقلة منهم » (٥) • ويقـول ايضـا بنفس المعنى « وكان السبب في ذلك ان اهلها كرهوه وتأذوا بجواره حين كثر عبيده من الاتراك وغيرهم من الاعاجم ، لما كانوا يلقونه منهم ومن غلظتهم ، وربما وثبت العامة على بعضهم فقتلوه لصدمهم اياهم في حال ركضهم ، فأحب التنحي بهم والانفراد عن مدينـة السلام » (٦) •

ويقول الخطيب البغدادي : « ولكثرة عسكر المعتصم وضيق بغداد عنه وتأذي الناس به . بنى المعتصم سر من رأى وانتقل اليها فسكنها بعسكره » (٧) •

ويضيف مسكويه على ما ذكره الطبري « وحكـي انه قـام الى المعتصم يوما رجل من العامة فقال : يا ابا اسحاق اخرج عن مدينتنا والا حاربناك بما لاتقوم له ، فتقدم باخذ الرجل وحمله اليه ، فلما صار بين يديه ، قال : ويلك بمن تحاربني وما هذا الذي لا توام لي به ؟ قال : نحاربك باصابعنا اذا هدأت العيون بالليـل ، يعنـي الدعاء • فسكت عن الرجل ولم يعرض له ، ثم خرج فبنى سر من رأى » (٨) •

وذكر صاحب العيون والحدائق « ان المساكن والطرق ضاقت على الناس ببغداد لكثرة العساكر التي تجمعت مع المعتصم وكثر غلمانه الأتراك » (٩) •

وجاء في تذكرة ابن حمدون ما يفيد بان الجند الاتراك اخذوا يتحرشون بالنساء والصبيان مما اغضب الناس عليهم ، اذ يقول :

---

(٥) مروج الذهب ٤/٥٣ •
(٦) التنبيه والاشراف / ٣٠٨ ـ ٣٠٩ •
(٧) تاريخ بغداد ٣/٣٤٦ •
(٨) تجارب الأمم ٦/٤٧٨ ـ ٤٧٩ •
(٩) العيون والحدائق ٣/٣٨١ ـ ٣٨٢ •

« كان سبب خروج المعتصم ان غلمانه الاتراك كثروا ببغداد فتولعوا بحرم الناس واولادهم ، فاجتمع اليه جماعة منهم وقالوا : يا امير المؤمنين ما احد احب الينا مجاورة منك لأنك الامام والمحامي عن الدين ، وقد افرط علينا امر غلمانك . فاما منعتهم منا واما نقلتهم عنا • فقال : نقلهم لا يكون الا بنقلي ، ولكني افتقدهم وازيل ما شكوتم منه • فنظروا فأذا الامر قد عظم وزاد • وخاف ان تقع بينهم حرب • وعاودوه بالشكوى وقالوا : ان قدرت على نصفتنا والا فتحول عنا • فقال : أتحول وكرامة ، ورحل الى سر من رأى »(١٠) •

ويذكر مثل هذا ياقوت الحموي فيقول : « ان جيوش المعتصم كثروا حتى بلغ عدد مماليكه من الاتراك سبعين الفا . فمدوا ايديهم الى حرم الناس وسعوا فيها بالفساد • فاجتمع العامة ووقفوا للمعتصم وقالوا : يا امير المؤمنين ما شيء احب الينا من مجاورتك لأنك الحامي للدين ، وقد افرط علينا امر غلمانك وعمنا اذاهم ، فاما منعتهم عنا او نقلتهم عنا • فقال : اما نقلهم فلا يكون الا بنقلي ولكني افتقدهم وانهاهم وازيل ما شكوتم منه • فنظروا واذا الامر قد زاد وعظم • وخاف منهم الفتنة ووقوع الحرب • وعاودوه بالشكوى وقالوا : ان قدرت على نصفتنا والا فتحول عنا ، والا حاربناك بالدعاء وندعو عليك بالاسحار • فقال : هذه جيوش لا قدرة لي بها ، نعم اتحول وكرامة ، وساق من فوره حتى نزل سامراء »(١١) •

ويقول مثله ابن الطقطقي ايضا « ان المعتصم استكثر المماليك فضاقت بهم بغداد وتأذى بهم الناس ، وزاحموهم في دورهم وتعرضوا بالنساء فكان في كل يوم ربما قتل منهم جماعة • فركب المعتصم يوما فلقيه رجل شيخ فقال للمعتصم : يا ابا اسحاق ، فاراد

(١٠) تذكرة ابن حمدون ١٠٣/ - ١٠٤ •
(١١) معجم البلدان ٣/ ١٧٤ - ١٧٥ •

الجند ضربه فمنعهم المعتصم ، وقال له : مالك ياشيخ ؟ فقال : لا جزاك الله خيرا عن الجوار ، جاورتنا مدة فرأيناك شر جار ، جئتنا بهؤلاء العلوج من غلمانك الاتراك فاسكنتهم بيننا فايتمت صبياننا وارملت نساءنا والله لنقاتلنك بسهام السحر ، يعني الدعاء ، والمعتصم يسمع ذلك • فدخل منزله ولم يُرَ راكبا الا في يوم مثل ذلك اليوم ، فركب وصلى بالناس العيد ، وسار الى موضع سامرا فبناها(١٢) •

ولخص ابن دُحَيَّة ما ذكره من سبقه من المؤرخين الا انه اشار الى سبب آخر من اسباب نقمة العامة على الجند هو النزول عليهم في مساكنهم قسراً ، وهو امر لم يألفه العرب ، فيقول : « ان العامة شكوا اليه من الجند والنزول عليهم في المساكن والتعرض بهم ، فقال له بعض صلحاء المحدثين : يا أمير المؤمنين اني لا آمن عليك ان يقاتلك العامة ، فقال له : ولم تقاتلني العامة ، ومن يحملها على ذلك وانا في هذا العسكر العظيم ؟ فقال له : يقاتلونك بسهام الليل ورفع الايدي الى الله تعالى في المساجد • فركب في الحال وتخير موضع سر من رأى على دجلة » (١٣) •

لا ريب في ان ضيق العاصمة بغداد بجند المعتصم بالله لكثرتهم، وتخلفهم الحضاري عن سكان المدينة ، وما ترتب من النتائج السيئة عن احتكاكهم بالناس وتعديهم عليهم ، ووقوع الاذى بين الطرفين بحيث ضاق كل منهما ذرعا بالآخر ، وحرص المعتصم بالله على ان لا يغضب اهل بغداد ، وهي حاضرة الدولة العربية وكبرى مدنها ، وقد شعر بانتشار روح النقمة والتذمر بينهم ، وخشية من أن يؤدي ذلك الى قيام فتنة لا يريدها ، مما جعله يقرر عزل الجيش بثكناته واصطبلاته بعيداً عن بغداد • ومما يؤيد ذلك الطريقة التي

(١٢) الفخري/٢١١ •
(١٣) النبراس / ٦٥ •

انتهجها في اسكانهم عندما بنى مدينة سامرا ، اذ حرص على ان يكونوا معزولين بمناطق سكناهم عن بقية الناس ٠

ان ما استعرضناه مما ذكره المؤرخون عن اسباب انتقال المعتصم بالله من بغداد يدور كله حول ضيق أهل بغداد بجنده من الاتراك وشكاواهم المتكررة من تصرفاتهم وتعدياتهم ، وشكوى الجند انفسهم من اعتداء الناس عليهم ٠ على ان هناك سببا آخر ورد ذكره على لسان المعتصم بالله نفسه، يُستنتج منه انه لم يكن مطمئنا الى الحربية من جيشه ، وهم العرب ، لانهم كانوا قد تلكأوا في مبايعته واظهروا ميلهم الى العباس بن المأمون ٠ ويقول أحد كتابه وهو ابو الوزير احمد بن خالد : « بعثني المعتصم بالله في سنة (٢١٩ هـ) وقال لي : يا احمد اشتر لي بناحية سامرا موضعا ابني فيه مدينة ، فاني اتخوف ان يصيح هؤلاء الحربية صيحة فيقتلوا غلماني ، حتى اكون فوقهم فان رابني منهم ريب اتيتهم في البر والبحر حتى آتي عليهم » (١٤) ٠

ويروي ابن الطقطقي هذا السبب بالشكل الآتي « ان المعتصم خاف من ببغداد من العسكر ولم يثق بهم فقال : « اطلبوا لي موضعا اخرج اليه وابني فيه مدينة واعسكر به ، فان رابني من عساكر بغداد حادث كنت بنجوة وكنت قادرا على ان آتيهم في البر وفي الماء » (١٥) ٠ مما يستدل منه انه كانت هناك فئات اخرى في الجيش تنقم على المعتصم بالله ، الى جانب العرب ، لاعتماده على الجند الاتراك وثقته بولائهم له ٠

وهناك سبب ثالث لخروج المعتصم بالله من بغداد ذكره صاحب « الذخائر والتحف » وصاحب « الهفوات النادرة » والسيوطي ٠ ومع ما تضمنه الخبر من اوهام ومبالغة ، فان خلاصته ان المعتصم

---

(١٤) الطبري ٩/١٧ ، والكامل ٦/٤٥١ ، ومعجم البلدان ٣/١٧٤ ٠
(١٥) الفخري ، ٢١١ ٠

بالله كان قد فرغ من بناء قصره في الميدان ببغداد فجلس للناس فيه ، فأستأذنه اسحاق الموصلي في الانشاد ، فاذن له ، فأنشده شعراً كان اول بيت فيه :

يا دار غيرك البلى فمحاك   ياليت شعري ما الذي ابلاك

فتشاءم المعتصم من ذلك وتطير به ، وتغامز الناس وعجبوا كيف ذهب هذا على اسحاق مع فهمه وعلمه . وان المعتصم بالله خرج الى سر من رأى وخرب القصر (١٦) .

ونستطيع ان نضيف الى ما ذكرناه من الاسباب التي دفعت المعتصم بالله الى الانتقال من بغداد ، سبباً آخر يتعلق بشخصيته نفسه . فقد كان ذا نزعة عسكرية يعتز كثيراً بجيشه ، وقد اراد ان تكون له عاصمة خاصة به وبجيشه مقتديا بجده ابي جعفر المنصور وبغيره من الملوك العظام . وان مقابلته رهبان الدير الذي كان في موقع سامرا قبل بنائها ، وما دار بينه وبينهم من حديث حول اسم الموضع وتاريخه ، يؤكد رغبته في ان يبني مدينة خاصة به ينزلها هو وينزلها اولاده من بعده (١٧) .

وقد كان لانتقال عاصمة الدولة العربية من مدينة السلام الى سامرا نتائج مهمة . فقد اقيمت العاصمة الجديدة بتصاميم وخطط متقدمة اتاحت فرص العمل لعدد كبير من ذوي الحرف المتعلقة بالبناء والعمران . وكان قيام سامرا بموجب هذه التصاميم والخطط فرصة لبروز الفن العمراني العربي بزخارفه المبتكرة مما يعتبر من مفاخر الحضارة العربية . وادى الانتقال الى سامرا الى قيام مركز حضاري جديد مهم الى جانب بغداد ، كانت المنافسة العمرانية والعلمية التي قامت بينهما خير مشجع على التقدم في

---

(١٦) الذخائر والتحف / ١٢٩ ـ ١٣٠ ، والهفوات النادرة / ١٧ ـ ١٨ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٣٧ .

(١٧) كتاب البلدان / ٢٥٧ .

مضمار الحضارة وبخاصة في النواحي العلمية منها • مما ساعد على ازدهار الحضارة العربية فبلغت ذروتها خلال القرن التالي الـذي اعتبر ازهى عصورها • هذا بالاضافة الى تخلص سكان مدينة بغداد من عبث الجند الاتراك وعنتهم •

على ان هذه النتائج الايجابية لانتقال المعتصم بالله الى عاصمته الجديدة ، قد صحبتها نتائج سلبية أثرت على مسيرة الدولة العربية آنذاك • وكان اهم تلك النتائج استفحال امر الاتـراك • فقـد ساعدتهم الطريقة التي اتبعت في اسكانهم في سامرا على التقارب والتآلف فيما بينهم مما ولد في نفوسهم شعوراً بقوتهم واهميتهم في الدولة • فعملوا على زيادة نفوذهم ، واتساع تدخلهم في شؤونها • فاشتد الصراع بينهم وبين الخلفاء مدة استغرقت الجزء الاكبر من عمر العاصمة الجديدة • اذ فقد الخلفاء خلالها سلطانهم وغدا كبار القواد الاتراك هم الحكام الفعليين لانهم قد استولوا ، منـذ مقتل المتوكل على الله ، على شؤون الدولة واموالهـا ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة في يدهم كالأسير ان شاءوا ابقـوه وان شاءوا خلعوه او قتلوه (١٨) • مما جعل الخلفاء يحاولون الانتقال الى مدينة اخرى او العودة الى بغداد للتخلص من سيطرة اولئك القواد ونفوذهم • مما سنعرض لتفصيلاته في فصول قادمة • وهكذا عاد المعتمد على الله الى بغداد في اواخر ايامه ، حتى تولى المعتضد بالله في سنة ٢٧٩هـ فهجر سامرا • وبذلك انتهى الـدور السياسي للمدينة التي قـدر لهـا ان تلعـب دورا مهمـا فـي التـاريخ العربي •

٢ ــ اختيار موضع سامرا :

بعد ان استقر رأي المعتصم بالله على ان الانتقال بعساكره من بغداد امر لابد منه اخذ يتقرى مكانا تتوفر فيه المواصفات المطلوبة

---

(١٨) الفخري / ٢٢٠ •

لاقامة مدينة له ومعسكر لجيشه ، من حيث السعة وتوفر المياه ووسائل الحماية الكافية • فخرج الى الشماسية شمالي بغداد • وقد اعتاد المأمون في ايام خلافته ان يخرج اليها ويقيم فيها اياما • وقد عزم المعتصم بالله على ان يبني فيها مدينة ، الا انه وجد الارض تضيق عن حاجته ، كما كره قرب المكان من بغداد(١٩) • وهو يريد الابتعاد بعساكره عنها • فاشار عليه وزيره الفضل بن مروان ان يخرج الى البردان ، وهي من قرى بغداد على سبعة فراسخ منها(٢٠) • فمضى اليها ومعه بعض رجاله ومستشاريه وعدد من المهندسين ومن له معرفة بالاراضي وطبيعتها (٢١) • واقام بها اياما فلم يستطب هواءها ، ورآها ضيقة المساحة لا تتسع لقيام مدينة كبيرة فيها (٢٢) • فصار الى باحمشا بين اوانا والحظيرة على الجانب الشرقي من دجلة نقدر انشاء مدينة هناك الا انه لم يجد موضعا يحفر فيه نهرا لارتفاع الأرض عن مستوى النهر (٢٣) • فتركها ونفذ الى قرية المطيرة ، وهي قرية جنوبي سامرا ، بينها وبين القادسية . وهي في بقعة كلها متنزهات وبساتين وكروم (٢٤) • وقد بنيت في خلافة المأمون ونسبت الى مطر بن فرارة الشيباني . وانما هي المطرية فغيرت وقيل المطيرة (٢٥) • وكما كانت المطيرة متنزها لأهل بغداد صارت متنزها لاهل سامرا كذلك بعد تأسيسها • فأقام المعتصم بالله بها قليلا ثم نزوق له ، فصار الى منطقة القاطول •

قال مسرور خادم هارون الرشيد : سألني المعتصم اين كان الرشيد يتنزه اذا ضجر من المقام ببغداد • قال قلت له : بالقاطول • وقد كان بنى هناك مدينة آثارها وسورها قائمان ، وقد خاف من

---

(١٩) كتاب البلدان / ٢٥٦ •
(٢٠) معجم البلدان ١/٣٧٥ •
(٢١) مدينة المعتصم على القاطول ـ مجلة سومر ج/٢ للسنة الثالثة / ١٦٤ •
(٢٢) مروج الذهب ٤/٥٣ •
(٢٣) كتاب البلدان / ٢٥٦ •
(٢٤) الديارات / ١٤٦ •
(٢٥) معجم البلدان ٥/١٥١ •

الجند ما خاف منه المعتصم • فلما وثب اهل الشام وعصوا خـرج الرشيد الى الرقة فاقام بها اياما ، وبقيت مدينـة القاطـول لم تستتم(٢٦) • ويظهر ان ذلك كان بعد ان استفحل امر البرامكة وفكر بالتخلص منهم • ولعله اراد الابتعاد عن بغداد لكثـرة اتباعهم ومؤيديهم فيها ، لكي يستطيع ان يتدبر امرهم • وكان الرشيد قد حفر نهرا كبيرا هناك سماه ابا الجند لانه كـان يسـقي ارضـا خصصت غلاتها لارزاق الجند (٢٧) • الا ان الوقت لم يتسع له لاتمام المدينة والانتقال اليها كما اشرنا آنفا • فترسم المعتصم بالله خطى ابيه في الانتقال الى القاطول ، ولعله فكر في اتمام بناء المدينة التي بدأها ابوه ولم يتمها • فخرج اليها واستطلع جوهـا فاستطاب هواءها ، ورآها اصلح المواضع لاقامة مدينة ينتقل اليها •

أمر الخليفة مهندسيه بتخطيط المدينة بحيث يجعلون البناء فيها على جانبي القاطول وبينه وبـين نهر دجلـة • وان يقسموها الى قطائع وزعها على القواد والكتاب ورجال حاشيته والناس • فباشر المهندسون العمل واحضروا مواد البناء وجاءوا بالبنائين والصناع . فأقاموا قصرا للخليفة • وبنوا بجواره بيوت رجال الحاشية • كما أنشأوا معسكرا للجيش احاطوه بالاسوار • وبنى قادة الجيش وكبار رجال الدولة قصورهم بالآجر على ضفاف دجلة والقاطـول • وبنيت الاسواق وحولها الدور ، وقد شيد معظمها باللبن • ويظهر انه كانت هناك قرية على القاطول يسكنها قوم من الجرامقة وناس من النبط . فقال احد الشعراء يعيِّر المعتصم بالله بانتقاله من بغداد ومجاورته الجرامقة (٢٨) :

---

(٢٦) الطبري ١٧/٩ •

(٢٧) فتوح البلدان / ٢٩٥ ، ومعجم البلدان ١٧٤/٣ •

(٢٨) مروج الذهب ٥٤/٤ والجرامقة طائفة من العجم نسبتها الى مدينة جرمق بين اصبهان ونيسابور • وقد نزل بعضهم بالموصل في اوائل الاسلام — معجم البلدان ١٣٩/٢ ، وترتيب القاموس المحيط ٤٠٩/١ •

أيا ساكن القاطول بين الجرامقــة

تركت ببغداد الكبــاش البطــارقة

وكان المعتصم بالله قد انتقل الى القاطول وسكن في القصر الذي بناه ابوه هناك ثم انتقل الى بعض ما بني له ، وسكن الى جانبه بعض حاشيته وبعض الناس (٢٩) • ويؤيد المسعودي وياقوت الحموي ان المعتصم بالله قد شيد له قصراً في القاطول ، ولما انتقل منه وهبــه لمولاه اشناس (٣٠) • وقد اقيمت امام القصر بركة واســعة جميلة ما تزال معالمها بادية للعيان ، وهي منخفض اصطناعي طوله (٢٢٠)م وعرضه (١٩٠)م وعمقه ثلاثة امتار • وقد قسمت ارضه تقسيما هندسيا ، فجعلت بعض اقسامه عميقة جداً تسمح بجريان الماء فيها ، وابقيت اجزاء منها بارتفاعها الأصلي ، فجعل الماء منها دكـات مستطيلة متناظرة ومتماشقة ، عددها في الجــانب الشرقي اربـــع دكات وفي الجانب الغربي ست دكات • وجعل التراب الناشيء من الحفر على طول جانبي المنخفض الشرقي والغربي بارتفاع يتراوح بين ٣ و ٥ أمتار ، فتألف من ذلك كتفان عاليان زادا في روعة البقعة وجمال منظرها • وكانت البحيرة تستمد ماءها من فرع القاطول الممتد جنوبا الى القادسية • كما كان يصرف ماؤها بكهاريز تنتهي بحافة نهر القائم (٣١) •

تقع المدينة التي بناها المعتصم بالله على القاطول في منطقة القادسية الممتدة بين نهر القائم ونهر دجلــة ، علــى بعـــد عشرة كيلومترات جنوبي سامرا • واظهرت التنقيبات آثــار ســور مثمن الشكل يقع غربي مدينة المعتصم بالله ، يبلغ طول كــل ضلع مــن

---

(٢٩) فتوح البلدان /٢٩٥ ، وكتاب البلدان/٢٥٧ ، ومروج الذهب ٤/٥٣ •
(٣٠) مروج الذهب ٤/٥٣ ، ومعجم البلدان ٣/١٧٤ •
(٣١) مدينة المعتصم على القاطول/١٦٦ •

اضلاعه (٦٣٠)م وهو مبني باللبن ومدعوم بسلسلة ابراج يبلغ عددها (١٤٠)برجا • وفي كل ركن من اركانه برج كبير مدور قطره نحو ثمانية امتار • وسمك السور اربعة امتار ، وارتفاعه نحو خمسة امتار • وتبلغ مساحة الأرض التي يكتنفها السور (٧٤٥) دونما ، اي ما يقارب المليوني متر مربع • وفي السور فتحات تدل على انها كانت ابوابا له • والسور من الداخل مؤلف من اروقة ، كل رواق بين دعامتين ، وقد جعل بعض هذه الاروقة حجرات • وتشاهد في وسط السور معالم بعض البنايات ، وسلسلة غرف ذات عقادات مدببة • ويدل شكل السور على انه كان حصنا ومعسكرا لجيش كبير يقيم معظمه في الخيم المنصوبة في ساحته ، وان الأبنية التي وجدت آثارها فيه انشئت لسكنى قواد الجيش • ومما هو جدير بالملاحظة ان سور القادسية هذا يشبه اسوار القصور والقصائع التي انشئت في سامرا فيما بعد ، من حيث ضخامته وشكله وحجم اللبن الذي استخدم في بنائه ، مما يوحي بان المعتصم بالله جعل الاسوار مثمنة ليكسبها مظهرا قريب الشبه بأسوار مدينة المنصور (٣٢) • وربما كان لشكل السور علاقة بتسمية المعتصم بالله بالخليفة المثمن •

وكان يدور بمحاذاة قاعدة السور من الداخل خندق ما يزال ظاهرا ، كان يستمد ماءه من نهر القادسية • وهو فرع من القاطول الاعلى يمتد الى نهر القائم فيقطعه على عبارة ما تزال بعض معالمها ظاهرة للعيان في عقيق القائم • وعند وصوله سور القادسية يتفرع منه فرع يدخل المعسكر وينقسم في داخله الى فرعين يكونان زاوية قائمة ، ثم ينعكس احدهما في زاوية قائمة ايضا فيصير موازيا للفرع الأول • ولاشك في ان هذا التوزيع يساعد جميع القاطنين في

(٣٢) الآثار القديمة العامة ــ سامرا ٧٢/ ــ ٧٣ . ومدينة المعتصم على القاطول / ١٦٨ •

داخل السور على انتهال الماء • ومن المحتمل ان المياه الزائدة كانت تصرف بمصرف يخرج من الضلع الجنوبي للسور (٣٣) •

أما مدينة القاطول نفسها فان المعتصم بالله كان قد انشأ كهريزاً لايصال مياه الشرب اليها • ويستمد هذا الكهريز المياه من نهر دجلة في نقطة تقع على بعد كيلومترين تقريبا من شمالي صدر نهر القائم ، ثم يسير شرقا باتجاه حصن القادسية فينحرف من جهته الشمالية حتى ينتهي الى بنايات مدينة المعتصم بالله شرقي الحصن • وقد انشيء هذا الكهريز في مجريين متوازيين احدهما خاص بموسم الفيضان والآخر خاص بموسم الصيف • ويبلغ طول هذا الكهريز من صدره حتى ابنية مدينة القاطول زهاء اربعة كيلومترات (٣٤) •

ووجدت في الاراضي حول السور آثار مبان واسوار تمتد غربا وشرقا . وقد شيد بعضها بالآجر ، والبعض الآخر باللبن • مما يدل على ان قسما منها كان دوراً وقصوراً ، وبعضها كان اسواقا • ويظهر ان الأبنية الكائنة في جنوبي القادسية قد شيدت جميعها بالآجر مما يستنتج منه انها كانت قصورا لكبار القوم • ووجدت ايضا خرائب فيها طبقات من الرماد وكسر الاواني الزجاجية وكتل من الزجاج المنصهر ، تدل وفرتها على ان معامل للزجاج كانت تقوم في هذا الموضع ، وقد اتخذه صناع الزجاج في ايام ازدهار سامرا وعظمتها مقراً لهم ، وشيدوا فيه مصانعهم ودورهم ومساكن عمالهم، وقد ظل كذلك بعد انتقال الخلافة منها وعودة العاصمة الى بغداد (٣٥) • ويذكر ياقوت الحموي ان القادسية كانت قرية كبيرة قرب سامرا يعمل فيها الزجاج (٣٦) •

---

(٣٣) مدينة المعتصم على القاطول /١٦٨ •
(٣٤) ري سامراء ١/٢٦٦ •
(٣٥) مدينة المعصم على القاطول/١٦٨ •
(٣٦) المشترك وضعا / ٣٣٧ •

على ان المعتصم بالله ما لبث ان ادرك ان الأرض التي اختارها ضيقة غير قابلة للتوسع لاحاطتها بدجلة والقاطول من جهة . ولارتفاع ضفة القاطول اليمني بسبب تراكم الاتربة الناشئة من حفر هذا النهر على شاطئه الايمن ، فتكون من ذلك سلسلة مرتفعات وتلول على طول الضفة المذكورة حجزت الاراضي الواقعة الى جنوبه عن الواقف بالضفة اليسرى ، مما يخلق حاجزاً بين جانبي المدينة (٣٧) ، وهي بذلك لا تفي بقيام حاضرة للخلافة ، كما وجد ان طبيعة الارض حصا وانهار يصعب البناء فيها (٣٨) . وكان الموضع فوق ذلك شديد البرد فتأذى به المعتصم بالله وحاشيته ، حتى قال بعض من كان معه (٣٩) :

قالوا لنا ان بالقاطول مشتانا
فنحن نأمل صنع الله مولانا

الناس يأتمرون الرأي بينهم
والله في كل يوم محدث شانا

وكان المعتصم بالله قد صار في خلال خروجه الى الصيد الى ارض واسعة ، وهي صحراء من ارض الطيرهان خالية من السكان ولا عمارة بها سوى دير للنصارى ، فوقف بالدير وسأل من فيه عن اسم الموضع . فقال له بعض الرهبان : « نجد في كتبنا المتقدمة ان هذا الموضع يسمى سرمن‌رأى وانه كان مدينة سام بن نوح ، وانه سيعمر بعد الدهور على يد ملك جليل مظفر منصور له اصحاب كأن وجوههم وجوه طير الفلاة ينزلها وينزلها ولده . فقال : انا والله ابنيها وانزلها وينزلها ولدي . ولقد امر الرشيد يوما ان يخرج ولده الى الصيد ، فخرجت مع محمد والمأمون واكابر ولد الرشيد فاصطا

(٣٧) مدينة المعتصم على القاطول /١٦٧ .
(٣٨) كتاب البلدان /٢٥٧ ، وفتوح البلدان /٢٩٥ .
(٣٩) مروج الذهب ٤/٥٤ .

كل واحد منا صيداً واصطدت بومة ثم انصرفنا ، وعرضنا صيدنا عليه فجعل من كان معنا من الخدم يقول هذا صيد فلان وهذا صيد فلان حتى عرض عليه صيدي ، فلما رأى البومة وقد كان الخدم اشفقوا من عرضها لئلا يتطير بها او ينالني منه غلظة ، فقال من صاد هذه ؟ قالوا : ابو اسحاق ، فاستبشر وضحك واظهر السرور • ثم قال اما انه يلي الخلافة ويكون جنده واصحابه والغالبون عليه قوما وجوههم مثل وجه هذه البومة فيبني مدينة قديمة وينزلها بهؤلاء القوم ثم ينزلها ولده من بعده ، وما سر الرشيد يومئذ بشيء من الصيد كما سر بصيدي لتلك البومة » (٤٠) • وهذه القصة لاتخلو من ان تكون موضوعة على غرار الاسطورة التي وضعت عندما اختار ابو جعفر المنصور موضع مدينته المدورة ، وقد ذكرها ياقوت الحموي في معجمه البلداني (٤١) • ومعالم وضعها ظاهرة ، اذ كيف يتوقع هارون الرشيد ان يلي ابنه ابو اسحاق الخلافة وهو لم يدخله مع ولاة العهد من اولاده الذين كتب لهم كتاب العهد ! ويرجح انها وضعت فيما بعد بشكل يلائم احوال المعتصم بالله •

نظر المعتصم بالله الى فضاء واسع تسافر فيه الأبصار ، وهواء طيب ، وارض صحيحة ، فأستمرأها واستطاب هواءها ، واقام هناك ثلاثا يتصيد في كل يوم ، فوجد نفسه تتوق الى الغذاء وتطلب الزيادة على العادة الجارية . فعلم ان ذلك من تأثير الهواء والماء والتربة • فلما استطاب الموضع دعا بأهل الدير فاشترى منهم ارضهم باربعة الآف دينار (٤٢) • وعرفت هذه المنطقة قديما بصحراء الطيرهان وقصبتها الماحوزة ، وهي التي بنى فيها المتوكل على الله عاصمته المتوكلية فيما بعد • ومن المواضع الشهيرة فيها قبل ان يختارها المعتصم بالله ليقيم عاصمته فيها موضع يسمى (دور عربايا)

---

(٤٠) كتاب البلدان / ٢٥٧ •
(٤١) معجم البلدان ١/٤٥٨ ـ ٤٥٩ •
(٤٢) مروج الذهب ٤/٥٤

وموضع آخر اسمه (الكرخ) ودور عربايا او دور العربـاني هـو الدور الأسفل ، وهو قرية بين سامرا وتكريت ، وفيه انزل المعتصم بالله بعض قواده عندما بنى سامرا (٤٣) . اما موضع الكرخ فكـان يقال كرخ فيروز ، وهو موضع مدينة قديمة على مرتفع من الأرض ، وهو اقدم من سامرا ، فلما بنيت اتصل بها ، وظل عامراً بعد هجرتها وخرابها . ويقال له ايضا كرخ باجدا وكرخ جـدان (٤٤) . وقد انزل المعتصم بالله فيه مولاه اشناس القائد فيمن ضم اليه من القواد لمـا بنى سامرا (٤٥) .

وكانت منطقة الطيرهان تؤلف مع تكريت والسن والبوازيج اول حدود اعمال المغرب عند البلدانيين وتمتد من حدود الموصل(٤٦) . وهي ارض منبسطة كان يتردد عليها الخلفاء بين حين للصيد . ويظهر ان المعتصم بالله نفسه كان يتردد أيام كان اميرا الى هذا الموضع للصيد ، ويضرب فيه مضاربه ، كما سنرى فيما بعد . وكانت تعرف قبل الفتح العربي بنفس الاسم . فقد ورد ذكرها في بعض الحوادث التي وقعت ايام العهد اليوناني في العراق (٤٧) . وقد استمر هذا الأسم يطلق على منطقة سامرا بعد تأسيسها ولقرون عديدة (٤٨) .

يقول اليعقوبي في تاريخه : « ثم ارتحل (المعتصم بالله) عن القاطول الى سر من رأى ، فوقف في الموضع الذي فيه دار العامة ، وهناك دير للنصارى فأشترى من اهل الدير الارض واختط فيه .

---

(٤٣) فتوح البلدان /٢٩٥ ، ومعجم البلدان ٢/٤٨١ ، والمشترك وضعا/١٨٣ .
(٤٤) معجم البلدان ٤/٤٤٧ ، والمشترك وضعا /٣٦٩ .
(٤٥) فتوح البلدان /٢٩٥ ، وكتاب البلدان /٢٥٨ .
(٤٦) المسالك والممالك ٩٤ و٢٤٥ ، والخراج وصناعة الكتابة /١٧٥ .
(٤٧) اخبار فطاركة كرسي المشرق لماري بن سليمان /٤ ــ ٥ .
(٤٨) اخبار فطاركة كرسي المشرق لعمرو بن متى/٧٢-٧٣ ، و٨٣و١٠٠ ، و١١٦ ــ ١٢١ .

وصار الى موضع القصر المعروف بالجوسق على دجلة فبنى هناك عدة قصور للقواد والكتاب وسماها باسمائهم »(٤٩) • ويقول المسعودي : « ولم يزل (المعتصم بالله) يتنقل في تلك النواحي حتى وقع اختياره على موضع سامرا ، وهو بلاد في كورة الطيرهان »(٥٠) • ويقول ايضا : « خرج يتقرى المواضع فانتهى الى موضع سامرا ، وكان هناك دير عادي فسأل بعض اهل الدير عن اسم الموضع فقال : يعرف بسامرا • قال له المعتصم : وما معنى سامرا؟ قال : نجدها في الكتب السالفة والامم الماضية انها مدينة سام بن نوح • قال له المعتصم : ومن اي بلاد هي والام تضاف ؟ قال : من بلاد طيرهان واليها تضاف » (٥١) • وجاء في اخبار فطاركة المشرق لماري بن سليمان ان المعتصم بالله « خرج الى الطيرهان للتصيد ، وصاد وجعل في اعناق السباع الاطواق الحديد ، ووسم على افخاذ الظباء وحمير الوحش اسمه ، واستطاب الموضع ، وابتاع من سكان ذلك الموضع النصارى الحزيات المتصلة بالمطيرة ، وجدد بناء سر من رأى »(٥٢) •

ولما عزم المعتصم بالله على ان ينزل بموضع سامرا كلف وزيره محمد بن عبدالملك الزيات وقاضي القضاة احمد بن ابي دواد ، وعمر بن فرج ، واحمد بن خالد المعروف بأبي الوزير ، وهما من رؤساء الدواوين ، بأن يشتروا له من اصحاب الدير الارض التي رآها وان يدفعوا اليهم اربعة آلاف دينار ثمنا لها ، ففعلوا ذلك(٥٣) • وهناك خبر يروى عن ابي الوزير انه قال : « بعثني المعتصم في سنة (٢١٩هـ) وقال لي : يا احمد اشتر لي بناحية سامرا موضعا ابني فيه مدينة •• وقال لي : خذ مائة الف دينار . قال قلت : أخذ

---

(٤٩) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٣ •
(٥٠) التنبيه والاشراف /٣٠٩ •
(٥١) مروج الذهب ٤/٥٤ •
(٥٢) ص : ٧٧ •
(٥٣) كتاب البلدان /٢٥٧ ـ ٢٥٨ •

خمسة آلاف دينار فكلما احتجت الى زيادة بعثت اليك فاستزدت ٠ قال : نعم فأتيت الموضع فاشتريت موضع سامرا بخمسمائة درهم(٥٤) ، من النصارى اصحاب الدير ، واشتريت موضع البستان بخمسة آلاف درهم ، واشتريت عدة مواضع حتى احكمت ما اردت ، ثم انحدرت فاتيته بالصكاك ، فعزم على الخروج اليها ٠ حتى وضع البناء بسامرا في سنة (٢٢١هـ) »(٥٥) ٠ ولا نرى تضاربا بين الروايتين ، اذ يجوز ان الخليفة كلف الاشخاص المذكورين اول الأمر ، ثم اقتصر مهمة الشراء على ابي الوزير ٠

ويبدو مما يرويه ابن ابي اصيبعة ان للمعتصم بالله سابق معرفة بموضع سامرا عندما كان اميراً ، اذ يقول : « ثم صار المعتصم الى سر من رأى فضرب مضاربه فيها واقام بها في المضارب . فاني لفي بعض الايام على باب مضرب المعتصم اذ خرج سلمويه بن بنان ٠٠٠ فقال لي : حدثني في غداة يومنا نصر بن منصور بن بشام انه كان يساير المعتصم في هذا البلد ، يعني بلد سر من رأى ، وهو امير ، قال لي سلمويه : قال نصر ان المعتصم امير المؤمنين قال له : يانصر آسمعت قط بأعجب ممن اتخذ في هذا البلد بناء وأوطنه ! ليت شعري ما اعجب موطنه ، حزونة ارضه او كثرة اخاقيقه (٥٦) ٠ أم شدة تلاعه وشدة الحر فيه اذا حمى الحصى بالشمس ، ما ينبغي ان يكون متوطن هذا البلد الا مضطرا مقهورا . او رديء التمييز ٠ قال لي سلمويه : قال لي نصر بن منصور : وانا والله خائف ان يوطن امير المؤمنين هذا البلد ٠ فان سلمويه ليحدثني عن نصر اذ رمى ببصره نحو المشرق فرأى في موضع الجوسق المعروف بالمصيب اكثر من الف رجل يضعون اساس الجوسق ٠

---

(٥٤) في معجم البلدان ٣/١٧٤ بخمسة الاف درهم ، وفي العيون والحدائق ٣/٣٨١ بخمسمائة الف درهم ٠

(٥٥) الطبري ٩/١٧ ، ومعجم البلدان ٣/١٧٤ ٠

(٥٦) في النص : اخافيقه ، وهو خطأ مطبعي ، والاخاقيق الحفر ٠

فقال لي سلمويه : احسب ظن نصر بن منصور قد صح . وكان ذلك في رجب سنة احدى وعشرين ومائتين » (٥٧) .

ان ما ذكره ابو الوزير ، وما رواه ابن ابي اصيبعة يستنتج منه ان المعتصم بالله كان يفكر بالانتقال الى عاصمة اخرى ، ولـذا يمكن القول ان شكوى اهل مدينة السـلام كانت سـببا مباشراً لانتقاله عنها .

ويظهر ان سعة الموضع وموقعه من نهر دجلة وبعده عن بغداد مما اغرى المعتصم بالله بأن يختاره لأن يقيم فيه مدينته التي ازمع على تأسيسها . على ان هناك اسبابا اخرى جعلته يفضل هذا الموضع على غيره . فانه كان محاطا بالمياه من جميع اطرافه بحيث انهـا تشكل سورا دفاعيا يحيط بالمدينة . فنهر دجلة يلازمها من جهتها الغربية ويسير بمحاذاتها من اقصى شماليها حتى اقصى جنوبيها ، مما يؤمن اضافة الى اهميته الدفاعية سبيلا للمواصلات النهرية ونقل البضائع والمؤن وغيرها الى المدينة عن طريق النهر ، سـواء كان ذلك من شمالي العراق او جنوبيه . اما من الجهات الاخرى فان مجرى النهروان ــ وهو مجرى القاطول او الرصاصي ــ الذي يفرع من دجلة من شمالي مدينة سامرا ، يجري بموازاة دجلة فيحيط بالمدينة من الجهتين الشمالية والشرقية . وان مجرى نهر القائم ــ وهو قاطول الرشيد ــ الذي يتفرع من دجلـة من جنوبي سـامرا ويلتقي بمجرى الرصاصي قبل وصوله الى نهر العظيم يحيط بالمدينة من الجهة الجنوبية . وذلك مما اغناه عن احاطة المدينة بسور يصد عنها الهجمات شأن المدن الاخرى في ذلك العهد . ثم ان الموضع الذي تقع فيه المدينة يؤلف جرفا يرتفع عن مستوى مياه النهـر ، ممـا يجعلها في مأمن من اخطار الفيضان . ولا يخفى ان الفيضان كان

---

(٥٧) عيون الانباء / ٢٣٥ ــ ٢٣٦ .

مصدر تلق شديد في مدينة بغداد التي كانت معرضـــة دوما الى خطر الغرق (٥٨) ٠

٣ ـ قِــدَم الموضع :

سبق ان اشرنا الى قدم منطقة الطيرهان التي اسست فيها مدينة سامرا ، وان ذكرها ورد في بعض الحوادث التي وقعت في العراق في العهد اليوناني ٠ وقد جاء في بعض المصادر التراثية ان موضع المدينة التي بناها المعتصم بالله كان مدينة قديمة اصابها الخــراب فاندثرت معالمها ٠ اذ يقول المسعودي : « وقد ذكر انها كانت قديمة مسماة بهذا الاسم ، سميت بسام بن نوح ، وانهــا كانت آهلــة عظيمة عامرة ، فلم تزل تتناقص على مر الزمان ، وكان اخرابها في ايام فتنة الامين والمأمون »(٥٩) ٠ ويقــول صـــاحـب العيــون والحدائق : « حكي في بعض الكتب ان سر من رأى كانت مدينــة عظيمة عامرة كثيرة الأهل فأخربها الزمان حتى بقيت خربة وبهــا دير عتيق ، وكان سبب اخرابها فيما حكي ان اعراب ربيعة وغيرهم كانوا يغيرون على اهلها فرحلوا عنها » (٦٠) ٠ ويقول ماري بن سليمان : « وخرج المعتصم الى الطيرهان للتصيــد ٠٠ واســـتطاب الموضع وابتاع من سكان ذلك الموضع النصارى الخرابات المتصلة بالمطيرة وجدد بناء سر من رأى »(٦١) ٠

ان ما رواه المؤرخون المذكورون يعني ان بناء المعتصــم بالله مدينة سامرا كان تجديداً لبناء المدينة القديمة ٠ على ان هــــذه الاشارات جاءت عرضية في المصادر المشار اليها . بينما لــم تشـر

---

(٥٨) ري سامراء ج/٥٤ـ٥٥ ٠

(٥٩) التنبيه والاشراف /٣٠٩ ٠

(٦٠) العيون والحدائق ٣/٣٨١ ٠

(٦١) اخبار فطاركة كرسي المشرق /٧٧ ٠

المصادر المهمة الاخرى الى شيء من ذلك • كما ان الدراسات الحديثة عن المنطقة ، والتنقيبات الأثرية التي اجريت فيها لم تكشف عما يؤيد ان المكان موقع مدينة قديمة اندثرت • بل على العكس من ذلك انه كان ارضا بكراً مستريحة الوف السنين (٦٢) • خلا ما عثر عليه من دلائل سكناها في عصور ما قبل التاريخ • مما يدعو الى القول بان ما جاء في المصادر المذكورة ينقصه التأييد والبرهان على ان ذلك لا يعني ان منطقة الطيرهان كانت صحراء لا عمارة فيها كما يقول اليعقوبي (٦٣) • فقد كان بها عدد من الأديرة ، وقد فصّلنا ذلك في مكان آخر • كما ان ما ذكر عن بستان وخرابات اضافة الى الدير دليل واضح على انها لم تكن تخلو من بعض العمران •

وقد ثبت من التحريات والتنقيبات الاثرية التي اجريت في خرائب سامرا انه كان في موضعها مستوطنات وقرى يرجع بعضها الى ادوار ما قبل التاريخ • فقد اكتشف العالم الآثاري هرزفيلد في مطلع هذا القرن مقبرة تعود الى ادوار ما قبل التاريخ بالقرب من شريعة الناصرية ، ووجد فيها نوعا من الفخار المصبوغ يعتبر وسطا بين فخار شوش وفخار تل العبيد ، وسمي هذا الفخار القبتاريخي باسم « فخار سامراء » وهو يمثل دوراً من ادوار ما قبل التاريخ في العراق(٦٤) • وعندما توسعت مديرية الآثار العراقية في التنقيب في الموقع المذكور عثرت على موضعين آخرين يعودان الى ما قبل التاريخ ايضا احدهما شمالي المقبرة التي عثر عليها هرزفيلد والآخر على ضفة دجلة شمالي صدر القائم جنوبي سامرا يسمى تل الصوان •

---

(٦٢) كتاب البلدان /٢٦٤ •

(٦٣) كتاب البلدان /٢٥٧ •

(٦٤) سامراء لمديرية الآثار العامة / ٧٦ •

يقع تل الصوان قرب النصب المعروف بالقائم على الضفة الشرقية لنهر دجلة ، على بعد (١١) كيلومترا جنوبي مدينة سامراء الحالية . وتؤلف اطلال هذا الموقع تلا بيضوي الشكل تقريبا طوله من الشمال الى الجنوب (٢٣٠)م وعرضه من الشرق الى الغرب (١١٠)م ، ولا يزيد ارتفاعه عن ثلاثة امتار ونصف عند اعلى بقعة من سطحه . وقد اعلنت المديرية العامة للآثار عن اثرية هذا التل في سنة (١٩٤٩) وميزت نوعية الملتقطات المنتشرة على سطحه وثبتت ازمانها التاريخية . ثم قررت في سنة (١٩٦٤) ان تقوم باجراء تنقيبات عامة شاملة فيه . وقد دفعها الى ذلك سببان مهمان ، اولهما ان وقوع التل في وسط العراق قد يكشف في طياته عن دلائل آثرية تلقي الضوء على نوع الارتباط الحضاري بين شمالي وادي الرافدين وجنوبيه في خلال النصف الثاني من الألف السادس قبل الميلاد ، حين بدأ العراقي القديم ينحدر الى منطقة السهول الغربية في وسط الوادي وجنوبيه . ويؤسس اولى القرى الزراعية هناك . وثانيهما احتمال العثور على قرية من الطور المذكور بابنيتها وآثارها الاخرى لتوضح جوانب مهمة من تاريخ العراق القديم في النصف الثاني من العصر الحجري الحديث وبداية ما يسمى بالعصر الحجري المعدني . لأن ما كان معروفا عن المرحلة الحضارية المسماة (بطور سامراء) لما قبل التاريخ لا يتعدى الفخاريات التي كشف عنها هرزفيلد لأول مرة في المقبرة التي تعود الى هذه الفترة . ولقد اسفرت التنقيبات عن نتائج مهمة القت الضوء على جوانب كثيرة مما توخته دائرة الآثار العراقية . اذ كشفت لأول مرة عن مستوطنة تم الكشف على خمس طبقات اثرية منها كانت قد سكنت على التوالي(٦٥) . وترجع الطبقات الثلاث السفلى منها الى آواخر

---

(٦٥) التنقيب في تل الصوان للدكتور بهنام ابو الصوف ، مجلة سومر ج : ١ و٢ لسنة ١٩٦٨ / ٣٧ـ٣٨ .

العصر الحجري الحديث ، ثم طور حسونة القديم وبداية فخار حسونة الانموذجي الذي يستمر الى الطبقة الرابعة ثم الخامسة مع فخار طور سامراء[٦٦] ٠

وكشفت الطبقة الرابعة ، اضافة الى البيوت المبنية باللبن عن بنايات اخرى ذات تخطيط بنائي موحد يشبه الى حد كبير الحرف اللاتيني T بغرف متعددة اعتبرها المنقبون مخازن للحبوب . وكان احدها مكانا دينيا ٠ ولوحظ ان طبقة السكن الثالثة قد سيجت فيها جميع المنطقة المسكونة بسور خارجي بطلعات غير منتظمة . وتمت حمايته بخندق منيع ٠ وهو اقدم نظام دفاعي تم العثور عليه حتى الآن في وادي الرافدين ٠ وتتخلل هذه الأبنية ساحة واسعة ودروب بعضها مرصوف بالحصى ٠ ووجدت في احدى الساحات مجموعة من التنانير ملاصقة لسور القرية ، وهناك ما يدل على انها كانت كورا لشي الفخار ٠ وهذا بحد ذاته يعتبر كشفا مهما اكد ان فخاريات سامرا بكل انواعها الملونة والمحززة والمدلوكة والبسيطة الخالية من النقوش قد تم صنعها في تل الصوان ٠ وان غزارة بقايا هذا النوع من الفخار هنا يؤكد بان تل الصوان كان مركزا مهما لهذه الصناعة في القسم الوسطي من العراق ، ومنه كانت تتزود القرى والمستوطنات الاخرى في هذه المنطقة من وادي الرافدين[٦٧] ٠

وقد تأكد بان الطبقة الرابعة قد مرت بدورين سكنيين على الأقل ٠ كما ظهر ان معظم مشتملات الدور العلوي بغرفها الصغيرة كانت مخازن للغلال ٠ وقد عثر فيها على بقايا من تلك الغلال وعظام الحيوانات التي استفاد السكان من لحومها ٠ كما وجدت آلات وادوات حجرية استعملت للحراثة والحصاد ولتهيئة

---

(٦٦) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة / ٢١٤ ـ ٢١٥ ٠
(٦٧) التنقيب في تل الصوان السابق / ٣٩ ٠

الطعام (٦٨) • وان العدد الكبير من تماثيل صغيرة للنساء الذي وجد في مقبرة تل الصوان قد يعني ان هذا الموقع كان في اوائل الالف السادس قبل الميلاد ، وربما قبل ذلك بقليل ، مركزاً رئيساً لعبادة الأم الآلهة • وقد وضعت تماثيل صغيرة عديدة لهما في توابيت الصغار لتحميهم في رحلتهم الطويلة في عالم ما بعد الموت • ولوحظ ان اكثر بقايا الهياكل العظمية التي عثر عليها في قبور التربة كان اصحابها قد دفنوا بوضعية القرفصاء وان الرأس يتجه دوما نحو الجنوب الا ما ندر • ووجدت بعض الهياكل ملفوفة بحصير مطلي بالقار ، كما عثر على عدد من الاواني الكبيرة من الجص مع اغطيتها المماثلة لشكل الاناء البيضوي المفلطح قد استخدمت كتوابيت للأطفال ، ويظهر ان هذا النوع من مدافن الاطفال كان شائعا في تل الصوان وبخاصة في الطبقتين الرابعة والخامسة (٦٩) •

ومن الادوات التي تلفت النظر مما عثر عليه ، مجرشة ، ومدقة كروية ، ومدقات طويلة الشكل ، ومنجل من حجر الصوان ملصق بالقار ، ومخرات من الحجر ، وحجارة مقلاع ، ونقالة لـ «جومة» حياكة ، وهاون او جاون ، وحجر للدلك ، وصنارة باب ، وطبلة لمزج الاصباغ ، وادوات مختلفة من معظم • كما عثر على مجموعة من عدة الخياطة كالابر والمخارز ، وهي ادلة قاطعة على تمرس سكان هذا الموقع في خياطة الملابس من الجلود ، او من المنسوج الذي كان يغزل بمغازل تصنع اقراصها من الفخار او الحجر • وان الكشف عن نقالات من الحجر والفخار يدل على استخدام انواع ساذجة من «جوم» الحياكة ، وهو برهان على انهم مارسوا حياكة الأقمشة لاستخدامها في الملابس واغراض اخرى (٧٠) • ومما عثر

---

(٦٨) نفس المصدر •

(٦٩) التنقيب في تل الصوان / ٤٠ ـ ٤١ •

(٧٠) نفس المصدر / ٤٣ـ٤٥ •

عليه ايضا سلتان من الخوص مبطنتان بالقار مما يظهر ان صناعة السلال وتبطينها بالقار كانت على ما يظن صناعة شائعة في تل الصوان منذ اقدم الطبقات السكنية فيه (٧١) • وعثر كذلك على ختم منبسط مستطيل الشكل من الحجر الأسود وقد حفرت فيه حزوز متقاطعة ، وهذا يعتبر واحدا من الاختام المنبسطة الاولى التي وصلتنا من اواسط الألف السادس قبل الميلاد (٧٢) •

يقول المرحوم الاستاذ طه باقر انفخار سامرا بالمقانة معفخار تل حلف الذي يليه ، يمتاز بانه ذو لون واحد (Monochrome) كما يمتاز بزخارفه الهندسية المرتبة في انطقة (Bands) متوازية وكذلك اشكال بعض الحيوانات مثل الطيور والاسماك والعقارب والأيل ، وفي حالات قليلة اشكال آدمية مرسومة بصورة تخطيطية تقريبية • وكانت هذه الزخارف تنقش بلون اسود فاتح او اسمر ، على سطح الاناء ذي اللون الاصفر الباهت • ولحد ما نعرفه الى الآن لم يعرف العراقيون القدماء استعمال المعادن والتعدين في طور سامرا ، وكانت الحجارة المادة المعتمدة في صنع الأدوات ومنها الحجر البركاني الاسود (الاوبزيدي ـ Obzidian (٧٣) •

ومما كان يشغل اذهان علماء الآثار ، لاسيما من يبحث منهم في فترات ما قبل التاريخ ، التعرف على نمط الحياة الاقتصادية . وانواع المواد الغذائية الاولى التي عرفها الانسان بعد ان استقر في قرى ثابتة قرب المياه • فقد عثر على بقايا من التلال والحبوب المتفحمة ، والبقايا العظمية للحيوانات التي اقتات على لحومها سكان تل الصوان في مختلف ادواره ، فتنبرع لدراستها احد مشاهير المختصين بالنباتات القديمة هو الاستاذ هانس هيلبان من المتحف

---

(٧٢) نفس المصدر ، ص : ج •
(٧١) مجلة سومر ، ج : ١ و ٢ لسنة ١٩٦٧ ، ص : ب •
(٧٣) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة / ٢١٦ـ٢١٧ •

الوطني في كوبنهاكن بالدانمارك . وتوصل الى ان الحنطة والشعير كانا من جملة المحاصيل الحقلية لاهالي تل الصوان • وانهم كانوا يعتمدون احيانا على السقي في زراعة هذين النوعين من الغلال ، لقلة الامطار في وسط العراق في ذلك الزمن وكما هي الحال الآن (٧٤) • مما يستنتج منه ان سكان هذا المستوطن بدأوا بمشاريع الري الصغيرة •

كما ان البحث الدقيق في الركام والتراب الناجم عن حفريات مختلف البقايا النباتية ومخازن الغلال كشف عن بقايا من عظام الحيوانات الاليفة والبرية التي اصطادها الانسان في هذا الموقع واقتات على لحومها واستفاد من جلودها واصوافها • وظهر بنتيجة دراسة المختصين لهذه البقايا ان الخراف والماعز والغزلان كانت عماد الثروة الحيوانية ، لأهل هذا الموقع في الألف السادس قبل الميلاد ، وان السمك كان الغذاء الرئيس لسكنة تل الصوان في جميع ادواره (٧٥) • كما انهم كانوا يضعون الاسماك مع الموتى لتكون زادا لهم في رحلة الموت الطويلة ، كما تدل على ذلك بقايا عظام السمك الكثيرة التي وجدت في القبور المكتشفة في هذا التل (٧٦) •

وتمخضت الحفريات في تل الصوان في موسم سنة (١٩٧٢) عن نتائج مهمة ساعدت على تكوين فكرة عامة عن نمط الحياة الاجتماعية والاقتصادية لقرية الصوان ، وكذلك عن بداية الاستيطان فيها • ومما يمكن استخلاصه ان سكان القرية تلاحموا مع بيئتهم ومارسوا البدايات الاولى لأساليب الري نتيجة لتذبذب

---

(٧٤) التنقيب في تل الصوان ، ص ٤٥ •

(٧٥) نفس المصدر ، ص ٤٦ •

(٧٦) مجلة سومر ج ١ و ٢ لسنة ١٩٦٧ ، ص ٤ •

سقوط الامطار وقلتها في هذه المنطقة • وان هذا التفاعل ساعد على الخلق والابداع في النواحي التي ميزت اولئك السكان(٧٧) •

٤ ــ بناء سامرا :

يعتبر ما كتبه المؤرخ الجغرافي احمد بن ابي يعقوب المعروف باليعقوبي عن تخطيط مدينة سامرا وعمرانها في « كتاب البلدان » اوسع ما تضمنته كتب التراث العربي عن هذا الموضوع • ولكتابة اليعقوبي المتوفى سنة (٢٨٤هـ.) عن المدينة اهمية خاصة اذ كان معاصراً لها عندما كانت عاصمة الدولة العربية ، وقريب عهد من تأسيسها • ولذا سيكون كتابه المذكور مصدرنا الأول فيما سنورده في هذا البحث(٧٨) ، الا اذا اشرنا الى مصدر آخر •

تخطيط المدينة :

بعد ان اختار المعتصم بالله الأرض اللازمة لبناء المدينة اوعز الى المهندسين بتخطيطها وفق اسس عينها لهم • ويمكن ان نستخلص من مجريات العمل في تأسيس المدينة ، ان اهم تلك الأسس كانت :

١ ــ اكد المعتصم بالله على ضرورة ان تصير قطائع الاتراك جميعاً والفراغنة ، بعيدة عن الاسواق والزحام ، وذلك بجعل مساكنهم في شوارع واسعة ودروب طوال ، ليس معهم في قطائعهم ودروبهم احد من الناس يختلط بهم من تاجر ولا غيره • وذلك لتلافي المشاكل التي واجهها في بغداد من جراء التصادم المستمر بين

---

(٧٧) مجلة سومر ج : ١ و ٢ لسنة ١٩٧٢ ، ص : ب •

(٧٨) كتاب البلدان / ٢٥٥ ــ ٢٦٨ •

اهلها وجنده من الاتراك في دروب المدينة واسواقها مما اضطره على ترك العاصمة والانتقال الى مدينة بعيدة عنها ٠

٢ ـ ان يبدأ العمران في الجانب الشرقي من المدينة ، لما تمتاز به ارض هذا الجانب مما سبقت الاشارة اليه من المميزات ٠ ثم ينظر بعد ذلك في اعمار الجانب الغربي ٠

٣ ـ الاكثار من الشوارع الرئيسة في المدينة على ان تكون موازية لنهر دجلة ، وبأعرض ما يمكن ، وان توصل بينها شوارع فرعية عريضة ودروب ، وان يكون الشارع الذي على ضفة دجلة مباشرة فسيحا يتسع للسفن التي ستفرغ حمولتها في فروضه او تحمل عنها ٠

٤ ـ ان تقام الأسواق الرئيسة حول المسجد الجامع الذي تقرر انشاؤه على شارع السريجة ، بحيث تجعل سوق خاصة لكل تجارة منفردة ، ويكون كل قوم من اصحاب التجارات والبياعات على حدة ، على مثل ما رسمت عليه اسواق بغداد ٠

وقد خطط المهندسون شوارع المدينة ودروبها ، ووضعوا اسس القصور والمساجد ، ومختلف القطائع التي اعدت لسكنى الجند ، ومختلف طبقات الناس ، وفق الأسس المشار اليها ٠ وقد برهنوا في تخطيطهم على مهارة فائقة تجلت في تنظيم الشوارع ، وتنسيق الأبنية العامة ، وتوزيع القطائع ، واقامة الاسواق ٠

وكان من اول اعمال المعتصم بالله ، بعد ان كمل تخطيط المدينة انه كتب الى مختلف الولايات « في اشخاص الفعلة والبنائين واهل المهن من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات ٠ وفي حمل الساج وسائر الخشب والجذوع من البصرة وما والاها ، ومن بغداد وسائر السواد ومن انطاكية وسائر سواحل الشام ٠ وفي حمل عملة الرخام وفرش الرخام ، فاقيمت باللاذقية وغيرها دور صناعة

الرخام » (٧٩) لتهيئة ما تحتاجه قصور المدينة ومساجدها من الرخام والمرمر الابيض والملون • على ان المعتصم بالله لـم يقتصر علـى استخدام عمال البناء والحرفيين ممن لهم علاقة بالبناء والتشييد فقط ، بل حاول ان يحشد للمدينة الجديدة ايدي عاملة كثيرة في مختلف النواحي • ولهذا اقدم من كل بلد من يعمل عملا من الاعمال او يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع والنخل والغروس ، وهندسة الماء ووزنه واستنباطه والعلم بمواضعه من الأرض • وحمل من مصر من يعمل القراطيس وغيرها ، وحمل من البصرة من يعمـل الزجاج والخزف والحصر • وحمل من الكوفة من يعمل الخزف ومن يعمل الأدهان والاصباغ • ومن سائر البلدان من اهـل كـل مهنة وصناعة • فانزلوا بعيالهم في اماكن خاصة من المدينــة، واقطعوا فيها لبناء منازل لهم •

ابتدأ البناء في سنة (٢٢١ هـ) (٨٠) • ويظهر ان اول ما بني في المدينة الجديدة هو قصر الخليفة الذي عرف بالدار العامة ، وقد بني في بستان الدير الذي اشتراه المعتصم بالله ، وصارت ارض الدير بيت المال • ويقول المسعودي : « انه ارتاد لبناء قصره موضعا فيها فأسس بنيانه ، وهو الموضع المعروف بالوزيري في سر من رأى ، واليها يضاف التين الوزيري ، وهو اعذب الأتيان وارقهــا قشرا واصغرها حبا »(٨١) •

ويقول الآثاري كريزويل ان المعتصم بالله ارسل رجالا الى مصر وامرهم بانتزاع اعمدة الرخام من الكنائس . وانهم بعد ان انتزعوا اعمدة كنائس الاسكندرية ذهبوا الى كنيسة القـديس ميناس في

---

(٧٩) كتاب البلدان / ٢٥٨ •

(٨٠) الطبري ٩/١٧ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٣ ، والتنبيه والاشراف / ٣٠١ ومعجم البلدان ٣/١٧٤ ، والكامل ٦/٤٥٢ •

(٨١) مروج الذهب ٤/٥٤ •

مربوط وانتزعوا منها الرخام الملون ومرمر التبليط(٨٢) • الا ان زعمه هذا لا يمكن قبوله ، لأن المعتصم بالله الذي دفع مبالغ كبيرة لشراء الخرائب والاراضي المتروكة التي كانت تخص الرهبان في موضع سامرا لايمكن ان يأمر باغتصاب اعمدة الكنائس ومرمر تبليطها . وبخاصة اذا ما علمنا ان دور صناعة للرخام والمرمر قد اقيمت في بعض المدن التي اشتهرت بقطعه وصقله ، لسد حاجة المدينة الجديدة منه •

الشوارع الرئيسة :

يسمى الشارع الذي امتد على ضفاف نهر دجلة من شمالي المدينة حتى جنوبيها بشارع الخليج ، حيث كانت تقوم عليه الفرض لرسو السفن التي تحمل البضائع والتجارات الى المدينة من بغداد وواسط وكسكر وسائر السواد والبصرة والأبلة والاهواز ، ومن الموصل ويعربايا وديار ربيعة وما اتصل بذلك ، وتقوم في هذا الشارع قطائع المغاربة ، وعرف الموضع الذي خصص لسكنهم باسم «الأزلاخ» وتعتبر هذه القطائع أول ما اختط في سر من رأى • وهو بهذا الاعتبار شارع حيوي للمدينة ، بل هو شريان حياتها الاقتصادية لأن جميع السفن التي تحمل اليها البضائع والمؤن تفرغ حمولتها على الفرض القائمة عليه ، وكذلك تحمل منها الحاصلات والبضائع التي تنقل الى مدن اخرى •

ويلي شارع الخليج شرقا الشارع الرئيس في المدينة وقد عرف اول الأمر بشارع السريجة ، ثم اطلق عليه اسم الشارع الاعظم ، لأنه كان اطول شوارع سامرا واعرضها • فقد امتد من آخر البناء من قطيعة اشناس شمالا حتى آخر البناء في قطيعة الافشين في المطيرة غربا بحيث كان طوله في عهد المعتصم (١٩) كيلومترا تقريبا

---

(٨٢) Cresswell . Ashort Account of Muslim Arcitecture , P: 260

وكانت(٨٣) تقطعه دروب وشوارع عرضية من جهة الشرع الى شارع ابي احمد بن الرشيد ، وتنفذ الى شارع الخليج على دجلة غربا • وقد قامت على جانبيه بعض القطائع السكنية • منها قطيعة اسحاق بن يحيى بن معاذ رئيس حرس المعتصم بالله ، وقطائع عدد من القواد من غير الأتراك، كالقواد العرب والمغاربة والخراسانيين، مثل عجيف بن عنبسة ، والحسن بن علي المأموني ، وحزام بن غالب الذي كان يتولى شؤون الاصطبلات بظهر قطيعته ، وهاشم بن بانيجور ، وهارون بن نعيم • بحيث كان لكل منهم قطيعة خاصة به وباصحابه • ثم القطائع الخاصة بكبار الخدم مثل مسرور سمانة وقرقاس وثابت •

كما كانت تقع على هذا الشارع المباني الخاصة ببعض مؤسسات الدولة مثل ديوان الخراج ، والخزائن الخاصة والعامه ، ومجلس الشرط ، والمسجد الجامع الذي لم يزل يجمع فيه الى ايام المتوكل على الله ، والحبس الكبير ، ودار الرقيق ، والسوق العظمى وقد بنيت منعزلة عن المنازل وفيها قسم خاص لكل تجارة منفرد عن غيره • كما كان هناك سوق لأهل كل مهنة بحيث لا يختلطون بغيرهم من اصحاب المهن الاخرى •

وقامت كذلك على جانبي هذا الشارع اعداد كبيرة من منازل الناس ، وقد بنوا اسواقهم فيه لمختلف البياعات والصناعات والتجارات • وهكذا كانت العمارات والقطائع والمنازل والاسواق تمتد على جانبي هذا الشارع ، وبينه وبين شارع الخليج من جهة الغرب ، وبينه وبين شارع ابي احمد من جهة الشرق • ويبدو من تخصيص بعض القطائع الواقعة على جانبي هذا الشارع للقواد من

---

(٨٣) رتي سامراء ١/٦١ واشناس والافشين من كبار قواد المعتصم بالله وسيرد ذكرهم في الفصل الاول من الباب الرابع ، وفي الفصل الثاني من الباب الثامن •

غير الاتراك ولأصحابهم ان المعتصم بالله لم يحرص على عزلهم اسوة بما فعله بقطائع الجند الاتراك ، فقد اسكن بينهم خليطا من الناس ٠

ويمتد شرقي الشارع الأعظم الشارع المعروف بشارع ابي احمد بن الرشيد ، وسمي هذا الشارع باسمه لان قطيعته كانت في وسطه ٠ وقد قامت عليه قطائع للوزراء والقضاة والكتاب وسائر الناس ٠ اذ كانت تقوم في آخره مما يلي الوادي الغربي المسمى بوادي ابراهيم بن رباح ، قطيعة قاضي القضاة احمد بن ابي دؤاد ، وقطيعة الوزير الفضل بن مروان ، وقطيعة الوزير محمد بن عبدالملك الزيات ، وقطيعة ابراهيم بن رباح بن شبيب الجوهري من كبار الكتاب ٠ ويتضح من هذا ان شارع ابي احمد خصص لسكنى الوزراء والكتاب والقضاة وغيرهم من كبار موظفي الدولة ٠

وبالاضافة الى الشوارع الثلاثة مارة الذكر كان هناك شارعان آخران يمتدان الى الشرق من شارع ابي احمد وموازيان له ، الاول شارع الحير الأول الذي يمتد من الوادي المتصل بوادي اسحاق بن ابراهيم في الجنوب حتى وادي ابراهيم بن رباح في الشمال . وقد قامت فيه قطائع اخلاط الناس ، والثاني هو شارع برغامش التركي واوله من المطيرة عند قطائع الافشين ويمتد شمالا الى الوادي المتصل بوادي ابراهيم بن رباح ٠ واقيمت في هذا الشارع قطائع للاشروسنية والفراغنة ، ولكل منهما دروبه المنفردة لا يخالطهم فيها احد من الناس ٠ فالاتراك في الدروب التي في القبلة . والفراغنة بازائهم في الدروب التي في ظهر القبلة ٠ وقد سمح للفراغنة بمجاورة الأتراك لقربهم منهم في بلادهم (٨٤) ٠

---

(٨٤) مروج الذهب ٤/٥٥ ٠

عزل مساكن الأتراك :

لقد افردت قطائع الأتراك عن قطائع الناس جميعا بحيث جعلوا منعزلين عن غيرهم ، ولا يختلطون باحد ولايجاورهم احد سوى الفراغنة • فقد اقطع المعتصم بالله اشناس الموضع المعروف بالكرخ ، ويقال له كرخ سامرا تمييزاً عن كرخ بغداد وهو المحلة التي في الجانب الغربي من بغداد • كما كان يسمى كرخ باجدا ، وكرخ جدان ايضا (٨٥) ، وتقع على بعد عشرة اميال شمالي سامرا(٨٦) • وضم اليه عدداً من قواد الأتراك ورجالهم وامره ان لا يسمح لقريب بمجاورتهم ، كما انزل بعضهم في الدور المعروفة بدور العرباني (٨٧) •

واقطع الأفشين حيدر بن كاوس الاشروسني في المطيرة في آخر البناء مشرقا ، وضم اليه اصحابه من الاشروسنية وغيرهم من الأتراك ، وامره ان يبني هناك سويقة فيها حوانيت للتجار مما لابد منه ، ومساجد وحمامات • كما اقطع الحسن بن سهل بين آخر الاسواق والمطيرة • ولم يكن في ذلك الموضع يومئذ شيء من العمارات ، الا ان المنطقة ما لبثت ان عمرت واستد بناء الناس فيها من كل ناحية حتى اتصل البناء بالمطيرة • واقطع خاقان عرطوج واصحابه مما يلي قصر الجوسق الخاقاني وامر ان يضم اصحابه اليه • واقطع وصيفا واصحابه مما يلي الحير •

ولكي يؤمن المعتصم بالله عزلة الجند الاتراك عن غيرهم اشترى لهم الجواري وزوجهم بهن ، ومنعهم من ان يتزوجوا من احد من المولدين ، الى ان ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم من بعض • واجرى

---

(٨٥) المشترك وضعا / ٣٦٨ ـ ٣٦٩ •
(٨٦) بلدان الخلافة الشرقية / ٧٤ •
(٨٧) معجم البلدان ٣/١٧٥ •

لحواري الاتراك ارزاقا قائمة ، واثبت اسماءهن في الدواوين ، ولم يكن احد منهم يستطيع ان يطلق امرأته ٠

انتقال المعتصم بالله الى سامرا :

ليس هناك تاريخ معين لانتقال المعتصم بالله الى عاصمته الجديدة سامرا سوى ما ذكره اليعقوبي بقوله « وانتقل الرجوع والجند والقواد واهل النباهة من سائر الناس مع المعتصم الى سر من رأى في سنة ثلاث وعشرين ومائتين »(٨٨) ٠ الا ان اتفاق المصادر الرئيسة على تاريخ بداية بناء المدينة في سنة (٢٢١هـ) كما اشرنا ، وقياسا على سرعة بناء مدينة المعتصم على القاطول ، كما ذكرناه في فصل آخر ، يمكن القول ان الانتقال تم في خلال سنة (٢٢٢هـ) ٠ ومما يؤيد هذا ان اقدم خبر ذكرت فيه سامرا كحاضرة للخلافة هو قدوم الأفشين ببابك الخرمي واخيه على المعتصم بالله بسامرا ليلة الخميس لثلاث خلون من صفر سنة (٢٢٣هـ)(٨٩) ٠ وذلك يعني ان الخليفة قد استقر في عاصمته الجديدة خلال الأشهر القليلة التي سبقت هذا التاريخ ، اي في بحر السنة (٢٢٢هـ) ٠

ويقول اليعقوبي ايضا : « واتسع الناس في البناء بسر من رأى اكثر من اتساعهم ببغداد ، وبنوا المنازل الواسعة ٠ وبلغت غلة ومستغلات سر من رأى واسواقها عشرة الاف الف درهم »(٩٠) ٠ ويقول المسعودي : « وتسامع الناس ان دار ملك قد اتخذت فقصدت واجهزوا اليها من انواع الامتعة وسائر ما ينتفع به

(٨٨) كتاب البلدان / ٢٥٤ ٠

(٨٩) الطبري ٩/٥٢ ، ومروج الذهب ٤/٥٦ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٤ والعيون والحدائق ٣/٣٨٨ ٠

(٩٠) كتاب البلدان / ٢٦٣ ٠

الناس » (٩١) . ويقول ياقوت الحموي : « فعمر الناس حول قصره حتى صارت اعظم بلاد الله »(٩٢) .

ان انتقال عاصمة الدولة بدواوينها الى المدينة الجديدة ، مع الخليفة ورجاله وحاشيته ، ونقل الجيش بعدده وعدته اليهـا ، استلزم انتقال جميع الموظفين ومن يتعلق بهم كذلك . وكما أقدم الخليفة نفسه اول الأمر الى سامرا كثيرا من اصحاب الاعمـال والحرف والتجارات وغيرهم ممن كانت الحاجة ماسة اليهم في أثناء بناء المدينة، فقد اخذ آخرون من اصحاب هذه الأصناف يفدون اليها للعمل فيها لسد حاجة السكان المتزايدين . ولا يخفى ان قرب سامرا مما يؤتى به من الميرة والمؤن من الموصل وبعربايا وسائـر ديـار ربيعة في السفن في دجلة ساعد على تموين المدينة وباسعار مناسبة مما يسر العيش فيها . فتقاطر الناس على اختلاف طبقاتهم اليهـا بعيالهم واهليهم مستفيدين من اقطاعهم الاراضي لبناء المنـازل ومن توفر الأسواق وفرص العمل .

توسع العمران في الجانب الغربي :

لما فرغ المعتصم بالله من البناء في الجانب الشرقي من سر من رأى وفق التخطيط الذي وضعه المهندسون لها ، وتقاطرت افـواج الناس من مختلف البلدان للسكن فيها بعد ان استقر بها الخليفـة واصبحت عاصمة الدولة العربية بدلا من بغداد ، اتسعت الابنيـة وازداد عدد السكان فيها . فظهرت الحاجة الى مزيد من المياه سواء للشرب او للزراعة وسقي الجنائن والبساتين . وبالنظر لأن هـذا الجانب من النهر ترتفع اراضيه عن مستوى مياه النهر ، فقـد

---

(٩١) مروج الذهب ٤ / ٥٥ .
(٩٢) معجم البلدان ٣ /١٧٥ .

كانت مياه الشرب تحمل اليهم من دجلة على البغال والابل ، لأن الآبار بعيدة الرشا لارتفاع الأرض ، ثم ان ماءها مالح غير مستساغ ، مما تعذر معه انشاء البساتين والمزارع بنطاق واسع يتفق وسعة المدينة وحاجتها • ولهذا اتجهت انظار الخليفة الى الضفة المقابلة (الغربية) من نهر دجلة • فهي ارض منخفضة يسهل حمل الماء اليها ويمكن التوسع في زراعتها • فعمد الى شد جسر يوصل بين الجانبين • وقد اقيم هذا الجسر في مركز المدينة تقريبا امام القصر الهاروني الذي بناه هارون بن المعتصم بالله فيما بعد • ويظهر انه كان من الجسور ذوات العقود ، اي كان ثابتا مبنيا بالحجارة •

لقد شجع ذلك بعض الناس على الانتقال الى الجانب الغربي من نهر دجلة والعمل هناك • فحفروا الجداول السيحية وشقوا الترع وانشأوا عليها المزارع والبساتين ، فقامت فيها القرى العديدة • وكانت هذه الجداول تتفرع من نهر الاسحاقي الذي امر المعتصم بالله بحفره لأرواء الأراضي الواقعة على هذا الجانب من النهر ارواء سيحيا • ونهر الاسحاقي هذا يستمد مياهه من دجلة في موضع يقع جنوبي تكريت بقليل ، فيجري امام سامرا من الغرب بموازاة نهر دجلة • وهو نهر قديم كان يمتد حتى منخفض عقرقوف في غربي بغداد ، حفره قدامى العراقيين ، الا انه كان قد اهمل فاندرس • فأمر المعتصم بالله صاحب شرطته اسحاق بن ابراهيم بان يتولى الأشراف على احياء القسم الاعلى منه الممتد بين تكريت وجنوبي سامرا ، ولذا عرف بالاسحاقي •

وقد قسم نهر الاسحاقي الى فرعين شمالي معسكر الاصطبلات ، الشطر الغربي ويسير جنوبا وسط الاراضي التي بين دجلة والفرات الى مسافة تقرب من (٤٠) كيلومتراً ثم تضيع معالمه في رمال الصحراء • والشطر الشرقي ويسير بموازاة السور الخارجي الغربي

لمسكر الاصطبلات ، وبعد ان يسير مسافة (٣٠) كيلومتراً تقريبا نحو الجنوب الشرقي يصب في مجرى نهر الدجيل القديم(٩٣) • فصار نهر الاسحاقي بما يحمله من مياه وفيرة محور العمران في الجانب الغربي من مدينة سامرا •

يقول اليعقوبي في وصف التوسع الذي احدثه هذا النهر : « فانشأ هناك العمارات والبساتين والأجنة ، وحفر الانهار من دجلة وصير الى كل قائد عمارة ناحية من النواحي • وحمل النخل من بغداد والبصرة وسائر السواد ، وحملت الغروس من الجزيرة والشام والجبل والري وخراسان وسائر البلدان • فكثرت المياه في هذه العمارة في الجانب الغربي(٩٤) بسر من رأى • وصلح النخل ، وثبتت الاشجار ، وزكت الثمار ، وحسنت الفواكه ، وحسن الريحان والبقل • وزرع الناس اصناف الزرع والرياحين والبقول والرطاب ، وكانت الأرض مستريحة الوف سنين • فزكا كل ما غرس فيها وزرع بها حتى بلغت غلة العمارات بالنهر المعروف بالاسحاقي وما عليه والايتاخي والعمري والعبد الملكي ودالية ابن حماد والمسروري وسيق والعربات المحدثة وهي خمسة قرى ، والقرى السفلى وهي سبع قرى ، والأجنة والبساتين ، وخراج الزراعة اربعمائة الف دينار في السنة • وبنى المعتصم العمارات قصوراً وصير في كل بستان قصراً فيه مجالس وبرك وميادين ، فحسنت العمارات ، ورغب وجوه الناس في ان يكون لهم بها ادنى ارض وتنافسوا في ذلك وبلغ الجريب من الأرض مالا كبيراً »(٩٥) •

لقد انتهج المعتصم بالله في انجاز عمران عاصمته الجديدة خطة تقوم على توزيع الأعمال على كبار قواده ورجاله ، ليختص كل

---

(٩٣) لمزيد من التفصيلات عن نهر الاسحاقي ، راجع : زي سامرا ، ١/٧٩_٨٣ •
(٩٤) في الأصل : الشرقي •
(٩٥) كتاب البلدان / ٢٦٣_٢٦٤ •

منهم بجزء من عمران المدينة ويستعين على انجـــازه باصحابه واعوانه • ولا يستبعد ان القواد منهم استخدموا الجند في انجاز ما كلفوا به • فكلف بعض كبار اصحابه ببناء القصـــور ، فصيـــر الى خاقان غرطوج بناء الجوسق الخاقاني ، وامر عمر بن فرج بـــان يتولى بناء القصر المعروف بالعمري ، وكلف ابا الوزير احمد بـــن خالد ببناء القصر الوزيري • وكذلك فعل في تشييد القطـــائع السكنية والمساجد والاسواق • وقد اشرنا الى توزيعه القطائع على كبار القواد وطلبه اليهم ان ينجزوها وفق التخطيط الموضوع لها ، سواء لدور السكن او للمرافق العامـــة كالمساجـــد والســـاحات والأسواق •

وقد عمل جهده في تهيئة العمال والصناع الحرفيين . ومواد البناء ، والأموال اللازمة لتكاليف المواد واجور العاملين • وكـــان لهذا التوزيع في العمل نتائج باهرة في اسراع القواد بانجاز مـــا كلفوا به وتنافسهم في ذلك ، وفي نوعية العمل المنجز •

ولأهتمام المعتصم بالله بانجاز تأسيس المدينة باسرع ما يمكن ليتخلص من مشاكل جنـــده مع اهل بغـــداد ، وليتفرغ لشـــؤون الدولة الكثيرة الاخرى ، وبذله الاموال اللازمة لذلك ، فلا نستبعد انه قد جعل من نفسه مشرفا عاما على ذلك ، يقوم بين آونة واخرى بالتجول في الشوارع الرئيسة ليراقب سير العمل ، ويجيز العمال والمهندسين الماهرين المتفوقين باعمالهم ، تشجيعا لهـــم ولغيرهـــم للاسراع بانجاز ما كلفوا به على احســـن وجه ، ممـــا أثـــار روح المنافسة في العاملين ودفعهم الى مزيد من الجهد واتقـــان العمل • حتى تم انجاز بناء تلك القصور والقطائع والمساجد والاســـواق ، وفتح الشوارع الرئيسة والفرعية بالسرعة المطلوبة • علما انه كان قد كلف وزيره محمد بن عبدالملك الزيات بالاشراف على جميـــع ما بني بسامرا في جانبيها الشرقي والغربي (٩٦) •

---

(٩٦) الطبري ٩/ ٢٠ •

٥ ـ اسم المدينـة :

اذا تصفحنا كتب البلدانيين العرب ، وأمهات الكتب التي تعتبر مصادر التاريخ العربي ، نجد ان الاسم الغالب الذي يطلقونه على العاصمة الثانية للخلفاء العباسيين التي اسسها ثامنهم المعتصم بالله ابن هارون الرشيد ، هو (سر من رأى) • كما ان بعضهم يطلق عليها اسم (سامرا) • فان ابا جعفر محمد بن موسى الخوارزمي المتوفى سنة (٢٣٢هـ) ذكرها باسم (سر من رأى) في موضعين من كتابه(٩٧) • ويعتبر اقدم من ذكر المدينة من البلدانيين بهذا الاسم وكان قد عاصر تأسيسها • وكذلك اطلق عليها هذا الاسم ابن خرداذبة أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله المتوفى سنة (٢٨٠هـ) في كتابه المسالك والممالك حينما وردت في تضاعيفه •

وان احمد بن اسحاق اليعقوبي المتوفى سنة (٢٩٢هـ) الذي يعتبر ما ورد عن سامرا في كتابه (كتاب البلدان) اوفى ما وصلنا من النصوص القديمة عنها ، من حيث اسباب اختيـار موقعهـا ، وخططها ، وجهود المعتصم بالله في بنائها ، وتوسعها في عهد ابنيه الواثق بالله والمتوكل على الله ، يستعمل نفس الأسم (سر من رأى) في كتابه المذكور ، وفي كتابه الآخر (تاريخ اليعقوبي)(٩٨) •

اما ابو اسحاق الاصطخري ابراهيم بن محمد المتوفى سنة (٣٤٦هـ) فيسميها (سر من رأى) ايضا في النبذة المختصرة التي ذكرها عنها في كتابه(٩٩) • وفعل مثله ابو القاسم محمد بن حوقل النصيبي في كتابه عند ذكره نبذة عنها في اثناء كلامه عن مدن

---

(٩٧) كتاب صورة الارض / ٢١ و١٢٩ •
(٩٨) كتاب البلدان / ٢٥٥ ـ ٢٦٨ ، وتاريخ اليعقوبي ٢ـ٤٧٤ ـ ٥١١ •
(٩٩) كتاب الاقاليم / ٤٨ •

العراق (١٠٠) . وكذلك فعل الشابشتي ابو الحسن علي بن محمد المتوفى سنة (٣٨٨هـ) فانه يقتصر على استعمال اسم (سر من رأى) حيثما وردت في كتابه(١٠١) .

على ان المقدسي البشاري محمد بن احمد المتوفى سنة (٣٨٠هـ) ذكرها في كتابه باسم (سامرا) عند كلامه عن اقليم العراق . الا انه يشير الى انها عندما زاد فيها المتوكل وصارت عجيبة حسنة سميت (سرور من رأى) ثم اختصرت فقيل (سر من رأى) ولما خربت سميت (ساء من رأى) ثم اختصرت فقيل (سامرا)(١٠٢) . مما يوحي ان اسم سامرا اطلق عليها بعد ان اهملت وخربت ، وهو قول يخالف الواقع . وقد ذكرها الهمداني احمد بن محمد المتوفى سنة (٢٩٠هـ) باسم (سر من رأى) في كتابه (١٠٣) .

اما المؤرخون فأن اقدمهم ابن قتيبة عبدالله بن مسلم المتوفى سنة (٢٧٦هـ) يطلق عليها اسم (سر من رأى) عندما يتكلم عن المعتصم وخروجه الى بنائها في كتابه (المعارف)(١٠٤) . بينما يستعمل الطبري محمد بن جرير المتوفى سنة (٣١٠هـ) اسم (سامرا) حيثما ورد ذكرها في الجزءين التاسع والعاشر من كتابه (الرسل والملوك) . ويسميها البلاذري احمد بن يحيى المتوفى سنة (٢٧٩هـ) اي في سنة الانتقال منها والعودة الى مدينة السلام ، وقد عاصرها عند تأسيسها (سر من رأى) (١٠٥) ، ايضا .

وقد استعمل المسعودي علي بن الحسين المتوفى سنة (٣٤٦هـ) الاسمين للمدينة في مؤلفيه : التنبيه والاشراف ، ومروج الذهب .

---

(١٠٠) صورة الارض لابن حوقل / ٢١٨ .
(١٠١) الديارات / ٣٨ و٧٩ و١٠٥ و١٤٩ و١٩٠ .
(١٠٢) احسن التقاسيم / ١٢٢ – ١٢٣ .
(١٠٣) مختصر كتاب البلدان /١٨ و ١٢٥ و٢٥٣ .
(١٠٤) المعارف / ٣٩٢ .
(١٠٥) فتوح البلدان / ٢٩٥ .

فانه ينهج في الكتاب الأول نهج البلدانيين ويطلق عليها اسم (سر من رأى) عندما يذكر ابتداء المعتصم بالله ببنائها ويقول انه هو سماها به(١٠٦) • غير انه في كتابه الثاني يستعمل اسم (سامرا) عند اشارته الى الموضع الذي اختاره المعتصم بالله للبناء فيه ويفسر معناه والأصل الذي اشتق منه ، ثم يستمر باستخدام هذه التسمية كلما ورد ذكره للمدينة في الكتاب عدا بعض المناسبات فقد استخدم الأسم الأول(١٠٧) •

الا ان طاهر بن مطهر المقدسي المتوفي سنة (٣٥٥هـ) يقتصر على استخدام اسم (سر من رأى) في كتابه(١٠٨) • ويقتصر ابن الأثير علي بن محمد المتوفى سنة (٦٣٠هـ) على استعمال (سامرا) في الجزءين السادس والسابع من كتابه الكامل في التاريخ ، واحسبه قد اقتدى بالطبري في ذلك • ويلاحظ ان صاحب الفهرست ابن النديم محمد بن اسحاق المتوفى سنة (٤٣٨هـ) يذكرها في عدد من المواضع في كتابه باسم (سر من رأى)(١٠٩) • ويرى ابن دحية الكلبي عمر بن ابي علي المتوفى سنة (٦٣٣هـ) انها سميت (سر من رأى) لأن المعتصم لما انتقل اليها بجملته وعسكره سر كل منهم برؤيتها فقيل فيها (سر من رأى) ولزمها هذا الاسم ، وقد غيرته العامة فقالوا (سامرا)(١١٠) • وهذا يتفق وما يراه ياقوت الحموي الذي يقول ان اسمها (سر من رأى) فخففها الناس وقالوا سامرا(١١١) • وينقل عن الزجاجي قوله : « كان اسمها قديما ساميرا سميت بسامير بن نوح كان ينزلها لأن اباه اقطعه اياها فلما استحدثها

---

(١٠٦) التنبيه والاشراف / ٣٠٥ و٣٠٦ و٣٠٩ •
(١٠٧) مروج الذهب ٤/٤٦ و٥٦ و١١٤ •
(١٠٨) البدء والتاريخ ٣/١١٤ و١٢٢ •
(١٠٩) الفهرست / ٢٣٦ و ٢٧٧ •
(١١٠) النبراس / ٦٥ •
(١١١) معجم البلدان ٣/١٧٣ •

المعتصم سماها سر من رأى (١١٢) • على انه نفسه يذكرها باسم آخر هو (سراء) ويقول انه اسم من اسماء سر من رأى مدينة المعتصم (١١٣) •

ويرد الحريري ابو محمد علي بن القاسم المتوفى سنة (٥١٦هـ) على من يسميها سامرا ، ويرى ان الصواب هو ان تسمى سر من رأى ، على ما نطق بهما في الأصل ، لأن المسمى بالجملة يحكي على صيغته الاصلية ، وان المعتصم حين شرع في انشائها ثقل ذلك على عسكره فلما انتقل بهم اليها سر كل منهم برؤيتها فقيل سر من رأى ولزمها هذا الاسم ، وهو يرى ان تغيير الشعراء الاسم المذكور انما هو لاقامة الوزن وتصحيح النظم (١١٤) •

من هذا يتضح ان الاسم الغالب على المدينة في مؤلفات القدامى من البلدانيين والمؤرخين هو سر من رأى • ويرجح ان تغلب هذا الاسم يعود الى ان المعتصم بالله هو الذي سماها به (١١٥) • ومن ثم اصبح الاسم الرسمي لها • وقد سماها بعضهم سامرا • على ان هناك اسماء اخرى اطلقت على المدينة في ثنايا كثير من كتب الأدب وبخاصة في الشعر • وقد لخص ياقوت تلك الاسماء ، فقال «سامراء» لغة في سر من رأى • وفيها لغات سامراء ممدود ، وسامرا مقصور ، وسر من راء ، وسراء مهموز الآخر ، وسر من راء مقصور الآخر » (١١٦) واستشهد على ذلك بأبيات من الشعر •

---

(١١٢) نفس المصدر / ٢١٥ •
(١١٣) المشترك وضعا / ٢٤٣ •
(١١٤) درة الغواص / ١٨٠ ـ ١٨١ •
(١١٥) فتوح البلدان / ٢٩٥ ، والتنبيه والاشراف / ٣٠٩ ، ومعجم البلدان ٢١٥/٣ •
(١١٦) معجم البلدان ١٧٣/٣ •

اما سبب تسميتها فيروي ياقوت ثلاثة اقوال في ذلك • الأول انها كانت مدينة عتيقة تحمل اليها الاتاوة التي كانت موظفة للفرس على الروم ، وقد استدل على ذلك من اسم المدينة ، لأن (سا) اسم الاتاوة و (مرة) اسم العدد ، والمعنى انه مكان لقبض الجزية • والقول الثاني ان سام بن نوح كان يصيف بالقرية التي ابتناها ابوه عند خروجه من السفينة ببازيدى وسماها ثمانون ، ويشتو بأرض جوخي ، وكان ممره من ارض جوخي الى بازيدى على شاطىء دجلة من الجانب الشرقي ، فسمي ذلك المكان (سام راه) يعني طريق سام • والقول الثالث انها مدينة بناها سام بن نوح . او انها بنيت له فنسبت اليه وقيل سام راه (١١٧) •

ان القول صاحبه فارسي يحاول ان يربط كل حدث او موضع باكاسرة الفرس ، وهو قول واضح البطلان ، لأن الادعاء بان الروم كانوا يدفعون اتاوة للفرس امر مشكوك فيه ، وحتى اذا ما كان ذلك قد وقع فعلاً فان الموضع المذكور لا يصلح ان يكون مكان اتصال بين الدولتين المذكورتين ، لأنه لا يقع على الحدود الفاصلة بينهما • ويبدو ان صاحب القول اراد ان يستنتج تاريخ المدينة من تحليل اسمها المركب ففسره بما ذهب اليه هواه ، ففاته الصواب لأنه تفسير عقيم (١١٨) • واما القولان الثاني والثالث فانهما الى الاساطير اقرب لأنهما ينقصهما السند التاريخي ، وهما كالقول الأول محاولة لاستنتاج سبب تسمية المدينة من تحليل اسمها ، ولو كان ذلك من باب الظن والوهم •

وهناك من يرجح ان اسم موضع سامرا مشتق من اسم مستوطن قديم عرفه الآشوريون والبابليون باسم (سومورم Sumurum) او باسم (سورمارتا ــ Su-ur-mar-ta) وكان موضعا مهما في

---

(١١٧) نفس المصدر / ١٧٣ ــ ١٧٤ •

(١١٨) موسوعة العتبات المقدسة ــ قسم سامراء ١ / ١٣ •

العهد الذي سبق الفتح العربي ، وقد التقى فيه الجيش الساساني بالجيش الروماني بعد مقتل الانبراطور جوليان في عام ٣٦٣م وتراجع الجيش الروماني ، وقد دون اخبار هذه المعركة المؤرخ اميانوس مرسيلينوس الذي رافق الحملة وذكر هذا الموضع باسم (سوميره) ، وكان الجيش الروماني قد عبر عند تراجعه نهر دجلة في مكان ورد أسمه بصيغة (دورا) وهو موضع اسم الدور الآن (١١٩) .

ويقول انستاس الكرملي « اما اسم المدينة فليس من وضع المعتصم نفسه بل هو قديم في التاريخ فقد ذكره المؤرخ الروماني اميانوس مرسيلينوس الشهير الذي ولد في سنة ٣٢٠م وتوفي سنة ٣٩٠م بصورة (سومرا ـ Sumera) ، ونوه به زوسيمس المؤرخ اليوناني من ابناء المائة الخامسة للمسيح صاحب التاريخ الروماني بصورة (سوما ـ Souma آهل النقد من ابناء هذا العصر انه سقط من آخر الاسم حرفان والأصل (سومرا ـ soumara وورد في مصنفات السريان (شومرا) بالشين المنقوطة .. اما الكلمة فليست بعربية صرفة وان ذهب الى هذا الرأي كثيرون من المؤرخين والكتبة واللغويين وذلك لعتقها كما اوضحنا . وهي عندنا من اصل سامي قديم ويختلف معناها باختلاف تقدير اللفظة للصحفة عنه ، فاذا قلنا ان اصلها (شامريا) فمعناها الله يحرس المدينة ، او بعبارة اخرى (المحروسة) وان قدرنا اصلها (شامورا) بامالة الالف الاخيرة فمعناها الحرس ، اي منزل الحرس او موطن الحفظة بتقدير حذف المضاف وابقاء المضاف اليه ، وهو كثير الورود في جميع اللغات السامية . وعليه يعتبر توهم ان (سامرا) تخفيف (سر من رأى) او (ساء من رأى) من قبيل الوضع » (١٢٠) .

---

(١١٩) المرشد الى مواطن الآثار والحضارة / ١١ ـ ١٢ .

(١٢٠) مجلة لغة العرب العدد (٦) من السنة الثالثة / ٧٢١ـ٧٢٢ .

وللمرحوم الدكتور مصطفى جواد رأى قريب من هذا في تخريج اسم سامرا ، فيقول : « سامرا اسم ارامي وهو في اصله مقصور كسائر الاسماء الآرامية بالعراق ، مثل : كربلا وعكبرا ، وحرورا ، وباعقوبا ··) وقد مد العرب كثيراً من هذه الاسماء الآرامية المقصورة في استعمالهم اياها ، وخصوصا ذكرها في الشعر الحاقا لها بالاسماء العربية او توهما منهم انها عربية تجمع بين المد والقصر ··· واذ كانت الآرامية فرعاً من فروع اللغة السامية الأم ، وكان الغالب على سينها ان تبدل شينا في العربية جاز ان يكون بين مادة (شمر) العربية و (سامرا) الآرامية صلة لفظية وصلة معنوية · قال الأصمعي : « التشمير : الارسال من قولهم شمّرت السفينة ارسلتها وشمّرت السهم ارسلته » وقال ابن سيده : « شمّر الشيء ارسله ، وخص ابن الاعرابي به السفينة والسهم » · فغير بعيد ان كانت (سامرا) عند الآراميين فرضة كبيرة لارسال السفن في دجلة او دار صناعة لها ، ولدجلة عندها خليج لا يزال على حاله القديمة يتبطح فيه الماء عند الزيادة » (١٢١) ·

يتبين من مختلف التوضيحات التي قدمت عن اصل تسمية موضع سامرا بهذا الاسم ان ذلك الأصل قديم يرجع عهده الى ايام الآشوريين والبابليين ، ومن الطبيعي ان يتعرض اللفظ للتحوير والتعديل بمرور الزمن وفي مختلف اللغات ، حتى استقر عند بناء المدينة في عهد المعتصم بالله الى سر من رأى وسامرا ·

٦ ـ اطلال سامرا :

تقع مدينة سامراء الحالية على الضفة الشرقية لنهر دجلة شمالي بغداد بمسافة (١٣٠) كيلومتراً · وقد بنيت على قسم من من اطلال سامرا التي اسسها المعتصم بالله واتخذها عاصمة له في

(١٢١) موسوعة العتبات المقدسة ـ قسم سامراء ١/٧ ـ ٨ ·

أواخر سنة (٢٢٢هـ)٠وهذه الاطلال تحيط بالمدينة الحالية منجميع جهاتها ، وتمتد على طول نهر دجلة ابتداء من صدر نهر الرصاصي شمالا حتى فم نهر القائم جنوبا ٠ ويبلغ طولها نحوا من اربعة وثلاثين كيلومترا ، تقع ثمانية منها جنوبي المدينة الحالية وتقع البقية شماليها ٠ ويظهر هذا الامتداد الهائل لاطلال المدينة القديمة مدى سعتها واعتداد عمرانها عندما كانت « المدينة الثانية من مدن خلفاء بني هاشم » وعاصمة الدولة العربية ٠ وقد اصاب القزويني عندما وصفها بانها « اعظم بلاد الله بناء واهلا ٠٠ ولم يكن في الأرض احسن ولا اجمل ولا اوسع ملكا منها » (١٢٢) ٠ الا أن تلك المدينة الواسعة المزدهرة التي قامت خلال فترة قصيرة ، أسرع اليها الخراب بعد أن هجرت ، ولم يبق من آثارها شاخصا اليوم ، أي بعد ما يزيد على احد عشر قرنا ، سوى القليل من بقايا المباني التي لا تزال قائمة تتحدى الزمن ٠

ويتوزع القسم المهم من الأطلال المذكورة شمالي المدينة الحالية وجنوبيها ٠ حيث تقوم في الشمال الملوية وبقايا المسجد الجامع الكبير ودار الخليفة وباب العامة وجامع ابي دلف ٠ وتقوم في الجنوب بقايا قصر بلكوارا واطلال المدينة التي بناها المعتصم بالله على القاطول ٠

ولما كانت سامرا قد توسعت ايام ازدهارها الى الجهة الغربية من نهر دجلة فان المنطقة الممتدة بين نهر دجلة ونهر الاسحاقي كانت بمثابة حدائق المدينة الكبيرة ، وقد عمرت بالبساتين والجنائن والقصور ، ولكن لم يبق شاخصا من مبانيها سوى بقايا قصر المعشوق وقبة الصليبية وقصر الجص ٠

ويضاف الى الاطلال المشار اليها من بقايا مدينة سامرا القديمة ملحقان مهمان من جهتها الجنوبية هما بقايا القادسية الواقعة بين

---

(١٢٢) آثار البلاد واخبار العباد / ٢٥٨ ٠

نهر دجلة ونهر القائم ، وبقايا الاصطبلات المقابلة للقادسية في الجانب الغربي من المدينة .

أما بقية الاطلال فهي أسوار وآكام ترابية مبعثرة في جميع الجوانب ، وأهم الاسوار التي لا تزال ماثلة سور عيسى وسور اشناس وسور القصر الجعفري . وتتكون الأكام بصورة عامة من بقايا أسوار الدور والقصور وزوايا غرفها وقاعاتها . وتتسلسل آكام الاسوار على خطوط مستقيمة تدل على استقامة شوارع المدينة القديمة ، كما تتوزع بقايا زوايا الدور والقصور في كثير من المحلات حول ساحات صغيرة وكبيرة تظهر الشيء الكثير من مخططات المباني المختفية تحتها . وتظهر آثار الشوارع القديمة الفسيحة بصورة خاصة في جوار قصر بلكوارا في الجنوب ، وبعد سور اشناس في الشمال ، اذ يظهر جليا ما كان يسمى بالشارع الاعظم الذي يبقى اتجاهه مستقيما الى مسافة سبعة كيلومترات ، وتظهر على جانبيه سلسلة منتظمة من الشوارع الفرعية التي يبلغ عرض بعضها خمسين مترا . كما تظهر في الآكام المتراكمة على جانبي الشارع الأعظم مخططات الدور والاسواق التي يستطيع المشاهد ان يتبين حدودها وتقسيماتها الاساسية . كما تظهر في أقصى الشمال بعض بقايا مدينة المتوكلية التي اسسها المتوكل على الله في آواخر ايامه .

ان الصور الجوية التي اخذت لأطلال سامرا تظهر اتجاهات الشوارع وتقسيمات الدور والقصور بوضوح تام ، يدل على براعة هندسية فائقة في تخطيط المدينة من حيث سعة شوارعها واستقامتها ، وتوزيع الأبنية العامة والمساجد والأسواق ودور السكن ، وتنسيقها لمدينة كاملة مع ما تحتاجه من ساحات وملاعب ومتنزهات(١٢٣) .

---

(١٢٣) راجع عن اطلال سامرا : الاثار القديمة العامة ـ سامراء/٩ ـ ١٠ .

وقد بدأ الاهتمام باطلال سامرا منذ اواسط القرن التاسع عشر • غير ان التنقيب فيها لم يبدأ الا بعد انتهاء العقد الأول من القرن العشرين • فقد قام المهندس هنري فيوله ـ henry Viollet

لاول مرة ببعض التنقيبات الاستكشافية في دار الخليفة خلال صيف سنة ١٩١٠م • ثم اعقبه في السنة التالية الآثاري الالماني هرزفيلد ـ herzfeld على رأس بعثة علمية ، فقام بتنقيبات واسعة استمرت حتى نشوب الحرب العالمية الاولى • وشملت هذه التنقيبات دار الخليفة وقصر بلكوارا والمسجد الجامع وتل العليق ، مع نحو خمس عشرة دارا من دور السكن الخاصة ، بالقرب من المدينة الحالية • وكانت الآثار التي عثرت عليها بعثة هرزفيلد خلال هذه التنقيبات قد وضعت في صناديق بقيت في سامراء خلال الحرب المذكورة ، ولما ابتليت البلاد بالاحتلال الانكليزي نقلت تلك الصناديق الى انكلترا • وقد نشر قسم من النتائج العلمية التي حصلت من هذه التنقيبات ، ولذلك فان النتائج التي توصل اليها هرزفيلد في هذا الحقل لم يعرف عنها الا الشيء القليل (١٢٤) •

واوفدت مديرية الآثار القديمة العامة منذ سنة ١٩٣٦م عدة بعثات آثارية لاجراء مزيد من الحفريات والتنقيب في اطلال سامراء • وكانت حصيلتها معلومات غزيرة عن معالم المدينة ايام كانت عاصمة مزدهرة • وقد نشرت في سنة ١٩٤٠ نتائج التنقيبات التي قامت بها البعثات المذكورة في كتاب «حفريات سامراء ١٩٣٦ـ ١٩٣٩ » بجزءين • يقع الجزء الأول في (٥٠) صحيفة عدا الفهارس والالواح المرفقة به ، ويتناول وصفا دقيقا لما كشفت عنه التنقيبات التي اجرتها مديرية الآثار القديمة العامة في خلال مواسم السنوات المذكورة • وقد اوصلت هذه التنقيبات الى معرفة مخططات قصر كامل هو قصر الجص في الموقع المعروف باسم الحويصلات ، وثلاث دور

---

(١٢٤) حفريات سامراء (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) ١/ ٤ •

سكنية كاملة ، ومخططات القسم الأكبر من غرف ثماني دور اخرى ·
ويقع الجزء الثاني في (١٦) صحيفة عدا الفهرست والالواح المرفقه به · وفيه بحث مفصل عن الآثار المنقولة التي عثر عليها في اثنــاء التنقيب في اطلال سامرا خلال المدة المشار اليها آنفا ، وقد تضمن اوصافها والوانها ومميزاتها الاخرى ·

كما اصدرت المديرية المذكورة في سنة ١٩٤٠ كتابا آخــر بعنوان «سامراء» تضمن بحوثا عن مدينة سامرا الحالية ، وعــن اطلال المدينة القديمة ، مع مجمل لتأريخها وخلاصة وافية عمــا توصل اليه الآثاريون عن اهم الآثار التي لا تزال بقاياها شاخصة حتى اليوم كالمسجد الجامع والملوية ودار الخليفة وباب العـامـة والسراديب الملحقة بدار الخليفة ، وساحة اللعب وحلبة الســباق وساحة الفروسية وتل العليق ، وجامع ابي دلف ، وقصر بالكوارا ، والقصر الهاروني ، وقصر المعشوق ، وقبة الصليبيــة ، وســور القادسية ، والاصطبلات ، والمقبرة القبتاريخية ·

ان اطلال مدينة سامرا تتميز بميزة مهمة من الوجهة الآثارية · لأنها رغم اتساعها الهائل ، تعود الى عهد معين محدود لم يســبقه دور بناء اقدم منه ، كما انه لم يتبعه دور بناء احدث منه · اذ ان جميع الاطلال الممتدة من النهر الرصاصي شمالا حتى صدر نهر القائم جنوبا ، على طول لايقل عن اربعة وثلاثين كيلومترا ، هي بقايا مدينة سامرا التي شيدت واتسعت بسرعة خارقة ، ثم هجرت بغتة فاندرست بسرعة هائلة ايضا ، اذ لم تعش غير حقبة قصيرة تزيد قليلا عن نصف قرن ، تعود الى دور محدد معين · وهو مما يندر مصادفته في تاريخ الآثريات ·

الفصل الثاني

منشآت المعتصم بالله في سامرا

سنستعرض فيمايلي اهم منشآت المعتصم بالله في مدينة سامرا، مما لايزال قسم من اطلالها ماثلا حتى اليوم ، او ورد ذكر عنها في مصادر التراث العربي ·

١ ـ دار الخليفة (دار العامة) :

كانت دار الخليفة اهم وافخم القصور التي بنيت حين تأسيس سامرا على عهد مؤسسها الخليفة المعتصم بالله · ويمكن اعتبارها اول بناية انشئت فيها · وهي تقع على شارع السريجة او الشارع الأعظم · ودار الخليفة هي دار العامة التي يجلس فيها ايام الأثنين والخميس · وقد بنيت في موضع الدير الذي ابتاعه المعتصم بالله قبل شروعه في انشاء سامرا(١) · ويبلغ طول واجهتها من جهة النهر (٧٠٠)م ، اما المسافة بين بابها ومنتهى بناياتها الخلفية فلا تقل عن (٨٠٠)م ، وذلك بصرف النظر عن الحديقة الفسيحة التي كانت تمتد امامها حتى شاطيء النهر على طول (٦٠٠)م · «وكانت دار الخلافة وما يتصل بها كأنها لكبرها مدينة قائمة بذاتها»(٢) ·

---

(١) كتاب البلدان / ٢٥٥ ·

(٢) الحضارة الاسلامية ٢/١٧٦ ·

وقد لاحظ اطلال هذا القصر العظيم المهندس المعماري الفرنسي فيوله ـ Viollet في سنة ۱۹۰۹م ورسم مخططا تقريبيا للمعالم التي رآها حينئذ • كما رسم صورة خيالية للقصر كما تصور حالته الأصلية ، وعلى ضوء المخطط الذي رسمه له • ومع ان الريازة التي تظهر على هذه الصورة تمعن في الخيال ولم تتقيد بالريازات المعروفة ، فان الصورة تعطي فكرة لا بأس بها عن اقسام القصر المختلفة • وجاء العالم الآثاري الالماني هرزفيلد ـ Herzfeld بعد فيوله واجرى تنقيبات وحفريات منتظمة في بعض اطلال القصر ، كشف خلالها قسميه الوسطي والجنوبي مع بعض الأقسام المتفرقة ، واظهر قاعة العرش وغرف التشريفات والحمام ودور الحريم • كما عثر على آثار كثيرة ورسوم وزخارف بديعة ومواد خزفية ثمينة • الا ان استمرار الناس على اقتلاع الآجر من جدران القصر واسسه لاستعمالها في بناياتهم لم يبق من الغرف والقاعات التي اكتشفها هرزفيلد شيئا غير الركام والانقاض الكلسية • ولم يبق ما يستلفت الزائرين بين اطلال القصر المذكور سوى الأواوين القائمة في مدخل القصر المطل على السهل ، والسردابين المحفوران في الجهتين الشرقية والشمالية • اما بقية اقسام القصر فقد اصبحت آكاما لا تظهر اوضاعها العامة الا من الصور الجوية (٣) •

الأواوين القائمة :

ان أواوين القصر التي تكوّن باب العامة من اهم المباني الشاخصة من بقايا القصر • وتتألف الجبهة من ثلاثة اواوين مدببة العقود ، الايوان الوسطي كبير ومستطيل الشكل ، طوله (١٧٫٥)م

---

(٣) سامرا لمديرية الآثار القديمة العامة / ٥٠ ـ ٥١ •

وعرضه (٨)م ، وجداراه الجانبيان يحملان عقادة مدببة ترتفع ذروتها عن الارض (١٢)م • وواجهته الامامية مفتوحة بكاملها ومطلة على السهل ، وضلعه الخلفية مسدودة بجدار شاقولي ينفتح فيه باب كبير يبلغ عرضه (٨ر٣)م وارتفاعه (٧)م اما الايوانان الجانبيان فهما اقل عرضا وعمقا من الايوان الوسطي • فان عرض واجهة كل منهما (٥ر٤)م ولا يتجاوز عمقهما (٤)م • وتكون العقادة التي تعلو الجدران الثلاثة نصف قبة • ويوجد في الجدار الخلفي باب مرتفع تعلوه نافذة ، وهو يفضي الى قاعة خلفية كبيرة مدببة العقد ، مثل عقد الايوان الوسطي • وفي جانب الايوان الشمالي باب آخر يفضي الى غرفة مربعة متصلة بغرف اخرى ظهرت جدرانها الباقية عند رفع الانقاض في سنة ١٩٣٧ • كما يوجد بجانب الايوان الجنوبي سلسلة غرف ظهرت جدرانها كذلك عند رفع الانقاض في السنة المذكورة (٤) •

كان الباب الذي يقع خلف الايوان الوسطي يؤدي الى سلسلة قاعات كبيرة توصل الى غرف الخليفة وقاعة العرش • الا ان جدران هذه الغرف والقاعات والممرات التي بينها قد اندرست تماما • وكان يوجد فوق هذه الاواوين طابق آخر لأن احد جدرانها كان قائما الى علو ستة امتار حتى عهد قريب • ويظهر هذا الجدار في الصور التي اخذت للاواوين قبل الحرب العالمية الاولى • وكانت الاواوين المذكورة مزدانة بزخارف جصية شاهد (فيوله) قسما منها في محلها • وعثر هرزفيلد على بعض منها بين الانقاض خلال تنقيباته • كما عثرت مديرية الآثار القديمة على قسم آخر عندما رفعت الانقاض لتجميل منظر الاواوين وتقوية اسس الجدران • وقد ظهرت على جدران الغرفة المتصلة بالغرفة المربعة التي اشير

---

(٤) نفس المصدر / ٥٣ •

اليها آنفا ، زخرفة جدارية بديعة نقلت الى دار الآثار العربية (٥) ٠

باب العامة :

ان الاواوين المبحوث عنها كانت بمثابة مدخل القصر ، وكانت تسمى « باب العامة » والساحة التي امام الأواوين تكون شرفة تطل على السهل ٠ وتلاحظ هناك معالم الدرج العريض الذي يصل القصر بالسهل ، والبركة الكبيرة التي كانت تبدأ من اسفل الدرج المذكور ، وتتصل من منتصف ضلعها الغربية بساقية منتظمة تمتد على طول (٤٠٠)م حتى تصل الى شاطىء دجلة (٦) ٠

وكانت الساحة الواسعة الممتدة امام باب العامة قد اتخذت ميدانا عاما كما تدل الحوادث التي جرت فيها ٠ فقد شهر بها ببابك الخرمي لما قبض عليه وجيء به الى سامرا في اوائل سنة (٢٢٢هـ) واراد المعتصم بالله ان يشهر به ويريه للناس ، فأمر بحمله على فيل من المطيرة ، حيث انزله القائد الأفشين في قصره ، الى دار العامة « فاستشرفه الناس من المطيرة الى باب العامة فأدخل دار العامة الى امير المؤمنين »(٧) فقتل صبراً ٠ كما كان يصلب بها بعض المحكوم عليهم ، فعندما مات الأفشين في الحبس « اخرجوه فصلبوه على باب العامة ليراه الناس ، ثم طرح بباب العامة مع خشبته »(٨) ٠ وكانت تنصب بها رؤوس بعض القتلى من الثوار والخارجين على الدولة ٠ فعندما قتل يحيى بن عمر الطالبي الذي خرج في الكوفة في سنة (٢٥٠هـ) « نصب رأسه بباب العامة بسامرا »(٩) ولما قتل

---

(٥) نفس المصدر / ٥٤ ٠

(٦) سامرا لمديرية الآثار القديمة / ٥٥ ٠

(٧) الطبري ٩/ ٥٢ ــ ٥٣ ، والعيون والحدائق /٣٨٨ ٠

(٨) الطبري ٩/١١٤ ٠

(٩) الطبري ٩/ ٢٧٠ ٠

القائد صالح بن وصيف في سنة (٢٥٦هـ) « حمل رأسه على قناة وطيف به ... ونصب بباب العامة ساعة ثم نحي ، وفعل به ذلك ثلاثة ايام تتابعا »(١٠) .

كما كانت تضرب اعناق المجرمين ، ويجلد بعض المغضوب عليهم بباب العامة . ففي سنة (٢٥٨هـ) « ضرب عنق قاض لصاحب الزنج كان يقضي له بعبادان ، واعناق اربعة عشر رجلا من الزنج بباب العامة بسامرا» (١١) . وعندما أمر القائد صالح بن وصيف بضرب الكاتبين احمد بن اسرائيل وعيسى بن ابراهيم ، في سنة (٢٥٥هـ) « أخرج احمد بن اسرائيل وابو نوح عيسى بن ابراهيم الى باب العامة ، فقعد صالح بن وصيف في الدار ووكل بضربهما حماد بن محمد بن حماد بن دنقش »(١٢) . ولما خالف القائد التركي كنجور في سنة (٢٥٩هـ) وكان واليا على الكوفة وقتل ، « الزم كاتب له نصراني مالا ، ثم ضرب هذا الكاتب في شهر ربيع الآخر بباب العامة الف سوط فمات»(١٣) .

وكان الباب المذكور يتخذ احيانا للتظاهر ضد السلطة . فعندما ادعى احد المشعوذين انه ذو القرنين في سنة (٢٣٥هـ) « خرج من اصحابه بباب العامة رجلان .. وزعما انه نبي »(١٤) . ولما بويع المستعين بالله في سنة (٢٤٨هـ) تظاهر عدد من مؤيدي المعتز بن المتوكل على الله ، وشهروا السلاح ، تصدى لهم الاشروسنيه من الجند ، ونفر على باب العامة عدد من المبيضة والشاكرية

---

(١٠) نفس المصدر / ٤٥٤ .
(١١) الطبري ٩/٤٩٠ ، والمنتظم ٥/٨ .
(١٢) الطبري ٩/٣٩٧ .
(١٣) الطبري ٩/٥٠٢ .
(١٤) الطبري / ١٧٥ ، والكامل ٧/٥٠ .

وكثروا . فشد عليهم المغاربة والاشروسنية فشتتوهم وهزموهم (١٥) .

قاعة العرش :

تتكون قاعة العرش من غرفة كبيرة وسطى مربعة الشكل محاطة باربع قاعات على شكل الحرف T . ويرجح ان الغرفة الكبيرة كانت تعلوها قبة . وقد عثر في اطلال هذه القاعة على بقايا من اطار من رخام جميل وزخارف جصية . وكانت امثال هذه القاعات التي على شكل الحرف T توجد في البيوت كذلك كقاعات للاستقبال . وعثر في هذه القاعات على بقايا زخارف جصية جميلة في بواطن الاقواس ، او مما كان يزين الجدران . وكانت توجد بين اذرع التقاطع قاعات صغرى مزينة بافاريز من الواح وبلاطات رخامية . وهناك غرفة صغيرة مزينة جدرانها بزخارف جصية ، وبها محراب ، مما يدل على انها اتخذت مسجداً للخليفة (١٦) .

جناح الحريم :

ان ما تم التنقيب عنه في القسم الخاص بالحريم من القصر اظهر انه كانت تمتد على جانبي الجناح الشرقي والجناح الغربي من هذا القسم غرف عديدة متماثلة ، اعيد بناؤها عدة مرات ، معدة للسكنى . وكلها مجهزة بالمياه بمواسير كبيرة من الرصاص ، تتصل بها انابيب بعضها من الزجاج الأزرق وبعضها من الفخار . كما ان هناك حجرات للاستحمام والغسيل ودورات للمياه . وفي

---

(١٥) الطبري ٩/٢٥٧ ، والكامل ٧/١١٧ ــ ١١٨ .

(١٦) Creswell, E. M. A. P : 263

القسم الجنوبي من هذا الجناح مقابل قاعة العرش غرفة مربعة لها اربعة ابواب واسعة ، في وسطها حوض كبير محاط بممشى طول ضلعه (٢١)م ، تحيط به اربعة اعمدة رخامية من كل جانب ٠ وهذا الحوض من الكرانيت المصري يعود الى عهد الفراعنة ٠ وكانت جدران هذه الغرفة مزينة بصور الاشخاص(١٧) ٠

الساحة الكبرى :

وهناك قاعة كبيرة اخرى في القصر ، مستطيلة يبلغ طولها حوالي (٣٨)م وعرضها (١٠ر٥)م ، تقع امام القاعدة الشرقية من قاعات العرش ، وتفتح بخمسة ابواب على ساحة واسعة مكشوفة ، طولها (٣٥٠)م وعرضها (١٨٠)م ٠ وهي محاطة بجدران من الشمال والجنوب ، ويوجد على مسافة كل عشرين مترا تقريبا برج نصف دائري شيد لاسناد هذه الجدران ٠ وهناك عدة ابواب في كل من هذين الجدارين تؤدي الى الابنية المجاورة التي كانت تستخدم كثكنات للجند من حرس القصر ، او مخازن للاسلحة وغيرها ٠ وقد زينت بعض اقسام هذه الساحة بحدائق من الازهار ، وبرك وفوارات مصنوعة من الرخام ٠

وكانت هذه الساحة الواسعة مقسمة بقناة الى قسمين : القسم الغربي وهو مبلط وتزينه نافورتان ، والقسم الشرقي وهو غير مبلط وبه عدد من القنوات الصغيرة ، يمكن ان يستدل منها على ان هذا الجزء من الساحة كان حديقة واسعة ٠

ويرى هرزفيلد انه كان في الساحة الكبرى هذه ثلاثة مساجد لم تكن محاريبها على سمت القبلة تماما (١٩) ٠

---

(١٧) نفس المصدر

(١٨) نفس المصدر ٠

(١٩) ري سامراء ١/ ٧١ ٠

السردابان :

ومن مشتملات قصر الخليفة سردابان احدهما صغير والآخر كبير • ويقع السرداب الصغير في الجهة الشرقية للساحة الكبرى باتجاه محور الايوان الكبير وعلى بعد (٦٠٠)م منه • ويسميه الناس الزندان والهبيّة ـ اي الهاوية ـ وهاوية السباع • ويتكون هذا السرداب من حفرة مربعة الشكل نقرت في الصخر ، يبلغ عمقها نحو (١٠) امتار وطول ضلعها نحو (٢١)م • وقد فتح على جدار من جدرانها الاربعة ثلاثة اواوين او كهوف نقشت على جدرانها زخارف جصية • وتتوسط الحفرة بركة كبيرة مستديرة • وينزل الى السرداب ويصعد منه بسلمين متصلين بدهليز منتظم • وكان مدخل هذا السلم يقع في غرفة جميلة زينت جدرانها برسوم قافلة من الجمال حفرت على الجبس • وهذه الغرفة جزء من المباني التي تحيط بفتحة السرداب من جهاته الاربع • والسرداب محاط بصفوف متوازية من الغرف العديدة التي يرجح انها كانت اصطبلات لدواب القصر (٢٠) •

ويمكن القول ان تسمية هذا السرداب بهاوية السباع انه كان هناك عدد من السباع بالقرب منه ، وربما انها كانت تأوي اليه . وقد ورد في الأخبار ما يؤيد ذلك • فان الخليفة المهتدى بالله امر بقتل السباع التي كانت في دار السلطان وطرد الكلاب(٢١) •

اما السرداب الكبير فانه يقع في الجهة الشمالية الغربية للسرداب الصغير ، شمالي شرقي الاواوين • وهو حفرة اكبر واعمق من الحفرة السابقة ، تحيط بها بناية مربعة الشكل كثيرة التقسيمات ، يبلغ طول ضلعها (١٨٠)م • وفي وسط ارضية هذا

---

(٢٠) سامراء لمديرية الاثار العامة / ٥٧ ـ ٥٨ •

(٢١) الطبري ٩/٤٠٦ ، والكامل ٧/٢٠٣ •

السرداب بركة مستديرة واسعة يبلغ قطرها نحو (٨٠) م تتصل بكهريز تحت الارض · وفي القسم الاعلى من السرداب عدد من الغرف الصغيرة يحيط بالجهة الداخلية من جدران البناية ، وبعضها مسقف بعقود متقاطعة · وفي الزاوية الشمالية الشرقية للسرداب آثار بناية اخرى كثيرة التقسيمات ويعتقد انها كانت الخزانة العامة (٢٢) · وقد اشار اليعقوبي الى ان الخزائن الخاصة وخزائن العامة كانت في شارع السريجة مما يلي الدار العامة (٢٣) · التي بنيت على ارض الدير التي اشتراها المعتصم بالله قبل بناء سامرا ، وصار الدير بيت المال (٢٤) · كما ذكر الطبري وابن الأثير في حوادث سنة (٢٢١هـ) ان قوما من اللصوص نقبوا بيت المال في دار العامة في جوف القصر واخذوا اثنين واربعين الفا من الدراهم وشيئا يسيرا من الدنانير (٢٥) ·

ويرى هيرزفيلد ان الابنية التي كانت في الركن الشمالي الغربي للسرداب الكبير تؤلف ثكنات الجيش ويرجح انها ثكنات للخيالة ، اما ثكنات الجند المشاة فتفصلها عنها قطعة من الارض خالية من البناء · وكانت هذه الثكنات تقع الى جانب الشارع الأعظم الذي يوصلها بالقصر ، وهي تشرف على الحديقة وشاطىء دجلة · وكانت هذه الثكنات تتألف من (٦٠٠) قاعة ينزلها نحو (٣٠٠٠) من الجنود (٢٦) ·

ويقول الدكتور سوسة ان البركتين المذكورتين في السردابين قد انشئتا على عهد المتوكل على الله ، ودليله على ذلك ان القناة التي

---

(٢٢) سامراء لمديرية الآثار العامة / ٥٨ ·
(٢٣) كتاب البلدان / ٢٦١ ·
(٢٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٢٥٥ ·
(٢٥) الطبري ٩/١٤٠ ، والكامل ٧/٢٣ ·
(٢٦) ري سامراء ١/٧١ ·

تموّنهما بالمياه انشئت في عهد الخليفة المذكور ، وهي تبدأ من نهر دجلة من فوق الدور ، وتنتهي بسامرا (٢٧) ٠

ساحة اللعب وحلبة السباق :

توجد في منتهى قصر الخليفة من جهته الشرقية وخلف السرداب الصغير او هاوية السباع ، ساحة مسورة مستطيلة الشكل يبلغ طولها (٥٣٠)م وعرضها (٦٥)م ٠ وهذه الساحة المسورة لا تقطع محور القصر بصورة عمودية ، بل تنحرف قليلا ٠ ويغلب على الظن انها كانت معدة للألعاب ولاسيما للعب كرة الصولجان التي كان يمارسها آنذاك الخلفاء والوزراء وقواد الجيش ٠ ويلاحظ في منتصف القسم الخلفي من سور هذه الساحة آثار بناية مرتفعة بعض الارتفاع ، يظهر انها كانت معدة للتفرج منها على الالعاب والمسابقات ، لانها كانت مطلة على الساحة المذكورة من جهة ، وعلى حلبة السباق التي تمتد خلف القصر من جهة أخرى (٢٨) ٠

اما حلبة السباق فكانت تبدأ من امام هذه البناية وتمتد الى مسافة خمسة كيلومترات ونصف الكيلومتر ، وتكون منحنيا منتظما مسدودا ، يبلغ طول محيطه (٥ر١١) كيلومتر ٠ وتشاهد معالم هذه الحلبة الطويلة بوضوح عند تتبع الآكام الصغيرة الممتدة خلف قصر الخليفة (٢٩) ٠

وكانت حلبة السباق مستطيلة تمتد طولا نحو جهة الشرق ، وتبدأ في اولها عند القصر ضيقة ثم تتسع تدريجيا حتى تبلغ اقصى سعتها في نهايتها (٣٠) ٠

---

(٢٧) نفس المصدر / ٧٠ ٠

(٢٨) سامرا ـ الآثار القديمة العامة / ٥٩ ٠

(٢٩) نفس المصدر ٠

(٣٠) ري سامراء ١/ ٧١ ٠

زخارف دار العامة :

ان فخامة الزخارف التي وجدت في غرف القصر وقاعاته قلما يوجد مثلها • فقد زينت معظم جدران القاعات والغرف بزخارف جصية ، اما جدران غرفة العرش فقد كانت زخارفها من الرخام المنحوت • ولوحظ ان جدران بعض الغرف مكسوة بالبلاط الرخامي • وكانت الاجزاء العليا من جدران غرف الحريم تغطيها لوحات جدارية لصور الأشخاص والحيوانات ، وقد عثر على اجزاء من تلك اللوحات •

وكانت جميع الأجزاء الخشبية كالابواب والدعامات والسقوف من خشب الصاج المنحوت والمدهون . وبعضه مذهب ، وقد عثر على كسر صغيرة من البرنز المذهب • كما وجدت كتابات محفورة على الخشب ، وعلى قسم منها اسماء صانعيها من الحرفيين بعضها بالعربية وبعضها بالسريانية او اليونانية (٣١) •

٢ ـ الجوسق الخاقاني :

عندما ارتحل المعتصم بالله من القاطول الى سر من رأى وقف في الموضع الذي فيه دار العامة وكان فيه دير للنصارى فاشترى الأرض من أهل الدير واختط فيها ، ثم صار الى موضع قصر الجوسق على دجلة وبني هناك عدة قصور(٣٢) • ويستدل من هذا ان دار العامة بنيت على ارض الدير ، ثم بني قصر الجوسق في موضع آخر على شاطىء دجلة • اي ان دار العامة والجوسق الخاقاني قصران مختلفان • الا ان الآثاري كريزويل استاذ العمارة الاسلامية في

---

(٣١) Creswell, Ibid, P : 265-266.

(٣٢) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٧٣ •

جامعة فؤاد الأول بالقاهرة اعتبر قصر العامة اسما آخر للقصر الخاقاني ، لأن ما ذكره في كتابه
Ashort Account of Early Muslim Architecture

تحت عنوان : الجوسق الخاقاني (او قصر المعتصم) انما يتعلق بدار العامة ولا صلة له بقصر الجوسق ·

لقد كان قصر الجوسق من اهم القصور التي شيدها المعتصم بالله في سامرا · وقد اختار له موضعا يقع على ضفة دجلة الشرقية جنوبي دار العامة مطلا على الحير ، ويشغل المساحة التي بين شاطيء دجلة والحير وهي مساحة واسعة جداً (٣٣) · وقد اتخذه المعتصم بالله مقراً له فسكن فيه طيلة خلافته ، ولما توفى دفن فيه (٣٤) · وقد وصف الجوسق (٤٠) · كما سكنه المعتز بالله من بعده (٤٠) ، وسكنه كذلك عرطوج ابي الفتح بن خاقان ، امور بنائه والاشراف عليه · وكان قد اقطعه واصحابه الاراضي التي تلي الجوسق(٣٥) · فبنوا فيها قصورهم ومساكنهم ·

وقد اتخذ اغلب خلفاء سامرا بعد المعتصم بالله هذا القصر سكنا لهم · فقد سكنه الواثق بالله في اول خلافته ثم انتقل الى قصره الهاروني الذي شيده ، وفيه دفن عند وفاته (٦) · وعندما كان المنتصر اميراً سكن في قصر الجوسق (٣٧) ، ولما بويع بالخلافة سكن في القصر المحدث وفيه كانت وفاته (٣٨) · ويظهر من الأحداث المهمة التي وقعت في ايام المستعين بالله انه كان يسكن في قصر

(٣٣) زي سامراء ١/٧٤ ·
(٣٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٨ ، ومروج الذهب ٤/٤٦ و ٦٣ ·
(٣٥) كتاب البلدان / ٢٥٨ ·
(٣٦) الطبري ٩/١٥١ ، والكامل ٧/٣٠ ·
(٣٧) الطبري ٩/٢١٧ ·
(٣٨) الطبري ٩/٢٥٤ ·

الجوسق (٣٩) • كما سكنه المعتز بالله من بعده (٤٠) وسكنه كذلك المهتدي بالله ، وقد تكرر ذكر الجوسق كثيرا في حوادث الخلاف الذي نشب بين الخليفة والقواد الأتراك(٤١) • كما سكن فيه المعتمد على الله اغلب ايام خلافته ، قبل ان يبني قصر المعشوق(٤٢) •

وكان المعتصم بالله قد بنى في الجوسق سجنا لحبس قائده الأفشين الذي اتهم بالتآمر والخروج على الاسلام وسماه (سجن لؤلؤة) ثم عرف بعد ذلك بالأفشين • (٤٣) • ويظهر ان هذا السجن خصص لسجن الامراء والقواد والسياسيين المغضوب عليهم • فقد حبس المستعين بالله المعتز واخاه المؤيد في حجرة الجوسق • ووكل بهما (٤٤) • وحبس المعتز بالله اخويه المؤيد والموفق في الحبس المذكور(٤٥) • ولما خرج القائد التركي كنجور وقبض عليه امر المعتز بالله بحبسه في الجوسق (٤٦) •

ولاشك في ان اطلال الجوسق وبقاياه كانت من ابرز وأوسع المواقع الأثرية في سامرا • الا ان قرب تلك الأطلال من مدينة سامراء الحالية كان اهم اسباب ازالة معالم تلك الأطلال • اذ استخرج الناس كل ما فيها من آجر ومرمر وما يصلح للبناء ونقلوه الى المدينة الجديدة التي شيدت فوق اطلال قسم من سامراء القديمة ، واستعملوه في بناء بيوتها ، وفي انشاء السور الضخم حولها • ويرجح ان جزءاً من مدينة سامراء الحالية قد بني على طرف من

(٣٩) الطبري ٢٥٨/٩ و٢٥٩ و٢٨٠ و٢٨٤ ، والكامل ١١٩/٧ و ١٢٢ و ١٣٩ و١٤٢ •

(٤٠) الطبري ٣٨/٩ ، والكامل ١٩٩/٧ •

(٤١) الطبري ٤٥٢/٩ و٤٥٥ و٤٥٧ و٤٥٩ و٤٦١ و٤٦٧ و٤٦٩ •

(٤٢) الطبري ٥٠٧/٩ و٥٤١ و٦٢٢ •

(٤٣) الطبري ١٠٦/٩ •

(٤٤) الطبري ٢٥٩/٩ و٢٨٤ ، والكامل ١١٩/٧ و١٤٢ •

(٤٥) الطبري ٣٦١/٩ •

(٤٦) نفس المصدر / ٣٧٢ •

ارض قصر الجوسق ، مما ادى الى محو معالم القصر محـواً يكاد يكون كاملا[٤٧] ٠

ومن الادلة على اهمية قصر الجوسق من حيث موقعه ومساحته بالنسبة لقصور سامرا الاخرى ، ان المكتفي بالله لما اتجهت نيته الى الانتقال الى سامرا واعادة بنائها ، وخرج اليها في سنة (٢٩٠هـ) ومعه الصناع يريد البناء بها ، ضربت له المضارب في الجوســق ، وابدى الرغبة في البناء فيه الا ان وزيره ثناه عن عزمه[٤٨] ٠

ومما يجدر ذكره ان ياقوت الحموي يذكر بين القصــور التي بناها المتوكل على الله في سامرا قصراً باسم الجوسق ، ويقــول ان المتوكل على الله انفق عليه خمسمائة الف درهم[٤٩] ٠ ويظهر مـن ذلك ان هناك قصرين باسم الجوسق ، احدهما من ابنية المعتصم بالله وهو الجوسق الخاقاني ، والآخر من ابنية المتوكل على الله انشـاه بالقرب من الجوسق الكبير ، في احدى ساحاته[٥٠] ٠

٣ ـ قصر الجص :

كان الموقع المعروف باسم الحويصلات الواقع في الجهة الغربية من نهر دجلة على بعد سبعة عشر كيلومترا شمالي محطة قطـــار سامراء الحالية ، يلفت النظر باطلاله العالية وما يتقدمه من مساحة واسعة مما يوحي بانه بقايا احد قصور خلفاء سامرا ايـــام كانت عاصمة الدولة العربية ٠ وقد لوحظ ان موقعه ينطبق على موقـــع « قصر الجص » الذي ذكره ياقوت الحموي بانه « قصر عظيم قرب سامرا فوق الهاروني بناه المعتصم للنزهة »[٥١] ٠ وقال عنه سهراب

---

(٤٧) ري سامراء ١/٧٨ ٠
(٤٨) الطبري ١٠/٩٨ ، والكامل ٧/٥٢٩ ، والمنتظم ٦/٣٨ ٠
(٤٩) معجم البلدان ٣/١٧٥ ٠
(٥٠) ري سامراء ١/٧٨ ٠
(٥١) معجم البلدان ٤/٣٥٦ ٠

في معرض كلامه عن نهر الاسحاقي « ثم يمر في غربي دجلة عليه ضياع وعمارات ، ويمر بطيرهان ، ويجيء الى قصر المعتصم بالله المعروف بقصر الجص ، ويسقي الضياع التي هناك في غربي سر من رأى»(٥٢) .

لقد استرعى الموقع المذكور اهتمام دائرة الآثار القديمة فأوفدت بعثة للتنقيب فيه في اوائل نيسان سنة ١٩٣٦ . فكشفت البعثة بما قامت به من الحفريات والتحريات عن بقايا قصر عظيم . واستطاعت ان ترسم له مخططا يوضح اقسامه ومحتوياته مع ابعادها ، على ضوء ما عثرت عليه من اسس الجدران وبقايا زواياها ، وتعرفت على المواد المستخدمة في بنائه . وقد تأكد لدى الدائرة المذكورة ان هذا القصر هو قصر الجص الذي ذكره سهراب وياقوت الحموي (٥٣) .

يتكون القصر من بناية مربعة الشكل تتوسط ساحة مسورة ، ويبلغ طول ضلع البناية (١٤٠)م . اما طول السور الخارجي فيقدر بنحو (٢٧٠)م . ويظهر من ذلك ان مساحة القصر لا تقل عن (١٩٠٠٠) متر مربع . أما مساحته مع حدائقه وساحاته وسوره الخارجي فتربو على ثلاثين ومائة الف متر مربع . وقد جرفت مياه نهر دجلة الزاوية الشمالية الشرقية من القصر وازالت معالم السور الخارجي من الجهتين الشمالية والشرقية كما ازالت الضلع الشمالية من السور الداخلي ومعظم الضلع الشرقية منه أيضا(٥٤) .

ويظهر من التخطيط الذي وضعته دائرة الآثار القديمة لما كشفته الحفريات عن بقايا هذا القصر ، انه كانت في مركز بناية

---

(٥٢) عجائب الاقاليم السبعة / ١٢٧ .
(٥٣) حفريات سامراء ١/ ١١ .
(٥٤) نفس المصدر .

القصر قاعة مربعة كبيرة طول كل ضلع من اضلاعها (١٥ر٤٠)م ، وجدرانها سميكة جداً يبلغ سمكها (٢ر٢٠)م ، ويظهر انها كانت تحمل قبة مرتفعة ، ويرجح ان قاعدة القبة كانت تحتوي على عدد من النوافذ لانارة القاعة · وتتصل هذه القاعة المركزية من اواسط اضلاعها الأربع باربع قاعات مستطيلة ، بواسطة اربعة مداخل كبيرة عرض كل مدخل منها (٣ر٦٠م) · علما ان طول القاعات المستطيلة (١٦ر٦٠)م وعرضها (٦ر٦٠)م · وكل واحدة من هذه القاعات المستطيلة تتصل بدورها من وسط ضلعها الطويل بايوان مستطيل مكشوف طوله (٧ر٨٠)م وعرضه (٦ر٢٠)م · وكل ايوان يفتح على صحن واسع مستطيل الشكل مكشوف طوله (٢١ر٨٠)م وعرضه (١٨ر٨٠)م · وينتهي كل صحن منها بثلاث غرف مستطيلة تفضي الوسطية منها الى دهليز ينتهي الى الخارج ببابين متناظرين يكونان مدخل القصر في كل جهة من جهاته الأربع · وتمتد امام البابين دكة عريضة تشرف على الساحات الممتدة بين القصر والسور الخارجي · وتوجد في طرفي كل ايوان غرفتان تفضيان الى الصحن · كما يوجد في منهى كل قاعة من القاعات المستطيلة التي تحيط بالقاعة المركزية قاعة مربعة الشكل توصل بين القاعات المذكورة بعضها ببعض · وتؤلف هذه الاقسام حول القاعة المركزية شكلاً مصلبا تام التناظر · اما المساحة الباقية بين اضلاع المصلب فينقسم كل منها الى عدة بيوت مرتبة كالآتي :

١ ـ القسم المحصور بين الصحن الشرقي والصحن الجنوبي ، اي في الجهة الجنوبية الشرقية من القصر ، فيه عشرة بيوت يتراوح عدد غرفها بين الست والثماني غرف · ويستقل كل بيت منها بمدخل خاص وحمام ودورة مياه · وتفتح مداخل بعض هذه البيوت على الممر الممتد على طول السور الداخلي للقصر ، بينما تفتح مداخل البعض الآخر على ممر خاص عمودي على السور المذكور ، وتنفذ الى القصر ·

٢ ــ القسم المحصور بين الصحن الغربي والصحن الجنوبي ، اي في الجهة الجنوبية الغربية فانها تختلف عن ذلك ، لأنها تتكون من قاعات وحمامات كبيرة عوضا عن بيوت صغيرة ٠

٣ ــ القسم المحصور بين الصحن الغربي والصحن الشمالي وهو يشبه تقسيمات الزاوية الجنوبية الشرقية والبيوت فيه متناظرة مع بيوت ذلك القسم ٠

٤ ــ القسم المحصور بين الصحن الشرقي والصحن الشمالي ، اي في الجهة الشمالية الشرقية من القصر ، فقد اندرس ، ويغلب على الظن ان تقسيماته شبيهة بالزاوية الجنوبية الغربية ٠ بالنظر للتناظر المشاهد في الأقسام المعلومة من مخطط القصر(٥٥) ٠

السور :

كان السور الذي يحيط بالقصر مدعما بمائة برج ، اربعة منها كبيرة ومستديرة ، قطر كل منها ثلاثة امتار ، والبقية صغيرة مستطيلة ٠ والابراج الصغيرة موزعة على اساس (٢٤) برجا لكل ضلع من اضلاع السور الاربع ٠ وهي منشورية الشكل طولها متران وعرضها (١ر٤٠)م ٠ ومما يلفت النظر انها منفصلة عن جدار السور بمقدار ٨٠سم ، مما يحمل على الاعتقاد بانها كانت تتصل بالجدار بواسطة عقود خاصة ٠ اما السور الخارجي فلم يكشف منه سوى برجين أثنين فقط ، قطر كل منهما ثمانية امتار ، والمسافة بينهما (٢٥) متراً(٥٦) ٠

مواد الأبنيــة :

ان الابنية الرئيسة للقصر كالبهو والقاعات والدواوين مبنية بالآجر والجص ٠ وابعاد الآجر المستعمل هي (٢٥×٢٥×٧)سم ،

---

(٥٥) حفريات سامراء ١/١٢ــ١٣ ٠

(٥٦) حفريات سامراء ١/١٤ ٠

واما سائر جدران القصر فهي مبنية بالحصى الممزوج بالجص بشكل يشبه الخرسانة • وقد استعمل في بناء الأسس النورة والرماد عوضا عن الجص • اما السور الخارجي فكان مبنيا باللبن (٥٧) •

تبليط الأرض :

بلطت ارض البهو والقاعات والأواوين بالآجر المربع الشكل ، وطول ضلع الأجرة (٣٦)سم • وحالة الآجر المستعمل تدل على اتقان كبير في صناعته ، كما ان عملية التبليط كانت قد تمت بصورة متقنة جداً • وقد بلطت سائر اقسام القصر بطبقة من الجص المخلوط بالرمل ، ويلاحظ ان هذه الطبقة الجصية قد كسيت بطبقة من القار في الحمامات ودورات المياه (٥٨) •

طلاء الجدران :

لقد ظهر للمنقبين ان الجدران كانت مطلية بطبقة من الجبس بصورة عامة • وان جدران القاعات منقوشة بزخارف محفورة في طبقة الجبس • اما جدران الغرف الصغيرة فعارية عن الزخارف ، الا انه يلاحظ ان ابوابها كانت محاطة باطارات جبسية بارزة ذات اشكال متنوعة • وقد لوحظ ان اقسام الجدران الواقعة خلف الزخارف الجبسية قد طليت بالقار ، لمنع تأثير الرطوبة عليها ، كما لوحظ ان خلف الزخارف سلسلة من المسامير مغروزة في الجدار • ولاشك في ان القصد منها ضمان ثبات التصاق الزخارف بالجدران لمنع انفصالها وسقوطها • ويمكن ان يستنتج من ذلك ان بعض تلك الزخارف كانت تعمل على قوالب خاصة اولا ، ثم تثبت

---

(٥٧) نفس المصدر •

(٥٨) نفس المصدر •

حسب الحاجة على الجدران • ومما هو جدير بالملاحظة ان استعمال هذه المسامير والقار لم يظهر خلف الزخارف التي اكتشفت في اطلال سامرا في جانبها الشرقي • وسبب ذلك ان انخفاض مستوى الأرض في الجانب الغربي من دجلة بالنسبة للضفة الشرقية ، ساعد على تكوين الحدائق والبساتين ، غير انه جعل البنايات معرضة لتأثير الرطوبة بطبيعة الحال • ويظهر ان الرغبة في التوقي من تأثير الرطوبة على الزخارف الجصية هي التي حملت البنائين على اتخاذ مثل هذه التدابير (٥٩) •

الزخارف الجدارية :

تتكون عناصر الزخارف المستعملة في تزيين جدران القصر من اوراق العنب وعناقيده بوجه عام • غير ان كيفية توزع وتعاقب هذه الاوراق والعناقيد تأخذ اشكالا متنوعة جداً • كما ان تنظيمها الهندسي يضفي عليها جمالا أخاذاً • وتحاط المنطقة المزخرفة دوما باطار جبسي يتألف من سلسلة حلقات او ضفائر مختلفة الأشكال • ومما يجدر ذكره ان الزخارف الجبسية التي ظهرت بين انقاض القصر الفوقاني مكونة من اوراق وعناقيد مثل زخارف القصر التحتاني الا انها اكثر دقة وتعقيدا • فان بعض الاوراق في هذه الزخارف تأخذ اشكالا تزيينية جميلة جداً ، حيث تكون وردات مجتمعة حول مركز واحد • كما ان العناقيد تقع في وسط الوردات وفوق الأوراق • ويستدل من تعقد الزخرفة واتقانها ان هذه البناية احدث عهداً من القصر التحتاني (٦٠) • وربما كان هذا القسم العلوي بمثابة قصر للنزهة والتفرج ، يصعد اليه الخليفة بين حين

---

(٥٩) نفس المصدر / ١٥ •

(٦٠) نفس المصدر / ١٧ •

وآخر ليشرف على ساحات القصر وحدائقه ، وعلى نهر دجلة ومدينة سر من رأى(٦١) •

٤ ـ قصور المعتصم بالله الاخرى :

كان المعتصم بالله عندما شرع ببناء مدينة سامرا طلب الى المهندسين ان يختاروا من الاراضي اصلحها وأنسبها لأنشاء عدد من القصور عليها • فاختاروا عدة مواضع ، وصير الى عدد من كبار اصحابه بناء قصر ، فصير الى خاقان عرطوج بناء الجوسق الخاقاني، والى عمر بن فرج بناء القصر الذي سمي بالعمري ، والى ابي الوزير احمد بن خالد بناء القصر الوزيري (٦٢) • وقد ذكرنا ما توفر لدينا من المعلومات عن الجوسق الخاقاني ، الا ان بقية القصور المشار اليها لم يعثر على شيء من اطلالها ، ولم يكن لها نصيب من اعمال الحفريات والتنقيب • كما اننا لا نجد عنها في مصادرنا الأولية شيئا يتعلق ببنائها او محتوياتها واوصافها سوى ذكرها عند الكلام عن بعض الأحداث التي وقعت في سامرا • فقد ورد ذكر القصر العمري في حوادث سنة (٢٢٤هـ) عندما تزوج الحسن بن الأفشين من اترنجة بنت اشناس ، اذ يقول الطبري « ودخل بها في العمري قصر المعتصم » (٦٣) • وفي حوادث سنة (٢٤٨هـ) لما بويع للمستعين بالله وثار في دار العامة جمع من فرسان الشاكرية والطبرية ومعهم عدد جم من الغوغاء والسوقة داعين للمعتز بن المتوكل على الله ، فشد عليهم المغاربة والاشروسنية ، وانصرف الأتراك ممن بايعوا المستعين بالله مما يلي العمري والبساتين (٦٤) • ويفهم من هذه

---

(٦١) نفس المصدر / ٢٠ •
(٦٢) كتاب البلدان / ٢٥٨ •
(٦٣) الطبري ١٠١/٩ •
(٦٤) نفس المصدر / ٢٥٦ ـ ٢٥٧ •

الاشارة ان القصر العمري كان في احد البساتين القريبة من دار العامة • اما عن القصر الوزيري فقد وردت في الطبري اشارتان الى « الوزيرية » ولاندري هل لهذا الموضع علاقة بالقصر المذكور • وقد ذكر المسعودي ان المعتصم بالله « لما استطاب الموضع دعا بأهل الدير فاشترى منهم ارضهم باربعة الاف دينار ، وارتاد لبناء قصره موضعا فيها فأسس بنيانه وهو الموضع المعروف بالوزيرية »(٦٥) • واولى الاشارتين في الطبري كانت عندما احصي ما في دار الأفشين بعد ادانته وكان له بعض المتاع في الوزيرية(٦٦) • وكانت الاشارة الاخرى عندما وافى القائد موسى بن بغا في رجاله للوثوب بالمهتدي بالله ، فصار الى قنطرة في ناحية الوزيرية (٦٧) •

٥ ـ معسكر الاصطبلات ونهر الاسحاقي :

ان بقايا الاصطبلات واطلالها الممتدة على الجانب الغربي من نهر دجلة ، على بعد (١٥) كيلومترا جنوبي مدينة سامراء الحالية ، هي بقايا معسكر الجيش الذي بناه المعتصم بالله في أثناء اقامته في القاطول قبل ان يؤسس مدينة سامرا ، ثم اكمله فيما بعد • ومما يدل على اقامته هذا المعسكر في تلك المدة وجود كهاريز الماء وسط مباني الثكنات تستمد مياهها من الينابيع الموجودة في منطقة الجزيرة غربي المعسكر وتوصلها الى داخله ، وذلك قبل احياء نهر الاسحاقي (٦٨) • وعندما قرر المعتصم بالله ان يترك منطقة القاطول ويتجه الى سامرا اكمل ابنية المعسكر واصطبلاته ، وبنى له سورا خارجيا متينا واحاطه بخندق من المياه •

---

(٦٥) مروج الذهب ٤/ ٥٤ •
(٦٦) الطبري ٩ / ١١٤ •
(٦٧) نفس المصدر / ٤٥٩ •
(٦٨) ري سامرا ١/ ١٠١ •

ويمكن القول ان سبب انشاء ثكنات الجيش واصطبلاته في الجانب الآخر من دجلة هو نفس السبب الذي حمل المعتصم بالله على الانتقال من مدينة بغداد والعمل على تأسيس مدينة جديدة تتسع لفصل مساكن الجند وثكناتهم عن غيرهم من الناس ، وعزل أقسام الجيش بحسب عناصرهم واسكانهم متباعدين عن بعضهم ، لكي يتلافى قيام المشاكل التي حدثت في مدينة السلام •

ويظهر ان الاغراض التي توخاها المعتصم بالله من احياء نهر الاسحاقي كانت توفير المياه للمعسكر الواسع ، وان يقيم من مجراه خندقا على محاذاة سوره الخارجي زيادة في تحصينه بهذا الحاجز المائي الذي يحول دون الوصول اليه ، وذلك بحسب القواعد العسكرية التي كانت متبعة آنذاك •

لقد دلت التنقيبات التي اجريت في اطلال معسكر الاصطبلات على انه كان يتألف من مستطيل صغير طوله (٥٠٠)م وعرضه (٢١٥)م يتصل بمستطيل كبير طوله (١٧٠٠)م وعرضه ٥٥٠م • وان المستطيل الصغير كان مقسما الى سلسلة من الأحواش • اما المستطيل الكبير فكان مقسما الى ثلاثة اقسام متساوية تفصل بينها أسوار شبيهة بالاسوار الخارجية للمعسكر • وان المربع الشرقي من هذه الاقسام كامل البناء ، اذ يشاهد فيه شارعان رئيسان يتقاطعان عند منتصفيهما باتجاه عمودي على جدران السور وعلى الشوارع الاربعة التي تمتد على طول الاسوار • وتنقسم المربعات الاربعة المتكونة على اضلاع هذين الشارعين المتعامدين الى اقسام عديدة بشوارع طولية وعرضية كلها متعامدة او متوازية • اما المربعان الآخران فأن الأوسط منهما قليل البناء ، والغربي خال من البناء لا يرى فيه سوى خطوط الشوارع (٦٩) •

---

(٦٩) سامراء لمديرية الآثار العامة / ٧٣ ـ ٧٤ •

ومن الواضح ان (الاصطبلات) كان معسكرا كبيرا يحتوي على ثكنات الجنود ودور الضباط وساحات للخيم • كما كان يضم ولاشك اصطبلات واسعة لدواب الجند ، مع ساحات للتدريب ، ومخازن للاسلحة والمؤن ، ومرافق اخرى مما تحتاجه المعسكرات عادة • فقد بنيت فيه من الثكنات ما يكفي لسكن (٢٥٠) الف جندي ، ومن الاصطبلات ما يكفي لايواء (١٦٠) الف حصان(٧٠) •

وكان يحيط بالمعسكر سور خارجي يبدأ من الشمال من حافة نهر دجلة الغربية في المكان المعروف باسم «تل بندري» ويمتد على مسافة (٢٦) كيلومترا غربي المعسكر ، ثم ينتهي جنوبا عند حافة دجلة الغربية عند التل المسمى « تل مسعود » الواقع على بعد (١٣) كيلومترا جنوبي تل بندري • وكان هذا السور محصنا بابراج عديدة في المداخل الرئيسة للمعسكر وفي المنعطفات • ومن جملة هذه الابراج البرجان الواقعان في اول السور عند تل بندري وفي منتهاه عند تل مسعود ، وكانت المياه تحيط بالمعسكر الذي تبلغ مساحته (٥٨) كيلومترا مربعا من جميع جوانبه • فنهرا دجلة ودجيل يحدانه من الشمال والشرق ، ونهر الاسحاقي يحده من الغرب والجنوب • وكان الاسحاقي اضافة الى احاطته سور المعسكر بحاجز مائي كخندق امامه ، يمون المعسكر بحاجاته من المياه • ولتحقيق هذا الغرض كانت هناك ثلاثة فروع رئيسة له تتفرع من ضفته اليسرى فتخترق المعسكر ، ثم يصب بعضها في نهر دجلة وبعضها في نهر دجيل • ويتفرع الأول وهو الشمالي من نقطة تقع على بعد كيلومترين تقريبا جنوبي شرقي المدخل الرئيس للمعسكر في القسم الشمالي من السور ، ثم يصب في دجلة • ويتفرع الاوسط من موضع يبعد حوالي كيلومترين جنوبي شرقي صدر الفرع

---

(٧٠) مختصر تاريخ العرب / ٢٤٨ •

الشمالي ويخترق السور من تحته ويتجه الى الثكنات ، وبعد أن يخترقها يصب في دجلة ايضا • وكان هناك ناظم خاص انشيء على نهر الاسحاقي جنوبي صدر هذا النهر مباشرة لحجز المياه امام الناظم وتحويلها اليه بمنسوب عال • ويشتمل هذا الناظم على ثلاث فتحات لا تزال آثارها ظاهرة • اما الفرع الثالث وهو الجنوبي فانه يتفرع جنوبي الناظم المذكور بكيلومتر ونصف تقريبا ، ويسير بين الاسحاقي وسور المعسكر ، ثم يدخل المعسكر من تحت السور ويخترق قسمه الجنوبي الشرقي ليخرج من تحته ايضا الى خارج المعسكر • وبعد ان يخترق جدار المطبك وخندقه ، وهو جدار قديم ضخم مدعم بابراج ، يتجه نحو نهر دجيل فيصب فيه على مسافة اربعة كيلومترات من مقدم مصب نهر الاسحاقي في نهر دجيل • وكما انشيء ناظم على الاسحاقي لحجز المياه امامه وتحويلها الى هذا الفرع ، فقد انشيء ناظم خاص في فوهة هذا الفرع لتنظيم المياه التي تدخل فيه • ويستدل من آثار الناظمين المذكورين ان ناظم الاسحاقي يتألف من فتحتين ، وناظم صدر الفرع يتألف من فتحة واحدة • ونظرا لسعة مساحة المعسكر ووفرة المياه فقد استعملت مساحة كبيرة منه لاحداث مراع اصطناعية لجياد الجيش ، فكانت الاراضي المخصصة للمرعى تغمر بمياه فروع الاسحاقي(٧١) •

والاسحاقي نهر قديم يعود الى عصور سحيقة ، كان في اوله يتفرع من الضفة اليمنى لنهر دجلة عند تكريت ويسير جنوبا حتى ينتهي عند منخفض عقرقوف ، بعد ان يروي القسم الأعظم من اراضي الجزيرة الممتدة بين دجلة والفرات شمالي سامرا • وقد اتت عليه عاديات الزمن فاهمل واندثر ، الا ان آثار مجراه كانت واضحة • وعندما شعر المعتصم بالله بحاجة الجانب الغربي من

---

(٧١) ري سامراء ١/٩٤ ـ ٩٩ •

سامراء الى مزيد من المياه لري المزارع والبساتين الواسعة ، اشير عليه باحياء النهر المندرس المذكور ، فكلف رئيس شرطته اسحاق بن ابراهيم الخزاعي بان يتولى الاشراف على المشروع ، فانفق عليه كثيراً من المال حتى عادت اليه الحياة ، وعادت المياه تجري فيه ، ولذا سمي النهر الجديد باسمه ٠

وبعد ان هجرت سامرا وامتد اليها الخراب استمر نهر الاسحاقي يروي المناطق المذكورة في الجانب الغربي من دجلة ٠ فقد اشار اليه سهراب (المتوفى سنة ٢٩٠هـ) في كتابه بقوله : « يحمل من دجلة من غربيها نهر يقال له الاسحاقي اونه اسفل من تكريت بشيء يسير ، يمر في غربي دجلة ، عليه ضياع وعمارات ، ويمر بطيرهان ويجيء الى قصر المعتصم المعروف بقصر الجص ويسقي الضياع التي هناك في غربي مدينة سر من رأى المعروفات بالأولة والثانية والثالثة والى السابعة ، ويصب في دجلة بازاء المطيرة » (٧٢) ٠

٦ ـ جسر سامرا :

بالنظر لوجود معسكرات الجيش في الجانب الغربي من سامرا ، ولقيام العمران فيه ، اصبح من الضروري ربط جانبي المدينة بجسر يسهل للناس الانتقال بينهما ، وقد بادر المعتصم بالله فور فراغه من بناء الجانب الشرقي من دجلة ، وهو جانب سر من رأى ، الى عقد جسر الى الجانب الغربي من دجلة (٧٣) ٠ ومن المؤسف ان المصادر الأولية لا تزودنا بمعلومات وافية عن هذا الجسر من حيث نوعيته وهل كان ثابتا قد بني بالحجر ام كان طافيا على السفن ٠ ولا تتضمن تلك المصادر سوى اشارات عابرة ٠ فقد اشار المسعودي عند خروج المعتصم بالله لحرب الروم في سنة (٢٢٣هـ) الى هذا

---

(٧٢) عجائب الاقاليم السبعة / ١٢٧ ٠

(٧٣) كتاب البلدان / ٢٦٣ ٠

الجسر بقوله : « فخرج المعتصم من فوره ... فعسكر في غربي دجلة .. ونصبت الأعلام على الجسر » (٧٤) . ويلاحظ ان الناس كانوا متحمسين لحرب الروم ومتفائلين بهذه الحملة فرفعوا الاعلام فوق الجسر اظهاراً لتأييدهم الخليفة في خروجه للحرب على رأس الجيش العربي . ويذكر الطبري هذا الجسر في حوادث سنة (٢٤٩هـ) بقوله : « وتحركت المغاربة في هذه السنة .. وكانوا يجتمعون قرب الجسر بسامرا »(٧٥) . ويذكره ايضا في حوادث سنة (٢٥٤هـ) عندما حاول بغا الشرابي الوثوب بالمعتز بالله ، فدخل سامرا ليلا بطريق دجلة « فصار الى الجسر في الثلث الأول من الليل، فلما قارب الزورق الجسر . خرج بغا في البستان الخاقاني » (٧٦). ويشاركه في ذلك ابن الأثير في تاريخه (٧٧) . ولا يستخلص مما رويناه سوى انه كان هناك جسر في سامرا في اثناء الحوادث المذكورة ، وانه قريب من الجوسق الخاقاني .

لقد اقام المعتصم بالله الجسر في الموضع الواقع امام القصر الهاروني الذي شيد في عهد الواثق بالله . ولاتزال بقايا هذا الجسر يمكن مشاهدتها على الجانب الغربي من مجرى نهر دجلة الحالي . وقد نصبت مضخة ماء على سقف احد الطيقان الضخمة المتبقية من آثار الجسر المذكور . وان قول اليعقوبي « ان المعتصم عقد جسراً » معناه انه بناه على شكل الجسور ذات المعقود او الطيقان المألوفة(٧٨) . ويستخلص من تدقيق بقايا الجسر المذكور ان عرضه كان حوالي (١٦) مترا مما يدل على ضخامة بنائه وعظمة تصميمه (٧٩) .

---

(٧٤) مروج الذهب ٤/٦٠ .
(٧٥) الطبري ٩/٢٦٥ .
(٧٦) نفس المصدر / ٣٨٠ .
(٧٧) الكامل ٧/١٨٧ .
(٧٨) ري سامراء ١/٧٤ .
(٧٩) نفس المصدر ٢/٦٠٠ .

الفصل الثالث

سامرا في عهـد المتوكل على الله

١ ـ عمران سامرا في عهد الواثق بالله :

كان الواثق بالله يختلف عن ابيه المعتصم بالله في كثيـر مـن صفاته وسجاياه ، وهو بعمه المأمون اشبه • ويقول صاحب الذهب المسبوك ان المأمون هو الذي رباه فتقبل افعاله(١) • فقد كان بعيداً عن الروح العسكرية وحياة الخشونة ، ميـالا الى الاداب والعـلوم والمناقشة في المجالس الادبية والعلمية ، وفنانا بطبيعته مولعـا بالشعر والغناء والتلحين • ومع ان اهتمامه بعمران حاضرة الخلافة سامرا التي اسسها ابوه وانفق عليها اموالا طائلة ، لم يبلغ درجة اهتمامه بما يتفق وميوله ، فانه استمر في السكنى بها باعتبارها عاصمة الدولة العربية و « كان قد انتقل من قصور ابيه وبني له قصرا على شط دجلة يقال له الهاروني » (٢) ، واتخذه سكنا له الى حين وفاته فدفن فيه (٣) • وزاد في الاقطاعات ، اي انه اقطع الناس اراضي جديدة لبناء مساكن لهم واسواق ، مما ادى الى توسع المدينة

---

(١) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٤ •

(٢) كتاب البلدان / ٢٦٤ ، وفتوح البلدان / ٢٩٥ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٣ •

(٣) الطبري ٩/١٥١ ، وفتوح البلدان / ٢٩٥ ، والكامل ٧/٣٠ •

وازدياد العمران فيها وزيادة سكانها • كما انه زاد في الأسواق لتلبية حاجات سكان المدينة ، ووسع الفرض التي كانت على دجلة لتستوعب السفن التي تردهـا من الموصل وبغداد وواسط والبصرة (٤) • مما كان عاملا مهما في تنشيط التجارة وتوسعها •

ان ما اهتم به الواثق بالله من عمران سامرا على قلته ، شجع الناس على البناء والتعمير في المدينة ، لاسيما تجديد مساكنهم وعماراتهم فاحكموها واتقنوها لما علموا ان سامرا قد صارت مدينة عامرة ، وكانوا قبل ذلك يسمونها العسكر (٥) •

تشييد القصر الهاروني :

كان الواثق بالله قد اختار موضعا لبناء قصره الهاروني على شاطيء دجلة في الجهة الشمالية الغربية من دار الخليفة . وقد بنى له مسناة قوية (٦) • وجعل فيه مجالس في دكة شرقية ودكة غربية ، وكان من احسن القصور (٧) • وقد انتقل اليه • وتكاد مصادرنا الاولية تخلو من ذكر شيء مهم عن هذا القصر الا النزر اليسير ولاسيما من حيث سعته وما يحتوي عليه من مبان ومرافق اخرى • فقد اشار الطبري في حوادث سنة (٢٢٩هـ) عرضا الى وصف احد اروقة القصر ، قال : « ذكر عن عزون بن عبدالعزيز الانصاري انه قال : كنا ليلة في هذه السنة عند الواثق فقال : لست اشتهي الليلة النبيذ ، ولكن هلموا نتحدث الليلة ، فجلس في رواقه الأوسط في الهاروني في البناء الأول الذي كان ابراهيم بن رباح بناه • وقد كان في احد شقي ذلك الرواق قبة مرتفعة في السماء بيضاء ، كأنها

---

(٤) كتاب البلدان / ٢٦٥ •
(٥) نفس المصدر •
(٦) الآثار القديمة العامة ـ سامراء / ٧٠ •
(٧) كتاب البلدان / ٢٦٤ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٨ •

بيضة الا قدر ذراع ، فيما ترى العين ، حولها · في وسطه ساج منقوش باللازورد والذهب ، وكانت تسمى قبة المنطقة ، وكان ذلك الرواق يسمى رواق قبة المنطقة » (٨) ·

كما ورد ذكر الهاروني في بعض الاحداث التي وقعت في سامرا بعد الواثق بالله · فعندما قبض المتوكل على الله علي وزيره محمد بن عبدالملك الزيات في سنة (٢٣٣هـ) وأمر باستصفاء امواله واملاكه ، صير ما قبض مما في منزله من متاع وجوار وغلمان ودواب في الهاروني(٩) · اي في قصر الخليفة ، لأنه عندما ولي الخلافة اقام به وبني به ابنية كثيرة (١٠) · ولما توفي المنتصر بالله اجتمع القواد الاتراك في الهاروني وفيهم بغا الكبير وبغا الصغير واوتامش واصحابهم ، لانتخاب من يخلفه(١١) · وعندما ثارث العامة اثر مبايعة المستعين بالله ونادوا بخلافة المعتز « دخلوا دار العامة منصرفين الى الهاروني فانتهبوا الخزانة التي فيها السلاح والدورع والجواشن » (١٢) · ويظهر انه كان قد اتخذ مستودعا للاسلحة ·

تقع اطلال القصر الهاروني في الموقع المعروف بالكويس على شاطىء دجلة الشرقي ، ولا تزال بقايا الدكتين الضخمتين ظاهرة يمكن مشاهدتها على شاطىء دجلة الشرقي الحالي في موضع الكويس المذكور · وقد اشتهر آجر هذا القصر ومسناته بالكبر والضخامة حتى صار يضرب به المثل في سامراء الحديثة فيقال آجر الكويس · وكان الجسر الذي اقامه المعتصم بالله على نهر دجلة يقع امام القصر الهاروني تماما · الا ان معالم القصر تكاد تزول بسبب تهافت اهل

---

(٨) الطبري ٩/١٢٥ ·
(٩) نفس المصدر / ١٥٨ ·
(١٠) معجم البلدان ٣/١٧٥ ·
(١١) الطبري ٩/٢٥٦ ، والكامل ٧/١١٧ ·
(١٢) الطبري ٩/٢٥٧ ·

مدينة سامراء على اقتلاع الآجر من جدرانه والبلوغ في ذلك حتى اسسها (١٣) •

ومن بقايا القصر الهاروني قاعدة الحوض الكبير وقد نقلت من بين انقاضه الى دار الآثار العربية (١٤) •

وعندما اتم الواثق بالله بناء القصر الهاروني مدحه الشاعر علي بن الجهم واصفا بعض معالم الهاروني ، بقصيدة منها قوله : (١٥) :

بان بقرب الخليفة التحف   محل صدق وروضة انف
دار تحار العيون فيها ولا   يبلغها الواصفون ان وصفوا
لم تنتسب قبله الى احد   ولا تحلت من الألى سلفوا
البحر والبر في يدي ملك   تشرق من نور وجهه السدف
اختاره الله للامام الذي   ينصف من نفسه وينتصف
قد علم الناس ان بالملك الواثق بالله يشرق الشرف
تبارك الجامع القلوب على   طاعته والقلوب تختلف

٢ ـ توسيع مدينة سامرا :

كان المتوكل على الله مثل ابيه المعتصم بالله يحب البناء والعمران كثيراً ، وقد تفوق عليه فيما اسسه بسامرا من القصور والمتنزهات ، وما شقه من الترع والجداول ، وما بذله من الاموال الطائلة على ذلك • فقد كان ميالا للبذخ مسرفا بطبيعته ، ولهذا

(١٣) الآثار القديمة العامة ـ سامراء / ٧٠ •
(١٤) نفس المصدر •
(١٥) كامل القصيدة في ديوان علي بن الجهم / ١٤ـ١٦ •

« لم تكن النفقات في عصر من الأعصار ولا وقت من الأوقات مثلها في ايامه »[16] • وكانت فاتحة اعماله العمرانية توسيع مدينة سامرا ، فشق شارعين جديدين في ناحيتها الشرقية موازيين لشوارعها الكبيرة الاخرى ، هما شارع الأسكر وشارع الحير الجديد • وبنى فيها عدداً كبيراً من القصور التي كانت زينة لها اكملت بهاءها بحيث بلغت اوج عمرانها في عهده •

ويعتبر بناء الجامع الكبير في آخر الحير ، وشق الشوارع الفرعية الثلاثة التي توصل اليه من المدينة ، واقامة الاسواق والحوانيت لمختلف التجارات والصناعات على جوانب هذه الشوارع ، اهم ما ادى الى توسيع المدينة • اذ قامت على هذه الشوارع شكلك وقطائع للسكنى • فقد اقطع المتوكل على الله الكاتبين نجاح بن سلمة واحمد بن اسرائيل ، ومحمد بن موسى المنجم واخوانه ، وجماعة من الكتاب والقواد والهاشميين وغيرهم في آخر الشوارع المذكورة مما يلي قبلة الجامع ، وبذلك اتسعت على الناس المنازل والدور كما اتسع اهل الاسواق[17] •

ويلاحظ اهتمام المهندسين آنذاك بفتح الشوارع الفرعية والدروب التي توصل بين الشوارع الرئيسة في المدينة • ولا يخفى ان ذلك يتيح لأكثر المساكن ان تكون واجهاتها على تلك الشوارع والدروب ، ويسهل الاتصال بين قطائع السكان والأسواق ، اضافة الى تخفيف الزحام داخل المدينة •

اما الشارعان اللذان امر المتوكل على الله بفتحهما في شرقي سامرا فهما شارع الأسكر وشارع الحير الجديد • ويعرف شارع الأسكر بشارع صالح العباسي لأنه ينتهي عند داره التي كانت على وادي ابراهيم بن رباح • وهو يبدأ من المطيرة وينتهي عند حائط

---

(١٦) مروج الذهب ٤/١٢٢ •

(١٧) كتاب البلدان / ٢٦٥ ـ ٢٦٦ •

الحير • وقامت عليه قطائع العسكر الاتراك والفراغنة في دروب منفصلة عن بعضها • وتليها قطائع القواد والكتاب والوجوه من الناس(١٨) • ويبدو ان المتوكل على الله قد انتهج سياسة ابيه في عزل مساكن الجند عن بقية الناس وتوزيعهم بحسب انتماءآتهم منفردين بعضهم عن البعض • ولعل ازدياد عدد الجند كان سبب فتح هذا الشارع لتقوم قطائعهم على جانبيه ، ولهذا سمي بشارع الأسكر او العسكر •

ويقع شارع الحير الجديد شرقي الشارع السابق وموازيا له • وقد سمي بالجديد تمييزا له عن شارع الحير الذي فتح عند تأسيس المدينة في ايام المعتصم بالله • وقد اقطعت السكك على جانبيه لعدد من قواد الفراغنة والاشروسنية والاشتاخنجية وغيرهم من الأعاجم ، واخلاطا من الناس ، وكان ينتهي عند حائط الحير ايضا (١٩) •

وصار بذلك عدد شوارع سامرا الموازية لنهر دجلة سبعة شوارع ، اولها شارع الخليج في الجهة الغربية من المدينة على ضفاف دجلة مباشرة وآخرها شارع الحير الجديد في الجهة الشرقية لها • وكانت الشوارع الأربعة من جهة الشرق ، وهي شارع الحير وشارع برغاش وشارع الأسكر وشارع الحير الجديد ، تسمى « طرق الحير » لأنها كانت تنتهي عند حائط الحير (٢٠) •

وكان من اجراءات المتوكل على الله في توسيع مدينة سامرا جنوبا ، انه انزل ابنه ابراهيم المؤيد بالمطيرة ، وانزل ابنه المعتز خلفها مشرقا بموضع يقال له بلكوارا وكان قد بني قصرا فسيحا هناك • فاتصل البناء من بلكوارا جنوبا الى آخر الموضع المعروف بالدور شمالا، مسافة اربعة فراسخ (٢١) •

(١٨ و ١٩) كتاب البلدان / ٢٦٢ ـ ٢٦٣ •
(٢٠) ري سامراء ١/١٠٦ •
(٢١) كتاب البلدان / ٢٦٥ •

الطراز الحيري في البناء :

بلغ من حب المتوكل على الله للبناء واهتمامه به انه احيا طرازاً عربيا قديما فيه هو الطراز الحيري ذو الكمين والأروقة • فقد حدثه بعض ندمائه ان احد ملوك الحيرة كان احدث بنيانا على صورة الحرب وهيئتها ، للهجه بها وميله اليها ولئلا يغيب عنه ذكرها • فكان الرواق وفيه مجلس الملك يعتبر الصدر ، والكمان ميمنة وميسرة وفيهما اقرب خواصه اليه ، وفي اليمين خزانة الكسوة ، وفي اليسار خزانة الشراب • واتبع الناس المتوكل على الله في اتخاذ هذا الطراز من البناء لبيوتهم في عهده وبعده(٢٢) • كما صار الطراز الحيري يتخذ في بناء القصور الكبيرة اذ صار لها مقدم وعلى جانبيه جناحان ، ولها ثلاثة ابواب أوسطها الباب الأكبر والى جانبيه البابان الصغيران (٢٣) • وقد انتقل هذا الطراز من البناء الى بغداد ، فكان قصر التاج الذي بدأ المعتضد بالله بتشييده ببغداد واكمله ابنه المكتفي بالله ، صورة مكبرة للطراز الحيري اذ كان وجهه مبنيا على خمسة عقود كل عقد يقوم على عشرة اساطين ، والاسطوانة خمسة اذرع(٢٤) • كما نقله الأمير احمد بن طولون الى مصر ، وقد اشرنا الى ذلك عند الكلام عن اعمال ابن طولون العمرانية في مصر •

ساحات الفروسية والسباق :

يظهر من دراسة الخرائط الطوبوغرافية والصور الجوية لأطلال مدينة سامرا انه كان في السهل الممتد شمالي الجامع الكبير ، اي غربي ساحة الحير ، اربع حلقات كبيرة تدور حول مربع

---

(٢٢) مروج الذهب ٤/٨٧ •
(٢٣) الحضارة الاسلامية ٢/١٧٥ •
(٢٤) معجم البلدان ٢/٥ •

مركزي • وقد اثبتت التنقيبات التي قامت بها دائرة الآثار القديمة ان هذه الحلقات تتكون من طوقين متوازيين بينهما ساحة عرضها ثمانون متراً ، وهما يدوران حول المربع المركزي اربع دورات دون ان تنقطع ، وفي المربع المذكور دكة مرتفعة تظهر عليها آثار بناية من الآجر •

وكانت الدوائر المذكورة ساحة للفروسية او حلبة للسباق انشئت على شكل مبتكر بديع • وكانت البناية في الدكة المرتفعة معدة لجرس الخليفة وحاشيته للتفرج والتمتع • اما الساحة الممتدة بين الدائرتين المتوازيتين ، والملتوية حول الدكة المذكورة فكانت معدة لجري الخيل وتسابقها • ومن الواضح ان هذا الترتيب المبتكر هو ان يجعل طول الدورة الكاملة في هذه الدوائر المتتالية يزيد على خمسة كيلومترات ، بينما لا يزيد بعدها الاعظم عن الدكة على طول الدورة عن (٦٠٠) متر بحيث يستطيع المتسابقون ان يقطعوا على هذه الساحة مسافة خمسة كيلومترات او اضعافها دون ان يبتعدون عن عين الخليفة واصحابه باكثر من (٦٠٠) متر في جميع الأحوال ، وهو ابتكار يثير الاعجاب ولا ريب • ومما يؤيد ذلك ان هذه الدوائر تقع في نفس المنطقة التي تشاهد فيها معالم حلبتين آخريين من حلبات السباق ، تبدا احداهما من خلف دار الخليفة ، وتبدأ الاخرى من تل العليق • وان اوضاع هذه الحلبات الثلاث تسوغ الافتراض بأن اقدمها هي التي تبدأ من شرقي دار الخليفة وتتجه شرقا داخل ساحة الحير حتى تنتهي قرب نهر القاطول ، ويزيد طول دورتها على عشرة كيلومترات ونصف الكيلومتر • فكان طول الدورة يساعد على اجراء سباقات كبيرة ، غير ان الخيول كانت تتباعد عن الدكة تباعداً كبيراً لا يترك مجالا لتتبع حركاتها ، فيحرم المشاهد من التمتع بمسرآها وهي تتسابق نحو الهدف • اما الحلبة التي تبدأ من تل العليق فليست

واضحة المعالم عدا في قسمها الأول ، ومع هذا فان اتجاه هـــذا القسم كاف للحكم على انها كانت طويلة جداً • ومن الطبيعي ان يساعد ارتفاع التل على تتبع حركات الخيول على هذه المسافات الكبيرة ، الا ان ذلك كان يتطلب جهـــداً كبيـــراً وانتباهـــا شديدا (٢٥) •

وقد سبقت الاشارة في البحث الخاص بدار الخليفة الى هاتين الساحتين ، وانهما انشئتا مع الدار المذكورة • اما الساحة التي وصفنا شكلها المبتكر فقد استحدثت بعد الحلبتين المذكـورتـين ، لايجاد حلبة سباق يبقى المتسابقون وخيولهم فيها تحت الأنظار على الدوام • ويرجح انها من منشآت المتوكل على الله •

تـل العليق :

يقع هذا التل شمالي الجامع الكبير ، وقطره نحو مائتي متر ، وهو يرتفع عن السهل المحيط به بمقدار (٢٥) متراً • ويحيط به خندق عريض دائري يبلغ عمقه نحو ثلاثة امتار • وحوله معالم سور مستدير يبلغ قطره نحو (٤٥٠) متراً (٢٦) • وفي شمالي التل طريق ينحدر من قمته ويعبر الخندق ، ويرجح انه كانت عليـــه قنطرة ، وكانت المياه تصل الى الخندق من القناة التـــي حفرهـــا المتوكل على الله لايصال الماء الى سامرا (٢٧) •

ويعلل الناس تسمية التل برواية يتناقلونها هـــي ان التـــل تكون من التراب الذي نقله الجنود الخيالة بعليق خيولهم • ويروون ان الخليفة المتوكل على الله اراد ان يظهر ضخامة جيشه وكثـــرة

---

(٢٥) الاثار القديمة العامة ـ سامراء / ٦٣ـ٦٥ •
(٢٦) نفس المصدر / ٦٠ •
(٢٧) ري سامراء ١١٨/١ •

عدد فرسانه بدليل عياني محسوس ، فأمر ان يملأ كل واحد من جنوده الخيالة عليقه بالتراب ، ثم يرميه هناك ، فتكون التل من التراب الذي تجمع على هذا الوجه(٢٨) • وجاء في خلاصة الذهب المسبوك ان المعتصم بالله هو الذي امر بعمل تل المخالي المذكور لما جيش الجيوش الى محاصرة عمورية(٢٩) • ويحتـــج القائلون بالرأي الأول ان اتصال خندق التل بقناة سامرا دليل على انه من عمل المتوكل على الله الذي انشأ القناة المذكورة • الا اننا نرى ان ما ذهب اليه صاحب الذهب المسبوك اقرب الى الواقع لمـا عرف عن المعتصم بالله من الروح العسكرية الشديدة وحبه الجيش وعنايته به بحيث انه ترك العاصمة الى مدينة اخرى بسببه ، ولهذا فـان التفاخر بضخامة الجيش وكثرة عدد فرسانه اجدر به • اما اتخاذ اتصال خندق التل بالقناة دليلا على انه من منشآت المتوكـل على الله ، فلا يغير من الواقع شيئاً . لأن ذلك لا يمنع من ان يكون التل موجوداً وان المتوكل على الله اوصل الماء الى الخندق المحيط به •

من المؤكد ان التل اصطناعي وقد كون بطريقة حفر خنـدق مستدير وتكويم التراب الذي يرفع منه فوق الدائرة الباقية فـي داخله • وقد درس هرزفيلد هذا التل خلال تنقيباته في سـامرا واستنتج انه كان على قمته قصر مربع الشكل مقسم الى تسع غرف متصلة ببعضها ، واحدة منها في الوسط واربعة متصلة باضلاع هذه الغرفة على شكل اواوين مفتوحة • والاربعة الاخـرى بين اضلاع الاواوين المذكورة • والغرض من تكوين هذا التـل فـي وسط السهل وتشييد هذا القصر فوقه انما كان للتفرج من محل مرتفع يمتد فيه النظر ، لأنه كان يشرف على الحير وعلى احدى حلبات السباق(٣٠) • وهناك احتمال ان يكون هذا التل قبر احد

---

(٢٨) الاثار القديمة العامة ــ سامراء / ٦١ــ٦٢ •

(٢٩) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٢ •

(٣٠) الاثار القديمة العامة ــ سامراء / ٦١ــ٦٢ •

القواد الرومان ، وقد استعمل للتفرج على السباق بعد ان شيدت فوقه تلك الحجرات ، ومما يجدر ذكره للمقارنة ان هناك مصطبة على الكتف الغربي للقاطول الأعلى حيث تنتهيدورة حلبة السباق، عليها بقايا غرف مماثلة تطل على الساحة المنبسطة ، يحتمل انها شيدت لغرض التفرج منها ايضا (٣١) •

الحيـر :

حائر الحير هو الحائط او السور الذي بناه المعتصم بالله في نهاية ابنية سامرا من جهتها الشرقية • وكان يمتد على طول الأبنية من الجوسق الخاقاني حتى المطيرة • وقد احتفظ بالسهل الواسع الممتد خلف هذا الحائط من غير بناء ليكون ساحة ترتع فيها الحيوانات والطيور ، وسميت بساحة الحير • ويذكر اليعقوبي انه كلما توسع عمران سامرا شرقا وامتد الى ساحة الحير هدم السور المذكور وبنى آخر بدلا عنه بعد العمران الجديد . وعدد اصنافا من الطيور والوحوش كالظباء والحمر الوحشية والأيائل والارانب والنعام وغيرها ، مما كان محجوزا في الساحة المذكورة (٣٢) •

وعندما توسع المتوكل على الله في العمران شرقي سامرا انشأ حائطا جديدا على الحدود الجديدة للبناء الذي اقيم في ظهر شارع الحير الجديد ، بعد ان اقتطع جزءا كبيرا من ساحة الحير ، وجعل لهذا الحائط بابا رئيسا عُرف بباب الحير ، جنوبي الجامع الكبير ممايلي الجوسق ، ليوصل بين الساحة والمدينة • وقد ورد ذكر الحير وبابه في عدد من الأحداث المهمة التي وقعت في ايام الخليفة المهتدي بالله • فقد ذكره الطبري في حوادث السنة (٢٥٦هـ) عندما

(٣١) المرشد الى مواطن الاثار والحضارة ـ (سامراء) / ١٨ •
(٣٢) كتاب البلدان / ٢٦٣ •

صار القائد موسى بن بغا الى باب الحير وعسكر هنـاك قـرب دار القائد التركي ياجور (٣٣) • وعندما القي القبض على القائد صالح بن وصيف اخرج من باب الحير ليذهبوا به الى الجوسق(٣٤) • وعندما عزم المهتدي بالله على حرب الأتراك خرج الى الحير وعرض الناس وامر ان تضرب الخيام والمضارب في الحير ، وعبأ اتباعـه لمواجهة الأتراك (٣٥) •

ان المتوكل على الله وسع الحير نحو الشرق وانشأ فيه حديقة واسعة للحيوانات تزيد مساحتها على عشرين الف دونم . واحاطها بسور بلغ طوله حوالي ثلاثين كيلومترا • وقد جمعت فيها اصناف الحيوانات البرية من الوحش والطير ، كان بعضها حرا طليقـا وبعضها حبيسا في الأقفاص • وللشاعر البحتري قصيدة يمتدح فيها المتوكل على الله ويشير الى حير الوحش ويقدر عدد الوحوش فيه بالفين ، ويقول انها كانت تألفه وتخضع له . ويذكر نهر نيزك الذي يروي متنزه الحير ، جاء فيها(٣٦) :

خليفة الله ما للحمد منصرف
الا الى نعم أصبحت توليهـا
فلا فضيلة ، الا انت لابسها
ولا رعية ، الا انت راعيهـا
ملك كملك سليمان الذي خضعت
له البرية : قاصيهـا ودانيهـــا

---

(٣٣) الطبري ٩/٤٣٨ ـ ٤٣٩ •
(٣٤) نفس المصدر / ٤٥٤ •
(٣٥) نفس المصدر / ٤٦٥ •
(٣٦) ديوان البحتري ـ طبعة بيروت ١/٤٥ـ٤٦ •

وطاعة الوحش اذ جاءتك من خرق
أحرى ، وأدمانة كحل مآقيها[٣٧]
كالكاعب الرود يخفي في ترائبها
روع العبير ويبدو في تراقيها
الفان وافت ، على قدر مسارعة
الى قبول الذي حاولته فيها
ان سرت سارت وان وقفتها وقفت
صوراً اليك ، بالحاظ تواليها
يرعن منك الى وجه يرين له
جلالة يكثر التسبيح رائيها
حتى قطعت بها القاطول وافترقت
بالحير في عرصة فسح نواحيها
فنهر نيزك ورد من مواردها
وساحة التل مغنى من مغانيها

وقد انشيء في الطرف الجنوبي لهذا المتنزه الواسع قصراً يشرف على بركة ماء واسعة ينتهي اليها نهر نيزك ، وعرف هذا القصر باسم قصر الدكة • وكان طوله (١٦٥)متراً وعرضه (١٢٥) متراً ، اي ان مساحته كانت تربو على عشرين الف متر مربع • ويرجح الدكتور احمد سوسه ، ان هذا القصر كان يعرف بقصر الساج ايضا ، وان البركة التي امامه هي البركة الحسناء التي وصفها البحتري وتغنى بجمالها وروعة الرياض التي تحتها[٣٨] •

(٣٧) الخرق : المدهوش من خوف او حياء •
والادمانة : الظبية التي لونها مشرب بياضا •
(٣٨) ري سامراء ٢/٢٩٩ •

وتوجد في الركن الجنوبي لقصر الدكة اطلال بناية واسعة طولها (٤٠٠) متر وعرضها (٢٦٥) متراً ، يرى الدكتور سوسة انه يحتمل ان تكون هذه الأطلال من بقايا قصر البديع الذي بناه المتوكل على الله ، لأن البحتري اقترح في احدى قصائده في مدح المعتز بالله ، ان يمد فرع قناة سامرا الذي شقه المتوكل على الله لتموين قصر الدكة بالماء ، ويوصله الى قصر البديع ومنه ينهيه الى دجلة قرب الجوسق ، اذ يقول :(٣٩)

الحقه يا خير الـورى بمسيره
وامـدد فضول عبابه المتـدفـق

فاذا بلغت به البديـع فانمـا
انزلت دجـلة في فناء الجوسق

وهو يرجع ايضا ان قصري الصبيح والمليح اللذين بناهما المتوكل على الله يقعان في هذا المتنزه ايضا • وهو يستند في ذلك على وصف البحتري الوارد في احدى مدائحه التي قالهـا فـي المتوكل على الله ، وذكر فيهـا القصرين المذكـورين والبركـة الحسناء ، التي قال فيها : (٤٠)

واستتم الصبيح في خير وقـت
فهـو مغنى انس ودار مقـام

ناظر وجهه المليح فلو يستطيع
حيـاه معلنـا بالسـلام

ألبسا بهجـة وقابـل ذا ذاك
فمن ضاحـك ومـن بسـام

---

(٣٩) نفس المصدر ١/١٢٥ •

(٤٠) نفس المصدر ٢/٣٠٣ والقصيدة في ديوان البحتري ٣/٢٠٠٤ ـ ٢٠٠٧ •

حتى يقول :

مستمد بجدول من عباب المـاء
كالأبيض الصقيـل الحســـام

واذا ما توسط البركة الخضراء
ألقت عليــه صبغ الرخـــام

فتـــراه كأنــه مــاء بحـــر
يخدع العين وهـــو ماء غمام

على ان تأييد ذلك يتوقف على ما ستسفر عنـه التنقيبـات والتحريات التي ستجريها دائرة الآثار القديمـة على الاطـلال والأكام المشار اليها • علما ان الدائرة المذكورة لاترى راي الدكتور سوسه في موضوع البركة ، وترى انها بركة القصر الجعفري الذي شيده المتوكل على الله في مدينة المتوكليـة ، وان البركـة التي في حديقة الحيوانات من عمل المعتصم بالله عنـدما بنى قصره على القاطول قبل انتقاله الى سامرا (٤١) •

٣ ـ مشاريع الري في عهد المتوكل على الله :

تم في عهد المتوكل على الله ثلاثة مشاريع مهمـة لري سـامرا وما حولها ، هي : قناة سامرا او قناة المتوكل على الله ، ونهـر النيزك ، والنهر الجعفري • وسنلقي نظرة سريعة على كل من قناة سامرا ونهر النيزك ، اما النهر الجعفري فنرجيء البحث فيه الى موضوع انشاء مدينة المتوكلية لأنه انشيء لايصال المياه اليها •

قناة سامرا :

كان من جملة المشاكل التي واجهت مدينة سامراء منذ تأسيسها ان ارتفاع الضفة الشرقية لنهر دجلة التي قامت عليها المدينـة

---

(٤١) نفس المصدر ٢/٢١٢ •

اولا حال دون توفر المياه للشرب وللري الا بالواسطة • وقد اعتمد الناس في شربهم على حمل المياه اليهم في الروايا على الأبل والبغال . وهذا ما دفع المعتصم بالله الى اعمار الجانب الغربي من المدينة ، لأن ارضه منخفضة عن مستوى النهر ويسهل اسقاؤها سيحا ، مما يساعد على التوسع في الزراعة • وقد اشرنا الى احيائه نهر الاسحاقي الذي صار محور العمران في هذا الجانب من المدينة •

ويظهر ان المتوكل على الله صرف همته الى توسيع مدينة سامرا في الجانب الشرقي منها رأى ان يبدأ بتوفير المياه الكافية لها قبل كل شيء • ولهذا كان اول مشاريعه الاروائية حفر قناة تؤمن ايصال الماء الى هذا الجانب من المدينة بطريقة الري الجوفي المعروف بري الكهاريز • واشتمل مشروعه على كهريزين ضخمين يستعمل احدهما في الشتاء والآخر في الصيف • وهما يستمدان المياه من نهر دجلة شمال الدور ، فيسيران جنوبا حتى يصلا العاصمة • وقد مدت هذه القناة جنوبا لتصل الى المطيرة فالقادسية (٤٢) •

والكهريز مجرى ماء على شكل نفق تحت الأرض لسحب المياه الجوفية من العيون ونقلها الى الاراضي الزراعية سيحا . وذلك بحفر آبار على مسافات معينة على طول النفق لرفع اتربة المجرى بواسطتها ولاستخدامها كنوافذ هوائية للنفق وللنزول اليه اذا ما اقتضى تنظيفه من الترسبات والعوائق التي تحول دون جريان الماء فيه • وتحفر الآبار عادة بانحدار تدريجي من بئر الى اخرى ادنى مستوى منها ، ليتسنى للمياه الجريان الى الجهة المطلوبة • وتغطى هذه الآبار بابواب لمنع تسرب الاتربة الى المجرى • وتختلف المسافة بين بئر واخرى حسب طبيعة الأرض ، وهي تتراوح بين خمسة

---

(٤٢) ري سامراء ١/٢٧٠ – ٢٧٢ •

امتار وعشرين مترأ • وتكون هذه الآبار عادة باتجاه واحد ، وهي تدل على اتجاه الكهريز وطوله • ومن الطبيعي ان يختلف طول الكهريز باختلاف طبيعة سطح الارض وعمق المياه الجوفية •

لقد تسنى للمتوكل على الله بواسطة هذه القناة ان يوصل المياه الى البركة الكبيرة التي كانت خلف دار العامة ، وهي المعروفة ببركة السباع • ثم الى البركة الثانية التي تقع شمالي غربي البركة السابقة • والى ساحة السباق الواسعة التي انشأها من جهة الحير ، والى خندق تل العليق المشرف عليها • كما انه وفر الماء الكافي للجامع الكبير ولاسيما لنافورته التي لا ينقطع ماؤها •

نهر نيزك :

اراد المتوكل على الله ان يوسع حير الحيوانات خارج مدينة سامرا شرقا ، في المنطقة الكائنة بين القاطول الاعلى والقاطول الأسفل المسمى بنهر القائم ، وذلك بعد ان ضم جزءا كبيراً من اراضي الحير الذي انشأه المعتصم بالله ، الى مدينة سامرا عندما وسعها نحو الشرق بفتح الشوارع الجديدة وتوزيع الاراضي التي اقطعها لبناء المساكن ، وبناء الجامع الكبير • الا ان المنطقة التي اختارها لتكون حديقة واسعة للحيوانات ومتنزها كبيراً لأهل سامرا ، تحتاج الى مزيد من المياه الدائمة الجريان • فعمد الى احياء نهر القادسية القديم الذي كان يتفرع من الضفة اليمنى للقاطول الأعلى ، من موضع يبعد عن صدره بثلاثين كيلومترا وينتهي عند منطقة المشرحات فيخترق المنطقة المذكورة ويرويها • وهي المنطقة التي كان الخليفة هارون الرشيد بنى فيها قصراً لنزهته • وكان نهر نيزك ينتهي عند البركة التي انشأها المتوكل على الله في هذا المتنزه • ولكي يؤمن استمرار تدفق المياه في النهر الجديد اقيم ناظم على نهر القاطول ليرفع مناسيب المياه

فيه حتى يتدفق الى النهر المذكور الذي سمي بنهر نيزك . وبذلك أمن ارواء منطقة الحير الجديد الواسع وحدائقه سيحا .

وكانت تتفرع من نهر نيزك عدة فروع من ضفته الغربية لتسقي اراضي المطيرة ومنطقة بركوارا ، جنوبي سامراء[43] .

٤ ــ الجامع الكبير :

مقدمة :

كان من خطة المعتصم بالله في بناء سامرا ان يبني مسجدا في كل منطقة سكنية ، فعندما اقطع كبير قواده اشناس واصحابه الموضع المعروف بالكرخ امره ان يبني مع المساكن المساجد والأسواق . كما انه انشأ مسجداً جامعا على شارع السريجة ، وهو الشارع الأعظم ، واختط الأسواق حوله . ولم يزل يجمع فيه الى أيام المتوكل على الله الذي تولى الخلافة سنة (٢٣٢هـ) فضاق على الناس فهدمه وبنى مسجداً جامعا واسعا في طرف الحير . يقول اليعقوبي : « وبنى المسجد الجامع في اول الحير في موضع واسع خارج المنازل لا يتصل به شيء من القطائع والأسواق . واتقنه ووسعه واحكم بناءه ، وجعل فيه فوارة ماء لاينقطع ماؤها . وجعل الطرق اليه من ثلاثة صفوف واسعة عظيمة من الشارع الذي يأخذ من وادي ابراهيم بن رباح ، في كل صف حوانيت فيهما أصناف التجارات والصناعات والبياعات ، وعرض كل صف مائة ذراع بالذراع السوداء ، لئلا يضيق عليه الدخول الى المسجد اذا حضر المسجد في الجمع في جيوشه وجموعه وبخيله ورجله »[44] .

---

(٤٣) ري سامراء ٢/ ٢٨٩ .
(٤٤) كتاب البلدان / ٢٦٥ .

يستنتج مما ذكره اليعقوبي ان المتوكل على الله بنى الجامع الكبير خارج المدينة ومد اليه ثلاثة شوارع توصل بينه وبين الشارع الأعظم في سامرا ، وجعل عرض كل شارع من هذه الشوارع مائة ذراع سوداء ، وتقوم على جوانبها حوانيت اصناف التجارات والصناعات بهدف توسيع المدينة وزيادة اسواقها ومتاجرها . وكانت هذه الشوارع الثلاثة تتفرع من الشارع الأعظم جنوبي دار الخليفة والقصر الهاروني وقصر الجوسق ، وتتجه شرقا حتى تفضي الى الجامع في جانب الحائط الغربي الذي كانت فيه سبعة مداخل ، بعد ان تخترق السور الخارجي للجامع .

يقول البلاذري عن المتوكل على الله : « وبنى مسجداً جامعا كبيرا وأعظم النفقة عليه ، وامر برفع منارته لتعلو اصوات المؤذنين فيها حتى نظر اليها من فراسخ ، فجمع الناس فيه وتركوا المسجد الأول » (٤٥) . وجاء في خلاصة الذهب المسبوك ان المعتصم بالله «بنى الجامع الكبير وانفق على ذلك خمسمائة الف دينار وجعل وجوه حيطانه مرايا بحيث يرى القائم في الصلاة من يدخل من خلفه . وبنى المنارة التي يقال انها من احدى العجائب»(٤٦) . وهو لاشك واهم اذا ما اعتبرنا كتاب البلدان لليعقوبي اقدم المصادر واوثقها عن سامرا . وان البلاذري ايده في روايته . كما ايده ياقوت في معجمه .

يعتبر المسجد الجامع الذي انشأه المتوكل على الله اروع المنشآت ذات الأثر في تلك الحقبة من حياة الدولة العربية . وتشاهد آثاره اليوم مع مئذنته الملوية شمالي شرقي مدينة سامراء الحالية . وتعتبر اضخم وابرز الأثار الباقية من مباني سامرا

---

(٤٥) فتوح البلدان / ٢٩٥ ، ومعجم البلدان ٣/١٧٥ وقد نقل عن البلاذري نفس النص .

(٤٦) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٢ .

القديمة · ورغم ان هذا الجامع يشبه المساجد الجامعة الاخرى من حيث تخطيطه العام ومحتوياته الا انه يمتاز عليها جميعا بسعة مساحته وضخامة بنائه ، وبمئذنته الملوية · وهو يعد اكبر جامع في العالم الاسلامي · وكان البدء ببنائه في سنة (٢٣٤هـ) والانتهاء منه في سنة (٢٣٧هـ) (٤٧) · ويذكر ياقوت الحموي ان مجموع ما انفق على بنائه بلغ خمسة عشر الف الف درهم (٤٨) ·

ويتضح من تنقيبات هرزفيلد ان اضلاع السور الخارجي للجامع كانت تبلغ ٣٧٦×٤٤٤م ، اي ان مساحة المسجد والزيادات التي في خارجه تربو على (١٧) هكتاراً اي اكثر من (٦٨) دونما عراقيا(٤٩) · ويقدر بروكلمان مساحة صحنه الداخلي باربعة واربعين الف متر مربع ، ويقول : « وبحسبنا لكي نكون فكرة عن معنى هذا الرقم ان نذكر ان صحن كنيسة القديس بطرس في روما يبلغ (١٥١٦٠م٢) ، وصحن ايا صوفيا في استانبول يبلغ (٦٨٩٠م٢) ، في حين لا يزيد صحن كاتدرانية كولون على (٦١١٢٦م٢)(٥٠) ·

مخطط الجامع :

يتألف الجامع من اربعة اقسام تحيط بالصحن هي : الحرم ويقع على الضلع الجنوبية للجامع ، وكان فيه خمسة وعشرون رواقا مؤلفة من اربعة وعشرين صفا من الاعمدة في كل صف منها تسعة اعمدة · وينتهي الرواق الأوسط بالمحراب وهو اعرض قليلا من الاروقة الاخرى · ثم القسم الشمالي المقابل للحرم ، وكان فيه خمسة وعشرون رواقا مؤلفة من اربعة وعشرين صفا من

---

(٤٧) الآثار القديمة العامة ـ سامراء / ٤٩ ·
(٤٨) معجم البلدان ٣/١٧٥ ·
(٤٩) ري سامراء ١/١١٢ ·

الاعمدة في كل صف منها ثلاثة اعمدة ٠ وكانت صفوف هذه الأعمدة تمتد على شكل خطوط ذات زوايا قائمة الى داخل المسجد بالنسبة لجداريه الشمالي والجنوبي ٠ والرواق الأوسط في هذا القسم اكثر اتساعا من بقية اروقته ٠ ثم الجانبان الشرقي والغربي من المسجد وكان في كل منهما ثلاثة وعشرون رواقا مؤلفة من اثنين وعشرين صفا من الأعمدة في كل صف منها اربعة اعمدة ٠ وبذلك يبلغ مجموع الأعمدة (٤٦٤) عمودا (٥١) ٠ وهناك اختلاف في مجموع الأعمدة ناشيء من اعتبار البعض عدد صفوف الأعمدة في الحرم عشرة اعمدة بدلا من تسعة ، او من اعتبار عدد صفوف الاعمدة في القسم الشمالي اربعة بدلا من ثلاثة ، بحيث يصبح المجموع (٤٨٨) عمودا ٠

ان جميع الأعمدة كانت مبنية بالآجر على قواعد مربعة طول ضلعها (٧٠ر٢م) وترتفع بشكل مثمن تاركة في كل زاوية من الزوايا الأربع فسحة لارتكاز عمود رخامي قطره (٣٠سم) ٠ وكان بعض هذه الأعمدة الرخامية اسطوانيا ، وبعضها مثمنا ، وقد ثبتت قطعها باوتاد معدنية ، وملئت الثقوب بالرصاص ، واحيطت مواضع الأتصال باطواق معدنية ايضا ٠ ويبلغ ارتفاع الأعمدة من ارضية الجامع حتى السقف حوالي (٥٠ر١٠م) ، وينتهي اعلاها بتيجان جرسية الشكل ٠ وكانت الأعمدة الرخامية بالوان متعددة وجد منها تسعة انواع مختلفة معظمها من المرمر(٥٢) ٠

وكانت هذه الأعمدة تحمل السقف الخشبي للجامع دون ان ان ترتبط بعقود او طيقان من البناء كما ارتأى الآثاريون(٥٣) ٠ الا

---

(٥٠) تاريخ الشعوب الاسلامية ٢/٥١ ٠
(٥١) الاثار القديمة العامة ـ سامراء / ٤٧ـ٤٨ ٠
(٥٢) العمارة العباسية / ١٤٥ ـ ١٤٦ ٠
(٥٣) الاثار القديمة العامة ـ سامراء / ٤٨ ٠

انه يظهر ان الفسحة الموجودة بين الأعمدة كانت قد سقفت بعوارض . وان الحفر التي ثبتت فيها العوارض المتقاطعة كانت لاتزال ترى في الجانب الداخلي للجدار في عام ١٩١١ • كما ان التنقيبات التي اجرتها دائرة الآثار القديمة كشفت عن وجود اكتاف من الطابوق والجص ، وذلك مما يدفع الى القول بان السقف لم يكن يستند مباشرة على الأعمدة (٥٤) •

المحراب :

اما محراب الجامع فانه يقع في منتصف الضلع الجنوبية . وكان قد تهدم واتخذ شكل باب • غير ان دائرة الآثار القديمة كشفت عن معالمه من تحت الانقاض واعادت بناء القسم الاسفل منه • لاعطاء فكرة عامة عن سابق وضعه (٥٥) • وهو تجويف مستطيل الشكل عرضه (٥٩ر٢م) وعمقه (٧٥ر١م) وهي نفس الأبعاد التي كانت متخذة حينذاك للمحاريب (٥٦) • وكان يحف به من الجانبين زوجان من اعمدة الرخام الوردي اللون ، وفي اسفل كل عمود واعلاه قاعدة بسيطة مستطيلة • ويقوم على العمودين قوسان متحدا المركز يشكلان عقادة المحراب ، وذلك ضمن اطار مستطيل بارتفاع جدار الجامع (٥٧) • وقد عثر بين اللقى على قطع من الفسيفساء المزجج النفيس والمذهب ، يرجح انها مما كان يغطي جدران المحراب • وقد اشار المقدسي الى ان حيطان الجامع قد لبست بالمينا (٥٨) • كما اشار الاربلي الى ان وجوه حيطان الجامع

---

(٥٤) العمارة العباسية / ١٤٥ ـ ١٤٦ •

(٥٥) الاثار القديمة العامة ـ سامراء / ٤٧ •

(٥٦) Creswell, E. M. A. P : 277.

(٥٧) ري سامراء ١/١١١ •

(٥٨) احسن التقاسيم / ١٢٢ •

جعلت من المرايا (٥٩) • ويظهر انهما قصدا بذلك الفسيفساء المزججة والمذهبة المشار اليها • وكان هرزفيلد قد فسر المينا بالموزاييك اي الفسيفساء (٦٠) • ويلاحظ ان المحور الرئيس للمحراب يشير الى ان اتجاه القبلة فيه يقع على ١٩٨ درجة و٣٠ دقيقة على حين ان القبلة تقع على ١٩٦ درجة و٤٦ دقيقة . اي ان اتجاه الجدار يرجع درجة واحدة و٤٤ دقيقة الى الشرق(٦١) • وهذا يتفق مع ما يقوله اليعقوبي عن سامرا « واسمها في الكتب المتقدمة زوراء بني العباس ويصدق ذلك ان قبل مساجدها كلها مزورة ، فيها ازورار ، ليس فيها قبلة مستوية »(٦٢) •

وكشف التنقيب عن وجود بابين صغيرين على جانبي المحراب احدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، وهما يؤديان الى بناية صغيرة كانت قائمة خلف المحراب • وقد قيل عن هذه البناية انها ربما كانت مكانا لاستراحة الخليفة اذا جاء للصلاة ، لأن قصور الخلفاء في سامرا كانت بعيدة عن المسجد الجامع • كما قد يكون احد البابين قد خصص لدخول الامام المسؤول عن الجامع كي لا يتخطى المصلين من ظهورهم اذا جاء للصلاة بهم (٦٣) •

النافورة :

كان صحن الجامع واسعا فسيحا ، وبعد رفع الركام المتجمع فيه ظهرت في وسطه آثار تدل على انه كانت هناك نافورة مدورة كبيرة • وقد اشار اليعقوبي اليها في معرض كلامه عن بناء الجامع

---

(٥٩) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٢ •

(٦٠) Creswell, E. M. A. P : 277.

(٦١) زي سامراء ١/٢٨٤هـ •

(٦٢) كتاب البلدان /٢٦٨ •

(٦٣) مجلة سومر المجلدان ١ و٢ من سنة ١٩٦٩ / ١٤٨ •

بقوله « وجعل فيه فوارة ماء لا ينقطع ماؤها » (٦٤) . وقال ياقوت الحموي ان المتوكل على الله « اشتق من دجلة قناتين شتوية وصيفية تدخلان الجامع وتتخللان شوارع سامراء» (٦٥) . وبذلك تأمن استمرار تدفق المياه من النافورة .

وقد اظهرت تنقيبات هرزفيلد ان الحوض كان يرتكز على قاعدة اسطوانية بنيت بالآجر بمونة الكلس والرماد وكسيت بالرخام . وعثر في الانقاض المجاورة للنافورة على قطع من اعمدة رخامية واجزاء من تيجانها ، وزخارف جصية مذهبة ، وقطع من الفسيفساء الزجاجية . ويرجح من وجود بقايا الأعمدة الرخامية حول قاعدة الحوض انه كان ثمة سقف فوق النافورة تحمله هذه الأعمدة (٦٦) . ووصف حمدالله المستوفي الحوض المشار اليه بانه كان قطعةواحدةمن الحجر محيطها(٢٣)ذراعا . وارتفاعها (٧) أذرع وسمكها نصف ذراع ، وكانت تعرف بكأس فرعون(٦٧) . واشار المؤرخ ابن الفوطي في حوادث سنة (٦٥٣هـ) الى انه في هذه السنة « حملت القصعة المعروفة بقصعة فرعون من سر من رأى الى بغداد في كلك ، ورفعت تحت دار الخليفة ، وكانت عظيمة جداً ، فلم تزل حتى سنة (٦٥٧هـ) ثم كسرت »(٦٨) .

وسبق ان ذكرنا ان الحوض الكبير الذي كان يتوسط الدار المربعة في جناح الحريم من دار العامة كان من الكرانيت المصري وانه يعود الى عهد الفراعنة ، ولذا يمكن القول بان حوض الجامع الكبير وهو صخرة عظيمة مجوفة كان قد جلب من مصر ايضا مع

---

(٦٤) كتاب البلدان / ٢٦٥ .
(٦٥) معجم البلدان ٣/ ١٧٥ .
(٦٦) ري سامراء ١/ ١١١ .
(٦٧) نفس المصدر .
(٦٨) الحوادث الجامعة / ٣٠٦ .

الحوض المذكور او بعده ، ومن هنا جاءت نسبته الى فرعون فسمي كأس فرعون او قصعة فرعون ·

جدران الجامع :

لم يبق من بناء الجامع شيء قائم غير جدرانه الخارجية التي تحيط بساحة مستطيلة طولها نحو ٢٤٠ متراً وعرضها ١٦٠ متراً ، اي ما مساحته (٣٨) الف متر مربع · وهذه الجدران سميكة لا يقل سمكها عن مترين ، ويناهز ارتفاعها عشرة امتار · وهي مبنية بناء جيداً متقنا بالآجر والجص · وتدعمها من الخارج ابـراج نصف دائرية عددها اربعون برجا ، اربعة منها في الاركان ، وثمانية في كل من الضلعين الشمالية والجنوبية ، وعشرة في كل مـن الضلعين الشرقية والغربية (٦٩) · الا ان المخططات التي وضعها الآثاريون ممن عنوا بدراسة بقايا الجامع ، مثل بيليه وهرزفيلد وفيسولـه وكريزويل تتفق في ان عدد الابراج الواقعة على كـل من الجانبـين الأطول منه (١٢) برجا ، وفي كـل مـن الجانبين الأخـرين (٨) ابراج ، فيصبح المجموع (٤٤) برجا (٧٠) ·

شيدت الابراج المذكورة على قواعد مستطيلة من صنفين او ثلاثة من الطابوق ، وهي تمس محيط البرج ، طولهـا (٩٠ر٣م) وعرضها (٢٥ر٢م) لأبراج الجوانب · اما ابراج الاركان فيبلغ طول القواعد التي تقوم فوقها (٤٥ر٥م) وعرضهـــا (٢٥ر٥) · ومعدل قطر ابراج الجوانب (٦٠ر٣م) اما ابراج الأركان فان اقطارها اكبر من ذلك · ويبلغ معدل بروز الابـراج جميعا بمـا فيها ابراج الأركان (١٥ر٢م) من كلا الوجهين ، عـدا البرجـين

---

(٦٩) الآثار القديمة العامة ـ سامراء / ٤٥ ·
(٧٠) العمارة العباسية / ١٣٣ ·

اللذين على جانبي المحراب فانهما مستطيلان من وجهما الداخلي حتى مستوى قمة الأبواب (٧١) ٠

ان الابراج خالية من النقوش والزخـــارف ٠ اما اجـــزاء الجدران الواقعة بين الابراج فانها مزدانة في قسمها الأعلى بست خسفات مربعة يظهر في وسط كل منها خسفة مستديرة تكسب الجدار رونقا وجمالا ٠ ويبلغ قطر الخسفة المستديرة متراً واحداً وعمقها (٢٥سم) وقد بني نصفها العلوي على شكل عقد نصف دائري ٠ ولايزال قسم من هذه الخسفات تكسوه طبقة من الزخارف الجصية ٠ وفوق الخسفات بثلاثين سنتمترا يوجد افريز يتكون من صفين من الآجر ٠ ويظهر على كل جزء من اجـزاء الجـدار بين الابراج شق شاقولي منتظم لاشك في انه كان يحتوي على المواسير المخصصة لتصريف مياه الامطار مما يتجمع فوق سطح الجامع(٧٢) ٠

وقد عثرت دائرة الآثار العامة في أثناء التحري والتنقيب في الجامع على قطع زجاجية زرقاء غامقة مربعة الشكل طـول ضلع الواحدة منها (٥٠سم) وسمكها (٥ر٣سم) ويبدو انها كانت بالأصل تزين الجزء السفلي من الجدار القبلي داخل الحرم الى ارتفـاع متر اعتبارا من تبليط ارضية الجامع ٠ وقد لوحظ ان هناك صفين من تلك القطع احدهما فوق الآخر ، وتكبس في الفراغات الفاصلة بينهما مساند مدورة من نفس الزجاج لزيـادة تماسـك القطـع الزجاجية التي كانت مثبتة في القديم على ثلاثة صفوف ٠ وماتزال آثارطبعاتها تشاهد بصورة سليمة جلية اسفل الجدار القبلي(٧٣) ٠

---

(٧١) نفس المصدر / ١٣١ ـ ١٣٣ ٠
(٧٢) لاثار لقديمة العامة ـ سامراء / ٤٦ ٠
(٧٣) العمارة العباسية / ١٥٠ ٠

ابواب الجامع ونوافذه :

كان للجامع سبعة عشر مدخلا تختلف سعة كل منها باختلاف موقعها . اثنان منها في الضلع الجنوبية ، وقد سبقت الاشارة الى انهما كانا مدخلين خاصين احدهما للخليفة والآخر لأمام الجامع . وقد اختيرت مواقع الأبواب الرئيسة الاخرى بشكل يتفق ونظام اروقة الجامع ، وكانت موزعة على جهات الجامع الثلاث الباقية . ففي الجهة الشرقية خمسة مداخل رئيسة عرض كل منها (٩٠ر٣م) باستثناء احدها فقد وسع بعدئذ ليبلغ عرضه (٨٥ر٤)م . وفي الجهة الغربية سبعة مداخل ، خمسة منها اصلية انشئت عند بناء الجامع وقد بنيت على غرار مداخل الجهـــة الشرقية من حيــث مقاييسها وطراز عمرانها ، وهي تقابلها تماما . اما المدخـــلان الآخران فقد اضيفا في وقت لاحق بناء على الحاجة اليهما بسبب تزايد عدد المصلين وتزاحمهم على الابواب . وكان عرض احدهما (٦٥ر٢م) وعرض الآخر (٢٥٨ر٢م) . اما الجهة الشمالية فقد كان فيها ثلاثة مداخل ، واوسطها اوسعها اذ يبلغ عرضه (٩٥ر٣م) وهو يقابل المنارة الملوية تماما (٧٤) .

ان جميع الابواب المذكورة مستطيلة الشكل ، وهـي تمتـد بواسطة دعامات ترتفع عليها عقــود ، وفــي اغلــب الابــواب تهدم البناء القائم فوقها ، الا انه تبين بعد فحص النوافــذ التــي بقيت مصانة انه كان هناك عقد مرتفـــع مسطح يســتند على عوارض (٧٥).

اما نوافذ الجامع فلم تكن كثيرة ، اذ خلت جدرانه منها عدا القسم الاعلى من الضلع الجنوبية ، اي الجدار القبلــي . حيث توجد سلسلة من النوافذ تبدو من الخارج كفتحات ضيقة مستقلة ،

---

(٧٤) مجلة سومر ـ العددان ١ و٢ لسنة ١٩٦٩ / ١٤٦ـ١٤٧ .
(٧٥) العمارة العباسية / ١٣٩ ـ ١٤٠ .

الا انها تاخذ في الداخل هيئة شبابيك جميلة • ويتألف كل واحد من هذه الشبابيك من دخلة مستطيلة الشكل يظهر داخلها عمودان من الآجر يحملان طاقا مكونا من خمس حنايا • وكان عدد هذه النوافذ (٢٤) نافذة ، اثنتان منها تقعان فوق البابين الذين على جانبي المحراب • ويحيط بكل نافذة اطار مستطيل ارتفاعه (٥ر٢م) وعرضه (٩٠ر١م) • وهناك شباكان آخران في جنوبي كل من الضلعين الشرقي والغربي • بحيث يصبح مجموع النوافذ (٢٨) نافذة . ويظهر ان الشبابيك الاربعة فتحت في وقت متأخر عن وقت البناء (٧٦) •

وقد عثر هرزفيلد في اثناء تنقيباته على نوعين من الزجاج يتألف النوع الأول من بقايا الواح زجاجية سميكة بيّن انها كانت تستخدم لهذه النوافذ ، والنوع الآخر قطع صغيرة مثلثة الشكل استخدمت لملء الحافات • ومما لفت نظره انه لم يجد هناك اية علاقة تذكر بين صف النوافذ وترتيب الابراج ، بل ان النوافذ جميعها متناسقة مع الاروقة الشمالية والجنوبية للحرم وتقع على محاورها (٧٧) •

الاسوار الخارجية للجامع :

يستدل من الحفريات التي اجريت في منطقة الجامع ومن الصور الجوية التي اخذت لها ، انه كان يحيط بالجامع سور عظيم من الآجر من جوانبه الشرقية والغربية والشمالية • ويحيط بهذا السور من الجوانب الاربعة سور كبير آخر يفصله عن السور الأول فضاء مكشوف عظيم الاتساع في جهاته الجنوبية والشرقية والغربية . ويضيق في الجهة الشمالية . يبلغ طوله (٤٤٤) مترا

---

(٧٦) مجلة سومر _ العددان ١ و٢ لسنة ١٩٦٩ ، ١٤٩ .

(٧٧) العمارة العباسية ، ١٤١_١٤٢

وعرضه (٣٧٦) متراً • ويدعمه (٦٨) برجا ، اربعة منها كبيرة دائرية الشكل في اركان السور ، وسبعة عشر برجا ، اربعة منها في كل من ضلعيه الشرقي والغربي ، وخمسة عشر برجا في كل من ضلعيه الشمالي والجنوبي ، وكلها بهيئة نصف دائرة (٧٨) •

كما لوحظت آثار ابنية بين جدران الجامع والسور الداخلي تدل على انها كانت مدارس دينية حول الجامع ، يدرس فيها الطلاب الذين كانوا يسكنون هناك ايضا ، على نمط المدارس الدينية الحالية الملحقة بالجوامع والأماكن المقدسة (٧٩) •

المنـارة الملوية :

الملوية مئذنة مخروطية الشكل تستند الى قاعدة مربعة ، ويُصعد الى قمتها من سطح مائل عريض يدور حولها من خارجها دوران الحلزون • وهي تقع خارج الجامع على بعد (٢٥ مترا) من ضلعه الشمالية وعلى محوره الأوسط ، وترتبط به بممر عرضه (١٢ متراً) • وكانت قد تعرضت الى تخريبات كثيرة وبخاصة في قاعدتها وفي لوالبها الاولى ، حتى ان معالم القاعدة كادت تزول تماما • فقامت دائرة الآثار القديمة باعمال الصيانة اللازمة لها منذ سنة ١٩٣٧ ، فأظهرت اسس القاعدة واعادت بناءها ، وعمرت اللوالب فاعادت المرقاة الى حالتها السابقة (٨٠) • وفي سنة ١٩٧٠ شيدت سلما حديثا عند جانبها الجنوبي ليسهل عملية الصعود اليها ، واصلحت التخريبات التي في بدن المنارة ورممت القمة ،

---

(٧٨) الاثار القديمة العامة ـ سامراء / ٤٩ ، مجلة سومر المشار اليها / ١٤٤ •
(٧٩) ري سامراء / ١١٢ •
(٨٠) الاثار القديمة العامة ـ سامراء / ٤٥ •

ونصبت سياجا حديديا حول بدن المئذنة بارتفاع مناسب ليؤمن خطر ارتقائها (٨١) ٠

ويمكن تقسيم المنارة الملوية الى ثلاثة اقسام هي : القاعدة ، وبدن المنارة ، وقمتها ٠

تتالف القاعدة من مربعين الواحد فوق الآخر وارتفاعهما معا ٢٠ر٤م وطول ضلع المربع الأسفل ٥٠ر٣١م ، وهناك افريز بارز بارتفاع ١٥سم يمتد حول الجوانب الاربعة للقاعدة ٠ اما المربع الثاني فهو فوق المربع السابق مباشرة واصغر منه قليلا ، وابعاده ٦٠ر٠آم٪٤٠ر٣٠م ٠ وجوانب القاعدة مزخرفة بعدد من الحنايا المستطيلة المجوفة ٠ فهناك ست حنايا على الجانب الجنوبي المقابل للضلع الشمالية للجامع ، وتسع حنايا على كل جانب من الجوانب الثلاثة الأخرى (٨٢) ٠

وتتصل قاعدة الملوية بالجامع بواسطة اسس آجرية يرجح انها بقايا السلم المتخذ للصعود الى هذه القاعدة ٠ فقد كشفت الحفريات التي قام بها هرزفيلد والتحريات التي اجرتها مديرية الآثار العامة عن وجود سلم منحدر طوله ٢٥ مترا وعرضه ١٢ مترا مشيد بالآجر ، يبدأ من نقطة تبعد عن جدار الواجهة الشمالية للجامع بمسافة قدرها ٢٥ر٢ متر ثم يأخذ ذلك المنحدر بالارتفاع حتى يتصل بالقاعدة المذكورة ، في نفس المكان الذي يبدأ فيه السلم الحلزوني الموصل الى أعلى المنارة الملوية(٨٣) ٠

ويرتفع بدن المنارة عن القاعدة ب ٥٠ مترا ٠ وتبدأ المرقاة الحلزونية التي تضمن الصعود الى القمة ، من وسط الضلع الجنوبية للقاعدة وتدور حول محور المئذنة باتجاه معاكس لاتجاه

---

(٨١) مجلة سومر ــ العددان ١ و ٢ من السنة ١٩٧٠/ ٢٨١ ٠

(٨٢) العمارة العباسية / ١٥٩ ٠

(٨٣) مجلة سومر المشار اليها آنفا / ٢٨٠ ٠

دوران عقرب الساعة ، خمس مرات • وهي تتناقص في سعتها كلما ارتفعت ، اذ انها تبدأ بعرض ٥٠ر٢م وتنتهي بعرض ٩٠ر١ • الى ان تصل باب القمة الذي ينفتح هو ايضا في وسط الضلع الجنوبية • ويقول هرزفيلد ان السلم الحلزوني كان له سياج من الخشب ، وقد استدل على ذلك من الثقوب التي رآها على الجانب الخارجي منه (٨٤) •

وتكون القمة اسطوانة يبلغ ارتفاعها ستة امتار ، وهي مزدانة بروازين عمياء مدببة العقد ومقعرة السطح ، عددها ثمان، غير ان احداها تقوم مقام باب ينفذ الى داخل الاسطوانة ويوصل الى ذروتها بواسطة سلم حلزوني يدور داخلها حول محورها (٨٥) • وهناك ثمانية ثقوب في قاعدة الاسطوانة استدل منها هرزفيلد انها ربما كانت تغطي ذلك الموضع سقيفة محمولة على ثمانية اعمدة خشبية مثبتة في تلك الثقوب • الا ان بعض الآثاريين رجحوا ان هذه الثقوب او الحفر تعود لأعمدة رخامية باعتبار ان الرخام اكثر مقاومة للعوامل الطبيعية • الا ان الهيئة الفنية التي انيط بها صيانة الملوية في سنة ١٩٧٠ عثرت في احد تلك الثقوب على بقايا من عمود خشبي ، مما دل على ان هرزفيلد كان مصيبا في استنتاجه(٨٦) •

طراز المنارة الملوية :

امتازت منارة الجامع الكبير في سامرا بانها طراز غريب في نوعه ، سواء من حيث شكلها ومظهرها ، او طريقة ارتقائها الى اعلاها • فقد كانت المنائر حتى تاريخ انشاء الملوية اسطوانية في

---

(٨٤) الآثار القديمة العامة ـ سامراء / ٤٥ •

(٨٥) نفس المصدر •

(٨٦) مجلة سومر ـ العددان ١ و ٢ لسنة ١٩٧٠/ ٢٨٠ •

شكلها او مربعة ويصعد اليها بسلالم داخلية • وكلما كانت المنارة مرتفعة سامقة كانت ادعى الى الجمال والروعة • وملـوية سامرا بضخامتها وشكلها المخروطي اللولبي ليست جميلة رائعة حسب ، بل انها مهيبة تملأ النفس رهبة وخشوعا اضافة الى سلـمها الخارجي الحلزوني ، مما اكسبها ميزة واضحة على غيرهـا مـن المنائر • ومن هنا كان اهتمام الآثاريين ، لاسيما المعماريين منهم شديدأ في معرفة اصول هذا الطراز من المنـائر ، وحـاولوا ان يتعرفوا على المصدر الذي اقتبسه منه معمار سامرا ، فطرحت عدة افتراضات لذلك ، وامعن بعضها في الغرابة حين افترض ان طراز الملوية مقتبس من معابد النار المجوسية • ويظهر ان اصحاب هذا الافتراض تناسوا ان الدين الاسلامي انما جاء ليقضي على المجوسية ومعابدها، مما لايمكن القول معه ان يقتبس طرازها • كما تناسوا اصالة حضارة وادي الرافدين وعمق جذورها ، وانهـا عرفت هذا النوع من البناء ذي السلالم الحلزونية الخارجيـة • فقد اقام العراقيون «الزقورات» في جنوبي البلاد وشماليها ، التي تميز جميعها بضخامتها وتعدد طوابقها وطريقة ارتقائهـا الى اعلاها • وهي نفس الصفات التي تميزت بها ملوية سامرا • لذا يصح ما قاله كريزويل بان السلم الحلزوني المستخدم في منـارة سامرا ومنارة جامع ابي دلف مقتبس من الزقورات(٨٧) ، قـولا مقبـولا •

ان الزقورات التي شيدت في سومر وبابل وآشور لم تكن من طراز واحد ، كما انها اختلفت فيها طريقة الوصول الى قمتها • فقد اتخذت في بعضها السلالم الاعتيادية المتصلة ببعضها بين طابق وآخر ، واتخذ في بعضها الآخر السلم الذي يدور حول البناء عدة دورات حتى يصل الى اعلاه • وكان برج بابل وزقورة خرسـباد

---

(٨٧) Creswell, E. M. A. P : 279

(دور شروكين) قد اتبع فيهما الاسلوب الأخير • ويقول هيرودوتس عن برج بابل « ان حارة الاله (جوبتر ـ بعل) المقدسة فناء مربع طول كل ضلع من اضلاعه نصف الميل ، ذو ابواب من البرنز الصلد ، كانت ما تزال باقية في زمني • ويقع وسط ذلك الفناء او الساحة برج ذو بناء صلد طوله ⅛ الميل وعرضه ⅛ الميل ايضا ، اقيم فوقه برج ثان وعلى هذا برج ثالث ، وهكذا الى البرج الثامن الأعلى • وكان الصعود الى القمة من الخارج بواسطة سلم يدور حول جميع الابراج ، وعندما يبلغ المرء منتصف المسافة في صعوده فانه يجد موضعا للاستراحة . حيث اعتاد الناس الجلوس بعض الوقت وهم في طريق ارتقائهم الى القمة »(٨٨) •

اما زقورة خرسباد (دور شروكين) فقد كشفت منذ ما يزيد على مائة عام على يد الباحث الفرنسي فكتور بلاس ـ Victor Place الذي عثر على ثلاث طوابق زبقايا طابق رابع ، ولم يجد الزقورة اسطوانية كما كان يتوقع بل وجدها مربعة الشكل طول ضلعها ٤٣,١٠ مترا ، ولها سلم يبدأ من الزاوية الجنوبية ويستمر على طول الواجهة ويلتف عند الزاوية ، ثم يرتفع مارا بالزوايا على التوالي حتى يجد الصاعد نفسه في الطابق الأول فوق النقطة التي بدأ بالصعود منها ولكن على ارتفاع ٦,١٠ متر • ويستمر السلم بالدوران حول البرج بعكس اتجاه دوران عقرب الساعة ـ كما في ملوية سامرا ـ حتى يتم صعود الطوابق الثلاثة بارتفاع ٦,١٠ متر لكل منها(٨٩) • ويقول المهندس المعماري الهولندي بوسنك ـ Busink احد المختصين بالموضوع ان الزقورة المذكورة تتألف من خمسة طوابق فقط ، وفي الطابق الخامس معبد الاله آشور . والوصول الى هذا الطابق لم

---

(٨٨) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ٥٧٠ •

(٨٩) Creswell, E. M. A. P : 279

يكـن بسلم اعتيادي وانما بمنحدر حلزونـــي يـــدور حـــول البرج(٩٠) •

ان ما اوردناه آنفا يوضح ان طراز ملوية سامرا طراز محلي عريق توارثته الاجيال في وادي الرافدين خلال العصور الطويلة من تاريخها ، بحيث لا يمكن الزعم بانه لم يكن هنـــاك نمـوذج لملوية في العراق عندما بنيت سامرا واسس الجامع الكبير ، في القرن الثالث ، وان المعمار الذي تولى بنايتها كان خبيراً ماهرا لا تنقصه القابلية على الابتكار والتطويـر فبنـاها على اساس دائري وليس مربعا ، فجاء بهذه التحفة الفنية التي ستبقى خالدة على مر العصور •

٥ ـ قصور المتوكل على الله :

اهتم المتوكل على الله ببناء القصور اهتماما عجيبـا يثيـر الانتباه • فقد بنى عدداً منها في انحاء مختلفة من سامرا ، وقـــد تفنن في تزيينها وزخرفتها وانشاء حدائقها وبركهـــا الجميلة • ولعله وجد في ذلك ما يشغله ويلهيه عن مشاكل القواد الأتراك ، ويحرره من ضغوطهم المالية والادارية • وقد سبقت الاشارة الى سوء العلاقة بين الطرفين ، ومحاولة كل منهما اخضـــاع الطرف الآخر او الفتك به والتخلص منه • الا ان مما يؤسف له انه رغم متانة بناء تلك القصور ورصانة اسسها ، لم يبق منها شيء سوى اطلال بعضها وآثار من اسسها تساعد الى حـــد مـا على معرفة تخطيطها ومساحاتها ومواد بنائها • اما ما احتوت عليه من ريازة وتصاوير وافاريز مما يعبر عما وصل اليه الفن العمراني فـي عهد سامرا ، فقد ذهب به الاهمال وعوادي الزمـن ، ولم يبـق سوى بعض القطع والكِسَر مما يعثر عليه بين الآكام ، فتتخـذ

---

(٩٠) Nenneveh and Btbylon, P. 11.

وسيلة للاستدلال والاستنتاج مما لا يمكن معه الوصول الى الحقيقة كاملة • وان ما جاء في طيات المصادر التي ذكرت تلك القصور لا يزيد على نتف واشارات لاتشفي الغليل ، وان ماقاله الشعراء فيها اقتصر على مدحها والتفاخر بها وذلك في معرض مدح الخليفة والثناء عليه والتزلف اليه • ولا يتضمن شعرهم شيئا عن محتوياتها او زخارفها ورسومها او اثاثها ، سوى النزر اليسير •

على اننا سنحاول ان نتحرى ما جاء في ثنايا الشعر وتلك المصادر عما كانت تضمه تلك القصور بين جدرانها من مرافق واجنحة ، وما يحيط بها من حدائق ، وما يزينها من برك واحواض • ويمكن اعتبار كتاب الديارات للشابشتي ومعجم البلدان لياقوت الحموي اغزر تلك المصادر عن القصور المذكورة • فقد ذكرا اغلبها واشارا الى بعض مما ذكرنا ، ولم يفتهما ان يبينا مقدار ما انفق من الأموال عليها • ويقدر الشابشتي مجموع ما انفقه المتوكل على الله على بناء القصور وعددها (١٩) قصراً بمائتي الف الف واربعة وسبعين الف الف درهم ومائة الف الف دينار (ولعلها مائة الف دينار) ، وهي تعادل آنذاك ثلاثة عشر الف الف دينار وخمسمائة الف دينار وخمسة وعشرين الف دينار[٩١] • ويقول ياقوت الحموي ان مجموع ما انفقه على ذلك هو مائتا الف الف درهم واربعة وتسعون الف الف درهم[٩٢] • اما النويري فيقول : « حكى المؤرخون انه أنفق في بنائها مائة الف دينار وخمسون الف دينار عينا ، ومائتا الف الف وثمانية وخمسون الف الف وخمسمائة الف درهم »[٩٣] •

---

(٩١) الديارات / ١٥٩ ـ ١٦٠ •
(٩٢) معجم لبلدان ٣/١٧٥ •
(٩٣) نهاية الأرب ١/٤٠٦ •

وسنحاول فيما يأتي من البحث ان نلم باكثر ما جاء في مصادرنا التراثية عن بعض تلك القصور ، وما اسفرت عنه التنقيبات والتحقيقات الحديثة عنها ·

قصر بلكوارا :

اختلفت المصادر في اسم هذا القصر ، اذ ورد باسماء متقاربة بالفاظها · فقد سماه اليعقوبي في (كتاب البلدان) «بلكوارا»(٩٤) · وورد في الطبري « بركوارا » (٩٥) · وذكره الشابشتي باسم « بركوار » وباسم «بركوارا»(٩٦) · اما ياقوت الحموي فقد سماه (يزكوار) و (بركوان) (٩٧) · ويبدو ان هذا الاسم من الكلمات الدخيلة ولذا تعددت صور رسمه والفاظه · ويقول الدكتور احمد سوسه ان المتوكل على الله اطلق عليه اسم «بلكوارا» الا ان بعض المؤرخين سموه بركوارا او بزكوارا(٩٨) · وفسر الاستاذ عبدالحميد الدجيلي الكلمة بقوله انها فارسية وضبطها الصحيح « بزركوارا » اي القصر العظيم الكبير جدا . ويرى الاستاذ احمد حامد الصراف ، وهو من الادباء المتقنين للغة الفارسية ان الأصح في تسميته هو « بركوارا » ومعناه الهانيء او الهنيء(٩٩) · ورأينا المستشرقين والآثاريين ممن اشاروا الى هذا القصر انهم آثروا استخدام الاسم « بلكوارا » الذي ذكره اليعقوبي ·

---

(٩٤) كتاب البلدان / ٢٦٥ ·
(٩٥) الطبري ٩/ ٤٩٠ ·
(٩٦) الديارات / ١٥٠ و ١٥٦ و١٥٩ و١٦٠ على التوالي ·
(٩٧) معجم البلدان ١/ ٤١٠ و ٣/ ١٧٥ و ٥/ ٧١ ·
(٩٨) ري سامراء ١/ ١٢٥ ·
(٩٩) الديارات / ٣٦٦ ·

لقد شيد المتوكل على الله هذا القصر في اقصى الجنوب لمدينة سامرا في منطقة القادسية عملا بخطته في توسيع عمران المدينة الى مختلف جهاتها . وتقع اطلاله اليوم على مسافة ستة كيلومترات من مدينة سامراء الحالية ويسمى موقعه « المنقور » . ذكره الشابشتي في معرض كلامه عن متنزه القادسية فقال : « وبالقادسية بني المتوكل قصره المعروف ببركوار . ولما فرغ من بنائه وهبه لابنه المعتز وجعل اعذاره فيه . وكان من احسن ابنية المتوكل واجلّها . وبلغت النفقة عليه عشرين الف الف درهم »(١٠٠) . واشار الى ان الايوان الذي اقيم فيه الاحتفال باعذار المعتز كان واسعا طوله مائة ذراع وعرضه خمسون ذراعا (١٠١) . وذكر ان المتوكل على الله كان يتردد على هذا القصر في المواسم والأعياد . ويجلس فيه للشراب (١٠٢) .

ويعتبر قصر بلكوارا القصر الوحيد من القصور التي بناها المتوكل على الله في سامرا مما امتدت اليه ايدي الآثاريين فكشفوا لنا عن معالمه ما لم تتضمنه المصادر التراثية . فقد نقب الاستاذ هرزفيلد في سنة ١٩١١ في هذه المنطقة واكتشف اسس ومعالم القصر المذكور . وقد لخص ما كتبه عنه مؤلف كتاب (العمارة العباسية في سامرا) تلخيصا وافيا سنعتمد في استعراضنا هذا عليه ما لم نشر الى مصدر آخر (١٠٣) .

تشغل مباني هذا القصر مساحة واسعة من الأرض تزيد على ثلاثة امثال مدينة سامراء الحالية عندما كانت مسورة . ويحيط به سور مستطيل ذو ابراج طوله (١٢٥٠) مترا . يرتكز جانبه

---

(١٠٠) نفس المصدر / ١٥٠ .
(١٠١) الديارات / ١٥٠ .
(١٠٢) نفس المصدر / ١٦٠ .
(١٠٣) العمارة العباسية / ١٦٥ ـ ١٧٠ .

الجنوبي على شاطيء دجلة الصخري الذي يرتفع بمقدار خمسة عشر مترا • وله ثلاثة ابواب تقع في منتصف الجدران الشمالية والشرقية والغربية • ويخترق البناء شارعان رئيسان متقاطعان • وكانت الأرض تضم الى جانب القصر مجموعة من المنازل وثكنات الحرس • وهناك حديقة واسعة خارج جدار القصر يحيط بها سور ذو دعامات يكسوه الملاط ، ينتهي عند الشاطيء بسقفيات غنية بالزخارف ، ويتوسط الحديقة حوض ماء كبير • وقد انشيء الى جانب الحديقة مرفأ خاص للسفن التي يستخدمها القصر(١٠٤) •

وكان للقصر مدخل رئيس كبير يتوسط جداره الشمالي الشرقي ، في منتصف ساحة مربعة عند تقاطع الشارعين • وتقسم بنايات القصر الى ثلاثة اقسام متوازية ، يحتوي القسم الأوسط منها على بوابة القصر الضخمة ، وثلاث رحبات وتسع قاعات مرتبة على شكل صليب • وتفتح غرف العرش على الرحبة الثالثة كقاعات كبيرة مفتوحة على النهر • وقد روعي التناسق المحوري والتشابه التام على جانبي القصر • وكانت الواجهات المطلة على الرحبة والحديقة ذات ثلاثة عقود ، كما هي الحال في دار الخليفة ، ويزيد العقد الأوسط منها اتساعا وارتفاعا على العقدين الجانبيين • وخصصت القاعات ذات المداخل والواجهات المتماثلة للاجتماعات العامة • اما القاعتان الخارجيتان الواقعتان على المحور الرئيس للقصر فلهما شكل الحرف T وكان ذلك مألوفا آنذاك في ابنية سامرا • وتقوم حول هاتين القاعتين رحبات وغرف كثيرة للسكن ، بينها حمام فاخر مكسو بالرخام •

وهناك اربع مجموعات من الغرف المتشابهة ، بين اذرع الصليب ، يتكون كل منها من ثماني غرف تدور حول فناء مربع

---

(١٠٤) ري سامراء ١/١٢٧ •

الشكل • وقد سقفت القاعات الكبيرة بالخشب ، او بسقوف معقودة على الأرجح • اما الغرف الصغيرة فقد سقفت بعقود من الطابوق •

وشيد عدد من المساكن في القسم الممتد بين رحبة الشرق الثالثة والحائط المطل على النهر • اما الفضاء المجاور للرحبتين فقد كان خاليا من البناء تقريبا • وهذه البيوت يمكن اعتبارها نماذج لطراز البيوت الخاصة في سامرا • فهي تتكون من ستعشرة غرفة مجتمعة حول فناء مستطيل الشكل . ويظهر انها كانت معدة لسكنى الحرم والخدم •

ويلاحظ عند حائط الرحبة الثالثة بقايا مسجد ذي اروقة منتظمة . وله محراب في رواقه الجنوبي ، ابعاده ١٥×١٢ مترا ، وله صفان من الاعمدة من الرخام او الخشب الساج • وكان المسجد مبنيا بالآجر ، ولم يبق منه سوى آثار مواضع الاعمدة واسس قواعدها • كما وجدت آثار مسجد صغير آخر في القسم الجنوبي من القصر ، تبلغ ابعاده ١٠ر٣٥×٧٦ر٧ متر ، وقد شيد باللبن . وله ثلاثة ابواب في جداره الشمالي ، ويتألف محرابه من حنية مستديرة عميقة تحيط بها انصاف اعمدة مزخرفة بزخارف ذات تقوير ، وهي تشكل اطارا مستطيلا للمحراب •

ويختلف القسم الشمالي من القصر في تخطيطه ، ففيه رحبات كبرى يرجح انها كانت ثكنات للحرس •

وقد تميز قصر بلكوارا بزخارفه الجصية التي كانت تغطي مساحات كبيرة من سطوح جدرانه وسقوفه وافاريزه • ومن طبيعة الزخارف التي تغطي مساحات واسعة انها تعتمد على تكرار الزخرف الواحد ، ولذا يقل التنوع فيها • ولقد زينت جدران بعض الغرف وسقوفها بصور مائية مموهة بالذهب اضافة الى الزخارف الجصية • وكانت تعلو الافاريز حنايا جدارية في ثلاثة

صفوف . السفلى منها مربعة ، والوسطى مدببة العقد ، والعليا دائرية . اما واجهة القصر ذات العقود الثلاثة فقد زينت بالفسيفساء الزجاجية على ارضية مذهبة .

وعملت ابواب الغرف من الخشب الجيد ، وقد حفرت عليها الزخارف والنقوش الجميلة المختلفة ، وقد موّه اكثرها بالذهب . كما موهت مساميرها النحاسية بالذهب كذلك . اما النوافذ فكانت مغطاة بالزجاج الملون بمختلف الالوان لاسيما الازرق والأصفر الغامق والفاتح ، والأخضر الغامق ، والأحمر القاني ، والبنفسجي والابيض الرائق .

يعد قصر بلكوارا عملا معماريا من الطراز الاول . ولا يعود ذلك الى سعة مساحته حسب، وانما لما اشتمل عليه من مظاهر عمرانية غنية ، وانسجام في مختلف اقسامه ، وتخطيط قاعاته ورحباته ، وتباين اشكال مداخله ، وبلغ اقصى عظمته المعمارية في واجهته ذات العقود الثلاثة المزينة بالفسيفساء . كما ان اختيار المواقع يشير الى مهارة هندسية كبيرة ، ومعرفة واسعة باختيار المواقع الممتازة للبناء . اذ ان الواقف في الحجرة الوسطى يرى باتجاه الشمال الغربي صحنا كبيرا من القاعات ورحبات الشرف الثلاث مع بواباتها ، والحديقة والنهر ، والاراضي المتموجة الممتدة الى الجزيرة .

وقد رتبت شتى العناصر المتباينة التي كان يتألف منها هذا القصر العظيم ترتيبا متناسقا فبدت جميلة التركيب . روعي في تخطيطها ان تكون واسعة النطاق على هيئة الحرف T بحيث ينتهي محورها الطويل العمودي على النهر بالغرف الثلاث المعقودة في الواجهة ، وقد زينت زينة بديعة بآيات النحت والفسيفساء(١٠٥) .

---

(١٠٥) دائرة المعارف الاسلامية ١١/٨٦ .

واعتبره الآثاري كريزويل من اعظم المنشآت المعمارية لكبر مساحته وضخامة حجمه ، وكثرة الظواهر الفنية المعمارية فيه(١٠٦) . ويقول عنه المستشرق الالماني بروكلمان انه اهم بناء لا تزال اسسه محفوظة لنا في سامرا ، وقد اعجب كثيرا بتخطيطه ومحتوياته وملحقاته ، وبخاصة ظاهرة الانسجام بينها(١٠٧) . ولخص العالم الآثاري ارنست كونل وصف القصر بمايلي : « بناه الخليفة المتوكل لأبنه المعتز ، بالقرب من سامرا ، على غرار قصر الحيرة . وبه عدة افنية كبيرة متتابعة وعدد من قاعات العرش المتعامدة ، ممتدة على طوله على هيئة ابهاء مكشوفة لها واجهات مؤلفة من ثلاثة عقود . وعن يمين وسطه ويساره تمتد اروقة بها عشرات من المساكن لكل منها فناء خاص . وينتهي ذلك كله بحديقة تتجه نحو دجلة ممتدة الى ما وراء السور الخارجي . وبها حوض ماء ومرسى للزوارق»(١٠٨) .

قصرا الشاه والعروس :

أعتبرهما اليعقوبي من القصور التي أنفق عليها المتوكل على الله اموالا عظاما(١٠٩) . وذكرهما الشابشتي في جملة القصور التي انشاها المتوكل على الله (١١٠) . وقال ياقوت الحموي عنهما « قصران عظيمان بناحية سامرا انفق على عمارة الشاه عشرون الف الف درهم وعلى العروس ثلاثين الف الف درهم . ثم نقضت في ايام المستعين ووهب نقضاتها لوزيره احمد بن الخصيب فيما

---

(١٠٦) زي سامرا ١/ ١٢٧ .
(١٠٧) تاريخ الشعوب الاسلامية ٢/ ٥٠ .
(١٠٨) الفن الاسلامي ٣٧ .
(١٠٩) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٩١ .
(١١٠) الديارات / ١٥٩ .

وهب له » (١١١) • كما انه ذكر قصر العروس وما انفق عليه في معرض بيان ما بناه المتوكل على الله من القصور (١١٢) •

وجاء في الاغاني « لما عقد المتوكل لولاة العهود من ولده ركب بسر من رأى ركبة لم يُر احسن منها ، وركب ولاة العهــود بين يديه ، والاتراك بين ايديهم اولادهم ، يمشون بين يدي المتوكــل بمناطق الذهب ، وفي ايديهم الطبرزينات المحلاة بالذهب • ثم نزل في الماء فجلس فيه والجيش معه ، في الجوانحيات وسائر السفن • وجاء حتى نزل في القصر الذي يقال له العروس . واذن للناس فدخلوا اليه • فلما تكاملوا بين يديه مَثَل ابراهيم بن العباس بين الصفين ، فاستأذن في الانشاد فاذن له ، فقال (١١٣) :

ولما بـدا جعفر في الخميـ ـس بين المنابل وبين العروس
بـدا لابســا بهمــا حلّة أزيلت بها طالعات النحوس
ولمــا بـدا بـين احبــابـه ولاة العهود وعـــز النفوس
غـدا قمــرا بـين اقمــاره وشمسا مكللــة بالشموس

وذكر في حوادث السنة (٢٣٧هـ) في النجوم الزاهرة « وفيها كان بناء قصر العروس بسامرا . وتكمل في هذه السنة ، فبلغت النفقة عليه ثلاثين الف الف درهم » (١١٤) •

قصرا المختار والبديع :

ذكر اليعقوبي قصر البديع بين القصور التي بناها المتوكل على الله (١١٥) • وذكر الشابشتي القصرين المختار والبديع في

---

(١١١) معجم البلدان ٣١٦/٣ •
(١١٢) نفس المصدر / ١٧٥ •
(١١٣) الاغاني ٦٤/١٠ •
(١١٤) النجوم الزاهرة ٢٩٠/٢ •
(١١٥) تاريخ اليعقوبي ٤٩١/٢ •

جملة قصور المتوكل على الله (١١٦) • وقال ياقوت الحموي عن قصر البديع : « اسم بناء عظيم للتوكل بسر من رأى »(١١٧) • وقال عن قصر المختار « قصر كان بسامرا من ابنية المتوكل • ذكر ابو الحسن علي بن يحيى المنجم عن ابيه ، قال : آخذ المتوكل بيدي يوماً وجعل يطوف الابنية بسامرا ليختار بيتاً يشرب فيه • فلما انتهى الى البيت المعروف بالمختار استحسنه وجعل يتأمله وقال لي : هل رأيت احسن من هذا البناء ؟ فقلت : يمتع الله امير المؤمنين ، وتكلمت بما حضرني • وكانت فيه صور عجيبة من جملتها صور بيعة فيها رهبان واحسنها صورة شهار البيعة • فأمر بفرش الموضع واصلاح المجلس • وحضر الندماء والمغنون ، واخذنا في الشرب • فلما انتشى في الشرب اخذ سكيناً لطيفاً وكتب على حائط البيت :

ما رأينا كبهجة المختار لا ولا مثل صور الشهار

مجلس حف بالسرور وبالنرجس والآس والغنا والزمار

ليس فيه عيب سوى ان ما فيه سيفني بنازل الأقدار

فقلت : يعيذ الله امير المؤمنين ودولته من هذا ، ووجمنا • فقال : شانكم وما فاتكم من وقتكم ، وما يقدم قولي خيراً ولا يؤخر شرا » (١١٨) • وقال ياقوت ان النفقة على قصر المختار كانت خمسة آلاف الف درهم (١١٩) •

وجاء في الطبري عن هذين القصرين ان المتوكل على الله لما امر ببناء الماحوزة ، وسماها الجعفري ، امر بنقض القصر المختار

(١١٦) الديارات / ١٥٩ •
(١١٧) معجم البلدان ١/٣٥٩ •
(١١٨) معجم البلدان ٥/٧٠ ـ ٧١ •
(١١٩) نفس المصدر ٣/١٧٥ •

والبديع وحمل ساجهما الى الجعفري(١٢٠) • ويقول الدكتور احمد سوسه ان الاطلال الموجودة في الساحة المسورة في حلبة السباق القديمة يرجح ان تكون من بقايا قصر البديع • ودليله على ذلك ان البحتري في احدى مدائحه الخليفة المعتز بالله اقترح عليه ان يمد فرع قناة سامرا الذي انشيء لتموين قصر الدكة بالماء . فيوصله الى قصر البديع ومنه ينهيه الى دجلة قرب الجوسق وذلك في قوله (١٢١) :

الحقه يا خير الورى بمسيرة
وامدد فضول عبابه المتدفق

فاذا بلغت به البديع فانما
انزلت دجلة في بناء الجوسق

ويلاحظ ان الشاعر يقصد بذكر البديع الموضع الذي كان يشغله القصر المذكور ، لأنه كان قد نقض في عهد المتوكل على الله . كما ذكرنا آنفا • ان يكون النقض قد شمل جانبا يسيرا منه وبقي القسم الرئيس للقصر ماثلا حتى عهد المعتز بالله •

قصرا الصبيح والمليح :

يفهم من قصيدة للبحتري يشير فيها الى اربعة قصور من قصور المتوكل على الله ، هي : الجعفري وشيراز والصبيح والمليح . ان قصر الصبيح شيد بعد المليح . وانهما يقعان في منطقة واحدة ، وهما متقابلان تتوسطهما بركة من الرخام الاخضر يسقيها جدول

(١٢٠) الطبري ٩/٢١٢ •
(١٢١) ري سامراء ١/١٢٥ •

ماء عليه دواليب يديرها النمام بدلا عن الجمال كما هو المألوف ، يقول فيها (١٢٢) :

واستتم الصبيح في خيـر وقت
فهـو مغنى انس ودار مقـام

ناظـر وجهـة المليـح فلـو
ينطق حيـاة معلنا بالسلام

البسا بهجـة وقابل ذا ذاك ،
فمـن ضـاحك ومن بسـام

كالمحبين لـو اطاقـا التقـاء
افرطا في العنـاق والالتـزام

مستمد بجدول من عباب المـاء
كالابيض الصـقيل الحسـام

فاذا ما توسط البركة الخضراء
القت عليه صبغ الرخـام

فتـراه كـأنه مـاء بحـر
يخدع العين وهـو مـاء غمام

والدواليب اذ يدرن ولا ناضـح بهـن غيـر النعـام

ان خير القصور اصبح موهوبا بكره العدى لخير الامام

وكان مبلغ ما انفق على كل من الصبيح والمليح خمسة آلاف الف درهم(١٢٣) • مما يستدل منه انهما قصران صغيران اعـدا للنزهة والاستراحة • ويظهر من قصيدة اخرى للبحتري امتدح بها

---

(١٢٢) كامل القصيدة في ديوان البحتري ٣/٢٠٠٤ ـ ٢٠٠٧ •

المتوكل على الله بعد انتهائه من بناء القصر الجعفري في المتوكلية في سنة ٢٤٦ هـ ، ان قصر الصبيح كان روضة بهيجة كثيرة الورود • وكنا ذكرنا بعض ابيات هذه القصيدة عند الكلام عن القصر الجعفري •

وقد ذكر الشابشتي هذين القصرين بين قصور المتوكل على الله(١٢٤) • كما كنا قد اشرنا في مكان آخر الى ان هذين القصرين يرجع انهما بنيا في المتنزه الذي انشأه المتوكل على الله في حير الحيوانات •

قصر البرج :

يقول اليعقوبي ان المتوكل على الله انفق على البرج الف الف وسبعمائة الف دينار (١٢٥) • ويقول ياقوت الحموي ان ما انفق عليه كان عشرة آلاف الف درهم (١٢٦) • وذكر الشابشتي نفس المبلغ الذي قال به اليعقوبي (١٢٧) • ويظهر مما سنذكره من بعض اوصاف القصر ان ما ذكره اليعقوبي والشابشتي اقرب الى واقع النفقة عليه •

يصفه الشابشتي بأنه « من احسن ابنية المتوكل . فجعل فيه صورا عظاما من الذهب والفضة ، وبركة عظيمة جعل فرشها ظاهرها وبطانتها صفائح الفضة - وجعل عليها شجرة ذهب فيها كل طائر يصوت ويصفر ، وكللة بالجوهر ، وسماها طوبى • وعمل له سريرا من الذهب كبير عليه صورتا سبعين عظيمين ، ودرج عليها

---

(١٢٣) معجم البلدان ٣/ ١٧٥ •
(١٢٤) الديارات / ١٥٩ •
(١٢٥) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٩١ •
(١٢٦) معجم البلدان ٣/ ١٧٥ •
(١٢٧) الديارات / ١٦١ •

صور السباع والنسور وغير ذلك ، على ما يوصف به سرير سليمان بن داود عليهما السلام • وجعل حيطان القصر من داخل وخارج ملبسة بالفسيفساء والرخام المذهب • فبلغت النفقة على هذا القصر الف الف وسبعمائة الف دينار • وجلس فيه على السرير الذهب ، وعليه ثياب الوشي المثقلة • وامر الا يدخل عليه احد الا في ثياب وشي منسوجة او ديباج ظاهرة • وكان جلوسه في سنة تسع وثلاثين ومائتين • ثم دعا بالطعام ، وحضر الندماء وسائر المغنين والملهين ، وكل الناس • ورام النوم فما تهيا له • فقال له الفتح : يا مولاي ، ليس هذا يوم نوم • فجلس للشرب • فلما كان الليل رام النوم ، فما امكنه ، فدعا بدهن بنفسج ، فجعل منه شيئا على راسه وتنشقه فلم ينفعه • فمكث ثلاثة ايام بلياليها لم ينم • ثم حم حمى حادة ، فانتقل الى الهاروني قصر اخيه الواثق ، فاقام به ستة اشهر عليلا ، وامر بهدم البرج وضرب تلك الحلى عينا»(١٢٨) •

وقد نقل النويري طرفا من هذا الوصف ، واضاف : وقد وصفه الشعراء فمن ذلك قول السري(١٢٩) :

مجلس في فناء دجلة ، يرتـاح اليـه الخليع والمستور

طائر في الهواء ، فالبرق يسري
دون اعـلاه والحمـام يطير

فاذا الغيم سار ، اسـيل منه
حلـل دون جـدره وستور

(١٢٨) الديارات / ١٦٠–١٦٢ •

(١٢٩) نهاية الأرب ١/٤٠٦–٤٠٧ • والسري هو الشاعر ابو الحسن السري ابن احمد بن السري الكندي ، الملقب بالرفاء ، لانه كان في صباه يرفو ويطرز الملابس • توفي سنة ٣٦٦هـ وقيل سنة ٣٤٤هـ – وفيات الاعيان ٢/١٠٤ – ١٠٥ •

واذا غارت الكـواكـب صبحاً
فهو الكوكب الـذي لا يغـــور

وقال ايضا :

منزل كالربيع حلت عليـه
حالبات السحاب عقد النطاق

يمتع العين في طرائف حسن
تتحامى بهـا عن الاطراق

بين سـاج كأنـه ذائـب
التبر مثل ذائـب الأوراق

ويظهر من هذا الوصف ان قصر البرج كان عظيم الارتفاع ، يناطح الغيم : ناصع البياض يغالب بياضه ضوء الشمس ، وانـه كان متعة للناظرين · ويوحي هذا الوصف ان القصر بقي عامرا شامخا حتى اواخر مقام الخلافة بسامرا وبعدها لمـدة عقـود مـن السنين بحيث ادركه الشاعر السري ووصفه بشعره المذكور · وقد اشار الشابشتي الى ان المتوكل على الله امـر بهدمه في اواسط عهده بالخلافة · الا ان يكون الهدم قد اهمل في حينه بالنظر لجمال القصر وروائه ، او ان الهدم اقتصر على قسم منه ·

القصور الاخرى :

وهناك قصـور اخرى شيدها المتوكل على الله ، الا ان ما جاء عنها في المصادر ليس فيه ما يستحق الذكر سوى نسبة تلك القصور الى الخليفة المذكور ، وذكر المبالغ التي أنفقت عليها · وقد يرد في بعضها معلومات قليلة جداً عنها · ومن هذه القصور مما اتفق على ذكرها الشابشتي وياقوت الحموي مايأتي (١٣٠) :

---

(١٣٠) الديارات ١٥٩/ ومعجم البلدان ١٧٥/٣ ·

البهو : وقد انفق على تشييده خمسة وعشرون الف الف درهم ، ولم يذكروا شيئا عن موضعه وتاريخ انشائه · ويبدو انه كان فخما فسيحا لارتفاع كلفته ·

الجعفري المحدث : بلغت النفقة عليه عشرة آلاف الف درهم · وقد ذكره الطبري في احداث سنة ٢٤٨ هـ ، وذلك عندما سكنه المنتصر بالله الذي آثر ترك المتوكلية والعودة الى سامرا ، وفيه كانت وفاته (١٣١) ·

شيراز : انفق عليه عشرة آلاف الف درهم · وذكره الشابشتي باسم « السندان » ·

الغريب : بلغت النفقة عليه عشرة آلاف الف درهم ·

قصر بستان الايتاخية : انفق على تشييده عشرة آلاف الف درهم · وسماه الشابشتي « القصر » · وقد يكون هو احد القصور التي ذكرها اليعقوبي ان عندها ينتهي شارع ابي احمد في قطيعة القائد ايتاخ (١٣٢) ·

القلائد : ذكره ياقوت الحموي وقال ان المتوكل على الله انفق عليه خمسين الف دينار ، ثم جعل فيه ابنية بمائة الف دينار · وذكره الشابشتي باسم « القلاية » ·

الجوسق : كان المعتصم بالله شيد قصرا كبيرا لسكناه على دجلة جنوبي دار العامة وسماه الجوسق الخاقاني · وقد اشرنا اليه والى اهميته في تاريخ سامرا · وبنى المتوكل على الله قصرا بنفس الاسم انفق عليه خمسمائة الف درهم (١٣٣) · ويظهر من ضآلة المبلغ الذي انفق على بنائه اذا ما قورن بما انفق على القصور الاخرى التي

---

(١٣١) الطبري ٩/٢٣٧ و٢٤٤ و٢٥٤ ·
(١٣٢) كتاب البلدان ٢٦١ ـ ٢٦٢ ·
(١٣٣) معجم البلدان ٣/١٧٥ ·

بناها الخليفة المذكور ، انه لم يكن قصراً فخما قائما بذاته ، بل ربما كان جناحا ملحقا بالجوسق الخاقاني فسمي باسمه ٠

وقد سبق للمتوكل على الله لما نزل في اول خلافته في القصر الهاروني انه بنى فيه ابنية جديدة ٠ فمدحه الشاعر علي بن الجهم ووصف بعض معالم هذا القصر بما يوحي كأن المتوكل على الله هو الذي بناه ، بقصيدة منها قوله (١٣٤) :

ما زلت اسمع ان الملوك ... تبني على قدر اخطارها
واعلم ان عقول الرجال ... يقضى عليها بآثارها
فللروم ما شاده الاولون ... وللفرس مأثور احرارها
فلما رأينا بناء الأمام ... رأينا الخلافة في دارها
بدائع لم ترها فارس ... ولا الروم في طول اعمارها
صحون تسافر فيها العيون ... وتحسر عن بعد اقطارها
وقبة ملك كأن النجو ... م تفضي اليها باسرارها
لها شرفات كأن الربيع ... كساها الرياض بانوارها
نظمن الفسيفس نظم الحلي ... لعون النساء وابكارها
فيضن كمصبحات برزن ... بفصح النصارى وافطارها
فمنهن عاقصة شعرها ... ومصلحة عقد زنارها
وسطح على شاهق مشرف ... عليه النخيل بأثمارها
وفوارة ثارها في السماء ... فليست تقصر عن ثارها
ترد على الحزن ما انزلت ... على الارض من صوب مدرارها(١٣٥)

---

(١٣٤) كامل القصيدة في ديوان علي بن الجهم / ٢٨-٣٠ ، ويقول ياقوت انه قالها في القصر الجعفري ــ معجم البلدان ٣/١٧٥ ٠

(١٣٥) ورد هذا البيت ببعض الاختلاف في «عيون الاخبار» ١/٣١٢ ٠

فلا زالت الارض معمورة   بعمرك يا خير عمارها

يتضح من بعض ابيات هذه القصيدة ان بناء القصر الهاروني كان مبتكراً في طرازه فاق ما يعرفه الروم والفرس من طرز البناء • وانه واسع الصحون فسيح الابهاء ، تعلوه قبة تناهز النجوم بارتفاعها ، وقد سبقت الاشارة اليها ، وله شرفات تزين جدرانها زخارف الفسيفساء وفيها صور الازهار ، وصور النساء من النصارى وهن بهيئات مختلفة من عاقصة شعرها ، ومصلحة عقد زنارها • كما يظهر ان المتوكل على الله اضاف الى القصر نافورة ماء ، فأشاد الشاعر بقوة دفعها الماء حتى لترد المطر الساقط من السماء • كما اشاد باهتمام الخليفة بالعمران وانه فاق غيره من الخلفاء في ذلك • وقد اشاد الشاعر نفسه بالبركة التي توسطتها الفوارة المذكورة ، وان المتوكل هو الذي انشأها في هذا القصر ، بقصيدة اخرى منها (١٣٦) :

انشأتها بركة مباركة   فبارك الله في عواقبها
حفت بما تشتهي النفوس لها   وحارت الناس في عجائبها
لم يخلق الله مثلها وطناً   في مشرق الارض ومغاربها
كأنها والرياض محدقة   بها عروس تجلى لخاطبها
من اي اقطارها اتيت رأيت الحسن حيران في جوانبها
للموج فيها تلاطم عجب   والجزر والمد في مشاربها

الوحيد والتل والجامع : انفرد ياقوت الحموي بذكر القصر « الوحيد » وقال ان المتوكل على الله انفق عليه الفي الف درهم • ويظهر من قلة كلفته انه كان دارا صغيرة للاستراحة • و « قصر التل » الذي انفق عليه خمسة الاف الف درهم • وهناك من يرجح

---

(١٣٦) ديوان علي بن الجهم / ٣٢ •

ان آثار البناية التي كشفت عنها تنقيبات هرزفيلد في قمة تل العليق قد تكون هي أطلال هذا القصر (١٣٧) .

كما انفرد الشابشتي بذكر قصر اسمه «الجامع» الا انه لم يبين موضعه ولا المبالغ التي انفقت عليه .

الفــرد :

ومن القصور التي ذكرها ياقوت الحموي قصر « الفرد » وقال عنه « هو بناء للمتوكل بسر من رأى في دجلة انفق عليه الفي الف درهم ، ولم يصح لي انا ضبطه وما اظنه الا الفرد ، والله اعلم» (١٣٨) . وقد ذكر البحتري هذا القصر في قصيدتين امتدح بهما المتــوكــل على الله ، فقد قال في احداهما (١٣٩) :

أحسن بدجلــة منظــــرا ومخيما
والفرد في اكتـــاف دجلــة منزلا

خضل الغناء متى وطئت تــرابــه
قلت : الغمام انهل فيــه فاسبلا

حشدت له الامواج فضل دوافـــع
أعجلـــن دولابيــــه ان يتمهلا

تبيض نقبتـــه ويسطع نـوره
حتى تكل العين فيـــه وتتــكلا

كالكوكب الدري اخلص ضوءه
حلك الدجى حتى تألق وانجــلى

---

(١٣٧) ري سامراء ١/١١٩ .
(١٣٨) معجم البلدان ٤/١٩٢ ـ ١٩٣ .
(١٣٩) ديوان البحتري ٣/١٦٥١ ـ ١٦٥٤ .

رفدت جوانبه القبـــاب ميامنـاً

ومياسـراً وسفلن عنـه واعتلى

فتخـــاله وتخـالهـــــن ازاءه

ملكا تدين لـه الملـوك ممثـــلا

وعلى اعاليـه رقيـب مـا ينى

كلفاً بتصريف الريـاح موكـــلا

من حيث دارت يطلـب وجههـا

فعل المقاتل جـــال ثـــم استقبلا

بدع لبدع في السمـاحة ما ترى

من امــره الا عجيبـا مجـذلا

ويفهم مما جاء في هذه الأبيات ان بناية الغرد كانت مرتفعة جدا بحيث انها تعلو على ما جاورها من المباني ، وانها كان في اعلاها ما يشير الى اتجاه الريح ، مما اعتبره الشاعر من الاعمال المبتكرة العجيبة .

وجاء ذكر « الغرد » في قصيدة اخرى للبحتري امتدح بهـا المتوكل على الله عندما عقـد الصلح مـع بني تغلب ، ومنهـا قوله(١٤٠) :

تؤم القصور البيض من ارض بابل

بحيث تلاقى (غردها) و (بديعها)

---

(١٤٠) نفس المصدر ٢/١٢٩٦-١٣٠١ .

اذا اشرق البـــرج المطـــــل رمينه

بأبصار خوص قد أرثت قطوعها

وفيها يصف الشاعر الأبل التي كدها السير وهي تنظـــر باعين غائرة الى هذه القصور السامقة • ويبدو ان القصور الثلاثة ، الفرد والبديع والبرج كانت متقاربة من بعضها •

* * *

الفصل الرابـع

تاسيس مدينة المتوكلية (الجعفرية)

١ ـ تاسيس المدينة :

كان اضخم اعمال المتوكل على الله العمرانيـة تأسيسه مدينـة جديدة سميت باسمه • فقد بذل اول امره جهودا كبيرة في توسيع مدينة سامرا وتحسينها وايصال الماء اليها ، وانفق على ذلك اموالا طائلة ، ليجعل منها اجمل مدينة تليق بأن تكون عاصـمة الدولـة العربية المترامية الاطراف • ولكن سامرا ، مع ما اقامه فيها مـن منشآت عمرانية ومشاريع اروائية ، لم تشبع طموحه ، بل انهـا ضاقت باحلامه ورغباته • فراح يفكر في انشاء مدينة جديدة يشرف على تخطيطها وبنائها وفق ما يطمح اليه من شـوارع عريضـة مستقيمة ، وقصور فخمة جليلة ، وحدائق غناء ومتنزهات جميلة ، ومبان واسعة لدواوين الدولة • واستولت عليه رغبة ملحة في ان تنسب اليه المدينة ليخلد بها اسمه • فأمر محمد بن موسى المنجم ومن يحضر ببابه غيره من المهندسين ان يختاروا موضعا صالحا لانشـاء مدينةخاصة به بالمواصفات التي يريدها • فوقعاختيارهم علىموضع يقع شمال مدينة سامرا ، بينها وبين تكريت، يقال له الماحوزة(١)،

(١) كذا سماها اليعقوبي والطبري والبلاذري ، الا ان المسـعودي وابن الاثير يسميانها «الماخورة» ـ كتاب البلدان / ٢٦٦ ، والطبري ٩/ ٢١٢ ، وفتوح البلدان ، ٢٩٥ ، ومروج الذهب ٤/ ١٣٠ ، والكامل ٧/ ٨٧ •

على بعد عشرين كيلومترا تقريبا من سامراء الحالية (٢) • وقالوا له ان المعتصم قد رأى ان يبني هنا مدينة ويحفر نهراً كان في الدهر القديم (٣) ، فلقي ذلك هوى في نفسه • ويظهر انه فضل هذا الموضع لأنه يمتد على ضفاف دجلة مثل مدينة سامرا ، وان فيه نهراً مندرسا يسد حاجة المدينة الجديدة ومنشآتها من المياه اذا ما اعيد حفره • وقد ايد المهندسون صلاحية المنطقة للبناء ، وان من الممكن احيـــاء النهر المذكور اذا ما توفرت النفقات اللازمة لذلك ، وكانوا قدروا النفقة على احيائه بالف الف وخمسمائة الف دينار (٤) • ومـــع جسامة المبلغ فقد رضي المتوكل على الله وطاب نفساً وأمر بالمباشرة بحفره بنفس الوقت الذي بوشر فيه بتخطيط المدينـــة والبنـــاء فيهـــا •

وقد حدد البلاذري موضع المدينة بقوله « ثم انه احدث مدينة سماها المتوكلية وعمرها واقام بها واقطع الناس فيهـــا القطائع ، وجعلها فيما بين الكرخ المعروف بفيروز والقاطول ، فدخلت الدور والقرية المعروفة بالماحوزة فيها ، وبنى بها مسجدا جامعاً »(٥) •

كانت اعمال تأسيس المدينة وبنائها بدأت مع البدء بحفـــر النهر ، فكان لابد من توفير المياه اللازمة لأعمال البناء ، ولذا امر المتوكل على الله بانشاء كهريز يستمد مياهه من نهر دجلة بالقرب من تكريت ويحملها الى موقع المدينة الجديدة على شاكلة قنـــاة سامرا التي سبق ان انشئت لأيصال المياه الى سامرا وكانت قناة جوفية ، ويمكن تتبع آثار هذا الكهريز على طول المسافة من صـــدره حتى

---

(٢) ري سامراء ٢/٣١٥ •

(٣) كتاب البلدان / ٢٦٦ •

(٤) كتاب البلدان / ٢٦٦ ، وفي الطبري ٩/٢١٢ ان ما قدر من النفقة كان مائتي الف دينار •

(٥) فتوح البلدان / ٢٩٥ ـ ٢٩٦ •

مدينة المتوكلية • فهو يبدأ من دجلة بالقرب من تلول هطرة ، ثم يسير بموازاة قناة سامرا « قناة المتوكل » فيخترق الدور ، ويتابع سيره الى جانب كهريزي القناة المذكورة حتى يصل امام قنطرة الرصاص التي على القاطول الاعلى ، فينحرف نحو الغرب • وبعد ان يقطع قناة سامرا والقاطول يتجه نحو مدينة المتوكلية • ولا تزال شبكة الكهاريز التي كانت تتفرع من الكهريز المذكور ماثلة يمكن مشاهدتها في عدة امكنة داخل اطلال مدينة المتوكلية (٦) • وكان ذلك ضروريا لتعذر نقل كميات المياه المطلوبة للبناء من نهر دجلة على ظهور الحيوانات •

وقد عين المهندسون مواضع قصور الخليفة ، ودار الخلافة والدواوين الرسمية ، والمناطق السكنية ، وقطائع القواد والجند • ووضعوا التفصيلات اللازمة لعمرانها ، وجيء بالعمال والبنائين ، وقام العمل على قدم وساق لانجاز المدينة بأقصر وقت ممكن • ومدوا الشارع الأعظم من دار اشناس التي بالكرخ ، وكانت قد صارت للفتح بن خاقان ، مسافة ثلاثة فراسخ شمالا ، وجعلوا عرضه في مدينة المتوكلية مائتي ذراع ، وقدروا ان يحفر على جانبيه جدولان يجري فيهما الماء من النهر الكبير الذي بوشر بحفره • واقطع الخليفة ولاة عهوده الثلاثة وسائر اولاده ، وقواده وكتابه وجنده ، وسائر الناس كافة ، عن يمين الشارع الاعظم وعن يساره ، وجعل الاسواق الكبيرة في موضع منعزل ، كما جعل في كل مربعة وقطيعة سوقا خاصا بها (٧) • وقد بدأ العمل في بناء المدينة في سنة ٢٤٥هـ •

وتميز الشارع الأعظم بطوله واستقامته ، ولا سيما بعد انامتد الى آخر مدينة المتوكلية وضوعف عرضه • اذ بعد ان يترك سور

---

(٦) ري سامراء ٢/٢٤٠-٢٤٢ •

(٧) كتاب البلدان / ٢٦٦ - ٢٦٧ •

اشناس يتجه شمالا مسافة كيلومترين تقريبا ثم ينعطف نحو الغرب قليلا فيسير باتجاه مستقيم بين نهر دجلة والقاطول الاعلى ، وبعد ان يسير مسافة كيلومتر واحد تقريبا يتضاعف عرضه الى مائتي ذراع ، ويستمر في نفس الاتجاه مسافة ستة كيلومترات ونصف الكيلومتر تقريبا فيجتاز السور الذي يفصل بلاط الخليفة وقصوره ودواوين الدولة عن بقية المدينة ، فيعود الى عرضه السابق حتى يصل الى نهاية المدينة • وواضح ان هذه المنطقة من المدينة يقل فيها الزحام ، وتتطلب الهدوء ، ولذا فلا تحتاج الى ذلك الشارع العريض • ويبلغ طول الشارع الاعظم في داخل مدينة المتوكلية حوالي اثني‌عشر كيلومترا ونصف الكيلومتر(٩) •

ويظهر ان تصميم مدينة المتوكلية وضع على اساس تقسيمها الى ثلاثة اقسام : اولها القسم الجنوبي منها ويعرف باسم دور عربايا او الدور العربائي ، وقد خصص لسكنى الناس بصورة عامة وكانت شوارعه الفرعية مستقيمة ومتوازية ، ويخترق الشارع الأعظم هذا القسم من المدينة من الجنوب الى الشمال ، وكان يعرف بالشارع الغربي ، والى شرقيه شارع آخر هو امتداد لشارع ابي احمد في سامرا ، وكان يسمى بالشارع الشرقي • وخصص القسم الممتد على ضفاف دجلة من هذا الجزء من المدينة الى الفتح بن خاقان وابراهيم بن رباح • وقد سبق ان اشرنا الى ان دار اشناس وقطيعته قد صارت الى الفتح بن خاقان(١٠) •

والقسم الثاني هو القسم الوسطي من المدينة وقد خصص لقطائع القواد واصحابهم ، فكان لكل قائد قصر خاص يطل على دجلة ، وتمتد قطيعته التي تنتشر فيها مساكن اتباعه من الجند ،

---

(٨) كتاب البلدان / ٢٦٦ ، والطبري ٢١٢/٩ ، والكامل ٨٧/٧ •

(٩) كتاب البلدان / ٢٦٦ وري سامراء ٢ / ٢٣٩ •

(١٠) ري سامراء ٢ / ٦٢٤_٦٢٥ •

شرقي قصره ، فتخترق الشارع الأعظم وشارع ابي احمـــد حتى تنتهي الى ضفة القاطول الاعلى • وفي هذا الجزء من المدينـة يتسع عرض الشارع الأعظم الى مائتي ذراع ، وتتفرع من جانبيه شوارع فرعية بزوايا قائمة ، تنتهي الغربية منها الى ضفاف نهر دجلة ، وتنتهي الشرقية الى ضفاف القاطول الاعلى • وشيد في شمالي هذا القسم جامع المدينة المعروف باسم جامع ابي دلـف ومئذنته الملوية • وينتهي القسم الوسطي من المدينة شمالي الجامع بقليل حيث يبدأ القسم الثالث منها ، وهو القسم الشمالي الذي خصص لدار الخلافة ودواوين الدولة وقصور المتوكـل على الله ، ويفصله عن بقية اجزاء المدينة سور يمتد بين ضفـة القـاطول الأعلى ونهر دجلة وله ثلاثة ابواب عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه(١١) • بحيث كانت هذه المنطقة معزولة تماما عن المدينة • وقد روعيت حماية هذا القسم وعزلته فقد كان يحده من الشمال والشرق نهر القاطول الاعلى ، ومن الغرب نهر دجلة ومن الجنوب السور الذي مر ذكره • ولا سبيل للوصول الى هذا القسم من غير الابواب الثلاثة المارة الذكر • كما يلاحظ ان دار الخلافة ودواين الدولة وقصور الخليفة قد احيطت هي الاخرى بسور خاص بهـا يبلغ طوله اربعة كيلومترات ونصف الكيلومتر تقريبا • وقد تركت بين السور الفاصل بين القسمين الوسطي والشمالي ، والقسـم الخاص بدار الخلافة والدواوين مساحات واسعة نظمـت فيهـا حدائق وبساتين يخترقها شارعان يؤديان الى دار الخلافة ودواوين الدولة (١٢) •

وكان المتوكل على الله يتفقد بنفسه سير العمـل فـي بنـاء مدينته ، وفي حفر النهر ، فمن رآه من العاملين قد جد في البناء

---

(١١) كتاب البلدان / ٢٦٦ •

(١٢) ري سامراء ٢/٦٤٥ـ٦٢٧ •

اجازه واعطاه ، فجد الناس ونشطوا للعمل (١٣) ، وبلغ من حرصه على متابعة العمل والاسراع في انجازه انه انتقل الى قرية المحمدية ليكون قريبا من الماحوزة ليسهل عليه الاشراف على ذلك(١٤) . والمحمدية قرية قريبة من الماحوزة كانت تعرف بالايتاخية نسبة الى القائد التركي ايتاخ ، وسماها المتوكل على الله المحمدية باسم اكبر ابنائه محمد المنتصر ، وكانت تعرف قبل انشاء سامرا بدير ابي الصفرة ، وهم قوم من الخوارج(١٥) . ويرجح ان تسميتها بالمحمدية كانت بعد ان تمكن من القائد المذكور وقتله . ويتبادر الى الذهن ان اقامة المتوكل على الله في المحمدية ، ربما كانت وسيلة للتخلص من معاكسة القواد الاتراك له في سامرا والابتعاد عن مشاكلهم العديدة معه .

لقد ارتفع البنيان في خلال مدة تزيد على السنة ، اذ بنيت القصور وشيدت الدور . وسمي المتوكل على الله المدينة الجديدة « الجعفرية » نسبة اليه ، الا انه كان هو وخاصة اصحابه يسمونها « المتوكلية » (١٦) . وكان البناء قد اتصل منها الى الدور ثم الكرخ وسامرا حتى اسفل المطيرة ، حيث شيد قصر المعتز بن المتوكل على الله ، ولم يبق بين ذلك مكان لا عمارة فيه ، وكان مقدار ذلك سبعة فراسخ(١٧) .

وانتقل المتوكل على الله الى قصور هذه المدينة في اول يوم من المحرم من سنة ٢٤٧هـ . فلما جلس اجاز الناس بالجوائز السنية ووصلهم ، واعطى جميع القواد والكتاب ، ومن تولى عملا وساهم في تأسيس المدينة . وتكامل له السرور حتى قال : « الآن علمت اني

(١٣) كتاب البلدان / ٢٦٦ .
(١٤) الطبري ٩/٢١٢ .
(١٥) معجم البلدان ٥/٦٥ .
(١٦) كتاب البلدان / ٢٦٦ ، والطبري ٩/٢١٢ ، والكامل ٧/٨٧ .
(١٧) كتاب البلدان / ٢٦٦-٢٦٧ .

ملك اذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها » (١٨) • واقام فيه احتفالا جمع فيه القراء ، واحضر اصحاب الملاهي ، ووهبهم اكثر من الفي الف درهم (١٩) •

وامر الخليفة بان تنقل دواوين الدولة من سامرا الى الجعفرية،فنقل ديوان الخراج وديوان الضياع وديوان الزمام وديوان الجند والشاكرية وديوان الموالي والغلمان وديوان البريد ، وجميع الدواوين الاخرى (٢٠) • ومن الطبيعي ان ينتقل الى العاصمة الجديدة حاشية الخليفة وندماؤه ومستشاروه ، ورجال الدولة وموظفوها ، وكل من له علاقة بمؤسساتها ودواوينها المختلفة • كما انتقل اليها العديد من الناس اقتداء بالخليفة ورغبة في التجديد • ويقول ياقوت الحموي : « ولما انتقل المتوكل من سامراء الى الجعفرية انتقل معه عامة اهل سامراء حتى كادت تخلو . فقال في ذلك ابو علي البصير هذه الأبيات » (٢١) ، منها قوله :

ان الحقيقة غير ما يتوهم   فاختر لنفسك أي امر تعزم

أتكون في القوم الذين تأخروا   عن حظهم ام في الذين تقدموا

لا تقعدن تلوم نفسك ، حين لا   يجدي عليك تلوم وتندم

أضحت قفارا سر من را ما بها   الا لمنقطع به متلوم

تبكي بظاهر وحشة وكأنها   ان لم تكن تبكي بعين تسجم

رحل الامام فاصبحت ، وكانها

عرصات مكة حين يمضي الموسم

---

(١٨) نفس المصدر / ٢٦٧ •
(١٩) الطبري ٩/٢١٢ ، والكامل ٧/٨٧ •
(٢٠) كتاب البلدان /٢٦٧ •
(٢١) معجم البلدان ٢/١٤٣ـ١٤٤ •

وكأنما تلك الشوارع بعض ما
أخلت اياد من البلاد وجرهم

كانت معاداً للعيون ، فأصبحت
عظة ومعتبراً لمن يتوسم

فارحل الى الارض التي يحتلها
خير البرية ، ان ذاك الأحزم

وانزل مجاوره باكرم منزل
وتيمم الجهة التي يتيمم

ارض تسالم صيفها وشتاؤها
بالجسم بينهما يصح ويسقم

ومن اشهر ما قيل من الشعر في مدينة المتوكلية ما قاله الشاعر البحتري يمتدح المتوكل على الله ويشيد بالمدينة الجديدة • فقد قال في ذلك قصيدة منها (★) :

يهنيك في المتوكلية أنها
حسن المصيف بها ، وطاب المربع

فيحاء مشرقة يرق نسيمها
ميث تدرجها الرياح واجرع

وفسيحة الاكناف ضاعف حسنها
بر لها مفضى وبحر مترع

(★) ديوان البحتري ــ طبعة بيروت ، ١/٤٢ـ٤٤ •

قد سر فيها الاوليـــاء اذ التقــوا
ببناء منبــرها الجــديـد فجمعوا

فارفع بدار الضــرب باقي ذكرهــا
ان الرفيـــع محله مــن ترفـــع

ومن قوله في قصيدة اخرى (٢٢) :

اری المتوكلية قــــد تعــالت محاسنها ، واكمـلت التماما
قصور كالكواكب لامعــــات يكدن يضئن للساري الظلاما
وبر مثل بــرد الوشي فيــــه جنى الحوذان ينشر والخزامى
اذا برز الربيـــع لــه كســته غوادى المزن والريح النعامى
غرائب من فنون النبت فيها جنى الزهر الفرادى والتواما
تضاحكها الضحى طوراً وطــوراً
عليها الغيـــث ينســجم انسجاما

عندما انتقل المتوكل على الله الى عاصمته الجديدة كان الخلاف بينه وبين القواد الاتراك قد بلغ درجة خطيرة • ومـمـا زاد فـي خطورة هذا الخلاف ان ولي العهد محمد المنتصر انضم الى معارضي ابيه • وبلغ الخلاف بين الجانبين ان بات كل جانب منهمـــا يتربص بالجانب الآخر ويعمل على التخلص منه • وسرعان ما نجح الجانب التركي في تدبير مؤامرة اغتيل فيها الخليفة ، ولم يكن قد مضى على انتقاله الى المتوكلية سوى تسعة اشهر وثلاثة ايام • اذ قتـــل ليلة الاربعاء لأربع خلون من شوال سنة ٢٤٧هـ(٢٣) •

---

(٢٢) ديوان البحتري ـ طبعة بيروت ، ١/٣٧ـ٣٩ •
(٢٣) الطبري ٩/ ٢٣٠ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٩٢ ، ومروج الذهب ٤/ ١١٨ •

وتولى الخلافة محمد المنتصر ، فلم يلبث في المتوكلية سوى ايام قليلة ثم انتقل الى سامرا ، وامر الناس جميعا بالانتقال عن الماحوزة وان يهدموا المنازل ويحملوا النقض الى سامرا . فانتقل الناس ، وخربت قصور مدينة المتوكليـــة ومنازلهـــا ومساكنها واسواقها في اسرع مدة بحيث صار موضعها موحشا لا انيس فيه ، كأنه لم يعمر ولم يسكن من قبل (٢٤) . ويقول البلاذري ان المنتصر انتقل الى سامرا يوم الثلاثا لعشر خلون من شـــوال (٢٥) . امـــا المسعودي فيرى ان مقام المنتصر بالله بعد ابيه في الماحوزة سبعة ايام ثم انتقل منه وامر بتخريب المدينة (٢٦) . بينما يرى الطبـــري ان اقامته كانت عشرة ايام ثم تحول بعيـــاله وقواده وجنـــوده الى سامرا (٢٧) .

تقع اطلال مدينة المتوكلية على ضفاف نهر دجلة ، على بعد عشرة كيلومترات من الحدود الشمالية لسامرا . ولا تزال آثـــار السور العظيم الذي كان يحيط بدار الخلافة والدواوين وقصـــور الخليفة والذي يربو طوله على اربعة كيلومترات ونصف الكيلومتر ماثلة للعيان . وتبلغ مساحة الأرض التي كانت تشغلها هذه المباني (٥٤٠) دونما . كما ان هناك آثار سور آخر يقع جنوبي الســـور السابق، وكان يمتد بين ضفة نهر دجلة والضفة اليمنى لنهر القاطول ويفصل دار الخلافة والدواوين وقصور الخليفة عن بقية المتوكلية كما اشرنا آنفا (٢٨) . ولعدم القيام بالتنقيب في اطلال المدينـــة خلا ما قامت به مديرية الآثار القديمة العامة من التنقيب المحدود في اطلال بعض الدور السكنية ، فلم تتوفر معلومات كافية واضحة

---

(٢٤) كتاب البلدان / ٢٦٧ .
(٢٥) فتوح البلدان / ٢٩٦ .
(٢٦) مروج الذهب ٤/ ١٣٠ .
(٢٧) الطبري ٩/ ٢٣٤ .
(٢٨) ري سامراء ١/ ١٢٩ .

عن المدينة • وكان هرزفيلد قد القى نظرة خاطفة على هذه المنطقة من سامرا دون ان ينقب فيها كما سنذكر فيما بعد عند الكلام عن القصر الجعفري •

٢ ـ النهر الجعفري :

في الوقت الذي كان فيه العمال منهمكين في انجـاز مبـاني ومنشآت المدينة المتوكلية في الماحوزة كان عدد كبير جداً من عمال الحفر منهمكين ايضاً في حفر النهر الذي سيوصل المياه الى المدينة الجديدة • فقد عهد الخليفة المتوكل على الله الى دليل بن يعقـوب النصراني كاتب القائد بغا الكبير ، بأمر الاشراف على حفر النهر المذكور الذي اطلق عليه اسم الخليفة جعفر المتوكل على الله فسمي النهر الجعفري • وقد استخدم في حفره اثنى عشر الف رجل ، ولم يزل دليل يحمل المال اجوراً للعمال وللنفقات الاخرى مما يستلزمه العمل (٢٩) •

يتفرع النهر الجعفري من الضفة الغربية لنهر دجلة من موضع يقع شمالي تكريت بما يقرب من ٣٨ كيلومتراً ، ويسـير موازيا لدجلة مسافة ٢٠ كم تقريبا ، فيتجة نحو الشرق مبتعداً عن دجلـة وبعد ان يجتاز الدور (دور تكريت) يصل الى تل اصطناعي يسمى « تل البنات » وهو تل كبير ينقسم عنده النهر المذكور الى فـرعين يحيطان بالتل • ثم يعود الفرعان بعده للالتقاء ثانيـة ، فيسير النهر مقترباً من دجلة حتى يصل القاطول الاعلى عنـد قنطرة الرصاصي الواقعة على مسافة ٧٫٥ كلم من صدر القاطول ، وهنا يتشعب الجعفري الى ثلاثة فروع ، فيعبر فرعان منه نهر القاطول ، يعبر احدهما على عبارة فوق القنطرة المذكورة ، ويعبر الفـرع

---

(٢٩) الطبري ٩/٢١٢ •

الآخر على عبارة اخرى شمالي العبارة السابقة ، ويصب الفرع الثالث في نهر القاطول • وبعد ان يعبر الفرعان ينتهيان الى حوض كبير انشىء في ضفة القاطول اليمنى لتتجمع فيه مياههما • ثم تتشعب من الحوض عدة جداول يمتد احدها الى مدينة المتوكلية ، ويوصل الآخر المياه الى السواقي التي حفرت على جانبي الشارع الأعظم ، ويمتد جدول ثالث الى القصر الجعفري ليزود بركته الواسعة بالمياه • ويبلغ طول النهر الجعفري من مبدئه حتى البركة حوالي ٦٣ كلم (٣٠) •

وكانت العبّارة التي انشئت على قنطرة الرصاصي لعبور فرع النهر الجعفري تستعمل بنفس الوقت جسراً لعبور الناس والدواب ايضاً • ويرجح ان الجعفري كان يجري وسط العبارة ، وعلى جانبيه ممران للسابلة والحيوانات ، ويظهر ان العبارة بقيت تستخدم جسراً للعبور بعد ان اهمل النهر الجعفري • وكانت العبارة الشمالية اصغر وتقتصر على عبور فرع الجعفري عليها • ويلاحظ من الآثار المتبقية لقنطرة الرصاصي الأصلية انها كانت تتألف من ثلاث دعامات وان مجرى النهر كان يمر من تحت القنطرة بفتحتين معقودتين بطاقين ضخمين ، عرض كل فتحة عشرة امتار • ويبلغ طول البناء الذي يشتمل على الفتحتين والدعامات الثلاث تسعاً وعشرين متراً ، وقد قلع هذا البناء من اساسه لاستخراج الرصاص من احجاره (٣١) •

وهناك اختلاف في روايات المؤرخين عن النهر الجعفري . فبعضهم يقول انه لم يتم حفره ، وبعضهم يرى أنه تم انجازه الا ان الماء لم يجر فيه بالشكل المطلوب • يقول الطبري ان المتوكل على

---

(٣٠) ري سامراء ٢/٣١٩ـ٣٢١ •
(٣١) نفس المصدر / ٣٣٤ ـ ٣٣٦ •

الله قتل فبطل العمل في النهر واخربت الجعفرية ونقضت ولم يتم امر النهر (٣٢) • ويقول اليعقوبي ان النهر لم يتم امره ولم يجر فيه الماء الا جريا ضعيفاً لم يكن له اتصال ولا استقامة رغم انه انفق عليه قرابة الف الف دينار ، وهو يعزو صعوبة حفره الى صلابة الأرض وطبيعتها المتكونة من الحصا والانهار مما لا تعمل فيه المعاول الا بصعوبة بالغة (٣٣) • اما ابن الأثير فيقول ان المتوكل على الله حفر للمدينة نهراً ، وقتل فبطل حفر النهر واخربت المدينة (٣٤) • ويلاحظ من هذه الروايات ان الطبري وابن الأثير يتفقان في ان النهر لم يتم حفره لموت المتوكل على الله ، بينما يفهم من رواية اليعقوبي ان حفر النهر لم يتم كما يجب ، اي ان حفره كان فاشلا بسبب صلابة الأرض ولذا فقد كان جريان الماء فيه ضعيفا متقطعا •

ويظهر من رواية اوردها احمد بن يوسف الكاتب عن مشروع هذا النهر ان ما ذهب اليه اليعقوبي اقرب الى الصواب • وخلاصة ما يقوله : أن المتوكل على الله طلب الى محمد واحمد ابني موسى بن شاكر ، وهما من المتقدمين في علم الرياضة والهيئة وحركات النجوم والحيل ، ان يتوليا حفر النهر الجعفري • فَكَلَّفا احمد بن كثير الفرغاني ، وهو مهندس كان قد عمل المقياس الجديد لنهر النيل بمصر في سنة ٢٤٧ هـ « فغلط في فوهة النهر وجعلها اخفض من سائره ، فصار ما يغمر الفوهة لا يغمر سائره » فلما علم المتوكل كلف المهندس سند بن علي بأن يتحرى امر النهر المذكور ويبين له ما اذا كان هناك خطأ ارتكب فيه لكي يعاقب الاخوين ابني موسى بن شاكر •

---

(٣٢) الطبري ٩/٢١٢ •

(٣٣) كتاب البلدان / ٢٦٧ •

(٣٤) الكامل ٧/٨٧ •

وكان قد سبق للأخوين المذكورين ان اساءا الى سند بن علي بان سميا به لدى المتوكل على الله وباعداه عنه • كما كانا قد دبرا على الكندي العالم الفيلسوف عند المتوكل على الله فغضب عليه ، فتوجها الى داره واستوليا على مكتبته • ولذا فقد توسلا الى سند بن علي ان يتستر على عيوب النهر والاخطاء التي ارتكبت في تخطيطه وحفره • فاشترط سند عليهما ان يعيدا الى الكندي منزلته لدى الخليفة ، ويعيدا اليه مكتبته فأعاداها وأخذا خطه بذلك • فقال لهما سند : « الخطأ في هذا النهر يستتر مدة اربعة اشهر ، وهي فترة زيادة نهر دجلة ، وقد اجمع الحُسّاب ـ اي المنجمون ـ على ان امير المؤمنين لا يبلغ هذا المدى ، وانا اخبره الساعة انه لم يقع خطأ في النهر ، ابقاء على ارواحكما ، فان صدق المنجمون افلتنا نحن الثلاثة ، وان كذبوا وجاءت مدته حتى تنقص دجلة وينضب النهر اوقع بنا ثلاثتنا » • فشكر الاخوان له قوله • فدخل سند الى المتوكل على الله وقال له : ما غلطا في امر النهر • وزادت دجلة وجرى الماء في النهر واستتر حاله • ثم قتل المتوكل على الله بعد شهرين من ذلك • وسلم المهندسون المذكورون (٣٥) •

ويظهر من هذا ان النهر الجعفري قد تم حفره وجرت فيه المياه في موسم الفيضان ، وذلك قبيل مقتل المتوكل على الله • وان الخطأ الذي وقع به المهندسون هو عدم التأكد من مناسيب المياه في نهر دجلة في مختلف ايام السنة ، لكي يحفر مستوى النهر وفق ذلك . بحيث ان صدر النهر جاء اعلى من مستوى المياه في دجلة في الظروف الاعتيادية فلا تجري فيه • وان الماء الذي جرى فيه انما كان في موسم الفيضان اذ ارتفع فيه منسوبه فسهل انسيابه الى الجعفري ولكن لأمد قصير • ولا ينكر ان مجهودات عظيمة قد بذلت واموالا طائلة قد انفقت على النهر ، اذ استغرق العمل فيه قرابة

---

(٣٥) كامل الخبير في المكافأة / ١٩٥ـ١٩٦ ، وعيون الانباء / ٢٨٦ـ٢٨٧ •

سنة ونصف ، وذلك لصلابة الارض التي يمر فيها مما لا يساعد على الحفر العميق • اما موضوع اجماع المنجمين على قرب نهاية اجل المتوكل على الله ، فامر لا يخلو من ان تهديد القواد الاتراك باغتياله قد شاع بين الناس آنذاك ، وان ظواهر الامور تدل على رجحان كفة الاتراك وقرب تحقيق ذلك ، فاستغل المنجمون الأمر لاظهار براعتهم فادعوا ان حساباتهم تعطي تلك الدلالة •

٣ ـ القصر الجعفري :

بنى المتوكل على الله في المدينة التي اسسها في الماحوزة قصراً سماه باسمه « القصر الجعفري » • يقول عنه اليعقوبي : « وانتقل المتوكل الى موضع يقال له الماحوزة •• وبنى هناك مدينة سماها الجعفرية • وبنى فيها قصراً لم يسمع بمثله » (٣٦) • ويقول عنه ابو الفداء في حوادث سنة ٢٤٦هـ « وفيها تحول المتوكل الى الجعفري وكان قد ابتدأ في عمارته سنة ٢٤٥هـ وانفق عليه اموالا تجل عن الحصر » (٣٧) • اما ياقوت الحموي فقد قال عن هذا القصر : « الجعفري : هذا اسم قصر بناه امير المؤمنين جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بالله قرب سامرا بموضع يقال له الماحوزة • وفي سنة ٢٤٥هـ بنى المتوكل الجعفري وانفق عليه الفي الف دينار •• لأن الدراهم كانت في ايام المتوكل كل خمسة وعشرين درهما بدينار ، فيكون عن الفي الف دينار خمسون الف الف درهم • ولما عزم المتوكل على بناء الجعفري تقدم الى احمد بن اسرائيل باختيار رجل يتقلد المستغلات بالجعفري من قبل ان يبنى ، واخراج فضول ما بناه الناس من المنازل ، فسمى

(٣٦) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٢ •
(٣٧) المختصر في اخبار البشر ٢/٤١ •

له ابا لخطاب الحسن بن محمد الكاتب • فكتب الحسن بن محمد الى ابي عون ، لما دعي الى هذا العمل :

انى خرجت اليك من اعجوبة
مما سمعت به ، ولما تسمع
سميت للاسواق قبل بنائها
ووليت فصل قطائع لم تقطع(٣٨)

وايد ياقوت النفقة التي اشار اليها ، في مكان آخر من معجمه ، ولذلك عندما عدد قصور المتوكل على الله وما انفقه على كل منها (٣٩) • ويتضح من ذلك انه لم ينفق على اي قصر آخر مثل هذا المبلغ الكبير الذي يزيد على ضعف ما انفق على قصر بلكوارا مع سعته وضخامة بنائه • وقد يكون ياقوت واهما في ذلك • اذ يقول الطبري ان هذه النفقة كانت على بناء مدينة الجعفري التي كان يسميها هو واصحابه المتوكلية (٤٠) • اي ان المبلغ المذكور قد انفق على بناء المدينة كلها وليس على قصر الجعفري حسب • ومما يؤيد ان الطبري يقصد بالجعفري المدينة لا القصر قوله في مكان آخر « فلما عزم المتوكل على بناء الجعفري قال له نجاح ــ وكان من الندماء ــ يا امير المؤمنين ، اسمي لك قوما تدفعهم الي حتى استخرج لك منهم اموالا تبني بها مدينتك هذه »(٤١) • وهو يسميها احيانا الجعفرية (٤٢) •

---

(٣٨) معجم البلدان ٢/١٤٣ •
(٣٩) نفس المصدر ٣/١٧٥ •
(٤٠) الطبري ٩/٢١٢ •
(٤١) نفس المصدر / ٢١٥ــ٢١٦ •
(٤٢) نفس المصدر /٢٢١ــ٢٢٣ •

ولا تزال بقايا القصر الجعفري وبركته الواسعة تشاهد على ضفة نهر دجلة في شمالي السور الداخلي لمدينة المتوكلية ، في الزاوية التي يكونها نهر دجلة من جهة ونهر القاطول من الجهة الأخرى (٤٣) • وقد تعرف الآثاري هرزفيلد على بقايا هذا القصر في اطلال المتوكلية ، ووصفها بقوله : « انها سور ضخم يغطي مساحة تبلغ ١½ كيلومتر مربع ، محاطة بجدران مدعمة بابراج من الطابوق المصنوع من اللبن • وتشكل مضلعا غير منتظم يقع بين ضفة دجلة العليا والقناة ، عند نقطة على هذه القناة بحوالي ٤½ كيلومتر شمالي جامع ابي دلف ، وحوالي كيلومتر واحد شمالي قنطرة الرصاص • وعثر على مدخل السور حيث ينقطع منه شارع مستطيل خلال مساحة القصر باتجاه ٧٠ درجة جنوب غربي » (٤٤) •

وقد اشتهر القصر الجعفري بحسنه وفخامة بنائه وبركته الواسعة الجميلة • فوصفه عدد من الادباء والشعراء • يقال ان ابا العيناء ، الأديب البصير ، دخل على المتوكل على الله في قصره الجعفري في سنة ٢٤٦هـ ، فقال له المتوكل : ما تقول في دارنا هذه ؟ فقال : ان الناس بنوا الدور في الدنيا ، وانت بنيت الدنيا في دارك • فاستحسن كلامه (٤٥) • وعندما انتهى المتوكل على الله من بناء قصره هذا مدحه البحتري وأشاد بالقصر ، ومما جاء في شعره قوله (٤٦) :

أصبحت يهجة النعيم وامست
بين قصر الصبيح والجعفري

---

(٤٣) ري سامراء ١/١٣٣ •
(٤٤) العمارة العباسية / ١٧٥ •
(٤٥) مروج الذهب ٤/٢٣٦ ، ومعجم الادباء ١/٦٢ ، ووفيات الاعيان ٣/٤٦٨ •
(٤٦) ديوان البحتري ٤/٢٤٥١-٢٤٥٢ •

في البناء العجيب والمنـــزل الآ
نســ والمنظـــر الجميل البهي

ورياض تصبو النفوس اليهـا
وتحيـــــا بـــوردهـــن الجنـــي

دار ملـــك مختــــارة لامـــــام
احـــرزت كفـــه تـــراث النبـــي

ولعل احسن ما قاله البحتري في هذا القصر قوله في احـــدى مدائحه المتوكل على الله (٤٧) :

قد تم حسن الجعفري ، ولم يكـــن
ليتـــم الا بالخليفـــــة جعفـــر

ملك تبـــوأ خيـــر دار اقامـــــة
في خير مبدى للامـــــام ومحضر

في رأس مشرفة حصاها لؤلؤ ،
وترابها مســــك يشاب بعنبــر

مخضرة ، والغيـــث ليس بساكب
ومضيئة ، والليل ليس بمقمر

تقرير لطفـــك واختيارك اغنيـــا
عن كـــل مختـــار لهـــا ومصدر

فرفعـــت بنيانا كـــأن زهــــاءه
اعـــلام رضـــوى او شواهد صنبر

ازرى على همم الملوك وغض من
بنيان كسرى في الزمان وقيصر

(٤٧) نفس المصدر ٢/١٠٣٩-١٠٤٢ .

ملأت جوانبه الفضاء وعانقت
شرفاته قطع السحاب الممطر

عال على لحظ العيون ، كأنما
ينظرن منه الى بياض المشتري

وتسير دجلة تحته ، ففناؤه
من لجة غمر وروض أخضر

أعطيته محض الهوى ، وخصصته
بصفاء ود منك غير مكدر

واسم شققت له من اسمك فاكتسى
شرف العلو به وفضل المفخر

وتظهر القصيدة ما كان عليه القصر من سعة المساحة ، وكثرة الشرفات وارتفاعها الذي يناطح السحاب العالي • وان فخامته مما تعجز عن بناء مثله الملوك ، وتقصر عنه ابنية الروم والفرس • وانه كان يطل على دجلة ، وتحيط به الرياض الخضر ، وان الخليفة سماه باسمه ، وذلك مما زاده فخراً وجلالاً •

وقد انشأ المتوكل على الله امام قصره الجعفري بركة سميت باسمه ايضا هي « البركة الجعفرية » التي اشتهرت بسعتها وجمال تنسيقها ، واعتبرت في يومها من عجائب الزمان • ولم يبق منها اليوم سوى حفرة عميقة تحيط بها اطلال القصر الجعفري في خرائب مدينة المتوكلية ، وهي مستطيلة الشكل يبلغ طولها زهاء ١٢٠ مترا وعرضها حوالي ٨٠ مترا ، اي بمساحة تقرب من عشرة الاف متر مربع • وكان المتوكل على الله جعل فرعا من النهر الجعفري ينتهي اليها من جهتها الشرقية ليزودها بالمياه • كما انشأ لها ثلاثة كهاريز تخرج من قعرها عند ضلعها الجنوبية ، ثم

تتوحد بكهريز واحد واسع لتصريف مياهها الزائـدة الى نهـر دجلـة(٤٨) .

وقد سبقت الاشارة الى ان مديرية الآثار العامة ترى ان البركة الجعفرية هذه هي التي وصفها البحتري وسماها البركة الحسناء واشاد بها بقصيدته المشهورة التي يقول فيها (٤٩) :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها
والآنسـات اذا لاحت مغانيها

يحسبها انها من فضل رتبتهـا
تعد واحـدة ، والبحـر ثانيها

ما بال دجلة كالغيرى تنافسـها
في الحسن طوراً ، وطوراً تباهيها

أما رأت كالىء الاسلام يكلؤهـا
من أن تُعاب ، وباني المجد بانيها

كـأن جن سليمان الذين ولـوا
ابداعهـا فأدقـوا معانيهـا

فلو تمر بهـا بلقيس عـن عرض
قالت : هي الصرح تمثيلا وتشبيها

تنحط فيهـا وفـود المـاء معجلة
كالخيل خارجة من حبـل مجريها

كانما الفضـة البيضاء سائلـة
من السبائك تجري في مجاريها

---

(٤٨) ري سامراء ٢/٢٣٧ .

(٤٩) كامل القصيدة في ديوان البحتري ٤/٢٤١٤-٢٤٢١ .

لا يبالغ السمك المحصور غايتها
لبعـــد مـــا بين قاصيها ودانيهـــا

يعمق فيهـا باوســـاط مجنحـة
كالطير تنفض في جو خوافيهـا

لهن صحن رحيـــب في اسـافلها
اذا انحططن وبهـو في اعاليها

صور الى صورة الدلفين يؤنسـها
منه انـــزواء بعينيه يوازيهـــا

وزادها زينة من بعـد زينتهـــا
ان اسمه حين يدعى مــن اساميها

محفوفة برياض لا تــزال تــرى
ريش الطواويس تحكيه ويحكيها

ودكتين مـثل الشعريين غـــدت
احداهما بازاء الاخـرى تساميها

ان البحتري يشيد بحسن البركة ، ويشير الى سعتها كأنهـــا البحر ويقول ان دجلة تغار منها لحسنها ، وكأنها من صنع جن سليمان . ويشبهها بالصرح الذي بناه سليمان لبلقيس من الزجاج الصقيل . وذلك لشدة صفائها . ويشير الى سرعة تدفق الميـــاه فيها كأنها الخيل في جريها ، وانها من السعة بحيث لا يبلغ السمك الذي فيها طـرفيها ، وان بهوا مرتفعا يشـــرف عليها ، وان تمثالا للدلفين كان مقاما في احد اركانها . وهي محاطة برياض من الورود متنوعة الالوان كريش الطواويس . وان مما يزيد في جلالها وزينتها ان تسمى باسم الخليفة جعفر المتوكـل على الله . ويشير في خاتمة شعره الى دكتين كانتـا على البركتين ويشبههما

بالشعريين ، وهما من أسطع النجوم واقربهما الى الأرض،احداهما الشامية وتسمى الغميصاء او الغميضاء ، والاخرى يمانية وتسمى العبور ٠

قصر لؤلؤة :

وهناك آثار قصر آخر يقع جنوبي القصر الجعفري على ضفة نهر دجلة ، خارج سور المتوكلية ، يرجح انهـــا اطـــلال قصر لؤلؤة(٥٠) ٠ وقد قال عنه الطبري ان المتـــوكل على الله بنى في المتوكلية قصراً سماه لؤلؤة لم ير في مثـــل علوه (٥١) ٠ وذكـــره الشابشتي في جملة قصور المتوكل على الله وسماه « اللؤلؤة »(٥٢) ٠ وقال ياقوت الحموي ان النفقة عليه بلغـــت خمســـة الاف الف درهم (٥٣) ٠

٤ ــ جامع ابي دلف :

مقدمة :

يقع جامع ابي دلف في مدينة المتوكلية التي بناها المتوكل على الله في اواخر سنوات حكمه واتخذها عاصمة له ، شمالي مدينـــة سامرا ٠ وتبعد اطلال الجامع وبقاياه عن مدينة سامراء الحاليـــة بنحو خمسة عشر كيلومتراً ٠ وكان العالم الآثاري هرزفيلد قد قام بالتنقيب في اطلال هذا الجامع وتوصل الى كثير من المعلومات عن

---

(٥٠) ري سامراء ١/١٣٥ ٠
(٥١) الطبري ٩/٢١٢ ٠
(٥٢) الديارات / ١٥٩ ٠
(٥٣) معجم البلدان ٣/١٧٥ ٠

سوره واروقته وتسقيفه ، الا ان تحرياته لم تتناول جميع اطلال الجامع . كما ان بعضها لم يكن بدرجة كافية من الدقة • وقد كشفت التنقيبات التي قامت بها مديرية الآثار القديمة العامة عن كثير من المعلومات المتعلقة بمشتملات الجامع وابعادها ، وبتسقيفه • كما قامت بصيانة قسم كبير من بقاياه ، وبخاصة منارته الملوية ، ومابقي من اسواره وجدرانه • ونشر الاستاذان بشير فرنسيس مفتش الآثار القديمة ، ومحمود علي الرسام في مديرية الآثار القديمة العامة مقالا في مجلة سومر(٥٤) ، تضمن جميع ما كشفت عنه التنقيبات المذكورة •

ان جامع ابي دلف من جملة منشآت المتوكل على الله في مدينة المتوكلية • فقد ذكر البلاذري ان المتوكل على الله « احدث مدينة سماها المتوكلية • وبنى بها مسجدا جامعا » (٥٥) • وقال اليعقوبي ان المتوكل على الله عند بنائه الجعفرية «جعل في كل مربعة وناحية سوقا ، وبنى المسجد الجامع» (٥٦) • كما اشار الطبري الى وجود مسجد جامع في مدينة الجعفرية صلى فيه عبدالصمد بن موسى صلاة الفطر بالناس ، ولم يصل بسامرا احد(٥٧) • ويضيف الدكتور احمد سوسه ادلة اخرى على ان هذا الجامع شيد في نفس الوقت الذي شيدت فيه المتوكلية ليحل محل المسجد الجامع في سامرا • منها وجود الشارع الواسع الموازي للشارع الأعظم الذي يبدأ من الحدود الجنوبية للمتوكلية ويخترقها وينتهي عند الجامع المذكور . والساحتان الواسعتان في شمالي الجامع وجنوبيه تتفرع منهما

---

(٥٤) مجلة سومر ، الجزء : ١ لسنة ١٩٤٧ / ٦٠ـ٧٦ •

(٥٥) فتوح البلدان / ٢٩٥ •

(٥٦) كتاب البلدان / ٢٦٧ •

(٥٧) الطبري ٩ـ٢٢١ •

(٥٨) ري سامراء ٢/ ٦٠٤ ـ ٦٠٥ •

الشوارع الى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، مما يدل على ان الجامع كان جزءا من تخطيط مدينة المتوكلية (٥٨) ·

اما نسبة الجامع الى ابي دلف فانها حديثة ويرجح ان الناس اطلقوها عليه في القرون المتأخرة لما يتمتع به صاحب هذا الاسم من الشهرة ، ولعلمهم انه كان من القواد العرب القلائل في تلك الايام وقد عاش في سامرا ، فطاب لهم ان ينسبوه اليه ، فاطلقوا عليه اسم جامع ابي دلف (٥٩) · وابو دلف هو القاسم بن عيسى بن ادريس بن معقل العجلي ، احد الامراء الشجعان ومن كبار رجال الدولة العربية وقوادها على عهد الرشيد وابنائه من بعده في بغداد وسامرا · وقد سماه المتوكل على الله « شقيق دولة بني العباس » (٦٠) · وقد اشتهر بالسخاء والكرم والوفاء كشهرته بالشجاعة والطعان ·

تخطيط الجامع :

تعتبر بقايا جامع ابي دلف ابرز اطلال مدينة المتوكلية · وهو يشبه في تخطيطه وشكله العام الجامع الكبير الذي شيده المتوكل على الله في سامرا · في اوائل عهده بالخلافة ، شبها كبيرا · فهو مثله مستطيل الشكل ، ذو صحن مكشوف محاط من جهاته الأربع باروقة ، ومئذنته ملوية ذات مرقاة خارجية ، كما كان محاطا بساحة فسيحة مسورة · اما اوجه الخلاف التي تميز بها هذا الجامع عن الجامع الكبير فتنحصر في الأبعاد وعدد الاروقة وكيفية التسقيف ، كما سترى فيما بعد · كما ان اطلال هذا الجامع على عكس ما هي عليه بقايا جامع سامرا الكبير الذي شيدت اسواره من الآجر فبقي معظمها شاخصا حتى الآن ، بينما لم

(٥٩) مجلة سومر ـ العدد المذكور آنفا / ٧٦ ·

(٦٠) المحاسن والمساوىء / ٢٠٩ ·

يبـق شيء مما كان في داخلهـا من المباني سوى بعض المعالـم والأسس • اما جامع ابي دلف فان منشآته الداخلية قد بنيت بالآجر والجص فبقيت اكثر جدرانها قائمة عدا سقوفها ، بينما تداعت اسواره المشيدة باللبن وتحولت الى خطوط من الآكام والكثبان ، عدا السور الشمالي فانه لا يزال اغلبه قائما قد يصل ارتفاعه في بعض النقاط الى حوالي سبعة امتار (٦١) •

يبلغ طول الضلع الكبرى لجامع ابي دلف ، وهي الضلع الممتدة من الجنوب الى الشمال ٤٧ر٢١٥ متر وضلعه الصغرى الممتدة من الشرق الى الغرب ٢٤ر١٣٨ متر ، فتكون مساحته ثلاثين الف متر مربع تقريبا • وفي وسطه صحن مكشوف مستطيل الشكل ايضا وطول ضلعه الكبرى ٠٧ر١٥٥ متر ، وضلعه الصغرى ٦٠ر١٠٤م اي ما مساحته ستة عشر الف متر مربع ، وتحيط بالصـحن مـن جوانبه الاربعة اروقة مساحتها مع سمك الجدران ٥٠٠ر١٣ متر مربع (٦٢) • اي انه محاط باربعة اقسام : بيت الصلاة او الحرم في الجنوب ، والقسم الشمالي المقابل للحرم ، ثم القسمين الشرقي والغربي • وجميع هذه الاقسام تؤلف بوائك تمتد من الجنوب الى الشمال • وللحرم ست عشرة دعامة تكون سبع عشرة بلاطة ، وكل بلاطة منها تتكون من خمسة اقواس باتساع ١٢ر٣ متر متجهـة نحو الشمال • ويمتد صف عقود الرواقين فـي طـرفي الحـرم الى الشمال فيؤلفان في كل من الضلع الشرقية والضلع الغربية تسع عشرة بلاطة عمقها ١٤ متراً • والجزء الشمالي من الجامع يشبه الحرم وله ست عشرة دعامة تؤلف سبع عشرة بلاطة • وكل رواق

---

(٦١) مديرية الاثار القديمة ـ سامرا / ٦٦ـ٦٧ ومجلة سومر آنفة الذكر / ٦٣ •

(٦٢) سومر آنفة الذكر /٦٣ •

يتألف من ثلاثة عقود ، معدل اتساع كل عقد ٣٫٥٠ متر ، تتجه نحو الجنوب(٦٣) ٠

ويبلغ عمق بيت الصلاة ٢٩٫٢٠ متر وهو عمق البوائك التي تنتهي عند الضلع الجنوبية بدعامات على شكل الحرف T تسند البائكة المستعرضة للاروقة السبعة عشر الموازية للجدار الجنوبي على بعد ١٠٫٦٠ متر منه ٠ واما هذه الأقواس السبعة عشر جناح عمقه ١٠٫٦٠ امتار يمتد من الشرق الى الغرب بامتداد عرض الجامع ، ويقع بين جدار القبلة والصفوف الأخيرة من اقواس الحرم الموازية للجدار المذكور ٠ ويبدو ان هذا الجناح ظهر لأول مرة في الجوامع الاسلامية مما جعل لجامع ابي دلف مكانة فريدة في سلسلة تطور تصميم الجوامع(٦٤) ٠ وقد كشفت التنقيبات التي اجرتها مديرية الآثار القديمة العامة عن وجود قواعد للاعمدة في هذا الجناح ، مما يرجح انه كان مسقفا مثل حرم الجامع (٦٥) ٠

ويلاحظ ان اقواس اروقة الجامع من طراز الاقواس ذات الأربعة مراكز ، وهي مثل الاقواس التي وجدت في المباني الاخرى بسامراء كدار الخليفة ٠ كما انها تشبه اقواس قصر الاخيضر قرب كربلا في البادية ، وفي العراق عدد من المباني القديمة فيها مثل هذه الاقواس ايضاً ٠ وتتكون هذه الاقواس من حلقتين آجرها مربع الشكل ، وقد صف آجر الحلقة الداخلية ووجهه الى الخارج ، في حين ان آجر الحلقة الخارجية قد جعلت حافته الى الخارج ، وسمك الحلقة الواحدة نحو ٥٠سم(٦٦) ٠

---

(٦٣) نفس المصدر / ٦٦ـ٦٧ ، والعمارة العباسية / ١٩١ و١٩٤ـ١٩٥ ٠
(٦٤) العمارة العباسية / ١٩٣ـ١٩٤ ٠
(٦٥) مجلة سومر انفة الذكر / ٦٧ ٠
(٦٦) نفس المصدر ٠

المحراب والمنبر :

يقع محراب جامع ابي دلف في منتصف جداره الجنوبي بمقدار ٥ر١٢ درجة غربا • وقد سبق ان اشرنا الى ان اليعقوبي قد ذكر هذا الانحراف وانه موجود في كل مساجد سامرا ولهذا سميت زوراء بني العباس • وهو مشيد بالآجر والجص ويبرز ظهره عن جدار الجامع من الخارج بمقدار ٤٤ر٢م • ولوحظ من بقايا البناء ما يدل على وجود محرابين للجامع احدهما بظهر الآخر وانهما شيدا في وقتين مختلفين • وقد يكون الأول قد شيد عند بناء الجامع ثم ارتؤي بعد اكماله ضرورة تصغيره لاسباب ربما كان من جملتها وضع المنبر الذي يشغل جزء من المحراب الأول (٦٧) •

وتشاهد عند الركن الأيسر للمحراب بقايا بناء من الآجر والجص طوله ٦٥ر٢م وعرضه ٢٠ر١م في نهايته ثلاث درجات • ويستنتج من شكل البناء ووضعه انه كان منبراً ، وانه قد اضيف بعد اكمال الجامع ، ولا يستبعد انه بني في وقت واحد مع المحراب الثاني(٦٨) •

سور الجامع وابوابه :

يحيط بالجامع سور خارجي ينفصله عن جدران الجامع فضاء واسع في الشرق والغرب والشمال وعرضه ١٠٨م ، اما في الجنوب فيضيق الى ٣٠م (٦٩) • وقد شيد السور باللبن وكسي وجهاه

---

(٦٧) نفس المصدر / ٦٧ـ٦٨ •

(٦٨) نفس المصدر / ٦٨ •

(٦٩) ري سامراء ٢/٦٠٣ •

الداخلي والخارجي بطبقة سميكة من الجص • ويتراوح سمك السور بين ٦٠ر١م و٨٠ر١م • وهو مثل سور جامع سامرا الكبير مدعم من الخارج بابراج نصف دائرية • ويقوم في كل ركن من اركانه الأربعة برج مستدير يقوم على قاعدة من الآجر مربعة الشكل طول ضلعها ١٠ر٣م واضلاعها مماسة لمحيط البرج ، اي ان قطر البرج هو نفس طول ضلع المربع • وقد شيدت الاقسام السفلى من الابراج الى ارتفاع ٥٥ متراً بالآجر مثل القاعدة وما بقي منها بني باللبن • وقد استعمل للبناء ملاط الجص في حالتي البناء باللبن او بالآجر •

وتقوم الابراج الاخرى وهي نصف دائرية على قواعد من الآجر مستطيلة الشكل طول ضلعها الموازية للسور ١٠ر٣م وطول كل من الضلعين المتعامدتين عليه ٩٠ر١م • ولما كانت هذه الاضلاع مماسة لمحيط البرج فان استدارته تزيد على نصف دائرة • وتتوزع هذه الابراج على جوانب السور الاربعة كالآتي : بنيت في الضلع القبلية للسور عشرة ابراج وقد شيد البرجان اللذان يليان برجي الركنين باللبن ، واللذان يليانهما بالآجر ، وهكذا بالتناوب فتكون ستة من ابراج هذا الجانب مبنية باللبن والأربعة الأخر بالآجر • والبعد بين الركنين والبرجين المجاورين لهما ٤٠ر١٢ متراً • والمسافة بين الابراج الباقية ٦٠ر٤ امتار • اما البعد بين بروز المحراب والبرج المجاور له فهو ١٨ متراً • وفي الضلع الشمالية المقابلة لضلع القبلة ثمانية ابراج متناظرة الابعاد ابتداء من برجي الركنين . فالبرج الذي يلي الركن يبعد عنه بـ ٨٠ر١١ متراً ، ويبعد هذا عن البرج الذي يليه بـ ٦٠ر١٢ متراً ، ويبعد هذا من البرج الثالث بـ ٢٠ر١٢ متراً ، والبعد بينه وبين البرج الرابع ٦٠ر١٢ متراً ، والبعد بين البرجين المجاورين للمدخل الأوسط الذي يقابل المئذنة ٨ر١١ متراً • وكل هذه الابراج مبنية باللبن بملاط الجص • وقد حافظ هذا الجانب من السور على

وضعه تقريبا . فلم تؤثر فيه عوادي الزمن كما فعلت في اسوار الجوانب الاخرى الا قليلا • وقد لوحظ امام قاعدة هذا السور من الخارج وجود قنوات مكشوفة مشيدة بالآجر عمقها نحو ٢٠ سم وعرضها ١٨ سم ، وهي تشبه تلك القنوات التي وجدت في سور جامع سامرا الكبير ، واعتبرت مثلها لتصريف مياه الأمطار • ويبلغ سمك جدار السور في هذه الضلع ٨٠ر١ مترأ • اما ابراج الضلعين الكبيرين ، الشرقية والغربية للسور فعددها عشرة في كل منهما • وكلها مبنية باللبن بملاط الجص • والبعد بين برج الركن والبرج الذي يليه ٨٠ر٣٥ مترأ ، والأبعاد بين الابراج الاخرى تكاد تكون متساوية وهي تتراوح بين ١٤ مترأ و١٥ مترا • وبهذا يكون مجموع الابراج التي تدعم السور ٤٢ برجا ، اربعة منها وهي ابراج الاركان دائرية الشكل ـ اسطوانية ـ والبقية وعددها ٢٨ برجا نصف دائرية • وكلها مبنية باللبن عدا اربعة ابراج منها في الضلع القبلية بنيت بالآجر كما سبق بيانه (٧٠) •

اما ابواب الجامع فعددها ثمانية عشر بابا ، ثلاثة منها وهي القبلية تؤدي الى مشتملات تتصل بالضلع الجنوبية للسور ، وثلاثة في الضلع الشرقية والغربية • ويلاحظ في مواضع ابواب الجامع من جهاته الأربع انها تقع جميعها على محور الأقواس التي امامها ، كما هي الحال في جامع سامرا الكبير . دون مراعاة توسطها الجدران • ففي الضلع القبلية ثلاثة ابواب ، يجاور اثنان منهما برجي الركنين ويقع الثالث في الوسط عند المحراب • ويبعد البابان الاولان عن برجي الركنين بنحو مترين وعرض كل منهما ٥٨ر١ مترأ • واظهرت الحفريات ان كل باب منهما كان يؤدي الى حجرة طولها ١٠ امتار وعرضها ٦ امتار ، وجدرانها من الآجر ، وارضيتها مبلطة بالطابوق • ويظهر من انفراد هاتين الحجرتين

---

(٧٠) مجلة سومر المذكورة ٦٣ـ٦٤ •

وموضعهما انهما مخصصتان لمن يتولى امور الجامع · اما الباب الثالث وهو الاوسط فانه يبعد عن شرقي بناء المحراب من الخارج بـ ٢٠ر١ متراً ، وعرضه ٦٠ر١ متراً ، وهو يؤدي الى بناية واسعة مشيدة بالآجر تقع خلف المحراب ملاصقة للجدار القبلي · ويبدو ان الغرض من تشييد هذه البناية ملاصقة للجامع ان تكون مكاناً لاستراحة الخليفة اذا ما جاء لصلاة الجمعة ، فيدخلها من الباب الذي في ظهر الجامع ، وبعد استراحته وتجديد وضوئه ، يدخل الجامع من الباب الذي بجانب المحراب · وقد ظهر من التنقيب ان جميع جدران هذه الدار قد بنيت بالآجر وكسيت بالجص من الداخل والخارج ، وان جميع حجراتها قد بلطت بالجص ايضا (٧١) · ومن الجدير بالملاحظة انها شيدت على الطراز الحيري ذى الصدر والكمين ، وهو الطراز الذي شاع آنذاك في بناء الدور والقصور (٧٢) ·

التسقيف والتبليط :

ان ما تبقى من الاقواس وما يعلوها من البناء لا يدل على ان سقف الجامع كان معقوداً بالآجر ، وذلك لعدم وجود التقوسات التي تبدأ منها العقادات · الا انه وجدت عند نقاط تعلو بنحو ٥٠سم عن ذروة الأقواس في جهات متعددة من اروقة المصلى ثقوباً بقطر ٢٠ـ٢٥سم على استقامة واحدة ، وتتراوح المسافة بين ثقب وآخر بين ٦٠سم و٧٠سم · ويستنتج من وجود هذه الثقوب ان السقف كان قائما على جسور من الخشب ، وانه كان يرتفع عن مستوى التبليط بنحو سبعة أمتار (٧٣) ·

---

(٧١) مجلة سومر آنفة الذكر / ٦٤ـ٦٦ ·
(٧٢) نفس المصدر / ٧٤ ·
(٧٣) نفس المصدر / ٦٨ ·

وكانت الاقسام المسقفة من الجامع مبلطة بطبقة سميكة من الجص ، اما الاقسام المكشوفة فقد بلطت بالطابوق المصقول المربع الشكل ، وطول ضلع الطابوقة ٣٢سم وسمكها ٥سم ٠ ومعدل حجم الطابوق الذي استخدم في تطبيق ساحة المئذنة الملوية ٤٨ × ٤٨ × ٥سم . وهو مربع الشكل ومصقول ايضا(٧٤) ٠

المئـــذنة :

لجامع ابي دلف مئذنة مبنية بالآجر والجص وهي تشبه ملوية جامع سامرا الكبير وقد بنيت على شاكلتها الا انها اصغر منها حجماً ٠ وهي تقع على محور الباب الأوسط للجامع وعلى بعد ٥٠ر٩ امتار منه ٠ وتقوم على قاعدة مربعة الشكل تقريبا ، طول كل من ضلعيها الشمالية والجنوبية ٨٧ر١٠ امتار ، وطول كل من الضلعين الشرقية والغربية ٦٠ر١٠ امتار ، وتعلو عن مستوى التطبيق بـ ٧٠ر٢ متراً ٠ ويزين كلا من اوجهها الأربعة صف من المشكيات عددها ١٣ مشكاة في كل وجه عدا الوجه الجنوبي ففيه عشر مشكيات تتوسطها باب المصعد ٠ ويقع باب المصعد في الضلع الجنوبية لقاعدة المئذنة كما اشرنا ، وهو يفض الى درج يصعد منه الى سطح القاعدة ، ويبلغ عرض المدخل ١٥ر١ متراً ، وعدد قدمات الدرج المشيد في صلب القاعدة اربع ، تتجه نحو بدن الملوية من غير ان تنعطف الى الحلزون ٠ ويرتفع جسم المنارة ، اي القسم الحلزوني منها ، الى علو ٢٠ر١٦ متراً فوق القاعدة ، فيصبح ارتفاع ملوية جامع ابي دلف من مستوى التطبيق حتى القمة المتهدمة نحو ١٩ متراً ٠ ويبدأ الحلزون ، وهو سلم المئذنة من يمين

(٧٤) مجلة سومر آنفة الذكر / ٦٩ ٠

الباب ويدور ثلاث دورات كاملة باتجاه معاكس لدوران عقرب الساعة ، وعرضه متر واحد (٧٥) .

وقد عثر في الرواقين الواقعين بين المئذنة والجدار الشمالي للجامع على رحبة مربعة يبلغ طول ضلعها ٧٠ مترا تحيط بها جدران اقتلعت حجارتها . ووجد في الجدار الموازي للضلع الشمالية آثار عشر طاقات زخرفية مشابهة لتلك التي وجدت على اوجه قاعدة الملوية . ويظهر من هذا ان جدران رحبة المئذنة كانت كلها مزينة بالزخارف المذكورة . وقد ظهرت في هذه الرحبة آثار قناتين تمتدان بين سور الجامع الخارجي والجدار الذي في يمين المئذنة ويسارها ، ولعلهما كانتا لتزويد الميضأة بالماء ، او لانسياب مياه الأمطار (٧٦) .

---

(٧٥) نفس المصدر / ٦٩ .
(٧٦) نفس المصدر / ٧٢ .

الفصل الخامس

سامرا بعد المتوكل على الله

١ ـ المنتصر بالله :

بويع للمنتصر بالله بالقصر الجعفري بالمتوكلية ، الا انه آثر الابتعاد عن مسرح جريمة مقتل ابيه المتوكل على الله . فلم يلبث سوى بضعة ايام حتى قرر اعادة عاصمته الى سامرا . وسبق ان ذكرنا انه امر الناس جميعا بالانتقال عن الماحوزة ـ وهي منطقة مدينة المتوكلية ـ وان يهدموا المنازل ويحملوا الانقاض الى سامرا . فخربت قصور المتوكلية ومنازلها واسواقها .

وعند عودة المنتصر بالله الى سامرا سكن في القصر الجعفري المحدث الذي بناه ابوه وانفق عليه عشرة الالف الف درهم (١) . وذكر الطبري ان المنتصر بالله عقد مجلسه في هذا القصر ليستمع هو والقواد والقضاة والامراء من بني العباس الى اعلان اخويه المعتز والمويد تنازلهما عن ولاية العهد من بعده (٢) . وفي هذا القصر كانت وفاته في اوائل ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ .

---

(١) معجم البلدان ٣/١٧٥ .
(٢) الطبري ٩/٢٣٧ و ٢٤٤ .

كان من المنتظر بعد ان عادت الجموع الكثيرة من سكان المتوكلية الى سامرا ان يعاد بناء قصورها وبيوتها واسواقها ومرافقها التي سبق ان هدمت او هجرت عند انتقال العاصمة الى المتوكلية - وان يتم ذلك بموجب تخطيط وتنسيق يعيد للمدينة عمرانها وبهاءها • الا ان الوضع النفسي للمنتصر بالله وما كان اعتراه من كآبة وقلق لندمه على المشاركة في اغتيال ابيه ، وقصر مدة حكمه ، فانه لم يقم بشيء من ذلك ، بل انه اهمل مشاريع ابيه العمرانية ، وبخاصة النهر الجعفري فلم يحاول تصحيح الأخطاء التي حصلت في حفره • ولذا فان سامرا لم تحظ في ايامه بشيء من العناية بعمرانها ، ولكن امه طلبت عند وفاته ان تظهر قبره ، فبنت له ضريحا اقيمت عليه قبة عرفت بقبة الصليبية •

قبة الصليبية :

تقع اطلال هذه القبة على الضفة المرتفعة لنهر الاسحاقي في الجانب الغربي من دجلة ، جنوبي قصر المعشوق وعلى مقربة منه • وكانت في الأصل بناية مثمنة الشكل تتوسطها قاعة مربعة يحيط بها رواق مثمن ، ويستدل من سمك جدرانها ومن الاسم الشائع لها انها كانت تعلوها قبة • ولا مجال لنشك في انها كانت ضريحا لأحد الخلفاء(٣) • وكان هرزفيلد قد اجرى تنقيبات اولية في اطلال هذه البناية ، ووجد فيها ثلاثة قبور مما جعله يرجح انها كانت موضع قبر الخليفة المنتصر بالله • ثم دفن الى جانبه المعتز بالله والمهتدى بالله (٤) •

---

(٣) لاثار القديمة العامة ــ سامراء / ٧٢ •

(٤) Creswell, E. M. A. P : 388

يقول الطبري عن دفن المنتصر بالله انه اول خليفة من بني العباس عرف قبره لأن امه طلبت اظهار قبره (٥) • ويقول عن دفن المعتز بالله انه لما مات دفن مع المنتصر في ناحية قصر الصوامع(٦) • ويضيف ابن الأثير على ذلك ان المهتدى بالله لما مات دفن بمقبرة المنتصر (٧) • وفي هذا ما يؤيد ما ذهب اليه هرزفيلد في ان قبة الصليبية كانت ضريحا للخلفاء المذكورين •

ويرى كريزول ان القبة المذكورة تعود الى زمن متأخر من عهد سامرا لأنها مبنية بنفس المواد التي استعملت في بناء قصر المعشوق الذي شيد في اواخر عهد المعتمد على الله(٨) • وقد يؤيد هذا الرأي قرب القبة من القصر المذكور ، وان المعتمد على الله ربما قد بناها لتكون ضريحا له • لاسيما وانه عندما توفي ببغداد حمل الى سامرا ودفن فيها •

٢ ـ المستعين بالله :

لما توفي المنتصر بالله اجتمع كبار القادة الاتراك في القصر الهاروني واتفقوا على اختيار خلف له فبايعوا حفيد المعتصم بالله احمد بن محمد ولقب بالمستعين بالله • وقد بات ليلته الأولى في القصر المذكور • ويظهر من مجرى الحوادث المهمة على عهده انه سكن في قصر الجوسق الخاقاني ، قصر جده المعتصم بالله الواقع على نهر دجلة جنوبي دار الخليفة • فقد التجأ القائد التركي اوتامش الى الخليفة في هذا القصر لما هاجمه مناوئوه

---

(٥) الطبري ٩/٢٥٤ •
(٦) الطبري ٩/٣٩٠ •
(٧) الكامل ٧/٢٣٠ •
(٨)

من الأتراك ، فدخلوا الجوسق واستخرجوه وقتلوه مع كاتبه شجاع بن القاسم(٩) . ولما قتل باغا التركي حاصر اتباعه من الجند والقواد الموالين له في قصر الجوسق ايضا . وعلم المستعين بالله باجتماعهم فترك القصر منحدرا مع بعض قواد وافراد حاشيته الى بغداد (١٠) .

ونزل الخليفة في بغداد على محمد بن عبدالله بن طاهر في داره . ثم انتقل منها الى دار رزق الخادم في الرصافة . ولما تنازل عن الخلافة وبايع المعتز بالله نقل هو وعياله وولده وجواريه من الدار المذكورة الى قصر الحسن بن سهل بالمخرم ، وانزلوا فيها جميعا (١١) .

لقد ظلت شؤون سامرا ومرافقها العمرانية مهملة طيلة خلافة المستعين بالله ، لأنه قضى ما يقارب الثلاث سنوات من حكمه في سامرا في صراع مستمر مع الاتراك مما اضطره على الانتقال الى بغداد . ثم قيام الحرب بين بغداد وسامرا ، ولذا لم تتح له الفرصة للقيام باي عمل عمراني يذكر في سامرا .

٣ ـ المعتز بالله :

اما المعتز بالله الذي بايعه الاتراك الذين ظلوا في سامرا وفشلوا في اقناع المستعين بالله بالعودة اليها . فقد كان ينزل في قصر الجوسق اول امره . وقد اضاف اليه جناحا خاصا لسكناه احسن عمارته وريازته . وقد ذكر الشابشتي ان المعتز بالله بنى في الجوسق بيتا قدرته له امه ومثلت حيطانه وسقوفه ، فكان احسن بيت رئي ، ولما انتهى منه دعا المعتز بالله حاشيته اليه فقضوا

(٩) الطبري ٩/٢٦٤ ، والكامل ٧/١٢٣ .
(١٠) الطبري ٩/٢٨٠ .
(١١) الطبري ٩/٣٤٨ .

احسن يوم سرورا (١٢) ・ وضرب فيه المعتز بالله ديناراً من دنانير الصلة كل دينار بدينارين كتب على كل دينار منها « ضرب هذا الدينار بالجوسق لخزينة امير المؤمنين المعتز بالله » (١٣) ・ وكان المعتز بالله في بيته هذا لما جيء اليه برأس المستعين بالله في سنة ٢٥٢هـ (١٤) ・ وبرأس القائد بغا الشرابي في سنة ٢٥٤هـ (١٥) ・

ويشير البحتري في احدى قصائده في مدح المعتز بالله الى انه بنى قصراً فخماً يقال له « الكامل » وقد تضمن مدحه بعض اوصاف القصر ، ومما جاء فيها قوله (١٦) :

لمـــا كملت روية وعزيمـــة
أعملت رايك في ابتناء الكامل

وغـــدوت من بين الملوك موفقا
منـــه لأيمن حلـــة ومنـــازل

ذعـــر الحمام وقد ترنم فوقه
من منظر خطر المــزلـة هائل

روفت لمنخرق الرياح سموكــه
وزهت عجائب حسنة المتخـايل

وكان حيطان الزجـاج بجـوه
لجج يمجن على جنوب ســاحل

وكأن تفويق الرخـــام اذا التقى
تأليقـــه بالمنظـــر المتقـــابـل

---

(١٢) الديرات / ١٧٠ ・
(١٣) نفس المصدر / ١٦٨ ・
(١٤) الطبري ٩ / ٣٦٤ ، والديارات / ١٧٠ ・
(١٥) الطبري ٩ / ٣٨٠ ・
(١٦) ديوان البحتري ٣/١٦٤٦ ـ ١٦٤٩ ・

حَبُكُ الغمام رصفن بين منمر
ومسـير ومقارب ومشـاكل

لبست من الذهب الصقيل سقوفه
نوراً يضيء على الظلام الحافل

فترى العيون يجلن في ذى رونق
متلهب العـالي انيـق السافل

فكانما نشرت على بسـتانه
سيراء وشي اليمنة المتواصـل

اغنته دجلة اذ تلاحـق فيضهـا
عن فيض منسجم السحاب الهاطل

وافيته والورد في وقت معـا
ونزلت فيه مع الربيـع النازل

يتضح من اوصاف البحتري ان الكامل كـان قصراً مرتفعاً شاهق البنيان . يحاذر الحمام ان يطاله في ارتفاعه ، وقـد بنى بالرخام والمرمر وموهت سقوفه بالذهب الصقيل ، وزينت نوافذه بالزجاج الشفاف . وانه كان على شاطىء دجلة بحيـث يسقى ماؤها بستان القصر . وان المعتز بالله نزل فيه في أول فصـل الربيع .

ومدح البحتري المعتز بالله بقصيدة اخرى اشار فيها الى انـه افتتح بناء جديداً ، ولعله يقصد القصر الكامل المشار اليه آنفاً ، كما يظهر من أوصاف البناء ، اذ جاء فيها قوله : (١٧)

---

(١٧) ديوان البحتري ـ طبعة صادر ١/١٧٩ـ١٨٠ .

بارك الله للخليفـة في الفتـ
ـح الجنوبي ، والبناء الجديد

خير مبهج ، وبنيـان بمـن
في منيف ، عنـد السماك مشيد

فوق صرح ممرد مـن قـوار
ير ، غريب التأليف والتمديد

لو بـدا حسنه لجـن سليما
ن لخـروا من ركـع وسجود

قد عددنا اليوم الذي جئته فيه لافراط حسنه ، يوم عيد

كما ذكر البحتري في احدى مدائحه المعتز بالله قصراً آخـر باسم « قصر الساج » اذ يقول فيها (١٨) :

وكأن قصر السـاج خلة عاشق
برزت لوامقها بوجـه مونقِ

قصر تكامل حسنه في قلمـة
بيضاء ، واسطة لبحـر محدق

واني المحل فلا المـزار بشاسع
عمن يزور ، ولا الفناء بضيق

قدرته تقـدير غيـر مفـرط
وبنيته بنيان غيـر مشـقق

ووصلت بين الجعفري وبينـه
بالنهر يحمل من جنوب الخندق

(١٨) ديوان البحتري ٢/١٤٧٩ ـ ١٤٨٤ .

نهر كان المـــاء في حجراتــه

افرند متن الصـــارم المتــألق

لقد بنى المعتز هذا القصر ولم يدخر وسعا في الانفاق عليــه بحيث تكامل حسنه · فقد كان كالقلعة البيضاء وسط ساحة خضراء تكتنفها الاشجار الخضراء والوان الورود · وكان واسع الارجــاء قريبا في موقعه ·

وكان هناك قصر بديع يقع على ضفة القـــاطول الاعلى في الناحية الشمالية الغربية من ساحة الحير ، يعرف بقصر الدكـة · وقد عين الطبري موقع هذا القصر في معرض كلامه في حادث مقتل القائد صالح بن وصيف في سنة ٢٥٦ هـ فيقول ان الناس اجتمعوا و « تهايجوا من دار امير المؤمنين ، فركبوا في السلاح ، واخذوا في الحير حتى اجتمعوا ما بين الدكة وظهر المسجد الجامع » · ويرجح الدكتور احمد سوسه ان قصر الدكة هذا هو نفسه القصر المعروف بقصر الساج · ودليله على ذلك ان البحتري لما وصف قصر الساج في قصيدته آنفة الذكر اشار في اواخرها الى نهر كان يبدأ من قرب القصر الجعفري وينتهي عنده ، اي ان النهر يوصل بين القصرين المذكورين · وذلك بقوله :

الحقه يا خير الــورى بمسيره

وامدد فضـــول عبابه المتدفق

فاذا بلغت به البديع فانمــــا

انزلت دجلة في فنــاء الجوسق

ان وصف البحتري بانه قصر تكامل في حسنه وهو كالقلعــة البيضاء يحيط بها البحر ، وان المعتز بالله وصل بينه وبين الجعفري

---

(١٦) الطبري ٩ / ٤٥١ ·

بالنهر الذي كان يتفرع من قناة سامرا ، ينطبق على قصر الدكة . ولذا فهو قصر الساج الذي بناه المعتز بالله(٢٠) ·

ويظهر ان مناطق سكنى الجند من الاتراك قد امتدت بعيدا عن المسجد الجامع الكبير مما صعب على المسنين منهم الوصول اليه لأداء فريضة الصلاة ، فبتنى المعتز بالله مسجدا قريبا من مناطق سكناهم · فأشاد البحتري بصنيع المعتز بالله بقوله (٢١) :

يا ابن عـــم النبي أمتعت العمـ
ـــر ومليت نعمـــة الامتـــاع

يعلم الله كيـف حمــــد الموالى
ما تعاني من شـأنهم ، وترامى

اعظموا المسجد الجديد فابدوا
واعادوا في الشكر عنه المـذاع

رحت خير البانين واخترت بالا
مس لخير البيوت خير البقاع

فصرت خطوة الكبيـــر ولاقى
متعب فضل راحـة واتـــداع

٤ ــ المهتدى بالله ·

كان المهتدي بالله قد اقام في الجوسق منذ ان بويـــع له الى ان قتل (٢٢) · وبسبب الوضع المالي السيء للدولة فقد اتبع المهتدي

---

(٢٠) دي سامراء ١/١٢٣ ·
(٢١) ديوان البحتري ــ طبعة صادر ١/١٥٠ــ١٥٢ ·
(٢٢) كتاب البلدان / ٢٦٨ ·

بالله سياسة اقتصاد وتقشف في جميع نفقاته وفي النفقات العامة · وكان بطبيعته يمقت حياة البذخ والترف ، فخفض كثيراً من نفقات بلاطه ونفقات اهله وولده ، مقتصراً على الضروري منها · ولذا لم يحدث في ايامه التي لم تتجاوز السنة ، اي عمران يذكر في سامرا ·

٥ ــ المعتمد على الله :

اقام المعتمد على الله عند مبايعته بالخلافة بسر من راى في الجوسق وقصور الخلافة ، ثم انتقل الى الجانب الغربي من المدينة فبنى قصر موصوفا بالحسن سماه المعشوق(٢٣) · وكنا ذكرنا في سيرته انه كان مستضعفا ، فانه رغم ميله الى الفنون والآداب ، ومع طول مدة حكمه لم يستطع ان يضيف شيئاً الى عمران سامرا الا يسيراً.وهو بناؤه قصر المعشوق·وذلك لعدم توفر المال من جهة بسبب حرب الزنج والثورات الداخلية الأخرى،ولسيطرة اخيه الموفق على شؤون الدولة من جهة اخرى ، مما حال دون ان يتمكن من ان ينفق شيئاً من المال حسب مشيئته ورغباته · كما كان الموفق نفسه رجل حرب قضى اغلب ايامه في جبهات القتال ، فلم يعن بالامور العمرانية ·

وكأن الاهمال العمراني الذي اصاب سامرا بعد المتوكل على الله قد حرم قصورها من العناية بها وصيانتها وتجديدها ، فاصبحت قديمة وقد فقدت جدتها ورونقها ولم تعد صالحة لسكنى الخلفاء · ونهذا يلاحظ المتتبع لتاريخ سامرا خلال السنوات العشر الأخيرة من حكم المعتمد على الله ، انه كان يتردد في سكناه بين بغداد وسامرا · وسبق ان اشرنا الى انه اتخذ القصر الحسنى ببغداد

(٢٣) نفس المصدر ·

سكناً له عندما يكون فيها . وبه كانت وفاته • على انه استطاع في سنة ٢٧٥هـ ان يبني قصراً فخماً في الجانب الغربي من سامرا اسماه المعشوق . وقد انتقل اليه وسكن فيه •

قصر المعشوق :

اشار اليعقوبي الى هذا القصر بقوله « ولما ولي المعتمد اقام بسر من رأى في الجوسق وقصور الخلافة ثم انتقل الى الجانب الغربي (٢٤) بسر من رأى فبنى قصرا موصوفا بالحسن سماه المعشوق ، فنزله فاقام به حتى اضطرته الامور فانتقل الى بغداد» (٢٥) • وقال عنه ياقوت الحموي « المعشوق وهو اسم لقصر عظيم بالجانب الغربي من دجلة قبالة سامرا في وسط البرية باق الى الآن (٢٦) • ليس حوله شيء من العمران ، يسكنه قوم من الفلاحين ، الا انه عظيم مكين محكم لم يبن في تلك البقاع على كثرة ما كان هناك من القصور غيره • وبينه وبين تكريت مرحلة • عمّره المعتمد على الله » (٢٧) • وذكر ابن الجوزي في حوادث سنة ٣٥٠هـ ان معز الدولة احمد بن ابي شجاع البويهي نقض المعشوق بسر من رأى وحمل اجره لبناء داره ببغداد(٢٨) • وجاء في كتاب تجارب الامم ان معز الدولة قد اشتدت علته واراد ان يترك بغداد الا ان وزيره ابو محمد المهلبي صرفه عن رأيه واقنعه بأن يبني قصراً في اعالي بغداد • ولما شرع بالبناء قلع الابواب الحديد التي على مدينة ابي جعفر المنصور ، ونقض قصور الخلافة بسر من رأى

---

(٢٤) في الاصل الشرقي •
(٢٥) كتاب البلدان ، ٢٦٨ •
(٢٦) توفي ياقوت الحموي في سنة ٦٢٦هـ •
(٢٧) معجم البلدان ٥ / ١٥٦ـ١٥٧ •
(٢٨) المنتظم ٧ / ٢ •

ونقل منها الآجر لبناء قصره (٢٩) • ويظهر انه نقض قصر المعشوق ايضا •

وكان علي بن يحيى المنجم نديم الخلفاء مقربا من المعتمد على الله فقلده بناء المعشوق فبنى له اكثره (٣٠) • لأنه توفي في سنة ٢٧٥هـ قبل ان يتم بناء القصر • مما يستدل منه ان المعتمد على الله شيد هذا القصر في حدود السنة المذكورة • فعهد وزيره سليمان بن وهب الى محمد بن عبدالله بن يحي الاشراف على اكمال بناء القصر ، ثم ما لبث أن صرفه الخليفة (٣١) •

ومر باطلال قصر المعشوق كل من ابن جبير وابن بطوطه . فقال عنه ابن جبير ابو الحسن محمد بن احمد الاندلسي المتوفى سنة ٦١٤هـ ، عند مروره بسامرا « ونزلنا مع الصباح من يوم الخميس الثامن عشر لصفر على شط دجلة بمقربة من حصن يعرف بالمعشوق •• فاقمنا بهذا الموضع طول يومنا مستريحين ، وبيننا وبين مدينة تكريت مرحلة »(٣٢) • وقال عنه ابن بطوطة ابو عبدالله محمد بن عبدالله الطنجي المتوفى سنة ٧٩٧هـ في رحلته من بغداد الى الموصل عندما مر به « فنزلنا موضعا على شط دجلة بالقرب من حصن يسمى المعشوق وهو مبنى على الدجلة • وفي العدوة الشرقية من هذا الحصن مدينة سر من رأى وتسمى سامرا »(٣٣) •

وكان المستشرق الفرنسي فيوله ــ violle t من اوائل المحدثين الذين ابدوا اهتماما بهذا الأثر فنشر دراسة قصيرة عنه وبعضا من مخططاته في سنة ١٩١١م ، عقبه المستشرق الالماني

(٢٩) تجارب الامم ٢/١٨٢ـ١٨٣ •
(٣٠) معجم الادباء ٥/٤٧٦ •
(٣١) الوزراء / ٢٨٤ •
(٣٢) رحلة ابن جبير / ١٨٥ •
(٣٣) رحلة ابن بطوطة ١/١٤٧ •

هرزفيلد فاجرى بعض التنقيبات فيه قبيل الحرب العالمية الاولى (٣٤) ·

تقع اطلال قصر المعشوق على الضفة الغربية لنهر الاسحاقي في الجانب الغربي من نهر دجلة ، وتسمى اليوم قصر العاشق · وكان المعتمد على الله آخر خلفاء سامرا قد بناه في اواخر عهده ، قبل انتقال مقر الخلافة الى بغداد · وبناية القصر مستطيلة الشكل ذات طابقين ، وقد تحول الطابق الأسفل الى سرداب لتراكم انقاض اجزاء الطابق الثاني فيه · ويبلغ طول البناية ١٣١ متراً وعرضها ٩٦ متراً ، وكانت محاطة بساحة مسورة ، ويشاهد في هذه الساحة بين القصر والسور آثار عدة مبان فرعية (٣٥) · وكان يدور حول سور القصر خندق واسع يستمد مياهه من قناة جوفية (كهريز) ينحدر اليها الماء من العيون التي في اراضي الجزيرة الغربية فتفضي اليه ، لأن موقع القصر كان مرتفعا بالنسبة الى منسوب المياه في نهر الاسحاقي فلم يكن بالامكان جر الماء منه الى الخندق(٣٦) ·

يعتبر قصر المعشوق من أهم القصور الأثرية المتخلفة عن العاصمة سامرا . وكان بناؤه متينا اذ ان معدل عرض جدرانه ٢ر٦٠ متراً ، اضافة الى انه معزز بابراج ضخمة تدعمه من جوانبه المختلفة ، وتحيط به مسناة من بعض جهاته لحمايته من مياه الأمطار · وذلك ما حدا بالكتاب والبلدانيين القدماء الى ان يطلقوا عليه صفة القلاع والحصون · وقد نشر المنقب الآثاري السيد ربيع القيسي تقريراً بعنوان « الصيانة الاثرية في قصر العاشق في

---

(٣٤) مجلة سومر . العدد ١ و٢ من السنة ١٩٦٧/ ١٨٣ ·
(٣٥) الآثار القديمة العامة ـ سامراء / ٧١ ·
(٣٦) ري سامراء ١/ ٨٨ ·

سامراء » في مجلة سومر(٣٧) • تضمن وصفا دقيقا لأعمال الصيانة التي قامت بها مديرية الآثار العامة للحفاظ على البقية الباقية من جدران القصر وابراجه المتداعية وكثير من جدرانه الداخلية التي استظهرت بنتيجة اعمال التنقيب • وفيما يلي ملخص بما كشف من مرافق القصر المذكور قد تساعدنا على تصور تخطيطه وما كان يحتوي عليه من الغرف والقاعات والممرات وغير ذلك من المرافق الاخرى •

بني قصر المعشوق جميعه بالآجر من النوع الكبير (الفرشي) من قياس ٥ر١٠ × ٥ر١٠ × ٥ر٢ بوصة • ومن اطلاله الباقية في الوقت الحاضر يشاهد في الجهة الشمالية منه بقايا جدران امكن الاهتداء بواسطتها الى مرافق القصر • وكانت في القصر اواوين على غرار الاواوين في قصور سامرا الاخرى • ووجد ان جدار الجبهة الشمالية للقصر تصاقبه من الخارج مجموعة من الغرف مستطيلة ومتوازية ومتعامدة على هذا الجدار ، وظهر ان احداها وهي الغرفة الشرقية تكون ممراً يؤدي الى مرافق القصر العليا ، ويحتمل ان يكون هذا الممر مدخلا للقصر من جهته الشمالية • وقد شيد هذا المدخل بالآجر والجص بهيئة سلم منحدر على دفق من التراب يرتفع الى مسافة اربعة امتار ثم ينعطف نحو اليسار ، وبعد مسافة ١١ متراً ينحرف مرة اخرى نحو اليسار مشكلا ممراً يصل نقطة تقع فوق باب المدخل وعندها ينتهي الدفن المشيد عليه السلم • وظهرت دلائل معمارية تؤكد استمرار هذا السلم وانعطافه يساراً مرة ثالثة فيتصل بعقد من الخشب مشكلا سقفاً للقسم الأسفل ، ويؤدي بعد مسافة ١١ متراً الى مدخل بعرض مترين يفضي الى مرافق القصر • وفي جدار المدخل عدة نوافذ للاضاءة والتهوية ، وكشف عن طابق اسفل تحت هذه الجبهة

(٣٧) مجلة سومر ـ العددان ١ و٢ لسنة ١٩٦٧/١٨٣ـ١٨٧ •

بهيئة سرداب مشيد بالآجر والجص على غرار الأواوين في العمائر الاسلامية ·

وكشف في منتصف الجبهة الشرقية للقصر مدخل تدل معالمه البنائية على انه من المباني المضافة على هذا القسم ، وعن يسار المدخل المذكور ثلاث غرف مستطيلة الشكل ذات جدران سميكة ، وعلى جدران هذه الجبهة ميازيب عمودية منحوتة عرضها ٣٠سم وعمقها ٢٠سم لتصريف مياه الأمطار · ويظهر انها نحتت بعد تشييد الجدران لأنه لوحظت آثار قص الجدران ، وان هذا القص يخترق جانبا من المشاكي التي تزين ظاهر الجدران · وكان بعض هذه الجدران تزينها نقوش وكتابات ·

ووجد في الجانب الغربي من القصر منفذ بهيئة عقد يتوسط البرجين الثالث والرابع وعرضه متران ، مع آثار غرف صغيرة امام المدخل تلاحق جدران القصر من هذا الجانب ·

وفي الجبهة الجنوبية من القصر وجدت بقايا اربعة ابراج · وظهر ان بعض جدران هذه الجبهة قد شيدت على وجه الارض من دون اساس وذلك لصلابة الارض التي تقوم عليها هذه الجدران · ووجد مدخل صغير في هذه الجبهة على غرار مدخل الجانب الغربي من القصر · كما وجدت عدة مرافق بقرب هذا المدخل تشابه المرافق الملاصقة لمدخل القسم الغربي ·

وقد اشاد البحتري بذكر هذا القصر في قصيدة مدح بها الخليفة المعتمد على الله مطلعها (٣٨) :

أريتك الآن المع البروق
ام شعل مرفضة من حريق

(٣٨) ديوان البحتري ـ طبعة صادر ١/١٨٢ ـ ١٨٤ ·

الى ان يقول :

لازال معشوك يسقى الحيا
من كل داني المزن واهي الخروق

فما خلونا مذ رأيناه من
فتح جديد ، وزمان أنيق

أشرق نظاراً الى ملتقى
دجلة يلقاه بوجه طليق

وطالع الشمس على موعد
بمثل ضوء الشمس عند الشروق

لم أر كالمعشوق قصراً بدا
لأعين الرائين غير المشوق

هذاك قد بر في حسنه
سبقاً وهذا مسرع في اللحوق

وقد اشار ياقوت الحموي في معجمه الى ان المعتمد بالله كان عمّر قصراً آخر سمي باسمه هو القصر الأحمدي ، ولكنه لم يذكر موضعه ومتى انشأه ، مكتفياً بهذه اللمحة البسيطة ، وذكر ما قاله فيه ابن المعتز واحد الأدباء . فقد ذكر ابن المعتز هذا القصر في شعر امتدح به المعتمد على الله ، منه قوله (٣٩) :

بدر تنقل في منازله سعد يصبحه ويطرقه
فرحت به دار الملوك فقد كادت الى لقياه تسبقه
والأحمدي اليه منتسب من قبل والمعشوق يعشقه

(٣٩) معجم البلدان ٥/١٥٦-١٥٧ .

وقال بعض اهل الادب : اجتزت بسامرا فرايت على جدران القصر المعروف بالأحمدي مكتوباً (٤٠) :

في الأحمدي لمن يأتيه معتبر
لم يبق من حسنه عين ولا أثر
غارت كواكبه وانهد جانبه
ومات صاحبه واستقطع الحيز

---

(٤٠) نفس المصدر ١/١١٧ .

الفصل السادس

العودة الى بغداد وهجر سامرا

١ ـ العودة الى بغداد :

ليس هناك تاريخ معين لترك المعتمد على الله مدينة سامرا والعودة الى بغداد ، كما لا تتضح الاسباب التي دفعته الى الانتقال . وان ما ورد في المصادر الأولية حول هذا الموضوع لا يلقي ضوء واضحا على ذلك . ولكن المتتبع لسير الحوادث خلال السنوات العشر الأخيرة من حياة سامرا كعاصمة للدولة العربية يلاحظ ان الخليفة كان في اثنائها يتردد بين بغداد وسامرا ، فيكون مقره في سامرا احيانا وفي بغداد احيانا اخرى. ونذكر فيما يأتي بعضا من الحوادث التي وقعت خلال المدة المذكورة وكانت بغداد مسرح حدوثها مع ان سامرا كانت لا تزال عاصمة الدولة ومقر الخلافة ، لأن دواوين الدولة وخزائنها لازالت فيها .

ومما حدث في سنة ٢٧٠هـ ان ابا العباس احمد بن الموفق ، وكان بمعية ابيه في حرب الزنج ، قدم بغداد ومعه رأس الخبيث قائد ثورة الزنج ليراه الناس (١) . مما يدل على ان الخليفة كان

---

(١) الطبري ٩/٦٦٣ ، والكامل ٧/٤٠٥ .

حينذاك في بغداد ، لأن من المعتاد ان يحمل رأس الثائر الى الخليفة ليقرر ما يراه بشأنه ، فقد يأمر بدفنه ، او بتعليقه في محل عام او بالطواف به في بعض اقاليم الدولة ·

ولتسع بقين من جمادى الآخرة سنة ٢٧٢هـ قدم ابو العباس بغداد منصرفا من وقعته مع ابن طولون بالطواحين (٢) · وفي هذه السنة ورد الخبر مدينة السلام بدخول حمدان بن حمدون وهارون الشاري مدينة الموصل (٣) ·

وعندما حبس الموفق ابنه ابا العباس في سنة ٢٧٥هـ شغب اصحاب ابي العباس وحملوا السلاح ، واضطربت بغداد ، فركب ابو احمد حتى بلغ باب الرصافة (٤) ·

ولأربع عشرة خلت من شهر ربيع الاول من سنة ٢٧٦هـ شخص ابو احمد الموفق من مدينة السلام الى الجبل (٥) ·

وفي أول يوم من شعبان سنة ٢٧٧هـ قدم بغداد قائد من قواد ابن طولون في جيش عظيم من الفرسان والرجالة (٦) · ومجيء هذا الوفد العسكري الى بغداد يدل على ان الخليفة كان فيها آنذاك ·

وان وفاة الموفق في صفر سنة ٢٧٨هـ ودفنه بالرصافة ببغداد (٧) ، ووفاة المعتمد على الله في رجب سنة ٢٧٩هـ ببغداد (٨) ، مما يشير الى انهما كانا قد استقرا في بغداد ·

---

(٢) الطبري ١٠/٩ ·
(٣) الطبري ١٠/٩ والكامل ٧/٤١٩ ·
(٤) الطبري ١٠/١٥ والكامل ٧/٤٣٣ ·
(٥) الطبري ١٠/١٦ ·
(٦) الطبري ١٠/١٨ ، والكامل ٧/٤٣٩ ·
(٧) الطبري ١٠/٢٢ ، والكامل ٧/٤٤٣ ·
(٨) الطبري ١٠/٢٩ ، والكامل ٧/٤٥٥ ·

يقول ابن الأثير ان المعتمد على الله اول الخلفاء انتقل من سر من رأى مذ بنيت ثم لم يعد اليها احد منهم (٩) ٠

ويؤيد الخطيب البغدادي تردد المعتمد على الله على بغداد ، اذ يذكر انه كان قد استنزل بوران ارملة المأمون عن قصرها المعروف بالحسني ، فاستنظرته اياماً في تفريغه وتسليمه ٠ ثم رممته وعمرته وفرشته باجل الفرش ، وملأت خزائنه بما يخدم به الخلفاء ، ورتبت فيه من الخدم والجواري ما تدعو الحاجة اليه ، فلما فرغت من ذلك انتقلت منه ٠ فانتقل المعتمد اليه ٠ ولما كانت بوران قد توفيت في اواخر ربيع الأول من سنة ٢٧١ هـ ، فان انتقال المعتمد على الله الى القصر كان قبل وفاتها ٠

ويشير ياقوت الحموي الى نفس الخبر المذكور فيقول : « فاتاه فرأى ما اعجبه وارضاه واستحسنه واشتهاه ، وصار من احب البقاع اليه ، وكان يتردد فيما بينه وبين سر من رأى فيقيم هناك تارة وهناك تارة اخرى »(١١) ٠ وواضح من هذا ان المعتمد على الله لم ينتقل الى بغداد بصورة نهائية ٠

وقد لاحظ ياقوت ان سامرا « لم تزل كل يوم في صلاح وزيادة وعمارة منذ ايام المعتصم والواثق الى ايام المنتصر بن المتوكل ٠ فلما ولي المستعين وقويت شوكة الأتراك واستبدوا بالملك والتولية والعزل ، وانفسدت دولة بني العباس ، لم تزل سر من رأى في تناقص للاختلاف الواقع في الدولة بسبب العصبية التي كانت بين امراء الاتراك ٠ الى ان كان آخر من انتقل الى بغداد من الخلفاء واقام بها وترك سر من رأى بالكلية المعتضد بالله امير المؤمنين»(١٢) ٠

---

(٩) الكامل ٧/ ٤٥٥ ٠
(١٠) تاريخ بغداد ١/ ٩٩–١٠٠ ٠
(١١) معجم البلدان ٢/ ٤ ٠
(١٢) نفس المصدر ٣/ ١٧٦ ٠

وذكر المؤرخ زكريا بن محمد القزويني مثل هذا ، فقال « ولم تزل في زيادة عمارة من ايام المعتصم الى ايام المستعين ، فعند ذلك قويت شوكت الأتراك ووقعت المخالفة في الدولة • فلم تزل في نقص الى زمان المعتضد بالله فانه انتقل الى بغداد وترك سامرا بالكلية »(١٣) •

ان ما ذكرناه يؤيد ان المعتمد على الله كان يترد بين سامرا وبغداد ، وانه لم ينتقل بصورة نهائية الى بغداد • ولعل قيامه ببناء قصر المعشوق في سامرا خلال سنتي ٢٧٥ و٢٧٦هـ دليل آخر على انه لم يزمع الانتقال منها • الا انه عندما تولى المعتضد بالله الخلافة في رجب من سنة ٢٧٩ وهو في بغداد آثر الاستقرار بها ، ونقل دواوين الدولة اليها ، فعادت من جديد عاصمة للدولة العربية •

وهكذا كانت سامرا عاصمة للدولة العربية خلال المدة من اوائل سنة ٢٢٣هـ حتى رجب سنة ٢٧٩هـ ، اي طيلة مدة تقرب من سبع وخمسين سنة عدا المدة التي انتقل بها المتوكل على الله الى المتوكلية • اما المدة التي انتقل بها المتوكل على الله الى دمشق فانه « لم ير في سفرته هذه شيئا ولا نظر في مصلحة »(١٤) • اي انه لم يمارس اعماله خلالها • والمدة التي انتقل فيها المستعين بالله الى بغداد وبقاؤه فيها حتى تنازله عن الخلافة وقدرها سنة واحدة ، فقد بقيت سامرا خلالها عاصمة للخليفة المعتز بالله الذي بايعه القواد الأتراك اثر انحدار المستعين بالله الى بغداد •

٢ ـ اسباب هجر سامرا :

وكما قامت مدينة سامرا واتسعت خلال مدة وجيزة من الزمن فقد قدر لها ان يغتالها الاهمال ويعمها الخراب بسرعة ايضا • وليس

(١٣) آثار البلاد واخبار العباد / ٣٨٦ •
(١٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩١ •

هناك اسباب واضحة لهجرها وعودة مقر الخلافة الى مدينة السلام ٠ الا ان المتتبع يلمس اهمال الخلفاء الذين جاءوا بعد المتوكل على الله شؤون المدينة العمرانية عدا مدة قصيرة في ايام المعتز بالله ٠ وذلك بسبب انشغال الدولة العربية بالحروب وما اصابها جراء ذلك من انهاك وارهاق وبخاصة من الناحية المالية ، بقيام ثورة الزنج التي استمرت خمسة عشر عاما ، وخروج الولايات الشرقية بين حين وآخر على سلطة الخلافة ٠ بحيث فقدت سامرا وبخاصة قصورها جدتها وبهاءها واصبحت لا تليق بسكنى الخلفاء فيها ٠ مما جعل المعتمد على الله ، رغم الظروف المالية الصعبة ، يبني له قصراً في الجانب الغربي من المدينة ٠ وان المعتضد بالله الذي قضى اكثر ايامه قبل توليه الخلافة ببغداد ، رأى بعد ان بويع له ان الاقامة بالقصر الحسني اكثر راحة واعظم ابهة من السكن باحد قصور سامرا القديمة ٠

ولا ينكر ان عودة العاصمة الى بغداد ونقل مختلف الدواوين ورجالها اليها ، وما تبع ذلك من انتقال عدد كبير من سكان سامرا رعاية لمصالحهم ، أثر تأثيراً بالغا في عمران سامرا ٠ وافرغها من سكانها تقريبا بحيث كادت تخلو منهم تماما ٠ كما كان لصعوبة توفير مياه الشرب لسكان الضفة الغربية المرتفعة من سامرا ٠ وهي الجانب الأوسع والأهم منها ، تأثير مهم آخر في نزوحهم عنها ٠ فهجرت المدينة التي نافست بغداد ردحاً من الزمن زاد على نصف القرن ، وتطرق اليها الاضمحلال والخراب ٠ وقد احسن ياقوت الحموي بقوله انها خربت حتى لم يبق منها سوى موضع المشهد ومحلة بعيدة يقال لها الكرخ ، واصبح « سائر ذلك خراب يباب يستوحش الناظر اليها بعد ان لم يكن في الأرض كلها احسن منها ولا اجمل ولا اعظم ولا آنس ولا اوسع ملكاً »(١٥) ٠

---

(١٥) معجم البلدان ٣/١٧٦ ٠

٣ ـ سامرا بعد هجرها :

وقد وصف سامرا بعد هجرها بسنين عديدة بعض البلدانيين ، وذكرها بعض الرحالين الذين مروا بها • فقال عنهـــا الاصطخري « وهي خراب ربما يسير الرجل في مقدار فرسخ منها لا يجد بهـــا دارا معمورة » (١٦) • وقال المقدسي « والآن خربت ، يسير الرجل الميلين والثلاثة لايرى عمارة ، وهي الجانب الشرقي ، وفي الغربي بساتين • • فلما خربت سميت ساء من رأى »(١٧) • وقال ابن حوقل « ومدينة سر من رأى في وقتنا هذا مختلة واعمالهـــا وضياعهـــا مضمحلة ، قد تجمع اهل كل ناحية منها في مكان لهم به مسجد جامع وحاكم وناظر في أمورهم ، وصاحب معونة يصرفهم في مصالحهم • وهواؤها وثمار اصح من ثمار بغداد وهوائها • ولها نخيل وكروم وغلات تحمـــل الى مدينـــة الســـلام ، وهـــي الآن خـــراب اكثرها » (١٨) •

ومر بها الرحالة ابن جبير في طريقه من بغداد الى الموصـــل ، فقال عنها « ونزلنا مع الصباح من يوم الخميس الثامن عشر مـــن صفر على شط دجلة بمقربة من حصن يعرف بالمعشـــوق • وعلى قبالة هذا الموضع في الشط الشرقي مدينة سر من رأى وهي اليوم عبرة من رأى ، اين معتصمها وواثقها ومتوكلها ؟ مدينة كبيرة قد استولى عليها الخراب الا بعض جهات منها هي اليوم معمورة • وقد اطنب المسعودي رحمه الله في وصفها ووصف طيب هوائها ورائـــق حسنها . وهي كما وصف وان لم يبق الا الأثر من محاسنها » (١٩) •

---

(١٦) كتاب الاقاليم / ٤٨ •
(١٧) احسن التقاسيم /١٢٢ـ١٢٣ •
(١٨) صورة الارض / ٢١٨ •
(١٩) رحلة ابن جبير / ١٨٥ •
(٢٠) رحلة ابن بطوطه /١/١٤٧ •

اما ابن بطوطه الذي توفى سنة ٧٧٩هـ اي بعـد وفـاة ابـن جبير بـ ١٦٥ عاما فقد مر بها ايضا وقال عنها « فنزلنا موضعاً على شط دجلة بالقرب من حصن يسمى المعشوق وهو مبني على الدجلة • وفي العدوة الشرقية من هذا الحصن مدينة سرمن رأى وتسمى ايضا سامرا •• وقد استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبق منها الا القليل • وهي معتدلة الهواء رائعة الحسن على بلائها ودروس معالمها • وفيها ايضا مشهد صاحب الزمان »(٢٠) •

ولم يفكر احد من الخلفاء بعد المعتضد بالله بالعودة الى سامرا • ولكن يظهر مما ذكره ابو الحسن الهلال الصابي أن المكتفي بالله كان كلفاً بها وكان يخرج اليها للصيد (٢١) • ويشير الطبري في حوادث سنة ٢٩٠هـ الى ما يدل على ان المكتفي بالله قد اراد الانتقال اليها • فهو يقول « ولعشر بقين من جمادى الآخرة خرج المكتفي بعد العصر عامداً سامرا مريدا البناء بها للانتقال اليها ، فدخلها يوم الخميس لخمس بقين من جمادى الآخرة ، ثم انصرف الى مضارب ضربت له بالجوسق ، فدعا القاسم بن عبدالله والقوام بالبناء فقدروا لـه البناء وما يحتاج اليه من المال للنفقة عليه ، وكثروا عليه في ذلك ، وطولوا مدة الفراغ مما اراد بناءه ، وجعل القاسم يصرفه عن رأيه في ذلك ويعظم امر النفقة في ذلك وقدر مبلغ المـال ، فثنـاه عـن عزمه » (٢٢) • وقد ذكر ابن الجوزي مثل هذا في حـوادث سنة ٢٩٠هـ (٢٣) • وقد يكون نقله عن الطبري • كما اشار الى ذلـك ابن الأثير في حوادث السنة المذكورة (٢٤) •

---

(٢١) الوزراء / ٢٥٢ •
(٢٢) الطبري ١٠/٩٨-٩٩ •
(٢٣) المنتظم ٦/٣٨ •
(٢٤) الكامل ٧/٥٢٩ •

وكتب عبدالله ابن المعتز الى صديق له يمدح سر من رأى ويصف خرابها ، ويذم بغداد واهلها ، ويفضل سامرا ، نجتزىء منه بعض الفقرات (٢٥) : كتبت اليك من بلدة قد انهض الدهر سكانها ، واقعد جدرانها ، فشاهد اليأس فيها ينطق ، وحبل الرجاء فيها يقصر . فكأن عمرها يطوى ، وكأن خرابها ينشر . وقد وكلت الى الهجر نواحيها ، واستحث باقيها الى فانيها • وقد تمزقت بأهلها الديار ، فما يجب فيها حق جوار ، فالظاعن منها ممحو الأثر ، والمقيم بها على طرف سفر ، نهاره ارجاف وسروره احلام ، ليس له زاد فيرحل ولا مرعى فيرتع • فحالها تصف للعيون الشكوى ، وتشير الى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الأرض وقرار الملك ، تفيض بالجنود اقطارها ، عليهم اردية السيوف وغلائل الحديد ، كأن رماحهم قرون الوعول ، ودروعهم زبد السيول ، على خيل تأكل الأرض بحوافرها •• على انها وان جفيت معشوقة السكنى ، وحبيبة المثوى ، كوكبها يقظان ، وجوها عريان ، وحصاها جوهر ، ونسيمها معطر ، وترابها مسك أذفر ، وشرابها مرىء •• لا كبغدادكم الوسخة السماء ، الومرة الهواء ، جوها نار وارضها خبار ، وماؤها حميم ، وترابها سرجين ، وحيطانها نزوز ، وتشرينها تموز • فكم في شمسها من محترق ، وفي ظلها من عرق ، ضيقة الديار ، قاسية الجوار ، ساطعة الدخان قليلة الضيفان • اهلها ذئاب ، وكلامهم سباب ، وسائلهم محروم ومالهم مكتوم لايجوز انفاقه ولا يحل خناقه ، حشوشهم مسايل وطرقهم مزابل ، وحيطانهم اخصاص وبيوتهم اقفاص ، ولكل مكروه أجل ، وللبقاع دول . والدهر يسير بالمقيم ويمزج البؤس بالنعيم • وبعد اللجاجة انتهاء ، والهم الى فرجة ، ولكل سابلة قرار ، وبالله استعين ، وهو محمود على كل حال :

---

(٢٥) معجم البلدان ٣/١٧٧–١٧٨ •

غدت سر من را في العناء فيا لها
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

واصبح اهلوها شبيها بحالهـــا
لما نسجتها من جنـوب وشمأل

اذا ما امروء منهم شكا سوء حاله
يقولون لا تهلك اســـى وتجمل

واذا ما تتبعنا الأخبار عن سامرا بعد هجرها فاننا نجد ذكرها يتردد مقرونا باحداث بعض السنوات • فقد جاء في حوادث السنة ٢٨١هـ ان الأعراب دخلوا سامرا واسروا ابن سيما(٢٦) • وذكر في حوادث السنة ٢٩٦هـ عندما خلع المقتدر وبويع عبدالله بن المعتز ثم عاد المقتدر ، ان ابن المعتز ومن بايعه من القواد حاولوا ان يسيروا الى سر من راى بمن تبعهم من الجند فيثبت أمرهم ويشتد سلطانهم ، فلم يتبعهم احد(٢٧) • وفي حوادث السنة ٣٢٠هـ ان مؤنسا انحدر من الموصل في شوال وبلغ خبره جند بغداد فشغبوا وطلبوا ارزاقهم ، ففرق المقتدر بالله فيهم اموالا كثيرة ، وانفذ ابا العلاء سعيد بن حمدان وصافياً البصري في خيل الى سر من رأى ، وانفذ ابا بكر بن ياقوت في الفي فارس ومعه الغلمان الى المشوق(٢٨) • وعن وفيات السنة ٣٢٢هـ يقول ابن الأثير « وفيها توفي خير بن عبدالله النساج الصوفي من أهل سامرا »(٢٩) • وذكر في حوادث سنة ٣٣٠هـ عندما هرب ابو حسين البريدي من بغداد الى واسط وعـــاد الخليفـــة المتقي بالله اليها مع ابن حمدان ، وكان المتقي قد سير اهله مـــن

(٢٦) الطبري ١٠/٣٧ ، والكامل ٧/٤٦٨ وفيه انهم قتلوه •
(٢٧) تجارب الامم ١/٦ ، والكامل ٨/١٦ •
(٢٨) تجارب الامم ١/٢٣٤ ، والكامل ٨/٢٤١ •
(٢٩) الكامل ٢٩٨ •

بغداد الى سر من رأى ، فاعادهم · كما عاد من هرب اليهـا مـن الأعيان (٣٠) · ولما نشبت بين اصحاب معز الدولة بعكبـرا وناصر الدولة ومن معه من الاتراك بسر مـن رأى في سـنة ٣٣٤هـ عبـر اصحاب معز الدولة من الديلم من الجانب الشرقي من سر من رأى الى الجانب الغربي وساروا الى تكريت فنهبوها ، ثم صار بعضهم الى سر من رأى فنهبوها ايضا (٣١) · ويذكر ابن الأثير ان جامع سر من رأى احترق في سنة ٤٠٧ هـ(٣٢) · وعندما خرج امر الخليفـة القادر بالله في سنة ٤١٥هـ بصرف ابن ابي طالب عن نقابة الكوفة انكر الوزير المغربي ما يجري على صهره ابن ابي طالب من العزل ، وكان عند قرداش بسر من رأى(٣٣) · وورد في وفيات السنة ٤٢٥هـ وفاة ابي سنان غريب بن محمد الملقب بسيف الدولة في شهر ربيع الآخر في كرخ سامرا ، وكان قد ضرب دراهم سماها السيفية (٣٤) · وجاء في حوادث السنة ٤٧٨هـ ان السلطان بركياروق قتل عمـه تكش وغرقه في سر من رأى(٣٥) ·

---

(٣٠) تجارب الامم ٢/ ٣٠ ، والكامل ٨/ ٣٨٥ ·
(٣١) تجارب الامم ٢/ ٨٩ـ٩٠ ، والكامل ٨/ ٤٥٣ ·
(٣٢) الكامل ٩/ ٢٩٥ ·
(٣٣) الكامل ٩/ ٣٣٦ ·
(٣٤) الكامل ٩/ ٤٣٨ ·
(٣٥) الكامل ١٠/ ٢٣٩ ·

الفصل السابع

دور السكنى في سامرا

ان دور السكنى التي تم الكشف عنها في اطلال سامرا كانت تتألف من طابق ارضي واحد بوجه عام • وجدرانها مبنية باللبن والجص • اما الآجر فقد استعمل في تطبيق ارض بعض الغرف ،في عقد الطيقان • وقد شوهد في بعض الدور نوع من الطابوق المصنوع من الجص في بناء الطيقان والعقادات المهمة •

اما ارضية الغرف فيبلط بالآجر وبعضها بالجص ، وقليل جدا منها بلط بالرخام الابيض او الاسمر ، وقطع الرخام المستعملة مربعة الشكل او مثلثة • وكانت الجدران عادة تطلى بالجبس • ولوحظ في بعض الدور ان القسم الأسفل من جدران غرفها كانت تكسوه قطع الرخام الى ارتفاع متر واحد تقريبا • وعلى جدران معظم الغرف زخارف محفورة في الجبس بالوان جميلة • اما الجدران الخارجية فلا أثر للتزيين فيها • وشوهد في كثير من البيوت اعمدة واساطين مصنوعة من الجص ملتصقة بالجدران ، وتحتها قواعد بديعة • ولاشك ان رؤوس هذه الأعمدة كانت على هيئة التيجان • واغلب الأعمدة التي عثر عليها جصية كلها ، وقليل منها يتكون داخلها من اللبن او الطين وقد كسيت بالجص لتجميل منظرها •

توجد في جدران بعض الغرف روازين مزينة بالزخارف • وكانت ابواب الغرف تحاط باطار بارز من الجص بوجه عام(١) •

ويظهر ان بيوت سامرا بنيت على نسق واحد ، اذ يتقدم البيت مدخل مسقف ـ وهو ما نسميه بالمجاز ـ يفضي الى باحة مكشوفة مستطيلة في آخرها قاعة رئيسة على شكل حرف "T" مقلوب مع غرفتين صغيرتين في الزاويتين . وتحاط القاعة بصفوف من الغرف للسكن او لاتخاذها مخازن . والسقوف جميعها خشبية (٢) •

وقد يكون في الدار اكثر من صحن واحد . وكما اشرنا آنفا فان الغرف في جميع البيوت المكتشفة مرتبة على نظام واحد : الغرفة الأصلية وتتألف من قسمين ، الأول بمثابة الايوان ويتعامد مع القسم الثاني من وسطه ويكون عادة اعرض منه وأقل طولا • وتقوم على طرفي الايوان غرفتان صغيرتان تنفتح باب كل منهما على جناح القسم الثاني الذي يكون بمثابة رواق يمتد امام الغرفتين ويتصل بالايوان الذي يتوسطهما • ومما يلفت النظر ان هذا الترتيب ينطبق تماما على « الطراز الحيري » الذي سبقت الاشارة اليه • فكان القسم المتوسط الشبيه بالايوان هو « الصدر » والغرفتان اللتان على جانبيه هما « الكمان » اما القسم الذي يتعامد مع الصدر والكمين فهو « الرواق » • وقد ظهر في بعض الدور مجازان طويلان على على طرفي الكمين والرواق ، وهما بمثابة « خزانة الكسوة » و « مستودع الشراب » • كما لوحظ في بعض الدور ان الصدر لا يتصل بالكمين مباشرة ، بينما كان في دور اخرى متصلا بهما بصورة مباشرة • وقد وجد في احدى الدور المكتشفة ان الصدر كان غرفة مثمنة الشكل ذات ثلاثة ابواب ، وان بعض الغرف مقسمة الى

---

(١) حفريات سامراء ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ / ١ / ٢٥ •

(٢) Creswell. E. M. A. P : 286-287.

قسم داخلي وقسم خارجي بواسطة جدارين صغيرين او بسلسلة من الأعمدة (٣) ٠

واظهرت التنقيبات في الدور المكتشفة عدة حمامات ، ومرافق صحية ، وبالوعات منتظمة يزيد عمق بعضها على ثلاثة امتـــار ٠ وشوهد في بعض الدور مجاري للمياه متقنة الصنع ٠ كما شوهد في كثير من هذه الدور محلات مخصصة لتربية الحمام ، يقع بعضها في احدى زوايا الدار ، وبعضها الآخر تحت الـــدرج ٠ وشوهدت في بعض الدور غرف مخصصة لذلك وقد بنيت على جدرانها اكنان على نظام بديع ٠ وكان قسم من هذه الاكنان واسعة يستدل منها انها كانت لتربية الطيور الداجنة الكبيـــرة كالاوز والدجـــاج ٠ وكشف عن وجود سراديب في بعض دور السكنى المذكـــورة على اختلاف مواقعها ، ووجد في بعضها سردابان ٠ والسراديب المذكورة محفورة في الطبقة الصخرية التي تعرف بين الاهلين باسم «السن» ٠ وكان ينزل الى هذه السراديب بدرج منظم يتألف قسمه الاعلى من خمس قدمات ، وقسمه الاسفل من ست قدمات ٠ ويدخل النور الى السرداب عادة من طاقات مفتوحة في سقفه ، وتظهر هذه الطاقات في ارض الدار كفوهات آبار ٠ وحفرت في جدران بعض السراديب نوافد عمياء (روازين) لوضع بعض الحاجات والاسرجة (٤) ٠

ومن المعتاد ان يكون في مدخل الدار دهليز او مجـــاز مستطيل تقوم على طرفيه دكتان معدتان للجلوس ، ويعقب هذا الدهليز او المجاز مجاز آخر فيه دكتان او اكثر ٠ ومما يلفت النظر ان امثال هذه الدكات كانت لا تزال تشاهد في دور سامراء الحالية في وقت القيام بالتنقيبات ٠ ويكون مدخل الدار في اغلب الاحيان بارزا عن جدار الدار ، وعلى طرفيه حنايا على شكل محاريب ، وعلى طرفيها بعض

(٣) حفريات سامراء انف الذكر ١/٢٧-٢٨ ٠
(٤) نفس المصدر / ٣١-٣٢ ٠

الأعمدة ، مما يكسب مدخل الدار جمالا • ولوحظ في معظم الدور المكتشفة آثار تغييرات حصلت في بنائها ، وفي زخارفها ، اكثر من مرة ، كاستحداث باب في احد الجدران ، او سد باب قديم ، او تقسيم غرفة الى قسمين او اكثر ، او ردم الأرض وتعلية التطبيق • او تجديد بعض الزخارف والنقوش • وذلك ما نسميه اليوم بالصيانة والادامة • وتدل هذه التغييرات على نزعة التجديد • لقد لقد شوهدت في بعض الدور مثلا ، قاعة كبيرة قد قسمت الى غرف صغيرة بجدران بسيطة • حتى ان بعض المغاسل والمراحيض استحدثت في زاوية من زوايا غرفة غنية بالزخارف البديعة ، مما يدل بشكل واضح على ان التغييرات كانت قد أحدثت بعد ان هجرت الدار من اصحابها الأغنياء فتحولت الى مأوى يسكنه عدد من العائلات الفقيرة (٥) •

وقد وجدت بعض البيوت التي تقع على الشارع العام ، تحتوي على صف من الدكاكين (٦) • وكان تزيين البيت من الداخل سمة لها شأنها • فقد كانت الافاريز العالية المزخرفة والمنقوشة توجد في معظم البيوت ، لاسيما في الغرف ، وهي تدور في جميع جوانبها • وكذلك كانت السقوف ايضا تزين بالنقوش ، كما تزخرف اطارات الابواب والنوافذ ، وجل هذه الزخارف من الجص ، وقد تفنن صانعوها في رسمها وصنعها وزينوها احيانا بالصور (٧) •

وكان من المعتاد ان يزداد عدد الغرف في الدار كلما اتسعت مساحتها ، وقد يبلغ عدد الغرف في الدار الواحدة ستين غرفة ، وبها شبابيك تغطيها الواح من الزجاج المتنوع الألوان ، يتراوح عرض اللوح الواحد بين العشرين والخمسين سنتمترا (٨) •

---

(٥) حفريات سامراء آنف الذكر ١/٣٢-٣٣ •

(٦) Creswell, E. M. A. P . 287.

(٧) دائرة المعارف الاسلامية ١١/٨٦ •

(٨) الحضارة الاسلامية ٢/١٧٢ •

الفصل الثامن

زخـارف سامرا

مقـــدمة :

لاشك في ان توفر مادة الطين لصنع اللبن ، والتربة الكلسية الصالحة لتحضير الجص لاستخدامه ملاطا ومؤنة للبنـاء ولطـــلاء الجدران وزخرفتها بالرسم او النقش او الحفر ، مما ســاعد على تقدم الريازة وتطور طرز العمارة في سامرا وازدهـــار الزخرفـة الجصية التي اتخذت لتزين البنايات والقصور ازدهــــاراً كبيراً ، بحيث نشأ فيها طراز خاص من هذه الزخرفة باشـكال لا تعـد ولا تحصى ارتبط باسمها فعرف في تاريخ الفن المعمــاري بزخــــارف سامرا • وان ما كشفت عنه التنقيبات من النقوش الزخـرفيــة في قصور سامرا ومنازلها يدل على براعة صانعيها ، ومدى تقدمهم في هذا الفن آنذاك • ويلاحظ ان من مميزات هذه الزخارف انها قد تعمل في خلال البناء او بعد اتمامه ، وان القشرة الجصيـة التـــي عليها الزخارف يمكن ان ترفع بسهولة وان تعوض بقشرة جديدة تزخرف باشكال تختلف عن الأشكال السابقة • وبعد ان اتخــــذ القالب لصنع الزخارف المطلوبة صار عملها بهذه الطريقة رخيصا مما عمم استعمالها واتاح للفنانين مجـالا واسعا للعمل فـي هـــذا المضمار (١) •

---

(١) الاثار القديمة العامة ـ سامراء / ٣٩ـ٤٠ •

ولا ينكر ان ثمة عوامل فنية اخرى توفرت في سامرا لأنها غدت مركزاً جذبت اليها فنانين وصناع كثيرين من جميع انحاء المعمورة ، وقد استهوتهم ثروة بلاط الخلفاء والرعاية التي كانوا ينعمون بها في ظلهم • فقدر لهذه المدينة ان تكون البوتقة التي انصهرت فيهـــا فنون امم مختلفة من روم وسريان وفرس واقباط وهنود ، وبزغ من ذلك فن جديد هو فن الريازة العربية (٢) • وسوف نحاول ان نترسم خطى تطور هذه الزخارف التي اتسع نطاق استخدامها فاتخذت في الحجر وفي الخشب اضافة الى الجبس والجص •

الزخارف الجصية :

سبق ان اشرنا الى ان جدران الغرفة القائمة في مدخل السرداب الصغير في دار الخليفة قد زينت برسوم قافلة من الجمال حفرت على الجبس ، وان جدران اواوين هذا السرداب نقشت عليهـــا زخارف جصية • وقد ازدانت جدران قصور ســامرا ومســـاكنها بالزخارف الجصية الجميلة • وتفاوتت رسوم هـــذه الزخــــارف واشكالها تفاوتا كبيـــرا ، فبعضهـــا غـــايـــة فـــي البســـاطـــة والغلظة ، مستقيم الخطوط ، غائر العمق ، وبعضها احكم زخرفـــا وابدع زينة ، وقد اهتم الآثاريون بهذه الزخارف اهتماما خاصا ، فدرسوا مصادرها وتتبعوا مراحل تطورها • ويمكن القـــول ان العالم الآثاري هرزفيلد اول من عني بذلك • وقد قسم هذه الزخارف الى ثلاثة انواع بحسب تطورها الزمني • ويظهر ان تقسيمه نـال قبولا لدى العلماء الآثاريين ممن اهتموا بهذا الفن الذي ازدهر في عهد سامرا فنسب اليها •

والنوع الأول هو النوع القديم الذي كان امتداداً للطـــراز الـزخـرفـي الـذي كان ســائـدا عنـــد تأسيس مدينـــة

---

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ١١/٨٧ •

سامرا • ويتميز هذا النوع بعمق حفره وقرب زخارفه من الطبيعة ، وهي تتكون من تفريعات العنب ، وكيزان الصنوبر ، والمراوح النخيلية ، داخل تقسيمات هندسية ، ولها خلفيات واضحة • ومع ان الزخارف هنا تعتمد على اساليب الزخرفة الاموية ، الا ان رجال الفن في سامرا ابتكروا اشكالا جديدة ذات مظهر زخرفي رائع(٣) • ويرى كريزول ان الشكل المميز لهذا الطراز هو استخدام العنب فيه ، مما يشاهد في زخارف قبة الصخرة مع بعض التغيير في عدد الاوراق المستخدمة في الزخرفة ، واختفاء حبات العنب التي كانت تظهر فوق الورقة عند اتصالها بالساق ، واضافة عيون جاحظة بين الورقات ، واملاء الأرضية ، وهذا النموذج من الزخارف يرى على باب العامة وهو من البنايات الأولى في سامرا (٤) •

وفي النوع الثاني ابتعد الفنان عن الطبيعة في رسم زخارفه التي تتكون من اشكال وتفريعات هندسية تحمل اوراقا نباتية اشكالا مختلفة من المراوح النخيلية • كما اهمل خلفية الرسم وصارت مجرد خطوط تفصل عناصر الزخرفة • الا انه احتفظ بمميزات الطراز الأول الاخرى كعمق الحفر واحاطة الزخارف باشكال هندسية (٥) • وهذا النوع من الزخارف الجصية لا تظهر فيه الشجرة او النبتة كاملة ، اذ اختفت سيقانها المتشابكة واخذ كل منها يظهر مستقلا ومتفرقا في نهايته • اي ان الصفة الغالبة على هذه الزخارف انها ابتعدت عن الطبيعة ، وان التفاف السيقان والتقاؤها هو الغالب بحيث امكن املاء المربعات والمثمنات بالسيقان والبراعم (٦) •

---

(٣) العراق مهد الفن الاسلامي / ٢١-٢٢ . الفنون الاسلامية / ٩٣ •

(٤) Creswell, E. M. A. P : 289.

(٥) العراق مهد الفن الاسلامي / ٢٢ . والفنون الاسلامية /٩٣ •

(٦) Creswell, E. M. A. P : 289.

اما النوع الثالث فهو احدث الطراز المذكور ، وفيه تبلورت الاسس الفنية لزخارف سامرا • فابتعد الفنان تماما عن الطبيعة واهمل خلفية الرسم • واصبحت الزخرفة تقوم على خطوط متصلة ببعضها بشكل لا يحتاج معه الى الزخارف الدقيقة التي كانت تملأ الفراغ بين الزخارف الكبيرة ، لأن الأرضية في هذا النوع كادت تختفي تماما (٧) • وان طريقة عملها اصبحت تعتمد على القوالب ، بحيث ان الزخارف لم تعد ترسم وتحفر على الجدار مباشرة ، كما كان الحال في النوعين الأول والثاني ، حينما كان الفنان يرسم الزخارف على الجدران في المكان المطلوب زخرفته ثم يحفر الأرضية والخلفيات حول الرسم ليبرز العناصر الزخرفية المطلوبة • وكان ذلك يتطلب دون ريب جهدا ومالا • فاتبعت طريقة القوالب وبخاصة في زخرفة المساحات الواسعة من الجدران والسقوف • اذ يعمل الزخرف على قالب من الطين ثم يفخر ليكتسب صلابة ، ومن ثم يصب ملاط الجص او الجبس فوق القالب بعد ان يدهن كي لا يلتصق الجص بالقالب ، ثم يرفع لوح الجص بعد جفافه تماسكه • وواضح ان هذه الطريقة وفرت مالا ووقتا وجهدا • لأن القالب يستخدم لمرات عديدة في صنع زخارف متماثلة • ولكي لا تتشوه الواح الجص المزخرفة عند رفعها من قوالب فقد اتبع في حفر القالب طريقة الحفر المائل • واساس هذه الطريقة ان تنحت العناصر الزخرفية نحتا مائلا ، وتتقابل حوافها في شكل زوايا منفرجة • وقد اتبعت هذه الطريقة ايضا في النحت على الحجارة وزخرفة الخشب • ويطلق عليها الاصطلاح المعروف بالنحت المشطوف او المائل « Bevelled » (٨) • ويقول كريزول ان القالب يعمل اول الأمر من الخشب ثم تصب عليه نماذج عديدة من الطين ، وبعد ان

---

(٧) العراق مهد الفن الاسلامي / ٢٢-٢٣ ، والفنون الاسلامية / ٩٣ •
(٨) الفنون الاسلامية / ٩٤ •

تفخر هذه النماذج تصبح هي القوالب التي تصب عليها الزخارف المطلوبة من الجبس ، وكان اهم عامل لذلك هو الرغبة في سرعة انجاز الزخارف بالنظر لسعة الحركة العمرانية (٩) ٠

ويزعم بعض الآثاريين ان الفنان في سامرا اقتبس هذه الطريقة في الحفر من الزخارف التي رآها محفورة حفراً مائلا على بعض بعض الحلي التي كان الرقيق الاتراك يجلبونها معهم من بلادهم ٠ ومن هؤلاء ارنست كونل Ernest Kuhnel الذي يرى ان « هذا التطور الأخير في سامرا يعتبر ثورة زخرفية كاملة ٠ وابتكارا لطراز عباسي خاص مطعم بالفن التركي ، يقوم على اساس الطراز السيتي لتصوير الحيوان في الفن الشعبي الطوراني . وقد اخذ عن الخشب أصلا ، ثم استعمل في ادوات الزينة ٠ ومعروف ان الحفر المائل يمثل هجرة الشعب السيتي وحده »(١٠) على انه مهما كانت العوامل المؤثرة والتي دفعت الى ابتكار هذا الطراز فنحن امام اسلوب جديد في الزخرفة الجصية غير مسبوق ، او بعبارة اخرى امام فن عربي ناضج ، وقد خرج من العراق . او على الأدق من سامرا الى شرق العالم الاسلامي وغربه ، محمولا على ايدي العراقيين . او على ايدي فنانين مسلمين وفدوا الى العراق لكي يتعلموا طراز الخلافة العباسية على ايدي فناني العراق وصناعه (١١) ٠

ان هذه الوحدات الزخرفية النباتية من الازهار والاوراق والفروع والبراعم التي رسمها الفنان العربي في زخارف سامرا بعد ان حورها واحسن تنسيقها ، واسبغ عليها جمالها الفني الذي تميزت به ، اطلق عليها الاوربيون اسم الأرابسك "Arabesque"

---

(٩) Creswell. E. M. A. P : 290

(١٠) الفن الاسلامي / ٣٩ ٠

(١١) العراق مهد الفن الاسلامي / ٢٦ ٠

ويتضح من هذه التسمية ان هذه الزخارف عربية اصلا • وقد توسع استعمال هذه الوحدات الزخرفية ، فنقشت على سقوف القاعات والغرف ، وعلى ابواب الجوامع وقبابها ، وعلى المقرنصات والدلايات • ولم يقتصر صنعها على الجص والجبس ، بل اتخذت ايضا على الحجر والآجر والخشب ، كما رسمت على الطابوق المزجج القاشاني الذي غلفت به قباب الجوامع •

وهذه الزخارف النباتية التي ولدت تحت سماء سامرا وتجلت خطوتها الاولى في الطراز الثالث من طراز الزخارف الجصية ، قد اخذت تنمو وتتقدم حتى وصلت ذروة جمالها في بعض مباني مدينة الموصل ، لاسيما المحاريب الحجرية التي يحتفظ بها المتحف العراقي ببغداد (١٢) • ويحتفظ المتحف العراقي بنماذج عديدة لزخارف سامرا الجصية بمراحلها او طرزها الثلاث • فهناك لوحان من الجص من هذه الزخارف ، وهما من النوع الأول ، عثر على احدهما في قصر الجص الذي بناه المعتصم بالله في الجانب الغربي من سامرا ، وعثر على اللوح الآخر في احد دور سامرا التي اجري التنقيب في اطلالها (١٣) • وثلاثة الواح من الجص نقشت بزخارف هندسية على طراز سامرا الثاني ، وجزء من جدار فيه شباك مزين بالواح جصية مزخرفة من الجانبين بنقوش هندسية ونباتية من الطراز المذكور (١٤) • وثلاثة الواح من الجص مزخرفة بنقوش نباتية وهندسية ، وهي من الطراز الثالث لزخارف سامرا (١٥) • ومحراب من الجص مزخرف بنقوش وكتابات كوفية وجد في احد

---

(١٢) العراق مهد الفن الاسلامي / ٣٥ •

(١٣) كنوز المتحف العراقي / ٤١٤ •

(١٤) نفس المصدر / ٤١٧ •

(١٥) نفس المصدر / ٤١٩

القصور بسامرا (١٦) • ولوحان من الرخام نقشا بزخارف محفورة حفراً عميقاً باشكال هندسية بديعة وجدا في سامرا (١٧) •

الزخارف الخشبية :

لم تكن القطع الخشبية التي عثر عليها في خلال الحفريات التي اجريت في اطلال سامرا كثيرة ، بسبب سرعة تلف الخشب اذا ما تعرض للعوامل الجوية او لفعل الأرضة • ولكنها رغم قلتها كانت متنوعة تنوعا كبيراً • فقد لوحظ ان بعضها سميكة ومزخرفة بطريقة الحفر او الخرط ، وبعضها قليلة السمك مزخرفة بطريقة النقش بالاصباغ ، وقسما منها مزخرفة بطريقتي الحفر والنقش معا • واكثر ما عثر عليه من القطع الخشبية حشوات للابواب ، او اجزاء من زخارف سقفية ، وكانت الالوان الغالبة في زخرفتها اللون الاحمر والازرق والابيض ، وقد استخدم اللون الأصفر احيانا (١٨) • اما اشكال النقوش التي رسمت بالالوان مختلفة على الخشب فتغلب عليها الرسوم الهندسية المؤلفة من خطوط منكسرة ومثلثات متتالية او سلسلة من الدوائر ، مما يؤلف زخارف معقدة جميلة ، وقد استخدمت في بعض النقوش عناصر نباتية وحيوانية (١٩) •

لقد ابتكر الفنان العربي في خلال القرن الثالث ، اي في عهد سامرا ، طريقة جديدة في الحفر هي طريقة الحفر المائل او المشطوف ، وابتكر اسلوبا زخرفيا يناسبها • ومع ان طريقة الحفر المائل استخدمت في حفر الزخارف الجصية على نطاق واسع الا انه

---

(١٦) نفس المصدر / ٤١٨ •
(١٧) نفس المصدر / ٤١٩ •
(١٨) حفريات سامراء / ٢/١٤-١٥ •
(١٩) نفس المصدر / ١٥ •

يرجح ان اول ظهورها كان على الخشب (٢٠) • ويحتفظ متحف المتروبوليان بامريكا من هذا الاسلوب الزخرفي الجديد بمصراعي باب وحشوتين قد تكونان جزء من كتفي باب او من سقف منقوش ، وقد عثر عليهما في تكريت ويرجح انهما جاءا من سامرا ، وتعتبر هاتان الحشوتان من اكمل امثلة الحفر على الخشب في سامرا • اما زخارف مصراعي الباب فموزعة ـ حسب الطريقة التقليدية ـ على اقسام مستطيلة ومربعة داخل اطار خال من الزخرفة ، وقد استخدمت في زخارف الباب وفي الحشوتين الفروع النباتية واشكال الزهريات وقد جمعت بشكل بعيد عن الطبيعة(٢١) • وان الالواح الخشبية التي عثر عليها في اطلال احد قصور سامرا الذي اجريت فيه التنقيبات تحتوي على رسوم قوامها موضوعات نباتية وفق اسلوب زخارف سامرا الجصية ، وهي ملونة بالالوان المشار اليها آنفاً ، وتحدها خطوط باللون الاسود(٢٢) •

وفي المتحف العراقي مجموعة من قطع الخشب المزخرف من حشوات الأبواب ومصاريعها ، وكلها ذات زخارف بارزة من طراز القطع المائل ، وجد معظمها في حفريات سامرا • منها لوحان من الخشب احدهما مزخرف بنقوش نباتية دقيقة جداً ، والواح مزخرفة وملونة • وقطعتان مزينتان بنقوش نباتية محفورة (٢٣) •

وقد دخل أسلوب زخرفة الخشب ونقشه الى مصر واصبح شائعاً فيها في عهد الامارة الطولونية • وفي المتحف الاسلامي في

---

(٢٠) الفنون الاسلامية / ٣٧ •
(٢١) نفس المصدر / ١١٧ـ١١٨ •
(٢٢) نفس المصدر / ٣٧/٣٨ •
(٢٣) كنوز المتحف العراقي / ٤١٩ •

القاهرة مجموعة من الأخشاب المزخرفة تعود الى العهد المذكــور ، وتشتمل على قطع من الابواب والسقوف والافـاريـز ، وقطـع الاثاث المدهون بعضها بالالوان الزاهية ، كما يوجد منهـا بمتحـف المتروبوليتان امثلة اخرى جميلة (٢٤) ٠

ولعل من احسن أمثلة الخشب المحفور من عهد ســامرا ممـا لا يزال محافظا على شكله الأصلي منبر جامع القيروان الذي جلبه الأمير الاغلبي ابو ابراهيم احمد بن محمد من العراق(٢٥) ٠ ويتكون المنبر المذكور من صفوف من الحشـوات المقســـمة الى مستطيلات تزينها الزخارف الهندسية المتشابكة والنباتات المجردة والتفريعات من ورق العنب ٠ ونجد في احدى الحشوات شجرة نخيل مستمدة من شجرة الحياة الشرقية ، وهذه تنتهي بزوج من القرون تعلوها كيزان الصنوبر ، وشكل كروي على جانبيه مراوح نخيلية ٠ ويتمثل في هذه الزخارف اسلوب سامرا المجرد ، وذلك في زخارف من فروع العنب تحمل اوراقا نباتية ، في البعد عن الطبيعـــة ، وكيـزان صنوبر بدلا من عناقيد العنب ٠ وبعض كيزان الصنوبر قريب من مظهره من الطبيعة ، وبعضها الآخر ينتهي باشكال من انصاف المراوح النخيلية ، وهذه تغطيها اوراق نباتية ٠ وتزين مناطق اخرى من تلك الحشوات موضوعات مجردة تتكون من عدة تعبيرات مركبة يمكن اعتبارها من الاصول الفنية لبعض العنـاصر الزخرفيـــة للاسلوبين الثاني والثالث من زخارف سامرا الجصية (٢٦) ٠

---

(٢٤) الفنون الاسلامية / ١١٨ ٠

(٢٥) هو الامير السادس من بني الاغلب وقد امتدت امارته من سنة ٢٤٢ حتى سنة ٢٤٩هـ ٠

(٢٦) الفنون الاسلامية / ١١٥ـ١١٦ ٠

الرسوم الحائطية :

كان من المعتاد ان يغطي الجزء الأسفل من جدران الغرف الرئيسة في القصور وفي كثير من البيوت بوزرة من الجص او الفنابوق المصقول الى ارتفاع متر واحد تقريبا ، مع حشوات زخرفية . اما بقية الجدار فتزين بالصور والرسوم الحائطية . ومن اطرف هذه الرسوم ما عثر عليه في جناح الحريم ، وتضم مناظر راقصات وموسيقيين ، وطيوراً وحيوانات ، تنحصر بين دوائر او تفريعات نباتية (٢٧) .

وقد كشفت التنقيبات التي اجريت في اطلال قصور سامرا عن رسوم حائطية رسمت على عديد من جدران الأبهاء والقاعات والغرف والحمامات ، وقد ابدع صانعوها في رسمها وتلوينهما . وكانت بعض الرسوم بالالوان المائية تموه بالذهب ، كما اشرنا الى ذلك في تزيينات قصر بلكوارا وزخارفه . كما سبق ان اشرنا الى انه قد رسم على جدار احدى القاعات في قصر المختار الذي بناه المتوكل على الله صورة رهبان الكنيسة وقائد صلاتهم . وتم العثور على بعض المساكن الخاصة وفي احد الحمامات . واعظم هذه الرسوم اهمية هي التي وجدت في قصر الخليفة . وبخاصة في قسم الحريم منه . وفي هذه الرسوم فروع نباتية تشغل الفراغات ، ورسوم بشرية ، ورسوم حيوانات (٢٨) . وكانت الدرجات في حمامات سامرا تزين بالصور بدلاً من البلاط المختلف الالوان . وذكر المسعودي ان الناس يصورون العنقاء في الحمامات (٢٩) .

---

(٢٧) نفس المصدر / ٣٧ .
(٢٨) فن التصوير عند العرب / ٤٢ .
(٢٩) الحضارة الاسلامية ٢/١٨٥ .

ولعل اروع الصور التي عثر عليها سليمة واضحة وقد احتفظت بالوانها وكانت تزين حائط احدى غرف قسم الحريم في قصر الخليفة • وتعد هذه الصورة مثالا نموذجيا لاسلوب سامرا في الرسم المائي • وهي تمثل راقصتين كاملتي الملبس ، تبدوان وكأنهما تتحركان احداهما نحو الاخرى وتمسكان بايديهما المتقاطعتين بكأسين تصبان فيهما الخمر بشكل متزن من وعائين يظهران خلف رأسيهما • وان الاواني الذهبية ، والتيجان والأحزمة ، واللآلىء في رأسيهما وفي آذانهما ، وكذلك الألبسة الثقيلة والجدائل الطويلة ، كل هذه توضح بان تينك المطربتين تنتميان الى قصر الخليفة • وقد تجلت المهارة والدقة والابداع في الرسم وفي التلوين ، وجميعها تنطق بان المصور العراقي في عصر سامرا قد بلغ درجة عالية من النضوج (٣٠) •

وفي المتحف العراقي قطع جدارية من الجص عليها رسوم بالالوان المائية بزخارف هندسية ونباتية وحيوانية وجدت في اطلال مختلفة من قصور سامرا (٣١) • وقطع من الخشب مصبوغة بالوان مختلفة عليها رسوم باشكال هندسية متنوعة ، وجدت في حفائر سامرا (٣٢) •

الزخرفة بالفسيفساء :

عثر بين انقاض بعض الغرف في دار الخليفة على كمية كبيرة من الفصوص الزجاجية : مكعبات صغيرة من الزجاج الملون بينها

---

(٣٠) العراق مهد الفن الاسلامي / ٥٠ ، وفن التصوير عند العرب /٢٤ •
(٣١) كنوز المتحف العراقي / ٤١٧ •
(٣٢) نفس المصدر / ٤١٩ •

الأخضر والأسود والأحمر والازرق والذهبي ، وكان البعض منهـــا ملتصقا بقطع جصية مما يستدل منه انها كانت تستعمل لتغطية الجدران بزخارف من الفسيفساء • كما وجدت بين الأنقـــاض المذكورة كمية من القطع الصدفية التي تختلف عن بعضها اختلافا بينا من حيث اشكالها وابعادها ، وكان بعض هذه القطع ملتصقـا بقطع جصية بين فصوص زجاجية منتظمة ، مما يدل على انها كانت تدخل في ترتيبات الفسيفساء الزخرفية لتكسبها رونقا وجمالا خاصا • ووجدت كذلك قطع زجاجية ســوداء وحمـــراء مختلفة الأطوال والأشكال مما يدل على انها كانـــت تتخـــذ لتطعيم جص الجدران وتكوين انطقة واطارات للزخارف (٣٣) •

وفي المتحف العراقي كسر من القاشاني الملون او من نوع الفسيفساء وجدت في اطـــلال ســـامرا ، واكثرهـــا مـــن دار الخليفة (٣٤) •

---

(٣٣) حفريات سامراء ١٩٣١ ـ ١٩٣٩ ، ٢/١٣ •
(٣٤) كنوز المتحف العراقي / ٤١٤ •

الباب الثاني

خلفاء سامرا

١ ـ الخلافة والمبايعة وولاية العهد

٢ ـ المعتصم بالله

٣ ـ الواثق بالله

٤ ـ المتوكل على الله

٥ ـ المنتصر بالله

٦ ـ المستعين بالله

٧ ـ المعتز بالله

٨ ـ المهتدى بالله

٩ ـ المعتمد على الله

الباب الثاني

خلفاء سامرا

الفصل الأول

الخلافة والمبايعة وولاية العهد

ا ـ الخلافة :

يتطلب فهم طبيعة عهد الخلفاء العباسيين في سامرا ، من حيث اسلوب الحكم الذي اتبع في ادارة شؤون الدولة العربية المترامية الأطراف . وطرق معالجة المشاكل الداخلية والخارجية التي واجهتها .معرفة نظام الخلافة واسسه التي قام عليها والعوامل المختلفة التي اثرت في تطوره . ولذا سنحاول فيمايلي ان نوضح ذلك مختصراً ٠

لقد تطور نظام الحكم العربي في العهد العباسي عما كان عليه في عهد الأمويين ٠ وقد حصل هذا التطور بفعل عوامل متعددة أثرت فيه ، لعل اهمها الاساس الديني الذي بنى عليه العباسيون حقهم في الخلافة ٠ اذ انهم ثبتوا نظام الوراثة في الحكم ، واعتبروا قرابتهم

من رسول الله صلى الله عليه وسلم الأساس الشرعي لخلافتهم . وكان نهج العباسيين هذا تطورا تاريخيا طبيعيا للدولة العربية لانها لم تقتصر على البلاد العربية وحدها ، بل انها ضمت تحت لوانها اقواما عديدة اعتنق اغلب ابنائها الدين الاسلامي وجعلوا ولاءهم له ، وهو يدعو الى التوحيد بين الناس ويعتبرهم سواسية ولايفضل احدا على أخر الا بالتقوى . فقد جاء في خطاب ابي العباس السفاح اول خلفاء بني العباس ، عندما بويع بالخلافة قوله : «الحمد لله الذي اصطفى الاسلام لنفسه وكرمه وشرفه وعظمه ، واختاره لنا وايده بنا وجعلنا اهله وكهفه وحصته .. وخصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وانبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته»(١) .

كما انهم اكدوا على الأساس الديني لحكمهم . وقد جاء في خطبة داود بن علي وهو عم السفاح قوله : « ورجع الحق الى نصابه في اهل بيت نبيكم ، اهل الرأفة بكم والرحمة لكم والتعطف عليكم ، الا وان ذمة الله وذمة رسوله وذمة العباس لكم ان نسير فنحكم في الخاصة والعامة منكم بكتاب الله وسنة رسوله » (٢) . بحيث اصبحت الخلافة منصبا مقدسا يستلزم الولاء والطاعة والنصرة (٣) . وانها خلافة عن صاحب الشريعة مع حراسة الدين وسياسة الدنيا (٤) . وولاية عامة على كافة الأمة ، والقيام بامورها والنهوض باعبائها(٥) . فكان الخليفة رأس الدولة ومصدر السلطات كلها ، وهو المرجع الأخير لشؤون الرعية الدينية منها والدنيوية .

---

(١) خلاصة الذهب المسبوك / ٥٤ ـ ٥٥ .
(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/٣٥٠ .
(٣) الاحكام السلطانية للماوردي / ٨ .
(٤) مقدمة ابن خلدون / ١٠٤ .
(٥) مآثر الانافة ١/٨ .

اما الشروط التي يجب ان تتوفر فيمن يتولى الخلافة فان الماوردي يرى ان الشروط المعتبرة سبعة ، اولها : العدالة . والثاني : العلم المؤدي الى الاجتهاد ، والثالث : سلامة الحواس ، والرابع سلامة الأعضاء ، والخامس الرأي المفضي الى سياسة الرعية ، والسادس الشجاعة والنجدة ، والسابع : النسب وهو ان يكون من قريش (٦) .

ويرى ابو يعلى الحنبلي انها اربعة ، احدها : ان يكون قرشيا من الصميم ، والثاني : ان يكون على صفة من يصلح ان يكون قاضيا . والثالث : ان يكون قيما بأمر الحرب والسياسة واقامة الحدود . والرابع : ان يكون من افضلهم في العلم والدين : وقد روي عن الامام احمد بن حنبل ما يجيز اسقاط اعتبار العدالة والعلم والفضل (٧) .

ويتفق ابو يعلى مع الماوردي في جواز ان يسمى خليفة من عقد له الامر ، وان يسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه خلفه في امته (٨) .

وقد لخص ابن خلدون الشروط المذكورة باربعة هي : العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء مما يوثر في الرأي والعمل ، واختلف في شرط خامس وهو النسب القرشي . واذا ما تقرر ان نصب الخليفة واجب فهو من فروض الكفاية ، ويتعين على اهل الحل والعقد نصبه . ويجب على الجميع اطاعته (٩) .

---

(٦) الاحكام لسلطانية للماوردي / ٤ .
(٧) الاحكام السلطانية لابي يعلى / ٤
(٨) الاحكام السلطانية / ١٢ . والاحكام السلطانية للحنبلي / ١١ .
(٩) مقدمة ابن خلدون / ١٠٥ .

اما واجبات الخليفة فهي عشر . احدها : حفظ الدين على أصوله المستقرة ، والثاني : تنفيذ الاحكام بين المتنازعين حتى تعم النصفه . والثالث : حماية البيضة والذب عن الحريم ، والرابع : اقامة الحدود لتصان محارم الله عن الانتهاك ، والخامس تحصين الثغور بالعدة والعدد ، والسادس : جهاد من عاند الاسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة ، والسابع : جباية الفيء والصدقات على ما اوجبه الشرع ، والثامن : تقدير العطايا وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير ، والتاسع : استكفاء الامناء وتقليد النصحاء فيما يفوضه اليهم من الأعمال وبكل اليهم من الأموال . والعاشر : ان يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال لينهض بسياسة الأمة ٠ واذا ما قام الخليفة بهذه الواجبات فقد وجب له على الأمة حقان : هما الطاعة والنصرة ، ما لم يتغير حاله من جرح في عدالته او نقص في بدنه(١٠) ٠

وكان للاستعانة بالعناصر غير العربية في الحكم في عهد العباسيين اثر مهم في تطور نظام الحكم ٠ فقد تأثر العرب بالانظمة الادارية التي كانت قائمة في البلاد المفتوحة ، واقتبسوا بعض التقاليد التي اضفت على الخلافة مزيداً من الهيبة والاحترام ٠

ضعف الخلافة :

ادى تعاظم نفوذ الأتراك في عهد سامرا الى اضعاف شأن الخلافة والخلفاء ٠ فقد بدأ نفوذ قوادهم يظهر واضحا ويتسع منذ عهد الواثق بالله ٠ اذ انه توسع في تكريمهم ، حتى تسنى لهم ان يستبدوا بالحكم دون الخلفاء بشكل سافر خلال المدة التي امتدت بين اغتيال المتوكل على الله واستخلاف المعتمد على الله ٠ اذ تميزت

(١٠) الاحكام السلطانية للماوردي /١٣-١٤ ، الاحكام السلطانية للحنبلي / ١١ - ١٢ ٠

هذه المدة باستبداد القادة الاتراك بالخلفاء ، فكانوا يختارون من يريدونه للخلافة ويجبرونه على التنازل عندما يختلفون معه . والواقع ان تدخلهم في اختيار الخلفاء بدات بوادره عندما توفي الواثق بالله ، الذي لم يعهد لأحد بالخلافة من بعده ، احتجوا بعدم لياقة ابنه للخلافة وقالوا انه غلام امرد لاتجوز معه الصلاة (١١) . دلالة على صغر سنه . فاختاروا اخا الواثق بالله جعفر بن المعتصم بالله الذي لقب بالمتوكل على الله . وكان اول من بايعه القائدان التركيان وصيف وسيما الدمشقي (١٢) . وقد شجعهم هذا التدخل في اختيار الخليفة على الاستمرار في التدخل بشؤون الدولة طيلة عهده الذي قضاه في صراع مستمر ضد تدخلهم ومحاولتهم السيطرة على السلطة ، ذلك الصراع الذي انتهى باغتياله على ايديهم .

وقد تكون ازاحة الوزير القدير محمد بن عبدالملك الزيات عن مسرح الحكم حينما قتله المتوكل على الله في مطلع استخلافه ، قد افقدت الخليفة ظهيراً على درجة كبيرة من الحنكة والدهاء مما لم يتوفر فيمن استوزرهم بعده ، بحيث يستطيعون كبح جماح اولئك القادة المتعطشين للسلطة والثروة والجاه .

وبعد ان استطاع القواد الاتراك اغتيال المتوكل على الله استفحل نفوذهم بحيث غدوا اصحاب السلطة الفعلية في الدولة العربية . وسوف نرى في فصول قادمة مراحل الصراع بين الخلفاء وهؤلاء القادة ومظاهره وما ترتب عليه من النتائج من جراء تدخلهم في سياسة الدولة وفي اختيارهم الخلفاء . « فكان الخليفة في يدهم كالأسير ان شاءوا ابقوه وان شاءوا خلعوه وان شاءوا

---

(١١) الطبري ٩/١٥٤ .

(١٢) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٤ .

قتلوه (١٣) وذلك حسبما تمليه عليهم رغباتهم ، وبما يؤمن مصالحهم • وقد استمر هذا الوضع حتى استخلف المعتمد على الله حينما استطاع اخوه ابو احمد الموفق ايقافهم عند حدهم ، واستعادة سلطة الخلافة الى حين •

٢ ـ المبايعه وولاية العهد :

عندما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم انتخب المسلمون ابا بكر الصديق دون ان يكون هناك نص بذلك اوامر من الرسول صلى الله عليه وسلم • وعندما انتخبوه عاهدوه على السمع والطاعة بما فيه رضاء الله سبحانه وتعالى . وعاهدهم هو من جانبه على ان يعمل بموجب كتاب الله وسنة نبيه • وكان التعاهد المتبادل بين الخليفة والأمة هو ما قصد به « البيعة او « المبايعة » لأنه يشبه ما يفعله البائع والمشتري عند عقد صفقة بينهما . اذ انهما يتصافحان بايديهما دلالة على اتمام معاملة البيع • وكما ان عملية البيع تستلزم الوفاء فان المبايعة توجب الوفاء بها • اما من الناحية الشرعية فان البيعة اتفاق تعاقدي بين جانبين الأول هو المرشح ويؤلف ركن الايجاب ، والآخر هو الشخص المختار ويؤلف ركن القبول • ويشترط على من يبايع ان يظل مخلصا لأوامر الله . وهذا يعني ان الحاكم اذا لم يظل متمسكا بهذه الأوامر فان لمن بايعوه الحق في التحلل من التزاماتهم • على ان الأثر الملزم للبيعة شخصي ويستمر مدى الحياة ، ولذا فان الجزاء الدنيوي لنكث البيعة هو القتل (١٤) •

---

(١٣) الفخري / ٢٢٠ •

(١٤) دائرة المعارف الاسلامية / ٤٣ـ٤٤ •

ان البيعة على راي ابن خلدون « هي العهد على الطاعة ، كأن المبايع يعاهد اميره على ان يسلم له النظر في امر نفسه وامور المسلمين لاينازعه في شيء من ذلك ، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره • وكانوا اذا بايعوا الأمير وعقدوا ايديهم في يده تأييدا للعهد ، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري ، فسمي بيعة ، وصارت البيعة مصافحة بالأيدي » (١٥) •

ومن المعتاد ان تتم مبايعة الخليفة على مرحلتين او اكثر • والمرحلة الاولى هي ما اصطلح على تسميتها « البيعة الخاصة » وفيها يشترك عدد محدود من كبار رجال الدولة والحاشية . ثم تعقبها « البيعة العامة » وتتم بمرحلة واحدة او اكثر • وقد تؤخذ البيعة احيانا بموجب عهد مكتوب ، تتم المبايعة وفق ما جاء فيه • وذلك تأكيداً لأثبات الحق الشرعي للخليفة المبايع له • ويتضمن هذا العهد المبايعة بالخلافة ، والتعهد بالطاعة والامتثال لأوامر الخليفة وعدم عصيانه ، واليمين الكفيلة بالالتزام بذلك • كما جاء في كتب بيعة بعض خلفاء سامرا (١٦) •

وقد تطورت طريقة اختيار الخليفة على يد ابي بكر الصديق (رض) ، اذ انه اختار من يخلفه في الأمر عند مماته • وبذلك اصبح من حق الخليفة القائم ان يختار من يخلفه وعلى الأمة ان تعاهده على طاعته • وهذا ما سمي بولاية العهد • يقول الماوردي « ان انعقاد الخلافة بعهد من الخليفة السابق امر انعقد الاجماع على جوازه ، وتم الاتفاق على صحته » (١٧) • ويقول ابن خلدون « لما كانت الامامة هي النظر في مصالح الأمة لدينهم

---

(١٥) مقدمة ابن خلدون / ١١٤ •

(١٦) يلاحظ مثلا كتاب بيعة المنتصر بالله ، الطبري ٩/٢٣٧ـ٢٣٩ ، وكتاب بيعة المعتز بالله ، نفس المصدر / ٢٨٤ ـ ٢٨٦ •

(١٧) الاحكام السلطانية / ٧ •

ودنياهم . والامين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته وتبع ذلك ان ينظر لهم بعد مماته ويقيم لهم من يتولى امورهم كما كان هو يتولاها . ويثقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا فيما قبل . وقد عرف ذلك من الشرع باجماع الامة على جوازه وانعقاده »(١٨) .

وفحوى هذين القولين ان الخليفة ، وهو المسؤول عن شؤون الامة الدينية والدنيوية يجوز له شرعا ان يعين من يخلفه في منصبه بحيث يطمئن الى قيام من عهد اليه بواجبات الخلافة في حفظ بيضة الدين ورعاية مصالح الامة . واذا ما عين الخليفة احدا لولاية العهد بعده ، وجب على الامة الاعتراف به والخضوع لسلطته ، ويتمثل هذا الاعتراف بمبايعته .

واذا اراد الخليفة ان يعهد لاحد من بعده فعليه ان يجهد رأيه في الاحق بها والاقوم بشروطها . فاذا تعين له الاجتهاد في واحد جاز ان ينفرد بتفويض العهد له ان لم يكن ولدا او والدا . اما اذا كان ولي العهد ولدا او والدا فقد رأى بعض الفقهاء وجوب مشاورة اهل الاختيار ، واجاز البعض للخليفة الانفراد بتفويض العهد له . واذ عهد الخليفة الى من يصح العهد له على الشروط المعتبرة فيه فليس للخليفة المولّي عزل من عهد اليه ما لم يتغير حاله . كما لايجوز لأهل الاختيار عزل من بايعوه اذا لم يتغير حاله . اما اذا عهد الخليفة الى اثنين او اكثر ورتب الخلافة فيهم ، فقال من بعده فلان ، فان مات فالخليفة بعد موته فلان . فان مات فالخليفة بعده فلان ، جاز له ذلك وكانت الخلافة متنقلة الى الثلاثة على ما رتبها . واذا مات الخليفة والثلاثة احياء كانت الخلافة بعده حسب ترتيبه . اما اذا مات الاول في حياة الخليفة صارت

---

(١٨) مقدمة ابن خلدون / ١١٤ .

الخلافة بعده للثاني ، واذا مات الاول والثاني في حياة الخليفة فالخلافة بعده للثالث . لأنه قد استقر العهد لكل واحد من الثلاثة . ولو مات الخليفة والثلاثة من اولياء عهده احياء ، وافضت الخلافة الى الاول منهم واراد ان يعدل بها الى غير الاثنين مما يختاره لهما ، فمن الفقهاء من منعه من ذلك الا ان يستنزل عنهما مستحقهما طوعاً (١٩) .

من الواضح ان اغلب الاحكام المشار اليها بشان ولاية العهد نظرية بحتة ، لأن الخلفاء لم يكونوا يتقيدون بها الا بقدر ما يؤمن من رغباتهم ويلائم اهواءهم ، اما تجربة العهد لأكثر من واحد فقد فشلت عمليا لما تثيره من خلافات ومنازعات بين من عهد اليهم . وهناك من الخلفاء من يتزمت بعظم المسؤولية تجاه الأمة فلا يريد ان يتحمل وزر من يخلفه ، فلا يعهد لأحد من بعده ، انما يترك ذلك لاختيار الأمة بعد وفاته . فان الواثق بالله لم يعهد لاحد من بعده لأنه لم يرد ان يتحمل المسؤولية حياً وميتاً (٢٠) .

---

(١٩) يلاحظ كتاب تنازل كل من المعتز والمؤيد عن ولاية العهد ـ الطبري ٢٤٦/٩ ، وان المعتز لما خلع اخاه المؤيد من ولاية عهده اخذ منه رقعة بخطه بخلع نفسه ، نفس المصدر / ٣٦٢ .

(٢٠) تاريخ اليعقوبي ٤٨٣/٢ .

الفصل الثاني

المعتصم بالله

ابو اسحاق محمد بن هارون الرشيد

١ ــ وصية المأمون :

عندما مرض المأمون وهو في بلاد الروم في سنة ٢١٨هـ واشتدت به علته احضر ابنه العباس وجمعا من القضاة والفقهاء والقواد والكتاب واوصى بحضرتهم . وفيمايلي بعض ما جاء في وصيته : « هذا ما اشهد عليه عبدالله بن هارون . وبعد ان استغفر واسترحم لنفسه .. ثم طلب الى اخيه ابي اسحاق ان يدنو منه ، وقال له : ادن مني واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة اخيك في القرآن ، واعمل في الخلافة اذا طوقكها الله عمل المريد لله .. ولا تغفل امر الرعية ، الرعية الرعية ، العوام العوام ، فان الملك بهم ، وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم ، الله الله فيهم .. ولا ينهين اليك امر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم الا قدمته وآثرته على غيره عن هواك ، وخذ من اقويائهم لضعفائهم ، ولا تحمل عليهم في شيء ، وانصف بعضهم من بعض بالحق بينهم .. وعجل الرحلة عني والقدوم الى دار ملكك بالعراق .. والخرمية فاغزهم ذا حزامة وصرامة

وجلد ، واكنفه بالاموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة . فان طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من انصارك واوليائك .. ثم دعابه ثانية ، حين اشتد به الوجع ، وقال له : يا ابا اسحاق عليك عهدالله وميثاقه .. لتقومن بحق الله في عباده ولتؤثرن طاعته على معصيته اذ انا انقلها من غيرك اليك .. فانظر من كنت تسمعني اقدمه على لساني فاضعف له التقــدمة ، عبدالله بن طاهر .. واسحاق بن ابراهيم .. وعبدالوهاب عليك به من بين اهلك فقدمه عليهم .. وابو عبدالله بن ابي دواد فلا يفارقك واشركه في المشورة في كل امرك .. ولاتتخذن بعدي وزيرا .. فقد علمت ما نكبني به يحيى بن اكثم في معاملة الناس وخبث سيرته ..» (١) .

كما سبق ان نفذت كتب المأمون الى عماله في البلدان . وكان في اولها : من عبدالله المأمون امير المؤمنين واخيه الخليفة من بعده ابي اسحاق بن امير المؤمنين الرشيد . ويقول الطبري ان ذلك لم يكتبه المأمون ، بل كتب استناداً الى امره بعد ان افاق من غشـية اصابته في مرضه انه اذا حدث به حدث الموت في مرضـــه هـــذا فالخليفة من بعده ابو اسحاق بن اميرالمؤمنين الرشيد . فكتب الكتب بالصيغة المذكورة (٢) .

ويتضح من هذا ان المأمون عندما احس بدنــو اجلــه اوصى اخاه ابا اسحاق بحضور العباس بن المأمون وجمع مــن القـــواد والقضاة والكتاب ، بما يلتزم به اذا ما طوقه الله بالخلافة ، وهو لم يعهد له بها صراحة . ويبدو ان مؤيدي ابي اسحاق تنبهوا الى ذلك فكتبوا الى العمال في البلدان على لسان المأمون بان الخليفة مــــن بعده هو اخوه ابو اسحاق . وانهم كتبوا بذلك استنادا الى امـــر المأمون بانه اذا ما توفى في مرضه فالخليفة من بعده ابو اسحاق .

---

(١) كامل النص في الطبري ٨/٦٤٧ ـ ٦٥٠ .
(٢) الطبري ٨/٦٤٥ ـ ٦٤٦ .

فكانت هذه الملابسات سبباً في ان مبايعة ابي اسحاق لقيت معارضة من العباس بن المأمون ومؤيديه من القواد . مما سبب بعض المشاكل للمعتصم بالله فيما بعد .

ومن الجدير بالذكر ان نشير الى ان الخليفة هارون الرشيد عندما عهد بالخلافة الى ابنائه الثلاثة ، جعل للمامون عندما يتولى الخلافة اثبات القاسم او خلعه . فقد نص في كتاب العهــــد على « اذا افضت الخلافة الى عبدالله بن امير المؤمنين فالأمر اليه في امضاء ما جعله امير المؤمنين من العهد للقاسم بعده او صرف ذلك عنه الى من رأى من ولده واخوته » (٣) . وبينما اعتاد الخلفاء ان يعزلوا اخوتهم من ولاية العهد استئثارا بها لأبنائهم فان المأمون نقلها من اخيه القاسم ، ولكن ليس لابنه العباس ، وانما ليعهد بها الى اخيه الآخر ابي اسحاق ، رغم ان العباس كان مؤهلا لمنصب الخلافة بعد ابيه ، فقد كان شجاعاً محبباً الى الجند . ولم يوضح المأمون سبب اختياره اخيه ابي اسحاق وتفضيله على ابنه . ويقول ابن دحية ان المأمون نص على خلافة المعتصم دون اولاده لرؤيا رآها مـــن النبي صلى الله عليه وسلم (٤) . على اننا نرى ان الروح العسكرية التي كان يتميز بها ابو اسحاق هي التي جعلت المأمون يفضله على ابنه . بالنظر لما كان يهدد الدولة العربية من الأخطار ، لاسيما تمرد الخرمية التي كانت تستهدف القضاء على الدولة ، وخطــــر الروم الذي ما زال يهدد الثغور العربية . اضافة الى ان ابا اسحاق كان مقربا الى اخيه المأمون ، وقد ولاه الشام ومصر منــذ سـنة ٢١٤هـ . واستصحبه معه في حملته الأخيرة على بلاد الروم .

---

(٣) نفس المصدر / ٢٨٠ ــ ٢٨١ .

(٤) النبراس / ٦٣ .

٢ ـ مبايعة المعتصم بالله :

تجمع المصادر التي تذكر مبايعة ابي اسحاق بالخلافة اثر وفاة اخيه المأمون في يوم الخميس لاثنتي عشرة بقيت من شهر رجب سنة ٢١٨هـ على ان قسما من الجند والقواد الذين كانوا في حملة المأمون ، كانوا ميالين الى مبايعة العباس دونه ، وانهم طلبوا نقل الخلافة الى ابن المأمون • فقد اشار ابن قتيبة الى ذلك بقوله « فاراد الناس ان يبايعوا العباس ، فابى وسلم الى ابي اسحاق الأمر ، فتوجه ابو اسحاق نحو بغداد مسرعا خوفاً على نفسه من جماعة من القواد كانوا هموا به » (٥) • ويقول اليعقوبي « وامتنع بعض القواد من البيعة لمكان العباس من المأمون ، فخرج اليهم العباس من مضربه فكلمهم بكلام استحمقوه فيه فشتموه وبايعوا لأبي اسحاق . وانصرف المعتصم يريد العراق » (٦) • وجاء في الطبري ان الناس كانوا قد اشفقوا من منازعة العباس بن المأمون له في الخلافة ، وان الجند شغبوا لما بويع له ، وطلبوا العباس ونادوه باسم الخلافة ، فارسل ابو اسحاق الى العباس فجاء وبايعه واخبر الجند انه بايع عمه وسلم اليه الخلافة فسكنوا (٧) • اما المسعودي فيذكر انه كان بين ابي اسحاق والعباس بن المأمون في ذلك الوقت تنازع في المجلس، ثم انقاد العباس الى بيعته(٨) • ويقول مؤلف كتاب العيون والحدائق بما يشبه ما اورده الطبري من شغب الجند على المعتصم بالله ومناداتهم العباس باسم الخلافة فارسل اليه فجاء وبايعه وخرج الى الجند واخبرهم بانه بايع عمه وسلم اليه الخلافة فسكتوا . وسار المعتصم بالله الى بغداد مسرعا خوفا على نفسه من

---

(٥) المعارف / ٣٩٢ •
(٦) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧١ •
(٧) الطبري ٨/٦٦٧ •
(٨) مروج الذهب ٤/٤٦ •

القواد وكانوا هموا به (٩) • وكذلك يقول مسكويه ان النـــاس شغبوا على المعتصم وطلبوا العباس ونادوا باسم الخلافة ، فارسل ابو اسحاق الى العباس فاحضره • فبايعه وخرج الى الجند وقال لهم قد بايعت عمي وسلمت الخلافة اليه فسكنوا (١٠) • اما ابـن الأثير فيقول ولما بويع له شغب الجند ونادوا باسم العباس ، فارسل اليه المعتصم فاحضره فبايعه ، ثم خرج الى الجند فقال لهم ما هذا الحب البارد ، قد بايعت عمي فسكنوا (١١) • وينفرد ابو حنيفـة الدينوري بالقول ان المأمون كان قد بايع لابنه العباس بولاية العهد من بعده ، ولما مات المأمون جمع اخوه ابو اسحاق محمد بن هارون اليه وجوه القواد والجند ودعاهم الى بيعته فبايعوه ، فسار مـن طرسوس حتي وافى مدينة السلام ، وخلع العباس بن المأمون وغلبه عليها (١٢) • وهو قول يدحضه ما اتفق عليه من سبقه من المؤرخين الذين اشرنا اليهم •

يستنتج مما جاء في هذه الروايات التي تتفق في فحواها ان العباس بن المأمون كان يطمح الى تولي الخلافة بعد ابيه ، وله من يؤيده من القواد والجند وان هؤلاء كانوا مطمئنين الى انه سيتولاها بعد موت أبيه • ولما قيل ان المأمون قد عهد لأخيه ابي اسحاق فقد اشفقوا من قيام النزاع بين العم وابن اخيه . وهذا ما حدث فعلا • ويبدو ان القواد والجند قد انقسموا الى فئتين ، احداهما تناصر ابا اسحاق وتحتج بأن المأمون قد عهد اليه بالخلافة في وصيتـه ، وتناصر الاخرى العباس • اما لأنها كانت تراه اصلح للخـــلافة بالنسبة لمصالحها ، او انها كانت تدعي ان المأمون قد عهد اليـه بها من بعده ، كما ذكر الدينوري ، ولهذا اخذت تطعن بما جاء في

---

(٩) العيون والحدائق ٣/٣٨٠ •
(١٠) تجارب الامم ٦/٤٧٠ •
(١١) الكامل ٦/٤٣٩ •
(١٢) الاخبار الطوال / ٣٣٧ـ٣٣٨ •

وصية المأمون من عهد بالخلافة الى اخيه دون ابنه · ويظهـــر ان الموالين للمعتصم بالله قد ارغموا العباس على مبايعة عمه . وان يعلن ذلك على مؤيديه ويطلب اليهم الاقتداء به ، فبايع مؤيدوه المعتصم بالله على مضض وبعد مناقشة حادة مع العباس · مما جعل المعتصم بالله يشك بولائهم ويخاف انتفاضتهم عليه ، فاسرع في العودة الى بغداد مستصحبا معه العباس كي لا ينفرد به المعارضون فيغيروا من رأيه فينقاد الى طلبهم ، فيقوم النزاع بينهما ثانية ·

ويلاحظ ان الجيش يتدخل لأول مرة في امر مبايعة الخليفة وينقسم على نفسه بشأنها · وكان هذا التدخل مبـــادرة خطيرة صارت لها نتائج بعيدة الأثر على الدولة العربية · على ان هذه الفئة التي عارضت مبايعة المعتصم بالله ، ظلت ، رغم مبايعتها ، تتحين الفرصة المناسبة لامتناع العباس بمبايعته والوثوب بعمه ·

عاد المعتصم بالله الى بغداد ، ويصف الخطيب البغدادي دخوله المدينة بقوله « ودخل بغداد على بغلـة كميت بسرج مكشـوف . وعليه قلنسوة لاطئة وسيف بمعاليق ، فأخذ على باب الشام حتى عبر الجسر ، ثم دخل من باب الرصافة (١٣) · وكان دخوله اليهـــا يوم السبت مستهل شهر رمضان سـنة ٢١٨هـ (١٤) · ويقـــول اليعقوبي انه دخل بغداد وعلى جنده الديباج المذهب (١٥) ·

وعندما تمت البيعة للمعتصم بالله ، وقف علي بن يحيى المنجم بين يديه ومدحه بعد ان رثى المأمون ، بقوله (١٦) :

أخنى على الملك المـأمـون كلكلـه

عندي جنايتـــه يامعشـــر النـــاس

---

(١٣) تاريخ بغداد ٣/٣٤٧ ·

(١٤) الطبري ٨/٦٦٧ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٧١ ، وشذرات الذهب ٢/١٢٢·

(١٥) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧١ ·

(١٦) معجم الادباء ٥/٤٦٥ ·

أختى على الملك المأمـــون كلكلــه
فصـــار رهنـــا لأحجـار وارمـــاس

قد كان ينهد ركن الدين حـين ثوى
ويتـــرك الناس فوضى بـلا راس

حتـى تـداركهم بـالله معتصـــم
خـير الخـــلائف من اولاد عبـاس

وجعل المعتصم بالله نقش خاتمه ، على ما جاء في كتاب العيون والحدائق « الله ثقة محمد بن الرشيد وبه يؤمن» (١٧) ٠ وفي العقد الفريد « الله ثقة ابي اسحاق بن الرشيد وبه يؤمن »(١٨) ٠ الا ان السيوطي يقول نقلا عن الصولي ان نقش خاتمه كان « الحمد لله الذي ليس كمثله شيء »(١٩) واحسبه نقله عن المسعودي الذي يقول انه كان « الحمد لله الذي ليس كمثله شيء وهو خالق كل شيء » (٢٠) ٠ وقد يدل تعدد نقش الخاتم على ان المعتصم بالله كان يستبدله بين حين وآخر ٠

وأمر المعتصم بالله عند مبايعته برد المقاصير في مساجد الجماعة (٢١) ٠ مما يستدل منه انه كان يخشى الفتنة التي عارضت بيعته ٠ وقد سبق للمأمون ان امر بنزعها باعتبارها سنة احدثها معاوية بن ابي سفيان (٢٢) ٠

(١٧) العيون والحدائق ٣/٤١٠ ٠
(١٨) العقد الفريد ٥/١٢١ ٠
(١٩) تاريخ الخلفاء / ٣٣٧ ٠
(٢٠) التنبيه والاشراف / ٣٠٨ ٠
(٢١) البدء والتاريخ ٦/١١٤ ٠
(٢٢) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٦٨ ٠

٣ ـ صفاته وسيرته :

هو ابو اسحاق محمد بن هارون الرشيد ، وعندما استخلف لقب بالمعتصم بالله وهو اول خليفة اضيف الى لقبه اسم الله تعالى(٢٣) . وامه من مولدات الكوفة ، وذكر عن الفضل بن مروان انه قال ان ام المعتصم بالله تسمى ماردة وهي صغدية الأصل وكان ابوها نشأ بالسواد(٢٤) . وكانت ماردة احظى نساء الرشيد لديه . وقد اهدتها اليه زوجته زبيدة ضمن عشر جوار عندما تحقق لها انه لم يكن يتعشق المغنية دنانير ، وانما يحب سماعها فقط (٢٥) .

اما صفات المعتصم بالله الجسمية ، فيكاد يجمع الذين وصفوه من المؤرخين على انه كان ابيض مشربا بحمرة ، اصهب اللحية طويلها ، حسن العينين مربوع القامة (٢٦) . ويقول المسعودي انه لم يشب (٢٧) . ويقال انه كان شديد البدن عظيم القوة ، يحمل الف رطل ويمشي بها خطوات (٢٨) . وانه حمل ذات مرة بابا من حديد فيه سبعمائة وخمسون رطلا وفوقه عكام فيه مائتان وخمسون رطلا ، وكان يسمى ما بين اصبعيه المقطرة لشدتهما (٢٩) . ويلوي عمود الحديد حتى يصير طوقا . ويشد على الدينار باصبعه فيمحو كتابته(٣٠) . ويروى عن احمد بن ابي دواد

---

(٢٣) المختصر في اخبار البشر ٤/٣٥ ، ومآثر الانافة ١/٤٣ و٢١٧ .
(٢٤) الطبري ٩/١٢٣ .
(٢٥) الأغاني ١٨/٦٧ .
(٢٦) الطبري ٩/١١٩ ، وتجارب الامم ٦/٥٢٧ . والعيون والحدائق ٣/٤٠٩ .
(٢٧) التنبيه والاشراف / ٣٠٧ .
(٢٨) العيون والحدائق ٣/٤٠٩ .
(٢٩) العقد الفريد ٥/١٢١ . والعكام هو العدل . والمقطرة خشبة فيها خروق على رجل المحبوس يقيد بها .
(٣٠) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٢ .

وكان مقربا جداً من المعتصم بالله انه قال : كان المعتصم بالله يخرج ساعده الي ويقول يا ابا عبدالله عض ساعدي باكثر قوتك . فاذا هو لاتعمل فيه الأسنة فضلا عن الاسنان(٣١) .

ووصف المعتصم بالله بحسن السيرة واستقامة الطريقة (٣٢) . الا انه كان كثير اللهو مسرفا على نفسه (٣٣) . كما كان سديد الرأي موصوفا بالشجاعة (٣٤) . وما رؤى اشد تيقظا في حرب منه ، فانه لما ادخل عليه مازيار بن قارن ، وكان شديد الغضب عليه ، قيل له ان لا يعجل عليه فان عنده اموالا جمة . فانشد قول ابي تمام (٣٥) :ـ

ان الاسود اسود الغاب همتها
يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

وعرف عنه كان قاسيا سريع الغضب . واذا غضب لا يبالي من قتل وماذا فعل (٣٦) . الا ان استماعه الى نصح قاضي قضاته ابن ابي داود ساعده على تجنب كثير من المظالم . وكان يتشدد في سلوك ابناءالاسرة العباسية ، ولما بلغه ان اخاه ابا علي بن الرشيد كان يتردد على بعض الاديرة ومعه القيان ويقضي اياما في القصف والتهتك أمر أسحاق بن ابراهيم صاحب الشرطة على تأديبه اياه . وامره ان لا يرخص لأمير من اهل بيته في ذلك(٣٧) .

وكان المعتصم بالله فصيحا رغم جهله القراءة والكتابة الا قليلا . يقول الخطيب البغدادي انه كان يكتب كتابا ضعيفا ويقرأ

---

(٣١) تاريخ الخلفاء / ٣٣٤ .
(٣٢) مروج الذهب ٤/٤٧ و ٦٤ .
(٣٣) العبر ١/٤٠٠ .
(٣٤) الفخري / ٢٠٩ .
(٣٥) تذكرة ابن حمدون /١٠٥ .
(٣٦) الكامل ٦/٥٢٦ والعبر ١/٤٠٢ وجاء فيه انه كانت له نفس سبعية .
(٣٧) الديارات / ٣٤ـ٣٥ .

قراءة ضعيفة (٣٨) . وذلك لأنه كان في صغره يكـره الدراسة . ويروى ان اباه سأله يوماً عن وصيف صغير له ، فأجابه بأنه مات واستراح من الكتاب ، فقال الرشيد : أو بلغ منك الكتاب هـذا المبلغ . والله لا حضرته ابـدا ، ووجهـه الى البـادية فتعلـم الفصاحة (٣٩) . وذكر القلقشندي ما يشبه هذا فيقول ان سبب ذلك هو ان المعتصم بالله رأى جنازة بعض الخدم فقال : ليتني مثل هذا حتى اتخلص من الكتاب ، فقال له ابوه : والله لاعذبنك بشيء تختار عليه الموت ومنعه من الكتاب (٤٠) . وقد استفاد من البادية فصاحة اللسان الى جانب الفروسية ، فكان اذا تكلم بلغ مـا اراد وزاد عليه (٤١) .

ويذكر اليعقوبي بعض الامور التي كان المعتصم بالله اول من اتخذها من الخلفاء ، واقتدى به الناس . فقد لبس الثياب الضيقة الأكمام فضيق الناس اكمام ثيابهم ، ولبس الخفاف الكبار فقلدوه بلبسها ، وكان اول من لبس شاشية مربعة فلبسها الناس ايضـا تشبهاً به فنسبت اليه فقيل « الشاش المعتصمية » ، كما كان اول خليفة ركب السروج المكشوفة فتشبه الناس به (٤٢) . ويذكـر المسعودي عنه ما يشبه هذا (٤٣) . ولم يكـن المعتصـم بالله يمس الطيب الا قليلا ، وكان يذهب في ذلك الى تقوية بدنه واعانته على الشدائد ، واما في حروبه فكان من دنا منه وجد رائحـة صـدأ

---

(٣٨) تاريخ بغداد ٣/٣٤٣ .

(٣٩) العقد الفريد ٢/٤٤٠ ، وتاريخ بغداد ٣/٣٤٣ .

(٤٠) مآثر الانافة ١/٢١٨ .

(٤١) تاريخ الخلفاء / ٣٣٧ .

(٤٢) مشاكلة الناس لزمانهم / ٣١-٣٢ .

(٤٣) مروج الذهب ٤/٣١٩ .

السلاح والحديد من جسمه (٤٤) • وانه كان يكره رائحة الغالية ولا يستطيع الصبر عليها (٤٥) •

واشتهر المعتصم بالله بالسخاء في بذل المال ، وكانت اعطياته للشعراء والمغنين وفيرة • وعندما كان يستخفه الطرب في مجالس الغناء لا تقتصر اعطياته وخلعه على المغنين وحدهم بل يشمل بذلك جميع الحاضرين (٤٦) • ودخل يوماً دار خاقان عرطوج فرأى ابنه الفتح وهو صغير فمازحه وساله : ايهما احسن داري ام داركم ؟ فقال الفتح : ياسيدي ، دارنا اذا كنت فيها احسن • فقال المعتصم بالله : لا ابرح والله حتى انثر عليه مائة الف درهم . وفعل ذلك (٤٧) • واهدى قفلا من الذهب فيه ألف مثقال الى الكعبة المشرفة ، وقد حمله الى مكة في سنة ٢١٩هـ وفد مؤلف من طاهر بن عبدالله ومحمد بن ابراهيم وابن فرج الرخجي ، وكان من الذهب الخالص . وعندما ارادوا نزع القفل القديم لوضع القفل الذهبي مكانه احتج حجاب الكعبة على انتزاع القفل القديم وأصروا على بقائه لأنه يعود الى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فوافق الوفد على ان يقفل على البيت الحرام بقفلين ، القفل القديم والقفل الذي قدموا به ، الا ان الحجاب وفدوا على الخليفة محتجين على رفع القفل القديم ، لأنه قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاقتنع بوجهة نظرهم وامر برفع القفل الذهبي الذي كان بعث به وان يكتفى بالقفل الأول فقط ، واجاز الحجاب بأن وهبهم القفل الذهبي (٤٨) •

---

(٤٤) التاج/١٥٥ •

(٤٥) رسوم دار الخلافة / ٣٢ •

(٤٦) الاغاني ٥/٣٢٩ •

(٤٧) معجم الادباء ٦/١١٧ •

(٤٨) الذخائر والتحف / ٣٦ ، والمعرفة والتاريخ ١/٢٠٣ •

وكان المعتصم بالله يبحث عن احوال الناس غاية البحث ويتطلب في الاطلاع على امورهم (٤٩) • فقد وقع ببغداد حريق كبير عقيب انتقاله الى عاصمته الجديدة سامرا ، عرف بحريق الجمل ، ولما بلغه الخبر اعطى احمد بن ابي دواد خمسة الاف الف درهم وطلب اليه ان يعوض المتضررين من الناس عما اصابهم من جراء الحريق (٥٠) • واستخرج منه احمد بن ابي دواد لأهل الشاش . وهي من بلدان ما وراء النهر ، الفى الف درهم لكري نهر اندفن في صدر الاسلام فأضر ذلك بالمزارعين هناك ، فساعدتهم هبة المعتصم بالله على احياء النهر (٥١) • وكانت مدينة الرملة تسقى من آبار نظمت فيها قنوات للمياه ، ينفق عليها الخلفاء من باب البر والاحسان ، فأمر المعتصم بالله ان يعتبر ما تحتاجه من اموال لا دامتها وضمان الماء للناس من النفقات العامة ، فادخلت في سجل النفقات بحيث صارت نفقتها جارية يقوم بها العمال سنويا (٥٢) • مما يؤمن استمرار تدفق المياه في القنوات • كما كانت بئر زمزم في مكة المكرمة مكشوفة الأقبة صغيرة على موضع البئر في ركنها الذي يلي باب الصفا • فغيرها محمد بن فرج الرخجي في سنة ٢٢٠هـ بأمر المعتصم بالله ، وانفق عليها مالا جزيلا ، فسقف البئر كلها بالساج المذهب من الداخل ، وجعل عليها من ظهرها الفسيفساء ، واشرع لها جناحا صغيرا جعل فيه سلاسل تحمل قناديل للاضاءة (٥٣) •

---

(٤٩) آثار الاول / ٨٦ •

(٥٠) تفصيل الخبر في نشوار المحاضرة ٦/١٨٧ ، وفي اخبار بطاركة كرسي الشرق لماري بن سليمان / ٧٧ •

(٥١) الطبري ٩/١٢١ •

(٥٢) مختصر البلدان / ١٠٢ •

(٥٣) الاعلاق النفيسة / ٤٣ ، والمعرفة والتاريخ ١/٢٠٤ •

٤ ـ الخليفة المثمن :

أولع قدامى المؤرخين بوصف الخليفة المعتصم بانه بالمثمن ؛ وذلك لما فيه من نسبة لرقم الثمانية ، من عمره وتسلسله بين اخوانه وخلافته وعدد اولاده • وقد جمع صاحب العيون والحدائق هذه النسب بقوله ، « هو المثمن من اثنتي عشرة وجهة ، فهو الثامن من ولد العباس ، والثامن من الخلفاء ، وكانت مدة خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر ، وتوفي وله ثمان واربعون سنة ، وولد في شعبان وهو الشهر الثامن ، وخلف ثمانية ذكور وثماني بنات ، وغـزا ثماني غزوات ، وخلف ثمانمائة الف دينار عينا وثمانية الف الف درهم ورقا (٥٤) • ويظهر انه نسي جهة ، كما ان بعض ما ذكره لا يتفق والحقيقة . فان المعتصم بالله لم يكـن الثامن مـن ولـد العباس ، وانما السابع منهم الا انه الثامن من خلفائهم ، وانه لم يخلف هذا العدد من البنين والبنات ، فقد خلف من الذكور ستة فقط هم : هارون وجعفر ومحمد واحمد وعلي والعباس (٥٥) •

وما ذكره الطبري وابن الأثير في هذا الباب لا يتعدى ما اورده صاحب العيون والحدائق (٥٦) • الا ان ابا المحاسن يضيف الى ذلك : ومن الخيول ثمانين الف رأس ، ومن الجمال ثمانين الف جمل وبغل ودابة ، وثمانين الف خيمة ، وثمانية الآلاف عبد وقيل ثمانيـة عشر الفا ، وثمانية الاف جارية ، وعمر من القصور ثمانية (٥٧) • ويضيف جلال الدين السيوطي الى ما ذكره من سبقه من المؤرخين : وملك ثماني عشرة ومولده ثمان وسبعون ، وطالعه العقرب وهو ثامن بـرج ، وقتل ثمانية اعداء ، ومات لثمان بقين مـن ربيـع الأول(٥٨) • وغير خاف ان بعض ما ذكره يجانب الواقع •

---

(٥٤) العيون والحدائق ٣/٤٠٩ ، وجاء في التنبيه والاشراف / ٣٠٧ ، والعبر ١/٤٠١ والفخري / ٢٠٩ انه خلف ثمانية الف الف دينار •

(٥٥) تاريخ اليعقوبي ٩/١١٩ ، والكامل ٦/٥٢٤ •

اما المسعودي فيضيف الى ما ذكره صاحب العيون والحدائق ثمانية فتوح عظام منها اسر بابك ، والمازيار بن قارن ، واسره البوارج ، وهي مراكب هندية والظفر برؤسائها وابطال مقاتلتها ، واخلاؤه الزط من البطائح ، وقتله جعفر بن مهرجش الكردي ، هزيمته تيوفيل ملك الروم وفتح عمورية(٥٩) . كذلك عدد له ابن دحية ثمانية فتوح عظام واعتبر الفتح الثامن قتله الأفشين لما واطأ بابك الخرمي (٦٠) . ولكن ابن الفقيه يقول : وللمعتصم بالله ست فتوح عظام جليلة هي : قتل مازيار ، واسر بابك وقتله ، وفتح عمورية ، واستباحة الزط حيث اجتث اصلهم ، وقتله جعفر الكردي ، وما كان من شق الهند على يد عمر بن النعتل(٦١) .

وحتى الشعراء لم يستغنوا عن هذه الصفة في مدحه او هجائه . فقد جاء في احدى مدائح ابي تمام للمعتصم بالله قوله(٦٢) :

بالقائم الثامن المستخلف اعتدلت
قواعد الملك ممتداً لها الطول

بيمن معتصم بالله لا اود
بالملك مذ ضم قطريه ولا خلل

(٥٦) الطبري ٩/١١٩ ، والكامل ٦/٥٢٤ .
(٥٧) النجوم الزاهرة ٢/٢٥١ ، واحسبه نقل ذلك من العبر ١/٤٠١ الذي يضيف : ووقف في خدمته ثمانية ملوك .
(٥٨) تاريخ الخلفاء / ٣٣٤ .
(٥٩) مختصر كتاب البلدان /٥٢-٥٣ .
(٦٠) النبراس / ٧٣ .
(٦١) مختصر كتاب البلدان / ٥٢-٥٣ .
(٦٢) القصيدة في ديوان ابي تمام ٣/٥-٢٨ .

وهجاء دعبل الخزاعي منكراً عليه تسلسله بين خلفاء بني العباس(*) بقوله :

ملوك بني العباس في الكتب سبعة
ولم تأتنا في ثامن منهم الكتب
كذلك اهل الكهف في الكهف سبعة
غداة ثووا فيه وثامنهم كلب

من الغريب حقاً ان تكون للمعتصم بالله هذه العلاقة برقم الثمانية ، بحيث انها لفتت انظار من ارخوا له او كتبوا عنه . وان كان قسم مما ذكروه غير دقيق ولا يخلو من المبالغة ، بل يجانب الحقيقة احيانا . فان اليعقوبي وهو اقدم من ذكرنا من المؤرخين يقول ان عمره تسع واربعون سنة ، وانه خلف من الذكور ستة ، ذكرناهم آنفاً ، كما انه من المتفق عليه انه توفي لثماني عشرة ليلة مضت من ربيع الأول ، وان هناك اختلافا في سنة ميلاده ، مما يجعل نسبة الثمانية الى هذه الامور غير صحيحة . اما ما ذكروه عن تركته من الاموال والمتاع والجواري والعبيد والدواب فان اغلبه من باب التخمين ، ولا يخلو من المبالغة . كما ان اعتبار المسعودي وابن دحية وابن الفقيه ما اشاروا اليه من انتصارات المعتصم بالله فتوحات عظام ، مبالغ فيه ايضا . فاذا كان اسر بابك والقضاء على الخرمية ، وغزو بلاد الروم وفتح عمورية ، فتحين عظيمين حقاً تما على عهد المعتصم بالله ، فان الانتصارات الاخرى

(*) تاريخ الخلفاء / ٣٣٥ ، وديوان دعبل الخزاعي /١ ٥١-٥٣ وفيه كامل القصيدة .

التي ذكرت لا تعدو ان تكون مجرد اخماد حركات تمرد داخلية او حملات غزو اعتيادية او لرد عدوان ، مما لا يتطلب سوى حركات عسكرية موضعية ضيقة النطاق ، محدودة النتائج ، ومن ثم فانها لم تكن فتوحات عظيمة .

ان الفتح العظيم في الهند كما وصفه ابن الفقيه بانه شق الهند وظفر بمراكبها ورؤسائها وابطال مقاتلتها ، لم يحظ باهتمام المؤرخين . اذ انهم لا يذكرون عنه الا القليل . ويظهر مما ذكروه ان حملة من المراكب الهندية غلبت على جزء من ساحل الخليج العربي الشرقي وعمان ونواحي البصرة ، اي انها توغلت في الخليج العربي حتى نواحي البصرة . فوجه المعتصم بالله القائد عمر بن الفضل الذي استطاع ان يقطع على الحملة خط الرجعة ويأسر افرادها (**) . مما شجع الحملة العربية على تغزو قسما من السواحل الغربية للهند . وليس من الواضح ما اذا كانت الحملة المذكورة من المراكب الهندية عسكرية منظمة تبغي الفتح والاستيلاء ، ام انها كانت تحمل عددا من المهاجرين الى السواحل المذكورة ، كما سبق ان هاجرت اقوام من الزط الى جنوبي العراق ، وان كان سير الحوادث يؤيد الافتراض الثاني .

ويذكر خليفة بن خياط ما يدل على ان السواحل الغربية للهند كانت هدفا لغزوات يشنها الجيش العربي والمطوعة في عهد المعتصم بالله وابنه الواثق بالله . فقد جاء في حوادث سنة (٢٢٦هـ) ان احمد بن عبدالله بن الحسن قد غزا بحر البصرة ، وعندما عزل احمد المذكور وعين بدلا عنه احمد بن رباح ارسل ابراهيم بن هاشم لغزو البحر المشار اليه في سنتي ٢٢٨هـ و٢٢٩هـ ، وكذلك قام بغزوه في سنة ٢٣٠هـ وبلغ ادنى بلاد

(**) النبراس / ٧٣ .

سرشت فاحرق قراها واصاب سبياً • كما يذكر في اخبـــار السنة ٢٣١هـ ان مراكب المطوعة في بحر البصرة كسرت في المنطقة الواقعة بين جنابة وسينيز واصيب فيها ناس من المطوعة (٦٣) •

ويشير البلاذري عند بحثه فتوح السند ان حملة من الجيش العربي وصلت في عهــد الخليفة المهــدي الى الحــدود الهنــدية الشمالية الغربية ، وافتتحت بعض المدن • وان هذه الفتوحـــات استمرت في عهد الخليفة المأمون ، اذ كان الفضل بن ماهان قد غلب على بعض مدن السند وبعث الى الخليفة بفيل ، ودعا له في مسجد جامع بناه هناك (٦٤) • ولما مات الفضل قام ابنه مقامه فغزا المدن المجاورة • ثم غلب عليه اخوه ماهان بن الفضل وكتب الى الخليفة المعتصم بالله واهدى اليه ساجا لم ير مثله عظماً وطولا (٦٥) •

وكان المأمون قد عين موسى بن يحيى على المناطق المفتوحة في السند ، وعندما مات استخلف ابنه عمران بن موسى ، فأقره الخليفة المعتصم بالله على ولايته • وقد تغلب عمران على القيقان واغلبهم من الزط ، وبنى مدينة سماها البيضاء واتخذه عسكراً لجنده • ثم استولى على مدينة قندبيل ، وهي مدينة جبلية جنوبي القيقان • وعندما وقعت العصبية بين النزارية واليمانية مال عمـــران الى اليمانية فوثب عليه عمر بن عبدالعزيز الهباري وقتله غيلة (٦٦) •

---

(٦٣) تاريخ خليفة بن خياط ٢/٥١٨ـ٥٢٠ ، وخبابة وسينيز من موانئ الساحل الشرقي للخليج العربي •
(٦٤) فتوح البلدان / ٤٣٢ •
(٦٥) نفس المصدر / ٤٣٣ •
(٦٦) فتوح البلدان / ٤٣٢ •

وواضح ان ما اشرنا اليه من فتح بلاد السند لا يمكن اعتباره من الفتوحات العظيمة ·

على ان من عجيب احوال المعتصم بالله ، كما يقول صاحب الذهب المسبوك ، ان اباه هارون الرشيد جعل ولاية العهد في ثلاثة من اولاده : محمد الأمين وعبدالله المأمون ، والقاسم المؤتمن ، ولم يعينه معهم ، فلم يكن من نسلهم خليفة ، وساق الله تعالى الخلافة اليه والى عقبه (٦٧) · ويقال ان الرشيد حجب الخلافة عنه لكونه قليل التعلم (٦٨) ·

٥ ـ وفاته :

تكاد المصادر تتفق على ان وفاة المعتصم بالله كانت في يوم الخميس لثماني عشرة مضت من ربيع الأول من سنة ٢٢٧هـ(٦٩) · وقد اشار الشاعر مروان بن ابي الجنوب الى ذلك بقوله : (٧٠)

ابو اسحاق مات ضحى فمتنا
وامسينا بهارون حيينا

لئن جاء الخميس بما كرهنا
لقد جاء الخميس بما هوينا

اما سبب وفاته فقد ذكر انه احتجم في اول يوم من المحرم ، واعتل عندها · ويقول القفطي ان ابن ماسويه الطبيب الذي تولى

(٦٧) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٢ ·
(٦٨) تاريخ الخلفاء / ٢٩١ ·
(٦٩) الطبري ٩/١١٠ ، والعيون والحدائق ٣/٤٠٩ ، ومروج الذهب ٤/٦٥ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٨ ، والكامل ٦/٥٢٤ ·
(٧٠) الطبري ٩/١٢٠ ·

الاشراف على صحة المعتصم بالله بعد موت طبيبه الخاص سلمويه بن بنان ، قد خالف طريقة سلمويه في فصد المعتصم بالله ، اذ يقول : كان المعتصم قوياً وكان سلمويه يفصده في السنة مرتين ، ويسقيه عقب كل فصد دواء ، فلما باشره يوحنا بن ماسويه اراد عكس ما كان يفعله سلمويه ، فسقاه الدواء قبل الفصد ، فلما شرب الدواء حمي دمه وحم ، وما زال جسمه ينقص حتى مات (٧١) •

وعندما اشتدت علته وحضرته الوفاة جعل يقول : ذهبت الحيل ليست حيلة ، وقيل انه جعل يقول : أؤخذ من بين هذا الخلق (٧٢) • وحكي عنه انه قال : لو علمت ان عمري قصير ما فعلت ما فعلته . يعني قتل العباس بن المأمون (٧٣) • ويذكر السيوطي عدة عبارات اخرى رويت عن المعتصم بالله لما احتضر ، فيقول انه قال « حتى اذا فرحوا بما أوتوا اخذناهم بغتة » (٧٤) ، وقيل انه قال : اللهم انك تعلم أني اخافك من قبلي ولا اخافك من قبلك ، وارجوك من قبلك ولا ارجوك من قبلي (٧٥) • ويقول ابن الطقطقي انه لما مرض مرضته التي مات فيها نزل في سفينة ومعه زنام الزامر فجعل يمر على قصوره وبساتينه بشاطىء دجلة ، وطلب الى زنام ان يزمر له هذا اللحن : (٧٦)

يا منزلا لم تبل اطلاله الخ •• وقد سبق ان اشرنا الى ذلك في فصل آخر • وكانت وفاته في سر من رأى وبها دفن في قصره

(٧١) تاريخ الحكماء / ١٢٠ •
(٧٢) الطبري ٩/١١٩ •
(٧٣) العيون والحدائق ٣/٤٠٩ •
(٧٤) سورة الانعام ـ الآية : ٤٤ •
(٧٥) تاريخ الخلفاء / ٣٣٦ •
(٧٦) الفخري / ٢١٢ •

المعروف بالجوسق على دجلة • وقد صلى عليه قاضي القضاة احمد بن ابي دواد ، وكان المعتصم بالله اوصاه بالصلاة عليه (٧٧) •

وهناك اختلاف في تاريخ مولد المعتصم بالله . فيذكر الطبري ان مولده كان في شعبان من سنة ١٨٠هـ . ثم يستدرك فيقـــول : وقيل في سنة ١٧٩هـ(٧٨) • ويؤيد كل من المســـعودي والخطيب البغدادي التاريخ الذي ذكره الطبري اولا ، ويضيف المسعودي ان مولده كان في قصر الخلد ببغداد (٧٩) • اما السيوطي فيذكر انه قد ولد في سنة ١٧٨هـ (٨٠) • وقد ترتب على هذا الاختـــلاف ، اختلاف في مقدار عمره • فيقول الطبري ان عمـــره كـــان ستا واربعين سنة وسبعة اشهر وثمانية عشر يوماً ، او سبعا واربعين سنة وشهرين وثمانية عشر يوما • ويرى كل الخطيب ومســـكويه ومؤلف كتاب العيون والحدائق ان عمره كان ثماني واربعين سنة • اما اليعقوبي فيقول ان سنه كانت ٤٩ سنة • ويقول الذهبي انـــه توفي عن سبع واربعين سنة • بينما يرى الدينوري إنه بلغ من العمر تسعا وثلاثين سنة ، وهو واهم ولاشك • ويرى المسعودي انه مات عن ٤٨ سنة وقيل : ٤٦ سنة (٨١) • وكانت مدة خلافته ثماني

---

(٧٧) الاخبار الطوال / ٣٤٢ •

(٧٨) الطبري ١١٩/٩ •

(٧٩) مروج الذهب ٦٤/٤ ، وتاريخ بغداد ٣٤٢/٣ •

(٨٠) تاريخ الخلفاء / ٣٣٣ •

(٨١) الطبري ١١٩/٩ ، وتاريخ بغداد ٣٤٢/٣ ، وتجـارب الامـم ٥٢٧/٦ والعيون والحدائق ٤٠٩/٣ ، وتاريخ اليعقوبي ٤٧٨/٢ ، والعبر ٤٠١/١

سنوات وثمانية اشهر . وقال وزيره محمد بن عبدالملك الزيات يرثيه ويهنىء ابنه الواثق بالله (٨٢) :

قد قلت اذ غيبوك واصطفقت
عليك أيد بالترب والطين

اذهب فنعم الحفيظ كنت على الد
نيا ونعم الظهير للدين

لا جبر الله امة فقدت
مثلك الا بمثل هارون

* * *

(٨٢) الطبري ٩/١١٩ . والاخبار الطوال /٣٤٢ ، ومروج الذهب ٤/٦٣-٦٤ .

الفصل الثالث

الواثــق بالله

ابو جعفر هارون بن المعتصم بالله

١ ــ مبايعته :

مات المعتصم بالله ولم يكن قد عهد لابنه هارون بالخلافة ٠ الا ان هارون كان اكبر اخوته الستة ، وان المعتصم بالله لما خرج الى القاطول في سنة ٢٢٠هـ للبحث عن موقع يبني فيه مدينة لجنده الاتراك ، استخلفه ببغداد (١) ٠ ولما خرج في سنة ٢٢٣هـ في حملته على بلاد الروم دفع خاتمه اليه واقامه مقام نفسه واستكتب لـه سليمان بن محمد بن عبدالملك الزيات (٢) ٠ وقــد اعتبــر بعض المؤرخين ذلك اشارة الى عهد المعتصم بالله بالخلافــة الى هــارون ٠ ويقول السيوطي انه ولي الخلافة بعهد من ابيه (٣) ٠ وقد خلــت المصادر الأولية عن اشارة واضحة الى ذلك ٠

---

(١) الكامل ٦/٤٥٢ ٠
(٢) النجوم الزاهرة ٢/٢٣٨ ٠
(٣) تاريخ الخلفاء / ٣٤٠ ٠

بويع هارون في سامرا غداة وفاة ابيه في يوم الخميس التاسع عشر من ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ ولقب بالواثق بالله ٠ فتوجه اسحاق بن ابراهيم نائب الخليفة ببغداد ، من فوره الى بغداد فوصلها قبل طلوع الفجر ، واتخذ ما رآه ضرورياً من اجراءات المبايعة ، فاحضر القواد والوجوه واخذ عليهم البيعة للواثق بالله (٤)٠

ويفهم مما جاء في تاريخ بغداد وخلاصة الذهب المسبوك ان اسحاق بن ابراهيم كان ببغداد وجاءه نعي المعتصم بالله في اليوم الثاني من وفاته ، اي في يوم الجمعة ، فلم يظهر النبأ ، وخطب في ذلك اليوم على منابر بغداد للمعتصم بالله وهو ميت(٥) ٠ وفي اليوم التالي طلب اسحاق الى الامراء الهاشميين والقواد والاعيان الحضور الى دار الولاية ، فلما اجتمعوا نعى اليهم المعتصم بالله واخذ عليهم البيعة لهارون الواثق بالله ، فتمت بذلك مبايعته (٦) ٠

ونقش الواثق بالله على خاتمه عندما اصبح خليفة « الله ثقة الواثق » (٧) ٠ ويقال انه نقش عليه « محمد رسول الله » ، وانه كان له ختم آخر نقش عليه « الواثق بالله » (٨) ٠

---

(٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٩ ٠
(٥) تاريخ بغداد ١٤/١٦ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٤ ٠
(٦) جاء في الطبري ٩/١٢٣ انه بويع يوم الاربعاء لثمان خلون من ربيع الاول ، الا انه سبق ان ذكر في ص : ١١٨ ان المعتصم بالله توفي يوم الخميس الثاني عشر من ربيع الاول ٠
(٧) التنبيه والاشراف /٣٢٣ ، وخلاصة الذهب المسبوك/٢٢٤ ٠
(٨) العقد الفريد ٥/١٢٢ ٠

لقد استطاع المعتصم بالله ان يقضي على ثورة بابك الخرمي التي كانت قد استفحل امرها وشغلت خلفاء بغداد ما يقرب من خمسة عشر عاما ، وان يشتت شمل قبائل الزط التي عاثت في البلاد فساداً ، وان يكسر شوكة الدولة البيزنطية ويهدد القسطنطينية بفتحه عمورية وكثير من الحصون الرومية ، ويقضي على حركة الأفشين والمازيار الانفصالية . وبذلك هيأ لابنه الواثق بالله عهداً من الهدوء والاستقرار نعمت به ارجاء الدولة العربية طيلة حكمه ، سوى بعض حركات التمرد الموضعية . وكان من المنتظر ان يستأنف الواثق بالله غزو بلاد الروم ويقضي على الدولة البيزنطية المرهقة والتي بان ضعفها عندما هاجمها ابوه . الا انه كان بطبيعته فنانا يعشق الشعر والموسيقى والغناء ، ويميل الى الآداب والعلوم والمناقشة في المجالس العلمية والادبية ، ويؤثر حياة الدعة والهدوء . فانصرف الى اللهو والشعر والغناء والمجالس ، وساعد على ازدهار الحالة الاقتصادية .

اما من الناحية السياسية فقد انتهج خطة عمه المأمون في سياسة التسامح واللين مع العلويين ، والدفاع عن حرية الرأي ومناصرة المعتزلة ، الا انه في الناحية العسكرية أتبع سياسة ابيه في الاعتماد على الجند الاتراك الذين ازداد نفوذهم على عهده ، وتوسع سلطانهم وتدخلهم في شؤون الدولة . مما كان له اثر مهم في اضعاف الخلافة خاصة والدولة العربية بصورة عامة . اذ انصرف هؤلاء الى العمل على تطمين مصالحهم وتأمين ارزاق جندهم غير مبالين بمصلحة الخلافة والدولة ، بل انهم استغلوهما لتحقيق غاياتهم . وستشير الى نتائج هذه السياسة وتأثيرها في الفصل الخاص بالنزاع بين الخلفاء والجند الاتراك .

ومع كل ما تقدم يمكن القول ان ايام الواثق بالله التي دامت خمس سنوات ونصف السنة ، كانت عهد سلام وهدوء لا يشوبها سوى تعسفه بأمر المحنة وامتحان الناس بخلق القرآن ، وبعض الاضطرابات الداخلية التي سرعان ما كان يقضي عليها ٠

٢ ـ صفاته وسيرته :

ولد الواثق بالله بطريق مكة (٩) ، لعشر بقين من شعبان سنة ١٩٦هـ(١٠) ٠ ومما يؤيد صحة تاريخ مولده هذا ان المسعودي يقول ان عمره كان يوم بويع بالخلافة احدى وثلاثين سنة وبضعة أشهر (١١) ٠ وامه ام ولد رومية اسمها قراطيس (١٢) ٠ وقد توفيت وهي في طريقها الى مكة في اوائل ذي القعدة من اولى سني حكمه ، ودفنت في الكوفة في دار داود بن عيسى (١٣) ٠

يتقارب المؤرخون في وصف الواثق بالله بأنه كان ابيض اللون تعلوه صفرة جميلا ، قائم العين اليسرى وفيها نكتة بياض ٠ الا ان المسعودي وابا المحاسن يقولان ان نكتة البياض في عينيه الاثنتين ٠ وينفرد صاحب الذهب المسبوك بان النكتة في عينه اليمنى ٠ كما ينفرد المسعودي بانه كانت تعلوه حمرة (١٤) ، بدل الصفرة ٠

---

(٩) الطبري ٩/١٥١ والكامل ٧/٣٠ ٠

(١٠) العقد الفريد ٥/١٢٢ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٤٠ ٠

(١١) مروج الذهب ٤/٦٥ ٠

(١٢) الطبري ٩/١٢٣ ، وخلاصة الذهب المسبوك /٢٢٣ ٠

(١٣) الطبري ٩/١٢٣ ٠

(١٤) التنبيه والاشراف / ٣١٣ ، وتجارب الامم ٦/٥٣٥ ، والعبر ١/٤١٢ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٤ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٤٢ ، والنجوم الزاهرة ٢/٦٣ ٠

وعرف عن الواثق بالله انه كان يتشبه بعمه المأمون في كثير من اخلاقه • ويقول ابن الطقطقي انه كان يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته (١٥) • ويعلل صاحب خلاصة الذهب المسبوك ذلك بأن المأمون هو الذي رباه فتقبل افعاله (١٦) • اي انه تأثر به واقتدى بافعاله • ويكاد يجمع من كتب عنه من المؤرخين القدامى انه كان من افاضل خلفاء بني العباس ، كثير المعروف ، واسع العطاء ، سهل الانقياد ، محببا الى الرعية (١٧) • دخل عليه مؤدبه هارون بن زياد يوما فأكرمه واظهر من بره به ما يلفت النظر ، فقيل له : من هذا يا امير المؤمنين الذي اكرمته كثيراً ؟ قال : هذا أول من فتق لساني بذكر الله وادناني من رحمة الله عزوجل (١٨) • وكتب اليه محمد بن حماد بيتين من الشعر هما (١٩) :

جذبت دواعي النفس عن طلب الغنى
وقلت لها عفي عن الطلب النزر

فـــان أمير المؤمنـــين بكفـــه
مدار رحي الارزاق دائبة تجري

فوقع الواثق بالله : جذبك نفسك عن امتهانها دعا الى صونك بسعة فضلي عليك ، فخذ ما طلبت هنيئاً •

---

(١٥) الفخري / ٢١٥ •
(١٦) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٤ •
(١٧) مروج الذهب ٤/٣١٩ ، والفخري / ٢١٧ ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٦٣ •
(١٨) تاريخ بغداد ١٤/١٧ •
(١٩) نفس المصدر •

ولعل ابرز ما اتصف به الواثق بالله من الاخلاق الحميدة انه كان واسع الحلم كثير التسامح . فلم يكن في الخلفاء احد احلم منه ولا أصبر على اذى (٢٠) . وهناك اخبار تدل على سعة حلمه وميله الى التسامح . فقد كان يعجبه سماع المغني ابي حشيشة الطنبوري ، فوجد المسدود المغنى عليه من جراء ذلك . فهجاه في بيتين من الشعر كتبهما في رقعة كانت معه ، وكان كتب على رقعة اخرى حاجة يريد ان يرفعها اليه ، فأخطأ وناوله رقعة الشعر بدلاً عنها ، فقرأها الواثق بالله وكان فيها :

من المسدود في الانف
الى المسدود في العين

انا طبل له شق
فيا طبلا بشقين

فعلم انها فيه ، فقال للمسدود : خلطت بين الورقتين ، فهات الاخرى وخذ هذه ، واحترس من مثل هذا ، ولم يزد على ذلك شيئاً (٢١) . وعندما غضب الواثق بالله على المغني المذكور ونفاه الى عمان ، ثم عفا عنه وكتب في اعادته الى سامرا ، نصحه بان لا يعاود ممازحة خليفة وان اذن له ، وقال له : فليس كل احد يحضره حلمه كما حضرني فيك (٢٢) .

وبلغ من تسامحه ان ابنة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين في الشام ، لما دخلت عليه واستعطفته امر برد اموالها

(٢٠) الاغاني ٢٠/٢٩٠ ، والهفوات النادرة / ١٨ .
(٢١) الاغاني ٢٠/٢٩١ ، والهفوات النادرة / ١٨-١٩ .
(٢٢) الاغاني ٢٠/٢٩٠ .

عليها و بالغ في الاحسان اليها (٢٣) • وكان ابن الزيات قد امر بحبس احد كبار الكتاب هو سليمان بن وهب في خلافة الواثق بالله ، وكان سليما آيساً من الفرج • فوردت عليه رقعة من اخيه الحسن بن وهب تخفف من جزعه وتوصيه بالصبر ، فاجاب بما يدل على التفاؤل • فوقعت الرقعتان بيد الواثق بالله ، فأمر باطلاق سليمان وقال : والله لا تركت في حبسي من يرجو الفرج ولاسيما من خير مني . فاطلقته على كره من ابن الزيات (٢٤) •

وعُرف عن الواثق بالله شدة رعايته لافـــراد عائلته مـــن العباسيين ، وابناء عمومته من العلويين فكان باراً بهم لا يـرد طلباتهم ، ويعاونهم في حل مشاكلهم • على ان رعايته هـــذه لـم تقتصر على ذوى قرباه ، بل شملت رعاياه كافة • فقد كان واسع المعروف ، متفقداً شؤون الرعية (٢٥) • يتفقد احوال الناس ولا يبخل بمساعدتهم مالياً ، والعمل على ما فيه صلاحهـم • اذ كـان حسن التفكير في صلاح الرعية ، كما يقول صاحب خلاصة الذهب المسبوك (٢٦) • يقول اليعقوبي : فرق الواثق بالله اموالا جمة بمكة والمدينة وسائر البلدان ، وعلى الهاشميين وسائر قريش ، والناس كافة ، وقسم في بغداد قسما كبيرة مرة بعد اخرى ، على اهـــل البيوتات وعامة الناس (٢٧) •

وقال الواثق بالله يوما لقاضي قضاته . وقد ضجـر بكثـرة حوائجه : لقد اخليت بيـوت الامـوال بطلباتك للائذين بـك

---

(٢٣) المستطرف ١/١٨٩ •
(٢٤) الفرج بعد الشدة ١/١٨٦ ـ ١٨٨ •
(٢٥) مروج الذهب ٤/٦٦ •
(٢٦) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٤ •
(٢٧) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٣ •

والمتوصلين اليك . فقال : يا امير المؤمنين ، نتائج شكرها متصل بك ، وذخائر اجرها مكتوب لك ، ومالي من ذلك الا عشق الالسن لخلود المدح فيك . فقال : يا ابا عبدالله ، والله لا منعتك ما يزيد في عشقك وتقوي به منتك ، وامر فاخرج اليه ثلاثون الف دينار يصرفها في الزوار (٢٨) .

اننا قد نستنكر بمفاهيمنا الحالية مثل هذا الموقف من الخليفة ، وهو رئيس الدولة الاعلى والمسؤول شرعا عن امور رعيته كافة ، ونرى توجيه قاضي قضاته اياه من باب الاستعطاف والتوسل . الا اننا اذا اخذنا مقاييس عصر الواثق بالله بنظر الاعتبار وعلمنا ان اموال بيت المال هي صافي ايرادات الدولة بعد ان حسمت منها النفقات المحلية في كل ولاية واقليم بحيث لا يترتب على بيت المال من النفقات سوى نفقات الخليفة على بلاطه وحرسه وحاشيته وآل بيته ، وما ينفقه على مجالسه وملاهيه . ولذلك فان اطلاق بعض الاموال لاسعاف المحتاجين ومساعدة المعوزين انما يعتبر تبرعا من الخليفة ومعونة منه . وان انفاقه بعض الأموال في هذه الاغراض دليل على مدى عنايته بشؤون الامة . اذ كان باستطاعته انفاقها على ملذاته الخاصة كشراء الجواري وتشييد القصور المترفة ، ومنح مادحيه من الشعراء ، وامثال ذلك .

وكان الواثق بالله اديبا فنانا مولعا بالشعر والغناء والتلحين متتبعا اخبار الأولين ، وسنشير الى شعره واهتمامه بالغناء عند الكلام على مجالسه العلمية والادبية والغنائية .

---

(٢٨) المحاسن والمساوىء / ٤٣٩ .

(٢٩) التاج / ١٢٠ .

جاء في كتاب التاج عند الكلام على امارات الخلفاء لجلسائهم بالانصراف ، ان الواثق بالله كان اذا اراد ان يصرف جلساءه وسماره تثاءب ومس عارضيه (٢٩) . وعند ذكر عادات الخلفاء في الشرب واللباس ، اشار الى ان الواثق بالله ربما ادمن على الشرب وتابعه ، غير انه لم يكن يشرب في ليلة الجمعة ولا في يومها (٣٠) . وهو بذلك يشبه اباه المعتصم بالله . وربما كان يقلده في مواعيد شربه . وكان الواثق بالله اذا شرب وسكر رقد في موضعه الذي سكر فيه ، ومن سكر من ندمائه ترك في مكانه ولم يخرج (٣١) . ويظهر ان الواثق بالله كان مثل ابيه ايضا في عنايته بلبسه ، فهو لا يلبس القميص الا لبسة واحدة ، الا اذا كان نادرا غريبا . او كان معجبا به (٣٢) . وكان شديد العناية بالعطر وبخاصة عطر الغالية ، اذ كان يحفظها ليتقادم عهدها فيجود نوعها وتزكو رائحتها (٣٣) .

٣ ـ رجال الدولة في عهد الواثق بالله :

يذكر المسعودي في مطلع بحثه عن خلافة الواثق بالله خبرا يرويه عن الشاعر ابي تمام الطائي . خلاصة ما جاء فيه (٣٤) : ان ابا تمام كان قصد سر من رأى في اول يوم خلافة الواثق بالله ، فلقيه اعرابي قريبا منها . فاستطلع ابو تمام منه عما يعرف عن الخليفة وعاصمته ورجال دولته البارزين وعن عسكره . فاجاب الاعرابي

---

(٣٠) نفس المصدر / ١٥٣ .
(٣١) العقد الفريد ٦/ ٦٠ ، والمستطرف ٢/١٥٥ .
(٣٢) التاج / ١٥٤ .
(٣٣) نشوار المحاضرة ١/٢٨٩ .
(٣٤) مفصل الخبر في مروج الذهب ٤/٦٦ـ٦٨ .

واصفا الواثق بالله ورجاله كلا بما هو مشهور عنه ، وادعى بسعة معرفته بعاصمة الخلافة ، وعلاقته المتينة باهلها وعسكرها . وينتهي الخبر بشهادة الاعرابي بأن ابا تمام اشعر اهل زمانه . ويظهر ان هذا هو بيت القصيد من الخبر .

ويلاحظ ان المسعودي يؤيد صحة ما اشتمل عليه الخبر من صفات ونعوت اسبغها الاعرابي على الخليفة وعلى رجال عهده الا انه يشك في صحة روايته . فهو يرى ان كان ما رواه ابو تمام صحيحا فان الاعرابي قد احسن الوصف ، وان كان ابو تمام هو الذي صنع الخبر وعزاه الى هذا الاعرابي فانه مقصر في نظمه لأنه دون منزلته الأدبية . ولما كان من الصعب ، ان لم يكن من المستحيل على شخص بدوي بعيد عن حياة المدن وعن الاتصال بالخليفة ورجال دولته ، ان يلم بمثل هذه التفصيلات عنهم وعن اعمالهم وعن اراء الناس فيهم . ولذلك فهو يرجح ان ابا تمام وضع هذا الخبر ، فعمد الى وصف الخليفة ورجاله بطريق الرواية عن غيره ، ليكون بمنأى عن غضب ونقمة من وصفهم بسوء .

لقد وصف الخليفة بأنه وثق بالله فكفاه انتهى العاصية . وعدل في الرعية ، ورغب عن كل ذي جناية . وقال عن احمد بن ابي دواد انه هضبة لا ترام وجبل لا يضام ، تشحذ له المدى وتنصب له الحبائل حتى اذا قبل هلك ، وثب وثبة الذئب وختل ختلة الضب . وابن ابي دواد هذا هو قاضي القضاة . وكان المأمون قد اكتشف فيه سعة العلم وحدة الذكاء ونضج الرأي ، وقد غدا في عهد المعتصم بالله الرجل الأول في الدولة بعد الخليفة ، واحتفظ بمركزه المرموق في ايام الواثق بالله . ويُظهر الخبر انه كانت تحاك ضد ابن ابي دواد كثير من المكائد فيتغلب عليها .

وقال عن الوزير محمد بن عبدالملك الزيات انه وسع الداني شره ووصل الى البعيد ضره ، له في كل يوم صريع لا يرى فيه أثر ناب ولا مخلب • لقد كان ابن الزيات سياسيا ماهراً واداريا قديراً، الا انه كان حقودا قاسيا لا يرحم ، اذا رأى أثر نعمة على احـــد سعى لازالتها ونكبة صاحبها وهذا ما يؤكده الخبر •

اما عن عمر الرخجي فقال انه ضخم نهم ، استعذب الـــدم ، ينصبه القوم ترسا للوغى • وكان الرخجي هذا من كبار الكتاب ، كتب للمأمون • وتولى في عهد الواثق بالله ديوان النفقات ، وكان نهماً سيء السيرة ، مما اضطر الخليفة ان يعين رقيبا على اعماله • وقال عنه القاضي ابن ابي دواد : ما صحب السلطان أرجـل ولا اخبث من عمر بن فرج الرخجي (٣٥) •

ووصف الفضل بن مروان بأنه رجل نبش بعدما قبر ، ليس تعد له حياة في الأحياء ، وعليه خفقة الموتى • وهو يصفه بعـــد خروجه من السجن ذليلا ، اذ كان المعتصم بالله قد اقصاه عن الوزارة واستصفى امواله وامر بسجنه •

وهكذا يستمر في وصف ابي الوزير احمـــد بن خالـــد ، والأخوين سليمان والحسن ابني وهب ، وابراهيم بن رباح ، واحمد بن الخصيب ، وهم من كبار الكتاب ورؤساء الدواوين • ومهمـــا كان الأمر فان هذا الخبر تضمن امرين مهمين ، اولهما انه يعرفنا برجال الدولة البارزين في عهد الواثق بالله ، وثانيهما انه يصف كلا منهما بما يراه الناس فيه من صفات حسنة او سيئة ، والواقع انه ، كما يقول المسعودي ، قد احسن في وصفهم •

---

(٣٥) الفرج بعد الشدة ٤/١٧ •

٤٠ ـ مصادرة الكتاب :

ومما له علاقة بشؤون الرعية المبادرة الاصلاحية التي قام بها الخليفة الواثق بالله بمحاسبة كبار الكتاب في الدولة وتابعيهم على ما احرزوه من اموال لا تتناسب مقاديرها ومصادر ايرادهم المشروعة · فقد لاحظ ان اكثر المتنفذين من الموظفين كانوا يستغلون مراكزهم في حيازة الأموال وجمع الثروات بطرق غير مشروعة كالسرقة والرشوة · فحاول ان يحد من تعسفهم الناس ويمنعهم من استغلال وظائفهم · وليس من الواضح ما اذا كان الغرض من مصادرة الكتاب وحبسهم اصلاح الجهاز الاداري والمالي ، منع الرشوة ، وايقاف استغلال النفوذ ، ام مجرد احتواء الخليفة على اموال الآخرين ممن اتهموا بالاستغلال · ومهما كان الأمر فان مبادرة الخليفة الى محاسبة كبار موظفيه والضرب على ايدي المفسدين منهم بهذه الشدة لابد وانها كان لها أثر في اصلاح جهاز الدولة المالي والاداري ، وتخفيف وطأة موظفيه على الرعية · على انه يجب ان لا يغرب عن البال ان تكون هذه المصادرة بنفس الوقت عاملا يحفز الموظفين المصادرة اموالهم على تعويضها عندما تسنح لهم الفرصة بنفس اساليبهم السابقة ، بل وباساليب قد تكون اشد منها تعسفا وجوراً ·

وكان السبب المباشر لغضب الواثق بالله على الكتاب انه سأل ندماءه ذات ليلة عن سبب نكبة البرامكة · فقال احدهم ان الخليفة هارون الرشيد اشترى جارية بمائة الف دينار · فاستكثر وزيره يحيى بن خالد هذا المبلغ واخبر الرشيد انه لا يقدر على هذا المال ، فغضب وقال لابد منه · فارسل يحيى المبلغ بالدراهم ليستكثره الرشيد · وبالفعل امر الرشيد برد الجارية ، الا انه

اوعز بحفظ المال ببيت مال خاص به · ثم اخذ في البحث عن الاموال فوجد ان البرامكة قد فرطوا بها · وكان اعتاد ان يحضر مجلس الرشيد احد الندماء يعرف بابي العود ، فأمر له الخليفة يوما بثلاثين الف درهم ، فماطله يحيى · فاحتال ابو العود في تحريض الرشيد عليه ، وقد شاع انه قد تغير على البرامكة ، فانشده ذات ليلة قول عمر بن ابي ربيعة :

وعدت هند وما كانت تعد
ليت هندأ انجزتنا ما تعد

واستبدت مرة واحدة
انما العاجز من لا يستبد

فلما علم يحيى بذلك حاول ان يسترضي ابا العود باعطائه المبلغ الذي امر له الرشيد به ، واضاف اليه عشرين الف درهم من عنده · الا ان الرشيد جد في امر البرامكة حتى أخذهم (٣٦) ·

فقال الواثق بالله : صدق والله جدي انما العاجز من لا يستبد · واخذ في ذكر الخيانة وما يستحقه اصحابها · ولم يمض غير اسبوع واحد حتى امر بحبس عدد من الكتاب وضربهم . والزمهم اموالا كثيرة قارب مجموعها الفي الف دينار ، سوى ما ما اخذه من العمال بسبب عمالاتهم · وجاء في الطبري انه اخذ من احمد بن اسرائيل ثمانين الف دينار وامر بضربه ، فضرب فيما قيل نحوأ من الف سوط · واخذ من سليمان بن وهب اربعمائة

(٣٦) مفصل الخبر في الطبري ٩/١٢٦ـ١٢٧ ، وتجارب الامم ٦/٥٢٧ـ٥٢٨ ، والكامل ٧/١٠ـ١١ ·

الف دينار ومن الحسن بن وهب اربعة عشر الف دينار ، واخذ من احمد بن الخصيب وكتابه الف الف دينار ، ومن ابراهيم بن رباح وكتابه مائة الف دينار ، ومن نجاح بن سلمة ستين الف دينار ، ومن ابي الوزير مائة الف دينار واربعين الف دينار (٣٧) . وذكر مثل ذلك مسكويه وابن الأثير ، سوى ان مسكويه ذكر ان مجموع ما صودر من الحسن بن وهب وابي الوزير هو مائتا الف دينار ، اي بزيادة ستة واربعين الف دينار . عما ذكره الطبري وابن الأثير (٣٨) .

اما اليعقوبي فيقول عن هذه المصادرة ان الواثق بالله رفع اليه ان احمد بن الخصيب قد حاز اموالا عظيمة فسخط عليه وقبض امواله واموال اخيه ابراهيم وعذبا وعذبت امهما ، كما ان الواثق بالله سخط على ابراهيم بن رباح الذي ولاه ديوان الضياع ، وامر بقبض ضياعه وامواله (٣٩) . ولم يذكر المبالغ التي صودرت منهم .

وقيل ان الذي دفع الواثق بالله الى القبض على احمد بن الخصيب وسليمان بن وهب ومصادرتهما انه غنى ذات ليلة هذا الصوت :

من الناس انسانان ديني عليهما
مليئان لو شاءا لقد قضياني

خليلي اما ام عمرو فمنهما
واما عن الاخرى فلا تسلاني

---

(٣٧) الطبري ٩/١٢٥ .
(٣٨) تجارب الامم ٦/٥٢٨ ، والكامل ٧/١٠
(٣٩) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨١ .

فدعا خادما لأبيه المعتصم بالله ، وقال له : انـي سمعت ابـي يتمثل بهذين البيتين وينظر اليك ، فمن اللذان كان يعني بهما ؟ فاخبره الخادم ان اباه وقف على خيانة احمد بن الخصيب وسليمان بن وهب بمبلغ من المال ، وكان يبغي الايقاع بهما . فبادر الواثق بالله الى القبض عليهما (٤٠) .

كما قيل ان الوزير بن الزيات هو الذي حرض الواثـق بالله على نكبتهما (٤١) . اذ كان قد صنع شعراً اوصله اليـــه على انه لبعض الشعراء وفيه اتهام ابن الخصيب وابن وهب بالخيانة في الاموال ، وجاء فيه :

وليت اربعة امر العباد معـــا
وكلهم حاطب في حبـل محتبل

هذا سليمان قد ملكت راحتـه
مشارق الأرض من سهل ومن جبل

خلافة قد حواها وحـده فمضت
احكامه في دماء القـــوم والنقل

وابن الخصيب الذى ملكت راحته
خلافة الشام والغازين والقتـل

فنيل مصر فبحر الشام قد جريا
بما اراد من الاموال والحلـل

---

(٤٠) الاغاني ٢٠/٢٦٨ .
(٤١) نفس المصدر / ٢٦٩ .

حوى سليمان ما كان الأمين حوى
من الخلافة والتبليغ بالأمـــل

واحمد بن الخصيب في امـــارته
كالقاسم بن الرشيد الجامع السيل

وفي آخر الشعر تحريض على الفتك بهما . كما فتك هارون الرشيد بالبرامكة بعد ان اساءوا استعمال سلطتهم . اذ جاء فيه :

سميت باسم الرشيد المرتضى فيه
قس الامور التي تنجي من الزلل

عث فيهم ما عاثت يـــداه معـــا
على البرامك بالتهديم للقلـــل

فلما وصل الشعر الى الواثق بالله غاظه ما جاء فيه وبلغ منه ، فأمر بالقبض عليهما • وكان سليمان بـــن وهب كاتب القائـــد التركي ايتاخ ، وابن الخصيب كاتب القائد اشناس • وكانا هذان القائدان التركيان قد شددا قبضتهما على شؤون الدولة ممـــا فسح المجال لكاتبيهما استغلال مركزيهما في احتواء الأموال بمختلف الأساليب • ومما يدل على ان الشعر المذكور من صنع ابن الزيات ان ابراهيم بن العباس الذي تصدى لهجائه وتتبع سقطاته . قال عندما قبض على الكاتبين المذكورين ، يخاطبه (٤٢) •

ايهآ ابا جعفر وللدهر كـــرا
ت وعمـــا يريـــب متســـع

(٤٢) الاغاني ٢٠/ ٢٧١ •

ارسلت ليثـا على فرائســـه

وانت منها فانظـر متى تقـع

لكنـــه قوتـه وفيـــك لــــه

وقد نقضـــت اقواته شـــبع

ولما هجا علي بن الجهم الوزيران ابن الزيات بقصيدته التي كان مطلعها :

لعائن الله موفرات مصبحات مهجرات

هم الواثق بالله بالفتك بوزيره ، الا ان اسحاق الموصلي الذي كان مقربا جداً من الخليفة شفع له . اذ قال للواثق بالله : أمثل ابن الزيات على خدمته وكفايته يفعل به هذا . وماجنى وما خانـك . وانما دلك على خونة اخذت ما اختانوه . وهذا هو ذنبه(٤٣) · فمحا بذلك ما كان في نفس الخليفة على وزيره ·

ويظهر أن حبس الكتاب ومصادرتهـم قوبلت بالرضـا مـن الناس ، فقد قال أحمد بن فنن(٤٤) ·

نزلت بالخائنين ســـنة ســـنة للناس ممتحنـه

سوغت ذا النصح بغيته وازالت دولـة الخونـه

وترى اهل العفاف بهـا وهـــم في دولـة حسنة

وقد تولى حبس الكتاب ومصادرتهم صاحـب حرس الخليفـــة الأمير اسحاق بن يحيى (٤٥) · ويفهم من خبر اورده بن الطقطقي ان

---

(٤٣) نفس المصدر / ٢٧٢ ·

(٤٤) نفس المصدر / ٢٧١ ·

(٤٥) الطبري ٩/١٢٥ ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٥٦ ·

عدداً منهم لبث في السجن مطالبا بالأموال طيلة عهد الواثق بالله · وهم ابن المدبر وسليمان بن وهب وأحمد بن اسرائيل · فلما جاءهم نبأ موت الواثق بالله هربوا من السجن ليلاً (٤٦) · الا ان الطبري يقول ان الواثق بالله لما امر بحبس سليمان بن وهب واخذه بمائتي الف دينار ادى منها مائة الف وسأل ان يؤخذ بالباقي عشرين شهراً فاجابه الخليفة الى طلبه وامر بتخلية سبيله ورده الى كتابة ايتاخ(٤٧) · علما انه سبقت الاشارة الى ان سليمان بن وهب قد اخذ منه اربعمائة الف دينار ، مما يرجح انه قد صودر اكثر من مرة ·

وتعتبر مصادرة الكتاب من مظاهر حكم الواثق بالله البارزة . ويظهر انه اتخذها وسيلة لمعاقبة الكتاب والعمال · الا انها اصبحت من بعده في عهد اخيه المتوكل على الله ، مصدراً مهما من مصادر ايرادات بيت المال ·

٥ ـ وفاة الواثق بالله :

توفي الواثق بالله بالقصر الهاروني في سامرا يوم الاربعاء لست ليال بقين من ذي الحجة من سنة ٢٣٢هـ · ويتفق معظم المؤرخين على ان سبب وفاته اصابته بعلة الاستسقاء ، وانه عندما اشتدت علته حفر له في الأرض حفير كالتنور ثم سخن بالحطب الطرفاء وصير فيه مراراً ، فوجد لذلك راحة · وطلب في اليوم التالي زيادة

---

(٤٦) الفخري / ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ·

(٤٧) الطبري ٩/ ١٤٥ ، والكامل ٧/ ٢٩ ·
والكامل ٧/ ٢٩ ·

تسخينه وبعد فيه اكثر من اليوم الأول فحمى عليه . وحمل عنه في محفة فمات على اثر ذلك (٤٨) .

وعندما اشتد المرض على الواثق بالله ، وصل خبر مرضه الى مكة قبل موسم الحج ، فوجه واليها الى سامرا بماء زمزم وخلوق من خلوق الكعبة (٤٩) . وذلك لاستخدامها في غسل الخليفة وتجهيزه عند وفاته . وكان الواثق بالله امر قاضي القضاة احمد بن ابي دواد ان يصلي بالناس يوم الأضحى ، فصلى بهم يوم العيد ، لأنه لم يقدر على الحضور الى المصلى لشدة علته . وقد دعا ابن ابي دواد للخليفة فقال : اللهم اشفه مما ابتليته (٥٠) .

وجاء في الطبري انه لما اعتل الواثق بالله علته التي مات فيها امر باحضار المنجمين فاحضروا ، وكان ممن حضر الحسن بن سهل والفضل بن اسحاق الهاشمي ، واسماعيل بن نوبخت، ومحمد بن موسى الخوارزمي ، وعامة من ينظر في النجوم . فنظروا في علته ونجمه ومولده فقالوا : يعيش دهرا طويلا . وقدروا له خمسين سنة مستقبلة . فلم يلبث الا عشرة ايام حتى مات (٥١) .

وقيل انه لما احتضر جعل يردد هذين البيتين :

الموت فيه جميع الناس مشترك
لا سوقة منهم تبقى ولا ملك
ما ضر اهل قليل في تفاقرهم
وليس يغني عن الاملاك ما ملكوا

---

(٤٨) الطبري ٩/١٥٠ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٣ ، وتجارب الامم ٦/٥٣٥

(٤٩) المعرفة والتاريخ ١/٢٠٩ .

(٥٠) مروج الذهب ٤/٨٤ .

(٥١) الطبري ٩/١٥١ .

وامر بالبسط فطويت ، والصق خده بالأرض ، وجعل يقول : يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه ، يكررها الى ان مات(٥٢) وكان يقول في علته : لوددت اني اقلت العثرة ، واني حمال احمل على رأسي ٠ وقيل له في البيعة لابنه ، فقال : لا يراني الله أتقلدها حياً وميتاً (٥٣) ٠

وحضر عند وفاته جماعة من الهاشميين ، ومحمد بن عبدالملك الزيات ، واحمد بن ابي دواد ، وعمر بن فرج الرخجي ، فلم يشعروا بموته حتى ضرب بوجهه المحنة (٥٤) ٠ ويقال انه لما سجى عند وفاته وشغل المجتمعون حوله بأمر بيعة خلفه ، تسلل جرذ من البستان وأكل احدى عينيه(٥٥) ٠

ومات الواثق بالله ومجموع ما في بيت المال من العين خمسة آلاف الف دينار ومن الورق خمسة عشر الف الف درهم(٥٦) ٠ وخلف من الاولاد الذكور خمسة هم : محمد الذي تولى الخلافة بعد المعتز بالله ولقب بالمهتدي بالله ، وابراهيم ابو اسحاق ، ومحمد ابو اسحاق ، وابو القاسم عبدالله الذي التحق بابن الليث الصفار لما قتل اخوه المهتدي بالله ، وابو العباس احمد وكان عالما فاضلا ومن البنات اثنتان هما : العباسة وقد تزوجها المستعين بالله ، وعائشة وتزوجها المستعين بالله ايضا لما ماتت اختها (٥٧) ٠

---

(٥٢) الكامل ٧/٢٩ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٥٥ ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٦٣ ٠

(٥٣) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٣ ٠

(٥٤) الكامل ٧/٣٠ ، وتاريخ بغداد ١٤/٢٠ ، ونشوار المحاضرة ٢/٧٣ــ٧٤ ٠

(٥٥) الكامل ٧/٣٠ ، وتاريخ بغداد ١٤/٢٠ ، ونشوار المحاضرة ٢/٧٣ــ٧٤ ٠

(٥٦) الذخائر والتحف /٢١٨ ٠

(٥٧) العقد الفريد ٥/١٢٢ ، والذهب المسبوك / ٢٢٥ ، والكامل /٣١ ، والعقد الفريد ٥/١٢٢ ، وتجارب الامم ٦/٥٣٥ ٠

وقد اختلف المؤرخون في عمره عند وفاته ، اذ يذكر اليعقوبي انه توفي وعمره اربع وثلاثون سنة ، ويتردد المسعودي فيذكر مرة ان عمره اربع وثلاثون سنة ، ومرة اخرى سبع وثلاثون سنة وستة اشهر ، ويفعل مثله الطبري وابن الأثير فيقولان كان عمره اثنتين وثلاثين سنة وقيل ستا وثلاثين سنة . واحتسبه ابن عبد ربه ستا وثلاثين سنة واربعة اشهر وايام ، واعتبره مسكويه ستا وثلاثين سنة ، ويقول ابن دحية انه توفي وله اثنتان واربعون سنة (٥٨) . ولاشك في ان هذا الاختلاف ناشىء عن اختلافهم في تاريخ مولده . وقد سبق ان اشرنا الى ان ابن عبد ربه والسيوطي يذكر ان مولده كان لعشر بقين من شعبان من سنة ١٩٦ ويؤيد الخطيب البغدادي سنة ميلاده المذكورة (٥٩) . واذا ما اخذنا هذا التاريخ اساسا للاحتساب كان عمره ستا وثلاثين سنة واربعة اشهر واياما ، وهو ما ذكره ابن عبد ربه . على ان الخطيب البغدادي يروي عن احمد بن الواثق بالله انه قال : بلغ ابي ثمانيا وثلاثين سنة (٦٠) . وقد دفن الواثق بالله بسامرا ، وكان اخوه جعفر قد صلى عليه عند دفنه (٦١) .

اما مدة خلافته فقد اتفق المؤرخان اليعقوبي والمسعودي . والاديب ابن عبد ربه على انها كانت خمس سنوات وتسعة اشهر وثلاثة عشر يوماً (٦٢) . ويقرب منهم الطبري وابن الأثير اللذان

---

(٥٨) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٣ ، ومروج الذهب ٤/٦٥ . والطبري ٩/١٥١ . والنبراس /٧٥ .

(٥٩) تاريخ بغداد ١٤/١٦ .

(٦٠) نفس المصدر /٢٠ .

(٦١) تاريخ بغداد ١٤/٢١ ، والعقد الفريد ٥/١٢٢ .

(٦٢) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٣ ، ومروج الذهب ٤/٦٥ ، والعقد الفريد ٥/١٢٢ .

يتفقان معهم في عدد السنوات والأشهر ويختلفان في عدد الايـام فاحتسباها خمسة ايام بدلا من ثلاثة عشر (٦٣) • وجاء في تجارب الأمم ان مدة خلافته خمس سنوات ـ اما ابو المحاسن ، وهو شديد الاهتمام باحتساب هذه التواريخ . فقد احتسب مدة خلافته خمس سنوات وستة اشهر (٦٤) •

ونظرا لاتفاق المؤرخين المذكورين في تاريخ مبايعة الواثـق بالله بالخلافة وتاريخ وفاته ، فقد كان من الطبيعي ان يتفقوا في مدة خلافته • ولاندري ما اذا كانت الفروق بين ما ذكروه نتيجـــة وهم او خطأ حسابي • لأن المدة بين تاريخ مبايعته وتاريخ وفاته هي خمس سنوات وتسعة اشهر وخمسة ايام . وهي المدة التي ذكرهـــا الطبري وابن الأثير •

وكان الواثق بالله نوى اداء فريضة الحج في موســـم السـنة ٢٣١هـ . واستعد لذلك . ووجه عمر بن فرج الرخجي الى اصلاح الطريق . فاخبره ان الماء قليل في هذا الموسم . فلم يخرج في تلك السنة (٦٥) • ومرض في السنة التالية في موسم الحج فعاقه ذلك عن عن الخروج . وادركته الوفاة في اواخر ذي الحجـــة مـــن الســنة نفسها •

---

(٦٣) الطبري ٩/١٥١ ، والكامل ٧/٣١ •
(٦٤) النجوم الزاهرة ٢/٢٦٢ •
(٦٥) الطبري ٩/١٤٠ •

الفصل الرابع

المتوكل على الله

ابو الفضل جعفر بن المعتصم بالله

١ ـ مبايعته :

توفي الواثق بالله ولم يكن قد عهد لأحد بعده بالخلافة • وكان قد قيل له في البيعة لابنه ، فقال : لا يراني الله اتقلدها حيا وميتاً (١) • وكان ابنه محمد صغير السن ، كما ان علاقته باخيه جعفر لم تكن ودية ، ولم يكن يتوسم فيه الكفاية لمنصب الخلافة • ويبدو ان اختلاف امهات الاخوين كان سبب النفرة والتباغض بينهما لأن ابناء العلات ـ اي ابناء الرجل من نسوة شتى يختلفون ويتباغضون عادة • وقد اذل الواثق اخاه في عهد خلافته ، مما ملأ نفس جعفر حقداً على اخيه وعلى رجاله •

عندما مات الواثق بالله حضر رجال الدولة الى دار الخلافة ، وعلى رأسهم الوزير محمد بن عبدالملك الزيات ، وقاضي القضاة

(١) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٣ •

احمد بن ابي دواد ، وابو الوزير احمد بن خالد ، وكبار القـــواد الاتراك ايتاخ ووصيف وبغا الكبير وغيرهم · فعزموا على مبايعة محمد بن الواثق بالله . فرأوه لا يزال صبيا صغيرا · وقد اعترض القائد وصيف بانه صغير لا تجوز معـــه الصلاة (٢) · فتناظـر الحاضرون فيمن يولونه الخلافة ، وذكروا عدة اسماء من امراء بني العباس · ثم اتفقوا على مبايعة جعفر اخي الواثق بالله · فلمـــا احضروه استقبله قاضي القضاة والبسه الطويلة وعممه وقبله بـين عينيه وسلم عليه بالخلافة · فبايعه الحاضرون (٣) · واول من بايعه القائدان وصيف وسيما المعروف بالدمشقي (٤) ·

وروى المتوكل على الله نفسه كيف تمت مبايعته ، قـال مـا خلاصته : احتجمت في اليوم الذي توفي فيه الواثق بالله وانا لا اعلم بوفاته ، فقالت لي امي امضي الى اخيك وعده في مرضه · فذهبت لزيارته ودخلت الدار وجلست بحيث كنت اجلس ، فسمعت حركة غير اعتيادية ، فنظرت من ثقب الباب فرأيت محمد عبدالملك الزيات وايتاخ ومعهما محمد بن الواثق يلبسانه الرصافية ، ولمـا بـدت كبيرة عليه ، قال احدهما : نعممه ، ثم قال فما نفعـل بجعفـر . فقال محمد بن عبدالملك : نقتله بالتنور ، وقال ايتاخ : بل ندعه في الماء البارد حتى يموت ولا يبين عليه اثر القتل · فغشي علي لمـا سمعته من عزمهما في امري · ثم لم يلبث ان حضر احمد بن ابـي دواد فدخل وتكلم معهما كلاما لم اسمعه لما كان فيــه مـن خـوف

---

(٢) الطبري ٩/١٥٤ . وتجارب الامم ٦/٥٣٦

(٣) نفس المصدرين السابقين ·

(٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٤ ·

وضعف • ثم نودي عليَّ فدخلت عليهم وجلا خائفـا ، الا ان ابن ابي دواد لقيني فقبل يدي وقادني الى السرير وقال لي : اصعد الى المكان فقد اهلك الله تعالى له • فلما صعــدت وجلست سـلم علي بالخلافة • وسلم علي بها محمد وايتاخ ايضا • واخذ ابن ابي دواد عليهما البيعة لي ، وادخل القواد والموال على مراتبهــم يسلمون ويبايعون • ثم علمت فيما بعد ان محمد بن عبدالملك وايتاخ كانا قد اتفقا على ما سمعته منهما ، ووكلا بباب الحجرة من يمنع دخول قاضي القضاة اليهما حتى يفرغا من تدبيرهما • فلما حضر القاضي هابه الموكلون بالباب ففسحوا له فدخل • فلما علم انصرافهما عن ابن الواثق بالله لصغر سنه ، تداول معهما فيمن يبايعون ، وذكروا بعض الاسماء ، ولما ورد اسمي قال ابن ابي دواد لهما : اصفقا على يدي فصفقا ، ثم ارسلوا الي فكان من الأمر ما كان • وبقي ما قاله محمد بن عبدالملك وايتاخ في نفسي فقتلتهما بما اعتزما قتلي به ، فقتلت ابن الزيات بالتنور ، وايتاخ بالماء البارد (٥) •

ولقب جعفر في اليوم التالي بالمتوكل على الله • وقد اراد ابن الزيات ان يلقبه بالمنتصر ، فقال ابن ابي دواد : لقد رأيت لقبـا موافقا هو المتوكل على الله • فوافق الخليفة عليه وامر ان يكتب به الى مختلف الولايات (٦) • وكانت نسخة الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر ـ ابقاك الله ـ امير المؤمنين اطال الله بقاءه ان يكون الرسم الذي يجري به ذكره على اعواد منابره وفي كتبه الى قضاته وكتابه وعماله واصحاب دواوينه وغيرهم من سائر من تجــري المكتبة بينه وبينه « من عبدالله جعفر الامام المتوكل على الله امير

(٥) كامل الرواية في الهفوات النادرة / ٣٦٢ ـ ٣٦٥ •
(٦) الطبري ٩/١٥٥ ، والكامل ٧/٣٤ •

المؤمنين » فرأيك في العمل بذلك واعلامي بوصول كتابي اليك موفقا ان شاء الله » (٧) ٠

وهناك رواية تقول ان سبب هذا اللقب ان المتوكل على الله رأى في منامه قبل ان يستخلف كأن سكرا ينزل عليه من السماء مكتوبا عليه « جعفر المتوكل على الله » ، فقص ذلك على اصحابه . ففسروه بانه سينال الخلافة (٨) ٠ واذا صح هذا الخبر فان حلم المتوكل على الله كان انعكاسا لما يحز في نفسه من الحجر والحرمان وما يقاسيه من سوء معاملة اخيه الواثق بالله الذي يرفل في نعمة الخلافة وقوة السلطان ، مما جعله يتمنى في قرارة نفسه ان يكون خليفة مكان اخيه وله لقب الخلافة مثله ٠ او ان يكون الخبر موضوعا اصلا للايحاء بان المتوكل على الله كان موعودا بهذا اللقب الذي هو جدير به ٠

كان عمر المتوكل على الله يوم بويع ستا وعشرين سنة ، لأنه قد ولد بفم الصلح في شوال من سنة ٢٠٦ هـ (٩) ٠ الا ان الخطيب البغدادي يقول سمع المتوكل على الله يقول : ميلادي سنة ٢٠٧ هـ (١٠) ٠

وعندما تمت البيعة للمتوكل على الله امر للاتراك برزق اربعة اشهر ، وللجند والهاشميين ارزاق ثمانية اشهر (١١) ، وللمغاربة برزق ثلاثة اشهر فابوا ان يقبضوا فارسل اليهم من كان منكم مملوكا

---

(٧) الطبري ٩/١٥٥ ، وتجارب الامم ٦/٥٣٦ ٠
(٨) الطبري ٩/١٥٥ ، والكامل ٧/٣٤ ٠
(٩) الطبري ٩/١٥٥ ، ومروج الذهب ٤/٨٥ وفيه سبع وعشرون سنة ، وتجارب الامم ٦/٥٣٦ ٠
(١٠) الطبري ٩/٢٣٠ ، وتاريخ بغداد ٧/١٦٦ ٠
(١١) الطبري ٩/١٥٥ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٤ ، وتجارب الامم ٦/٥٣٦ ٠

فليمض الى القاضي احمد بن ابي دواد حتى يبيعه ومن كان حرا صيرناه اسوة بالجند . فرضوا بذلك . ثم اجروا مجرى الأتراك (١٢) .

ونقش على خاتمه عبارة « جعفر على الله يتوكل » (١٣) .

٢ ـ صفاته وسيرته :

هو أبو الفضل جعفر بن المعتصم بالله . وأمه ام ولد خوارزمية تركية يقال لها شجاع . وكان من سروات النساء سخاء وكرما (١٤) . ويقال انها كانت خيرة كثيرة الرغبة في عمل الخير وخلفت من العين خمسة الآف الف وخمسين الف دينار ومن الجوهر ما قيمته الف الف دينار (١٥) . وقد توفيت في المتوكلية في ربيع الآخر من سنة ٢٤٧ هـ . وصلى عليها حفيدها محمد المنتصر . ودفنت عند المسجد الجامع (١٦) .

اما صفاته الجسمية فقد وصف بانه كان اسمر رقيق البشرة يضرب الى الصفرة خفيف العارضين كبير العينين وسيما مهيبا . وكان الى القصر اقرب (١٧) .

وعندما تولى المتوكل على الله نهى عن الجدل والمناظرة وابطل المحنة . وقد ذكرنا ما قام به في هذا الباب بشيء من التوسع في

---

(١٢) الطبري ٩/١٥٥ .
(١٣) التنبيه والاشراف / ٣١٤ . والذهب المسبوك / ٢٢٥ وفيه «على الله توكلت»
(١٤) تاريخ بغداد ٧/١٦٦ .
(١٥) شذرات الذهب ٢/١١٧ .
(١٦) الطبري ٩/٢٣٤ . ومروج الذهب ٤/١١٨ .
(١٧) الطبري ٩/٢٣٠ . والتنبيه والاشراف / ٣١٣-٣١٤ . وتاريخ بغداد ٧/١٧٢ . وتجارب الامم ٦/٥٥٧ .

موضوع المحنة · وقد ابدى كثيراً من لين الجانب والاهتمام بشؤون الرعية · قال لابراهيم بن المدبر وهو احد اصحاب الدواوين : اذا خرج اليك توقيعي بما فيه مصلحة للناس ورفق للرعية فانفذه ولا تراجعني فيه ، واذا خرج اليك بما فيه حيف على الرعية فراجعني ، فان قابي بيدالله عزوجل (١٨) · وقال يزيد المهلبي : قال لي المتوكل على الله يامهلبي ان الخلفاء كانت تتصعب على الرعية لتطيعها وانا الين لهم ليحبوني ويطيعوني(١٩) · ومر المتوكل على الله يوماً بزرع لايزال اخضر لم يدرك وقت حصاده ، فقال : استأذنني عبيدالله بن يحيى في استفتاح الخراج وارى الزرع اخضر ، فمن اين يعطي الناس الخراج ؟ فقيل له ان هذا أضر بالناس فهم يقترضون ويتسلفون وينجلون عن اراضيهم وقد كثرت شكاياتهم · وعلم ان سبب ذلك هو المطالبة بالخراج في ابان النيروز ، ونظراً لمنع العرب كبس السنين باعتباره من النسيء الذي نهى الاسلام عنه ، تقدم النيروز حتى صار يقع في نيسان والزرع اخضر ، فطلب الى ابراهيم بن العباس ان يحسب الأيام بما يؤخر النيروز ، ففعل ذلك (٢٠) · ويبدو ان المتوكل على الله اراد تغيير موعد جباية الخراج بحيث يكون عند حصاد الزرع ، الا انه قتل قبل ان يتم تدبير ذلك ، ولم يحاول ان يتمه من جاء بعده من خلفاء سامرا حتى استخلف حفيده المعتضد بالله فأمر باصلاح التقويم بما اخر موعد الجباية وحقق ما كان حاوله جده ، اذ امر في سنة ٢٨٢هـ بالكتابة الى جميع العمال بترك افتتاح الخراج بالنيروز العجمي ، وتأخير ذلك الى

---

(١٨) تذكرة ابن حمدون / ١٠٥ ·

(١٩) تاريخ الخلفاء / ٣٥٢ ·

(٢٠) الاثار الباقية / ٣٢ ، والخطط المقريزية ١/٢٧٥ ·

اليوم الحادي عشر من حزيران . وسمي ذلك بالنيروز المعتضدي (٢١) .

لقد وصف المتوكل على الله بالكرم الزائد الذي يصل الى حد التبذير ، حتى قيل : ما اعطى خليفة شاعراً ما اعطى المتوكل على الله(٢٢) . فقد انشده علي بن الجهم شعره الذي مطلعه :

هي النفس ما حمّلتها تتحمل ... وللدهر ايام تجور وتعدل

وفي يد المتوكل جوهرتان فأعطاه التي في يمينه ، فأطرق ابن الجهم متفكراً في شيء يقوله ليأخذ التي في يساره . ففطن وقال : مالك متفكراً ، انما تفكر فيما تأخذ به الأخرى . خذها لا بورك لك فيها (٢٣) . ولكثرة ما انفقه المتوكل على الله ايام خلافته ، قال المسعودي : « وقد قيل انه لم تكن النفقات في عصر من الأعصار ولا وقت من الأوقات مثلها في ايام المتوكل على الله ... مع كثرة الموالي والجند والشاكرية ودرور العطاء لهم ، وجليل ما كانوا يقبضون من الجوائز والهبات » (٢٤) . وقد انفق على اعذار ابنه المعتز ستة وثمانين الف الف درهم (٢٥) . ووصفت ايامه بانها كانت حسنة فاخرة كثيرة الخير (٢٦) . وانها « كانت احسن ايام وانضرها من استقامة الملك وشمول الناس بالأمن والعدل » (٢٧) .

---

(٢١) الطبري ١٠/٣٩ ، والكامل ٧/٤٦٩ .
(٢٢) تاريخ الخلفاء / ٣٥٠ .
(٢٣) العقد الفريد ١/٣٢١ .
(٢٤) مروج الذهب ٤/١٢٢ .
(٢٥) الديارات / ١٥٥ .
(٢٦) مشاكلة الناس لزمانهم / ٣٢ .
(٢٧) مروج الذهب ٤/٨٦ .

ومما له علاقة بكثرة الانفاق في عهد المتوكل على الله اهتمامه بالعمران وولعه ببناء القصور • فقد بنى ما ينوف على خمسة عشر قصراً انفق في بنائها مبالغ طائلة • وقد احدث المتوكل على الله بناء لم يكن الناس يعرفونه ، وهو المعروف بالحيري نسبة الى مدينة الحيرة ، فبنى الناس جميعا بسامرا هذا البناء • وقد تكلمنا عن الماحوزة شمالي سامرا اعظم اعماله العمرانية وكان يسميها المتوكلية . وكنا افردنا لها فصلا خاصاً بعمرانها •

وكان المتوكل على الله قد حاول اكثر من مرة ، قبل ان يؤسس مدينة المتوكلية ، ان ينتقل عن سامرا الى مدينة اخرى • ولا ندري ما اذا كان بدافع الرغبة في التحرر من نفوذ القواد الاتراك المعارضين له ، او طلبا لجو يلائم صحته ، او انه كان يريد ان تكون عاصمة تنسب اليه - ولعل ما يؤيد السبب الأخير بناؤه مدينة المتوكلية وانتقاله ودواوين الدولة اليها - وكان قبل ذلك اراد الانتقال الى أصبهان بعد ان سمع عن طيب هوائها ، فبعث جماعة من المهندسين لتخطيط القصور له ولخواص اصحابه ، الا ان اهلهما فزعوا الى وصيف القائد وسألوه التلطف في فسخ عزمه فاقنعه بانها لا تتسع له ، واذا ما سكنها ضاق الأمر على الناس في الميرة ، مما اثناه عن عزمه ، فخرج الى دمشق لأنه قيل له ان هواءها مقارب لهواء اصبهان (٢٨) •

عزم المتوكل على الله على المقام بدمشق لما وصف له من فضائلها وطيبها . فأمر بالبناء فيها ونقل الدواوين اليها ، الا انه تركها بعد اقام فيها شهرين وبضعة ايام فعاد الى سامرا محتجاً ببرد هواء دمشق

(٢٨) الاعلاق النفيسة / ١٥٦ •

وثقل مائها وكثرة رياحها (٢٩) • وهناك رأي يقول انه ترك دمشق لأن مناوئيه من الاتراك دبروا فيها وقيعة تستهدف قتله (٣٠) •

الى جانب هذه النواحي الايجابية من سيرة المتوكل على الله وسلوكه كخليفة هناك نواح سلبية ضرب فيها امثلة سيئة من تصرفاته • فقد اشتد على العلويين • كما اساء الى اهل الذمة ولا سيما النصارى منهم ، فحدد نوع لباسهم وركوبهم ونهى عن الاستعانة بهم في اعمال الدولة ودواوينها • واوامر اخرى اتخذها بشأنهم بكتاب وجهه الى الولايات لمعاملتهم بموجبه ، ومعاقبة من لا يلتزم بها • ومن الممكن تفسير موقف المتوكل على الله من العلويين ومن اهل الذمة ، بعاملين اتصف بهما ، اولهما تعصبه الديني الشديد ، والآخر حسده للعلويين لما يتمتعون به وبخاصة أئمتهم ، من ولاء مطلق من اعداد غفيرة من الرعية ، وحسده النصارى لأنهم كانوا يعيشون حياة مرفهة نسبيا ، ومنهم معظم الأطباء المشهورين وكثير من الكتاب المتقدمين •

وقد عرف عن المتوكل على الله انه متقلب المزاج يرضى ويغضب بسرعة ولاتفه الأسباب • وكان يتشبه في الغضب بخلق الجبابرة (٣١) • وانه حقود قاس في غضبه ، يحقد على من يسيء اليه ، ويحسد كل ذي نعما مهما كان نوعها • ومن مظاهر حقده انه امر بقتل محمد بن عبدالملك الزيات الوزير الكفء بعد تعذيبه ، لأن ابن الزيات لم يكن يحسن استقباله عندما كان يراجعه في ايام اخيه الواثق بالله • وموقف ابن الزيات هذا تجاهه ناشيء من ان

---

(٢٩) الطبري ٩/٢١٠ ، وتجارب الامم ٦/٥٥٢ •

(٣٠) مروج الذهب ٤/١١٥-١١٦ •

(٣١) شذرات الذهب ٢/١١٥ •

الخليفة الواثق بالله كان لا يود اخاه ، دائم الغضب عليه . ومن الطبيعي ان يحذو وزيره حذوه والا عرض نفسه لغضب الخليفة ونقمته . وسبق ان ذكرنا ان المتوكل على الله قد كان قد اضمر الشر لابن الزيات وللقائد ايتاخ لأنه اعتقد بانهما عارضا ترشيحه للخلافة واتفقا على قتله .

ولم يسلم من سخط المتوكل على الله وغضبه قاضي القضاة احمد ابن ابي دواد صاحب الفضل الأول في توليه الخلافة ، والذي كان شديد العطف عليه ايام اخيه الواثق بالله ، وكثيراً ما كان يلتمس الخليفة ليحسن معاملة اخيه ويرضى عنه . فقد امر في سنة ٢٣٧ هـ بمصادرة ضياعه ، وحبس ابنه ابا الوليد محمداً مع مصادرة امواله واموال اخيه ، رغم ان ابن دواد كان طريح الفراش وقد اصيب بالفالج منذ سنة ٢٣٣هـ . وليس هناك من سبب واضح لسخطه عليه وعلى اولاده . ويستبعد ان يكون السبب هو ان ابن ابي دواد من المعتزلة وقد تزعم قضية المحنة ، لأن سخط المتوكل على الله جاء بعد ابطال المحنة ببضعة سنوات . مما يجعلنا نميل الى انه كان يحسده لما صار اليه من مكانة مرموقة في الدولة ، وانه كان موضع ثقة ابيه المعتصم بالله واخيه الواثق بالله واحترامهما ، كما انه نال بمواقفه النبيلة احترام الناس وتقديرهم .

وامر المتوكل على الله بمصادرة عدد من الوزراء وكبار الكتاب، ويبدو ان الدافع الرئيس لذلك هو رغبته في احتواء اموالهم لسد نفقاته الواسعة(٣٢) .

ولعل ضخامة اموال رجال الدولة وكتابها وكثرة املاكهم وتعدد

---

(٣٢) الطبري ٩/٢١٦ ، وتجارب الامم ٦/٥٥٣ .

ضياعهم وسعة انفاقهم ، مما لفت نظر المتوكل على الله بانها جمعت بطرق غير مشروعة فاراد عقوبتهم بمصادرتها منهم بحجج مختلفة .

ولم يكن احد ممن سلف من خلفاء بني العباس قد اظهر في مجلسه العبث والهزل ، والمضاحك ، حتى جاء المتوكل على الله فكان اول خليفة أظهر ذلك ، حتى ذاعت هذه الامور في الناس وجروا فيها(٣٣) . فكان يجمع السماجة ــ وهم الممثلون الهزليون ــ بين يديه فيحاكون حركات بعض الناس ويمثلونهم في اصواتهم ، ويأتون بحركات مضحكة عنهم تؤنسه (٣٤) . فكان السابق الى ذلك والمحدث له فاتبعه فيه اغلب خواصه واكثر رعيته(٣٥) .

٣ ــ ولاية العهد :

لعل ما حدث اثر وفاة الواثق بالله من خلاف حول اختيار خليفة له ، لأنه لم يعهد لأحد من بعده ، قد دفع المتوكل على الله الى ان ينظم ولاية العهد في حياته . فعقد في سنة ٢٣٥هـ البيعة لثلاثة من ابنائه هم محمد وسماه المنتصر ، وابو عبدالله ــ ويختلف في اسمه فيقال محمد او الزبير او طلحة ــ ولقبه المعتز ، وابراهيم ولقبه المؤيد . وعقد لكل منهم لوائين احدهما اسود وهو لواء ولاية العهد والآخر ابيض وهو لواء العمل . وضم الى كل واحد منهم عدداً من الولايات ، فاقطع المنتصر افريقية والمغرب وجميع الثغور وبعض الولايات الشرقية . واقطع المعتز خراسان وطبرستان والري وارمينية واذربيجان . اما المؤيد فقد اقطعه جند دمشق وجند فلسطين . كما جعل لكل منهما كاتبا خاصا ، فجعل احمد بن

---

(٣٣) مشاكلة الناس لزمانهم / ٣٢ .
(٣٤) الديارات / ٣٩ .
(٣٥) مروج الذهب ٨٦/٤ .

الخصيب كاتبا للمنتصر ، واحمد بن اسرائيل كاتبا للمعتز ، ومحمد بن علي المعروف كاتبا للمؤيد (٣٦) • واحضر المتوكل على الله القضاة ووجوه الناس من البلدان الى سامرا لبيعة ولاة العهد ، وبعث خواصه الى الأمصار ليأخذوا البيعة لهم ، ووزع الجوائز ، واعطى الجند ارزاق عشرة اشهر (٣٧) • وكتب بولاية العهد كتابا مفصلا باربع نسخ وقعها الشهود بحضرته وامر ان تحفظ نسخة منها في خزانته ، وعند كل واحد من اولياء العهد نسخة (٣٨) •

سار المتوكل على الله في امر ولاية العهد على نهج جده هارون الرشيد الذي عهد لأبنائه الأمين والمأمون والمؤتمن بكتاب موثق اودعه في البيت الحرام سنة ١٨٦هـ وجعلهم متعاقبين في تولي الخلافة (٣٩) • ولم يتعظ بما نشب من الخلاف بين الأمين والمأمون وما ترتب عليه من نتائج خطيرة وكيف ان المأمون عهد بالخلافة من بعده لأخيه ابي اسحاق دون القاسم المؤتمن الذي نص عليه عهد الرشيد • كما يلاحظ ان كتاب المتوكل على الله تجاهل بقيسة ابنائه ، وكان فيهم طلحة الملقب بالموفق الذي اثبتت الحوادث فيما بعد انه اكفأ اولاده واقدرهم •

٤ ـ مؤامرة قتله :

انتهت حياة المتوكل على الله بعد حكم دام خمسة عشر عاما ، وهو اول خليفة يقتل في سامرا • ويمكن حصر الأسباب التي ادت

---

(٣٦) الطبري ٩/١٧٥ ـ ١٧٦ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٧ ، والكامل ٧/٤٩ـ٥٠
(٣٧) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٧ ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٨٦ •
(٣٨) نص الكتاب في الطبري ٩/١٧٦ ـ ١٨٠ •
(٣٩) الطبري ٨/٢٧٨ ، ومروج الذهب ٣/٣٦٤ ، والكامل ٦/١٧٣ •

الى قتله بسببين رئيسين اولهما سوء علاقته بابنه الكبير وولي عهده محمد المنتصر ، وثانيهما سياسته تجاه الاتراك المتغلبين على شؤون الدولة ٠

كنا ذكرنا ان المتوكل على الله عقد في سنة ٢٣٥هـ لثلاثة من بنيه وهم محمد المنتصر والمعتز والمؤيد ٠ ورغم انه قدم المنتصر على اخويه في ولاية العهد فانه كان اكثر ميلا الى المعتز بتأثير امه قبيحة التي كان المتوكل على الله يفضلها على نسائه ، وعندما وزع امارات ولايات الدولة واقاليمها خص المعتز بالمهمة منها ٠ ثم اضاف اليه في سنة ٢٤٠هـ خزن الاموال في جميع الولايات ودور الضرب اسمه على الدراهم (٤٠) ٠ فكان ذلك من حملة ما آثار حفيظة المنتصر على ابيه ٠ واخذ المتوكل على الله ينتقص من شأن المنتصر ويعبث به ويأمر بصفعه ، وقال له مرة لقد سميتك المنتصر فسماك الناس لحمقك المنتظر ، ثم صرت الآن المستعجل ٠ وجاهر في احد مجالسه بخلعه من ولاية العهد ٠ ويقال انه عزم على ان يفتك به ، ويقتل وصيفا وبغا (٤١) ٠

اما علاقة المتوكل على الله بقادة الاتراك فقد كانت مشوبة بالحذر وعدم الثقة ٠ لأنهم قد صارت اليهم رياسة معظم المراكز الحيوية في الدولة (٤٢) ٠ فأن ايتاخ بقي في عهده محتفظا بمراتبه في الجيش وادارة الاموال والبريد والحجابة وشؤون دار

---

(٤٠) الطبري ٩/١٧٦ ، والكامل ٧/٥٠ ٠
(٤١) الطبري ٩/٢٢٥ ، والكامل ٧/٩٧ و١٠٤ ٠
(٤٢) التنبيه والاشراف / ٣١٣ ٠
بدلا من الجيش ، ويظهر انه الاصح ، لان الطبري سبق ان قال في ص :

الخلافة (٤٣) • ولذلك فان ايعاز المتوكل على الله بقتله في سنة ٢٣٥هـ ومحاولة الفتك بوصيف وبغا ، يدل على عزمه اضعاف شأنهم وسلطانهم • الا ان هذه السياسة جعلت القواد ينقمون عليه ، واخذوا يستغلون سوء علاقته بابنه المنتصر ، ويحرضون الأخير على الفتك بابيه وتولي الخلافة مكانه ، وسبق لهم ان قرروا قتله عندما انتقل الى دمشق (٤٤) •

وكان بغا الصغير قد استوحش من المتوكل على الله ومال الى المنتصر الذي كان يعمل على اجتذاب القواد الاتراك اليه واستمالتهم ، فلا يُبعد المتوكل على الله احداً منهم الا واستماله اليه ، وكان اوتامش غلام الواثق بالله يعاونه في ذلك (٤٥) • وهكذا كان المتوكل على الله والموالون له وعلى رأسهم الوزير عبدالله بن يحى ، والفتح بن خاقان ، يسعون للفتك بالمنتصر ووصيف وبغا وغيرهما من قادة الاتراك • كما واعد المنتصر القواد الاتراك وعلى رأسهم وصيف على قتل الخليفة • فكان السبق لتدبير الاتراك • وكان السبب المباشر لقتله انه كان امر بانتزاع ضياع وصيف باصبهان والجبل واقطاعها للفتح بن خاقان (٤٦) • فلما بلغ ذلك وصيفا ثارت ثائرته واستعجل جماعته في التخلص من الخليفة • فهيأ بغا الصغير باغر التركي وآخرين من

---

(٤٣) الطبري ٩/١٦٧ ، والكامل ٧/٤٣ ، وتجارب الامم ٦/٥٤٢ وفيه الحبس ١٦٦ ، وكان من اراد المعتصم والواثق قتله ، فعند ايتاخ يقتل وبيده يحبس •

(٤٤) مروج الذهب ٤/١١٥ •

(٤٥) مروج الذهب ٤/١٢١ •

(٤٦) الطبري ٩/٢٢٢ ، وتجارب الامم ٦/٥٥٤ •

الجند الاتراك ممن يثق بهـم ، فاقتحموا مجلس المتوكـل على الله وقتلوه ، وقتلوا معه الفتح بن خاقان ·

وحمل بغا الصغير الخبر الى المنتصر الذي ارسل الى وصيف ان الفتح بن خاقان قد قتل ابي فقتلته ، وامره ان يذيـع ذلـك فـي اصحابه · وحضر القواد الموالون للمنتصر واصحابهم وبايعـوه بالخلافة · وعندما حضر الناس من القواد والكتاب والوجوه والجند صباح اليوم التالي الى الجعفرية للبيعة العامة ، قرأ عليهم احمد بن الخصيب كتابا يخبر فيه عن المنتصر ان الفتح بن خاقان قتـل المتوكل على الله فقتله به ، فبايع الحاضرون (٤٧) ·

ويقال ان خبر التآمر على المتوكل على الله كان قد بلغ مسامع عبيدالله بن يحيى فشاور الفتح بن خاقان في احاطة الخليفة بما يدبر له . واتفقا على كتمان الأمر عنه لما رأيا من سروره في ذلك اليوم وكرها ان ينغصا عليه سروره ، وانهما واثقان بانه لا يستطيع احد ان يتجاسر على مثل هذا العمل (٤٨) · الا ان مما يضعف هـذا القول ان سير الوقائع يدل على انهما لم يكونا يعلمان شيئا عـن المؤامرة ، اذ لو علما بها لاتخذا من وسائل الحيطة مـا يسـتلزم لحماية مجلس الخليفة وتشديـد حراسته وافشـال المؤامـرة · ويروى ان المتوكل على الله رأى قبيل وفاته حلمـا تشاءم منـه ، اذ رأى كأن دابة تكلمه ، فسال جلساءه عن تفسيره ففسره لـه احدهم بشيء آخر ، ثم قال لبعض من حضر : لقد حان رحيله ،

---

(٤٧) الطبري ٩/٢٣٤ ، وتجارب الامم ٦/٥٥٧ ·
(٤٨) الطبري ٩/٢٢٨ ، وتجارب الامم ٦/٥٥٦ ·

لقوله تعالى « واذا وقع القول عليهم اخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم » (٤٩) ٠

وهناك شبه اتفاق في اليوم الذي قتل فيه وهو ليلة الاربعاء لأربع خلون من شوال ، وقيل ليلة الخميس (٥٠) ٠ اما مدة خلافته فقد كانت اربع عشرة سنة وعشرة اشهر وبضعة ايام (٥١) ٠ ويقال انه لم يكن المتوكل على الله يوما اشد سرورا منه في اليوم الذي قتل فيه . فلقد اصبح في هذا اليوم نشيطاً فرحا مسروراً ، وقال : كأني اجد حركة الدم ، فاحتجم في ذلك اليـوم ، واحضر الندمـاء والملهين ، فاشتد سروره وكثر فرحه (٥٢) ٠ وعند دفنه لف هـو والفتح بن خاقان في بساط ودفنا بدمائهما من غير تغسيل في قبر واحد (٥٣) ٠ وكان دفنه في قصره المعروف بالجعفري (٥٤) ٠

---

(٤٩) شذرات الذهب ٢/١١٦ ٠ والآية رقم (٨٢) من سورة النمل ٠
(٥٠) الطبري ٩/٢٣٠ ، ومروج الذهب ٤/١١٨ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٢ ، والكامل ٧/١٠٠ ٠
(٥١) الطبري ٩/٢٣٠ ، ومروج الذهب ٤/٨٥ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٢ ، والكامل ٧/١٠٠ ٠
(٥٢) مروج الذهب ٤/١٢١ ٠
(٥٣) النجوم الزاهرة ٢/٣٢٤ ٠
(٥٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٢ ٠

الفصل الخامس

المنتصر بالله

ابو جعفر محمد بن جعفر المتوكل على الله

١ ـ مبايعته :

سبق ان ذكرنا ان الخليفة المتوكل على الله كان قد عقد البيعة بولاية العهد لثلاثة من بنيه ، اولهم محمد وسماه المنتصر . واقطعه اجزاء معينة من المملكة • كما اشرنا الى انه غضب عليه مؤخراً للاسباب التي ذكرناها ، بحيث اخذ المتوكل على الله يجاهر ببغضه لابنه المنتصر ، وقد اشهد جماعة الحاضرين في مجلسه على خلعه من ولاية العهد (١) • مما دفع المنتصر الى الاتفاق مع عدد من قادة الاتراك الناقمين على ابيه ، على العمل للفتك به والتخلص منه • وعندما اتم المتآمرون قتل المتوكل على الله خرجوا الى المنتصر بالله وسلموا عليه بالخلافة • وبادروا الى اخذ البيعة من الحاضرين الآخرين •

(١) الطبري ٩/٢٢٥ •

وقد تمت بيعة المنتصر بالله على دفعتين ، الاولى في ليلة الاربعاء ـ ليلة مقتل ابيه ـ والثانية في صباح اليوم التالي لأربع خلون من شوال وقيل لثلاث خلون منه (٢) ٠ وكان قد بايعه ليلة الاربعاء القواد وغيرهم من المتآمرين حالما تم القضاء على المتوكل على الله ،ومنهم بغلون وباغر وهارون بن صوارتكين وبغا الشرابي وواجن وعدد من اولاد وصيف ، وهم الذين تولوا عملية اقتحام مجلس الخليفة والاجهاز عليه ، وكذلك وصيف واصحابه الذين حضروا بعد نجاح العملية ، كما حضر المعتز والمؤيد ، واخبرا بان اباهما شرق بكأس شربه ومات لساعته ، فبايعا اخاهما المنتصر (٣) ٠ وكانت هذه المبايعة الخاصة للمنتصر ٠

اما في بيعة صباح الاربعاء ، وهي البيعة العامة ، فقد حضر الى الجعفري القواد والكتاب والوجوه والجند وغيرهم ٠ فقرأ عليهم احمد بن الخصيب الذي اتخذه المنتصر وزيراً ، كتابا يخبر فيه عن المنتصر بالله ان الفتح بن خاقان قتل اباه المتوكل على الله فقتله به ، فبايع الحاضرون ٠ وكان عبيدالله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل على الله من المبايعين في هذا اليوم ٠ ولما شاع الخبر غداة اليوم التالي في اهل سامرا بمقتل المتوكل على الله ، ظهرت بعض الأصوات المعارضة لمبايعة المنتصر بالله ٠ فقد تجمع قسم من الجند والناس بباب العامة وازدحموا محتجين ومستنكرين مما اضطر الخليفة الجديد ان يوعز الى فريق من الجند فتولوا دفع الناس وتفريق جمعهم بعد ان قتل منهم بضعة انفار (٤) ٠ وكان

---

(٢) الطبري ٩/٢٣٤ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٣ ، ومروج الذهب ٤/١٢٩ ٠
(٣) الطبري ٩/٢٢٧ـ٢٢٨ و٢٣٦ ، والكامل ٧/١٠٣ـ١٠٤ ٠
(٤) الطبري ٩/٢٣٩ ، والكامل ٧/١٠٥ ٠

قد عرض جمع من الجند على الوزير عبيدالله بن يحيى ان يثوروا بالمنتصر بالله ويقتلوه واتباعه ، فرفض ذلك لأنه رأى ان البيعة قد تمت ولاسيما وان المعتز قد بايع اخاه (٥) ٠

وبالنظر لهذه الظروف التي احاطت ببيعة المنتصر بالله فقد اراد مؤيدوه اثبات حقه الشرعي في الخلافة بموجب عهد مكتوب تمت المبايعة وفق ما جاء فيه ٠ وفيمايلي اهم ما جاء في كتاب البيعة التي اخذت له (٦) :

بسم الله الرحمن الرحيم ٠ تبايعون عبدالله المنتصر بالله امير المؤمنين بيعة طوع واعتقاد ورضا ورغبة باخلاص ٠٠ على ان محمداً الامام المنتصر بالله عبدالله وخليفته المفترض عليكم طاعته ومناصحته والوفاء بحقه وعقده ٠٠ وعلى السمع له ٠٠ والوقوف عند كل ما يأمر به ٠٠ وعلى انكم اولياء اوليائه واعداء اعدائه من خاص وعام ٠٠ وتتمسكون ببيعته بوفاء العقد وذمة العهد ٠٠ وعلى أن لا تسعوا في نقض شيء مما أكده الله عليكم ٠٠ وعلى ان لا تبدلوا ولايرجع منكم راجع عن نيته ٠٠ اذ كان الذين يبايعون منكم امير المؤمنين انما يبايعون الله ٠٠ عليكم بذلك ربما أكدت هذه البيعة في اعناقكم ٠٠٠ ان تسمعوا ما اخذ عليكم في هذه البيعة ولا تبدلوا ، وان تطيعوا ولا تعصوا ٠٠ وان تتمسكوا بما عاهدتم عليه ٠٠ لا يقبل الله منكم في هذه البيعة الا الوفاء بها ٠٠٠ فمن نكث منكم ٠٠ فكل ما يملك كل واحد ممن خان في ذلك بشيء نقض عهده من مال او عقار او سائمة او زرع او ضرع صدقة على المساكين ٠٠ وكل مملوك يملكه الى ثلاثين سنة

(٥) الطبري ٢٢٩/٩ ، تجارب الامم ٢٥٧/٦ ٠

(٦) نص كتاب البيعة في الطبري ٢٣٧/٩-٢٣٩ ٠

من ذكر او انثى احرارا لوجه الله ، ونساؤه في يوم يلزمه الحنث ومن يتزوجه بعدهن الى ثلاثين سنة طوالق البتة ٠٠ وعليه المشي الى بيت الله الحرام ثلاثين حجة ، لا يقبل الله منه الا الوفاء بها ، وهو بريء من الله ورسوله ، والله ورسوله بريئان منه ٠٠ والله عليكم بذلك شهيد وكفى بالله شهيداً :

وبعد ان تمت البيعة للمنتصر بالله امر باعطاء الجند ارزاق عشرة اشهر (٧) ٠

٢ ـ صفاته وسيرته :

اسمه محمد وكنيته ابو جعفر وقيل ابو عبدالله وقيل ابو العباس (٨) ٠ ولقبه ابوه المنتصر بالله حينما عقد له البيعة بولاية العهد ٠ وامه ام ولد رومية اسمها حبشية ، وكانت تحبه كثيراً ، وقد حزنت عليه حزنا شديدا لما مات وطلبت ان يبنى له قبر ظاهر مشهود ٠ ويقال انه اول خليفة عباسي عرف قبره(٩) ٠ اي انه اول من بني له قبر مشهود من خلفاء سامرا ٠

اقام المنتصر بالله بعد توليه الخلافة بالجعفرية ثم تحول عنها بعد عشرة ايام ، بعياله وقواده وجنده الى سامرا(١٠) ٠ وسنأتي على تفصيل ذلك في الفصل الخاص بتأسيس مدينة الجعفرية ٠

---

(٧) تاريخ اليعقوبي ٤٩٣/٢ ٠

(٨) تاريخ بغداد ١١٩/٢ ، والكامل ١١٤/٧ ، وفيه اسمه احمد ، ويرجح ان ذلك خطأ مطبعي ٠

(٩) الطبري ٢٥٤/٩ ، ومروج الذهب ١٣٤/٤ ، وتجارب الامم ٥٦١/٦ ، وتاريخ بغداد ١٢١/٣ ٠

(١٠) الطبري ٢٣٤/٩ ، ومروج الذهب ١٣٠/٤ ، وفيه انه تحول بعد سبعة ايام ٠

اما وصف المنتصر بالله فتتفق المصادر على انه كان اسمر حسن الوجه ، قصير القامة جسيما ، عظيم البطن ، ضخم الهامة ، أعين اقنى ، وعلى عينه اليمنى اثر اصابة من وقعة في صفره (١١) • وقد وصف المسعودي اخلاقه وصفا دقيقا شاملا بقوله « وكان المنتصر واسع الاحتمال ، راسخ العقل ، كثير المعروف ، راغبا في الخير ، سخيا ، اديبا ، عفيفاً • وكان يأخذ نفسه بمكارم الاخلاق ، وكثرة الانصاف ، وحسن المعاشرة ، بما لم يسبقه خليفة الى مثله » (١٢) • وقيل عنه انه كان الى جانب ذلك فاتكا سفاكا للدم (١٣) • ومع ان المسعودي يتفق بوصفه اخلاق المنتصر بالله مع من وصفها من المؤرخين الا انه يتهمه بالبخل فيقول « كان ذا شهامة ومعرفة وامساك للمال ، وحفظ له حتى انكر الناس عليه شدة البخل وشدة المنع » (١٤) • ومما يؤيد هذا ما رواه الطبري عن بنان بن عمرو المغني وكان من اخص الناس بالمنتصر بالله ، وهو خليفة ، ان يهبني ثوب ديباج ، فقال لي : أو خير لك من الثوب الديباج ؟ قلت ما هو ؟ قال : تتمارض حتى اعودك ، فانه سيهدى لك اكثر من الثوب الديباج • الا انه مات في تلك السنة ولم يصل شيء الى بنان (١٥) • لاشك في ان هذ الخبر ينطوي على شيء من خلة الامساك في المنتصر بالله ، اذ لم تجد

---

(١١) التنبيه والاشراف / ٣١٤ . وتاريخ بغداد ٢/١١٩ - ١٢٠ . والكامل ٧/١١٥ ، والذهب المسبوك / ٢٢٧ •
(١٢) مروج الذهب ٤/١٣٤ - ١٣٥ •
(١٣) الكامل ٧/١١٦ •
(١٤) التنبيه والاشراف / ٣١٤ •
(١٥) الطبري ٩/٢٥٥ •

نفسه بثوب ديباج لاقرب المغنين له ، وحاول أن يعوضه بما يهديه اليه الآخرون عند مرضه • وقد يكون اراد بهذا ان يظهر اكرامه له بعيادته عند مرضه وان يجعل الآخرين يكرمونه ايضا ، وهذا ما يتفق مع اخلاق المنتصر بالله وصفاته •

الا انه يقابل هذا ان المسعودي نفسه يروي خبرين يدلان على كرم المنتصر بالله فقد روي عن علي بن يحيى المنجم ، وكان نديما لعدد من الخلفاء ، أنه احسب ان يشتري ضيعة مجاورة لضيعته ولم يزل يبذل جهده لدى مالكها حتى اجابه الى بيعها • الا انه لم يكن يملك قيمتها حينذاك ، مما اقلقه من ان تفوته فرصة تحقيق امنيته • وعندما حضر مجلس المنتصر بالله لاحظ الخليفة ما ظهر على نديمه من قلق وانشغال بال • فلما علم منه السبب استفسر عن قيمة الضيعة وما مقدار ما يعوزه لشرائها • فلما عاد ابن المنجم الى بيته رأى ان الخليفة كان قد ارسل المبلغ الذي يعينه على شراء الضيعة ، ويقول انه لما بكر الى المنتصر بالله في اليوم التالي لم يذكر عن الأمر شيئاً(١٦) •

وروى ايضا ان المنتصر بالله لما كان اميرا ، بعث احد رجاله واسمه سعيد بن محمد الصغير الى مصر في بعض اموره • فعشق سعيد جارية التقى بها هناك الا انه عجز عن شرائها • فلما علم المنتصر بالله بشدة ولعه بها كتب الى عامل مصر في ابتياعها وحملها الى سامرا ، دون ان يعلم سعيد بشيء من ذلك • فلما وصلت الجارية اهداها اليه (١٧) • يستدل من هذين الخبرين ان المنتصر بالله لم يكن بخيلا شديد المنع ، بل انه كان مدبراً غير

---

(١٦) مروج الذهب ٤/١٣٧ــ١٣٨ •

(١٧) نفس المصدر / ١٤١ ــ ١٤٢ •

مسرف ، وان كرمه من النوع الذي لا يريد صاحبه ان يتفاخر به . ولعل اعطياته الى المغنين ومادحيه من الشعراء تدل على جوده وكرمه . وكان من نتيجة تدبيره في الانفاق انه عندما توفي كان في بيت المال الف الف دينار ، ففرق المستعين بالله الجميع في الجند (١٨) .

لقد اشتهر عن المنتصر بالله انه كان عادلا منصفا بحيث مالت اليه قلوب الناس من الخاصة والعامة ، مع شدة تهيبها منه(١٩) . ومن اقواله الدالة على سماحته وعلو همته ، ما رواه وزيره احمد بن الخصيب انه قال حين عفا عن الشاري الثائر : ان لذة العفو اعذب من لذة التشفي ، واقبح افعال المقتدر الانتقام (٢٠) . ومن اقواله ايضا : والله ما عز ذو باطل ولو طلع القمر من جبينه ، ولا ذل ذو حق ولو صفق العالم عليه (٢١) . ومن مظاهر انصاف المنتصر بالله انه صالح اخوته واخواته على تركة ابيه من الفرش والرقيق والدواب بمبلغ اربعة وعشرين الف الف درهم ، وانه اشهد عليهم بذلك (٢٢) .

كان المنتصر بالله قد نقش على خاتمه عندما بويع بالخلافة « محمد بالله ينتصر » (٢٣) . ويظهر مما جاء في العقد الفريد ان

---

(١٨) النجوم الزاهرة ٣٢٨/٢ ، والذخائر والتحف / ٢٢٠ وفيه الف الف درهم .
(١٩) مروج الذهب ١٣٧/٤ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٥٧ .
(٢٠) مروج الذهب ١٧٧/٤ ، والبصائر والذخائر ٥٢٧/٢ وجاء فيه كمايلي : لذة العفو احيب من لذة التشفي يلحقها الندم .
(٢١) الكامل ١١٦/٧ ، وتاريخ بغداد ١٢٠/٢ ، وفيه : ولواطبق بدلا من ولو اصفق . والذهب المسبوك / ٢٧٧ وفيه : ما ذل ذو حق وان اطبق الناس عليه وما عز ذو باطل ولو طلع القمر بين عينيه .
(٢٢) الذخائر والتحف / ٢٢٠ .
(٢٣) التنبيه والاشراف / ٣١٤ .

خاتمين آخرين ، نقش على احدهما « يؤتى الحذر من مأمنه » وعلى الآخر « انا من آل محمد ، والله ولي محمد » (٢٤) • وقد يكون اتخذ الخاتم الأخير ليدل على ولائه لآل البيت وحبه للعلويين وعطفه عليهم • على ان الخطيب البغدادي يذكر ان نقش خاتمه كان « محمد رسول الله » وان له ختما آخر نقش عليه « المنتصر بالله » (٢٥) •

٣ ـ ولاية العهد :

بعد ان استتب الامر للمنتصر بالله اخذ الوزير احمد بن الخصيب يحذر القواد الذين تآمروا على اغتيال المتوكل على الله من انتقام ابنائه الآخرين اذا ما تولى احدهم الخلافة ، ولا سيما المعتز ولي العهد والمؤيد الذي كان يليه في ولاية العهد • مما جعلهم يتوجسون خيفة منهما ، ويرون ان سلامتهم وامنهم رهينان بابعادهما عن تولي الخلافة • وقد سبق ان ذكرنا ان المتوكل على الله قد اخذ العهد لاولاده الثلاثة بكتب كتبها وشروط اشترطها ، وخصص لكل منهم جزء من اقاليم الدولة ، وجعل محمد المنتصر ولي عهده وبعده المعتز ثم يليه المؤيد • واخذت البيعة بهذا على الناس • ولذا عمل ابن الخصيب والقواد الاتراك على خلع الاخوين من ولاية العهد ليأمنوا انتقامهما لأبيهما ، والحوا على المنتصر بالله في الأمر وزينوا له ان يولي ابنه عبدالوهاب العهد من بعده •

---

(٢٤) العقد الفريد ٥/١٢٣ •

(٢٥) تاريخ بغداد ٢/١٢٠ •

وكان المنتصر بالله ، رغم تظاهره بحب اخويه والتودد لهما . يحقد عليهما لأن اباه كان يحسن معاملتهما ويفضلهما عليه وبخاصة المعتز ، ولذلك فقد استجاب للطلب · وامر بالطلب الى اخويه ان يخلعا نفسيهما من ولاية العهد · فوافق المؤيد وتردد المعتز غاضباً ، الا ان اخاه استطاع ان يقنعه حينما وضعه امام امر لا مفر منه ، اذ قال له « هذا الامر قتل اباك فليته لا يقتلك ، اخلعه ويلك ، فوالله لئن كان في سابق علم الله ان تلي لتلين»(٢٦) · فاجاب بالموافقة ايضا · وكتب كل منهما كتابا يخلع فيه نفسه من ولاية العهد ويحل الناس منها ، بموجب صيغة املاها عليهما كاتب الخليفة ·

ولما دخل الاخوان على اخيهما الخليفة ليعلماه بموافقتهما على التنازل عن ولاية العهد رحب بهما واظهر لهما انه قام بذلك حرصا على حياتهما وليس طمعا في نقل ولاية العهد الى ابنه ، اذ قال « أترياني خلعتكما طمعا في ان اعيش حتى يكبر ولدي وابايع له ، والله ما طمعت في ذلك ساعة قط ، واذا لم يكن في ذلك طمع ، فوالله لان يليها بنو ابي احب الي من ان يليها بنو عمي . ولكن هؤلاء ـ واوما الى سائر الموالي ممن هو قائم وقاعد ـ انحوا عليّ في خلعكما ، فخفت ان لم افعل ان يعترضكما بعضهم بحديدة ، فيأتي عليكما · فما ترياني صانعا ، أقتله ؟ فوالله ما تفي دماؤهم كلهم بدم بعضكم ، فكانت اجابتهم الى ما سألوا اسهل عليّ » (٢٧) ·

---

(٢٦) الطبري ٩/٢٤٥ ·
(٢٧) الطبري ٩/٢٤٥ـ٢٤٦ ·

وعندما حضرا للتنازل ، كان اعوان المنتصر بالله قد احضروا الامراء من بني هاشم ، وكبار القواد ، ورؤوساء الدواوين ، والقضاة ، وصاحب الشرطة ، ووجوه الحرس وغيرهم ، ليشهدوا خلع المعتز والمؤيد نفسيهما • وكانت صيغة الكتاب بالتنازل الذي املي عليهما هي (٢٨) « بسم الله الرحمن الرحيم : ان امير المؤمنين المتوكل على الله رضي الله عنه قلدني هذا الأمر وبايع لي وانا صغير من غير ارادتي ومحبتي ، فلما فهمت اموري علمت أنني لا اقوم بما قلدني ، ولا اصلح لخلافة المسلمين • فمن كانت بيعتي في عنقه فهو من نقضها في حلّ ، وقد احللتكم منها ، وابرأتكم من ايمانكم ، ولا عهد لي في رقابكم ، وانتم براء من ذلك » •

وقرأ الرقاع الوزير احمد بن الخصيب • ثم قام كل واحد منهما وقال للحاضرين : هذه رقعتي . وهذا قولي ، فاشهدوا عليّ ، وقد ابرأتكم من ايمانكم وحللتكم منها (٢٩) •

وأمر الخليفة ان يكتب الى خليفته ببغداد محمد بن عبدالله بن طاهر يعلمه بتنازل اخويه عن ولاية العهد التي عقدها ابوهما لهما من بعده ، وامره ان يكتب بذلك الى جميع العمال ويوعز اليهم بالعمل بموجبه ، وهو كتاب مطول جاء فيه (٣٠) « اما بعد •• وقد علمت ما حضرت من رفع ابي عبدالله وابراهيم ابني امير المؤمنين المتوكل على الله الى امير المؤمنين رقعتين بخطوطهما ، يذكران ان فيهما ••• انهما قد خلعا انفسهما من ولاية العهد وخرجا منها ، وجعلا كل من لهما عليه بيعة ويمين ••• في حل

(٢٨) نفس المصدر / ٢٤٦ •
(٢٩) نفس المصدر / ٢٤٦ ـ ٢٤٧ •
(٣٠) نفس المصدر / ٢٤٧ ـ ٢٥٠ •

وسعة من بيعتهم وايمانهم ، ليخترهما كم خلعـــا انفسهما ..
ويسألان امير المؤمنين ان يظهر ما فعــلاه وينشره .. وان اميــر
المؤمنين وقف على صدقهما فيما ذكرا ورفعا .. ورأى اميـــر
المؤمنين ان يجمع في اجابتهما الى نشر ما فعلاه واظهاره .. وأمر
أمير المؤمنين بانشاء الكتب بذلك الى جميع العمال ليتقدموا في
العمل بحسب ما فيها ، ويخلعوا ابا عبدالله وابراهيــم من ولايــة
العهد .. فاعلم ذلك واكتب الى عمالك بنسخة كتاب أمير المؤمنين
هذا اليك واوعز اليهم في العمل على حسبه » .

ومن الواضح ان عهد التنازل وكتاب الخليفة قد أعدا بصيغة شملت تنازلهما عن ولاية العهد وما كان ترتب لهما من حقــوق وامتيازات بموجبها . وقد صيغا بلغة متينة واضحة لا تخلو من تكرار وتأكيد النقاط المهمة ، وتتضمن من المواثيــق ما يؤمــن الغاية منها . كما تضمن الكتاب تأكيداً على سـلطة الخليفـــة المطلقة . وبتنازل ابني المتوكل على الله عن حقوقهما في ولاية العهد حقق القواد الاتراك مكسبا جديداً في السيطرة على شؤون الخلافة . وكما استطاعوا التخلص من المتوكل على الله استطاعوا ازاحة من لا يرغبون به من ابنائه عن ولاية العهد . وبذلك ضمنوا سيطرتهم على تعيين الخليفة الذي سيعقب المنتصر بالله عنــد وفاته .

٤ ـ وفاة المنتصر بالله :

هناك عدة روايات قيلت عن سبب وفاة الخليفة المنتصر بالله ، يستنتج منها ان وفاته لم تكن طبيعية . فقد قال بعضــهم انــه

أصابته الذبحة في حلقه (٣١) • وقيل ان علته كانت من ورم في معدته ثم تصعد الى فؤاده فمات(٣٢) • وقال آخرون انه وجد حرارة فدعا ببعض من يتطبب له وامره يفصده ، ففصده بمبضع مسموم فكانت فيه منيته (٣٣) • وذكر انه وجد علة في رأسه فقطر طبيبه ابن الطيفوري دهناً في اذنه فورم رأسه ، وعوجل فمات(٣٤) • كما ذكر سبب آخر لموته هو ان المنتصر بالله ضربته الريح ، فقد لعب كرة الصولجان وانصرف من الميدان وهو عرق فدخل الحمام ، ولما خرج منه نام في البادهنج فضربه الهواء وركبته حمى عالية • ولما عاتبه وزيره ابن الخصيب على ذلك ، اجابه بالا يخاف عليه من الموت ، لأنه رأى في منامه امس من اخبره بأنه سيعيش خمسا وعشرين سنة ، وذلك يعني انه سيبقى في الخلافة هذه المدة (٣٥) • ويبدو انه فسر حلمه كما كان يحلو له ويتمناه • غير ان الطبري يذكر هذا الحلم بشكل آخر خلاصته ان المنتصر بالله رأى في منامه أنه صعد درجا حتى انتهى الى خمس وعشرين مرقاة منه ، فقيل له : قف فهذا آخر عمرك (٣٦) •

على ان رواية موته بالسم يؤكدها اكثر من ذكروا اسباب وفاته من المؤرخين (٣٧) • وهم يعزون ذلك الى القواد الاتراك

---

(٣١) الطبري ٩/٢٥١ ، وتاريخ بغداد ٢/١٢١ ، وتجارب الامم ٦/٥٦٠ ، وتاريخ الاسلام ١/١٠٩ وفيه انه مات بالخوانيق •

(٣٢ و ٣٣) نفس المصادر •

(٣٤) الطبري ٩/٢٥٢ ، وتجارب الامم ٦/٥٦١ ، والكامل ٧/١١٤ •

(٣٥) مروج الذهب ٤/١٣٣ • والبادهنج هو المنفذ الذي يدخل منه الهواء الى الغرفة •

(٣٦) الطبري ٩/٢٥٣ •

(٣٧) الطبري ٩/٢٥٢ ، ومروج الذهب ٤/١٣٤ ، وتجارب الامم ٦/٥٦٠ ، وتاريخ بغداد ٢/١٢١ ، والكامل ٧/١١٥ •

الذين اخذوا يتوجسون منه • ويظهر ان المنتصر بالله اخذ يشعر بالندم وتأنيب الضمير لمساهمته في مؤامرة قتل ابيه • لاسيما وان الأمر انتشر بين الناس عامتهم وخاصتهم بأنه قاتل ابيه ، وان مدة حياته لا تطول اكثر من ستة اشهر بعد ابيه ، وهي المدة التي عاشها شيرويه الفارسي قاتل ابيه • وهناك قصة تروى عن بساط كان مفروشا في احد الأروقة في القصر ، وعليه صورة فرس عليه راكب وعلى رأسه تاج ، وحول الصورة كتابة بالفارسية ، لفتت نظر المنتصر بالله ، فترجمت له • فاذا هي صورة شيرويه قاتل ابيه ابرويز الملك وانه عاش بعده ستة اشهر ، فلما سمع ذلك تغير وجهه وقام من مجلسه (٣٨) • ويظهر من رواية المسعودي للخبر ان البساط المذكور كان تحت المتوكل على الله ليلة اغتياله، وعليه آثار من الدماء (٣٩) • ولعل ذلك كان مبعث تشاؤم المنتصر بالله وتغير وجهه •

لاشك في ان الشعور بالذنب او الندم هو ضريبة الجريمة • وكلما اعتقد المجرم بعظم جرمه وفداحة ما ارتكبه من اثم ازداد هذا الشعور ، فيعيش صاحبه في جو خانق من الخوف والقلق ، مما يسبب له آلاماً نفسية مبرحة ، وتوتراً عصبيا مستمراً • وقد كثرت نتيجة لوضع المنتصر بالله النفسي احلامه التي كانت انعكاسا لشعوره بالأثم وندمه على فعلته • وكان لهذا الوضع النفسي السيء الذي صار اليه المنتصر بالله رد فعل شديد تمثل بحنقه الزائد على القواد الاتراك وبخاصة اولئك الذين قتلوا اباه •

---

(٣٨) تفصيل قصة البساط في : مروج الذهب ٤/١٣٠-١٣١ ، ونشوار المحاضرة ٥/١٨٣-١٨٤ وفيه ان صاحب الصورة هو شيرويه بن كسرى هرمز •

(٣٩) مروج الذهب ٤/١٣١ •

فلما شعر اولئك القواد بتغير شعور المنتصر بالله تجاههم اخذوا يتحينون الفرصة للتنكيل به والتخلص منه قبل ان يبيدهم . فجعلوا لخادم له ثلاثين الف دينار على ان يحتال في سمه ، وجعلوا لأبن طيفور الطبيب الذي كان يشرف على شؤون الخليفة الصحية ، جملة من المال للغرض نفسه(٤٠) . فاتفق الطبيب والخادم على ان يدسوا له السم في كمثراة ناضجة قدمت للمنتصر بالله ، اذ كان يحب الكمثرى ويكثر من اكلها اذا قدمت له مع الفاكهة . فلما اكلها وجد حرارة فعالجه ابن طيفور بالحجامة والفصد ، وكانت الاتهما مسمومة فكان في ذلك موته (٤١) . ويقال ان ابن طيفور القى المبضع المسموم بين مباضعه الاخرى ، ثم انه بعد مدة وجد حرارة فدعا تلميذاً له ليفصده ، فنظر في المباضع فلم يجد أحد من ذلك المبضع ولا اجود ، ففصده به فمات (٤٢) . ويرجح ان في هذا الخبر مبالغة لأن المبضع المسموم قد نفذ سمه باستخدامه في المرة الاولى ، وقد يكون هذا القسم من رواية سم المنتصر بالله بالفصد ، قد اضيف بغرض التأكيد على ان المبضع الذي استخدم في فصده كان مسموما .

ان تعدد الاسباب التي ذكرت لموت المنتصر بالله ، يبدو وكأنها اشيعت للتغطية على سبب موته الحقيقي - وهو ان الطبيب المتوطىء مع القواد الأتراك قد سمه بالسم المعروف أنذاك وهو الزرنيخ . وكان قد استغل اصابته بالبرد الشديد ـ وربما كان

---

(٤٠) الطبري ٩/٢٥٢ ـ ٢٥٣ ، وفوات الوفيات ٢/٣٧٢ ، وتاريخ الاسلام ١/١٠٩ . وفي المصدرين الاخيرين ان الاتراك جعلوا للطبيب ثلاثين الف دينار .

(٤١) الطبري ٩/٢٥٣ ، والكامل ٧/١١٤ ، وشذرات الذهب ٢/١١٩ .

(٤٢) الطبري ٩/٢٥٣ ، وتجارب الامم ٦/٥٦٠ـ٥٦١ ، والكامل ٧/١١٤ .

قد اصيب بذات الرئة ـ وبقاءه في الفراش قرابة عشرة ايام ، فاخذ يعطيه جرعات منه يوميا مع الدواء الذي كان يسقيه اياه • ولما قارب جسم المنتصر بالله ان يستوفي من كمية الزرنيخ ما يكفي لقتله اظهر الطبيب ان ما وضعه من السم في الكمثرى سيؤدي الى موته •

اما تاريخ وفاته فتكاد تتفق المصادر على انه توفى يوم الأحد لخمس خلون من ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ(٤٣) • وكانت وفاته بالقصر المحدث بسامرا (٤٤) • ويقال انه لما حضرته الوفاة قال : (٤٥)

فما فرحت نفسي بدنيا أخذتها
ولكن الى الرب الكريم أصير

وجاء ذلك في فوات الوفيات كما يأتي : (٤٦) •

فما متعت نفسي بدنيا احبتها
ولكن الى الرب الكريم اصير

وما كان ما قدمته رأى فلتة
ولكن بفتياها اشار مشير

وهو يشير بهذا الى ندمه وطلبه المغفرة ، والى الفتوى التي حصل عليها من بعض الفقهاء عندما استفتاهم في قتل ابيه من غير

---

(٤٣) الطبري ٩/٢٥١ ، ومروج الذهب ٤/١٤٤ ، وتاريخ بغداد ٢/١٢١ ، والكامل ٧/١١٤ وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٣ وفيه انه توفي يوم السبت لاربع خلون من ربيع الآخر •

(٤٤) الطبري ٩/٢٥٤ •

(٤٥) نفس المصدر / ٢٥١ •

(٤٦) فوات الوفيات ٢/٣٧٣ •

ان يسميه ، وحكى عنه اموراً قبيحة (٤٧) • لم تفصح عنها المصادر التي اطلعنا عليها •

وقد اختلف المؤرخون في مقدار عمر المنتصر بالله عند وفاته • فان كلا من الطبري واليعقوبي والخطيب البغدادي ومسكويه والمسعودي وابن الأثير يرون انه توفي وعمره خمس وعشرون سنة وستة اشهر (٤٨) • الا ان الطبري والخطيب البغدادي يستدركان ويقولان : بل كان عمره اربعا وعشرين سنة (٤٩) • كما ان المسعودي يذكر في كتابه التنبيه والاشراف انه توفي وعمره ثمان وعشرون سنة (٥٠) • ويقول ابن عبد ربه ان عمره كان ستا وعشرون سنة الا ثلاثة اشهر (٥١) • اما الذهبي فيرى انه توفي وعمره ست وعشرون سنة (٥٢) •

ويعود سبب الاختلاف في مقدار عمر المنتصر بالله الى عدم التثبت من تاريخ ميلاده • فان الخطيب يقول ان مولده كان في ربيع الآخر من سنة ٢٢٢هـ (٥٣) • بينما يرى ابن عبد ربه انه ولد في ربيع الاول من السنة المذكورة (٥٤) - اما صاحب خلاصة الذهب المسبوك فيقول انه ولد في سنة ٢٢٤هـ (٥٥) •

---

(٤٧) الطبري ٩/٢٥٢ ، وتجارب الامم ٦/٥٦١ •
(٤٨) الطبري ٩/٢٥٣ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٣ ، وتاريخ بغداد ٢/١١٩ ، وتجارب الامم ٦/٥٦١ ، ومروج الذهب ٤/١٢٩ ، والكامل ٧/١١٥ •
(٤٩) الطبري ٩/٢٥٣ ، وتاريخ بغداد ٢/١٢٠ •
(٥٠) التنبيه والاشراف / ٣١٤ •
(٥١) العقد الفريد ٥/١٢٣ •
(٥٢) العبر ١/٤٥٣ •
(٥٣) تاريخ بغداد ٢/١١٩ •
(٥٤) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٧ •
(٥٥) العقد الفريد ٥/١٢٣ •

ورزق المنتصر بالله من الولد علياً وعبدالوهاب وعبـــدالله واحمد (٥٦) . وكانت مدة خلافته ستة اشهر (٥٧) . وقد صلى عليه عند دفنه احمد بن محمد بن المعتصم بالله الذي تولى الخلافة بعـــده ولقب بالمستعين بالله . ودفن بسامرا بقبر ظاهر مشهود كما سبق ان اشرنا (٥٨) وكانت ولادته بسامرا كذلك (٥٩).

٥ ـ المنتصر بالله والاحلام :

مما يلفت النظر في مدة خلافة المنتصر بالله كثرة الأحلام التي رآها هو بنفسه ورواها لحاشيته والمقربين اليه . والتي رآهـــا اشخاص آخرون ، وبعضهم مما كانت له علاقة بهم . وكلها تدور حول عمره ومدة خلافته . اذ بالاضافة الى الحلم الذي سبق ان ذكرناه . فان المنتصر بالله انتبه ذات يوم من نومه وهـــو يبكـــي وينتحب . فسأله نديمه وصاحبه عبدالله بن البازيار عما يبكيه ، فقال : رأيت في نومي كأن المتوكل على الله قد جاءني وقال لي ويلك يا محمد قتلتني وظلمتني وغبنتني في خلافتي . واللـــه لا تمتعت بها الا اياما يسيرة ، ثم مصيرك الى النار . فانتبهـــت مذعوراً لا املك عيني ولا جزعي . فقال له ابن البازيار مخففـــاً عنه : هذه رؤيا وهي تصدق وتكذب ، بل يعمرك الله ويسرك . ادع بالنبيذ وخذ في اللهو ولا تعبأ بها (٦٠) .

---

(٥٦) العقد الفريد ٥/١٢٣ .

(٥٧) الطبري ٩/٢٥٣ ـ ٢٥٤ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٣ ، ومروج الذهـــب ٤/١٢٩ وتجارب الامم ٦/٥٦١ .

(٥٨) الطبري ٩/٢٥٤ ، ومروج الذهب ٤/١٣٤ ، وتجارب الامـــم ٦/٥٦١ ، والكامل ٧/١١ .

(٥٩) الطبري ٩/٢٥٣ ، والكامل ٧/١١٥ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٧ .

(٦٠) الطبري ٩/٢٥٢ ، والكامل ٧/١١٥ .

وذكر عن احمد بن صالح صاحب المصلى انه قال : كان لابي مؤذن فرآه بعض اهلنا في المنام كأنه أذن أذانا لبعض الصلوات ، ثم دنا من بيت فيه المنتصر بالله فنادى يا محمد ان ربك لبالمرصاد(٦١) . وقال عبدالملك بن سليمان بن ابي جعفر : رأيت في منامي المتوكل على الله والفتح بن خاقان وقد احاطت بهما نار ، وقد جاء المنتصر بالله فاستأذن عليهما ، فمنع من الوصول اليهما ، ثم اقبل المتوكل على الله عليّ فقال لي ياعبدالملك قل لمحمد بالكأس التي سقيتنا تشرب ، فلما اصبحت غدوت على المنتصر بالله فوجوته محموما ، فواظبت على عيادته فمات من ذلك المرض ، وسمعته يقول في مرضه عجلنا فعوجلنا(٦٢) .

وكان وزير المنتصر احمد بن الخصيب غضب على احد عماله وقرر ان يصادره ، فعلم ابن ذلك العامل ما ازمع عليه الوزير ، فاراد ان يخبر اباه بذلك ليتخذ الحيطة . فزاره بعض كتاب الديوان وجلس عنده . يقول ابن العامل : وشغلت عن جليسي فاتكأ على الوسادة وغفا ، ثم انتبه مرعوبا وقال انه رأى رؤيا عجيبه ، فقد رأى الوزير ابن الخصيب واقفا يقول : يموت الخليفة المنتصر بالله الى ثلاثة ايام . فقلت له : ان الخليفة في الميدان يلعب بالصولجان وهذه الرؤيا ضرب من الأوهام . فما استتما كلامهما حتى دخل عليهما داخل يقول : ان الخليفة انصرف من الميدان وهو عرق فدخل الحمام ونام في البادهنج فضرب الهواء ، وركبته حمى هائلة (٦٣) .

---

(٦١) الطبري ٢٥٥/٩ .
(٦٢) مروج الذهب ١٣٤/٤ .
(٦٣) نفس المصدر / ١٣٣ .

ويقال ان احد الكتاب رأى في المنام في الليلة التي استخلف فيها المنتصر بالله كأن قائلا يقول (٦٤) :

هـذا الامـــام المنتصر والملك الحادي عشر
فـأمـــره اذا أمـــر كالسيف ما لاقى بتر
وطـرفـه اذا نظـر كالدهـر في خير وشر

لا غرابة في حدوث الأحلام التي أشرنا اليها اذا ما نظرنا اليها على ضوء علم النفس الحديث · فان الأفكار والذكريات المؤلمة التي لا يقوى الانسان على تحملها ، اما لتألمه منهـا او لنفرته عنها ، تتجمع بتأثير قوة نفسية خفية في غياهب اللاشعور . وذلك ما يدعى بالكبت · وان بعض الرغبات والأماني التي يعلل الفرد بها نفسه ويتمناها في يقظته ، ثم يكبتها لسبب ما ، فان الأحلام تتولى غالبا تحقيقها بالتعبير عنها بشكل صريح مكشوف ، او بصورة رمزية مقنعة تحتاج الى التفسير والتأويل · وهناك نوع من الاحلام ينبىء عن حوادث مقبلة · وتقوم مثل هذه الاحلام على توقع الشخص لا شعورياً بحدوث امر معين ، فيظهر له في الحلم ما توقعه ·

اما مجتمع سامرا الذي هزته حادثة اشتراك المنتصر بالله في مؤامرة اغتيال ابيه ، وتوليه الخلافة بعده ، ثم شيوع قصـة البساط وصورة الملك قاتل ابيه وموته بعده بستة اشهر ، فقـد شغلته هذه الأفكار · يقول الطبري « ولم ازل اسمع الناس حين

---

(٦٤) نفس المصدر / ١٣٧ ·

افضت اليه الخلافة من لدن ولي الى ان مات يقولون : انما مدة حياته ستة اشهر ، مدة شيرويه : بن كسرى قاتل ابيه ، مستفيضا ذلك على السن العامة والخاصة » (٦٥) • بحيث كان الناس يلهجون بذلك في مجالسهم وهم يتوقعون او يتمنون للمنتصر بالله ما اصاب شيرويه من قصر عمره وعدم تمتعه بالملك بعد ابيه، فكانوا يترقبون موته قريباً •

وبالنظر لفداحة الجرم الذي ارتكبه المنتصر بالله بحق ابيه ، فان الناس كانوا يعتقدون ان الله تعالى له بالمرصاد ، وان مصيره سيكون الى النار • فكانت الاحلام التي رآها بعضهم هي انعكاسات لهذه الخواطر والافكار والتمنيات التي يحاولون جهدهم ان يكبتوها خوفاً من السلطة •

---

(٦٥) الطبري ٢٥٢/٩ •

الفصل السادس

المستعين بالله

ابو العباس احمد بن محمد بن المعتصم بالله

١ ـ مبايعته :

بعد ان ارغم المنتصر بالله اخويه على التنازل عن ولاية العهد حاول القواد الاتراك ان يقنعوه بان يعهد الى ابنه عبدالوهاب . الا انه لم تتح له الفرصة ليعهد الى احد من بعده اذ ادركته المنية بعد فترة وجيزة من تنازل اخويه (١) . وعند وفاة المنتصر بالله اجتمع كبار القواد الاتراك : بغا الكبير وبغا الصغير واوتامش وعدد من رجال الدولة وعلى رأسهم احمد بن الخصيب وزير الخليفة المتوفى ، في القصر الهاروني لاختيار خليفة . فاستحلف القواد الحاضرون من الاتراك والمغاربة على ان يرضوا بمن يرضى به بغا الكبير وبغا

(١) تنازل المعتز والمؤيد لسبع بقين من صفر سنة ٢٤٨ ، ومات المنتصر لاربع خلون من ربيع الآخر ـ اي بعد اربعين يوما . الطبري ٩/٢٤٦ و٢٥١ على التوالي .

الصغير واوتامش (٢) • وكان ذلك بتدبير من الوزير لتأمين استمرار السلطة بيد قتلة المتوكل على الله • وقد حرص هؤلاء على ان لا يتولى الخلافة احد ابنائه • فاشار احمد بن الخصيب على القواد الثلاثه بان يبايعوا ابا العباس احمد بن محمد بن المعتصم بالله (٣) • فلما حضر ليبايعوه ، قال : استعين بالله ، فلقب بعد مبايعته بالمستعين بالله (٤) • وقد بررو ا اختياره بانهم حرصوا على ان لا تخرج الخلافة من ولد مولاهم المعتصم بالله(٥) • وكانت تلك هي البيعة الخاصة للمستعين بالله •

ولما حضر المستعين بالله صباح اليوم التالي دار العامة ، وقد لبس زي الخلافة لمبايعته البيعة العامة ، حضر القواد وكثير من بني العباس والطالبيين وغيرهم • ويظهر ان اختيار ابي العباس لقي معارضة من بعض القواد فحرضوا عدداً من الجند والفرسان فجاءوا الى الدار ليبدوا معارضتهم وتبعهم كثير من العامة ، فشهروا السلاح ونادوا بمبايعة المعتز بالله ، فشد عليهم المغاربة والاشروسنية الذين بايعوا المستعين بالله ، وتمكنوا بواسطة بغا الصغير وجماعته من الأتراك من القضاء على هذه الحركة التي استمرت ثلاثة ايام ووقع فيها قتلى من الطرفين • وكان الموالون للمستعين بالله قد اخذوا له البيعة ممن حضروا الدار في ذلك اليوم (٦) • ويقول

---

(٢) الطبري ٩/٢٥٦ •

(٣) الطبري ٩/٢٥٦ ، وتاريخ اليعقوبي ٨/٤٩٤ والنبراس / ٨٦ وجاء فيه ان احمد هو ابن محمد المعتصم بالله ، وهو واهم في ذلك •

(٤) تاريخ بغداد ٥/٨٤ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٨ •

(٥) الطبري ٩/٢٥٦ •

(٦) نفس المصدر / ٢٥٧ •

اليعقوبي « وفرق المستعين في الناس اموالا كثيرة ، واستقامت اموره » (٧) ·

٢ ـ صفاته وسيرته :

ولد المستعين بالله يوم الثلاثاء السابع من رجب سنة ٢٢١هـ(٨) ، وامه جارية صقلبية اسمها مخارق(٩) · وكان المستعين بالله اطلق يدها ولم يمنعها من شيء تريده ، فكانت شديدة الاسراف ، تحتجز أكثر الاموال التي تحمل الى بيت المال ، وقد وجد في خزائنها عندما خلع الاتراك ابنها ما قيمته الف الف دينار(١٠) · وعاشت بعد قتل ابنها مدة ·

اما صفات المستعين بالله الجسمية فقد كان ربعة خفيف العارضين، حسن الوجه ، وبوجهه أثر جدري ، يلثغ في السين نحو التاء(١١) · ويضيف المسعودي انه كان مسمناً اسود اللحية (١٢) · اما عن سلوكه وسياسته فقد تفاوتت فيهما اراء المؤرخين ، اذ وصفه المسعودي بانه كان شديد الخوف على نفسه فاداه خوفه وقلة أمنه الى الهرب عن دار ملكه فاديرت الأمور عنه(١٣) · الا انه قال عنه في مكان آخر انه كان حسن المعرفة بأيام الناس واخبارهم لهجاً باخبار الماضين(١٤) ·

---

(٧) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٤ ·
(٨) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٨ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٥٨ ·
(٩) مروج الذهب ٤/١٤٤ ، وتاريخ بغداد ٥/٨٤ ·
(١٠) الذخائر والتحف / ٢٣٨ ·
(١١) تاريخ بغداد ٥/٨٥ ، وشذرات الذهب ٢/١٢٦ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٨ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٥٨ ·
(١٢) التنبيه والاشراف / ٣١٥ ·
(١٣) نفس المصدر ·
(١٤) مروج الذهب ٤/١٥٦ ·

وبينما يصفه ابن الطقطقي بانه كان مستضعفا في رأيه وعقله وتدبيره ، وكانت ايامه كثيرة الفتن ، ودولته شديدة الاضطراب ، ولم يكن فيه من الخصال المحمودة سوى انه كان كريما وهويا(١٥) ، يقول عنه الاربلي انه كان سديد الراي حسن التدبير (١٦) . ويقول السيوطي انه كان خيرا فاضلا ، اديبا بليغا ، وهو اول من احدث لبس الاكمام الواسعة فجعل عرضها نحو ثلاثة أشبار ، وصغر القلانس وكانت قبله طوالا (١٧) . ويقول عنه الذهبي انه كان مسرفاً في تبدير الخزائن والذخائر (١٨) . وجاء عنه في فوات الوفيات انه كان خاملا يرتزق بالنسخ ، فلما جاءته الخلافة من حيث لا يحتسب قال :

جاء لطف الله بالأمر الذي لا ارتجيه

فعلي ان اقضي حق الله فيه

ويروي اعداءه البيت الثاني : ان اقضي حق الشرب فيه(١٩) .

يمكن ان يستنتج مما قاله المؤرخون بشأنه انه كان ضعيفا خائر العزم ، مستسلما سهل القياد . فقد استوزر اول امره احمد بن الخصيب ، الا ان انقياده للقواد الاتراك اضطره الى ان يستوزر القائد التركي اوتامش ، وهو ابن اخت بغا الكبير . وكان المتولي لامور اوتامش كاتبه شجاع بن القاسم الذي يقول عنه الحصري « انه امي لا يقرا ولا يكتب ولا يفهم ، وانما علم علامات يكتبها في

---

(١٥) الفخري .

(١٦) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٩ .

(١٧) تاريخ الخلفاء / ٣٥٩ .

(١٨) شذرات الذهب ٢/١٢٦ .

(١٩) فوات الوفيات ١/١٢٦ .

الترفيع » (٢٠) • ويظهر ان اوتامش كان جشعا لا يهمه من الوزارة غير احتواء الاموال « فعمد الى ما في بيوت الاموال من الامـــوال فاكتسحها » (٢١) •

وكان من اول اعمال المستعين بالله بعد ان تمت له الخلافة انــه ابتاع في جمادى الأولى سنة ٢٤٨هـ من المعتز والمؤيد جميع ما كان لهما من الدور والقصور والضياع والفرش والامتعة وغيــر ذلــك بعشرين الف دينار ، واشهد عليهما بذلك القضاة والشهود العدول . ويقال ان قيمة ما ابتاعه من المعتز عشرة الاف الف دينار ، ومــن ابراهيم المؤيد ثلاثة الاف الف دينار (٢٢) • وكأنه بهذا قد صادرهما بطريقة مشروعة بشرائها بذلك الثمن البخس • ثم حبسهما فــي الجوسق ووكل بهما •

وعقد المستعين بالله في سنة ٢٤٩هـ لأبنــه العباس على مكــة والمدينة المنورة والبصرة والكوفة ، وعزم على ان يعهد اليه بولاية العهد ، ولكنه اخر ذلك لصغر سنه • فقال الشاعر ابو علي البصير قصيدة يستعجله البيعة بولاية العهد لابنه رغم صغر سنه يقـــول فيها (٢٣) :

بك الله احاط الدين واتتاش اهله
من الموقف الدحض الذي مثله يردي

فـول ابنك العباس عهـــدك انه
له موضع ، واكتب الى الناس بالعهد

---

(٢٠) جمع الجواهر / ١٧٢-١٧٣ •
(٢١) الطبري ٩/٢٦٣ •
(٢٢) نفس المصدر / ٢٥٩ •
(٢٣) مروج الذهب ٤/١٥٤ •

فان خلفته السن فالعقل بالغ
به رتبة الشيخ الموفق للرشد

وقد كان يحيى اوتى العلم قبله
صبياً ، وعيسى كلم الناس في المهد

وعندما اشتد الخلاف بين المستعين بالله وبعض قواد الاتراك . وانقسم القواد المذكورون على انفسهم انحاز الخليفة الى وصيف وبغا وانحدر معهما الى مدينة السلام وليس له معهما امر ولا نهي[24] . وفي مدينة السلام اسلم امره الى اميرها محمد بن عبدالله الذي وقف الى جانبه في محاربة جيش سامرا ، ولكنه ما لبث ان تخلى عنه وفرض عليه ان يخلع نفسه من الخلافة [25] . وقد شرحنا ذلك في الفصل الخاص بالحرب بين سامرا وبغداد .

٣ ـ قتلـه :

لقد اتينا على تفصيلات الخلاف الذي نسب بين المستعين بالله وبعض القواد الاتراك مما اضطره الى الانحدار الى بغداد ، ثم مبايعة القواد في سامرا للمعتز بالله ، مما ترتب عليه وجود خليفتين في آن واحد ، وقيام الحرب بينهما ، وانتهائهما بخلع المستعين بالله نفسه من الخلافة ومبايعته للمعتز بالله ، وذلك في الفصل الخاص بالنزاع بين خلفاء سامرا والاتراك .

---

(٢٤) نفس المصدر / ١٤٥ .

(٢٥) الطبري ٩/٣٤٤ .

كان المستعين بالله نقل اثر تنازله عن الخلافة الى قصر الحسن بن سهل بالمحرم (٢٦) ، مع عياله وولده وجواريه ٠ ووكل بهم سعيد بن رجاء الحضاري في اصحابه ٠ ومنع من الخروج الى مكة حسبما كان قد اشترط عندما خلع نفسه ٠ فاختار ان ينزل البصرة فلم يسمح له كذلك ٠ فأحدر الى واسط فاقام هناك بضعة اشهر محبوسا وقد وكل به القائد التركي احمد بن طولون ٠ الا ان القواد الاتراك الذين كانوا بايعوا المعتز بالله خافوا ان يستميل المستعين بالله بعض القواد والجند فيكيد لهم وللمعتز بالله ، وقد افصحوا عن مخاوفهم لام المعتز بالله فاضطربت خوفاً على ابنها ، فاتفقت معهم على وجوب التخلص من الخليفة المخلوع ٠ ولما تقرر قتله كتب المعتز بالله الى محمد بن عبدالله يأمره بتسليم المستعين الى سيما الخادم ، فكتب محمد الى الموكلين به بواسط بتسليمه الى سيما ٠ فاخرجه احمد بن طولون الى القاطول وسلمه الى سعيد بن صالح ، المعروف بسعيد الحاجب ، الذي كلف بقتله ، واحتز رأسه ٠ وهناك عدة روايات عن الطرق التي اتبعت في قتله ٠ اذ يقال انه ادخله منزله وعذبه حتى مات (٢٧) ٠ ويقال ان سعيد ركب مع المستعين بالله في زورق ومعه عدة حتى حاذى به فم دجيل فشد في رجله حجراً والقاه في الماء (٢٨) ٠ وذكر ان سعيداً كلف به رجلا من الاتراك يقتله ، فسأله المستعين بالله ان يمهله حتى يصلي ركعتين ، وكانت عليه جبة ، فسأل سعيد التركي الموكل بقتله ان يأخذها منه قبل قتله ،

---

(٢٦) الطبري ٩/٣٤٠ ، ومروج الذهب ٤/١٦٣-١٦٤ وفيه انه احدر الى دار الحسن بن وهب ببغداد ٠

(٢٧) الطبري ٩/٣٦٣ ، وتاريخ بغداد ٥/٨٥ ، والكامل ٧/١٧٣ . وشذرات الذهب ٢/١٢٥ ٠

ففعل ذلك ، فلما سجد في الركعة الثانية قتله واخذ رأسه[٢٩] • وذكر الطبري الى جانب الروايات المذكورة روايات اخرى [٣٠] • وانفرد صاحب خلاصة الذهب المسبوك بالقول بان الذي قتله هو بغا وحمل رأسه الى الخليفة المعتز بالله [٣١] •

وجيء بالرأس الى المعتز بالله ، وكان يلعب الشطرنج مع بعض اصحابه ، فقيل له : هذا رأس المخلوع ، فقال ضعوه هناك • وبعد ان فرغ من لعبه دعا به فنظر اليه ثم امر بدفنه • وامر لقاتله سعيد الحاجب بخمسين الف درهم وولاه معونة البصرة [٣٢] • وهناك رواية اخرى عن عرض رأس المستعين بالله على المعتز بالله في مجلس غنائه [٣٣] •

كان المستعين بالله قد قتل في الثالث من شوال سنة ٢٥٢هـ[٣٤] • وقد اختلف في عمره ، فيقول المسعودي انه خمس وثلاثون سنة ، ويقول الخطيب البغدادي انه اربع وعشرون سنة [٣٥] • ويلاحظ التفاوت الكبير بينهما • اما السيوطي فيذكر ان عمره كان احدى وثلاثين سنة ، ويقول الابلي انه مات عن ثلاثين سنة [٣٦] • الا انه لما كن الطبري وابن الأثير والسيوطي يتفقون على انه كان في الثامنة

---

(٢٩) الطبري ٩/٣٦٤ ، وشذرات الذهب ٢/١٢٥ •
(٣٠) الطبري ٩/٣٦٣ ـ ٣٦٤ •
(٣١) خلاصة الذهب المسبوك /٢٢٩ •
(٣٢) الطبري ٩/٣٦٤ ، والكامل ٧/١٧٣ •
(٣٣) الديارات/١٧٠ •
(٣٤) الطبري ٩/٣٦٣ ، ومروج الذهب ٤/١٤٤ •
(٣٥) مروج الذهب ٤/١٤٤ ، وتاريخ بغداد ٥/٨٥ •
(٣٦) تاريخ الخلفاء / ٣٥٩ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٩ •

والعشرين عندما بويع بالخلافة (٣٧) ، وان مدة خلافته ثلاث سنوات وتسعة اشهر فان عمره يكون في حدود احدى وثلاثين سنة • وهذا يتفق مع سنة مولده في ٢٢١هـ التي سبقت الاشارة اليها • وكانت المدة بين خلعه وقتله تسعة اشهر كان معتقلا فيها (٣٨) •

* * *

(٣٧) الطبري ٩/٢٥٦ ، والكامل ٧/١١٧ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٥٨ •
(٣٨) شذرات الذهب ٢/١٢٥ •

الفصل السابع

المعتز بالله

ابو عبدالله المعتز بالله بن جعفر المتوكل على الله

١ ـ مبايعته :

عندما عاد القواد الاتراك الذين ذهبوا الى بغداد لمقابلة المستعين بالله واقناعه بالعودة الى سامرا . وقد يئسوا من عودته ، حرضوا أصحابهم على خلعه من الخلافة ، واجمعوا على مبايعة المعتز بن المتوكل على الله بدلا عنه · وكان المستعين بالله عندما انحدر الى بغداد قد حبس المعتز واخاه المؤيد في الجوسق واوكل بهما رجلا من الاتراك مع عدد من الاعوان (١) · فاخرجوهما وبايعوا المعتز بالله وعينوا المؤيد ولياً للعهد من بعده . وقد اختلفت المصادر في تاريخ مبايعته ، الا انها لا تتعدى عن النصف الأول من المحرم سنة ٢٥١هـ (٢) · فأمر المعتز بالله للجند برزق عشرة اشهر .

(١) الطبري ٩/ ٢٨٤ ·
(٢) مروج الذهب ٤/ ٢٥١ . الاربعاء لاحدى عشرة ليلة خلت من المحرم . وتاريخ بغداد ٢/ ١٢٢ : الاربعاء لثلاث عشرة خلت من المحرم . والنبراس / ٨٨ : يوم السبت لست خلون من المحرم ·

فلم يتوفر المال الكافي لذلك ، فاعطوا ارزاق شهرين فقط - ومن الجدير بالذكر ان المستعين بالله كان خلف في بيت المال بسامرا نحوا من خمسمائة الف دينار ، وكان في بيت مال امه ما قيمته الف الف دينار ، وفي بيت مال ابنه العباس ما قيمته ستمائة الف دينار (٣) .

وقد اخذت البيعة للمعتز بالله كتابة ، وفيمايلي خلاصتها (٤) : « بسم الله الرحمن الرحيم ، تبايعون عبدالله الامام المعتز بالله امير المؤمنين بيعة طوع واعتقاد .. لا مكرهين ولا مجبرين بل مقرين عالمين بما في هذه البيعة وتاكيدها من تقوى الله وايثار طاعته .. على ان ابا عبدالله المعتز بالله عبدالله وخليفته المفترض عليكم طاعته ونصحيته .. في السر والعلانية .. متمسكين ببيعته بوفاء العقد وذمة العهد .. وبولاية عهد المسلمين لابراهيم المؤيد بالله اخي امير المؤمنين ، وعلى الا تسعوا في نقض شيء مما اكد عليكم .. وعلى الا تبدلوا ولا تغيروا ، ولا يرجع منكم راجع عن بيعته .. فمن نكث منكم مما بايع امير المؤمنين وولي عهد المسلمين .. فكل ما يملك من مال وعقار او سائمة او زرع او ضرع صدقة على المساكين .. وكل مملوك يملكه اليوم والى ثلاثين سنة ذكر وانثى ، احرار لوجه الله . ونساؤه يوم يلزمه فيه الحنث ومن يتزوج بعدهن الى ثلاثين سنة طوالق طلاق الحرج ، لا يقبل الله منه الا الوفاء بها .. والله عليكم بذلك شهيد » .

---

(٣) الطبري ٩/ ٢٨٤ ، والكامل ٧/ ١٤٣ .

(٤) نص كتاب البيعة في الطبري ٩/ ٢٨٤ ـ ٢٨٦ .

ومما يدعو الى الاستغراب ان القواد الاتراك الذين تآمروا على المتوكل على الله اختاروا المعتز بالله للخلافة وعينوا اخاه المؤيد لولاية العهد ، بعد ان كانوا استبعدوا اولاد المتوكل على الله عندما اختاروا المستعين بالله بعد وفاة المنتصر بالله • وقد يكون سبب ذلك انهم شعروا بانهم اقوى من الخليفة الذي اختاروه وبوسعهم التخلص منه متى ما ارادوا ذلك •

وركب المعتز بالله من غد ذلك اليوم الى دار العامة فاخذت له البيعة العامة على الناس ، وخلع على اخيه المؤيد ، وعقد له عقدين اسود وابيض ، فكان الأسود لولاية العهد بعده ، والأبيض لولاية الحرمين • وبعثت الكتب بذلك الى سائر الأمصار (٥) • وعندما خلع المستعين بالله نفسه من الخلافة لثلاث خلون من المحرم سنة ٢٥٢هـ وبايع للمعتز بالله(٦) ، استقرت الخلافة للأخير في جميع ارجاء الدولة العربية •

٢ ـ صفاته وسيرته :

تقاربت المصادر التاريخية التي وصفت المعتز بالله في انه كان جميل الوجه لم ير في الخلفاء مثله جمالا ، ابيض مشربا بحمرة ، اسود الشعر كثيفه ، ادعج العينين ، وكان حسن الجسم طويل القامة (٧) • ويقول عنه المسعودي انه كان يؤثر الملذات ويعدم

---

(٥) مروج الذهب ٤/١٦٢ ـ ١٦٣ •
(٦) الطبري ٩/٣٤٥ ، ومروج الذهب ٤/١٦٣ •
(٧) الطبري ٩/٣٩٠ ، والتنبيه والاشراف / ٣١٦ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٣٠ •

الرأي وتدبره امه قبيحة . وقد غلب على امره ، وقهر سلطانه . وكانت الكتب تخرج باسم صالح من وصيف كأنه مرسوم بالوزارة لتقلبته على الأمور (٨) . ويرى ابن الطقطقي ان المعتز بالله لم يكن بسيرته وعقله بأس ، الا ان الاتراك كانوا قد استولوا ، منذ قتل المتوكل على الله ، على المملكة . واستضعفوا الخلفاء . فكان الخليفة في يدهم كالاسير ان شاءوا ابقوه وان شاءوا خلعوه وان شاءوا قتلوه (٩) . الا ان ابن دحيه يقول عنه انه كان فيه ادب وكفاية ولكن ذلك لم ينفعه لأديار امره ولقرب قرناء السوء منه (١٠) .

ووصف المعتز بالله بانه كان سمح الأخلاق ، واسع الصدر . له ادب وفهم . وكان يقول شعرا صالحا ، وهو اول خليفة احدث الركوب بحلية الذهب . وكان الخلفاء قبله يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة (١١) . وقد جعل نقش خاتمه « المعتز بالله » كما يقول المسعودي . و «محمد رسول الله» كما جاء في خلاصة الذهب المسبوك (١٢) . ويظهر مما يذكره الخطيب البغدادي انه كان له ختمان . احدهما كما ذكر المسعودي والآخر كما جاء في خلاصة الذهب المسبوك(١٣) .

---

(٨) التنبيه والاشراف : ٣١٦ـ٣١٧ .
(٩) الفخري / ٢٢٠ .
(١٠) النبراس / ٨٨ .
(١١) مروج الذهب ٤ / ١٨٠ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٥٩ .
(١٢) التنبيه والاشراف ٣١٧ ، وخلاصة الذهب المسبوك ٢٣٠ .
(١٣) تاريخ بغداد ٢ / ١٢٤ .

ولد المعتز بالله في يوم الخميس السادس عشر من ربيع الاول سنة ٢٣٢هـ(١٤) • وكان مولده بسامرا (١٥) • وامه قبيحة وهي ام ولد رومية(١٦) ، وكانت الزوجة المفضلة عند المتوكل على الله • وقد اختلف في اسمه ، فقد ورد في المعارف وفي مروج الذهب « الزبير » وجاء في الكامل والنبراس « الزبير ويقال طلحة »(١٧) •

٢ ـ خلع المؤيد من ولاية العهد :

نص عهد بيعة المعتز بالله على ان تكون ولاية العهد من بعده لأخيه ابراهيم المؤيد • وكان ذلك احياء للعهد الذي وضعه المتوكل على الله • وكانت العلاقة بين الاخوين ودية ، واستمرت كذلك حتى بلغ المعتز بالله ان عامل ارمينية العلاء بن احمد بعث الى المؤيد بخمسة الاف دينار ، فحاذر من اتصال اخيه ببعض القواد والعمل ، والعمل ضده • فبعث الى اخويه المؤيد وابي احمد طلحة ـ وهما شقيقان لأم واب ـ فحبسهما في الجوسق ، وقيد المؤيد ووضعه في حجرة ضيقة(١٨) • ثم علم ان جماعة من القواد الاتراك يريدون اخراجه من السجن ، ورغم عدم تحققه من ذلك ، فقد امر بضربه •

---

(١٤) تاريخ بغداد ٢/١٢٢ ، وتاريخ الخلفاء /٣٥٩ ، وخلاصة الذهب المسبوك/ ٢٣٠ وفيه انه ولد في سنة ٢٣٣هـ •

(١٥) الطبري ٩/٣٩٠ . وتاريخ بغداد ٢/١٢١ •

(١٦) مروج الذهب ٤/١٦٦ •

(١٧) المعارف / ٣٩٤ ، ومروج الذهب ٤/١٦٦ ، والكامل ٧/٤٩ ، والنبراس / ٨٨ •

(١٨) الطبري ٩/٣٦١ •

واخذت منه رقعة بخطه يخلع نفسه من ولاية العهد (١٩) • ثم ما لبث المؤيد ان مات في الحبس •

خشي المعتز بالله ان يتهم بقتل اخيه ، فدعا بالقضاة والفقهاء والشهود فاخرج اليهم ابراهيم المؤيد ميتا لا اثر به ولا جرح ، وحمله الى امه اسحاق على حمار وحمل معه كفن وحنوط ، وامر بدفنه • ويقال سبب موته انه ادرج في لحاف مسموم وشد طرفاه حتى مات فيه (٢٠) • كما يقال انه اقعد في حجر من ثلج ونضدت عليه حجرة الثلج فمات بردا (٢١) • ويظهر ان موت المؤيد لم يكن طبيعيا ، وقد مات باحدى وسائل التعذيب المعروفة آنذاك بعد ان قرر المعتز بالله التخلص منه •

وقال الشاعر مروان بن ابي الجنوب قصيدة في مدح المعتز وامر المؤيد ، جاء فيها (٢٢):

انت الذي يمسك الدنيا اذا اضطربت
يا ممسك الدين والدنيا اذا اضطربا

ما كنت اول رأس خانه ذنب
والرأس كنت وكان الناكث الذنبا

لو كان تم له ما كان دبره
لأصبح الملك والاسلام قد ذهبا

---

(١٩) الطبري ٩/٣٦٢ ، ومروج الذهب ٤/١٧٦ •
(٢٠) الطبري ٩/٣٦٢ ، ومروج الذهب ٤/١٧٦ •
(٢١) الطبري ٩/٣٦٢ •
(٢٢) الطبري ٩/٣٦٤ _ ٣٦٥ •

اراد يهلك دنيانا ويعطبها
وقد اراد هلاك الدين والعطبا

لما اراد وثوبا من سناهته
امسى عليه امام العدل قد وثبا

لقد رماك بسهم لم يصبك به
ومن رماك عليه سهمه انقلبا

لقد رعيت له ما كان من سبب
فما رعى لك احسانا ولا سببا

وكنت اكثر برا من ابيه به
ولم تكن بأخ في البر ، كنت أبا

وكان قرب سرير الملك مجلسه
فقد تباعد منه بعد ما اقتربا

وذل بعد تماديه ونخوته
كالحوت اصبح عنه الماء قد نضبا

وقد فسخت عن الأعناق بيعته
فلا خطيب له يدعوا اذا اختطبا

أمست قطيعة ابراهيم قد قطعت
حبل الصفاء وحبل الود فانقضبا

ويستنتج مما جاء في هذه الأبيات ان المؤيد حاول الوثوب باخيه المعتز بالله ، رغم انه كان برأ به ، وقد احسن اليه وقربه حتى صار موضع احترام الجميع ، الا انه تجاهل ذلك وتنكر له ، واخذ

يعمل ضد اخيه . هذا اذا لم يكن الشاعر قد حابى الخليفة وقال ما يرضيه .

٥ ـ خلع المعتز بالله وقتله :

لم يلبث القواد الاتراك ان اختلفوا مع المعتز بالله ، لاسيما عندما عجز عن تدبير الاموال لهم ولارزاق جندهم ، فقرروا خلعه والتخلص منه . وقد ذكرنا هذا بشيء من التفصيل في البحث الخاص بالخلفاء والقواد الاتراك . فقبضوا عليه واجبروه على ان يخلع نفسه من الخلافة . وكانوا اتفقوا على ان يبايعوا محمد بن الواثق بالله الا ان محمداً امتنع عن قبول البيعة له ما لم يخلع المعتز بالله نفسه امامه ، فاحضر المعتز بالله فتنازل امام محمد وتمت البيعة للخليفة الجديد الذي لقب بالمهتدى بالله .

وقد حبس المعتز بالله ، وكان القواد الاتراك قرروا قتله . فقتل في محبسه بعد بضعة ايام (٢٣) . وهناك عدة روايات عن كيفية قتله . فيقال انه منع عنه الطعام والشراب ثلاثة ايام ، ثم ادخلوه سرداباً وجصصوه عليه فاصبح ميتاً (٢٤) . ويقال انهم ادخلوه الى الحمام حتى عاين الموت وهو يطلب الماء فيمنع عنه ، ثم اعطوه ماء مثلجاً فشربه وسقط ميتاً (٢٥) . ويقال انه ادخل الحمام فاغلق عليه حتى مات (٢٦) . وكانت وفاته في الثاني من شعبان

---

(٢٣) مروج الذهب ١٧٨/٤ ، وتاريخ اليعقوبي ٥٠٤/٢ .
(٢٤) الطبري ٣٩٠/٩ ، والكامل ١٩٦/٧ ، وتاريخ ابن خلدون ٥٠٤/٢ .
(٢٥) العبر ٩/٢ .
(٢٦) النبراس / ٨٨ .

سنة ٢٥٥ هـ(٢٧) . ولما مات اشهدوا على موته بني هاشم والقواد بانه صحيح لا اثر فيه . فدفن مع المنتصر بالله في ناحية قصر الصوامع (٢٨) . اي انه دفن في قبر ظاهر مشهود كقبر المنتصر بالله وفي نفس المكان .

وكان مدة خلافته من يوم بويع له بسامرا الى ان خلع اربع سنين وستة اشهر وثلاثة وعشرين يوما (٢٩) . اما مدتها منذ ان تمت بيعته ببغداد فكانت ثلاث سنوات وسبعة اشهر (٣٠) . وكان عمره عند وفاته اربعا وعشرين سنة (٣١) .

---

(٢٧) تاريخ بغداد ٢/١٢٦ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٥٠٤ وفيه انه توفى لثلاث بقين من رجب .

(٢٨) الطبري ٩/٣٩٠ ، وتاريخ بغداد ٢/١٢٥ ـ ١٢٦ . وجاء فيه : ويقال انه دفن بموضع يقال له السميدع .

(٣٠) مروج الذهب ٤/١٦٦ وتاريخ اليعقوبي ٢/٥٠٤ ، والنبراس /٨٨ . وتاريخ بغداد ٢/١٢٦ . وفيه تنقص المدة ثلاثة ايام .

(٣١) الطبري ٩/٣٩٠ ، ومروج الذهب ٤/١٦٦ . والكامل ٧/١٩٦ .

الفصــل الثــامن

المهتــدي بالله

محمد بن الواثق بالله

١ ـ مبايعته :

بعد ان قرر الاتراك خلع المعتز بالله اجتمعت كلمتهم على ان ليس في اولاد الخلفاء افضل ولا اعقل من محمد بن الواثق بالله(١) • كانوا عندما حبسوا المعتز بالله بعثوا الى مدينة الســلام لاحضــار محمد ، وكان المعتز بالله قد نفاه اليها واعتقله فيها • ويقال ان سبب نفيه انه كان يكثر التردد على المعتز بالله وكان هذا يستمع الى اقواله في امور كثيرة ، وفيما يمضيه ويبديه • وكان كثيرا ما يعارض قبيحة ام المعتز بالله فيما تأمر وتنهى ، فضاقت به ذرعا ولم تزل بابنها حتى امر باحداره الىمدينة السلام على كره منه(٢) فلما جيء به الى سامرا عرض عليه الاتراك ان يبايعوه بالخلافــة فابى حتى خلع المعتز بالله نفسه امامه واعترف بعجزه عن القيام بمهام

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢/٥٠٥ •
(٢) المحاسن والمساوىء / ٥٣٩ •

الخلافة . ثم بايعه . فتبعه القواد الاتراك والحاضرون وسمي المهتدي بالله • وكان ذلك في يوم الاربعاء لليلة بقيت من رجب سنة ٢٥٥هـ (٣) •

وعندما ورد كتاب المهتدي بالله الى مدينة السلام بالبيعة له هاج من فيها من الجند وخرج معهم العامة وهجموا على دار سليمان بن عبدالله صاحب الشرطة ، وهتفوا باسم ابي احمد الموفق بن المتوكل على الله الذي كان حينذاك منفيا في مدينة السلام ، ونادوا بالبيعة له • فحدثت بالمدينة فتنة قتل فيها كثيرون ، وغرق في دجلة قوم وجرح آخرون • ويقول الطبري « حتى وجه الى اهل بغداد بمال رضوا ووقعت بيعته الخاصة ببغداد للمهتدي يوم الخميس لسبع ليال خلون من شعبان ، ودعى له يوم الجمعة لثمان خلون منه» (٤) •

ومدحه الشاعر البحتري مشيداً بورعه وعدله بقصيدة منها : (٥)

بارك الله للخليفة في الملك الذي حازه له المقدار

رتبة من خلافة الله قد طا
لت بها رقبة له وانتظار

طلبته فقراً اليه ، وما كا
ن به ساعة اليها افتقار

---

(٣) الطبري ٩/٣٩١ ومروج الذهب ٤/١٨٢ وتاريخ اليعقوبي ٢/٥٠٥ وفيه ان بيعته كانت قبل ذلك بيوم واحد • وتاريخ بغداد ٣/٣٤٨ •
(٤) الطبري ٩/٣٩٣ •
(٥) القصيدة في ديوان البحتري ٢/٨٥٢ـ٨٥٦ •

أخـذ الاوليـــاء اذ بايعـــوه
بيـدي مخبت عليـــه الوقـار

وتجلى للنــــاظــرين آبـــي
فيـــه عن جانب القبيح ازورار

وارتنـــا السجاد سيما طويل الليل في وجهه لهـا آثـار

ولديه تحت السكينة والأخبات سطو على العدا واقتـدار

زاد في بهجة الخلافة نوراً فهو شمس للناس ، وهي نهار

واجار الدنيا من الخوف والحيف ، فهل يشكر المجير المجار

٢ ـ صفاته وسيرته :

ولد المهتدي بالله بالقاطول في سنة ٢١٨هـ وقيل ٢١٩هـ ونشأ بسامرا (٦) • وكان عمره عندما بويع له سبعا وثلاثين سنة . وقيل تسعا وثلاثين(٧) • وامه ام ولد رومية يقال لها قرب(٨) • وقد توفيت قبل ان يبايع له • وكان قد تزوجها المستعين بالله ، ولما قتل صير المعتز بالله مع الحرم في قصر الرصافة - وقال المهتدي يوما لجماعة من القواد الاتراك : اما انا ليس لي ام احتاج لها الى غلة عشرة آلاف الف دينار في كل سنة لجواريها وخدمها والمتصلين بها ، وما اريد لنفسي وولدي الا القوت (٩) • وهو يعرض بهذا بام المستعين بالله

(٦) تاريخ بغداد ٣٤٨/٣ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٣١ •
(٧) مروج الذهب ١٨٢/٤ •
(٨) الطبري ٣٩١/٩ ، ومروج الذهب ١٨٢/٤ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٦١ ويسميها وردة •
(٩) الطبري ٣٩٦/٩ •

وأم المعتز بالله اللتين عرفتا باحتواء الاموال والاسراف في الانفاق والامعان في حياة الترف ٠

اتفق الطبري والمسعودي على وصف المهتدي بالله بانه كان رحب الجبهة اجلح ، جهم الوجه ، اشهل عظيم البطن ، عريض المنكبين ، قصير القامة ، طويل اللحية (١٠) ٠ ويقول الخطيب البغدادي انه كان اسمر رقيقاً ، حسن اللحية ، اشيب ، حسن العينين(١١) ٠

وقد اختلف المهتدي عن اسلافه من خلفاء بني العباس في سلوكه وسياسته في الحكم ٠ اذ كان ، كما يقول الخطيب البغدادي ، من احسن الخلفاء مذهبا واجلهم طريقة ، واظهرهم ورعا ، واكثرهم عبادة (١٢) ٠ ويضيف السيوطي انه كان عادلا قويا في امر الله ، وبطلا شجاعا ، ولم يزل صائما منذ ان ولي الخلافة الى ان قتل(١٣) ٠ وكان يحاول ان يكون في بني العباس مثل عمر بن عبدالعزيز في بني امية ، وكان يقول انه غار على بني هاشم فاخذ نفسه بهذه السيرة ٠ وقد وجد له سفط فيه جبة صوف وكساء . وكان يلبس ذلك في الليل ويصلي فيه (١٤) ٠

امر المهتدي بالله باخراج القيان والمغنين من حاضرة الخلافة سامرا ونفيهم الى بغداد ، وامر بقتل السباع التي كانت بدار

---

(١٠) نفس المصدر / ٤٦٩ ، والتنبيه والاشراف / ٣١٨ ٠
(١١) تاريخ بغداد ٣/٣٤٨ ٠
(١٢) نفس المصدر ، والكامل ٧/٢٣٣ ٠
(١٣) تاريخ الخلفاء / ٣٦١ ٠
(١٤) تاريخ بغداد ٣/٣٥٠ ، والكامل ٧/٢٣٤ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٣٠ ٠

الخلافة وطرد الكلاب (١٥) • واطرح الملاهي ، وحرم الغناء والشراب (١٦) • وامر ان يحد شارب الخمر كائنا من كان • فابغضه الجند واهل الفساد بسبب ذلك (١٧) • ومع الموظفين والعمال عن الظلم والتعدى (١٨) • وذكر المسعودي اجراءات اخرى اتخذها المهتدي بالله تقشفا وورعا ، فقد قلل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب . وامر باخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم ، وعمد الى الصور التي كانت في المجالس فمحيت ، وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين يدي الخلفاء ، والديوك ، وقتل السباع المحبوسة ، ورفع بسط الديباج وكل فرش لم ترد الشريعة باباحته ، وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها في كل يوم عشرة الاف درهم ، فازال ذلك وجعل لمائدته وسائر مؤونته في كل يوم مائة درهم (١٩) •

وكان المهتدي بالله رد المظالم وجلس للعامة يستمع الى شكاواهم ويفصل بينهم (٢٠) • وبنى قبة لها اربعة ابواب سماها قبة المظالم ، وكان اذا جلس فيها للنظر في المظالم امر بان توضع مواقد الفحم في الاروقة عند اشتداد البرد ، واذ دخل المتظلم أمر بسان يدفأ ويجلس ليسكن روعه ويثوب اليه عقله ويتذكر حجته ، ثم يدنيه

---

(١٥) الطبري ٩/٤٠٦ ، والكامل ٧/٢٠٣ •
(١٦) الطبري ٩/٤٠٦ ، والكامل ٧/٢٣٥ ، والفخري / ٢٢٣ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٣٠ •
(١٧) خلاصة الذهب المسبوك •
(١٨) الكامل ٧/٢٣٤ ، والفخري / ٢٢٣ •
(١٩) مروج الذهب ٤/١٨٩ ـ ١٩٠ •
(٢٠) الطبري ٩/٤٠٦ ، والكامل ٧/٢٠٣ •

ويسمع منه (٢١) • وكان هو آخر من جلس لرد المظالم من خلفاء بني العباس (٢٢) • كما كان شديد الاشراف على امور الدواوين وشؤون الخراج ، ويحاسب كتاب الدواوين بنفسه (٢٣) •

ان تقليص نفقات دار الخلافة عامة ، ونفقات الخليفة بصورة خاصة ، وتشديد الرقابة على دواوين الدولة وامور الجباية ، كانت اهم ما قام به المهتدي بالله ، في مدة حكمه القصيرة • ويبدو انه كان يهدف الى اصلاح النظام المالي الذي كان قائما آنذاك ، بتنظيم جباية الايرادات ، واوجه الانفاق • الا انه لم يستطع ان يحقق من ذلك سوى شيء يسير لسوء الجهاز الاداري من جهة ولانشغاله في الصراع الذي نشب بينه وبين القواد الأتراك ، من جهة اخرى •

لقد كان لتزمت المهتدي بالله رد فعل سيء عليه ، فقد ثقلت وطأته على الناس عامة وخاصة ، فاستطالوا خلافته ، وسئموا ايامه ، وعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه (٢٤) • ويعزو صاحب خلاصة الذهب المسبوك اتفاق الامراء الاتراك على محاربته وخلعه لما كان نهاهم عن جميع المنكرات ، ومنعهم عن تعاطي المحرمات(٢٥) • ومع ما في هذا القول من المغالاة فهو لا يخلو من الحقيقة • وقد قال له احد القواد الاتراك في احدى مناقشاته معهم : أتريد ان تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها ؟ قال : اريد ان احملهم على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم واهل بيته والخلفاء الراشدين ، فقال

---

(٢١) المحاسن والمساوىء / ٥٤٠ •
(٢٢) الاحكام السلطانية / ٦٤ •
(٢٣) تاريخ بغداد ٣/٣٥٠ •
(٢٤) مروج الذهب ٤/١٨٣ •
(٢٥) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٣٢ •

له : ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان مع قوم قد زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة ، وانت انما رجالك ما بين تركي وخزري وفرغاني ومغربي ، وغير ذلك من انواع الأعاجم لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، وانما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا ، فكيف تحملهم على ما ذكرت(٢٦) ؟ وشبيه بهذا ما يقوله المسعودي من ان المهتدي بالله « صاحب اقواما لا تجوز عندهم اخلاق الدين ولا يريدون الا امر الدنيا »(٢٧) . والواقع ان المهتدي بالله لم يجد له ناصرا عندما اصطدم بمخالفيه من الاتراك .

ويعزو ابن دحية ما واجه المهتدي بالله من المصاعب الى الرجال الذين تولوا شؤون الدولة على عهده ، فيقول : ولم يوفق في الوزير والحاجب والقاضي ، لأن وزيره جعفر بن محمود الاسكافي ، وحاجبه صالح بن وصيف ، وقاضيه الحسن بن محمد بن ابي الشوارب ، يحبون الدنيا ويشرئبون اليها ، فكانوا اعانة على سفك دمه (٢٨) .

٣ ـ خلعه وقتله :

تروي المصادر عدة روايات عن اسباب الخلاف الذي نشب بين الخليفة المهتدي بالله وبين القواد الأتراك . ومهما اختلفت تلك الروايات فانها تتفق في ان السبب الرئيس هو الشك القائم بين الخليفة وكبار القواد مما ادى الى صراع شديد بين الجانبين انتهى

---

(٢٦) مروج الذهب ٤/١٨٣ .
(٢٧) التنبيه والاشراف / ٣١٨ .
(٢٨) النبراس / ٨٩ .

بالقضاء على خلافة المهتدي بالله وحياته • فقد ضاق الخليفة المتزمت ذرعا بتسلط اولئك القادة على شؤون الدولة واستئثارهم بمواردها واموالها ، وحاول ان يستغل نقمة الجند على قوادهم وشكاواهم منهم ، وبعض الخلافات القائمة بين القواد انفسهم ، ويعمل للقضاء على بعضهم لأضعاف شوكتهم بصورة عامة • الا ان عمله في هذا كانت تنقصه الحكمة والتدبير ، وكانت محاولاته مكشوفة • فلما ادرك الاتراك نية المهتدي بالله نحوهم وعزمه على فل جمعهم واضعاف شأنهم ، وحدوا كلمتهم فقضوا على احد زملائهم هو القائد صالح بن وصيف الذي كان يظاهر الخليفة ، ومن ثم هاجموا الخليفة نفسه • فقصدوا دار الخلافة في منتصف شهر رجب سنة ٢٥٦هـ ، وانضم اليهم الجند الاتراك الذين كانوا اعلنوا ولاءهم للخليفة ، فبقي معه عدد قليل من مناصريه ، فجرح واضطر الى الهرب من الدار ، ثم يلبث ان استسلم لاعدائه ، فحبسوه في الجوسق •

اجتمع القواد الاتراك وطلبوا اليه ان يخلع نفسه من الخلافة فأبى • الا انهم اختاروا احمد بن المتوكل على الله وبايعوه بالخلافة ، ولقب بالمعتمد على الله • ثم اخرجوا المهتدى بالله من حبسه ميتاً وادعوا بانه مات متأثراً بجراحه • ويقال انه لما ابى ان يخلع نفسه خلعوا اصابع يديه ورجليه من كفيه وقدميه حتى ورمتا وعذبوه فمات (٢٩) • ويروي المسعودي انهم طعنوه بالخناجر وكان اول من جرحه ابن عم لبايكباك طعنه في اوداجه وانكب عليه فالتقم الجرح والدم يفور منه ، واقبل يمص الدم حتى ارتوى منه ، وكان هذا

---

(٢٩) الطبري ٩/٤٦٨ •

التركي سكرانا ، فلما تركه كان المهتدي بالله قد مات [٣٠] · ويؤيد ابن دحية انه قتل بخنجر [٣١] · ويروى انهم داسوا خصيته فمات[٣٢] · ويظهر من رواية اليعقوبي انه يؤيد موته من جراحه اذ يقول « فحملوه على دوابه وجراحاته تنطف دماً ، فدعوه الى ان يخلع نفسه فأبى ، ومات بعد يومين [٣٣] ·

ويظهر ان طائفة من الاتراك ندموا على قتلهم المهتدى بالله ، فداروا به ينوحون ويبكون عليه لما تبين لهم من نسكه وزهده [٣٤] ·

كان عمر المهتدي بالله عند وفاته ثمانية وثلاثين عاما حسبما ذكره الطبري ، الا ان الخطيب البغدادي والاربلي يقولان انه مات عن سبعة وثلاثين عاما واربعة اشهر وعشرة ايام · اما المسعودي فيقول انه كان له من العمر اربعون عاما [٣٥] · واذ ما كان تاريخ ميلاده الذي سبق ان ذكرناه صحيحا فان ما ذكره الخطيب البغدادي والاربلي هو العمر الصحيح للمهتدي بالله ·

اما مدة خلافته فقد بلغت احدى عشر شهراً وسبعة عشر يوماً او ثمانية عشر ، كما يقول اليعقوبي والمسعودي والخطيب

---

(٣٠) مروج الذهب ١٨٦/٤ ·

(٣١) النبراس / ٨٩ ·

(٣٢) الكامل ٢٣٠/٧ ·

(٣٣) تاريخ اليعقوبي ٥٠٦/٢ ·

(٣٤) مروج الذهب ١٨٦/٤ ·

(٣٥) الطبري ٤٦٩/٩ ، وتاريخ بغداد ٣٤٨/٣ ، وخلاصة الذهب المسبوك/

البغدادي(٣٦) • غير ان الطبري يزيد على ذلك بضعة ايام (٣٧) •
ونظراً لثبوت تاريخ مبايعته بالخلافة ويوم وفاته ، فان المدة التي
ذكر اليعقوبي والمسعودي والخطيب اقرب الى الصواب •

(٣٦) تاريخ اليعقوبي ٢/٥٠٦ ، والتنبيه والاشراف / ٣١٨ ، وتاريخ بغداد
٢٣٢، والتنبيه والاشراف / ٣١٨ •
٣/٣٥١ •
(٣٧) الطبري ٩/٦٩؛ •

الفصل التاسع

المعتمد على الله

ابو العباس احمد بن المتوكل على الله

١ ـ مبايعته :

لم يستطع القواد الاتراك ان يرغموا الخليفة المهتدي بالله على ان يخلع نفسه من الخلافة رغم الاساليب القاسية التي اتبعوها معه . فمات وهو الخليفة الشرعي • الا انهم كانوا قد اخرجوا احمد بن المتوكل على الله من حبسه في الجوسق وبايعوه ، ولقب بالمعتمد على الله • ويظهر انهم بعد ان خاضوا صراعا عنيفا مع المهتدي بالله حتى تخلصوا منه ، حرصوا على ان يختاروا للخلافة من يتوسمون فيه ضعف الشخصية وسهولة الانقياد ، ليكون طوع ارادتهم • فاختاروا احمد بن المتوكل على الله رغم انهم اخذوا على انفسهم الا يفسحوا المجال لأحد من ولد المتوكل على الله ان يصل الى منصب الخلافة •

وقد بويع المعتمد على الله في يوم الثلاثاء لاربع عشر بقيت من رجب سنة ٢٥٦هـ(١) وكان عمره خمسا وعشرين سنة (٢) • وكان قد ولد في سنة ٢٢٩هـ(٣) واذا صح تاريخ مولده هذا فان عمره يجب ان يكون قريبا من سبع وعشرين سنة • وكان احمد المعتمد على الله يسمى ابن فتيان نسبة الى امه ، وهي ام ولد رومية اسمها فتيان (٤) •

٢ ـ صفاته وسيرته :

تفاوت المؤرخون في ذكر اوصاف المعتمد على الله • ويقول المسعودي انه كان حسن الجسم ، كبير العينين ، طويلا جسيما ، طويل اللحية ، عظيم الهامة (٥) • ويقول الاربلي انه كان اسمر رشيقا خفيف اللحية (٦) • ويضيف الذهبي على ذلك انه كان مدور الوجه ، مليح العينين ، صغير اللحية وقد اسرع اليه الشيب (٧) •

اما ما ورد عن اخلاقه وسلوكه فان المسعودي يقول انه كان مشغوفا بالطرب ، والغالب عليه المعاقرة ومحبة انواع اللهو ، وانه اهمل امور الرعية وتشاغل بلهوه ولذاته حتى اشفى الملك على

---

(١) الطبري ٩/٤٧٤ ، والمعارف / ٣٩٤ ، ومروج الذهب ٤/١٩٨ •
(٢) مروج الذهب ٤/١٩٨ •
(٣) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٣٣ ، وتاريخ الخلفاء ٣٦٣ •
(٤) المعارف / ٣٩١ ، والطبري ٩/٤٧٤ ، وتاريخ بغداد ٤/٦١ ، ومروج
(٣) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٣٣ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٦٣ •
الذهب ٤/١٩٨ ويقول انها كوفية •
(٥) التنبيه والاشراف / ٣٢٠ •
(٦) خلاصة الذهب المسبوك /٢٣٣ •
(٧) شذرات الذهب ٢/١٧٣ •

الذهاب[٨] . ويؤيده في ذلك مؤرخون آخرون . اذ يقول التنوخي عنه انه مع سماحة اخلاقه وكثرة جوده وسخائه كان شديد العربدة على ندمائه اذا سكر ، ولا يكاد يسلم له من العربدة مجلس الا في الأقل [٩] . ويقول الذهبي انه كان منهمكا على اللهو واللـذات ، يسكر ويعربد [١٠] . ويقول السيوطي انه انهمك في اللهو واللذات واشتغل عن الرعية فكرهه الناس واحبوا اخاه طلحة [١١] . على انه من جهة اخرى كان حليما لطيفا ، من الرأفة والرحمة على غاية[١٢] . وانه كان من اسمح آل العباس ، وكان يمثل بينه وبين المستعين بالله ويقال : ما ولي اسمح منهما ، كما كان جيد التدبير ، فهم بالامور ، فلما قوض امره وغلب على رأيه ، نقصت حاله عند الناس[١٣] . ويقال انه كان يحب الاطراء والمديح ، فاذا عمل جميلا اكثر من ذكره وتبجح به وان كان صغيراً[١٤] .

وقد اشرنا في الفصل الخاص بمجالس الخلفاء الى بعض مظاهر اسرافه ، مما جعل اخاه الموفق يمنع عنه المال لحاجة الدولة الى الاموال لتوفير نفقات الحروب الداخلية ، لاسيما حرب الزنج التي اضطرتها على الاقتراض من التجار [١٥] .

---

(٨) مروج الذهب ٤ / ٢٢٠ والتنبيه والاشراف / ٢١٨ .
(٩) الفرج بعد الشدة ٢ / ٢٤٣ .
(١٠) شذرات الذهب ٢ / ١٧٤ .
(١١) تاريخ الخلفاء / ٣٦٣ .
(١٢) تاريخ الخلفاء ٢ / ١٧٤ .
(١٣) الديارات / ١٠٢ .
(١٤) الفرج بعد الشدة ٢ / ٢٤٨ .
(١٥) تاريخ بغداد ٣ / ٢٠٦ ، ونشوار المحاضرة .

٣ ـ استئثار الموفق بالسلطة :

كانت خلافة المعتمد على الله عجيبة الوضع ، كما يقول ابن الطقطقي ، فقد كان هو واخوه طلحة الملقب بالموفق كالشريكين في الخلافة ، للمعتمد على الله الخطبة والسكة والتسمية بامرة المؤمنين ، ولأخيه طلحة الأمر والنهي وقود الجيش ومحاربة الاعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزارة والامراء (١٦) • ويقول المسعودي ان اخاه ابا احمد الموفق قد غلب على امره وتدبير ملكه وسياسة سلطانه . وصيره كالمحجور عليه ، لا امر له ولا نهي ، وان الموفق قام بذلك احسن قيام رغم ما كان يلقى من اعتراض الاتراك وشغبهم وسوء طاعتهم(١٧) • وكذلك يقول ابن الأثير ان المعتمد على الله كان في خلافته محكوما عليه ، قد تحكم فيه اخوه ابو احمد الموفق وضيق عليه (١٨) •

ومما يلفت النظر ان ابا جعفر الطبري واحمد بن واضح اليعقوبي ، وهما من قدامى المؤرخين وقد عاصرا احداث عهد سامرا ، لم يشيرا الى تسلط الموفق على شؤون الخلافة في عهد اخيه المعتمد على الله ، ولم يذكرا شيئاً عن ذلك • ويعتبر المسعودي اقدم من اشار الى تلك العلاقة بين الخليفة واخيه ، من المؤرخين •

ان من يدقق سيرة المعتمد على الله واعماله طيلة مدة خلافته التي قاربت ربع قرن يستنتج انه كان احد اثنين : اما انه كان يزهد

---

(١٦) الفخري / ٢٢٦ ــ ٢٢٧ •
(١٧) التنبيه والاشراف / ٣١٨-٣١٩ ومروج الذهب ٢١١/٤ •
(١٨) الكامل ٤٥٥/٧ •

السلطة بطبيعته ، ويميل الى اللهو والملذات ، وقد أمن جانب اخيه فترك له كل سلطاتها ليمارسها في تسيير شؤون الدولة ، بحيث غدا المعتمد على الله محجورا عليه ، فلم يستطع مجابهة اخيه ، فاضطر الى ان ينفس عن قهره وغلبته بالانصراف الى اللهو والاغراق في الملذات • الا ان ممارسة المعتمد على الله سلطاته كخليفة بين حين وآخر ، كتعيين الوزراء والولاة والقضاة ، وتوجيه بعض الامور ، وقيادة بعض الحملات العسكرية ، والاهتمام بالقضاء على الثورات، وتشييد قصر المعشوق وغيره ، يجعلنا نميل الى الرأي الأول •

والواقع ان المعتمد على الله كان يمارس سلطانه في تعيين الوزراء والولاة والقواد منذ توليه الخلافة • فقد استوزر عبيدالله بن يحيى عندما افضت أليه الخلافة (١٩) • ولما مات عبيدالله استوزر الحسن بن مجلد (٢٠) • ثم عزله واستوزر سليمان بن وهب (٢١) •

وقلد القائد التركي اماجور ولاية دمشق واعمالها في سنة ٢٥٦هـ (٢٢) • ولما ظهر علي بن زيد بالكوفة وجه القائد كيجور الى محاربته (٢٣) • ووجه القائد موسى بن بغا ، وهو كبير القواد الاتراك ، الى الري لحرب الحسن بن زيد الطالبي (٢٤) • وسير في سنة ٢٥٧هـ احمد المولد الى البصرة لحرب صاحب الزنج (٢٥) • وعقد

---

(١٩) تاريخ اليعقوبي ٢/٥٠٧ ، ومروج الذهب ٤/١٩٩ •
(٢٠) مروج الذهب ٤/١٩٩ •
(٢١) الفخري / ٢٢٨ •
(٢٢) الكامل ٧/٢٢٨ •
(٢٣) نفس المصدر / ٢٢٩ •
(٢٤) الطبري ٩/٤٧٤ ، والكامل ٧/٢٤٠ •
(٢٥) الطبري ٩/٤٨٨ ، والكامل ٧/٢٤٦ •

في سنة ٢٥٨هـ لأخيه الموفق على عدد من الولايات وخلع عليه ، وعلى مفلح القائد . وسيرهما الى حرب الزنج (٢٦) • ثم اتبعهما بالقائد موسى بن بغا في السنة التالية (٢٧) • وعين في سنة ٢٦٠هـ اساتكين من كبار قواد الاتراك والياً على الموصل(٢٨) • وعين في السنة التالية محمد بن عمر بن علي الطائي واليا على اذربيجان (٢٩) • كما انه خرج في سنة ٢٦٢هـ على راس الجيش لحرب يعقوب بن الليث الصفار لما أصر على القدوم بجيشه الى سامرا (٣٠) •

يستدل مما ذكرنا ان الموفق لم يبعد اخاه عن ممارسة سلطاته الا بعد عدة سنوات من توليه الخلافة • وذلك بعد ان اظهر كفاية عسكرية وسياسية في حربه صاحب الزنج ، وفي رده ابن الصفار عن العراق ، مما اكسبه محبة الناس واحترام القواد • واذا كانت الحوادث الجسام ، او ما نسميه بالازمات ، تظهر قابليات الرجال وتكشف عن معادنهم ، فقد اظهر الموفق في الحروب التي قادها مهارة وحزماً • اضافة الى ما كان يتمتع به من خلق هادىء رصين ، وصفات انسانية • اذ كان شديد الرعاية لجنده وبخاصة الجرحى منهم ، ويتفقد ابناء الشهداء ، وكانت رعايته تشمل جرحى الأعداء ايضا(٣١) • وبذلك استطاع ان يفرض احترامه على القواد والولاة،

---

(٢٦) الطبري ٩/٤٩٠ ، والكامل ٧/٢٥٩ •
(٢٧) الكامل ٧/٢٥٩ •
(٢٨) نفس المصدر / ٢٦٩ •
(٢٩) نفس المصدر / ٢٨٨ •
(٣٠) الطبري ٩/٥١٦ ، ومروج الذهب ٤/٢٠٠ ، والكامل ٧/٢٩٠ •
(٣١) الطبري ٩/٦٠٣ و٦٠٨ ، والكامل ٧/٣٦٥-٣٦٦ •

ورجال الدولة في سامرا • مما اتاح له ان يفرض سلطاته على الخليفة نفسه بحيث لم يترك له بعد سنة ٢٦٨هـ من الخلافة غير اسمها ، ولم يعد ينفذ له توقيع لا في قليل ولا في كثير • وغدا الحكم كله للموفق ، والاموال تجبى اليه ، مما اضجر المعتمد على الله بحيث انه حاول الهرب والالتجاء الى احمد بن طولون في مصر ، فاعيد الى سامرا مرغما •

ومما يؤيد ما ذهبنا اليه ما ذكره ابن دحية من ان ايام المعتمد على الله كانت مضطربة الاحوال مختلة التدبير ، كثيرة العزل والتولية بتدبير الموالي وغلبتهم عليه (٣٢) • اي ان اضطراب احواله واختلال ادارته في اول امره كان بسبب تأثير القواد الاتراك عليه • ويستنتج مما اورده الحصري ان امر المعتمد على الله كان ، قبل تمكن الموفق ، في يد القواد الاتراك (٣٣) • والواقع انه اضطر بعد ما بويع بالخلافة ان يصافح كبير قوادهم موسى بن بغا ، فعندما كان موسى يخرج من سامرا كان المعتمد على الله يشيعه(٣٤) • كما انه ولاه قيادة الجيش الذي وجهه لقتال صاحب الزنج في سنة ٢٥٩هـ وشيعه بنفسه وخلع عليه (٣٥) • ولما عهد بولاية العهد لابنه جعفر ضم اليه موسى بن بغا فآل اليه حكم الولايات التي جعلت لجعفر ، نيابة عنه (٣٦) • فقد ادرك المعتمد على الله ان بقاءه رهين برضاء القواد الاتراك ، ولابد من مصانعتهم وتلبية طلباتهم ، كي يضمن

---

(٣٢) النبراس / ٨٩ •
(٣٣) جمع الجواهر / ١٥٨ •
(٣٤) الطبري ٩/٤٧٤ •
(٣٥) نفس المصدر / ٥٠٤ •
(٣٦) الطبري ٩/٥١٤ •

ولاءهم وعدم وثوبهم به • ولما لمس في اخيه الموفق قوة شخصيته وقدرته على السيطرة حاول ان يضمن بواسطته سلامته وبقاءه على عرش الخلافة • الا ان طموح الموفق وضعف شخصية المعتمد على الله، جعلت الموفق يسيطر على كل شيء • ومما زاد في نفوذ الموفق انغماس المعتمد على الله في اللهو والملذات ، فغلبه على امره وتدبير ملكه وسياسة سلطانه • فقام بالملك احسن قيام وقمع من قرب من الاعداء واستصلح من نأى منهم (٣٧) • وقد خطب للموفق على المنابر ، وكان يقال بالخطبة : اللهم اصلح الأمير الناصر لدين الله ابا احمد الموفق ولي عهد المسلمين اخا امير المؤمنين (٣٨) •

وعلى هذا نستطيع ان نقول ان تصرفات المعتمد على الله وموقفه من الأحداث يدلان على انه لم يكن ينقصه الذكاء او الكفاية ، الا انه كما يبرر ، كان ضعيف الشخصية خاملا ، وفيه ميل شديد الى اللهو والتمتع والابتعاد عن تحمل المسؤولية • وهذا يفسر لنا التناقض الواضح في سيرته كخليفة له السلطة العليا في الدولة ، فقد وصف بالسخاء والكرم على حاشيته وندمائه . وبحبه مجالس اللهو والطرب وعدم انقطاعه عنها • الا انه بنفس الوقت يتذمر من انه لا يملك التصرف بامور الدولة او حتى باموره الخاصة •

٤ ـ ولاية العهد :

قرر المعتمد على الله في خلال النصف الاول من شوال سنة ٢٦١هـ ان ينظم امر ولاية العهد بالخلافة من بعده بين ابنه جعفر ، واخيه ابي احمد الموفق طلحة • فولى ابنه العهد بعده وسماه

---

(٣٧) التنبيه والاشراف / ٣١٨ ، والديارات / ١٠١ ـ ١٠٢ •

(٣٨) النبراس / ٨٩ ـ ٩٠ •

المفوض . وولاه المغرب وافريقية وعددا آخر من الولايات ، وضم اليه القائد موسى بن بغا . وولى اخاه العهد بعد جعفر ، وولاه المشرق وولايات اخرى وضم اليه القائد مسرور البلخي . وعقد لكل منهما لواءين اسود وابيض . واشترط ان حدث به حدث الموت وجعفر لم يكمل للأمر ، ان يكون الأمر لأبي احمد ثم لجعفر . واخذت البيعة بذلك على الناس (٣٩) . وبعث بنسخة من كتاب العهد مع القاضي الحسن بن محمد بن ابي الشوارب ليعلقه في الكعبة (٤٠) . وذلك توثيقا للعهد وضمانا بعدم الخروج على ما جاء في الكتاب المذكور .

ولما مات الموفق في شهر صفر سنة ٢٧٨هـ بايع القواد والغلمان ابنه ابا العباس احمد بولاية العهد بعد المفوض ، ولقب بالمعتضد بالله ، فاخرج ابو العباس العطاء للجند ، وخطب يوم الجمعة التالي للمعتمد على الله ثم للمفوض ثم لأبي العباس المعتضد (٤١) . وفي السنة التالية خلع جعفر وبويع للمعتضد بولاية العهد بعد المعتمد على الله . وهناك روايتان عن كيفية خلع الأول ومبايعة الثاني . الراوية الاولى هي التي يذكرها الطبري اذ يقول ان جعفر المفوض خلع من ولاية العهد في اواخر المحرم سنة ٢٧٩هـ وبويع للمعتضد ، وانشئت عن المعتضد كتب الى العمال والولاة بأن أمير المؤمنين قد ولاه العهد وجعل اليه ما كان الموفق يليه من الأمر والنهي والولاية والعزل ، وخطب يوم الجمعة للمعتضد بولاية العهد (٤٢) . ويفهم من هذا ان المعتضد هو الذي

---

(٣٩) الطبري ٩/٥١٤ ، والكامل ٧/٢٧٧ ـ ٢٧٨ .
(٤٠) الطبري ٩/٥١٤ .
(٤١) الطبري ١٠/٢٢ ، والكامل ٧/٤٤٤ ، والمختصر في اخبار البشر ٢/٥٥
(٤٢) الطبري ١٠/٢٨ .

خلع جعفر المفوض من ولاية العهد والزم المعتمد على الله بان يعهد بها اليه . وهذا ما يؤيد ذلك الذهبي ايضا بقوله « ان المعتمد على الله نقض ما كان لناصر دين الله الموفق لولده احمد ، فاستبد بالأمر واستخف بعمه ولم يرجع اليه في شيء .. ومتى لم تخلع ابنك جعفراً من الخلافة طائعاً ، خلعته كارهاً ، فخلع المعتمد ابنه وجعل العهد لابن اخيه احمد المذكور » (٤٤) . اي ان المعتمد على الله فعل ذلك مكرها .

اما الرواية الثانية ، فيذكر ابن الاثير ان المعتمد على الله جلس في المحرم سنة ٢٧٩ هـ للقواد والقضاة ووجوه الناس واعلمهم انه خلع ابنه المفوض الى الله جعفراً من ولاية العهد وجعلها للمعتضد بالله ابي العباس احمد بن الموفق ، وشهدوا على المفوض أنه تبرأ من العهد واسقط اسمه من السكة والخطبة والطراز ، وخطب للمعتضد . وكان ذلك يوما مشهودا ، فقال يحيى بن علي يهنىء المعتضد (٤٥) :

ليهنك عقد انت فيه المقدم
حباك بـه رب بفضلك اعلم
فان كنت قد اصبحت والي عهدنا
فأنت غداً فينا الامـام المعظم
ولازال مـن ولاك فينـا مبلغـا
مناه ، ومن عاداك يشجى ويرغم

(٤٣) مروج الذهب ٤/٢٢٩ .
(٤٤) شذرات الذهب ٢/١٧٣ .
(٤٥) الكامل ٧/٤٥٢ .

وكان عمود الـدين فيـه تأود
فعاد بهـذا العهـد وهـو مقوم
واصبح وجه الملك جذلان ضاحكا
يضيء لنـا منه الذي كان يظلـم
فدونك فاشدد عقد ما قد حويتـه
فانك دون الناس فينـا المحـكم

ويؤيد ابو الفداء رواية ابن الأثير اذ يقول : وفي سنة ٢٧٩هـ خلع المعتمد ابنه جعفر المفوض من ولاية العهد وجعل ابن اخيـه الموفق ولي العهد بعده (٤٦) . الا ان السيوطي يأخذ موقفا وسطا بين الروايتين المذكورتين ، فيقول : وفي اوائل سنة ٢٧٩هـ ضعـف امر المعتمد على الله جداً لتمكن ابي العباس احمد بن الموفق مـن الامور وطاعة الجيش له ، فجلس مجلس عاما واشهد فيه على نفسه انه خلع ولده المفوض من ولاية العهد وبايع لأبي العباس ولقبـه المعتضد(٤٧) .

٥ ـ وفاة المعتمد على الله :

تكاد تجمع المصادر على ان المعتمد على الله توفى ليلة الاثنين لاحدى عشرة بقيت من رجب سنة ٢٧٩هـ(٤٨) . وكان سبب وفاته انه شرب على الشط في القصر الحسني شرابا كثيرا وتعشى فاكثر

(٤٦) المختصر في اخبار البشر ٢/٥٥ .
(٤٧) تاريخ الخلفاء / ٣٦٧ .
(٤٨) الطبري ١٠/٢٩ ، ومروج الذهب ٤/٢٢٩ ، والكامل ٧/٤٥٥ ، والذهب المسبوك / ٢٣٤ ، وفيه انه توفى ليلة الاثنين الخامس عشر من رجب .

من الأكل ، فمات ليلا(٤٩) • وذكر المسعودي تفصيلات عن موته جاء فيها انه تناول مع اثنين من ندمائه رؤوس حملان ، فتهرأ احدهم في الليل ، ومات الآخر قبل الصباح ، اما المعتمد على الله فاصبح ميتاً • ثم يقول : وذكر ان سبب وفاته انه سقي نوعاً من السم في الشراب الذي كانوا يشربونه يقال له البيش ، يحمل من بلاد الهند وجبال الترك والتبت • وجاء فيه ايضا ان القاضي اسماعيل بن حماد أدخل على المعتضد وسلم عليه بالخلافة ، وحضر معه الشهود العدول ، واشرفوا على المعتمد على الله ، ومعهم غلام المعتضد يقول : هل ترون به بأس او اثر ، لقد مات فجأة . وقتلته مداومته لشرب النبيذ • فنظروا اليه فاذا ليس به من أثر • وحمل الى سامرا فدفن فيها (٥٠) •

ويشبه هذا ما ذكره الذهبي من ان المعتمد على الله قد سم في رؤوس جداء اكلها ، ثم يستدرك ويقول انه نام فغم في بساط ، وقيل سم في كأس الشراب (٥١) •

واورد ابن دحية اسبابا اخرى قيلت في موت المعتمد على الله اضافة الى السم • قيل انه رمي في رصاص مذاب فمات . وقيل انه مات في حفرة من ريش مشى عليها فسقط فيها فمات غماً (٥٢) وروى السيوطي أن المعتمد على الله مات فجاءة ، وقيل انه سم ، وقيل بل نام فغم في بساط (٥٣) • ووردت في كتاب « مختصر كتاب

(٤٩) الطبري ١٠/٢٩ ، والكامل ٧/٤٥٥ ، والمختصر في اخبار البشر ٢/٥٦ •
(٥٠) مروج الذهب ٤/٢٢٩ ـ ٢٣٠ •
(٥١) شذرات الذهب ٢/١٧٣ •
(٥٢) النبراس / ٩٠
(٥٣) تاريخ الخلفاء / ٣٦٧ •

البلدان » اشارة يفهم منها انه قتل ، اذ يقول « وكان المعتضد بالله كتب الى عمرو بن الليث الصفار وامره بمواقعة رافع لما بلغه من ميل رافع الى محمد بن زيـــد وانكـــاره قتل المعتمـــد وجلوس المعتضد » (٥٤) • اي ان رافعا يتهم المعتضد بقتل المعتمـــد ليجلس مكانه •

ويبدو ان السبب الذي ذكره الطبري ونقله عنه من جاء بعد من المؤرخين ، وهو الشرب الكثير والأكل الكثير قد اودى بحيـــاة المعتمد على الله ونديميه • وهناك احتمال بان الطعام الذي اكلوا منه قد تسرب اليه الفساد فتسمموا به فماتوا • اما ما اورده الآخرون عن قتله بالسم بوضعه في الطعام او في الشراب ، او قتله بالوسائل التي ذكرت فأمر يشك في صحته • لأن المعتمد على الله كان ضعيفا يسير طوع ارادة اخيه الموفق الذي غلب على اموره ، ولما توفي حل ابنه احمد مكانه واصبح ولياً للعهد ولم يتغير موقف المعتمد على الله منه اذ بقي مستسلما ، منصرفا الى حياته التي اعتادها ، بحيث كان المعتضد الخليفة الفعلي ، فلم يكن والحالة هذه ما يستدعي التخلص منه واللجوء الى قتله •

وهناك اختلاف في عمر المعتمد على الله عند وفاته • فقد قيل انه توفي عن ثمان واربعين سنة (٥٥) • وقيل ان عمره كان خمسين سنة (٥٦) • او خمسين سنة وستة اشـــهر (٥٧) • واذا ما اعتبرنا ان

---

(٥٤) مختصر كتاب البلدان / ٣١٢ •
(٥٥) مروج الذهب ٤/١٩٨ •
(٥٦) خلاصة الذهب المسبوك/٢٣٤ ، والنبراس / ٩٠ ، والعبر ٢/٦١ •
(٥٧) الكامل ٧/٤٥٥ ، والمختصر في اخبـــار البشر ٢/٥٦ ، وتـــاريخ الخلفاء/٣٦٧ •

مولده كان في سنة ٢٢٩هـ كما سبق ان اشرنا ، فان عمره لايمكن ان يكون اقل من خمسين سنة ٠

ويكاد يجمع المؤرخون على ان مدة خلافة المعتمد على الله كانت ثلاثا وعشرين سنة ٠ الا ان ابن الاثير يضيف على ذلك ستة اشهر ٠ بينما يعتبرها الطبري ثلاثا وعشرين سنة وستة ايام ، وتبعه في ذلك الاربلي ٠ ولما كان تاريخ مبايعة المعتمد على الله وتاريخ وفاته معروفين ، فان ما ذكره الطبري اقرب الى الصواب ٠

الباب الثالث

مؤسسات الدولة العربية في عهد سامرا

١ ـ وزراء سامرا

٢ ـ الكتاب

٣ ـ القضاء في عهد سامرا

الفصل الأول

وزراء سامرا

سنعرض فيمايلي ملخصا بسيرة من تولى منصب الوزارة في خلفاء سامرا ، ممن كان لهم دور بارز في ادارة شؤون البلاد ، ونتعرف من خلال سيرهم على علاقاتهم بالخلفاء واساليبهم في الادارة ، وما تركوه من آثار في حياة الدولة العربية خلال عملهم ٠

١ ـ الفضل بن مروان :

عندما وصل المعتصم بالله الى بغداد وتمت مبايعته بالخلافة استوزر كاتبه ابا العباس الفضل بن مروان بن ما سرخس ، وهو نصراني الأصل من اهل البردان (١) ٠ على الرغم من ان اخاه المأمون كان قد اوصاه بالا يتخذ وزيرا لأن تجربته في استيزار يحيى بن اكثم لم تكن مرضية له ٠ الا ان منصب الوزير بما طرأ عليه من ظروف في عهد خلفاء بني العباس الذين سبقوا المعتصم بالله كان قد استقر وثبت ، واصبح من اركان الدولة العربية ٠ ولهذا فقد عهد المعتصم بالله به الى كاتبه الذي كان يعتمد عليه كثيراً ٠

---

(١) وفيات الاعيان ٣/٢١٣ ٠

كان الفضل في اول امره يكتب ليحيى الجرمقاني كاتب المعتصم بالله عندما كان اميراً ، فلما مات الجرمقاني حل محله • وقد اعجب المعتصم بالله به واستصحبه معه الى الشام ومصر ، فاحتوى على كثير من الاموال ، ولما صحب ابو اسحاق اخاه الخليفة المأمون في حملته الاخيرة على بلاد الروم ، عاد الفضل الى بغداد • وكان يتولى تدبير امور ابي اسحاق نيابة عنه ويكتب على لسانه بما يريد • وعندما بلغه خبر موت المأمون ومبايعة المعتصم بالله بالخلافة ، وخلاف بعض القواد عليه ومناداتهم بخلافة العباس بن المأمون ، قام بدور بارز في اخذ البيعة للمعتصم بالله ببغداد ، وضبط الامور فيها • ولما قدم المعتصم بالله عرف له فضله وجهوده ، فاستوزره وخلع عليه ، واسلم مقاليد الامور اليه • وقد استطاع الفضل ان يحل من قلب الخليفة المحل الذي لم يصل اليه احد ، وتمكن منه واستقل بالأمور • فغلب على امره حتى لم يبق للمعتصم بالله معه يد (٢) • حتى قيل ان المعتصم بالله صار خليفة وصار الفضل بن مروان صاحب الخلافة وصارت الدواوين كلها تحت يديه (٣) • الا ان الفضل كان قليل العلم ، ضحل المعرفة ، رغم جودة كتابته • ويصفه ابن الطقطقي بأنه كان عامياً لا علم عنده ولا معرفة ، وكان رديء السيرة جهولا بالامور (٤) • ويقول ابن الاثير عنه انه كان شرس الاخلاق ، ضيق العطف ، كريه اللقاء بخيلا (٥) • ولكنه كان كما يظهر حسن المعرفة بخدمة الخلفاء(٦) •

---

(٢) مآثر الانافة ١/ ٢٢٠ •
(٣) الطبري ٩/ ١٩ •
(٤) الفخري / ٢١٢ •
(٥) الكامل ٦/ ٤٥٤ •
(٦) الفهرست / ١٩٠ ، ووفيات الاعيان ٣/ ٢١٣ ، وشذرات الذهب/ ٢/ ١٢٢

لقد استغل الفضل بن مروان ثقة المعتصم بالله به واعتماده عليه • ويروي التنوخي خبراً فيه دلالة على تسلط الكتاب واستغلالهم نفوذهم في حيازة الأموال • فعندما ندب الخليفة المأمون اخاه ابا اسحاق الى مصر لقمع الثورة التي قامت فيها سنة (٢١٤هـ) استصحب معه كاتبه الفضل بن مروان • وقد اشخص الفضل معه احد كتابه هو ابن عبدون الانباري ليساعده في عمله • ويقول ابن عبدون انه كسب في ليلة واحدة مائة الف دينار • وذلك ان القتل لما استشرى في اهل مصر تقدم عدد كبير من رؤساء البلد الى الفضل يسألونه الآمان لهم ، فخول كاتبه ان يجيبهم الى ما التمسوا • فكتب هذا في الامان لمائة رجل منهم • فبعث بعضهم اليه مبالغ من المال بحيث اجتمع له في تلك الليلة ذلك المبلغ(٧) • لاشك في ان المبلغ الذي احتجزه الكاتب الصغير لنفسه جزء مما حصل عليه ابن مروان نفسه • وكان من واجب ابي اسحاق ، وهو قائد الحملة لاخماد الثورة ، ان يصدر عفواً عاماً بعد قضائه على رؤوس الفتنة ، فيعيد الأمن والأطمئنان الى نفوس الناس ، ولا يترك مجالا لهذا الكاتب وامثاله في استغلالهم • الا ان استحواذ كاتبه الفضل بن مروان عليه جعله يترك الأمر لتدبيره مما اتاح له فرصة الانتهاب •

وقد بلغ من جشع الفضل انه اخذ يسرق الخليفة • فكان يخالفه في بعض ما يأمر به من المنح والاعطيات • فكان المعتصم بالله يأمره باعطاء المغني والملهي ، فلا ينفذ الفضل ذلك (٨) • واخذ يحجب ما كان يحتاج اليه من الاموال في مهام اموره • فقال ابراهيم الهفتي للمعتصم بالله ، وهو احد جلسائه المقربين اليه : مالك من الخلافة

(٧) الفرج بعد الشدة ٣/٨٦ وكامل القصة ٨٢-٨٦ •

(٨) الطبري ٩/١٩ •

الا الاسم ، والله ما يجاوز امرك اذنيك (٩) • وكان المعتصم بالله امر له بمبلغ من المال فلم يعطه الفضل شيئاً • وذكر القاضي احمد بن ابي دواد انه كثيراً ما رأى المعتصم بالله يطلب الى الفضل ان يحمل اليه مبلغاً من المال ، فيرد بعدم توفره ، او بعدم استطاعته توفيره • فنصح الفضل الا يرد الخليفة ولا يمتنع عن اجابة طلباته من المال جهد امكانه ، وحتى في حالة عدم وجود المال حقيقة ، فعليه الا يرد الخليفة باجوبة غليظة ، بل يعلله بأن سيعمل على توفيره له • الا ان الفضل امعن في نهجه ، مما اثقل على المعتصم بالله (١٠) • وثار غضبه عليه • ففرض اول الأمر رقابة مالية عليه ، فعين احمد بن عمار لتدقيق النفقات الخاصة ، وعين نصر بن منصور ليدقق اعماله في الخراج وفي الاعمال الاخرى • وكان نصر يتولى آنذاك ديوان الخاتم والنفقات والأزقة (١١) • وامر الفضل بان يرفع اليه تقريراً عما وصله من الاموال واوجه انفاقها •

ولما فرغ الفضل بن مروان في اعداد الحساب لم يناظره فيه المعتصم بالله ، بل امر بحبسه • ثم نفاه الى قرية السن في طريق الموصل • وقيل انه حبسه خمسة اشهر ثم اطلقه والزمه بيته (١٢) • وذلك بعد ان صادر امواله واموال اهل بيته • كما بطش بجماعة من اصحابه واستصفى اموالهم ، وقد تولى المصادرة اسحاق بن ابراهيم نائب الخليفة ببغداد وصاحب شرطته (١٣) • ويقال انه اخذ من بيته الف الف دينار ، واخذ اثاثا وفرشاً وآنية قدرت قيمتها

---

(٩) العيون والحدائق ٣/٣٨٤ •
(١٠) الطبري ٩٠/٢١ •
(١١) معجم الادباء ٥/٣١٨ـ٣١٩ •
(١٢) شذرات الذهب ٢/١٢٢ •
(١٣) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٢ •

بالف الف دينار كذلك(١٤) • ويقول مؤلف كتاب « العيون والحدائق في اخبار الحقائق » انه اخذ منه من الاموال ما لا يحصى حتى ان المعتصم بالله قال : ما كنت اعلم ان في الدنيا من له مثل هذا المال (١٥) • وهناك من يقول انه اخذ منه عشرة الاف الف دينار(١٦) •

وقال المعتصم بالله لما قبض على الفضل بن مروان انه عصى الله في طاعتي فسلطتي عليه (١٧) • ان ذلك دليل على استغلال الفضل وبطشه بالناس • وبلغ من تذمر الناس وشكواهم منه انه جلس يوما لقضاء اشغال الناس ، فرفعت اليه قصص العامة ، فرأى في جملتها رقعة كتب عليها (١٨) :

تفرعنت يا فضل بن مروان
فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة املاك مضوا لسبيلهم
ابادتهم الأقياد والحبس والقتل
وانك قد اصبحت في الناس ظالما
ستودى كما اودى الثلاثة من قبل

---

(١٤) وفيات الاعيان ٣/٢١٤ ، وشذرات الذهب ٢/١٢٢ •
(١٥) العيون والحدائق ٣/٣٨٤ •
(١٦) العبر ١/٣٧٩ •
(١٧) وفيات الاعيان ٣/٢١٤ •
(١٨) نفس المصدر / ٢١٣ ، ويريد بالفضول الثلاثة : الفضل بن يحيى البرمكي ، والفضل بن سهل ، والفضل بن الربيع • والفخري / ٢١٢ وقد اقتصر على البيتين الاولين ، وجاء عجز البيت الثاني : ابادهم التقييد والاسر والقتل • ويقول ان هذه الابيات للهيثم بن فراس السامي • ومعجم الادباء ٢/١٢٦ وعجز البيت الثاني فيه : ابادهم الموت المشتت والقتل •

وروى صاحب الهفوات النادرة هذا الخبر على الشكل التالي : تظلم اعرابي الى الفضل بن مروان من بعض عماله ، فصرف وجهه عنه وانتهره ، فوقف متحيراً واجماً ، ثم قال : أ يأستني من عدلك فاسمع مني واصغ ما بدا لك ، ثم انشده الأبيات المذكورة ، مع تغيير في بعض الالفاظ • فتغير وجه الفضل وامتقع لونه وبان غضبه وغيظه ، وتصبر ، ولم يرد على الاعرابي ، ولا امر بانصافه ، ولم يكن بين ذلك وبين القبض عليه الا ايام يسيرة (١٩) •

وقال الفضل عن اسباب مصادرته : ما في الارض اجهل من وزير يطلب الخليفة منه مالا وهو في ولايته فيعطيه اياه ، فانه يُطمعه في نعمته ، وانما يدفع النكبة مدة ثم تحدث وقد ذهب المال • فمن ذلك ان المعتصم بالله لما خرج لغزو الروم ، وانا وزيره ، استخلفني على سر من رأى ، فلما عاد طمع في فقال لي : قد وردت والمال نزر والجيش مستحق فاحتل لي مائة الف دينار من مالك وجاهك ، ففعلت • فلما مضى شهر طلب مني على هذا السبيل خمسين الف دينار ، ففعلت • فطلب مني في الدفعة الثالثة بمثل هذا الوجه ثلاثين الف دينار ، فوعدته بها ودافعته اياما ثم حملتها اليه • فبلغني انه قال لأبنه هارون : هذا النبطي ابن النبطية اخذ مالي جملة ، وهو ذا يتصدق علي تفاريق (٢٠) •

وقد شمت الناس بالفضل بن مروان لما نكب ، وقال فيه بعضهم (٢١) :

---

(١٩) الهفوات النادرة / ٢٥٦ـ٢٥٧ •
(٢٠) نشوار المحاضرة ٤٨/٨ •
(٢١) الكامل ٤٥٤/٦ •

نيبك على الفضل بن مروان نفسه
فليس له بـاك مـن الناس يعـرف

لقد صحب الدنيـا منوعـا لخيرهـا
وفارقها وهـو الظلـوم المعنـف

الى النار فليذهب ومـن كان مثلـه
على أي شـيء فاتنـا منه نأسـف

ومن المأثور عن الفضل بن مروان انه كان يقول: لاتتعرض لعدوك وهو مقبل فأن اقباله يعينه عليك ، ولا تتعرض له وهو مدبر فان ادباره يكفيك امره(٢٢) . وقد عفى عنه الخليفة المعتصم بالله بعد مدة واطلق سراحه من الحبس . فخدم جماعة من الخلفاء بعده حتى مات في سنة (٢٥٠ هـ) في ايام المستعين بالله ، وقد جاوز التسعين سنة من عمره . وللفضل كتاب جمع فيه من الاخبار التي علم بها ، والمشاهد التي رآها ، سماه « ديوان الرسائل » (٢٣) .

ولم يحفظ لنا المؤرخون من اعماله واخباره الا النزر اليسير . منها ان الخليفة المهدي بن المنصور كان قد امر بأن يجعل يوم الخميس عطلة لموظفي الديوان يستريحون فيـه وينظرون فـي امورهم ، ويوم الجمعة للصلاة ، اي الى ان ولي الفضل بن مروان الوزارة للمعتصم بالله فأزال ذلك والزم الموظفين بالـدوام يـوم الخميس (٢٤) .

---

(٢٢) وفيات الاعيان ٣/٢١٤ .
(٢٣) الفهرست / ١٩٠ .
(٢٤) الوزراء والكتاب / ١٦٦ .

وعندما قبض على الفضل اشار البحتري الى ذلك ببضعة ابيات وجهها اليه [٢٥] :

لا تعجبن فما للدهــر مــن عجب
ولا من الله من حصن ولا هرب
يا فضل لا تجزعن مما رميت به
من خاصم الدهر جاثاه على الركب
كم من كريم نشا في بيت مملكة
أتاك مكتئبا بالهـــم والكــرب
اوليته منـــك اذلالا ومنقصــة
وخاب منك ومن ذي العرش لم يخب
ما تشتفي فعلة ابكيت ناظرهــا
حتى تراك على عود من الغرب

وظاهر من هذه الابيات ان الشاعر يبكت الفضل ويلومه على سوء معاملته الناس ، وان ما اصابه انما كان نتيجة افعاله ، فلا داعي لأن يتعجب مما آل اليه مصيره ٠

ولما قبض المعتصم بالله على الفضل ، قعد للعامة فوجد قصته فيهـــا [٢٦] :

يا فضل لا تجزعن مما بليت بـه
من خاصم الدهر جاثاه على الركب

---

(٢٥) ديوان البحتري ١/٣٥٨ ٠
(٢٦) محاضرات الادباء ١/٨٦ ٠

خنت الامام وهذا الخلق قاطبة
وجرت حتى اتى المقدار في الكتب

جمعت شتى وقد اديتهـــا جملا
لأنت اخســـر من حمــالــة الحطب

وكان الشاعر الهجاء دعبل الخزاعي قد نصح الفضل بن مروان وحذره من مغبة اعماله بابيات من الشعر طريفة هي (٢٧) :

نصحت فأخلصت النصيحة للفضل
وقلت فسير المقـــلة فـــي الفضل

الا ان في الفضل بن سهل لعبـــرة
ان اعتبر الفضل بن مروان بالفضل

وفي ابن الربيع الفضل للفضل زاجر
اذا ازدجر الفضل بن مروان بالفضل

وللفضل في الفضل بن يحى مواعظ
اذا اتعظ الفضل بن مروان بالفضل

اذا ذكروا يوما وقـــد صرت رابمـــا
ذكرت بقدر السعي منك الى الفضل

فابق جميلا مـــــن حيث تفـــــز بـــه
ولا تدع الاحسان والاخـــذ بالفضل

(٢٧) ديوان دعبل الخزاعي / ١٧٠ـ١٧١ ·

فانك قـد اصبحت للمـــلك قيمـا
وصرت مكان الفضل والفضل والفضل

ولم ار ابيـاتـا مـن الشعر قبلهـا
جميع قوافيها على الفضل والفضــل

وليس لهـا عيب اذا هــي أنشـدت
سوى ان نصحي الفضل كان من الفضل

فبعث اليه الفضل بدنانير وقال له : قد قبلت نصحك ، فاكفني خيرك وشرك . وابيات دعبل على بسطاتها وطرافتها لا تخلو من الانتقاد والتعريض ، الى جانب ما تضمنته من النصح والتحذير . • قد ادرك الفضل ما قصد اليه الشاعر الهجاء .

وقد اصبحت نكبة الفضل بن مروان مما يضرب به المثل ، فقد قال احد الشعراء (٢٨) :

يكفيك من غير الايـام مـا صنعت
حوادث الدهر بالفضل بن مروان

٢ ـ محمد بن عبدالملك الزيات ::

لما غضب الخليفة المعتصم بالله على كاتبه ووزيره الفضل بن مروان وأمر بمصادرته وحبسه ، استوزر احمد بن عمار البصري . وكان ابن عمار هذا رجلا موسرأ من اهل المزار ـ وهي قصبة ميسان بين البصرة وواسط (٢٩) ـ وكان طحانـا ، فانتقـل الى البصـرة

---

(٢٨) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٢ .
(٢٩) معجم البلدان ٥/٨٨ .

واشترى بها املاكا فكثر ماله ، ثم انتقل الى بغداد فاتسع حاله ٠ وقالوا انه كان يخرج من الصدقة في كل يوم مائة دينـــار (٣٠) ٠ وعندما كان الفضل بن مروان في خدمة المعتصم بالله كان يصف له بن عمار بالأمانة ، فلما طرد الفضل استوزر الخليفة ابن عمـار لأمانته(٣١) ٠ وقيل ان لم يكن وزيرا بل كان كاتبا خاصا للمعتصم بالله عندما غضب على الفضل بن مروان صير مكانه محمد بـــن عبدالملك الزيات (٣٣) ٠

ويظهر ان المعتصم بالله استخدم احمد بن عمار لما عرفه مــن امانته وسعة حاله لكي يأمن استغلاله منصبه في ارهـــاق الناس واحتواء الاموال ، كما فعل ابن مروان ٠ الا ان احمد بن عمار كان جاهلا باعمـال الوزارة ومهامهـا ٠ وفيـــه قـال بعض شـعراء عصره(٣٤) :

سبحان ربي الخالق الباري
صرت وزيرا يا ابن عمار

وكنت طحـانا على بغـلة
بغيـــر دكـــان ولا دار

كفرت بالمقدار ان لم تكن
قد جزت في ذا كل مقـدار

---

(٣٠) الفخري / ٢١٣ ٠
(٣١) نفس المصدر ٠
(٣٢) التنبيه والاشراف / ٣٠٨ ٠
(٣٣) الطبري ٩/ ٢٠ و ٢٢ ، والعيون والحدائق ٣/ ٣٨٤ ، وتاريـخ ابـن خلدون ٣/ ٥٤٨ والعبر ١/ ٣٧٩ ٠
(٣٤) الفخري / ٢١٣ ٠

وقد لبث في الوزارة مدة يسيرة ثم اعفي منها ٠

فأستأذن الخليفة بان يسمح له بالخروج الى الحج والمجاورة ، فاذن له المعتصم بالله ووصله بعشرة الاف دينار . ودفع اليه عشرين الف دينار ليصرفها في اهل الحرمين من الهاشميين والقرشيين والأنصار ٠ فقال : واذا تقدم غيرهم ممن يستحق فماذا اعطيهم ؟ فاعطاه خمسة الاف اخرى ٠ وحج ابن عمار وفرق المال كله مع العشرة الاف التي كانت له ، وجاور سنة ثم انصرف ٠ فكان الناس هناك يضربون المثل بذلك العدم . ويقولون ما رأينا مثل عام ابن عمار (٣٥) ٠

اشرنا آنفاً الى ان المعتصم بالله اعجب بسعة اطلاع محمد بن عبدالملك الزيات ووفرة معلوماته فاتخذه وزيرا بدلا من ابن عمار ٠ الا ان رواية صاحب الهفوات النادرة ، ان صحت ، تدحض ذلك وترجح احتمال ان ابن عمار هو الذي رشح صاحبه وصديقه ابن الزيات للخليفة ليوليه الوزارة ، لما يعرفه عنه من غزارة العلم ، والأمانة ٠ وكان جد محمد بن عبدالملك الزيات ابان بن حمزة قرويا من اهل جيل وهي قرية من اعمال بغداد تحت المدائن(٣٦) ٠ وكان يجلب الزيت الى بغداد ، فنسب اليه ولقب بالزيات ٠ ويظهر ان اباه عندما انتقل الى بغداد عمل في التجارة فصار من اغنياء التجار ، بحيث ان ابراهيم بن المهدي عندما بايعه اهل بغداد بالخلافة واحتاج الى المال اقترض من عدد من التجار . كان عبدالملك الزيات احدهم ٠

---

(٣٥) ثمار القلوب / ٢٠٤ ٠

(٣٦) معجم البلدان ٢/٢٠٢ ٠ ويقول ابو الفرج ان اسم القرية جبل وهي مقابلة لقرية دسكرة غربي بغداد ٠ الاغاني ٢٣/٤٦ ٠

نشأ محمد ببغداد وانصرف الى طلب العلم والمعرفة فصبح اديبا اريبا ، عالما ، في النحو ، بليغا في اللغة • حتى ان ابا عثمان المازني لما قدم بغداد في ايام المعتصم بالله ، كان اذا اختلف جلساؤه فيما يقع فيه الشك من علم النحو ، يقول لهم عليكم بمحمد فاعرفوا جوابه • وكانت اجوبة محمد مصيبة دائما يرتضيها ابو عثمان(٣٧) • وقد وصفه ابن الطقطقي بحدة الذكاء وانه « برع في كل شيء حتى صار نادرة وقته عقلا وفهما وذكاء وكتابة وشعرا وخبرة بآداب الرياسة وقواعد الملوك »(٣٨) • وقال عنه الخطيب البغدادي انه كان اديبا فاضلا عالما بالنحو واللغة (٣٩) • وقال عنه ابن خلكان مثل ذلك واضاف انه كان من اهل الأدب الظاهر والفضل الباهر(٤٠) • ويروى انه لما تولى الوزارة اشترط الا يلبس القباء ، وان يلبس الدراعة ويتقلد عليها سيفا بحمائل . فأجيب الى طلبه (٤١) •

لقد نهض ابن الزيات باعباء الوزارة على احسن وجه بحيث حاز ثقة الخليفة ورضاه • ويقول ابن الطقطقي انه نهض بالوزارة نهوضا لم يكن لمن تقدمه من اضرابه ، الا انه يقول ايضا انه كان جبارا متكبرا ، فظا غليظ القلب ، خشن الجانب ، مبغضا الى الخلق(٤٢) • لقد كان ابن الزيات في الواقع وزيرا حازما واداريا

---

(٣٧) تاريخ بغداد ٣٤٢/٢ ، ووفيات الاعيان ١٨٢/٤ •
(٣٨) الفخري ، ٢١٣ •
(٣٩) تاريخ بغداد ٣٤٢/٢ •
(٤٠) وفيات الاعيان ١٨٢/٤ •
(٤١) الاغاني ٥٢/٢٣ •
(٤٢) الفخري ، ٢١٣ •

قديرا . عرف بالشدة والصرامة • وقد اناط بـه المعتصم بالله مسؤولية جميع ما بناه في سر من رأى في كـلا جانبيهـا الشـرقي والغربي (٤٣) • وبلغ من قوة نفوذه انه كان يعقد للولاة ، فقد عقد لاسحاق بن ابي خميصته على اليمامة والبحرين وطريق مكة ممايلي البصرة . في دار الخلافة • ولم يذكر ان احدا من الوزراء قام بذلك غيره (٤٤) • وقد وصفه كاتبه احمد ابن اسرائيل بقوله : كان ابن الزيات قليل الخير ، لا يرعى ذماماً ولا يوجب حرمة ، ولا يحب ان يصطنع احدا (٤٥) • وروى ابو الفرج بعض الاخبار الدالـة على لؤم ابن الزيات وحقده وحسده • فقد مر ذات يوم بدار ابراهيم بن فرأى فيه قبة مشيدة ، فساءه ان يرى مظاهر الجاه والثراء عليه . فقال :

اما القباب فقد اراهـا شيدت
وعسى امور بعد ذاك تكـون

عبد عرت منه خـلائـق جهـله
اذ راح من الثراء وهـو سمين

فما كانت الا ايام حتى اوقع بابن رباح ونكبه (٤٦) • ومـن مظاهر لؤمه ايضاً انه كان له جار ، فلما بلغ ابن الزيات ما بلغ ، شخص اليه ذلك الجار يطلب اقالة عثرته • فقال : قد علمت حالك ، فانصرف وعد الي في غد • فولى الرجل ، فلما صار غير بعيد منه

---

(٤٣) الطبري ٩/٢٠ •
(٤٤) الطبري ٩/١٤٠ •
(٤٥) الفرج بعد الشدة ٣/٢٧٥ •
(٤٦) الاغاني ٢٣/٧٢ •

دعا به وقال له : والله مالك عندي شيء · ثم اقبل على بعض من كان بين يديه فقال : انما رددته وآيسته بخلا عليه بفسحة الأمل بقية يومه(٤٧) · وذلك منتهى اللؤم والبخل على الآخرين وبخاصة ذوي الحاجة منهم ·

على انه مع رغم قسوة ابن الزيات وحقده وصرامته ، فقد كان لا يخلو من العدل والانصاف في معاملة الآخرين احيانا · فقد جلس يوما للمظالم فتقدم اليه رجل ادعى بأنه مظلوم وان الوزير نفسه قد ظلمه · فسأله عن امره ، فأوضح له ان وكيله قد اغتصب ضيعة له ، وهو لا يزال يدفع خراجها لئلا يفقد ملكيتها ، بحيث اصبح(٤٨) وكيل الوزير يأخذ غلتها ، ويؤدي صاحبها خراجها،وان ما لم يسمع في الظلم مثله · فسأله لما تأخر في شكواه،فأجاب بأن خوفه من سطوته وقوة حجته منعه من التقدم بالشكوى · فقال ابن الزيات: ان ذلك يحتاج الى بينة وشهود واشياء · قال الرجل : أيؤمنني الوزير من غضبه حتى اجيب ؟ قال : قد امنتك · قال : البينة هم الشهود واذا شهدوا فليس يحتاج معهم الى شيء ، وما قولك واشياء الا للتعجيز · فضحك محمد(٤٩) قال : صدقت·ثم وقع له برد ضيعته، وان يطلق له كر حنطة وكر شعير ومائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته ، وصيره من اصحابه (٥٠) ·

نستدل من هذا الخبر على عنت الحكام وسوء تصرف وكلائهم في اغتصاب اموال الآخرين ، او التمتع بغلاتها وخيراتها ، وحرمان

---

(٤٧) جمع الجواهر في الملح والنوادر / ٣٠٠ ·
(٤٨) الاغاني ٢٣/٤٧ـ٤٨ ، والهفوات النادرة /٣٨٩ـ٣٩٠ ·
(٤٩) العقد الفريد ٣/٢١٣ ·
(٥٠) عيون الانباء / ٢٨٤ ·

اصحابها الشرعيين من ذلك • واذا ما انصف ابن الزيات احد هؤلاء المغتصبة اموالهم لأنه تجرا فاشتكى منه اليه . فن هناك عديد من امثاله ممن لا تصل شكواهم الى مسؤول •

يقول ابن عبد ربه ان محمد بن عبدالملك كان يأنس باهل البلادة ويستوحش من اهل الذكاء • فسئل عن ذلك . فقال : مؤونة التحفظ شديدة(٥١) • وهذا يلقي ضوءاً على جانب من شخصيته . هو رغبته في التميز على الآخرين . وذلك لايتاح له الا اذا كانوا دونه كفاية وذكاء • كما ان ذلك يعفيه من التحفظ في اقواله وافعاله امامهم لأنهم لا يملكون قدرة الاعتراض عليه او مناقشته . وانهم لا ينتبهون الى ما يهدف اليه من بعض اعماله وتصرفاته •

كان ابن الزيات مولعاً بالآداب والعلوم الى جانب كفايته الادارية والسياسية • وقد شجع نقل الكتب اليونانية الى العربية وقد انفق على ذلك مبالغ كبيرة • يقول ابن ابي اصيبعة ان عطاءه للنقلة والنساخ يقارب الفي دينار في كل شهر ، وان بعض الكتب نقلت باسمه ، وقام بذلك كبار الأطباء والمترجمين مثل يوحنا بن ماسويه وسلمويه بن بنان واسرائيل بن زكريا الطيفوري (٥٢) •

وذكر صاحب الفهرست ان حنين بن اسحاق نقل لمحمد بن عبدالملك الزيات الى العربي كتاب الصوت وهو اربع مقالات (٥٣) • ويمكن ان نستنتج مما كان ينفقه على المترجمين وما كان يهديه اليه بعض المؤلفين انه كانت له بسامرا خزانة كتب كبيرة تضم مجلدات من الكتب الموضوعة والمترجمة في مختلف الفنون والعلوم •

---

(٥١) الفهرست / ٤١٨ •
(٥٢) معجم الادباء ٦/ ٧٥ •
(٥٣) نفس المصدر / ٨٥ـ٨٦ •

كما كان ابن الزيات يرعى الادباء والشعراء • وكان عمرو بن بحر الجاحظ كبير ادباء عصره ملازما له مختصا به • وقد انحرف بسببه عن قاضي القضاة احمد بن ابي دواد ، للخصومة التي كانت بين ابن الزيات وابن ابي دواد • وقد اهـــدى الجاحـظ كتـابه «الحيوان» الى ابن الزيات فمنحه خمسة الاف دينار (٥٤) • وقال الجاحظ : اردت الخروج الى محمد بن عبدالملك ففكرت شيء اهديه اليه فلم اجد اشرف من كتاب سيبويه ، وقلت له اردت ان اهديك شيئاً ففكرت فاذا كل شيء عندك ، فلم أر اشرف من هذا الكتـاب وقد اشتريته من ميراث القراء • قال : والله ما اهديت الي شيئاً احب الي منه (٥٥) •

لقد جمع ابن الزيات بين النثر والشعر ، فكان شاعرا مجيدا لا يقاس به احد من الكتاب • قال الصولي : كنا نقول لم يل الوزارة اشعر من أحمد بن يوسف حتى ولى محمد بن عبدالملك فكان اشعر منه (٥٦) • ومن رقيق شعره قوله :

سماعا يا عبـــاد الله مني
وكفوا عـــن ملاحظـــة الملاح

فـأن الحب آخـــره المنايا
واولــه بهيـــج بالمـــزاح

وقالوا : دع مراقبـــة الثريا
ونم فالليل مسود الجنـــاح

---

(٥٤) الاوراق / ٢٠٦ •
(٥٥) لاغاني ٢٣/٤٦ـ٤٧ •
(٥٦) ديوان البحتري ١/ ٦٣٢ـ٦٣٨ •

فقلت : وهل افاق القلب حتى
افرق بين ليلي والصباح

وقد افرد ابو الفرج فصلا فى كتابه لابن الزيات باعتباره اديبا شاعرا وروى له عددا من المقاطع الشعرية (٥٧) .

ومدح ابن الزيات عدد من شعراء عصره وعلى رأسهم البحتري، فقد مدحه بقصيدة يصف فيها بلاغته وعزمه وكفايته ، جاء فيها (٥٨) :

في نظام من البلاغة ماشـ
ـك امرؤ انه نظام فريد
ومعان لو فصلتها القوافي
هجنت شعر جرول ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختيارا
وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فادركـ
ـن به غاية المراد البعيد
وارى الناس مجمعين على فضـ
ـلك من بين سيد ومسود
عرف العالمون فضلك بالعـ
ـلم وقال الجهال بالتقليد

---

(٥٧) ديوان ابي تمام ١/ ٢٣٩ـ٢٥٩ .
(٥٨) نشوار المحاضرة ٨/ ٩١ .

صارم العزم حاضر الحزم ساري
الفكر ثبت المقام صلب العود

دق فهما وجل حلما فأرضى الله فينا والواثق بن الرشيد

قد تلقيت كل يوم جديد
يا اباجعفر بمجد جديد

واذ استطرفت سيادة قوم
بنت بالسؤدد الطريف التليد

ومدحه ابو تمام الطائي بقصيدة منها (٥٩) :

وعاذل هاج باللوم ماربه
باتت عليها هموم النفس تصطخب

لما اطال ارتجال العذل قلت له
الحزم يثني خطوب الدهر لاالخطب

لم يجتمع قط في مصر ولا طرف
محمد بن ابي مروان والنوب

لي من ابي جعفر آخيه سبب
ان تبق يطلب الى معروفي السبب

صحت فيما يتمارى من تأملها
من فرط نائله في انها نسب

لن يكرم الظفر المعطى وان اخذت
به الرغائب حتى يكرم الطلب

---

(٥٩) الاغاني ٢٣/٤٦ .

ردء الخلافة في الجلى اذا نزلت
وقيم الملك لا الواني ولا النصب

القى اليك عرى الأمر الامام فقد
شد العتاج من السلطان والكرب

يعشو اليك وضوء الرأى قائده
خليفة انما آراؤه شهب

وقد بقي محمد بن عبدالملك الزيات محتفظا بمركزه في الوزارة طيلة ايام الخليفة المعتصم بالله ، وفي ايام ابنه الواثق بالله وبعض ايام المتوكل على الله • وقال الفضل بن مروان : لا نعلم وزيراً وزر وزارة واحدة بلا حرف لثلاثة خلفاء منسقين غير محمد بن عبدالملك(٦٠) • ويؤيد ابو الفرج ذلك بقوله : انه وزر ثلاث دفعات وهو اول من تولى ذلك (٦١) •

وكان من اول اعمال الواثق بالله عندما تولى الخلافة انه اتخذ وزير ابيه وزيرا له ، لما كان يتوسمه فيه من الدراية والكفاية ، وعمق المعرفة وسعة الاطلاع ، رغم انه كان ينقم عليه امورا كثيرة قاساها منه عندما كان اميراً • بحيث انه قال يوماً لخادمه : قد تم علـيّ من هذا الكلب كل مكروه ، فاذا افضت الي الخلافة فقتلني ان لم اقتله (٦٢) • ويقول ابن الطقطقي ان الواثق كتب بخطه كتابا وحلف فيه ليقتلن ابن الزيات(٦٢) • الا انه عندما آلت اليه الخلافة

---

(٦٠) نشوار المحاضرة ١٩/٨ •
(٦١) الفخري / ٢١٤ •
(٦٢) نفس المصدر ، ونشوار المحاضرة ١٧/٨ـ١٩ •
(٦٣) وفيات الاعيان ١٨٦/٤ •

وحضر الدار جميع الكتاب ، لم يرق له ما كتبوه عن موت ابيه وتوليه الخلافة ، فاضطر ان يطلب الى ابن الزيات ان يكتب ذلك • فكتب كتابا نال استحسان الواثق بالله بحيث امر بتحرير الكتب الى جميع الجهات بموجبه (٦٤) • واقره في الوزارة لأنه لم يجد من يقوم مقامه من حيث درايته وحسن سياسته الى سعة اطلاعه ومعرفته بتدبير الأمور • وفوض اليه ملكه وصار لا يصدر الا عن رأيه • ويروى انه قال ان عن المال والفدية عن اليمين عوض ، وليس عن الملك وابن الزيات عوض (٦٣) • وانه قال : والله ما يمنعني من الوفاء بيميني الا النفاسة على ان يخلو الملك من امثاله (٦٤) • ولذلك فانه لم يستوزر غيره طيلة حياته • على الرغم من ان ابن الزيات كان كما يقول اليعقوبي بشيء من التحامل عليه : شديد القسوة ، قليل الرحمة ، جبّاها للناس ، كثير الاستخفاف بهم ، ولا معروف عنده (٦٥) •

وعندما بويع للمتوكل على الله بالخلافة استمر محمد بن عبد الملك الزيات في الوزارة ، الا ان المتوكل على الله كان يعقد عليه بعض الامور • وقد سبق ان اشرنا الى ما كان يحمله من حقد على ابن الزيات والقائد التركي ايتاخ • لانهما كانا عارضا ترشيحه للخلافة واقترحا قتاله للتخلص منه • اضافة الى ان ابن الزيات كان يسيء معاملته في عهد اخيه الواثق بالله • لذا كان من المتوقع ان يتخلص الخليفة من ابن الزيات الا انه تمهل قليلا قبل ان يقدم على ذلك • ويقول ابو الفرج انه « خشي ان نكبه عاجلا ان يستتر اسبابه فتفوته بغيته فيه ، فاستوزره وخلع عليه • وجعل ابن ابي

(٦٤) جمع الجواهر في الملح والنوادر ٣٠٣ـ٣٠٤ •
(٦٥) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٤ •

دواد يغريه به ويجد لذلك عنده موقعا واستماعا » (٦٦) . حتى اذا كان يوم الاربعاء لسبع خلون من صفر من سنة (٢٣٣هـ) عــزم المتوكل على الله على الفتك به . فأمر كبير قواده وحجبه ايتاخ ان يقبض على ابن الزيات ويعذبه . فقبض عليه واودعه السجن . ووجه اثنين من وجوه اصحابه هما يزيد بن عبدالله الحلواني وهرثمة شارباميان الى داره واخذا جميع ما فيه (٦٧) .

وكان الخليفة قد وجه راشداً المغربي الى بغداد لقبض ما لابن الزيات فيها من الاموال ، وامر ابا الوزير احمد بن خالد بقبض ضياعه وضياع اهل بيته حيثما كانت . واجبر ابن الزيات على ان يوكل العباس بن احمد كاتب القائد عجيف بن عنبسة ببيع ما يملكه . فكانت قيمة ما قبض له تسعين الف دينار ، وقيل مائة الف دينار (٦٨) .

وقيد ابن الزيات في سجنه بأمر الخليفة ، فامتنع عن الطعام . وكان شديد الجزع كثير البكاء قليل الكلام . وكان ابن الزيات قد اتخذ للمصادرين والمغضوب عليهم تنوراً من الخشب فيه مسامير اطرافها الى داخل التنور ، يعذبهم فيه . فأمر المتوكل على الله بادخاله في ذلك التنور فبقي فيه اياما فمات (٦٩) . وهناك اختلاف في سبب موته : فقد قيل انه ضرب فمات وهو يضرب، وقيل انه مات بغير

---

(٦٦) الاغاني ٢٣/٧٢ـ٧٣ .

(٦٧) الطبري ٩/١٥٨ .

(٦٨) نفس المصدر / ١٥٨ و ١٦١ والاغاني ٢٣/٧٤ .

(٦٩) نفس المصدر / ١٥٩ ، والكامل ٧/٣٧ ، ومروج الذهب ٤/٨٨ وفيه كان التنور من الحديد . وكذلك جاء في الاغاني ٢٣/٧٤ .

ضرب ، ويفهم مما ذكره مسكويه انه مات من جراء تعذيبه في التنور (٧٠) ·

ويقول المسعودي ان ابن الزيات لما ادخل التنور طلب دواة وبطاقة فكتب الى الخليفة :

هي السبيل فمن يوم الى يوم
كأنه ما تريك العين في النوم

لا تجزعن رويدا انها دول
دنيا تنقل من قوم الى قوم

الا ان المتوكل على الله لم يطلع على الرقعة في يومها ، فلما كان الغد قرأها فأمر باخراجه ، فوجد ميتا (٧١) · وذكر عن احد حراسه انه سمعه قبل موته يقول لنفسه : يا محمد لم تقنعك النعمة والدواب الفرة والدار النظيفة والكسوة الفاخرة وانت في عافية ، حتى طلبت الوزارة ، ذق ما عملت بنفسك ، ثم سكت عن ذلك ، وكان لا يزيد على التشهد وذكر الله ، وكانت وفاته في يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة ٢٣٣هـ (٧٢) بعد ان لبث في الوزارة اربعةعشر عاما وبضعة اشهر · ويقول ابو الفرج ان المتوكل على الله « ندم على قتله ولم يجد منه عوضا » وكان يقول لأحمد بن ابي دواد « اطمعتني في باطل ، وحملتني على امر لم اجد منه عوضا » (٧٣) ·

(٧٠) الطبري ١٥٩/٩ ، والكامل ٣٨/٧ . وتجارب الامم ٥٣٩/٦ ·
(٧١) مروج الذهب ٨٨/٤ ·
(٧٢) الطبري ١٦٠/٩ ، والكامل ٣٨/٧ ·
(٧٣) الاغاني ٧٣/٢٣ ·

وقد رثاه صديقه واقرب الناس اليه الحسن بن وهب بشعر كان يتنصل منه خوفا على حياته ، جاء فيه (٧٤) :

يكاد القلب من جـزع يطيـر
اذا ما قيل قد قتـل الوزيـر

أمير المؤمنين هـدمت ركنـا
عليه رحـاكم كـانت تـدور

سيبلى الملك مـن جـزع عليـه
ويخرب حين تضطرب الامـور

فمهلا يابني العبـاس مهـلا
فقد كويت بنعلكم الصـدور

الى كم تنكبون الناس ظلمـا
لكم في كـل ملحمـة عقيـر

جزيتـم ناصرا لكـم المنـايـا
وليس كذلكم يجـزي النصيـر

٣ ـ احمد بن خالد :

ابو الوزير ، من كتاب الدولة العربية • ولما عزم المعتصم بالله على بناء مدينة سامرا كلف وزيره محمد بن عبدالملـك الزيـات واثنين من الكتاب لشراء الارض التي قرر انشاء المدينة عليها .

---

(٧٤) نفس المصدر / ٧٤ •

كان احدهما احمد بن خالد (٧٥) • ويقول الطبري ان المعتصم بالله بعث احمد بن خالد الى ناحية موقع سامرا ليشتري له ارضا يبني فيها مدينة ، وامره ان يأخذ معه مائة الف دينار ليدفع قيمة ما يشتريه فقال احمد انه سيأخذ خمسة الاف دينار وكلما احتاج الى زيادة بعث الى الخليفة يستزيده . فاتى الموضع واشترى ما كلفه به الخليفة (٧٦) •

وولى احمد بن خالد الخليفة المعتصم بالله خراج مصر في سنة (٢٢٦هـ) حينما قدم اليها يحمل معه كتاب ولاية القضاء لمحمد بن ابي الليث (٧٧) • ويظهر انه عاد الى الكتابة في ديوان الخلافة ، اذ كان من جملة الكتاب الذين صادرهم الواثق بالله سنة (٢٢٩هـ) فاخذ منه صلحا ، اي دون ان يأمر بضربه ، مائة واربعين الف دينار (٧٨) • وعند وفاة الواثق بالله كان احمد بن خالد من الحاضرين في قصر الخلافة مع الوزير ابن الزيات وقاضي القضاة ابن ابي دواد وكبار القواد الاتراك ، وشارك في اختيار المتوكل على الله للخلافة (٧٩) •

وعندما كان المتوكل على الله مغضوبا عليه من اخيه الواثق بالله ، ويلقى عنتا من الوزير ابن الزيات ومن عمر بن فرج الرخجي صاحب ديوان النفقات . كان ابو الوزير وهو زمام على عمر المذكور آنذاك يواسيه ويحسن معاملته (٨٠) • مما كان له أثر حسن في نفس المتوكل على الله ، فاخذ عند استخلافه يعتمد عليه في اداء بعض المهام • اذ وجهه لقبض ضياع ابن الزيات عندما

---

(٧٥) كتاب البلدان / ٢٥٧ ـ ٢٥٨ •
(٧٦) الطبري ٩/١٧ •
(٧٧) كتاب الولاة وكتاب القضاة / ٤٤٩ •
(٧٨) الطبري ٩/١٢٥ . والكامل ٧/١٠ ، وتجارب الامم ٦/٥٢٨ وفيه انه اخذ منه مائتي الف دينار •
(٧٩) الطبري ٩/١٥٤ . والكامل ٧/٣٣ . وتجارب الامم ٦/٥٣٥ •
(٨٠) الطبري ٩/١٥٧ •

سخط عليه ، كما اشرنا آنفا . ثم اناط به مهام الوزارة من غير ان يسميه بها . الا انه سرعان ما غضب عليه وامر في ذي الحجة من السنة نفسها بمحاسبته ومصادرته ، واخذ منه ستين الف دينار، وبدرا من الدراهم والحلي ، ومن متاع مصر وبضائعها اثنين وستين سفطا . واثنين وثلاثين غلاما ، وفرشا كثيرة (٨١) . ثم ما لبث ان رضي عنه ثانية ، فولاه خراج مصر في سنة (٢٢٨هـ) شريكا لعنبسة بن اسحاق الضبي (٨٢) .

٤ ــ محمد بن الفضل الجرجرائي :

ابو جعفر ، كان يكتب للفضل بن مروان ، وهو من جرجرايا من اعمال النهروان الأسفل بين بغداد وواسط (٨٣) . وكان شيخا ظريفا حسن الأدب . عالما بالغناء مشتهرا به(٨٤) . استكتبه الخليفة المتوكل على الله بعد ان صرف ابا الوزير احمد بن خالد من عمله في (٢٣٣هـ) (٨٥) . الا انه اضطر بعد مدة الى عزله بعد ان كثرت السعايات به ، وقال : قد ضجرت بالمشايخ اريد حدثا استوزره(٨٦) .

ولما قتل القائد التركي اوتامش المتسلط على الوزارة في عهد الخليفة المستعين بالله . في سنة (٢٤٩هـ) واشتد الخلاف بين الخليفة

---

(٨١) الطبري ٩/١٦٢ ، والكامل ٧/٢٩ ، والفخري / ٢١٦ .
(٨٢) كتاب الولاة وكتاب القضاة / ٢٠٠ .
(٨٣) معجم البلدان ٢/١٢٣ .
(٨٤) الفخري / ٢١٦ .
(٨٥) كتاب الطبري ٩/٢٦٢ .
(٨٦) الفخري / ٢١٦ .

والاتراك ،اتخذ الخليفة محمد بن الفضل الجرجرائي وزيرا (٨٧) • الا انه لم يلبث ان توفي السنة التالية (٨٨) •

٥ ـ عبيدالله بن يحى بن خاقان :

كان المتوكل على الله قد صرف محمد بن الفضل الجرجرائي من الوزارة في سنة (٢٣٦هـ) واستكتب عبيدالله بن يحيى بن خاقان • وكان اول معرفة المتوكل على الله به ، ان عبيدالله كان قد لازم الفضل بن مروان ، وهو يتقلد ديوان الضياع ، ويعاونه في الامور الكتابية • وصادف ان اهل ارمينية طلبوا من الفضل ان يمضي لهم مقاطعة في بلادهم فرفض رغم الحاحهم ولجوئهم الى كثير من اصحابه • فلجأوا الى عبيدالله بن يحيى فخاطب الفضل في امرهم بما جعله يستجيب لطلبهم • فحمل القوم الى عبيدالله خمسة الاف دينار فردها وقال ما كنت لآخذ على معروف ثمنا • فلما خرجوا الى ارمينية حملوا اليه فرش بيت ارمني جميلا جدا ببساط عظيم ومصليات واتخاخ ومخاد وستور ، وكتبوا عليه اسمه وكنيته • وكان المتوكل على الله حينذاك قد وكل بالطرق وامر الا يدخل شيء من الامتعة الا ان يعرض عليه • فلما عرضت عليه الهدية المذكورة استحسنها وسأل عن عبيدالله وعلاقته بأهل ارمينية ، ولما اطلع على خبره معهم امر بتسليم الفرش اليه ، وقال هذا فتى يدل فعله على كبر همته (٨٩) • ولما صرف المتوكل على الله محمد بن الفضل الجرجرائي عن الوزارة لم يعين وزيرا وامر اصحاب الدواوين ان يعرضوا عليه اعمالهم ، وجعل التوقيع للقائد التركي وصيف • ثم احتاج الى كاتب يكون بين يديه فأمر ان يطلب له حدث

---

(٨٧) الطبري ٩/٢٦٤ ، والكامل ٧/١٤٤ ، والفخري / ٢٢٠ •
(٨٨) الكامل ٧/١٣٥ •
(٨٩) نشوار المحاضرة ٨/٥١ـ٥٣ •

من اولاد الكتاب . فسموا له جماعة كان فيهم عبيدالله بن يحيى • فلما ذكر اسمه تذكر المتوكل على الله حديث المفرش الارمني • فاختاره للكتابة (٩٠) •

ولم تزل منزلة عبيدالله تتقدم لدى الخليفة حتى امر ان يخلع عليه وان لا يعرض احد من اصحاب الدواين عليه شيئا ، وان يرفعوا اعمالهم الى عبيدالله ليتولى عرضها عليه • واجرى عليه في كل شهر عشرة الاف درهم • وقوى امر عبيدالله فحذف اسم القائد وصيف من التوقيع واثبت اسمه • ثم امر له الخليفة برزق الوزارة ، ثم خوطب بها(٩١) • ولشدة اعتماد المتوكل على الله على عبيدالله قلده كتابة ابنيه المعتز والمؤيد وضم اليهما بضعة عشر الف رجل وجعل تدبيرهم الى عبيدالله ايضا . فصار وزيرا اميرا (٩٢) • وقد ضم اليه توقيع ديوان العامة في سنة (٢٤٥ هـ) فاستخلف ابن عمه يحيى بن عبدالرحمن بن خاقان (٩٣) •

كان عبيدالله من خيرة الكتاب ، حسن الخط وله معرفة بالحساب والاستيفاء ، ورغم انه كان في تصرفاته بعض التخليط الا ان كرم نفسه وحسن اخلاقه ، ونزاهته وعفته ، غطت على عيوبه (٩٤) • وقد اعجب به المتوكل على الله فرفعه واعلى مرتبته وولاه وامره ان يكتب : مولى امير المؤمنين ، وان يأمر كتاب الدواوين ان يوقعوا باسمه • فاستعفاه يحيى من ذلك • الا انه اخذ يولي العمال على الخراج والضياع والبريد والمعادن ، ويعين القضاة في جميع انحاء الدولة • وقد سلك في اعماله سيرة حسنة

---

(٩٠) نفس المصدر / ٨٣ •
(٩١) نفس المصدر •
(٩٢) نشوار المحاضرة ٨/١٥ـ١٦ •
(٩٣) الطبري ٩/٢١٧ •
(٩٤) الفخري / ٢١٦ •

جملته محمودا عند الناس (٩٥) • ومن تعففه ان صاحب مصر حمل اليه مائتي الف دينار وثلاثين سفطا من الثياب المصرية ، فلما احضرت بين يديه ، قال لوكيل صاحب مصر : لا والله لا اقبلها ولا اثقل عليه بذلك ، ثم فتح الأسفاط واخذ منها منديلا لطيفا وضعه تحت فخذه ، وامر بالمال فحمل الى خزانة الديوان (٩٦) •

وقد وصفه ابو العيناء الأديب الشاعر للمتوكل على الله لما سأله عنه ، بقوله : العبد لله ولك منقسم بين طاعته وخدمتك ، يؤثر رضاك على كل فائدة ، وما عادل بصلاح رعيتك كل لذة (٩٧) •

وعندما عزم المتوكل على الله بناء مدينة المتوكلية (الجعفرية) حاول نجاح بن سلمة ، وكان على ديوان التوقيع والتتبع على العمال ، أن يتقرب الى الخليفة بتحريضه على مصادرة اموال عبيدالله بن يحيى وعدد من رؤوساء الدواوين ، فعرض عليه ان يسمي له قوما يدفعهم اليه حتى يستخرج منهم اربعين الف الف درهم تساعده في نفقة بناء المدينة الجديدة • فطلب اليه الخليفة ان يذكر اسماءهم • فرفع اليه نجاح رقعة يذكر فيها موسى بن عبدالملك صاحب ديوان الخراج ، والحسن بن مخلد صاحب ديوان التوقيع . وخليفته عيسى بن فرخانشاه ، وعبيدالله بن يحيى واخويه عبدالله وزكريا ، وآخرين غيرهم ، نحوا من عشرين رجلا • فلما علم عبيدالله بذلك عمل على انقاذ الجماعة وتسفيه اقتراح نجاح لدى الخليفة • فأقنع نجاحا بان يعتذر للخليفة عما تقدم به ، وكان عبيدالله اخذ بنفس الوقت رقعة من موسى والحسن يتعهدان فيها باستخراج اموال نجاح بن سلمة اذا سلمه الخليفة اليهما ، وضمنا

---

(٩٥) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٨ ـ ٤٨٩ •
(٩٦) الفخري / ٢١٦ •
(٩٧) الديارات / ٩٠ •

تحصيل الفي الف دينار منه • فاقتنع المتوكل على الله باقتراح وزيره ، ودفع نجاحا الى غريميه • فاخذاه واولاده فاقروا بنحو مائة واربعين الف دينار ، سوى الغلات والغروس والضياع وغير ذلك • ثم امروا بضرب نجاح حتى مات • فاقر ابناؤه بعد الضرب بسبعين الف دينار اخرى سوى مالهما من الاملاك فأخذت جميعها منهم • كما اخذ بسببه قوم بسامرا وببغداد وبمكة وبناحية السواد فحبسوا وصودروا (٩٨) •

كان عبيدالله موانيا للمتوكل حريصا على ارضائه • فلما رآه يبعد ابنه محمدا المنتصر وينتقصه شايعه في ذلك . وبدلا من ان يقرب بين الخليفة وولي عهده ويعمل على ازالة ما بينهما من اسباب التباعد والجفاء انتهج سياسة تزيد في سخط ولي العهد على ابيه • فعندما عزم المتوكل على الله على الصلاة آخر جمعة في رمضان سنة (٢٤٧هـ) واراد الركوب للذهاب الى المسجد الجامع ، قال له عبيدالله والفتح بن خاقان ان الناس اجتمعوا وكثروا ، من بني العباس وغيرهم ، واكثرهم متظلم وطالب حاجة . وقد يزعجون امير المؤمنين وهو يشكو ضيق الصدر ووعكة ، واقترحا عليه ان يعهد لأحد ولاة العهد بالصلاة بالناس • فأمر المتوكل على الله ابنه المنتصر بالصلاة • فلما نهض المنتصر ليركب للصلاة . قالا للخليفة ان يأمر ابا عبدالله المعتز ليشرفه بذلك وقد ولد له ولد قبل ذلك بيوم • فأمر المعتز فذهب وصلى بالناس ، مما اغضب المنتصر (٩٩) •

ولما حل عيد الفطر امر المتوكل على الله ان يصلي المنتصر بالناس ، قالا له ان الناس يتطلعون الى رؤية الخليفة ، ولا نأمن ان هو لم يحضر الصلاة ان يرجف الناس بعلته ويتكلمون بامره •

---

(٩٨) الطبري ٩/٢١٤–٢١٧ . والكامل ٧/٨٨–٨٩ . وتجارب الامم ٦/٥٥٤ •
(٩٩) الطبري ٩/٢٢٢–٢٢٣ •

فأمر بالتهيؤ للصلاة وخرج وصلى بالناس (١٠٠) • فزاد ذلك في غضب المنتصر وسخطه على ابيه ورجاله •

وعندما قتل المتوكل على الله اجتمع الى عبيدالله جند الفرقة التي كانت تحت امرته ويتراوح عددهم بين خمسة الاف وعشرة الاف ، وقالوا له : انما كنت تصطنعنا لهذا اليوم فأمرنا بامرك وأ أذن لنا نمل على القوم ميلة نقتل المنتصر ومن معه من الاتراك وغيرهم • فأبى ذلك وقال : ليس في هـذا حيلـة والمعتز فـي ايديهم(١٠١) • وكان يميل الى المعتز فخاف ان هو تحرك ضد المنتصر واتباعه ان يقتلوا المعتز • ويقول ابن الطقطقي ان الجند كانوا يحبون عبيدالله بن يحيى لحسن سيرته فيهم فاما قتل المتوكل على الله خاف عبيدالله على نفسه، فاجتمع الجند على بابه وقالوا له : انت احسنت الينا واقل ما يجب علينا ان نحرسك في مثل هذه الفتنة ، ولازموا بابه وحفظوه(١٠٢) •

ولما بويـع المنتصر الله بالخـلافة بايعـه عبيدالله بـن يحيى وانصرف • واستوزر الخليفة الجديد احمد بن الخصيب احـد كبار الكتاب • وظل عبيدالله بعيدا عن الوزارة في عهد الخليفة المستعين بالله الذي لم يكن يرتاح اليه ، فاغتنم فرصة خروجه الى الحج فبعث خلفه احد رجاله وامره بنفيه الى برقة (١٠٣) • وعندما اضطر المستعين بالله على ترك سامرا والالتجاء الى بغداد وتفويض امره الى نائبه فيها محمد بن طاهر بن عبدالله الذي وقف الى جانبه في اول نزاعه مع الاتراك ، لعب عبيدالله بن يحيى دورا في تغيير موقف ابن طاهر من المستعين بالله ، وقد قال له مرة : ان هذا الذي

---

(١٠٠) الطبري ٩/٢٢٣ ، والكامل ٧/٩٦ •
(١٠١) الطبري ٩/٢٢٩ ، والكامل ٧/٩٩–١٠٠ ، وتجارب الامم ٦/٥٥٧ •
(١٠٢) الفخري / ٢١٧ •
(١٠٣) الطبري ٩/٢٥٨ ، والكامل ٧/١١٩ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٥ وفيه انه نفاه الى مكة وقبل وصوله اليها بعث خلفه من نفاه الى برقة •

تنصره وتجد في امره من اشد الناس نفاقا ، واخبثهم دينا . والله لقد امر وصيفا وبغا بقتلك فاستعظما ذلك .. ولم يفعلاه . حتى صرفه عما كان عليه من الرأي في نصرة المستعين بالله . فقال محمد ابن طاهر : اخزى الله هذا لا يصلح لدين ولا دنيا (١٠٤) .

وعندما تولى المعتمد على الله الخلافة في رجب سنة (٢٥٦هـ) استوزر عبدالله بن يحيى (١٠٥) . وقد عرف عنه انه كان خبيرا باحوال الرعية وكفوءا بعمله ضابطا للاموال . ولما دخل يعقوب ابن الليث الصفار مدينة نيسابور وقبض على اميرها محمد بن طاهر واهل بيته ، وارسل رسله الى الخليفة يعلمه بذلك ، قال الموفق والوزير عبيدالله بن يحيى للرسل . ان امير المؤمنين لا يقر يعقوب على ما فعل وانه يأمره بالانصراف بالذي ولاه اياه ، فانه ان فعل كان من الاولياء ، والا لم يكن له الا ما للمخالفين(١٠٦) . وعندما اشتد خلاف يعقوب بن الليث الصفار على الخلافة ، واظهر ما كان يخفيه من مخالفة ، وتوجه بجيشه نحو سامرا في سنة (٢٦٢هـ) خرج المعتمد على الله على رأس جيشه الذي قاده اخوه الموفق . ونزل بالسيب ، كان الى جانبه وزيره عبيدالله بن يحيى (١٠٧) .

وفي سنة (٢٦٣هـ) مات عبيدالله بن يحيى ، اذ سقط عن دابته في ميدان كرة الصونجان من صدمة خادم له يقال له رشيق . وذلك في يوم الجمعة لعشر خلون من ذى القعدة . فسال الدم من منخره واذنه . ومات بعد سقوطه بثلاث ساعات ، فصلى عليه ابو احمد الموفق ومشى في جنازته (١٠٨) .

---

(١٠٤) الطبري ٩/٣٤٢ .
(١٠٥) الطبري ٩/٤٧٤ ، والكامل ٧/٢٣٥ .
(١٠٦) الطبري ٩/٥٥٧ ، والكامل ٧/٢٦٢ .
(١٠٧) الطبري ٩/٥١٧ .
(١٠٨) الطبرى ٩/٥٣٢ ، والمنتظم ٥/٤٥ .

٦ ـ احمد بن الخصيب :

كان احمد بن الخصيب كاتبا للقائد التركي اشناس الذي كان يتولى اعمال الجزيرة والشامات ومصر والمغرب ، وكان ابن الخصيب هو المدبر لشؤونه • وقد استصحبه اشناس في حملة المعتصم بالله على بلاد الروم في سنة (٢٢٣ هـ) وكلفه مع القائد محمد بن يوسف الثغري بالتحقيق مع احمد الخليل فاخبرهم بما يعرفه عن مؤامرة العباس بن المامون والمشتركين بها وعلى الأخص الحارث السمرقندي داعية العباس ، مما ساعد على القضاء على المؤامرة وهي في مهدها (١٠٩) •

وكان ابن الخصيب احد الكتاب الذين صادرهم الخليفة الواثق بالله ، واخذ منه ومن كتابه ومن اخيه ما مجموعه الف الف دينار(١١٠) • ويقول اليعقوبي انه انتزعت منه ومن اخيه الأموال بعد تعذيبهما وتعذيب امهما (١١١) •

ولما بويع للمنتصر بالله بالخلافة ابعد عبيدالله بن يحيى بن خاقان وزير ابيه عن الوزارة وجعل كاتبه احمد بن الخصيب وزيراً له • الا انه لم يكن موفقا في هذا الاختيار • اذ كان ابن الخصيب تنقصه الكفاية في الادارة ، ولا يعرف شيئا عن شؤون الدولة • ومع مروءته كانت فيه حدة وطيش (١١٢) • وقد وصفه المسعودي بأنه قليل الخير كثير الشر شديد الجهل (١١٣) • ولذلك

---

(١٠٩) الطبري ٩/١٧٥ •
(١١٠) نفس المصدر / ١٢٥ ، والكامل ٧/١٠ •
(١١١) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨١ •
(١١٢) الفخري / ٢١٧ ، والهفوات النادرة / ٢٦١ •
(١١٣) مروج الذهب ٤/١٣٥ •

ساءت الاحوال على عهده . كما ساءت سمعته بين الناس وكان كثيراً ما يرفس المتظلمين اليه وذوي الحاجات اذا ازدحموا عليه . وقد يبصق عليهم ويشتم اعراضهم • فقد عرض له مرة رجل من ارباب الحوائج والح عليه حتى ضايقه وضغط رجله في الركاب ، فاحتد عليه ابن الخصيب واخرج رجله من الركاب وركله في صدره ، فقال احمد بن ابي طاهر (١١٤) :

قل للخليفة يا ابن عم محمد
اشكل وزيرك انه محلول

فلسانه للشتم في اعراضنا
والرجل منه في الصدور تجول

كم طالب لظلامة او حاجة
متعرض لكلامه مركول

وقد اعتبر ابن عبد ربه ركل الوزير احد المتظلمين من سوء الادب (١١٥) • واورد صاحب « الهفوات النادرة » قصصا تدل على جهل ابن الخصيب المطبق ، وحمقه الزائد وضعف لغته وقلة ادبه وتسرعه في الأحكام(١١٦) • وقال فيه ابو العيناء : لو تأمل احمد اخلاقه فاجتنبها لاستغنى عن الاداب يطلبها ، وذمه برسالة وضعها على السنة الرؤساء والقواد والكتاب ، يصف كل منهم مساوىء احمد بن الخصيب (١١٧) • وقال عنه احد الشعراء عندما اشتهرت

---

(١١٤) الهفوات النادرة / ٢٦١ •
(١١٥) العقد الفريد ٤/١٠ •
(١١٦) الهفوات النادرة / ٢٦١-٢٦٦ •
(١١٧) جمع الجواهر في الملح والنوادر / ٢٠٧ و ٢١٠ •

حادثة ركله احد المتظلمين ، يحرض الخليفة عليه ويتهمه بحيازة الأموال (١١٨) :

قل للخليفة يا ابن عم محمد
اشكل وزيرك انه ركال

اشكله عن ركل كل الرجال وان ترد
مالا فعند وزيرك الاموال

واعتبره ابن الجوزي من الحمقى المغفلين . وروى عنه قصة تدل على جهله وقلة معرفته بالعربية • فقد قرأ ابن ربح بحضرة المنتصر كتاب الصدقات ، وقال : في كل ثلاثين بقرة تبيع • فقال الخليفة : ما هو التبيع ؟ فاجاب ابن الخصيب : البقرة وزوجها (١١٩) • وقد ادخل ابن عبد ربه احمد بن الخصيب في قائمة من ادخلوا انفسهم في الكتابة ولم يستحقوها . وانما لطخوا انفسهم بالكتابة وما دانوها (١٢٠) • ومما يؤيد ضحالة ابن الخصيب اللغوية انه نظر يوما الى احد الكتاب ، وكان فدما – اي غليظاً سميناً – مضطرب الخلق ، طويل العثنون ، فقال : لأن يكون هذا فنطاس مركب اشبه من ان يكون كاتبا (١٢١) •

ومع هذه الصفات السيئة التي كان عليها احمد بن الخصيب ، فقد طالت مدة خدمته للخلفاء • ويرجح انه مع مساوئه المذكورة

---

(١١٨) الهفوات النادرة / ٢٦١ . والفخري / ٢١٨ . وذكر البيت الثاني كالآتي :

قد نال من اعراضنا بلسانه ولرجله عند الصدور مجال

(١١٩) اخبار الحمقى والمغفلين / ٢٣٢ •
(١٢٠) العقد الفريد / ٤/١٧٠-١٧١ •
(١٢١) نفس المصدر / ١٧٢ •

ونواحي الضعف الاخرى فيه ، كان خدوما لهم لا يخرج عن اوامرهم ونواهيهم • وقد فسر ابن الخصيب نفسه سبب اتصال خدمته للخلفاء بانه لم تكن في حياته لذة في بناء ولا فرش ولا غلمان ولاجوار ولا مفاخرة بمروءة ، وانما كانت لذته في العمارة والتوفير مما جعلهم يستخدمونه (١٢٢) • على انه يبدو انه كان الى جانب ذلك داهية يجيد حبك المؤامرات • فقد لعب دورا بارزا في مبايعة المنتصر بالله اثر مقتل ابيه(١٢٣) • ولما نشب الخلاف بينه وبين القائد وصيف ، استطاع ان يحرض الخليفة عليه ويقنعه بابعاده عن حاضرة الخلافة ، وخوفه منه ، فارسله في حملة لغزو بلاد الروم(١٢٤) • وتولى ابن الخصيب كتابة الكتاب الذي وجهه الخليفة الى عامله في بغداد يطلب اليه ان يحث الناس على الخروج للجهاد في سبيل الله وأن يوافوا عسكر وصيف في ثغر ملطية(١٢٥) • كما استطاع ان يقنع القواد الذين تآمروا على قتل المتوكل على الله بارغام المنتصر بالله على خلع اخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد ، وقد أخذ ابن الخصيب رقاعهما بالتنازل وتولى قراءتها على الذين حضروا للشهادة على تنازلهما (١٢٦) •

استمر ابن الخصيب في منصب الوزارة طيلة ايام المنتصر بالله ، اذ لم يستطع الخليفة ان يستبدله ، ولعل قصر مدة خلافته لم يتح له فرصة كافية لذلك •

---

(١٢٢) نشوار المحاضرة ٨/٤٩-٥٠ •
(١٢٣) الطبري ٩/٢٣٥ •
(١٢٤) نفس المصدر / ٢٤٠ •
(١٢٥) الطبري ٩/٢٤١-٢٤٣ والكامل ٧/١١١-١١٢ •
(١٢٦) الطبري ٩/٢٤٤-٢٤٦ ، والكامل ٧/١١٢-١١٤ •

وقد لعب احمد بن الخصيب دورا رئيسا في اختيار الخليفة المستعين بالله بعد موت المنتصر بالله . فاستكتبه الخليفة الجديد ، وعهد بامور الوزارة الى القائد اوتامش • ورغم خروج ابن الخصيب من الوزارة فقد ظل الى جانب الخليفة يستمتع بنفوذ كبير • ولما اراد الاتراك ان يقتلوا اخوي المنتصر بالله ، المعتز والمؤيد ، عندما شغب الغوغاء والشاكرية في اوائل عهد المستعين بالله ، وكانا محبوسين في الجوسق بحراسة بغا الصغير ، منعهم ابن الخصيب من ذلك واقنعهم بان لا علاقة لهما بالذين شغبوا ، فابقوهما محبوسين (١٢٧) •

على ان الاتراك ما لبثوا ان غضبوا على ابن الخصيب في جمادى الأولى من سنة (٢٤٨هـ) فاستصفى الخليفة امواله واموال ولده ، وامر بنفيه الى اقريطش (١٢٨) ، وبقي مدة في منفاه ثم عاد الى سامرا ، وقد توفى في سنة (٢٦٥هـ) •(١٢٩) •

٧ ــ احمد بن اسرائيل :

ابو جعفر الانباري ، كان من حذاق الكتاب في سامرا ، وكان الخليفة الواثق بالله قد اتهمه مع آخرين من الكتاب بخيانة الواجب . فامر بحبسه والزمه تأدية ما خانه من الاموال • ودفعه الى صاحب الحرس يحيى بن معاذ وامره بضربه كل يوم عشرة

---

(١٢٧) الطبري ٩/٢٥٩ ، والكامل ٧/١١٩ •
(١٢٨) نفس المصدرين السابقين •
(١٢٩) العبر ٢/٢٩ـ٣٠ •

اسواط . ويقال انه ضربه نحوا من الف سوط ، واستخرج منه ثمانين الف دينار (١٣٠) .

وقد استخلفه عبيدالله بن يحيى بن خاقان على ديوان الخراج، وكان ابن اسرائيل يتولى يومئذ الكتابة للامير المعتز بن المتوكل على الله (١٣١) . وظل محتفظا بعمله في الديوان حتى ايام المستعين بالله ، وقد التحق به لما انحدر الى بغداد اثر خلافه مع بعض قواد الاتراك في سنة (٢٥١هـ) . وبعثه الخليفة في وفد يحمل كتابا الى القائد الحسين بن اسماعيل عندما هزم وجيشه امام جيش سامرا في جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، يلومه فيه على ضعفه وتخاذله (١٣٢) .

ويظهر ان ابن اسرائيل كان مقربا من المستعين بالله . فاراد مؤيدوا المعتز بالله ان يفرقوا بينهما باثارة شكوك الخليفة في ولائه . فكلفوا رجلا يقف بباب الخليفة ويدعو للمعتز بالله بالنصر والتأييد . ولما قبض عليه ادعى بان احمد بن اسرائيل امره بذلك . فغضب الخليفة عليه ، الا انه ما لبثت الحقيقة ان ظهرت وعرف امر الرجل (١٣٣) . على ان ابن اسرائيل ادرك ضعف مركز المستعين بالله وتزايد قوة المعتز بالله فانضم الى الجانب الذي كان يسعى للصلح مع الموفق قائد جيش المعتز بالله ، وخرج الى معسكر الموفق مع عدد من رجال المستعين بالله باذن من محمد بن عبدالله بن طاهر امير بغداد حينذاك لمناظرة ابي احمد الموفق في الصلح بين

---

(١٣٠) الطبري ٩/١٢٥ .
(١٣١) الطبري ٩/٢١٧ .
(١٣٢) الطبري ٩/٣٢٤ .
(١٣٣) الفرج بعد الشدة ٤/١٢٥ .

الطرفين(١٣٤) • كما ايد ابن اسرائيل عبيدالله بن يحيى في صرف محمد بن عبدالله عن نصرة المستعين بالله ، والسعي لايقاف القتال بين المعتز بالله والمستعين بالله ، والسعي للصلح (١٣٥) • ثم صار الى المعتز بالله في سامرا فولاه البريد ووعده بالوزارة ان تم لـه النصر (١٣٦) •

ولما رأى المستعين بالله ضعف امره وخذلان ناصريه اجاب الى خلع نفسه من الخلافة وبايع للمعتز بالله - فانتهت الحـرب بـين سامرا وبغداد ، واستقر الأمر للمعتز بالله • فكافأ المعتز بالله ابن اسرائيل على انتصاره له وخذلانه المستعين بالله بأن اسـتوزره وخلع عليه ووضع تاجاً على رأسه(١٣٧) •

وكان القائدان التركيان وصيف وبغا اللذان التحقا بالمستعين بالله ، لما رأيا ان الخلافة انتهت الى المعتز بالله ، قررا المصير اليه في سامرا ، فوجه وصيف اخته سعاد الى المؤيد ليكلم اخاه المعتز بالله بالعفو عنه ، وكان الموفق قد كلم المعتز بالله في امر العفو عن بغا ايضاً • فكتب الخليفة اليهما بالرضا عنهما • فتوجها الى سامرا - ويبدو ان المعتز بالله لم يكن راغبا في مجيئهما الى سامرا لأنه كتب الى امير بغداد محمد بن عبدالله ان يمنعهما مـن الخـروج مـن بغداد (١٣٨) • ولما علم احمد بن اسرائيل بوصـول القـائدين المذكورين الى بغداد بكـر في زيارتهما قبـل ان يحضـرا دار

---

(١٣٤) الطبري ٩/٣٣٦ •
(١٣٥) نفس المصدر / ٣٤١ _ ٣٤٢ •
(١٣٦) نفس المصدر / ٣٤٤ •
(١٣٧) نفس المصدر / ٣٤٩ •
(١٣٨) نفس المصدر / ٣٥٥ •

الخلافة(١٣٩) . ولعله كان يهدف من زيارته الترحب بهما ليكسب تأييدهما له ، بعد ان علم انهما اعيدا الى سابق مراتبهما واعمالهما . ولما اشتد الخلاف بين الخليفة والقائد بغا ، وقف احمد بن اسرائيل الى جانب الخليفة وصحبه الى كرخ سامرا ليلا للالتجاء الى القائد بايكباك ومن معه ممن كانوا ضد بغا . وكان بغا قد غامر بالخروج على الخليفة فانتهى امره بالقتل وجيء برأسه الى المعتز بالله . فبعث الخليفة من ساعته الى احمد بن اسرائيل ، وبعض رجال دولته ، يبلغهم بذلك (١٤٠) .

وبالنظر لازدياد الجند الأتراك وازدياد نفقاتهم فقد عجز الوزير ابن اسرائيل عن تأمين الأموال اللازمة لهم ، فاستغل الاتراك تأخر ارزاقهم فهاجموه . وقد تزعم حركة تذمرهم القائد صالح بن وصيف ، فقابل الخليفة بحضور الوزير وقال له : يا امير المؤمنين ليس للاتراك عطاء ، ولا في بيت المال مال . وقد ذهب ابن اسرائيل واصحابه باموال الدنيا . فرد عليه احمد بن اسرائيل واتهمه بالعصيان . فأمر صالح اتباعه فقبضوا على الوزير واثنين من كبار الكتاب من مؤيديه هما الحسن بن مخلد ، وهو كاتب قبيحة ام المعتز بالله ، وابو نوح عيسى بن ابراهيم ، وكان كاتب الفتح بن خاقان ، وقيدوهم واثقلوهم بالحديد . ورفض صالح طلب الخليفة وامه باطلاق سراح احمد ابن اسرائيل . ولما لم يحصل الاتراك على شيء من المال منهم ، وجه صالح في قبض ضياعهم ودورهم ، وضياع ذويهم واموالهم (١٤١) .

---

(١٣٩) نفس المصدر / ٣٥٦ .
(١٤٠) الطبري ٩/٣٧٩ ـ ٣٨٠ .
(١٤١) نفس المصدر / ٣٨٧ـ٣٨٨ .

وعندما تفاقم الخلاف بين الخليفة والاتراك خلعوه وقتلوه ، وبايعوا لمحمد بن الواثق بالله بالخلافة ولقب بالمهتدي بالله • واستمر صالح واتباعه في التشديد على الوزير والكتاب حتى يوم الخميس لثلاث بقين من رمضان سنة (٢٥٥هـ) فأخرج ابن اسرائيل الى باب العامة وضرب خمسمائة سوط ، ثم حمل على بغل من بغال السقائين منكس الرأس مكشوف الظهر ، وحين وصلوا به خشبة بابك مات • فقال الخليفة لما بلغه ذلك اما عقوبة الا السوط والقتل ، اما يكفي الحبس (١٤٢) • وقد اختلف فيمن امر بضربه ، فان الطبري يقول ان صالح بن وصيف وكل بضربه حماد ابن محمد بن حماد بن دنقش ، ويتفق معه ابن الأثير بان صالحا هو الذي امر بضربه (١٤٣) • بينما يقول المسعودي ان المهتدي بالله لما افضت اليه الخلافة اخرج احمد بن اسرائيل الى باب العامة بسامرا فضرب خمسمائة سوط فمات ، وذلك لامور كانت قد استحق عند المهتدي فيما يجب في حكم الشريعة ان يفعل ذلك (١٤٤) •

كان احمد بن اسرائيل بعيد النظر ، مرضيا في عمله . وقد حاز ثقة الخلفاء الذين خدمهم وتقديرهم • وقد عرف بقوة حفظه وحدة ذهنه ، وقالوا انه كان يحفظ وجوه المال جميعها دخلا وخرجا • وضاعت مرة حسبة من الديوان فأوردها من خاطره ، فلما وجدت كانت كما قال من غير زيادة او نقيصة (١٤٥) •

---

(١٤٢) نفس المصدر / ٣٩٨ •
(١٤٣) نفس المصدر / ٣٩٧ ـ ٣٩٨ ، الكامل ٧/٢٠١ •
(١٤٤) مروج الذهب ٤/١٨٧ •
(١٤٥) الفخري / ٢٢٢ •

وذكر الصابي خبرا يؤيد ذلك ، فقد كان يلقى على الكتاب الطويل نظرة سريعة فيستوعب ما فيه ، ويأمر بما يجب به (١٤٦) ٠

٨ ـ سليمان بن وهب :

ابو ايوب سليمان بن وهب بن سعيد من بيت كتابة وانشاء ، حزم اجداده عدداً من الخلفاء الأمويين في الشام ، وبعض الخلفاء العباسيين في بغداد ٠ وكان ابوه وهب بن سعيد كاتبا للفضل بن سهل وزير المأمون ، ثم كتب بعده للحسن بن سهل الذي قلده بعض الولايات فابدى كفاية في الادارة (١٤٧) ٠

عمل سليمان في الكتابة في سن مبكرة ٠ فقد كتب للمأمون وهو ابن اربع عشرة سنة ، وكتب لايتاخ ثم لأشناس ، وهما من كبار القواد الأتراك (١٤٨) ٠ ويقول ابن الطقطقي انه من قرية واسط ، واصل اهله نصارى اسلموا وخدموا في الدواوين ، ويعتبر سليمان من كبار الكتاب وذوي الرأي منهم (١٤٩) ٠ ثم كتب سليمان للخليفة المعتصم بالله ، وقد بعثه ليحصي ما في دار الأفشين عندما حبسه (١٥٠) ٠ ولما حبس الواثق بالله الكتاب والزمهم اموالا ، امر بحبس سليمان بن وهب ، وكان حينذاك يكتب لايتاخ ، والزمه بمائتي الف درهم ـ وقيل دينار ـ فقيد والبس مدرعة من مدارع الملاحين ، فادى مائة الف درهم وسأل ان يؤخذ

(١٤٦) الوزراء / ٢١٣ ٠
(١٤٧) وفيات الاعيان ٢/١٤٥ ٠
(١٤٨) نفس المصدر ٠
(١٤٩) الفخري / ٢٢٣ ٠
(١٥٠) الطبري ٩/١١٤ ٠

بالباقي في عشرين شهراً ، فاجابه الخليفة الى ذلك واخلى سبيله ورده الى كتابة ايتاخ(١٥١) • ويقال ان سليمان بن وهب بلغه ان الواثق بالله نظر الى احمد بن الخصيب الكاتب فأنشد :

من الناس انسانان ديني عليهما
مليئان لو شاءا لقد قضياني

خليلي اما ام عمرو فانها
واما عن الاخرى فلا تسلاني

فقال : انا لله ، احمد بن الخصيب ام عمرو ، واما الاخرى فانا • فنكبهما الخليفة بعد ايام (١٥٢) • ومن شعر سليمان لما سجنه الواثق بالله قوله (١٥٣) :

نوائب الدهر ادبتني
وانما يوعظ الأريب

قد ذقت حلواً وذقت مراً
كذاك عيش الفتى ضروب

ما مر بؤس ولا نعيم
الا ولي فيها نصيب

---

(١٥١) نفس المصدر / ١٢٨ ، وسبق ان ذكر في ص : ١٢٥ انه اخذ منه اربعمائة الف دينار وكذا جاء في تجارب الامم ٥٢٧/٦ ، وفي الكامل ١٠/٧ •
(١٥٢) وفيات الأعيان ١٤٧/٢ •
(١٥٥) الأغاني ٢٣-١٤٨ •

ولما امر المتوكل على الله اسحاق بن ابراهيم بالقبض على إيتاخ وحبسه في سنة (٢٣٥هـ) حبس اسحاق كاتبيه ايضا ، وكان احدهما سليمان بن وهب (١٥٤) • الا ان المتوكل على الله رضي عنه بعد ذلك فولاه ديوان الخراج(١٥٥) • ثم تولى الكتابة للقائد موسى بن بغا • وعندما عاد معه الى سامرا من الجبل في سنة (٢٥٥هـ) استوزره المهتدي بالله ولقب بالوزير(١٥٦) • ويلاحظ ان سليمان بن وهب لم يبد كفاية في معالجة الخلاف الذي نشب بين الخليفة والقواد الاتراك • وكان بحكم علاقته بموسى بن بغا يميل الى جانب القواد المذكورين • وقد قتل المهتدي بالله وسليمان لايزال وزيره •

كان المعتمد على الله قد استوزر الحسن بن مخلد اثر وفاة عبيدالله بن يحيى ، وكانت علاقة الحسن بالقائد موسى بن بغا سيئة ، فلما قدم موسى الى سامرا في اوائل ذى الحجة سنة (٢٦٣هـ) اختفى الحسن • فاستوزر المعتمد على الله مكانه سليمان ابن وهب ، وولي ابنه عبيدالله بن سليمان كتابة ابنه جعفر المفوض (١٥٧) • الا ان الخليفة سخط عليه في السنة التالية فحبسه وقيده وانتهب داره وداري ابنيه وهب وابراهيم ، واعاد استيزار الحسن بن مخلد ، وذلك في اواخر ذى القعدة من سنة (٢٦٤هـ)(١٥٨) • ويقول التنوخي ان المعتمد على الله طلب من

---

(١٥٤) الطبري ٩/١٦٩ ، والكامل ٧/٤٦ •
(١٥٥) كتاب الولاة وكتاب القضاة / ٢٠٣ و٥٠٨ •
(١٥٦) الاغاني ٢٣/١٤٣ •
(١٥٧) الطبري ٩/٥٣٢ ، والكامل ٧/٣١٠ •
(١٥٨) الطبري ٩/٥٤٠ ، والكامل ٧/٣١٦ •

وزيره سليمان مالا لنفقته على ان لا يعلم الجند بذلك ، فدافعه سليمان ، فقبض عليه وقال له : قد تقلدت منذ ايام المعتز الى الآن اعمالا متوالية منها الوزارة للمهتدي وما نكبت وما صودرت ، واريد منك خمسمائة الف دينار (١٥٩) •

الا ان الموفق جاء الى سامرا واطلق سليمان من الحبس ، وهرب الحسن بن مخلد فكتب الموفق في قبض امواله (١٦٠) • الا انه سرعان ما أمر الموفق بحبس سليمان ثانية وحبس معه ابنه عبيدالله ، ووكل بحفظ داريهما ، وقبض ضياعهما واموالهما واموال ذويهما وضياعهم ، ثم صولحا على مبلغ قدره تسعمائة الف دينار ، فصيرا في موضع يصل اليهما فيه من أحبَّا (١٦١) • ويظهر ان سبب قبض الموفق على سليمان وابنه عبيدالله ، ان المعتمد على الله لما قبض على سليمان ذهب ابنه الى الموفق يلتمسه في انقاذ ابيه فوعده بذلك ، الا انه الح بطلبه ، فاعتذر الموفق ، فقال له سليمان : تخرج بمن معك فتنتزعه قسراً ، فقال الموفق : ان هذا يحتاج الى مال ورجال ، فقال عبيدالله : عليَّ ذلك • وقال عبدالله ان الموفق اخذ يدافعني بعد ان رآني بصورة من يملك المال وطاعة الرجال في قتال خليفة ، فراوغني وبعث بصاعد بن مخلد الى المعتمد على الله يشير عليه باطلاق ابي فاطلقه • ولما عاد صاعد شرع الموفق في القبض على سليمان وابنه عبيدالله (١٦٢) •

---

(١٥٩) نشوار المحاضرة ٨/٩٦ •
(١٦٠) الطبري ٩/٥٤١ •
(١٦١) الطبري ٩/٥٤٣-٥٤٤ ، والكامل ٧/٣٢٧ •
(١٦٢) نشوار المحاضرة ٨/٩٧ •

وقيل ان الموفق نكب سليمان بن وهب وابنه عبيدالله لكثرة اموالهما فقال ابن الرومي ، وكان حاضراً (١٦٣)

الم تر أن المال يتلف ربه
اذا جم آتيه وسد طريقه
ومن جاور الماء الغزير فجمه
وسد مفيض الماء فهو غريقه

ولبث سليمان في حبس الموفق الى ان ادركته منيته ، في يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة بقيت من صفر من سنة (٢٧٢هـ) (١٦٤) • وقد مدحه عدد من الشعراء • فمن محاسن قول ابي تمام فيه من قصيدة قالها في مدحه (١٦٥) :

كل شعب كنتم فيه آل وهب
فهو شعبي وشعب كل اديب
ان قلبي لكم لكالكبد الحر
ي ، وقلبي لغيركم كالقلوب

وقال البحتري في مدحه (١٦٦) •

كأن اراءه والحزم يتبعها
تريه كل خفي وهو اعلان

---

(١٦٣) الاغاني ٢٣/١٥٣ •

(١٦٤) الطبري ١٠/٩ والكامل ٧/٤١٠ ، ووفيات الاعيان ٢/١٤٦ وفيه قيل سنة ٢٧١ •

(١٦٥) وفيات الاعيان ٢/١٤٦ •

(١٦٦) نفس المصدر •

ماغاب عن عينيه فالقلب يكلؤه

وان تنم عينه فالقلب يقظـان

ولما مات سليمان رثاه البحتري بقصيدة منها (١٦٧) :

هذا سليمان بن وهـب بعدمـا

طالت مساعيه النجوم سـموكا

وتنصف الدنيا يدبـر امرهـا

سبعين حولا قد تممن دكيـكا

أغرت به الاقـدار بغت ملمـة

ما كان رس حديثهـا مافوكـا

فكأنما خضد الحمـام بيومه

غـصناً بمنخرق الريـاح نهيكا

---

(١٦٧) ديوان البحتري ٣/١٥٧٩ ، السموك : الارتفاع ، الدكيك : التام ، رس الحديث : طرف منه ، مافوك : مكذوب منخرق الرياح : مهبها .

الفصـل الثاني

الكُتّـــــاب

يعتبر الكتاب اعوان الوزراء ، فقد كان لكل وزير كاتب او اكثر لمعاونته في عمله • كما كان لرجال الدولة وكبار القـــواد وولاة الأقاليم كتاب يستعينون بهم وقد تدرج بعض الكتاب الى منصب الوزارة • وكان هؤلاء الكتاب يمتازون بالثقافة العـامة والاطلاع الواسع على معارف عصرهم ، بحيث انهم كانوا يمثلون صفوة المثقفين ، وهم الذين يقومون بشؤون دواوين الدولة •

ومن الواضح ان ما يجب ان يتقنه الكاتب ويلـم بـه مـن المعارف ، يختلف باختلاف عمله • فان كان كاتب خراج عليه ان يلم بالحساب والمساحة والخراج والفنون والرتـوق ، وان كـان كاتب خراج عليه ان يلم بالحساب والمساحة والخراج ، والفتوق والرتوق ، وان كان كاتب احكام عايه ان يكون عالما بالحـــلال والحرام والاحتجاج والاجماع والأصول والفروع ، اي ان يكون متفقها في الدين ، اما اذا كان كاتب معونة فانه يحتاج الى ان يكون عالماً بالقصاص والحدود والجراحات • وعلى كاتـب الجيش ان يكون عالماً بحلي الرجال وشيات الدواب ومداراة الأولياء ــ أي

الاتراك لأن غالبية الجيش منهم ـ وعلى معرفة بالنسب والحساب. ويحتاج كاتب الرسائل ان يكون عالماً بالصدور والفصول والاطالة والايجاز وان يكون بلغياً حسن الخط بالنظر لطبيعة عمله(١) .

ان الكاتب بصورة عامة ومهما كان عمله ، يجب ان يكون اديباً ذا اطلاع واسع في مختلف العلوم والفنون المعروفة حينذاك. اي ان يكون موسوعياً ، بحيث يستطيع تحرير مختلف انواع الرسائل الرسمية ، مما يتطلب منه مقدرة فائقة في اللغة من نحو وصرف وبلاغة وبيان ، وملما بالامور الفقهية ، ويحفظ كثيراً من الآيات القرآنية الكريمة والاحاديث النبوية الشريفة . كما يحفظ انماطا مختلفة من الشعر والامثال . وقد شرح النويري ما كان يحتاج اليه الكاتب من المعارف نلخصه بما يأتي (٢) :

١ ـ حفظ كتاب الله تعالى ومداومة قراءته ، وملازمة درسه ، وتدبير معانيه . ذاكراً له في كل ما يرد عليه من الوقائع التي يحتاج فيها الى الاستشهاد به .

٢ ـ الاستكثار من حفظ الاحاديث النبوية ، والنظر في معانيها وفقه ما لابد من معرفته من احكامها . ليحتج بها في مكان الحجة ، ويستدل بموضع الدليل .

٣ ـ قراءة ما يتفق له من كتب النحو التي يحصل بها المقصود من معرفته العربية ، وقراءة ما يتهيأ له من مختصرات اللغة ، وحفظ خطب البلغاء .

---

(١) الفرج بعد الشدة ٣/٣٠٩ .

(٢) نهاية الأرب ٧/٣٠ـ٣٤ .

٤ ـ النظر في ايام العرب ووقائعهم وحروبهم ، وتسمية الايام التي كانت بينهم ، وما جرى في ذلك من الاشعار ، لما في ذلك من العلم بما يستشهد به من واقعة او يوم مشهور ٠

٥ ـ النظر في التواريخ ومعرفة اخبار الدول ، لما في ذلك من الاطلاع على سير الملوك وسياساتهم ووقائعهم ومكائدهم وحروبهم ، وما اتفق لهم من التجارب ٠

٦ ـ حفظ اشعار العرب ومطالعة شروحها واستكشاف غوامضها ، والتوفر على ما اختاره العلماء منها ، كالحماسة والمفضليات والأصمعيات ، بما يساعد على الاستشهاد ووضعه في مكانه ٠

٧ ـ النظر في رسائل المتقدمين وفي كتب الامثال الواردة عن العرب نظما ونثرا ٠

٨ ـ النظر في الأحكام السلطانية ٠

وينسب الى عبدالحميد بن يحيى الكاتب كتابا موجها الى طائفة الكتاب (٣) ٠ تضمن بيان اهميتهم في المجتمع ، والصفات التي يجب ان يتحلو بها ، وما يحتوجون اليه من انواع المعارف « فقد جاء فيه عن اهميتهم والحاجة اليهم « حفظكم الله يا اهل هذه الصناعة ٠٠ فان الله عزوجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين ٠٠ فجعلكم معشر الكتاب في اشرفها صناعة ، اهل الأدب والمروءة ٠٠ بكم ينتظم الملك ، وتستقيم للملوك امورهم ، وبتدبيركم وسياستكم

---

(٣) نص الكتاب في « الوزراء والكتاب / ٧٣-٧٩ ، وفي مقدمة ابن خلدون مع اختلاف كثير ١٣٥-١٣٦» ٠

يصلح الله سلطانهم وتعمر بلادهم . يحتاج اليكم الملك في عظيم ملكه ، والوالي في القدر السني والدني من ولايته ، لايستغني عنكم منهم احد ، ولا يوجد كاف الا منكم . فموقعكم منهم موقع اسماعهم التي بها يسمعون ، وابصارهم التي بها يبصرون ، والسنتهم التي بها ينطقون وايديهم التي بها يبطشون »(٤) .

اما عن الصفات التي يتحلى بها الكاتب فقد قال : « فان الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات اموره ، الى ان يكون حليماً في موضع الحلم ، مقداما في موضع الاقدام ، ومحجماً في موضع الاحجام ، ليناً في موضع اللين ، شديداً في موضع الشدة . مؤثراً للعفاف والعدل والانصاف ، كتوماً للاسرار ، وفياً عند الشدائد . عالما بما يأتي ويذر ويضع الامور في مواضعها . فقد نظر في كل صنف من صنوف العلم فاحكمه ، فان لم يحكمه شدا منه شدواً (٥) ، يكتفي به . يكاد يعرف بغريزة عقله وحسن ادبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيعد لكل امر عدته ويهيء لكل امر اهبته » (٦) .

واما ما يحتاج اليه الكاتب من المعارف ، فقد جاء فيه : « فنافسوا ، معشر الكتاب ، في صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين . وابدأوا بعلم كتاب الله عزوجل ، والفرائض ، ثم العربية فانها ثقاف السنتكم ، واجيدوا الخط فانه حلية كتبكم ، وارووا

---

(٤) الوزراء والكتاب / ٧٤ .
(٥) شدا بمعنى أخذ .
(٦) الوزراء والكتاب / ٧٤-٧٥ .

الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وايـام العـرب والعجـم واحاديثها • وسيرها ، فان ذلك معين لكم على ما تسمون اليه بهممكم • ولا يضعفن نظركم في الحساب فانه قوام كتاب الخراج منكم • وارغبوا بانفسكم عن المطامع سنيها ودنيها ، ومساوىء الأمور ومحاقرها ، فانها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب » (٧) •

ويرى ابن المدبر (٨) ان الكاتب المستحق اسم الكتابة هو « من اذا حاول صنعة كتاب سالت على قلمه عيون الكلام من ينابيعها ، وظهرت من معادنها ، وبدرت من مواطنها ، من غير استكراه ولا اغتصاب » (٩) • ولكي يكون الكاتب بليغاً فصيحاً عليه ان يتصفح من رسائل المتقدمين ما يعتمد عليه ، ومن رسائل المتأخرين ما يُرجع اليه ، لتلقيح ذهنه واستخراج بلاغته • بالاضافة الى الاستعانة بنوادر كلام الناس وبالاشعار والأخبار والسير (١٠) • وهو يرى أن على الكاتب ان يخاطب كلا على قدر ابهته وجلالته ، فيجعل طبقات كلامه على ثمانية اقسام : اربعة منها للطبقة العلوية ، واربعة دونها • والطبقة العلوية هي الخلافة التي اعلى الله شأنها عن مساواتها باحد من ابناء الدنيا في التعظيم والتوقير والمخاطبة والترسل • والطبقة الثانية الوزراء والكتاب الذين يخاطبون الخلفاء بعقولهم والسنتهم ، ويرتقون الفتوق بارائهم ، والثالثة

---

(٧) الوزراء والكتاب / ٧٥ •

(٨) ابراهيم بن المدبر من مشاهير كتاب القرن الثالث وقد ولي رئاسة عدد من الدواوين في عهد خلفاء سامرا ، وله : «الرسالة العذراء» في ثقافة الكاتب وصفاته وزيه ، وادوات الكتابة ومعرفته بها ، وما قيل في الكتابة •

(٩) الرسالة العذراء / ٣٦ •

(١٠) نفس المصدر / ٧ •

امراء ثغورهم وقواد جيوشهم ، والرابعة القضاة فانهم وان كان لهم تواضع العلماء وحلية الفضلاء فمعهم ابهة السلطة وهيبة الامراء (١١) . اما الطبقات الاخرى التي هي دون الطبقات آنفة الذكر فهي : الأولى الملوك الذين اوجبت نعمهم تعظيمهم في الكتب، والثانية الوزراء وكتابهم واتباعهم الذين بهم تقرع ابوابهم ، والثالثة العلماء الذين يجب توقيرهم في الكتب لشرف العلم وعلو درجة اهله . والرابعة لأهل القدر والجلالة والظرف والعلم والأدب ، فانهم يضطرونك بحدة اذهانهم وشدة تمييزهم وانتقادهم ، الى الاستقصاء عن نفسك في مكاتبتهم (١٢) .

كما يوصي ابن المدبر الكاتب بالاهتمام بصدد كتابه ، وينصحه باختيار الألفاظ والمعارف بما يناسب الموضوع الذي يكتب فيه ، ويبين له انسب الأوقات للكتابة ، فيقول : « وليكن في صدر كتابك دليل واضح على مرادك ، وافتتاح كلامك شاهد على مقصدك .. ولا تطيلن صدر كلامك اطالة تخرجه من حده ، ولا تقصر به عن حقه » (١٣) . « واذا حاولت صنعة رسالة او انشاء كتاب فزن اللفظة قبل ان تخرجها بميزان التصريف اذا عرضت ... وادر الالفاظ في اماكنها ، واعرضها على معانيها ، وقلبها على جميع وجوهها حتى تقع موقعها » (١٤) . « وارتصد لكتابك فراغ قلبك وساعة نشاطك ، فتجد ما يمتنع عليك بالكد والتكلف - لأن سماحة النفس بمكنونها وجود الاذهان بمخزوناتها،

---

(١١) نفس المصدر / ١٠ .
(١٢) نفس المصدر / ١١ .
(١٣) نفس المصدر / ٢٢ .
(١٤) نفس المصدر / ٢٩ .

انما هو مع الشهوة المفرطة في الشيء . والمحبة الغالبة فيـــه . والغضب الباعث فيه ذلك » (١٥) ٠

وبالنظر لأهمية الكتاب والحاجة اليهم فقد كونوا طبقة لهـا زيها الخاص ، واشترطوا مواصفات معينة فيمن ينتسب اليهـا ٠ فقد اشترطوا في صفات الكاتب « طول القامة ، وصغر الهامة ، وخفة اللهازم ، وكثافة اللحية ، وصدق الحس ، ولطف المذهب ، وحلاوة الشمائل ، وملاحة الزي» (١٦) ٠ حتى قال احدهم لابنائه : تزيوا بزي الكتاب فان فيهم ادب الملوك وتواضـع السوقة (١٧) ٠ ويرى النويري ان من كمال صفات الكاتب ان يكون بهي الملبس ، نظيف المجلس ، ظاهر المروءة ، عطر الرائحة ، دقيـق الذهـن ، صادق الحس ، وحسن البيان ، رقيق حواشي اللسان، حلو الاشارة، مليح الاستعارة (١٨) ٠

---

(١٥) الرسالة العذراء / ٣٠ ٠
(١٦) نفس المصدر / ٨ ٠
(١٧) نفس المصدر /٩ وعيون الاخبار ١/٤٦ ٠
(١٨) نهاية الارب ٧/١٢ ٠

الفصل الثالث

القضاء في عهـد سامرا

١ ـ مقدمة :

يعتبر القضاء من المناصب الدينية الرئيسة في الاسلام ، لانه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للتنازع ، وذلك بموجب الشريعة المستندة الى الكتاب والسنة (١) . وقد تطور هذا المنصب واستقرت اسسه في العهود التي سبقت انتقال عاصمة الدولة العربية الى سامرا من حيث الشروط التي يجب توفرها فيمن يتولاه ، والصلاحيات التي يمارسها ، والواجبات التي عليه ان يلتزم بها ، وعلاقته بالدولة . وقد اسهب الفقهاء في بيان ذلك ، ومنهم القاضي ابو الحسن الماوردي والقاضي ابو يعلي الحنبلي . فقد عقد كل منهما في كتابه « الأحكام السلطانية » باباً خاصا بالقضاء واحكامه ، وتناول كل منهما الموضوع من الناحيتين الفقهية والادارية .

---

(١) مقدمة ابن خلدون / ١٢٠ .

وهناك شروط معينة يجب ان تتوفر فيمن يعين للقضاء ، واهمها : الاسلام ، والحرية ، وكمال العقل ، وسلامة الحواس ، وان يكون اهلا للاجتهاد فيما يجوز له ان يقضي بين الناس(٢) • واهم واجبات القاضي ان يسوى في الحكم بين القوي والضعيف ، وان يعدل في احكامه فلا يتبع هواه في تقصير المحق او ممالاة المبطل(٣) • وقد اتسعت سلطات القاضي في خلال العهد العباسي الأول ، فبعد ان كان ينظر في القضايا المدنية والجنائية اصبح ينظر في قضايا اخرى تتعلق بالحقوق العامة كالنظر في شؤون الاوقاف والتصرف بمواردها ، وتنفيذ الوصايا ، والنظر في اموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى واهل السفه ، وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء ، واقامة الحدود الدينية على مستحقيها • وقد تضاف اليه احيانا الشرطة او المظالم او الحسبة او دار الضرب او بيت المال (٤) •

ويعتبر الخليفة ابو جعفر المنصور اول من عيّن القضاة في الأمصار ، وكان تعيينهم قبل ذلك يتم محليا من قبل الولاة (٥) • وكان القاضي يعين مشافهة او بالعهد كتابة • وكان عهد التعيين يتضمن تحديد منطقة عمل القاضي ، وتعيين القضايا التي ينظر فيها • وقد اورد قدامة بن جعفر نسخة من عهد تولية احد القضاة ، وهو يتضمن توجيهات الخليفة له حول عمله بما يؤمن العدل وتطبيق احكام الشريعة ، وتوجيهات اخرى (٦) •

---

(٢) الاحكام السلطانية للماوردي / ٥٤ •
(٣) نفس المصدر / ٥٩ •
(٤) مقدمة ابن خلدون / ١٢١ •
(٥) تاريخ اليعقوبي ٢/٣٨٩ •
(٦) الخراج وصناعة الكتابة / ٣٩ـ٤٠ •

وكان الخلفاء عند تعيين القضاة في الولايات يتوخون الانسجام بين الوالي والقاضي المعين ، وذلك ضمانا لعدم قيام النزاع بين السلطتين التنفيذية والقضائية ٠

ويعاون القاضي في اداء مهمته اضافة الى الشهود والى من يقوم بالتحري عن عدالتهم وعدم ارتكابهم ما يمنع من قبول شهاداتهم ، عدد من الموظفين يؤلفون معه ديوان القضاء ٠ فكان هناك كاتب الاحكام الذي يجب ان يكون عارفا بعلوم الشريعة وحدودها وله خبرة بالاقرار والانكار ، ودربة باحكام الوكالات والشهود وطبقاتهم (٧) ٠ وكاتب آخر يتولى عرض الدعاوى والخصومات ، وخازن يقوم بخزن اوراق القاضي واحضارها عند الطلب ، وعدد من الحرس والأعوان يتولون حماية مجلس القضاء وتنفيذ الأحكام (٨) ٠

وكان اللباس الرسمي للقاضي الطيلسان الاسود والعمامة السوداء(٩) ٠ اما رواتب القضاة فقد كانت زهيدة اول الأمر. فقد عين الخليفة المهدي المفضل بن فضالة قاضياً على مصر واجرى عليه ثلاثين ديناراً في كل شهر (١٠) ٠ ثم زيدت رواتبهم فبلغت في ايام المتوكل على الله لبعض القضاة مائة وثمانية وستين ديناراً في كل شهر (١١) ٠

---

(٧) سلوك المالك / ١٥٩-١٦٠ ٠
(٨) كتاب الولاة وكتاب القضاة / ٥٧٤ ٠
(٩) كتاب الولاة وكتاب القضاة / ٥٢٢ ٠
(١٠) نفس المصدر / ٣٧٧ ٠
(١١) نفس المصدر / ٥٠٧ ٠

٢ ـ قاضي القضاة :

انشىء في العهد العباسي الاول منصب قاضي القضاة ، اي، رئيس القضاة ، وكان يقيم في حاضرة الخلافة ليكون على مقربة من الخليفة الذي لا يستطيع الاستغناء عنه في الامور والقضايا الفقهية والشرعية • وكان قاضي القضاة يولي من يراه لمنصب القضاء في الأمصار والأقاليم ممن تتوفر فيهم شروط القضاء وصفاته ، بعد ان يستحصل موافقة الخليفة على ذلك • ويعتبر ابو يوسف يعقوب ابن ابراهيم صاحب كتاب الخراج وقاضي هارون الرشيد اول من اشغل هذا المنصب في الدولة العربية في عهد العباسيين ببغداد •

اما في عهد سامرا فقد تولى هذا المنصب ستة من كبار الفقهاء هم على التوالي : احمد بن ابي دواد ، ويحيى بن اكثم التميمي ، وجعفر بن عبدالواحد الهاشمي ، وجعفر البرجمي ، والحسن بن ابي الشوارب ، وعلي بن ابي الشوارب ، وفي الصفحات التالية تعريف موجز بكل منهم •

احمد بن ابي دواد :

ابو عبدالله احمد بن ابي دواد بن جرير بن مالك الأيادي • اصله من قنسرين بين حلب ومعرة النعمان • ويقال ان اسم ابي دواد الفرج ، الا ان المأمون كان سأل احمد عن اسم ابيه فاجاب هو اسمه ، ويؤيد الخطيب البغدادي ان كنيته اسمه (١٢) • ولد

(١٢) تاريخ بغداد ٤/١٤١ـ١٤٢ •

بالبصرة وفيها نشأ . ونبغ في الفقه وعلم الكلام . وهو احد القضاة المشهورين من المعتزلة ، ورأس محنة القول بخلق القرآن . تلك الحركة التي شغلت الخلافة العباسية والعالم الاسلامي على عهد المأمون والمعتصم بالله والواثق بالله وقسم من عهد المتوكل على الله . اذ حمل المعتصم بالله وابنه الواثق من بعده الفقهاء والقضاة على الامتحان بذلك . كان ابن ابي دواد واسع الاطلاع على اخبار العرب وانسابهم ، فصيح المنطق قوي الحجة . قال ابو العيناء : ما رأيت رئيسا افصح قط ولا انطق من ابن ابي دواد (١٣) . وهو اول من افتتح الكلام مع الخلفاء ، اذ كانوا لا يبدأهم احد حتى يبدأوه(١٤) . وله شعر جيد ، ومن شعره قوله (١٥) :

ما انت بالسبب الضعيف وانما
نجح الامـــور بقـــوة الأسباب

فاليوم حاجتنا اليــك فانمـــا
يدعى الطبيب لشدة الأوصاب

اتصل ابن ابي دواد باربعة من خلفاء بني العباس : المأمون والمعتصم بالله وابنيه الواثق بالله والمتوكل على الله . وكان مقربا اليهم محترما لديهم ما خلا فترة قصيرة في اواخر ايامه على عهد المتوكل على الله . اتصل اول امره بالخليفة المأمون ، قدمه اليـه قاضيه يحيى بن اكثم ، فاعجب به ، حتى انه قال عنه : اذا استجلس

---

(١٣) تاريخ بغداد ٤/١٤٢ ، ووفيات الاعيان ١/٦٣ .
(١٤) وفيات الاعيان ١/٦٣ .
(١٥) الفهرست / ٢٥٤ ، وتاريخ بغداد ٤/١٤٣ .

الناس فاضلا فمثل احمد (١٦) • وقد حاز ثقته فركن اليه • وعندما اوصى الى اخيه ابي اسحاق جاء في وصيته « وابو عبدالله احمد ابن ابي دواد لا يفارقك واشركه في المشورة في كل امرك»(١٧) •

ولما استخلف المعتصم بالله جعل ابن ابي دواد قاضي القضاة ومستشاره الخاص ، ولم يكن يخرج عن رأيه • قال الحسين بن الضحاك الشاعر لبعض المتكلمين : ان ابن ابي دواد عندنا لا يحسن اللغة وعندكم لا يحسن الكلام وعند الفقهاء لا يحسن الفقه ، ولكن عند المعتصم بالله يعرف هذا كله (١٨) • ومع ما في هذا القول من التجني والمبالغة بانكار معرفة ابن ابي دواد شيئا مما ذكره ابن الضحاك ، فان تقدير المعتصم بالله له امر طبيعي اذا ما قورن علمه ومعرفته بالفقه وعلم الكلام بجهل المعتصم الله الذي كان امياً رغم فصاحته(١٩) • والواقع ان وجوده الى جانب الخليفة عدل من مزاجه وحد من قسوته • لأن المعتصم بالله كان متسرعا عجولا ، فاذا اسرع اليه الغضب هدأه ابن ابي دواد واراه وجه التوءدة والأناة ، فلا يسعه الا ان يسير في سبيلهما • فصار لأحمد من الدالة عليه وسمو المركز لديه ، ما يستعين به على الخير والصلاح • فكانت له معه مواقف جليلة حاسمة معتمداً فيها على ثقته به وتأييده اياه في كل ما يقول ويفعل •

ومن هذه المواقف انقاذه ابي دلف القاسم بن عيسى العجلي عندما حاول القائد التركي الأفشين اغتياله (٢٠) • اذ ذهب ابن ابي

---

(١٦) وفيات الاعيان ١/٦٤ •
(١٧) الطبري ٨/٦٤٩ •
(١٨) وفيات الاعيان ١/٦٦ والفرج بعد الشدة ٢/٦٦ـ٧٥ •
(١٩) العقد الفريد ٢/٤٤٠ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٣٤ •
(٢٠) وفيات الاعيان ١/٦٤ـ٦٥ •

دواد الى دار الافشين واستنقذ ابا دلف باسم الخليفة الذي اقره على فعله ، وعنف الأفشين فيما كان عزم عليه • ويظهر ان الأفشين كان يمهد للوثوب بان يتخلص من القواد العرب الموالين للخلافة العباسية ، ولا ريب ان هذا ما دفع ابن ابي دواد الى انقاذ ابي دلف واقرار المعتصم بالله مبادرته •

وعندما غضب الخليفة على محمد بن الجهم وامر بضرب عنقه ، انقذه ابن ابي دواد بما ارضى المعتصم بالله ساعة غضبه ، بحيث امر بحبس ابن الجهم حتى يحقق معه (٢١) • ولما قرر المعتصم بالله معاقبة القائد خالد بن يزيد الشيباني لجأ هذا الى ابن ابي دواد ليشفع له عند الخليفة ، فكلمه فلم يجبه • ولما جلس الخليفة لمعاقبة خالد حضر ابن ابي دواد المجلس وجلس دون مكانه المعتاد ، ووقف من الخليفة موقفا جعله يرضى عن خالد ويخلع عليه ويكرمه • فلما خرج خالد وعليه الخلع ، وكان بعض اتباعه في الخارج يتوقعون الأيقاع به ، صاح احدهم : الحمد لله خلاصك ياسيد العرب • فقال خالد : اسكت ، سيد العرب والله ابن ابي دواد (٢٢) •

وفي ثنايا مصادر التاريخ العربي بعض الأخبار مما يستدل منها على شدة احترام المعتصم بالله قاضي قضاته ابن ابي دواد • فقد جاء في تاريخ بغداد ان احمد بن ابي دواد قال : عندما كنا بعمورية قال لي المعتصم بالله ما تقول يا ابا عبدالله في البسر ؟ فقلت : يا امير المؤمنين نحن ببلاد الروم والبسر بالعراق • قال

---

(٢١) نفس المصدر •
(٢٢) وفيات الاعيان ١/٧٠ـ٧١ ، والفرج بعد الشدة ٢/٦٠ـ٦٢ •

قد وجهت الى مدينة السلام فجاءوني بكباستين ، وقد علمت انك تشتهيه • ثم قال يا ايتاخ هات احدى الكباستين • فجـــاء بكباسة بسر ، فمد المعتصم بالله ذراعه وقبض عليها بيده ، وقال : كـل بحياتي عليك من يدي • فقلت : جعلني الله فداك يا امير المؤمنين ، بل تضعها فآكل كما اريد : لا والله الا من يدي • فـوالله ما زال حاسرأ ذراعه ومادأ يده وانا اجتني من العذق(٢٣) • وقال ابن ابي دواد انه ركب يوما مع المعتصم بالله فانتهوا الى واد لا يعرف غور مائه ، فقال الخليفة لرحال ابن ابي دواد : مكانك حتى اتقـــدم فاعرف غور الماء واطلب قلته واتبع انت سيري •وتقدم رجل فدخل الوادي وجعل يطلب قلة الماء ، وتبعه المعتصم بالله فمرة ينحرف عن يمينه واخرى عن شماله وتارة يمضي لسننه ، ونحن نتبع اثره حتى قطعنا الوادي(٢٤) •

لقد كان ابن ابي دواد يمثل الروح العربية الأصيلة فـي الكرم والأيثار والنخوة ، تلك الروح التي ساعدت العـرب علـى الاحتفاظ بمقامهم في الدولة في عهد العباسيين ، رغم سـيطرة الجند الاتراك وسلطان قوادهم • كما كان كريما جوادأ ، حتى قيل انه لم ير في ابناء جنسه اكرم ولا انبـل ولا اسـخى(٢٥) • ورآه اعرابي فقال : صفتـه شـافية للقلـوب ، ونصحيتـــه جالبـــة للمنافع (٢٦) •

وكان ابن ابي دواد يعزف عن مجالس اللهو ويكـره سـماع الموسيقى والغناء • يروى عنه انه قال : كنت اعيب الغناء وانكر

---

(٢٣) تاريخ بغداد ٣٤٥/٣ •
(٢٤) نفس المصدر •
(٢٥) الفهرست / ٢٥٤ •
(٢٦) البصائر والذخائر ١٣٣/١ •

الامر الشرب على الناس وما يستفز الناس منه ويغلب على عقولهم، وناظر المعتصم بالله في ذلك • حتى كان يوم خرج فيه المعتصم بالله الى الشماسية في حراقة يشرب ، ووجه في طلبي فصرت اليه • فلما قربت منه سمعت غناء حيرني وشغلني عن كل شيء ، فسقط سوطي من يدي ، فالتفت الى غلامي اطلب منه سوطه ، فقال لي : قد سقط مني لصوت سمعته فشغلني عن كل شيء . فاذا قصته قصتي • فلما دخلت على المعتصم بالله اخبرته بالأمر . فضحك وقال : هذا عمي ابراهيم بن المهدي كان يغنيني :

ان هذا الطويل من آل حفص

نشر المجد بعدما كان ماتا

فان ثبت مما كنت تناظرنا عليه في ذم الغناء . سألته ان يعيده • ففعلت وامره باعادة غنائه • فبلغ بي الطرب حدا كبيرا بحيث رجعت عن رأي في الغناء منذ ذلك اليوم (٢٧) •

وقد عرف احمد بن ابي دواد بحبه الأدب ورعايته الادباء والشعراء واغداقه عليهم ، واعالة بعضهم بحيث انهم افتقدوه عند موته • وكان الجاحظ ملازما محمد بن عبدالملك الزيات خاصا به . ومنحرفا عن ابن ابي دواد للخصومة التي كانت بين الأثنين • فلما قتل ابن الزيات جيء بالجاحظ مقيداً الى قاضي القضاة فانبه وعاتبه . الا انه سرعان ما عفا عنه واطلق سراحه (٢٨) • فنال الجاحظ بعد ذلك حظوة لديه عندما اهدى اليه كتابه « البيان

(٢٧) الاغاني ١٠/١٠٦_١٠٧ •
(٢٨) معجم الادباء ٦/٥٨_٥٩ ، والفرج بعد الشدة ١/٣٦١ •

والتبين » فاعطاه خمسة الاف دينار • ولعل من المناسب ان ننقل نص كلمة الاهداء التي صدر بها الجاحظ الكتاب • يقوم امـــام الادباء : « حفظك الله وابقاك وامتع بك ، وجعل ما بيني وبينك من ود موصولا أبد الدهر • فقد عرفتك صديقا لا يشوب صداقته زيف من شوائب الدنيا • وعرفتك على تقــادم العهد وتطـــاول الزمان ، أخا ثابت الاخاء ، وثيق النفس ، ليس كمن يدور بخاتته بين الناس ملتمسا بها الغنم وباغيا بها النفع • فكان ذلك ، ايدك الله ، مما اكبرك في عيني واعظمك في نفسي • وبسطني أن اقدم اليك هذا الكتاب الخالد ، لترى فيه ، ولتعلم ايها السمي الكريم ، أني احفظ لك في نفسي مثل ما تحفظ لي من وفاء ، واطوي لك صدري مثل ما تطوي من ولاء » (٢٩) •

كما مدحه ببضعة ابيات من الشعر بمناسبات مختلفة ، منهـ قوله (٣٠) :

وعويص من الامـــور بهيـم
غامض الشخص مظلـم مستور

قد تسهلت مـــا توعـــر منـــه
بلســـــان يزينـــــه التحبـير

مثل وشي البرود هلهله النسج وعنـد الحجــاج در نثير

حســـن الصمت والمقاطـع اما
نطق القوم والحديث يــدور

(٢٩) البيان والتبين ١/٣ •
(٣٠) نفس المصدر / ٢٢٣ ، ومعجم الادباء ٦/٥٩-٦٠ ، مع تغيير طفيف •

ثم من يعد لحظة تورث اليسر وعرض مهـذب موفـور

ومدح بعض الشعراء القاضي بن ابي دواد ، وعلى رأسهم ابو تمام الطائي الذي امتدحه بقصائد عديدة في مناسبات مختلفة . قال في احدى قصائده في مدحه(٣١) :

يا ابا عبدالله أوريـت زنـداً
في يدي كان دائـم الاصـلاد

انت جبت الظلام عن سبل الآمال اذ ضل كل هاد وحاد

كـادت المكـرمات تنهد لـولا
أنهـا أيـدت بحي ايـاد

وقال في قصيدة اخرى يمدحه بها (٣٢) :

لقد انست مساوىء كل دهـر
محاسن احمـد بن ابـي دواد

متى تحلل بـه تحلـل جنابـا
رضيعـا للسواري والغـوادي

توشـح نعمـة الأيـام فيـه
وتقسم فيـه ارزاق العبـاد

وما اشتبهت طـريق المجـد الا
هداك لقبلة المعـروف هـاد

---

(٣١) القصيدة في ديوان ابي تمام ١/٣٥٦-٣٦٨ .
(٣٢) القصيدة في ديوان ابي تمام ١/٣٦٩ - ٣٨٢ .

ؤما سافرت فــي الآفــاق الا

ومــن جــدواك راحلتي وزادي

وعندما ولي احمد ابن ابي دواد ديوان المظالم مدحه ابو تمام بقصيدة انطوى قسم منها على بعض الحكم ، ومطلعها (٣٣) ·

ألم يأن يان تروى الظماء الحوائم

وأن ينظم الشــمل المشتــت ناظـم

ويقول فيها :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل

ويكدى الفتى في دهر وهو عالم

ولو كانت الارزاق تجري على الحجا

هلكن اذن من جهلهن البهائـم

الى ان يقول :

الى احمد المحمود رامت بنــا السرى

نواعــب في عرض الفــلا ورواسـم

الى سالم الاخلاق مـــن كــل عائب

وليســ مــال على الجــود سالـم

له من اياد قمة المجــد حيثما

سمت ولها منه البنا والدعائـم

(٣٣) القصيدة في ديوان ابي تمام ٣/١٧٦-١٨٣ ·

ثم ينتهي بقوله :

اذا انت لم تحفظه لم يك بدعة
ولا عجبــاً أن ضيعته الأعــاجم

فقد هز عطفيه القريض توقعا
لعدلك مذ صارت اليك المظالم

ولولا خلال سنها الشعر ما درى
بغاة الندى من اين توتى المــكارم

كما مدح الشاعر ابو حفصة مروان بن ابي الجنوب ابن ابي دواد بقوله (٣٤) :

لقد حازت نــزار كــل مجــد
ومكرمــة على رغــم الاعــادي

فقل للفاخــريــن على نــزار
ومنهـــم خندف وبنو ايـــاد

رســول الله والخلفـــاء منــا
ومنــا احمــد ابــن ابي دواد

وليس كمثلهــم في غير قومي
بموجــــود الى يــوم التنــادي

ولما اصابته العلة الباردة ـ الفالج وعجز عن الكلام قال ابن ابي الجنوب فيه (٣٥):

---

(٣٤) وفيات الاعيان ١/٦٩ .
(٣٥) تاريخ بغداد ٤/١٥٠ .

لسان احمد سيف مسه طبع
من علة ، فجلاها عنه جاليها

ماضر احمد باقي علة درست
والله يذهب عنه رسم باقيها

موسى بن عمران لم ينقص نبوته
ضعف اللسان به قد كان يمضيها

قد كان موسى على علات منطقه
رسائل الله تأتيه يؤديها

وقد هجا ابن ابي دواد شعراء آخرون ، وعلى رأسهم البحتري الذي كان ينقم عليه انه رأس المحنة بالقول بخلق القرآن ، ولذا فقد هجاه وهجا كتابه بعدة قصائد • فقد قال يهجوه (٣٦) :

يا احمد بن ابي دواد
والحادثات بكل ناد

ماذا رأيت اذا انتسبت الى اياد في اياد

وهجاه بقصيدة اخرى عندما رفع المتوكل على الله المحنة ، باعتبار ان ابن ابي دواد هو المسؤول عن قيامها ، وسنأتي على بعض ابياتها فيما بعد •

وهجا الشاعر هفان المهزمي ابن ابي دواد عندما سمع مدح مروان بن ابي الجنوب فيه ، فقال يعارضه (٣٧) :

---

(٣٦) ديوان البحتري •
(٣٧) وفيات الاعيان ١/٧٠ ، وتاريخ بغداد ٤/١٤٣ •

فقل للفاخرين على نزار
وهم في الأرض سادات العباد

رسول الله والخلفاء منا
ونبرأ من دعي بني اياد

وما منا اياد ان اقرت
بدعوة احمد بن ابي دواد

فلما بلغت هذه الأبيات ابن ابي دواد قال : ما بلغ مني احد ما بلغ هذا الغلام المهزمي ، لولا اني اكره ان انبه عليه لعاقبته عقابا لم يعاقب احد بمثله جاء الى منقبة لي فنقضها عروة عروة .

كما هجاه ابو الحجاج الأعرابي بقوله (٣٨) :

نكست الدين يا ابن ابي دواد
فأصبح من اطاعك في ارتداد

زعمت كلام ربك كان خلقاً
أمالك عند ربك من معاد ؟

كلام الله انزله بعلم
وأنزله على خير العباد

ومن امسى ببابك مستضيفا
كمن حل الفلاة بغير زاد

(٣٨) نشوار المحاضرة ٥/٢٢٠ ، وتاريخ بغداد ١٥٣/٤ وفيه « اظرفت » في اول البيت الاخير .

لقد أطرفت يا ابن ابـي دواد

بقـولك انني رجـــل ايـادي

ومن الشعراء المشهورين الذين هجوا ابن ابي دواد الشـاعر الهجاء دعبل الخزاعي • فقد كان ابن ابي دواد يطعن بالشـاعـر المذكور بحضرة المأمون والمعتصم بالله ويسبه تقربا اليهما لأنهمـا يبغضانه لطول لسانه • فلما تزوج ابن ابي دواد بامرأتين من قبيلة عجل في سنة واحدة قال دعبل يهجوه بابيات مقذعة ، منها (٣٩) :

غصبت عجلا على فرجين في سنة

افسدتهم ما اصلحت مـن نسبك

ولو خطبـت الى طـــوق واسرته

فزوجوك لمـا زادوك في حسبك

ان كان قوم اراد الله خـــزيهـم

فزوجوك ارتغابا منك في ذهبك

فذاك يوجب ان النبع تجمعـــه

الى خلافك في العيدان او غربك

ولو سكت ولـم تخطب الى عـرب

كما نبست الذي تطويه من سببك

عـد البيوت التي ترضى بخطبتها

تجد فزارة العكلي مـن عربـك

(٣٩) ديوان دعبل / ٦٩ ، والاغاني ٢/١٣٤ـ١٣٥ •

ولما ولي الواثق بالله الخلافة ابقى ابن ابي دواد على قضاء القضاة ، وقد حسنت حاله لديه ، وبقي على ما كان عليه من سعة النفوذ والتأثير على الخليفة ٠ وكان اليه تعيين القضاة ، فلم يعيّن الا من كان من القائلين بخلق القرآن ٠

وقد استمر الواثق بالله في مناحرة المعتزلة بتأثير ابن ابي دواد ، بل لقد تطرف واشتد في محاربة اهل السنة ، حتى انه قتل الفقيه احمد بن نصر الخزاعي لأنه لم يستجب الى دعوته بالقول بخلق القرآن ٠ وكان ابن ابي دواد هو الذي تولى محاكمته بحضرة الخليفة مع عدد آخر من الفقهاء ، وقد فصلنا ذلك في الفصل الخاص بالمحنة ٠

كان الواثق بالله شديد الاعجاب باحمد بن ابي دواد ، ويستشيره في معظم اموره ويعمل بمشورته ٠ وقد امره ان يصلي بالناس في يوم عيد ، وكان عليلا ، فلما انصرف من الصلاة ، قال له : يا ابا عبدالله كيف كان عيدكم ؟ قال : كنا في نهار لا شمس فيه ٠ فضحك الواثق بالله وقال : يا اباعبدالله انا مؤيد بك(٤٠) ٠

قال احمد بن ابي دواد : دخلت يوما على الواثق بالله . فقال لي : ما زال قوم في ثلبك ونقصك ٠ فقلت : يا امير المؤمنين « لكل امرىء ما اكتسب من الأثم والذي تولى كبره منهم لـه عذاب عظيم »(٤١) والله ولي جزائه ، وعقاب امير المؤمنين من ورائه . وما ذل من كنت ناصره ، ولاضاع من كنت حافظه فماذا قلت لهم ؟ قال : قلت ٠

---

(٤٠) تاريخ بغداد ١٤/١٨ ٠

(٤١) الآية (١١) من سورة النور ٠

وسعى الي بعيب عزة نسوة جعل الأله خدودهن نعالها

وقال الواثق يوماً لابن ابي دواد ، وقد ضجر من كثرة حوائجه : ان بيوت الأموال خلت بطلباتك للائذين بك والمتوسلين اليك . فقال : يا امير المؤمنين ، نتائج شكرها متصلة بك ، وذخائر اجرها مكتوبة لك ، ومالي من ذلك الاعشق الأنس بحلو المدح فيك . فقال : يا ابا عبدالله لا منعناك ما يزيد في عشقك ويقوي همتك ، فتناولنا بما احببت (٤٢) .

ولما توفي الواثق بالله حضر ابن ابي دواد ساعة وفاته فاغمضه واصلح من شأنه ، وصلى عليه وانزله قبره (٤٣) . وحضر مع بقية رجال الدولة والقواد الاجتماع الذي عقد في دار الخلافة لاختيار خليفة للواثق بالله . وقد أبعد ابنه لصغر سنه ، فشارك في اختيار اخي الواثق بالله جعفر بن المعتصم بالله ، وهو الذي البسه الطويلة وعممه وسلم عليه بالخلافة ، واقترح ان يلقب بالمتوكل على الله .

وكان ابن ابي دواد يحسن معاملة جعفر في عهد اخيه الواثق بالله الذي كان يجفوه ويحنق عليه . وقد كلمه ابن ابي دواد في ذلك واقسم عليه بحق ابيه المعتصم بالله ان يرضى عنه ، فرضي الواثق بالله عن اخيه . فلما استخلف جعفر ابقاه على رئاسة القضاء . الا ان ابن ابي دواد اصيب بالفالج في جمادى الآخرة سنة (٢٣٣هـ) ورغم ذلك ابقاه الخليفة في منصبه حتى اواخر شهر

---

(٤٢) تاريخ بغداد ٤/١٤٦ .
(٤٣) الطبري ٩/١٥٠ ـ ١٥١ .
(*) الطبري ٩/١٥٤ـ١٥٥ ، والكامل ٧/٣٤ .

صفر من سنة (٢٣٧هـ) فغضب عليه وعزله من رئاسة القضاء وامر بالقبض على ضياعه واملاكه ، وحبس ابنه ابا الوليد وسائر اولاده . فحمل ابو الوليد الى المتوكل على الله مائة وعشرين الف دينار وجواهر قيمتها عشرون الف دينار ، ثم صولح بعد ذلك على ستة عشر الف الف درهم ، واشهد الخليفة عليهم جميعا ببيع املاكهم (٤٤) . ويظهر مما ذكره ابن وكيع القاضي ان احمد ابن ابي دواد كان يميل الى الامويين (٤٥) . الا ان هذا القول لا يمكن الاعتداد به لأن خدمة ابن ابي دواد الطويلة برهنت على اخلاصه لبني العباس ، ولم يكن هناك سبب واضح لغضب الخليفة عليه سوى طبيعة المتوكل على الله المتقلب المزاج ، وحسده ذوى النعمة والمكانة من رجاله ، مما سيأتي ذكره في فصول قادمة .

توفي احمد بن ابي دواد في المحرم من سنة (٢٤٠هـ) (٤٦). ونقل عنه انه قال : ولدت سنة ستين ومائة (٤٧) وهذا يتفق مع ما جاء في كتاب العبر من انه مات وله ثمانون سنة (٤٨) . وعندما شيعت جنازته وقف ببابه جماعة من الشعراء ، فقالوا : يدفن من كان على ساقة الكرم وتاريخ الأدب ولا يتكلم فيه ، فقال احدهم (٤٩) :

اليوم مات نظام الفهم واللسن

ومات من كان يستعدى على الزمن

---

(٤٤) الطبري ١٨٩/٩ ، والكامل ٥٩/٧ .
(٤٥) اخبار القضاة ٢٩٨/٣ .
(٤٦) الطبري ١٩٧/٩ ، والكامل ٧٥/٧ .
(٤٧) وفيات الاعيان ٧٣/١ .
(٤٨) العبر ٤٣١/١ .
(٤٩) وفيات الاعيان ٧٤/١ .

واظلمت سبل الآداب اذ حجبت
شمس المكارم في غيم من الكفن

وتقدم آخر فقال :

ترك المنابر والسرير تواضعا
وله منابر لو يشا وسرير

ولغيره يجبى الخراج وانما
تجبى اليه محامد واجور

وقال ثالث :

وليس فتيق المسك ريح حنوطه
ولكنه ذاك الثناء المخلف

وليس صرير النعش ما تسمعونه
ولكنها اصلاب قوم تقصف

يحي بن اكثم التميمي :

ابو محمد ، يتصل نسبه باكثم بن صيفي التميمي حكيم العرب المشهور . بدت عليه علائم النباهة في سن مبكرة ، فقد جلس لسماع الحديث على عبدالله بن المبارك ، وهو صغير السن ، فاحتفل ابوه بهذه المناسبة فصنع طعاما ودعا الناس متفاخراً بابنه (٥٠) . وعبدالله بن المبارك من علماء العرب في خراسان ، ومن قبيلة بني تميم كذلك . وقد جمع الحديث والفقه واللغة وقضى عمره في

---

(٥٠) تاريخ بغداد ١٤/١٩٢ .

الاسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً ، توفى سنة (١٨١هـ) في هيت على الفرات منصرفا من غزو الروم (٥١) .

لقد نشأ يحيى عالما بالفقه بصيرا بالاحكام ، وكان عالما بالقرآن والحديث واللغة ، متكاما ، فاذا جادل رجلا اتاه من جميع الابواب حتي يفحمه ، فاذا وجده يحفظ الحديث سأله عن الفقه ، واذا رآه يحفظ الفقه سأله عن النحو ، فاذا رآه ملماً به سأله عن الكلام ، حتي يقطعه ويخجله ، ويعزو الخطيب البغدادي ذلك الى شدة حسده (٥٢) . ولكنه على اية حال دليل على سعة علمه وتعدد معارفه .

وكان يحيى مع فقهه وسعة علمه من ادهى الناس واخبرهم ، حاضر البديهة ، سريع الجواب . وقد تولى قضاء البصرة وسنه احدى وعشرون سنة ، فاستصغره شيوخها فامتحنوه ، فقالوا ، كم سن القاضي ؟ قال : سن عتاب بن اسيد حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم على مكة ، فجعل جوابه احتجاجا (٥٣) . ولقيه مرة رجل ، وهو يومئذ قاضي القضاة ، فقال له اصلح الله القاضي ، كم آكل ؟ قال : فوق الجوع ودون الشبع ، فقال : فكم اضحك؟ قال : حتى يسفر وجهك ولا يعلو صوتك ، قال : فكم ابكي ؟ قال : لا تمل البكاء من خشية الله تعالى ، قال : كم اخفي من عملي ؟ قال : ما استطعت ، قال : فكم أظهر منه ؟ قال : ما يقتدى بك البر ويؤمن عليك قول الناس (٥٤) .

---

(٥١) الاعلام ٤/٢٥٦ .
(٥٢) تاريخ بغداد ١٤/١٩٥ ، ووفيات الاعيان ٥/٢٠٢ .
(٥٣) تاريخ بغداد ١٤/١٩٨ ، ووفيات الاعيان ٥/١٩٩ برواية اخرى .
(٥٤) تاريخ بغداد ١٤/٢٠٠ .

وقد اتهم يحيى بن اكثم ببعض الهنات التي اشيعت عنه وهو منها برىء • ومما يؤيد انها نسبت اليه بهتانا انه ذكر للامام احمد ابن حنبل عنه وما يرميه بعض الناس به ، فعجب من ذلك وانكره انكارا شديدا (٥٥) • وكتب الخليفة المتوكل على الله الى الامام احمد يسأل عن رجلين احدهما يحيى بن اكثم ، فكتب اليه : اما فلان فلا ولا كرامة ، واما يحيى بن اكثم فقد ولي القضاء فما طعن عليه احد (٥٦) • ولما قدم احمد بن المعذل وهو من فقهاء المالكية على المتوكل على الله ، ذكر يحيى بن اكثم في مجلس الخليفة ، فقال بعض الحاضرين : ذاك صاحب غلمان ، فستر ابن المعذل وجهه ، وقال : سبحانك هذا بهتان عظيم (٥٧) • ويقول ابن وكيع القاضي كان يحيى كثير المزاح لا يدع الهزل في مجلسه ، وله طرائف في الهزل (٥٨) • وروى عن احد العلماء قوله : كان يحيى بن اكثم لا يدع العبث والنظر ، فاما ما وراء ذلك فلا ، والحمد لله (٥٩) • ومما يؤيد ما ذكره ابن وكيع ان احد البلغاء سئل عن يحيى بن اكثم واحمد بن ابي دواد ، أيهما انبل ؟ فقال : كان احمد يجد مع جاريته وابنته ، ويحيى يهزل مع خصمه وعدوه (٦٠) • ولعل ميل يحيى الى الهزل وأنسه بالناس وممازحتهم سببت له تلك السمعة المشينة • ولا ينكر ان من يكون في منزلته العلمية والاجتماعية لا يخلو ممن يحسده ويروج ما يسيء الى سمعته وينتقص من منزلته •

---

(٥٥) وفيات الاعيان ٥/٢٠١ •
(٥٦) اخبار القضاة ٢/١٦١ •
(٥٧) اخبار القضاة ٢/١٦٥ •
(٥٨) اخبار القضاة ٢/١٦٦ •
(٥٩) نفس المصدر ٢/١٦٤ •
(٦٠) تاريخ بغداد ١٤/١٩٨ ، ووفيات الاعيان ٥/١٩٨ •

لقد اتصل يحيى بن اكثم بالخليفة المأمون لما كان في مرو ، وخرج معه في بعض غزواته الى بلاد الروم • وبعثه المأمون في سنة (٢١٦هـ) في حملة الى بلاد الروم فغزا وعاد ظافراً(٦١) • وقد اعجب المأمون بسعة علم يحيى بالفقه والحديث ، وغزارة ادبه ، وسرعة جوابه ، وقوة حجته ، فقربه اليه ونادمه ، فغلب عليه يحيى بحيث لم يتقدمه عنده احد من الناس (٦٢) • وكان اذا صحب المأمون في سفر ركب معه بمنطقه وقباء وسيق بمعاليق ، واذا كان الموسم شتاء ركب في اقبية الخز وقلانس السمور والسروج المكشوفة(٦٣) • واستصحبه المأمون الى مصر في سنة (٢١٧هـ) وكانت مصر بلا قاض ، فأمره الخليفة ان يجلس في المجلس للقضاء ، فجلس وقضى بين الناس لمدة قصيرة (٦٤) • ويقول ابن خلكان انه حكم ثلاثة ايام (٦٥) •

وقلده المأمون منصب قاضي القضاة واوكل اليه تدبير اهل مملكته ، فكان وزراء الخليفة لا يعملون شيئاً الا بعد مطالعة يحيى ابن اكثم (٦٦) • الا انه لم يلبث ان سخط عليه عندما كان في مصر ، ويبدو ان للحسد والوشايات دوراً في ذلك • يقول اليعقوبي ان يحيى كان قد وشى بالمعتصم الى المأمون وقال له : بلغني انه يحاول الخلع • وكان المأمون قد وجه ابا اسحاق الى مصر عندما استفحلت الثورة فيها في سنة (٢١٤هـ) فبعث اليه يأمره بالقدوم • ولما

---

(٦١) الاعلام ٢٥٦/٤ •
(٦٢) وفيات الاعيان ١٩٨/٥ •
(٦٣) مروج الذهب ٢٢/٤ •
(٦٤) كتاب الولاة وكتاب القضاة / ٤٤١ـ٤٤٢ و٥٨٦ •
(٦٥) وفيات الاعيان ٢١١/٥ •
(٦٦) تاريخ بغداد ١٩٧/١٤ـ١٩٨ ، ووفيات الاعيان ١٩٨/٥ ، والعبر ٤٣٩/١ •

ذهب المأمون الى مصر في اوائل سنة (٢١٧هـ) وشى محمد بن ابي العباس واحمد ابن دواد بيحيي بن اكثم الى المأمون تقربا الى ابي إسحاق ، فسخط عليه المأمون وامر بنفيه من عسكره ونزع السواد عنه ـ دليل اقصائه من منصبه ـ واخراجه الى بغداد وامره ان لا يخرج من منزله (٦٧) .

ويستنتج مما جاء في وصية المأمون الى اخيه ابي اسحاق عن يحيى بن اكثم انه اتهمه بخبث السيرة والخيانة ، اذ قال : « ولا تتخذن بعدي وزيراً تلقى اليه شيئاً ، فقد علمت ما نكبني به يحيى بن اكثم في معاملة الناس وخبث سيرته حتى ابان الله ذلك منه في صحة مني ، فصرت الى مفارقته ، قاليا له غير راض بما صنع في اموال الله وصدقاته ، لاجزاه الله عن الاسلام خيراً » (٦٨) .

وقد ابعده المعتصم بالله لما ولي الخلافة ، عملا بوصية اخيه . وقد يكون لسبق وشاية يحيى عند المأمون تأثير في ابعاده عن مناصب الدولة . فبقي بعيداً عن القضاء طيلة عهد المعتصم بالله وابنه الواثق بالله . لأن الواثق بالله كان شديد التأثر بعمه المأمون ويحاول ان يقتدي به في كل اموره ، فلم يستخدم يحيى طيلة حكمه لأن عمه لم يكن راضيا عنه .

وعندما غضب المتوكل على الله على قاضي القضاة احمد بن ابي دواد وعزله عن عمله في سنة ٢٣٧هـ رضي عن يحيى بن اكثم ، وكان مقيما ببغداد ، فأشخصه الى سر من رأى وولاه منصب قاضي القضاة واضاف اليه رد المظالم (٦٩) . ويقول الخطيب البغدادي ان

---

(٦٧) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٦٥ـ٤٦٦ .
(٦٨) الطبري ٨/٦٤٩ .
(٦٩) الطبري ٩/١٨٨ ، ومروج الذهب ٤/٩٦ .

الخليفة خلع عليه خمس خلع (٧٠) • وقد استفتح يحيى عمله بان ولى حيان بن بشر القضاء على الجانب الشرقي من بغداد وسوار ابن عبدالله العنبري قضاء الجانب الغربي منها ، وكلاهما اعور ، فقال الجماز الشاعر (٧١) :

رأيت من الكبائر قاضيين
هما احدوثة في الخافقين

هما اقتسما العمى نصفين قدا
كما اقتسما قضاء الجانبين

وتحسب منهما من هز رأسا
لينظر في مواريث ودين

كأنك قد وضعت عليه دنا
فتحت بزاله من فرد عين

هما فال الزمان بهلك يحيى
اذ افتتح القضاء باعورين

الا ان المتوكل على الله سخط على يحيى بن اكثم في سنة (٢٤٠هـ) فعزله عن القضاء ، وامر بمصادرة امواله واملاكه ، وأعيد الى بغداد والزم منزله • فقبض ما كان له ببغداد ومبلغه خمسة وسبعون الف دينار ، ومن اسطوانة في داره الفا دينار ، واربعة آلاف جريب في البصرة (٧٢) •

---

(٧٠) تاريخ بغداد ٢٠١/١٤ •
(٧١) الطبري ١٨٩/٩ •
(٧٢) الطبري ١٩٧/٩ ـ ١٩٨ ، والكامل ٧٤/٧ ، والعبر ٤٢٩/١ وفيه انه اخذ منه مائة الف دينار •

وخرج يحيى الى الحج في سنة (٢٤٢هـ) وحمل اخته معه ، وعزم على ان يجاور وينقطع للعبادة • ويقول ابن وكيع ان المتوكل على الله نفاه الى مكة (٧٣) • واتصل بيحيى ان الخليفة قد رضي عنه فبدأ له في المجاورة ، ورجع يريد العراق ، حتى اذا صار الى الربذة وافته المنية في يوم الجمعة منتصف ذي الحجة من السنة نفسها ، وقيل في مطلع السنة التالية ، وعمره ثلاث وثمانون سنة ودفن هناك(٧٤) •

جعفر بن عبدالواحد الهاشمي :

هو جعفر بن عبدالواحد بن سليمان بن علي ، هاشمي من البيت العباسي • كان فقيها حافظا للحديث ، لسنا بليغا ، وقد وصف بأنه رجل تصلح له الخلافة من ولد العباس لما يتمتع به من سكينة ووقار(٧٥) • ولاه المتوكل على الله منصب قاضي القضاة بسامرا في صفر سنة (٢٤٠هـ) بعد عزل يحيى بن اكثم (٧٦) •

وعندما تم الاتفاق على المفاداة مع الروم في شوال سنة (٢٤١هـ) طلب جعفر بن عبدالواحد ان يؤذن له في حضور عملية الفداء ، وان يستخلف رجلا يقوم مقامه في اثناء غيابه ، فوافق الخليفة المتوكل على الله وامر له بمائة وخمسين الف درهم معونة ، وارزاق ستين الف • فاستخلف جعفر الحسن بن ابي الشوارب ، ولحق بشنيف الخادم المكلف بالفداء ، وحضر معه عملية المفاداة (٧٧) •

---

(٧٣) اخبار القضاة ٣/٣٠٣ •

(٧٤) تاريخ بغداد ١٤/٢٠٣ ، ووفيات الاعيان ٥/٢١٢ •

(٧٥) تاريخ بغداد ٧/١٧٤ •

(٧٦) الطبري ٩/١٩٨ ، والمنتظم ٥/١١ •

(٧٧) الطبري ٩/٢٠٢-٢٠٣ ، والكامل ٧/٧٧ •

ولما آلت الخلافة الى المنتصر بالله استمر جعفر بن عبدالواحد في منصبه • وعندما خلع المعتز والمؤيد نفسيهما من ولاية العهد في صفر سنة (٢٤٨هـ) بناء على طلب اخيهما الخليفة المنتصر بالله ، حضر قاضي القضاة جعفر بن عبدالواحد للشهادة على ذلك مع كبار القواد وبني هاشم واصحاب الدواوين (٧٨) •

وعندما بويع للمستعين بالله بالخلافة ابقى جعفر بن عبدالواحد قاضيا على القضاة حتى ربيع الأول من سنة (٢٥٠هـ) حينما تمرد الشاكرية فبعث به الخليفة اليهم ليستمع الى شكاواهم ويدعوهم الى الطاعة • ويظهر انه فشل في ذلك ، مما جعل القائد وصيفاً يزعم بانه افسدهم • فغضب عليه الخليفة وعزله من منصبه وامر بنفيه الى البصرة (٧٩) • ويظهر انه عفي عنه وعاد الى سامرا عندما بويع فيها للمعتز بالله • فقد استعان به الخليفة المذكور ليصلح بين الجند من الاتراك والمغاربة عندما استولى المغاربة على الجوسق وبيت المال . فاستطاع جعفر ان يصلح ذات البين بينهما ، فاصطلحا على الا يحدثا شيئاً (٨٠) •

ولما قتل المهتدى واشهد على وفاته ، صلى عليه جعفر بن عبدالواحد (٨١) • وقد توفى جعفر في سنة (٢٥٨هـ) ، ويظهر مما ذكره الخطيب البغدادي وابو المحاسن انه كان قاضيا على الثغور عند وفاته (٨٢) •

---

(٧٨) الطبري ٩/٢٤٦ •
(٧٩) الطبري ٩/٢٧٦ ، والكامل ٧/١٣٤ •
(٨٠) الطبري ٩/٣٦٩ •
(٨١) الطبري ٩/٤٦٢ ، والكامل ٧/٢٣٣ •
(٨٢) الطبري ٩/٣٧١ •

جعفر البرجمي :

جعفر بن محمد بن عمار البرجمي ، من اهل الكوفة من قبيلة تميم • كان يتولى قضاء الكوفة عندما ولي منصب قاضي القضاة بسامرا ، بعدما عزل جعفر بن عبدالواحد (٨٣) • وكان قد تولى قضاء سامرا في سنة (٢٣٥هـ) ، وتولى بعد ذلك قضاء واسط • وكان البرجمي صلبا في القضاء لا يسمح لأحد بالتدخل في احكامه • ويقال ان صاحب البريد اراد ان يحضر مجلس قضائه . فقال له : من انت ؟ قال : بعث بي لأجلس معك • فقال : انت ستصفح وجوه حرم المسلمين ، وختم القمطر وقام • فبلغ الخليفة ذلك فارسل اليه وولاه قضاء القضاة (٨٤) • وبقي البرجمي في منصبه حتى مات في اوائل شهر رمضان سنة (٢٥٠هـ)(٨٥) ، اي بعد ستة اشهر تقريبا من توليه منصب قاضي القضاة •

وكان الشاعر ابو السري احمد بن بديل قد هجاه ، ثم عاد فمدحه ، ومما قاله في مدحه (٨٦) :

سأشكر جعفرا واقـول فيـه
مقالـة صـادق فيما يقـول
جبلت على العفاف وكل فضل
وجل الناس خيرهـم القليـل

---

(٨٣) الطبري ٩/٢٦٥ و ٢٧٦ ، والكامل ٧/١٢٤ •
(٨٤) اخبار القضاة ٣/١٩٤ •
(٨٥) الطبري ٩/٢٧٦ ، والكامل ٧/١٣٥ •
(٨٦) اخبار القضاة ٣/١٩٦ •

ووليت القضاء فخير وال
على الأحكام ليس له عدول

وسرت كسيرة العمرين حتى
انار الحق واتضح السبيل

الحسن بن محمد بن ابي الشوارب :

الاموي البصري . ولي القضاء في عهد المتوكل على الله ، وهو فتى حدث السن عندما استخلفه قاضي القضاة جعفر بن عبد الواحد . واراد المعتز بالله تولية قاض للقضاة فطلب الى مؤدبه محمد بن عمران الضبي ان يسمي له عدداً من الفقهاء فسمى له ثمانية ، كان فيهم الخلنجي ، والخصاف . الا ان حاشية الخليفة اتهموهم بانهم من اصحاب احمد بن ابي دواد وانهم قدرية جهمية ، اي انهم من اهل الاعتزال . فأمر المعتز بالله باخراجهم الى بغداد ، وولى الحسن بن محمد بن عبدالملك بن ابي الشوارب المنصب المذكور ، وذلك في سنة (٢٥٢هـ) (٨٧) .

ولد الحسن بالبصرة ونشأ فيها ، وابوه محمد بن عبدالملك الاموي البصري من نسل خالد بن اسيد ، وهو اخو عتاب بن اسيد الذي ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم على مكة . وكان محمد ابن عبدالملك من محدثي البصرة وفقهائها . وقد اشخصه المتوكل على الله الى سامرا ليحدث فيها ، عندما نهى عن القول بخلق القرآن . وعندما ورد كتاب الحسن على ابيه يعلمه بتوليه القضاء ، كتب ابوه اليه : وصل كتابك بتوليتك القضاء ، وحاشا لوجهك

---

(٨٧) تاريخ بغداد ٧/٤١٠ ، والمنتظم ٥/٢٧ .

الحسن باحسن من النار (٨٨) • اي انه يوصيه بالتمسك بالعدل في احكامه لئلا يعرض نفسه لعذاب الآخرة •

كان الحسن من المروة والسخاء والكرم على حالة لم يسر عليها حاكم قط (٨٨) • وكان الخليفة المعتز بالله يمتدحه كثيراً ويقول : ما رأيت أفضل منه ، ولا احسن وفاء . ما حدثني قط فكذبني ، ولا ائتمنته قط على شيء من سر او غيره فخانني عليه ، واني لأراه يستوحش من ذكر القبيح ويحسن الثناء (٨٩) • ولم يزل الحسن يتقلد عمله طيلة ايام المعتز بالله • ولما خلع المعتز بالله من الخلافة في اواخر رجب سنة (٢٥٥هـ) حضر الحسن للشهادة على خلعه . فطلب اليه القائد صالح بن وصيف ان يكتب كتاب الخلع فاعتذر ، فكتبه احد الكتاب الحاضرين • وحاول الحسن ان يؤمن سلامة الخليفة المخلوع وذويه • فأخذ الشهادة على صالح بن وصيف بأن للمعتز ولاخته وامه وابنه الأمان قبل ان يشهد على خلعه (٩٠) •

ولما تولى المهتدى بالله الخلافة أقر الحسن بن ابي الشوارب على عمله في القضاء ، الا انه بعد مدة قصيرة حبسه وولى عبد الرحمن بن نائل البصري قضاء سامرا • ويظهر مما ذكره ابن وكيع القاضي ان الخليفة امر بحبس الحسن لاعتقاده بأن له علاقة بما اتهم به حماد بن اسحاق واخاه القاضي اسماعيل بن اسحاق (٩١) •

---

(٨٨) تاريخ بغداد ٧/٤١٠ •
(٨٩) نفس المصدر •
(٩٠) الطبري ٩/٣٩٠ ، والكامل ٧/١٩٦ •
(٩١) الطبري ٩/٤٣٧ ، واخبار القضاة ٣/٢٨١ •

وقد اعيد الحسن بن ابي الشوارب الى منصبه لما تولى الخلافة المعتمد على الله • وعندما عين الخليفة ابنه جعفراً ولياً للعهد في شوال سنة (٢٦١هـ) وسماه المفوض الى الله ، وعين اخاه ابا احمد الموفق وليا للعهد بعد جعفر ، واخذت البيعة بذلك على الناس . وفرقت نسخ كتاب العهد في الأمصار ، بعث المعتمد على الله نسخة من الكتاب المذكور مع الحسن ليعلقها في الكعبة • فخرج الحسن الى الحج ، فوافته المنية بعدما ادى فريضة الحج(٩٢) • الا ان الخطيب البغدادي يقول انه توفي بمدينة السلام لثمان عشرة خلت من ذي الحجة سنة ٢٦١هـ ، ويشاركه في ذلك ابن الجوزي (٩٣) • واحسبه انه نقل ذلك عنه • ويقول ابن الاثير انه توفي في شهر رمضان من السنة المذكورة (٩٤) • اي قبل ان يدرك موسم الحج •

علي بن محمد بن ابي الشوارب :

هو اخو قاضي القضاة الحسن بن محمد بن ابي الشوارب • نشأ في بيت علم وفقه ، فسمع الحديث على محدثي عهده . ورواه • وكان رجلا صالحا ، ثقة اميناً ، لا مطعن عليه في شيء وقد حمل الناس عنه حديثاً كثيراً (*) •

ولما توفي قاضي القضاة الحسن بن ابي الشوارب وجّه الخليفة المعتمد على الله وزيره عبيدالله بن يحيى الى علي بن محمد بن ابي الشوارب فعزاه بأخيه وهنأه بالقضاء ، فأمتنع علي عن قبول ذلك •

---

(٩٢) الطبري ٩/٥١٥ •
(٩٣) تاريخ بغداد ٧/٤١٧ ، والمنتظم ٥/٢٧ •
(٩٤) الكامل ٧/٢٨٩ •
(*) تاريخ بغداد ١٢/٦٠ •

الا ان عبيدالله لم يبرح علياً حتى قبل المنصب ، فتقلد قضاء القضاة في سامرا ، ومكث بهذا المنصب حتى وفاته(٩٥) ٠

بقي علي في منصبه حتى ايام المعتضد على الله ، وقد أخذ برأيه في وجوب رد الفاضل من سهام المواريث على ذوي الأرحام ، وامر بالكتاب الى جميع النواحي بردها(٩٦) ٠

توفى علي بن ابي الشوارب في عهد المعتضد بالله ، وكانت وفاته لسبع خلون من شوال سنة (٢٨٣هـ) ، وهو بمدينة السلام ، فحمل الى سامرا من يومه في تابوت ودفن فيها (٩٧) ٠

٣ ـ قضاة مدينة السلام :

عندما نقلت عاصمة الدولة العربية الى سامرا ظلت مدينة السلام بغداد تحتفظ بمركزها المهم في النواحي المختلفة ، وبخاصة النواحي العلمية والادارية ٠ فكان واليها يعتبر نائباً للخليفة او خليفة عنه ٠ ولقضائها منزلة لا تقل عن منزلة قضاء العاصمة ٠ ولذا رأينا من المناسب ان نستعرض سيرة اولئك الذين تولوا قضاءها في عهد سامرا ٠

محمد بن سماعة :

ابو عبدالله محمد بن سماعة بن عبيدالله التميمي ، من رجال الحديث ورواته الثقات ، حتى قيل : لو كان اصحاب الحديث

(٩٥) المصدر السابق ، والمنتظم ٥/١٦٤ ، ونشوار المحاضرة ٤/١٣٣ ٠
(٩٦) المنتظم ٥/١٦١ ٠
(٩٧) الطبري ١٠/٤٩ ، والمنتظم ٥/١٦٤ ، وتاريخ بغداد وفيه انه توفي لاحدى عشرة خلت من شوال ٠

يصدقون كما يصدق محمد بن سماعة لكانوا فيه على نهاية(٩٨)،
كان ابن سماعة متعبداً متقشفاً ، ويروى عنه انه قال : مكثت اربعين سنة لم تفتني التكبيرة الاولى في جماعة الا يوما واحداً ماتت فيه امي(٩٩) • وهو من اصحاب القاضي ابي يوسف واخذ عنه وعن محمد بن الحسن،وروى عن ابن الحسن كتبه (١٠٠)•وقد ولاه المأمون قضاء مدينة المنصور بعد وفاة القاضي يوسف بن ابي يوسف ، رغم انه كان يطعن بتقشفه ، فقد روى عنه انه قال : عشرة من اعمال البر لا يصعد الى الله ، والله ، منها شيء ، ولما سئل عنها عددها وكان من ضمنها تقشف ابن سماعة (١٠١) •

استمر ابن سماعة على قضاء مدينة المنصور في عهد المعتصم بالله ، رغم انه كان على مذهب ابي حنيفة ويعتبر من ذوي الرأي فيه ، وامتنع عن القول بخلق القرآن • ويظهر ان سبب بقائه في القضاء انه كان عالماً ثقة محمود السيرة(١٠٢) • الا انه لما ضعف بصره عزله المعتصم بالله ، ويقال انه استعفى من العمل (١٠٣) •

ولمحمد بن سماعة عدد من المصنفات في اصول الفقه • ذكر ابن النديم منها كتاب ادب القاضي وكتاب المحاضر والسجلات(١٠٤) • وذكر له المسعودي كتاب نوادر المسائل وقد

---

(٩٨) تاريخ بغداد ٥/٣٤٢ •
(٩٩) نفس المصدر ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٧١ •
(١٠٠) الفهرست / ٣٠٣ ، والعبر ١/٤١٤ •
(١٠١) تاريخ بغداد ٥/٣٤١ ــ ٣٤٢ •
(١٠٢) النجوم الزاهرة ٢/٢٧١ •
(١٠٣) تاريخ بغداد ٥/٣٤٢ . والنجوم الزاهرة ٢/٢٢١ •
(١٠٤) الفهرست / ٣٠٣ •

وضعه عن استاذه محمد بن الحسن ، وهو من الوف الاوراق(١٠٥) •

لقد عمر محمد بن سماعة طويلا ، فقد توفى سنة (٢٣٣هـ) بعد ان بلغ مائة سنة من عمره ، وهو صحيح الجسم والعقل(*) •

شعيب بن سهل :

ابو صالح شعيب بن سهل بن كثير الرازي المولد ، من رجال المعتزلة المتطرفين ، ولاه الخليفة المعتصم بالله في اول خلافته قضاء الجانب الشرقي من بغداد عندما توفي قاضيها جعفر بن عيسى الحسني • ويظهر ان احمد بن ابي دواد رشحه لهذا المنصب لأنه من اهل الاعتزال • وقد جعل الخليفة اليه ، اضافة الى القضاء، الصلاة بالناس في مسجد الرصافة في ايام الجمع والأعياد (١٠٦) • اي انه انابه عن نفسه في اداء هذا الواجب الديني ، وفي ذلك تقدير كبير له ، علما انه لم يكن يعين للامامة الا من بني هاشم ، او ممن يوثق به من افاضل المسلمين(١٠٧) •

كان شعيب من القائلين بخلق القرآن ونفي الصفات والرؤية عن الباري عزوجل في الآخرة • وكان ينتقص اهل السنة ويتحامل عليهم . وقد كتب على جدار مسجده « القرآن مخلوق » وحاول عوام الجند والغوغاء في ربيع سنة (٢٢٧هـ) اثر مبايعة الواثق بالله ان يمحوا هذه الكتابة ، فمنعهم خادم المسجد ، فذهبوا الى بيت القاضي نفسه واحرقوا بابه وانتهبوا داره ، وارادوا نفسه فهرب

---

(١٠٥) مروج الذهب ٤/٩٥ •

(١٠٦) تاريخ بغداد ٩/٢٤٣ ، واخبار القضاة ٣/٢٧٧ •

(١٠٧) الخراج وصناعة الكتابة / ٤٣ـ٤٤ •

(*) مروج الذهب ٤/٩٥ ، وتاريخ بغداد ٥/٣٤٣ ، والكامل ٧/٤٠ •

منهم • فانفذ صاحب الشرطة اسحاق بن ابراهيم حرساً استطاعوا انقاذ شعيب وصاروا به الى دار اسحاق(١٠٨) •

بقي شعيب على قضاء الرصافة ، ولما تولى الواثق بالله الخلافة عزله من منصبه (*) • وقد توفي سنة (٢٤٦هـ) في ايام المتوكل على الله (١٠٩) •

عبدالرحمن بن اسحاق :

عبدالرحمن بن اسحاق بن سلمة الضبي ، كان جده من رجال الدولة (١١٠) • وكان هو احد فقهاء المذهب الحنفي ومن اصحاب الرأي فيه ، وكان مترفا جماعا للمال(١١١) • ويروى ابن طيفور كيفية توليه القضاء ، وذلك انه كان يختلف الى ولد ابن سماعة القاضي ، فاتاهم يوماً فتغدى عندهم ، واخذوا قلنسوته وتراموا بها وخرقوها ، فاغضبه ذلك • فصار الى ابيهم ليشكوهم فوجد عنده جماعة فاحتشم ان يشكوهم بحضرة تلك الجماعة فجلس ينتظر خروجهم • فاتى ابن سماعة كتاب طاهر بن الحسين كبير قواد المامون يذكر حاجته الى قاض يكون في عسكره لينظر في أمورهم • فقال لعبدالرحمن : هل لك ان تمضي اليهم ؟ قال : نعم • فبعث به الى طاهر فجعله قاضيا في عسكره ، واستمر به الأمر ، ودخل في عداد القضاة (١١٢) •

---

(١٠٨) تاريخ بغداد ٢٤٣/٩ ، واخبار القضاة ٢٧٧/٣ ، وتاريخ اليعقوبي ٤٧٩/٢ •

(*) اخبار القضاة ٢٧٧/٣ •

(١٠٩) الاعلام ٢٤٤/٣ •

(١١٠) تاريخ بغداد ٢٦٠/١٠ •

(١١١) نفس المصدر / ٢٦٠ ــ ٢٦١ ، واخبار القضاة ٢٨٢/٣ •

(١١٢) بغداد لابن طيفور / ١٤١ •

ونقل عبدالرحمن الضبي بعد حين الى قضاء الرقة وبقي على قضائها مدة ، وقيل انه لما تولى قضاء الرقة لم يكن له علم بشيء من الفقه ، الا انه عني بعد ذلك بحفظ الحديث وحفظ منه شيئا صالحا(١١٣) • ثم عينه المأمون على قضاء مدينة المنصور بدلا من اسماعيل بن حماد ، ثم ضم اليه قضاء الشرقية (١١٤) . لما عزل قاضيها بشر بن الوليد ، فصار قاضيا على الجانب الغربي باسره • وظل في منصبه هذا طيلة ايام المعتصم بالله (١١٥) • وعندما خرج المعتصم بالله الى حرب الروم سنة (٢٢٣هـ) احضر القضاة ورجالا من ذوي العدالة فاشهدهم على ما اوقف من الضياع . كان عبدالرحمن بن اسحاق احد القضاة الذين شهدوا على ذلك(١١٦) •

ولما استخلف الواثق بالله عزل عبدالرحمن بن اسحاق في سنة (٢٢٨هـ) وولى مكانه الفقيه الحسن بن علي بن الجعد على قضاء مدينة المنصور ، وعبدالله بن محمد الخلنجي على قضاء الشرقية (١١٧) • وحضر عبدالرحمن بن اسحاق بصفته من كبار الفقهاء مجلس محاكمة احمد بن النصر الخزامي فأيد كفره وقال هو حلال الدم (١١٨) •

---

(١١٣) اخبار القضاة ٣/٢٨٢ •

(١١٤) الشرقية محلة كبيرة بالجانب الغربي من بغداد ، سميت بالشرقية لانها شرقي مدينة المنصور •

(١١٥) تاريخ بغداد ١٠/٢٦١ •

(١١٦) الطبري ٩/٥٦ •

(١١٧) تاريخ بغداد ١٠/٢٧١ •

(١١٨) الطبري ٩/١٣٨ •

توفي عبدالرحمن الضبي في ذي القعدة سنة (٢٣٢هـ) بفيد وهو بطريقه الى مكة لاداء فريضة الحج ، ودفن بها(١١٩) .

اسماعيل بن اسحاق :

أبو اسحاق اسماعيل بن اسحاق بن اسماعيل بن حماد الأزدي . نشأ بالبصرة ودرس اللغة والحديث والفقه على مذهب الامام مالك بن انس ، حتى صار علماً فيه ، وقد عمل على شرحه ونشره ، وصنف الكتب في الاحتجاج له ، كما اتقن علوم القرآن والحديث وصنف عدداً من الكتب فيها (١٢٠) . ويقول ابن النديم ان اسماعيل بن اسحاق هو الذي بسط فقه مالك ودعا الناس اليه ورغبهم فيه ، وصنف فيه الكتب(١٢١) . وكان ابوه اسحاق على المظالم في مصر في عهد المأمون (١٢٢) .

استوطن اسماعيل مدينة السلام وولى القضاء فيها ، ولم يزل يتولاه حتى وفاته . وقد تولى القضاء لأول مرة في سنة (٢٤٦هـ) لما مات القاضي سوار بن عبدالله العنبري ، فأمر الخليفة المتوكل على الله قاضي القضاة جعفر بن عبدالواحد الهاشمي ان يولي اسماعيل بن اسحاق قضاء الجانب الشرقي من بغداد فولاه(١٢٣) . وظل في منصبه حتى ايام المهتدى على الله الذي نقم على حماد بن

---

(١١٩) تاريخ بغداد ١٠/٢٦١ .
(١٢٠) تاريخ بغداد ٦/٢٨٤-٢٨٥ ، ووفيات الاعيان ٢/٢٥٧ ، والمنتظم ٥/١٥١ - ١٥٢ .
(١٢١) الفهرست ٢٩٦ .
(١٢٢) كتاب الولاة وكتاب القضاة / ١٨٩ و٥٠٢ .
(١٢٣) تاريخ بغداد ٦/٢٨٧ .

اسحاق اخي اسماعيل لما بلغه عن مكاتبته الموفق ايام كان بمكة ، وصرف اسماعيل عن القضاء (١٢٤) .

ولما بويع للمعتمد على الله بالخلافة اعاد اسماعيل بن اسحاق الى عمله في القضاء . وكان الموفق شديد الاعجاب باسماعيل وبعلمه ، فسأله اسماعيل ان ينقله الى الجانب الغربي من مدينة السلام ، وكان على قضاء الشرقية القاضي البرتي وعلى قضاء مدينة المنصور احمد بن يحيى ، فكره ذلك قاضي القضاة الحسن بن ابي الشوارب واجتهد في رده ، الا انه لم يستطع ذلك لتمكن اسماعيل من الموفق . فاجابه الى طلبه ، ونقل البرتي الى الجانب الشرقي من المدينة ، واسماعيل الى الجانب الغربي بأسره ، وذلك في سنة (٢٥٨هـ) ، ثم جمع قضاء بغداد بجانبيها لاسماعيل بن اسحاق في سنة (٢٦٢هـ) وقلد معها قضاء المدائن والنهروانات وقسم من اعمال السواد ، وصار المقدم على سائر القضاة (١٢٥) .

كان اسماعيل بن اسحاق مقرباً الى الخليفة المعتمد على الله والى اخيه الموفق ، فكانا ينتدبانه لبعض المهام . فقد اوفده الخليفة ضمن الوفد الذي بعث به الى يعقوب بن الليث لما استحوذ على اقليم فارس في سنة (٢٥٧هـ) (١٢٦) . وعندما تغلب ابن واصل على فارس في سنة (٢٦١هـ) واسر احد قواد موسى بن بغا ، وجه الخليفة اسماعيل بن اسحاق الى ابن واصل يسأله اطلاق القائد

---

(١٢٤) الطبري ٩/٥٢٦ ، وتاريخ بغداد ٦/٢٨٧-٢٨٨ ، واخبار القضاة / ٣/٢٨١ .

(١٢٥) الطبري ٩/٥٢٦ ، وتاريخ بغداد ٦/٢٨٧-٢٨٨ ، واخبار القضاة ٣/٢٨١ ، والمنتظم ٥/١٥٢ .

(١٢٦) الطبري ٩/٤٧٦ ٩/٤٧٦ .

الأسير[١٢٧] • ووجهه الخليفة كذلك الى يعقوب بن الليث عندما وافى رامهرمز وعاد برسالة من يعقوب ، في رجب سنة (٢٦٢هـ)[١٢٨] •

توفي اسماعيل بن اسحاق في ذي الحجة من سنة (٢٨٢هـ) فجاءة وهو قاض على جانبي مدينة السلام [١٢٩] • ويقول ابن الجوزي انه لبس سواده ليخرج الى الجامع والبس احد خفيه وجاء ليلبس الآخر فمات[١٣٠] • واهم ما صنفه اسماعيل من الكتب كتاب في احكام القرآن ، وكتاب في القراءات . وكتاب في معاني القرآن، والمسند [١٣١] • ويضيف ابن النديم على هذه الكتب : كتاب اهوال القيامة ، وكتاب المبسوط ، وكتاب شواهد الموطأ . وكتاب المغازي[١٣٢] •

الحسن بن الجعد :

هو الحسن بن علي بن الجعد بن عبيد الجوهري وكان ابوه مولى ام سلمة المخزومية امرأة ابي العباس السفاح[١٣٣] . وقد درس الفقه والحديث على علية اصحاب الحديث ورواته . وقد اخذ عنه البخاري [١٣٤] • وتوفي بعد تولي ابنه القضاء

(١٢٧) نفس المصدر / ٥١٣ •
(١٢٨) نفس المصدر / ٥١٦ •
(١٢٩) الفهرست / ٢٩٦ ، وتاريخ بغداد ٦/٢٩٠ ، وأخبار القضاة ٣/٢٨١ •
(١٣٠) المنتظم ٦/٣٨٤ •
(١٣١) تاريخ بغداد ٦/٢٨٤ و ٢٨٦ ، ووفيات الاعيان ٢/٢٥٧ـ٢٥٨ •
(١٣٢) الفهرست / ٢٩٦ •
(١٣٣) المعارف / ٢٢٥ •
(١٣٤) مروج الذهب ٤/٧٦ ، والكامل ٧/١٨ •

بسنتين(١٣٤) • درس الحسن الفقه والحديث على ابيه . وتابع الدرس والتحصيل حتى غدا من مشاهير العلماء بمذهب اهل العراق(١٣٦) • ومال اول امره الى مذهب المعتزلة ثم رجع عنه • فقد سئل الامام احمد بن حنبل عنه ، فقال : كان معروفاً عند الناس بانه جهمي مشهور ، ثم بلغني انه قد رجع عن ذلك(١٣٧) •

عُرف الحسن بن الجعد بنبله ومروءته وسمو اخلاقه • وقد اختاره الواثق بالله لقضاء مدينة المنصور في سنة (٢٢٨هـ) ولم يزل قاضيا عليها الى ان مات في رجب سنة (٢٤٢هـ) في عهد الخليفة المتوكل على الله (١٣٨) •

عبدالله الخلنجي :

عبدالله بن محمد بن يزيد الخلنجي ، من اصحاب الرأي ، كان واسع العلم حاذقاً في الفقه الحنفي ومن القائلين بخلق القرآن • تقلد المظالم في اقليم الجبل ، والقضاء في همذان نحوا من عشرين سنة ، فكان مستقلا بالقضاء ووجوهه(١٣٩) • كتب اليه الخليفة المعتصم بالله بأن يمتحن الناس ، فكان معتدلا يضبط نفسه ولم يتطرف في الاعتزال • فقد تقدمت اليه امرأة فقالت : ان زوجي لا يقول بقول امير المؤمنين ، ففرق بيني وبينه فصاح بها (١٤٠) •

---

(١٣٥) تاريخ بغداد ٣٦٤/٧ •
(١٣٦) نفس المصدر ، واخبار القضاة ٢٨٣/٣ •
(١٣٧) تاريخ بغداد ٣٦٤/٧ •
(١٣٨) نفس المصدر ، والطبري ٢٠٨/٩ •
(١٣٩) تاريخ بغداد ٧٣/١٠ •
(١٤٠) نفس المصدر ، واخبار القضاة ٢٩٠/٣ وجاء فيه ففرق بينه وبينه •

وتولى الخلنجي القضاء على الشرقية بالجانب الغربي من بغداد في ايام الواثق بالله (١٤١) ، وبقي في منصبه حتى ايام المتوكل على الله ، فعزله في سنة (٢٣٧ هـ) وامر ان يكشف للناس ليفضحه ، لأنه كان من اصحاب احمد بن ابي دواد • فاقيم للناس في جمادى الأخيرة من السنة المذكورة (١٤٢) • فلم يتقدم احد بالشكوى عليه او اتهامه بأخذ حبة من احد ، حتى لقد قال بعض الشهود الذين حضروا الكشف : ما علمت ان القرآن مخلوق الا اليوم • فلما سئل كيف علم ذلك ، قال : سمعت القاضي يقول ذلك (١٤٣) • وهو دليل على ما كان يتمتع به الخلنجي من ثقة عالية في نفوس الناس •

كان الخلنجي عفيفا وفيه تيه وكبر شديد ، ويظهر انه كان اسود اللون ذا شكل مهيب ، فقد قال فيه احد الشعراء (١٤٤) •

نسبته في سواد لبسته
اشبه شيء بلون خلقته

كأني بالجبال قد نصبوا
فيه الخلنجي فوق بغلته

اكرم به من فتى مناسبة
بين اجاوينه وقصعته

---

(١٤١) تاريخ بغداد ١٠/٧٣ واخبار القضاة ٣/٢٩٠ •
(١٤٢) الطبري ٩/١٨٩ •
(١٤٣) تاريخ بغداد ١٠/٧٤ •
(١٤٤) اخبار القضاة ٣/٢٩٠ •

ما عذب الله امـــة سلفت

فيما سمعنا بمثل صورته

يصطلح الناس حين يقعد للحكم فراراً من هـول طلعته

وعندما اشتد الخلاف بين المستعين بالله والقـواد الأتـراك، واضطر الخليفة على الانحدار مع مؤيديه الى بغداد كان عبـدالله الخلنجي من جملة حاشيته • ولما طلب امير بغداد محمد بن عبدالله الى المستعين بالله ان يتنازل عن الخلافة لانهاء الحرب مع المعتـز بالله ، بحضور عدد من القواد والفقهاء ، قال الخلنجي للخليفـة محتجاً على طلب محمد : يا أمير المؤمنين انه يسـألك ان تخلـع قميصاً قمصك به الله (١٤٥) • ولما اسقط بيد المستعين بالله ولم ير بدأ من الموافقة على التنازل عن الخلافة • اشترط شروطا معينة لتنازله ، فبعث محمد بن عبدالله وفداً الى قائد جيش المعتز بالله ابي احمد الموفق ، يحمل كتاباً بشروط الخليفة المستعين بالله ، كان الخلنجي احد اعضائه ، ففاوض الوفد وعاد بجواب مـا سـأل المستعين بالله من الشروط(١٤٦) •

وكان المعتز بالله بعد ان استقر له الأمر في سامرا ، طلب الى مؤديه عمران الضبي ان يسمي له عدداً من الفقهاء ليوليهم القضاء، فاقترح له ثمانية رجال فيهم عبدالله الخلنجي ، الا انهم اتهمـوا بالاعتزال ، فأمر المعتز بالله باخراجهم الى بغداد (١٤٧) • وقدسبقت الاشارة الى ذلك •

* * *

---

(١٤٥) الطبري ٣٤٣/٩ •

(١٤٦) نفس المصدر / ٣٤٤ •

(١٤٧) نفس المصدر / ٣٧١ •

البـاب الرابـع

خلفاء سـامرا والأتـراك

١ ـ الأتراك في عهد المعتصم بالله وابنه الواثق بالله •

٢ ـ الصراع بين المتوكل على الله والاتراك •

٣ ـ ايام الفتنة •

الباب الرابع

خلفاء سامرا والأتراك

الفصل الأول

الاتراك في عهد المعتصم بالله وابنه الواثق بالله

١ ـ مقدمة :

كان الجيش عماد الدولة العربية في عهد العباسيين . وقد توسع كثيراً وازداد عدده ، وتنوعت صنوفه ، ولم يعد يقتصر على العرب وحدهم ، كما كان الأمر في عهد الأمويين . اذ سمح لابناء البلاد المفتوحة ممن اعتنقوا الدين الاسلامي ان ينخرطوا في صفوفه . وقد توسع العرب في فتوحاتهم الى بلاد ما وراء النهر واستولوا على امهات المدن فيها مثل بخارى وكاشغر وفرغانة وسمرقند . وكان سكان هذه المناطق من القبائل التركية البدوية ، اعتنق اكثرها الدين الاسلامي . ويتميز ابناء هذه القبائل بقوة اجسامهم وشجاعتهم في القتال . وكان قسم من غلمانهم من الاسرى والسبايا يجلبون الى مركز الخلافة ويباعون رقيقاً . وقد

استخدم بعضهم في الجيش لشجاعتهم ولياقتهم البدنية • ويعتبر ابو جعفر المنصور اول خليفة استعمل مواليه وغلمانه وقدمهم على العرب ، فامتثلت ذلك الخلفاء بعده (١) • الا ان عددهم كان قليلا ، ولم يكن استخدامهم بموجب سياسة مرسومة • فبقيت اكثرية الجيش على عهده من العرب والخراسانيين •

وكان العباسيون في اول عهدهم اكثروا من استخدام الخراسانيين في الجيش لأنهم كانوا عوناً لهم في التغلب على الامويين ، مما جعلهم العنصر المسيطر فيه • واتخذ الخلفاء الأوائل حرسهم الخاص منهم • غير ان انتصار المأمون على اخيه محمد الأمين اتاح لأنصاره من الفرس الذين اولاهم ثقته ان يهيمنوا على الجيش العربي هيمنة تامة • مما دفعه الى ان يستخدم ابناء ما وراء النهر . بعد ان اخضع كاتبه احمد بن ابي خالد الأحول في بلاد اشروسنة • وكان يأمر عماله في خراسان ان يشجعوا اهل تلك البلاد على اعتناق الاسلام ، فكان يستميلهم بالترغيب ويفرض لهم في الديوان ، ويجزل صلاتهم(٢) • ولاريب في ان انعطاف المأمون نحو الأتراك كان رد فعل لما لمسه من مطامع الفرس ومحاولتهم الاستئثار بالسلطة • وكان الأفشين حيدر بن كاوس من امراء اشروسنة ، وقد اصطنعه المأمون واعتمد عليه ، هو الذي زين له ان يتوسع شرقاً فأستولت الدولة العربية على مناطق واقاليم جديدة في آسيا الوسطى •

ان المعتصم بالله الذي شاهد جرأة الفرس وتطاولهم على قتل اخيه الخليفة محمد الأمين ، اخذ يرتاب في ولائهم منذ ان كان

---

(١) مشاكلة الناس لزمانهم / ٢٣ لم ، وتاريخ الخلفاء / ٢٤ •

(٢) فتوح البلدان / ٤١٩-٤٢٠ •

أميراً . كما ان نكبة الفضل بن سهل ، وترك المأمون مدينة مرو الى بغداد ، مما اساء الى العلاقة بين العباسيين والخراسانيين . فكان ذلك من جملة ما حدا بالمعتصم بالله الى الاعتماد على الاتراك . لأنه رأى في ذلك خير وسيلة لاضعاف النفوذ الفارسي في الجيش العربي . ويقول احد رجال المعتصم بالله ، وهو جعفر الخشكي انه كان يوجه به في ايام المأمون الى نوح بن اسد في سمرقند لشراء الأتراك وانه كان يعود عليه في كل سنة بجماعة منهم ، بحيث اجتمع لديه منهم حينذاك زهاء ثلاثة الاف(٤) . وجعل حرسه الخاص منهم . ويقول ابن قتيبة ان المأمون امر المعتصم بالله باتخاذ الاتراك وجلبهم (٥) . ويقول اليعقوبي انه لما افضت اليه الخلافة اشترى من كان منهم من الرقيق في بغداد . وكان ممن اشتراهم اشناس مملوك نعيم بن خازم ، وايتاخ مملوك سلام الابرش ، ووصيف مملوك آل النعمان ، وسيما الدمشقي مملوك الفضل بن سهل(٦) . واراه قد نوه بهذه الاسماء لما بلغه اصحابها من مراكز قيادية في الجيش والدولة ، ولما كان لهم من تأثير كبير في سير الاحداث .

وقد كلف المعتصم بالله عندما كان اميراً بمهمتين عسكريتين اعتمد فيها على غلمانه من الاتراك . فعندما ندبه الخليفة المأمون الى قمع الثورة التي قامت في مصر فى سنة ٢١٤هـ توجه اليها ابو اسحاق في اربعة الاف من اتراكه(٧) . ولما خرج مهدي بن علوان

---

(٣) نفس المصدر / ٤١٩ .
(٤) كتاب البلدان / ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .
(٥) المعارف / ٣٩١ .
(٦) كتاب البلدان / ٢٥٦ .
(٧) كتاب الولاة وكتاب القضاة / ١٨٨ .

الحروري على ابراهيم بن المهدي في سنة ٢٠٣هـ وجه اليه ابراهيم ابا اسحاق في جماعة من القواد ، ومع ابي اسحاق غلمان له اتراك (٨) ·

وهكذا صار اكثر جند المعتصم بالله عندما تولى الخلافة من اهل ما وراء النهر من الصغد والفراغنة والاشروسنية واهل الشاش وكلهم من الأتراك (٩) بحيث صار له منهم جيش كبير ، ويقول في تقدير عددهم الشاعر علي بن الجهم (١٠) ·

امام من لـه سبعون الفاً   من الاتراك مشرعة السهام

ويقول ياقوت الحموي مؤيداً هذا العدد من جند المعتصم بالله الأتراك : ان جيوش المعتصم كثروا حتى بلغ عدد مماليكه من الأتراك سبعين الفاً(١١) ·

٢ ـ المعتصم بالله واستخدامه الاتراك في الجيش :

لقد كانت هناك بالاضافة الى ما ذكرناه من عزم المعتصم بالله على القضاء على سيطرة العنصر الفارسي على الجيش العربي ، عوامل اخرى دفعته الى تتريك جيشه جنداً وقواداً · ومن هذه العوامل هو ما له علاقة بشخصية المعتصم بالله نفسه · وانه كان قوي الجسم بدرجة تلفت النظر ، ويغلب عليه حب الفروسية والولع بالحرب وشؤونها ، ولذا اعجب بشجاعة الغلمان الأتراك

---

(٨) الطبري ٧/٥٥٨ ·
(٩) فتوح البلدان / ٤٢٠ ·
(١٠) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٢ ، والاغاني ١٠/٢٠٥ ·
(١١) معجم البلدان ٣/١٧٤ ·

وجرأتهم • وكان يتخير عند شرائهم من يتوسم فيه الشجاعة وقوة الجسم ، واعتمد عليهم في امر سلامته الشخصية • وميزهم على بقية جنده فالبسهم حلل الديباج والمناطق المذهبة (١٢) • وآثرهم على المتقدمين من اوليائه ونصحاء آبائه(١٣) •

ولما كان حظ المعتصم بالله من العلم والثقافة ضئيلا ، فقد كان يشعر بتقارب ذهني مع هؤلاء الغلمان الذين كانوا اميين وقد جاءوا من مناطق متخلفة من الناحية الحضارية عن بقية بلدان الدولة العربية ، ولاسيما مركزها مدينة السلام • والواقع انهم كانوا لا يزالون في دور البداوة فلا يخضعون الا لأمراء قبائلهم او رؤسائهم • وكما يقول الطبري انهم كانوا عجما جفاة (١٤) • ولذلك فان الجيش الذي تكون منهم كان يختلف كثيرا عن بقية الجيش العربي • ولهذا افرد المعتصم بالله قطائعهم عن قطائع الناس جميعا عندما بنى مدينة سامرا ، واشترى لهم الجواري التركيات فازوجهم منهن ، وجعلهم منعزلين عن غيرهم ، ومنعهم ان يتزوجوا او يصاهروا الى احد المولدين . واجرى لجواريهم ارزاقا واثبت اسماءهن في الديوان ، فلم يقدر احد منهم ان يطلق امرأته او ان يفارقها (١٥) • وقد اكد المعتصم بالله حرصه على عدم اختلاط الجند الاتراك بغيرهم عندما اقطع اشناس ارضا فانه امره ان لا يطلق لغريب من تاجر ولاغيره مجاورتهم (١٦) . بحيث جعل

(١٢) مروج الذهب ٤/٥٣ •
(١٣) التنبيه والاشراف / ٣٠٧ •
(١٤) الطبري ٩/١٨ •
(١٥) كتاب البلدان / ٢٥٨ ـ ٢٥٩ •
(١٦) نفس المصدر / ٢٥٩ •

للاتراك قطائع متحيزة (١٧) • وقد كان اعتزازه بهم من اهم اسباب تشييد عاصمته سامرا •

يضاف الى ذلك موقف بعض القواد العرب منه عندما بويع بالخلافة وميلهم الى مبايعة العباس بن المأمون ، مما جعله لايطمئن الى ولائهم • كما ان انصراف العرب عن الحياة العسكرية الى النواحي الحضارية الاخرى ، لاسيما النواحي العلمية والاقتصادية نتيجة ارتفاع مستواهم الحضاري ، ساعده على اضعاف شأنهم في الجيش ، مما اتاح له ان يخرج كثيرا منهم ويسقط اسماؤهم من الديوان دون ان يلقى مقاومة تذكر • اما من بقي من قبائل اليمن وقيس ومضر في الجيش فقد اصطنعهم(١٨) وابقى عليهم •

ان هذه العوامل مجتمعة جعلت الخليفة المعتصم بالله لا يأمن الجيش الذي وجده عند توليه الخلافة ، سواء لتغلب العنصر الفارسي فيه ، او لعدم ولاء بعض قواده من العرب ، مما دفعه الى الاعتماد على عنصر جديد يركن اليه تتوفر فيه الكفاية والولاء • ولذا فقد اعتبر غلمانه الأتراك اساس جيشه الجديد واناط قياداته بمن توسم فيهم الجرأة والشجاعة من جهة والولاء من جهة اخرى ، من بين هؤلاء الغلمان • وبذا اصبح معظم القواد الكبار على عهده من الاتراك •

٣ ـ كبار القواد الاتراك :

اعتاد المعتصم بالله تكريم قواده الأتراك عند عودتهم من الحروب منتصرين ، اعترافا بما قاموا به من خدمة الدولة وحماية

---

(١٧) مروج الذهب ٤/٥٤ •

(١٨) مروج الذهب ٤/٥٣ •

الدين ، وتقديراً لجهودهم في ذلك ، وتشجيعا لهم . ومن اهم مظاهر هذا التكريم تقليد القائد الطوق والأسورة ، والسيف والمنطقة ، بحيث صار ذلك رسما لامراء الدولة (١٩) . او الاغداق عليهم بالاموال والهدايا الثمينة . فقد كرم الأفشين عندما قدم ببابك اسيراً الى سر من رأى ، بأن البسه وشاحين بالجوهر ، وتوّجه ، ووصلة بعشرين الف الف درهم (٢٠) . كما اجلس القائد اشناس على كرسي وتوجه ووشحه (٢١) .

وكان تشجيع المعتصم بالله وتقديره قواده عاملا مهما في بروزهم على مسرح السياسة بعد وفاته ، بحيث غدا لهم نفوذ سياسي الى جانب سلطاتهم العسكرية . وبذا يكون المعتصم بالله قد خلق طبقة جديدة من القواد الحكام . الذين لم تقتصر هيمنتهم على شؤون الدولة العسكرية فقط ، بل شملت النواحي الادارية والسياسية كذلك . فقد عينوا للحجابة ، والولاية ، مع احتفاظهم بمناصبهم القيادية في الجيش ، فاصبح نهم السلطان الحقيقي على شؤون الدولة . وقد اتيح لهذه الطبقة من القادة الأتراك ان تلعب دوراً خطيرا في حيـاة الدولة العربية بعد عهد المعتصم بالله . واظهرت الحوادث بعد مدة قصيرة ان استخدام الاتراك في الجيش كان خطأ كبيرا من المعتصم بالله . لأن قادتهم ورؤساءهم اساءوا استعمال نفوذهم وسلطانهم في فرض ارادتهم على الخلفاء ، واخذوا يتصرفون كغرباء متغلبين .

---

(١٩) رسوم دار الخلافة / ٩٤ .

(٢٠) الطبري ٩/٥٥ .

(٢١) نفس المصدر / ١٠٣ .

وقد برز في عهد المعتصم بالله عدد من كبار القواد الأتراك ، ولعل ابرز هؤلاء حيدر بن كاوس ، وقد اشرنا الى ما فيه الكفاية عنه عند الكلام عن حروبه ومطامحه وغضب الخليفة عليه ومحاكمته ، ومن القواد الاتراك الذين اعتمد عليهم المعتصم بالله ، واتيح لهم ان يلعبوا ادوارا مهمة بعده : ايتاخ الخزري ، وبغا الكبير ، واشناس ، ووصيف ، وفيما يلي لمحة موجزة عن سيرة كل منهم ، ولسوف نتعرف على كثير عنهم في الفصول القادمة ،

ايتاخ الخزري :

اصل ايتاخ من الخزر ، وكان طباخا مملوكا لسلام الأبرش خادم المأمون والرشيد من قبله ، فاشتراه منه المعتصم بالله ، وكان له من البأس والشجاعة ما ساعده على ان يصل الى مركز مرموق في الدولة ، اذ قربه المعتصم بالله ورفع من شأنه ، فولاه معونة سامرا بالاشتراك مع اسحاق ابراهيم المصعبي ، اضافة الى البريد ، وقيادة قسم من الجيش ، وفي حملة المعتصم بالله على بلاد الروم ولى ايتاخ قيادة ميمنة جيشه(٢٢) ، وكان يعتمد عليه في مهام الامور وبخاصة في التخلص من اعدائه ، فمن اراد حبسه او قتله فعند ايتاخ يحبس وبيده يقتل (٢٣) ، وهو الذي تولى قتل العباس بن المأمون وعجيف بن عنبسة عندما تآمرا على الوثوب بالخليفة ، وهو ببلاد الروم(٢٤) ، وقد احتفظ ايتاخ بمركزه طيلة ايام المعتصم بالله ، وزاد نفوذه وتوسع سلطانه في عهد الواثق

---

(٢٢) الطبري ٩/٥٧ ، والكامل ٦/٤٥١ ،

(٢٣) الطبري ٩/١٦٦-١٦٧ ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٧٦ ،

(٢٤) النجوم الزاهرة ٢/٢٧٦ ،

بالله الذي ولاه السند وخراسان . وعندما مات اشناس صير الواثق ولاية مصر الى ايتاخ ٠

ولما استخلف المتوكل على الله بقي ايتاخ في مرتبته ، فكانت اليه قيادة الاتراك والمغاربة والموالي ، ثم البريد اضافة الى الحجابة بدار الخلافة ٠ ولكن ما لبث المتوكل على الله ان تغير عليه اثر مشاجرة قامت بينهما ، همّ فيها ايتاخ بقتله (٢٥) ٠ فانتهز المتوكل على الله فرصة خروج ايتاخ الى اداء فريضة الحج . فاتفق مع امير بغداد اسحاق بن ابراهيم على استدارجه عند عودته الى بغداد والقبض عليه هناك ٠ ونجح اسحاق في ذلك فقيد ايتاخ وسجنه ٠ وما لبث ان مات في السجن ويقال انه قتل عطشاً في سجنه(٢٦) ٠ وسنأتي على تفصيل ذلك في موضوع الصراع بين المتوكل على الله والأتراك ٠

أشناس :

من الغلمان الأتراك الذين اشتراهم المعتصم بالله ببغداد ، وكان مملوكا لنعيم بن خازم ٠ وقد اعجب المأمون بشجاعته فقربه واعتمد عليه ٠ وعندما تكررت الثورات بمصر ضد الولاة قدم اليها المأمون في سنة ٢١٥ ومعه اشناس ، الذي عاونه في اعادة النظام الى البلاد ٠ ولما وجه ابراهيم بن المهدي ، في اثناء توليه الخلافة . ابا اسحاق لحرب ابن علوان الحروري طعنه احد الحرورية فحامى عنه اشناس فحاز ثقته ، بحيث لما آلت اليه الخلافة جعله من كبار قواده ، وانعم عليه بولاية مصر ودعي له

---

(٢٥) الطبري ١٦٧/٩ . والكامل ٤٣/٧ ٠

(٢٦) النجوم الزاهرة ٢٧٦/٢ ٠

على منابرها . كما انه استخلفه على العاصمة سامرا عندما خرج الى السن في سنة ٢٢٥هـ (٢٧) . وعند تأسيس سامرا اقطعه الخليفة المعتصم بالله واصحابه الموضع المعروف بالكرخ وضم اليه عدة من قواد الاتراك والجند ، وامره ان يبني المساجد والاسواق وان لا يطلق لغريب من تاجر ولا غيره مجاورتهم (٢٨) . وكان قد جعله على مقدمة جيشه في حملته على بلاد الروم ، فكان اشناس اول من ورد عمورية عندما افتتحها المعتصم بالله(٢٩) .

كما كان لاشناس دور كبير في كشف مؤامرة العباس على المعتصم بالله ، وفي القضاء على رؤوسها مما زاد في اعتماد الخليفة عليه ، وصار اثيراً لديه . وقد كرمه بأن اشرف على حفل زواج ابنته اترنجة بن الحسن بن الافشين ، وآمر بأن يكون العرس في قصره ، واحضر عرسها عامة اهل سامرا ، وكان يتفقد بنفسه من حضره (٣٠) . واجلسه على كرسي ووشحه بنفسه في سنة ٢٢٥هـ (٣١) .

وقد ازداد نفوذ اشناس في عهد الخليفة الواثق بالله ، اذ استخلفه في سنة ٢٢٨هـ على السلطنة والبسه تاجا مجوهراً ووشاحين مجوهرين(٣٢) . مما زاد في سلطاته التي تعدت المهام العسكرية . ويلاحظ انه أول قائد يقلد السلطنة في ظل الخلافة العباسية . وقد توفى اشناس في سنة ٢٣٠هـ في ايام الخليفة الواثق بالله .

---

(٢٧) الطبري ٩/١٠٣ .
(٢٨) كتاب البلدان / ٢٥٨ ـ ٢٥٩
(٢٩) الطبري ٩/٦٣ ، والكامل ٦/٩٩ .
(٣٠) الطبري ٩/١٠١ .
(٣١) الطبري ٩/١٠١ .

وصيف :

من مماليك المعتصم بالله الذين اشتراهم ببغداد ، وكان زرادا مملوكا لآل النعمان . ولم يلبث ان اصبح من كبار القواد الأتراك، لما كان يتمتع به من جرأة وبسالة . واتخذه المعتصم بالله ، عندما تولى الخلافة حاجبا له . وعند تأسيس سامرا أقطعه واصحابه مما يلي الحير ليقيموا مساكنهم هناك(٣٣) .

وقد تولى وصيف في عهد الواثق بالله قيادة الحملة التي جردت لاخماد تمرد الاكراد في الجبال وفارس ، فنجح فيما ندب اليه وقدم سامرا ومعه مئات من الاسرى فجازاه الخليفة بخمسة وسبعين الف دينار ، وقلده سيفاً(٣٤) . وعندما توفي الواثق بالله من غير ان يعهد بالخلافة ، اشترك وصيف في اختيار من يخلفه ولما اختير المتوكل على الله تولى وصيف حجابته ، ولكنه بعد حين تزعم مؤامرة اغتياله . وكان سبب نقمة وصيف على المتوكل على الله ان الخليفة امر بقبض ضياعه باصبهان والجبل واقطاعها الفتح ابن خاقان (٣٥) . وذلك في جملة اجراءاته لاضعاف شأن القواد الاتراك . فبلغ ذلك وصيفاً فغضب وانضم الى جانب محمد المنتصر ابن المتوكل على الله في النقمة على ابيه والعمل على التخلص منه .

وحاول المنتصر بالله لما استخلف ابعاد وصيف في شؤون الدولة . فعهد اليه في سنة ٢٤٨هـ قيادة حملة لغزو بلاد الروم

(٣١) نفس المصدر / ١٠٣ .
(٣٢) نفس المصدر / ١٢٤ .
(٣٣) كتاب البلدان / ٢٥٨ .
(٣٤) الطبري ٩/١٤٠ ـ ١٤١ .
(٣٥) نفس المصدر / ٢٢٢ .

وحماية الثغور العربية • وامره ان يقيم هناك حتى يأتيه امره(٣٦) • ولما غزا وصيف وكان بالثغور الشامية ، ورد عليه خبر موت الخليفة المنتصر بالله .فعاد الى سامرا • ولعب دورا مهما مع القائد بغا في تحريض الجند على القائد اوتامش الذي كان قد استولى على امور الخلافة في اوائل عهد المستعين بالله • ولما قتل اوتامش سيطر هذان القائدان على شؤون الدولة في عهد الخليفة المذكور •

وعندما ترك المستعين بالله عاصمته سامرا الى مدينة السلام للتخلص من نفوذ الأتراك وضغطهم عليه . كان القائد وصيف احد القواد الاتراك الذين صحبوه ، وظل الى جانبه الى ان خلع من الخلافة • وقد استطاع وصيف ان يسترضي المعتز بالله الذي آلت اليه الخلافة ، فرضي عنه ، وعاد الى سامرا ، واعيدت اليه اعماله ورتبه السابقة - الا انه لقي مصرعه بعد مدة على يد الجند الأتراك الذين شغبوا مطالبين بارزاقهم في سنة ٢٥٣هـ • وسنطلع على تفصيل ذلك في الفصل الخاص بالنزاع بين المعتز بالله والقواد الأتراك •

بغا الكبير :

من مماليك المعتصم بالله الذين تقدموا على عهده ، فاصبح من كبار قواده • وقد شارك في حروب عديدة • فقد وجهه المعتصم بالله على راس جيش كبير مددا للقائد الأفشين في حربه مع بابك • كما بعثه الى حرب منكجور عندما اعلن عصيانه • فجاء به اسيرا الى

---

(٣٦) الطبري ٩/٢٤٤ ، والكامل ٧/١١٢ •

سامرا • وهو الذي تولى اعتقال الأفشين عندما نقم عليه المعتصم بالله • كما قاد عدة حملات في عهد الخليفة الواثق بالله لتأديب بعض القبائل العربية • فقد وجهه لاخضاع الاعراب من بني سليم الذين اغاروا على اطراف المدينة المنورة فتغلب عليهم وقضى على تمردهم • كما انتدبه لتأديب بني نمير الذين هاجموا الحجاز واليمامة فالتقى بهم وهزمهم ، وعاد الى سامرا بعدد كبير من اسراهم •

وصار بغا من قواد المتوكل على الله البارزين • وعندما قتل القائد يوسف الثغري في ارمينية عين الخليفة بغا والياً عليها وطلب اليه ان يثأر لدم يوسف • فاحرق تفايس وخرب عدداً من الحصون • وحمل عدداً من البطارقة اسرى الى سامرا •

واعاد في خلال ولايته على ارمينية واذربيجان بناء مدينة وشمكور القديمة التي خربت وهجرها اهلها ، فحصنها واسكنها قوما خرجوا اليه من الخزر مستأمنين لرغبتهم في الاسلام • ونقل اليها التجار من برذعة وسماها المتوكلية ، لتكون من الثغور العربية (٣٧) • وبذل جهوداً كبيرة في اصلاح وتعمير الحصون في الثغور ، بشكل لم يكن على مثله (٣٨) •

وعندما قتل المتوكل على الله كان بغا الكبير في سميساط يرد الروم الذين اغاروا عليها وعلى الثغور القريبة منها • ولما مات المنتصر بالله اوكل القواد الاتراك باقتراح من احمد بن الخصيب ، الى بغا الكبير واوتامش وبغا الصغير ، وهم ابرز القواد الاتراك

---

(٣٧) فتوح البلدان / ٢٠٦ •

(٣٨) نفس المصدر / ٢١٣ •

الحاضرين حينذاك ، اختيار من يرون للخلافة (٣٩) . فتشاوروا فيما بينهم ، وقد كرهوا ان يولوا احد ابناء المتوكل على الله لئلا ينتقم منهم ، واجمعوا على اختيار احمد بن محمد بن المعتصم بالله ، محتجين بحرصهم على ابقاء الخلافة في ولد مولاهم المعتصم بالله ، ولقب بالمستعين بالله .

مات بغا الكبير في سنة ٢٤٨هـ وقد تجاوز عمره التسعين سنة ، وكان قد خاض من الحروب ما لم يخضه غيره ، فما اصابته جراحة قط (٤٠) . وكان متدينا من بين القواد الاتراك . ولما مرض عاده الخليفة المستعين بالله ، وعندما توفي عقد لأبنه موسى على الأعمال التي كانت لأبيه اضافة الى ولاية البريد(٤١) .

٤ ـ الأتراك في عهد الواثق بالله :

اتبع الواثق بالله سياسة ابيه المعتصم بالله في الاعتماد على الجند الاتراك فزاد عددهم في عهده واتسع نفوذهم وبخاصة كبار قوادهم اشناس وايتاخ ووصيف وبغا . وسبق ان اشرنا الى ما وصلوا اليه من مراكز رفيعة في الدولة العربية في عهد المعتصم بالله . وقد استمروا في ايام الواثق على ما كانوا عليه في عهد ابيه ، بل أن سياسته تجاههم ساعدت على ازدياد نفوذهم وتدخلهم في شؤون الدولة . فانه لم يقم طيلة حياته باية فعلية عسكرية يشغلهم بها وانما استخدم بعضهم في مناصب ادارية وسعت لهم مجال التدخل فاتسع بذلك سلطانهم . ولسوف نرى في فصول

---

(٣٩) الطبري ٩/٢٥٦ .
(٤٠) مروج الذهب ٤/٦٠ .
(٤١) الطبري ٩/٢٥٨ .

قادمة مـ ترتب على ازدياد نفوذ الاتراك وتدخلهم مـن عواقب خطيرة اثرت في مسيرة الدولة العربيه في عهد العباسيين ٠

لقد ولى الواثق بالله ، غداة مبايعته بالخلافة ، القائد اشناس من بابه الى آخر عمل المغرب(٤٢) ٠ ويشمل ذلك اعمال الجزيرة وبلاد الشام وارمينية ومصر وشمالي افريقية ٠ وولى ايتاخ خراسان والسند وكور دجلة (٤٣) ٠ كما ولاه اكثر اعمال اشناس عندما توفى في سنة ٢٣٠هـ (٤٤) ، واتخذ القائد وصيفا حاجبا له (٤٥) ٠ وخلع اشناس لقب السلطان واستخلفه على السلطنة في سنة ٢٢٨هـ والبسه تاجا مجوهرا ووشاحين مجوهرين(٤٦) ٠ فكان اول خليفة استخلف سلطانا (٤٧) ٠

وكان الواثق بالله مثل ابيه لا يألوا جهدا في مكافأة قواد الأتراك واعلاء شأنهم كلما انجزوا مهمة تناط بهم ٠ فعندما تمكن القائد وصيف من اخضاع الأكراد الذين كانوا قد تمردوا في نواحي اصبهان والجبال في اواخر ايام المعتصم بالله ، وقدم الى الى سامرا ومعه خمسمائة من الأسرى ، منحه خمسة وسبعين الف دينار وقلده سيفاً (٤٨) ٠

---

(٤٢) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٩ ٠
(٤٣) نفس المصدر ٠
(٤٤) نفس المصدر / ٤٨١ ٠
(٤٥) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٥ ٠
(٤٦) الطبري ٩/١٢٤ ، والمختصر في اخبار البشر ٢/٣٥ ، والكامل ٧/٩ ٠
(٤٧) تاريخ الخلفاء / ٣٤٠ ٠
(٤٨) الطبري ٩/١٤٠ ـ ١٤١ ، والكامل ٧/٢٣ـ٢٤ ٠

الا ان قوة الوزير محمد بن عبدالملك الزيات وسياسة الحكمة من جهة ، وقوة شخصية الواثق بالله من جهة اخرى حددت من نفوذ القواد الأتراك وسلطاتهم • بحيث استطاع الخليفة ان يامن جانبهم ويضمن ولاءهم وان يستفيد من خدماتهم في الميادين العسكرية الداخلية • فقد اعتمد عليهم في اخضاع حركات التمرد المتتالية التي قامت في الجزيرة العربية •

الفصل الثاني

الصراع بين المتوكل على الله والأتراك

سبق ان اوضحت تأثير كبار القواد الاتراك في اختيار المتوكل على الله للخلافة ، وتوخيهم ان يكون طوع ارادتهم ليؤمنوا مصالحهم ويحافظوا على مراكزهم . لما لهم عليه من منة في رفعه الى مركز الخلافة بعد ان كان مضطهداً مغضوباً عليه في أيام اخيه الواثق بالله . الا ان الاحداث اظهرت انهم كانوا واهمين في ذلك . اذ انه عندما تسلم مقاليد الخلافة ولمس تعاظم نفوذهم ، اخذ يفكر في العمل على اضعاف شأنهم والحد من سلطانهم . والواقع انه جفاهم واطرحهم ، وحط من مراتبهم ، وعمل على الاستظهار عليهم واستئصالهم (١) . الا انه لم يكن يستطيع ذلك علانية بالنظر لقوة مراكزهم وانقياد الجند لهم ، فاخذ يتحين الفرص المواتية لتنفيذ سياسته نحوهم .

وقد لمس القواد الاتراك موقف الخليفة منهم وما يرمي اليه من اخضاعهم ، فأخذوا بدورهم يعملون جهد امكانهم على مقاومته وعدم السماح له بالمساس بمصالحهم . فنشأ عن ذلك صراع خفي بين الطرفين ، يتحين كل جانب الفرصة للايقاع بالجانب الآخر . حتى انتهى الأمر بفشل محاولات المتوكل على الله ، ونجاحهم في

---

(١) التنبيه والاشراف / ٣١٣ .

التخلص منه • ومن الجدير بالذكر ان نشير الى ان قتل المتوكل على الله وزيره محمد بن عبدالملك الزيات ، كان غلطة كبيرة منه ، اذ ان ذلك افقده شخصية سياسية قوية متمرسة كانت تقف الى جانبه بوجه الطغيان التركي ، وتساعد على الحد من نفوذهم • كما ان غضبه على قاضي القضاة احمد بن ابي دواد افقده ايضا شخصية عربية مخلصة كان يمكن ان يستفيد من خبرته وآرائه ونفوذه • وسنحاول فيما يأتي ان نتلمس نواحي الصراع المذكور وما ادى اليه من النتائج •

١ ـ التخلص من القائد ايتاخ :

سبق ان اشرنا الى ان ايتاخ كان قد اشتراه المعتصم بالله فرأى فيه شجاعة ولمس منه ولاء ، فضمه الى الجيش ورفع منزلته حتى غدا من كبار قواده وقواد ابنه الواثق بالله • فلما تولى المتوكل على الله الخلافة كان ايتاخ يتولى الحبس وقيادة قسم كبير من الجيش يشمل المغاربة والأتراك ، ويتولى كذلك البريد والحجابة وشؤون دار الخلافة (٢) • مما جعله اقوى القادة الاتراك سلطة واوسعهم نفوذاً • بحيث ان القضاء عليه يؤثر في تقليص نفوذ القواد الآخرين • وقد سبقت الاشارة الى موقف ايتاخ في اختيار خلف للواثق بالله وانه كان من مؤيدي اختيار ابن الواثق بالله على صغر سنه ، مما جعل المتوكل على الله يضمر له شراً • وشرب المتوكل ذات ليلة وعربد على ايتاخ فهم هذا بقتله • فلما اصبح المتوكل على الله وقيل له بما حصل بالأمس اعتذر اليه (٣) •

---

(٢) تجارب الامم ٦/٥٤٢ ، والطبري ٩/١٦٦٧ وفيه : كان يتولى الجيش ، الا انه سبق ان اشار في ص : ١٦٦ الى انه بيده الحبس •

(٣) الطبري ٩/١٦٦٧ •

ويظهر من رواية الطبري ان المتوكل على الله لم يعد يأمن جانب ايتاخ فاراد التخلص منه « فدس اليه من يشير عليه بالاستئذان للحج ففعل » (٤) . ويؤيد ابن الاثير هذا بقوله « ثم وضع عليه من يحسن له الحج فأستأذن من المتوكل فاذن له »(٥) . الا ان اليعقوبي يقول « واتصل بالمتوكل انه كان على ايقاع الحيلة به ، فلم نم يمكنه ذلك طلب الحج» (٦) . ومهما كان السبب في خروجه الى الحج فان المتوكل على الله قد تظاهر باكرامه ، فخلع عليه وصيره امير كل بلد يمر به في طريقه ، وذلك كسبأ لثقته . ولما انصرف ايتاخ عائدا من الحج اراد العودة الى سامرا عن طريق الانبار . الا ان المتوكل على الله كتب الى اسحاق بن ابراهيم عامله على الشرطة ببغداد يأمره بحبسه (٧) . فكتب اسحاق الى ايتاخ ان امير المؤمنين قد أمره بأن يتلقاه بنو هاشم ووجوه الناس ببغداد زيادة في اكرامه . وعندما وصل بغداد احتال عليه اسحاق فحبسه وقيده . فاقام عدة ايام في الحبس ثم مات . ويقال انه أطعم فاستسقى فمنع عنه الماء حتى مات عطشاً(٨) .

وقد اتقن المتوكل على الله تدبير القضاء على ايتاخ باختياره بغداد لاعتقاله فيها ، لأن اهل بغداد كانوا يعادون الاتراك وهم الذين ارغموا المعتصم بالله على الانتقال الى سامرا . ويقول الطبري « لو لم يؤخذ ببغداد ما قدروا على اخذه ، ولو دخل الى سامرا فاراد باصحابه قتل جميع من خالفه امكنه ذلك »(٩) .

---

(٤) نفس المصدر .
(٥) الكامل ٧/٤٣ .
(٦) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٥ .
(٧) الكامل ٧/٤٦ .
(٨) الطبري ٩/١٧٠ .
(٩) الطبري ٩/١٦٩ .

٢ ـ انشاء جيش من العرب :

من الدلائل الواضحة على عزم المتوكل على الله على مقاومة نفوذ الأتراك والاستظهار عليهم محاولته تأسيس جيش يخلو من الاتراك قوادا وافرادا ، ويعتمد بالدرجة الاولى على العرب . يقول المسعودي « انه ضم الى وزيره عبيدالله بن يحيى نحوا من اثني عشر الف رجل من العرب والصعاليك وغيرهم برسم المعتز وكان في حجره »(١٠) . ورغم ان عبيدالله بن يحيى بن خاقان كان تركيا الا انه كان مواليا للخليفة ، وهو ابن اخي الفتح بن خاقان القائد التركي المقرب جدا من المتوكل على الله . لقد ادرك الاتراك خطر تأليف هذا الجيش وتوسيعه ، وان نموه سيكون على حسابهم ، لاسيما وقد شعروا بضيق المال عليهم لأن قسما منه ينفق على هذا الجيش . فاخذوا يقاومون توسعه بمختلف الوسائل ، فلم يزد عدده كثيرا . اذ عندما قتل المتوكل على الله دخل قادة هذا الجيش على عبيدالله بن يحيى وطلبوا اليه ان يسمح لهم بمقاومة قتلة الخليفة من الاتراك وغيرهم ، اختلف في عدد افراد هذا الجيش فقال البعض انهم كانوا عشرة الاف ، وزاد آخرون او نقصوا (١١) . يبدو ان المتوكل على الله لم ينجح في محاولته هذه بشكل يؤثر على قوة الاتراك ونفوذهم . ويمكن القول بأن قيام المتوكل على الله بتأسيس هذه الفرقة من الجيش دليل على نيته في اعادة النفوذ

(١٠) التنبيه والاشراف / ٣١٣ .
(١١) الطبري ٩/ ٢٢٩ ، وتجارب الامم ٦/ ٥٥٧ ، والكامل ٧/ ٩٩ .

العربي الى الجيش ، وان هذه الفرقة ستكون نواة جيش كبير يستطيع بواسطته ان يضع حداً لتسلط القواد الاتراك . ولكن يبدو انه شأن يحذر جانب اولئك القواد ويخشى اثارتهم فلم يعهد بقيادة الفرقة المذكورة الى احد كبار القواد العرب ، وانما عهد بها الى وزيره . الا ان القواد المذكورين احسوا بالخطر الذي يكمن وراء تشكيل هذه الفرقة فعملوا جهدهم على عدم توسعها من جهة ، وعلى الايقاع بالمتوكل على الله من جهة اخرى . وقد استطاعوا ان يستميلوا ولي العهد محمد المنتصر الى جانبهم ضد ابيه ، مما سهل القضاء عليه . وبهذا تكون جريمة المنتصر مزدوجة اذ ساهم في اغتيال ابيه ، وساعد القواد الاتراك في تقوية مراكزهم ونفوذهم باضعاف الفرقة المذكورة وحلها . فأبقى الأتراك وحدهم اصحاب الصولة في الميدان السياسي والعسكري .

٢ ـ نقل العاصمة الى دمشق :

اراد المتوكل على الله الانتقال من سامرا ليبتعد عن تسلط الاتراك وتدخلهم في شؤون الدولة . ويظهر انه اختار دمشق لتكون عاصمة له لنزعتها العربية وخلوها من نفوذ الاتراك . كما ان كره اهل الشام لبعض العلويين مما يتفق مع ميوله . وقد احتج في انتقاله الى دمشق بسبب صحي . فقد وصف له برد هوائها وكان محروراً (١٢) . فأمر باصلاح الطريق واقامة المنازل عليه للاستراحة ، واعداد القصور في المدينة لسكناه وسكنى

---

(١٢) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٩١ .

حاشيته . فدخلها في صفر سنة ٢٤٤هـ وعزم على المقام بها ونقل دواوين الدولة اليها ، وامر بالبناء فيها(١٣) .

الا ان القواد الاتراك سرعان ما ادركوا غرضه من الانتقال الى دمشق فحرضوا جنودهم على الشغب ، فاحتجوا يطالبون باعطياتهم وارزاقهم ثم جردوا اسلحتهم ورموا قصر الخليفة بالنشاب بحيث ارتفعت السهام الى الرواق الذي يجلس فيه المتوكل على الله . فاستدعى احد القواد ممن يعتمد عليه ، وهو رجاء الحضاري ليستطلع رأيه فيما حدث ، فنصحه هذا بأن يأمر بدفع ارزاقهم حالا ، وان يعود الى سامرا . فأمر بدفع ارزاق الجند وضرب الطبول للرحيل الى العراق . ويظهر ان الجند الاتراك فرحوا بذلك حيث سارعوا بالحركة للرحيل .

ويظهر مما يرويه المسعودي ان الاتراك حاولوا ان يقتلوا المتوكل على الله بدمشق الا انهم لم يتمكنوا من ذلك بسبب وجود القائد بغا الكبير الى جانبه . وقد عملوا على ابعاده عنه وخططوا للوقيعة بينهما ليعزلوا عن الخليفة احد كبار مؤيديه . فكتبوا الرقاع الى المتوكل على الله يحذرونه من ان بغا يزمع على الفتك به ، وعينوا لذلك وقتاً . ثم كتبوا الى القائد بغا بان جماعة من الاتراك عزموا على الفتك بالخليفة ويحثونه على تشديد حراسته وحمايته له . ولما ذهب بغا مستعدا بحرسه للحيلولة دون الايقاع بالخليفة ، تأكد لدى المتوكل على الله تصميم بغا على الفتك به ، فاخذ يتوجس منه . ولهذا لما عاد الى سامرا ابقى بغا في دمشق(١٤) . وما ذكره اليعقوبي يؤيد ما ذهب اليه المسعودي في

---

(١٣) الطبري ٩/٢٠٩ .

(١٤) تفصيل ذلك في مروج الذهب ٤/١١٥–١١٧ .

سبب عودة المتوكل على الله الى سامرا بقوله « وبلغه عن بعض الموالي امر كرهه فشخص عن دمشق الى العراق » (١٥) ٠

وبرر المتوكل على الله عودته الى سامرا بأنه « استوبأ البلد وذلك ان الهواء بها بارد ندي ، والماء ثقيل ، والرياح تهب فيها مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل ، وهي كثيرة البراغيث ، وغلت فيها الأسعار ، وحال الثلج بين السابلة والميرة » (١٦) ٠ ان القسم الاول مما ذكر عن مدينة دمشق قد يكون صحيحا . وكذلك غلاء الاسعار فيها بسبب انتقال هذا العدد الكبير من الجند وبعض موظفي الدولة وحاشية الخليفة ٠ الا ان حيلولة الثلج بين السابلة ووصول الميرة الى المدينة لا يتفق والواقع ٠ لان المتوكل على الله دخل دمشق في صفر سنة ٢٤٤هـ واقام بها شهرين واياما ثم خرج عائدا الى سامرا فوصلها في اواخر جمدى الآخرة من نفس السنة ٠ ولابد انه ترك دمشق في ربيع الثاني ٠ وهذه الأشهر من السنة المذكورة تقابل الأشهر مايس وحزيران وتموز من السنة ٨٥٨ الميلادية (١٧) ٠ وهي من اشهر الصيف في دمشق ولم يكن الثلج قد سقط فيها ٠ وقد يكون الطبري اراد ان يشير الى ان الثلج يحول بين السابلة ووصول الميرة في فصل الشتاء مما لا يشجع على البقاء في المدينة . الا انه لم يحسن التعبير عن ذلك ٠ ونقل نص قوله المؤرخون ممن جاءوا بعده ٠

---

(١٥) تاريخ اليعقوبي ٤٩١/٢ ٠

(١٦) ٩/ ٢١٠ . وتجارب الامم ٥٥٢/٦ . والكامل ٨٥/٧ ٠

(١٧) التوفيقات الالهامية / ١٢٢ ٠

٤ ـ تغلب القواد الأتراك :

ذكرنا في البحث الخاص بمقتل المتوكل على الله كيف ان المنتصر ، عندما تفاقم خلافه مع ابيه ، اخذ يستقطب كبار القواد الاتراك حوله · ومما ساعده على ذلك عدم اطمئنان اولئك القادة الى سيسة المتوكل على الله ونواياه تجاههم · وقد ذكر ان المتوكل على الله عزم هو والفتح بن خاقان ان يصيرا غداءهما عند عبدالله ابن عمر البازيار يوم الخميس لخمس ليال خلون من شوال ٢٤٧هـ على ان يفتك بالمنتصر ويقتل وصيفا وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم (١٨) · وكانت نتيجة محاولة المتوكل على الله هذه انها دفعت بالقواد المذكورين وغيرهم ممن كانوا يناصرون المنتصر ضد ابيه ، الى الاسراع في القضاء عليه قبل ان يحكم تدبيره في الفتك بهم ·

وكان من جملة الوسائل التي اتخذها المتوكل على الله في اضعاف نفوذ القواد الاتراك ، ان ينتزع منهم بعض الضياع التي التي اقطعت لهم في مناسبات مختلفة · وقد ابتدأ بالقائد وصيف ، فأمر في سنة ٢٤٧هـ بانشاء الكتب بذلك ، وصارت الى ديوان الخاتم لتوقيعها على ان تنفذ في الخمس من شعبان · فبلغ ذلك وصيفا ، فزاد في غضبه على المتوكل على الله بحيث كانت هذه الخطوة من الخليفة السبب المباشر الذي ادى الى اغتياله ·

يتضح مما ذكرناه ان المتوكل على الله حاول جاهدا ان يقضي على نفوذ الأتراك او يضعفه على الأقل ، وقد اتبع لتحقيق ذلك

---

(١٨) الطبري ٩/٢٢٥ ، وتجارب الامم ٦/٥٥٤ ·

عدة وسائل ، وامتد صراعه معهم طيلة مدة خلافته . الا انه لم يستطع التغلب عليهم لسيطرتهم على الجيش ، ولاشغالهم وظائف ومراكز مهمة تتيح لهم التعرف على محاولاته ضدهم ، فكانوا سرعان ما يبادرون الى العمل على احباط تلك المحاولات . بل انهم لم يتورعوا عن اغتياله لما علموا بعزمه على الفتك بهم .

الفصـــل الثــالث

أيـــام الفتنة

١ ـ مقدمة :

اطمأن القواد الاتراك بعد ان اغتالوا المتوكل على الله الى عدم وجود من يهدد مصالحهم . او يقف بوجه مطاليبهم المالية ، او يقلص نفوذهم وسطانهم بل نستطيع القول انهم ازدادوا نفـوذا وتأثيرا على الدولة والخلفاء ، فسيطروا على الخلافة بعد المتوكل على الله مدة امتدت منذ خلافة المنتصر بالله حتى مقتل المهتدي بالله ، بحيث اصبح الحكم الفعلي خلال هذه المدة بايديهم · وقد ســادها صراع عنيف بينهم وبين الخلفاء ، وكثرت الفتن خلالها واهمهـا قيام الحرب بين جيش المستعين بالله وجيش المعتز بالله ومقتـل اربعة خلفاء ، حتى سماها ابن خلدون « ايام الفتنة »(١) ·

كان مجيء المنتصر بالله الى عرش الخلافة بعد تواطئه مـــع القواد الاتراك على اغتيال ابيه ، كسبا كبيرا للقواد المذكورين ·

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٣/٢٩٣ ·

الا انهم ما لبثوا ان انقلبوا عليه بعد ان شعروا بنواياه وما يبيته ضدهم وقرروا قتله او التخلص منه بالسم ، وقد اشرنا الى ذلك في موضوع وفاته · ولما تخلصوا منه اجتمعت كلمتهم على ان يبعدوا أولاد المتوكل على الله الآخرين عن عرش الخلافة ، بل انهم في أيام المنتصر بالله دفعوه الى ان يرغم اخويه المعتز والمؤيد على التنازل عن ولاية العهد · بحيث تسنى لهم ان يختاروا للخلافة من يتوسمون فيه الانقياد لهم · فاختاروا احمد بن محمد بن المعتصم بالله الذي لقب بالمستعين بالله ، مبررين اختيارهم له بأنهم لايرغبون في خروج الخلافة من اولاد مولاهم المعتصم بالله ·

الا ان القواد ، لما اشتد خلافهم مع المستعين بالله رغم ضعفه واستكانته ، بايعوا للمعتز بالله بن المتوكل على الله ، لأنهم توقعوا انه سيكون طوع ارادتهم · وتجاهلوا الخليفة القائم الذي فر الى مدينة السلام · مما نشأ وضع شاذ في رئاسة الدولة العربية ، وذلك بوجود خليفتين في وقت واحد ، فقام الصراع بينهما ونشبت الحرب بين جيش المستعين بالله وجيش المعتز بالله . ثم انتهت وفق مايرغب به كبار القواد الاتراك الذين كانوا اضطروا المستعين بالله على الهرب الى بغداد ، ثم التنازل عن الخلافة للمعتز بالله ، وما لبثوا ان اقنعوا المعتز بالله بقتله ·

ولما تحقق للقواد المذكورين عجز المعتز بالله عن سد حاجتهم المستمرة الى المال بادروا الى خلعه واختيار محمد بن الواثق بالله الذي عرف بزهده وعزوفه عن بهرجة الخلافة ومباهج الحياة ، وطمعوا ان يجدوا فيه اداة طيعة لتلبية رغباتهم · الا انهم لما لمسوا حرصه الزائد على اموال الأمة ، وعمله في نشر العدل ، ومحاسبته موظفي الدولة . ثاروا عليه وقتلوه · واختاروا للخلافة

المعتمد على الله الذي كان منهمكا في ملذاته اكثر من اهتمامه بشؤون الدولة • وتوقعوا ان سيكون لهم المجال واسعا في عهده للاستئثار بالسلطة وجر المغانم وحيازة الاموال • الا ان ابا احمد الموفق وقف الى جانب اخيه الخليفة وضرب على ايديهم وكفهم عن العبث بشؤون الدولة • وهو وان استأثر بالسلطة دون اخيه ، استطاع ان يستعيد للخلافة هيبتها وللدولة العربية سطوتها وسلطانها ، فانهى عهد الفتنة التي سيطر خلالها الاتراك على شؤون الدولة ، واثروا تأثيراً سيئا في مسيرتها •

وسنحاول فيمايلي من الصفحات ان نستعرض علاقة القواد الأتراك بخلفاء هذه المدة لنتلمس نواحي قوتهم وضعف هؤلاء الخلفاء • مع الاشارة الى مظاهر الصراع الذي استمر طيلة المدة المذكورة بين الطرفين ، والذي كان ينتهي دوما بانتصار القواد الاتراك ، حتى استطاع الموفق ان يضع حداً لتسلطهم طيلة وجوده في الحكم الى جانب اخيه الخليفة •

٢ ـ المنتصر بالله يتنكر للاتراك :

اتخذ المنتصر بالله موقف الحذر من القواد الأتراك والعمل على تفريق كلمتهم واضعاف شأنهم بل والانتقام منهم • وكانت سياسته هذه قد كلفته حياته • اذ ان نجاح مؤامرتهم في قتل المتوكل على الله زاد من نفوذهم وتسلطهم على شؤون الخلافة ، واضعف النفوذ العربي في الدولة • وكان هؤلاء القواد اول من بايع الخليفة الجديد حليفهم في المؤامرة ، مما جعلهم يعتقدون بأن لهم الفضل في توليه الخلافة • وتأييدا لسلطتهم عليه انهم استطاعوا

ان يرغموه على خلع اخويه من ولاية العهد لكي يأمنوا انتقـــام اولاد المتوكل على الله الآخرين اذا ما تولى احدهم الخلافة ٠

الا ان المنتصر بالله ، وقد ساهم في مؤامرة اغتيال ابيـــه ، أخذ يشعر بتأنيب الضمير ، فلا تغيب ذكراه عن ذهنه ٠ كما لا تغيب صورة ابيه عن باله ، حتى انه رآه اكثر من مرة في منامه يعاتبه ويعنفه . مما نغص عليه عيشه واسلمه الى الكآبة واليأس ٠ واخذ يحس كأنه خسر الدنيا والاخرة ٠ وكثيراً ما صرح بما كان يقاسيه من الام نفسية ٠ ولذلك كان يشعر بكره طاغ تجاه هؤلاء القواد الذين زينوا له الاشتراك في المؤامرة ، وبخاصة اولئك الذين تولوا قتل أبيه ٠ ويود لو انه ينتقم منهم ليكفر عن خطيئته بحق ابيه ٠ فكان اذا سكر قال عنهم هؤلاء قتلة الخلفاء واكثر من تهديدهم(٢) ٠ ويظهر انه كان عزم على الفتك بهم فقد قـــال للفضل بن المأمون . قتلني الله ان لم اقتلهم وافرق جمعهم بقتلهم المتوكل على الله (٣) ٠ فأخذ يغتنم الفرص للايقاع بهم ٠ وعندما اقترح عليه وزيره احمد بن الخصيب اخراج القائد وصيف على رأس جيش لحرب الروم . اغتنم هذه الفرصة للتخلص من احد كبار قوادهم ٠

وكانت العلاقة بين الوزير ابن الخصيب والقائد وصيف قد ساءت ، ولكي يأمن الوزير شر وصيف وتدخله في اعماله ، راى ان خير وسيلة لذلك ابعاده عن حاضرة الخـلافة ٠ فأشـار على الخليفة بافتراحه المذكور ٠ فتظاهر المنتصر بالله بالاهتمـــام بموضوع احباط نية الاعتداء واستطاع ببراعته ان يقنع وصيفا

---

(٢) الطبري ٩/٢٥٢ ٠

(٣) مروج الذهب ٤/١٣٤ ، وشذرات الذهب ٢/١١٩ ٠

بالخروج . اذ قال له انه بلغه ان طاغية الروم قد اقبل يريد الثغور العربية ، وهو ما لايمكن السكوت عليه ، ولابد من رده بحملة عسكرية توجه اليه ، وان لا مناص من ان يخرج بنفسه على راس حملة للجهاد في سبيل الله ، ان لم يخرج على رأسه احد كبار قواده . فقال وصيف بل انا اشخص يا أمير المؤمنين . فاوعز المنتصر بالله الى وزيره ان يبادر فورا الى تجهيز الحملة ، وان يبذل كل جهوده في تأمين جميع ما تحتاجه . وكتب بنفس الوقت الى خليفته ببغداد محمد بن عبدالله بن طاهر يعرفه توجيهه وصيفا للروم ويعلمه بخروج حملته الى ثغر ملطية ويأمره بان يبلغ عماله في نواحي عمله بكتاب امير المؤمنين لقراءته على من قبلهم من المسلمين وترغيبهم في الجهاد واستنفارهم اليه ، والانفاق في سبيل الله . وينوه بفضل منزلة المجاهدين على القاعدين ، ويدعو الى بذل النفوس والاموال لا علاء كلمة الله . وجاء آخر الكتاب « وقد رأى امير المؤمنين ـ لما يحبه من التقرب الى الله بجهاد عدوه .. ان ينهض وصيفا مولى امير المؤمنين في هذا العام الى بلاد اعداء الله الكفرة الروم ، غازيا لما عرف الله امير المؤمنين من طاعته ومناصحته ومحمود نقيبته وخلوص نيته ، في كل ما قرّ به من الله ومن خليفته . وقد رأى امير المؤمنين ـ والله ولي معونته وتوفيقه ـ ان تكون موافاة وصيف فيمن انهض امير المؤمنين معه من مواليه وجنوده وشاكريته ثغر ملطية .. فأعلم ذلك واكتب الى عمالك على نواحي عملك بنسخة من كتاب امير المؤمنين هذا ، ومُرهم بقراءته على من قبلهم من المسلمين وترغيبهم في الجهاد ، وحثهم عليه واستنفارهم اليه ، وتعريفهم ما جعل الله من الثواب لأهله ، ليعمل ذووا النيات والحسبة والرغبة في الجهاد على حسب ذلك في

النهوض الى عدوهم ، والخفوف الى معاونة اخوانهم والذيادة عن دينهم والرمي من وراء حوزتهم ، بموافاة عسكر وصيف مولى امير المؤمنين ملطية » (٤) ·

وكان غرض الخليفة الرئيس من اخراج هذه الحملة الكبيرة للغزو ابعاد القائد وصيف عن التدخل في شؤون الخلافة ، واضعاف نفوذ القواد الاتراك بنفس الوقت · ومع هذا بقي المنتصر بالله يتوجس خيفة من هؤلاء القواد ، ويرهب جانبهم لسيطرتهم على الجيش ويخاف ان يتآمروا عليه كما تآمروا على ابيه من قبل · ورغم تكتمه في العمل على تفريق كلمتهم ومناوراته في ذلك فقد ظهر منه ما يدل على انه ينوي بهم شرا ، ويحاول ان يتنصل من الاشتراك في المؤامرة على ابيه ليحملهم كامل المسؤولية · وقد روى عنه انه قال (٥) :

لو يعلم الناس الذي نالني
فليس لي عندهم عذر
كان الي الأمر في ظاهر
وليس لي في باطن امر

كما يحتمل قول هذا شكواه من تسلطهم بحيث لم يبق له من الخلافة سوى مظاهرها ·

ان موقف المنتصر بالله هذا من الاتراك دفعهم الى الاسراع في العمل على التخلص منه قبل ان يتمكن هو منهم · لأنهم لما علموا

(٤) نص الكتاب في الطبري ٩/٢٤١-٢٤٣ ·
(٥) فوات الوفيات ٢/٣٧٣ ·

بسوء نيته فيهم وانه يعمل على التدبير عليهم . بادروه بذلك(٦) . الا ان هيبة المنتصر بالله وشجاعته ويقظته وشدة تحرزه حالت دون أن يتمكنوا من اغتياله (٧) . ولذلك عمدوا الى التخلص منه بالسم . وسبق ان ذكرنا ذلك في الموضوع الخاص بوفاته . وبذلك انتصر القواد الاتراك على المنتصر بالله .

٣ ـ المستعين بالله والاتراك :

انقسم القواد الاتراك اثر مبايعة المستعين بالله الى كتلتين متناحرتين تتنازعان على السلطة وحيازة الاموال . وكان لهذا الانقسام سببان مهمان ، اولهما استيلاء القائد اوتامش ، وهو ابن اخت القائد بغا الكبير ، على السلطة واحتوائه الاموال دون بقية القواد . فقد استوزره المستعين بالله عندما تولى الخلافة واطلق يده ويد شاهك الخادم في بيوت الاموال . وفعل الخليفة مثل ذلك مع امه فتيان فلم يمنعها من شيء تريده . فكانت الاموال التي ترد الى بيت المال يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة ، وما يفضل عن ذلك يترك لأوتامش ايضا لينفقه على العباس بن المستعين بالله الذي كان في حجره . فاحتوى اوتامش بذلك على كثير من الاموال والضياع مما اثار حفيظة عدد من كبار قواد الاتراك وبخاصة وصيف وبغا الصغير . فأخذا يعملان على الايقاع به . واستطاعا ان يثيرا عليه قسما كبيراً من الجند فهاجموه وهو في الجوسق مع الخليفة ، وذلك في منتصف ربيع الآخر سنة ٢٤٩هـ . فقبضوا عليه وقتلوه ، وقتلوا معه كاتبه شجاع بن القاسم ، وانتهبوا دور

---

(٦) التنبيه والاشراف / ٣١٤ .

(٧) تاريخ الخلفاء / ٣٥٧ .

اوتامش واخذوا منها اموالا جمة . « ويقال ان ذلك جرى بموافقة المستعين بالله (٨) » .

وفي احدى قصائد البحتري في مدح المستعين بالله يشير الشاعر الى قتل اوتامش وكاتبه لتماديهما في الاستيلاء على الاموال العامة ، وافسادهما الحكم ، وظلم الرعية واضطهادهم . كما يشير الى نقمة قسم من الأتراك عليهما ، منها قوله (٩) :

لقد نصر الامام على الاعادي
واضحى الملك موطود العماد

وعرفت الليالي في (شجاع)
و (تامش) كيف عاقبة الفساد

تمادى منهما غي فلجا
وقد تردى اللجاجة والتمادي

وضلا في معاندة الموالي
فما اغتبطا هناك بالعناد

برار في اقتطاع المال جم
وسعي في فساد الملك باد

بهضم للخلافة وانتقاص
وظلم للرعية واضطهاد

أمير المؤمنين اسلم فقدما
نفيت الغي عنا بالرشاد

---

(٨) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٦ .
(٩) كامل القصيدة في ديوان البحتري ١/٥٢٤ــ٥٢٦ .

تدارك عدلك الدنيا فقرت
وعم نداك آفاق البلاد

اما السبب الثاني لانقسام الأتراك فكان مقتل باغر التركي الذي كان على رأس الزمرة التي اغتالت المتوكل على الله ، فزيد في ارزاقه ، واقطع عدداً من الضياع . وكان مما اقطع بعض القرى بسواد الكوفة . فوثب رجل من اهل تلك الناحية بوكيل باغر ، فحبسه هذا وقيده . فشكى الرجل امره الى القائد بغا الشرابي ، وكان باغر احد قواده ، فانتصف له وكف يد باغر ووكيله عنه ، وذلك بتأثير كاتبه دليل بن يعقوب النصراني . فغضب باغر وبيت لبغا ودليل شراً . فجمع اليه الفئة التي كانت شاركته في قتل المتوكل على الله ، وغيرهم من مؤيديه واصحابه وناظرهم وتأكد من تأييدهم له ، وقال لهم « الزموا الدار حتى نقتل المستعين ووصيفا وبغا ، ونجيء بعلي بن المعتصم بالله او ابن الواثق بالله . فنقعده خليفة ، حتى يكون الامر لنا كما هو لهذين اللذين قد استوليا على امر الدنيا ، بقينا نحن في غير شيء ، فأجابوه الى ذلك » (١٠) . وانتهى الأمر الى المستعين بالله فبعث الى وصيف وبغا وقال لهما « ما طلبت اليكما ان تجعلاني خليفة ، وانما جعلتماني واصحابكما ، ثم تريدان ان تقتلاني» (١١) . فحلفا له انهما ما علما بذلك . واتفق رأيهم على اخذ باغر ورجلين من اصحابه من الأتراك وحبسهم . فاحضروا باغرا وحبسوه . فلما بلغ الخبر

---

(١٠) ٩/٧٧٩ ـ ٢٨٠ ، والكامل ١٣٨/٧ .
(١١) الطبري ٢٨٠/٩ والكامل ١٣٩/٧ .

مؤيديه واتباعه وثبوا على اصطبل الخليفة فانتهبوه وركبوا ما فيه من الخيل والدواب ، وحضروا الى الجوسق بالسلاح لانقاذه • الا ان اتباع وصيف وبغا قتلوا باغرا • فثار اتباعه وحاصروا المستعين بالله ووصيفا وبغا في دار الخلافة ، فخاف الخليفة والقواد المناصرين له على انفسهم ، فركبوا حراقة خفيفة اعدها لهم ميسان ملاح الخليفة فصاروا الى بغداد • وصحب الخليفة اضافة الى القائدين المذكورين ، بعض رجاله وافراد حاشيته ، منهم شاهك الخادم ، واحمد بن صالح بن شيرزاد كاتب وصيف ، واحمد بن اسرائيل • فوصلوها في يوم الأربعاء لأربعة او خمسة خلت من المحرم سنة ٢٥١هـ (١٢) • فنزل الخليفة في دار محمد بن عبدالله ابن طاهر • ثم التحق به بعض القواد الأتراك ، وجلة الكتاب والعمال وبني هاشم •

وقال الشاعر ابو علي اليماني في شخوص المستعين بالله الى بغداد (١٣) :

مازال الا لزوال ملكه   وحتفه من بعده وهلكه

وكأنه تنبأ بمصير المستعين بالله • فقد خسر الخلافة وخسر حياته بانتقاله من عاصمة ملكه سامرا ولجوئه الى بغداد •

اضطرب الأتراك الذين بقوا في سامرا ، فمنعوا الناس من الانحدار الى بغداد • وذكر انهم اخذوا ملاحا اكرى سفينته فضربوه مائتي سوط وصلبوه على دقل السفينة • فامتنع اصحاب

---

(١٢) الطبري ٢٨٣/٩ ، وتاريخ بغداد ٨٤/٥ ، والكامل ١٤١/٧ •
(١٣) الطبري ٢٨٢/٩ •

السفن من الانحدار ، الا سرأ (١٤) • ثم اتفقوا على ضرورة اعادة الخليفة الى سامرا ، وقرروا ان يبعثوا اليه وفدا منهم يسألونه العودة الى دار ملكه • فصار اليه عدة من كبار قادتهم منهم كلباتكين وبايكباك • ويقال انهم اخذوا اليه البرد والقضيب وبعض الخزائن ومائتي الف دينار (١٥) • وعندما قابلوه سألوه ان يصفح عما بدر منهم ومن اتباعهم من خلاف ، فأجابوهم بما يكرهون . فقال لهم « انتم اهل بغي وفساد واستغلال للنعم الم ترفعوا الي في اولادكم فالحقتهم بكم •• وفي بناتكم فامرت بتصييرهن في عداد المتزوجات •• وادررت لكم الارزاق حتى كان لكم آنية الذهب والفضة •• كل ذلك ارادة لصلاحكم ورضاكم ، وانتم تزدادون بغياً وفساداً »(١٦) • فاعترفوا بخطأهم وسألوه العفو ، فعفا عنهم • فقال له القائد بايكباك « فان كنت رضيت عنا وصفحت فقم فاركب معنا الى سامرا ، فان الاتراك ينتظرونك » (١٧) فاحتج محمد بن عبدالله على طريقة مجادلة الخليفة فاوعز لأحد اتباعه فلكز بايكباك • فضحك المستعين بالله قائلا ان هؤلاء عجم لا معرفة لهم باصول الكلام • وامر بايكباك وجماعته ان يصيروا الى سامرا ، واكد لهم ان ارزاقهم ستستمر ، وانه سينظر في امر مقامه ببغداد او عودته الى سامرا •

عاد القواد الاتراك الى سامرا وقد يئسوا من عودة الخليفة اليها ، فاجمعوا على خلعه ومبايعة المعتز بالله بن المتوكل على الله • وقد سبق ان اوضحنا ذلك في سيرة المعتز بالله •

---

(١٤) الطبري ٩/٢٨٢ ، وتجارب الامم ٦/٥٧٧ •
(١٥) مروج الذهب ٤/١٦٢ •
(١٦) الطبري ٩/٢٨٣ •
(١٧) الطبري ٩/٢٨٤ ، والكامل ٧/١٤٢ •

٤ ـ الحرب بين جيش المستعين بالله وجيش المعتز بالله :

ان مبايعة المعتز بالله بالخلافة في سامرا مع وجود الخليفة الأصلي في بغداد اوجد وضعا غريبا في الخلافة العباسية ادى الى نشوب الحرب بين انصار الخليفتين ، اي بين جيش المستعين بالله وجيش المعتز بالله • فعندما بلغ امير بغداد محمد بن عبدالله ان الأتراك في سامرا نقضوا بيعة المستعين بالله وبايعوا المعتز بالله ، أمر بقطع الميرة عن اهل سامرا ، فمنع السفن او اي شيء من الميرة من ان ينحدر من الموصل اليها ، او ان يصعد نحوها شيء من ذلك من بغداد •

وامره المستعين بالله بتحصين بغداد ، فنشط لاحاطة المدينة بجانبيها بسور • وكان السور في الجانب الشرقي يبدأ من باب الشماسية على ضفة دجلة من فوق قصر المهدي ، وهو على هيئة ربع دائرة تبدأ من باب بردان وتنتهي عند باب خراسان • فكان السور يحيط بمحلتي الرصافة والشماسية ، ثم ينعطف بهيئة ربع دائرة ليشمل محلة المخرم حتى يصل الى دجلة ثانية عند باب سوق الثلاثاء • اما في الجانب الغربي فكان السور يبدأ من فوق باب قطيعة زبيدة مشتملا على الفرضة العليا حتى يمر بباب قطربل متبعاً خندق طاهر حتى باب الأنبار ، وهو بهيئة نصف دائرة كبيرة يشتمل على مدينة المنصور ، وقسم من الكرخ حتى يصل الى دجلة خلف باب البصرة تحت الموضع الذي يصب فيه نهر الصراة • ورتب على كل باب من ابواب السور قائداً على رأس ثلة من الجند ، وحفر الخنادق حول السورين كما يدوران في الجانبين • واقام مظلات يأوي اليها الفرسان في الحر والمطر • وبلغت النفقة فيما

ذكر على السورين وحفر الخنادق واقامة المظلات ثلاثمائة وثلاثين الف دينار (١٨) ٠

وجعل على باب الشماسية من الخارج بابا سميكا معلقا قد البس بصفائح الحديد وشد بالحبال ، فاذا ما وافى احد ذلك الباب ارسل عليه الباب المعلق فيسقط عليه ويقتله ٠ كما نصب على جميع ابواب السور العرادات والمجانيق ، وعليها ما تحتاجه من الرجال (١٩) ٠ ومن هذا يظهر ان المستعين بالله اتخذ موقف المدافع فيما اذا هاجمته جيوش سامرا ٠

وقبل ان تبدأ الحرب جرت بين المعتز بالله ومحمد بن عبدالله مكاتبات ، دعا فيها المعتز بالله محمداً الى خلع المستعين بالله ومبايعته ، وذكره بعهد ابيه المتوكل على الله له بالخلافة بعد اخيه المنتصر بالله ٠ ودعا محمد بدوره المعتز بالله الى الأوبة الى طاعة المستعين بالله ٠ واحتج كل منهما على صاحبه فيما يدعوه اليه بما يراه حجة له تسنده ضد خصمه ٠ كما كتب المستعين بالله الى عمال الخراج بكل بلدة ان يحملوا الأموال اليه في بغداد والا يحملوا شيئاً منها الى سامرا ٠ وامر بالكتابة الى القواد والجند الاتراك بسامرا يأمرهم بنقض بيعة المعتز بالله ، والوفاء ببيعتهم له ، وينهاهم عن معصيته ونكث بيعته »(٢٠) ٠

بداية الحرب وحصار بغداد :

عقد المعتز بالله لأخيه ابي احمد الموفق لسبع بقين من المحرم سنة ٢٥١هـ على حرب المستعين بالله ، وضم اليه جيشاً بقيادة

(١٨) الطبري ٩/٢٨٧ ، وتجارب الامم ٦/٥٨٠ ٠

(١٩) الطبري ٩/٢٨٨ ، وتجارب الامم ٦/٥٨٠ ٠

(٢٠) الطبري ٩/٢٨٨ ـ ٢٨٩ ، وتجارب الامم ٦/٥٨١ ٠

كلباتكين · فتجمع في القاطول خمسة الاف من الأتراك والفراغنة ، والفان من المغاربة ، فسار الجيش حتى وافى عكيرا(٢١) ·

ولما بلغ المستعين بالله تحرك جيش المعتز بالله نحو بغداد ولى القائد الحسين بن اسماعيل مهمة الدفاع عن باب الشماسية باعتباره الباب الرئيس للمدينة · وقبل ان تبدأ المعارك بين الجانبين امر محمد بن عبدالله بحشد جيش بغداد في القفص(٢٢)، ليرهب الجيش المهاجم ، وركب معه وصيف وبغا في الدروع ، واستصحب معه الفقهاء والقضاة ، وبعث اليهم يدعوهم الى الرجوع عما هم عليه من الطغيان والعصيان وانه يبذل لهم الأمان ، وان يكون المعتز بالله ولي العهد بعد المستعين بالله فلم يجيبوا(٢٣) ·

اهم المعارك :

جرت بين الجانبين مناوشات ومعارك عديدة كانت الحرب فيها سجالا بينهما لم تسفر عن انتصار حاسم لأحدهما · فكانت حرب استنزاف للطرفين · حتى اضطر في الأخير جيش بغداد على الاستسلام بسبب ما قاسته مدينة بغداد من جراء حصارها · وسنقتصر على ذكر اهم المعارك من حيث نتائجها وكثرة الجيوش المشتركة فيها ·

---

(٢١) الطبري ٩/٢٩٠ ، وتجارب الامم ٦/٥٨٢ ، والكامل ٧/١٤٥ . وفيه كان جيش الاتراك والفراغنة خمسين الفا ·

(٢٢) القفص : قرية بين بغداد وعكبرا وهي الى بغداد اقرب ، وكانت من مواطن اللهو · معجم البلدان ٤/٣٨٢ ·

(٢٣) االطبري ٩/٢٩٢ ، والكامل ٧/١٤٧ ·

معركة الشماسية :

وافى قسم من جيش المعتز بالله الشماسية ليلة الأحد لسبع خلون من صفر ، فرماهم حماة الباب بالسهام والمجانيق والعرادات ، فوقع كثير من القتلى والجرحى بين الجانبين • ولما رأى جند سامرا تكاثر جيش المستعين بالله عليهم انسحبوا الى معسكرهم(٢٤) •

معركة النهروان :

اتصل بابن طاهر ان جمعا من جند المعتز بالله صاروا الى ناحية النهروان ، فوجه اليهم ما ينوف على الف فارس وراجل وعليهم قائدان ، فهاجمهم جيش المعتز بالله وهزمهم ، وانصرف من نجا منهم الى بغداد • وسيطر جيش المعتز بالله على طريق بغداد ـ خراسان ، وهو الطريق الذي يربط بغداد بالولايات الشرقية(٢٥) •

معركة قطربل :

وجه المعتز بالله جيشا آخر من الاتراك والفراغنة والمغاربة الى بغداد ، وعليه القائدان الدرغمان الفرغاني وريابة المغربي • فاجتاز الجيش قطربل (٢٦) قاصداً بغداد من الجانب الغربي ، وعسكر عند قطيعة ام جعفر ، وذلك في يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر • فوجه ابن طاهر ثلاثة من كبار قواده هم الشاه بن ميكال ، وبندار ، وخالد بن عمران ، ومعهم اصحاب من

---

(٢٤) الطبري ٩/٢٩١ ـ ٢٩٢ والكامل ٧/١٤٥ ـ ١٤٦ •

(٢٥) الطبري ٩/٢٩٤ ، والكامل ٧/١٤٧ •

(٢٦) هي قرية شمالي بغداد ، بينها وبين عكبرا ـ معجم البلدان ٤/٣٧١ •

الفرسان والرجالة • فاشتبك الجانبان في اليوم التالي بمعركة عنيفة انتصر فيها جيش المستعين بالله وقتل وغرق كثير من جنود جيش المعتز بالله وأسر آخرون منهم ، وعبر قسم من المنهزمين الى معسكر ابي احمد في الجانب الشرقي • وذكر انهم كانوا اربعة الاف فقتل منهم الفان (٢٧) • فاعتبر ذلك انتصارا للمستعين بالله ، وكتب به بيان قرىء على اهل بغداد في جامعها ، وهو بمثابة بيان حربي مسهب يشير الى خروج جماعة ضالة نكثت بيعة الخليفة وناصرت غيره ، وان هؤلاء الناكثين جمعوا جموعهم من الاتراك والفراغنة وساروا نحو مدينة السلام معلنين البغي ، فهزموا عند باب الشماسية ، الا انهم استنهضوا جيشاً آخر من سامرا • ولم تزل الحرب بين الموالين لأمير المؤمنين المستعين بالله والفرقة الضالة حتى انزل الله بهم البوار واحل عليهم النقمة فولوا منهزمين مغلولين (٢٨) •

ثم استأنف جيش المعتز بالله بعد فشله في معركة قطربل ، الهجوم على باب الشماسية وباب البردان ، فرد على اعقابه بعد ان خسر عددا غير قليل من القتلى والجرحى ، فهاج الغوغاء في سامرا اثر هذه الهزائم ، واعتبروها ضعفا في امر المعتز بالله ، فانتهبوا سوق اصحاب الحلي والسيوف والصيارفة واخذوا جميع ما وجدوا فيها من متاع واموال • ويظهر ان اهل سامرا ملوا الحرب فاخذوا يعلنون احتجاجهم على استمرارها ، ولاسيما عند وصول الاسرى ورؤوس القتلى من بغداد • مما اضطر المعتز بالله

---

(٢٧) الطبري ٩/٢٩٥ •

(٢٨) كامل البيان في الطبري ٩/٢٩٦ ـ ٣٠٣ •

ان يأمر بتغطية وجوه الاسرى ، وان يمنح كلا منهم دينارين ، وان تدفن الرؤوس(٢٩) ٠

ولما طالت الحرب دون نتيجة واظهر اهل سامرا تذمرهم من استمرارها كتب المعتز بالله الى اخيه الموفق يلومه على تقصيره في قتال اهل بغداد ٠ فكتب اليه الموفق ما سبق ان قاله الشاعر علي بن امية في حرب الأمين والمأمون (٣٠) :

لأمر المنايا علينا طريق   وللدهر فيه اتساع وضيق

فايامنا عبر للانام   فمنها البكور ومنها الطروق

الى ان يقول :

فبالله نبلغ ما نرتجيه   وبالله ندفع ما لانطيق

معركة الأنبار :

وقعت بالقرب من الانبار معركتان مهمتان كان النصر فيهما لجيش المعتز بالله ٠ فقد وجه محمد بن عبدالله بن طاهر الى الانبار جيشا عليه القائد نجوبة بن قيس (٣١) ، ليحول دون وصول جيش سامرا من جهتها ٠ فبثق الماء من الفرات الى خندق المدينة وقطع القناطر التي توصل اليها ٠ وسبق لأبن طاهر ان أمر بكسر القناطر وبثق المياه بطسوج الأنبار وما قرب منه من طسوج

(٢٩) الطبري ٩/٣١٣ ، والكامل ٧/١٥١ ٠
(٣٠) تتمة الابيات في الطبري ٩/٣١٦ ، والكامل ٧/١٥٢-١٥٣ ٠
(٣١) في الاصل بحونة ، الا انه جاء في الصحيفتين ٢٨٧ و٢٨٩ من نفس الكتاب ، وفي الكامل ١٤٣ و١٥٣ ، نجوبة ٠

يادوريا ليقطع الطريق على جيش سامرا اذا ما ورد الأنبار(٣٢) .
ثم استمد القائد نجوبة قوة اخرى ليعزز جيشه ، فندب اليه ابن طاهر قوة اخرى عليها القائد رشيد بن كاوس ، اخو الأفشين قائد جيش المعتصم بالله .

وكان المعتز بالله قد ارسل من سامرا جيشا على رأسه ابو نصر محمد بن بغا الكبير للاستيلاء على الأنبار ، فباغت ابو نصر جيش ابن كاوس فهاجمه وهزمه . فلما بلغ نجوبة مالقيه الجيش الذي ارسل مدداً له ، عبر النهر بقسم من جيشه وقطع جسر الأنبار ، فوصل بغداد واعلم ابن طاهر بمصير جيش ابن كاوس . فوجه ابن طاهر القائد الحسين بن اسماعيل مع عدد من القواد الآخرين الى الانبار لايقاف زحف جيش سامرا .

وعندما هزم جيش ابن كاوس وتنحى نجوبة عن الانبار ، ورأى اهلها تقدم جيش المعتزبالله نحو المدينة ، طلبوا الأمان وسمحوا للجيش المذكور بدخولها . وكانت قد وصلت الى الانبار في هذه المدة عدد من السفن من الرقة عليها دقيق وزيت وابل ودواب اخرى ، فاستولى جند المعتز بالله عليها ، ووجهوا ما بها وبالاسرى الى سامرا . ويظهر ان الحسين بن اسماعيل الذي ارسل لانقاذ مدينة الأنبار كانت تنقصه الكفاية العسكرية ، فلم يحسن اختيار الموقع الذي نزله بجيشه . بحيث انه عندما اشتبك بجيش سامرا هزم وجيشه هزيمة شنيعة ، واحتوى جند سامرا جميع مافي عسكره من المضارب والسلاح والأثاث وصناديق الأموال . وعاد الحسين مع من هزم معه من القادة والجنود الى الجانب الغربي من

---

(٣٢) الطبري ٩/ ٣٨٩ -

بغداد . ولما اتصل خبر هذه الهزيمة بابن طاهر منع المنهزمين من العبور الى الجانب الشرقي من المدينة ، ونودي فيمن دخلها من جند الحسين ان يلتحقوا بمعسكره . وقد وبخ ابن طاهر الحسين وامره بجمع فلول جيشه والعودة الى الأنبار ليحارب عنها ثانية .

عاد الحسين بن اسماعيل الى الأنبار فنزل باصحابه موقعا يسمى « دمما » وهو قرية كبيرة على نهر الفرات عند الفلوجة شرقي الفرات(٣٣) . ثم عبر جدولا صغيرا رغم مقاومة جيش المعتز بالله . على ان هذا الجيش قام بهجوم عبر فيه نهر الفرات ، وكان الحسين قد تهاون بامر عبوره لعدم تقديره قوته ، فتكاثر عليه وهزمه للمرة الثانية ، بعد ان قتل واسر من جيشه اعدادا كثيرة ، مما اضطره على العودة الى بغداد بفلول جيشه المهزوم (٣٤) .

الوضع الداخلي في بغداد :

كان الأمراء من بني هاشم الموجودون ببغداد قد تذمروا من معاملة محمد بن عبدالله لهم ، واهماله شؤونهم وتأخيره ارزاقهم . مما دفع بعضهم الى ان يلتحق بالمعتز بالله مع من كان قد التحق به من الكتاب والقواد ، منهم علي ومحمد ابنا الواثق بالله ، ومحمد ابن هارون بن عيسى بن جعفر ومحمد بن سليمان من ولد عبد الصمد بن علي(٣٥) . اما الذين بقوا ببغداد فقد صاحوا بالمستعين بالله ، وتناولوا ابن طاهر بالشتم القبيح وقالوا « قد منعنا

(٣٣) معجم البلدان ٢/٤٧١ .
(٣٤) راجع عن تفصيلات معركتي الانبار : الطبري ٩/٣٢١-٣٢٦ .
(٣٥) الطبري ٩/٣٢٦ .

ارزاقنا .. فان دفعت الينا ارزاقنا والا قصدنا الابواب ففتحناها وادخلنا الاتراك فليس يخالفنا احد من اهل بغداد » (٣٦) . وقد عجز ابن طاهر عن ترضيتهم ، مما زاد في حنقهم عليه وعلى المستعين بالله .

كما ان حصار المدينة اشتد على سكانها فاخذوا يتذمرون ويشكون القحط وغلاء الأسعار « وصاحوا في اول ذي القعدة يوم الجمعة : الجوع ومضوا الى الجزيرة التي هي تلقاء دار ابن طاهر ليسمعوه صراخهم واحتجاجهم » (٣٧) . واجتمع في اواخر الشهر المذكور « قوم من رجاله الجند وكثير من العامة ، فطلب الجند ارزاقهم ، وشكت العامة سوء الحال التي هم عليها من الضيق وغلاء السعر وشدة الحصار » (٣٨) .

وحاول ابو احمد قائد جيوش المعتز بالله ان يقتحم سور بغداد . فبعث في يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان حملة لمهاجمته من ابواب الشماسية وبغواريا والأنبار . وقد استطاع قسم من رجال الحملة الذين هاجموا باب بغواريا ان ينقبوا السور في موضعين تدفق منهما الجند الى داخل المدينة . ثما ضرب قسم آخر من رجال الحملة باب الأنبار بالنار فاحرقوه واحرقوا ما كان عليه من المجانيق والعرادات ، ودخلو المدينة ايضا . اما باب الشماسية فقد استعصى على الجند الذين وجهوا اليه . وشعر ابن طاهر بخطر هذا الهجوم فركب على رأس قواده . واستثار الجند والناس . ووجه القائدين وصيفا وبغا الى باب

(٣٦) نفس المصدر / ٣٤٧ .
(٣٧) الطبري ٩/ ٣٣٥ .
(٣٨) نفس المصدر / ٣٣٦ .

بغواريا . والقائدين الشاه بن ميكال والحسين بن اسماعيل الى باب الأنبار فالتقوا بمن دخل المدينة من جيش المعتز بالله وتكاثروا عليهم فطردوهم وردوهم على اعقابهم بعد ان قتلوا وجرحوا واسروا اعداداً منهم (٣٩) .

ويظهر ان محمد بن عبدالله اخذ يشعر بضعف مقاومة جيش المستعين بالله وفتور حماسه للقتال . فحاول ان يثير عزائم قواده ، فجمع المكلفين منهم بابواب بغداد وغيرهم وشاورهم في امر استمرار الحرب بعدما اصابهم من وهن وضعف ، فابدوا استعدادهم لبذل النفس والدم والمال . فادخلهم على المستعين بالله . وعلمه بما ناظرهم به وما ردوا عليه من الجواب . فقال لهم « والله يا معشر القواد لئن قاتلت عن نفسي وسلطاني ما اقاتل الا عن دولتكم وعامتكم ، وأن يرد الله اليكم اموركم قبل مجيء الاتراك واشباههم ، فقد يجب عليكم المناصحة والجهد في قتال هؤلاء الفسقة . فردوا احسن مرد ، وجزاهم الخير وامرهم بالانصراف » (٤٠) .

الاستعانة بالعيارين :

كان محمد بن عبدالله أمر بأن يستعان بالعيارين في الحرب ، وان يجعل عليهم عريف ، وان تعمل لهم تروس من البواري المقيرة . ومخال تملأ بالحجارة . فكان الواحد منهم يقف خلف البارية فلا يرى منها . وقد نصب عليهم عريف يقال له ينتويه (٤١) .

---

(٣٩) راجع عن معركتي ابواب بغداد : الطبري ٩/٣٣٠-٣٣١ .
(٤٠) الطبري ٩/٣٣٤ .
(٤١) الطبري ٩/٢٨٨ .

ويظهر ان الحاجة اشتدت اليهم فامر محمد بن عبدالله بتسليحهم واثبت اسماءهم • ففرق ينتويه اتباعه على ابواب بغداد ليكونوا عونا للجيش المدافع عنها (٤٢) • ويقول الطبري انهم كانوا أثبت من العامة في الحرب (٤٣) • وخرج ينتويه واصحابه من العيارين في احد الايام من باب قطربل واشتبكوا بالمهاجمين من جيش المعتز بالله واستطاعوا ان يردوهم الى معسكرهم مثخنين بالجراح • فأمر له محمد بن عبدالله بخمسمائة درهم ، الا انه امره الا يخرج بجماعته الى الحرب الا في يوم قتال (٤٤) •

محاولة فك الحصار عن بغداد :

رغم فشل جيش المعتز بالله في اقتحام اسوار مدينة بغداد الا ان حصاره لها كان محكما بحيث اضطر محمد بن عبدالله ان يقوم بهجوم كبير على محاصريه ليجليهم ويفك حصار المدينة • فأمر في اوائل ذي القعدة بفتح الابواب كلها في الجانبين الشرقي والغربي ، ونصب المجانيق والعرادات عليها وعلى السفن في نهر دجلة ، وخرج على رأس الجند ومعه كبار القواد • فتزاحف الفريقان واشتبكا في معركة عنيفة هزم فيها جيش المعتز بالله وهرب من ساحة القتال حتى صار الى معسكره • فتعقبه جند المستعين بالله وانتهبوا قسما من المعسكر ، وضربوا زورقا لهم يقال له (الحديدي) كان شديداً على اهل بغداد برمي النار • الا ان ابا احمد الموفق استطاع ان يرد جنده الى استئناف القتال والقيام

---

(٤٢) نفس المصدر / ٣٠٩ •
(٤٣) نفس المصدر / ٢٩٣ •
(٤٤) نفس المصدر / ٣١٠ •

بهجوم معاكس . اذ قال لهم انهم ان لم يكروا لم تبق لهم بقية(٤٥) . فعادوا وصمدوا في اماكنهم . وصادف ان جمعا من جيش المستعين بالله رجعوا عن الاتراك المنهزمين مما اوهم جماعتهم ان جنود المعتز بالله قد رجعوا عليهم ، فانهزموا نحو بغداد متزاحمين . وهكذا انصرف الفريقان عن بعضهما .

وقد سر ابن طاهر مما حققه جنده من الانتصار في المعركة الأخيرة على بعض ابواب بغداد ، وجعل يطوق كل من جاءه برأس قتيل ، حتى بدت الكراهية في وجوه اتباع بغا ووصيف من الأتراك لمقتل اصحابهم جنود المعتز بالله .

المستعين بالله يخلع نفسه ويبايع المعتز بالله :

يمكن اعتبار معركة فك الحصار عن بغداد وفشلها نهاية للحرب بين جيش المعتز بالله وجيش المستعين بالله . وقد ذكر ان ابن طاهر كان قد كاتب المعتز بالله قبل ذلك في الصلح(٤٦) . اذ كان جادا في نصرة المستعين بالله حتى استطاع عبيدالله بن يحيى ابن خاقان واحمد بن اسرائيل والحسن بن مخلد ان يصدقوه عما كان عليه . اذ اقنعوه بان المستعين بالله يعمل للتخلص منه (٤٧) . وكان استياء اهل بغداد من استمرار الحرب ، وما قاسوه من تأثير الحصار المفروض عليهم ، مما شجعه على ان يبعث وفدا الى عسكر ابي احمد لمناظرته في امر الصلح . كما انه خرج بنفسه لمقابلته . وكان قد ضرب لابن طاهر بباب الشماسية مضرب كبير ، وجاء ابو احمد في زلال ودخل المضرب . فتناظرا طويلا ثم خرجا . وانصرف

---

(٤٥) نفس المصدر / ٣٣٤ .
(٤٦) الطبري ٩/٣٣٥ .
(٤٧) نفس المصدر / ٣٤٢ .

ابن طاهر الى المستعين بالله واخبره بما دار بينه وبين ابي احمد « فذكر انه فارقه على ان يعطى خمسين الف دينار ، ويقطع غلة ثلاثين الف دينار في السنة ٠ وان يكون مقامه بغداد حتى يجتمع له مال يعطون الجند ، وعلى ان يولى بغا مكة والمدينة والحجاز ، ووصيف الجبل وما والاه ، ويكون ثلث ما يجبى من الخراج لمحمد ابن عبدالله وجند بغداد ، والثلثان للموالي والأتراك » (٤٨) ٠

كانت هذه شروط المستعين بالله ، وقد امتنع اول الأمر من ان يخلع نفسه من الخلافة ، « الا انه عندما ناظره ابن طاهر ووصيف وبغا واغلظ لهم كاشفوه بنواياهم ٠ فقال له وصيف : انت امرتنا بقتل باغر فصرنا الى ما نحن فيه ، وانت حرضتنا لقتل اوتامش ، وقلت ان محمداً ليس بناصح ، ومازالوا يفزعونه ويحتالون له ٠ فقال له محمد بن عبدالله : وقد قلت لي ان امرنا لا يصلح الا باستراحتنا من هذين الاثنين ٠ فلما اجتمعت كلمتهم اذعن لهم بالخلع وكتب بما اشترط لنفسه » (٤٩) ٠ وقد كشفت هذه المناظرة عن سوء تدبير المستعين بالله وفساد نيته تجاه رجاله ، مما ازال الثقة بينه وبينهم وجعلهم يحجمون عن الاستمرار بالحرب الى جانبه ٠

ويظهر ان مفاوضات الصلح قد اثمرت ، اذ وجه الموفق خمس سفائن من دقيق وحنطة وشعير وتين الى ابن طاهر ٠ فوجه هذا قواده اليه فبايعوا للمعتز بالله ٠ كما ان رشيد بن كاوس احد كبار قواد المستعين بالله كان قد قابل الموفق ثم عاد الى بغداد يقول

(٤٨) نفس المصدر / ٣٤٣ ٠

(٤٩) نفس المصدر ٣٤٤ ـ ٣٤٥ ٠

الناس « ان امير المؤمنين المعتز وابا احمد يقرآن عليكم السلام ويقولان من اطاعنا وصلناه ومن أبى فهو أعلم »(٥٠) ٠

ولما علم اهل بغداد بهذه الاتصالات ظنوا ان مفاوضات الصلح تجري باذن الخليفة المستعين بالله على ان يستمر هو في الخلافة ويكون المعتز بالله ولي عهده ٠ الا انهم اتضح لهم ان ذلك تم دون موافقة المستعين بالله فهاجوا على ابن طاهر وقصدوا داره وشتموه ، الا ان جنده ردوهم عن داره ٠

ان المستعين بالله بعد ان رأى ما صارت اليه الأمور ، وان اتباعه تخلوا عن نصرته اذعن لما ستسفر عنه نتيجة المفاوضات ٠ فلما كان يوم السبت لعشر بقين من ذي الحجة ادخل محمد بن عبدالله جميع القضاة والفقهاء على المستعين بالله واشهدهم عليه بانه صير امره اليه(٥١) ٠ واستمر محمد في مفاوضاته التي انتهت بالموافقة على ان يتنازل المستعين بالله عن الخلافة ويبايع للمعتز بالله بشرط ان يقطع المستعين بالله بعض الاراضي وينزل المدينة المنورة ويسمح له بالتنقل بينها وبين مكة ٠ فوافق أبو احمد الموفق على ذلك ، الا ان المستعين بالله طلب ان يكتب المعتز بالله موافقته عليها بخطه ٠ فاخرج ابن طاهر جماعة من قواده الى المعتز بالله في الشروط المذكورة ، فوقع ذلك بخطه وشهدوا على اقراره ٠ وخلع المعتز بالله على الرسل وقلدهم السيوف ، ووجه معهم جماعة من رجاله لأخذ البيعة له من المستعين بالله(٥٢) ٠

---

(٥٠) الكامل ٧/١٥٨ ٠
(٥١) الطبري ٩/٣٤٥ ٠
(٥٢) نفس المصدر ، ٣٤٤ـ٣٤٥ ، والكامل ٧/١٦٢ ٠

ويقال ان المستعين بالله طلب ان ينزل بواسط الى وقت مسيره الى مكة وان المعتز كتب له على نفسه شروطاً متى نقض شيئاً منها فالله ورسوله منه براء ، والناس في حل من بيعته (٥٣) . فخلع المستعين بالله نفسه من الخلافة في يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم سنة ٢٥٢هـ(٥٤) . وبذلك انتهت الحرب التى قامت بين المستعين بالله والمعتز بالله ، وغدا على رأس الدولة العربية رئيس واحد في سامرا . وتسلم محمد بن عبدالله منه البردة والقضيب والخاتم ، وهي شارات الخليفة ، ووجه بها الى المعتز بالله مع اخيه عبيدالله بن عبدالله ، وكتب معه كتابا ، قال فيه « اما بعد ، فالحمد لله متمم النعم برحمته والهادى الى شكره بفضله ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله .. كتابي الى امير المؤمنين وقد تمم الله له امره ، وتسلمت تراث رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن كان عنده ، وانفذته الى امير المؤمنين .. »(٥٥) .

وقال بعض الشعراء في خلع المستعين بالله (٥٦) :

خلع الخلافة أحمد بن محمد
وسيقتل التالي او يخلع

ويزول ملك بني ابيه ولا يرى
أحد تملك منهم يستمتع

ايها بني العباس ان سبيلكم
في قتل أعبدكم طريق مهيع

---

(٥٣) مروج الذهب ٤/١٦٣ .
(٥٤) الطبري ٩/٣٤٥ ، ومروج الذهب ٤/١٦٣ .
(٥٥) الطبري ٩/٣٤٨-٣٤٩ .

رقعتم دنياكم فتمزقت
بكم الحياة تمزقاً لا يرقع

وتمثل هذه الابيات على قصرها شعور الناس حينذاك ، ورأيهم في تصرفات الخلفاء من بني العباس ومصيرهم على ايدي مواليهم الأتراك المتسلطين عليهم ، الذي ينتهي بالخلع والقتل ·

٥ ـ المعتز بالله والأتراك :

كان الاتراك قد أستحوذوا منذ مقتل المتوكل على الله على شؤون الخلافة واستضعفوا الخلفاء · فكان الخليفة كالأسير في ايديهم يبقوه اذا شاءوا ، ويخلعوه اذا ما اختلفوا معه · ويورد ابن الطقطقي قصة للدلالة على تسلط القواد الأتراك على مقادير الخلفاء ، فيقول « لما جلس المعتز على سرير الخلافة قعد خواصه واحضروا المنجمين ، وقالوا لهم : انظروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة · وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : أنا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته · فقالوا : فكم تقول انه يعيش ويملك ؟ قال : مهما اراد الأتراك » (٥٧) ·

ومما يدل على ان المعتز بالله كان يرهب جانب الأتراك ، ما يقال ان امه لم تزل تحرضه على الفتك بقتلة ابيه من الأتراك ، فكان يعدها ويمنيها ، وهو يعلم انه لا يقوى عليهم لشدة شوكتهم وغلبتهم على الامور · فأخرجت اليه يوما قميص ابيه المتوكل على

---

(٥٥) الطبري ٩/٣٤٨ ـ ٣٤٩ ·
(٥٦) الطبري ٩/ ٣٥٠ . والكامل ٧/١٦٨ ·
(٥٧) الفخري / ٢٢٠ ·

الله وهو مخضب بدمائه ، وجعلت تبكي وتستثيره ، فقال لها : يا امي ارفعي القميص والا صار قميصين (٥٨) ٠

ويظهر ان عامة الناس وقسما من الجند لم يكونوا راضين عن تسلط الأتراك لاستغلالهم مراكزهم واضطهادهم الناس ٠ فقد وثب بعض الجند الاتراك بالوزير عيسى بن فرخان في اول رجب سنة ٢٥٢هـ ، فثار له المغاربة من الجند وغلبوا الاتراك على الجوسق واخرجوهم منه ، وقالوا لهم : كل يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر وتقتلون وزيراً(٥٩) ٠ فصار الجوسق وبيت المال بيد المغاربة ٠ فتجمع الأتراك ثانية واشتبكوا مع المغاربة ٠ وقد اعان الناس المغاربة كرها بالاتراك حتى قاربوا ان يتغلبوا عليهم ٠ الا ان قاضي القضاة جعفر بن عبدالواحد اصلح بين الطرفين ٠

القائدان وصيف وبغا ومقتلهما :

بقي القائدان وصيف وبغا الى جانب المستعين بالله الى ان خلع نفسه من الخلافة وبايع المعتز بالله ٠ فأمر المعتز بالله محمد بن عبدالله ان يسقط اسميهما مع اتباعهما من الديوان ببغداد ٠ الا ان وصيفا وجه اخته سعاد الى ابراهيم المؤيد ، وكان نشأ في حجرها . فكلم اخاه المعتز في الرضا عنه ٠ ويقول الطبري ان سعادا اخرجت من قصر وصيف الف الف دينار كانت مدفونة فيه ، فدفعتها الى المؤيد ، فكلم هذا اخاه الخليفة ٠ فرضي عن وصيف ،

---

(٥٨) الديارات / ١٦٩ ، وثمار القلوب / ٨٦ ٠

(٥٩) الطبري ٩/٣٦٩ ، والكامل ٧/١٧٣ ، وفيه : وتعملون وزيرا ٠

وكتب اليه بالرضا عنه (٦٠) • وكلم الموفق اخاه المعتز بالله بشأن بغا الصغير ، فرضي الخليفة عنه كذلك (٦١) • فعادا الى خدمته في سامرا ، رغم انه كان يرغب ببقائهما ببغداد بعيدين عنه • اذ اوعز الى ابن طاهر ان يحول دون خروجهما الى سامرا • الا انهما استطاعا الشخوص اليها ، وعادا الى مراتبهما (٦٢) •

وكان الاتراك والفراغنة والاشروسنية من الجند قد شغبوا في اوائل شوال سنة ٢٥٣هـ وطالبوا بارزاقهم المتأخرة لأربعة اشهر • فخرج اليهم من القواد وصيف وبغا الصغير وسيما الشرابي ليناظروهم في طلباتهم • فاغلظ وصيف في كلامه مع الجند فوثبوا به وقتلوه ، ونصبوا رأسه على محراك تنور (٦٣) • فتخلص بذلك المعتز بالله من احد كبار القواد المتغلبين •

لقد صفا الجو بعد مقتل وصيف للقائد بغا الصغير ، فأخذ المعتز يظهر اكرامه فجعل اليه ما كان الى وصيف من المهام والقيادات ، ثم خلع عليه والبسه التاج والوشاحين (٦٤) • ومن الجدير بالذكر ان نشير الى ان اكرام القواد الاتراك في المناسبات المختلفة لاسيما عند انتصارهم في الحروب ، في عهد المعتصم بالله وابنه الواثق بالله ، لم يكن لقوة نفوذهم وسلطانهم ، وانما كان تشجيعا لهم وتقديرا لجهودهم ودفعهم الى مزيد من الولاء للخليفة وخدمة الدولة العربية • اما في عهد بقية خلفاء سامرا فان الباعث على تكريمهم كان محاولة كسب رضاهم ودفعا لنقمتهم وغضبهم ، بعد ان قوى نفاذهم واشتد ازرهم كطبقة عسكرية حاكمة •

---

(٦٠) الطبري ٩/٣٥٥ •

(٦١) نفس المصدر

(٦٢) الطبري ٩/٣٥٦ ، والكامل ٧/١٦٩ •

(٦٣) الطبري ٩/٣٧٤ ، والكامل ٧/١٧٩ •

(٦٤) نفس المصدرين •

وحاول بغا ان يقنع المعتز بالله بالمسير الى بغداد لكي ينفرد بالهيمنة على شؤون الخلافة ، الا ان المعتز بالله كان يأبى ذلك . ولما زوج بغا بنته من صالح بن وصيف ، وقد اصبح هذا من كبار قادة الاتراك ، ازداد بغا قوة ونفوذاً ، فطغى وتفرد بالأمور (٦٥) . فاخذ المعتز بالله يرهب جانبه بحيث « كان لا ينام في غيبة بغا الا في ثيابه وعليه السلاح » (٦٦) وقال « لا ازال على هذه الحالة حتى اعلم لبغا رأسي او رأسه لي » (٦٧) .

ويبدو ان الخلاف اشتد بين الخليفة وبغا ، لاسيما وان المعتز بالله قد استطاع ان يكسب ولاء بعض القواد الاتراك . ولما بلغه ان بغا عزم على الوثوب به دبر على قتله ، فلما بلغ ذلك بغا هرب(٦٨) . وحاول ان يتظاهر بالخروج من سامرا لكي يباغت المعتز بالله واعوانه . فخرج في غلمانه وقواده الى السن ثم عاد بمفرده ليلاً متخفيا ليجتمع الى صالح بن وصيف ليدبرا الوثوب بالخليفة . الا انه وقع بيد الحراس ، ولما اعلموا المعتز بالله بالقبض عليه ، أمر بقتله . فقتل وحمل رأسه اليه ، فنصب بسامرا وبغداد (٦٩) . ويقول الطبري ان المعتز بالله وهب قاتله عشرة الاف دينار وخلع عليه خلعة (٧٠) . مما يدل على اغتباطه بالتخلص منه .

---

(٦٥) كتاب دول الاسلام ٢/١١١ .
(٦٦) الكامل ٧/١٨٧ .
(٦٧) مروج الذهب ٤/١٧٧ .
(٦٨) تاريخ اليعقوبي ٢/٥٠٣ .
(٦٩) الطبري ٩/٣٨٠ ، والكامل ٧/١٨٧ ، والمروج ٤/٩٧٧ .
(٧٠) الطبري ٩/٣٨١ .

سيطرة صالح بن وصيف :

انتهت زعامة الجند الأتراك بعد مقتل وصيف وبغا الى القائد صالح بن وصيف . فصار الشخص الاول بعد الخليفة ، تخرج الكتب باسمه ، ويتولى تعيين الوزراء والولاة والكتاب . وعندما ساء الوضع المالي ولم يعد في بيت المال ما يكفي لدفع ارزاق الجند التي اخذت تتأخر كثيراً عن مواعيدها ، عمد صالح بن وصيف الى مصادرة الكتاب للحصول على الأموال . فأخذ احمد بن اسرائيل كاتب الخليفة ووزيره ، والحسن بن مخلد كاتب ام الخليفة ، وابا نوح عيسى بن ابراهيم ، فقيدهم وطالبهم باخراج ما يملكونه من الاموال . وقال للخليفة مبرراً فعلته هذه « ليس للاتراك عطاء ، ولا في بيت المال مال ، وقد ذهب ابن اسرائيل واصحابه باموال الدنيا » (٧١) . وضرب ابن اسرائيل حتى كسرت اسنانه ، وضرب ابن مخلد مائة سوط ، وكان عيسى بن ابراهيم محتجما فلم يزل يصفع حتى سالت الدماء من محاجمه ، ولم يتركوا حتى اخذت رقاعهم بمال جليل قسط عليهم (٧٢) .

لقد حاول المعتز بالله ان يعتمد على قوة تساعده في مناهضة صالح ومؤيديه من الاتراك ، فاصطنع المغاربة والفراغنة من الجيش . الا ان نتيجة سياسته هذه ان الاتراك وحدوا صفوفهم ، وقد رأوا الخليفة يعمل على اضعاف شأنهم . فعمد قوادهم وعلى رأسهم صالح بن وصيف الى تحريض الجند ودفعهم الى مطالبة الخليفة بارزاقهم التي كان عاجزاً عن دفعها لفراغ بيت المال نتيجة سوء الادارة واهمال الشؤون الزراعية وتكاليف الحرب

---

(٧١) الطبري ٩/٣٨٧ .

(٧٢) نفس المصدر .

الأهلية التي قامت بين سامرا وبغداد (٧٣) • ويقول الطبري ان حاجة الجند الأتراك دفعتهم الى ان يطلبوا الى الخليفة ان يعطيهم خمسين الف دينار على ان يقتلوا صالحا • فارسل المعتز بالله الى امه يعلمها باضطراب الاتراك ، وشغبهم عليه ، وخوفه على نفسه منهم ، ويطلب مساعدتها من المال • فارسلت اليه ان ليس عندها مال ولينتظروا حتى تقبض وتعطيهم • علما انها كانت معها اموال لا تحصى ، وقد قوموا جواهرها بالفي الف دينار (٧٤) • فقد كانت بخيلة وقد جمعت اموالا طائلة وكانت تخفيها عن ابنها • وقد وقع صالح على خزائن لها فيها اموال كثيرة من اللؤلؤ والياقوت وغير ذلك بحيث ظلت تلك الخزائن تباع في سامرا وبغداد عدة شهور حتى نفذت (٧٥) • ويقول السيوطي انها كانت اختفت اثر مقتل ابنها ، ولما ظهرت اعطت صالح بن وصيف قاتل ابنها مالا عظيما ، من ذلك الف الف دينار ، وسفط زمرد وآخر لؤلؤ • فلما رأى صالح تلك الأموال قال : قبحها الله عرضت ابنها للقتل لأجل خمسين الف دينار وعندها هذا (٧٦) •

خلع المعتز بالله من الخلافة :

عندما رأى القواد الاتراك انهم لم يحصل لهم شيء من المال من المعتز بالله اتفقت كلمتهم على خلعه والتخلص منه • فساروا اليه ، ودخلوا عليه وطلبوا اليه ان يخرج اليهم ، فاحتج بالمرض •

---

(٧٣) الطبري ٩/٣٩٤_٣٩٥ •
(٧٤) كتاب دول الاسلام ٢/١١٢ •
(٧٥) الطبري ٩/٣٩٤ _ ٣٩٥ •
(٧٦) تاريخ الخلفاء / ٣٦٠ •

الا ان بعضهم اقتحموا عليه الغرفة وجـــروا برجلـه وضـربوه بالدبابيس ، وخرقوا قميصه . واقاموه في الشمس فكان يرفع رجلا ويضع اخرى من شدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه (٧٧) . ثم امروه ان يخلع نفسه من الخلافة طالما عجز عن تدبير المال لهم . واحضروا القاضي ابن ابي الشوارب ، وكتبوا كتاب خلعه ، فأقر المعتز بالله مكرها بما جاء في كتاب الخلـع (٧٨) . وشـهد عليـه الحاضرون ، كما شهدوا على صالح بن وصيف بان للمعتز بالله وامه وولده واخته الأمان (٧٩) . وكان ذلك في يوم الاثنين لثلاث بقين من رجب سنة ٢٥٥هـ(٨٠) . وكان نص كتاب الخلـع كمـا يأتي (٨١) :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما اشهد عليه الشهود المسمون في هذا الكتاب ، شهدوا ان ابا عبدالله بن امير المؤمنين المتوكل على الله أقر عندهم ، واشهدهم على نفسه في صحة من عقله ، وجـواز من امره ، طائعا غير مكره ، انه نظر فيما كان تقلده من امـر الخلافة والقيام بامور المسلمين ، فرأى انه لا يصلـح لذلـك ، ولا يكمل له ، وانه عاجز عن القيام بما يجب عليه منها ، ضعيف عن ذلك ، فاخرج نفسه ، وتبرأ منها ، وخلعها من رقبته ، وخلع نفسه منها ، وبرأ كل من كانت له في عنقه بيعة من جميع اوليائه وسائر الناس ممن كان له في رقابهم من البيعة والعهود والمواثيق والايمان بالطلاق والعتاق والصدقة والحج وسائر الأيمان ، وحللهم

(٧٧) الطبري ٩/٣٨٩ ، والكامل ٧/١٩١ ، والفخري / ٢٢١ .
(٧٨) العبر ٢/٩ .
(٧٩) الطبري ٩/٣٩٠ .
(٨٠) الطبري ٩/٣٨٩ .
(٨١) نفس المصدر / ٣٩١-٣٩٢ .

من جميع ذلك ، وجعلهم فى سعة منه فى الدنيا والآخرة ، بعد ان تبين له ان الصلاح له وللمسلمين في خروجه عن الخلافة والتبرؤ منها ، واشهد على نفسه بجميع ما سمي ووصف في هذا الكتاب جميع الشهود المسمين فيه وجميع من حضر ، بعد ان قرىء عليه حرفاً حرفاً ، فأقر بفهمه ومعرفته جميع ما فيه طائعا عن مكره . وذلك يوم الاثنين لثلاث بقين من رجب سنة ٢٥٥هـ » .

ووقع المعتز في ذلك : أقر ابو عبدالله بجميع ما في هذا الكتاب وكتب بخطه . وكتب الشهود شهاداتهم .

ثم حبس المعتز بالله ، وكان القواد الاتراك قد اوعزوا بقتله وقد ذكرنا تفصيل ذلك في سيرته .

٦ ـ المهتدي بالله ومحاولة اضعاف سلطة الاتراك :

الخلاف بين المهتدى بالله وموسى بن بغا :

كان موسى بن بغا الكبير على رأس جيش في محاربة الحسن بن زيد العلوي في بلاد الري . فاستنجدت به ام المعتز بالله لما ضايق القواد الاتراك ابنها ، فلم يتمكن آنذاك من الشخوص الى سامرا. ولكن بعد ان بلغه نبأ مقتل الخليفة صعب عليه ذلك فقرر العودة بجيشه الى سامرا للانتقام من قاتله صالح بن وصيف واصحابه . وكان الجند الذين مع موسى بلغهم ما اخذه صالح وجنده من اموال الكتاب واسلاب المعتز بالله واموال امه ، فحسدوا المقيمين بسامرا من الجند ودعوا موسى الى الشخوص بهم الى سامرا .

ولما بلغ المهتدى بالله خبر توجه موسى نحو سامرا انكر ذلك عليه وكتب اليه بالمقام في موضعه للحاجة الماسة اليه في القضاء

على الخارجين على الدولة في تلك النواحي • وكان صالح بن وصيف بدافع خوفه من انتقام موسى منه ومحاسبته على الاموال التي حازها ، يعظم على الخليفة قدومه وينسبه الى المعصية والخلاف • الا ان موسى ابى الاذعان لأمر الخليفة وسار بجيشه قدماً حتى وصل سامرا • ورأى صالح بن وصيف ، وهو المسيطر على شؤون الخلافة ، في عودة موسى وجيشه خطراً عليه ، وعجب من قدومه رغم ممانعة الخليفة ، مما جعله يعتقد ان الخليفة هو الذي طلب اليه سراً ان يقدم الى سامرا لكي يباغت اتباعه ، فانفض عن المهتدى بالله •

وعندما جاء موسى الى دار الخلافة كان المهتدى بالله قد جلس للمظالم فلم يأذن له ولمن معه الا بعد ان فرغ من المجلس ، فدخلوا عليه • وكانوا رأوا في تأخير الخليفة الأذن لهم بالدخول مطاولة منه حتى يكبسهم صالح بن وصيف واتباعه • فخافوا من ذلك ، فأخذوا المهتدى بالله من مجلسه وحملوه معهم الى دار ياجور احد كبار قواد الاتراك • وبعد مناظرة الخليفة اخذ موسى وجماعته عليه « العهود والمواثيق ان لا يمايل صالحاً عليهم ، ولا يضمر لهم الا مثل ما يظهر ، ففعل ذلك ، فجددوا له البيعة » (٨٢) وردوه الى الجوسق •

علم صالح بما تم بين الخليفة وموسى واتباعه ، وانهم ينقمون عليه قتله المعتز بالله والكتاب واخذه اموالهم ، فاختفى خوفاً على حياته • فخاف موسى ان يعمل صالح عند اختفائه على الوثوب به ، فبث العيون والارصاد في طلبه • فوصل الى الخليفة كتاب من صالح ، فدعا بسليمان بن وهب ليقرأه بحضور جماعة من قواد

---

(٨٢) الطبري ٩/٤٣٩ •

الاتراك فيهم موسى بن بغا ومفلح وبايكباك وياجور . وذكر صالح في كتابه انه مستخف بسامرا وقد استتر متخيراً للسلامة وابقاء على الموالي ، وخوفا من ايصال الفتن بحرب ان حدثت بينهم ، وبين ما صار اليه من اموال الكتاب ومن وصل اليه ذلك المال وتولى تفريقه ، ثم ذكر اشياء يعتذر ببعضها ويحتج بالبعض الآخر (٨٣) .

وتكلم المهتدى بالله يحض الحاضرين على المهادنة والصلح والألفة ، ويكره اليهم الفرقة والتباغض . مما جعل موسى واتباعه يتهمونه بالميل الى صالح وانه يقدمه عليهم ، وانه يعلم بمكان اختفائه فخرجوا منه وصاروا مع موسى الى داره في داخل الجوسق وتناظروا فيما بينهم ، وذكر بعض من كان حاضرا ان القوم اجمعوا على خلع المهتدى بالله (٨٤) .

ولما اتصل الخبر بالمهتدى بالله خرج الى مجلسه متقلدا سيفا ثم امر بادخالهم اليه ، فقال لهم « انه قد بلغني ما انتم عليه من امري ، ولست كمن تقدمني مثل احمد بن محمد المستعين ولا مثل ابن قبيحة ... وهذا سيفي ، والله لاضربن به ما استمسك قائمه بيدي .. أما دين ، أما حياء ، أما رعة ؟ كم يكون هذا الخلاف على الخلفاء ، والاقدام والجرأة على الله ... هل تعلمون انه وصل الي من دنياكم هذه شيء؟ اما انك يا بايكباك ان بعض المتصلين بك ايسر من جماعة اخوتي وولدي .. ثم تقولون اني أعلم علم صالح ، وهل صالح الا رجل من الموالي وكواحد منكم فكيف الاقامة معه اذا ساء رأيكم فيه ؟ فان آثرتم الصلح كان ذلك مة

---

(٨٣) نفس المصدر / ٤٤١ .

(٨٤) نفس المصدر / ٤٤٢ ، والكامل ٧/٢١٩ .

اهوى لجمعكم ، وان ابيتم الا الاقامة على ما انتم عليه فشأنكم . فاطلبوا صالحا ثم ابلغوا شقاء انفسكم ، واما انا فما اعلم علمه »(٨٥) .

ان خطاب المهتدى بالله خطاب رجل ضعيف يتوسل ، وليس خطاب رئيس دولة حازم يرهب من يحيد عن طريق الصواب ، ويهدد بمحاسبة من يسيء الى الخلافة . وهو يترك المشاكل القائمة ، وبخاصة امر صالح بن وصيف ، اليهم ليتخذوا ما يرونه بشأنه . بينما كان من الضروري ان يشعرهم بانه سيتولى ذلك بنفسه ويحاسب كل مقصر او مسيء . ولاشك في انه بخطابه هذا اطمعهم بنفسه وجرأهم عليه ، لما لمسوا من ضعفه وفقدانه الحزم .

وذكر ان المهتدى بالله قال لبايكباك ولابي نصر محمد بن بغا : قد حضرتما ما عمله صالح في اموال الكتاب وام المعتز فان اخذ من ذلك شيئاً فقد اخذتما مثله ، فاحفظهما ذلك (٨٦) .

وقد قيل ان القوم من لدن قدوم موسى بن بغا الى سامرا للثأر لمقتل المعتز بالله ، كانوا يضمرون خلع المهتدى بالله ، وانما كان يمنعهم من ذلك قلة الأموال لديهم لدفع ارزاق الجند وكسب رضاهم . فلما استحوذوا على المال الوارد من الأهواز في المحرم سنة ٢٥٦هـ ومقداره سبعة عشر الف الف وخمسمائة الف درهم ، تحركوا للعمل على تحقيق نواياهم (٨٧) .

---

(٨٥) الطبري ٩/٤٤٢-٤٤٣ .

(٨٦) نفس المصدر / ٤٤٣ والكامل ٧/٢٢١ .

(٨٧) نفس المصدرين ، وجاء في الكامل ان مبلغ المال عشرة الاف الف وخمسمائة الف درهم .

ومما زاد في قوة مركز موسى بن بغا انه تخلص من صالح بن وصيف • اذ عثر عليه غلام صدفة في احد الدور في اوائل صفر ، فاستعان بعيار يعرفه ، فجمع هذا آخرين معه وهجموا على الدار واخرجوا صالحا وذهبوا به الى دار موسى • فاخذه بعض القواد الى الجوسق ، الا انهم قتلوه في الطريق واحتزوا رأسه وصاروا به الى المهتدى بالله ، فأمرهم ان يواروه • الا انهم حملوه على قناة وطافوا به ينادون عليه : هذا جزاء من قتل مولاه ، ثم نصبوه بباب العامة (٨٨) • وهناك من يقول انه رأى انه حمي له حمام وادخل اليه فمات فيه (٨٩) •

تنكر المهتدى بالله للقواد الاتراك :

ضاق المهتدى بالله ذرعا بتسلط القواد الاتراك وبخاصة استحواذهم على الأموال التي ترد من الولايات الى بيت المال متجاهلين جهود الخليفة في تقويم الوضع المالي • فحاول ان يستفيد من نقمة الجند على قوادهم ، وان يعمل على ايقاع الخلاف بين القواد انفسهم • وكان قد وجه في مستهل جمادى الاولى موسى بن بغا وبايكباك الى حرب مساور الشاري ، فكتب بعد ان حبس ابا نصر محمد بن بغا الى موسى يأمره بتسليم قيادة جيشه الى بايكباك والقدوم الى سامرا • وكتب بنفس الوقت الى بايكباك يستميله بتسلم قيادة الجيش والقيام بقتال الشاري ، وان يقتل موسى ومفلحا او يحملهما اليه مقيدين • الا ان بايكباك اطلع موسى على كتاب الخليفة ، وقال له : هذا تدبير علينا جميعا ، فاذا فعل بك

---

(٨٨) الطبري ٩/٤٥٣ـ٤٥٥ ، والكامل ٧/٢٢٥ •

(٨٩) مروج الذهب ٤/١٨٥ •

اليوم شيء فعل بي غداً مثله • واتفقا على ان يتظاهر بايكباك بمولاة الخليفة ، ومن ثم يدبران امر قتله (٩٠) •

وقد اخبر بعض الاتراك المهتدى بالله بان بايكباك قد اتفق مع موسى على الفتك به في الجوسق • فلما دخل بايكباك مع بعض قواده على المهتدى بالله امر بحبسه وصرف الباقين ، ثم امر بضرب عنقه • ولما احتج اتباعه على حبس قائدهم وتجمعوا لمهاجمة الدار واطلاق سراحه ، رمى الخليفة برأسه اليهم ، مما اثار غضبهم وزاد في ثورتهم عليه (٩١) • وقد حاول المهتدى بالله بعمله هذا ان يتخذ موقف ابي جعفر المنصور من ابي مسلم الخراساني ، متصورا ان ذلك سيفل قوة الاتراك ويضعف سلطانهم • الا انه لم تكن له منعة المنصور وقوته • ولذا فقد اعتبر قواد الاتراك هذا غدراً بهم ، وانهم لذلك اصبحوا في حل من بيعته • والواقع ان محاولة المهتدى بالله الايقاع بين موسى وبايكباك لم تكن محكمة لأنه كاشف كلا منهما بنيته تجاه زميله دون ان يتوثق من ولائه واخلاصه ، مما انعكس عليه بنتيجة سيئة • اذ صارت محاولته دافعا لجمع كلمتهم وتوحيد قواهم لمقاومته • كما كان قبضه على ابي نصر محمد بن بغا بعد ان كتب اليه بالأمان على نفسه ومن معه ومن ثم امره بقتله (٩٢) ، قد اثار مزيداً من سخط الاتراك وغضبهم عليه •

محاولته الاعتماد على الجند والعامة :

لما انتشر الخبر بين العامة ان القواد الاتراك على وشك ان يخلعوا المهتدى بالله ويفتكوا به ، كتبوا الرقاع انتصارا له

---

(٩٠) الطبري ٩/٤٥٦ـ٤٥٧ •
(٩١) نفس المصدر / ٤٥٩ •
(٩٢) نفس المصدر / ٤٦٠ •

والقوها في المساجد والطرقات • وذكر انها كانت كالآتي « بسم الله الرحمن الرحيم : يا معشر المسلمين ، ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضى المضاهي لعمر بن الخطاب ان ينصره على عدوه ويكفيه مؤونة ظالمه ، ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه ، فان الموالي قد اخذوه بان يخلع نفسه وهو يعذب منذ ايام ، والمدبر لذلك أحمد بن محمد بن ثوابة والحسن بن مخلد • رحم الله من اخلص النية ودعا وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم» •

وكان المهتدى بالله من جانبه يؤلب الجند والعامة ضد القواد الاتراك • فقد جاء بالفراغنة والاشروسنية والطيرية والديالمة وغيرهم ، فسألهم النصرة على موسى ومفلح ، وقال : « قد اخذوا الاموال واستأثروا بالفيء ، وانا اخاف ان يقتلوني • وان نصرتموني اعطيتكم جميع ما فاتكم وزدتكم ارزاقكم • فاجابوه الى نصره والخلاف على موسى واصحابه • كما اخذ المهتدىبالله يركب في بني هاشم ويدور في الاسواق ، ويسأل الناس النصرة على الفساق قتلة الخلفاء(٩٥) •

لقد اخافت دعوة العامة برقاعهم لنصرة الخليفة قسما من الجند فارسلوا الى الخليفة انهم مستعدون للموت دونه اذا ما استمع الى شكاواهم وازال اسبابها • وتقدموا اليه بمطاليب معينة يتعلق قسم منها بالامور العامة ، ويخص القسم الآخر شؤونهم المسلكية وتنظيم امورهم • واهم هذه الطلبات (٩٦) :

١ ـ ان ترد الامور الى امير المؤمنين في الخاص والعام ولا يعترض عليه معترض •

---

(٩٣) نفس المصدر / ٤٤٤ •
(٩٤) الطبري ٩/٤٦٨ •
(٩٥) نفس المصدر ٤٦٩ •
(٩٦) نفس المصدر / ٤٤٦ ـ ٤٤٧ •

٢ ـ ان ترد رسومهم الى ما كانت عليه ايام المستعين بالله ، وهو ان يكون على كل تسعة منهم عريف ، وعلى كل خمسين خليفة ، وعلى كل مائة قائد ·

٣ ـ ان يدفع لهم العطاء في كل شهرين ·

٤ ـ ان تبطل الاقطاعات ·

٥ ـ أن يصير امير المؤمنين الجيش الى احد اخوته او غيرهم ممن يرى ، على ان لا يكون من الموالي ·

٦ ـ ان يأمر الخليفة بمحاسبة صالح بن وصيف وموسى بن بغ على ما عندهما من الأموال ·

وقالوا انهم لا يرضيهم دون ما سألوا ، مع تعجيل ارزاقهم المتأخرة · فأجابهم الخليفة بسروره من طاعتهم له وتأييدهم اياه ، وانه موافق على جميع ما سألوه وسيعمل على تنفيذه ، ويزيل ما يشتكون منه ·

الا ان عدم توفر المال اللازم في بيت المال حال دون تلبية تعجيل عطائهم ، وهو أهم طلباتهم ولاشك · كما انه لم يتخذ أي اجراء لأبطال الاقطاعات الممنوحة للقواد ، ولم يبادر الى اعادة رسوم الجيش وتنظيمه بالشكل الذي كان عليه ايام المستعين بالله · كما انه لم يقرر محاسبة القائدين الكبيرين اللذين طلبوا محاسبتهما · فكان ذلك مما افقدهم الثقة بالخليفة ، لاسيما وانه كان يتظاهر بالتودد للقواد الاتراك ويحاول ترضيتهم ·

وكان القواد بنفس الوقت يعملون على ترضية الجند · فاعلنوا موافقتهم على طلباتهم التي تقدموا بها الى الخليفة ، وتأييد

---

(٩٧) وفيات الاعيان ٥/٤٥٩ ·

اخلاصهم له ، وانهم لا يريدون به سوء ، كما سارعوا الى دفع ارزاقهم المتأخرة • وبذا اصبحت الظروف مهيئة لان يفرض الخليفة سلطته على الاتراك وقوادهم ، الا ان موقفه المتسم بالحيرة والتردد • وتظاهر بالتودد للقواد مع انه يبطن الشر لهم ، وعدم مبادرته الى اي عطف او استجابة لطلبات الجند ، افقده ثقة الطرفين •

نهاية المهتدى بالله :

عندما استشعر المهتدى بالله شرا من جموع الاتراك ، خرج فعسكر بجسر سامرا في جمع من الجند الموالين له من الفراغنة والمغاربة وبعض الأتراك فأصطدم الطرفان ووقع بينهما كثير من القتلى • وانضم الجنود الاتراك الذين اعلنوا ولاءهم للخليفة الى جماعتهم ، وانهزم بقية جنده ومؤيدوه ، وتركوا الخليفة يواجه مصيره مع عدد قليل من اتباعه • فجرح واضطر الى الهرب • فخرج الى باب العامة وهو يستغيث طالبا النجدة ، فلم يجبه احد من عامة الناس • فصار الى باب السجن فاطلق من فيه وهو يظن انهم يعينونه ، فلم يكن منهم الا الهرب ، فصار الى دار صاحب الشرطة • الا ان الاتراك دخلوا خلفه واخرجوه الى الجوسق وحبسوه عند القائد احمد بن خاقان •

ثم اجتمع القواد الأتراك وقرروا خلعه من الخلافة ، ومالبثوا ان قتلوه بحجة عدم موافقته على التنازل عن الخلافة • وقد اوضحنا ذلك مفصلا عند الكلام عن خلعه ومقتله •

٧ ـ انحسار نفوذ القواد الاتراك :

بعد ان تم للقواد الاتراك بزعامة القائد موسى بن بغا ، التغلب على الخليفة المهتدي بالله وقتله ، انتخبوا للخلافة احمد بن جعفر المتوكل على الله ، ولقب بالمعتمد على الله ، وقد ورث الخليفة الجديد تركة ثقيلة من المشاكل . فقد كان الوضع المالي للدولة سيئاً جدا بحيث كان الخليفة عاجزا عن دفع ارزاق الجند . وذلك لاستغلال أمراء الولايات وعمالها ضعف الخلافة واستئثارهم باموال الخراج ولم يوجهوا شيئاً منها الى بيت المال . كما كانت ثورة الزنج قد استفحلت واصبحت تهدد الخلافة وكيـــن الدولة العربيـــة ووجودها . يضاف الى ذلك اطماع امـــراء الولايـات المستقلة ومحاولاتهم في توسيع اماراتهم على حساب الدولة . هـــذا الى جانب المشكلة المزمنة وهي سطوة القواد الاتراك وعبثهم بشؤون الخلافة والدولة . وكانت هذه المشاكل مما ينوء المعتمـــد بالله بحملها وبعجزه عن التغلب عليها ، لولا ان قدر بان يكون اخوه الموفق طلحة الى جانبه . وقد سبق ان اشرنا الى ما كان يتمتع به الموفق من صفات قيادية واهمها الحزم والشجاعة ، ممـــا اهلـــه للسيطرة على شؤون الخلافة بحيث لم يترك لأخيه منهـــا ســـوى الاســـم .

وكان المعتمد على الله عند توليه الخلافة اناط بأخيه الموفق رئاسة الجيش . ويبدو ان ذلك كان تنفيذا لطلب الجند من سلفه المهتدى بالله أبن يصير رئاسة الجند الى احد اخوته ، او غيرهم ممن يراه من القواد على ان لا يكون من الاتراك . وبذلك اطمأن الخليفة الى ولاء الجيش ، وأمن شر الاحتكاك بقواده الاتراك . وقد استطاع الموفق ان يستفيد من الظروف المحيطة بالخلافة في ان

يوقف تدخل هؤلاء القواد بشؤون الدولة وفرض رغباتهم على الخليفة • واهم ما ساعده في ذلك اضافة الى كفايته السياسية وقوة شخصيته عاملان ، اولهما النزاع الذي كان قد قام بين القواد انفسهم منذ عهد المستعين بالله حتى تولى المعتمد على الله ، مما اضعف من قوتهم وقلل من شأنهم • وثانيهما الحروب القائمة التي استطاع الموفق ان يوجههم اليها ويشغلهم بها • وبذلك تسنى للموفق ان يعيد للخلافة هيبتها ، وللدولة سلطانها ونفوذها •

وكا من الاخطار المهمة التي هددت الخلافة في سامرا ، اضافة الى استفحال ثورة الزنج ، ان يعقوب بن الليث الصفار قدم بجيشه يطرق ابواب عاصمة الخلافة ، لانه رغم ما كان يتظاهر به من ولاء وطاعة للخليفة ، لم يكن قانعا بما وليه من الاقاليم والولايات ، لأن ذلك لا يزال دون هدفه في ازالة دولة العرب • فعزم على محاربة الخليفة ليتم له الاستيلاء على الدولة العربية كلها مدعيا « بانه لم يجيء الا لخدمة الخليفة والتشرف بالمثول بين يديه والنظر اليه وان يموت في ركابه » (٩٧) • الا ان الخليفة واخاه الموفق ادركا ما كان يخفيه من النوايا الخبيثة تجاه الدولة العربية ، خلف هذا القناع من المسكنة والتذلل • فخرج اليه الخليفة بنفسه بجيش اشترك فيه اغلب القواد وعلى رأسهم الموفق • وسرعان ما دارت الدائرة على الصفار وجيشه فهزم شر هزيمة ، وعاد خائبا وقد تحطمت احلامه • واعادت الدولة سيطرتها على ما سبق ان استولى عليه من الاقاليم عنوة •

كما ان الامير احمد بن طولون الذي كان نازع الخلافة وارسل جيوشه لمحاربتها ردحا من الزمن ، قد انتهى نزاعه بالخضوع لسيادة الخلافة في سامرا • وهكذا كانت الحروب التي

دامت اكثر ايام المعتمد على الله اهم عامل في تدعيم سلطة الموفق ، بحيث انه انتزع من القواد الاتراك ما كانوا يتمتعون به من نفوذ وسلطان على الخلافة ، وجعلهم ينصرفون الى داء واجبـاتهـم العسكرية حسب • وبذلك مهد للخليفة القادم وهو ابنه احمـد الملقب بالمعتضد بالله ، ان يتفرغ لاعادة بناء الدولة العربيـة وتقوية شأن الخلافة ، بحيث سمي المنصور الثاني •

البـــاب الخامس

العلويون وخلفاء سامرا

١ ــ خلفاء سامرا والعلويون

٢ ــ خروج العلويين في عهد سامرا

الباب الخامس

العلويون وخلفاء سامرا

الفصل الأول

خلفاء سامرا والعلويون

كانت علاقة العلويين تتسم بالخلاف والتوتر مع خلفاء بني العباس ، ولم يدخروا وسعا في الخروج كلما سنحت لهم الفرصة . الا ان الخليفة المأمون حاول ان يتقرب اليهم ويحسن معاملتهم ليكسب ولاءهم . وقد زوج بنته من الامام الرضا وعهد اليه بالخلافة من بعده ، كما زوج بنته الثانية من الامام محمد الجواد . وعندما اوصى لأخيه ابى اسحاق اكد عليه بأن يرعى العلويين ويحسن معاملتهم - ولما تولى المعتصم بالله الخلافة انتهج سياسة اخيه المأمون في التسامح مع العلويين التزاما بوصيته اليه ، وقد جاء فيها « وهؤلاء بنو عمك من ولد امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضى الله عنه ، فأحسن صحبتهم ، وتجاوز عن مسيئهم ، واقبل من محسنهم ، ولا تغفل صلاتهم في كل سنة عند محلها ، فان حقوقهم تجب من وجوه شتى » (١) . ولكي يدلل المعتصم

---

(١) الطبري ٨/ ٦٥٠ ، والكامل ٦/ ٤٣١ .

بالله على رعايته العلويين واهتمامه بشؤونهم استدعى الامام محمد الجواد في سنة ٢٢٠هـ من المدينة المنورة ليقيم الى جانبه في سامرا . فجاء ومعه امرأته ام الفضل بنت المأمون . ولا يخفى ان استدعاءه كان حذرا من ان يلتف الناس حوله . وليكون تحت انظار الخليفة . الا انه ما لبث ان توفي في اواخر السنة المذكورة . وهناك من يقول انه مات مسموما (٢) . فأمر المعتصم بالله بأن تحمل زوجة الامام الى قصره لتعيش مع حرمه(٣) . ولما خرج محمد بن القاسم في عهده ، اكتفى المعتصم بالله بسجنه .

وسار الواثق بالله على نهج ابيه وعمه في اتباع سياسة التسامح واللين مع العلويين . فاشتمل عليهم ، وبالغ في اكرامهم والاحسان اليهم ، والتعهد لهم بالاموال ، بحيث انه لما توفي كان بعض نساء اهل المدينة يخرجن كل ليلة الى البقيع فيبكين عليه ويندبنه حزنا عليه ، لما كان يكثر من الاحسان اليهم (٤) . يقول ابو الفرج « وكان آل ابي طالب مجتمعين بسر من رأى في ايامه تدور الارزاق عليهم » (٥) ويقول ابن الطقطقي « ولما ولي الخلافة احسن الى بني عمه الطالبيين وبرهم » (٦) . ويقول القاضي يحيى بن اكثم « ما احسن احد الى آل ابي طالب ما احسن اليهم الواثق ، ما مات وفيهم فقير » (٧) . وقد اثمرت سياسة الواثق بالله القائمة على

---

(٢) مروج الذهب ٤/٥٢ ، والكامل ٦/٤٥٥ .
(٣) تاريخ بغداد ٣/٥٤ ، ووفيات الاعيان ٣/٣٥ .
(٤) الكامل ٧/٣١ .
(٥) مقاتل الطالبيين / ٥٩٣ .
(٦) الفخري / ٢٥١ .
(٧) تاريخ بغداد ١٤/١٩ .

التسامح واللين تجاه العلويين وتعهده اياهم ، اذ لم يخرج عليه احد منهم طيلة خلافته .

اما المتوكل على الله فقد كان شديدا في معاملة العلويين ، مما جعل عهده ثقيل الوطأة عليهم ، على ان اسباب بغض المتوكل على الله للعلويين غير واضحة ، الا انها يمكن ان تعزى الى ما كان يغيظه ما يراه من ولاء اتباع العلويين لأئمتهم واخلاصهم لهم وتقديسهم اياهم . فقد امر بهدم قبر الامام الحسين بن علي بن ابي طالب ، وهدم ما حوله من المنازل ، وان يحرث موضع القبر ويبذر ، وان يمنع الناس من اتيانه . فامتنع الناس من المصير اليه (١٠) .

وكان اكثر منادمي المتوكل على الله ممن اشتهروا ببغض العلويين ، منهم علي بن الجهم الشاعر الشامي ، وابو السمط من ولد مروان ابي حفصة من موالي بني امية ، وعمر بن فرج الرخجي . وكانوا يخوفونه منهم ويشيرون عليه بالاعراض عنهم والأساءة اليهم (١١) . واحسبهم انهم كانوا يتملقونه بذلك ويستدرون عطاياه - ويقول ابو الفرج « ان عبيدالله بن يحيى بن خاقان وزيره كان يسيء الرأي فيهم ، فحسن له القبيح في معاملتهم » (١٢) .

وبلغ مسامع المتوكل على الله ان احد زعماء العلويين ، وهو يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي

---

(٨) مقاتل الطالبيين / ٥٩٧ .
(٩) الكامل ٧/٥٦ .
(١٠) الطبري ٩/١٨٥ ، ومروج الذهب ٤/١٣٥ ، والكامل ٧/٥٥ .
(١١) الكامل ٧/٥٦ .
(١٢) مقاتل الطالبين / ٥٩٧ .

طالب . قد جمع جمعا ببعض النواحي ، فأمر بالقبض عليه ، فاخذ وضرب وحبس في سجن المطبق ببغداد (١٣) ٠

كان امام العلويين في عهد المتوكل على الله علي بن محمد الجواد الملقب بالنقي وبالهادى ، يقيم في المدينة المنورة ، وقد عرف بالزهد والتقوى والانصراف الى العلم ، الا ان وشايات عنه وصلت الى المتوكل على الله فامر باشخاصه الى سامرا ليكون تحت رقابته المباشرة ٠ فبعث به والى مكة ابو العباس عبدالله بن محمد ابن داود مع يحيي بن هرثمة حتى صار الى بغداد ٠ ولما وصلا قريبا منها ركب اسحاق بن ابراهيم المصعبي لتلقيه . ولما رأى تشوق الناس اليه واجتماعهم لرؤيته ، انتظر حلول الليل فدخل به بغداد ، ثم وجه به في اليوم التالي الى سامرا (١٤) ٠ ومما ذكره يحيى بن هرثمة عن الامام انه قال : وفي احد ايام السفر ، والسماء صاحية ركب وعليه ممطره وقد عقد ذنب دابته ، فعجبت من فعله ، فلم يكن بعد ذلك الا هنيهة حتى جاءت سحابة ونالنا من المطر امر عظيم ٠ فالتفت الي وقال: انا اعلم انك انكرت ما ما رأيت وتوهمت اني اعلم من الأمر ما لا تعلمه . ليس ذلك كما ظننت ولكن نشأت بالبادية فانا اعرف الرياح التي يكون عقبها المطر . فلما اصبحت هبت ريح شممت منها رائحة المطر فتأهبت لذلك (١٥) ٠

ويظهر ان المتوكل على الله ابقاه في سامرا ، الا انه كان يتمتع بحرية كبيرة فيلقى اصحابه ، ويحضر مجالس الخليفة ٠ ولكن ما

---

(١٣) الطبري ٩/١٨٢ ، والكامل ٧/٥٣ ، وجاء اسمه فيه يحيى بن عمر بن يحيى ٠

(١٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٤ ٠

(١٥) عقيدة الشيعة / ٢١٧ عن الكافي للكليني / ٢٠٦ ٠

ثبت ان وشى به بعضهم الى المتوكل على الله بان في بيتــه ســلاحا وكتبا من شيعته ، وانه يطلب الأمر لنفسه · فوجه اليه من الجند الاتراك من داهم منزله ليلا على غفلة من اهله . فوجـده وحيـدا جالسا على الأرض في غرفة مغلقة ، وعليه مدرعة من شعر وعلى رأسه ملحفة من صوف ، وهو مستقبل القبلة يرتل آيت من القرآن الكريم · فحمل الى الخليفة في جوف الليل ، فمثل بين يديه وهو في مجلس شراب · وقال من اتى به انه لم يجد في منزله شيئا مما قيل عنه · فأعظمه المتوكل على الله واجلسه الى جانبه ، وناوله الكأس التي كانت في يده ، فاعتذر بأنه لم يذقه · فطلب اليه ان ينشده مما يحفظ من الشعر ، فأعتذر بأنه قليل الرواية للشعر · فالح عليه المتوكل على الله فأنشده (١٦) :

باتوا على قلل الأجيال تحرسهم
غلب الرجال فما اغنتهم القلل

واستنزلوا بعد عز من معاقلهم
فاودعوا حفرا ، يابئس ما نزلوا

ناداهــم صارخ من بعدما قبروا
أين الأسرة والتيجان والحلــل

أين الوجوه التي كانت منعمة
من دونها تضرب الأستار والكلل

فأفصح القبر حين ســاء لهــم
تلك الوجوه عليها الــدود يقتتل

(١٦) مروج الذهب ٤/٩٣-٩٤ ، ووفيات الاعيان ٢/٤٣٤ - ٤٣٥ ·

قد طالما اكلوا دهــرا وما شربوا

فاصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

وطالمـا عمروا دورا لتحصنهم

ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا

وطالما كثروا الاموال وادخـروا

فخلفوها على الأعـداء وارتحلوا

أضحت منازلهم قفـرا معطلـة

وساكنوها الى الأجداث قد رحلوا

فتأثر الخليفة وبكى حتى بلت دموعــه لحيتـه ، وبكـى الحاضرون ، فأمر برفع الشراب • ثم قال له : يا ابـا الحسـن أعليك دين ؟ قال : نعم ، اربعة الاف دينار • فأمر بدفعها اليه ورده الى منزله مكرماً •

لبث الامام علي الهادي في سامرا طيلة حكم المتوكل على الله ، وابنه المنتصر بالله ، والمستعين بالله بعده ، حتى توفى فـي ايـام المعتز بالله لأربع بقين من جمادى الآخرة سنة ٢٥٤هـ (١٧) ، ودفن بداره بسامرا •

الملحـق :

الامام علي الهادي :

والأمام علي الهادي هو ابن الامام محمد الجواد ويعرف بابي الحسن العسكري وانما قيل له العسكري لأنه لما كثرت السعاية به عند المتوكل على الله احضره من المدينة المنورة وأقره بسر من رأى وكانت تدعى العسكر ايضا فاقام بها عشرين سنة فنسب اليها(١) ٠ وهو عاشر الأئمة الأثنى عشر ٠ ولد بالمدينة المنورة وبها كانت نشأته ٠ وهناك خلاف بسيط في تاريخ مولده ، اذ يقول الخطيب البغدادي انه ولد في رجب سنة ٢١٤هـ ، بينما يقول ابن الأثير انه ولد في سنة ٢١٢هـ ، ويتردد ابن خلكان في ان ولادته كانت في سنة ٢١٣هـ او في سنة ٢١٤هـ (٢) ٠

كان الامام الهادي من الاتقياء الصـالحين . فقيهـا متعبدا منصرفا الى العلم ٠ ولما ارتاب المتوكل على الله به لكثرة الوافدين عليه من مختلف الاقطار ، استقدمه الى سامرا ليكون تحت رقابة الخلافة مباشرة ٠ فبقي الامام في سامرا لا يبرحها ، الا انه كان يستقبل اصحابه وزائريه ويحضر مجالس الخلفاء ومجالس كبار

(١) وفيات الاعيان ٢/٤٣٥ . وشذرات الذهب ٢/١٢٩ ٠
(٢) تاريخ بغداد ١٢ـ٥٧ ، والكامل ٧/١٧٩ . ووفيات الاعيـان ٢/٤٣٥ ٠

رجال الدولة • ويروي الخطيب البغدادي خبرا يدل على سمو منزلته لدى الخليفة واطمئنانه اليه • فقد اعتل المتوكل على الله فقال لئن برئت لا تصدقن بدنانير كثيرة • فلما برىء جمع الفقهاء فسألهم عن ذلك فاختلفوا في الاجابة ، فبعث الى الامام علي بن محمد يساله ، فقال : يتصدق بثلاثة وثمانين دينارا • فعجب بعض الفقهاء من ذلك وتعصب قسم منهم عليه ، وقالوا تسأله يا امير المؤمنين من اين له هذا • فرد الرسول اليه وقال : قل لأمير المؤمنين في هذا الوفاء بالنذر لأن الله تعالى قال « لقد نصركم في مواطن كثيرة » فروى اهلنا جميعا ان المواطن في الوقائع والسرايا والغزوات كانت ثلاثة وثمانين موطناً • وان يوم حنين كانت الرابع والثمانين ، وكلما زاد امير المؤمنين في فعل الخير كان انفع له وآجر عليه في الدنيا والآخرة (٣) •

بقي الامام علي الهادي طيلة عهد المتوكل على الله وعهد المنتصر بالله وخلفه المستعين بالله مقيما في سامرا مكرما ، لأن ما كان يمتاز به من هدوء الطبع وكرم النفس وقوة الصبر والاحتمال ، قد ساعده على الاحتفاظ بمنزلته رغم حذر الخلفاء منه وفرضهم الرقابة عليه • وقد انتقل الى جوار ربه في سنة ٢٥٤هـ في يوم الخميس لليال بقين من جمادى الآخرة وهو ابن اربعين سنة ، في ايام المعتز بالله • فبعث الخليفة باخيه ابي احمد ابن جعفر المتوكل على الله فصلى عليه في الشارع المعروف بشارع ابي احمد • ولما كثر الناس واشتد بكاؤهم وعلا ضجيجهم ، رد النعش الى دار الامام فدفن فيها (٤) • ويقول الخطيب البغدادي ان

---

(٣) تاريخ بغداد ١٢/٥٦ ـ ٥٧ •

(٤) الطبري ٩/٣٨١ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٥٠٣ ، وتاريخ بغداد ١٢/٥٧ •

هذه الدار كان الامام قد اشـــتراها مـــن دليـــل بن يعقـــوب النصراني (٥) ·

الامام الحسن العسكري :

وكان خلف الامام علي الهادي ابنه الامام الحسن العســكري وهو الامام الحادي عشر ، ابو محمد ، وغلب عليه لقب العسكري لسكناه في سامرا ، وقد اقام بها طيلة حياة ابيه وبعده حتى توفي بها · وهناك بعض الاختلاف في مكان ولادته وتاريخها ، ويستنتج من تاريخ وفاته ومقدار عمره انه ولد في سنة ٢٣١هـ وقيـــل ٢٣٢هـ او ٢٣٣هـ · ويقول ابو المحاسن ان ولادتـــه كانت فـــي سنة ٢٣١هـ(٦) · اما محل ولادته فليس هناك اشارة واضحة الى ذلك في المصادر الأولية عدا ما قاله ابو المحاسن بانه ولد بسر من رأى وامه ام ولد(٧) · الا انه يظهر من تاريخ ولادته ما يرجح بانه ولد بالمدينة المنورة لأن اباه كان حينذاك لايزال فيها ولما يشخص بعد الى سامرا ·

انتقل الامام الحسن العسكري مع ابيه علي الهادي الى سامرا فنشأ بها نشأة دينية على سنن سلفه الصالح ، فكان ناسكاً متعبداً · ويظهر انه عني بتعلم عدد من اللغات لاختلاف جنسيات الوافدين الى زيارته وزيارة ابيه من قبل · فكان يتكلم بالهندية مع الزوار الهنود ، وبالتركية مع الاتراك وبالفارسية مع العجم (٨) · وعندما

---

(٥) تاريخ بغداد ١٢ـ٥٧ ·
(٦) مروج الذهب ٤/١٩٩ ، ووفيات الاعيان ١/٣٧٢ ، والنجوم الزاهرة ٣/٣٢
(٧) النجوم الزاهرة ٣/٣٢ ·
(٨) عقيدة الشيعة / ٢٢٣ اعتمادا على خلاصة الاخبار للسيد محمد مهدي ·

توفي ابوه بسجن الامام الحسن في بغداد ، الا انه ما لبث ان اطلق من السجن وسمح له بالعودة الى سامرا ، فاقام بها حتى نهاية حياته .

توفي الامام الحسن العسكري في سنة ٢٦٠ هـ ويقول ابن خلكان انه توفي بسر من رأى ودفن بجنب قبر ابيه (٩) . ولما ذاع خبر وفاته ارتجت سر من رأى ، وعطلت الأسواق ، وركب بنو هاشم والقواد والكتاب والقضاة وسائر الناس لتشييع جنازته (١٠) .

ولما تولى المنتصر بالله الخلافة بعد مقتل ابيه المتوكل على الله ، اتسمت سياسته تجاه العلويين بالتسامح معهم والعمل على استرضائهم ، فأمر بعدم التعرض لهم ، والا يمنع احد من زيارة قبر الحسين وقبر غيره من أئمة آل البيت . فلم يجر على احد منهم قتل او حبس او مكروه (١١) . وكان اول عمل قام به لتنيفذ سياسته هذه انه أقال والي ابيه على المدينة المنورة صالح بن علي الذي كان آل ابي طالب هناك ينقمون عليه لسوء معاملته لهم . واستعمل عليها علي بن الحسن بن اسماعيل بن العباس بن محمد . وذكر عن علي هذا انه قال « دخلت على المنتصر اودعه ، فقال لي : ياعلي اني اوجهك الى لحمي ودمي ومد جلد ساعده : وقال لي : الى هذا وجهتك ، فانظر كيف تكون للقوم وكيف تعاملهم . يعني آل ابي طالب . فقلت : ارجو ان امتثل رأي امير المؤمنين ايده الله فيهم ان شاء الله . فقال : اذاً تسعد بذلك عندي » (١٢) .

---

(٩) مروج الذهب ٤/١٩٩ ، والكامل ٧/٢٧٤ ، ووفيات الاعيان ١/٣٧٣ .
(١٠) الاعلام ٢/٢١٥ .
(١١) الطبري ٩/٣٨١ ، ووفيات الاعيان ٢/٤٣٥ .
(١٢) مقاتل الطالبيين /٦٢٦ .

كما اطلق المنتصر بالله ما كان محبوسا عليهم من الأوقاف ، ورد «فدك» الى اولاد الحسن والحسين(١٣) • وكان الرسول صلى الله عليه وسلم صالح اهل فدك على نصف الارض بتربتها ، وكان ذلك النصف خالصا له لأنه لم يوجت عليه المسلون بخيل ولا ركاب، وكان يصرف ما يأتيه منها في ابناء السبيل • ولما قبض عليه الصلاة والسلام قالت فاطمة الزهراء لأبي بكر الصديق : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل لي فدكا فاعطني اياها ، وشهد لها علي بن ابي طالب • فسألها ابو بكر شاهدا آخر • فشهدت لها ام أيمن مولاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : قد علمت يابنت رسول الله انه لاتجوز الا شهادة رجل وامرأتين، فانصرفت • ولما تولى المأمون الخلافة امر بدفعها الى ولد فاطمة • فردت الى ورثتها وسلمت الى محمد بن يحيى بن زيد بن علي بن الحسين ومحمد بن عبدالله بن الحسن • الا ان المتوكل على الله كان قد ردها الى ما كانت عليه قبل المأمون(١٤) •

لقد لقيت مبادرة المنتصر بالله برده فدك الى آل البيت رضى من العلويين وشيعتهم • وقال الشاعر يزيد المهلبي في ذلك(١٥) :

ولقد بررت الطالبية بعدما
ذموا زمانا بعدها وزمانا

ورددت الفة هاشم فرأيتهم
بعد العداوة بينهم اخوانا

---

(١٣) الطبري ٩/٢٥٤ •

(١٤) مروج الذهب ٤/١٣٥ ، والكامل ٧/١١٦ •

(١٥) عن موضوع فدك راجع : فتوح البلدان / ٤٢-٤٣ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٦٩ ، والخراج وصناعة الكتابة / ٢٥٩ - ٢٦٠ •

آنست ليلهـــم وصبرت عليهم
حتى نســوا الأحقاد والاضغانا

لو يعلم الاسلاف كيف بررتهم
لرأوك أثقل من بهــا ميزانــا

ولشدة بر المنتصر بالله بالعلويين قال عنه صاحـب الذهـب المسبوك انه كان شيعيا (١٦) • كما مدحه البحتري بقصيدة اشاد فيها بسياسته تجاه العلويين • ولعلها القصيدة الوحيدة التي قالها في مدحه ، لأنه كان قد اتهمه بالمشاركة في اغتيال ابيــه . قــال فيها يخاطب المنتصر بالله (١٧) :

رددت المظــالم واســترجعت
يداك الحقــوق لمن قــد قهــر

وآل ابــي طالــب بعــدمـا
أذيــع بسربهـــــم فابذعـــــر

و نالت ادانيهـــم جفـــــوة
تكاد السماء ، لهـــا تنفطر

وصلت شــوابك ارحامهـــم
وقد أوشك الحبــل ان ينبتــر

فقربت من حظهـم مــا نأى
وصفيت من شربهم ما كدر

---

(١٦) مروج الذهب ٤/١٣٥ ـ ١٣٦ •
(١٧) الذهب المسبوك / ٢٢٧ •

قرابتكم ، اشقاؤكم
واخوتكم دون هذا البشر

ومن هم وانتم يدا نصرة
وحدا حسام قديم الأثر

بقيت امام الهدى ، للهدى
تجدد من نهجه ما دثر

وكان من نتيجة محاسنة المنتصر بالله العلويين ، انهم اخلدوا الى مسالمة الخلافة العباسية على عهده ٠

وعندما ضعفت الخلافة في ايام الفتنة كثرت وثبات العلويين ٠ ولكن رغم ضعف الخلفاء كان الجيش الذي يعتمد عليه القواد الحكام من الاتراك قويا وهو تحت قيادتهم ، ولذلك كانوا يبادرون الى توجيهه لاخضاع تلك الوثبات والبطش بالقائمين بها ٠ ويمكن القول ان جميع وثبات العلويين على خلفاء سامرا قد قضي عليها سوى فتنة الحسن بن زيد العلوي التي اندلعت في ايام المستعين بالله ٠ فقد استمرت الى ما بعد عودة العاصمة الى مدينة السلام ثانية حتى تم القضاء عليها في سنة ٢٨٧هـ على أيدي السامانيين ، كما سنرى في الفصل القادم ، بعد ان استمرت سبعا وثلاثين سنة ، بحيث ان ابن خلدون سماها الدولة العلوية ٠

وبلغ الخليفة المعتز بالله في سنة ٢٥٢هـ ان بعض العلويين المقيمين في بغداد لهم اتصالات بالحسن بن زيد العلوي صاحب طبرستان ، وان احدهم شخص الى ناحية الكوفة مع عدد من اتباعه ٠ فاوجس خيفة من انهم يعتزمون الخروج عليه ، فكتب الى نائبه في بغداد محمد بن عبدالله ان يحمل هؤلاء الطالبيين الى سامرا ،

فحملوا جميعا ، وكان فيهم ابو هاشم داود بن القاسم الجعفري وهو من احفاد جعفر بن ابي طالب ، وعلي بن عبيدالله بن عبدالله من احفاد الحسن بن علي بن ابي طالب ، وابو احمد محمد بن جعفر من احفاد الحسن كذلك وهم من رؤوساء العلويين • وكان ابو احمد المذكور سبق ان ولاه المعتز بالله ولاية الكوفة بعد ما قضى مزاحم بن خاقان على ثورة الحسين بن محمد العلوي ، فأساء ابو احمد في ادارته واعتدى على اموال الناس وضياعهم • فارسل محمد بن عبدالله نائبا عنه الى الكوفة ، فاستطاع ان يخدع ابا احمد ويقبض عليه ويحمله مقيداً الى بغداد ، فحبسه محمد ثم ما لبث ان اطلقه بكفالة بعض العلويين ، وكان مع العلويين الذي حملوا الى سامرا من بغداد عدد من اتباعهم (١٨) •

ويظهر ان المعتز بالله رأى ان يضع بقية العلويين تحت رقابته في حاضرة الخلافة سامرا ، فأمر بحمل العلويين الموجودين في مصر الى سامرا كذلك • فقدم عيسى الشيباني من مصر ومعه ستة وسبعون من سائر ولد ابي طالب من اولاد علي وجعفر وعقيل • وكان هؤلاء قد خرجوا الى مصر خوفا من الفتنة وبسبب الجهد النازل بالحجاز • فلما وصلوا سامرا احسن المعتز بالله معاملتهم وامر بتكفيلهم واطلاقهم (١٩) •

ويتضح مما يذكره ابو الفرج في كتابه مقاتل الطالبين ان ايام المعتمد على الله كانت شديدة على العلويين ، وقد مات عدد منهم في سجن سامرا في ايامه • فقد توفي محمد بن الحسين بن محمد ابن الحسن بن علي بن ابي طالب وهو محبوس بسجن سامرا •

---

(١٨) القصيدة في ديوان البحتري ٢/٨٤٨ـ٨٥١ •
(١٩) الطبري ٩/٣٦٩ ـ ٣٧١ ، والكامل ٧/١٧٥ـ١٧٦ •

وتوفي موسى بن موسى بن محمد بن الحسن بن علي بن ابي طالب ، وكان ممن حمل من مصر في ايام المعتز بالله وسجن . كما توفي محمد بن احمد بن عيسى بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، وكان قد حمله سعيد الحاجب مع ابنيه احمد وعلي ، فتوفي محمد وابنه احمد في الحبس ايضا (٢٠) (*) .

---

(٢٠) مروج الذهب ٤/٧٧٧ .

(*) مقاتل الطالبين / ٦٨٨-٦٨٩ .

الفصل الثاني

خروج العلويين في عهد خلفاء سامرا

١ ـ خروج محمد بن القاسم العلوي :

كان محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب (١) ، ويكنى بابي جعفر . يسكن المدينة المنورة ملازماً المسجد النبوي الشريف (٢) • وقد عرف بحسن السيرة والزهد ، ولقب بالصوفي لأنه ادمن لبس الثياب من الصوف الأبيض (٣) • فاتصل به احد الخراسانيين المجاورين واقنعه بحقه في الامامة وبايعه عليها ، وصار يأتيه ببعض حجاج خراسان يبايعونه (٤) • ولما رأى محمد بن القاسم كثرة من بايعه من الخراسانيين سافر الى الطالقان من كور خراسان واظهر دعوته فيها

(١) هكذا ورد اسمه في تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧١ ، ومروج الذهب ٤/٥٢ ، مقاتل الطالبين / ٥٨٧ وورد في الطبري ٩/٧ : محمد بن القاسم ابن عمر بن علي ••• ونقله عنه ابن الاثير ـ الكامل ٦/٤٤٢ •

(٢) الكامل ٦/٤٤٢ •

(٣) مقاتل الطالبيين / ٥٧٨ •

(٤) الكامل ٦/٤٤٢ •

في سنة ٢١٩هـ ، فصار اليه كثير من الاتباع والأنصار في تلك المناطـق ٠

ويقول المسعودي انه كان بالكوفة وقد عرف بالزهد والتقوى ، ولمـا خاف على نفسه هرب الى خراسان وتنقل بين كورها ، واظهر دعوته هناك (٥) ٠

وذكر ابو الفرج ان ابراهيم بن عبدالله العطار ، وهو احـد دعاة محمد بن القاسم ، قال انه نزل بمرو ومعه عدد من الكوفيين من اتباعه ، فلما اجتمع امره عين يوما لخروجـه على الخلافـة ، فاجتمع اليه اتباعه في يوم محدد ليتلقوا امره بالخروج ٠ ويروي ابراهيم المذكور خبرا عن احد الانتهازيين ممن بايعوا محمد بن القاسم لمجرد الانتفاع والكسب ٠ قال ما خلاصته : بينما نحن عنده نعد للخروج سمعنا صوت استغاثة رجل ، فقال لي محمد انظر ما هذا الصراخ ، فأتيت الموضع فرأيت رجلا حائكا قد اخذ رجل ممن بايعنا لبدأ والحائك متعلق به يستغيث ٠ فاستفسرت عن الأمر ، فقال الحائك : اخذ صاحبكم هذا لبدي ٠ فقلت للرجل اردد عليه لبده ، فقد سمع ابو جعفر صراخه ٠ فقال لي : انما خرجنا معكم لنكتسب وننتفع ونأخذ ما نحتاج اليه ٠ فلم ازل ارفق بـه حتى اخذت منه اللبد ورددته الى صاحبه ٠ ورجعت الى محمد بن القاسم واخبرته الخبر ، فقال : يا ابراهيم أبمثل هذا ينصر الدين؟ ثـم قال لنا : فرقوا الناس حتى ارى رأي(٦) ٠

---

(٥) مروج الذهب ٤/٥٢ ٠

(٦) مقاتل الطالبين / ٥٧٩ ـ ٥٨٠ ٠

وعندما شعر امير خراسان عبدالله بن طاهر بخطر دعوة محمد بن القاسم قرر ان يقبض عليه • فجرت بين قواته واتباع محمد عدة وقائع بنواحي الطالقان وجبالها ، كان نتيجتها فشل محمد ، فانهزم وبعض اتباعه الى احدى القرى فقبض عليه عبدالله بن طاهر وسيره الى سامرا • ولم يجسر ابن طاهر على اشخاصه علنا لكثرة اتباعه ومؤيديه ، فكان يخرج بغالا عليها قباب ليوهم الناس انه قد اخرجه ، ثم يردها ، وقد فعل ذلك عدة مرات حتى استطاع ان يبعث به في احدى الليالي ومعه جيش لحمايته ، حتى اوصله الى الخليفة ببغداد (٧) • فأمر المعتصم بالله بحبسه ريثما ينظر في امره (٨) •

وكان المعتصم بالله امر ببناء حبس في بستان موسى وكان القيم به مسرور مولى الرشيد ، وهو نموذج للحبوس في ذلك العهد ، وقد وصف بانه كالبئر العميقة حفرت الى الماء ، ثم بني فيها بناء على هيئة المنارة مجوف من باطنه ومدرج • وقد حفر في مواضع من التدريج مستراحات ، وبني في كل مستراح ما يشبه الغرفة ، يجلس فيها رجل واحد كأنها على مقداره بحيث لا يستطيع ان يمد رجليه • فلما قبض على محمد بن القاسم حبس في اسفل ذلك الحبس • فأصابه من الجهد لضيقه ، ومن البرد امر عظيم • فكاد ان يتلف من ساعته ، فقال : ان كان امير المؤمنين يريد قتلي فالساعة اموت ، والا فقد اصبحت على وشك منه •

---

(٧) مقاتل الطالبيين / ٥٨٤ •

(٨) الطبري ٩/٨ •

فلما بلغ المعتصم بالله قوله ، قال : ما اريد قتله ، وامر باخراجه وحبسه في بيت كان قد بنى فى البستان (٩) ٠

وقد استطاع محمد بن القاسم ان يهرب من سجنه بمساعدة بعض اتباعه ٠ وهناك عدة روايات عن كيفية هروبه ٠ يقول الطبري : ولما كانت ليلة الفطر واشتغل الناس بالعيد والتهنئة ، احتال للخروج من الحبس بالليل ٠ وانه دلي اليه حبل من كوة كانت في اعلى البيت الذي حبس فيه يدخل منهسا الضوء ٠ فلما اصبحوا اتوه بالطعام فافتقدوه ، وجعلوا لمن دل عليه مائة الف درهم ، الا انه لم يعرف له خبر (١٠) ٠ وجاء في مقاتل الطالبيين انه هو الذي صنع الحبل من لبد كان تحته في السجن وربطه في الكوة وتدلى الى الخارج وهرب (١١) ٠ اما المسعودي فيقول ان جماعة من شيعته من الطالقان أتو ذلك البستان ، فتأتوا للخدمة فيه من غرس وزراعة واتخذوا سلالم من الحبال واللبود ونقبوا الازج واخرجوه ، فذهبوا به ، ولم يعرف له خبر (١٢) ٠

ووردت عن نهاية محمد بن القاسم روايات متعددة ايضا ٠ فان المسعودي يقول ان هناك من يقول انه قتل بالسم ، وان كثيراً من اتباعه يزعمون انه مهدي هذه الأمة ٠ وهو يرى أن قولهم هذا

---

(٩) التفصيلات في الفرج بعد الشدة ٢/١٧٥-١٧٩ ويبين كيفية هروبه ٠ وفي مروج الذهب ان المعتصم بالله حبسه في ازج اتخذ في بستان ـ ٤/٥٢ ٠

(١٠) الطبري ٩/٧-٨ ٠

(١٣) مروج الذهب ٤/٥٥ ٠

(١١) مقاتل الطالبيين / ٥٨٦ ٠

(١٣ نفس المصدر / ٥٢-٥٣ ٠

في محمد بن القاسم يشبه قول الكيسانية في محمد بن الحنفية (١٣) • وجاء في مقاتل الطالبيين انه رجع الى الطالقان ، وقيل انه انحدر الى واسط واختفى طيلة ايام المعتصم بالله والواثق بالله ، ثم اخذ في ايام المتوكل على الله فحبس ومات في حبسه (١٤) •

ومن المرجح ان نهاية محمد بن القاسم كانت القتل ، لأن خروجه على الخليفة العباسي بدعوة الامامة العلوية مما يهدد خلافته • اما الادعاء باختفائه فانه يلائم السلطة لتتخلص من تهمة قتله ، كما انه يلائم اتباعه الذين يرون فيه المهدي المنتظر الذي سيتمثل بمن سيخرج على الدولة من العلويين •

٢ ـ خروج محمد بن صالح :

رغم سياسة الشدة التي اتبعها المتوكل على الله مع العلويين فقد حاول بعضهم الخروج عليه • فقد خرج في الحجاز في ايامه ابو عبدالله محمد بن صالح بن عبدالله من احفاد الحسن بن علي ابن ابي طالب • وكان خروجه في موسم الحج في سنة ٢٤٢هـ • وكان القائد ابو الساج قد عينه المتوكل على الله في سنة ٢٤٢هـ واليا على طريق مكة وإحداث الموسم(١٥) • فخاف موسى بن عبدالله ، وهو عم محمد بن صالح ، على نفسه واولاده واهله فضمن لأبي الساج تسليمه • واستطاع موسى ان يقنع ابن اخيه بالتسليم ، فخرج محمد الى ابي الساج فقيده وحمله الى سامرا مع جماعة من اهله • فأمر المتوكل على الله بسجنه فيها • الا ان الفتح

---

(١٤) مقاتل الطالبيين / ٥٨٧ •

(١٥) الطبري ٩/٢١٠ •

ابن خاقان تكفل بأمره فوافق المتوكل على الله اطـــلاقه على ان يجعله الفتح تحت رقابته • وان يكون مقامه بسامرا ولا يخرج الى الى الحجاز • فلم يزل بسامرا حتى مات بالجدري في ايام المنتصر بالله • وكان يجهد في ان يؤذن له بالرجوع الى الحجاز ، فلا يجاب الى ذلك •

ويعتبر محمد بن صالح من شعراء آل ابي طالب المتقدمين • وقد عده ابو الفرج الاصبهاني من شعراء الحجاز الظرفاء ، وافرد له فصلا في كتابه باعتبار ان له شعراً يغنى به (١٦) • وقد قال محمد بن صالح في عبيدالله بن يحيى بن خاقان • وزير المتوكل على الله ، هجاء كثيرا ، لأنه كان لشدة انحرافه عن الطالبين يغري المتوكل على الله به ويحذره من اطلاقه • وقد هجاه في قصيدة مدح بها صديقه ابراهيم بن المدبر ، جاء فيها (١٧) :

وما في آل خاقــان اعتصام
اذا ما عمــم الخطب الكبير
لئـــام الناس اثـــراء وفقـــراً
واعجزهم اذا حمــي القتيــر
وقــوم لا يزد حبهــم كريــم
ولا تسنى لنسوتهــم مهــور

وكان محمد بن صالح حلو اللسان ، ظريفا ، اديبا ، وكان في سامرا يخالط سراة الناس ووجوه البلد ، ولم يكـــن يفــارق

---

(١٦) الاغاني ١٦/ ٣٦٠-٣٧٢ •
(١٧) كامل القصيدة في الاغاني ٣٦٧/١٦ ـ ٣٦٨ ، وعن خروجه راجع مقاتل الطالبيين / ٦٠٠ـ٦١٣ •

سعيد بن حميد ، وهو من كبار كتاب الدولة ٠ بحيث لما توفي محمد رثاه سعيد بقصيدة منها ((١٨) :

لعمري لقد غال التجلد أننا
فقدناك فقد الغيث والعام جادب

فما اعرف الايام الا ذميمة
ولا الدهر الا وهو بالثار طالب

فقدن فتى قد كان للارض زينة
كما زينت وجه السماء الكواكب

سقى جدثا امسى الكريم ابن صالح
يحل به ، وان من المزن ساكب

اذا بشر الرواد بالغيث برقه
مرته الصبا واستحلبته الحجائب

فغادر باقي الدهر تأثير صوبه
ربيعا زهت منه الربا والمذائب

٣ ـ خروج يحيى بن عمر :

خرج في سنة ٢٥٠هـ على عهد المستعين بالله احد الطالبيين هو يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب المكنى بابي الحسين ، بالكوفة وبها كان مقتله ٠ وقد سبق ان شرنا الى محاولته الوثوب في عهد المتوكل على الله وفشله في

---

(١٨) الاغاني ١٦/٣٦٩ ٠

ذلك • فقد سافر بعد اطلاقه من السجن الى خراسان ، الا ان اميرها عبدالله بن طاهر رده الى سامرا خوفا من ان يتجمع حوله اولياؤه ومؤيدوه • فنالته ضائقة مالية شديدة وتراكمت عليه ديون ضاق بها ذرعا • فلقى عمر بن فرج الرخجي ، وكان يتولى امور الطالبيين ، وكلمه في صلته ، فاغلظ له عمر القول فقذفه يحيى في مجلسه • ولما شكاه الرخجي الى المتوكل على الله امره بضربه وحبسه ، ولم يزل محبوسا حتى كفله بعض اهله فاطلق سراحه • فشخص الى بغداد فاقام بها بحال سيئة ، فعاد الى سامرا وكلم وصيف القائد ان يخصص له رزق يجري له . فجابهه وصيف وقال « لأي شيء يجرى على مثلك »(١٩) متجاهلا مكانته ، فانصرف حانقا غاضبا •

كان يحيى بن عمر دينا عفيفا كثير العطف والمعروف على عوام الناس ، بارا بحوائجهم لم تظهر له زلة (٢٠) • وفارسا شجاعا شديد البدن مجتمع القلب (٢١) • ويظهر ان ما قاساه من ضيق مالي وما لقيه من معاملة سيئة من رجال الخليفة ، دفعه الى شق عصا الطاعة والخروج • يقول المسعودي « وكان ظهوره لذل نزل به ، وجفوة لحقته ، ومحنة نالته ، من المتوكل وغيره من الأتراك »(٢٢) • فتوجه الى الكوفة واظهر امره ، فاجتمعت اليه الزيدية وكثير من اهل الكوفة والاعراب النازلين حولها ، فبايعوه ، فقوي أمره بهم • فطرد عامل الكوفة ، وصار الى بيت مالها فاخذ ما فيه ومقداره

---

(١٩) الطبري ٩/٢٦٦ •
(٢٠) مروج الذهب ٤/١٤٩ •
(٢١) مقاتل الطالبيين / ٦٣٩ •
(٢٢) مروج الذهب ٤/١٤٨ •

الفا دينار وزيادة شيء . ومن النورق سبعون الف درهم (٢٣) • ووجه الى قوم من الصيارفة عندهم مال للسلطان فاخذه منهم(٢٤) • وفتح السجون واخرج جميع من كان فيها •

ولما بلغ خبره محمد بن عبدالله أمير بغداد أمر عبدالله بن محمود السرخسي عاماه على معاون السواد بمحاربة يحيى • فلما لقيه جرح السرخسي وانهزم مع اصحابه • واستولى يحيى على ما كان معه من المال والدواب • فوجه محمد بن عبدالله لمحاربته القائد الحسين بن اسماعيل ومعه عدد من القواد • فقدم الحسين الى شاهي ، وهو موضع غير بعيد من الكوفة ، واقام ينتظر تحرك يحيى واتباعه •

واخذ يحيى بن عمر يستعد للحرب فجمع ما تيسر له من السيوف لتسليح بعض اتباعه • ونظرا لقلة خبرته بشؤون الحرب استجاب الى جماعة من اتباعه الزيدية ممن لا معرفة لهم باصول الحرب ،. بمعاجلة الحسين • كما الح عليه عوام اتباعه بالخروج اليه • فزحف الى الجيش باتباعه واكثرهم عزل من السلاح . والتقى الطرفان عند شاهي واقتتلا قتالا شديداً . فانهزم اصحاب يحيى لما رأوا كثافة الجيش وشدة الحرب • اما يحيى فقد صرع في احدى حملاته على عسكر الحسين ، فحز رأسه وارسل الى بغداد • فلما رآه اهلها استنكروا ذلك وضجوا لما كان في نفوسهم من المحبة له (٢٥) • وجعلوا يصيحون ان يحيى لم يقتل ، ميلا منهم اليه ، حتى

---

(٢٣) الطبري ٩/ ٢٦٧ •
(٢٤) مقاتل الطالبيين / ٦٤٠ •
(٢٥) مروج الذهب ٤/ ١٤٨ •

حتى ان الغوغاء كانوا يصرخون في الطرقات : ما قتل وما فر ولكنه دخل البر (٢٦) ٠

أمر محمد بن عبدالله بحمل رأس يحيي الى المستعين بالله وكتب اليه بالنصر عليه ٠ ونصب الرأس بباب العامة بسامرا ، الا ان الناس اجتمعوا متذمرين ، فأمر الخليفة برده الى بغداد وان ينصب به بباب الجسر ٠ الا ان محمدا لم يقدر على ذلك لكثرة من اجتمع من الناس وتذمرهم ، فخاف ان يأخذوه ، فجعله في صندوق في بيت السلاح في داره (٢٧) ٠ وجلس محمد بن عبدالله يتقبل التهاني بمقتل يحيى ٠ وكان ممن دخل عليه ابو هاشم داود بن القاسم ، وكان ذا علم وورع وزهد فقال لأبن طاهر : ايها الأمير انك لتهنأ بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا لعزي به ٠ فما رد محمد عليه بشيء ، فخرج ابو هاشم وهو يقول (٢٨) :

يابني طاهر كلوه وبيئا
ان لحم النبي غير مري
ان وترا يكون طالبه الله لوتر نجاحه بالحري

وقد اكثر الشعراء في رثاء يحيى لما كان عليه من حسن السيرة وما اتصف به من خصال حميدة ، وعدالة ونزاهة ٠ يقول ابو الفرج : « وما بلغني ان احدا ممن قتل في الدولة العباسية من آل ابي طالب رثي باكثر مما رثي به يحيى ، ولا قيل فيه من الشعر باكثر مما قيل فيه » (٢٩) ٠

---

(٢٦) مقاتل الطالبيين ٦٤٤ ٠
(٢٧) الطبري ٩/٢٧٠ ، والكامل ٧/١٢٨ ٠
(٢٨) الطبري ٩/٢٧٠ ، ومروج الذهب ٤/١٤٨ مع اختلاف يسير ٠
(٢٩) مقاتل الطالبيين / ٦٤٦ ٠

وكان الشاعر ابن الرومي علي بن العباس اشهر من رثاه ، فقد قال في رثائه قصيدة اربت على مائة بيت ، منها (٣٠) :

ألا أيهذا الناس طال ضريركم(٣١)
بآل الرسول فاخشوا او ارتجوا

أكل أوان للنبي محمد
قتيل زكي بالدماء مضرج

تبيعون فيه الدين شر أئمة
فلله دين الله قد كاد يمرج(٣٢)

أيحيى العلا لهفي لذكراك لهفة
يباشر مكواها الفؤاد فينضج

أحين تراءتك العيون جلاءها
واقذاءها اضحت مراثيك تنسج(٣٣)

أرديتم يحيى ولو يطو أيطل
طراداً ولم يدبر من الخيل منسج(٣٤)

تأتت لكم فيه منى السوء هينة
وذاك لكم بالغي اغرى والهج

تمدون في طغيانكم وضلالكم
ويستدرج المغرور منكم فيدرج

---

(٣٠) القصيدة في مقاتل الطالبين / ٦٤٦-٦٦٢ ·
(٣١) ضريركم : ضرركم ·
(٣٢) يمرج : يفسد ويضطرب ·
(٣٣) تراءتك : نظرتك فكنت جلاء لعيون احبابك وقذى لاعدائك ·
(٣٤) الايطل : الخاصرة ، والطراد : حمل الفرسان بعضهم على بعض ، والمنسج ما بين العرف وموضع اللبد ·

أجنــوا بني العباس مــن شنآنكــم
وشدوا على ما في العيابواشرجوا (٣٥)

ولم تقنعوا حتى استثارت قبورهــم
كــلابكــم منهــا بهيــم وديــزج

ورثاه علي بن محمد بن جعفر العلوي الحماني الشاعر بعدد من القصائد ذكر المسعودي بعضا منها (٣٦) • وكان على هذا نقيب الهاشميين في الكوفة ، وقد تخلف عن زيارة الحسين بن اسماعيل قائد الجيش الذي حارب يحيى بن عمر ، فتفقــده الحســين بــن اسماعيل قائد الجيش الذي حارب يحى بن عمر ، فتفقده الحسين وبعث بجماعة فاحضروه • فأنكر الحسين عليه تخلفه عن سلامه ، فاجابه علي بقوله (٣٧) :

قتلت أعــز من ركــب المطــايا
وجئتك استلينك فــي الكــلام

وعــز عليّ ان القــاك الا
وفيما بيننــا حــد الحســام

ولكن الجنــاح اذا أهيضــت
قوادمــه يرف على الأكــام

كما رثاه احمد بن طاهر الشاعر بقصيدة طويلة ذكر المسعودي عدداً من ابياتها منها (٣٨) :

---

(٣٥) أجنوا : استروا ، الشنآن : البغض ، العياب : جمع عيبة وهي ما يجعل فيها المتاع ، والاشراج شد الخريطة •
(٣٦) مروج الذهب ٤/١٤٨–١٥١ •
(٣٧) نفس المصدر / ١٥١ •
(٣٨) نفس المصدر / ١٤٨–١٤٩ •

سلام على الاسلام فهو مودع
اذا ما مضى آل النبي فودعوا

فقدنا العلى والمجد عند افتقادهم
واضحت عروش المكرمات تضعضع

بنو طاهر واللؤم منكم سجية
وللغدر منكم حاسر ومقنع

قواطعكم في الترك غير قواطع
ولكنها في آل احمد تقطع

لكم مرتع في دار آل محمد
وداركم للترك والجيش مرتع

اخلتم بأن الله يرعى حقوقكم
وحق رسول الله فيكم مضيع

٤ ـ خروج الحسن بن زيد الطالبي :

لعل اخطر الوثبات العلوية وابعدها اثرا من حيث طول مدتها وسعة رقعتها هي التي قام بها الحسن بن زيد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن ابي طالب المعروف بالحسن العلوي او الطالبي ، في رمضان سنة ٢٥٠هـ على عهد الخليفة المستعين بالله (٣٩) ٠ وكان سبب خروجه ان الخليفة كافأ امير بغداد

النسب ، وانه من نسل الحسين بن ابي طالب لا الحسن كما في

(٣٩) الطبري ٩/٢٧١ ، والكامل ٧/١٣٠ وفيه بعض الخلاف في سلسلة الطبري ٠

محمد بن عبدالله لما قضى على حركة يحيى بن عمر ، فاقطعه بعض القطائع من اراضي الدولة بطبرستان ومنها قطيعة على حدود الديلم • فوجه محمد بن عبدالله جابر بن هارون وهو اخو كاتبه بشر بن هارون النصراني ، لحيازة ما اقطع هناك من الأراضي •

وكان عامل طبرستان حينذاك سليمان بن عبدالله خليفة اخيه محمد بن عبدالله ، والغالب على سليمان محمد بن اوس البلخي الذي فرق اولاده حكاما على مدن طبرستان • وهم احداث سفهاء تأذى الناس بهم واستنكروا منهم ومن ابيهم سيرتهم وسوء تصرفاتهم • وقد اثار محمد بن اوس الديلم باجتياحه ما قرب من بلادهم من حدود طبرستان فقتل وسبي منهم عددا كبيرا ، وهم اهل سلم وموادعة لأهل طبرستان ، مما جعل الطبرية ينقمون عليه وعلى اولاده ويتحينون الفرصة للوثوب بهم • فلما وصل رسول محمد ابن عبدالله الى طبرستان عمد الى ما اقطع محمد من الاراضي فحازه وحاز معه ما اتصل به من موات الارض التي كان اهل تلك الناحية يرتفقون بها ، فترعى فيها مواشيهم ومنها يحتطبون ، فأثار بعمله هذا حفيظتهم • وكان في تلك المنطقة اخوان معروفان بالشجاعة والبأس يقال لاحدهما محمد وللآخر جعفر ، فانكرا ما فعل جابر بن هارون من حيازة الارض الموات • وكان الاخوان مطاعين فاستنهضا اتباعهما لمنع جابر من ذلك • فنهضوا معهما ، فهرب جابر خوفاً على نفسه ، ولحق بسليمان بن عبدالله • فأيقن الأخوان واتباعهما بالشر لأن سليمان عامل طبرستان هو اخو محمد بن عبدالله وعم محمد بن طاهر بن عبدالله عامل الخليفة على خراسان وجميع اقاليم المشرق • فاتصلوا بجيرانهم من الديلم وتعاقدوا على معاونة بعضهم بعضا في مجابهة سليمان اذا قصدهم بحرب •

ولكي يعزز هؤلاء مركزهم ارسلوا الى رجل من الطالبيين المقيمين بطبرستان يقال له محمد بن ابراهيم يدعونه الى البيعة له ليتولى رئاستهم وقيادتهم فأبى ذلك وامتنع عليهم . الا انه دلهم على طالبي آخر وقال لهم انه يصلح للرئاسة . وكان ذلك الطالبي هو الحسن بن زيد . فوجهوا الى الري من يدعوه الى الشخوص الى طبرستان فوافاهم الحسن بن زيد ، واجمعوا على مبايعته وقتال سليمان بن عبدالله ، وبايعه معهم رؤساء الديلم .

وكان اول اعمال الحسن بن زيد انه طرد عمال ابن اوس واولاده من تلك المناطق . فانضم اليه كثيرون من اهل جبال طبرستان وسفوحها ، فزحف باتباعه نحو مدينة آمل ، وهي حاضرة طبرستان ، فاقبل ابن اوس يريد دفعه عنها الا انه هزم ودخل الحسن واتباعه المدينة . وباحراز الحسن هذا النصر كثف جيشه وغلظ امره . وانضم اليه كل طالب نهب ومريد فتنة من الصعاليك والحوزية وغيرهم (٤٠) . وجبى الحسن الخراج من اهل المدينة ، ونظم اتباعه ، وسار نحو مدينة سارية لمحاربة سليمان بن عبدالله واخراجه منها . فنشب القتال بين الطرفين ، واستطاع الحسن ان يهزم جيش سليمان ويدخل المدينة . فهرب سليمان الى جرجان تاركاً اهله وعياله وامواله بمدينة سارية . فاستولى الحسن واتباعه على الاموال ، اما الحرم والاولاد فقد سيرهم الحسن الى سليمان بجرجان . ويقول ابن الأثير « يقال ان سليمان انهزم اختياراً لأن الطاهريين كلهم كانوا يتشيعون لآل ابي طالب ، فتأثم سليمان من قتال الحسن بن زيد » (٤١) . فأجتمع للحسن بن زيد بهزيمة سليمان امرة طبرستان كلها . وقد شجعه ذلك على ان يوجه

---

(٤٠) الطبري ٩/٢٧٤ .

(٤١) الكامل ٧/١٣٢ .

حملة الى مدينة الري فطردت عاملها واستولت عليها فأستخلف الحسن احد الطالبيين عليها ، يقال له محمد بن جعفر · وبذلك اجتمعت للحسن بن زيد مع طبرستان الري الى حد همذان ·

ولما بلغ خبر استفحال امر الحسن بن زيد الخليفة المستعين بالله ارسل القائد اسماعيل بن فراشة على رأس جيش الى همذان وامره بالقيام بها والدفاع عنها . اما ما وراء ذلك فقد ترك امر الدفاع عنه لمحمد بن طاهر وعماله (٤٢) · وكان محمد بن طاهر قد اغتنم فرصة وثوب اهل الري بمحمد بن جعفر الطالبي لسوء سيرته فيهم فوجه اليها جيشاً يقوده محمد بن ميكال فأستطاع ان يأسر الطالبي ويهزم اتباعه ويسترجع المدينة · وحمل محمد بن جعفر الى نيسابور فسجنه محمد بن عبدالله بن طاهر فمات في محبسه(٤٣) · الا ان الحسن بن زيد جرد حملة اخرى على رأسها احد قواده المسمى واجن ، فهاجم ابن ميكال الذي قتل في المعركة فصارت الري ثانية الى الحسن بن زيد ·

وقد استطاع سليمان بن عبدالله ان يجمع جيشا كثيفا في جرجان ، وهاجم في سنة ٢٥١هـ طبرستان واضطر الحسن بن زيد على ان يتنحى عنها ويلحق بالديلم · فدخل سليمان الري واسترجع كذلك مدينتي سارية وآمل · وكتب الى ابن اخيه محمد بن طاهر بدخوله طبرستان وهزيمة الحسن بن زيد واسترجاع سارية وآمل ، فابلغ ابن طاهر الخليفة المستعين بالله بذلك ، فقرىء كتابه ببغداد(٤٤) · ولكن الحسن بن زيد ما لبث بعد مدة ان لم شمل

---

(٤٢) الطبري ٩/٢٧٥ ·
(٤٣) مروج الذهب ٤/١٥٣ ·
(٤٤) الطبري ٩/٣٠٧ ·

اتباعه وهاجم مدينة الري مجدداً واستولى عليها في رمضان سنة ٢٥٦هـ . فوجه اليه الخليفة المعتمد على الله كبير قواده موسى ابن بغا ، فخرج بجيشه في شوال وشيعه الخليفة بنفسه »(٤٥) ٠

الا ان الحسن بن زيد قصد في السنة التالية مدينة جرجان وكان محمد بن عبدالله قد جهز جيشا وبعث به لحمايتها ، فظفر الحسن بهذا الجيش وغنم ما كان معه من اموال ودواب واستولى على المدينة (٤٦) ٠ كما استطاع بعد ذلك بسنتين اي في سنة ٢٥٩هـ ان يتغلب على عامل مدينة قومس ويستولي عليها(٤٧) ٠ على انه واجه في السنة التالية خطر امارة بني الصفار التي اخذت بالتوسع في الأقاليم الشرقية للدولة العربية ٠ فقد هاجمه يعقوب بن الليث وهزمه ودخل طبرستان ٠ وكان سبب هجومه انه كان قد استرد سجستان من عامله عبدالله السجزي الذي كان خرج عليه ، فهرب ولحق بالحسن بن زيد في طبرستان ٠ فبعث يعقوب الى الحسن يطلب اليه ان يسلمه السجزي ، الا ان الحسن ابى تسليمه فاذنه ابن الليث بالحرب ٠ وعندما التقى جيشاهما انهزم الحسن بن زيد وفر الى ارض الديلم ودخل ابن الليث مدينة سارية ثم مدينة آمل ٠ وحاول ان يتعقب الحسن ، الا ان وعورة الطريق حالت دون ذلك ٠

واستفاد الحسن بن زيد في السنة التالية من غضب الخليفة المعتمد على الله على يعقوب بن الليث الصفار ، وكان قد امر

---

(٤٥) الطبري ٤٧٤/٩ ، والكامل ٢٤٠/٧ ٠
(٤٦) الكامل ٢٤٨/٧ ٠
(٤٧) الطبري ٥٠٦/٩ ، والكامل ٢٦٦/٧ ٠

عبيدالله بن عبدالله بن طاهر بأن يجمع من ببغداد من حجاج خراسان والري وطبرستان وجرجان ويقرأ عليهم كتابا يعلمهم فيه ان الخليفة لم يول ابن الليث ولاية خراسان ، وينكر عليه دخولها واسره اميرها محمد بن عبدالله بن طاهر ، ويأمرهم بالبراءة منه • فاغتنم الحسن الفرصة وهاجم طبرستان باتباعه من الديلم واستعادها ، وعاقب الذين ايدوا ابن الليث عليه (٤٨) •

وما لبث الحسن بن زيد بعد ذلك بضع سنوات حتى توفي في طبرستان في رجب سنه ٢٧٠هـ ، بعد ان أستمر خروجه قرابة عشرين عاما ، وتولى مكانه اخوه محمد بن زيد (٤٩) • وكان الحسن زاهدا متواضعا ، عالما بالفقه والعربية ، جوادا • مدحه احد الشعراء ، فقال (٥٠) :

لاتقل بشرى ولكن بشريان عزة الداعي ويوم المهرجان

فقال له الحسن : كان الواجب الا تفتتح الأبيات بلفظ (لا) لأن الشاعر المجيد يتخير لأول قصيدته ما يعجب السامع ويتبرك به ، ولو ابتدأت بالشطر الثاني لكان أحسن • فقال الشاعر : ليس في الدنيا كلمة اجل من قوله لا اله الا الله ، واولها (لا) ، فقال له : اصبت ، واجازه •

وحكي عنه ان مغنيا غنى امامه قصيدة الفضل بن العباس في عتبة بن ابي لهب التي اولها :

---

(٤٨) الطبري ٩/٥١٢ ، والكامل ٧/٢٨٨ •
(٤٩) الكامل ٧/٠٠٧ ، والطبري ٩/٦٦٦ وفيه انه مات في رجب او في شعبان •
(٥٠) الكامل ٧/٤٠٨ •

وانا الأخضر من يعرفني اخضر الجلدة من بيت العرب

فلما وصل الى قوله :

برسول الله وابني عمه وبعباس بن عبدالمطلب

غير الشطر الثاني من البيت وقال : لا بعباس بن عبدالمطلب. فغضب الحسن وقال له : يا ابن اللخناء تهجو ابن عمنا بين يدي ، وتحرف ما مدح به ؟ لئن فعلتها ثانية لأجعلنها آخر غنائك(٥١) .

ويظهر ان محمد بن زيد لم يكن كأخيه الحسن دراية وكفاية . اذ هاجمه القائد التركي اذكوتكين في منتصف جمادى الاولى من سنة ٢٧٠هـ بأربعة الاف فارس ، فلاقاه بمن معه من الديلم والطبرية والخراسانية ، واقتتلوا قتالا شديدا . ورغم كثافة جيش ابن زيد فقد هزم وتفرق اتباعه بعد ان قتل منهم ستة الاف واسر الفان . وغنم جيش اذكوتكين من اثقالهم ودوابهم شيئا كثيرا ، ودخل بجيشه الري(٥٢) .

وفي سنة ٢٧٥هـ سار رافع بن هرثمة الى جرجان وازال عنها محمد بن زيد الذي فر الى استراباذ . فتعقبه جيش رافع وحاصره في المدينة نحو سنتين . وقد استطاع محمد ان يفر منها ليلا مع عدد يسير من اتباعه الى مدينة سارية ، فسير اليه رافع جيشا ، فأجبره على الالتجاء الى ارض الديلم (٥٣) .

---

(٥١) الكامل ٤٠٨/٧ .
(٥٢) نفس المصدر / ٤١٨ .
(٥٣) نفس المصدر / ٤٣٤ .

ولما نشبت الحرب بين عمرو بن الليث الصفار ورافع بن هرثمة ، حاول رافع ترضية محمد بن زيد طمعا بمساعدته على ابن الليث فبعث اليه وصالحه بأن اعاد اليه طبرستان وجرجان . الا ان محمدا لم يخف الى نجدة رافع عندما احاط به جيش الصفار واضطره على الهرب . فعرف الصفار لمحمد بن زيد موقفه وخلى عليه طبرستان (٥٤) .

وعندما قامت امارة بني سامان ودخلت في حرب طاحنة مع بني الصفار وبلغ محمد بن زيد ان اسماعيل بن احمد الساماني قد اسر عمرو بن الليث خرج في جيش كثيف نحو خراسان طامعا بالاستيلاء عليها ظنا منه ان اسماعيل الساماني قد انهكته الحرب مع بني الصفار ولا يطمع في الوصول اليها . فلما صار الى جرجان كتب اليه اسماعيل يسأله ان يتركها ويعود الى طبرستان ، فابى محمد ذلك . فوجه اسماعيل جيشا يقوده محمد بن هارون . ولما التقى الجيشان على ابواب جرجان اقتتلا قتالا شديدا فاصيب محمد بعدة طعنات ، واسر ابنه زيد ، واحتوى محمد بن هارون على ما في عسكره من اموال ومتاع . ولبث محمد بعد هذه الوقعة اياما قليلة ومات من اثر الطعنات التي اصابته في الحرب ، فدفن عند باب مدينة جرجان . اما ابنه زيد فقد حمل الى اسماعيل الساماني فاكرمه ووسع عليه وانزله بخارى ، وكان الجيش الساماني دخل طبرستان (٥٥) .

---

(٥٤) نفس المصدر / ٤٥٨ .

(٥٥) الطبري ١٠/٨١ ، والكامل ٧/٥٠٤ .

وبهذا انتهت الامارة التي اقامها الحسن بن زيد الطالبي ٠ وقد سماها ابن خلدون « الدولة العلوية » (٥٦) ٠ الا انه في الواقع لم يؤسس دولة بالمعنى المعروف ، لأنه اقرب الى الثائر المتقلب منه الى الامير المستقر ٠ وقد مر بنا كيف انه كان يستولى على المدن ويتنحى عنها ٠ وقد تكرر ذلك عدة مرات ٠ وقضى حياته في كر وفر ٠ ومن الطبيعي ان مثل هذا الأضطراب لا يساعد على قيام دولة ٠ وقد انتهج محمد اخو الحسن نفس نهجه في الاستيلاء على المدن والتنحي عنها حتى قتل بعد ثماني عشرة سنة من توليه الأمر على ايدي السامانيين كما ذكرنا ٠

٥ ــ خروج اسماعيل بن يوسف الطالبي :

اشرنا الى ان من اسباب تذمر الطالبيين ووثوب بعضهم بين آن وآخر ما كانوا يلقونه من سوء المعاملة من رجال السلطة ٠ وهـذا طالبي يسكن المدينة المنورة ، خرج فيها في سنة ٢٥١ اثر خلاف بينه وبين الوالي فيها حول وقف كان له ، فتحامل عليـه الـوالي واغلظ له الكلام مما اثار غضبه ، فاعلن العصيان ٠ وجمع حوله لفيفاً من الاعراب المتعطشين للسلب والنهب ، وهاجم بهم ناحية الروحاء واستولى على اموال كانت تحمل الى المدينة من بعض الجهات ٠ ثم انصرف الى مكة وكان العامل عليها جعفر بن الفضـل ابن عيسى بن موسى بشاشات ، فقاومه وحاول منعه من دخولها ٠ الا ان اسماعيل استطاع باتباعه ان يهزم الوالي وحاميته ٠ وانتهب منزله

(٥٦) تاريخ ابن خلدون ٣/٦٠٤ ٠

ومنازل اصحابه(٥٧) • ولما حاول اهل مكة مساعدة الوالي وخرجوا لمقاتلة اسماعيل واتباعه ، وضع هؤلاء السيوف فيهم وقتلوا جماعة منهم فتهاربوا امامهم • فدخل اسماعيل واتباعه مكة واستولى على ما كان حمل من المال لاصلاح بئر زمزم ، واخذ كسوة الكعبة وما وجده في خزائنها من الذهب والفضة ، وبقي فيها خمسين يوما عاث فيها واتباعه قتلا ونهبا وحرقا ، واستولى على نحو من مائتي الف دينار •

ثم عاد اسماعيل باتباعه الى المدينة المنورة فهرب عاملها علي ابن الحسين بن اسماعيل لضعف حاميته ، فدخلوها ، ثم رجعوا الى مكة وحاصروا اهلها الذين لقوا منهم البلاء ، ومات كثير من اهلها جوعا وعطشا • ولما لم يجدوا فى مكة ما يشبع نهمهم من الاموال هاجموا جدة واستولوا على ما فيها من مؤونة واخذوا اموال التجار وما وجدوه من متاع في المراكب •

ولما وافى اسماعيل مكة للمرة الثالثة كان موسم الحج قد حل ، فسار الى عرفة • فقابله جيش كان قد وجهه الخليفة المعتز بالله لقتاله عليه محمد بن احمد بن عيسى الملقب بكعب البقر ومعه عيسى بن محمد المخزومي صاحب جيش مكة • فقاتلهم اسماعيل وقتل ما يزيد على الف من الحجاج الواقفين بعرفة ، فهرب الباقون الى مكة دون ان يقفوا بعرفات ليلا ولا نهارا (٥٨) • وقد توفى

---

(٥٧) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٨ •

(٥٨) الطبري ٩/٣٤٦-٣٤٧ ، والكامل ٧/١٦٥-١٦٦ وفيهما كان خروجه بمكة اولا •

اسماعيل بن يوسف في سنة ٢٥٢هـ(٥٩) • فخلفه اخوه محمد بن يوسف وكان اسن منه بعشرين سنة فنال الناس بسببه جهدا شديدا، حتى تمكن منه القائد ابو الساج الاشروسني الذي بعث به المعتز بالله ، فهرب محمد بعد ان قتل اكثر اصحابه (٦٠) •

ان خروج اسماعيل بن يوسف واخيه من بعده لم يكن ثورة منظمة تستهدف الحكم القائم ، وانما هو مجرد عصيان وما يتبعه من سلب ونهب اموال الدولة والناس لمجرد الانتقام والكسب • ولذا فانهما لم يلقيا من الناس اي عطف او مساعدة ، بل انهم على العكس قاوموهما وساعدا السلطة ضدهما • ولا يعتبره ابو الفرج من الثوار العلويين وانما اعتبره عابثا مفسدا تبعه امثاله . فعرضوا للحجاج وقطعوا الميرة عن بيت الله الحرام (٦١) •

٦ ـ خروج الحسين بن محمد العلوي :

لم يكن يقضي على فتنة يحيى بن عمر الطالبي الذي خرج مع من بايعه من الزيدية في الكوفة ، حتى وثب طالبي آخر في نفس المدينة ، هو الحسين بن محمد بن حمزة بن عبدالله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، ويكنى ابا احمد (٦٢) • ويلاحظ ان المسعودي وابن الأثير يحذفان من سلسلة نسبه اسم

---

(٥٩) الطبري ٩/٣٢٧ ، الكامل ٧/١٧٧ •
(٦٠) مروج الذهب ٤/١٧٦ ـ ١٧٧ •
(٦١) مقاتل الطالبيين / ٦٦٩ •
(٦٢) هكذا ورد اسمه في الطبري ٩/٣٢٨ ، ومقاتل الطالبيين / ٦٦٥ ، والكامل ٧/١٦٤ ، ومروج الذهب ٤/١٥٤ •

«الحسين بن علي» المكرر · ونميل الى صحة ما جاء في الطبري ومقاتل الطالبيين لأن بقية الطالبيين الذين خرجوا في السنتين ٢٥٠هـ و ٢٥١هـ جاء نسبهم بثمانية اجيال كالحسن بن زيد ويحى ابن عمر · ويلقب ابو الفرج الحسين بن محمد العلوي بالحرون (٦٣) ·

خرج الحسين العلوي في سنة ٢٥١هـ على عهد المستعين بالله بسواد الكوفة في اتباعه من الزيدية ومن بني اسد ، وهم بضع مئات · وكان عامل الكوفة احمد بن نصر بن مالك الخزاعي ، فقتل العلوي بعض رجاله مما اضطره على الهرب منها فاستولى عليها اتباع العلوي · فأمر الخليفة وكان حينذاك في بغداد ، محمد بن عبدالله ان يبادر الى اخماد الفتنة الجديدة · فوجه ابن طاهر احد كبار القواد الاتراك الذين صحبوا الخليفة عند انتقاله الى بغداد ، وهو مزاحم بن خاقان ، في جيش كبير · فلما وصل الجيش مدينة الكوفة هرب منها الحسين لتخلي اصحابه عنه (٦٤) · لأنهم ادركوا ان لا قبل لهم بمواجهة جيش كثيف · الا ان ابن خاقان دخل المدينة فقابله اهلها بالحجارة فامر بضرب المدينة بالنار ، فأحرق فيما يقال الف دار وثمانية اسواق ، وقبض على جميع من وجده من العلويين في الكوفة واودعهم السجن · واخذ للحسين العلوي جوار وفيهن امرأة حرة ، فنادى عليها لبيعها بباب المسجد (٦٥) ·

---

(٦٣) مقاتل الطالبيين / ٦٦٥ ·
(٦٤) الطبري ٩/٣٢٩ ، ومروج الذهب ٤/١٠٤ ·
(٦٥) الطبري ٩/٣٢٩ ·

ويظهر ان الحسين العلوي كان قد ظهر بناحية نينوى واجتمع اليه جماعة من الأعراب ، فلقيه القائد هاشم بن ابي دلف وقتل جماعة من اصحابه ، فهرب الى الكوفة واعلن الخروج ثانية (٦٦) . ويذكر ابو الفرج عن نهاية الحسين انه عندما قارب جيش ابن خاقان مدينة الكوفة هرب وخالف طريق الجيش وصار الى سامرا وبايع للمعتز بالله الذي كان قد بايعه القواد الاتراك فيها بعد التجاء الخليفة المستعين بالله الى بغداد ، الا انه ما لبث بعد مدة ان هم بالوثوب ثانية فقبض عليه وسجن ، وبقي سجينا حتى سنة ثمان وستين ومائتين فاطلق المعتمد على الله سراحه . ولكنه خرج للمرة الثالثة بسواد الكوفة فقبض عليه وامر الخليفة بحبسه في مدينة واسط . وانه لبث في الحبس الى ان مات في سنة ٢٧١هـ(٦٧) .

٧ ـ ظهور الكوكبي الطالبي :

يشير كل من الطبري وابن الأثير الى ظهور احد العلويين المعروف بالكوكبي الطالبي في سنة ٢٥٢هـ بقزوين . وقد التقى به وباتباعه جيش القائد موسى بن بغا فهزمه بخدعة حربية ، فهرب على أثرها الكوكبي ولحق بالديلم . وكان سبب الهزيمة ان اصحاب الكوكبي لما التقوا بجيش موسى جعلوا تروسهم في وجوههم يتقون بها السهام ، ولما رأى موسى ان سهام اصحابه لا تصيب منهم مقتلا امر بما معه من النفط ان يصب في ساحة المعركة . ثم امر اصحابه بالاستطراد لاتباع الكوكبي ففعلو ذلك .

---

(٦٦) الطبري ٩/٣٢٩ ، والكامل ٧/١٦٧ .
(٦٧) مقاتل الطالبيين / ٦٦٥ .

فظن الكوكبي ان اصحاب موسى قد انهزموا فامر اتباعه فتبعوهم فلما توسطوا النفط امر موسى بالنار فالقيت فيه ، فالتهب النفط من تحت اقدام اصحاب الكوكبي وجعل يحرقهم ، فانهزموا ، فدخل جيش موسى قزوين (٦٨) .

ويلاحظ ان كلا من الطبري وابن الأثير لم يذكر اسم الكوكبي الطالبي ونسبه حسب العادة ، بل اكتفى بلقبه فقط . الا ان ابن الأثير سبق ان اشار في حوادث سنة ٢٥١ هـ الى ظهور احد الطالبيين بناحية قزوين واسمه الحسين بن احمد بن اسماعيل بن محمد بن اسماعيل الأرقط بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، المعروف بالكركي ، وطرد عمال بن طاهر منها (٦٩) . كما ان المسعودي يذكر انه ظهر في السنة المشار اليها آنفا بقزوين «الكركي» الحسين بن احمد بن اسماعيل .. وهو من ولد الأرقط . فحاربه موسى بن بغا ، وصار الكركي الى الديلم (٧٠) . ولعدم اشارة الطبري الى ظهور من سماه المسعودي وابن الأثير بالكركي . يمكن القول انه هو الذي خرج في سنة ٢٥٣ هـ باسم الكوكبي العلوي ، فقاتله موسى بن بغا وهزمه ، كما اشرنا . وان احد اللقبين تصحيف للآخر ، فقد يكون لقبه الصحيح الكوكبي فصحف الى الكركي ، او بالعكس ، وذلك ما جعل ابن اثير يعتبرهما شخصين . ومما يؤيد ما ذهبنا اليه ان اليعقوبي يسميه الكوكبي الارقط (٧١) .

---

(٦٨) الطبري ٩/٣٧٨ ، والكامل ٧/١٨٤ .
(٦٩) الكامل ٧/١٦٥ .
(٧٠) مروج الذهب ٤/١٥٤ ، واسمه فيه الحسن بن احمد .
(٧١) تاريخ اليعقوبي ٢/٥٠١ .

٨ ـ خروج علي بن زيد العلوي :

يظهر مما جاء في الطبري ومروج الذهب والكامل ان علي ابن زيد الحسني حاول في اواخر خلافة المعتز بالله الخروج بمعاونة طالبي آخر هو عيسى بن جعفر العلوي فخرجا في سنة سنة ٢٥٥هـ وقتلا عاملها عبدالله بن محمد بن داود بن عيسى فوجه الخليفة اليهما القائد سعيد بن صالح المعروف بسعيد الحاجب في جيش كبير ، فانهزم العلويان لتفرق اصحابهما عنهما (٧٢) . وبعد فشلهما انفرد علي بن زيد بالخروج في السنة التالية ، في اواخر خلافة المهتدى بالله . فظهر في الكوفة ايضا واستطاع ان يطرد واليها عنها وان يستولي عليها . فتوجه اليه القائد الشاه بن ميكال على رأس جيش كثيف ، الا ان علي بن زيد استطاع ان يهزمه ويقتل كثيراً من افراده (٧٣) . مما قوى مركزه في الكوفة وما حولها .

وعندما تولى المعتمد على الله الخلافة ارسل القائد كنجور التركي الى محاربة العلوي وامره ان يدعوه الى الطاعة ويبذل له الأمان قبل مبادرته بالقتال . فسار اليه كنجور ونزل في موضع يقرب من الكوفة يسمى شاهي ، وارسل الى علي بن زيد يبذل له الأمان اذا ما استسلم واعلن طاعته . فاشترط علي شروطا لم يقبلها كنجور . ولما رأى علي بن زيد كثافة الجيش الذي جاء لمحاربته ، تنحى عن الكوفة الى القادسية فعسكر فيها باصحابه ومناصريه ، فدخل كنجور مدينة الكوفة .

---

(٧٢) الطبري ٩/٣٨٨ ، ومروج الذهب ٤/١٨٠ ، والكامل ٧/٢١٦ .
(٧٣) الطبري ٩/٤٧٤ ، والكامل ٧/٢٣٩ .

اوغل علي بن زيد في البادية ودخل اراضي بني اسد وكان قد صاهرهم ، فارسل كنجور خلفه جيشا يتعقبه ، فتوارى علي عن الانظار ، وبذلك انتهت فتنته . ويقول ابو الفرج ان اتباع علي بن زيد كانوا قليلي العدد ، فلما هاجمه جيش كنجور ، قال لأتباعه « ان القوم لا يريدون غيري ، فاذهبوا انتم في حل من بيعتي » (٧٤) . فرفض اتباعه التخلي عنه رغم جزعهم وخوفهم من الجيش الكبير المحيط بهم ، فحاول علي ان يثير حماسهم فانتضى سيفه وحمل على الجيش . فتشجع اتباعه وحملوا معه فهزموا جيش منكجور . ولكن رغم انتصار علي فقد تخاذل اصحابه من الكوفة وخذلوه خوفا لما لحقهم من الاذى ، وما اصاب مدينتهم من الحرق والتدمير عندما ايدوا يحيى بن عمر . فاضطر علي على الهرب والاختفاء .

٩ ـ وثوب محمد وعلي ابني الحسين بن جعفر :

دخل الأخوان محمد وعلي ابنا الحسين بن جعفر بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المدينة المنورة في سنة ٢٧١هـ . فقتلا جماعة من اهلها ، واخذ اموال الناس . فذعر اهل المدينة طيلة مقام الأخوين فيها . ولم يصلوا في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم اربع جمع ، لا جمعة ولا جماعة (٧٥) . ولا تعرف

---

(٧٤) مقاتل الطالبيين / ٦٧٥ .

(٧٥ و ٧٦) الطبري ١٠/٧ ، والكامل ٤١٣/٧ وفيه اسم الشاعر الفضل بن العباس العلوي ، وفي البيت الثالث (امسى) بدلا من (اضحى) ولا ذكر للبيت الأخير .

اسباب وثوبهما الا ان يكون ذلك عبثاً وفساداً منهما ، لأن احد شعراء العلويين وهو ابو العباس بن الفضل ، قد تألم من اعمالهما وشتمهما بقوله (٧٦) ٠

أخربت دار هجرة المصطفى البـــ
ـــر فابكـي اخرابهــا المسلمينا

عين فابكي مقام جبـريل والقبـ
ـــر فبكـي والمنبـر الميمونـــا

وعلى المسجد الذي أســه التقـ
ــوى خلاء اضحى من العابدينـا

وعلى طيبـة التـي بـارك اللــ
ـــه عليهـــا بخـاتم المرســلينـا

قبـــح الله معشـراً أخربوهـــا
واطاعـــوا متبـراً ملعــونا

١٠ ـ اسباب فشل خروج العلويين :

اذا ما القينا نظرة فاحصة على ما ذكرناه من الوثبات العلوية ودققنا في اسباب كل منها ونتائجها ، لرأيناها قد فشلت كلهـــا تقريبا من تحقيق هدف العلويين الأساسي وهو ازاحة بني العباس عن الحكم والقيام مقامهم فيه ٠ وهناك عوامل عـديـدة ادت الى فشلها يمكن تلخيصها بما يأتي :

أ ـ التسرع باعلان الخروج قبل ان تستكمل اسباب نجاحه ، من حيث تهيئة العدد الكافي من المؤيدين ، وتجهيزهم بالسلاح الكافي ، وضمان تأييد الناس لها ·

ب ـ لم تكن اسباب الفتن التي قامت من العمق والسعة بما يمس مصالح الناس بحيث يهبون لنصرتها وتأييدها عند قيامها · فقد كان اكثر اتباع العلويين الخارجين اما من الأعراب المتعطشين للغزو والسلب والنهب ولا يستهدفون من تأييدهم الا ما يكسبون من الاسلاب ، او من الانتهازيين الذين يتوخون مكاسب آنية · وقد كانت اغلب الفتن التي استعرضناها قد قامت لأسباب شخصية تتعلق بالعلوي الخارج ، مما كان يجعلها اقرب الى العصيان والتمرد ·

جـ ـ عدم تنظيم الدعوة العلوية ، وتوحيد اجنحتها المختلفة · فان العلويين انفسهم كانوا شيعا متعددة · مما جعل اكثر تلك الوثبات مبتسرا لم تسبقه دعوة لمبادىء واهداف واضحة ، او ترتبط بشخص معين مهيأ لذلك بحيث تستحق التضحية في سبيل انجاحها ·

د ـ ان معظم القادة العلويين الذين اعلنوا عصيانهم كانت تنقصهم الخبرة العسكرية بحيث انهم لم يستطيعوا المناورة او الصمود امام الجيوش التي كانت توجه لحربهم واخضاعهم ، الا نادرا · فللحرب اساليبها وفنونها ، ولابد من معرفتها والاحاطة بها لتحقيق النصر في اية معركة حربية ·

هـ ـ قرب مواقع الفتن من حاضرة الخلافة · اذ اعلن اغلبها في مدينة الكوفة او في اماكن قريبة من مراكز جيوش الدولة

العربية • لان قيام الفتنة في اماكن لا تبعد كثيرا عن حاضرة الخلافة لا تتيح لها فرصة كافية لأن تتوسع وتستفحل ، لأنه سرعان ما تصل انباؤها واخبارها الى المسؤولين ، سواء من رجال البريد او من العيون المبثوثة لرقابة العلويين اينما كانوا • كما كان هذا القرب يساعد ايضا على سرعة وصول الجيوش التي ترسل لقمع الفتن واخضاع القائمين بها •

وقد رأينا كيف ان فتنة الحسن بن زيد الطالبي اتسعت واستمرت مدة طويلة بسبب بعدها عن حاضرة الخلافة وقيامها في منطقة نائية •

انتهـــى

أحمد عبد الباقي

عاصمة الدولة العربية في عهد العباسيين

سامرا



الجزء الثاني

الدار العربية للموسوعات

عاصمة الدولة العربية في ع

سامــــرا

عاصمة الدولة العربية في عهد العباسيين

سامرا

أحمد عبدالباقي

الجزء الثاني

الدار العربية للموسوعات

الباب السـادس

الفتن والاضطرابات في عهد سامرا

١ ـ الفتن الكبرى •

٢ ـ الاضطرابات الاخرى •

الباب السادس

الفتن والاضطرابات في عهد سامرا

الفصل الأول

الفتن الكبرى

١ ـ فتنة الخرمية :

على الرغم من طول مدة حكم الخليفة المأمون التي بلغت عشرين عاما ونصف العام ، وعلى الرغم من كفايته الادارية وما عرف عنه من الحزم والدهاء ، فانه لم يستطع التغلب على الفتنة الخرمية التي اندلعت نيرانها في اذربيجان ، أو التغلب على تمرد الزط وعبثهم في نواحي البطائح . ويبدو ان انهماكه في توطيد عرشه الذي انتزعه من أخيه الخليفة محمد الامين ، وتعيين الامام علي بن موسى الكاظم لولاية العهد ، وما نشأ عن ذلك من مشاكل بينه وبين بني العباس . وكذلك اعتناقه مذهب المعتزلة وتعصبه لآرائهم ، وما اثاره من خلاف مع فقهاء السنة في موضوع خلق القرآن ، قد شغله عن التفرغ للقضاء على تلك الفتن يضاف الى ذلك استمرار العلاقات العدائية بين الدولة العربية والبيزنطيين مما جعل الثغور العربية عرضة لهجمات الروم . بحيث اضطر المأمون ان يقود الحملات في السنوات

الاربع الاخيرة من حكمه لمقارعة البيزنطيين • حتى انه ادركته الوفاة وهو يجاهد في بلاد الروم •

ولاريب في ان الجهود التي بذلها المأمون في القضايا آنفة الذكر استنفدت منه وقتا وجهدا كبيرين ، مما اضعف من امكانياته في القضاء على الاخطار الداخلية التي أشرنا اليها رغم اهتمامه بأمرها • وقد تمثل هذا الاهتمام بتأكيده في وصيته على أخيه أبي اسحاق ان يتفرغ لها ويبذل كل جهوده للقضاء عليها • ولذا كان من أولى واجبات المعتصم بالله الا يألو جهدا في مقاومة تلك الاخطار والقضاء عليها • اذ لم يكد ينتهي من أمر المبايعة حتى انصرف الى العمل بجد وحزم لمجابهة تلك الاضطرابات التي كانت قائمة والتي قامت بعد ذلك في عهده • وسنحاول فيما يأتي ان نتبين جهوده في القضاء عليها •

وبالنظر لأهمية الفتنة الخرمية التي كانت تهدد بالقضاء على الخلافة والدولة العربية ، فسنتكلم عنها بشيء من التفصيل •

الحركة الخرمية :

يرى ياقوت الحموي ان الحركة الخرمية عرفت بهذا الاسم نسبة الى بابك الخرمي • وخرم (بظم أوله وتشديد ثانية مع الفتح) رستاق بارديبل • كما يقول : وقيل ان الخرمية تعبير فارسي معناه الذين يتبعون الشهوات ويستبيحونها[١] • وجاء في كتاب السيادة العربية ان اسمها مشتق من خرم وهي مدينة ببلاد ميديا ، أو من كلمة خرم الفارسية ومعناها لذيذ[٢] • ويرى المسعودي ان الخرمية هي الطائفة التي تدعى بالمسلمية القائلين بامامة ابي مسلم الخراساني ، وقد تنازعوا بعد وفاته ، فمنهم من رأى انه لم يمت ولن يموت حتى يظهر فيملأ الدنيا عدلا، وفرقة قطعت بموته وقالت

(١) معجم البلدان ، ٢/٣٦٢ •
(٢) السيادة العربية/٩٩ـ١٠٠ •

بامامة ابنته فاطمة وهم يدعون الفاطمية(٣) • أما البغدادي فيرى ان الخرمية صنفان صنف منهم كان قبل الاسلام كالمزدكية الذين استباحوا الحرمات وزعموا ان الناس شركاء في الاموال والنساء • والصنف الثاني الخرميــــة الذين ظهروا في دولة الاســلام ، وهم فريقان : بابكية ومازيارية ، وكلتاهما معروفة بالمحمرة(٤) • ولابن الأثير رأي فاحش في التسمية(٥) •

لقد نشأت هذه الحركة بين سكان اذربيجان والمناطق الفارسية المجاورة لها ، بين من احتفظوا بمجوسيتهم ، والذين كانوا شديدي البغض والكراهية للاسلام والعرب • فكانوا يجرون وراء كل دعوة تستهدف محاربة الاسلام والقضــــاء على دولة العرب • والخرمية اصناف عديدة غير انهم يجمعون على القول بالرجعة ويقولون بتغيير الاسم وتبديل الجسم(٦) ، اي انهم يؤمنون بتناسخ الأرواح والقول بالحلول • فقد جاء في وصية جاويدان التي بلغتها زوجته لاصحابه بعد موته : اني أريد أن أموت في هذه الليلة ، وان روحي تخرج من بدني وتدخل بدن بابك وتشترك مع روحه(٧) • وكان بابك يقول لمن يستغويه انه اله(٨) • ويدعون الى اباحــــة النساء والاموال • يقول المقدسي ، وجدنا منهم من يقول باباحة النساء على الرضاء منهن ، واباحة كل ما يلذ للنفس وينزع اليه الطبع مالم يعد على أحد بضرر(٩) • وقد أمر المازيار الأكـــرة بانتهاب أموال أرباع

---

(٣) مروج الذهب ٣/٣٠٥ •
(٤) الفرق بين الفرق/١٦١ •
(٥) الكامل ٦/٣٢٨ •
(٦) البدء والتاريخ ٤/٣٠ •
(٧) الفهرست/٤٩٦ •
(٨) نفس المصدر/٤٩٤ •
(٩) البدء والتاريخ ٥/١١٤ •

الضياع وغلاتها(١٠) . كما انهم يعملون على اعادة الملك الى العجم والدعوة الى الالحاد(١١) .

وكانت الحركة منظمة يتولاها انـــاس متمرسون بأساليب الدعاية ، مما ساعد على حفظ آراء مـــزدك ومبادئه ونشرها بين سكان هذه المناطق . وقد آلت رئاستهـــا في نهاية القرن الثاني للهجرة الى جاويدان بن سهل(١٢) ، وكان من الاغنياء المتنفذين في جبال البذ . وهو الذي اكتشف بابك وقابلياته ، ومهد له السبيل لرياسة الحركة .

بابك يتولى قيادة الحركة :

كان بابك في أول نشأته صبيا مغمورا يرعى البقر ، وعمل سائسا ردحا من حياته ، ثم التحق بخدمة جاويدان الذي وجده على رداءة حاله وتعقد لسانه بالأعجمية ، فهما ، ورآه خبيثا شهما . فاتخذه وكيلا لأعماله وأمواله وضـــياعه(١٣) ، واطلعه على أسرار الحركة المجوسية . وسرعان ما اظهر بابك تفهما عميقا لمبادئها وأهدافها . ولما مات جاويدان ساعدت زوجته وكيله بابك ليحل محله في رياسة الحركة واتباعها ، بأن لفقت وصيته على لسان زوجها وبلغتها لرجاله ، وخلاصتها ان روح جاويدان حلت في بدن بابك ، الذي سيبلغ أمرا لم يبلغه أحد، وان النصر سيحالفه فيملك الارض، ويقتل الجبابرة ، ويـــرد المزدكية ، ويعتز به الذليـــل ويرتفع الوضيع(١٤) . وبايعته هي وتزوجت منه ، فتبعها أصحاب جاويدان، فأصبح الرئيس الجديد للحركة . ويقول أبو حنيفة الدينوري انه صح عنـــده ان بابك من ولد مطهر بن فاطمـــة بنت أبي مسلم

---

(١٠) الطبري ٩/٨١ . والعيون والحدائق ٣/٣٩٩ .
(١١) البدء والتاريخ ٥/١٣٤ .
(١٢) في التنبيه والاشراف/٣٠٦ ورد اسمه جاوذان بن شهرك .
(١٣) الفهرست/٤٩٥ .
(١٤) نفس المصدر/٤٩٦ . والبدء والتاريخ ٦/١١٤-١١٨ .

الخراساني[١٥] • بينما يظهر خبر أورده ابن النديم انه ولد سفاحا لدهان من أهل المدائن[١٦] • وكذلك يـــرى الطبري انه من أصل وضيع[١٧] •

تختلف حركة بابك عن الحـــركات الاخرى التي قامت ضد الدولة العربية في انها كانت منظمة تنظيما جيدا كفل لها سرعة الانتشار ، وطول مدة الصمود في صد الجيوش العربية التي وجهت لضربها • فلم يقتصر انتشارها على المجوس من الفرس وحدهم ، بل انضم اليها كثير من الاكراد والأرمن وغيرهم ممن يتشكون من وطأة الحكم العباسي • ومن الطبيعي ان ينضم اليها كذلك قطاع الطرق واللصوص طمعا في الغنائم والكسب المادي[١٨] ، وهربا من مطاردة السلطة • كما مالأه بعض القواد والحكام المحليين بدوافع شخصية ، فقد شايعه محمد بن البعيث وعصمة الكردي ومنكجور القرتماتي ، وكاتبه حاتم بن هرثمة بن أعين في اذربيجان وهون له الأمر هناك فتحرك بابك وغلب على اذربيجان[١٩] • كما كاتبه مازيار يحرضه ويعرض عليه النصرة[٢٠] •

اعلان الخروج على الدولة :

لقد استطاع بابك خلال فترة قصيرة تنظيم اتباعه واعدادهم للحرب، ويقول المسعودي انهم كانوا مائتي ألف[٢١]• بحيث استطاع أن يعلن الانتفاض على الحكم العـــربي الاسلامي المتمثل بالخلافة العباسية ، في صيف سنة ٢٠١[٢٢] في اران والبيلقان واذربيجان ،

---

(١٥) الاخبار الطوال/٤٩٦ •
(١٦) الفهرست/٤٩٤ •
(١٧) الطبري ٩/٥٤ •
(١٨) التنبيه والاشراف/٣٠٧ •
(١٩) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٦٢ •
(٢٠) الطبري ٩/٨١ ، والكامل ٦/٤٩٦ •
(٢١) التنبيه والاشراف/٣٠٧ •
(٢٢) الطبري ٩/١١ •

واتخذ مدينة البذ[٢٣] مركزا حربيا لــــه • واخذ يزحف منها على المناطق المجاورة • ومن العوامل المهمة التي ساعدت بابك في حركته معرفتــــه واصحابه بطبيعة اراضي المناطـــــق التي انتشرت فيها الخرمية ، من حيث ممراتها ومكامنها، وقيامهم بتخريب مايستولون عليه من القــلاع والحصون • وقد اطلق على أصـــحاب بابك من الخرمية اسم «المحمرة»[٢٤] • وسبب هـــذه التسمية انهم صبغوا ثيابهم بالحمرة التي اتخذوها شعارا لهم[٢٥] •

لقد استطاع بابك ان ينشر حركته في أقاليم ومدن عديدة مثل اصبهان وهمذان والري وسائر أراضي العجم[٢٦] • ودخل في سنة ٢١٨هـ وهي السنة التي تولى فيهـــا المعتصم بالله الخلافة ، جماعة كبيرة من أهل الجبال في الدعوة الخرميـــة وتجمعوا وعسكروا في همذان[٢٧] • وكان هـــدف بابـــك ان يزيل ملكـــا ويقلب ملة ويبدلها[٢٨] • كما أراد أن يقيم ملة المجوس[٢٩] • والواقع ان خرمية بابك استهدفت ازالة الحكم العربي واستبدال الخرمية المجوسية به • فهي حركة دينيـــة سياسية معا تسعى الى ادالـــة دولة العرب ودينهم ، وذلك بالقضاء على الدولة العربية أو الاستقلال عنها •

ورغم ما كانت تنطوي عليه الحركة الخرمية من خطر جسيم بات يهدد الدولة العربية والدين الاسلامي ، فان الحرب الاهلية

---

(٢٣) البذ : بتشديد الذال ، كورة بين اذربيجان وايران ، كان بها مخرج بابك الخرمي . ويقال : وفيها تعقد اعلام المحمـــرة المعروفين بالخرمية ، وفيها يتوقعون المهدي ـ معجم البلدان ١/٣٦١ •
(٢٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٦ •
(٢٥) المنتظم ٥/١١٤ •
(٢٦) التنبيه والاشراف /٣٠٦ •
(٢٧) الطبري ٨/٦٦٧ •
(٢٨) مروج الذهب ٤/٥٨ ، وللمسعودي في كتابه التنبيه والاشراف/٣٠٦ قول مماثل اذ يقول ان ما ينتظره الجميع في المستقبل من الزمان الآتي من عودة الملك فيهم . ومن خلق الاسلام منهم •
(٢٩) شذرات الذهب ١/٣٨٤ •

التي قامت بين الخليفة محمد الامين وأخيه المأمون قسمت الجيش على نفسه مما اضعفه ولاشك ، واشغلت الدولة عن الاهتمام بشأن هذه الحركة مدة من الزمن ، مما ساعدها على التوسع والانتشار ٠ وكان من المفروض ان يبادر المأمون بعد أن تربع على عرش الخلافة الى مجابهة هذا الخطر ٠ الا انه لم يتخذ أي اجراء بشأنه حتى سنة ٢٠٤هـ عندما عاد الى بغداد ، وذلك مما يدعو الى الاستغراب ، ولا ندري ما اذا كان المأمون وهـــو في مرو على علم بامرها ولم يعرها الأهمية الكافية استصغارا لشأنها ، أم لم يكن يعلم عنها شيئا ، لان وزيره الفارسي الفضل بن سهـــل كان يحجب عنه بعض الاخبار والحقائق ويموه عليه بعضها ٠ على ان تستر الفضل بن سهل على الحركة الخرمية وعدم اخبار المأمون بها مما يدعو الى التساؤل ٠ هل كان ذلك ناشئا عن عدم اهتمامه بها وانه اعتبرها مجرد حركة دينية محلية تسعى في أحياء المزدكيـــة القديمة ، فلم يلتفت الى خطرها السياسي ، أم انه أراد أن يشجعها ويتيح لها فرصة التوسع والانتشار لانها تستهدف اعادة الحكم الفارسي ؟ ولعل مما يؤيد الاحتمال الثاني ما كان يهدف اليه الفضل نفسه من نقل الدولة الى الفرس ٠ فقد قال له القائد العربي نعيم بن حازم بحضرة المأمون : انك تريد ان تزيل الملك عن بني العبـــاس الى ولد علي ثم تحتال عليهم ، فتصير الملك كسرويا(٣٠) ٠ كمـــا ان هرثمة بن أعين أكبر قواد المأمون من العرب كان قد شعر بخطـــر سياسة الفضل وتبين أهدافه البعيدة ، فجاء الى المأمون مغاضبا وانتقد تصرفات الفضل وسياسته ، وسماه المجوسي(٣١) ٠

ويلاحظ كذلك ان طاهر بن الحسين وهو فارسي الأصل أيضا، قد تولى امارة خراسان وما جاورها من ولايات المشرق منذ ان وصل المأمون الى بغداد ، واستمر في منصبه الى ان مات في سنة ٢٠٧هـ لم

---

(٣٠) الوزراء والكتاب/٢١٣ ٠

(٣١) نفس المصدر/٢١٧ ٠

يقم بأي اجراء ضد استفحال أمر الخرمية ، لاسيما وانها امتدت الى امهات مدن ولايات المشرق • فهل كان ذلك منه تشجيعا لها ، أو عدم اهتمام واستهانة بأمرها ؟ على ان الدينوري ينفرد بخبر يقول فيه ان المأمون لما اتصل به خبر بابك وجه اليه طاهر بن الحسين في جيش عظيم ، فراقي البذ وقد عظم أمر بابك وتهيبه الناس . فحاربوه فلم يقدروا عليه ، بل انه فض جمعهم[٣٢] •

ومهما كان الامر فان أحد ولاة المأمون وهو يحيى بن معاذ قد اشتبك ببعض قوات بابك في سنة ٢٠٤هـ دون طائل[٣٣] • ثم أخذ المامون بعد ذلك يوجه الحملات لحرب بابك بين حين واخر حتى سنة ٢١٤هـ • وكانت الغلبة فيها لاتباع بابك اذ هزموا تلك الحملات واسروا بعضها وقتلوا بعض قادتها • ويظهر مما يذكره اليعقوبي انهم هزموا عددا من قواد المأمون كانوا قد توجهوا لحربهم[٣٤] • أما في السنوات التي تلت ذلك فقد انشغل المأمون في رد هجمات الروم على الثغور العربية ، وغزو ديارهم ، ولـــم يستطع توجيه حملات أخرى لحرب الخرمية ، حتى توفي وهو متألم لعدم استطاعته القضاء على الحركة المذكورة • مما دعاه ان يؤكد على أخيه أبي اسحاق في وصيته بأن يوجه أكفأ قواده واحزمهم لحرب بابك وان لا يالو جهدا في القضاء عليه ، حتى وان تطلب الأمر خروجه بنفسه لحربه[٣٥] •

المعتصم بالله وتمرد بابك :

وهكذا اصبحت حركة بابك وتمـرده أهم خطر يهدد الدولة العربية واجهه المعتصم بالله عند توليه الخلافة • اذ كانت الحملات التي وجهت اليه في عهد المأمون قد باءت بالفشل • ومن الواضح ان انقسام الجيش العربي في الحرب الاهلية ، وانشغاله بعدها باخماد

---

(٣٢) الأخبار الطوال/٣٣٧ •
(٣٣) الكامل ٣٥٨/٦ •
(٣٤) تاريخ اليعقوبي ٤٦٣/٢ •
(٣٥) الطبري ٦٤٩/٨ •

الاضطرابات المتعاقبة في مصر ، وتمرد الزط في بطائح العراق ، ومقارعة الروم في الثغور العربيـــة مما انهكه وجعله دون القوة المطلوبة لمجابهة الحركة الخرمية ، مما اتاح الفرصة لبابك واتباعه ان يعدوا أنفسهم ، بل ويكسبوا بعض المعارك الحربية . ولذلك فقد أولى المعتصم بالله هذا الامر اهتماما بالغا . وقد يكون لوصية أخيه بشأنه أثر مهم في هذا الاهتمـــام . حتى انه لم يكن له شأن يشغله ، ولم تنصرف همته الى غيره(٣٦) . وقد انتهج خطة عسكرية بارعة تضمن هزيمة بابك واتباعه . وتقوم هذه الخطة على توجيه خيرة قواد الدولة وأكفأهم لمحاربتـــه ، واستمالة بعض الموالين له وضمان تأييدهم الجيوش العربية التي توجه الى حربه . واصلاح القلاع والحصون التي خربها اتباعه ، وشحنها بالرجال . فقد وجه الخليفة القائد أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري الى اردبيل وأمره باصلاح القلاع والحصون المخربة فيما بين زنجان واردبيل ، وبناء الحصون الضرورية ، وتخصيص القوات الكافية لها ولحفظ الطرق التي ستستخدم لايصال الميرة والمؤن للجيوش المقاتلة(٣٧) .

ولما علم بابك بالاعمال التي يقوم بها أبو سعيد ادرك خطرها عليه . فوجه اليه سرية لتشغله عن انجاز ما كلف به . فاعترضها أبو سعيد بعـــدد وافر من جنوده فقتل أكثر أفرادهـــا وأسر منهم جماعة . فكانت هذه هزيمة أخرى تحـــل باصحاب بابك في عهد المعتصم بالله(٣٨) . فقد كان ثمة انتصار اخر سبق أن أحرزه الجيش العربي وذلك عندما تجمع اتباع بابك وعسكروا في همذان سنة ٢١٨هـ وقطعوا الطريق . فوجه اليهم المعتصم بالله القائد هاشم بن بايتجور فلم يتمكن منهم(٣٩) . فاتبعه باسحاق بن ابراهيم المصعبي

(٣٦) الأخبار الطوال/٣٣٩ .
(٣٧) الطبري ٩/١١ .
(٣٨) نفس المصدر/١٣ .
(٣٩) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧١ .

الذي تمكن من سحقهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة(٤٠) . ويقدر الطبري عدد من قتل من الخرمية بستين الفا ، ثم يعود فيقول انه قتل منهم نحوا من مائة ألف سوى النساء والصبيان(٤١) . ويقال ان الخرمية كانوا تواعدوا الى موضع علم به اسحاق فكمن لهم فيه ، وكل من جاء منهم قتل وحزت اذنــه ، حتى انه وجه الى الخليفه بستين الف اذن(٤٢) . وقد مدح أبــو تمام الطائي اسحاق المصعبي واشاد بايقاعه باتباع بابك بقصيدة جاء فيها قوله(٤٣) .

لاسحاق بن ابراهيــم كف — كفت عاقية نــسوء المرزمين
ومجد لم يدعه الجود حتى — أقـام مناوئا للفرقديـن
ازلت الشك عنهم يوم رانت — ضلالتهم عليهــم اي رين
لقيتهم بحلاب المنايـــا — بعيد الرز نـائى الحجرتين
فاضحوا بعد عــز واختيال — وهم عبــر لأهل المشرقين
رددت الدين وهو قرير عين — بها والكفر وهو سخين عين

وطارد اسحاق فلول المنهزمين حتى حدود بلاد الروم حيث التجأ قسم منهم اليها . وكان لهذه الهزيمة التي حلت بالخرمية في همذان تاثير كبير في اضــعاف شأنهم في اقليم الجبــال . وتضييق رقعة انتشارهم بحيث حصروا في اقليم اذربيجان ومــا حوله . وكانت نكسة ثالثة حلت ببابك ، فقد نزل احــد قواده مع اتباعه في قلعة الشاهي الحصــينة ، وكان صاحبها محمد بن البعيث مصــالحا للخرمية ، الا انه فتك باتباع القائد وأسره وبعث به الى الخليفة

---

(٤٠) نفس المصدر ، والطبري ٨/٦٦٧-٦٦٨ .
(٤١) الطبري ٩/٨ .
(٤٢) ديوان ابي تمام ٣/٢٩٧ .
(٤٣) كامل القصيدة في ديوان ابي تمام ٣/٢٩٧-٣٠٧ .

بسامرا ، فسأله عن بلاد بابك فاعلمه بطرقها ووجوه الحرب فيها(٤٤) ٠

على ان بابك ، رغم هذه الخسائر ، كان يحتفظ بالقسم الاكبر من جيشه في منطقة اران ، بحيث يستطيع أن يزج به في ميدان المعركة لمواجهة الجيش الذي يوجهه الخليفة لحربه ٠

توجيه الأفشين لحرب بابك :

عقد المعتصم بالله في أوائل جمادى الآخرة سنة ٢٢٠هـ لأكبر قواده الافشين حيدر بن كاوس ، الأمارة على الجبال ووجه به لحرب بابك(٤٥) ٠ فنزل في برزند من نواحي تفليس ، وعسكر بها - ووزع قواده وامرهم باصلاح الحصون ، وحفر الخنادق ، بحيث امن سلامة تموين جيشه ، ثم الحق به الخليفة عددا من القواد الاخرين ٠ وقد استطاعت حملة الافشين ان تلحق عددا من الهزائم بجيوش بابك وتكبدها خسائر جسيمة في الرجال في عدة معارك ٠ ومما ساعد الافشين على الاحتفاظ بانتصاراته ومطاردة الخرمية ، الامدادات المستمرة من الجند والأموال التي كان الخليفة يبعث بها بصورة متلاحقة ٠ فقد بعث اليه بعد أن أخذت جيوشه مواقعها ، بغا الكبير ومعه مال للجند وللنفقات الاخرى كما وجه اليه في سنة ٢٢٢هـ مددا من الجند يقوده القائد جعفر الخياط ٠ وبعث اليه مع القائد ايتاخ ثلاثين ألف ألف درهم ، فاوصلها اليه وعاد ٠

وكان الافشين يحسن معاملة جواسيس بابك عندما يقعون في يده ويجزل عطاءهم ، ويحصل منهم على معلومات عن العدو من حيث مواضعه وعدد قواته ، وتحصيناته ومكامنه ٠ كما استطاع ان يدفع

---

(٤٤) الطبري ١٢/٩ ٠

(٤٥) نفس المصدر/١١ ٠

جنوده الى الاستبسال في القتال بمـــا بذله لهم من بذر الاموال ، والاسورة والاطواق التي كان يقلد بها قواده ، ووعوده لهم بزيادة أرزاقهم ، وبانه سيكتب باســـماء المستبسلين الى الخليفة ليجزل عطاءهم(٤٦) ٠

كانت خطة الافشين في محاربة الخرمية تقوم على مطاولتهم في الحرب وتضييق الخناق عليهم تدريجيا ، وقطع سبل مواصلاتهم ، مستهدفا حصرهم في عقر دارهم ، ومن ثم الانقضاض عليهم ٠ وأول عمل قام به ، كما سبق ان أشرنا ، أنه آمن سبل مواصلاته بان وزع قواده على مواقـــع معينة تؤمن حراسة قوافل تموينـــه وامدادات جيشه ، وأمرهم بتحصينها ٠ كما انه انتهج سياسة الحذر الشديد من مباغتة اتباع بابك وكمائنهم ٠ وكان يجعل نصف جيشه على أهبة الاستعداد دائما ، عملا بتوجيه الخليفة الذي كتب اليه بان يجعل الناس نوائب ، كراديس تقف على ظهور الخيل ، كما يدور العسكر بالليل ، فبعض القوم معسكرون وبعض وقوف على دوابهم ، كما يدور العسكر بالليل والنهار مخافة البيات حتى اذا ما دهمهم امر كان الناس على تعبية(٤٧) ٠

لقد اشتبك الجيش بالخرمية في عدد من المعارك انتصر فيها عليهم ، قبل معركة البذ الفاصلة ٠ ولعـــل أهم هذه المعارك التي انهكت الخرمية ، معركة أرشق ومعركة هشتادسر ٠ وتعتبر معركة أرشق أولى المعارك الكبيرة التي انتصر فيها الافشين ٠ وقد أبلى فيها المتطوعون وعلى رأسهم القائد أبو دلف بـــلاء حسنا ٠ فقد وصل القائد بغا الكبير الى اردبيل وهو يحمل أموالا الى الافشين ٠ فعلم به بابك واستعد بكمائن نصبها لقطع الطـــريق عليه والاستيلاء على الاموال ٠ فبلغ ذلك الافشين فلجأ الى الخداع والتضليل ، فأمر بغا بأن يسير بقافلته حتى حصن النهر ثم يعود بالاموال الى أردبيل ،

---

(٤٦) الطبري ٩/٤٠-٤١ ٠

(٤٧) نفس المصدر/٤١ ٠

ويترك القافلة تسير نحو برزند ، مقر الافشين • فلما انقض بابك على القافلة وتمكن منها لم يجد الاموال معها • فظن ان الاموال قد وصلت الى حصن أرشق فتوجه بقواته لمحاصرة الحصن المذكور ، وطلب استسلام حاميته • الا ان الافشين الذي توقع هجوم بابك على حصن ارشق ، كان قد خرج بحملة نحو الحصن المشار اليه وفاجأ قوات بابك وأحاط بها وقضى عليها • ولكن بابك استطاع مع نفر قليل من اتباعه الافلات والهرب الى موقان ، وما لبث ان وصل الى معقله في مدينة البذ(٤٨) •

أما معركة هشتادسر فقد خطط لهـــا الافشين بحيث تكون المعركة الحاسمة اذا تمكن فيهـــا من جيش الخرمية • فوجه ثلاثة جيوش نحو معقل بابك ، وذلك بان يسير الافشين نفسه من برزند ، ويسير محمد بن يوسف الطـــائي من خش ، ويتوجه بغا الكبير من خنادقه قرب جبل هشتادسر • الا ان تسرع بغـــا في دخول المعركة وهزيمته فيها حال دون تحقيق هدف الافشين ، رغم انتصاره على بابك واتباعه في هذه المعركة • لان بابك استطاع الفرار والعودة الى معقله والتحصن فيه أيضا(٤٩) •

معركة البذ الفاصلة ونهاية بابك :

بادرت قوات الجيش العربي الى محاصرة مدينة البذ ، فوزع الافشين قواته حولها منتظرا الفرصة المواتية للهجوم • الا ان قسما من الجيش بقيادة جعفر الخياط وبعض جيش أبي دلف من المطوعة ، اشتبكوا باتبـــاع بابك وتغلبوا عليهم ، وأوشـــكوا ان يدخلوا المدينة • وكان ذلك بدون اذن من الافشـــين • فاستدعاهم وانكر عليهم قيامهم بالهجوم قبل الاوان • واستمر مقيما في موضعه حتى

---

(٤٨) الطبري ٩/١٤ـ١٦ •
(٤٩) نفس المصدر/٢٣ـ٢٤ •

سئم الجند ولاسيما المطوعة منهم ، فاتهموه بالتهاون ، وانه لو كان أمرهم عند هجومهم السابق لدخلوا المدينة • فاضطر الافشين ان يامر بالتجهيز والتهيوء للهجوم العام ، ووزع المواقع على قواده ، ثم أمر بالزحف صوب المدينة • فتقدم قسم من الجيش ووصل أسوار المدينة واخذ يقاتل عندها • الا ان القوات المرابطة في المدينة من الخرمية استطاعت ان تصد هذا الهجوم •

أعاد الافشين ترتيب قواته وازمع على تطويق المدينة ليلا ، فوزع رجاله بشكل يؤمن ذلك ، وأمرهم بالاستيلاء أولا على التل الذي تسيطر عليه ثلة من الخرمية بقيادة آذين أحد كبار قواد بابك • وكان بابك قد امره ان يحصن هذا التل المشرف على المدينة ، وجعل معه ثلاثة آلاف رجل للدفاع عنه(٥٠) • الا ان القوة التي وجهها الافشين اجبرت جيش آذين على النزول من التل ، فنشبت معركة كانت فاصلة اذ انتصر الجيش العربي فيها ، مما جعل الاستيلاء على المدينة وشيكا • ويظهر ان هذه المعركة كانت آخر ما استطاعت القوات الخرمية ان تقاتل فيها • لان بابك تقدم على أثرها يطلب الامان من الافشين ويتعهد بتقديم الرهائن والضمانات لاستسلامه(٥١) • محاولا الحفاظ على معقله وعلى ما بقي من جيشه • ولكن قبل ان تتم المفاوضة حول الاستسلام وشروطه ، جاء الخبر ان قسما من الجيش قد دخل مدينة البذ • وكان بابك قد كمن في قصوره الاربعة في المدينة عددا من أشداء رجاله يقدرون بستمائة رجل(٥٢) • فخرجوا للقتال ، فانتهز بابك الفرصة وفر هاربا ومعه أهله وبعض اتباعه ، بعد أن رأى قواته قد قضي عليها • فسقطت المدينة ، واحرقها الجيش وهدم قصورها وقتل من فيها من الخرمية ،

---

(٥٠) الاخبار الطوال/٣٣٩ •

(٥١) الطبري ٩/٤٤ •

(٥٢) الطبري ٩/٤٤ ، والعيون والحدائق ٣/٣٨٦ ، ويقدر عددهم باربعة الاف وستمائة رجل •

وأسر من بقي من أولاد بابك وعياله • وكان سقوط مدينة البذ في يوم الجمعة لعشر خلون من شهر رمضان سنة ٢٢٢هـ(٥٣) •

سار بابك فيمن معه يريد الهرب الى ارمينية ، فكتب الافشين الى بطارقتها يأمرهم بحفظ نواحيهم وان لا يتركوا احدا يمر بهم الا اخذوه وعرفوه به • وقد علم الافشين من جواسيسه بموضع بابك ، وكان في واد كثير الاشجار طرفه الاول باذربيجان وطرفه الاخر بارمينية ، فأمر بمحاصرة ذلك الوادي • ولما ورد كتاب الخليفة بالامان لبابك كلف الافشين بعض من كان استأمن اليه من أصحاب بابك بان يذهبوا بالكتاب اليه • الا ان بابك رفض الامان الذي عرض عليه(٥٤) • ويقال انه احرق كتاب الامان وشتم الخليفة(٥٥) • وعندما أحس بابك بان جيش الافشين يحيط به ركب هو ومن معه وسار مستخفيا حتى استطاع سهل بن سنباط أحد بطارقة أرمينية ان يحتال عليه ويأسره • وكان الافشين قد جعل لمن جاء به حيا الفي ألف درهم ، ولمن جاء برأسه ألف ألف درهم(٥٦) • فجاء القائد أبو سعيد على رأس قوة من الجيش وقبض عليه وجاء به الى الافشين(٥٧) •

وقد انقذ جيش الافشين من أسرى بابك نساء كثيرات وصبيان ، وجعل لهم حظائر اسكنهم فيها وأجرى لهم الخبز وأمرهم أن يكتبوا الى أوليائهم حيث كانوا • فجاء الناس واسترجعوا كثيرا منهم(٥٨) •

---

(٥٣) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٤ ، والعبر ١/٣٨٤ •

(٥٤) الطبري ٩/٤٥-٤٦ •

(٥٥) العبر ١/٣٨٤ •

(٥٦) العبر ١/٣٨٤ . وفي النجوم ان الخليفة المعتصم بالله قد جعل لمن جاء ببابك حيا الفي الف درهم ، ولمن جاء برأسه الف الف درهم ، فاعطى المعتصم بالله ابن سنباط الفي الف درهم وحط عنه خراج عشرين سنة - ٢/٢٧٣ •

(٥٧) تفصيلات القبض على الافشين في الطبري ٩/٤٧-٥٠ ، وفي مروج الذهب ٤/٥٦ ، وفي الكامل ٦/٤٧٢-٤٧٤ •

(٥٨) الطبري ٩/٥٠ ، وجاء في تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٤ ان عدد الاسرى الذين استنقذوا عند سقوط مدينة البذ ، كان سبعة الاف وستمائة •

وكان بابك أرسل أخاه عبدالله الى حصن اسطفانوس ، اذ قال لسنباط ليس يستقيم أن أكون أنا وأخي في موضع واحد ، فلعله أن يعثر باحدنا فيبقى الاخر(٥٩) • فارسل الافشين الى عيسى بن يوسف بن اسطفانوس يطلب منه عبدالله فانفذه اليه • فلما صار في يده حبسه مع أخيه ووكل بهما حرسا يحافظ عليهما • وكتب الى الخليفة بالفتح واطلق الحمام بذلك(٦٠) • فامره بالقدوم بهما عليه • فقدم بهما في أوائل صفر سنة ٢٢٣هـ ولما صار قريبا من سامرا تلقاه هارون بن المعتصم بالله وآخرون من عائلة الخليفة ، وانزل الافشين بابك عنده في قصره بالمطيرة •

وفي اليوم التالي قعد المعتصم بالله لبابك ، واصطف الناس من باب العامة الى المطيرة • وأمر الخليفة ان يشهر ببابك وان يراه الناس ، فحمـــل على فيل • فقـــال الوزير محمـــد بن عبدالملك الزيات(٦١) :

قد خضب الفيـــل كعادته   يحمـــل شـيطان خراســان
والفيل لا تخضب أعضاؤه   الا لذى شـــأن من الشـــان

فاستشرفه الناس حتى ادخل الى دار العامة أمام أمير المؤمنين ، فأمر بقتله • ويصف المسعودي كيفية قتله وصفا دقيقا • اذ جرد من الزينة وقطعت يداه ورجلاه ، ثم طعن بالسيف في قلبه ، وجز لسانه ، ثم صلبه على خشبة عالية ، وحمل رأسه الى بغداد ونصب على الجسر ، ثم حمل الى خراسان ليطاف به في كل مدينة من مدنها ، لما كان في نفوس الناس من استفحال أمره وعظم شأنه(٦٢) • ثم أمر

(٥٩) الطبري ٤٨/٩ •
(٦٠) مروج الذهب ٥٦/٤ •
(٦١) الطبري ٥٣/٩ ، والكامل ٤٧٧/٦ •
(٦٢) مروج الذهب ٥٨/٤ •

يحمل أخيه الى اسحاق بن ابراهيم المصعبي ببغداد وأمره أن يفعل به ما فعل بأخيه بابك، وصلب في الجانب الشرقي بين الجسرين(٦٣).

وكان المعتصم بالله يجزي الافشـين في أثناء حربه مع بابك، سوى الارزاق والانزال والمعاون، في كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم، وفي كل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم(٦٤). كما كان كثير الاهتمام بسير الحرب دائم الاتصال بقيادتها. ولشدة اهتمامه باخباره ولفساد الطريق بالثلج وغيره رتب بريدا خاصا ليوافيه بالاخبار يوميا. فجعل من سامرا الى حلوان خيلا مضمرة، على رأس كل فرسخ فرسا معه مجر مرتب، فكان يركض بالخبر ركضا حتى يؤديه الى الذي يليه يدا بيد. وكذلك رتب الخيول بعد حلوان الى اذربيجان، فكانت يركض بها يوما أو يومين ثم تبدل. كما اقام ديادبة على رؤوس الجبـال بالليل والنهار فيشعروا اذا وصلهم الخبر، لبتهيأ الذي يليهم، وبذا كان البريد يصل من عسكر الافشين الى سامرا في أربعة أيام أو أقل(٦٥).

لقد ارتفعت منزلة الافشين بعد انتصاره على بابك وقضائه على حركته التي شغلت الدولة قرابـة اثنتين وعشرين سنة. فتوجه المعتصم بالله وألبسه وشاحين بالجوهر، ووصله بعشرين ألف ألف درهم، منها عشرة آلاف ألف درهم صلة، وعشرة آلاف ألف درهم يفرقها في عسكره، وعقد له على السند(٦٦). وفي ذلك يقول اسحاق بن خلف الشاعر في قصيدته التي مدح بهـا المعتصم بالله، وأشاد بالافشين(٦٧):

---

(٦٣) الطبري ٩/٥٤.
(٦٤) نفس المصدر.
(٦٥) الطبري ٩/٥٢.
(٦٦) الطبري ٩/٥٥، والكامل ٦/٤٧٨ وفيـه انه وصله بعشرين الف ألف درهم وعشرة الاف الف درهم يفرقها في عسكره.
(٦٧) الاخبار الطوال /٣٤١.

ماغبت عن حرب تحرق نارها بالبذ كنت هنا وانت هناكا
عــزت بافشين حسامك امة والدين متمسك به استمساكا
لما اتاك ببابــــك توجتـــه واحق من أضحى له تاجاكا

وقام في مجلس المعتصم بالله بعض الخطباء فتكلموا ، وقالت الشعراء • ومن جملة من قام ابراهيم بن المهدي فقال شعرا منه(٦٨) :

يا أمـــين الله ان الحمد لله كثــيرا
هكذا النصر فلازال لك النصر نصيرا
وعلى الأعداء أعديت من الله ظهيرا
وهنيئا هيأ الله لــــك الفتح الخطيرا
فهو فتح لم ير الناس له فتحا نظيرا

ومع ما كان يتمتع به الافشين من كفاية عسكرية ، وشجاعة فائقة ، فان نجاحــــه في القضاء على بابك وحركته لـــم يتحقق الا بتوجيهات المعتصم بالله ، ومتابعته اليوميـــة اخبار الحرب وسير المعارك ، وانفاقه الاموال الطائلة في سبيل ذلك ، بحيث وفر له كل مستلزمات النجاح للحملة العسكرية التي قادها لحرب الخرمية •

لقد حفظ لنا الطبري احصائية بخسائر كل من الدولة والحركة الخرمية ، اذ يقول : وكان جميع من قتل بابك في عشرين سنة مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفا وخمسمائة انسان • وغلب من القواد يحي بن معاذ ، وعيسى بن محمد بن أبي خالد ، وأحمد بن الجنيد وقداسره ، وزريق بن علي بن صدقة ، ومحمد بن حميد الطوسي ، وابراهيم بن الليث • وأسر مع بابك ثلاثة آلاف وثلثمائة وتسعة اناسي ، واستنقذ ممن كان في يده من المسلمات وأولادهن سبعة

---

(٦٨) مروج الذهب ٤/٥٨ــ٥٩ •

آلاف وستمائة • وعدة من صار في يد الأفشين من بني بابك سبعة عشر رجلا ومن البنات والكنات ثلاث وعشرون امرأة[٦٩] • ويقدر المسعودي مجموع من قتلهم بابك في اثنتين وعشرين سنة من جيوش المأمون والمعتصم بالله من الامراء والقواد وغيرهم من سائر طبقات الناس خمسمائة ألف على أقل تقدير[٧٠] • وما يذكره ابن خلدون عن عدد من قتل ومن أسر ومن أنقـــذ من الاسرى لا يختلف عما جاء في الطبري[٧١] ، وأحسبه قد نقل ذلك عنه • الا اننا اذا أخذنا بنظر الاعتبار عدد المتحاربين من الطرفين ونوع الاسلحة المستخدمة آنذاك وطبيعة الحرب التي لم تكن معاركها متواصلة ، وان المعارك كانت موضعية ، فان في تقدير المسعودي مبالغة ، حتى وان اضيف الى قتلى المعارك ما يقتل من السكان الاخرين • وان تقدير الطبري الذي أيده ابن خلدون أقرب الى الصواب •

وقد انفق المعتصم بالله على حرب بابك حتى تم القضاء عليه مبالغ طائلة من الاموال • فقد تذاكر بعض الكتاب في مقدار تلك المبالغ التي انفقت ، الا انهـــم لم يتهيأ لهم حصرهــــا ، فقدروها بخمسمائة وقر من الدراهم[٧٢] •

٢ ـ مؤامرة العباس بن المأمون :

واجه المعتصم بالله وهو يحارب الروم وقد اتم فتح عمورية ، مؤامرة استهدفت اغتياله مع عدد من كبار قواده ، لاسيما الاتراك منهم ، ومبايعة العباس بن المأمون بالخلافة • وكان العباس نفسه يتزعم هذه المؤامرة ويؤيده عدد من القواد • وكان لهذه المؤامرة ،

---

(٦٩) الطبري ٩/٥٤ـ٥٥ •
(٧٠) التنبيه والاشراف /٣٠٥ •
(٧١) تاريخ ابن خلدون ٣/٥٥٦ •
(٧٢) العيون والحدائق ٣/٣٨٩ •

اضافة الى السبب المباشر لها ، أسباب أخرى غير مباشرة كانت تدفع المتآمرين لتنفيذ مؤامرتهم • ويمكن حصر الاسباب غير المباشرة بأمرين مهمين ، أولهما طمع العباس بالخلافة رغم انه كان قد بايع عمه المعتصم بالله • وسبق ان رأينا ان مبايعته كانت عن اضطرار وكراهية • فقد سبق لمؤيديه ان شغبوا لما بويع لأبي اسحاق غداة وفاة المأمون وأرادوا العباس للخلافة ونادوه باسمها • مما اضطر المعتصم بالله حينذاك الى ان يستدعيه ليعلن لأولئك المعارضين انه بايع عمه ويطلب اليهم ان يقتدوا بـه ، ويخلدوا الى السكينة • وعندما عاد المعتصم بالله الى مدينة السلام استصحب معه العباس لكي لا يتيح له فرصة للاتصال بمؤيديه • ولكن يظهر انه كانت له رغم ذلك علاقات واتصالات ببعض مؤيديه من القواد • وثانيهما ان استفحال سيطرة القـواد الاتراك وازدياد نفوذهـم على الخلافة والجيش ، واستكانة المعتصم بـالله الى ولائهم جعلهم يستأثرون بالمراكز المهمة في الجيش وحصر المغانـم بهم • مما اثار حفيظة القواد العرب ، والخراسانيين على قلتهم ، ومن شايعهم من الجند • وكانوا لا يفتأون يبدون تذمرهم من تزايد نفوذ الاتراك في الجيش والدولة •

أما السبب المباشر فقد نشأ عندما وزع الخليفة كبار قواده على مواقعهم في حملته على بـلاد الروم ، وعين صلاحيات كـل منهم في الشؤون المالية والادارية • فاطلق يـد الافشين والقادة الاتراك الاخرين مثل اشناس وايتاخ في الانفاق ، واناط بهم القيادات المهمة الفعالة • مما جعل بعض القواد الاخرين ينقمون من ذلك واعتبروه استصغارا لشأنهم • وكان القائد العربي عجيف بن عنبسة الذي سبق ان قضى على تمرد الزط ، على رأس هؤلاء الناقمين • اذ اعتقد ان الخليفـة يستصغر شأنه ويستقصر أمره ، فلم يطلق يـده في النفقات كما اطلق يد الافشين(٧٣) • فاشتكى ذلك الى العباس الذي

---

(٧٣) الطبري ٧١/٩ •

كان في الحملة مع عمه ، ولامه على تفريطه في المبايعة وشجعه على ملافاة ما كان منه ، واكد له ان هناك عددا من القواد ممن ينحازون الى جانبه ويؤيدون مبايعته دون عمـــه • فلقي ذلك استجابة من العباس ، واتفقا على ان يتولى تنظيم الدعوة الى العباس الحارث السمرقندي الذي يصـــفه الطبري بانه كان رجلا أديبـــا له عقل ومداراة(٧٤) • أي انه كان سياسيا بليغـــا • وكان العباس يأنس بالحارث ويطمئن اليـــه ، فصيره سفيره الى القواد الناقمـــين على الخليفة •

وقد استطاع الحارث ببلاغته ودهائه ان يستميل جماعة من القواد الى مبايعة العباس • وكان من بين من بايعه بعض خواص المعتصم بالله • وسمي لكل رجل من رجال الخليفة المخلصين رجلا من ثقات من بايعوه وقال لهم : اذا اظهرنا أمرنا فليثب كل منكم بالقائد الذي كلف به • فوكل من بايعه من خواص الخليفة بقتله ، ومن بايعه من خـــواص القواد الكبار كالافشين وأشنـــاس وغيرهما بقتلهم(٧٥) • أي ان المؤامرة دبرت على أساس اغتنام الفرصة المواتية لاغتيال المعتصم بالله وكبار قواده ممن لـــم يشتركوا في المؤامرة ، ومبايعة العباس بالخلافـــة • ويلاحظ ان التامر بـــدأ قبل تحرك الجيش من سامرا الى بلاد الروم • اذ كان المتحمسون لتنفيذ المؤامرة أرادوا الوثوب بالمعتصم بالله عندما دخل الدرب في قلة من اتباعه وهو في طريقه الى بلاد الروم ، الا ان العباس أبى ذلك ، وقال : لا أفسد هذه الغزاة(٧٦) • ثم حاولوا ثانيـــة عندما تم فتح عمورية وانشغل الجند بالغنائم ، ولكن العباس ارتأى تأجيل الأمر حتى

---

(٧٤) نفس المصدر ، وتأريخ ابن خلدون ٣/٥٦١ وفيه ان الحارث السمرقندي من بطانة عجيف بن عنبسة •

(٧٥) الطبري ٩/٧١ ، وتجارب الامم ٦/٤٩٥ ، والعيون والحدائق ٣/٣٩٦ •

(٧٦) الطبري ٩/٧٢ ، وتجارب الامم ٦/٤٩٦ ، والعيون والحدائق ٣/٣٩٦ •

عودة الجيش ومرور المعتصم بالله بالدرب خاليا من اتباعه ، كما حصل في المرة الاولى فيسهل الوثوب به وقتله(٧٧) ٠

اكتشاف المؤامرة :

رغم التكتم والحرص الشديد اللذين التزم بهما الحارث السمرقندي ، فقد تسربت اخبار المؤامرة الى بعض القواد الموالين للمعتصم بالله ٠ اذ تقدم أحد المتآمرين وهو أحمد بن الخليل الى القائد اشناس واعلمه بان لديه معلومات مهمة عن مؤامرة دبرت ضد الخليفة وانه لا يخبر بها احدا غير أمير المؤمنين نفسه ٠ الا ان اشناس أرغمه على أن يدلي بمعلوماته الى شخصين يثق بهما الخليفة هما القائد أبي سعيد الثغري والكاتب احمد بن الخصيب ٠ فأفشى اليهما أحمد بن الخليل أمر العباس والحارث السمرقندي ومن والاهما من القواد ٠ ويبدو ان ما دفع أحمد بن الخليل الى أن يفشي سر المؤامرة هو ان اشناس كان قد ازعجته بعض تصرفاته وتصرفات زميله عمرو الفرغاني فقبض عليهما وجعلهما تحت انظاره ٠ فتصور ابن الخليل ان التآمر قد انكشف فحاول ان ينجو بنفسه باعترافه على الاخرين ٠ وعندما علم المعتصم بالله بالأمر تريث حتى تأكد من صحة الخبر لكثرة عدد القواد المتهمين وبينهم عدد من خواص قواده ورجاله ٠ فقبض على الحارث أولا فادلى بمعلومات تطابق لما اخبر به ابن الخليل ٠ فلم يبق لدى الخليفة شك في صحة ما وصله من اخبار عن التآمر على حياته وحياة عدد من قواده ، فقبض على العباس واستطاع ان يستدرجه ويتعرف على القواد المتآمرين معه ٠ وقد ذكر الطبري أسماء عدد ممن تآمروا من القواد وهم : عمرو الفرغاني ، وعجيف بن عنبسة ، والسندي بن بختاشة ،

---

(٧٧) نفس المصادر المذكورة ٠

والشاه بن سهل ، وهرثمـة بن النضر الختلي[٧٨] • فتتبع المعتصم بالله القواد المتآمرين حتى اخذهم جميعا • وقد استخدمت وسائل مختلفة في القضاء عليهم ، بحيث لم يمض على القبض عليهم بضعة أيام حتى قتلوا جميعا ، عدا هرثمة الختلي اذ كان الافشين استوهبه من المعتصم بالله فوهبه اياه[٧٩] ، والسندي بن بختاشة الذي أمر الخليفة بـــان يوهب لأبيه القائـد بختاشة لأنـه لم يشـــترك في المؤامرة[٨٠] وبذلك قضي على المؤامرة وهي في مهدها • ويظهر ان المعتصم بالله تفنن في طـرق قتلهم تشفيا منهم • ويقـــول صاحب العيون والحدائق : لم يزل المعتصم بـــالله يقتل واحدا واحدا من القواد كل واحد منهم بفن من القتل ، الواحد بضرب العنق ، والآخر بالخنق ، والآخر بالضرب بالخشب حتى يموت[٨١] •

أما العباس فكان في قبضة الافشين ، فلما وصل المعتصم بالله منبج طلب العباس طعاما فقدم اليــه الكثير منه فأكل • ولما طلب الماء منع منه ، وادرج في مسح فمات[٨٢] • وقد وجد له مائة ألف وستة عشر ألف دينار ، فأمر الخليفة أن تفرق على الجند ويومروا ان يلعنوه • فاحصي عددهم فوجدوا ثمانين ألف مرتزق ، فدفع اليهم دينارين لكل جندي ، وتمم المعتصم بـــالله المبلغ المطلوب من عنده[٨٣] • وفي هذا الخبر اشارة الى عدد من بقي من الجند الذين كانوا في الحملة مما يجعلنا نستنتج ان عدد افراد الحملة لم يكن يقل عن المائة ألف جندي • ويقدر ابن لعية عدد الفاتحين بأكثر من

---

(٧٨) الطبري ٧٨/٩ ، والعيون والحدائق ٣٩٨/٣ ويقدر عدد القواد الذين قبض عليهم بسبعين قائدا ، وتجارب الامم ٥٠١/٦ـ٥٠٢ وفيه : عمر الفرغاني وهرثمة بن النضر الجيلي •
(٧٩) الطبري ٧٨/٩ ، وتجارب الامم ٥٠٢/٦ •
(٨٠) الطبري ٧٨/٩ •
(٨١) العيون والحدائق ٣٩٨/٣ •
(٨٣) تاريخ اليعقوبي ٤٧٦/٢ •

ثلثمائة الف رجل(٨٤) • ولابد انه أخذ بنظر الاعتبار في تقديره المطوعة الى جانب الجند النظامي •

وذكر ابن الاثير عن عجيف بن عنبسة الذي قتل عطشا ودفن في باعثايا قرب الموصل ، قصة تستدعى التأمل • قال : ان محمد بن علي الاسكافي ، كان يتولى اقطاع عجيف ، فرفع عليه انه خانه ، فاخذه عجيف واراد قتله ، فبال في ثيابه خوفا من عجيف ، ثم شفع فيه فحبسه • ولما قتل عجيف اطلق سراح محمد • ثم ما لبث ان تقلد عملا في نواحي الجزيرة • فخرج يوما الى تل في باعثايا فجلس يبول عليه • فخرج عليه رجل من أهل المنطقة وقال له : في هذا التل الذي تبول عليه قبر عجيف • فعجب محمد الاسكافي من بوله على نفسه خوفا من عجيف ، وبوله على قبره(٨٥) •

عاد المعتصم بالله الى سامرا سالما فسمى العباس يومئذ باللعين • وأمر بسجن أولاد المامون فحبسهم ايتاخ في أحد سراديب داره حتى ماتوا(٨٦) • وقد انشد مروان بن أبي الجنوب المعتصم بالله قصيدة لما كان من أمر العباس وعجيف ، جاء فيها(٨٧) :

ألا يا دولـة المعصوم دومي   فانك قلت للدنيا استقيمي
هوى العباس حين أراد غدرا   فوافى اذ هوى قعر الجحيم
كذلك هوى كمهـواه عجيف   فاصبح في سواء لظى الحميم

قال المعتصم بالله : أبعده الله •

---

(٨٤) النبراس /٦٣ •
(٨٥) الكامل ٦/٤٩٢-٤٩٣ ، والفرج بعد الشدة ٢/٢٦ وفيه اسمه محمد بن الفضل الجرجرائي •
(٨٦) الطبري ٩/٧٩ • وتفصيل المؤامـــرة في : الطبري ٩/٧١-٧٩ ، وتجارب الامم ٦/٤٩٣-٥٠٢ ، والعيون والحدائق ٣/٣٩٥-٣٩٨ ، والكامل ٦/٤٨٩-٤٩٢ •
(٨٧) الاغاني ١٢/٨٤ •

نتائج المؤامرة :

كان من أهـــم نتائج القضاء على مؤامرة العبـــاس استقرار الخلافة للمعتصم بالله وأبنائه ، بعد ان تخلص من منافسة ابن أخيه الذي كانت تــــراوده فكرة الوثوب بعمه بتأييد عـــدد من القواد الناقمين على الخليفة • الا ان ذلك أدى الى زيادة نفوذ الاتراك على الخليفة وتوسع سلطانهم وتدخلهم في شؤون الدولة ، بعد ان وقف قادتهم الى جانبه ضـد المتآمرين ، وعاونوه في القضاء عليهـــم • وبالعكس فقد اضعف ذلك شأن القواد والجند العرب ، لاسيما وانه سبق للمعتصم بالله ان أمر في أوائل خلافته باسقاط عدد من الجند العرب من الديوان وقطع اعطياتهم عندما وقفوا الى جانب المنادين بخلافة العباس عند موت المأمون •

على ان هذه المؤامرة اضطرت الخليفة المعتصم بالله على ايقاف حملته العسكرية على بلاد الروم ، والاسراع في العودة الى العاصمة سامرا • بعد ان كان سير المعارك يبشر بانتصارات وفتوح واسعة للجيش العربي • وقد اشرنا عند الكلام عن فتح عمورية الى ان خطة المعتصم بالله في حربـــه مع الروم كانت تستهدف التقـــدم نحو القسطنطينية عاصمة البيزنطيين • ولذلك فان هذه المؤامرة حالت دون سحق الدولة البيزنطية وفتح عاصمتها ، ويمكن اعتبار ذلك من أهم نتائج المؤامرة المذكورة •

٣ ــ مؤامرة الأفشين :

يظهر مما يرويه البلاذري ان الافشين حيدر بن كاوس كان ابن ملك اشروسنة وقد غضب عليه أبـــوه حين قتل أحد رجاله • فشخص الى مدينة السلام وأظهر اسلامـــه • وانه اتصل بالخليفة المأمون وسهل له أمر الاســـتيلاء على اشروسنة ووصف له طريقا مختصرة لتحقيق ذلك ، فوجه المأمون كاتبـــه احمد بن أبي خالد

لغزوها • فقدمها وافتتحها ، فاستسلم ملكها كاوس وأظهر اسلامه ، فاقره المأمون ملكا عليها(٨٨) • واثر الافشين البقاء في عاصمة الخلافة لانه رأى فيها مجالا واسعا لتحقيق مطامحه •

وقد اتصل الافشين بابي اسحاق وهو امير على مصر وبلاد الشام من قبل أخيه المأمون • فاعجب أبو اسحاق بشجاعته وكفايته في الحرب ، فقربه اليه وجعله من رجاله • وعندما تولى الخلافة أصبح الافشين في مقدمة قواده • وعقد له على رياسة الجيش الذي وجهه لحرب بابك الخرمي الذي استفحلت دعوته • واستطاع الافشين بما بذله الخليفة من الاموال وما سيره من الجيوش وكبار القواد ، ان يقضي على ثورة بابك وجاء به اسيرا الى سامرا حيث قتل وصلب • ولما وصل الافشين سامرا عائدا من حرب بابك أكرمه الخليفة ومنحه مبلغا كبيرا من المال ، وقد سبقت الاشارة الى ذلك •

وعندما خرج المعتصم بالله الى بلاد الروم لتاديبهم وايقاف اعتداءاتهم على الثغور العربية ، اسند الى الافشين قيادة أحد جيوش الحملة • وقد استطاع ان يهزم ملك الروم في أحد المعارك مما سهل لجيش الخليفة اقتحام عدد من مدن الروم وحصونهم وفتح عمورية أكبر مدنهم بعد القسطنطينية •

الأفشين وعصيان مازيار(٨٩) :

لقد تعرض الافشين الذي بلغ أوج مجده بعد قضائه على تمرد بابك ، وحسن بلائه في حرب الروم ، الى غضب الخليفة المعتصم بالله لما بدر منه من أمور تنطوي على سوء النية • ومن هذه الامور عصيان مازيار حاكم طبرستان • فقد كان الخليفة المأمون قد ولى مازيار بن قارن امارة طبرستان وسماه محمدا • وكان أبوه من قبل ملكا عليها

---

(٨٨) فتوح البلدان /٤١٩ •

(٨٩) يسميه البلاذري مايزديار ــ فتوح البلدان/٣٣٤ •

وقد أعلن العصيان في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ، وكان المهدي بن المنصور حينذاك في خراسان على رأس حملة عسكرية ، فأمره أبوه بالقضاء على عصيانه • فوجه اليه القائد خازم بن خزيمة فاسر قارن وفتحت طبرستان(٩٠) •

ولما استخلف المعتصم بالله أقر مازيار على عمله • وكانت علاقة مازيار بعبدالله بن طاهر أمير خراسان سيئة ، ولم يكن مازيار يحمل اليه خراجه مباشرة ، بل يتسلمه ممثل للخليفة ويحمله الى عبدالله(٩١) • وكان عبدالله لا يفتأ يكتب الى المعتصم بالله عن مخالفات مازيار مما اقنعه بعدم ولائه للخلافة والدولة العربية •

ومما شجع مازيار على مخالفته أمير خراسان تأييد الافشين له ، لانه كان يطمح بولاية خراسان، ويريد أن ينقل الملك الى العجم(٩٢) • ولذلك اتصل بمازيار يستميله ويغريه بعبدالله ويدفعه الى محاربته(٩٣) • كما كان بنفس الوقت يحرض المعتصم بالله على والي خراسان سيما وانه كان يسمع من الخليفة أحيانا ما يدل على انه يريد عزله(٩٤) • ويهدف من ذلك ان يضعف مركز عبدالله فيعجز عن القضاء على عصيان مازيار • فلا يجد الخليفة بدا من اقالته وتعيين الافشين بدلا عنه • على ان مناصرة الافشين لمازيار لم تكن بدافع النكاية بعبدالله بن طاهر فقط ، بل كما يبدو من فحوى المكاتبة بينهما انما كانا يسعيان لهدف مشترك هو اضعاف الدولة العربية والاسلام وأحياء المجوسية • فقد اعترف مازيار لما قبض عليه وحمل الى سامرا : انه بعثه على الخروج والعصيان لمذهب كانوا اجتمعوا

---

(٩٠) كتاب البلدان/٣٠٣ •
(٩١) الطبري ٩/٨٠ ، وتجارب الامم ٦/٥٠٢ •
(٩٢) البدء والتاريخ ٦/١١٩ •
(٩٣) الطبري ٩/٨٠ ، وتجارب الامم ٦/٥٠٢_٥٠٣ ، والعيون والحدائق ٣/٣٩٩ •
(٩٤) النجوم الزاهرة ٢/٢٤٠ •

عليـــه ، ودين اتفقـــوا عليـــه من ســـذاهب الثنويـــة والمجوس(٩٥) • ومازيار مثل الافشين لم يعتنق الاسلام الا ظاهريا ، فقد كفر وغدر(٩٦) • وقد سبق ان اشرنا الى انه كاتب بابك الخرمي يحرضه ويعرض عليه النصرة • كما ظهرت ميوله الخرمية عندما أمر الاكرة بانتهاب أموال أرباب الضياع وغلاتهم •

اعلن مازيار تمرده في سنة ٢٢٤هـ واجبر الناس على مبايعته وأخذ منهم الرهائن،واهتم بجمع الاموال فجبى في شهر ماكان يؤخذ في سنة(٩٧) • ثم بعث أحد قواده الى مدينة آمل فاجلى أهلها وخرب سورها • ففزع أهل جرجان القريبة من آمل وخافوا على أنفسهم وأموالهم فهرب منهم كثيرون الى نيسابور • ولما انتهى خبر ذلك الى عبدالله بن طاهر وجه عمه الحسن بن الحسين في جيش كثيف لحماية جرجان ، ووجه حيان بن جبلة في عدة آلاف لحماية قومس • ووجه الخليفة القائد محمد بن ابراهيم المصعبي في جيش كثيف ليدخل طبرستان ، معاونة لعبدالله بن طاهـــر في اخماد الحركة والفتنة المجوسية •

لم يستطع مازيار واتباعه مواجهة الجيوش التي احاطت بهم ، فضعفت مقاومتهم وطردوا من المدن التي كانوا استولوا عليها • وبعد عدة معارك تمكنت هذه الجيوش من الانتصار على المتمردين وأسر رئيسهم مازيار • وللقبض على مازيار قصة ذكرها مفصلة كل من الطبري ومسكوية وصاحب العيون والحدائق(٩٨) • وبعث عبدالله بن طاهر الى عمه الحسن ان يسلم مازيار وأهل بيته الى محمد بن ابراهيم ليحملهم الى أمير المؤمنين بســـامرا ، كما طلب اليه ان

---

(٩٥) مروج الذهب ٤/٦١ •
(٩٦) فتوح البلدان/٣٣٤ •
(٩٧) الطبري ٩/٨٣ •
(٩٨) الطبري ٩/٨٩ـ٩٥ ، وتجارب الامم ٦/٥٠٨ـ٥١١ ، والعيون والحدائق ٣/٤٠٠ـ٤٠٢ •

يستصفي أموال مازيار ، فاحضره الحسن وساله عن أمواله واحضر شهودا ليشهدوا عليه . فاعترف بان جميع ما حمله من أمواله ستة وتسعون ألف دينار ، وسبععشرة قطعة زمرد ، وستعشرة قطعة ياقوت أحمر ، وثمانية أوقار سلال مجلدة فيها ألوان الثياب، وتاج، وسيف من ذهب ، وخنجر من ذهب وكلل بالجواهر، وحق كبير مملوء جواهر . وقد تسلمها منه محمد بن الصياح خازن عبدالله بن طاهر . وذكر علي بن ربن الطبري كاتب مازيار ان ذلك الحق كان ثمن شراء جوهرة ثمانية عشر الف ألف درهم(٩٩) .

وعندما حمل مازيار الى عبدالله بن طاهر ، وعده ان هو اظهره على كتب الافشين اليه فسوف يسأل فيه الخليفة ليصفح عنه ، فاظهر مازيار الكتب لعبدالله فاخذها منهوسيرها معه الىاسحاق بن ابراهيم المصعبي وطلب اليـــه الا يســـلم مازيار والكتب الا بيـــد أمير المؤمنين(١٠٠) . فاوصل اسحاق ذلك الى الخليفة . فسأل المعتصم بـ.. مازيار عن الكتب فانكرها ، فأمر بضربه(١٠١) . الا انه عندما جمع بينه وبين الافشين في دار العامــــة ، وكان الافشين قد حبس ، أقر مازيار بان الافشين كان يكاتبه ويصوب له الخلاف والمعصية(١٠٢) . الا ان الطبري يقول ان المازيار عندما سئل بحضور الافشين ما اذا كان كتب اليه ، قال «نعم ، كتب أخوه خاش الى أخي قوهيار انه لم يكن ينصر هذا الدين الابيض غيري وغيرك وغير بابك ، أما بابك فانه بحمقه قتيل نفسه ، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فابى حمقه الا ان دلاه فيما وقع فيه . فـــان خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غـــيري ... ثم تجول الخيل عليهم جولـــة فتأتي على

(٩٩) الطبري ٩/٩٦ ، وتجارب الامم ٦/٥١٢ ، وفيه : علي بن زين كاتب مازيار .
(١٠٠) الطبري ٩/٩٩–١٠٠ ، وتجارب الامم ٦/٥١٤ ، والعيـــون والحدائق ٣/٤٠٣ .
(١٠١) الطبري ٩/١٠٠ .
(١٠٢) الكامل ٦/٥١٠ .

آخرهم ، ويعود الدين الى مالم يزل عليه أيام العجم»(١٠٣) · ويقول اليعقوبي ان مازيار قال والله ما كتب الي ولا راسلني الا ان أبا الحارث وكيلي أخبرني انه لما قدم عليه بره وأكرمه(١٠٤) ·

وازاء هذا التردد في الاعتـــراف والانكار من مازيار غضب الخليفة عليه فامر به فضرب حتى مات ، وصلب الى جانب بابك · ويقال ان الخشبة التي صلب عليها مالت نحو خشبة بابك فتدانت أجسامهما · وكان صلب في ذلك الموضـــع ياطس بطريق عمورية أيضا ، وقد انحنت خشبته نحوهما كذلك · وفي ذلك يقول أبو تمام الطائي(١٠٥) ·

ولقد شفى الاحشاء من برحائها ان صار بابك جار مازيار
ثانية في كبد السماء ولم يكن لاثنين ثان اذ هما في الغار
وكأنما انتبذا لكيما يطويـــا عن ياطس خبراً من الاخبار

الأفشين وعصيان منكجور :

من الامور الاخرى التي اتهم بهـــا الافشين عصيان منكجور الفرغاني خال أولاد الافشين وعامله على اذربيجان · فقد احتجز منكجور لنفسه أموالا وجدها في بعض قرى بابك ، ولما طولب بها انكرها · وبلغ ذلك الخليفة فامر الافشين بان يعزله من الولاية · فوجه اليه الافشين أبا الساج المعروف بديوداد · ولما بلغ منكجور الخبر أعلن العصيان · الا انه هزم أمـــام الجيش الذي وجه اليه والتجأ الى أحد الحصون في اذربيجان مما خربه بابك ، وحاول ان

(١٠٣) الطبري ١٠٩/٩ ·
(١٠٤) تاريخ اليعقوبي ٤٧٧/٢ ·
(١٠٥) ديوان ابي تمام ١٩٨/٢-٢٠٩ ، وجاء اسم ياطس فيه : ناطس ·
(١٠٦) تاريخ اليعقوبي ٤٧٨/٢ ، وهو يري ان هذا اول اسباب حبس الافشين ، ص : ٤٧٧ ·

يتحصن فيــــه • الا ان بعض اتباعه وثبوا به واســـلموه الى قائد الحملة • ولكن الخليفة اتهم به الافشين لأنه بلغه ان منكجور انما أعلن التمرد بأمره وانه وجه أبا الساج مددا له لا حربا عليه • مما اضطر الخليفة ان يرسل اليه القائد بغا الكبير فاسره وقدم به الى سامرا(١٠٦) ، فأمر الخليفة بحبسه •

غضب الخليفة على الأفشين :

اعتاد الافشين في خلال حربه بابك ان يجمع ما يصل اليه من الاموال والهدايا ويبعث به مع بعض اتباعـه الى بلده اشروسنة • ولما علم عبدالله بن طاهر بذلك كتب به الى الخليفة المعتصم بالله ، فأمره باعلامـــه بكل ما يوجه به الافشين الى هناك • فأخـــذ أمير خراسان يتتبعه ويوصل اخباره الى الخليفة • ولاريب في ان جمع الافشين أمواله في بلده وبين اتباعه دليل على انه كان ينوي أمرا ، مما يقتضي مراقبته ومتابعة حركاته واتصالاته • كما لوحظ ان الافشين كان يتلكـــأ في محاربة بابك مما اثار الشبهة بأنـــه كان متواطئا معه ، وجعل الخليفة يشك بولائه • يقول ابن الجوزي انه عندما توجـــه لمحاربة بابك تخاذل عن قتاله واضمر موافقتـــه في ضلاله(١٠٧) • ويرى ابن دحية ان المعتصم بالله قتل الافشين لما واطأ بابك ، فانه تارة كان معه وتارة كان عليه(١٠٨) • وعندما يتكلم البغدادي عن الباطنية يذكر الافشين منهم ويقول انه كان في سره مع بابك وقد توانى في القتال معه ودله على عورات عساكر المسلمين فقتل الكثير منهم ، ولما اسر بابك وصلب ظهر للخليفة غدر الافشين وخيانته في حروبه مع بابك ، فأمر بقتله وصلبه(١٠٩) •

---

(١٠٧) المنتظم ٥/١١٤ •
(١٠٨) النبراس/٧٣ •
(١٠٩) الفرق بين الفرق/١٧١ •

يمكن الاستنتاج من هذا ان الافشين كان يخطط لحركة انفصالية يقوم بها في منطقته التي يدين اهلها بالولاء له ولعائلته • وتمهيدا لذلك تطلع الى ولاية خراسان فكاتب مازيار وهو حاكم طبرستان ، وكان يتفق معه في أهدافه ، يغريه بالتمرد على عبدالله بن طاهر ويشجعه على الانتقاض على الخلافة العباسية • وازاء هذا كله ليس من الغريب ان يتغير الخليفة على كبير قواده ، ويتوجس منه الانتقاض وشق عصا الطاعة • كما ان الافشين شعر بتغير الخليفة عليه ، فعزم على ان يحتال للهرب قبل أن ينكشف أمره • فدبر أمر هروبه بطريق الموصل الى أرمينية ، وكان المعتصم بالله قد ولاه عليها ، ومن هناك يعبر الى بلاد الخزر ثم يتجه صوب أشروستة(١١٠) • وقد اختار هذا الطريق للوصول الى بلده تمويها للآخرين • الا ان الهرب تعسر عليه لكثرة العيون التي كانت تراقب حركاته • فعزم على ان يفتك بالخليفة وكبار قواده بوليمة يدعوهم اليها ويدس لهم السم في الطعام فيقضي عليهم جميعا • وحتى اذا تعذر حضور الخليفة الى وليمته فانه سيتخلص من كبار القواد الموالين له امثال ايتاخ واشناس ، مما يسهل له أمر الوثوب ، وقد أخذ يهيء لذلك • الا ان أحد قواده وهو واجن الاشروسني علم بنواياه فاستنكرها فتهدده الافشين • فبادر واجن الى اعلام الخليفة بما عنده من نوايا الافشين وما عزم على القيام به • فوجه المعتصم بالله حاجبه محمد بن حماد بن دنقش يدعو الافشين اليه • فجاء الافشين في سواد . فأمر الخليفة بأخذ سواده وحبسه في الجوسق • وكتب الى عبدالله بن طاهر ان يحمل اليه الحسن بن الافشين من خراسان • فاحتال عبدالله في القبض عليه ، ثم وجه به وبزوجته اترنجة الى سامرا • ولما حبس الافشين عزل عن الحرس وولي اسحاق بن يحي بن معاذ بدلا عنه(١١١) •

(١١٠) الكامل ٥١٢/٦ •
(١١١) الطبري ١٠٣/٩ •

ويعزو ابو المحاسن غضب المعتصم بالله على الافشين الى عداوته لعبدالله بن طاهر ولأحمد بن ابي دواد ، فعملا عليه ونقلا عنه انه يكاتب مازيار ، ويقول ان المعتصم بـــالله تأكد من ذلك من كاتبه الافشين الذي اعترف بانه كتب الى مازيار يأمر الافشين يقول له «لم يبق غيري وغـــيرك وغير بابك الخرمي ، وقد مضى بابـــك ، وجيوش الخليفة عند ابن طاهر ، ولم يبق عند الخليفة سواي ، فان هزمت ابن طاهر كفيتك أنا المعتصم بـــالله ، ويخلص لنا الدين الابيض ــ يعني المجوسية ــ وكان الافشين يتهم بها»(١١٢) ٠

ويقول شمس الدين الذهبي ان سبب غضب المعتصم بالله على الافشين انه اتهم بعبادة صـــنم ، وكان اقلف ، ثم يقول : وخافه أيضا(١١٣) ٠

وقيل ان احمد بن أبي دواد وجد على الافشين لكلام بلغه عنه ، فاشار على المعتصم بالله بان يجعل الجيش نصفا مع الافشين ونصفا مع أشناس ٠ ففعل الخليفة ذلك ، فوجد الافشين من هذا الاجراء باعتباره يقلل من أهميته كقائد عام للجيش ، وطال حزنه واشتد حقده ٠ فقال ابن ابي دواد للمعتصم بالله : ان أبا جعفر المنصور استشار أنصح الناس عنده في أبي مسلم فكان جوابه ان قال : يا أمير المؤمنـــين ان الله تعالى يقـــول «لو كان فيهما آلهـــة الا الله لفسدتا»(١١٤) فقال له المنصور : حسبك ، ثم قتل أبا مسلم ٠ فقال المعتصم بـــالله : حسبك انت أيضا يا أبا عبدالملك ، ثـــم وجه الى الافشين فقتله(١١٥) ٠

وجاء في الهفـــوات النادرة ان الافشين رأى في منامـــه قبل ان يسخط عليه المعتصم بالله رؤيا افزعته ، فبعث الى مفسر ليفسرها له ٠

---

(١١٢) النجوم الزاهرة ٢/٢٤٢ ٠
(١١٣) كتاب دول الاسلام ١/٩٨ ٠
(١١٤) سورة الانبياء ، الاية : ٢٢ ٠
(١١٥) الاخبار الطوال/٣٤١ ٠

قال : رأيت كأن الشمس والقمر دخلا علي وأنا جالس في بهو فقعد احدهما على كتفي الايمن والاخر على كتفي الايسر ، فانتبهت لجزعي منهما · قال المفسر : اقرأ «لا اقسم بيوم القيامة» فقرأها حتى بلغ «جمع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ أين المفر»(١١٦) · فاخذته رعدة وزمع ـ والزمع رعدة تعترى الانسان ان هم بأمر ـ فما مضت عليه ثلاثة حتى قبض عليه(١١٧) · واذا صحت هذه الرواية فهي دليل على ما كان يشغل بال الافشين من الخـــروج عن الخليفة واحتمال فشل حركته وما يترتب على ذلك من وقوعه بأيدي الخليفة وقتله ، مما أظهره عقله الباطن بهذه الرؤيا المرعبة ·

محاكمة الأفشين :

أوكل المعتصم بالله الى مجلس خاص مؤلف من وزيره محمد بن عبدالملك الزيـات وكبير قضاته أحمـــد بن أبي دواد ، وخليفته ببغداد اسحاق بن ابراهيم المصعبي ، وعدد من القضاة والفقهاء ، ليتولى محاكمة الافشين · ولما كان العباسيون قد أقاموا خلافتهم على أساس ديني واتخذوا الدين وسيلة لتثبيت سلطانهم ، وضرب من يخرج عليهم ، اذ انهم مزجوا الدين بالسياسة بحيث يعتبر الخروج على الخلافة جريمة دينية تنطوي على الكفـــر ، فقد حاول المجلس المذكور حشد ما اعتبر من المخالفات الدينية التي قام بها الافشين والتي اذا ما ثبتت عليه كانت كافية لادانته بالكفر والزندقة وانه لم يسلم حقيقـة ، والحكم عليه بالموت بموجب أحـــكام الشريعة الاسلامية ·

عقد المجلس المذكور للمحاكمة واحضر الافشين · كما احضر الشهود وهـم مازيار حاكم طبرســتان ، والموبذ ، والمرزبــان بن

---

(١١٦) سورة القيامة ، الايات ١ـ١٠ ·

(١١٧) الهفوات النادرة/١٨٥ـ١٨٦ ·

تركش وهو أحد ملوك الصغد ، ورجلان من اهل الصغد • وكان المناظر له قاضي القضاة احمد بن أبي دواد • أما التهم التي وجهت اليه فهي :

١ ــ انه ضرب كلا من امام ومؤذن المسجد الذي بنى في الصغد ألف سوط كل واحد منهما •

٢ ــ احتفاظه في بيته بكتاب محلى بالذهب والجوهر فيه كفر بالله تعالى •

٣ ــ شهادة الموبذ بأكله لحم المخنوقة ، اذ قال : ان هذا كان يأكل المخنوقة ويحملني على أكلها ، ويزعم انها ارطب لحما •

٤ ــ كتابة أهل بلده اليه بالاشروسنية ما معناه الى اله الآلهة من عبده فلان ابن فلان •

٥ ــ عدم اختتانه •

٦ ــ مكاتبته مازيار واغراؤه بالخروج على أمير خراسان •

أجاب الافشين عن التهمة الاولى بأن بينه وبين ملك الصغد عهد بات يترك كل قوم على دينهم ، وان هذين الرجلين وثبا على بيت فيه أصنام لأهل أشروسنة ، فاخرجا الاصنام وصيراه مسجدا ، نضربهما على ذلك لتعديهما •

وعن احتفاظه بالكتاب المحلي بالذهب والجوهر ، قال انه ورثه عن أبيه وفيه آداب العجم وكفرهم ، وانه كان يأخذ الآداب ويترك الكفر • أما الحلية التي فيه فانه غـــير محتاج الى انتزاعها منه ، فتركها على ما هي عليه •

أما عن أكله لحم المخنوقة ، وكان قد شهد عليه بذلك الموبذ وهو مجوسي ، فقد طعن الافشـــين بشهادته لانه لا يجوز قبولها بموجب أحكام الشريعة الاسلامية ، وان الموبذ شخص غير ثقة •

وأجاب عن أسلوب مكاتبة أهل بلده معه بأن تلك هي عادتهم في مكاتبة أبيه وجده ، وقد كره ان يضع نفسه دونهما فتفسد عليه طاعتهم •

وعن عدم اختتانه قال انه خـــاف ان يقطع ذلك العضو من جسمه فيموت • ولما قيل له انه يقاتل بالسيف والرمح ، ويخوض الحرب ، ويجزع من قطع قلفة • أجاب ان تلك ضرورة تصيبه ، والاختتان شيء يستجلبه لنفسه •

أما التهمة الاخيرة التي كانت وحدها ذات الطبيعة السياسية والتي كانت سبب غضب الخليفة عليه وحبسه فلم تثبت عليه بشكل قاطع • اذ ان شهادة مازيار ، كمـــا سبق أن أشرنا ، ترددت بين الاعتراف والانكار • وكان الافشين قد انكر التهمة منذ البداية • وعندما قيل له ان أخاه كاتب اخا مازيار بذلك ، انكر ان تكون المكاتبة قد جرت بعلمه ، وانه غير مســـؤول عما كتبه أخوه • ثم استفسر عما اذا كان هناك ما يمنع من أن يحاول استمالة مازيار ليثق به ثم يسلمه الى الخليفة ، فيكون بذلك قد نصر الخليفة ونال الحظوة لديه • وهو استفسار أقـــرب الى أن يدينه من أن يبرىء ساحته من هذه التهمة ، لأنه ينطوي على اعترافه الضمني بمكاتبته مازيار •

قال أحمد بن ابي دواد في نهاية المناظـــرة انه قد وضح أمر الافشين ، أي انه ثبتت عليه المخالفات التي اتهم بها • وأمر بغا الكبير ان يعيده الى السجن ، رغم اعتراض الافشين على ذلك • وكان الحبس الذي سجن فيه في الجوسق شـــبيها بالمنارة ، وقد جعل في وسطها دكة لجلوسه(١١٨) •

لقد حاول الافشين ان يقنع الخليفة ببراءته مما نسب اليه من التهم • فطلب اليـــه ان يبعث له بمن يثق به لكي يـــؤدي اليه ما

---

(١١٨) الطبري ٩/١٠٧ ، وتجارب الامم ٦/٥١٩ •

سيقوله له • فانفذ المعتصم بالله نديمه حمدون بن اسماعيل • فأخذ الافشين ينفي كل ما قيل فيه من التهم ، وعزا ذلك الى انه حسد على ما ناله من حظوة ومنزلة عالية لدى الخليفة ، وانه لايزال على ولائه له لانه ربي في كنفه وتقدم برعايته • ثم التمس من الخليفة ان يراعي حقه عليه وخدمته له • فلما انصرف حمدون من الافشين وابلغ رسالته الى الخليفة ، أمر بقطـــع الطعام والشراب عنه الا القليل حتى مات(١١٩) • ويذكر حمدون انه رأى بين يدي الافشين طبق فاكهة أرسله اليه المعتصم بالله مع ابنه هارون ، وانه لما خرج منه لم يلبث قليلا حتى قيل ان الافشين يموت أو قدمات(١٢٠) • اشارة الى ان الفاكهة كانت مسمومة •

ولما مات الافشين حمل الى دار ايتــاخ ، ثم اخرج وصلب على باب العامة بسامرا عريانا ساعة من نهار ليراه الناس • ثم طرح واحرق مع خشبته والقي الرماد في نهر دجلة(١٢١) •

وكان الخليفة حين أمر بحبس الافشين وجه الكاتب سليمان بن وهب ليحصي ما في داره في المطيرة • فوجد بيتا فيه تمثال انسان من خشب عليه حلية كثيرة وجوهـــر ، وفي اذنيه حجران أبيضان مشتبكان ، عليهما ذهب • كما اخرج من منزله اصناما مع الاطراف الخشب التي اعدها لهروبه • ووجد لـــه كتاباً من كتب المجوس ، وكتباً دينية أخرى(١٢٢) •

ومدح أبوتمام الطائي الخليفـــة المعتصم بالله بهذه المناسبة مشيرا الى صلب الافشين وحرقه ، بقصيدة طويلة جاء فيها(١٢٣) :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من اسد العرين حذار

---

(١١٩) الطبري ٩/١١٤ •
(١٢٠) الطبري ٩/١١٣ ، وتجارب الامم ٦/٥٢٥ ، والكامل ٦/٥١٨ •
(١٢١) الطبري ٩/١١٤ ، وتجارب الامم ٦/٥٢٥ ، والكامل ٦/٥١٨ •
(١٢٢) الطبري ٩/١١٤ ، وتجارب الامم ٦/٥٢٥ •
(١٢٣) كامل القصيدة في ديوان ابي تمام ٢/١٩٨-٢٠٩ •

ملك غدا جار الخلافة منكم — والله قد اوصى بحفظ الجار
يارب فتنة أمة قد بزها — جبارها في طاعة الجبار
جالت بخيذر جولة المقدار — فأحله الطغيان دار بوار
كم نعمة لله كانت عنده — فكأنها في غربة وأسار

ثم يقول :

مكرا بنى ركتيه الا انه — وطد الاساس على شفيرهار
حتى اذا ما الله شق ضميره — عن مستكن الكفر والاصرار

ويقول :

مازال سر الكفر بين ضلوعه — حتى اصطلى سر الزناد الوارى
نارا يساور جسمه من حرها — لهب كما عصفرت شق ازار
طارت لها شعل يهدم لفحها — أركانه هدما بغير غبار
مشبوبة رفعت لاعظم مشرك — ما كان يدفع ضوءها للسارى
فصلن منه كل مجمع مفصل — وفعلن فاقرة بكل فقار
صلى لها حيا وكان وقودها — ميتا ويدخلها في الفجار
وكذلك اهل النار في الدنياهم — يوم القيامة جل أهل النار

خاتمة :

مما يلفت النظر في محاكمة الافشين عدم سماع شهادة واجن الاشروسني الذي يعتبر الشاهد الاصلي على محاولة الافشين الخروج على الخليفة والفتك بكبار القواد ، والتي بموجبها أمر المعتصم بالله بحبسه • كما ان ما ادلى به هذا الشاهد لم يسأل عنه الافشين ، ولم يسأل كذلك عن مواطأته بابك ، ومساعدته منكجور • ولاندري

ما اذا كان مجلس التحقيق اغفلها مكتفيا بالتهم الدينية لوضوحها ، أم ان المؤرخين الذين سردوا تفاصيـــل المحاكمة اهملوا الاشارة اليها . أم ان التهم الدينية وحدها كانت سبب غضب الخليفة على كبير قواده • ونرجح ان ما ذهبنا اليه آنفا من ان اهمال الجوانب السياسية والتأكيد على المخالفات الدينية مما اتهم به الافشين كان مقصودا للسبب الذي أشرنا اليه •

على اننا يجب ان لا نغفل مـــا صار اليه الافشين من مركز مرموق ، وما لـــه من دالة على الخليفة المعتصم بـــالله ، بسبب الانتصارات المتتالية التي احرزهـــا في حروبه • بحيث اخذ كبار رجال الدولة يرهبون جانبه ويخشون سطوته • وقد تسرب الحسد الى نفوسهم ، فعملوا على التخلص منه ، مستغلين بعض ما ظهرت منه من تصرفات يؤاخذ عليها ، فكان لهم ما ارادوا • ولعل مما زاد في حقدهم عليه اعتداده بنفسه وتعاليه عليهم • وقد اورد الخطيب الاسكافي ما يؤيد هذا حيث يقول ما خلاصته ا نالافشين بعد عودته مع أمير المؤمنين من حرب عمورية تقدمت حاله لديه لبلائه الحسن في حرب بابك وحرب الروم • فاخذ يستخف برجال الدولة ، لاسيما بالوزير محمد بن عبدالملك الزيات والقاضي أحمد بن ابي دواد ، فاعملا الفكر في كيفية التخلص منه • ولم يريا أبلغ من ايحاشه من الخليفة • فاستخدما لذلك محمد بن ابراهيم ، وكان صديقا حميما للافشين ووعداه بولاية فارس والاهـــواز اذا استطاع ان يوحش الافشين من المعتصم بالله • فادخل محمد في روع الافشين بما لفقه من الاخبار ان امير المؤمنين قد تغير عليه وانه يعمل على التخلص منه ، مما زرع بذور الشك وسوء الظن في نفس الافشين • وعندما دخل الافشين بعد ذلك على المعتصم بالله وكان في حينه ضجرا ببعض أموره ، رآه متغير البشر عابس الوجه ، فصدق عنده ما اخبره به محمد بن ابراهيم ، فحاذر على نفســـه وتحرز في بيته • ولما بلغ المعتصم بالله فعله انكره ، وكان ابن الزيات وابن ابي دواد لم يألوا

جهدا في ايحاشه منه • واغتنم ابن ابي دؤاد الفرصة فحذر المعتصم بالله من دخول الاعاجم عليه وهم مسلحون بالسيوف والخناجر وهو أعزل • فنفر قلب المعتصم بالله من الافشـــين • ولم تزل الوحشة تتفاقم بينهما حتى أمر المعتصم بالله بحبس الافشين وقتله(١٢٤) •

رغم ان الافشين من أصل تركي من قبائل ما وراء النهر التي كان أغلبها وثنيـا ، فقد كان يعتنق المجوسية • وقـــد اتضح من محاكمته انه لم يكن اسلم عن يقين وايمان • ولهذا فهو يلتقي مع الفرس في مجوسيته وفي كراهيته الشديدة للعرب • فقد كان يقول : اذا ظفرت بالعـــرب شدخت رؤوس عظمائهم بالدبـــوس(١٢٥) • ووصفهم في كتابة الى مازيار بقوله : والعربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة ثم اضرب رأسه بالدبوس(١٢٦) • وقد اتخذ الدين الاسلامي الذي اعتنقه عندما جاء الى بغـــداد ، والتقرب الى العرب الحكام وسيلة لتحقيق مطامحـــه التي تكشفت في عمله على الانفصال عن الدولة العربية واعادة المجوسية • وذلك نفس ما كان يعمل بابك الخرمي على تحقيقه • وقد كانت تصرفات الافشين في حرب بابك تنم عن أهدافــه المذكورة التي حاول اخفاءها بولائـــه الظاهري للخليفة • الا انه لم يستطع الاستمرار على ذلك بحكم ما يعمل له ويستهدف تحقيقه ، فظهرت دلائله في القضايا التي اثيرت ضده وحوكم عليها •

ويمكننا الان على ضوء هذه الحقائق ان نفسر أسباب ارساله ما يتوفر له من الاموال الى اشروسنة ، ونفسر كذلك تلكؤه وتباطؤه في حرب بابك ، وسعيه لاقناعه بالاستسلام ليضمن حياته ويقلل خسائره ، بحيث يصدق عليه قول ابن الجوزي : فتخاذل عن قتاله

---

(١٢٤) لطف التدبير/٩١ـ٩٣ ، وجاء مثل ذلك في آثار الاول مع تغيير طفيف/ ١٠٧ـ١٠٨ •

(١٢٥) البيان والتبيين ٣/٥٨ •

(١٢٦) الطبري ٩/١٠٩ •

واضمر موافقته في ضلاله • وقول ابن دحية : فانه تارة كان معه وتارة كان عليه - الا ان حذره من رقابـــة عبدالله بن طاهر أمير خراسان ، ويقظة الخليفة واتصالـــه المستمر به ، ولهفة الجند والقواد وبخاصـــة العرب منهم على القضـــاء على بابـــك والحرمة الخرمية ، جعله لا يستطيع الا ان يستجيب لحرب بابك والقضاء عليه • ولذلك نراه بعد الانتهاء من هذه الحرب والعودة من غزو بلاد الروم ، يخطط لحركته التي باءت بالفشل وانتهت بمصرعه • ولعل مما يؤيد تخطيطه للوثوب بالخلافـــة انه حاول القضاء على القواد الموالين للمعتصم بالله • فقد حاول قتل القائد العربي أبا دلف القاسم بن عيسى ، فخف القاضي أحمد بن أبي دواد لانقاذه ، وكان مما قاله للافشين : كم تراك قدرت تقتل أولياء أمير المؤمنين واحدا بعد واحد ، وتخالف أمره في قائد بعد قائد(١٢٧) •

٤ ـ حركة الزنج :

بداية الحركة :

من الحركات الخطـيرة التي جابهت الدولة العربيـــة في عهد سامرا ، وكانت عميقة التأثير في أمن البلاد وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية ، الحركة التي حمـــل لواءها الدعي علي بن محمد وعرفت بحركة الزنج •

ان ما أصاب الدولة العربية من وهن شديد من جراء استبداد القواد الاتراك بالسلطة ومنازعتهم الخلفاء ، شجع ذوي المطامع على الخروج على سلطانها • وقد استطاع أحد المغامرين وهو علي بن محمد العبقسي(١٢٨) ان يقوم بدعوة في جنوبي العراق مستغلا

(١٢٧) الاغاني ٨/٢٥٠ـ٢٥١ •

(١٢٨) نسبة الى عبدالقيس ـ العبر ٢/٤٢ •

اوضاع العبيد من الزنوج الذين استطاع ان يثير حفيظتهم على مالكيهم من أصحاب الاراضي الزراعية ، فهربوا منهم والتحقوا به. كما التف حوله كل صاحب فتنة(١٢٩) .

ان دعوة علي بن محمد لم تقم على قواعد سياسية واجتماعية معينة تستهوي الناس اليه ، وانما اكتفى بادعائه بتحسين احوال العبيد «وانه يريد ان يرفع اقدارهم ، ويملكهم العبيد والاموال والمنازل ، ويبلغ بهم اعلى الامور»(١٣٠) ومناداته بعدم التمييز بين العناصر والاجناس ، وهي من دعاوى الخوارج ، مما بدا ان ذلك كافيا عند اولئك الذين انضموا اليه من الزنوج . وبصرف النظر عن العوامل الاخرى فان مجرد وعد الزنوج بتحريرهم وتمليكهم الاموال كان كافيا لان يسارعوا الى اجابة دعوته . كما انه ادعى الانتساب لآل البيت ليضفي على دعوته سمة روحية ويكسبها الشرعية المطلوبة .. وقد اطلق على نفسه لقب أمير المؤمنين ، وضرب ذلك على نقوده الذهبية والفضية(١٣١) .

ولم يلبث علي بن محمد مدة وجيزة حتى التف حوله الوف من الزنوج ينشدون الخلاص من العبودية وشظف العيش . فكون منهم جيشا استطاع ان يتحدى به سلطات الدولة مدة من الزمن . فاستولى على ضواحي البصرة واخذ يهدد المدينة نفسها . ويظهر انه اختار منطقة البصرة لعدة اسباب منها ان طبيعة المنطقة الجغرافية ساعدت الزنج على حرب كمائن وعصابات متنقلة ، مما أدى الى اطالة أمد الاضطرابات وتعسر قمعها على الجيش النظامي . وكثرة العبيد العاملين في ازالة السباخ عن الاراضي الزراعية فيها، فقد كانت «كسوح الزنوج معروفة بالبصرة كالجبال ، وكان في

---

(١٢٩) العبر ٨/٢ .
(١٣٠) الطبري ٤١٥/٩ .
(١٣١) ثورة الزنج/١٧٢ .

انهار البصرة منهم عشرات الالوف يعذبون بهذه الخدمة»(١٣٢) • يضاف الى ذلك ان البصرة كانت مركزا لطبقة كبيرة من الاغنياء الذين كونوا ثرواتهم من استثمار العبيد في الزراعة ، وان هذه الطبقة وقفت ضد حركة الزنج منذ البداية(١٣٣) •

وقد اتخذ صاحب الزنج منطقة القنوات والمستنقعات جنوبي البصرة للاسباب التي ذكرناها قاعدة له ، واستطاع ان يصمد امام الجيوش التي سيرت اليه •

استفحال الحركة :

صرف صاحب الزنـــج جهوده أول أمره لاحتـــواء البصرة فحاصرها حتى أضر بأهلها ، فاســـتولى في سنة ٢٥٦هـ على الأُبلّة وقتل بها نحو ثلاثـين ألف(١٣٤) • ثم هاجم في منتصف شـــوال من السنة التالية مدينة البصرة • وكان القائـــد المكلف بحمايتها قد تهاون في اتخاذ العدة لصد هجوم الزنج(١٣٥) • فدخلوها واحرقوا المسجد الجامع وقسما من المدينة ، ونهبوا ممتلكاتها ، وقتلوا عددا هائلا من أهلها ، وهرب الباقون بأسوأ حال • ويقول المسعودي انهم قتلوا ثلثمائة ألف نفس من أهل المدينة(١٣٦) • فكانت هذه أول مذبحة يقوم بها الزنج •

ومما ساعد الزنج على التوسع شرقـــا وشمالا انشغال الجيش بمحاربة يعقوب بن الليث الذي بات يهدد العاصمة سامرا ، فدخلوا

---

(١٣٢) نفس المصدر/٢٨ •
(١٣٣) نفس المصدر/١١٢ •
(١٣٤) العبر ٢/١٣ •
(١٣٥) الطبري ٩/٤٨٤ •
(١٣٦) مروج الذهب ٤/٢٠٧ •

الاحواز في رجب سنة ٢٥٩هـ(١٣٧) • ودخلوا مدينة واسط في سنة ٢٦٤(١٣٨) ، ثم صاروا الى جبل والنعمانية وجرجرايا فهرب كثير من أهل السواد الى بغداد(١٣٩) • الا ان بعد هزيمة ابن الليث تفرغ الجيش للقضاء على الحركة في جنوبي البلاد •

الموفق يتفرغ لحرب الزنج :

بعد أن أمن الموفق ، أخو الخليفة المعتمد على الله ، جانب ابن الليث ، أخذ يستعد لحرب الزنج الذين استفحل أمرهم وصاروا خطرا كبيرا يهدد الخلافة بعد الانتصارات التي حققوها على الجيوش التي أرسلت لقتالهم • وبعد أن أكمل استعداده أرسل ابنه أبا العباس أحمد في سنة ٢٦٦هـ الى واسط لحربهم ، فقاتلهم أبو العباس في عدد من المعارك وتغلب فيها عليهم واسترد منهم كثيرا من المواقع والاموال وانقذ اعدادا كبيرة من الاسرى والسبايا(١٤٠) • وبهذا بدأ مد الزنج بالانحسار •

أخذ صاحب الزنج بعد أن وصلته انباء الخسائر التي حلت بجيشه ، يجمع جموعا جديدة يسيرها الى حرب ابي العباس • فسار الموفق بنفسه الى حربه في صفر سنة ٢٦٧هـ ونزل قريبا من واسط ، وجعل جيش ابنه مقدمة لجيشه في زحفه على قاعدة صاحب الزنج • وكان أول نصر كبير حققه جيش الموفق انه هزم قائد الزنج سليمان بن موسى الشعراني ودخل مدينة المنيعة واستنقذ زهاء خمسة آلاف امرأة سوى الزنجيات ، وحملن الى واسط ليدفعن الى أوليائهن ، واستولى على كل ما في المدينة من امتعة الزنج

---

(١٣٧) الطبري ٥٠٣/٩ •
(١٣٨) نفس المصدر/٥٣٩ •
(١٣٩) نفس المصدر/٥٤٢ و ٥٤٤ •
(١٤٠) نفس المصدر/٥٦٤ •

وميرتهم ، وهدم أسوارها وطم خندقها(١٤١) • ثم استولى على مدينة المنصورة ، وهي معقل آخر من معاقل الزنج ، واصيب قائدهم أحمد بن مهدي الجبائي بسهم مات على أثره • واستنقذ زهاء عشرة آلاف من نساء أهل واسط وصبيانهم ، فاعيدوا الى ذويهم ، واحتوى الجيش على ما في المدينة من الذخائر والاموال والاطعمة والمواشي(١٤٢) •

بعد هذه الانتصارات استعد الموفق للهجوم على المختارة قاعدة صاحب الزنج على نهر أبي الخصيب • وقبل أن يشن عليه الهجوم كتب اليه يدعوه الى التوبة والاانابة الى الله تعالى مما ركب من سفك الدماء وانتهاك المحارم وتخريب البلدان ، ويعلمه ان الأمان مبسوط له ان هو نزع عما هو عليه من الامور التي يسخطها الله ، الا ان صاحب الزنج ازداد عنادا ولم يجب على الكتاب(١٤٣) • ويقال انه قتل الرسول(١٤٤) •

حاصرت جيوش الموفق مدينة المختارة في أواخر رجب سنة ٢٦٧هـ • وكان صاحب الزنج قد جمع قواده كافة من جميع الجهات بجيوشهم ليدافعوا عن عاصمته • فقاتلوا دونها قتالا شديدا • مما حمل الموفق على أن يقيم عسكره مقابل المختارة في موقع سماه الموفقية ، وما لبث هذا العسكر ان صار مدينة عامرة بالاسواق وأنواع التجارات ، وبنى بها أبو أحمد مسجدا جامعا ، واتخذ بها دارا لضرب الدنانير والدراهم(١٤٥) • وقد نشط الموفق في تشديد الحصار على قاعدة صاحب الزنج الذي أخذ يطاول في الحرب • ولما أصيب الموفق بسهم في صدره في جمادي الاولى لم يترك

---

(١٤١) الطبري ٩/٥٦٦ـ٥٦٨ •
(١٤٢) نفس المصدر/٥٧٣ •
(١٤٣) نفس المصدر/٥٨١ •
(١٤٤) العبر ٢/٤٣ •
(١٤٥) الطبري ٩/٥٨٥ـ٥٨٦ •

مدينته الموفقية ، فعولج من جرحه حتى شفي منه • فاستأنف تشديد الخناق على صاحب الزنج في عقر داره •

المعركة الفاصلة :

كان صاحب الزنج قد قطع القناطر والجسور التي كانت على نهر ابي الخصيب واحدث سكرا في النهر من جانبه وجعل في وسط السكر بابا ضيقا ليحتد فيه جري الماء فلا تستطيع السفن دخوله • لذا رأى الموفق ضرورة قلع هذا السكر فارسل عليه الجند والفعلة فالحوا عليه حتى قلعوه ، وفتح النهر أمام سفن الجيش • وكان للزنج مزارع في ناحية النهر الغربي ولهم قنطرتان على هذا النهر ، فوجه الموفق ابنه العباس بجمع من شجعان جيشه ، فنصب لهم الكمائن وأقام من فوهة النهر المذكور • وعندما هم الزنج بالعبور اعترضتهم سفن أبي العباس ، فقتل منهم في النهر وعلى ضفتيه خلق كثير ، وأسر منهم اعدادا كبيرة •

وقد وصل الى الموفق مدد كبير ، اذ وصله وزيره وقائده صاعد بن مخلد من سامرا ومعه جيش قدر بعشرة آلاف مقاتل • كما وصل لؤلؤ قائد ابن طولون بعد انخرج على سيده ومعه جيش عظيم(١٤٦) • فوزع الموفق قواده وجيوشهم حسب الخطة التي أعدها للهجوم الاخير على صاحب الزنج ومن بقي يحارب الى جانبه • فتحركت القوات من جهات مختلفة على مواقع الزنج التي ضاقت بهم فولوا منهزمين ، بعد ان احتوى أصحاب الموفق مدينتهم باسرها ، واطلقوا من كان فيها من الاسرى •

وكان صاحب الزنج وابنه وعدد من قواده قد اوغلوا في نهر أبي الخصيب ، هاربين الى موضع كان صاحبهم قد وطأه ملجأ اذا

---

(١٤٦) الطبري ٩/٦٤٩ـ٦٥٠ •

(١٤٧) المنتظم ٥/٥٩ •

غلب على مدينته(١٤٧) • فأمر الموفق بملاحقتهم ، فزحفت اليهم جموع متتالية من الجيش واوقعت بهم • فاسر سليمان بن جامع قائد قواد الزنج ، مع قواد آخرين مما فت في عضد علي بن محمد • ولم يكف الجيش عن مطاردته حتى وافى البشير بقتله ، وجاءوا الى الموفق برأسه ، فخر الموفق ساجدا لله على ما أولاه وأبلاه ، وسجد أبو العباس ، وقواد الموفق شكرا لله • وأمر الموفق برفع الرأس على قناة ونصبه بين يديه ليراه الناس(١٤٨) •

وبذل الموفق الامان لمن يستسلم ممن بقي من الزنج المحاربين، فوافى معظمهم مستسلمين • وأمر أن يكتب الى سائر الامصار بالنداء في أهل البصرة والابلة وكور دجلة ، والاحواز ، وأهل واسط وما حولها ، بقتل صاحب الزنج ، وان يؤمروا بالعودة الى أوطانهم •

وقدم أبو العباس أحمد الى مدينة السلام ، اذ كان الخليفة المعتمد على الله آنذاك فيها ، ومعه رأس علي بن محمد صاحب الزنج ، فدخلها لأثنتي عشرة بقيت من جمادي الأولى سنة ٢٧٠هـ ، فاستبشر الناس بالقضاء عليه وعلى حركته التي أجج أوزارها ، فدامت أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام(١٤٩) •

أسباب فشل تمرد الزنج وحركتهم :

هناك أسباب عديدة تظافرت على فشل الحركة التي قادها الدعي علي بن محمد • فعلى الرغم من تكاثر اتباعه سواء ممن طمع باسترداد حريته ، أو بالمغانم من الاموال والسبايا ، فان عدم دربتهم على فنون القتال ، وضعف قيادتهم ، اضطره على أن يتبع ما

---

(١٤٨) الطبري ٩/٦٥٩ـ٦٦٠ •
(١٤٩) الطبري ٩/٦٦٣ •

يعرف بحرب العصابات . وقد حققت له هذه الخطة قدرا كبيرا من النجاح ، ولكنه نجاح موضعي موقت . فاذا ما استولى على موضع ما سرعان ما كان ينسحب أو يهرب منه . على انه بمرور الزمن أصبح من الاخطار التي تهدد كيان الدولة العربيـــة . ولما توجه الامير الموفق لمحاربة الزنج اتبع خطة اضطرهـــم بموجبها على المواجهة وخوض المعارك الكبيرة . فقد شدد الحصار على جماعات الزنج المتفرقين في المنـــاطق الجنوبية من العراق ولاســيما في البطائح والاهوار وأطرافها مما اضطرهـــم على التجمع بقوات كبيرة لكي تستطيع خرق الحصار المفروض عليها ، ورد الجيوش التي أخذت توالي هجومها عليها . وعلى الرغـــم من كثرة الخسائر التي حلت بهذه الجيوش فانها اضطرت صاحب الزنج على خوض معارك كبيرة كانت نتائجها في معظم الحالات وبالا عليه .

ومن العوامل الاخرى المهمة التي ساعدت على فشل الحركة ما رافقها من عنف الزنج وقسوتهم وتشبعهم بروح الحقد والانتقام ، مما جعل الناس ينقمون عليها ويتطوعون لمحاربتها . فضعضع ذلك قوات علي بن محمد مما أدى به الى الفشل ، وقد انتهى بقتله كل نشاط للزنوج في جنوبي العراق .

الفصـــل الثـــاني

الاضطرابات الأخـرى

واجه خلفاء سامرا اضافة الى الفتن والمؤامرات التي ذكرناها آنفا ، حركات أخرى أقل شأنا وأضعف خطرا • وهي أقرب الى أن تكون حركات تمرد وعصيان تقوم بين آن وآخر في ولايات وأقاليم مختلفة من أنحاء الدولة العربية المترامية الأطراف • الا انها مع ذلك استنفدت كثيرا من الجهود للقضاء عليهـــا ، مع ما سببته من خسائر في الارواح والاموال •

ومن المؤسف ان مصادرنا التأريخية التي عاصر أصحابها تلك الاحداث أو جاءوا بعدها بقليل ، عندما تذكر تمردا ما أو حركة عصيان ، لا تهتـــم بأسبابها ولا تتحرى العوامـــل التي أدت اليها والظروف التي كانت تحيط بها بقدر ما تركز من اهتمام بتوجيه العساكر اليها واخضاعها ووصف ما يرافق ذلك من قسوة وبطش • ويرجح ان ذلك ناشيء من الاعتقاد بـــأن الخروج على الخلافة غير جائز شرعا • ولذا فلا داعي لمعرفة أسبابه • أما الاهتمام بالقضاء على تمرد ما وما يتبع ذلك من تقتيـــل وحرق ونهب ، فيظهر انه تهديد للاخرين وتحذيرهم من سوء المصير اذا ما أقدموا على أمر مماثل •

سوف نتناول في هذا الفصل حركات التمرد والعصيان التي قامت ضد خلفاء سامرا بحسب تسلسلها التاريخي لكي تعطينا صورة عن جانب من الاوضاع الداخلية للدولة العربية حينذاك · كما سنفرد بحثا خاصا بكل حركة من حركات الخوارج لاختلاف طبيعة خروجهم على الخلافة ، والفتن التي قامت في أرمينية واذربيجان لتعددها على فترات متقاربة ·

١ ـ تمرد الزط :

تسلل الى منطقة البطائح في جنوبي العراق قبل الفتح العربي بعض القبائل الهندية عرفت بالزط · وقد هاجروا من مواطنهم في الهند لغلاء وقع هناك فتنقلوا في بلاد كرمان والاهواز الى أن صاروا الى هذه المواضع(١) · ويعتبرهم ابن خلدون انهم أخلاط من الناس(٢) · والواقع انهم أصبحوا كذلك بعد أن التجأ اليهم عدد من اللصوص وقطاع الطرق والعبيد الفارين · وهناك قول بأن الحجاج الثقفي عندما كان واليا على العراق أتى بخلق من زط السند واصناف ممن بها من الامم ومعهم أهلوهم وأولادهم وجواميسهم ، واسكنهم باسافل كسكر فغلبوا على البطيحة وتناسلوا بها(٣) · وان محمد بن القاسم هو الذي حملهم من السند الى العراق(٤) ·

عاش الزط في منطقة البطائح بعزلة عن بقية السكان ، واحتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم الغريبة وبطراز معيشتهم ولباسهم · وعلى الرغم من حسن معاملة العرب لهم ، وخاصة بعد الفتح العربي ، لم يلبثوا ان اصبحوا عنصر فتنة وفساد ، فالتجأ اليهم اباق العبيد والهاربين من وجه السلطة ، واخذوا ينتهبون الغلات الزراعية من

---

(١) التنبيه والاشراف /٣٠٧ ·
(٢) تاريخ ابن خلدون ٣/٥٤٦ ·
(٣) فتوح البلدان/٣٦٨ ·
(٤) نفس المصدر/١٦٦ ·

البيادر • وعندما نشبت الحرب الاهلية بين الخليفة الامين وأخيه المأمون ، اغتنموا فرصة ضعف السلطة فخرجوا عليها • واخذوا يقطعون طريق البصرة بالسلب والاعتـــداء ، فتحامى الناس عن الاجتياز بهم • وانقطع عن بغداد ما كان يحمل اليها من البصرة بالسفن ، فاشتد امرهم على النــــاس • فلما استقر المأمون ببغداد حاول تاديبهم ، فارســـل في سنة ٢٠٥هـ عيسى بن يزيد الجلودي لمحاربتهم(٥) • ثم بعث في السنة التالية حملة أخرى بقيادة داود بن ماسجور(٦) • الا انه فشل في التغلب عليهم لصعوبة تعقيبهم في أهوار البطائح •

ولما استخلف المعتصم بالله قرر ان يقضي على عبثهم بصرامة . فوجه اليهم أحمــد بن سعيد الباهلي فهزمــوه(٧) • فبعث اليهم في منتصف سنة ٢١٩هـ جيشا بقيادة عجيف بن عنبسة الذي اتبع في محاربتهم خطة تقوم على سد منافذ الطرق النهرية ومحاصرتهم • فضيق عليهم الخناق قرابة ستة شهور حتى اضطرهم على الاستسلام • وكان الخليفة هو الذي أمره باتباع هذه الخطة في حربهم(٨) • ومما يدل على اهتمام المعتصم بالله بامــر الزط انه أمر عجيفا بترتيب الخيل في كل سكة من سكك البريد لتركض بالاخبار . فكان الخبر يخرج من عند عجيف فيصل الى المعتصم بالله في يومه(٩) •

وكان يرأس الزط محمد بن عثمان وقد اسقط في يده بعد أن حاصرهم عجيف ، فطلب الامـــان على دمائهم وأموالهم ، فامنهم عجيف . وحملهم في السفن وجاء بهم الى بغـــداد • وكان عددهم

---

(٥) الطبري ٨/٥٨٠ . والكامل ٦/٣٦٢ •
(٦) الطبري ٨/٥٨١ . والكامل ٦/٣٧٩ •
(٧) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٢ •
(٨) فتوح البلدان/٣٦٩ •
(٩) نفس المصدر . والطبري ٩/٨ ، والكامل ٦/٤٤٣ •

حوالي سبعة وعشرين ألفا بين رجل وامرأة وصبي ، وعدد المقاتلة منهم اثناعشر الفا[١٠] • ويصف لنـــا الطبري كيفية عرضهم على الخليفة الذي رغب في مشاهدتهم بازيائهـــم • اذ عبأهم عجيف في زواريقهم على هيئتهم في الحرب ، معهم البوقات ، ودخل بهم بغداد يوم عاشوراء من سنة ٢٢٠ هـ والمعتصم بالله عند الشماسية في سفينة كبيرة من نوع الزو ، فمر به الزط على تعبئتهم ينفخون بالبوقات • فكان أولهم بالقفص وآخرهم بحذاء الشماسية ،واقاموا في سفنهم ثلاثة أيام ، ثم عبر بهم الى الجـــانب الشرقي فدفعوا الى بشر بن السميذع فذهب بهم الى خانقين ، ثم نقلوا الى عين زربة[١١] • وهي احدى الثغور الشامية ، ويظهر ان نقلهم اليها كان تقوية لحاميتها -

ويقول البلاذري ان عجيفا أخذهم جميعا وقدم بهم بغداد في الزواريق ، فجعـل بعضهم بخانقين وفرق سائرهم في عـــين زربة والثغور[١٢] • ويؤيد هذا مـــا ذكره المسعودي بأنـــه انزلهم بلاد خانقين وجلولاء من طريق خراســـان ، وبلاد عين زربة من الثغر الشامي[١٣] • وقد قضت الهجمات البيزنطية على الثغور العربية على القسم الاكبر منهم •

٢ ـ تمرد جعفر الكردي :

عصى في الموصـل أحد زعمـــاء الاكـــراد اسمه جعفـــر بن مهرجش[١٤] في سنة ٢٢٦ هـ وتبعه عدد كبير من الاكراد وغيرهم ممن كانوا يتذمرون من تعسف الولاة • فولى المعتصم بالله عبدالله بن السيد بن انس الأزدي على الموصل وأمره بالقضاء على تمرد جعفر واتباعه • وكان جعفـــر قد استولى على مدينة الموصـــل والجبال

---

(١٠) الطبري ٩/١٠ •

(١١) نفس المصدر •

(١٢) فتوح البلدان/١١٨ •

(١٣) التنبيه والاشراف/٢٠٧ •

(١٤) الطبري ٩/١١٨ ، والكامل ٦/٥٠٧ وفيه اسمه جعفر بن فهرجس ، ومثل هذا جاء اسمه في تاريخ ابن خلدون ـ ٣/٥٧٦ •

القريبة منها ، فقاتله عبدالله وأخرجه من الموصل . فلجأ جعفر مع أتباعه الى أحد الجبال المنيعة . ولما تبعه جيش عبدالله استظهر عليه جعفر لمعرفته بتلك المواضع الجبلية ، واعتياد اتباعه على القتال فيها . فهزم عبدالله وقتل كثير من أفـــراد جيشه ، وكاد أن يقضي عليه ، الا ان أحد قواده استطاع ان يشاغل اتباع جعفر عن أصحابه من جيش عبدالله مما سهل لهم الانسحاب والنجاة .

ولما علم الخليفة بفشل حملة عبدالله بن انس وتمزق جيشه ، وجه في المحرم من سنة ٢٢٧هـ القائد ايتاخ على رأس حملة لقتال ابن مهرجش . فالتقى ايتاخ بالمتمردين ، واستطاع بعد عدة معارك أن يتغلب عليهم ويمزق شملهم . فتفرق من بقي من اتباع جعفر عنه ، ووثب به أحد أصحابه فقتلـــه(١٥) . فاوقع ايتاخ باتباعه ولاحقهم وأكثر فيهم القتل والسبى . ثـــم حشد الاسرى والنساء والاموال وحمل ذلك الى تكريت(١٦) .

٣ ـ خروج المبرقع اليماني :

من الحوادث المهمة التي حدثت في السنة الاخيرة من عهد المعتصم بالله ، وكانت من نتـــائج تعاظم سلطة الجند الاتـــراك ، وعدم مراعاتهم حقوق الناس وتعديهم على حرياتهم ، ظهور ثائر في جبال الأردن هو أبو حرب تميم اللخمي ، وقد عرف بالمبرقع اليماني . وهو رجل من أهل فلسطين اشتهر بالشجاعة وشدة البأس . وقد ثار على السلطة عندما حاول أحد الجنود الاتراك النزول في داره وهو غائب ، فمانعته امرأة كانت في البيت فضربها واغلظ لها الكلام .

---

(١٥) الطبري ١١٨/٩ ، والكامل ٥٠٧/٦ ، وفيه : قيل ان جعفرا شرب سما كان معه فمات .

(١٦) الطبري ١١٨/٩ .

فلما عاد أبو حرب شكت اليه الأمرأة سوء معاملة الجندي التركي ، لأن العرب لم يألفوا نزول الجند قسـرا في بيوتهم . فاخذ سيفه وبحث عن الجندي ، فوجده وقتله . ثـم هرب من ملاحقة السلطة وقصد أحد جبال الاردن وأقام مختفيا . وقد جعل على وجهه برقعا لئلا يعرف[١٧] . وكان يظهر في النهـار متبرقعا ، فاذا جاءه أحد أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر ، فاذا استجاب له ذكر الخليفة وما يأتيه من الاعمال القبيحة ويعيبه عليها[١٨] . فاستجاب له جماعة من فلاحي تلك الناحية والقرى القريبة منها ، رغبة في التخلص من أوضاعهم الاقتصادية والمعيشية السيئة .

وزعم المبرقع انه أموي ، ولعل ذلك كان سبب تخوف السلطة من توسع دعوته ، لاسيما اصحابه زعموا انه السفياني[١٩] . وكان ممن استجاب الى دعوتـه جماعة من رؤساء اليمانية انتصـارا له وعصبية لانه من اليمانيين ، منهم زعيم يقال له بيهس وكان مطاعا فيهم ، ورجلان آخران من أهل دمشق[٢٠] . مما جعل الخليفة المعتصم بالله يهتم بأمره ، فسير اليه القائد رجاء الحضاري في زهاء الف من الجند . فلما اتاه رجـاء وجد جماعته يزيدون على مائـة ألف ، فتحاشى الاصطدام بهم . ولقلة خبـرة المبرقع العسكرية فانه لم يبادر الى مهاجمة الجيش الذي قدم لتأديبه . وقد عسكر رجاء بعيدا عنه واخذ يشاغله ويطاوله حتى آن وقت الزرع فانصرف من كان مع المبرقـع من الفلاحين الى أراضيهم ، ولم يبق معـه الا قرابة الالفين . ونظرا لقلة معرفتهم بشؤون الحرب فقد استطاع رجاء الحضاري ان يفل جمعهم بسهولة . ويقول مسكويه : فتأمل رجاء عسكر المبرقع فلم يجد فيه من له فروسية غيره ، فقال لاصحابه لا

---

(١٧) نفس المصدر /١١٦ ، وتجارب الامم ٥٢٧/٦ ، والعيون والحدائق ٣/٨-٤٠٤ .
(١٨) الطبري ١١٦/٩ ، وتجارب الامم ٥٢٧/٦ ، والكامل ٥٢٢/٦ .
(١٩) نفس المصادر . .
(٢٠) الكامل ٥٢٢/٦ ، والطبري ١١٦/٩ .

تعجلوا عليه فانه سيظهر لاصحابه بعض ما عنده • فما لبث المبرقع ان حمل، فقال رجاء لأصحابه: افرجوا له • فأفرجوا له، ثم حمل ثانية • فقال رجاء : افرجوا له ، فاذا اراد الرجوع فحولوا بينه وبين ذلك وخذوه • فافرجوا له ، ففعل ذلك ، واحاطوا به فانزلوه عن دابته ، واسره رجاء وحمله الى الخليفة بسامرا(٢١) •

ولما قدم رجاء بأبي حرب على المعتصم بالله عاتبة على تلكؤه في حربه • فاوضح رجاء للخليفة ان سبب ذلك هو قلة جنده وكثرة اتباع المبرقع ، وكلهم من حراثي تلك الناحية ، ولذلك فقد تمهل حتى قل عدد اتباعه لما انصرف أكثرهم الى عملهم في المزارع ووجد الفرصة لحربه والتغلب عليه(٢٢) •

ويستدرك الطبري فيقول ان هناك من يزعم بان خروج المبرقع اليماني كان في سنة ٢٢٦هـ بالرملة ، وقالوا انه سفياني • فصار في خمسين ألفا من أهل اليمن وغيرهم • وقد ناصره ابن بيهس وآخران معه من رجال دمشق • فسار اليهم رجاء الحضاري وواقعهم بدمشق فتغلب عليهم واخذ ابن بيهس اسيرا • ثم اتجه الى مقاتلة أبي حرب ، فقتل عددا كبيرا من أصحابه وأسره وحمله الى سر من رأى ، حيث جعل هو وابن بيهس في المطبق(٢٣) •

وما ذكره ابن خلدون يقرب مما استدركه الطبري ، اذ جاء فيه ، انه بينما كان رجاء وجيشه يعسكرون قبالة اصحاب المبرقع ينتظرون أوان الزراعة ، توفي المعتصم بالله • وكانت الفتنة قد ثارت بدمشق ، فأمر الواثق بالله رجاء ان يقضي على هذه الفتنة أولا ثم يعود لحرب المبرقع • ففعل رجاء بأمر الواثق بالله فقاتل ثوار دمشق وهزمهم ، واصلح أمر دمشق ، ورجع الى قتال المبرقع فاخذه

---

(٢١) الطبري ٩/١١٧ ، وتجارب الامم ٦/٥٢٧ •
(٢٢) الطبري ٩/١١٧ •
(٢٣) نفس المصدر/١١٨ •

أسرا وابن بيهس معه(٢٤) • واذا صحت هذه الرواية ، فان ما ذكره الطبري عن معاتبة المعتصم بالله قائده، يصبح من الاخبار الموضوعة، أو أن يكون الواثق بالله هو الذي عاتب القائد المذكور •

٤ ـ تمرد القبائل العربية :

تمرد القيسيين في دمشق :

كان بعض زعماء اليمانية وعدد من أهل دمشق وعلى رأسهم ابن بيهس الذي كان ذا نفوذ في قومه ، قد استجابوا لدعوة المبرقع اليماني الذي تمرد على الدولة في فلسطين • وقد يكون لعامل العصبية القبلية تأثير في انتصارهم له • وقد سبقت الاشارة الى أسباب تمرده والى توسع دعوته • وخرج ابن بيهس اثر وفاة المعتصم بالله في عدد كبير من بطون قيس بدمشق ، وحاصر أميرها أبا المغيث الرافقي • فبعث الواثق بالله القائد رجاء الحضاري لاخماد ثورته • فقدم رجاء دمشق ورأى ثوارها يعسكرون بمرج راهط ، فنزل بدير مران ودعاهم الى الطاعة ، فلم يرجعوا عن غيهم فقاتلهم وهزمهم وقضى على تمردهم(٢٥) •

تمرد بعض القبائل العربية :

وتمرد عدد من القبائل العربية التي تقع منازلها قرب المدينة المنورة ، منهم بنو سليم وبنو هلال وبنو مرة ، وهم من أقوى القبائل العربية • فكانوا يعتدون على الناس ويغتصبون أموالهم • وعندما هاجم بنو سليم جماعة من كنانة وباهلة وقتلوا بعض أفرادهما وجه اليهم أمير المدينة محمد بن صالح بن العباس ثلة من الجند ، الا انهم

---

(٢٤) تاريخ ابن خلدون ٣/٥٧٢ـ٥٧٣ •
(٢٥) راجع عن تمرد القيسيين : الكامل ٦/٥٢٨ـ٥٢٩ •

استعدوا للقائها وقطعوا الطريق بين مكة والمدينة ونهبوا القرى والمناهل ، حتى تخلف الناس عن الحج • ونصبوا رجلا من سليم يقال له عزيزة الخفاجي وسلموا عليه بالخلافة(٢٦) • فكان ذلك ولا شك محاولة للخروج على الخلافة العباسية والانفصال عنها اذا ما نجحت • فبادر الواثق بالله ووجه في سنة ٢٣٠هـ حملة على رأسها القائد التركي بغا لاخضاعهم • فهاجمهم بغا وتمكن من دحرهم ، فدعاهم الى الامان فاستسلم أكثرهم • ولكي يأمن تمردهم ثانية احتبس من وصف منهم بالشر والفساد وسجنهم في المدينة المنورة(٢٧) • وكان فيهم عزيزة بن القطاب • فلما انقضى موسم الحج استطاع بغا ان يجبر بني هلال أيضا على الاستسلام ، واحتبس من أشرارهم عددا سجنهم في المدينة المنورة كذلك •

وقد حاول المسجونون الهرب فنقبوا السجن ، وقتلوا الحرس واخذوا سلاحهم • فلما علم بهم اهل المدينة أحاطوا بهم وقاتلوهم حتى قضوا عليهم • وكان عزيرة بن القطاب قد فك قيوده وجعل يقاتل بها ويرتجز قائلا(٢٨) :

لابد من زحم وان ضاق الباب
اني انا عزيزة بن القطاب
للموت خير من العاب
هذا وربي عمل للبواب

حتى قتل فأمر به أمير المدينة المنورة فصلب(٢٩) •

---

(٢٦) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٠ •
(٢٧) الطبري ٩/١٣٠-١٣١ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٠ •
(٢٨) الطبري ٩/١٣٣ •
(٢٩) النجوم الزاهرة ٢/٢٥٦-٢٥٧ •

وكان القائد بغا قد توجه نحو قبائل بني مرة وفزارة الذين كانوا قد استولوا على مدينة قدك ، واستطاع ان يخضعهم ويأسر عددا كبيرا منهم ٠

وتمردت قبائل بني نمير في اليمامـــة في سنة ٢٣٢هـ وعاثت فسادا ٠ فأمـــر الواثق بالله القائد بغا ان يتوجه اليهـــا بجيشه لتأديبها ٠ فلقيها وحاربها في معارك متعددة حتى تغلب عليها ٠ ولما تم اخضاع جميع القبائل المتمردة قفل عائدا الى بغداد ، وطلب الى أمير المدينة المنورة ان يلحق به بمن معه من الاسرى ٠ فلقيه ببغداد وسارا جميعا الى سامرا ومعهما من الأسرى ما يزيد على الألفي رجل من مختلف تلك القبائل التي تمردت ٠ وبذلك قضي على حركات تمرد القبائل العربية ٠

ان استمرار هذه الاضطرابات المحلية طيلة السنوات ٢٢٨ ــ ٢٣٢هـ ، أي طيلة خلافة الواثق بالله ، بـــين القبائل العربية في الحجاز واليمامة لابد وان تكون لها أسباب دفعت تلك القبائل الى التمرد والخروج على السلطة الى حد انها تسمى خليفة لها ٠ الا ان مراجعنا التأريخية لا تشير الى تلك الاسباب ، وانما اكتفت بذكر حشد الجيوش لاخمادها ونجاحها في القضاء عليها ٠ أي ان أخماد تلك الاضطرابات لم يتم بالقضـــاء على أسبابها ومعالجة دوافعها التي قد تكون اقتصادية او سياسية ، وانما اخضعت بقوة السيف التي تمثلت بحشود الجند التي كانت قاسية في قتالها تلك القبائل ٠ ويقول الطبري ان المتمردين كانوا يرددون حين هاجمهم بغا :

يا بغية الخير وسيف المنتبه　　وجانب الجور البعيد المشتبه
من كان منا جانيا فلست به　　أفعل هداك الله ما أمرت به

فقال بغا : انما امرت ان اقتلكم(٣٠) ٠

(٣٠) الطبري ٩/١٣٣ ٠

٥ ــ تمرد قبائل البجة(٣١)

البجة قبائل بدوية كانت تسكن شرقي بلاد النوبة ما بين نهر النيل وبحر القلزم • وبين أرض النوبة والبجة جبال منيعة • وفي بلادهم معدن الذهب والزبرجد(٣٢) • وهم ينزلون خياما من الجلود ، وينتفون لحاهم ، وينزعون فلك ثدي الغلمان لئلا يشبه ثديهم ثدي النساء ، وغالب طعامهم الذرة ، وهم يركبون الابل ويحاربون عليها ، ويرمون بالحراب فلا يخطئون(٣٣) • وهم يقاسمون من يستخرج المعادن النفيسة من أرضهم ، ويؤدون الى عمال مصر في كل سنة أربعمائة مثقال من التبر(٣٤) • وخمسمائة نفر من العبيد والجواري مع عدد من البخت البجاوية وزرافتين وفيلين(٣٥) • وقد توقفوا من دفع ذلك في سنة ٢٤٠هـ ولعدة سنوات ، ومنعوا من كان يعمل من العرب في استخراج الذهب والجوهر ، كما اخذوا يغيرون على أراضي مصر وينتهبون بعض قرى الصعيد مثل اسنا وادفو(٣٦) •

وكتب والي مصر عنبسة بن اسحاق الى الخليفة المتوكل على الله بتمرد البجة واعتداءاتهم ، فانكر الخليفة الامر • الا ان بعد بلادهم الصحراوية عن العمران جعله يتردد في توجيه حملة عسكرية لتأديبهم • فشاور في أمرهم أرباب الخبرة بمسالك تلك البلاد ، فعرفوه انهم أهل بادية وان الوصول الى بلادهم ومنه براري ومفاوز موحشة معطشة ، وانهم متى ما طرقهم طارق استنجدوا بقبائل

---

(٣١) كذا وردت في الطبري وفي مختلف المصادر ماعدا في الكامل ٧/٧٧ فهي : البجاة •

(٣٢) مختصر كتاب البلدان /٥٩و٧٨ •

(٣٣) كتاب البلدان /٣٣٦ •

(٣٤) الطبري ٩/٢٠٦ •

(٣٥) النجوم الزاهرة ٢/٢٩٥ •

(٣٦) الكامل ٧/٧٧ . والنجوم الزاهرة ٢/٢٩٥ •

الاحباش المتصلة على شواطيء النيـــل حتى بلاد الزنج[٣٧] • فبلغ الامر محمد بن عبدالله ، وكان من القـــواد الذين يتولون خفارة الحجاج أكثر السنين ، فحضر الى الفتح بن خاقان وعرض عليه انه اذا ما آمر الخليفة عامل مصر بتجهيزه كما يريد عبر الصحراء الى بلاد البجة • فلمـــا عرض الفتح ذلك على المتـــوكل على الله أمر بتجهيزه بسائر ما يحتاج اليه وتقدم الى عنبسة ان يمده بالرجال والخيل والجمال وما يحتاج اليه من الميرة والسلاح والاموال[٣٨] •

فخرج اليهم محمد بن عبـــدالله من مصر وقد انضم اليه عدد كبير من المتطوعين ممن كانوا يعملون في استخراج المعادن ، بحيث صار عدد جيشه نحوا من عشرين ألف مقاتل بين فارس وراجل • كما سير بنفس الوقت سبعة مراكب موقـــرة بالمؤونة من الدقيق والتمر والزيت والشعير والسويق في بحـــر القلزم • وامر بعض أصحابه أن يرافقوا هذه السفن لتوافيه في ساحل البحر عند عيذاب من أرض البجة • وقد أعدها احتياطا لاحتمال عدم امكان حصول جيشه على الطعام هناك •

ولما وصل محمد بجيشه الى حصون البجة خرج اليه ملكهم ، واسمه علي بابا ، في جيش كثيف وســـلاحهم الحراب والمزاريق وأكثرهم على الجمال وهي على غايـــة من النفرة والشراسة • ولما قارب البجة عسكر محمـــد رأوا ان لا قِبَل لهم بهم لكثرة عددهم وكمال عدتهم • فعزم ملكهم على مطاولتهم في الحرب حتى تفنى ازوادهم وتضعف خيولهم فيســـهل التغلب عليهم • فاخذ يراوغ بجيشه ويستطرد أمام جيش محمد • الا ان وصول مراكب المؤونة الى جيش محمد أفسد خطة علي بابا الذي أيقن ان المدد لا ينقطع من

---

(٣٧) النجوم الزاهرة ٢/٢٩٦ •
(٣٨) النجوم الزاهرة ٢/٢٩٧ •

جهة الساحل ، لاسيما وان محمدا كان قد شدد الحراسة عليها كي لا تستولى عليها جموع البجة • فصمم على الاشتباك بجيش محمد •

ورای محمد بن عبدالله ان يربك جيش البجة ليضعف من أهمية كثرة عددهم فجمع اجراس الابل والخيل التي في جيشه وجعلها في اعناق خيل المقدمة ، وأمر بضرب الطبـــول ونفخ الابواق ساعة الحملة • وعندما حمـــل على البجة نفرت ابلهـــم من الاصوات الصاخبة واشتد رعبها ، فولت الادبار وتساقط عن ظهورها اكثر ركابها • فارتبك جيش علي بابا وداس بعضه بعضا • فتبعهم جيش محمد وأوقع بهم قتلا وأسرا • فلما رأى ملك البجة ذلك وايقن بالهزيمة طلب الامان • فاجابه محمد الى طلبه بعد أن أدى ما عليه من الخراج وغيره عن السنوات التي كان ممتنعا فيها عن الاداء • وأخذه محمد أسيرا الى سامرا ، فوصلها في أواخر سنة ٢٤١هـ •

ولما مثل علي بابا بين يدي المتوكل على الله أمره الحاجب بتقبيل الأرض فامتنع ، فعزم الخليفة على أن يأمـــر بقتله ، وخاطبه على لسان الترجمان : انه بلغني ان معك صنما من حجر اسود تسجد له كل يوم مرتين ، فكيف تتأبى على تقبيل الأرض بين يدي ، وبعض غلماني قد قدر عليك وعفا عنك ؟ فلما سمع علي بابا كلامه قبل الارض ثلاثا ،، فعفا عنه وخلع عليـــه وعلى أصحابه ، وسمح له بالعودة الى بلاده(٣٩) •

وكان قد وقفه بباب العامة بسامرا سبعون من البجة على ابلهم وقد رفعـــوا على حرابهم رؤوس عدد ممن قتل من عســـكرهم في العرب • وقد ولي الخليفة على البجة والطريق بين مكة ومصر سعدا الخادم ، فولي هذا محمد بن عبدالله خليفة عنه ، فخرج محمد عائدا بعلي بابا الى بلاده(٤٠) •

---

(٣٩) النجوم الزاهرة ٢٩٩/٢ •

(٤٠) الطبري ٢٠٦/٩ ، والكامل ٧٩/٧ •

٦ ـ الاضطرابات في أرمينية :

كان المأمون قد ولى خالد بن يزيـــد بن مزيد الشيباني على أرمينية ، فخالط بطارقتها ، أي أمراءها المحليين ـ وقبل هداياهم ، مما جرأهم على من جاء بعده من العمال(٤١) • وبقي خالد في منصبه هذا الى أيام المعتصم بالله ، فولى بدلا عنه الحسن بن علي الباذغيسي المعروف بالمأموني • فأهمل شؤون البطارقـــة ولان لهم فازدادوا فسادا على الدولة(٤٢) • وقد ولي المعتصم بالله بعده عددا من الولاة لم يتمكنوا من السيطرة على المنطقة • وكان اخرهم علي بن الحسين بن سباع القيسي • فاستضعفه الامراء المحليون حتى سموه اليتيم لضعفه ومهانته(٤٣) • فاعاد المعتصم بالله خالد بن يزيد الشيباني الى الولاية على أرمينية وديار ربيعة • فلما بلغ خبره البطارقة خافوه وعملوا على العصيان عليه ، وقـــد تحصن كل منهم في قلعته • مما اضطر الخليفة على رد خالـــد ، واعادة الوالي الســـابق علي بن الحسين •

وكانت رواتب الجند قـــد تأخر دفعها لقلة الجباية فشغبوا مطالبين بارزاقهم ، فطالب الوالي أهل البلاد بدفع ما عليهم من الخراج ، فامتنعوا عن الدفع وثاروا به وحاصروه ، مما اضطر الخليفة على أن يبعث القائد حمـــدون بن علي بن الفضل ليتولى مساعدة الوالي في اخضاع الولاية(٤٤) •

ثم اضطربت أرمينية في عهـــد الواثق بالله وتحرك بها بعض البطاركة والعرب وتغلبوا على نواحيهـــم • فولى الخليفة خالد بن يزيد الشيباني الولايـــة عليها وضم اليه بعض الكـــور من ديار

(٤١) فتوح البلدان/٢١٢ •
(٤٢) فتوح البلدان/٢١٢ ، ومختصر كتاب البلدان/٢٩٤ •
(٤٣) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٥ •
(٤٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٥ •

ربيعة ، فسار اليها في جيش كثيف • فلما بلغ المتغلبين امره خافه أكثرهم وكتبوا اليه يعلنون طاعتهم وارسلوا اليه الهدايا ، فرفضها وطلب ان يأتي بهـــا مرسلوها بانفسهم ، وذلك ليختبـــر ولاءهم وطاعتهم • وطلب الى اسحاق بن اسماعيل العامل على تفليس ، وكان من جملة المتغلبين يأمره بالقدوم اليه ، فلم يفعل • فزحف اليه ، الا ان الموت عاجلة قبل ان يصل اليه • فولي الخليفة محمد بن خالد مكان أبيه • ولما كان أصحاب أبيه قد انصرفوا عند موته فقد طلب الى الخليفة ان يمده • فسير اليه القائد أحمد بن بسطام الذي ساعده في جمع أصحاب أبيـــه ومواليه ، وفي محاربة قســـم من المتغلبين واخضاعهم ، مما ساعده على ضبط شؤون الولاية •

عصيان ابن البعيث في اذربيجان :

كان محمد بن البعيث من جملـــة المتغلبين على بعض نواحي اذربيجان ، فقاتله عاملها فظفر به وأسره وحمله الى سامرا فسجن فيها • الا انه ما لبث ان هرب في سنة ٢٣٤هـ وعاد الى منطقة مرند ، وجمع اليه اتباعه من ربيعة وغـــيرهم ، واعلن الخلاف والعصيان ثانية • ولم يستطع والي اذربيجان محمد بن حاتم بن هرثمة ان يظفر به • فولى المتوكل على الله حمدويـــه بن الفضل السعدي على اذربيجان ووجهه من سامرا على البريـــد(٤٥) • فلما وصل الى مقر عمله زحف الى ابن البعيث والجأه الى مدينـــة مرند • وكان ابن البعيث قد حصنها وجمع فيها ما يحتاجه من آلة ومؤونة للحصار • فاقام حمدوية على حصاره زمنا دون جـــدوى لمتانة أسوار المدينة وقوة حاميتها • فوجه الخليفة اليه قائدا اخر لمساعدته ، فلم يفلحا في فتح المدينة • فسير الخليفة القائد بغا الشرابي في أربعة آلاف من الجند الأتراك والمغاربة • فلما قرب بغا من مرند حاول ان يستميل

---

(٤٥) الطبري ٩/١٦٥ ، والكامل ٧/٤٢ •

بعض أصحاب ابن البعيث ، فارســـل عيسى بن الشيخ بن السليل الشيباني(٤٦) . ومعه امان لوجوه المدينة ولابن البعيث نفسه ، على أن ينزلوا على حكم أمير المؤمنين الخليفة ، والا فانه سيقاتلهم . وان ظفر بهم لم يستبق احدا منهم ، وكان عامة من مع ابن البعيث من ربيعة قوم عيسى بن الشيخ ، فخـــرج اليه عدد كبير منهم(٤٧) . ثم فتحت المدينة أبوابها فدخلها الجيش ، وحاول ابن البعيث الهرب فلحقه بعض الجند وأخذوه أسيرا ، وانتهب الجند منزله ومنازل أصحابه وأهل المدينة ممن لم يستأمنوا .

وقدم بغا الشرابي الى سامرا في شوال سنة ٢٣٥هـ بابن البعيث مع أخوين له واحد أبنائه ، وكانوا خرجـــوا بأمان ، مع عدد من الاسرى . وقد حملوا على الجمال ليراهـــم الناس . فأمر المتوكل على الله بحبسهم . وذكـــر انه لما أتي المتوكل على الله بمحمـــد بن البعيث أمر بضرب عنقه ، وقبل ان يقتله السياف سأله الخليفة عما دعاه الى ما صنع ، فقال : الشقوة ، وانت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه . وان لي فيك لظنين اسبقهمـــا الى قلبي أولاهما بك وهو العفو ، ثم اندفع يقول(٤٨) :

أبى الناس الا انك اليوم قاتلي أمام الهدى والصفح بالناس أجمل

وهل أنا الا جبلـــة من خطية وعفوك من نور النبـــوة يجبل

فانك خـــير السابقين الى العلا ولا شك ان خير الفعالين تفعل

فقال الخليفة لبعض أصحابه : ان معه لأدبا . فقال : بل يفعل أمير المؤمنين خيرهما ويمن عليه . فأمر برده فحبس مقيدا . وقيل

---

(٤٦) في الكامل ٤٢/٧ : ابن الشليل ، وفي المختصر في اخبار البشر ٤٤/٢ ابن السليك .

(٤٧) الطبري ١٦٥/٩ ، والكامل ٤٢/٧ .

(٤٨) الطبري ١٧٠/٩ . والكامل ٤٧/٧-٤٨ وفيه آخر البيت الاول : بالمرء أجمل .

ان المعتز شفع فيه الى أبيه فعفا عنه(٤٩) • ولم يلبث ابن البعيث ان مات في السجن بعد وصوله سامرا بشهر واحد •

خروج ارمينية في سنة ٢٣٧هـ :

عين المتوكل على‌الله القائد أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري على أرمينية واذربيجان ، فعسكر بكــــرخ فيروز متأهبا للخروج الى ولايته • الا انه توفى فجأة في أوائـــل شوال سنة ٢٣٦هـ • فولى الخليفة ابنه يوسف ، فشخص الى ارمينية واستطاع ان يضبطها • وعندما خرج بقراط بن آشور ، وهو بطـــريق البطارقة ، يطالب الامارة على الولاية في سنة ٢٣٧هـ استطاع يوسف ان يظفر به فقيده وبعث به الى سامرا ، فاثار عمله هذا عـددا من البطارقة فاعلنوا عصيانهم على الوالي ، وتحالفوا على قتله ، وقد انضم اليهم اسحاق بن اسماعيل عامل تفليس • وصادف موسم سقوط الثلج في طرون ، وهي المدينة التي كان فيها يوسف الثغري ، فحاصروه ، فقاتلهم الا انهم تغلبوا عليــه وقتلوه ، كما قتلوا كل من قاتل معـــه من أهل المدينة ، وأما من لم يقاتل معه قالوا له : انزع ثيابك وانج بنفسك عريانا ، ففعلـــوا ومشوا حفاة عراة فهلك أكثرهم من البـــرد ، وسقطت أصابع كثير ممن نجا منهم ، وكان ذلك في رمضان(٥٠) • ثم تغلبوا على عمال بقية النواحي فقتلوهم •

لما بلغ المتوكل على‌الله خبر خروج البطارقة وقتلهم يوسف بن محمد وعماله وجه بغا الشرابي الى ارمينية طالبـــا بدم يوسف • فسار اليهم بغا بجيش كبير وحارب قتلة يوسف فظفر باكثرهم ، وقتل زهاء ثلاثين ألفا من أهل أرمينية وسبى منهم خلقا كثيرا(٥١) • ثم توجه بغـــا الى تفليس للقبض على عاملها الثائر اســـحاق بن

---

(٤٩) الطبري ٩/١٧١ ، والكامل ٧/٤٨ •

(٥٠) الطبري ٩/١٨٧ ، والكامل ٧/٥٨ •

(٥١) الطبري ٩/١٨٨ ، والكامل ٧/٥٨ـ٥٩ •

اسماعيل · وأمر قائده زيرك التركي بمهاجمة المدينة ، فخرج اسماعيل الى محاربته · وكان بغا يقف على تل مطل على المدينة يراقب المعركة . فلما رأى خروج اسحاق بعث النفاطين فضربوا المدينة بالنار ، وكان أكثر بيوتها من خشب الصنوبر فالتهمتها النيران · فعاد اسحاق الى المدينة ليعالج أمر الحريق فاحاط به الجند وأخذوه أسيرا فضرب بغا عنقه وسير رأسه الى الخليفة بسامرا · واحترق بالمدينة نحو خمسين ألف انسان ، وأسر الجند من بقي حيا فيها ، وسلبوا الموتى(٥٢) ·

ثم وجه بغا جيشه لتأديب بقية العصاة من البطارقة ، ففتح قلعة الجردمان(٥٣) ، وهي بين برذعة وتفليس واخذ بطريقها اسيرا · كما استطاع ان يخضع البيلقان وأران ويأسر أصحابهما من البطارقة · وبذلك قضى على حركة العصيان والتمرد الذي كان قد عم أغلب أنحاء أرمينية · الا ان اليعقوبي يذكر ان بغا زحف الى الصنارية فحاربهم فهزموه فانصرف عنهم ، وتتبع من كان أعطاهم الامان فأخذ بعضهم ، وهرب جماعة وكاتبوا صاحب الروم وصاحب الخزر وصاحب الصقالبة ، فاجتمعوا في خلق عظيم ، فكتب بغا بذلك الى المتوكل على الله ، فندب للبلد محمد بن خالد بن يزيد الشيباني ، فلما قدم ارمينية جدد الامان للثائرين فسكنوا(٥٤) ·

مما يلفت النظر تعدد الفتن التي قامت في أرمينية واذربيجان· ويظهر ان السياسة التي انتهجتها الدولة العربية في تلك المناطق ، في الابقاء على الامراء المحليين بمراكزهم طالما كانوا موالين للدولة ، كانت نتيجتها ان تمسك هؤلاء الامراء بسلطاتهم التي غدت مشروعة باعتراف الدولة بها · وكانوا يسخطون لأي تدخل من الولاة في شؤونهم ، لاسيما اذا كان اولئك الولاة ضعفاء ·

---

(٥٢) الطبري ٩/١٩٢-١٩٣ ، والكامل ٧/٦٧ ·

(٥٣) الطبري ٩/١٩٣ ، والكامل ٧/٦٨ ، وجاء فيه اسم لقلعة الحرزمان ·

(٥٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٠ ·

والواقع ان بطارقة ارمينية كانوا شبه مستقلين في اماراتهم • فاذا قدم عليهم وال داروه فان رأوا منه عفة وصرامة وكان في قوة وعدة اذعنوا له بالطاعة وأدوا الخراج ، والا طمعوا فيه واستخفوا بأمره(٥٥) • كما ان القسوة المتناهية التي كان يلجأ اليها قواد الحملات العسكرية التي توجه لاخضاع العصاة كاحراق المدن والامعان في تقتيل السكان وسبيهم ، كانت تولد رد فعل لدى سكان تلك المناطق فيزدادون بغضا للسلطة وبعدا عنها ، ويبادرون الى مناصرة كل من يناهضها ، انتقاما لما أصابهم • ولذلك يلاحظ ان حركات التمرد في المناطق المذكورة قلت كثيرا وكادت تتلاشى عندما شغلت الدولة بمقاومة حركة الزنج ، اذ انصرفت بكل جهودها للقضاء عليها • مما ترك للبطارقة الحرية الكاملة في ادارة شؤونهم ، ولذا لم يكن ثمة ما يدعوهم الى التمرد والعصيان •

٧ ـ فتن الخوارج :

كان جمهور الخوارج بدوا تغلب عليهم نزعة المساواة ، ولذا لم يختصوا قبيلة أو فخذا بالخلافة ، بل قالوا بترشيح كل مسلم لها ، وان يختار لها أفضل الناس بانتخاب الامة كافة(٥٦) • ويذكر الشهرستاني ان عدد فرقهم الرئيسة ثمانية ، وقد تشعبت بحيث أصبحت خمسا وعشرين فرقة ، يجمعها كلها وجوب الخروج على الامام اذا غير السيرة وعدل عن الحق(٥٧) • وهم لا يقرون مبدأ الوراثة أو التفويض ولذلك اعتبروا الخلفاء الامويين جائرين يجب الخروج عليهم ، لانهم لم تختارهم الامة •

وكان رأي الخوارج في الخلفاء العباسيين لا يختلف عن رأيهم في الخلفاء الامويين ، فانهم لا يرونهم صالحين للخلافة لانهم لم

---

(٥٥) فتوح البلدان /٢١٢ •
(٥٦) النظم الاسلامية للدوري/٨٧ـ٨٨ •
(٥٧) الملل والنحل ١/١١٥ •

يستوفوا شروطها ، ولم يختاروا من قبل الامة اختيارا حرا ، ولذلك ظلوا يحملون لـــواء الخروج عليهم طيلة عهد ســـامرا • وكانوا يستفيدون من الاضطراب القائم في حاضرة الخلافة بسبب النزاع بين الخلفاء والقواد الاتراك، فيستفحل أمرهم ويشنون الغارات على القرى والرساتيق ويجبون منها الزكاة والعشور • وقد دخلوا اكثر من مرة بعض المدن والقرى • ولم تستطع الدولة القضاء عليهم رغم الحملات التي وجهت اليهم ، لانهم لم يكونوا يتبعون قواعد الحرب النظامية • فهـم يظهرون عندما تسنح لهم الفرصـــة ، فيقاتلون بشجاعـة واستبسال ، ثم يفرون ملتجئين الى الجبـــال أو المناطق الوعرة عندما يهزمون أمام الجيش الموجه لقتالهم • ولم يتيسر لهم ان يستولوا على منطقة معينة بصورة دائمة ويؤسسوا امارة خاصة بهم • ولعل أهم أسباب ذلك قلة عددهـــم ، وان الناس لم يكونوا يؤيدونهم ، فضلا عن انهم كانوا يرهبون جانبهم لشدتهم وصرامتهم في معاملة من لــم يأخذ بعقيدتهم ، وكثيرا ما كانـــوا يتطوعون لمحاربتهم •

وسنستعرض فيمـا يأتي الانتفاضات التي قـام بها رؤساء الخوارج ممن طالت مقارعتهم جيوش الخلافة في عهد سامرا • فقد خرج عدد من زعماء الخوارج في أماكن مختلفـــة من أرجاء الدولة العربية لاسيما في منطقة الموصل والجزيرة • كما كان أمرهم قد استفحل لوقت ما في سجستان من الولايات الشرقية • الا ان أكثرهم لم يتمكنوا من الثبات في وجه السلطة ، اذ سرعان ما كان يقبض عليهم فيسجنون أو يقتلون • ولــم يستطع الاستمرار في مقارعة الحملات التي توجه اليهم سوى نفر قليل منهم • فقد خرج في سنة ٢٣١هـ على عهد الواثق بالله ، محمد بن عمرو الشيباني الخارجي من بني تغلب . في ثلاثةعشر رجـــلا من اتباعه ، في ديار ربيعة في الجزيرة ، واستجاب له كثيرون • فخرج الى محاربته غانم بن ابي مسلم ، وكان على جيش الموصل ، فاخذه أسيرا وبعث به الى سامرا ،

فحبس في سجن المطبق ببغداد ، ونصبت رؤوس القتلى من أصحابه عند خشبة بابك بسامرا(٥٨) • ويروي اليعقوبي اخبار هذا الخارجي بشكل آخر فيقول ان محمد بن عمرو الشيباني خرج بديار ربيعة وابو سعيد محمد بن يوسف بها فخرج اليه مع الجند ، وكان محمد بن عمرو في ثلاثمائة أو أربعمائة من الخوارج فصار الى سنجار ثم انهزم الى ناحية الموصل ، فتبعه أبو سعيد فاسره وادخله تصيبين على بقرة ، وحمله الى الواثق فكتب اليه : ما ينبغي ان يقتل ، فانه لن يخرج خارجي مادام حيا ، فلم يترك محبوسا في أيام الواثق بالله(٥٩) •

ويظهر ان محمد بن عمرو اطلق من السجن او انه استطاع الهرب ، لانه خرج ثانية بناحية الموصل في سنة ٢٤٨هـ في أيام المنتصر بالله • فوجه اليه القائد اسحاق بن ثابت الفرغاني ، فاخذه أسيرا مع عدد من أصحابه فقتلوا وصلبوا(٦٠) • الا ان ابن الأثير يشير في حوادث سنة ٢٥٢هـ الى ان محمدا المذكور قتل في ديار ربيعة ، قتله خليفة لأيوب بن احمد في ذي القعدة(٦١) • ولعله واهم في ذلك لأنه سبق له أن أيد رواية الطبري ، الا ان يكون قد نجا من القتل في سنة ٢٤٨هـ وهرب من السجن ، أو ان الطبري واهم في تاريخ قتله وصلبه • على ان المسعودي يذكر وثوب خارجي آخر في أيام المنتصر بالله غير محمد بن عمرو ، هو ابو العمود الشاري الذي ظهر بالبوازيج قرب تكريت ، وقد استفحل أمره اذ انضمت اليه جماعات من ربيعة ومن الاكراد • فسرح اليه المنتصر بالله جيشا على رأسه القائد التركي سيما ، فكانت بين الفريقين عدة مواقع تمكن الجيش بعدها من أسر الشاري فجيء بـه الى سامرا • ويظهر ان

---

(٥٨) الطبري ٩/١٤٠ ، والكامل ٧/٢٣ وجاء اسمه فيه محمد بن عبدالله التعلبي ، ولعلها مصحفة عن التغلبي •

(٥٩) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٣ •

(٦٠) الطبري ٩/٢٥٥ ، والكامل ٧/١٢٠ •

(٦١) الكامل ٧/١٧٦-١٧٧ •

المنتصر بالله عفا عنه واطلق سراحه بعد ان اخذ عليه العهد والمواثيق بعدم الخروج ثانية(٦٢) • ولا يعرف ما اذا كان أبو العمود هذا هو نفسه محمد بن عمرو الذي سبقت الاشارة اليه • ويبدو ان المسعودي قد توهم في التفصيلات ، لاسيما وانه لم يذكر شيئا عن خروج ابن عمرو الشاري • كما ان مدة خلافة المنتصر بالله وهي ستة أشهر ، لا تتسع لقيام فتنتين في نفس المنطقة • الا ان اختلاف مصير أبي العمود واختلاف القائد الذي وجه اليه ، وعفو المنتصر بالله عنه ، مما يستدعي التأمل في رواية المسعودي •

ويشير ابن الاثير الى خارجي آخر اسمه طوق من بني زهير خرج في سنة ٢٥٧ هـ فاجتمع اليه أربعة آلاف فسار الى أذرمة(٦٣) ، فحاربه أهلها ، الا انه استطاع ان يدخلها عنوة ، ويظهر انه استباح المدينة • فجمع عليه الحسن بن أيوب بن أحمد العدوي جمعا كثيرا فحاربه وظفر به فقتله وقطع رأسه وانفذه الى سامرا(٦٤) •

على ان اهم فتن الخوارج في خلال هذه المدة هي فتنة مساور بن عبدالحميد الشاري البجلي الموصلي وخلفه هارون بن عبدالله التي استمرت قرابة ثلاثين سنة ، وفتنة حمدان بن حمدون التغلبي التي دامت أربعةعشر عاما •

مساور بن عبدالحميد البجلي :

ظهر لأول مرة في رجب سنة ٢٥٣ بالبوازيج ، وهي بلد على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة(٦٥) • وكان من دهاقينها • وقد

---

(٦٢) مروج الذهب ١٣٧/٤ •

(٦٣) أذرمة : بلدة من ديار ربيعة قريبة من نصيبين ، وهي من أعمال الموصل — معجم البلدان ١٣١/١–١٣٢ •

(٦٤) الكامل ٢٤٩/٧ •

(٦٥) معجم البلدان ٥٠٣/١ •

اعتنق مذهب الخوارج واعلن العصيان لأن صاحب الشرطة ، كما يذكر ابن الاثير ، اخذ ابنا لمساور اسمه حوثرة فحبسه في الحديثة ، وهي بليدة صغيرة كانت على الجانب الشرقي من دجلة قرب الزاب الاعلى(٦٦) . وكان حوثرة فتى جميلا ، فكان صاحب الشرطة يخرجه من السجن ليلا ويحضره عنده ، ثم يرده الى الحبس نهارا . فغضب مساور لذلك وخرج وأيده جماعة فقصد الحديثة واستولى عليها واخرج ابنه من الحبس . فاختفى صاحب الشرطة ولم يظفر به مساور . وكثر اتباع مساور من العرب والاكراد فطمع بالاستيلاء على الموصل فسار اليها ونزل بجانبها الشرقي . وكان الوالي عليها آنذاك عقبة بن محمد بن جعفر الخزاعي ، فخرج لمقاتلته . الا ان مساورا كره القتال وآثر الانسحاب الى البوازيج ، وكان ابنه معه فسمع يقول(٦٧) :

أنا الغلام البجلي الشاري اخرجني جوركم من داري

ولما ادرك الخليفة المعتز بالله خطر فتنة مساور الخارجي وجه اليه القائد التركي ساتكين لحربه ، فهرب مساور نحو طريق خراسان . وكان المسؤول عن هذا الطريق بندار الطبري قد علم بخبره فاستعد للاقاته ، وتوجه نحوه بثلاثمائة فارس حتى اشرف على معسكره ليلا ، فرأى اتباع مساور مشغولين بالصلاة . فأشار عليه بعض أصحابه بمباغتتهم ، الا انه امتنع عن مهاجمتهم غيلة . فلما أحس مساور واتباعه بالخطر تنادوا بالسلاح فاشتبك الطرفان وتمكن مساور من ان يهزم جيش بندار ، وتبعهم حتى لحق ببندار وتمكن منه فقتله ، وفر من نجا من أصحاب بندار ويتراوح عددهم بين مائة ومائة وخمسين رجلا . فسار مساور باتباعه الى حلوان(٦٨) ،

---

(٦٦) نفس المصدر ٢/٢٣٠ .
(٦٧) الكامل ٧/١٧٥ .
(٦٨) حلوان : مدينة في اخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد فتحها العرب صلحا في سنة (١٩) . ـ معجم البلدان ٢/٢٩٠ .

يريد الاستيلاء عليها ، فخرج اليه أهلها فقاتلوه ومنعوه من دخول مدينتهم ، فقال ابن مساور في ذلك(٦٩) :

فجمت العــــراق ببندارها وحــزت البلاد بأقطارهـــا
وحلـوان صبحتها غــــارة فقتلت أغــرار غرارهـــا
وعقبة بالموصــــل أحجرته وطوقتــه الذل في كارهـــا

وكان مساور قد استولى في سنة ٢٥٤هـ على أكثر أعمال الموصل وقوي أمره · فنهض لقتاله الحسن بن أيـــوب بن أحمد العدوي التغلبي ، وكان خليفة لابيه بالموصل ، ومعـــه خلق كثير ، فعبر الزاب، فانسحب مساور ونزل في واد عميق، فسار الحسن في طلبه· فالتقى به واقتتلوا ، فانهزم الحسن وعـــاد بعسكره الى الموصل مغلولا · فقوي شأن مساور وخافه الناس ·

ورغم ان القائد نوشري خرج اليه في رمضان وقتل من أصحابه عددا كبيرا ، الا انه لم يستطع التغلب عليه · مما شجع مساورا على أن يطمع بالاستيلاء على الموصل ، فقصدهـــا ونزل بظاهرها عند الدير الاعلى · فاستتر امير البلد منه ، وهو عبدالله بن سليمان ، لضعفه عن مقاتلته ، كما لم يساعده أهل المدينة لميلهم الى الخلاف · فدخل مساور المدينة بغير حرب ، ولم يعرض لأحد من أهلها بسوء ، سوى ان اتباعـــه احرقوا دار عبدالله بن سليمان · ولمـــا حل يوم الجمعة دخل مساور المسجد الجامع ، فصعد المنبر وخطب عليه وقال في خطبته : اللهم اصلحنا واصلح ولاتنا(٧٠) · وعندما خطب وصلى جعل من أصحابه من يحرسه بالسيوف لانه لم يكن مطمئنا الى أهل الموصل لكثرتهم وعدم ميلهم اليه فضلا عن حذرهم منه · ويظهر انه

---

(٦٩) الكامل ١٨٠/٧ ·
(٧٠) نفس المصدر/٢٠٥ ·

لم يستطع المقام بها فتركها وسار الى الحديثة التي اتخذها مقرا له ·

وقد استفاد مساور من الاضطراب السائد في حاضرة الخلافة بسبب الخلاف بين الخليفة والقواد الاتراك فاستولى على جزء من شمالي العراق ومنـع الأموال عن الخليفة فضـاقت على الجند أرزاقهم(٧١) · فخرج اليه القائد يارجوخ الا ان مساورا هزمه ·

ولما بلغ الخليفة المهتدى بالله في أول صـفر سنة ٢٥٦هـ ان مساورا الشاري صار الى بلد فقتل من أهلها وأحرق منازلهم ، عزم على تجريد حملة كبيرة لنقضاء عليه · فأمر كبير قواده موسى بن بغا والقائدين مفلحا وبايكباك بالخروج اليه · الا انهم لم يخرجوا لعدم اطمئنانهم الى نية الخليفة تجاههم وخوفهـم من اتفاقه مع غريمهم القائد صالح بن وصيف · الا انهم بعد ان ظفروا بصالح وقتلوه سار موسى وبايكباك لحرب مساور في مستهل جمادي الاولى ، وقد شيعهما الخليفة ، الا انهما سرعان مـا عادا الى سامرا لاضطراب الاحوال فيها ·

وعندما بويع الخليفة المعتمد على الله سير القائد مفلحا في عسكر حسن العدة الى قتال مساور والقضاء على تمرده ، فلما قرب العسكر من الحديثة فارقها مساور واتجه الى الجبال فتبعه جيش مفلح · فالتقى الجيشان واقتتلا ، فهزم مساور وفر باصحابه صاعدين أحد الجبال وصاروا الى ذروتـه · فعسكر جيش مفلح في سفح الجبل لمحاصرتهم ، فعمد مساور الى الخداع فأمر اصحابه بايقاد النيران وان يركزوا رماحهـم ليوهم جيش مفلح بانهم معسـكرون فوق الجبل ، ثم هبط بهم من الجهة الاخرى من الجبل ومضى هاربا لضعف أصحابه ولكثرة ما أصابهم من الجراح(٧٢) ·

---

(٧١) نفس المصدر/٢٢٦ ·
(٧٢) الطبري ٩/٤٥٥–٤٥٦ ، والكامل ٧/٢٢٧ ·

عاد القائد مفلح الى الموصل وأخذ يتهيأ للخروج للقاء مساور الذي كان قد عاد الى الحديثة ، فلما اقترب جيش مفلح منها ، تركها مساور وتوغل باتباعه في الجبال والوديان ، فاستعصى على مفلح الظفر به ، فعاد وقد اصاب جيشه الارهاق • فارسل مساور جماعة من أصحابه لملاحقة الجيش المنسحب ، حتى وصل مفلح الى الحديثة • الا ان هجمات أصحاب مساور اضطرته على تركها والانحدار في أول شهر رمضان سنة ٢٥٦هـ الى سامرا ، مما ساعد مساوراً على فرض هيمنته على المنطقة وجباية خراجها ، فاشتد أمره وقوى شأنه(٧٣) •

واستطاع مساور ان يظفر في سنة ٢٦١هـ بوالي خراسان يحيى بن جعفر فقتله(٧٤) ، فشخص القائد مسرور البلخي في طلبه ، فهرب مساور ولم يستطع اللحاق به • وقد توفى مساور في سنة ٢٦٣هـ وهو في طريقه الى لقاء الجيش الذي وجه من سامرا لحربه(٧٥) •

يستخلص مما ذكرناه عن مساور الشاري انه خرج عاصيا على الدولة انتقاما لسوء تصرف صاحب الشرطة ، وانه لم يكن له من المؤيدين والاتباع ما يساعده على ان يستثمر تغلبه على الحملات العسكرية التي وجهت اليه • وانه كان شجاعا لا ينقصه المكر والخديعة ، وانه كان ينهج حرب العصابات ، فكان يهاجم مكانا ما فيقتل ويحرق وينهب ثم يهرب • وبقي يظهر بين مدة وأخرى في أماكن مختلفة حتى توفى وهو يستعد لمحاربة أحد الجيوش التي وجهت اليه •

---

(٧٣) الكامل ٢٢٧/٧ •
(٧٤) الكامل ٢٨٨/٧ ، والطبري ٥١٢/٩ ، وجاء فيه اسم والي خراسان يحيى بن جفص •
(٧٥) الطبري ٥٣٢/٩ ، والكامل ٣٠٩/٧ •

حمدان بن حمدون التغلبي :

أما الخارجي الآخر الذي استمر مدة طويلة أيضا فهو حمدان بن حمدون التغلبي • وقـــد انتصر لهارون الشـــاري في بعض معاركه • وسار اليه أول خروجه في أول رمضان سنة ٢٦٧هـ والي الموصل اسحاق بن كنداج فهزمه واتباعه الى نصيبين ، وتبعهم الى قرب آمد ، وجرت بين الطرفين معارك لم تكن حاسمة ، ويظهر ان حمدانا واتباعـــه استطاعوا الافلات من ابن كنداج فلـــم يظفر بهم(٧٦) •

وكان حمدان قد دخل الموصل بمعية هارون الشاري ، الا انهما ما لبثا ان خرجا منها • وظل حمدان يقارع الجيوش التي ترسل الى محاربته ، حتى خرج اليه الخليفة المعتضد بالله في سنة ٢٨١هـ ، وكان حمدان قد التجأ الى قلعة ماردين • فلما بلغه مجيء المعتضد بالله هرب منها فاستولى الجيش على مـــا فيها من الاموال والاثاث وهدمها • وتوجهت ثلة من الجنـــد خلف حمدان ، فطلبوه حتى ظفروا به ، فأمر الخليفة بحبسه(٧٧) •

هارون بن عبدالله البجلي :

عندما توفي مساور الشاري كتب اصحابه الى محمد بن خرزاد الخارجي بشهرزور ليولوه أمرهم فامتنع ، فبايعوا أيوب بن حيان البجلي • الا ان ابن خـــرزاد مالبث ان ارسل الى اصحاب مساور يعلمهم بموافقته على ان يتولى أمرهم • فاجابوه انهم بايعوا ابن حيان البجلي ولا يغدرون به ، فســـار ابن خرزاد اليهم وقاتلهم ، فقتل ابن حيان ، فبايع اصحابه محمد بن عبدالله الوارقي المعروف بالغلام فقتل أيضا ، فبايعوا بعده هارون بن عبدالله البجلي الذي

---

(٧٦) الطبري ٥٨٧/٩ ، والكامل ٣٦٢/٧ •
(٧٧) الطبري ٣٨/١٠ •

استطاع ان يهزم ابن خرزاد وان يستولى على أعمال الموصل ويجبى خراجها(٧٨) .

ثم تجدد النزاع بين محمد بن خرزاد وهارون البجلي . وكان ابن خرزاد زاهدا خشن العيش ، يلبس الصوف الغليظ ويرقع ثيابه ، ولذلك انفض عنه أغلب اتباعه . وكان هارون قد كاتبهم واستمالهم اليه فاتاه منهم الكثيرون . ولم يبق مع ابن خرزاد غير أبناء عشيرته ، فضعف أمره ، وما لبث أن قتل في أحد معاركه مع الاكراد في منطقة شهرزور . فانفرد هارون البجلي بالرئاسة على الخوارج ، فقوى شأنه وكثر اتباعه، وتغلب على القرى والرساتيق، وجعل على دجلة من يأخذ الزكاة من الاموال المتحدرة والمصعدة ، وبث نوابه في الرساتيق يأخذون العشر من الغلات(٧٩) .

واستطاع هارون ان يدخل مدينة الموصل بمعاونة حمدان بن حمدون التغلبي الخارجي . وصلى هارون بالناس في جامع المدينة . الا ان بني شيبان كانوا قد تجمعوا في بعض جهات الموصل ، فجمع هارون اتباعه لمقاتلتهم . وكتب الى حمدان التغلبي يطلب نجدته ، فسار الاثنان الى نهر الخازر فاصطدما بتجمع بني شيبان واشتبكا معهم في قتال هزم فيه هارون وصاحبه حمدان واتباعهما .

استمر هارون الشاري خارجا على الدولة حتى عهد المعتضد بالله . فخرج اليه بنفسه الى الموصل في سنة ٢٨٣هـ ، وانتدب الحسين بن حمدان التغلبي لحربه . فاشترط الحسين على الخليفة ان هو جاء بهارون ان يطلق سراح ابيه حمدان الذي سبق ان ظفر به المعتضد بالله قبل سنتين وسجنه ، فوافق الخليفة على ذلك . ومن الواضح ان المعتضد بالله اختار الحسين لهذه المهمة لانه كان بمعية أبيه الخارجي مدة . وكان أبوه يتعاون مع هارون الشاري ، ولذا

---

(٧٨) الكامل ٧/٣٠٩–٣١٠ .
(٧٩) الكامل ٧/٣٥٩–٣٦٠ .

فانه كان على معرفة بكمائن الشراة ومخابئهم وأساليب القتال التي يتبعونها • ولـم يخيب الحسين ظن الخليفة بـــه ، فطارد هارون الشاري واتباعه واشتبك معهم وهزمهم وظفر بهارون وجاء به أسيرا بغير عهد ولا عقد(٨٠) •

ولما تم القبض على هارون الشاري انصرف المعتضد راجعا الى مدينة السلام ، وخلع على الحسين بن حمـــــدان وطوقه بطوق من ذهب ، وأمر بفك قيد أبيه حمدان والتوسعة عليه والاحسان اليه ، ثم اطلق سراحه •

---

(٨٠) الطبري ١٠/٤٤ •

الباب السابع

خلفاء سامرا والمحنة

١ ـ المعتزلة وأهل السنة .

٢ ـ المعتصم بالله والمحنة .

٣ ـ المحنة في عهد الواثق بالله .

٤ ـ نهاية المحنة .

الباب السابع

خلفاء سامرا والمحنة

الفصل الأول

المعتزلة وأهل السنة

١ ـ مقدمة :

المعتزلة طائفة من المسلمين يسمون بأصحاب العدل والتوحيد . وتتلخص عقيدتهم بان الله تعالى قديم ، والقدم أخص صفاته ، وهو عالم قادر وحي بذاته ، وانه لايرى يوم القيامة بالابصار ، ونفوا عنه التشبيه من كل وجه . وان كلامه ، أي القرآن ، مخلوق محدث وليس أزليا ، وسموا هذا النمط توحيدا . وان الانسان قادر على أفعاله من خير أو شر ولذا فهو يستحق في الدار الآخرة على أفعاله ثوابا أو عقابا . وان الله تعالى منزه عن أن يضاف اليه شر أو ظلم وانه لا يفعل الا الخير والصلاح ، وسموا هذا النمط عدلا . وان المؤمن اذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة فانه يستحق الثواب ، وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار ، ولكن عقابه أخف من عقاب الكافر ، وهذا ما يعبرون عنه بالمنزلة بين المنزلتين ، أي انه لا مؤمن ولا كافر ، وسموا هذا النمط وعدا ووعيدا . وهم يدعون الى اقامـــة حكم الله على من يخالف أوامره

ونواهيه ، وذلك هو النهي عن المنكر • وبهذا تقوم عقيدة المعتزلة على الاعتقاد بالعدل والتوحيد والوعد والوعيد والقول بالمنزلة بين المنزلتين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر •

وسموا معتزلة لان رأسهم واصل بن عطاء كان يجلس الى الحسن البصري في حلقات الدرس ، فلما نشب الخلاف في الرأي حول مرتكب الكبائر ، فقالت الخوارج بكفره ، وقالت الجماعة بانه مؤمن وان فسق، قال واصل ان الفاسق من هذه الامة ليس مؤمنا ولا كافرا ، بل هو في منزلة بين المنزلتين • فطرده الحسن من مجلسه ، فاعتزل واصل عنه ، فاطلق عليه وعلى اتباعه ممن يقولون قوله اسم المعتزلة(١) • وبالنظر لايمان المعتزلة بحرية الرأي فقد تعددت اراؤهم حول القواعد الاساسية لمذهب الاعتزال ، باختلاف اجتهاد البارزين منهم •

ومع تعدد فرق المعتزلة فهم متفقون على عدد من العقائد أهمها(٢) :

١ ـ نفي الصفات عن الخالق عزوجل واستحالة رؤيته بالابصار •

٢ ـ ان كلام الله محدث مخلوق •

٣ ـ الفاسق من المسلمين لا مؤمن ولا كافر ، وانما هو بمنزلة بين المنزلتين •

٤ ـ ان كل ما أمر الله به أو نهى عنه من أعمال لم يشاء الله منها شيئا ، لانه خلق الاجسام ولم يخلق شيئا من الاعراض ، أي انه لم يخلق أفعال العباد وانما هم يفعلون أعمالهم بالقدرة التي خلقها الله فيهم •

---

(١) راجع عن المعتزلة ونشوئهم وفرقهم : الملل والنحل ١/٤٣ـ٨٥ ، وثمرات الاوراق ١/١٦ ، والفرق بين الفرق/٦٧ـ١٢٢ •

(٢) الفرق بين الفرق/٦٨ـ٦٩ •

٥ ـ ان الله تعالى شيء لا كالاشياء وانه خلق كل ما خلقه من لاشيء ٠

وكان مذهب الاعتزال قد ظهر في أيام الخليفة الاموي عبدالملك بن مروان ، ولم يزل ينمو ويتزايد اتباعه الى أيام الخليفة المأمون العباسي الذي اعتنق هذا المذهب واظهـــر القول بخلق القرآن ، وحاول ان يجعل الاعتزال مذهب الخلافة الرسمي ٠

أما خلاصة عقيدة أهل السنة في القرآن الكريم فقد لخصها ابن دحية بما يلي : ان القـــرآن كلام الله عزوجل ، صفة ذاتـــه وهو سبحانه متكلم به ٠ نزل به جبريل على رسول‌الله صلى‌الله عليه وسلم فدعاه عنه وبلغه بلسانه العربي ٠ وانه في المصاحف مثبوت ، وفي القلوب محفوظ ، وبالآذان مسموع ، وبالاصوات متلو ، وبالافهام مفهوم ، وبالحروف والاشكال والاصـــباغ مخطوط ، وبالالفاظ مقروء ، فمكتوبه ومخطوطه ومسموعه ومتلوه ومحفوظه ومقروءه، حقيقة كلام الله عزوجل غير محدث ولا مخلوق ولا مجعول ٠ وان كل تلك الصفات محدثة كائنة بعد ان لم تكن ، مختلفة متغايرة فانية ، وكلام الله باق واحد ثابت لا يزول ولا يحول ولا يبدل(٣) ٠

وقد اتفق جمهـور اهل السنة والجماعة على أصـــول أركان الدين ، وأهمها(٤) :

١ ـ ان العالم كل شيء هو غير الله عزوجل ، وان كل ما هو غير الله تعالى وغير صفاته الأزلية مخلوق مصنوع ، وان صانعه ليس بمخلوق ولا مصنوع ٠ وان الحوادث كلها لابد لها من محدث صانع ، وان صانع العالم خالق الأجسام والأعراض خيرها وشرها ٠

٢ ـ ان علم الله تعالى وقدرته وحياتـــه وارادته وسمعه وبصره وكلامه صفات أزلية له ونعوت أبدية ٠

---

(٣) النبراس/٧١ـ٧٢ ٠

(٤) للمزيد من التفصيلات راجع الفرق بين الفرق /١٩٤ـ٢١٧ ٠

٣ ـ ان مآخذ أسماء الله تعالى وأوصافه ، التوقيف عليها أما بالقرآن أو بالسنة الصحيحة وأما باجماع الأمة عليه ، ولايجوز اطلاق اسم عليه من طريق القياس ·

٤ ـ الفرق بين الرسول والنبي ، ان كل من نزل عليه الوحي من الله تعالى على لسان ملك من الملائكة وكان مؤيدا بنوع من الكرامات الناقضة للعادات فهو نبي · ومن حصلت له هذه الصفة وخص أيضا بشرع جديد أو بفسخ بعض أحكام شريعة كانت قبله فهو رسول · وان المعجزة أمر يظهر بخلاف العادة على يدي مدعي النبوة مع تحديه قومه بها ومع عجز قومه عن معارضته بمثلها ، على وجه يدل على صدقه ·

٥ ـ ان اركان شريعة الاسلام خمسة : شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، واقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت الحرام · ومن اسقط وجوب ركن منها أو تأويله فهو كافر · وان الايمان هو المعرفة والتصديق بالقلب ·

٦ ـ ان أفعال المكلفين خمسة : واجب ومحظور ومسنون ومكروه ومباح · فالواجب ما أمر به الله تعالى على وجه اللزوم وتاركه مستحق العذاب · والمحظور ما نهى الله تعالى عنه وفاعله يستحق العقاب · والمسنون ما يثاب عليه فاعله ولا يعاقب تاركه · والمكروه ما يثاب عليه تاركه ولا يعاقب فاعله · والمباح ما ليس في فعله ثواب ولا عقاب ·

٧ ـ ان الله سبحانه وتعالى قادر على افناء جميع العالم جملة ، وعلى افناء بعض الاجسام مع بقاء بعضها ·

٨ ـ ان الخلافة والامامة فرض واجب على الأمة وان طريق عقد الامامة للامام الاختيار بالاجتهاد ·

٢ ـ بداية المحنة في أيام المأمون :

ان تمسك أهل السنة بنصوص القرآن والسنة النبوية ، وقولهم بأن الايمان ليس بحاجة الى غيرهما ، وان الاعتماد على النظر والعقل قد يوصل الى الالحاد ، يجعلهم على طرفي نقيض من مبادىء المعتزلة التي تقوم على العقل والنظر . مما أدى الى ذلك الصراع العنيف بين الفريقين حول القول بخلق القرآن . فقد كتب الخليفة المأمون في ربيع الاول سنة ٢١٨هـ ، وهي السنة التي توفي فيها ، وكان على رأس حملة عسكرية في بلاد الروم ، الى خليفته بمدينة السلام اسحاق بن ابراهيم المصعبي ، يأمره بامتحان القضاة والمحدثين ، وخلاصة كتابه(٥) : ان السواد الاعظم من الرعية أهل جهالة بالله ، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده ، وانهم ساووا بينه تبارك وتعالى وبين ما انـزل من القرآن . فاتفقوا على ان القرآن قديم أول لم يخلقه الله ولم يحدثه . وينسب هؤلاء أنفسهم الى أهل السنة . وطلب اليه ان يجمع القضاة ويمتحنهم فيما يقولونه في خلق القرآن واحداثه ، فان أقروا بذلك كانوا على سبيل الهدى والنجاة ، وعليهم ان لا يقبلوا شهادة من لم يقر بان القرآن مخلوق محدث . وأمره أن يكتب اليه بما يحصل من ذلك .

ثم كتب المأمون بعد ذلك الى اسحاق كتابا ثانيا خلاصته(٦) : ان من واجب أمير المؤمنين أن يجهد لله نفسه ، ويهدى من زاغ عنه ، وان يقف رعيته على حدود ايمانهم وسبيل فوزهم . وان أمير المؤمنين رآى ما ينال المسلمين من القول في القرآن الذي جعل الله اماما لهم . واشتباهه على كثير منهم بأنه غير مخلوق . مما أدى الى الثلم بالدين والاعتراف بالتبديل والالحاد . وطلب اليه أن يمتحن قاضيي بغداد وسائر القضاة في عمله ، فلا يبقى أحدا منهم مالم يقر

---

(٥) نص الكتاب في الطبري ٨/٦٣١ـ٦٣٤ .

(٦) نص الكتاب في الطبري ٨/٦٣٤ـ٦٣٧ .

بأن القـــرآن مخلوق • وان يطلب اليهم ان يمتحنـــوا من يحضر مجالسهم للشهادة ، وان لا يقبلوا شهادة من لم يقر بذلك •

فدعا اسحاق بقضـــاة بغداد وفقهائها وينوف عددهـــم على العشرين(٧) ، فمنهم من أجاب ومنهم من امتنع ومنهم من راوغ في جوابه • فكتب اسحاق بجواب كل منهم الى الخليفة المأمون • فكتب الخليفة الى اسحاق كتابا ثالثا(٨) • وفيه رد المأمون على من لم يجبه وابرز عيوبهم والمآخذ عليهم وطلب الى اسحاق أن يعاود امتحانهم ، ومن لم يرجع منهم عن شركه ، يشخصهم موثقـــين الى أمير المؤمنين ليرى فيهم رأيه • وقد انفذ الخليفة هذا الكتاب في خريطة بندارية ـ أي بالبريد المستعجل ـ فأجاب القوم كلهم عدا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح ، فقيدا بالحديد ووجها الى طرسوس • الا ان المأمون كان قد مات قبل وصولهما اليه ، فاعيدا الى مدينة السلام •

وكان صاحب الخبر قد أبلغ المأمون ان بشر بن الوليد ، وهو أحد الفقهاء الذين أقروا بخلق القرآن ، قد تأول الآية الكريمة «الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان»(٩) • أي انه أقر بخلق القرآن تقية خوفا من البطش به • فكتب المأمون الى اسحاق بانهم أخطأوا تأويل الآية الكريمة ، وانما عني الله تعالى بها من كان معتقد الايمان مظهر الشرك ، فليست هذه لهم • وطلب اليـــه ان يشخصهم جميعا الى طرسوس ، فاشخصهم اليه • فلما وصلوا الرقة بلغتهم وفاة المأمون ، فاعادهم واليها عنبسة بن اسحاق الى مدينة السلام •

ويبدو ان المأمون كان يستهدف من اظهار مذهب الاعتزال ان يضعف نفوذ الفقهاء وسلطانهم على عامة الناس •

---

(٧) أورد الطبري اسمائهم في ٨/٦٣٧ •
(٨) نص الكتاب في الطبري ٨/٦٤٠ـ٦٤٤ •
(٩) سورة النحل ، الاية : ١٦٠ •

الفصل الثاني

المعتصم بالله والمحنة

١ ـ المعتصم بالله يناصر المعتزلة :

كان أبو اسحاق قد ولاه المأمون على مصر منذ سنة ٢١٤هـ ، فكتب الى كيدر وهو خليفته في مصر ، بأن أخاه أمير المؤمنين عبدالله المأمون أمره بـأن يكتب الى قضاة عمله بامتحـان من يحضرون للشهادة ، فمن أقـر منهم بان القرآن مخلوق وكان عـدلا قبلت شهادته ، ومن امتنع أسقطت شهادته · كما طلب اليه ان يمتحن القضاة بذلك أيضا ، فمن قال ان القرآن مخلوق أقره بموضعه ، ومن رفض أمره باعتزال عمله ، وأوعز اليه بمثل ذلك فيما يتعلق باهل الفقه والحديث(١) ·

ولما بويع المعتصم بالله بالخلافة جعل أحمد بن أبي دواد رئيس قضاته ، واتخذه مستشارا له في كـل أموره ، حسب ما أوصاه به أخوه المأمـون · وابن أبي دواد هذا كان رأس القائلـين بخلق القرآن · والمعتصم بالله شبه أمي لايكاد يعرف شيئا من علوم الدين أو فقهه ، لاسيما ما يقول به المعتزلة من الآراء · ولذا فقد وقع

(١) نص الكتاب في كتاب الولاة وكتاب القضاة/٤٤٥ـ٤٤٧ ·

تحت تأثير رئيس قضاته من جهـــة ، كما انه رغب أن لا يكون أقل اهتماما من أخيه بهذه الدعوة من جهة أخرى وبخاصة انه قد قال له في وصيته : وخذ بسيرة أخيك في القرآن · ولذا فقد استمر على نهج المأمون بأن جعل الاعتزال مذهب الخلافة الرسمي، وفي امتحان رجال الدين بخلق القرآن · وامر المعلمين ان يعلموا الصبيان ذلك(٢) · كما أمر بمناظرة أحمد بن حنبل ·

٢ ـ المحنة وأحمد بن حنبل :

يعتبر الامام أحمد بن حنبل أقوى من تصدى للمحنة من رجال الفقه والحديث · وقد أصبح أبرز فقهاء أهل السنة بعد وفاة الامام محمد بن أدريس الشافعي · وبعد ان قضى في السجن ما ينوف على السنتين اخرجه المعتصم بالله لامتحانه مجددا طمعا في ان يلين ويقر بخلق القرآن · فعقد له مجلسا لمناظرته حضرة قاضي القضاة أحمد بن أبي دواد وقاضي بغداد عبدالرحمن بـــن اسحاق وغيرهما من رجال الدين المعتزلة · فناظروه ثلاثة أيام فلم يقر بذلك · فأمر الخليفة به فجلد جلدا عظيما حتى غاب عقله وتقطع جلده(٣) ·

الا ان لليعقوبي رأيا آخر في موقف أحمد بن حنبل من المحنة · فهو يقول انه امتنع أول الأمر عن أن يقـــول بان القرآن مخلوق فضرب عدة سياط · فطلب اسحاق بن ابراهيم الى الخليفة ان يسمح له بمناظرته لعله يستطيع ان يقنعه بتغيير رأيه · فحاجه اسحاق واستدرجه الى ان يعترف بانه لا يعلم كل شيء ، وان ما يعلمه من أمور قد تعلمه بالتدريج ، وانه لايزال يجهل أمورا كثيرة · واقنعه اسحاق بان مالم يعلمه قد علمه أمير المؤمنين · فقال ابن حنبل اني أقول بقول أمير المؤمنين في خلق القرآن ، فاشهد اسحاق على قوله ،

---

(٢) تاريخ الخلفاء/٣٣٥ ·

(٣) الكامل ٦/٤٤٥ ·

وخلع عليه واطلقه الى منزله(٤) . ويؤيـــد هذا ان الجاحظ قال في رسالة له بعنوان «فضيلة المعتزلة» طبعت على هامش كتاب الكامل للمبرد في سنة ١٣٢٤هـ ، ان أحمد بن حنبل لم يضرب سوى ثلاثين سوطا مقطوعة الثمار ، مشعبة الأطـــراف ، حتى أفصح بالاقرار مرارا(٥) . ولكن ابن دحية يقول : ان هـــذا القول لا يصح ، وهي حكاية مفتعلة من بعض سفلة المعتزلة ، ثم يصف طريقة ضرب ابن حنبل ، وكيف ان المعتصم بالله كان يهيب بالجلادين ان يوجعه ضربا ، ويطلب منه بين آن وآخر ان يجيب الى ما يدعوه اليه فلا يرضى . وان ضربه استمر حتى فقد وعيه(٦) .

ان دعوى اقرار الامام احمد بن حنبل التي قال بها اليعقوبي والجاحظ تناقض ما اجمعت عليه المصادر الاخرى من انه رفض القول بخلق القرآن رغم سجنه وضربه ، وقـــد عرف الامام أحمد بصلابة رأيه وانه فضل الموت لمـــا حمل مقيدا الى الخليفة المأمون بطرسوس ، على القول بذلك . كما انه كان يدرك اهمية موقفه من دعوة المعتزلة ، وتأثيره على أهل الســـنة . وقدلام الفقهاء السبعة الذين أجابوا بالموافقة ، فقال : لو انهـــم صبروا وقاموا لله لكان انقطع الامر وحذرهم الرجل ـ يعني المأمون ـ ولكن لما أجابوا ، وهم عين البلد ، اجترأ على غيرهم(٧) . ويرجح ان ما اورده اليعقوبي والجاحظ موضوع من قبل المعتزلة أو غيرهم من مناوئي أحمد بن حنبل ، للحط من منزلته من جهة ، وانتصارا لموقف السلطة وتأييدا لدعوتها الى القول بخلق القرآن .

---

(٤) تفصيل ذلك في تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٢ .
(٥) احمد بن حنبل والمحنة/١٤ .
(٦) النبراس/٦٨ـ٦٩ .
(٧) احمد بن حنبل والمحنة/١٠٩ .

على ان امر المحنة كان في عهــد المعتصم بالله سهلا ، اذ لم يكن الناس يلزمون بالقول بخلق القرآن(٨) • ويظهر ان الامر اقتصر على القضاة والفقهاء والمحدثين والشهود •

ولابن الأثير تسلسل تاريخي طريف في نشوء فكرة القول بخلق القرآن يذكره عندما يشير الى وفاة أحمد بن أبي دواد ، فيقول عنه وانه أخذ ذلك عن بشر المريسي ، واخذه بشر عن الجهم بن صفوان. وانه أخذ ذلك عن بشد المريسي ، واخذه بشد عن الجهم بن صفوان. وأخذه الجهم عن الجعد بن أدهم ، وأخذه الجعد عن ابان بن سمعان، وأخذه ابان عن طالوت ابن أخت لبيـــد الأعصم وختنه ، وأخذه طالوت عن لبيد اليهودي الذي ســـحر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لبيد يقول بخلق التـــوراة ، وأول من صنف في ذلك طالوت وكان زنديقا فافشى الزندقة(٩) • وهدف ابن الأثير من هذا التسلسل اعتبار القول بخلق القرآن رأيا يهوديا ، يقول به الزنادقة ، ومن ثم فهو دخيل على الاسلام والقول به كفر •

---

(٨) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٤٥١ •

(٩) الكامل ٧/٧٥ •

الفصل الثالث

المحنة في عهد الواثق بالله

١ ـ التشدد في المحنة :

أخذ الخليفة الواثق بالله بمباديء الاعتزال · اذ كان قد الزم نفسه بتقليد عمه المأمون في ادخاله فانساق في دعوته على حمل الناس على القول بخلق القرآن من جهة ، كما انه وقع تحت تأثير ابن أبي دواد من جهة أخرى · فناصر المعتزلة في نشر آرائهم · وبلغ من تأييده لهم وتعصبه لآرائهم انه أمر بحصر الوظائف الدينية فيهم · بل انه عندما اتفق مع الروم على مفاداة اسرى العرب لديهم ، أمر بأن يمتحن الاسارى فمن قال بخلق القرآن وان الله لا يرى في الاخرة فودى به ، ومن لم يقل بذلك ترك في أيدي الروم · كما سبق أن أمر بامتحان أهل الثغور وأمر بضرب أعناق من لم يقل بخلق القرآن(١) ·

ويلاحظ ان النزاع بين المعتزلة وخصومهم انحصر في موضوع القول بخلق القرآن دون آراء المعتزلة الاخرى كالعدل الالهي وحرية الارادة ومسؤولية الانسان عن أعماله ، وغير ذلك · وذلك لأن هذا الموضوع يسير الفهم فلا يحتاج الى عمق في التفكير أو مزيد من

(١) الطبري ٩/١٤١ ، وتجارب الامم ٦/٥٣٢ ·

العلم • فهو يتلخص في أن القـــرآن وان كان كلام الله تعالى فانه مخلوق وليس أزليا مثله • اذ ان مـــا القي في اذن الرسول صلى الله عليه وسلم من كلام الله تعالى ، عند نزول الوحي عليه ، لم يكن هو صوت الخالق عزوجل ، بل انه كلام خلقه الله تعالى وظهر بارادته بصورة غير مباشرة ، وهو يتفق في وضعه وفحواه مع ارادته تعالى • وعلى هذا فانه من مخلوقات الله تعالى المادية مثل غيره من المخلوقات الاخرى ، وليس فكرته الأبدية التي هي جزء من حقيقته لا تنفصل عنه • وهذا يناقض رأي أهل السنة الذين يقولون ان كلام الله تعالى صفة أبدية ملازمة له لا بداية له ولا نهاية ، وهو في ذلك مثل الخالق نفسه • ولذا فان القرآن الذي هو كلام الله تعالى أوحاه الى رسوله الكريم لم يحدث في مجرى الزمن ، بل انه وجد منذ الأزل ، أي انه وجد بوجوده تعالى ، ولذا لا يمكن أن يكون مخلوقا •

على الرغم من بساطة الموضوع وعقـــم نتائجه ، فان اهتمام السلطة والرأي العام به مما يدل على التقدم الثقافي الذي وصل اليه المجتمع العربي في عهد الواثق بالله في سامرا • ومع ان المعتزلة اتيح لهم ان يستخدموا سلطة الخلافة في فرض آرائهم على الناس ، فانهم لم ينجحوا في النهاية ، لأن عددا غير قليـــل من العلماء والفقهاء ، اظهروا استقلالا فكريا وشجاعة أدبية في مناهضة هذه الآراء ، ولأن المحافظين من رجال الدين كان لهم نفوذ كبير على عامة الناس •

لقد قام الاعتزال أصلا على الاجتهاد والرأي ، وشأنه في ذلك شأن المذاهب الاسلامية الاخرى • فهي تختلف في عديد من القضايا الفقهية ، غير ان خلافاتها لم تتعد المساجلة والمناقشة وحشد الآيات القرآنية والاحاديث النبوية لتأييد وجهة نظرها • أما دعاة الاعتزال فقد أخذوا مخالفيهم بالشدة والعنف ، بل بالسجن والتعذيب والقتل أيضا • وانهم وسموا بالكفر كل من لم يقل بمقولتهم • وهذا مما يدعو الى الاستغراب ، اذ اوقع المعتزلة أنفسهم بتناقض واضح بين دعوتهم الى التمسك بالمبادىء العقلية والدفاع عن حرية الرأي ،

وممارستهم التعصب الأعمى باضطهاد مخالفيهم ، وعدم التسامح معهم • والواقع انهم اساءوا استخدام السلطة في فرض آرائهم على الآخرين ، مما كان له رد فعل واضح • فقد ناهض عدد من الفقهاء والعلماء هذه الدعوة رغم ما تعرضوا له من اضطهاد وتنكيل وصل ببعضهم الى السجن وبالبعض الآخر الى القتل •

كان أمر المحنة في أيام المعتصم بالله سهلا اذ لم يكن الناس يؤخذون بها شاءوا أم أبوا ، فلما استخلف الواثق بالله أمر أن يؤخذ الناس بها بالشدة(٢) • ويقال ان قاضي قضاته ابن ابي دواد قد استولى عليه وحمله على التشدد في المحنة(٣) • وقد أمر القضاة في سائر الامصار ان لا يقبلوا شهادة من لم يقل بخلق القرآن(٤) • فقد ورد في سنة ٢٣١هـ كتاب الواثق بالله على أمير البصرة بامتحان الأئمة والمؤذنين بخلق القرآن(٥) • وجاء في كتاب الولاة والقضاة انه لما ورد كتاب الخليفة الواثق بالله على قاضي مصر محمد بن ابي الليث بامتحان الناس أجمع ، لم يبق فقيه ولا محدث ولا مؤذن ولا معلم حتى أخذ بالمحنة ، فهرب كثير من الناس ، وملئت السجون ممن انكر المحنة ، وأمر ابن ابي الليث بأن يكتب على المساجد : لا اله الا الله رب القرآن المخلوق • فكتب ذلك على المساجد بفسطاط مصر • ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي من الجلوس في المسجد وأمرهم ان لا يقربوه(٦) •

ويبدو ان الناس في مصر أخذوا بعنف وألزموا القول بخلق القرآن بتأثير الجو الارهابي الذي أحدثه القاضي ابن ابي الليث • وقد أورد صاحب كتاب القضاة وكتاب الولاة أمثلة على ذلك • اذ

(٢) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٤٥١ •
(٣) تاريخ بغداد ١٤/١٨ ، وتاريخ الخلفاء/٣٤١ •
(٤) مروج الذهب ٤/٣١٩ •
(٥) شذرات الذهب ١/٤٠٨ ، والعبر ٢/٦٩ •
(٦) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٤٥١ •

روى عن نصر بن مرزوق انه قال : كنت جالسا في المسجد فسمعت ضوضاء ورأيت الناس قد جفلوا فنظرت فـــاذا هارون بن سعيد الأيلي وطيلسانه تحت عضـــده وعمامته في رقبته ، ومطر غلام القاضي ابن ابي الليث يســـوقه بعمامته ، وهارون ينادي بأعلى صوته القرآن كذا وكذا ، ثم اخرجـــه من المسجد يطاف بـــه في الطرق(٧) • كما يذكر اسماء عدد من العلماء الذين هربوا من مصر لأنهم امتنعوا عن القول بخلق القرآن(٨) •

ومن طريف ما يروى عن الحارث بن مسكين وقد أمتحن على عهد الواثق بالله ، فقيل له أتشهد ان القرآن مخلوق مخلوق ؟ قال : قال : أشهد ان التوراة والانجيـــل والزبور والقرآن هذه الأربعة مخلوقة ، وقد مد أصابعه الأربـــع ، فعرض بها وكنى عن خلق القرآن ، وخلص مهجته من القتل(٩) •

٢ ـ محنة أحمد بن نصر الخزاعي :

ان الفقهاء وغيرهم من رجال الدين الذين رفضوا القول بخلق القرآن وتحملوا الطـــرد من وظائفهم والســـجن والتعذيب ، لم يتوقفوا عن تحدي السلطة ومعارضة دعوتهـــا • وقد تمثلت هذه المعارضة في أيام الواثق بالله بفقيه من فقهـــاء بغداد هو احمد بن نصر بن مالك الخزاعي ، وهو اخـــو ثابت بن نصر الخزاعي الذي كان أميرا على الثغور مدة سبع عشرة سنة وقد حسن أثره فيها(١٠) • وكان أحمد بن نصر قد سبق له أن تزعم المتطوعين الذين بايعوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمقاومة أهل الشر والفساد ممن

---

(٧) نفس المصدر/٤٥١ـ٤٥٢ •
(٨) نفس المصدر/٤٥٣ •
(٩) العقد الفريد ٢/٤٦٥ •
(١٠) تاريخ بغداد ٧/١٤٢ •

استغلوا ضعف السلطة ببغداد أيام الحرب بين الأمين والمأمون فعاثوا في البلد فسادا • واستطاع ابن نصر واتباعه حينذاك ان يعيدوا الأمن الى نفوس الناس ويطمئنوهم على أموالهم • ولذلك تيسر له ان يقود حملة ضد الدعوة الدينية الجديدة التي يدعو اليها الخليفة وقاضي قضاته •

وقد بدأت دعوة ابن نصر هذه مثل غيرها ، تنتشر بصورة سرية في أول الأمر وقد ساعدته ظروف معينة على كسب مزيد من الاتباع • ولعل أهم تلك الظروف هي شخصيته نفسه ، فان نسبة يتصل بكعب بن عمرو الذي ورد ذكره في الحديث الشريف «نزل القرآن على لغة الكعبين ، كعب بن لؤي وهو ابو قريش ، وكعب بن عمرو وهو ابو خزاعة»(١١) وكان جده مالك الخزاعي أحد نقباء الدعوة العباسية ، مما جعل له منزلة مميزة في مجتمع بغداد • يضاف الى ذلك انه من أهل العلم والحديث ، أمار بالمعروف قوال بالحق وداع اليه • فكان يشنع على القائلين بالدعوة الجديدة • فقد روى عنه انه قال(١٢) : رأيت مصابا قد وقع فقرأت في اذنه فكلمتني الجنية من جوفه فقالت : يا أبا عبدالله بالله دعني أخنقه فانه يقول القرآن مخلوق • كما كان يطلق لسانه في الطعن بالخليفة وحاشيته، ويقول : ما دخل عليه أحد يصدقه •

وجاء في تاريخ اليعقوبي ان احمد بن نصر كان قد قصد قاضي القضاة أحمد بن أبي دواد في بعض أموره فرده ، فانصرف غاضبا عليه ذاما له ، وجعل يبسط عليه لسانه ويتهمه بالكفر والمروق عن الدين ،فمال اليه قوم لا يشكون بان ذلك غضب للدين ، فاشرأبت قلوبهم للمعصية انتصارا للقرآن(١٤) • فاعاد ابن نصر تنظيمه

---

(١١) تاريخ بغداد ١٧٤/٥ •
(١٢) نفس المصدر/١٧٥ •
(١٣) نفس المصدر /١٧٦ •
(١٤) تاريخ اليعقوبي ٤٨٢/٢ •

السابق القائم على مبايعته على الامـــر بالمعروف ومعارضة القول بخلق القرآن • وقد بايعه عدد من العامة ، كمـــا اشرنا انتصارا للدين • فاتسعت دعوته وقويت حتى طمع بعض اتباعه بالثورة على الخلافة •

ان المصادر المتوفرة عن الموضوع لا توضح ما اذا كان احمد بن نصر قد استهدف من تنظيمه الجديد الخروج على الخلافة لانها لم تعد شرعية في نظره ونظر اتباعـــه • ولكن يبدو انه قد استغلته جماعات أخرى واتخذته واجهة لتحقيق مطامعها • اذ يذكر الخطيب البغدادي ان اثنين من الموسرين بـــذلا مالا وعزما على الوثوب في بغداد في شعبان سنة ٢٣١هـ(١٥) • وذكـــر الطبري ما يشبه هذا وخلاصته ان شخصين من أهل بغداد أحدهما يعرف بابي هارون السراج ، والآخر يقال لـــه طالب ، ومعهما شخص ثالث من أهل خراسان من أصحاب اسحاق بن ابراهيم المصعبي صاحب الشرطة ، وهم ممن كانوا يظهرون تأييـــد ابن نصر ، ويحركون اتباعه من اصحاب الحديث ، وممن ينكر القول بخلق القرآن من أهل بغداد ، ليحملوه على اظهار حركته ، وانهم قصدوه دون غيره لمنزلته التي أشرنا اليها • وكان طالب واتباعه يعملون في الجانب الغربي من بغداد ، ويعمل أبو هارون واتباعه في الجانب الشرقي منها ، وان هذين الشخصين فرقا أموالا في سبيل الوثوب بالخلافة ، وقد عينوا موعدا لذلك(١٦) •

على ان اخبار المؤامرة بلغت صاحب الشرطة ، فبادر بالقبض على بعض اتباع احمد بن نصر ثم تتبع الآخرين ، وأصابت الشرطة في منزل أحدهم اعلاما • ثم أخذ ابن نصر وأولاده وجماعة كانوا عنده فحملوا مقيدين الى سامرا • فعقد الخليفة مجلسا حضره قاضي

(١٥) تاريخ بغداد ٥/١٧٦ •

(١٦) الطبري ٩/١٣٥ـ١٣٦ •

القضاة أحمد بن أبي دواد ، واسحاق بن ابراهيم ، وعبدالرحمن بن اسحاق، وكان قاضيا على الجانب الغربي من بغداد ، وهو صديق لأحمد بن نصر . ولم يناظره الخليفـــة في الشغب ، ولا في ارادته الخروج عليه ، وقال له : دع ما اخذت لـــه(١٧) . وانما امتحنه في القول بخلق القرآن ، فأبى ان يعترف بأنه مخلوق . ولما سأله عن رؤية الرب عزوجل في الآخرة ، أجاب بالايجاب مستشهدا بالحديث النبوي القائل «ترون ربكم يوم القيامـــة لا تضامون في رؤيته» وبالحديث «ان قلب ابن آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن» فقال الواثق بالله : ويحك ، يرى كما يرى المحدود والمتجسم ، يحويه مكان ويحصره الناظر ؟ أنا أكفر برب هذه صفته(١٨) .

ولما استطلع الخليفة ممن حضر المجلس رأيهم في أقوال أحمد بن نصر ، أحل القاضي عبدالرحمن بن اسحاق دمه ، وطلب آخر ان يشرب من دمه . أما ابن أبي دواد فقال انه شيخ مختل العقل أو انه كافر يستتاب . الا ان الواثق بالله ضرب عنقه . وصلب وفي رجليه قيود ، في الحظيرة التي صلب فيها بابـــك الخرمي وحمل رأسه الى بغداد فنصب في الجانب الشرقي أياما ، ثم حول الى الجانب الغربي . ومنع الناس من التقرب منه ، واقيم عليه الحرس . وعلقت في أذنه رقعة فيها : هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر قتله الله على يدي هارون الامام الواثق أمير المؤمنين بعد ان اقام الحجة عليه في خلق القـــرآن ونفى التشبيه ، وعرض التوبة عليـــه فابى الا المعاندة ، فعجل الله به الى ناره وأليم عذابه(١٩) .

وامر الواثق بالله بحبس كل من عرف بصحبه أحمد بن نصر ممن ذكر انه كان مشايعا له . ووضع نيف وعشرون رجلا منهم في

---

(١٧) تاريخ بغداد ١٧٧/٥ .

(١٨) نفس المصدر .

(١٩) تجارب الامم ٥٣٢/٦ ، وورد هـــذا النص بشيء من التغيير في الطبري ١٣٩/٩ وفي تاريخ بغداد ١٧٨/٥ .

حبوس الظلمة ، ومنعوا من أخذ الصدقة التي يعطاها المسجونون ، كما منعوا من الزوار وثقلوا بالحديد(٢٠) .

ويقول الذهبي ان الواثق بالله قتل ابن نصر بيده لامتناعه من القول بخلق القرآن ، ولكونه اغلظ له في الخطاب ، وقال له : يا صبي . ويقول ان أحمد بن نصر كان رأسا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقام ومعه خلق من المطوعة واستفحل امرهم ، فخافته الدولة من فتق يتم بذلك(٢١) .

ويلاحظ على محاكمة أحمـــد بن نصر ان الخليفة تغاضى عن جريمته السياســية وما قام به من الشغب والتآمـــر على الدولة والاستعداد للوثوب بالخلافة ، رغم وضوح الأدلة على ذلك وثبوتها . وانما استهدف من المحاكمة اثبات كفـــره ومروقه من الدين مما يحلل قتله . ويظهر ان ذلك ناشيء عن اعتبار الخلافة منصبا دينيا وان الخروج عليها والكفر بالدين سواء . وقد يكون اغفال الجانب السياسي مقصودا لصرف اذهان الناس عن فكرة التآمر على الخلافة أو الخروج عليها(٢٢) .

ويذكرنا هذا بمحاكمة الأفشين حيدر بن كاوس عندما تهيأ للانتقـــاض على الخليفة المعتصـــم بالله ، فقـــد اغفلت جريمته السياسية كذلـــك ، وحوكم على مخالفاته الدينيـــة فقط . لأن السياسة والدين سواء في نظر العباسيين .

---

(٢٠) تجارب الامم ٦/٥٢٢ ، والطبري ٩/١٣٩ .

(٢١) العبر ١/٤٠٨ .

(٢٢) راجع عن تفصيلات حركة احمد بن نصر ومحاكمته وقتله : الطبري ٩/١٣٥ـ١٣٩ ، وتجارب الامم ٦/٥٢٩ـ٥٣٢ ، تاريـــخ بغداد ٥/١٧٥ـ١٧٨ ، والكامل ٧/٢٠ـ٢٣ .

٣ ـ رجوع الواثق بالله عن القول بخلق القرآن :

تدل حركة احمد بن نصر بشـــكل واضح على قوة مناهضي الاعتزال من الفقهاء رغم تشدد ثلاثة من الخلفاء في فرضه . ويقال ان الخليفة الواثق بالله رجع عن القول بخلق القرآن قبل موته(٢٣) . ويروي المسعودي سبب رجوعه كما رواه ابنه محمد المهتدي بالله الذي قال ما خلاصته انه أقدم على الواثق بالله بشيخ من أهل الفقه والحديث من أهل أذنة من الثغر الشامي مقيد ... فقال له : يا شيخ أجب أبا عبدالله أحمد بن ابي دواد فيما يسألك عنه . فقال : يا أمير المؤمنين ، أحمد يقل عن المناظرة .. أتأذن لي في كلامه ؟ فأذن له ، فأقبل الشيخ على ابن ابي دواد وقال له : مقالتك هذه التي دعوت الناس اليها من القول بخلق القرآن ، داخلة في الدين بحيث لا يكون تاما الا بالقول بها ؟ قال : نعـــم . قال الشيخ : رسول الله صـــلى الله عليــــه وســـــلم [دعـــ النــــاس اليهـــا أو تركهـــم ؟ قـــال : تركهـــم . فقـــال : فعلمهـــا أو لـــم يعلمها ؟ قال : علمها . قال : فلم دعوت الناس الى مالم يدعهم اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركهم منه ؟ فأمسك أحمد .. فصرف الرجل وجهه الى الواثق بالله وقال : يا أمير المؤمنين ، اذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولاصحابه فلا وسع الله علينا . فقال الواثق بالله : نعم لا وسع الله علينا ان لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله] صلى الله عليه وسلم . . ثـــم قال الواثق بالله : اقطعوا قيده .. وأمر له بجائزة .. واحسب ان الواثق بالله رجع عنها منذ ذلك الوقت(٢٤) .

---

(٢٣) تاريخ الخلفاء /٣٤١ .

(٢٣) في تاريخ بغداد ٧٥/١٠ ، وتاريخ الخلفاء/٣٤٢ هو ابو عبدالرحمن عبدالله بن محمد الاذرمي شيخ أبي داود والنسائي . مفصل الخبر في مروج الذهب ١٩٠/٤ـ١٩٢ ، والنجوم الزاهرة ٢٦١/٢ـ٢٦٩ ، وجاء الخبر فيه بثلاث روايات ـ وتاريخ بغداد ١٥١/٤ـ١٥٢ .

ويظهر ان محاولة الانتقاض على خلافة الواثق بالله لم تقتصر على أحمد بن نصر الخزاعي واتباعه . فقد كان هناك عدد غير قليل من رجال الدين ، ممن رفضوا القول بخلق القرآن ، قد راودتهم فكرة الخروج على الخليفة الا ان الامام أحمد بن حنبل الذي كان رأس المعارضين لم تؤيد ذلك حرصا على وحدة الامة وسلامتها ولم ير في دعوة الخليفة الى القول بخلق القرآن ما يخرجه عن الخلافة . ويقول ابو يعلى الحنبلي : اجتمع فقهاء بغداد الى ابي عبدالله أحمد بن حنبل ، وقالوا : هذا أمر قد تفاقم وفشا ـ يعنون القول بخلق القرآن ـ نشاورك في انا لسنا نرضى بأمرته ولا سلطانه . فقال : عليكم بالنكرة بقلوبكم ، ولا تخلعوا يدا من طاعة ، ولا تشقوا عصا المسلمين(٢٥) .

---

(٢٥) الاحكام السلطانية لابي يعلى الحنبلي/٥ .

الفصل الرابع

نهايــــة المحنــــة

١ ـ المتوكل على الله ينهي المحنة :

سبقت الاشارة الى ان الواثق بـــالله كان قد تراجع في أواخر أيامه عن الامعان في فرض اراء المعتزلـــة على الفقهاء والمحدثين • ويقال انه تاب ورجع عن القول بخلق القرآن • الا ان المنية ادركته قبل ان يشيع ذلك(٢٦) • فلما تولى المتوكل على الله الخلافة خالف ما كان عليه المأمون والمعتصم بالله والواثق بالله من الاعتقاد بمذهب المعتزلة ، فنهى عن الجدل والمناظرة وعاقب عليه • وأظهر السنة وتكلم بها في مجلسه ، وكتب الى الولايات برفع المحنة واظهار مذهب السنة(٢٧) •

ويظهر مما ذكره أبو المحاسن عن المحنة ان مبادرة المتوكل على الله بانهاء القول بخلق القرآن كانت في سنة ٢٣٤هـ ويؤيده في ذلك السيوطي(٢٨) • ويبدو ان الخليفة الجديد كان متحمسا لالغاء المحنة واعادة الطمأنينة الى النفوس باظهار السنة • فقد استقدم المحدثين والفقهاء الى سامرا واجزل لهم العطاء واكرمهـــم وطلب اليهم ان

---

(٢٦) النجوم الزاهرة ٢/٢٦٦ •

(٢٧) الطبري ٩/١٩٠ ، ومروج الذهب ٤/٨٦ •

(٢٨) النجوم الزاهرة ٢/٢٧٥ ، وتاريخ الخلفاء/٣٤٦ •

يحدثوا بأحاديث الصفات والرؤية[٢٩] • تلــك الامور التي منع المعتزلة القول بها • ومن جملـــة من استقدمهم المتوكل على الله من بغداد وغيرها ، عبدالله وعثمان ابنا محمدين ابي شيبة الكوفيين وكانا من حفـــاظ الناس ، وقاضي البصرة ابراهيـــم بن محمد اليتمي ، ومحمـــد بن عبدالملك بن أبي الشوارب • وقســم فيهم الجوائز والاعطيـــات ، واجرى عليهم الارزاق ، وأمـــرهم بان يجلسوا للناس ويحدثوا بالاحاديث التي فيها رد على المعتزلة[٣٠] •

وقد لقيت مبادرة المتوكل على الله بالغاء المحنة واظهار السنة قبولا حسنا من عامة الناس ، فتركوا تلك المقالة ، وانكرها من كان يقول بها ، وارتفع الجدل والمناظرة[٣١] • واستحق عليها ثناء الناس وتقديرهم . حتى قال القـــاضي اليتمي : الخلفاء ثلاثة : أبوبكر الصديق قاتل أهل الردة حتى استجابوا ، وعمر بن عبدالعزيز رد مظالم بني أمية ، والمتوكل على الله محـــا البدع وأظهر السنة[٣٢] • وقال محمد بن عبدالملك بـــن ابي الشوارب : اني جعلت دعائي في المشاهد كلها للمتوكل ، وذلك ان عمر بن عبدالعزيز جاء الله به لرد المظالم ، وجاء بالمتوكل لرد الدين[٣٣] •

وقال الشاعر البحتري يمتدح سياسة المتوكل الدينية باحياء السنة ، ويعرض بالقاضي أحمد بن ابي دواد ، منها قوله[٣٤] :

أمير المؤمنين لقـــد سكنا   الى أيامـــك الغر الحســان

رددت الدين فذا بعد ما قد   اراه فرقتـــين تخاصـــمان

---

(٢٩) نفس المصدرين السابقين •
(٣٠) تاريخ بغداد ١٠/٢٧ و ٢/٤٤٣ •
(٣١) مشاكلة الناس لزمانهم/٣٢ •
(٣٢) فوات الوفيات ١/٢٥٢ •
(٣٣) نفس المصدر ٢/٩٠ •
(٣٤) تاريخ بغداد ٧/١٦٩ـ١٧٠ •

قصمت الظالمين بكل أرض ... فاضحى الظلم مجهول المكان
في سنة رمت متجبريهم ... على قدر بداهية عوان
فما ابقت من ابن أبي دواد ... سوى جسد يخاطب بالمعاني
تحير فيه سابور بن سهل ... فطاوله ومناه الاماني
اذا اصحابه اصطحبوا بليل ... أطالوا الخوض في خلق القرآن
يديرون الكؤوس وهم نشاوى ... يحدثنا فلان عن فلان

ثم خطا المتوكل على الله في سنة ٢٣٧هـ خطوة أخرى في تصفية آثار المحنة ، فاطلق من كان في السجون من أهل البلدان ممن امتنع عن القول بخلق القرآن في أيام أبيه ، أو أخذ في خلافة الواثق بالله ، فخلاهم جميعا وكساهم(٣٥) . وكان ممن اطلق سراحه القاضي بشر بن الوليد الكندي أحد اصحاب ابي يوسف وقد اخذ عنه الفقه ، وكان المأمون ولاه القضاء على مدينة المنصور ، وقد ابتلي بالمحنة في عهد المعتصم بالله ، فاعفاه من القضاء وأمر أن يحبس في منزله ووكل ببابه الشرط ، ونهى ان يفتي احدا بشيء . فأمر المتوكل على الله باطلاقه وان يفتي للناس ويحدثهم(٣٦) .

وقد هم المتوكل على الله بانزال جثة احمد بن نصر الخزاعي المصلوبة منذ أيام الواثق بالله . فاجتمع الغوغاء حولها وكثروا وتكلموا في أمر ابن نصر . فبلغ ذلك الخليفة فأمر بضرب قسم منهم وحبسهم . ثم أمر بعد ذلك بانزال الجثة ودفعها الى أوليائه فغسلت ودفنت . وكتب صاحب البريد ببغداد الى الخليفة بخبر العامة الذين احتشدوا حول الجنازة باعداد لا تحصى وتمسحوا بها . فأمر المتوكل على الله خليفته ببغداد ان يمنع اجتماع العامة في مثل هذا الأمر وشبهه(٣٧) .

---

(٣٥) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٤ـ٤٨٥ ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٩٠ .
(٣٦) تاريخ بغداد ٧/٨٣ .
(٣٧) الطبري ٩/١٩٠ .

لقد كانت هناك بعض العوامل التي دفعت المتوكل على الله الى انتهاج هذه السياسة ، لعل أهمها انه كان يتعصب للسنة ويمقت المعتزلة • يضاف الى ذلك رغبته في التقرب الى عامة الناس التي كان تأثير الفقهاء ورجال الدين عليهـــا كبيرا • فقد لمس فشل اسلافه الثلاثة في استمالة الناس الى اعتناق مذهب المعتزلة ، وحاول كسب رضاهم وولاءهم بالغاء المحنة واحياء السنة • قال يزيد المهلبي[٣٨]: قال لي المتوكل يوما يا مهلبي ان الخلفاء كانت تتغضب على الرعية لتطيعها ، وأنا ألين لهم ليحبوني ويطيعوني[٣٩] •

٢ ـ من ضحايا المحنة :

كان الى جانب من ذكرنا من الفقهاء ورجال الدين ممن تعرضوا لغضب السلطة لعدم قولهم بان القـــرآن مخلوق ، فقهاء ومحدثون آخرون أوذوا في ســـبيل تمسكهم بالسنة وعدم اقرارهـــم بخلق القرآن • وكان اشهرهم :

عفان بن مسلم الصفار :

أبو عثمان عفان بن مسلم الصفار البصري ، نشأ في البصرة وانتقل الى بغداد وصار من رجال الفقه والحديث المرموقين فيها • روى عنه الامام أحمـــد بن حنبل ؛ ومحمد بن سعد الزهـــري ، والبخاري في صحيحه • يقول الخطيب البغدادي ان عفان بن مسلم اول من امتحن من الناس بمحنة القول بخلق القرآن ، وروى عنه انه قال : دعـــاني اسحاق بن ابراهيم ، فلما دخلت عليه قـــرأ على الكتاب الذي بعث بــه المأمون من الرقة ، فاذا فيـــه امتحن عفان

---

(٣٨) تاريخ بغداد ١٦٦/٧ ، وفوات الوفيات ٢٠٣/١ •

(٣٩) يزيد بن المهلب من بني المهلب بن ابي صفرة ، شاعر محسن ، من الندماء الرواة ، اتصل بالمتوكل على الله ونادمه ومدحه ، ورثاه بعد موته • وهو بصري الاصل نشأ ببغداد وبها اشتهر ، توفي سنة ٢٥٩ •

واتبعه الى أن يقـــول القرآن كذا وكذا ، فان قال ذلـــك فاقره على عمله ، وان لم يجبك بما كتبت به اليـــك فاقطع عنه الذي يجرى عليه ـ وكان المأمون يجري على عفان خمسمائة درهم كل شهر ـ فلما قرأ اسحاق الكتاب ، قال لي : ماذا تقول ؟ فقرأت عليه : «قل هو الله أحد . الله الصمد ...» حتى ختمتهـــا ، فقلت : مخلوق هذا ؟ فقال اسحاق يا شيخ ان امير المؤمنين يقـــول انك ان لم تجبه الى الذي يدعوك اليه يقطـــع عنك ما يجرى عليك ، وان قطع عنـــك أمير المؤمنين قطعنا نحن عنك ايضا . فقلت له : يقول الله تعالى «وفي السماء رزقكم وما توعدون»(٤٠) . فسكت اسحاق فانصرفت(٤١) .

ويلاحظ ان الطبري الذي أورد تفصـــيلات دعوة المأمون الى القول بخلق القرآن والمراحل التي مرت بها تلك الدعوة ، لم يشر الى ما ذكره الخطيب البغدادي . فقد ذكر الطبري ان المأمون طلب الى اسحاق بن ابراهيم ان ينفذ اليه سبعة نفر عددهم(٤٢) ، ليس فيهم عفان بن مسلم . وطلب اليه في كتابـــه الثاني ان يمتحن القضاة والفقهاء ، فاحضر اسحاق ستة وعشرين عالما وفقيها(٤٣) ، ولم يكن عفان بن مسلم بينهم . ولما اشخص اســـحاق الى المأمون اثنين من الفقهاء مقيدين بالحديد(٤٤) ، لـــم يكن عفان أحدهما . وعندما اشخص اسحاق عددا اخر من الممتنعين عن الاجابة بالقول بخلق القرآن الى طرسوس ليقيموا فيهـــا حتى خروج المأمون من بلاد الروم(٤٥) ، فان عفان بن مسلم لم يكن بينهم كذلك .

وما جاء في الكامل عن هـــذا الموضوع يكاد يطابق ما اورده الطبري(٤٦) . وهو خال أيضـــا من الاشارة الى امتحان عفان بن

---

(٤٠) سورة والذاريات . الاية : ٢٢ .
(٤١) تاريخ بغداد ١٢/٢٧١ .
(٤٢) الطبري ٨/٦٣٤ .
(٤٣) الطبري ٨/٦٣٧ .
(٤٤) نفس المصدر/٦٤٤ .
(٤٥) نفس المصدر/٦٤٥ .

مسلم • وكذلك ما جاء في كتاب العيون والحدائق ، وكتاب تجارب الأمم عن أمر المأمون بامتحان القضاة والفقهاء(٤٧) ، خلا من الاشارة الى عفان بن مسلم • الا ان عدم ذكر اسم عفان بن مسلم الصفار في المصادر التي أشرنا اليها لا يعني عــدم صحة ما اورده الخطيب البغدادي ، فقد يكون امتحانه قد جرى فرديا ، وقبل ورود كتاب الخليفة الى اسحاق بن ابراهيم بامتحان القضاة والفقهاء •

توفي عفان ببغداد في صفر سنة ٢١٩هـ وعمره خمس وثمانون سنة(٤٨) •

محمد بن نوح :

الفقيه الزاهد محمد بن نوح بن ميمون بن عبدالحميد العجلي، ويعرف أبوه بالمضروب(٤٩) • عرف بشدة التمسك بالسنة والدين ، وحدث شيئا يسيرا • وكان ممن ابتلي بالمحنة بالقول بخلق القرآن في أواخر عهد المأمون • ويعتبر من الرعيل الأول من ضحايا تلك المحنة • اذ كان هو والامام احمد بن حنبل ممن امتنع عن الاجابة بالقول بخلق القرآن عندمـــا امتحن اسحاق بن ابراهيم القضاة والفقهاء والمحدثين ببغداد بأمر من المأمون • ولما كتب اسحاق الى الخليفة ، وكان حينذاك غازيا في بلاد الروم غزوته الأخيرة ، باسماء من رفض الاجابة ، كتب اليه يـــرد على المتنمين عن القول بخلق القرآن ، وقد اتهم محمد بن نوح بالتعامل بالربا ، اذ قال عنه : واما محمد بن حاتم ، وابن نوح ، والمعروف بابن معمر ، فاعلمهم انهم مشـاغيل بأكل الربا عن الوقوف على التوحيــد ، وان امير

---

(٤٦) الكامل ٦/٤٢٣-٤٢٤ و ٤٢٧ •

(٤٧) العيون والحدائق ٣/٣٧٦-٣٧٧ ، وتجارب الامم ٦/٤٦٥-٤٦٦ •

(٤٨) تاريخ بغداد ١٢/٢٧٧ ، والكامل ٦/٤٥٤ •

(٤٩) تاريخ بغداد ١٣/٣٢٣ •

المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم في الله ومجاهدتهم الا لأربائهم وما نزل به كتاب الله في امثالهم ، لاستحل ذلك ، فكيف وقد جمعوا مع الأرباء شركا وصاروا للنصارى شبها(٥٠) . ثم أمره بعد ذلك ان يشخص اليه المخالفين . فقيد اسحاق الامام احمد بن حنبل ومحمد بن نوح بالحديد ووجه بهما الى طرسوس ليقيما فيها حتى يصلها المأمون عند عودته من بلاد الروم . وقــد حملا متلازمين على بعير واحد ، فلما وصلا الرقة جاء النبأ بوفاة المأمون ، فاعادهما والي الرقة الى مدينة السلام .

وكان محمد بن نوح قد مرض في الطريق ، فمات في عانة . فصلى عليه الامام احمد ، ودفنه هناك ، وكانت وفاتــه في سنة ٢١٨هـ(٥١) . قال عنه الامام احمد : ما رأيت أحدا أقوم بأمرالله من محمد بن نوح رغم حداثة سنه ، وقلة علمه ، فقد قال لي ذات يوم يــا ابا عبدالله انت رجل يقتدى بــك ... فاتق‌الله واثبت لأمره ، أو بما معناه ، يشجعني على الثبات بمعارضة القول بخلق القرآن(٥٢) .

نعيم بن حماد :

نعيم بن حماد بن معاويــة بن الحارث بن همام ، أبو عبدالله الخزاعي الفارضي . كان من الرحالة في طلب الحديث . نشأ في مرو من اسرة عربية ورحل الى العراق والحجاز ، ثم سكن مصر ولم يزل مقيما فيها الى ان أشخص الى سامرا في أيام المعتصم بالله ، سمع الحديث على بعض محدثي عصره ، واختص بالمحــدث عبدالله بن

---

(٥٠) الطبري ٦٤٢/٨ .
(٥١) العبر ٣٧٧/١ ، والنجوم الزاهرة ٢٢٩/٢ .
(٥٢) تاريخ بغداد ٣٢٣/٣ .

المبارك . وسمي الفارضي لأنه كان من أعلم الناس بالفرائض(٥٣) . ويقال انه أول من جمع المسند في الحديث وصنفه(٥٤) .

وقد اختلفت فيه آراء رجال الحديث ، فمنهم من وثق بروايته واعتبره ثقة صدوقا فروى عنه ، ومنهم من اتهمه بوضع الحديث والحكايات المزورة ، ووصفه بالوهم فيما يرويه ، وقال بعضهم انه ليس من الحديث في شيء(٥٥) .

عندما استخلف المعتصم بالله أمر قاضي مصر بحمل الفقهاء على القول بخلق القرآن . وقد تولى محمد بن ابي الليث تنفيذ أمر الخليفة ، بعد ان استعفى القاضي هارون العوفي من هذه المهمة ، فحمل نعيم بن حماد وآخرين ممن لم يجيبوا الى القول بخلق القرآن، الى دار الخلافة . وهناك قيد وسجن ، وكان ذلك في سنة ٢٢٤هـ . ولنعيم عدة كتب في الرد على الجهمية ، وهو الخبير بآرائهم وأقوالهم، وقد قال : أنا كنت جهميا ، فلذلك عرفت كلامهم ، فلما طلبت الحديث عرفت انهم يدعون الى التعطيل(٥٦) . ومن هنا انبرى للرد عليهم . وجاء في هدية العارفين ان له ثلاثة عشر كتابا في الرد على الجهمية ، وكتبا في الرد على أبي حنيفة ، وناقض محمد بن الحسن الشيباني ، وان من تصانيفه أيضا كتاب الملاحم والفتن ، ومسند في الحديث(٥٧) .

ظل نعيم محبوسا حتى مات في السجن . فكان ضحية من ضحايا المحنة . وكان أوصى ان يدفن في قيوده ، وقال : اني مخاصم(٥٨) .

---

(٥٣) تاريخ بغداد ٣/٣٠٧ ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٥٤ .
(٥٤) تاريخ بغداد ٣/٣٠٦ .
(٥٥) شذرات الذهب ٢/٦٧ ، وتاريخ بغداد ٣/٣١٢ .
(٥٦) تاريخ بغداد ٣/٣١٢ .
(٥٧) هدية العارفين ٢/٤٩٧ .
(٥٨) تاريخ بغداد ٣/٣١٣ .

وقد مات في جمادي الاولى من سنة ٢٢٨ هـ(٥٩) • فجر في قيوده والقي في حفرة دون ان يكفن او يصلي عليه أحد(٦٠) • لأن دعوة المعتزلة كانت في عنفوان قوتها •

محمد بن اسماعيل البخاري :

يظهر ان الخلاف في القول في القرآن اتخذ وسيلة للطعن على بعض الفقهاء ورجال الحديث • فقد كان أبو عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري يقول : ان أفعال العباد مخلوقة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال «ان الله يصنع كل صانع وصنعته» وعلى هذا فان حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم مخلوقة • أما القرآن المتلو المبين ، المثبت في المصاحف ، المسطور في الكتب ، المدعى في القلوب فهو كلام الله ليس بخلق • قال الله تعالى «بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم»(٦١) • فاتخذ منافسو البخاري قوله هذا حجة لاتهامه في عقيدته • فقد قال محمد بن يحيى المحدث : من زعم ان القرآن مخلوق فقد كفر وخرج عن الايمان••• ومن قال لا أقول مخلوق أو غير مخلوق فقد ضاهى الكفر، ومن زعم ان لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع لا يجالس ولا يكلم • ومن ذهب بعد مجلسنا هذا الى محمد بن اسماعيل البخاري فاتهموه ، فانه لا يحضر مجلسه الا من كان على مذهبه(٦٢) •

وقد رد البخاري على ذلك بقوله «من زعم اني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فهو كاذب فاني لم أقله ••• الا اني قلت ان افعال العباد مخلوقة(٦٣) •

---

(٥٩) نفس المصدر ، والنجوم الزاهرة ، ٢/٢٥٤ • ويقال انه توفى سنة ٢٢٩ — تاريخ بغداد ٣/٣١٤ ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٥٧ •

(٦٠) تاريخ بغداد ٣/٣١٤ •

(٦١) سورة العنكبوت ، الاية : ٤٩ •

(٦٢) تاريخ بغداد ٢/٣١-٣٢ •

(٦٣) نفس المصدر/٣٣ •

الباب الثامن

علاقات الدولة العربية بمملكة الروم

١ ـ الحروب بين العرب والروم •

٢ ـ المفاداة بين العرب والروم •

٣ ـ العلاقات الثقافية والتجارية بين العرب والروم •

الباب الثامن

علاقات الدولة العربية بمملكة الروم

الفصل الأول

الحروب بين العرب والروم

١ ـ مقدمة :

اضطر الخليفة المأمون الى أن يخرج غازيا الى بلاد الروم في كل سنة من السنوات الأربع الأخيرة من سني حكمه • فقد خرج في سنة ٢١٥هـ وفتح بعض الحصون الرومية • ولما هجم الروم في السنة التالية ٢١٦هـ على طرسوس والمصيصة خرج على رأس حملة لردهم وتأديبهم ، ففتح هرقلة وعددا من الحصون • كما خرج في سنة ٢١٧هـ وحاصر مدينة لؤلؤة فهادنه أهلها • وقد توفي في السنة التالية وهو في بلاد الروم • وكان قد قرر انشاء حصن قوي فأمر ببناء مدينة طوانة من أرض الروم وحشد لها الصناع ، وولي أبنه العباس أمر بنائها[١] •

---

(١) تجارب الامم ٦/٤٦٤ ، والعبر ١/٣٧٢ •

ان هذه اللمحة القصيرة عن أواخر أيام المأمون تعطينا صورة واضحة عن طبيعة العلاقة العدائيـــة المستمرة بين الدولة العربية ومملكة الروم ٠

لقد كان أبو اســـحاق محمد بمعية أخيه المأمـــون في حملته الاخيرة ، وكان المأمون أوصى له بالخلافة من بعده ٠ ونظرا لما واجهه أبو اسحاق من معارضة بعض القواد الذين طالبوا بمبايعة العباس بن المأمون بدلا عنه ، فقد قبل مهادنة الروم ، واسرع في العودة الى عاصمة الخلافة ٠ وأمر بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه في طوانة وحمل ما كان بها من السلاح والآلة الحربية وغيرها مما قدر عليه ، واحرق مالم يقدر على حمله ، وأمـــر بصرف من كان المأمون قد أسكنهم هناك ، الى بلادهم(٢) ٠ وقـــد يكون اسراع المعتصم بالله بالعودة الى العاصمة تنفيذا لما جـــاء في وصية المأمون له «وعجل الرحلة عني والقـــدوم الى دار ملكك بالعـــراق»(٣) ٠ الا ان قيامه بتخريب الحصـــن الذي أمر أخوه ببنائه ليقف في وجـــه هجمات البيزنطيين لم يعرف سببه ، الا ان يكون يخالف أخاه في أهمية موقع هذا الحصن من الناحية العسكرية ، أو انه أراد أن يغيض العباس ، وقد كلفه أبوه بالقيام على بناء الحصن المذكور ٠

لقد شغل المعتصم بالله في خـــلال السنوات الخمس الاولى من خلافته بالقضاء على ما واجهه من المشاكل والاضطرابات الداخلية مما لم يستطع معه مهاجمة بلاد الروم أو توجيه بعض الحملات الى مدنهم الحدودية ٠ ويظهر ان الروم من جانبهم قد ملوا استمرار القتال مع الجيوش العربية ، واغتنموها فرصة للراحة والاستعداد على ان انشغال الجيش العربي في القضاء على الاضطرابات، وبخاصة حركة بابك الخرمي ، أصابه شيء من الانهاك ٠ مما اثار في نفوس

---

(٢) الطبري ٨/٦٦٧ ، وتجارب الامم ٦/٤٧٠ ٠
(٣) الطبري ٨/٦٤٩ ٠

البيزنطيين أطماعهم الدفينة في اجتيـــاح بعض الثغور العربية • لاسيما وان بابك الخرمي كان يغري ملك الروم بمهاجمة الدولة العربية لانشغال جيوشها بمقاتلة اتباعـــه ، مستهدفا من ذلك ان يخفف ضغط الجيش العربي عليه ، اذا ما شغل الجيش المذكور في جبهة أخرى •

وبالنظر لما كان للمدن الحدودية القائمة بين الدولة العربية وبلاد الروم من دور كبيـر في الحروب التي كانت شـــبه مستمرة بينهما ، فقد اهتم الخلفاء العباسيون الأوائل بهذه المدن والحصون فاعادوا بناء ما تخرب منها ، وزادوا في تحصينها وفي عدد القوات المقاتلة المرابطة فيها ، كما شجعوا على السكن بها •

ويطلق اسم الثغور على المدن الحدودية الحصينة التي حشدت بالمقاتلين ، ومنها كانت تشن الغارات على مدن الروم • كما يطلق اسم العواصم على الحصون والمدن العربية الداخلية التي تنزل فيها الجيوش فتعتصم بها وتحتمي اذا عادت من هجماتها ، او اذا أرادت الخروج الى الثغور(٤) • وهي بهذا الاعتبار تعصم الثغور وتمدها في وقت الحاجة •

٢ ـ فتح عمورية :

عندما ضيقت الجيوش العربية الخنـــاق على بابك الخرمي ، ووجد نفسه واتباعه مشرفين على الهزيمة والهلاك . كتب الى ملك الروم توفيل يعلمه ان جيوش الخليفة مشغولة بمقاتلته ، حتى ان المعتصم بالله وجه خياطة وطباخة ـ ويقصد بذلك من باب التهكم والسخرية ، القائد جعفر الخياط والقائد ايتاخ الذي كان في أول أمره طباخا ـ ويحثه على مهاجمة الثغور العربية ، لأنه ليس هناك

---

(٤) فتوح البلدان/١٣٨ •

من يستطيع منعه عنها وصـــده عنها • وكان يستهدف من ذلك ان يضطر الجيش العربي على الحرب في جبهة أخرى ، فيسحب الخليفة بعض الجيوش التي تحاربه ويوجهها الى محاربة الروم ، فيخف عليه ضغطها(٥) • وذلك مما يتيح له فرصـــة لجمع شمل جيشه الممزق ومطاولة الجيش العربي •

وقد لقي اقتراح بابك استجابـــة من لدن توفيل الذي اغتنم الفرصة فخـــرج في سنة ٢٢٣هـ ومعـه ملوك برجـــان والبرغر والصقالبة وغيرهم ممن جاورهـــم(٦) • على رأس جيش كبير قدر بمائة ألف مقاتل ، وقيل أكثر من ذلـــك ، وفيهم من الجند نيف وسبعون ألفا ، وبقيتهم اتباع منهم المحمرة الذين كانوا قد انهزموا الى بلاد الروم حين قاتلهم اســحاق بن ابراهيم المصعبي في سنة ٢١٩هـ • وسار حتى وصل الى زبطرة فدخلها وقتل عددا كبيرا من رجالها ، وسبى نساءها وأطفالها ، وأحرقها(٧) • ثم اغار على ملطية وماجاورها من الحصون العربية وأمعن فيها قتلا وسبيا ونهبا • ومثل بمن صار في يـــده من العرب فسمل اعينهم وقطـــع آذانهم وأنوفهم(٨) • فضـــج الناس في سامرا وبغداد ، واســتغاثوا في المساجد • ودخل ابراهيم بن المهدي على المعتصم بالله وانشده قائما قصيدة يذكر فيها ما نزل باهل الثغـــور على أيدي الروم ويحضه على الانتصار لهم ، ومما قاله(٩) :

---

(٥) الطبري ٩/٥٦ •

(٦) مروج الذهب ٤/٥٩ •

(٧) الطبري ٩/٥٦ ، ومختصر تاريخ العرب/٢٥٠ ، وجاء فيه ان زبطرة مسقط رأس المعتصم بالله ، بينما يذكر المسعودي ان مولده كان بالخلد ببغداد سنة سنة ثمانين ومائة ـ مروج الذهب ٤/٦٤ •

(٨) الكامل ٦/٤٧٩ •

(٩) مروج الذهب ٤/٥٩ـ٦٠ ، وثمار القلوب/١٦ وفيه : يا عترةالله ، كناية عن بني العباس •

ياغارة الله قد عاينت فانتهكي   هتك النساء وما منهن يرتكب
هب الرجال على أجرامها قتلت   ما بال أطفالها بالذبح تنتهب

استعظم الخليفة الأمر ، لاسيما عندما بلغه ما يقال ان امرأة أسيرة عنـد الروم صاحت : وا معتصماه • فاستثارتـه الحمية وأجابها وهـو جالس على سريره : لبيك لبيـك ، وأعلن نفير الحرب(١٠) ويقول ابن العماد الحنبلي ان المعتصم بالله كان في مجلس انسه والكأس في يده ، فبلغه ان أمرأة عباسية أسيرة في عمورية عند علج رومي وقد لطمها على وجهها يوما فصاحت وا معتصماه • فقال لها العلج متهكما ما يجيء اليك الا على حصان أبلق • فختم المعتصم بالله كأسه واقسم الا يشربه ا لابعد قتـل العلج وتحرير الامرأة الاسيرة • ويقول انه عندما نادى بالرحيل لغزو عمورية أمر أن لا يخرج أحد من العسكر الا على حصـان أبلق • فلما فتح عمورية دخلها وهو يقول : لبيك لبيـك ، فطلب العلج وضرب عنقه وفك قيود الاسيرة ، وأمر ساقيه أن يأتيه بكأسه المختوم ، ففك ختمه ، وقال : الآن طاب الشراب(١١) •

أما سبب الحملة على رأي القـزويني فهو ان الروم في انقرة اعتدوا على رجل من أهل العراق ، فنادى يا معتصماه • فقالوا له اصبر حتي يأتيك على الأبلـق لينصرك • فوصل هذا الخبر الى المعتصم بالله فأمر بشراء كل فرس ابلق وقصد بلاد الروم(١٢) •

ان ما اورده كل من المؤرخـين المذكورين لا يعدو عن نقل ما أشيع من روايات واخبار بين أهل سامرا و بغداد عندما بلغهم خبر اجتياح الروم بعض الثغور ، واعلان الخليفة نفير الحرب • وليس

---

(١٠) العيون والحدائق ٣/٣٩٠ ، والكامل ٦/٤٨٠ •
(١١) شذرات الذهب ٢/٦٣ـ٦٤ •
(١٢) اثار البلاد/٥٠٦ •

بالضرورة ان تكون تلك الروايات والأخبار حقيقية • على انها بنفس الوقت تعطينا صورة عن اهتمام الناس بالأمر ومحاولتهم استثارة الخليفة بمثل هذه الروايات • كما انها دليل على وقوع اعتداء الروم على المدن الحدودية مما يستلزم نهوض الدولة لصده والرد عليه •

دعا المعتصم بالله الناس الى الجهاد وأمر بالاسراع في تهيئة الجيش وتجهيزه بما يلزمه من السلاح والآلة والعدد ، وحياض الادم والروايا والقرب ، وآلة الحديد والنفط ، والدواب • حتى ذكر انه لم يتجهز مثله قبله خليفة قط • وبعد ان اكتمل اعداد الحملة قادها المعتصم بالله بنفسه • فخرج غازيا عليه دراعة بيضاء من الصوف ، وقد تعمم بعمامة الغزاة(١٣) وركب دابته وسمط خلفه شكالا وسكة حديد وحقيبة فيها زاده(١٤) •

وكان ورود الخبر بهجوم الروم بعد الظفر ببابك الخرمي ، مما سهل للخليفة التهيؤ لحرب واسعة جديدة • وقد اشهد المعتصم بالله قاضي بغداد عبدالرحمن بن اسحاق ومعه عدد من أهل العدالة، على ما أوقفه من ضياعه ، فجعل ثلثا لولده ، وثلثا لله تعالى ، وثلثا لمواليه(١٥) • ثم عسكر بموضع خارج سامرا يعرف بالعيون غربي دجلة ، في أوائل جمادي الاولى سنة ٢٢٣هـ(١٦) • وقد تألفت الحملة من جيشين تولى الخليفة نفسه قيادة الجيش الرئيس وعبر به جبال كيليكيا سالكا درب طرسوس • واناط قيادة الجيش الآخر بالافشين حيدر بن كاوس وأمره بدخول بلاد الروم من الممر الشمالي ، درب الحدث ، عبر جبال طوروس ، على أن يتلاقيا بأنقرة ، وجعل الخليفة على مقدمة جيشه القائد أشناس واتبعه

---

(١٣) مروج الذهب ٤/٦٠ •
(١٤) الطبري ٩/٥٦ ، والفخري/٢١٠ •
(١٥) الطبري ٩/٥٦ •
(١٦) نفس المصدر ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٥ •

بالقائد محمد بن ابراهيم ، وعلى يمنته ايتاخ ، وعلى ميسرته جعفر بن دينـــار الخياط ، أما القلب فقد اناط قيادتـــه بعجيف بن عنبسة(١٧) ٠

وقبل ان يتحرك المعتصم بالله بجيشه وجه عجيف بن عنبسة وعمر الفرغاني وجماعـة من القواد الى زبطرة اعانة لأهلهـــا ، فوجدوا ان الروم قد انصرفوا عنها ، فمكثوا بها قليلا حتى اطمأن أهلها وعادوا الى قراهم وبيوتهم(١٨) ٠

لقد عزم المعتصم بالله على ان يسير الى مدينة عمورية بعد أن عرف انها أكبر المدن الرومية بعد القسطنطينية وأمنعها ، وانها موطن الاسرة التي كانت تحكم الروم يومئـــذ ٠ ولأهمية عمورية يسميها الدينوري القسطنطينية الصغرى(١٩) ٠ ويفهم مما جاء في كتابي الطبري والعيون والحدائق، ان المعتصم بالله كان قد استفسر وهو بسامرا ، أي قبل أن يتحرك بحملته ، عن أمنع بلاد الروم فقيل له عمورية(٢٠) ٠ الا ان صاحب الفخري يقول ان المعتصم بالله ظفر ببعض أهل الروم فســـأله عن أحصن مدنهم وأعظمهـــا وأعزها عندهم ، فقال لـــه الرومي ان عمورية هي عين بلادهـــم ، فتوجه اليها(٢١) ٠ الا اننـــا نرى ان ما ذكره ابن الطقطقي كان من بـــاب الاستنتاج ، لأن معرفة مدن العـــدو من حيث مواقعها وتحصينها وطرق الوصول اليها من ضرورات الامور العسكرية التي يتعين على الجيش الغازي أن يعرفها قبل سيره الى ساحة القتال ٠ ومما يؤيد ذلك ان المعتصم بالله لما خرج بجيشه نقش على الألوية والتروس اسم

---

(١٧) الطبري ٩/٥٧ ٠
(١٨) نفس المصدر ٠
(١٩) الاخبار الطوال /٣٣٨ ٠
(٢٠) الطبري ٩/٥٧ ، والعيون والحدائق ٣/٣٩٠ ٠
(٢١) الفخري/٢١٠ ٠

عمورية وأمر أن يكتب كل حامل لواء على انه يقصد عمورية باللغة اليونانية(٢٢) ٠

لقد استطاع قواد الحملة تنفيذ مـا كلفوا به من الواجبات ٠ وكان جيش الافشين قد توغل في بلاد الروم بعد ان هزم ملكهم في معركة مهمة ، ودخل بجيشه انقرة ، بعـد ان استولى على عدد من المدن والحصون الرومية ٠ وتقدم الجيش العربي حتى وافى مدينة عمورية فاحاط بها ٠ وكانت محصنة تحصينا قويا ولسورها أربعة وأربعون برجا(٢٣) ٠ وبعد حصار شديد استخدمت فيه العرادات والمجانيق تمكن المهاجمون من عبور الخندق المحيط بالمدينة ٠ وقد حاول المعتصم بالله ان يستخدم الدبابات في اجتياز الخندق فأمر بأن يطم جزء منه بجلود الغنم المملوءة بالتراب ، وعمل دبابات كبارا تسع الواحدة منها عشرة رجال ليدحرجها على الجلود المذكورة الى السور ٠ الا انه لما تقدمت واحدة من الدبابات وصارت في منتصف الطريق تعلقت بتلك الجلود ، ولم يتخلص الرجال منها الا بعد جهد وشدة ، فاهمل استخدامها(٢٤) ٠

ومما ساعد على اقتحام المدينة ان احد اسرى العرب بعمورية اخبر الخليفة بان السيول كانت قد اجتاحت جزء من السور ، فأمر ملك الروم عامل عمورية بأن يعمـره ، فتمعجل في ذلك وبناه بناء ضعيفا موقتا ٠ فتعرف المعتصم بالله على ذلك الموضع من السور وامر بضربه بالمجانيق فتهدم ، مما مكن الجيش العربي من دخول المدينة ، فاضطرت حاميتها على الاستسلام ، وأسر كبير قوادها ياطس(٢٥) ٠ وأمر الخليفة بهدم المدينة واحراقها ٠ ولكثرة الغنائم والاسرى ،

---

(٢٢) العرب والروم/١٣١ ٠
(٢٣) المسالك والممالك/١٠٧ ٠
(٢٤) الطبري ٩/٦٥ ٠
(٢٥) الطبري ٩/٦٨ ٠

كان لا ينادي على بيع شيء منها أكثر من ثلاثة أصوات ثم يباع ، أما الاسرى فكان ينادي عليهم خمسة خمسة وعشرة عشرة ، وذلك طلبا للسرعة(٢٦) .

ويقال ان ملك الروم عندما هزمته الجيوش العربية قبل فتح عمورية أرسل وفدا الى الخليفة المعتصم بـــالله يقول له «ان الذين فعلوا بزبطرة ما فعلوا تعدوا أمري ، وأنا أبنيها بمالي ورجالي ، وارد ما أخذ من أهلها واخلي جملة من في بلد الروم من الاسارى ، وابعث اليك بالقوم الذين فعلوا بزبطرة على رقاب البطارقة»(٢٧) . الا ان المعتصم بالله لم يأذن لوفد الروم في المصير اليه واحتجزه حتى تم فتح عمورية فاذن له بالانصراف(٢٨) . ويؤيد خبر الوفد ما ذكره صاحب كتاب رسل الملوك من ان ملـــك الروم توفيل بن ميخائيل ارسل الى المعتصم بالله اثر موقعة عموريـــة وفدا يحمل هدايا من ثياب الديباج المذهبة وغيرها ، ومعـــه كتاب يعتذر فيه عما بدر من جيشه في زبطرة ، ويسأل الخليفة ان ينعم عليه باطلاق سراح البطارقة الذين اسرهم الجيش العـــربي وعددهم مائة وخمسون بطريقا ، وانـــه مستعد لافتداء كل واحد منهم بمائـــة من أسرى المسلمين لديـــه(٢٩) . ولا يظهر من الخبر ما اذا كان الخليفـــة قد استجاب لالتماس ملك الروم .

يقول المسعودي ان المعتصم بالله أراد المسير الى القسطنطينية والنزول على خليجها ، والحيلة في فتحها برا وبحرا ، فاتاه ما أزعجه وصرف عما عزم عليه ، من أمر العباس بن المأمون وان بعض القواد قد بايعوه ، وانه كاتب طاغية الروم ، فاعجل المعتصم في العودة بعد

---

(٢٦) العيون والحدائق ٣/٣٩٥ ، والكامل ٦/٤٨٨ .
(٢٧) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٦ .
(٢٨) الطبري ٩/٦٩ .
(٢٩) رسل الملوك/٣٤ـ٣٥ .

ان حبس العباس ومؤيديه(٣٠) • ويقول السيوطي ان المعتصم بالله كان قد عزم على المسير الى أقصى الغرب ليملك البلاد التي لم تدخل في ملك بني العباس ، وقد روى عن أحمد بن الخصيب انه قال : ان المعتصم بالله قال لي ان بني أمية ملكوا وما لأحدنا ملك ، وملكنا نحن ولهم بالاندلس هذا الأموي ، فقدر ما يحتاج اليه لمحاربته وشرع في ذلك فاشتدت علته ومات(٣١) •

يتضح من هذا ان المعتصم بـــالله كان يطمح في الاستيلاء على الاندلس ، والقضاء على المملكة البيزنطية • ويبدو ان الروم كانوا يتوقعون ان يسير الجيش العربي ، بعد اكتساحه عمورية ، قدما نحو القسطنطينيـــة ، بحيث بات الملـــك البيزنطي يخشى سقوط عاصمته فاستنجد بمدينة البندقية وبملك الفرنج وبعبدالرحمن الثاني أمير الأندلس ، الا انه لم يتلق اية معونة من أحد منهم(٣٢) • على ان مؤامرة العباس قد اضطرت المعتصم بالله على عقد الصلح مع ملك الروم والعـــودة الى سامرا ، فسلمت بذلـــك القسطنطينية والمملكة البيزنطية •

وكان الشاعر أبو تمام الطـــائي الذي صحب المعتصم بالله في حملته هذه ، قال قصيدته المشهورة يمدح بها المعتصم بالله ويرد على تخرصات المنجمين ودعاواهم الكاذبة ، وان الفتح جلي وجه الجيش العربي بانتصاره المبين على الروم المخذولين ، فكان ذلك انتصارا عظيما للاسلام ، ننتخب منها الأبيات التالية(٣٣) :

السيف أصدق انباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف في   متونهن جلاء الشك والريب

---

(٣٠) مروج الذهب ٤/٦٠ •
(٣١) تاريخ الخلفاء/٣٣٧ •
(٣٢) الحدود الاسلامية البيزنطية ١/٣٨٨ •
(٣٣) كامل القصيدة في ديوان ابي تمام ١/٤٠ـ٧٤ •

والعلم في شهب الارماح لامعة بين الخميسين لافي السبعة الشهب
أين الرواية بل آين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا وأحاديثـــا ملفقـــة ليست بنبع اذا عدت ولا غرب
عجائبا زعموا الايـام مجفلة عنهن في صفر الأصفار أو رجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة اذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
وصيروا الابرج العليا مرتبة ما كان منقلبا أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة مادار في فلك منهـا وفي قطب
لو بينت قط أمرا قبل موقعه لم تخف ماحل بالأوثان والصلب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبـواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت منك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بني الاسلام في صعد والمشركين ودار الشرك في صبب

ثم يصف هزائم الروم ، حتى يقول :

تدبير معتصـــم بالله منتقـــم لله مـــرتقب في الله مـــرتعب

الى أن يقول :

لم يغز قوما ولـــم ينهد الى بلد الا تقدمـــه جيش من الرعب
لولم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها في جحفل لجب
رمى بك الله برجهـــا فهدمها ولو رمى بك غير الله لم يصب
من بعدما اشبوها واثقين بها والله مفتاح باب المعقل الأسب
لبيت صوتا زبطريا هرقت له كأس الكرى رضاب الخرد العرب
أجبته معلنـــا بالسيف منصلتا ولو اجبت بغير السيف لم تجب
خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والاسلام والحسب

فمنحه المعتصم بالله عن كل بيت منها ألف دينار[٣٤] • وكان عدد أبياتها واحدا وسبعين بيتا • ويقول ابن دحية ان أبا تمام كرر انشاد القصيدة ثلاثة أيام ، فقـــال له المعتصم بالله : الى كم تجلو علينا عجوزك ؟ قال : حتى استوفى مهرها يا أمير المؤمنين • فأمر له باثنين وسبعين ألف درهم نقرة ، عن كل بيت ألف درهم شرعي[٣٥] • ويقول أبو الفرج الاصبهاني ان أول خليفة عد أبيات الشعر وأعطى على عددها هو الوليد بن يزيد الخليفة الأموي لما هنأه الشاعر يزيد بن ضبة بتوليه الخلافة ، فأمـــر أن يعطى ألف درهم لكل بيت من قصيدته[٣٦] •

استغرقت حملة المعتصم بالله على عمورية منذ أن عسكر بجيشه غربي دجلة في الثاني من جمـادي الأول حتى افتتاح المدينة قرابة ستة شهور ، أما حصارها فقد دام خمســة وخمسين يوما[٣٧] • أما عدد من اشترك من الجند في الحملة فـان الطبري رغم التفصيلات التي أوردها عن الحملة والمعارك التي جرت فيها لم يشر الى عدد المشتركين فيها • الا ان المسعودي قال عن عددهم «لم يكن يحصى الناس العدد ولا يضبطون كثرة ، فمن مكثر ومقلل ، فالمكثر يقول خمسمائة ألف ، والمقلل يقول مائتي ألف»[٣٨] ويقدر ابن دحية عدد المشتركين في الحملـــة بأكثر من ثلثمائة ألف رجـــل[٣٩] • وذكر اليعقوبي عددهم بصورة غير مباشرة ، فقــد جاء في تاريخه انه لما حبس العباس بن المأمون بعد اكتشاف مؤامرته ، وجدله مائة ألف وستة عشر ألف دينار ، فأمر المعتصم بـــالله أن تفرق على الجند ،

---

(٣٤) خلاصة الذهب المسبوك/٢٢١ •
(٣٥) النبراس/٦٤ •
(٣٦) الاغاني ٧/٩٩ •
(٣٧) الطبري ٩/٧٠ •
(٣٨) مروج الذهب ٤/٦٠ •
(٣٩) النبراس/٦٣ •

فاحصوا فوجدوا ثمانين ألف مرتزق(٤٠) • ولا يغرب عن البال ان هذا العدد يمثل الباقين من الجند المسترزقة المشتركين في الحملة ، وان تقدير كل من المسعودي وابن دحية يشمل جميع الرجال المقاتلين ، المسترزقة منهم والمتطوعة والمجاهدين مع أمراء الجيش وقادته • وجاء في كتاب العيون والحدائق ان القواد والامراء الذين شهدوا فتح عمورية كانوا نحو سبعين(٤١) • فاذا ما أخذنا بنظر الاعتبار ان القائد يرأس ألف جندي ، فان عدد المشتركين في الحملة سبعون ألف جندي مرتزق ، أي نظامي • ويمكن القول على ضوء ما ذكر ان عدد افراد الحملة لم يكن يقل عن مائة ألف جندي نظامي ، يضاف اليهم المتطوعة والمجاهدون •

٣ ـ أهم الحروب الحدودية :

كانت الحروب على الحدود العربية البيزنطية سجالا بين الطرفين ، ينال العرب من العدو ، وينال العدو منهم • والذي يلفت النظر في هذه الحروب كثرة عدد أسرى العرب لدى الروم ، وقد يكون سبب ذلك كثرة هجمات العرب وغزواتهم على الثغور والحصون الرومية • يقول المقريزي «ولكثرة هجوم أساطيل العرب على بلاد العدو ، فانها كانت تسير من مصر والشام ومن أفريقية ، فلذلك احتاج الخلفاء الى الفداء»(٤٢) • والواقع ان كثرة الهجمات العربية لم تقتصر على البحر فقط بل كانت في البر أكثر •

ويلاحظ ان أكثر الغزو كان يقع في الربيع والصيف ، لان الشتاء في بلاد الروم قارس البرد كثير الثلوج ، وذلك مما لم يعتد عليه العرب • ويظهر ان حرب عمورية قد ارهقت الروم وانهكتهم،

---

(٤٠) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٦ •
(٤١) العيون والحدائق ٣/٣٩٨ •
(٤٢) الخطط المقريزية ٢/١٩١ •

فلم يعد باستطاعتهم ان يثأروا لها طيلة أيام الواثق بالله · كما ان الواثق بـــالله نفسه لم تراوده فكـــرة اســـتثمار ضعف الدولة البيزنطية ، ولم يكن له أي طموح عسكري فساد السلام على الحدود بين الدولتين في عهده ، مما أفسح المجال لمفاداة الاسرى بين الطرفين، فتم فداء سنة ٢٣١هـ الذي عرف بفداء خاقان الخادم ·

ويظهر ان العرب استشعروا ضعف الروم ، ولما انقضت مدة الاربعين يوما ، وهي مدة الهدنة التي حددت للمفادات ، غزا الامير أحمد بن سعيد بن مســـلم الباهلي · الا ان التوفيق لم يحالفه اذ اصاب جيشه الثلج والمطر فمات من جنده حوالي المائتين ، وغرق منهم في نهر البرندون عدد آخر وأسر منهم آخرون ، بحيث خسرت الحملة زهاء الخمسمائة رجل · وكان الروم قد تجمعوا لصد الحملة بعدد كبير مما اضطر الامير أحمد بن سعيد على التراجع مكتفيا بما غنمه من قطعان البقر والماشية · فغضب الخليفة الواثق بالله عليه وعزله(٤٣) · وهذا يؤيد ما قلنـــاه من ان الواثق بالله كان يؤثر ان يسود السلام أرجاء الدولة العربية ·

وعندما عين الأمـــير علي بن يحي الأرمني أمـــيرا على الثغور الشامية اخذ يخرج لغزو الصوائف· فخرج في سنة ٢٣٧هـ، واستمر في قيادة صوائف السنتين التاليتين · ويبدو ان الغرض من خروجه سنويا كان لأرهاب العدو ومنعـــه من التعرض للثغور العربية · ويقول أبو المحاسن عن غزوة علي بن يحي في سنة ٢٣٩هـ انه أوغل في بلاد الروم حتى شارف القسطنطينية ، واحرق ألف قرية ، وقتل عشرة آلاف علج ، وسبي عشرين ألفا ، وعاد سالما غانما(٤٤) ·

وهاجم الروم في يوم عرفة من سنة ٢٣٨هـ السواحل المصرية ، وكان والي مصر عنبسة بن اســـحاق أراد طهور ولديه يوم العيد

---

(٤٣) الطبري ٩/١٤٤ـ١٤٥ ·
(٤٤) النجوم الزاهرة ٢/٣٠٠ ·

الاضحى حتى يجمع بين العيد والفـــرح ، واحتفل لذلك احتفالا كبيرا واحضر جميع من كان من الجنـــد في الثغور المصرية ، تنيس ودمياط والاسكندرية ، ليشاركوا في الاحتفال ، فخلت تلك الثغور من حامياتها • ويبدو ان اســـطول الروم في البحر المتوسط اغتنم الفرصة فجـــاءت ثلاثمائة سفينة من سفنه مشحونـــة بالمقاتلين وهاجمت ثغر دمياط في صباح يوم عرفـــة ودخلوا المدينة دون ان يلقوا مقاومـــة ، سوى ان أحد المحبوسين يقال له أبوجعفـــر بن الأكشف ، وكان من وجوه المدينة وقـــد حبسه عنبسة مقيدا ، قد أخرجه بعض أعوانـــه من السجن ، فقاتل بهـــم الروم فهزمهم واخرجهم من دمياط • الا ان الروم كانوا قد احرقوا بعض دور المدينة ، واستولوا على الاسلحة وقتلـــوا كثيرا من الرجال العزل وسبوا نحوا من ستمائة امرأة ، ويقـــال ان المسلمات منهن مائة وخمس وعشرون ، والبقية من نساء القبط • كما استحوذوا على الاموال التي كانت قد وضعت لتحمل الى العراق كالقند والكتان • وكان عـــدد الروم الذين نزلوا المدينة زها خمســـة آلاف رجل ، فاوقروا سفنهم من المتاع والأمـــوال والنساء ، واحرقوا المسجد الجامع والكنائس في المدينـــة ، وكان من غرق في بحيرة دمياط من النساء والصبيان أكثر مما سباه الروم(٤٥) •

ولما بلغ عنبسة نبأ هجوم الروم على دمياط نفر اليها بعد النحر في جيشه فلم يدركهم لأنهم كانوا قد مضوا الى مدينة تنيس ونزلوا في اشتومها وهو الموضع الذي يصب فيه النيل في البحر المتوسط • وكان لها سور له بابان من الحديد كان المعتصم بالله قد امر بعمله • فخربوا السور واحرقوا مـــا في الحصن من المجانيق والعرادات ، وأخذوا بابيه الحديد وحملوهما معهم(٤٦) • وكان أحد شعراء مصر

---

(٤٥) راجع عن مهاجمة الروم دمياط : الطبري ٩/١٩٣ـ١٩٥ ، والكامل ٧/٦٨ـ ٦٩ وفيه اسم ابن الاكشف يسر ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٩١ـ٢٩٥ •

(٤٦) الطبري ٩/١٩٤ـ١٩٥ ، والكامل/٦٩ •

وهو يحي بن الفضيل نظم شعرا يستنهض به همة الخليفة ويستثيره، ويعيب على الوالي تهاونه ، اذ قال(٤٧) :

أترضى بأن يوطأ حريمك عنوة	وان يستباح المسلمون ويحربوا
حمار اتى دمياط والروم وثب	بتنيس رأى العين منه وأقرب
مقيمون بالأشتوم يبغون مثل ما	أصابوه من دمياط والحرب ترتب
فما رام من دمياط شبرا ولا درى	من العجز ما ياتي وما يتجنب
فلا تنسانا بدار مضيعة	بمصر وان الدين قد كاد يذهب

فأمر المتوكل على الله ببناء حصن دمياط ، فتولى عمارته عنبسة بن اسحاق وانفق فيه أموالا طائلة • وقد دفع هجوم الروم على دمياط وتنيس الخليفة الى الاهتمام بانشاء اسطول بحري في مصر ليؤمن صد الهجمات البحرية التي قد تقع عليها • فانشأ عنبسة أول اسطول حربي لمصر ، وبنى المواني للسفن الحربية • وجعل الارزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر • وانتخب له القواد العارفين بمحاربة العدو في البحر • وكان لا يستخدم في الاسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب ، فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية وفنون الحرب البحرية • وصار للعاملين في الاسطول حرمة ومكانة ، بحيث صار كل واحد من الناس يرغب في ان يعد من جملتهم ويسعى الى ذلك بكل الوسائل(٤٨) •

واغار الروم في سنة ٢٤١هـ على عين زربة فاسروا من كان فيها من الزط مع نسائهم وأطفالهم وجواميسهم وبقرهم(٤٩) ، وكان المعتصم بالله نقلهم اليها عندما قضى على تمردهم في سنة ٢٢٠هـ •

---

(٤٧) الخطط المقريزية ١/٢١٤ ، وكتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٠١ وفيه اسمه يحي بن الفضل •

(٤٨) الخطط المقريزية ٢/١٩١ •

(٤٩) الطبري ٩/٢٠١ ، والكامل ٧/٨٠ •

وكان قد جرى في هذه السنة ، أي ٢٤١ هـ ، فداء بين العرب والروم، وعندما انتهت مدة هدنة الفداء هاجم الروم في السنة التالية ثغر شمشاط(٥٠) ، بعد خروج علي بن يحي من الصائفة وتقدموا حتى قاربوا مدينة آمد • وكان دخولهم من ناحية أبرق شمالي ملطية ، ثم اتجهوا الى الثغور الجزرية فانتهبوا عدة قرى وأسروا نحو عشرة آلاف رجل • فتبعهم عمر بن عبدالله الأقطع ومعه عدد كبير من المتطوعين فلم يلحقوا بهم ، لأنهم كانوا قد انصرفوا الى بلادهم ، فأمر الخليفة المتوكل على الله علي بن يحي ان يسير الى بلادهم شاتيا(٥١) •

وحينما كان المتوكل على الله في دمشق في سنة ٢٤٤هـ وجه القائد بغا لغزو الروم ، فغزا الصائفة وافتتح صملة وعاد غانما(٥٢) • كما خرج علي بن يحي لغزو الصائفة في السنة التالية ، الا ان الروم كانوا بنفس الوقت قد أغاروا على سميساط فقتلوا وسبوا نحوا من خمسمائة انسان • وبعث ملك الروم الى أهل حصن لؤلؤة بطريقا يقال له لغنيط(٥٣) ، يضمن لكل رجل منهم ألف دينار اذا ما سلموه الحصن ، فقبضوا عليه وسلموه الى القائد التركي بلكاجور فحمله الى أمير الثغور علي بن يحي ، فبعث به الى الخليفة ، وكتب ملك الروم يبذل مكانه ألف رجل من أسرى العرب(٥٤) •

وشهدت سنة ٢٤٦هـ عدة غزوات عربية قام بها عدد من القواد • فقد غزا عمر بن عبدالله الأقطع الصائفة وعاد بسبعة آلاف أسير(٥٥) • وغزا قربياس وعاد بخمسة آلاف أسير ، وغزا الفضل بن

---

(٥٠) الطبري ٢٠٧/٩ ، والكامل ٨١/٧ وفيه انهم هاجموا سميساط •
(٥١) الطبري ٢٠٧/٩ ، والكامل ٨١/٧ •
(٥٢) الطبري ٢٠٩/٩ •
(٥٣) يقول ابن حوقل ان اللغنيط هو الوزير ــ صورة الارض/١٧٨ •
(٥٤) الطبري ٢١٨/٩ ، والكامل ٨٩/٧ •
(٥٥) في الكامل سبعةعشر الفا •

قارن بحرا في عشرين مركبا وافتتح حصن انطاكية على الساحل الجنوبي لبلاد الروم ، كما غزا علي بن يحيى فعاد بخمسة آلاف أسير ومن الدواب بعشرة آلاف رأس ، وغزا بلكاجور فغنم وسبا أيضا(٥٦) • فكان موسم الغزو العربي في هذه السنة مفعما بالمغانم والانتصارات الموضعية •

ولما تولى المنتصر بالله الخلافة اخرج القائد وصيفا على رأس جيش قوامه أثنى عشر ألف رجل عدا المتطوعين ، لرد هجوم رومي مزعوم ، فنزل ملطية وغزا الصائفة فدخل بلاد الروم وافتتح حصن فردرية(٥٧) •

وغزا الصائفة في سنة ٢٤٩هـ القائد جعفر بن دنيار فافتتح حصنا ، واستأذنه عمر الأقطع أمير ملطية في المصير الى ناحية الروم فاذن له ، فسار عمر ومعه جيش كثير العدد فتوغل في بلاد الروم ، فتصدى له ملك الروم في جيش يزيد على خمسين ألف مقاتل فاحاطوا بالحملة العربية ، فقتل الأقطع مع ألف رجل من جيشه • وتقدم جيش الروم نحو الثغور الجزرية وتغلب عليها • فبلغ ذلك الأمير علي بن يحيى الذي قد نقل الى الولايـة على أرمينية واذربيجان ، فبادر الى مساعدة جيش ابن الأقطع واشتبك بجيش الروم ، فقتل مع أربعمائة من أصحابه • وكان هذان القائدان الأقطع والأرمني من أبرز القادة الشجعان ، ويصفهما الطبري انهما كانا نابين من أنياب المسلمين ، وكان الروم يرهبون جانبهما • ولذا كان مقتلهما، وهما في ميدان الجهاد ، خسارة كبيرة أصيب بها الجيش العربي ، مما كان له صدى قويا في مختلف أرجاء الدولة العربية ، وبخاصة في حاضرتها سامرا وفي مدينة السلام • اذ شق الأمر على الناس وعظم عليهم فقدهما ، مع حنقهم الشديد على القواد الاتراك

---

(٥٦) الطبري ٩/٢١٩ ، والكامل ٧/٩٣ •
(٥٧) الطبري ٩/٢٦٠ ، والكامل ٧/١١٩ •

واستفضاعهم معاملتهم الخلفاء ، اذ صاروا يستخلفون من يحبون استخلافه ولا يحدوهم في ذلك غــير مصالحهم الخاصة دون رعاية لشؤون الدين أو مصالح الامة · فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير · وانضم اليهم الجند من الانباء والشاكرية بحجة مطالبتهم بارزاقهم ، ففتحوا السجون واخرجوا من فيها ، واحرقوا أحد جسري المدينة وقطعوا الآخر · أما في سامرا فقد وثب جمع كبير من الناس ففتحوا السجن واخرجوا من فيه ، ولما حاولت قوة من الجند تشتيتهم وثب بهم العامة واتسع نطاق شغبهم · فخرج كبار قواد الأتراك : وصيف وبغا واوتامش ، على رأس جنودهم وقتلوا من العامة جماعة · ولما رمي وصيف بحجر أمر النفاطين فقذفوا حوانيت التجار ومنازل الناس بالنـار ، وانتهبـوا بعض المنازل والحوانيت · فاستثارت هذه الحوادث حمية بعض أهل اليسار من سامرا وبغداد فاخرجوا أموالا كثـــيرة وفرقوها فيمن ينهض الى الثغور لحرب الروم ، فاقبل المتطوعون من نواحي مختلفة من أرجاء الدولة(٥٨) ·

ويظهر ان الدولة العربية لم تكن مستعدة لتوجيه جيش لحرب الروم في تلك المدة ، وذلك لاضطراب شــؤون الخليفة المستضعف المستعين بالله بسبب النزاع القائم بــين القواد الاتراك من جهة والخليفة والقائد المتسلط أوتامش من جهة أخرى والذي انتهى بقتل أوتامش وازدياد ضعف مركز الخلافـــة ، ولهذا لم يستطع الخليفة ان يستفيد من حماس الناس ويوجههم لحرب العدو · وفي هذا يقول الطبري «فلم يبلغنا انـــه كان للسلطان فيما كان من الروم الى المسلمين من ذلك تغيير ، ولا توجيه جيش اليهم لحربهم في تلك الايام»(٥٩) ·

---

(٥٨) راجع عن حوادث الشغب المذكورة : الطبري ٩/٢٦١ـ٢٦٣ ، والكامل ٧/ ١٢١ـ١٢٣ ·

(٥٩) الطبري ٩/٢٦٢ ·

على ان القائد بلكاجور استطاع أن يغزو في صيفين متتاليين في السنتين التاليتين ويستولى على بعض الحصون ويأسر جماعة من الروم(٦٠) ٠

ان انقسام الخلافة العباسية في عهد المستعين بالله وقيام خليفتين في وقت واحد ، ونشوب الحرب بين سامرا وبغداد ، وماتبع ذلك من مشاكل داخلية وازدياد نفوذ القواد الاتراك ، واشتداد الصراع بينهم وبين الخلفاء ، ثم قيام ثورة الزنج واستفحالها ٠ كل ذلك أدى الى انشغال الدولة عن الثغور العربية فضعفت حامياتها ، ولم تعد متحمسة للغزو والقتال ٠ بحيث انه لما غزا محمد بن معاذ من ناحية ملطية في سنة ٢٥٣ وقع أسيرا بيد الروم وهزم جيشه(٦١) ٠ وتلت هزيمته واسره مدة هدوء على الحدود العربية ـ الرومية ٠ الا ان انهماك الجيش العربي داخليا في اخضاع ثورة الزنج في عهد المعتمد على الله شجع الروم على اغتنام الفرصة ، فارسل باسيل الأول ، مؤسس الاسرة المقدونية في بلاد الروم ، جيشا كبيرا ليقوم بهجوم واسع على طول حدود الدولة العربية الفاصلة بينها وبين مملكته ٠ وقد استطاعت احدى الحملات أن تستولى على سميساط في سنة ٢٥٩هـ ، ثم حاصرت ملطية ، الا ان أهلها استطاعوا رد المهاجمين ، وقتلوا قائد الحملة(٦٢) ٠

وفي سنة ٢٦٣هـ سلمت حامية لؤلؤة من الصقالية الحصن الى الروم(٦٣) ٠ ويعزو ابن الاثير ذلك الى والى طرسوس القائد التركي ارخوز بن يولغ بن طرخان ، وكان غرا جاهلا فاساء السيرة في أهل الثغر وأخر عن حامية لؤلؤة ارزاقهم وميرتهم ، فضجوا من ذلك وكتبوا الى أهل طرسوس يشكون منه ويهددون بتسليم القلعة الى

---

(٦٠) الطبري ٢٧٧/٩ و ٣٢٧ ، والكامل ١٦٤/٧ ٠
(٦١) الطبري ٣٧٧/٩ ، والكامل ١٨٣/٧ ٠
(٦٢) الطبري ٥٠٦/٩ ، والكامل ٣٦٧/٧ ٠
(٦٣) الطبري ٥٣٢/٩ ٠

الروم اذا لم تصلهم ميراتهم وأرزاقهم • فعظم ذلك على أهل طرسوس فبادروا الى جمع مبلغ خمسة عشر ألف دينار من بينهم وسلموها الى ارخوز ليحملها الى أهل لؤلؤة فأخذها لنفسه • فلما أبطأ المال على أهل لؤلؤة سلموا القلعة الى الروم • ولما اتصل الخبر بالخليفة المعتمد على الله اضاف ولاية طرسوس الى امارة احمد بن طولون ليقوم بأمرها وأمر الحصون التابعة لهم ، وليغزو الروم منها(٦٤) •

وغزا في السنة التالية عبدالله بن رشيد بن كاوس عامل الثغور في أربعة آلاف رجل من أهل الثغور الشامية ، فدخل بلاد الروم فقتل وسبى وغنم • ولما رحل عائدا احاط به ثلاثة من بطارقة الروم بجيوشهم ، فقاتلهم باتباعه فقتل أكثرهم وتمكن الروم من أسره بعد اصابته بعدة طعنات ، فحمل الى ملك الروم • ولم يلبث في الأسر الا قليلا ، اذ ان الروم شعروا بقوة ابن طولون المتنامية وشدته في منازلتهم ، فبعث ملكهم بعبدالله بن رشيد وعدد من الاسرى وانفذ معهم عددا من المصاحف المذهبة هدية اليه(٦٥) •

ويظهر ان اناطة امارة الثغور بأمير مصر أحمد بن طولون أعاد الحماس الى حامياتها والمتطوعة فيها • فاخذت غزواتهم تترى سنة بعد أخرى فيغنمون ويعودون • فقد غزا سيما الخادم عامل ابن طولون على الثغور الشامية في سنة ٢٦٦هـ في ثلاثمائة رجل من أهل طرسوس ، فخرج عليهم نحو أربعة الآف من الروم فاقتتلوا قتالا شديدا قتل فيه خلق كثير من العدو وأصيب آخرون ، الا ان قسما من جيش الروم وصل الى ديار ربيعة شمالي الجزيرة غربي نهر دجلة ، فقتلوا وأسروا نحوا من مائتين وخمسين شخصا • فنفر اليهم بعض رجال الموصل ونصيبين ، ففر الروم راجعين(٦٦) •

---

(٦٤) الكامل ٧/٣٠٨-٣٠٩ •
(٦٥) الطبري ٩/٥٤٥ ، والكامل ٧/٣٢٨ •
(٦٦) الطبري ٩/٥٤٩ ، والكامل ٧/٣٣٢ •

وغزا في سنة ٢٦٨هـ خلف الفرغاني عامل ابن طولون ، من ناحية الثغور الشامية فقتل من الروم بضعة عشر ألفا ، وغنم من الأموال كثيرا ، بحيث بلغ سهم المحارب منها أربعين دينارا(٦٧) •

ولما أغار ملك الروم المعروف بابن الصقلبية واناخ على ملطية في نفس السنة المذكورة ، بادر أهل مرعش والحدث الى نجدتها ، وارغموا الجيش الرومي على الفرار(٦٨) •

وحاول الروم في سنة ٢٧٠هـ القيام بهجوم واسع على الثغور العربية • فتقدم بطريق البطارقة اندرياس على رأس جيش يربو عدده على مائة ألف مقاتل ، فنزل على قلمية ، وهي على بعد ستة أميال من طرسوس • فخرج اليه القائد يازمان عامل ابن طولون على الثغور وكمن لجيش الروم وأوقع به هزيمة منكرة وأصابه بخسائر جسيمة جدا ، اذ يقال انه كبده سبعين ألف قتيل ، منهم عدد من البطارقة وكبيرهم بطريق البطارقة ، وغنم العرب غنــائم لا تحصى • فقد اخذوا لهم سبعة صلبان ذهب وفضة مع صليبهم الاعظم من الذهب المكلل بالجوهر • واستحوذوا على خمسة عشر ألف دابة ومن السروج نحــو ذلك ، واستولوا على سيوف محــلاة بالذهب والفضة ، واربعة كراس من ذهب ومائتي كرسي من فضة ، ومائتي طوق ذهب ، ونحو عشرة آلاف علــم ديباج ، وغير ذلك كثير(٦٩) • ويعتبر هذا أعظم انتصار للجيش العربي على الروم بعد عمورية • ثم غزا يازمان القائد في سنة ٢٧٥هـ بحرا وهزم الروم وغنم منهم أربعة مراكب(٧٠) • ويقول ابن خلدون ان يازمان غزا بالصائفة

---

(٦٧) الطبري ٩/٦١٢ ، والكامل ٧/٣٧٣ •

(٦٨) نفس المصدرين السابقين •

(٦٩) الكامل ٧/٤٠٦ـ٤٠٧ ، والمنتظم ٥/٧٠ـ٧١ ، وتاريخ ابن خلدون ٣/٧١٠ وجاء اسم القائد في الكامل : بازمار •

(٧٠) الكامل ٧/٤٣٣ ، والمنتظم ٥/٩٤ •

أيضا وتوغل في أرض الروم وقتل وسبي وأسر وغنم وعاد الى طرسوس(٧١) .

وعندما خرج يازمان للغزو في سنة ٢٧٩هـ وصل الى «شكند» ، فاصابته شظية من حجر منجنيق في اضلاعه ، فارتحل عائدا بعد أن أوشك على الاستيلاء عليها ، فتوفي في الطريق ، فحمل الى طرسوس فدفن فيها(٧٢) . وكانت هذه آخر غزوه خرجت الى بلاد الروم من الثغور العربية في عهد الخلفاء العباسين في سامرا .

---

(٧١) تاريخ ابن خلدون ٣/٧١١ .

(٧٢) الكامل ٧/٤٤٩ ، وتاريخ ابن خلدون ٣/٧١١ وسمى المدينة : اسكندا .

الفصل الثاني

المفاداة بين العرب والروم

١ ـ فداء سنة ٢٣١هـ :

لعل أهم الاحداث التي جرت مع الروم في عهد الواثق بالله هي عملية الفداء التي تمت في سنة ٢٣١هـ ٠ وتعتبر هذه المفاداة الثالثة التي تمت منذ تولى العباسيون حكم الدولة العربية(١) ٠ فقد قدم على الخليفة بسامرا وفد من ملكة الروم تيودورة الوصية على ابنها ميخائيل بن توفيل ، يفاوض في فداء أسرى الروم بمن في أيديهم من أسرى العرب ، فاجاب الخليفة بالموافقة(٢) ٠ وقد جرت بين الوفد البيزنطي والوزير محمد بن عبدالملك الزيات مفاوضة للاتفاق على شروط المفاداة ٠ وكان رسل الروم قد اشترطوا ان لا يأخذوا في الفداء امرأة عجوزا ولا شيخا كبيرا ولا صبيا ، واستمرت المفاوضة عدة أيام الى ان اتفق الطرفان على أن يكون الفداء على أساس كل نفس بنفس(٣) ٠

---

(١) تم الفداءان الاول والثاني في عهد هارون الرشيد ـ التنبيه والاشراف/١٦١ ويقول الطبري ٩/١٤٢ ان اخر فداء قد تم في عهد محمد الامين ٠

(٢) الطبري ٩/١٤١ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٢ ، وتجارب الامم ٦/٥٣٢ ٠

(٣) الطبري ٩/١٤٢ ، وتجارب الامم ٦/٥٣٣ ٠

وكان الخليفة قد بعث الى بلاد الروم من يتعرف على عدد أسرى العرب هناك ، فكان عددهم ثلاثة آلاف رجل وخمسمائة امرأة(٤) • وكان عدد أسرى الروم أقل من ذلـــك ، فأمر الواثق بالله بشراء الرقيق والاسرى الروم من سامرا وبغداد وغيرهما . فاشتري من وجد منهم ، فلم يتم العدد المطلوب فتبرع الخليفة فاخرج من كان في قصره من النساء الروميات العجائز وغيرهن حتى تم العدد(٥) •

وعقد الخليفة لأحمد بن سعيد بـــن مسلم الباهلي على ولاية الثغور والعواصم وأمره ان يحضر عملية الفداء ، وبعث معه خاقان الخادم الذي عرف هذا الفداء بأسمه باعتباره ممثل الخليفة • كما حضر أحد الخبراء بالشؤون الرومية هو مسلم الجرمي ، وكان ذا معرفة بأهل الروم وأرضها ، وله مصنفات في اخبارهم وملوكهم وبلادهم وطرقها ومسالكها ، وأوقات الغزو والغارات عليها(٦) • كما وجه باثنين من أصحاب القاضي ابن ابي دواد ، أي من المعتزلة، هما يحي بن آدم الكرخي ويكنى بابي رملـــة ، وجعفر بن محمد الحذاء • وبعث معهما كاتبا يدعى طالب بن داود ، وامرهم بامتحان الاسرى العرب وقت المفاداة ، فمن قال بخلق القرآن وان الله لا يرى يوم القيامة ، فودي به واعطى دينارا واحدا ، ومن لم يقل بذلك ترك في أيدي الروم(٧) •

ولما كان يوم عاشوراء من سنة ٢٣١هـ اجتمع العرب ومعهم أسرى الروم ، واتى الروم ومعهم الاسرى العرب • وحضر المفاداة عدد كبير من العرب من جند ومتطوعة ، ويقدر اليعقوبي عددهم

---

(٤) الطبري ١٤٢/٩ •
(٥) الطبري ١٤٢/٩ ، وتجارب الامم ٥٣٢/٦ ، والكامل ٢٤/٧ •
(٦) التنبيه والاشراف/١٦٢ •
(٧) الطبري ١٤٢/٩ ، وتجارب الامم ٥٣٢/٦ ، وتاريخ اليعقوبي ٤٨٢/٢ وفيه، دفع لمن فودي به ديناران وثوبان •

بسبعة آلاف رامح سوى من ليس معه رمح[٨] • ويظهر ان تقديره لا يخلو من المبالغة ، اذ يقدر الطبري عـــدد الحاضرين بأربعة آلاف فارس وراجل[٩] • فخاف الروم لقلتهـــم وكثرة العرب ، فأمنهم خاقان الخادم وضرب لهم أربعين يوما هدنة لا يقوم العرب خلالها بغزوهم ، حتى تتسنى لهم العودة الى بلادهم[١٠] •

وتمت عملية المفاداة على نهـــر اللامس على بعد مرحلتين من طرسوس • وكان النهر يفصل بين الطرفين ، فوقف العرب من جانبه الشرقي ، والروم من الجانب الغربي • وكان العرب يطلقون الأسير من الروم ، فيطلق الروم أسيرا من العرب ، فيلتقيان في وسط النهر وكان مخاضة يعبره الاسرى • وقيل كان على النهر جسر ، كما قيل كان عليه جسران احدهما للعرب والآخر للروم • فيأتي كل منهم الى أصحابه فاذا وصل الأسير العربي كبر العرب ، واذا وصل الاسير الرومي استقبله الروم بالصـــياح ، حتى فرغوا من الفداء[١١] • ويقول ياقوت الحموي ان اللامس قرية على شاطيء بحر الروم من ناحية طرسوس ، كان فيها الفداء بين العرب والروم ، يقدم الروم في البحر فيكونون في سفنهم ، والعرب في البر ، فيتم الفداء ، ويؤيده ابن حوقل في ذلك[١٢] •

استغرقت عملية الفداء بين العرب والروم أربعة أيام[١٣] • أما عدد من فودي بهم من الاسرى العـــرب ومن كان معهم من أهل الذمة ، فقد تراوح بين خمسمائة رجل وسبعمائة امرأة على ما ذكره

---

(٨) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٢ •
(٩) الطبري ٩/١٤٣ •
(١٠) الطبري ٩/١٤٤ •
(١١) الطبري ٩/١٤٣-١٤٤ ، وتجارب الامم ٦/٥٣٣ ، والكامل ٧/٢٤ •
(١٢) معجم البلدان ٥/٨ ، وصورة الارض/١٨٣ •
(١٣) الطبري ٩/١٤٤ ، والتنبيه والاشراف/١٦١ ، وفيه انها استغرقت عشرة أيام •

اليعقوبي ، وبين اربعة آلاف وستمائة انسان بما فيهم من أهل الذمة على ما جاء في تاريخ الطبـــري والتنبيه والاشراف وتجارب الامم والكامل(١٤) • ويبدو ان اليعقوبي متحفظ جدا في تقدير عدد من تم افتداؤهم ، لاسيما اذا أخذنا بنظـــر الاعتبار عدد من احصي من أسرى العرب في بلاد الروم قبل عملية الفداء • ويقدر ابن خلدون عدد الذين فودي بهـــم من العرب باربعة آلاف وأربعـــة وستين ، والنساء والصبيان بثمانمائة ، واهـــل الذمة بمائة(١٥) • ويقول الطبري ان خاقان الخادم استفرغ جميع من كان في بلد الروم من الاسرى العرب ممن علم موضعه ، وانه أعطى صاحب الروم ممن كان قد فضل في يده من أسرى الروم مائـــة نفس ، ليكون عليهم الفضل استظهارا مكان من يخشى أن يأسروه من المسلمين الى انقضاء المدة ، ورد الباقين الى طرسوس فباعهم(١٦) •

٢ ـ فداء سنة ٢٤١ :

يعتبر هذا الفداء الرابع حسب ما يقول المسعودي • ويفهم مما جاء في الطبري عنه ان الملكة تيودورة الوصـــية على ابنها ميخائيل الثالث ، وجهت في هذه السنة الى الخليفة المتوكل على الله أحد رجالها المدعو قرياقس تطلب مفاداة من في أيدي الروم من أسرى العرب • فوجه المتوكل على الله في شعبان نصر بن الازهر بن المفرج المعروف بالشيعي ، ليعرف عدد الاسرى في بـــلاد الروم ، لكي يتدبر امر مفاداتهم • ويقال ان تيودورة ، بعد خروج نصر من بلادها ، أمرت بعرض النصرانيـــة على أسرى المسلمين فمن تنصر منهـــم بقي في

---

(١٤) الطبري ١٤٣/٩ ، وتـــاريخ اليعقوبي ٤٨٢/٢ ، وتجارب الامم ٥٣٢/٦ ، والتنبيه والاشراف/١٦١ ، والكامل ٢٤/٧ •

(١٥) تاريخ ابن خلدون ٥٧٧/٣ـ٥٧٨ •

(١٦) الطبري ١٤٣/٩ـ١٤٤ •

بلادها ، ومن ابى قتلته ، وذكر انهـــا قتلت اثني‌عشر ألفا لانهم رفضوا الدخول في النصرانية ٠

وكتب الخليفة الى عمال الثغور الشامية والجزرية ان خادمه شنيفا قد فاوض الروم واتفق معهم على هدنة أمدها ثلاثة أشهر ليقوم كل من الطرفين بجمع الاسرى الذين لديه ٠ وعندما انتهت المدة اجتمع الطرفان على نهر اللامس أيضا في الثاني‌عشر من شوال، وتم الفداء بينهما ٠ وكان عـــدد من فودي به من الاسرى العرب خمسا وسبعين وثمانمائة انسان ، منهـــم خمس وعشرون ومائة امرأة[١٧] ٠ ولا يختلف ما ذكره ابن الاثير عن هذا الفداء عما جاء في الطبري سوى قوله ان الملكة تيودورة ارسلت تطلب المفاداة بمن بقي من أسرى العرب بعد ان قتلت من لم يدخل في النصرانية منهم ، وان قاضي القضاة جعفر بن عبدالواحد الهاشمي طلب ان يحضر عملية الفداء فأذن له[١٨] ٠

أما المسعودي فانه لا يذكر موضـــوع عرض النصرانية على المسلمين وقتل من لم يتنصر منهم ، كما انه يختلف في عدد من فودي به من الاسرى العرب ، ويقول كان عددهم مائتين وألفين من الرجال ومائتين من النساء ، كما يذكر انه كان في الاسرى بعض النصارى المأسورين من دار الاسلام بلغ عددهم مائة رجل ونيف ، فعرضوا مكانهم عدة اعلاج لأن الفداء لا يقـــع على نصراني[١٩] ٠ ويؤيده المقريزي ما ذكره المسعودي[٢٠] ، واحسب انه نقله عنه ٠

وذكر اليعقوبي هذا الفداء باختصار ، فلم يذكر عدد من فودي به من أسرى العرب ، كما انه لم يشر الى الاسرى من النصارى ٠ فهو

---

(١٧) الطبري ٩/٢٠٢-٢٠٣ ٠
(١٨) الكامل ٧/٧٦ ٠
(١٩) التنبيه والاشراف/١٦٢ ٠
(٢٠) الخطط المقريزية ٢/١٩١ ٠

يذكر ان ملك الروم وجه برسل وبعض الهدايا يطلب المفاداة ، وقد بعث له باضعافها • ويشير الى انه قد حمل من كل بلد فيه من أسرى الروم ، واشتري عبيد النصارى(٢١) • مما يدل على ان عدد اسرى الروم لدى الدولة العربية كان قليلا •

مما يلفت النظر في هذه الروايات التي ذكرناها عن هذا الفداء الاختلاف الكبير في عدد من فودي بهم بين ما ذكره الطبري وما ذكره المسعودي • ثم اذا كانت ملكة الروم قد ابقت في بلادها من تنصر من الأسرى وقتلت من رفض التنصر ، فانه لم يعد هناك من ينادى به من الاسرى العرب ، مما يستدل منه ان الرواية مبالغ فيها وتنقصها الدقة • وتتضمن رواية ابن خلدون وضوحا أكثر ، وهي أحرى بالقبول ، اذ يقول: وكانت تدورة ملكة الروم حملت اسرى المسلمين على التنصر ، فتنصر الكثير منهم ، ثم طلبت المفاداة فيمن بقي منهم على الاسلام(٢٢) •

٣ ـ فداء سنة ٢٤٦هـ :

وهو الفداء الخامس على قـــول المسعودي ، وقد تم في خلافة المتوكل على الله أيضا • يقول الطبري عن هذا الفداء ان ملك الروم ميخائيل بن توفيل بعث الى الخليفة رسولا يدعى أطروبيليس ومعه سبعة وسبعون رجلا من أسرى المسلمين أهداهم الى الخليفة • فانزل الرسول على شنيف الخادم • ثم وجه المتوكل على الله نصر بن الازهر الشيعي مع رسول ملك الروم ، فشخص في هذه السنة للمفاوضة مع ملكها على الشروط التي يتم الفداء بموجبها •

وقد وصف ابن الازهر مقابلتــه ملك الروم وتقديمه هدايا الخليفة اليه ، واتفاقه حول شروط المناداة ، وصفا طريفا نقتطف

(٢١) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٠ـ٤٩١ •
(٢٢) تاريخ ابن خلدون ٣/٥٨٧ـ٥٨٨ •

منه ما يأتي «لما صرت الى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك بسوادي وسيفي وخنجري وقلنسوتي ، فجرت المناظرة بيني وبين خال الملك بطرناس (وهو بادراس اخـــو تيودورة أم الملك ، وقد صار وصيا عليه) وكانوا قد أبوا ان يدخلوني بسيفي وسوادي ، فقلت : انصرف ، فانصرفت • فرددت من الطريق ومعي الهدايا ، منها نحو ألف نافجة من المسك ، وثياب حرير ، وزعفران كثير ، وطرائف ••• وحملت الهدايا معي ، فدخلت عليه ، فاذا هو على سرير فوق سرير ، واذا البطارقة حوله قيام • فسلمت وجلست على طرف السرير الكبير ، وقد هيء لي مجلس ، ووضعت الهدايا بين يديه • وبين يديه ثلاثة تراجمة : غلام فراش كان لمسرور الخادم ، وغلام لعباس بن سعيد الجوهـــري ، وترجمان له قديم يقال له سرحون • فقالوا لي : ما تبلغه ؟ قلت : لا تزيدون على ما أقول لكم شيئا • فاقبلوا يترجمون ما أقول • فقبل الهدايا ولم يأمر لأحد منها بشيء • وقربني وأكرمني ، وهيأ لي منزلا بقربه • فخرجت فنزلت في منزلي ••• فراجعوا في مخاطبتي ، وانقطع الأمر بيني وبينهم في الفداء على ان يعطوا جميع من عندهم من الاسرى وهم اكثر من ألفين منهم عشرون امرأة ومعهن عشرة من الصبيان ، وأعطي جميع من عندي وكانوا أكثر من ألف قليـــلا ، فاجابوني الى المحالفة • فاستحلفت خاله فحلف عن ميخائيل ، فقلت : أيها الملك ، قد حلف لي خالك ، فهذه اليمين لازمة لك ؟ فقال برأسه نعم • ولم اسمعه يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم الى أن خرجت منها • انما يقول الترجمان وهو يسمع فيقول برأسه نعم أولا ، وليس يتكلم ، وخاله المدبر أمره • ثم خرجت من عنده بالاسرى بأحسن حال • حتى اذا جئنا موضع الفداء ، أطلقنا هؤلاء جملة وهؤلاء جملة • وكان عداد من صار في أيدينا من المسلمين أكثر من الفين ، منهم عدد ممن كان تنصر ، وصار في أيديهم اكثر من ألف قليلا ••»(٢٣) •

---

(٢٣) الطبري ٩/٢١٩-٢٢٠ •

وقد تم هذا الفداء في صفر من سنة ٢٤٦ ، وقيل انه تم في جمادي الأولى ، وذلك على يد الأمير علي بن يحى الارمني • وكان عدد من فودي بهم ألفين وثلاثمائة وسبعة وستين شخصا • ويسمى المسعودي هذا الفداء، فداء نصر بن الأزهر وعلي بن يحيى الأرمني. ويقول انه تم في مستهل صفر ، وهو يتفق في عدد من فودي بهم مع ما ذكره الطبري ، ويضيف ان الفداء تم في سبعة أيام وان من فودي بهم كانوا من الذكور والاناث(٢٤) • وما ذكره المقريزي عن هذا الفداء يطابق رواية المسعودي(٢٥) • ويقتصر ابن الاثير في ذكر هذا الفداء على انه تم في سنة ٢٤٦هـ على يد علي بن يحيى الأرمني . ويتفق مع الطبري والمسعودي في عدد من فودي بهم(٢٦) •

ويشير المسعودي الى ما يقال عن فدائين آخرين تما في عهد الخلفاء العباسيين في سامرا ، أحدهما في سنة ٢٥٣هـ في أيام المعتز بالله على يد شفيع الخادم • والآخر في أيام المعتمد على الله في رمضان سنة ٢٥٨هـ على يد شفيع ومحمد بن علي • وهو يشكك في حدوثهما بقوله : لم نجد لهما حقيقة ولا اشتهر أمرهما ولا استفاض خبرهما، وان الصحيح المعول عليه ما كان قد ذكره(٢٧) • ومن الجدير بالذكر ان الطبري وابن الاثير لا يذكران شيئا عن الفدائين المذكورين اللذين نفى المسعودي حصولهما في عهد سامرا •

---

(٢٤) التنبيه والاشراف/١٦٢ـ١٦٣ •
(٢٥) الخطط المقريزية ٢/١٩١ •
(٢٦) الكامل ٧/٩٣ •
(٢٧) التنبيه والاشراف/١٦٣ و ١٦٦ـ١٦٧ على التوالي •

الفصل الثالث

العلاقات الثقافية والتجارية

بين العرب والروم

١ ـ الاتصال الحضاري بين العرب والروم :

عندما انتقلت عاصمة الدولة العربية في عهد المعتصم بالله الى سامرا كانت بلاد الشام ومصر وشمالي أفريقية والنصف الشرقي من آسيا الصغرى ، جزء من الدولـــة العربية • وكان العرب قد حرروا هذه البلاد من الامبراطورية البيزنطية، الاان الطابع الرومي استمر في هذه البلاد عهدا غير قصير في النواحي الاجتماعية كالتقاليد وطراز الحياة ، والناحية الفنية المتمثلة في الغناء والموسيقى وطراز البناء ، وكذلك في الناحية الثقافية والفكرية • ويروي أبو الفرج عن المغني المدني مسلم بن محرز المتوفى سنة ١٤٠هـ انه صار الى الشام فتعلم ألحان الروم وأخذ غناءهـــم ، فاسقط من ذلك ما لا يستحسن ، وأتى بما لم يسمع المرء مثله[١] • وقد وجد العرب في هذه البلاد انظمة أدارية ومراكز ثقافية متقدمة ، فأولوها رعايتهم

(١) الاغاني ١/٣٧٨ •

واستفادوا منها كثيرا مما ساعدهم على تقدمهم الحضاري • ولا ينكر انهم تعرفوا عن طريق الحضـــارة الهيلينية التي كانت سائدة في البلاد المذكورة على آثار القدماء في ميدان العلوم والفنون[٢] •

وقد استهدف العرب في عهد الفتوح اجتياح بلاد الروم نفسها والاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية ، وقد اوشكت الامبراطورية البيزنطية ان تمحى من الوجود تماما على أيديهم ثلاث مرات بين سنتي ٤٨ و ٩٩هـ ، وكان الخطر العربي ماثلا على الدوام في ذهن كل بيزنطي[٣] • وكانت آخر مرة استهدفت فيها العرب الاستيلاء على القسطنطينية في سنة ٢٢٣هـ عندما اجتاح المعتصم بالله بلاد الروم وافتتح عمورية ، الا ان مؤامرة قامت ضده حالت دون تحقيق ذلك •

وعلى الرغم من توقف موجة الفتح العربي في بلاد الروم على عهد الخلفاء العباسيين في سامرا ، فان الحروب ظلت مستمرة تقريبا بين الدولة العربية وامبراطورية الروم • الا انها كانت على شكل غزوات على أطراف الحدود بينهما، وهدفها رد العدو ومنع اذاه ، أو ارهابه والحاق الاذى به والفوز بالغنائم • وقد اشرنا الى هذه الحروب في فصل سابق •

وكانت هذه الحروب ، كما رأينا ، متصلة بحيث لم تمر سنة من سنوات الخلافة العباسية في سامرا دون نشوب قتال بين الجانبين، خلا فترات وجيزة من الهدوء كما اشرنا في صدر هذا الباب • وقد أدى استمرار الحروب الحدودية بين الدولتين الى أن تقوم كل منهما بتحصين ثغورها وشحنها بالمقاتلين المحترفين ، مما كان يستلزم حالة مستديمة من اليقظة والاستعداد لدفع عدوان المغيرين • على أن تواصل هــذه المعارك بما يستتبع من علاقات غـير مقصودة بين

(٢) الامبراطورية البيزنطية/٣٦٦ •
(٣) حضارة الاسلام/٥١ •

شعبين كبيرين لا يخلو من تأثير على التطور الداخلي لدى كل منهما . وإذا كانت التجارة قد تأتي في المكان الاول من حيث انها عامل في التطور الثقافي للشعوب ، فان العلاقات السياسية أيضا قد خدمت الثقافة في كثير من الاحيان . اذ يتطاحن شعبان فيتبادل المنتصرون والمنهزمون الافكار والعادات والاخلاق واللغات والاداب(٤) .

لقد كان للروم ، كشعب عريق في حضارته ، عاداتهم وتقاليدهم يمارسونها في حياتهم الاعتيادية . كما ان لهم طريقتهم في أصول الحكم ، ولهم فنونهم الخاصة بهم . وانهم يحتفظون بتراث كبير من كتب اليونان في الطب والفلسفة والادب . وقد اقتبس العرب بعض ما تيسر لهم من ذلك عن طريق المعارك الحدودية التي أشرنا اليها. فان استيلاء الروم على أحد الثغور العربية وبقاؤهم فيه مدة حتى يجلبهم العرب عنه ، يترك بين سكانه شيئا من تأثيرهم ولاسيما في اللغة وأسلوب الحياة اليومية . وذلك بحكم اتصالهم المباشر بهم . وكذلك الامر عندما يقع الاسرى العرب بأيدي الروم ، وكان عددهم كبيرا نسبيا بسبب كثرة غزواتهم وهجماتهم على الثغور والحصون الرومية . أو عندما يقع الاسرى الــــروم بأيدي الغزاة العرب ، وكانوا من الكثرة أحيانا بحيث ينســادى على بيعهم خمسة خمسة وعشرة عشرة ، كما حصل في معركة عمورية . فيختلط هذا العدد الكبير منهم بأهل دار السلام . فكان هذا الاختلاط عاملا مهما في الاتصال الحضاري والثقافي بين الجانبين . اذ ان كل طرف يقتبس من الطرف الآخر بحكم معايشته قومــــا يختلفون عنه ، بعضا من عاداتهم وتقاليدهم وأسلوبهم في الحياة ، ويتعلم شيئا قليلا أو كثيرا من لغتهم . ولعل ظهور بعض الشعراء والادباء ممن كانوا من أصل رومي مثل ابن الرومي الشاعر ، وياقوت الحموي الرومي الأديب البلداني البارع ، دليل واضح على التأثير الذي أشرنا اليه .

---

(٤) العرب والروم/١٨ .

ومن الطبيعي ان يزداد تأثر الأسير كلما اتسعت ثقافته وارتفع مستواه الاجتماعي والحضاري ، وذلك بحكم نوع علاقاته وسعة اطلاعه • فينقل عند عودته من الأسر ما تعلمه أو اعتاده ، الى بلاده • ويذكر أحد الاسرى العرب ، وهو هارون بن يحيى ، انه اسر في عسقلان وحمل الى القسطنطينية على طريق البحر ، ويذكر المدن والقرى والاماكن التي مر بها حتى انتهى الى عاصمة الروم، فيصف مالفت نظره فيها أو تأثر به • كأبواب المدينة وبلاط الملك ، وهو قصر كبير في وسط المدينة يحيط به سور ، والبذرون وهو ميدان واسع يجتمع فيه البطارقة فيشرف عليهم الملك من قصره • وما شاهده في القصر من التماثيل النحاسية للبشر والحيوانات • ويصف سباق العجلات المذهبة ولباس الرجال الذين يسوقونها • وكنيسة الملك وقبتها وأعمدتها وأبوابها ومقصورتها والتماثيل التي فيها ، وحضور الملك اليها يوم الميلاد • وكيف يحضرون اسرى المسلمين ليأكلوا على مائدة الملك بعد أن ينادي منادى الملك ان هذه الاطعمة ليس فيها شيء من لحم الخنزير • ثم يصف (الارقنا) وهو الأرغن • ويبدي اعجابه بفخامة موكب الملك عند خروجه الى الكنيسة العظمى التي هي للعامة ، ويذكر اديرة الرهبان حوالي القسطنطينية ، ويتعجب من كثرة الرهبان فيها • ثم يصف سفره الى روما ومروره بسلانيك(٥) • وهو في وضعه هذا يعطينا كثيرا من التفصيلات التي يبدو في بعضها شيء من المبالغة • ويرجح انهارون بن يحيى قد اسر وحمل الى عاصمة الروم في أيام الملك باسيل الأول (٢٥٣ـ ٢٧٣هـ)(٦) •

كما لا يخفى تأثير الرقيق الرومي في البيوت العربية ، لاسيما النساء وتأثيرهن على تربية الأولاد ، وتنظيم الشؤون المنزلية • بل لقد صار بعضهن أمهات خلفاء ، فقد كان أربعة من خلفاء سامرا

(٥) الاعلاق النفيسة/١١٩ـ١٣٢ •

(٦) الامبراطورية البيزنطية/٤٨٤ •

من أمهات روميات ، فان قراطيس أم الواثــق بالله ، وحبشية أم المنتصر بالله ، وقبيحة أم المعتز بــالله ، وقرب أم المهتدي بالله كن أمهات أولاد روميات •

ومهما كان البون بين العــرب والروم شاسعا في أدب اللياقة وأسلوب الحياة ، فقد كان بينهمـــا من الامور المشتركة ما يكفي لتمكين كل منهما من التأثير في الجانب الآخر(٧) •

٢ ـ العلاقات الثقافية :

لاحظنا مما تقدم ان الحروب الحدوديــة بين الدولة العربية والمملكة البيزنطية رغم استمرارها لم تمنع من قيام علاقات بين العرب والروم • ولعل أوضح أوجه هذه العلاقات كانت في النواحي الثقافية والتجارية • أما العلاقات الثقافية فقــد كان أبرز مظاهرها تلك المصادر الفلسفية والطبية لارسطو وجالينوس وابقراط وغيرهم من فلاسفة اليونان وحكمائها ، التي جلبت من بلاد الروم • اذ حصل العرب على كثير من كتب اليونان في نواحي الطب والفلسفة بصورة خاصة • وقد انكب عليها المترجمــون ونقلوها الى اللغة العربية بتشجيع من الخلفــاء ورجال الدولة الذين لم يدخــروا وسعا في الانفاق على ذلك • مما كان له عظيم الأثر في حركة التقدم العلمي التي ازدهرت في القرنين الثالث والرابع • وقد اسهبنا في بحث هذا الموضوع في الباب الخاص بالحركة العلمية في عهد سامرا •

وقد اشتهر في سامرا عدد من فطاحــل المترجمين وعلى رأسهم حنين بن اسحاق العبادي المتوفى سنة ٢٦٠هـ الذي كلفه المأمون بنقل كتب الحكماء اليونانيين الى اللغة العربية ، وأوفده على وفد الى بلاد

---

(٧) حضارة الاسلام/٤٤ •

الروم لاختيار ما يرونه مفيـــدا من الكتب[8] • وكان حنين يتقن اليونانية وآدابها كما يتقن العربية والسريانية • وقد عينه المتوكل على الله رئيسا للمترجمين وعين له كتابـــا نحارير عالمين بالترجمة ليماونوه في عمله ، وقد ترجـم كتب ابقراط وجالينوس ولخصها أحسن تلخيص[9] •

ويمكن اعتبار بعثة الواثق بـــالله الى بلاد الروم للتحري عن الفتية الذين آوا الى كهف هربا من تعسف دقليديانوس ، من مظاهر العلاقة الثقافية بين العرب والروم أيضا • فقد أشرنا في فصل آخر الى ان الواثق بالله قد بعث بأحد علماء العرب الى مدينة أفسوس في بلاد الروم لتحري أمر أولئك الفتيــة ، ورأينا كيف ان امبراطور الروم آنذاك ميخائيل الثالث قد أســتجاب لطلب الخليفة العربي فأرسل مع مبعوثه رجلا عارفا بموقع الكهف ليكون دليلا له • وهذا يدل ولاشك على نوع من التعاون في الحقول العلمية بين الدولتين رغم الحروب التي كادت أن تكون متصلة بينهما •

وكان من بعض نتائج هذا التأثر الثقافي المتبادل ان انتقلت كلمات عربيـــة كثيرة الى لغة الروم ، وكلمات يونانيـــة الى اللغة العربية • وهذه الكلمات المنقولة سواء كانت عربية أم يونانية • أصابها كثير من التحريف بحيث بـــات من الصعب معرفة أصلها المختفي وراءها •

٣ ــ العلاقات التجارية :

رأينا ان الحروب الحدودية بين الدولة العربية وبلاد الروم لم تقف حائلا دون قيام علاقات ثقافية بين الطرفين • والواقع انها لم تمنع كذلك قيام علاقات تجارية بينهما • ويبين المقدسي البشاري

---

(٨) اخبار الحكماء/١١٧ ، وعيون الانباء/٢٦٠ •
(٩) عيون الانباء/٢٦٢ •

ان سبب ذكره الطرق الموصلة الى القسطنطينية هو «لحاجة المسلمين الى ذلـــك وقصدهم في شراء الاسارى ، والرسالات ، والغـــزو ، والتجارات »(١٠) • وفي هذا دلالة على تردد العرب على عاصمة الروم كوفود رسمية ، أو لافتداء الاسرى ، أو للغزو ، أو لغرض التجارة• وكما كان التجار البيزنطيون يظهرون في كثير من المدن العربية ، كان التجار العرب يفدون على بيزنطـــة لانجاز أعمالهم • وكانت مملكـة الخـزر بموقعهـا الجغـرافي بـين اقليـم قـزوين والامبراطورية البيزنطية والروس حلقـــة اتصال أبقت التجارة العربية متصلة مع أوربا وبلاد الروم ، كمـــا كانت طرابزون على البحر الاسود مركز الاتصالات التجارية بين الطرفين ، ويتضح مما يذكره المسعودي ان طرابزندة (طرابزون) كانت تقام فيها أسواق سنوية يأتي اليها كثير من الامم للتجارة من المسلمين والروم والارمن وغيرهم(١١) • والواقع ان طرابزون كانت حينذاك أهم الموانيء التي يعرض فيها التجار العرب بضائعهم على التجار من الروم وغيرهم • وكان يقطنها عدد من التجار العرب(١٢) •

لقد كانت بضائع الشرق تنقل الى أوربا في خلال القرن الثالث عن طريق الدولـــة البيزنطية سواء بواسطة تجارهـــا أو التجار العرب • فصارت القسطنطينية مركـــزا لاستقبال بضائع الشرق ومصنوعاته كالحرير والكتان ، والتـــوابل والبخور والعطور ، والمنسوجات العراقية والشامية التي اشتهر منها الموسلين والدمقس، والمصنوعات النحاسية والزجاجية وغيرها من البضائع التي كانت تبهر الغرب آنذاك • ومنها تنقـــل الى أواسط أوربا وغربيها • ولاشك في ان قيـام بيزنطة بدور الوسيط اكسبها مركـــزا مهما بالنسبة للبـلاد الاوربية الاخـــرى ، وأدى الى ازدهـــار حياتها

(١٠) احسن التقاسيم/١٤٧ •
(١١) مروج الذهب ١/١٧٦ •
(١٢) تراث الاسلام/١٥٩ •

الاقتصادية لما كانت تجنبه من الارباح من ذلك ، كما كان التجار العرب يربحون الكثير من تجاراتهم هذه •

وعندما يذكر ابن خرداذبـــة مسالك التجار حينذاك يعطينا صورة واضحة عن البضائع التي كانت تنقل من الشرق الى الغرب أو بالعكس • فهم يجلبون من الغرب الخـدم والجواري والغلمان والديباج الرومي وجلود الخز والفراء والسمور • ويركبون البحر فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم برا على الحيوانات الى القلزم (السويس) ومنها يركبون البحر ثانية الى جدة فينطلقون منها الى السند والهند والصين ، فيحملون بضائع هذه البلدان ومصنوعاتها كالمسك والعنبر والعود والكافور والدار صيني والصندل والساج والفلفل والحرير الصيني والسرج وغـــير ذلك مما يحمل من تلك البلدان(١٣) ، ثم يرجعون بنفس الطريق • وقد يعدلون بتجاراتهم الى القسطنطينية ليبيعوها الى الروم • وربما صاروا بها الى بلاد الفرنج مباشرة لبيعها هناك • كما كانوا يحملون تجاراتهم أحيانا في البحر الغربي فيخرجون بانطاكية ويسيرون برا حتى يبلغوا نهر الفرات ، ثم يركبون دجلة الى بغداد ومنهـــا الى الابلة ، ومنها الى عمان فالسند والهند والصين(١٤) •

ويقول المقدسي عن كفر ســـلام ، وهي احدى قرى قيسارية «ولهذه القصبة رباطات على البحر يقع منها النفير ، وتقلع اليها شلنديات الروم مع اسارى المسلمين للبيـع كل ثلاثة بمائة دينار ، وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم ويذهبون اليهم في الرسالات»(١٥) • وفي قوله هذا دليل آخر على قيام العلاقات التجارية بين الدولتين حتى انها لتشمل بيع الاسرى وشرائهم ، كما يظهر منه وجود من يحسن

---

(١٣) و (١٤) المسالك والممالك/١٥٣_١٥٤ •
(١٥) احسن التقاسيم/١٧٧ •

اللغة الرومية من العرب ليسهل أمـــور معاملات البيع والشراء بين الطرفين ·

وكان للثغور العربية الشامية منها والجزرية أهمية خاصة في العلاقات التجارية بين الدولة العربية وبلاد الروم ، بالنظر لأهمية موقعها بينهما · فهي تتوزع في منطقة متوسطة بين البحر المتوسط والبحر الاسود وبحر الخزر ، وترتبط بمواني البحر المذكورة · مما ساعدها على ان تلعب دورا مميـــزا في التجارة بين الدولتين · ويذكر المقريزي ان الخليفة المستعين بالله كان قد انفذ أحد خدمه الى بلاد الروم ليجلب له أشياء نفيسة منها ، فلما ابتاعها وكانت وقر بغل ، عاد بها الى طرســـوس وسافر منها مع القافلـــة الى سامرا(١٦) ·

ومما زاد في أهمية الثغور العربية ان استمرار تدفق المجاهدين والغزاة عليها أكسب طرقها الأمن والسلامة لسالكيها من التجار · اذ كانت تلك الطرق عامرة بدور الاستراحة والمرابط المخصصة للغزاة بالاصل الا انها كانت بنفس الوقت ملجأ للتجار وقوافلهم عند مرورهم بها ·

وكانت المسالح والمواضع الحدودية تراقب التجار بدقة وذلك لاستيفاء العشور منهم عن البضـــائع التي يحملونها للتجارة ، أما أمتعتهم الشخصية فلا عشر عليها(١٧) · وكان من واجبها أيضا التأكد من هوية التجار الغرباء فيفتشونهم لئلا يكون معهم سلاح ، أو انهم

---

(١٦) الخطط المقريزية ١/٣١٤ ·

(١٧) كتاب الخراج/١٨٨ ·

يحملون كتبا تتضمن اخبارا تتعلق بشؤون الدولة العربية[١٨] • الا ان ذلك لم يحل دون نقل البضائع والسلع ومبادلتها • اذ كان التجار الاجانب يعتبرون مستأمنين في دار الاسلام ولهم حق الاقامة والعمل في التجارة ، ولكنهم اذا اطالوا المقام أكثر من سنة أمروا بالخروج ، والا وضعت عليهم الجزية[١٩] •

(١٨) نفس المصدر/١٩٠ •
(١٩) نفس المصدر/١٨٩ •

الباب التاسع

الامارات شبه المستقلة في عهد سامرا

١ ـ امارة بني الأغلب •

٢ ـ امارة الطاهريين •

٣ ـ امارة بني طولون •

٤ ـ امارة الصفارين •

الباب التاسع

الامارات شبه المستقلة في عهد سامرا

كان من جملـة نتائج سيطرة القواد الاتـــراك واستبدادهم بالخلفاء ان نفوذ الخلافة قد تداعى وغــدا اسميا لاسيما في أيام الفتنة ، مما كان له أثر واضح في اضعاف الدولة العربية بصورة عامة • ويلاحظ انه كلما كانت الخلافة تزداد ضعفا بنتيجة الصراع بين الخلفاء والقواد الاتراك ظهرت امارات في شرقي الدولة أو في غربيها ، وهي تقتطع جزء من ممتلكات الدولة وترغم الخليفة أو تتوسل اليه بالاموال والهدايا للاعتراف بها ، لكي تضفي الشرعية على وجودها •

وكانت درجة استقلال هـــذه الامارات تتوقف على علاقاتها بالخلافـة • وكلمـــا ضعف مركـــز الخلافـــة ازدادت تلـــك الامـــارات حريـــة في تصـــريف شؤونهـــا . وتوســـعت على حساب الدولة • وسنعرض فيما يلي الى نشوء تلك الامارات التي قامت في عهد سامرا ، واستمرارها ، او التي كانت قد قامت قبل ذلك واستمرت أو توسعت في خلال العهد المذكور •

الفصل الأول

امارة بني الأغلب

١ ـ تاسيس الامارة :

ساد الاضطراب في أفريقية في عهد الخليفة هارون الرشيد ، فظل يغير الولاة عليها دون جدوى · فارسل القائد هرثمة بن أعين مع جيش كبير لتهدئة الاضطرابات ودراسة حالة البلاد · ولما رجع هرثمة بعد ثلاث سنوات نصح الرشيد بأن يولي ابراهيم بن الاغلب ، وهو أحد الزعماء المتغلبين هناك ، ولاية افريقية ، لما لمسه من عقله ودينه وكفايته(١) · وقد تعهد ابراهيم بتهدئة الاحوال وتقديم أربعين ألف دينار سنويا الى بيت المال ، مع الاستغناء عن الاعانة المالية وقدرها مائة ألف دينار كانت مصر ترسلها من ايراداتها الى أفريقية في كل سنة ، وبشرط أن يعهد الخليفة بالولاية اليه ولأبنائه من بعده بالوراثة ، فوافق الرشيد وولاه ولاية أفريقية في منتصف جمادي الآخرة سنة ١٨٤(٢) · وكان هذا التعيين ينطوي على اعتراف الخلافة باستقلال أفريقيا استقلالا داخليا ·

---

(١) الكامل ١٥٥/٦ ·
(٢) البيان المغرب ٩٢/١ ·

وقد بقيت العلاقة بين امـارة بني الأغلب والخلافة في سامرا ودية • ولابد من الاشارة الى ان امارة بني الأغلب تختلف عن بقية الامارات المستقلة التي قامت في أنحاء أخرى من الدولة ، بانها كانت عربية بأمرائها وبأغلبية رعاياها ، وانها عملت على توسيع رقعة سلطانها على حساب دولة الروم • والواقع ان التوسع العربي ونشر الدين الاسلامي في جزر البحـــر المتوسط تم على أيدي أمراء بني الأغلب •

كان ابراهيم بن الأغلب فقيها ، شاعرا وخطيبا مفوها ، ذا رأي وحزم ودراية في الحرب • ولم يتول أفريقية أحسن سيرة وسياسة منه ، ولا أرأف برعية ، ولا أوفى بعهد ، فدانت له قبائل البربر بالطاعة ، وهدأت البلاد في أيامه(٣) • فقد استطاع بمؤهلاته وما امتاز به من صفات قيادية أن يقضي على الفوضى في أفريقية ويعيد اليها الأمن في خلال مدة حكمه التي دامت اثنتي عشرة سنة •

وأسس ابراهيم عند توليه الامارة مدينة على بعد ثلاثة أميال من مدينة القيروان ، سماها مدينة القصر ، واتخذها مقاما له • ثم صارت من بعده دار للاقامة سكنها الأمراء من بني الأغلب • وعندما انتقل ابراهيم الى مدينة القصر خرب دار الامارة التي كانت بالقيروان بقبلي الجامع • وبنى في مدينة القصر جامعـــا رحيبا له صومعة مستديرة بنيت بالآجر والعمد سبع طبقات ، لم يبن أحكم منها ولا أحسن منظرا • وأسس فيها الاسواق والحمامات ، وحفر مراجل للماء كانت مياهها غزيرة بحيث اذا نزر الماء في مراجل القيروان نقلوا الماء اليها من مدينة القصر(٤) •

ان جد بني الأغلب الذي ينتسبون اليـــه هو الأغلب بن سالم التميمي أحد رجال الدعوة العباسية ، وكان من القادة الشجعان •

---

(٣) البيان المغرب ١/٩٢ •
(٤) المغرب للبكري/٢٨ •

وقد عهد اليه أبو جعفر المنصور بولاية أفريقية في سنة ١٤٨هـ ، وقتل في شعبان سنة ١٥٠هـ لما خرج عليه الحسن بن حرب الكندي(٥) .

وحكم الامارة من أسرة بني الأغلب أحد عشر أميرا دامت امارتهم مائة واثنتي عشرة سنة (١٨٤-٢٩٦هـ) وكان اخرهم أبو نصر زيادةالله الثالث الذي فر لما دخل أبو عبدالله الشيعي قائد جيش الفاطميين مدينة رقادة في رجب سنة ٢٩٦هـ . وما لبث أبو نصر ان مات في مدينة الرملة وهو في طريقه الى القدس في سنة ٢٩٩هـ(٦) .

وعاصر خلفاء سامرا من بني الأغلب سبعة امراء أولهم أبو محمد زيادةالله الذي كان على الامارة عند تولي المعتصم بالله الخلافة . ولسوف يقتصر بحثنا على مدة حكم هؤلاء الامراء فقط .

٢ ـ زيادةالله الأول :

أبو محمد زيادةالله بن ابراهيم ، وهو الثالث من أمرائهم . تولى الامارة في سنة ٢٠١هـ بعد أخيه أبي العباس عبدالله بن ابراهيم . وعندما نشب الخلاف بين الخليفة محمد الأمين وأخيه المأمون وبايع بنو العباس ابراهيم بن المهدي بالخلافة ببغداد ، ثبت زيادةالله على ولائه للمأمون والدعاء له . فلما انتصر المأمون شكر لزيادةالله فعله فأقره على ولايته ومنحه مزيدا من تأييده(٧) .

قامت على عهد زيادةالله عدة اضطرابات لقسوته وجوره وسوء ادارته . وقد اساء السيرة في الجند وسفك فيهم الدماء لسوء ظنه

---

(٥) البيان المغرب ١/٧٥ .
(٦) المختصر في اخبار البشر ٢/٦٣ .
(٧) الاعلام ٣/٩٣ .

بهم ووثوبهم بالأمراء قبله وخلافهم على أبيه(٨) ٠ وقد بلغ من شدة قسوته عليهم انه عندما شيع الجيش الذي وجهه الى قتال المنصور الطنبذي في تونس هدد القائد الأغلب بن عبدالله المعروف بغلبون وجنده بالقتل اذا حلت بهم الهزيمة ٠ مما جعل أكثر الجند ينقمون عليه وينضمون الى عدوه(٩) ٠ وكانت خروج الطنبذي بتونس أهم الفتن التي قامت في عهده ٠ وقد استطاع الطنبذي في أول الأمر ان يهزم عدة حملات وجهت اليه ، حتى انه زحف على القيروان ٠ الا انه بعد عدة معارك هزم وتفرق اتباعه ٠ وكان أهل القيروان قد رحبوا بالطنبذي للتخلص منجور زيادةالله الا انه عندماتمت له الغلبة على الطنبذي صفح عنهم وجعل عقوبتهم هدم سور القيروان حتى الصقه بالأرض(١٠) ٠ وبقيت المدينة بلا سور حتى اعاد بناءه المعز بن باديس بن منصور الصنهاجي في سنة ٤٤٤هـ(١١) ٠ وكذلك هدم سور مدينة تونس لأن أهلها أيدوا ثورة الطنبذي ٠ وكان عليها سور من اللبن والطين عدا القسم المواجه للبحر فكان من الحجارة(١٢) ٠ كما تعرضت تونس مرة أخرى لانتقام زيادةالله عندما التجأ اليها فضل بن ابي العنبر فقتل كثيرا من أهلها وشرد آخرين منهم ، ثم عاد وأمن الهاربين فعادوا اليها(١٣) ٠

فقد قامت في سنة ٢١٨هـ فتنة أخرى في تونس تزعمها فضل بن ابي العنبر واستطاع ان يصد جيشا لزيادة الله ٠ الا ان الجيش الآخر الذي وجه اليه بقيادة ابي فهر محمد بن عبدالله بن الأغلب

---

(٨) البيان المغرب ١/٩٦ ٠
(٩) الكامل ٦/٣٣١ ٠
(١٠) البيان المغرب ١/١٠٠ ٠
(١١) المغرب للبكري/٢٥ ٠
(١٢) كتاب البلدان/٣٤٨-٣٤٩ ٠
(١٣) الكامل ٦/٤٤٠ ٠

استطاع اقتحام المدينة والتغلب عليه • فأمن زيادةالله كل من طلب الأمان ممن هرب من أهلها عند دخول أبي فهر اليها(١٤) •

زيادةالله الأول وصقلية :

تطلع أمراء بني الأغلب الى الاستيلاء على جزيرة صقلية • وقد لخص القزويني ما ذكره عنها ياقوت الحموي وابن حوقل ، فوصفها بأنها جزيرة عظيمة من جزائر المغرب مقابلة لافريقية . وهي مثلثة الشكل بين كل زاوية وأخرى من زواياها مسيرة سبعة أيام، وهي خصبة كثيرة البلدان والقرى، كثيرة المواشي والحيوانات الاخرى من الخيل والبغال والحمير والبقر ، والحيوان الوحشي ، وارضها تنبت الزعفران • وكانت قليلة العمارة ، خاملة الذكر حتى فتح العرب بلاد أفريقية ، فهرب بعض أهلها الى صقلية وعمروها ، وبالجزيرة جبال شامخة ، وعيون غزيرة ، وانهار جارية • قال ابن حمديس مشتاقا اليها :

ذكرت صقلية والهوى
يهيج للنفس تذكارها
فان كنت أخرجت من جنة
فاني أحدث أخبارها

وبها جبل النار وهو مطل على البحر ، في أعلاه منافس يخرج منها النار والدخان ، وربما سالت النار منه الى جهة تحرق كل ما مرت به ، وتجعل الارض مثل خبث الحديد لا تنبت شيئا ، ويسميه الناس الأخباث • وفي أعلى هذا الجبل السحاب والثلوج • والأمطار دائمة لا تكاد تنقلع عنه في صيف ولا شتاء ، والثلج لا يفارق أعلاه في الصيف • وفيها البركان العظيم وليس في الدنيا بركان أشنع منه

(١٤) البيان المغرب ١/١٠٥ •

منظرا ولا أعجب منه مخبرا ، فاذا هبت الريح سمع له دوي عظيم كالرعد القاصف • ويقطع من البـــركان الكبريت الذي لا يوجد مثله • وبها آبار ثلاث يخرج منها أول الربيع الى آخره زيت النفط • فينزل في هذه الآبار على درج ويتقنع النازل ويسد منخره ، فاذا تنفس في أسفلها هلك من ساعته ، يغرف ماءها ويجعله في اجانات فما كان نفطا علا فيجمع ويجعل في القوارير(١٥) •

لقد دفع العرب في أفريقية الى الاستيلاء على جزيرة صقلية عدة عوامل أهمها عاملان ، أولهما القضاء على القراصنة الروم الذين اتخذوا من موانيء الجزيرة مراكزا لهم يشنون منها الغارات البحرية على سواحل أفريقية فيخربون ثغورها وينهبون أموالها ويأسرون من يقدرون عليهم من سكانها ويبيعونهـــم عبيدا أو يأخذون الفدية عنهم • والعامل الآخر انهم رأوا في ذلك وسيلة لقطع دابر الفتن والثورات الداخلية • فاعتبروا القتال فيسبيل الاستيلاء على صقلية جهادا يهـــدف الى نشر الدين الاسلامي • فدفع الأمـــير أبو محمد زيادةالله الأول العناصر المثيرةللفتن نحوغزو موانيء صقليةومدنها وفتحها • ولاشك ان مما شجع على ذلك قرب الجزيرة من سواحل أفريقية • فنزلت فيها طلائع القـــوات العربية في سنة ٢١٢هـ في ميناء مازرة(١٦) ، على الساحل الجنوبي الغربي من الجزيرة وتمكنت من الاستيلاء عليه •

واستمرت الحملات العربية في فتح الموانى والمدن في القسم المذكور من جزيرة صـــقلية حتى وصلت بالرم(١٧) ، فحاصروها

---

(١٥) اثار العباد/٢١٥ـ٢١٦ ، ومعجم البلدان ٣/٤١٦ـ٤١٩ ، وصورة الارض/ ١١٣ـ١٢٥ •

(١٦) مازرة : مدينة جميلة عامرة ذات أسوار حصينة ـ المسلمون في صقلية/ ٢١٧ •

(١٧) بالرم : أعظم مدن صقلية ولها سور مبني بالحجر ـ معجـــم البلدان ١/ ٤٨٣ •

وضيقوا الخناق عليها حتى اضطر قائدها الرومي على تسليمها بعد أن سمح له بمغادرتها بحرا مع بعض اتباعه ، وذلك في سنة ٢٢٠هـ ، وقد جعلها العرب عاصمة للجزيرة ، فكثر فيها العمران وبنيت فيها المساجد(١٨) • فتوسعت المدينة ونمت حتى صارت من مراكز الحضارة العربية المهمة آنذاك ، مما ساعد على انتشار الدين الاسلامي بين سكانها الأصليين(١٩) •

وكانت مسينا(٢٠) قد افتتحت في سنة ٢١٩هـ في خلال حصار بالرم ، وهي تقع في أقصى الشمال الشرقي من الجزيرة • وبذلك استولى العرب على القسم الغربي من الجزيرة وعلى قسم من شماليها • وبقي بيد الروم الساحل الشرقي وأواسط الجزيرة وقلاعها • فركز بنو الاغلب اهتمامهم في اجلاء الروم عنها والاستيلاء عليها لتتم لهم السيطرة على الجزيرة كلها •

لما توفي قائد الجيش العربي في صقلية زهير بن عوف في سنة ٢٢٠هـ خلفه أبو الأغلب ابراهيم بن عبدالله بن الأغلب ، وهو ابن أخي الامير زيادةالله ، فانتهج سياسة جديدة للاستيلاء على ما بقي بيد الروم من الجزيرة • فعمل على تقوية اسطوله البحري ، وأخذت سفنه تهاجم السواحل الجنوبية وتطرد الروم منها • وبنفس الوقت تواجه النجدات البحرية القادمة لمساعدة الروم ، فتضربها بقوة وتضطرها على الهروب والتراجع • مما اضعف القوات الرومية الموجودة في الجزيرة • حتى استطاعت احدى الحملات العربية التوغل الى أواسط الجزيرة والاستيلاء على كبرى مدنها

---

(١٨) مما يلفت النظر كثرة المساجد فيها ، ولياقوت راي طريف في ذلك ، هو رقاعة اهلها بسبب كثرة أكلهم البصل ــ معجم البلدان ١/٤٨٣ •

(١٩) يراجع عن فتح بالرم ومسينا كتاب «المسلمون في جزيرة صقلية»/٧٠ــ٧٢•

(٢٠) مسينا : على ساحل صقلية المواجه لبلاد الروم ، وهي أكبر مواني الجزيرة واكثرها عمارة • بها تجتمع السفن الكبيرة والمسافرون والتجار من بلاد الاسلام وبلاد الروم • وكان مرساها يستقبل أكبر ما يكون من السفن ــ معجم البلدان ٥/١٣٠ والمسلمون في صقلية/٢١٤ •

قصريانة في سنة ٢٢٣هـ(٢١) • وكان الـــروم قد حشدوا جيشهم للدفاع عنها ، فحاصرها الجيش العربي وما لبث أن تمكن من فتح ثغرة في سورها مما سهل له اجتيازه والدخول الى المدينة ، فاضطرت حاميتها على الاستسلام •

وكانت سفن بني الأغلب ، تهاجم في نفس الوقت ، سواحل ايطاليا الجنوبيـــة فاستولت على مدينة طارنطـــة(٢٢) ، ومدينة باري(٢٣) ، اللتين اتخذهما الجيش العربي قواعد لزحفه شمالا نحو مدينة روما •

أعماله العمرانية :

كان الأمـــير زيادةالله محبا للعمران ، فجدد عمـــارة جامع القيروان بعد أن هدمه كله • وأراد أن يهدم المحراب ويبني غيره ، فقيل له ان من تقدمه من الولاة توقفـــوا عن ذلك باعتباره أثرا قديما وقد وضعه الصحابي عتبة بن نافع • ولما الح على ذلك قال له أحد البنائين انه يستطيع أن يخفيه بـــين جداريه ويبني أمامه محرابا جديدا ، فاستصوب رأيه وعمـــل بموجبه(٢٤) • ولا يزال الجامع المذكور على بنائه حتى اليوم • والمحراب كله وما يليه مبني بالرخام الأبيض من أعلاه الى أسفله ، ومخـــرم بالنقوش بكتابة وزخارف جميلة الصناعة • وطـــول الجامع ٢٢٠ ذراعا وعرضه ١٥٠ ذراعا وعدد أعمدته ٤١٤ عمودا ، وقد بنيت فيه مقصورة • وبلغ ما انفقته عليه ستة وثمانين ألف مثقال من الذهب(٢٥) • أما

---

(٢١) قصريانة : مدينة جبلية ذات حصون وقلاع منيعة صعبة المنال •

(٢٢) طارنطة : تقع في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة ايطاليا على الخليج المسمى باسمها ، وتسمى اليوم ترنتو •

(٢٣) باري : تقع شمالي شرقي طارنطة على الساحل الشرقي لجنوبي ايطاليا •

(٢٤) المغرب للبكري/٢٣ •

(٢٥) نفس المصدر/٢٣-٢٤ •

المئذنة المربعة التي كانت قد شيدت على طراز المآذن السورية فقد حافظت على شكلها وطرازها ، وهي تعتبر من أقدم المآذن القائمة في شمالي أفريقية • وقد افضى هذا الجامع بفخامته وروعة بنائه على القيروان حلـــة من المهابة جعلها من أمهات المــدن العربية الاسلامية •

وقد اهتم زيادةالله كذلك بتحصين مدن أفريقية • فبنى لمدينة سوسة سورا كان يفخر به ويقول(٢٦) : ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات : بنيـــاني الجامع بالقيروان ، وبنياني قنطرة الربيع ، وبنياني حصن مدينة سوسة ، وتوليتي أحمد بن محرز قضاء أفريقية • وكان زيادة قد ولى الفقيه المالكي أحمد بن محرز الكلابي قضاء افريقية في سنة ٢٢٢هـ ، الا انه ما لبث أن توفي بعد سنة من تعيينه ، وكان أوصى أخاه بن أبي محرز أن يكتم موته الى أن يتم تجهيزه والصلاة عليه خوفا من أن يكفنه زيادةالله ، ففعل عمران ذلك • فلما حمل نعشه من داره اقبل أحد فتيان الأمير بمسك واكفان ، فلما علم انه قد كفن ذر المسك الذي كان معه • ولما وصلوا بالجنازة الى المقبرة حضر زيادةالله وعزى أخا القاضي ، وقال : يا أهل القيروان لو أراد الله بكم خيرا لما أخرج ابن أبي محرز من بين ظهرانيكم(٢٧) •

توفي زيادةالله في القيروان يوم الثلاثاء لاربع عشرة خلت من رجب سنة ٢٢٣هـ وعمره احدى وخمسون سنة وبضعة أشهر(٢٨) • وقد دامت امارته احدى وعشرين سنة وسبعة أشهر •

٣ ـ أبو عقال الأغلب بن ابراهيم :

تولى الامارة بعد أخيه زيادةالله ، وهـــو رابع الامراء من بني الأغلب ، وقد عرف بحسن السيرة ، فاحسن الى الجنود وازال مظالم

---

(٢٦) نفس المصدر/٣٥ ، ومعجم البلدان ٣/٢٨٣ •
(٢٧) البيان المغرب ١/١٠٦ •
(٢٨) نفس المصدر ، والكامل ٦/٤٩٣ •

كثيرة . وزاد في أرزاق العمال واجـــزل صلاتهم وكف أيديهم عن الرعية • وقطع النبيذ عن القيروان وعاقب على بيعه وشربه(٢٩) •

استمر العرب في حملاتهم على جزيرة صقلية في عهد الأمير ابي عقال . فاستولوا على عدد من الحصون صلحا بعد أن استأمنوا أهلها في سنة ٢٢٣هـ منهـا حصن البلوط ، وحصن ابلاطنـــو ، وحصن قرلون • كما سير أبو عقـــال اسطولا الى قلورية ففتحها ، ولقي الاسطول البيزنطي الذي جاء لنجدتها فهزمه • وغزت سرية من جيشه في صقلية مدينة قصريانـــة فغنمت وعادت دون مقاومة • ورغم انها لم تستطع الاستيلاء على المدينـــة الا انها استولت على حصن مهم هو حصن الغيران ، وهو أربعون غارا(٣٠) •

توفى أبو عقال في القيروان في ربيع الآخر سنة ٢٢٦هـ وهو ابن ثلاث وخمســين سنة(٣١) • وكانت مدة امارته ســنتين وتسعة أشهر •

٤ ـ محمد الأول :

عند تولي الواثق بالله الخلافة كان الوالي على أفريقية الأمير أبا العباس محمد بن الأغلب الملقب بمحمـــد الأول ، وهو خامس أمرائها • وقد تولى امارتها في أواخر ربيع الآخر سنة ٢٢٦هـ بعد موت أبيه ابي عقال في عهد المعتصم بالله • بقيت امارة بني الأغلب في عهد محمد الأول مستقلة بشؤونها الداخلية عن حاضرة الخلافة التي لم تكن لها أية سلطة عليها سوى ما تقدمه من المبلغ السنوي المقطوع ، والخطبة في يوم الجمعة باسم الخليفة •

---

(٢٩) البيان المغرب ١/١٠٧ ، والعيون والحدائق ٣/٣٩٨ ، والكامل ٦/٤٩٣ •
(٣٠) تراجع تفاصيل هذه الحملات في الكامل ٦/٤٩٤ •
(٣١) البيان المغرب ١/١٠٧ ، والمختصر في اخبار البشر ٢/٣٤ •

كان الأمير محمد قد قلد أخاه أحمد كثيرا من شؤون الامارة رغم ان احمد كان جاهلا مغرورا يطمع بالامارة دون أخيه. ويروى ابن عذارى خبرا يؤيد جهله وقلة علمه ومكابرته ، وذلك انه كتب مرة «لحم ضبي» بالضاد ، فقال له كاتبه : أيدالله الأمير ، الظبي يكتب بالظاء لا بالضاد . فقال أحمد : قد علمنا فيه اختلافا فابو حنيفة يجعله بالظاء ومالك يجعله بالضاد[32] . وقد استطاع أحمد بن الأغلب أن يغري بعض الجند ويكسب ولاءهم ، فقصد بهم مدينة القصر القديم ، وهي مقر الامارة ، وقد خلا بابها من الرجال ، فدخلوها وهاجموا دار الوزير ابي عبدالله بن علي بن حميد فقبضوا عليه وقتلوه . ونشب القتال بين رجال الأمير محمد واتباع أخيه أحمد . فقال أصحاب أحمد لرجال الأمير : ما بالكم تقاتلوننا ونحن في طاعة الأمير ؟ انما قمنا على أولاد حميد الذين استولوا على أموال البلاد . فوقف القتال ، لأن الأمير محمدا رأى انه بوغت بهجوم أخيه ولم يكن مستعدا له ، فمال الى المسالمة . فعقدت المصالحة بين الأخوين وتحالفا ألا يغدر أحدهما بالآخر . فاستولى أحمد على مرافق الامارة ودواوينها فقبض على من شاء واستصفى أموال من أراد . وجبى الأموال من الناس ، واستوزر نصر بن حمزة[33] . وبذلك بقي الأمير أبو العباس محمد وليس له من الامارة سوى اسمها حتى نهاية عهد الواثق بالله[34] .

الا ان الأمير محمد تمكن في سنة ٢٣٣هـ ان يظفر بأخيه احمد المتغلب على الحكم ، اذ ساعده جماعة من بني عمه ومن مواليه فهاجم بهم القيروان ليلا على غفلة من أحمد وحرسه واستولى عليها وقبض على أخيه ونفاه الى المشرق . فمات في العراق ، وعندما دخل أبو

---

(٣٢) البيان المغرب ١/١٠٧–١٠٨ .
(٣٣) البيان المغرب ١/١٠٨ .
(٣٤) الكامل ٧/٢٥ .

العباس محمد القيروان وصل أهلها واغدق عليهم العطاء حتى استنفذ جميع ما في خزائنه من الأموال والملابس(٣٥) ٠

بعد ان استماد أبو العباس سلطانه على الامارة واجهته فتنتان الأولى فتنة سالم بن غلبون عامله على الزاب ٠ وكان قد عزله في سنة ٢٣٣ ، فأعلن التمرد وتوجه على رأس جيش يريد القيروان ٠ فدخل مدينة باجة واحتمى بها ليستعد لحرب ابن الأغلب ٠ فوجه اليه الامير أبو العباس جيشا بقيادة خفاجة بن سفيان ، فاستطاع ان يلحق الهزيمة بابن غلبون واتباعه فقتله وحمل رأسه الى ابن الأغلب ٠ وكان ازهر بن سالم رهينة عند ابن الأغلب فقتله عندما اعلن أبوه العصيان(٣٦) ٠

أما الفتنة الثانية فقد قام بها عمرو بن سليم التجيبي المعروف بالقويع ، في تونس في سنة ٢٣٤هـ ودامت أكثر من سنتين، ولم يستطع القائد خفاجة بن سفيان الذي توجه لقتاله ، اقتحام المدينة فرجع ادراجه ٠ فسير ابو العباس في السنة التالية قائد اخر هو محمد بن موسى المدعو عربان على رأس جيش لمحاربة القويع ، الا ان كثيرا من أفراد جيشه انضموا الى جانب الثوار مما اضعف قوة عربان الذي قتل في المعركة وهزم ما بقي من أفراد حملته فعادوا الى القيروان مفلولين(٣٧) ٠ فوجه أبو العباس في سنة ٢٣٦هـ حملة ثالثة على رأسها قائد جيوشه خفاجة بن سفيان ، فهاجمت مدينة تونس وجرى قتال عنيف عند أبوابها ٠ وبعد عدة معارك هزم القويع وقتل الكثير من اتباعه ، وقد ادركه احد جنود خفاجة فقتله وجاء برأسه اليه ، فحمله خفاجة الى الامير أبي العباس ، ودخل الجيش الأغلبي مدينة تونس ٠ وقد سر أبو العباس بالقضاء على

---

(٣٥) البيان المغرب ١/١٠٩ ٠
(٣٦) نفس المصدر ١/١١٠ ، والكامل ٧/٤٠ ٠
(٣٧) الكامل ٧/٤٤ ، والبيان المغرب ١/١١٠ وفيه القويّع بدلا من القويع ٠

فتنة القويع وعودة تونس الى طاعته • فاكرم قائده ووصل قاتل القويع وكساه(٣٨) •

وكان البربر في منطقة «لهـــا» بطرابلس تمردوا على عامل المدينة وامتنعوا عن أداء العشور والصدقات ، وحاربوه واضطروه على ترك المدينة ، فالتجأ الى مدينة لبـــدة وبعث بطلب النجدة من القيروان ، فبعث اليه الأمير محمد جيشـــا بقيادة أخيه زيادة الله ، فهزم البربر وقتل منهم خلقا كثيرا واسر آخرين فضرب أعناقهم ، واحرق ما كان في معسكرهم ، فقضى بذلـــك على تمردهم ، فعاد الباقون الى الطاعة •

لقد اعجب أبو العباس بالفقيه المالكي سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي ، واسمه عبدالسلام وانما لقب بسحنون باسم طائر حديد الذهن بالمغرب يسمى سحنون ، وذلـــك لحدة ذهنه وفرط ذكائه(٤٠) • وكان سحنون كبير علماء القيروان في حينه واليه انتهت الرياسة في العلم في المغرب • وقد صنف «كتاب المدونة» في مذهب الامام مالك بن انس ، وصار له من الاصحاب والطلاب مالم يحصل لغيره من رجال مالك • وعنه اشتهر المذهب المالكي في المغرب(٤١) وكان سحنون الى جانب علمه عادلا نزيها ، فولاه أبو العباس القضاء بعد ان أبى وامتنع عليه عاما كاملا خشية التدخل في أعماله ، حتى حلف له الأمير بالايمان المؤكدة ان يطلق يده على أهل بيته وقرابته وحاشيته ، وينفذ عليهم الحق أحبوا أو كرهوا(٤٢) • وبقي سحنون على القضاء الى ان توفي في شهر رجب سنة ٢٤٠هـ •

---

(٣٨) البيان المغرب ١/١١٠ ، والكامل ٧/٤٤ •
(٣٩) الكامل ٧/٩١ •
(٤٠) البيان المغرب ١/١٠٩ ، ووفيات الاعيان ٢/٣٥٤ •
(٤١) وفيات الاعيان ٣/٣٥٢ •
(٤٢) وفيات الاعيان ٣/٣٥٢ ، والبيان المغرب ١/١٠٩ •

وبنى أبو العباس في سنة ٢٣٩هـ مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية . وظلت قائمة حتى استولى عليها أفلح بن عبدالوهاب الأياضي واحرقها ، وكتب الى الاموي في الاندلس يعلمه بذلك تقربا اليه . فبعث اليه بمائة ألف درهم جزاء على ما قام به(٤٣) ٠

الفتوحات في صقلية :

استمرت سياسة بني الأغلب في عهد الأمير محمد الاول في محاربة الروم وطردهم من صقلية ٠ وكان الروم قد استرجعوا مسينا التي فتحها العرب قبل عدة سنوات ، فاوعز الأمير محمد الى الفضل بن جعفر باستردادها ٠ فهاجمها الفضل وحاصرها برا وبحرا حتى اضطر أهلها في سنة ٢٢٨هـ ان يطلبوا الأمان لقاء تسليم المدينة ٠ فأمنهم الفضل ، ودخلها بجيشه(٤٤) ٠ ثم سار الفضل بن جعفر الى حصار مدينة لينتيني في سنة ٢٣٢هـ ، وهي تقع جنوبي شرقي بثيرة ، وهي قلعة حصينة على بعد ستة أميال من البحر ، تقع على النهر المسمى باسمها ، وكانت تصلها المراكب القادمة في البحر(٤٥) ٠ فسارع أهلها الى الاستنجاد بقائد الروم في مدينة قصريانة لينصرهم في صد الحملة العربية . فأجابهم الى طلبهم ، وجعلوا بينهم علامة لوصول النجدة للانضمام الى حامية المدينة ٠ ويظهر ان العلامة التي اتفقوا عليها ، وهي ايقاد النيران على جبل معين في ليلة معينة ، قد تسربت الى القائد العربي فاشعل النيران في الوقت المعين وفي المكان المحدد ٠ فظنها أهل لينتيني انها نيران النجدة التي جاءت لمساعدتهم ، ففتحوا باب الحصن لاستقبالهم . ففاجأهم الجيش العربي الذي اقتحم الحصن قبل ان تصل النجدة الموعودة ،

---

(٤٣) فتوح البلدان/٢٣٦ ، والكامل ٦/٥١٩ ٠
(٤٤) المسلمون في جزيرة صقلية/٧٧ ٠
(٤٥) نفس المصدر/٢١٥ ٠

واستطاع الاستيلاء على المدينة التي اضطر أهلها على تسليمها بعد أن أمنهم الفضل على أنفسهم وأموالهم(٤٦) .

ولما مات عامل صقلية محمــــد بن عبدالله بن الأغلب في سنة ٢٣٦هـ اجتمعت كلمة العرب فيها على تولية العباس بن الفضل ، وكتبوا بذلك الى الأمير محمد فأقر العباس عاملا على الجزيرة وبعث اليه بعهده(٤٧) . وكان العباس قبـــل أن يصله العهد بتعيينه يغير ويرسل السرايا لمهاجمة الحصون والقلاع التي لاتزال بيد الروم . فلما تم تعيينه جاهد كثيرا وغزا طويلا ، وكانت له مع الروم مواقف هزمهم فيها واذلهم(٤٨) . فقد خرج في العام التالي لتعيينه على رأس حملة فبلغ مدينة بثيرة وهي من مدن الجزيرة المهمة تقع الى الشرق من قصريانة ، وحاصرها خمسة أشهر ، فصالحه أهلها على خمسة آلاف رأس ، وكان في حملته هذه قد خرب عددا من الحصون وغنم كثيرا من الاموال(٤٩) .

توفي الأمير أبو العباس الأغلبي في أوائل المحرم سنة ٢٤٢هـ وله من العمر ست وثلاثون سنة(٥٠) . وكانت مدة ولايته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وعدة أيام .

٥ ـ أبو ابراهيم أحمد بن محمد بن الاغلب :

ولي الامارة بعد أبيه وهو ابن عشرين سنة وكان حسن السيرة، كريم الأخلاق والأفعال ، ومن أجود الناس وأسمحهم ، وأرفقهم بالرعية مع تدين واجتناب للظلم . وقد أحسن السيرة مع الرعية

---

(٤٦) الكامل ٦/٧ .
(٤٧) نفس المصدر ٦٠/٧ .
(٤٨) البيان المغرب ١١١/١ .
(٤٩) الكامل ٦٠/٧ـ٦١ .
(٥٠) البيان المغرب ١١٢/١ .

وأكثر العطاء للجند ومنع الظلم عن الناس(٥١) . فكان عهده هادئا فلم تقم أية ثورة أو خلاف ضده . فصرف جهده الى بناء الحصون وتقوية القائم منها ، ويقول ابن الأثير انه بنى بارض أفريقية عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وأبواب الحديد(٥٢) . ويظهر ان اهتمامه بتقوية الحصون جاء نتيجة استرداد الروم عددا من الحصون التي كان العرب استولوا عليها في صقلية بسبب ضعف تحصينها . اذ لا يخفى ان مناعة أسوار الحصون ومتانة أبوابها وضخامتها كانت من أهم وسائل الدفاع عنها حينذاك .

كما اهتم الأمير أبو ابراهيم بالنواحي العمرانية فانفق كثيرا من الأموال لحفر مواجل الماء وبناء المساجد وتشييد القناطر . واهتم بصورة خاصة بجامع القيروان فزاد في بنائه . وقد أشرنا في فصل سابق الى انه جلب من سامرا تربيعات من الفضار المذهب وزين بها محراب الجامع المذكور ، كما انه جلب له منبرا خشبيا من بغداد وقد زين بزخارف سامرا ، وهو يتكون من صفوف من الحشوات المقسمة الى مناطق مستطيلة تزينها الزخارف الهندسية المتشابكة والنباتات المجردة وتفريعات من ورق العنب(٥٣) . وهو لايزال قائما شاهدا على ما بلغته الزخرفة العربية من أرقى درجات الروعة في عهد سامرا . وعندما حدث سيل عظيم في مدينة القيروان في سنة ٢٤٧هـ وكسر قنطرة باب الربيع أمر أبو ابراهيم باصلاحها ، واكمل كذلك مأجل باب تونس الكبير(٥٤) .

ويروي عن احسانه الى الفقراء انه كان يركب في ليالي شعبان ورمضان من القصر القديم حتى ينتهي الى جامع القيروان وبين يديه الشموع ، ومعه دواب محملة بالدراهم يتصدق بها على الضعفاء

---

(٥١) البيان المغرب ١/١١٢ . والكامل ٦/٥٢٠ .
(٥٢) الكامل ٦/٥٢٠ .
(٥٣) الفنون الاسلامية/١١٦ .
(٥٤) البيان المغرب ١/١١٣ .

والمساكين(٥٥) • وقد ولى القضاء بافريقية أبا الربيع سليمان بن عمران بن أبي هاشم الملقب بخروفة •

أما فيما يتعلق بصقلية فقد استمر الامير أحمد في سياسة اسلافه في فتح مدنها وحصونها • فقد أرسل العباس بن الفضل عامله عليها عدة حملات للاستيلاء على مدينة قصريانة ، كانت آخرها حملته عليها في سنة ٢٤٢ هـ حيث استطاع فتحها بعد أن قضى على الجيش الرومي المدافع عنها • وقد ساعد على فتحها أحد أسرى الروم الذي نصح القائد العربي بمهاجمة المدينة في مدة اشتداد البرد وتراكم الثلوج وانحباس الناس في بيوتهم ، فتمكنت ثلة من الجند من الوصول الى سور المدينة فدلهم الأسير على فتحة صغيرة فيه يدخل منها الماء الى المدينة ، فدخلوا منها وفتحوا الابواب • فدخلها العباس صبيحة يوم الخميس منتصف شهر شوال بجيشه • وبعد قتال عنيف تغلبوا على من كان فيها من جيش الروم ، وأصابوا من الغنائم ما يعجز الوصف عنه(٥٦) • وبنى العباس في المدينة مسجدا في يومه ونصب فيه منبرا خطب عليه الخطيب في يوم الجمعة(٥٧) •

وفي سنة ٢٤٦ هـ نكثت بعض القلاع التي سبق ان هادنت العرب مثل قلعة البلوط وقلعة ابلاطنوا وقلعة أبي ثور ، فبعث العباس بعض السرايا لتأديبها • ثم انصرف الى تعمير مدينة قصريانة وتحصينها وشحنها بالعساكر(٥٨) • وسار العباس في السنة التالية الى سرقوسة الا انه اعتل في الطريق ووافته المنية في أوائل رجب ، وقد دامت ولايته على جزيرة صقلية احدى عشرة سنة قضاها في

---

(٥٥) نفس المصدر ١/١١٢ •
(٥٦) الكامل ٧/٦٢-٦٣ •
(٥٧) نفس المصدر ٧/٦٣ •
(٥٨) نفس المصدر ٧/٦٤ •

مطاردة الروم واجلائهم عنها . وكان في بعض حملاته قد غزا أرض قلورية وانكبردة واسكنها المسلمين(٥٩) .

وعند توفي العباس بن الفضل اجتمع اهل صقلية على تولية ابنه عبدالله مكانه ، وعرضوا الامر على الأمير أحمد في القيروان . فاستمر عبدالله بارسال السرايا واستولى على عدة حصون . الا ان الامير أحمد بعث خفاجة بن سفيان عاملا على الجزيرة . وأول عمل قام به خفاجة انه سير حملة يقودها ابنه محمود لمهاجمة سرقوسة ، فتغلب على بعض حصونها وغنم ما فيها . كما تمكنت احدى السرايا التي بعث بها خفاجة من الاستيلاء على مدينة توطس بعد حصارها مدة قصيرة(٦٠) .

توفي الامير أبو ابراهيم يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من ذي القعدة سنة ٢٤٩(٦١) . وكانت مدة امارته سبع سنوات وعشر اشهر ونصف الشهر .

٦ ــ زيادة الله الثاني :

ولي الامارة بعد وفاة الأمير احمد أخوه أبو محمد زيادة الله بن محمد بن الأغلب وكان يعاصر الخليفة المستعين بالله . وأول عمل قام به انه أقر خفاجة بن سفيان على ولايته على صقلية وخلع عليه لما لمسه من تفانيه في الجهـــاد ، وانشغاله المستمر في حرب الروم واجلائهم عن أراضي الجزيرة . وقد واصل خفاجة في عهد زيادة الله الثاني هجماته على القلاع والمـــدن التي مازالت في حوزة الروم

---

(٥٩) نفس المصدر ، وارض قلورية هي القسم الغربي من جنوبي شبه جزيرة ايطاليا وتدعى اليوم (كلابريا) أمـــا انكبردة فهي ما يدعى اليوم بالجبل الاسود وتقع على الساحل الشرقي لبحر الادرياتيك .
(٦٠) الكامل ١٠٦/٧ .
(٦١) الكامل ١٢٥/٧ .

وبخاصة سرقوسة • وكانت حملاته غزوات تكسب الغنائم وتعود دون ان تستولي على ما تهاجمه من القلاع والمدن • الا انه تمكن في احدى حملاته ان يستولي على مدينة نوطس وهي من المدن الكبيرة في الجزيرة ، وتقع في أقصى الجنـــوب الشرقي منها على مقربة من الساحل • وكان بعض أهلها اخبـــر العرب بموضع دخلو منه الى المدينة ، فغنموا منها أموالا جليلة(٦٢) •

كان الأمير زيادةالله الثاني حليما جوادا ، حسن السيرة ، ذا رأي وشجاعة ، الا ان أيامه لم تطل • فقد توفى في ليلة السبت لعشر بقين من ذي القعدة سنة ٢٥٠هـ(٦٣) ، وكانت ولايته سنة واحدة وبضعة أيام •

٧ ــ محمد الثاني :

تولى أبو عبدالله محمد الثاني بن احمد الأول الامارة بعد وفاة عمه زيادةالله الثاني ، ولقب بابي الغرانيق لولعه بصيدها ، حتى انه بنى قصرا يخرج اليه لصيدها ، انفق عليه ثلاثين ألف مثقال من الذهب(٦٤) • وكان كريما الى حد الاسراف ولم تكن له همة في جمع المال ، ولما مات لم يترك خلفه في بيت المال شيئا(٦٥) • كما كان حسن السيرة ، عادلا في الرعية • وفي عهده بنى جامع المعافري بالقيروان • وقد شيده محمد بن حمـــدون الاندلسي المعافري في سنة ٢٥٢هـ فنسب اليـــه • وبناه بالآجر والجص والرخام وبنى فيـــه جبايا للماء(٦٦) •

---

(٦٢) الكامل ٧/١٠٦ •
(٦٣) البيان المغرب ١/١١٤ ، والكامل ٧/١٣٥ •
(٦٤) البيان المغرب ١/١١٤ •
(٦٥) البيان المغرب ١/١١٤ •
(٦٦) نفس المصدر •

وغضب الأمير محمد الثاني على قاضي القيروان سليمان بن عمران فصرفه وعين عبدالله بن احمد بن طالب أحد كبار فقهاء المالكية ، الا انه ما لبث بعد مدة ان عزله واعاد القاضي السابق الى منصبه . وحلت في أيامه في سنة ٢٦٠ مجاعة عامة بالمشرق والمغرب مع وباء الطاعون(٦٧) . وممن توفى بالوباء المذكور عالم افريقية وفقيهها محمد بن ابراهيم بن عبدوس الذي دون المجموعة في الفقه المالكي(٦٨) .

أما في صقلية فقد تميز عهد الامير محمد الثاني باشتداد الحرب وتواصلها ، وانها كانت سجالا بين العرب والروم . اذ كان الروم قد استردوا بعض المدن والحصون التي كان العرب قد استولوا عليها . مما دفع الجيش العربي هناك الى محاولة استعادتها . فقد غزا خفاجة بن سفيان في سنة ٢٥١هـ مدينة قصريانة ، ثم قصد سرقوسة وقاتل حاميتها ورجع عنها . ثم بعث ابنه محمدا في حملة استطاعت ان تقتل ألف فارس من الروم ، وعرفت حملته هذه بسرية الألف فارس .

وتكررت حملات خفاجة في السنوات التالية على المدن الرئيسة التي بيد الروم مثل سرقوسة وقصريانة وطرمين . ولعل أهمها حربه مع القائد الذي ارسلته القسطنطينية على رأس جيش للدفاع عن سرقوسة ، فانهزم القائد الرومي بعد قتال شديد ، وقتل الاف من أصحابه . وقد اصاب الجيش العربي منهم سلاحا وخيلا ومغانم أخرى كثيرة(٧٠) .

---

(٦٧) البيان المغرب ١/١١٦ .
(٦٨) نفس المصدر ، والكامل ٧/٢٧٣ .
(٦٩) البيان المغرب ١/١١٤ .
(٧٠) الكامل ٧/١٠٧ .

وخرج خفاجة في سنة ٢٥٥هـ فهاجم سرقوسة وحاصرها وضيق عليها ، ثم ما لبث ان عاد منها الى بلرم · وفي طريقه اغتاله أحد جنوده فطعنه طعنة قاتلة، وذلك فيمستهل رجب منالسنة المذكورة ، فحمل جثمانه الى بلرم فدفن فيهـــا(٧١) · فولى أهل صقلية ولده محمدا وكتبوا بذلك الى أمير بني الأغلب محمد الثاني فأقره على ولايته ، وسير له العهد بالولاية والخلع · ويظهر انه أصبح لأهل صقلية الحق في اختيار الوالي على الجزيـــرة بحيث يضعون أمير أفريقية أمام الأمر الواقع فيقر اختيارهم الا فيما ندر من الحالات·

استمر محمد بن خفاجة على نهج أبيه في مهاجمة مدن جزيرة صقلية التي مازالت بيد الروم ، ومحاولة انتزاعها منهم · ولعل أهم ما انجزه خلال مدة ولايته القصيرة انـــه ارسل حملة في سنة ٢٥٦هـ الى جزيرة مالطـــة وكان الروم يدافعون عنها ، فاستطاع قائد الحملة أحمد بن عبيدالله بن الأغلب ان يهزم الروم ويطردهم منها ويستولي عليها(٧٢) ·

الا ان محمدا ما لبث ان قتل في السنة التالية ، اذ تواطأ عدد من خدمه الخصيان فقتلوه لثلاث خلـــون من رجب وكتموا أمره ولم يعرف أمر قتله الا بعد يوم من هروب الخـــدم ، فادركهم حرسه وقتلوا بعضهم(٧٣) · فعهد الامير محمد الثاني بولاية صقلية الى أحد قواده أحمد بن يعقوب بن المضاء بن سلمة الذي ما لبث ان مات في السنة التالية(٧٤) · فولى أهل صقلية ابنه الحسين مكانه ، وأقره أمير بني الأغلب عليها(٧٥) ·

---

(٧١) البيان المغرب ١/١١٥ ، والكامل ٧/١٠٨ ·
(٧٢) الكامل ٧/١٠٩ ·
(٧٣) البيان المغرب ١/١١٥ ، والكامل ٧/١٠٩ و ٢٤٩ ·
(٧٤) نفس المصدرين السابقين ·
(٧٥) البيان المغرب ١/١١٥ ·

هاجم الحسين بن أحمد في السنة التالية سرقوسة فصالحه أهلها على أن يخرجوا اليه من أسرى العرب الذين كانوا لديهم ٣٦٠ أسيرا(٧٦) ٠

وبعد ان حكم الامير أبو الغرانيق امارة بني الأغلب مدة عشر سنوات ونصف السنة توفي في ليلة الاربعاء لست خلون من جمادي الاولى سنة ٢٦١هـ ٠ وكان قد عاصر من خلفاء سامرا كلا من المستعين بالله والمعتز بالله والمهتدى بالله والمعتمد على الله ٠ ولما حضرته الوفاة عهد بالامارة لابنه ابي عقال وأوصى بأن يتولى أخوه ابراهيم حتى يكبر ولده ، واستحلف أخاه الا ينازع ابنه وأشهد عليه آل الأغلب ومشايخ القيروان(٧٧) ٠

٨ ـ ابراهيم الثاني :

كان الأمير محمد الثاني قد عهد بالامارة لابنه أبي عقال ونظرا لصغر سنه فقد أوصى بأن يتولى الأمرة أخوه ابراهيم بن أحمد حتى يكبر ولده ٠ الا ان أهل القيروان سألوا ابراهيم الذي كان واليا عليها آنذاك ان يتولى الامارة دون ابن أخيه ، لما عرفوه عنه من العدالة والحزم وحسن السيرة ٠ فاجاب بعد تردد وامتناع ، فبايعه مشايخ أفريقية ووجوهها وجماعة من بني الاغلب ٠ ولعل من الطريف ان نشير الى انه اعتذر عن قبول تولي الامارة بانه حلف لأخيه بأن لا ينازع ولده ولا يدخل قصره ٠ فكانت الفتوى للخروج من يمينه ان يتولى الامارة في داره وليس في قصر الامارة ، فدخل داره وبايعوه(٧٨) ٠ فكان خلال السنوات السبع الاولى من امارته

---

(٧٦) البيان المغرب ١/١١٦ ، والكامل ٧/٢٦٦ ٠
(٧٧) البيان المغرب ١/١١٦ ، والكامل ٧/٢٨٤ ٠
(٧٨) البيان المغرب ١/١١٦ ٠
(٧٩) الكامل ٧/٢٨٣ ٠

حسن السيرة حميد الافعال • وقد اهتـــم ببناء الحصون وتقوية الجيش ، واشاعة العدل بين الناس • وكان يجلس بجامع القيروان ليسمع شكوى الخصوم ويفصـــل بينهم(٧٩) • ويظهر انه فعل ذلك مقتديا بمن جلس من الخلفاء لرد المظالم •

بناء مدينة رقّادة :

عني الامير ابراهيم الثاني بالنواحي العمرانية عناية خاصة ، وكان من أول أعماله انه بني مدينة جديدة اتخذها عاصمة له هي مدينة رقادة • وتقع على أربعة أميال من القيروان ، وأكثرها بساتين وليس بأفريقية أعدل هواء ولا ارق نسيما ولا أطيب تربة منها(٨٠) • وهناك روايتان عن سبب تسميتها بهذا الاسم، أولاهما ان أحد أمراء بني الأغلب أرق وفاقه النوم فعولج بالمشي • فلما وصل الى موضع رقادة تعب فغلب عليه النـــوم ، فسمي من يومئذ رقادة • وتقول الرواية الاخرى ان ابا الخطاب عبـــد الأعلى بن السمح المعافري القائم بالدعوة الاباضية باطرابلس ، لما نهد الى القيروان لقتال قبائل رفجومة وكانوا قد تغلبوا عليهـا ، التقى بهم بهذا الموضع فقتلهم فيه قتلا ذريعا ، فسمي رقادة لرقاد جثث القتلى فيه بعضها فوق بعض(٨١) •

لقد انشأ الأمير ابراهيم في هذا الموضع مدينة بنى بها قصورا عجيبة وجامعا • فعمرت بالاسواق والفنادق والحمامات • ولما تم بناء القصر المسمى بقصر الفتح انتقـــل ابراهيم اليه من القصر القديم • وقد استغرق بناء المدينة زهاء السنتين (٢٦٣ـ٢٦٤هـ) •

(٨٠) معجم البلدان ٣/٥٥ ، والمغرب للبكري/٢٧ •
(٨١) معجم البلدان ٣/٥٥ ، والمغرب للبكري/٢٨ •

وبقيت رقادة عاصمة لامـــراء بني الأغلب الى ان هرب منها آخر أمرائهم زيادةالله الثالث ٠

ولما منع الامير ابراهيم بيـــع النبيذ وشربه بمدينة القيروان وأباحه بمدينة رقادة ، قال بعض الظرفاء من أهل القيروان(٨٢) :

يا سيد النـــاس وابن سيدهم
ومن اليـــه الرقاب منقـــاده
ما حـرم الشرب في مدينتنــــا
وهـــو حلال بـــأرض رقادة ؟

ومن اعمال ابراهيم العمرانية الاخرى توسيعه جامع القيروان ٠ فقد زاد في عدد بلاطاته ، وبنى فوقه قبة شاهقة تقوم على اثنتين وثلاثين ســـارية من بديع الرخام ، وزينت جدرانهـــا وسقوفها بالزخارف والنقوش العربية الجميلة ٠ وكانت محكمة البناء عجيبة المنظر يشهد كل من رآها انه لم ير احسن منها بناء٠ وبنى في الجامع مقصورة للنساء يؤدين فيها الصلاة وجعلهـــا محجوزة عن الجامع بحائط مخرم بالزخارف محكم العمل(٨٣) ٠

الحرب مع ابن طولون :

لعل أهم الاحداث التي واجهت الأمير ابراهيم الثاني وهددت امارته هو هجوم العباس بن احمد بن طولـــون على افريقية في سنة ٢٦٥هـ يريد انتزاعها من بني الاغلب ٠ وكان العباس قد خرج على أبيه أحمـــد بن طولون فاشار عليه بعض اصحابه ان يتجـــه الى افريقية ٠ فكاتب عددا من زعماء القبائل فيها فاجابه قسم منهم ٠ وكتب الى الامير ابراهيم يقول ان امير المؤمنـــين الخليفة قد قلده

---

(٨٢) المغرب للبكري/٢٧ـ٢٨ ٠
(٨٣) المغرب للبكري/٢٤ ٠

أفريقية وأعمالها وانه متوجه اليها • ثم سار الى برقة من ثمانمائة فارس وعشرة الاف راجل من سودان أبيه حملهم على خمسة آلاف جمل • وقيل انه حمل من بيت مـــال مصر ثمانمائة حمل دنانير ذهبا ، قيل ان مبلغها ألف ألف دينار ومائتا ألف دينار • فلما وصل الى مدينة لبدة بعث اليه الأمير ابراهيم القائد احمد بن قرهب على رأس جيش من الفرسان ، فالتقى بجيش العباس وانهزم أمامه ، والتجأ الى اطرابلس ، فاستنجد أهلها بأبي منصور الاباضي صاحب مدينة نفوسة ، فزحف هذا في اثنيعشر ألف من رجاله لنجدتهم • وكان الأمير ابراهيم قد ضرب حلي نسائه دنانير ودراهم لأن سلفه لم يبق في بيت المال شيئا يذكر •

وجهز جيشا أرسله الى عامل اطرابلس وأمره بمقاتلة ابن طولون • فاجتمع رئيس الاباضية وعامل اطرابلس على قتال ابن طولون• فقتل من جيش ابنطولون عدد كبير، ونهبت أمواله. وهزم أقبح هزيمة ، وكاد ان يقع في الاسر ، فعـــاد ادراجه بأسوأ حال • ولشدة اهتمام الامير ابراهيم بالأمر خرج بنفسه يريد اطرابلس ، فجاءه خبر هزيمة العباس • فبحث عن الاموال التي نهبها جيشه واخذها ممن وجد معه منها ، وكان الرجل من العسكر يبيع مثاقيل ابن طولون سرا خوفا من أن تؤخذ منه(٨٤) •

الفتوحات في صقلية :

فتحت في عهد ابراهيم الثاني مدينــة سرقوسة ، وكان فتحها هذه المرة نهائيا اذ احتفظ بها العرب ولم يستطع الروم الاستيلاء عليها مرة أخرى • فقد توجه اليها في رمضان سنة ٢٦٤هـ جعفر بن

---

(٨٤) البيان المغـــرب ١/١١٨-١١٩ ، والكامـــــل ٧/٣٢٤-٣٢٥ ، والخطط المقريزية ١/٣٢٠ •

محمد وحاصرها برا وبحرا • ولما سير الروم اسطولا لنجدتها هزمه العرب • ودام حصار المدينة تسعة أشهر ، اضطر أهلها بعدها على الاستسلام • فقتل ألوف من جنودها ، وأصاب العرب من الغنائم مالم يصيبوا مثله من مدينة أخرى(٨٥) •

ولما توفي عامل صقلية الحسين بن أحمد في سنة ٢٧١هـ تولى بعده سوادة بن محمد بن خفاجة التميمي(٨٦) • وكان أول عمل قام به انه قاد حملة الى مدينة قطانية فاهلك ما فيها • ثم سار الى طرمين وقاتل أهلها ، حتى طلب اليه الروم المهادنـــة والمفاداة فوافق على ذلك ، فانقذ ٣٠٠ أسير من العرب كانوا فيها ، وعاد الى بلرم(٨٧) • الا ان اهل صقلية لم ترضهم سياسة العامل الجديد سوادة التميمي فوثبوا به في سنة ٢٧٣هـ وتمكنوا منه ، فبعثوه مقيدا مع أخ له الى أفريقية ، واجتمعوا على تولية العباس بن علي ولاية الجزيرة(٨٨) •

وعندما تنسك الامير ابراهيم الثاني في أواخر أيامه وعزم على الحج الى بيت الله الحرام ، جعل طريقه على جزيرة صقلية ليتلافي الاحتكاك بابن طولون بمصر ، وليجمع الحج والجهاد بفتح ما بقي من حصون الجزيرة • واخرج جميـــع ما عنده من المال والسلاح وسار في اسطول كبير • ولما وصل الى صقلية في سنة ٢٨٩هـ غزا بعض المدن والحصون التي بيد الروم، واستولى على مدينة برطينو• ثم هاجم مدينـــة طبرمين وكان اهلها قد استعدوا لقتالـــه الا انه هزمهم ودخل المدينة • ويقال ان ملك الروم لما سمع هزيمة جيشه في طبرمين واستيلاء العرب عليها حـــزن وبقي سبعة ايام لا يضع التاج على رأسه • وبعد ان تم فتح طبرســـين ارسل الامير ابراهيم

---

(٨٥) البيان المغرب ١/١١٨ـ١١٩ ، والكامل ٧/٣٢٠ •
(٨٦) البيان المغرب ١/١١٩ ، والكامل ٧/٤١٧ •
(٨٧) الكامل ٧/٤١٧ •
(٨٨) البيان المغرب ١/١٢٠ •

سراياه الى حصون اخرى ، فاستولت على بعضها وخربت البعض الآخر(٨٩) ٠

سوء سيرة ابراهيم :

سار الامير ابراهيم الثاني في خلال السنوات السبع الاولى من حكمه سيرة حسنة ٠ وقد ذكرنا ما قام به من أعمال خلالها اكسبته رضاء الناس ٠ الا انه بعد ذلك غلبت عليه السوداء فتغيرت أحواله وساء ظنه بالآخرين ، فالتجأ الى القتل للتخلص ممن يسيء الظن بهم ٠ ويقول ابن عذارى المراكشي انه قتل أخوته الثمانية واعدادا كبيرة من أقربائه وأصحابه وحجابه وخدمـــه وجنده ، وقتل ابنه وبناته(٩٠) ٠ ولما عزل أحمد بن طالب بن سفيان التميمي عن قضاء أفريقية في سنة ٢٧٥هـ حبسه ثم قتله بالسم(٩١) ٠ وكان قد حبس كاتبه محمد بن حيون المعروف بابن البريدي في سنة ٢٧٦هـ فكتب اليه هذا من السجن يستعطفه :

هبني اسأت فاين العفو والكرم
اذ قادني نحوك الاذعان والندم
يا خير من مدت الايدي اليه اما
ترثى لصب نهاه عنـدك القلم
بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر
ان الملوك اذا ما استرحموا رحموا

---

(٨٩) الكامل ٧/٢٨٥–٢٨٦ ٠

(٩٠) البيان المغرب ١/١٣٢ ٠

(٩١)و(٩٢) البيان المغرب ١/١٢١–١٢٣ ، والمسلمون في جزيرة صقلية/١٠٣–١٠٥ وجاء فيه ان ما نسب اليه من هذه الاعمال الفظيعة قد تكون الدعاية الفاطمية قد بالغت في ذلك لتسيء الى سمعته ٠

فلما قرأ ابراهيم الأبيات ، قال : يكتب لي هبني أسأت وهو قد اساء ، أما انه لو قال :

ونحن الكاتبون وقــــد أسأنا
فهبنـــا للكـــرام الكاتبينـــا

لعفوت عنه · ثم امر به فجعل في تابوت حتى مات ·

وقتل في ســنة ٢٧٧هـ حاجبه نصر بن الصمصامـــة بضربه خمسمائة سوط ، فلم ينطق بكلمة ولا تحرك من موضعه ، فأمر بضرب عنقه · وعرض في سنة ٢٧٨هـ ديوان الخراج على سوادة النصراني على ان يسلم ، فقال سوادة : مــــا كنت لأدع ديني على رياسه أنالها · فأمر به فقطع نصفين وصلب · واستشرى في سنة ٢٧٩هـ بالقتل بحيث صار يقتل بطرا وشهوة · فقد قتل في هذه السنة اسحاق بن عمران المستطيب المعـــروف بسم ساعة · وقتل جميع فتيانه ، لأن المنجمين قالوا له انه يقتله رجل ناقص العقل وانه قد يكون احد الفتيان · فقتل كل من رآه منهم يتقلد سيفا وفيه حركة ونشاط · ولما اوغل في قتلهم خاف ان تفسد قلوب البقية عليه فقتلهم جميعا · واستخدم عوضا عنهم السودان ، ثم عرض لهم منه ما عرض للفتيان الصقالبة فقتلهم كذلك جميعا(٩٢) ·

ووثب اهل الزاب بعامله في سنة ٢٦٨هـ وكان وجوههم قد قدموا اليه فاحسن اليهم واكرمهم ، الا انه ما لبث ان فتك بهم ، وامعن في قتل أهل البلد حتى الاطفال منهم · ولكثرة من قتل منهم أمر بأن تحمل جثثهم على العجلات الى حفرة ليدفنوا فيها(٩٣) ·

---

(٩٣) الكامل ٧/٢٧٠ ، والبيان المغرب ١/١١٩ · والزاب كورة عظيمة بارض المغرب تمتد بين تلمسان وسجلماسة ، وتكتنفها القرى العديدة · وقيل ان زرعها يحصد في السنة مرتين ـ معجم البلدان ٣/١٢٤ ·

الا انه أظهر التوبة في أواخر أيامه ، لما استقام أمر ابي عبدالله الشيعي ، فأراد أن يرضي العامة ويستميل قلوب الخاصة ٠ فرد المظالم ، واعتق مماليكه ، واعطى فقهاء القيروان ووجوهها أموالا كثيرة ليفرقوها في الضعفاء والمساكين(٩٤) ٠

وعندما ذهب الى صقلية في طريقه الى الحج أصيب بالذرب ، واشتد عليه المرض حتى توفي في آخـــر ذى القعدة سنة ٢٨٩هـ ، فجعل جثمانه في تابوت وحمل الى القيروان ودفن فيها(٩٥) ٠ وكان عمره اثنتين وخمسين سنة ، وطالت ولايته ثمانيا وعشرين سنة وستة أشهر ، فكان أطول أمراء بني الأغلب عهدا في الحكم ٠ وقد عاصر طيلة حكمه الخليفة المعتمد على الله ٠

---

(٩٤) البيان المغرب ١/١٣٢ ٠

(٩٥) الكامل ٧/٢٨٦ ، والبيان المغرب ١/١٣٢ وفيه انه توفي بارض الروم ونقل جثمانه الى جزيرة صقلية ودفن فيها ٠ وجاء مثل هذا في كتاب (المسلمون في جزيرة صقلية) انه مات وهو يحارب في قلورية ، ونقل جثمانه الى بلرم فدفن هناك ، وبني على قبره قصر ــ ص : ١٠٢ ٠

الفصل الثاني

امارة الطاهريين

١ ـ تاسيسها :

استطاع طاهر بن الحسين قائد جيوش المأمون أن يؤسس امارة مستقلة شملت عددا من ولايات القسم الشرقي من الدولة العربية في عهد العباسيين . وذلك عندما عينه المأمون في سنة ٢٠٥هـ واليا على خراسان من مدينة السلام الى أقصى أعمال المشرق(١) . بعد أن حقق له النصر على أخيه محمد الامين . فاخذ طاهر يعمل على الانفصال عن الدولة بعد أن بلغه سوء رأي المأمون فيه(٢) . وكان طاهر قد قتل الخليفة محمدا الأمين عندما وجهه المأمون لمحاربته . فاشتد ذلك على المأمون ، وكان كلما تذكر مقتل أخيه ازداد حنقا على طاهر ، وقد قال مرة : لن يفوت طاهرا مني مـــا يكره(٣) . ولذلك احتال

---

(١) الطبري ٥٧٧/٨ ، وتجارب الامم ٤٤٨/٦ ، وتاريخ اليعقوبي ٤٥٦/٢ وفيه انه ولاه في سنة ٢٠٦ .

(٢) كتاب البلدان/٣٠٧ .

(٣) الطبري ٥٧٩/٨ .

طاهر لتعيينه على ولاية خراسان(٤) • لكي يبتعد عن انظار المأمون من جهة ، ولكي يكون بين بني قومه وانصاره فيأمن الايقاع به من جهة أخرى • ويظهر ان المأمون لـــم يكن مطمئنا الى ولائه لانه لم يوافق على تعيينه الا بعد أن خمنه وزيره أحمد بن أبي خالد(٥) •

وكان طاهر في أواخر أيامه يحكم خراسان والولايات الشرقية التي ضمت اليه كأمير مستقل لا يخضع للخليفة الا بالاسم • وقد تحقق ما توقعه المأمون عن محاولة طاهر الاستقلال عن الخليفة ، اذ انه اسقط في سنة ٢٠٧هـ اسم الخليفة من خطبة الجمعة ، دليلا على استقلاله • فقـــد صعد المنبر وخطب الناس ، فلما بلـــغ الى ذكر الخليفة أمسك عن الدعاء له(٦) • ويقول الذهبي انه دعوة الامام المأمون وعزم على الخروج عليه(٧) • وكان ذلك قبيل وفاته بأيام ، اذ باغته الأجل فمات في جمـــادي الأولى من تلك السنة من حمى اصابته فوجد ميتا في فراشه(٨) • ويقال انه احتيل له بشربة(٩) •

وقد تتابع على حكم الامارة أولاد طاهـــر واحفاده • ورغم علاقتهم الودية بالخلافة وانهم لم يتأخروا عن نصرتها اذا ما طلب اليهم ذلك ، فقد حافظوا على استقلالهم الداخلي ، واستمر خضوعهم للدولة العربية شكليا • واستطاعوا أن يوســـعوا نطاق امارتهم برضاء الخليفة حتى حدود الهند • ودامت امارتهم خمسا وخمسين سنة تولاها خمسة أمراء منهم •

---

(٤) تفصيلات ذلك في الطبري ٨/٥٧٧ـ٥٧٩ •
(٥) الطبري ٨/٥٧٩ ، وتجارب الامم ٦/٤٥٠ •
(٦) الطبري ٨/٥٩٤ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٥٧ ، وتجارب الامم ٦/٤٥٣ •
(٧) العبر ١/٣٥١ •
(٨) الطبري ٨/٥٩٣ ، وتجارب الامم ٦/٤٥٢ •
(٩) كتاب البلدان/٣٠٧ •

خلف طلحة أباه طاهرا في امارة خراسان . ويظهر ان المأمون اضطر على توليته لعدة أسباب ، منها رغبته في ازالة الشك في أن له يدا في موت طاهر ، ثم عظم نفـــوذ اسرة بني طاهر في خراسان . وعندما توفى طلحة عين المأمون أخاه عبدالله بن طاهر مكانه لأنه كان شديد الثقة به والاعتماد عليه . وكانت هذه التعيينات التي تمت في عهد المأمون لطاهر وولديه من بعده قد اكسبت بني طاهر حقا وراثيا في امارتهم .

٢ ـ امارة الطاهريين وخلفاء سامرا :

عندما استخلف المعتصم بـــالله كان الوالي على خراسان وما يتبعها من الولايات الشرقية عبدالله بن طاهر ، وقد تولاها منذ سنة ٢١٤هـ عندما توفى أخوه طلحة . وقد اختلفت الروايات في كيفية توليه ، فان اليعقوبي يقول ان المأمون كان قد ولى عبدالله في سنة ٢١٤هـ أقاليم الجبال وأرمينية واذربيجان ، فاتخذ عبدالله مدينة الدينور مقرا له ، ولما مات طلحـــة بن طاهر ولي المأمون عبدالله مكانه ووجه اليه بعهدة وعقده مـــع اسحاق بن ابراهيم وقاضي القضاة يحيى بن أكثم، فنفذ عبدالله الى خراسان(١٠). الا ان الطبري يقول قد وردت وفاة طلحة على المأمـــون فبعث الى عبدالله يحيى بن أكثم يعزيه عن أخيـــه ويهنئه بولاية خراسان(١١) . وهنـــاك رواية تقول ان المأمون خير عبدالله بين ولاية خراسان وما اليها ، أو ان يبقى على ولايته على الجبل وارمينيـــة واذربيجان وحرب بابك ، فاختار خراسان وشخص اليها(١٢) . أما ابن الاثير فيقول لما مات

---

(١٠) تاريخ اليعقوبي ٢/٣٦٣ ، وكتاب البلدان/٣٠٧ .
(١١) الطبري ٨/٥٩٥ .
(١٢) الطبري ٨/٦٢٢ ، وتجارب الامم ٦/٤٦٣-٤٦٤ ، والعيون والحدائق ٣/ ٣٧٤ .

طلحة ولي خراسان علي بن طاهر خليفة لأخيه عبدالله الذي كان بالدينور ، فثار الخوارج بخراسان فسار اليها عبدالله بأمر من المأمون ، واتخذ مدينة نيسابور مقرا له(١٣) . ولم يكن قد نزلها وال من ولاة خراسان قبله(١٤) .

وكيفما كان الأمر فان عبدالله بن طاهر قد ولي خراسان بعد وفاة اخيه طلحة وبقي على ولايتها الى أن توفي سنة ٢٣٠هـ . وكان عبدالله نشأ في كنف المأمون ورعايته ، ولذلك اعتمد عليه في مهمات الامور . وأوصى أخاه أبا اسحاق ألا يفرط به ، فقد قال له في وصيته : أقره على عمله ولا تهجه ، فقد عرفت الذي سلف بينكما أيام حياتي وبحضرتي ، استعطفه بقلبك ، وخصه ببرك ، فقد عرفت بلاءه وغناءه عن أخيك(١٥) . ورغم ان المعتصم بالله كان سيء الرأي بعبدالله الا انه أقره على عمله ، سواء كان ذلك استجابة منه لوصية اخيه ، أو لأنه كان بحاجة الى مناصرته في حرب بابك الخرمي . ويقول الشابشتي ان المعتصم بالله كتب الى عبدالله عن رأيه فيه وطلب اليه الا يقدم عليه الى عاصمة الخلافة ، ومع ذلك أجاب عبدالله بانه على طاعة أمير المؤمنين ، وانه لو ورد عليه كتابه بالشخوص اليه لما امسى حتى يشخص(١٦) .

لقد أظهر عبدالله اخلاصا واضحا للدولة العربية ، فقد افسد خطط الأفشين حيدر بن كاوس في توجيه أمواله الى بلده أشروسنة في أثناء محاربته بابك الخرمي . فكان عبدالله يكتب الى الخليفة المعتصم بالله بكل ما يوجه به الأفشين الى أشروسنة . واخذ مرة مالا كان الأفشين قد بعث به مع بعض رجاله ، ووزعه على الجند ، وكتب

---

(١٣) الكامل ٦/٤١٤ .
(١٤) كتاب البلدان/٣٠٧ .
(١٥) الطبري ٨/٦٤٩ .
(١٦) الديارات/١٣٩ـ١٤٠ .

الى الافشين بذلك ، فأقر الافشين عبدالله مرغما[١٧] • وكان الافشين يطمع في أن يحل محل عبدالله بن طاهـــر في ولاية خراسان توطئة للوثوب بالخلافة • ويظهر ان هذا هو ما دعا عبدالله الى أن يكون مخلصا في ولائه للمعتصم بالله • وكان موقف عبدالله من الافشين من أهم الاسباب التي حالت دون تحقيق الافشين نواياه •

كان عبدالله اداريـــا مجربا ، وعلى درجة عاليـــة من الكفاية والحزم ، بحيث ضبط خراسان ضبطا ما ضبطه أحد قبله ، ودانت له البلاد ، واستقامت عليـــه الكلمة[١٨] • ومن مظاهر حزمه انه عندما ولي خراسان استتاب بنيسابور محمد بن حميد الطاهري ، فبنى هذا دارا خرج بحائطها الى الطريق • فلما قدمها عبدالله جمع الناس وسألهم عن سيرة محمد فيهم ، فسكتوا • فقال بعض الحاضرين ان سكوتهم يدل على سوء سيرته فيهم • فعزله وأمره بهدم ما بنى في الطريق[١٩] •

ويعتبر عبدالله من الأجواد • فقـــد ذكر الخطيب البغدادي اخبارا عديدة عن كرمه الزائد ، فيها كثير من المبالغة • وفي الخبر التالي مثال على ذلك : لما رجع عبدالله من الشام الى بغداد ، صعد فوق سطح داره فرأى دخانا يرتفع الى جواره • فسأل حاجبه عن سبب الدخان ، فأعلمه ان القـــوم يخبزون • فقال : وهل يحتاج جيراننا الى ان يتكلفوا ذلك ؟ ثـــم أمره أن يحصي جيرانه ممن لا يقطعهم عنه شارع • فمضى واحصاهم فبلـــغ عددهم أربعة آلاف نفس • فأمر عبدالله لكل واحد منهم في كل يوم بمنين من الخبز ، ومن من اللحم ، وبعشرة دراهم للتوابل في كل شهر ، ومائة وخمسين درهما لكسوة الشتاء ، ومائة درهم لكسوة الصيف • وبقي ذلك دأبه

---

(١٧) الطبري ٩/١٠٤ •
(١٨) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٠ •
(١٩) الكامل ٧/١٤ •

مدة مقامة ببغداد · فلما خرج انقطعت تلك المخصصات الا الكسوة ما عاش أبو العباس عبدالله(٢٠) · لا يخفى ان وجود أربعة آلاف نفس في شارع واحد مبالغ فيه أو انه كان تقديرا اعتباطيا · وان اعالة هذا العدد واكسائهم صيفا وشتاء أمر بالغ التكاليف ، ولا اخال الامير عبدالله يطيق ذلك ، لان كلفة الكسوة وحدها تبلغ ألف ألف درهم سنويا ، ناهيك عن كلفة الخبز واللحوم والتوابل · ومما يشبه هذا ما رواه الذهبي من ان عبدالله وقع مرة على قصص بصلات بلغت اربعة آلاف ألف درهم(٢١) · وانما قيل هذا عنه ، على ما نرى، مغالاة في مدحه ، ولا تنسى انه فارسي الاصل والفرس ميالون الى المبالغة بطبيعتهم · وقد بولغ في اخبار كرمه لرفع شأنه واظهاره على الآخرين ممن اشتهروا بالجود والكرم من الولاة والقواد العرب ·

وكان عبدالله أديبا شاعرا له شعر مليح ورسائل ظريفة · وقد انقطع اليه أبو العميثل عبدالله بن خليد الأديب الشاعر(٢٢) · وكان كاتبا لأبيه طاهر بن الحسين ، وقد تولى تأديب عبدالله في صغره · ولما صار عبدالله واليا على خراسان صار أبو العميثل كاتبه وشاعره · كما كان عبدالله يحسن الغناء والموسيقى · وقد نسب اليه أبو الفرج أصواتا صنع ألحانها(٢٣) · وقد بلغ من علمه بالألحان انه صنع ألحانا مشهورة وألقاها على جواريه فأخذنها عنه وغنين بها وسمعها الناس عنهن وعمن أخذ عنهن(٢٤) · الا انه يظهر

---

(٢٠) تاريخ بغداد ٤٨٦/٩ ·
(٢١) العبر ٤٠٦/١ ·
(٢٢) من موالي العباسيين نشأ في البادية واحسن قول الشعر · له عدد من كتب اللغة والشعر · توفي سنة ٢٤٠ ·
(٢٣) راجع عن بعض الاصوات التي نسبت اليه : الاغاني ١٠٦/١٢ــ١١٢ ·
(٢٤) الاغاني ١١٢/١٢ ·

مما رواه ابنه عبيدالله انه لـــم يكن يحب ان يشيع عنه شيء من ألحانه ، أو ان ينسب اليه ، لأنه كان يترفع عن الغناء ، وانه ماجس وترا بيده قط(٢٥) • ويقول الذهبي انه تاب قبل موته وكسر آلات الملاهي(٢٦) •

وقد مدح عبدالله بنطاهر عددا من الشعراء على رأسهم أبو تمام الطائي الذي قصده الى خراسان • فلما وصل الى قومس ، وكان قد طالت به الشقة وعظمت عليه المشقة ، فقال(٢٧) :

يقول في قومس صحبي وقد اخذت
منا السرى وخطــا المهرية القـــود
أمطلع الشمس تنوي أن تـــؤم بنا
فقلت : كـــلا ولكن مطلـــع الجود

وعندما دخل عليـــه انشده قصيدتـــه التي مدحه فيهـــا ، ومطلعها(٢٨) :

هن عوادي يـــوسف وصـــواحبه
فعزما فقدمـــا ادرك السؤل طالبه

ويقول فيها :

وركب كأطراف الأســـنة عرســـوا
على مثلها والليـــل تسطو غياهبـــه
لأمر عليهـــم أن تتـــم صـــدوره
وليس عليهـــم أن تتـم عواقبـــه

---

(٢٥) نفس المصدر ١٢/١١١ •
(٢٦) العبر ١/٤٠٦ •
(٢٧) ديوان ابي تمام ٢/١٣٢ •
(٢٨) كامل القصيدة في ديوان ابي تمام ١/٢١٦ــ٢٣٣ •

فقــــد بث عبدالله خوف انتقامــــه
على الليـــل ما تـــدب عقاربـــه
يقولـــون ان الليث ليث خفيـــة
نواجـــذه مطـــرورة ومخالبـــه

ويختمها بقوله :

بحسبك من نيـــل المناقب أن تـــرى
عليما بـــأن ليست تنال مناقبـــه
اذا ما امـرؤ القى بربعك رحلـــة
فقـــد طالبته بالنجـــاح مطالبـــه

فاعجب الحاضرون في مجلس عبـــدالله بن طاهـــر بشعره ، واستحسنوا قوله في الأمير . حتى ان أحـــد الشعراء من الحاضرين تنازل لأبي تمام عن جائزة قد أمر له بها الأمير ، فقال له عبدالله : بل نضعفها لك ، ونقوم بالواجب له جزاء عن قوله .

وقد استمر عبدالله في أيام الخليفـــة الواثق بالله ، أميرا على خراسان وأقاليم الري وجرجان وطبرستان وكرمان ، وظل يحكمها محتفظا باستقلاله الداخلي . الا ان علاقته بالخليفة كانت ودية . وتوفى عبدالله بنيسابور في ربيع الأول من سنة ٢٣٠هـ وعمره ثمان وأربعون سنة(٢٩) .

وعندما توفى عبدالله اســـتعمل الواثق بالله ابنه طاهر بن عبدالله على أعمال أبيه كلها ، وذلك عملا بمشورة قاضي القضاة أحمد بن أبي دواد . اذ عندما ورد الخبر بموت عبدالله أشار الوزير محمد بن عبدالملك الزيات على الخليفة أن يخرج اسحاق بن ابراهيم،

---

(٢٩) الطبري ١٣١/٩ ، وتاريخ اليعقوبي ٤٨/٢ وفيه انه مات وهو ابن سبع واربعين سنة ، والكامل ١٣/٧ ، ووفيات الاعيان ٢٧٥/٢ وفيه انه مات في مرو .

نائب الخليفة ببغداد ورئيس شرطته ، وهو من آل طاهر أيضا ، الى خراسان واليا ، ويظهر ان ابن الزيات كان يهدف بذلك الى اضعاف نفوذ الطاهريين ، وضمان ولاء الوالي الجديد ، وقد اقترح ان يضم اليه خمسة آلاف من الجند ويطلق ارزاقهم ، وان يمنحه الخليفة خمسة آلاف درهم معونة • ولما استطلع الواثق بالله رأي ابن أبي دواد بما اقترحه الوزير ابن الزيات قال ابن ابي دواد : ان اسحاق رهينة القوم ـ يقصد الطاهريين ـ عندك يا أمير المؤمنين ، فان اخرجته لم يكن في يدك أحد منهم ، وأما الجند فانت محتاج الى الزيادة منهم فكيف تفرقهم ولاسيما مع ما ينفق عليهم ، واخراج هذه الاموال لا وجه له ، وهناك ما هو خير من ذلك • قال الواثق بالله : ما هو ؟ قال : طومار ورق بدرهمين تكتب فيه الى طاهر بن عبدالله بالتعزية عن أبيه ، وبتجديد الولاية له ، وتربح ما عزمت على انفاذه ، وتكون قد اتممت الصنيعة عند عبدالله وولده ، واحسنت الخلافة فيه • فاستصوب الواثق بالله رأيه ، وأمر ابن الزيات ان يكتب بموجبه(٣٠) •

وقد اقام طاهر بن عبدالله واليا على خراسان طيلة خلافة الواثق بالله ، واستمر بعده حتى توفى بنيسابور في رجب سنة ٢٤٨هـ وله من العمر اربع وأربعون سنة(٣١) • فعين الخليفة المستعين بالله ابنه محمدا واليا مكانه • وقد جابه محمد بن طاهر كثيرا من المتاعب في خلال فترة ولايته • وفي أيامه انتهت امارة بني طاهر في خراسان •

٣ ـ نهاية الامارة :

كانت نهاية امارة بني طاهر على يد يعقوب بن الليث الصفار الذي اطمعه ما لمسه من ضعف محمد بن طاهر أمير خراسان • وقد

---

(٣٠) الديارات/١٤٠ـ١٤١ •

(٣١) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٤ •

بدا ضعف محمد واضحا عندما عجـــز عن مقاومة الحسن بن زيد العلوي الذي استفحل أمره في طبرستان واستولى على الري وجرجان، وكلها أقاليم تابعة لولاية خراسان · وكذلك فشله في القضاء على عبث الشراة الذين خرجوا في امارته ولم يستطع دفعهم · فانتهز يعقوب الصفار الذي خرج في سجستان واستولى على كرمان وبلخ وهرات وولاية فارس ، فرصة هروب عبدالله السجزي الذي نازعه على ولاية سجستان ، والتجائه الى محمد بن عبدالله بن طاهر الذي رفض تسليمه الى يعقوب · فسار ابن الليث نحوه الى نيسابور · ولما شعر محمد بخطر ابن الليث حاول ان يترضاه ، فلم يرض ، بل دخل المدينة وقبض عليه وعلى أهل بيته · وأرسل ابن الليث كتابا الى الخليفة يبرر فيه استيلاؤه على خراسان ودخوله نيسابور وانهاء امارة الطاهريين ، بتفريط محمد في عمله ، وان أهل خراسان هم الذين سألوه المسير اليهم(٣٢) ·

ويقال ان بعض أصـــحاب محمد بن عبـــدالله وبعض أفراد عائلته لما رؤا ادبار أمره مالوا الى ابن الليث فكاتبوه وشجعوه على الاستيلاء على خراسان · وبنفس الوقت هونوا على محمد أمر ابن الليث وانه لا خوف عليه منه ، فثبطوه من الاحتراز منه والاستعداد لحربه(٣٣) · واذا صح هذا فهو دليل على ضعف محمد وقصر نظره ·

ولما دخل يعقوب ابن الليث نيسابور في شوال ٢٥٩هـ وقبض على محمد وجميع أهل بيته استولى على أموالهم وما تحويه منازلهم ، وحملهم في الأصفاد الى قلعة بم بكرمان(٣٤) · فانتهت ولاية محمد بن عبدالله بن طاهر التي دامت احدى عشرة سنة وشهرين ، وبذلك انتهت ما عرفت بامارة الطاهريين ·

---

(٣٢) الكامل ٢٦٢/٧ ·
(٣٣) نفس المصدر ·
(٣٤) كتاب البلدان/٣٠٨ ·

الفصل الثالث

امـــارة بني طولون

١ ـ ولاية مصر :

كانت علاقة مصر بالدولة العربية خلال عهد خلفاء سامرا قد مرت بدورين ، أولهما الدور الذي مر منذ أن اتخذت سامرا حاضرة للدولة في سنة ٢٢٢هـ في عهد المعتصم بالله ، حتى أواخر عهد المعتز بالله سنة ٢٥٤هـ . وكانت مصر خلال هـــذا الدور احدى ولايات الدولة العربية خاضعة للخلفاء العباسيين الذين كانوا يعينون عليها الولاة والقضاة وعمال الخـــراج ويتولون شؤون امنها الداخلي والدفاع عنها ، ويجبى خراجها لبيت المال في سامرا . ويبدأ الدور الثاني منذ ان تولى القائد التركي أحمد بن طولون ولايتها في سنة ٢٥٤هـ وتأسيسه امارة شبه مستقلة فيها استمرت حتى سنة ٢٨٢هـ عندما عادت مصر ولاية من ولايـــات الدولة العربية كما كانت . وسنستعرض فيما يأتي احداث كل من هذين الدورين .

وكانت أحوال مصر السياسية والادارية قد اضطربت في عهد الخليفة المأمون ، فقد انتقض أسفل البلاد ـ الوجه البحري ـ كله ، عربه وأقباطه «وأخرجوا العمال وخلعوا الطاعة بسبب سوء سيرة

العمال فيهم»(١) • مما اضطر المأمون الى ان يقدم الى مصر بنفسه في مطلع سنة ٢١٧ هـ فسخط على عيسى بن منصور وعزله عن الولاية ، ونسب ما وقع في البلاد الى سوء ادارته ، اذ قـال له «لم يكن هذا الحدث العظيم الا عن فعلك وفعـل عمالك ، حملتم الناس مالا يطيقون وكتمتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلاد»(٢) • وعين بدلا عنه الأمير التركي أبا مالك كيدر الصغدي ، واسمه نصر بن عبدالله • كما عين هارون بن عبدالله الزهري على قضاء مصر • فقدم اليها هارون في أواخر رمضان من تلك السنة ، و«كان محمود السيرة عفيفا محبوبا من أهل البلد»(٣) وقد اعتنى بشؤون الاوقاف، فثبت غلاتها وأوجه انفاقها ، كما رعى شؤون الأيتام وعاقب من يتهاون بأمورهم من الأوصياء عليهم • وقد رفض أن يحضر ممثل صاحب البريد مجلس قضائه مالم يكن ذلك بأمر الخليفة •

ولما كتب أبو اسحاق ، وكان المأمون قد عينه على ولاية مصر ، الى خليفته كيدر بأمر المحنة ، استجاب القاضي هارون ووافقه على ذلك عامة الشهود وأكثر الفقهاء(٤) •

وعندما تولى أبو اسحاق المعتصم بـالله الخلافة ورد كتابه الى كيدر يقره على امارته ، ويخبره ببيعتـه ، ويأمره باسقاط من في الديوان من العرب وقطع اعطياتهم • ويبدو انه إتخذ هذا الاجراء تأديبا للقواد والجند العرب الذين ايـدوا المناداة بالعباس خليفة غداة موت أبيه المأمون ، وتنفيذا لسياسته في تتريك جيش الدولة ، ففعل كيدر ذلك • وكان من نتائج قطع الاعطيات عن العرب خروج

---

(١) كتاب الولاة وكتاب القضاة/١٩٠ ، والخطط المقريزية ١/٣١١ •

(٢) كتاب الولاة وكتاب القضاة/١٩٢ •

(٣) فتوح مصر/٢٤٦-٢٤٧ •

(٤) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٤٤٥ •

يحي بن الوزير الجروي في جمع من لخم وجذام[٥] • وقد استنكروا قطع أعطياتهم واعتبروا ذلك انتزاعا لحقوقهم •

ولما ورد كتاب المعتصم بالله بالتشدد بالمحنة استعفى القاضي هارون من ذمك • فكلف قاضي القضاة أحمد بن أبي داود محمدا بن ابي الليث ، وكان من رؤوس القائلين بخلق القرآن ، ان يتولى القضاء • فقال هارون اللهم لك الحمد على معافاتي مما بلوت به غيري[٦] • فرفع ذلك الى ابن أبي دواد فامـــر هارون بالتوقف عن الحكم ، ثم ما لبث ان عزله وعين ابن أبي الليث قاضيا على مصر بدلا عنه • كان ابن أبي الليث وراقا يقيم بمصر ، وهو فقيه على مذهب الكوفيين • فوضع يده على جميع الامـــوال المحبوسة • وحاول أن يسيء الى سلفه هارون الزهري ، فحاسبه على بعض أحكامه ، فكان يحضره الى مجلس القضاء ويوقفه مع الخصوم ويحاول ان يهينه وكاد أن يحبسه • وقد بقي ابن ابي الليث على قضـــاء مصر طيلة أيام الخليفة المعتصم بالله •

مات كيدر قبل أن يتمكن من القضاء على تمرد الجروي ، فتولى ابنه المظفر ولاية مصر باستخلاف أبيـــه واقرار الخليفة • وقد استطاع ان يقضي على الجروي واتباعه بعد قتالهم في وقائع عديدة • وكان المعتصم بالله أنعم على القائد التركي اشناس بولاية مصر ، فصرف أشناس بن كيدر عن ولايتها وعـــين موسى بن ابي العباس واليا على الصلاة[٧] • فوصل في مستهل رمضان سنة ٢١٩هـ ونزل بالعسكر • وكان موضع العسكر يعرف في صدر الاسلام بالحمراء القصوى ، وهو خطة نزل بها بعض القبائل العربية عند فتح مصر ،

---

(٥) نفس المصدر/١٩٤ ، والخطط المقريزية ١/٣١١ •

(٦) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٤٤٨ •

(٧) كتاب الولاة وكتاب القضاة/١٩٥ والنجوم الزاهرة ٢/٢٣٢ ، وجاء فيه : وجمع له الخراج في بعض الاحيان •

ثم دثر حتى صار صحراء • ونزلت عساكر العباسيين التي تعقبت مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين ، في هذا الموضع عند جبل يشكر واخذوا يبنون فيه • ولما ولى مصر موسى بن عيسى الهاشمي ــ وقد تولاها ثلاث مرات في عهد الخليفة هارون الرشيد آخرها في سنة ١٧٩هـ ــ ابتنى فيه دارا انـــزل فيها أهله وعبيده ، ثم اذن للناس فابتنوا فيه ، واتصل بناؤه ببناء الفسطاط • ثم بنيت فيه دار للامارة ، ومسجد جامع عرف بجامـــع العسكر ، فسمى ذلك الموضع منذ ذلك الوقت بالمسكر ، وصار أمراء مصر ينزلون به(٨) •

وقد طالت أيام مومى بن أبي العباس ، وكانت أياما حسنة ، اذ استطاع القضـــاء على الفتن الداخلية ، وامتحن فقهـــاء مصر وعلماءها فاجاب أكثرهم(٩) • الا انه عزل وعين مالك بن كيدر بدلا عنه ، فقدم الى مصر في أواخر ربيع الآخـــر سنة ٢٢٤هـ وسكن المسكر • وكانت له ولاية الصلاة فقط • أما الولاية على الخراج فكانت للخليفة يولي عليها من يشاء(١٠) • وكان مالك اداريا حازما الا انه صرف عن عمله بعد سنتين • ووليها القائد علي بن يحيى الارمني وقد ولاه أشناس على الصلاة فقط • فقدم اليها في أوائل ربيع الآخر سنة ٢٢٦هـ ، واستمر في ولايتـــه حتى وفاة المعتصم بالله • فأقره الواثق بالله على ولايتـــه • وكان أبو الحسن قد سكن المسكر على عادة الولاة الذين ســـبقوه ، وجدَّ في اصلاح أحوال البلاد وقمع الفتن والفساد • واقام واليا عليها حتى ورد الأمر عليه بعزله عن غير سخط عليه ، في أوائـــل ذي الحجة سنة ٢٢٨(١١) • فتوجه الى العراق وقدم على الواثق بالله بسامرا فاكرمه(١٢) •

---

(٨) الخطط المقريزية ٣٠٤/١ •
(٩) النجوم الزاهرة ٢٣٢/٢ •
(١٠) نفس المصدر ٢٣٩/٢ •
(١١) كتاب الولاة وكتاب القضاة/١٩٥ـ١٩٦ ، والنجوم الزاهرة ٢٤٥/٢ •
(١٢) النجوم الزاهرة ٢٤٥/٢ ، وكتاب الولاة وكتاب القضاة/١٩٦ ، ويقول الكندي ان عيسى بن منصور سجن علي بن يحيى وضيق عليه ، ثم اطلقه •

وولي بعده عيسى بن منصور للمرة الثانيـــة • وكان القائد أشناس قد توفي فعهد الخليفة بولاية مصر الى القائد ايتاخ ، فأقر ايتاخ عيسى بن منصور على امارته ، فاستمر فيها حتى وفاة الواثق بالله ، فصرف عنها في أول خلافـــة المتوكل على الله • وقد استطاع عيسى في خلال ولايته الثانية ان يمهد الامور ويقضي على الفتن • ولما ورد أمر الواثق بالله في سنة ٢٣١هـ بامتحان العلماء والفقهاء والناس بخلق القرآن والتشدد في ذلـــك ، وقف الوالي الى جانب القاضي المتزمت محمـــد بن أبي الليث في ارهاق النـــاس في أمر المحنة • وقد استمرت سياسة ارغام الناس في مصر على القول بخلق القرآن الى ان استخلف المتوكل على الله وابطل المحنة •

لقد اكتسب عيسى بن منصور خبرة في الادارة والسياسة بحيث كانت أيام ولايته الثانية في مصر هادئة ، عدا ما تعرض له الناس من أمر المحنة • وقد استمر في ولايتـــه هذه أربع سنوات وثلاثة أشهر • ولم تطل أيامه بعد عزله غير فتـــرة يسيرة اذ مرض ولزم الفراش حتى مات في منتصف ربيع الآخر سنة ٢٣٣(١٣) •

وعندما صرف عيسى عين ايتاخ هرثمة بن النضر الجبلي ، من أهل الجبل ، واليا على الصلاة فقط ، وفي عهده ورد كتاب المتوكل على الله بترك الجدل في القرآن والرجوع الى اراء أهل السنة في الامور الشرعية(١٤) • ولما توفي هرثمة في أواخر رجب سنة ٢٣٤هـ أعاد ايتاخ علي بن يحيى الى الولاية على مصر ، الا انه ما لبث ان صرفه بعد بضعة أشهر ، واستصفيت أموالـــه(١٥) • ولما قتل ايتاخ جعل المتوكل على الله ولاية مصر لأبنه محمد المنتصر ، فولى هذا اسحاق بن

---

(١٣) النجوم الزاهرة ٢/٢٥٠ •

(١٤) الخطط المقريزية ١/٣١٢ ، وكتاب الولاة وكتاب القضاة/١٩٧ ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٧٤ ، وجاء لقبه فيه : الجيلي •

(١٥) الخطط المقريزية ١/٣١٢ ، وكتاب الولاة وكتاب القضاة/١٩٧ •

يحيى بن معاذ على الصلاة والخراج(١٦) • فورد اليه كتاب الخليفة باخراج الطالبيين من مصر الى العراق ، ففرض لهم الأموال ليستعينوا بها على السفر ، فاعطى الرجل منهم ثلاثين دينارا والمرأة خمسة عشر دينارا ، وفرق فيهم الثياب • فخرجوا من الفسطاط الى العراق ، ومنها أمروا بالخروج الى المدينة والاقامة بها(١٧) • ويقال ان اسحاق عزم على أن يثور بمصر الا انه عزل ، ولم يلبث يسيرا حتى مات(١٨) • وكان اسحاق من خبرة الولاة ، عادلا واداريا قديرا، وشجاعا ممدوحا قصده بعض الشعراء ومدحوه ، وقد رفق بالناس أيام ولايته(١٩) •

وعين المنتصر في سنة ٢٣٨هـ عنبسة بن اسحاق الضبي على ولاية الصلاة وجعله شريكا لأحمد بن خالد صاحب الخراج • فحاسب عنبسة العمال وأقامهم للناس وانتصف منهم ، واظهر من العدل ما ارتاح الناس اليه(٢٠) • وفي أول ولايته نزل الروم في دمياط في يوم عرفة ، فلم يتمكن أهلها من مقاومتهم ، فدخلوا المدينة وقتلوا كثيرا من رجالها وسبوا النساء والاطفال • فخرج اليهم عنبسة يوم النحر في جيشه وكثير من المتطوعين فلم يدركهم ، اذ هربوا الى تنيس • وكان عنبسة قد أمر الجند من حامية دمياط ان يحضروا الى مصر فساروا اليها • فلما نزلها الروم لم يكن فيها من يدافع عنها ، فنهبوا وسبوا واحرقوا جامع المدينة ، وأوقروا سفنهم بما اخذوه من سلاح ومتاع ، ثم ساروا الى تنيس شرقي دمياط وكان عليها سور له بابان حديديان بنى في أيام المعتصم بالله ، فنهبوا ما فيها واخذوا البابين ورجعوا(٢١) •

---

(١٦) كتاب الولاة وكتاب القضاة/١٩٨ ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٨٣ •
(١٧) كتاب الولاة وكتاب القضاة/١٩٨ •
(١٨) نفس المصدر/١٩٩ •
(١٩) النجوم الزاهرة ٢/٢٨٣ •
(٢٠) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٠٠ •
(٢١) الطبري ٩/١٩٣ـ١٩٥ ، والكامل ٧/٦٨ـ٦٩ •

وعندما بلغ الخبر الخليفة المتوكل على الله أمر ببناء حصن دمياط فابتدىء في بنائه في أوائل رمضان سنة ٢٣٩هـ(٢٢) ، كما أمر عنبسة ان يبني حصن تنيس أيضا ، وحصنا لمدينة الفرما(٢٣) • وصرف عنبسة عن ولاية مصر في رجب سنة ٢٤٢هـ ، وكانت ولايته أربع سنوات ونصف سنة تقريبا •

وخلف عنبسة على ولاية مصر أبو خالد يزيد بن عبدالله بن دينار وقد ولاه المنتصر فقدم الى البلاد في أواخر رجب من السنة المذكورة • وقام ببعض الاصلاحات الاجتماعية ، فأمر باخراج المؤنثين من مصر بعد أن ضربوا وطيف بهم ، ومنع من النداء والصراخ خلف الجنائز ، وعين المختارين في الكور ليمثلوا فيها السلطة ، والغى سباق الخيل وباع الخيل التي كانت للوالي لغرض السباق(٢٤) •

ومن الاعمال المهمة التي انجزت في أيامه بناء المقياس الهاشمي لنهر النيل بجزيرة الروضة ، في سنة ٢٤٧هـ بأمر من الخليفة المتوكل على الله ، وهو المقياس الكبير المعروف بالمقياس الجديد • وقد بناه المهندس محمد بن كثير الفرغاني الذي بعث به الخليفة من سامرا ، وبطل بعمارته كل مقياس آخر كان بني قبله في الوجه البحري أو الوجه القبلي(٢٥) • وولي أبا الرداد الفقيه عبدالله ابن عبدالسلام الاشراف على المقياس ويقال انه من أهل البصرة قدم الى مصر وحدث بها ، وبقي مقياس النيل بأيدي أولاده وأحفاده مدة طويلة(٢٦) •

---

(٢٢) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٤٢ ، والخطط المقريزية ١/٢١٤ •
(٢٣) الخطط المقريزية ١/٢١١ •
(٢٤) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٠٣ ، والنجوم الزاهرة ٢/٣٠٨ •
(٢٥) النجوم الزاهرة ٢/٣١٠-٣١١ •
(٢٦) نفس المصدر ٢/٣١١ ، ووفيات الاعيان ٢/٢٩٦ •

بقي يزيد واليا على مصر طيلة أيام المنتصر بالله والمستعين بالله، وكذلك أقره المعتز بالله لما بويع له بالخلافة · الا ان ثورة قامت في الاسكندرية وامتدت الى الجيزة والفيوم ، في ربيع الاخر سنة ٢٥٢هـ في خلال فترة اضطراب الخلافة ، وقد تزعمها جابر بن الوليد المدلجي وانضم اليه كثير من الناس وخاصة الانتهازيون منهم · ويظهر ان يزيد عجز عن القضاء على ثورة جابر وعبث اتباعه ، فاستنجد بالخليفة المعتز بالله فبعث اليه القائد مزاحم بن خاقان معينا له ، فقدم مزاحم الى مصر بجيش كبير · الا ان الاضطراب استمر في البلاد مما دل على عجز يزيد ، فصرفه المعتز بالله عن الولاية وعين القائد المذكور بدلا عنه ، بعد ان دامت ولايته عشر سنوات ونصف السنة ·

فصرف مزاحم جهوده في اخماد الثورة واعادة الأمن والاستقرار الى البلاد ، وقد استطاع بعد معارك عديدة أن يقضي على اتباع جابر ، واضطره الى طلب الأمان ، فأمنه مزاحم مع نفر من أصحابه ، وبعث بهم الى حاضرة الخلافة(٢٧) ·

وكان مزاحم بن خاقان قد عين على شرطة مصر ارخوز بن طرخان التركي ، فحاول هذا ان يحتذي بيزيد بن عبدالله ، فمنع النساء من الخروج الى الحمامات والمقابر ، ومنع الحصر والمساند التي كانت تتخذ للمجالس في الجوامع ، ونهى عن أن يشق ثوب على ميت أو يسود وجه أو يحلق شعر أو تصيح امرأة ، وسجن النوائح ، واشتد في هذه الامور(٢٨) ·

---

(٢٧) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٠٥-٢١٠ ·

(٢٨) النجوم الزاهرة ٣٣٧/٢ ، وكتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٠٨ ويسميه ازجور والخطط المقريزية ٣١٣/١ وجاء اسمه فيه ارجوز ، وفضلنا ما جاء في النجوم الزاهرة لانه يتفق مع ما جاء في الطبري ٥٤٤/٩ ·

وبقي مزاحم على ولاية مصر حتى توفي في أوائل المحرم سنة ٢٥٤هـ فوليها ابنه أحمد باستخلاف ابيه ، الا انه لم يلبث سوى شهرين فتوفي ، فخلفه في الولاية ارخـــوز صاحب الشرطة لبضعة أشهر ، ثم صرف عنها بتعيين القائد التركي أحمد بن طولون الذي وصل مصر في شهر رمضان سنة ٢٥٤ فبدأ بوصوله عهد جديد فيها ٠

٢ ـ أحمد بن طولون وتاسيس الامارة :

ولد احمد بن طولون في سنة ٢٢٠هـ وأمه جارية تدعى قاسم ابو هاشم(٢٩) ٠ وكان أبوه طولون مملوكا تركيا أهداه نوح بن أسد عامل بخارى الى الخليفة المأمون سنة ٢٠٠هـ في جملة ما كان موظفا عليه من المال والرقيق وغير ذلك(٣٠) ٠ وقد تقدمت الحال به فصار من قواد الجيش العربي ، وتولى رئاسة حرس المأمون ٠ وقيل ان أحمد لم يكن ابنه وانما تبناه ، وهو ابن شخص آخر يدعى يلبخ ، ويروي أبو المحاسن قصة لطولون مع أحمد وهو صبي صغير فحظي عنده وتبناه(٣١) ٠ الا ان من يقول انه ابن طولون انما يستدل على ذلك بأن الموفق لمـــا اختلف معه وأمر بلعنه على المنابر نســـبه الى طولون(٣٢) ٠

نشأ أحمد بن طولون بسامرا نشأ جميلا ، وربي تربية دينية فحفظ القرآن وسمع الحـــديث ، وكان حسن الترتيل ، وعرف بالصلاح ، ووصف بعلو الهمة ٠ وقد تميـــز على أبناء جلدته من الأتراك ، وصار ممن يوثق به ويؤتمن على الأموال والاسرار ٠ ولما توفى طولون في سنة ٢٤٠هـ فوض الخليفة المتوكل على الله الى أحمد

---

(٢٩) الخطط المقريزية ٣١٣/١ ، والنجوم الزاهرة ١/٣ ٠
(٣٠) وفيات الاعيان ١٥٦/١ ، والخطط المقريزية ٣١٣/١ ٠
(٣١) وفيات الاعيان ١٥٦/١ ، والنجوم الزاهرة ٢/٣ ٠
(٣٢) النجوم الزاهرة ٣/٣ ٠

ما كان لأبيه من الأعمال(٣٣) • وتزوج أحمد ابنة أماجور أحد كبار القواد الاتراك ، وولدت له ابنه العباس(٣٤) •

كان أحمد يستاء من تصرفات الجنـــد الاتراك ، فطلب الى الوزير عبيدالله بن يحيى أن يكتب رزقه في الثغور ، فكتب له بذلك وخرج الى طرسوس وأقام بهامدة ، ثم ما لبث ان عاد الى سامرا بناء على الحاح أمه بأن يكون الى جانبها(٣٥) • وقـــد استفاد أحمد من اقامته بطرسوس اذ التقى بها بعـــدد من المحدثين ، وجالس بعض العلماء فيها ، فاكتسب من علمهم وتأثر بهـــم • وعند عودته من طرسوس مع القافلة المتوجهة الى العراق انقـــذ القافلة من قطاع الطريق الذين تعرضوا لها ، وكان في القافلة خادم للخليفة المستعين بالله ومعه ثياب وأمتعـــة ثمينة جلبها من بـــلاد الروم وكانت قد صنعت للخليفة ، فلما وصل الخادم الى الخليفة بالثياب والامتعة أعجب بها ، فاخبره الخادم بانه لولا شجاعة ابن طولون وشهامته لما سلمت القافلة من قطاع الطريـــق الذين اعترضوها ، فاستحسن الخليفة فعل ابن طولون وبعث له مع الخادم ألف دينار ، وواصل هباته اليه ، فوهبه جارية اسمها مياس فولدت له ابنه خمارويه في سنة ٢٥٠(٣٦) •

ولما تنكر القواد الاتراك للمستعين بالله واحدروه الى واسط اختار أحمد بن طولون لأن يكون بصحبته ، فأحسن أحمد معاملته وعشرته ، ولما طلبوا اليه ان يقتله رفض وقال : لا رآني الله قتلت خليفة بايعت له • أبدا(٣٧) •

---

(٣٣) نفس المصدر ٣/٤ •
(٣٤) الخطط المقريزية ١/٣١٤ ، والنجـــوم الزاهرة ٣/٤ وفيه انه تزوج بابنة عمه •
(٣٥) النجوم الزاهرة ٣/٥ ، والخطط المقريزية ١/٣١٤ •
(٣٦) نفس المصدرين السابقين •
(٣٧) الخطط المقريزية ١/٣١٤ ، والنجوم الزاهرة ٣/٦ وفيه ان المستعين بالله هو الذي اختار ابن طولون ليصحبه •

ولما آلت ولاية مصر في سنة ٢٥٤هـ في عهد المعتز بالله الى القائد بايكيال عهد هذا الى أحمد بن طولـون بولاية مصر خليفة عنه • فدخلها في أواخر شهر رمضان من السنة المذكورة(٣٨) • وعندما قتل بايكيال في أيـام المهتدى بالله انتقل ما كان اليـه من الأعمال الى القائد أماجور ، وهو حمو ابن طولون ، فكتب اليه بقره على ولاية مصر ويزيده ولاية الاسكندرية(٣٩) • وعهد الخليفة المهتدى بالله في سنة ٢٥٥هـ الى أحمـد بن طولون اخضاع عيسى بن شـيخ عامل فلسطين المتمرد(٤٠) • فاغتنم ابن طولون هذه الفرصة لانشاء جيش مستقل أخذه بنظام صارم رغبة منه في شد عناصره المتباينة(٤١) • ويقول القلقشندي ان ابن طولون أول من جلب المماليك الترك الى الديار المصرية واستخدمهم في عساكرها(٤٢) •

أقر المعتمد على الله عند توليـه الخلافة أحمد بن طولون على امارة مصر وكتب اليه يستحثه على حمـل الأموال • فأجاب انه لا يطيق ذلك والخراج بيد غيره ، فانفذ المعتمد على الله نفيسا الخادم الى ابن طولـون بتقليده خـراج مصر والولايـة على الثغور الشامية(٤٣) وبذلك تسنى للأمير أحمد بن طولون أن يقيم في مصر امارة مستقلة بشؤنها استقلالا يكاد يكون تاما عن الخلافة • وقد تولى امارتها بعده أبناؤه وأحفاده ، الا ان مدتهم لم تدم طويلا كما سنرى •

---

(٣٨) الطبري ٩/٣٨١ ، والكامل ١٨٧/٧ •
(٣٩) الخطط المقريزية ١/٣١٤ـ٣١٥ ، وتاريـخ اليعقوبي ٢/٥٠٦ وفيه ان المعتمد على الله صير اعمال مصر بعد بايكيال الى يارجوخ وكتب هذا الى ابن طولون باقراره على ولايته •
(٤٠) تاريخ اليعقـوبي ٢/٥٠٥ ، والخطط المقريزية ١/٣١٥ وفيـه ان المعتمد على الله كتب الى ابن طولون ان يتأهب لحرب ابن شيخ •
(٤١) تاريخ الشعوب الاسلامية ٢/٦٣ •
(٤٢) صبح الاعشى ٣/٤٢٤ •
(٤٣) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢١٧ ، والخطط المقريزية ١/١٠٣ـ١٠٤ •

القضاء على الاضطرابات والفتن الداخلية :

صرف ابن طولون جهودا بالغة في اخضاع الفتن والعمل على تهدئة الأوضاع الداخلية وتوفير الأمن والاستقرار في ربوع البلاد. واستطاع ان يقضي بحزم على ما قام منها في بداية امارته . وكان أهمها فتنتان اثارهما العلويون الذين كانوا ينقمون على الولاة الاتراك لما يلقونه على أيديهم من التعسف والقسوة . وقد تزعم الاولى أحمد بن محمد بن عبدالله بن طباطبا العلوي المعروف ببغا الأصغر ، وقد خرج غربي مصر في سنة ٢٥٥هـ في منطقة الكنائس بين الاسكندرية وبرقة ، ثم سار الى صعيد مصر . فوجه ابن طولون حملة عسكرية لمحاربته وقد استطاعت تشتيت اتباعه ، وقتل العلوي ، وجيء برأس العلوي الى الفسطاط ، فقضى على فتنته(٤٤) . أما الفتنة الثانية فقد تزعمها ابن الصوفي العلوي وهو ابراهيم بن يحيى بن عبدالله ، وقد خرج في الصعيد أيضا ودخل مدينة أسنا في سنة ٢٥٦هـ فنهبها وقتل كثيرا من أهلها . واستطاع أن يهزم الحملة التي وجهها اليه ابن طولون ، وظفر بقائدها فصلبه بعد أن قطع يديه ورجليه . الا ان الحملة الثانية التي وجهت اليه تمكنت منه فاضطر على الهرب الى الواحات . ثم ضعف أمره عندما اصطدم في سنة ٢٥٩هـ بخارج اخر على السلطة هو أبو عبدالله العمري وهزم أمامه . ولما وجه ابن طولون اليه جيشا آخر لم يصمد أمامه ففر هاربا ، فعبر البحر الاحمر الى مكة فأقام بها . فعلم به واليها فقبض عليه وحمله الى ابن طولون فسجنه مدة ، ثم اطلقه فخرج الى المدينة فمات فيها(٤٥) .

وأعلن أهل برقة التمرد في سنة ٢٦١هـ وطردوا عامل ابن طولون فبعث اليهم غلامه لؤلؤا فقضى على تمردهم . وقبض لؤلؤ

---

(٤٤) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢١٢ ، والخطط المقريزية ٢/٣٣٩ .
(٤٥) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢١٣-٢١٤ ، والكامل ٧/٢٣٨-٢٣٩ .

على جماعة من رؤسائهم وضربهم بالسياط ، واستصحب بعضهم معه الى مصر ، فطيف بهم في المدينة • فخلع ابن طولون على لؤلؤ خلعة وطوقه بطوقين(٤٦) •

كما قامت فتنة أخرى في أعلى الصعيد وقد تزعمها أبو عبدالله العمري وهو عبدالله بن عبدالحميد بن عبدالله من نسل عمر بن الخطاب(٤٧) وكان العمري قد خرج غضبا لله وللمسلمين ، اذ آلمه ما ارتكبه أبناء قبيلة البجة الذين كانوا يهاجمون صعيد مصر ويقتلون وينهبون ثم يعودون سالمين • فكمن لهم مع عدد من اصحابه فلما عادوا خرج اليهم وقتل قائدهم فولوا منهزمين فتبعهم الى بلادهم فنهبها وقتل منهم كثيرا ، ولم يسلموا منه حتى أدوا له الجزية • واشتدت شوكة العمري وكثر اتباعه ، فسير اليه ابن طولون جيشا فحاول العمري أن يقنع قائد الحملة بأنه ليس خارجا على السلطة وانما خرج للجهاد ضد البجة وان الامير ابن طولون اذا عرف ذلك فسوف يتركه وشأنه • الا ان القائد لم يجبه الى ذلك فقاتله فانهزم جيش ابن طولون • فلما اخبروه بحال العمري لامهم لأنهم لم يعلموه بأمره وانه نصر عليهم لبغيهم عليه • الا ان اثنين من غلمان العمري وثبا به وقتلاه وحملا رأسه الى أحمد بن طولون تقربا اليه • الا انه اسف على مقتله وقتلهما به • وأمر برأس العمري فغسل وكفن ودفن(٤٨) •

وكان خروج العباس بن أحمد بن طولون في سنة ٢٦٤هـ اخطر ما واجه أحمد • اذ كان قد خرج في السنة المذكورة الى بلاد الشام واستخلف ابنه العباس ، وهو أكبر أبنائه ، على مصر ، وابقى معه كاتبه أحمد بن محمد الواسطي ليعاونه في ادارة شؤون الامارة •

---

(٤٦) الكامل ٧/٢٨٣ •

(٤٧) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢١٤ ، والكامل ٧/٢٦٤ وفيه : هو ابو عبدالرحمن العمري واسمه عبدالحميد بن عبدالعزيز بن عبدالله •

(٤٨) الكامل ٧/٢٦٤-٢٦٥ •

فزين للعباس بعض قواده التغلب على مصر والقبض على الواسطي • وقد بلغ الواسطي ما عزم عليه العباس واتباعه فكتب الى الأمير أحمد يخبره بالأمر ويستعجله العودة الى مصر ، فزاد ذلك في وحشة العباس من أبيه وخوفه منه • فاشار عليه أصحابه ان يبتعد عن أبيه فيخرج من مصر • فقبض على الواسطي وقيده ، وخرج الى الاسكندرية على رأس جيش كبير فيه ثمانمائة فارس وعشرة آلاف راجل من سودان أبيه • وحمل معه مالا كثيرا • ثم توجه منها الى برقة ، وقد راودته فكرة تأسيس دولة في أفريقية لكي يستطيع مهاجمة أبيه • فكاتب بعض زعماء القبائل فيها فاجابه قسم منهم ، فأقدم على مغامرة عسكرية • اذ كتب الى أمير بني الأغلب ابراهيم الثاني بان الخليفة قد قلده أمر أفريقية وأعمالها وانه متوجه اليها • وقيل حمل معه من بيت مال مصر (٨٠٠) حمل من الدنانير الذهبية ، ومبلغها ألف ألف دينار ومائتا ألف دينار(٤٩) • فلما دخل بجيشه مدينة لبدة اساء الى أهلها ، واضطر عاملها على الالتجاء الى اطرابلس التي استنجد أهلها بأبي منصور الاباضي المتغلب على مدينة تنوسة ، فزحف هذا لنجدتهم • وكان الأمير ابراهيم قد بعث جيشا الى اطرابلس لحرب ابن طولون ، وقد اشرنا الى ذلك عند الكلام عن الامير الأغلبي ابراهيم الثاني • وقد هزم العباس أقبح هزيمة وكاد ان يقع في الأسر ، مما اضطره على العودة فقبض عليه أبوه وسجنه وقتل عددا من اتباعه ممن زينوا له الخروج على أبيه(٥٠) •

ان قضاء أحمد بن طولون على الاضطرابات والفتن المذكورة ، وعلى تمرد ابنه ساعد على استتباب الأمن الداخلي مما اتاح له فرصة للبناء والتعمير والعمل على تحسين أحوال البلاد • فاهتم بشؤون الري والزراعة مما أدى الى زيادة الانتاج الزراعي في مصر فبلغ خراجها أربعة آلاف ألف وثلاثمائة ألف دينار ، بعد أن كان قبله ثمانمائة ألف دينار(٥١) • وقد ساعده زيادة خراج البلاد على

ان يستغني عن بعض الرسوم التي كانت مفروضة على بعض المرافق • فقد كان احمد بن المدبر لما ولي خراج مصر ، وكان من دهاة الكتاب ، ابتدع بدعا صارت سنة من بعده • فاحاط بالنطرون وحجر عليه بعد ما كان مباحا لجميع الناس ، وقرر على الكلأ الذي ترعاه الماشية رسما سماه «المراعي» وقرر مثله على ما يصاد من البحر وسماه «المصايد» وعرفت هذه الرسوم بـ «المرافق والمعاون» فقرر احمد بن طولون الغاءها وكانت عائداتها السنوية تبلغ مائة ألف دينار(٥٢) •

الخلافة بين الموفق وابن طولون :

نشأ خلاف حاد بين الموفق المهيمن على شؤون الخلافة في سامرا وامير مصر أحمد بن طولون • وسبب الخلاف الرئيس كما يقول المقريزي ان الحرب الطويلة مع صاحب الزنج دعت الموفق ان يكتب الى أحمد من حمل ما يستطيع من المال الى حاضرة الخلافة للاستعانة به في الحرب المذكورة • فبعث اليه ابن طولون ألف ألف ومائتي ألف دينار(٥٣) ، الا ان الموفق استقل المبلغ ، وغضب على ابن طولون وكتب اليه بذلك • فاجاب ابن طولون جوابا فيه كثير من التحدي مما لم يرتح له الأمير الموفق ، فعزم على ان يبعث واليا الى مصر بدلا من أحمد بن طولون ، فالتمس شخصا ذا كفاية ودراية يبعث به ، فلم يرشح له أحد لأن هدايا ابن طولون لقواد الدولة وارباب

---

(٤٩) البيان المغرب ١/١١٨ •
(٥٠) الطبري ٩/٥٤٥ ، والكامل ٧/٣٢٤-٣٢٥ والبيان المغرب ١/١١٨-١١٩ ، والخطط المقريزية ١/٣٢٠ •
(٥١) الخطط المقريزية ١/٩٩ •
(٥٢) الخطط المقريزية ١/١٠٣-١٠٤ •
(٥٣) الخطط المقريزية ٢/١٧٩ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٥٠٨ وفيه ان حمل الى الخليفة الفي الف درهم •

المناصب العليا في سامرا كانت متصلة(٥٤) . فطلب الموفق الى كبير القواد موسى بن بغا ان يصرف ابن طولون عن ولاية مصر ويقلدها اماجور والي دمشق . الا ان اماجور احجم عن مقاتلة ابن طولون للقربى التي بينهما ولقوة جيش ابن طولون . ولذلك اضطر موسى ان يخرج بنفسه على رأس جيش كثيف . فنزل الرقة واقام بها عدة أشهر لم تتوفر له خلالها الأموال اللازمة للجيش ليسير الى حرب بن طولون . فاضطرب عليه اصحابه وملوا الاقامة وطالبوا بأرزاقهم . على ان موسى مرض واشتدت عليه علته فمات(٥٥) .

ولما علم ابن طولون بمسير موسى بن بغـــا بجيش يريد حربه واقصاءه عن ولاية مصر استعد لملاقاتـــه . فأخذ على الجند وسائر الناس البيعة لنفســـه على أن يعادوا من عاداه ويوالـــوا من والاه ويحاربوا من حاربه من الناس جميعا(٥٦) . وهـــذا ما معناه انهم بايعوه على ان يحاربوا الى جانبه ولو كان يحاربه جيش الخليفة . ويمكن الاستنتاج من هـــذا ان ابن طولون كانت تســـاوره فكرة الانفصال التام عن الدولة العربية . فشرع بتحصين المدينة ، فبنى حصنا في الجزيرة ، وهي جزيرة الروضة بين الفسطاط والجيزة ، ليكون معقلا لماله وحرمه وذخائره ، واجتهد في بناء المراكب الحربية واحاطتها بالجزيرة زيادة في تحصينها(٥٧) .

وحينما بلغ ابن طولون نبأ موت أماجور في دمشق ، وكان قد استخلف ابنه في الولاية بعده ، اغتنم الفرصة لضم بلاد الشام اليه . فخرج بجيش كبير واستطاع ان يستولى دون حـــرب على الرملة ودمشق وحمص ، ثم اضطر على محاصرة انطاكية ، لأن واليها سيما

---

(٥٤) الخطط المقريزية ٢/١٧٩ ، والكامل ٧/٣٠٥ .

(٥٥) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢١٨ ، والكامل ٧/٣٠٥ وفيه ان موسى اضطر الى العودة الى سامرا .

(٥٦) تاريخ اليعقوبي ٢/٥١٠ .

(٥٧) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢١٨ ، والخطط المقريزية ٢/١٨٠ وجاء فيه انه احاطها بمائة مركب .

الطويل امتنع عليه • فحاربه ابن طولون واستولى على المدينة عنوة ، فقتل سيما واستباح أمواله • ثم سار الى طرسوس فنزلها بجنوده ، فضاقت بهم وغلت الاسعار فيها ، مما سبب نقمة اهلها فطلبوا اليه الخروج منها • فأمر ابن طولون جنـــده ان يتظاهرا بالهزيمة من المدينة ليوهم الروم بقوة حاميتها وانها استعصت عليه رغم قوة جيشه وكثافته(٥٨) • فعاد منها الى دمشـــق فبلغة خبر خروج ابنه العباس عليه فعاد مسرعا الى مصر لمعالجة الامر •

خرج أهل طرسوس على عامـــل ابن طولون خلف الفرغاني وطردوه وولوا عليهم القائد يازمان الخادم • مما اضطر ابن طولون ان يخرج ثانية الى دمشق لمحاربة أهل طرسوس • وكان الخليفة المعتمد على الله حينذاك قد ضاق ذرعا باستبداد أخيه الموفق بأمور الدولة دونه فاتصل بأبن طولون بدمشق يستنصره على أخيه ، وبعث اليه يعلمه بانه خارج اليه • وقد رحب ابن طولون بالتجاء الخليفة اليه لأن ذلك سيجعل مصر حاضرة الخلافة(٥٩) • مما يدعم مركزه تجاه الامير الموفق ويزيد في استقلال امارته ، وانه لمكسب عظيم لمصر ولأميرها • الا ان محاولة المعتمد في الهرب الى دمشق فشلت • اذ استطاع عامل الموصل اسحاق بن كنداج الخزري ، بايعاز من الموفق ، ان يحتال على الخليفة وحاشيته فمنعهم من السفر وردهم الى سامرا حيث أصبح المعتمد على الله محجوزا عليه •

ولما بلغ ابن طولون ما فعله الموفق بالخليفة ، أمر بكتاب وجهه الى مصر خلع فيه الموفق من ولاية العهـــد لمخالفته الخليفة وحجزه اياه ، جاء فيه ان أبا أحمد الموفق خلع الطاعـــة وبريء من الذمة فوجب جهاده على الأمة(٦٠) • واشهد على ذلك الحاضرين من القواد

---

(٥٨) كتاب الولاة وكتاب القضاة/ ٢٢٠ •
(٥٩) نفس المصدر/٥١٢ •
(٦٠) الخطط المقريزية ١/ ٣٢٠ـ٣٢١ •

والقضاة ، فامتنع عن الشهادة قاضي مصر بكار بن قتيبة ، مما سبب غضب ابن طولون عليه فأمر بسجنه •

وكان بكار بن قتيبة قد ولاه المتوكل على الله قضاء مصر في سنة ٢٤٦هـ وأجرى عليه مائة وثمانية وستين دينارا في الشهر • وكان عفيفا عن أموال الناس ، محمودا في ولايته ، عارفا بالفقه ، يكثر وعظ الخصوم ونصحهم وبخاصة عنـــد اليمين ، ويحاسب أمناءه ويتحرى عن الشهود • وكان ابن طولون يعظمه ويحترمه ، وكثيرا ما كان يتردد على مجلســـه في الحديث ليستمع اليـــه • ومن مظاهر احترامه له أن كان من عادته اذا حضر جنازة لا يصلي عليها غيره الا اذا كان بكار حاضرا فيقدمه للصلاة • الا انه لما امتنع بكار عن لعن الموفق حبسه ونقم عليه • ويقال ان بكـــارا قال : ألا لعنة الله على القوم الظالمين • فقيل لابن طولون انه انما قصدك بهذا القول • مما زاد في غضبه عليه • وكان من عادة ابن طولون ان يبعث الى بكار في كل سنة بألف دينار ، فلما غضب عليه أرسل اليه يستردها منه • فاحضرها بكار من منزله بخواتيمها • وقد طال حبس بكار فطلب أصحاب الحديث الى ابن طولون أن يأذن لهم في السماع منه فأذن لهم ، فكان يحدثهم من طاقة في السجن • وعندما مرض ابن طولون حاول أن يسترضي بكارا ، الا انه رفض ذلك • وقد توفي بكار في أواخر ذي الحجة سنة ٢٧٠هـ ، بعد وفاة أحمد بن طولون بأربعين يوما ، وكان قد تولى القضاء أربعا وعشرين سنة(٦١) •

لقد قطع ابن طولون الخطبة للموفق واسقط اسمه من الطراز ، فلما بلغ الموفق ما عمله ابن طولون طلب الى الخليفة أن يأمر بلعنه ، ففعل المعتمد على الله ذلك مكرها ، لان هواه كان مع ابن طولون(٦٢) • وكتب الموفق الى عمال الولايات يأمرهـــم بلعن ابن طولون على

---

(٦١) لمزيد من التفصيلات راجع : كتاب الولاة وكتاب القضاة/٥٠٧-٥١٢ •
(٦٢) الكامل ٣٩٧/٧ •

المنابر ، وكانت صيغة اللعنة هي اللهم العنه لعنا يفل حده ، ويتعس جده ، واجعله مثلا للغابرين ، انك لا تصلح عمل المفسدين(٦٣) •

وتوجه ابن طولـــون الى أهل طرسوس ليحـــاول استمالتهم بالحسنى ، فوجد يازمان الخادم قد تحصن بالمدينة ، مما اضطره على محاصرتها • الا ان اشتداد البرد وكثرة الامطار والثلوج اضطرته على الرحيل عنها فعاد الى مصر مريضا •

تاسيس مدينة القطائع :

عندما جاء ابن طولون الى مصر سكن دار الامارة في العسكر ، الا ان مماليكه ورجاله ازداد عددهم كثيرا بحيث ضاق بهم العسكر• فقرر ان يختط مدينة في سفح الجبل ، فأمر بحرث قبور اليهود والنصارى وبنى في موضعها القصر والميـــدان • وتقدم الى قواده وغلمانه بان يختطوا لأنفسهم حول القصر ، فاختطوا وبنوا حتى وصل البنــــاء الى الفسطاط • وقد تم البناء بشكل قطائـــع ، أي حارات ، وسميت كل قطيعة باسم من سكنها • فكان للجنود النوبيين قطيعة منفردة سميت بهم ، وللروم قطيعة عرفت بهم أيضا ، كما كان لكل صنف من غلمانه قطيعة خاصة • وبنى القواد في مواضع متفرقة • فعمرت القطائع وتفرقت فيها السكك والأزقة • وبنيت فيها المساجد والاسواق والطواحين والحمامات والأفران • وسميت الاسواق بحسب حرف شاغليها ومهنهم ، كسوق العطارين وسوق البزازين وسوق الصيارفة ••

وهكذا صارت القطائع مدينة كبيرة عامرة ، وبنى الأمير أحمد قصره وجعل له ميدانا كبيرا يستعرض فيـــه الجيش ويلعب كرة الصولجان • وسمي القصر كله الميدان ، وقد عملت له عدة أبواب لكل منها اسم خاص ، أهمها باب الميدان ومنه يدخل ويخرج معظم

---

(٦٣) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٢٩ ، والخطط المقريزية ١/٣٢١ •

الجيش ، وباب الخاصة لا يدخل منه الا خاصة ابن طولون ، وباب الصلاة ومنه يذهب الأمير الى الجامع الكبير الذي شيده ، وعرف هذا الباب بباب السباع لأنه كان عليه صورة سبعين من الجبس ، وباب خاص بمرور الحريم • وكان الطريق الذي يمر فيه ابن طولون واسعا قطع بحائط فيه ثلاثة أبواب كبيرة • وكانت هذه الابواب تفتح كلها في أيــام الأعياد ، أو في يوم عــــرض الجيش ، أو يوم الصدقة ، وما عدا هذه الايام لا تفتح الا بترتيب في أوقات معينة •

واتخذ ابن طولون للقصر مجلس يشرف منه يوم العرض ويوم الصدقة • كما كان على باب السباع مجلس آخر كان يجلس فيه ليلة العيد ليشرف على القطائع ويطلع على أحوال غلمانه فيرى حركاتهم وتصرفهم في حوائجهم ، فاذا رأى في حالة أحدهم نقصا أو خللا أمر له بما يتسع به ، وكان هذا المجلس يشرف على البحر أيضا(٦٤) •

وهكذا كانت القطائع مدينة خاصة لغلمان الأمير ابن طولون وجنده ، والقصر والميدان خاص به(٦٥) •

جامع ابن طولون :

شكا أهــــل مصر الى الأمير أحمد بن طولون ضـــيق المسجد الجامع يوم الجمعة من كثرة جنوده وسودانه ، فأمر بعمارة الجامع الذي عرف باسمه • وقد شيده على جبــــل يشكر ، ويشكر هو اسم قبيلة عربية اختطت عند الفتح بهذا الجبل فعرف بها(٦٦) • وهناك من يقول ان يشكر هو اسم رجل صــــالح كان يسكن بيتا عند هذا الجبل فسمى باسمه ، وقد ادخل هذا البيت في بناية الجامع(٦٧) •

---

(٦٤) راجع عن مدينة القطائع : الخطط المقريزية ٢/٣١٥ـ٣١٦ •
(٦٥) الانتصار/١٢٢ •
(٦٦) الخطط المقريزية ١/١٢٥ •
(٦٧) الانتصار/١٢٣ •

وحينما قرر بناء الجامع طلب ان يبنى مقاوما للغرق والحريق فقيل له يبني بالجير والرماد والآجـــر الأحمر القوي الناري الى السقف ولا يجعل فيه اساطين الرخام فانها لا صبر لها على النار ، فبناه هذا البناء(٦٨) • ويظهر مما ذكره المقريزي انه قدر لسقف الجامع ثلاثمائة عمود من الرخام فقيل له لا يتوفر هذا العدد من الاعمدة الا اذا جمعت من الكنائس المهجورة في الأرياف والضياع ، فانكر ذلك ولم يوافق عليه • وشغل باله في كيفية توفير هذه الأعمدة الضرورية لقيام سقف الجامع • فتقدم اليه مهندس نصراني كان يعمل عنده ، وقـد سبق أن غضب عليه وأمر بسجنـــه(٦٩) ، بانه يستطيع بناء الجامع دون أعمدة سوى عمودي القبلة • ولكي يقنع الأمير ابن طولون باقتراحه صور الجامـــع على قطع من الجلود ، فاعجب ابن طولون بذلك واستحسنه ، فاطلقه من سجنه وخلع عليه ووضـع تحت تصرفـه مائـــة ألف دينـــار وقال لـــه أن ينفق على تشييد الجامع وفق اقتراحه ، واذا ما احتاج الى زيادة في المال زاده له • فبوشر في بنائه في سنة ٢٦٤هـ وتم في سنة ٢٦٦هـ وصلى فيه أحمد أول جمعة ، فطالبه المهندس النصراني بالأمان والجائزة، فقال له : لقد أمنك الله ولك الجائزة • وأمر له بعشرة آلاف دينار وأجرى عليه الرزق الواسع الى أن مات(٧٠) •

ويرى الآثاري «قيولية» ان هذه القصـــة أقرب الى أن تكون مختلقة لتظهر ان استخدام الأعمدة في بناء الجامع ابتكار مصري ، بينما كان قد بني جامعان كبيران باستخدام الاعمدة قبل سنوات قليلة في سامرا التي قدم منها ابن طولـــون ، وكان ولا شك اطلع عليهما وتعرف على طريقة بنائهما(٧١) •

---

(٦٨) نفس المصدر ، والخطط المقريزية ٢/٢٦٦ •

(٦٩) بين المقريزي سبب غضبه عليه وسجنه ـ الخطط المقريزية ٢/٤٥٧ •

(٧٠) راجع عن تفصيلات أخرى عن بناء الجـــامع ـ الخطط المقريزية ٢/٢٦٥ـ ٢٦٦ •

(٧١) Creswell, E. M. A. P 303 .

وتتميز منارة هذا الجامع بان مراقيها من ظاهرها ويطلع اليها بدرج ظاهرة عريضة تسع جملـــين يصعدان اليها • وقد اقيمت خارج الجامع فوق قاعدة مربعة ، وبمصعد داخلي يتمشى حلزونيا ، اضافة الى الدرج الخارجي(٧٣) • ويقال ان سبب عمارتها على هذه الصورة ان احمد بن طولون أخذ يوما وهـــو في مجلسه درج ورق وعبث به باصابعه فخرج بعضه وبقي بعضه • فاستغرب الحاضرون منه ، فقال لهم : اني أريد أن أبني منارة مسجدي الجامع كذلك ، وأمر المهندسين أن يبنوها على ذلك الشكل(٧٤) • ولعله كان بمبثه بدرج الورق يحاول أن يصف لهم منـــارة سامرا الملوية التي كان يعرفها جيدا • ويقول المقريزي انه بنـــاه على غرار جامع سامرا وكذلك المنـــارة(٧٥) • ويؤيـــد ذلك الاســـتاذ مـــارتن بريكز Martin. S. Briggs في الفصل الذي كتبه عن «فن العمارة» في كتاب تراث الاسلام ، عند كلامه عن جامـــع ابن طولون بقوله «ان أهميته في تاريخ العمارة الاسلامية قد نقصت بعض النقص لأننا نلاحظ ان بعض الظواهر المعمارية فيـــه موجودة في بعض أبنية عراقية أقدم عهدا منه • وجامع ابن طولون مسجد جامع كبير يكاد يكون مربع الشكل ، وفيه صحن تحيط بـــه أروقة ذات بوائك • ورواق القبلة أكبر بكثير من الأروقة الاخرى • وبين جدران الجامع وسوره الخارجي أروقة خارجية مكشوفة ••• والسور الخارجي ضخم جدا ، وعليه شرفات زخرفية ••• وفي أسفل شرفات السور صف من طاقات على شكل أقواس مدببة ، وعلى هذه الطاقات ركبت شبابيك من الجص مخرمة ، وتفصل كل طاقة منها عن التي تليها حنيات مدببة ورؤوسها ذات فصوص عديـــدة ، أو فيها زخارف بارزة ••• ويمكننا ان نقول في ثقة واطمئنان ان الجامع الطولوني

---

(٧٢) الانتصار/١٢٤ ، وذكر الجملين هنا لتصوير سعة الدرج •
(٧٣) الفن الاسلامي/٣٤ •
(٧٤) الانتصار/١٢٤ ، وصبح الاعشى ٣/٢٤٠ •
(٧٥) الخطط المقريزية ٢/٢٦٦ •

عراقي الطراز من كل الوجـوه وانه مأخوذ عن نمــاذج في سامرا وبغداد كانت مألوفة لابن طولون في شبابه • وهناك فوق الظواهر المعمارية التي مر ذكرها عناصر أخرى جديدة منها كتابات بالخط الكوفي محفورة بالخشب يتجلي فيها الحــذق والمهارة في استخدام حروف الكتابة في أغراض زخرفية • ومن هذه العنــاصر أيضا الزخارف الملونة ونكات نراها فوق كل السطوح الظاهرة ، وهي أكثر ما تكون مصنوعة من الجص الابيض ، ولكننا نراها فوق ألواح من الخشب في السقف»(٧٦) •

كما ان مـؤلف كتــاب «الفن الاســلامي» ارنست كـولن Ernst Kuhnel يؤيد ان هذا الجامع قد شيد على طراز جامع سامرا(٧٧) • كما اثبت الاثاريــان المعماريان فيوليه وباتريكولو بالبرهان القاطع ان منارة جامع ابن طولون قد بنيت أول الأمر على شاكلة ملوية سامرا ، وان القاعدة المربعة الشكل التي تؤلف الطابق الأول من المنارة قد اضيفت فيما بعد ، وذلك بعد أن أصاب الخراب الجامع في أواخر القرن السابع وقام الأمير المملوكي لاجين الملقب بحسام الدين المنصوري بتجديده في سنة ٦٩٦(٧٨) •

وكانت قد بنيت في مؤخرة الجامع ميضأة وخزانة فيها جميع الشربات والأدوية ، وعليها خدم وفيها طبيب يجلس يوم الجمعة لما قد يحدث للحاضرين للصلاة(٧٩) • كما انشأ ابن طولون الى جوار الجامع تجاه القصر والميدان دارا لها باب من جدار الجامع يخرج منه الى المقصورة بجوار المحراب والمنبر ، واثثت هذه الدار بما يحتاج اليه من الفرش والستائر وكان يجلس بها اذا ذهب الى صلاة

---

(٧٦) تراث الاسلام (لجنة الجامعيين لنشر العلم) ٢/١٣٥ـ١٣٧ •

(٧٧) الفن الاسلامي/٣٤ •

(٧٨) Creswell, E. M. A. P : 315 - 316 .

(٧٩) الانتصار/١٢٣ ، والخطط المقريزية ٢/٢٦٦ و ٤٠٥ •

الجمعة فيجدد وضوءه ويغير ثيابه ، وكان يقال لها دار الامارة(٨٠) .

وبلغت النفقة على الجامع مائة وعشرون ألف دينار(٨١) . وقد طالت الايام بجامع ابن طولون حتى أصابه الخراب في أواخر القرن السابع . فأمر بتجديد عمارته حسام الدين المنصوري . وأوقف املاكا خصص ريعها لنفقات الجامع ، ومن طريف ما جاء في باب النفقات ما يختص بالديكة التي تكون بسطح الجامع في مكان مخصص لها لتعيين المؤذنين على الأوقات ، وضمن ذلك كتاب الوقف(٨٢) .

المارستان :

يقول ابن دقماق لم يكن بمصر قبل أحمد بن طولون مارستان لمعالجة المرضى ، فأمر أحمد ببناء المارستان الذي عرف باسمه ، ثم سمي فيما بعد بالمارستان العتيق أو الاعلى(٨٣) . وقد بني في سنة ٢٥٩هـ ويقال في سنة ٢٦١هـ ، ولعله كمل بناؤه في السنة الأخيرة . وقد بني فيه اضافة الى القاعات والغرف حمامان أحدهما للرجال والآخر للنساء . ولما فرغ من بنائه حبس عليه ايرادات بعض الاملاك كالقيسارية وسوق الرقيق . وبلغ مجموع ما انفق على المارستان ومستغله ستين ألف دينار . وكان ابن طولون اشترط ان لا يعالج فيه جندي ولا مملوك ، اي أنه خصص لعامة الناس . وكان اذا جيء بالعليل تنزع ثيابه ويؤخذ ما عنده من المال ويحفظ ذلك عند امين المارستان ، ثم يلبس ثيابا ويفرش له ، ويغدى عليه ويراح بالادوية والاغذية والأطباء حتى يشفي فيأمر بالانصراف بعد أن يعطى ماله وثيابه . وكان الأمير أحمد يتفقد أحوال

---

(٨٠) الخطط المقريزية ٢/٢٦٩ .

(٨١) نفس المصدر ٢/٢٦٦ ، والانتصار/١٢٢ ، والنجوم الزاهرة ٣/٨ .

(٨٢) الانتصار/١٢٤ .

(٨٣) نفس المصدر/٩٩ .

المارستان فيركب اليه في كل يوم جمعة ويطلع على خزائن المارستان وما فيهـــا ، وعلى أحوال الأطبـــاء ، وينظـــر ســـائر المرضى والمحبوسين فيه من المجانين · ويذكر المقريزي حادثة وقعت للأمير مع مجنون من نزلاء المارستان ، ترك ابن طولون بعدها زيارته(٨٤) ·

وفاة أحمد بن طولون :

مرض أحمد بن طولون حينما خرج الى طرسوس وسار منها الى أذنة والمصيصة وكان البرد شديدا · ويقال انه اقام في انطاكية لبضعة أيام أكثر فيها من شرب لبن الجاموس ، فأصيب بالاسهال · وقد فشـــل طبيبه الخاص سعيد بن توفيل الذي كان يصـــحبه في سفره ، في معالجته لأنه لم يكن يلتزم بالحمية التي فرضها عليه · ولما اشتدت عليه علته اراد العـــودة الى مصر ، فثقل عليه ركوب الدواب ، فعملت له عجلة كانت تجـــر بالرجال وطئت له · فلما وصل الى الفرما ركب الماء الى الفسطاط(٨٥) · ويقول ابن الأثير ان ابن طولون اصابته هيضة من أكل لبن الجاموس ، واتصلت حتى صار منها ذرب ، وكان الأطباء يعالجونه وهو يأكل سرا ، فلم ينجع الدواء(٨٦) ·

ولما وصل ابن طولون مصر اشتدت عليـــه علته فأمر الناس بالدعاء له ، فغدا الناس بالدعاء بما فيهم النساء والأطفال ، وحضر اليهود والنصارى كذلك للدعاء له(٨٧) · وما لبث ان مات ليلة الأحد

---

(٨٤) للاطلاع على مزيد من التفصيلات عن المارستان الطولوني ، راجع : الخطط المقريزية ٢/٤٠٥–٤٠٦ ، والانتصار/٩٩ ·

(٨٥) عيون الانباء/٥٤٢ ، والنجوم الزاهـــرة ٣/١٧–١٨ وجاء فيه انه نقل في محفة يحملها الرجال ·

(٨٦) الكامل ٧/٤٠٩ ·

(٨٧) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٣١ ، وشذرات الذهب ٢/١٥٧ ·

لعشر خلون من ذي القعدة سنة ٢٧٠هـ(٨٨) • ولما بلغ نبأ وفاته الخليفة المعتمد على الله جزع وحزن عليه •

كان أحمد بن طولون ، كما تصفه المصادر ، شجاعا جوادا متواضعا ، حسن السيرة ، يتفقد أحوال رعاياه ، صادق الفراسة ، ذا حدس ثاقب • يباشر الامور بنفسه ، ويحب رجال الدين والعلم • وكان اذا جرت منه اساءة استغفر وتضرع بالدعاء • الا انه مع ذلك كان قاسيا طائش السيف • ويقال انه احصي من قتلهم صبرا ومن ماتوا في حبسه فكان عددهم ثمانية عشر ألفا • وكان كثير الصدقات وراتبه لذلك ألفا دينار في كل شهر • كما كانت مطابخه مفتوحة لعامة الناس يذبح فيها البقر والكباش ، ويغرف الطعام للناس في القدور والقصاع • ويقال ان المشرف على صدقاته قال له انه قد تمتد اليه الكف الناعمة فيها الخاتم والمعصم فيه السوار ، فقال له: هؤلاء المستورون الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، فاحذر ان ترد يدا امتدت اليك واعط كل من يطلب منك(٨٩) •

وخلف أحمد بن طولون من الأولاد ثلاثة وثلاثين ، منهم سبعة عشر من الذكور اشتهر منهم العباس ، وخمارويه ، ومضر ، وشيبان ، وأبو العشائر(٩٠) • وخلف في خزائنه من الذهب عشرة آلاف ألف دينار . ومن المماليك سبعة آلاف مملوك ، ومن الغلمان أربعة وعشرون ألف غلام ، ومن الخيل سبعة آلاف فرس ، ومن مراكبه الجياد مائة ، ومن البغال والحمير ستة آلاف رأس(٩١) •

---

(٨٨) كتاب الولاة وكتاب القضاة /٢٣١ ، والخطط المقريزية ١/٣٢١ • والطبري ٩/٦٦٦ وجاء فيه انه توفي يوم الاثنين لثمان عشرة خلت من ذي القعدة •

(٨٩) للمزيد من التفصيلات راجع : الخطط المقريزية ١/٣١٦ ، والنجوم الزاهرة ٣/١-٢١ •

(٩٠) النجوم الزاهرة ٣/٢٠ ، وشذرات الذهب ٢/١٥٧ •

(٩١) النجوم الزاهرة ٣/٢١ •

٣ ـ خمارويه بن أحمد بن طولون والنزاع مع الخلافة :

عندما توفي الأمير أحمد بن طولون بايع الجند ابنه خمارويه بالولاية على مصر خلفا له • وقد امتنع أخوه العباس ، وهو أكبر أخوته ـ عن مبايعته فأمر بحجزه ، وكان ذلك آخر العهد به ، ويقال انه أمر بقتله(٩٢) • وقد ولي خمارويه الفقيه محمد بن عبدة بن حرب البصري القضاء ، وكانت مصر قد بقيت بعد موت بكار بن قتيبة بغير قاض زهاء سبع سنوات • نظر خلالها ابن عبدة في المظالم ، وكان سخيا مهيبا ، يرهبه الشهود ، ويجله الامير خمارويه ويعظمه ويجرى عليه كل شهر ثلاثة آلاف دينار ، وقد فوض اليه مع القضاء النظر في المظالم والمواريث والاوقاف والحسبة • وامتاز ابن عبدة بالجرأة وقوة الحجة بحيث لما اختلف الامير خمارويه مع بعض كبار قواده توسط بينهم وأصلح الحال ، فشكر له الأمير سعيه • وكان لابن عبدة مجلسان أحدهما للفقه يحضره الفقهاء ، والآخر للحديث يحضره الحفاظ • ولم يزل بنظر في القضاء وغيره مما فوض اليه الى ان قتل أبو الجيش خمارويه • فلما تولى ابنه جيش امارة مصر أقره على عمله ، فاستمر حتى خلع الأمير ، فرجع الى داره واستتر خوفا من الفتنة • وعندما تولى محمد بن سليمان الكاتب امرة مصر من قبل الخليفة المكتفي بالله اعاد ابن عبدة الى منصب القضاء • فلبث فيه يسيرا ثم سار الى العراق صحبة محمد بن سليمان واقام فيه الى ان مات في سنة ٣١٣هـ(٩٣) •

أما علاقة خمارويه بالخلافة فقد استمرت القطيعة التي حدثت في أيام أبيه مع الموفق بسامرا • فاستغل والي الموصل اسحاق بن كنداج ووالي أرمينية ابن ابي الساج الفرصة وكاتبا الموفق يستمدانه على محاربة خمارويه ، فامرهما بمحاربته ووعدهما

(٩٢) نفس المصدر ٤٩/٣ ، وكتاب الولاة وكتاب القضاة /٢٣٢ •
(٩٣) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٥١٦ـ٥١٨ •

بالمساعدة وانفاذ الجيوش اليهما(٩٤) • فقصـــدا ما يجاورهما من البلاد فاستوليا عليها • واعانهما والي ابن طولون في دمشق فاعلن عصيانه على خمارويه ، مما سهل لهما الاستيلاء على حلب وحمص وانطاكية • فبلغ الخبر خمارويه فسير جيشا الى بلاد الشام فدخل دمشق ثم سار لمقابلة جيش ابن كنداج وابن ابي الساج في شيزر • فطاوله اسحاق حتى وصله المدد من العراق بقيادة ابي العباس أحمد بن الموفق ، فاشتبك الطرفان وتغلب الجيش العراقي ، وجلا جيش ابن طولون عن دمشق الى الرملة •

ان هزيمة جيش خمارويه اضطرته على ان يخرج بنفسه على رأس جيش كبير • فالتقى بجيش أبي العباس عند الماء الذي عليه الطواحين قرب الرملة ، فدارت معركة عرفت بمعركة الطواحين ، هزم بها خمارويه وعاد هاربـــا الى الفسطاط • الا ان قسما من جيشه بقيادة سعد الأيسر ثبت في القتـــال واستطاع ان يهزم أبا العباس ويطارده حتى استرجع دمشق منه • ويظهر ان سعدا لما رأى خمارويه يهرب من ميدان المعركة استخف به فعصى بدمشق ، مما اضطر خمارويه على العودة ثانية اليهـــا فدخلها وقبض على سعد وقتله(٩٥) •

ويقول ابن الاثير ان خمارويه عامل اسرى جيش ابي العباس معاملة لم يسبقه الى مثلها أحد من القواد قبله • فقال لاصحابه ان هؤلاء أضيافكم فأكرموهم ، وقال للاسرى من اختار المقام عندي فله الاكرام والمواساة ومن اراد الرجوع جهزناه وسيرناه ، فمنهم من أقام ومنهم من سار مكرما(٩٦) •

---

(٩٤) الكامل ٧/٤١٠ •

(٩٥) كتاب الولاة وكتاب القضاة /٢٣٥-٢٣٦ ، والطبري ١٠/٨ ويسميه سعد الاعسر ، والكامل ٧/٤١٥ ويسميه سعيد الايسر •

(٩٦) الكامل ٧/٤١٥ •

وكان اسحاق بن كنداج قد سار بجيشه ثانيــة نحو الشام لاسترجاعها من الطولونيين ، فعاد خمارويه على رأس جيشه ، فالتقى بجيش اسحاق فهزمه حتى عبر الفرات ، كما استطاع التغلب على جيش ابن ابي الساج الذي كان يسير نحو دمشق فهزمه حتى عبر نهر الفرات كذلك(٩٧) ٠

واستطاع خمارويه ان يستميل اليه يازمان الخادم المتغلب على طرسوس ، فعاد الى طاعته ودعا له بعــد ان كان خرج على أبيه ، فانفذ اليه ثلاثين ألف دينار وخمسمائة مطرف وسلاحا(٩٨) ٠ ويبدو ان تغلب خمارويه على القائدين ابن كنداج وابن ابي الساج كان له تأثيره على يازمان وقــدر انه لن يقوى على الصمود أمــام جيش خمارويه اذا ما هاجم طرسوس ، فاثر الصلح على الهزيمة ٠

ويظهر ان معركة الطواحين والمعارك التي تلتها اقنعت كلا من أبي العباس أحمد بن الموفق وخمارويه بن أحمد بن طولون بأن استمرار النزاع بينهما غير مجد ، فمال كل منهما نحو المصالحة ٠ فكتب خمارويه الى ابي أحمد الموفق يسأله الصلح على مال يبذله عن ما في يده من البلاد ٠ فاجابه أبو احمد الى ذلك ، وكتب اليه كتابا قدم به فائق الخادم الى الفسطاط في رجب سنة ٢٧٣هـ يذكر فيه ان الخليفة المعتمد على الله وأبا أحمد الموفق وابنه أبا العباس كتبوه بايديهم ، بولايــة خمارويه وولده مدة ثلاثين ســنة على مصر والشامات ٠ فأمر خمــارويه بالدعاء لأبي أحمد وتــرك الدعاء عليه(٩٩) ٠

وعند وفاة الموفق في سنة ٢٧٨هـ تولى ابنه أبو العباس أحمد ما كان يتولاه أبوه ، واستحوذ على عمه الخليفــة المعتمد على الله ،

---

(٩٧) نفس المصدر ٧/٤٢٧ــ٤٢٨ ٠
(٩٨) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٣٩ ، والطبري ١٠/١٨ ، والكامل ٧/٤٣٩ ٠
(٩٩) كتاب الولاة وكتاب القضاة /٢٣٧ــ٢٣٨ ، والنجوم الزاهرة ٣/٥١ــ٥٢ ٠

وأصبح وليا للعهد . وتوفى الخليفة في السنة التالية فبويع لأبي العباس بالخلافة ولقب بالمعتضد بـــالله . فبعث اليه خمارويه بن أحمد بن طولون بهدايا وتحف ، اذ قدم الحسين بن عبدالله المعروف بابن الجصاص من مصر «ومعه هدايا من العين عشرون حملا على بغال وعشرة من الخدم وصندوقان فيهما طراز وعشرون رجلا على عشرين نجيبا بسروج محلاة بحلية فضة كثيرة ، ومعهم حراب فضة، وعليهم أقبية الديباج والمناطق المحلاة وسبععشرة دابة ، بسروج ولجم منها خمسة بذهب والباقي بفضة ، وسبع وثلاثون دابة بجلال مشهرة ، وخمسة بغل بسروج ولجم ، وزرافة ، يوم الاثنين لثلاث خلون من شوال ، فوصل الى المعتضد ، فخلع عليه وعلى سبعة نفر معه . وسفر ابن الجصاص في تزويج ابنـــة خمارويه من علي بن المعتضد ، فقال المعتضد : أنا أتزوجها، فتزوجها»(١٠٠) . ولما تصاهر خمارويه مع المعتضد بالله زالت الوحشة التي كانت بينهما ، فولده خمارويه مع المعتضد بالله زالت الوحشة التي كانت بينهما ، فولاه المعتضد بالله من الفرات الى برقة وجعل اليه الصلاة والخراج وجميع الاعمال على ان يحمل خمارويه الى المعتضد بالله في كل عام مائتي ألف دينار عما مضى وثلاثمائة ألف دينار عن كل عام للمستقبل ، ثم قدم رسول الخليفة الى خمارويه بالخلع وكانت اثنتي عشرة خلعة وسيفا وتاجا ووشاحا(١٠١) .

اهتمام خمارويه بالبناء والتعمير :

بعد ان انهى خمارويه مشاكله مع الخلافة واستقر حكمه على مصر وبلاد الشام والثغور انصرف الى البناء والتعمير ، ويظهر انه

---

(١٠٠) الطبري ١٠/٣٠ ، والنجوم الزاهرة ٣/٥٢-٥٣ .

(١٠١) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٤٠ ، والنجوم الزاهرة٣/٥٣ ، والطبري ١٠/٤٢ وجاء فيه ان المعتضد بلغه نبأ وفاة خمارويه فأمر الرسول بالرجوع اليه .

كان شغوفا بذلك ، وقد ساعده ما وجده في بيت المال من ذهب وأموال طائلة على ان ينفق ببذخ واسراف على ما انشأه من القصور والحدائق والمتنزهات • وقد اسهب المقريزي في تعداد ووصف منشآته وما انفقه عليها من الاموال مما يدل على ميله للبذخ وحبه الترف • فزاد في قصر أبيه ووسعه كثيرا بما اضافه اليه ، فعمل فيه مجلسا برواق سماه «بيت الذهب» طلي حيطانه كلها بالذهب المزين باللازورد بأحسن النقوش ، وجعل فيه صورا بارزة من الخشب تمثله مع الحظايا والمغنيسات وعلى رؤوسهن الأكاليل من الذهب مرصعة باصناف الجواهر ، ولونت أجسامها بما يشبه الثياب بالاصباغ العجيبة(١٠٢) •

وجعل بين يدي بيت الذهب فسقية ملأها زئبقا لأنه شكا الى طبيبه الأرق فأشار عليه بعمل بركة من الزئبق • فعمل بركة مربعة طول ضلعها خمسون ذراعا وملأها بالزئبق ، وجعل في أركان البركة سككا من الفضة الخالصة وجعل في السكك زنانير من حرير محكمة الصنع في حلق من الفضة وعمل فراشا من الجلد يحشى بالهواء حتى ينتفخ فيحكم شده ويلقى على تلك البركة ويشد بزنانير الحرير التي في حلق الفضة ليثبت في مكانه ، فينام على هذا الفراش ، ولايزال الفراش يرتج ويهتز بحركة الزئبق مادام عليه • وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به ، فكان يرى لها في الليالي المقمرة منظر عجيب اذا تألق نور القمر بنور الزئبق • وانفق على ذلك مالا طائلا • وقد أقام الناس بعد خراب القصر مدة يحفرون لجمع الزئبق من شقوق البركة(١٠٣) •

أما الميدان الذي انشأه أبوه فقد جعله بستانا زرع فيه أصناف الاشجار وأنواع النخيل ، وحمل اليه من مختلف البلدان أصنافا من

---

(١٠٢) الخطط المقريزية ١/٣١٦ـ٣١٧ ، والنجوم الزاهرة ٣/٥٤ ، وفيه انه بنى دار الذهب في البستان •

(١٠٣) الخطط المقريزية ١/٣١٧ ، والنجوم الزاهرة ٣/٥٥ ، والانتصار/١٢٢ •

الشجر المطعم ، وغرس فيه أنواع الورود ، وزرع الريحان على شكل نقوش وكتابات يتعهدها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة • وزيادة في البذخ كسا جذوع النخيل نحاسا مذهبا حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجسام النخل أنابيب الرصاص يجري فيها الماء ليخرج من تضاعيف جذع النخل فينحدر الى فساقي يفيض منها الماء الى مجاري تسقي البستان • وبنى في البستان برجا واسعا من خشب الساج المنقوش بالنقر ، ليقوم مقام الأقفاص ، وبلط أرضه وزوقه بأصناف الأصباغ • وسرح فيه أصناف القمارى والطيور الجميلة • وجعل فيه أوكارا مثبتة في جوف الحيطان لتفرخ فيها • وسرح في البستان الطواويس ودجاج الحبش ونحوه(١٠٤) •

وشيد في القصر فيه شاهقة الارتفاع سماها «الدكة» كانت من أجمل مباني القصر بزخارفها ونقوشها وألوانها ، وجعل على نوافذها الستائر التي تقي الحر والبرد ، فتسبل اذا شاء ، وترفع اذا أحب • وفرش أرضها بالفرش النادر الثمين ، وعمل لكل فصل من فصول السنة فرشا يليق به • وكان خمارويه كثيرا ما يجلس في هذه الدكة ليفرج منها على جميع ما في داره من البستان وغيره ، ويشرف على الصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة(١٠٥) •

وبنى للوحوش التي كانت عنده دورا مفردة لكل صنف من الحيوان كالنمور والفهود والسباع والفيلة والزرافات • وكان يحب الاسود كثيرا فبنى لها دارا خاصة في قصره ، فيها قاعات تسع كل منها أسد ولبوته • ولتلك البيوت أبواب تفتح من أعلاها ومنفذ صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت • وفي كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء • وأمام هذه

---

(١٠٤) الخطط المقريزية ٣١٦/١ ، والنجوم الزاهرة ٥٣/٣-٥٤ •

(١٠٥) الخطط المقريزية ٣١٧/١ ، والنجوم الزاهرة ٥٦/٣ •

البيوت قاعة فسيحة فرش فيها الرمل ، فاذا أراد سائس سبع من تلك السباع تنظيف بيته أو وضع اللحم المعين لغذائه رفع الباب بحيلة من أعلى البيت وصاح بالسبع فيخـــرج الى القاعة المذكورة ، فيرد السائس الباب وينزل الى البيت من المنفذ الصغير فيبدل الرمل بغيره مما هو نظيف ، ويضـــع اللحم في مكانه المعين ، ويغســـل الحوض ويملؤه ماء ثم يخرج ويرفع الباب من أعلاه • وقد عرف السبع ذلك فحالما يرفع السائس باب البيت يدخل اليه السبع • وهناك أوقات معينة تنتح فيها سائر البيوت فتخرج السباع الى القاعة الفسيحة وتتمشى فيها وتمرح وتلعب ويهارش بعضها بعضا . وتقيم على ذلك حتى يصيح بها السواس فيدخل كـــل سبع الى بيته لا يتخطاه الى غيره(١٠٦) •

وكان عند خمارويه سبع أزرق العينين سماه «زريق» قد أنس بسيده وصار مطلقا في الدار لا يـــؤذي أحدا • فاذا نصبت المائدة أقبل زريق معها وربض بين يـــدي خمارويه فيرمي اليه الدجاجة والنضلة الصالحة من الجدي ونحو ذلك مما على المائدة فيتفكه بها • وكان زريق يحرس خمارويه اذا نام . فاذا كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير وجعل يراعيه مادام نائما ، وان كان نائما على الأرض بقي قريبا منه . وانتبه لمن يدخل ويقصد خمارويه ولا يغفل عن ذلك لحظة • وقد ألف ذلك ودرب عليه . وكان في عنقه طوق من الذهب(١٠٧) •

وفاة خمارويه :

دام حكم خمارويه اثنتي عشرة سنة . وكانت نهايته انه قتل في دمشق في منتصف ذي الحجة سنة ٢٨٢هـ على أيدي بعض خدمه ،

---

(١٠٦) الخطط المقريزية ٣١٧/١ . والنجوم الزاهرة ٥٦/٣ـ٥٧ •
(١٠٧) الخطط المقريزية ٣١٧/١ . والنجوم الزاهرة ٥٧/٣ •

وهناك عدة روايات عن سبب وكيفية قتله(١٠٨) • فحمل في تابوت من دمشق الى مصر • كان خمارويه جـــوادا الى حد الاسراف ، متلافا للمال ، انفق أموالا طائلـــة في تزيين قصوره ومجالســه • شغوفا بالصيد وسباق الخيل ، وقد بنى ميدانـــا للسباق أكبر من ميدان أبيه ، وكانت حلبة السباق في أيامه تقوم مقام الأعياد لكثرة مايتخذ فيها من الزينة ، وركوب سائر الغلمـــان والعساكر على كثرتهم بالسلاح التام والعدد الكاملة ، فيخرج الناس للتفرج عليهم • وكان عرض الخيل هذا يعتبر من عجائب الاسلام الأربع التي منها هذا العرض ورمضان بمكة والعيد بطرسوس والجمعة ببغداد(١٠٩) •

وكان خمارويه شديد الاهتمام بجيشـــه فلا يؤخر أرزاقهم ، وقد بلغت في أيامه تسعمائة ألف دينار في السنة . وقد سار على نهج أبيه في فتح مطبخه للناس وسماه بمطبخ العامة وبلغت نفقته على عهده ثلاثة وعشرين ألف دينار في كل شهر(١١٠) •

وصف خمارويه بأنه كان طويل القامة مهيبا ذا سطوة ، اذا سار في موكبه لا يسمع من أحـــد كلمة ، ولا عطسة ولا سعلة ولا نحنحة البتة ، كان الناس على رؤوسهم الطير ، لما وقع في أذهانهم انه متى اشار اليه أحد بيده أو قرب منه لحقه مكروه عظيم ، وقد اتخذ لنفسه حرسا خاصا من أبناء الحوف المعروفين بالشجاعة والبأس وضخامة الجسم ، وادر عليهم الارزاق والعطاء ، وألبسهم الأقبية وجواشن الديباج ، وصاغ لهم المناطق العراض الثقال . وقلدهم السيوف المحلاة يضعونها على أكتافهم ، اضافة الى ألف من السودان لهم درق الحديد وعليهم أقبية وعمائم سود فيخال الناظر اليهم بحرا

---

(١٠٨) كتاب الولاة وكتاب القضـــاة/٢٤١ ، والخطط المقريزية ١/٣٢١-٣٢٢ والكامل ٧/٤٧٤-٤٧٥ •

(١٠٩) الخطط المقريزية ١/٣١٨ •

(١١٠) الخطط المقريزية ١/٣١٨ ، والنجوم الزاهرة ٣/٥٩ •

أسود يسير لسواد لونهم وثيابهم ، ويصير لبرق درقهم وسيوفهم والبيض تلمع على رؤوسهم تحت العمائم ، منظر بهيج(١١١) •

٤ ـ نهاية امارة بني طولون :

لم تدم امارة بني طولون بعد وفاة خمارويه الا يسيرا • فقد تولى الامارة بعده ابنه أبو العساكر جيش الذي خلعه أخوه هارون وتولى الامارة مكانه • وفي عهد هارون عاث القرامطة في بلاد الشام وحاصروا عامل الطولونيين عليها وهزموا جيشه مما اضطر الخليفة المكتفي بالله أن يرسل في سنة ٢٩٠هـ جيشا من العراق بقيادة محمد بن سليمان الكاتب لحرب القرامطة فهزمهم وشتت شملهم(١١٢) • وحينئذ رأى الخليفة ان لا مبرر لبقاء الأمير الطولوني الضعيف . فبعث القائد المذكور واليا على مصر وأمره بازالة آل طولون من مصر والشام • فدخل محمد بن سليمان مصر في أواخر ذي الحجة سنة ٢٩١هـ فبرز هارون لقتاله وحاربه أياما الا انه استسلم اخيرا فقبض ابن سليمان على بني طولون وهم بضعة عشر رجلا وحبسهم واستصفى أموالهم ، ثم اشخصهم الى بغداد(١١٣) • وبذلك انتهى عهد الامارة التي اسسها أحمد بن طولون في مصر •

ولعل أهم أسباب ضعف امارة بني طولون بعد مؤسسها ، وسقوطها بهذه السرعة ان أمراءها كانوا غرباء عن مصر ، وقد اتخذوا لحراستهم أقواما ماجورين وأغلبهم من الأجانب • كما ان

---

(١١١) نفس المصدر ، والنجوم الزاهرة ٣/٥٩ـ٦٠ •

(١١٢) الطبري ١٠/١٠٧ ، وتاريخ ابن خلدون ٣/٧٤٧ـ٧٤٨ •

(١١٣) الطبري ١٠/١١٥ـ١١٦ و ١١٨/١١٩ ، وتاريخ ابن خلدون ٣/٧٤٨ •

جيشهم كان في أغلبيته وبخاصة قواده من الأتراك • ومن الطبيعي انمثل هذاالحكم لايستقيم الاا اذاكان على رأسه رجل ذوشخصيةقوية وكفاية عالية كأحمد بن طولون مؤسس الامارة ، والا فسرعان ما يدب الضعف فيه وينهار • ومما سرع في نهاية هذه الامارة النزاعات التي قامت بين أفراد الاسرة منذ أيام خمارويه وبعده للاستحواذ على السلطة ، ثم انصراف الأمراء الى اللهو وحياة البذخ والترف •

الفصل الرابع

امارة الصفارين

١ ـ تاسيس الامارة :

نشأت هذه الامارة في ولايـــة سجستان في القسم الشرقي من الدولة العربية • أسسها يعقوب بن الليث الذي كان أول أمره يعمل في صنع الصفر ، ولهذا عرفت بامـــارة الصفارين • ويظهر ان يعقوب كان شجاعا طموحا ذا حيلة ودهاء • فقد عمل هو وآخوته مع المتطوعين في مقاومة الخوارج الذين استفحل أمرهم في تلك الولاية • واستطاع بتدبيره وحسن سياسته أن يتولى رئاسة هؤلاء المتطوعين ، وقد اكسب عمله صفة الشرعية باعتبار ان المتطوعين يعملون لنصرة الخلافة في مقاومة المارقين • وجد في محاربة الخوارج حتى اقتاهم ، فاشتدت شوكته واطاعه أصحابـــه ، ورأى انه يستطيع توجيههم لامتلاك سجستان • فاستغل ضعف الطاهريين الذين انهمكوا في حياة الترف وركنوا الى الراحة ، وكانت سجستان احدى الولايات التابعة لهم • فثار يعقوب مع اتباعه يعاملهم عليها في سنة ٢٥٣هـ ، وانتزع الولاية منه ، وانفرد بحكمها متظاهرا بطاعة الخليفة ومدعيا بانه هو الذي أمره بقتال الخوارج(١) •

---

(١) الكامل ٧/١٨٤ـ١٨٥ •

يقول اليعقوبي ان الشراة كادوا ان يتغلبوا على سجستان ، فسأل يعقوب ابن الليث الصفار محمد بن عبدالله بن طاهر أمير خراسان ، وكانت سجستان تابعة له ، بأن يأذن له في جمع المتطوعين والخروج اليهم ، فاذن له بذلك • فقاتل يعقوب الشراة حتى أبادهم في سجستان وكرمان فعظم شأنه • فكتب الخليفة المستعين بالله الى محمد بن عبدالله ان يوليه كرمان[٢] • ويرجح ان اليعقوبي وأهم فيما يتعلق بكرمان لأن يعقوب دخلها في سنة ٢٥٥هـ[٣] وكان قد استولى على فارس في نفس السنة ودخل شيراز[٤] • ولما عاد الى سجستان بادر الخليفة المعتز بالله بارسال عماله الى أعمال فارس ، مما يدل على عدم رضائه عن اعمال يعقوب ، رغم انه كتب اليه بطاعته ووجه اليه بدواب وبزاة ومسك هدية ، كما سنشير اليه فيما بعد •

على ان طموح يعقوب الصفار لم يقف عند حدود سجستان ، بل اخذ يعمل على توسيع رقعة سلطانه • وحاول ان يظهر بمظهر من يجاهد في سبيل الاسلام تحت راية الخليفة • فهاجم ممالك الترك المتاخمة لحدود سجستان وحارب ملوكها وقتل بعضهم فهابه الآخرون واذعنوا له • فأمن بذلك الحدود الشرقية لولايته ، واخذ يتطلع الى الولايات المحيطة به ، وكانت ضمن سلطان الطاهريين الذين طمع يعقوب باملاكهم • ان الأمعان في تتبع خطوات يعقوب الصفار في توسيع سلطانه يظهر انه كان قد اتخذ طريقة جديدة للقضاء على الدولة العربية ، وذلك باقتطاع أجزائها من ولاتها بحجة الانتصار للخلافة • وبدلا من أن يعلن الخروج على الدولة يسيطر عليها بأن يجعل الخليفة تحت حمايته • وقد استطاع ان يحقق ذلك الى حد بعيد مستفيدا من ضعف الطاهريين من جهة ،

---

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٥ •
(٣) الطبري ٩/٣٨٢ ، والكامل ٧/١٩١ •
(٤) الطبري ٩/٣٨٦ ، والكامل ٧/١٩٤ •

وانشغال جيوش الدولة بحرب الزنج من جهـــة أخرى • وتنفيذا لسياسته هاجم يعقوب في سنة ٢٥٣هـ هراة من خراسان ، فخرج اليه محمد بن أوس الانباري عامل الطاهريين عليها لرد هجومه ، الا انه هزم ، واستولى يعقوب على مدينتي هراة وبوشيخ(٥) •

٢ ـ توسع الامارة :

الاستيلاء على فارس وكرمان :

بعث يعقوب الصفار الى الخليفـــة المعتز بالله هدية سنية من جملتها مسجد من الفضة يتسع لخمسة عشر شخصا ، وسأله الولاية على فارس • وقبل أن يصل اليه جواب الخليفة شخص بجيشه نحو كرمان(٦) • وكان عامل الطاهريين على فارس علي بن الحسين بن سبل قد كتب الى الخليفة يطلب الولايـــة على كرمان • فكتب اليه الخليفة بولاية كرمـــان ، وكتب بنفس الوقت الى يعقوب الصفار بولايتها ايضا • وكان يهدف الى اغراء كل منهما بالآخر ليتخلص من أحدهما ، لعلمه بان طاعتهما للخلافة ظاهرية وانهما يريدان التوسع على حسابها • فارسل علي بن الحسين الى كرمان جيشا على رأسه طوق ابن المغلس ، فسار اليها واستولى عليها • فاقبل يعقوب على رأس جيشه وأقـــام قريبا من المدينة ، فلم يخـــرج طوق الى محاربته • فعمد يعقوب الى الخداع فأظهر الارتحال عن المدينة ، وعاد بجيشه مرحلتين عنها • فظن طوق انه عاد ادراجه عاجزا عنه ، فركن الى الراحة واللهو • فكر يعقوب راجعا بسرعة وطوى المسافة في يوم واحد ، وأحاط بطوق وأصحابه الذين بادروا الى الهرب ، فأسر طوقا واستولى على المدينة • ويقال ان يعقوب لما نزع خفه من رجله تناثرت منه كسر خبز يابسة ، فقال : يا طوق هذا خفي لم

---

(٥) الكامل ١٨٥/٧ ، ووفيات الاعيان ٤٤٦/٥ •

(٦) وفيات الاعيان ٤٤٧/٥ •

أنزعه منذ شهرين ، وخبزي في خفي منـــه آكل ، ولا أطأ فراشا ، وانت جـــالس في الشرب والملاهي ، بهذا التدبـــير أردت حربي وقتالي(٧) ؟

ولما بلغ علي بن الحسين ما فعله يعقـــوب بطوق ايقن بانه سيهاجم شيراز للاستيلاء عليها ، فجمـــع جيشه واستعد لملاقاته ، وتحرك نحو مضيق واقام على رأسه ، وهو ضيق لا يمكن اجتيازه طالما كان الجيش عليه • فعبر يعقوب النهر باصحابه وصار خلف جيش علي وقطع عليه طريق الرجعـــة ، وبذلك أسر عليا وهزم جيشه • فقيده يعقوب واحتـــوى على جميع ما في عسكره ، ودخل شيراز فنهب جيشه دور علي وأصحابه ، واستولى هو على ما في بيت المال ، وجبى الخراج ثم عاد الى سجستان ظافـــرا(٨) • ويقال ان يعقوب لما عبر النهر اشتبك بحرب شديدة مع جيش علي وهزمه ودخل مدينة شيراز وكان يظن ان أهلها سيقاومونه فيستحل دماءهم وأموالهم • الا انهم ركنوا الى المســـالمة وأقاموا في بيوتهم ، مما اضطره على أن ينـــادي بالأمان • فاطمأن الناس وخرجـــوا الى أعمالهم • وأخذ يعقوب من أموال علي ألف بدرة ويقال اربعمائة ، ومن السلاح والخيول وغير ذلك ممـــا لا يعد(٩) • وعذب علي بن الحسين بأنواع العذاب فاستخرج منه أربعة آلاف ألف درهم • وكان يعقوب وعد اصحابه بان يسمح لهم بنهب مدينة شيراز ، فعوضهم عن نهبها بثلاثمائة درهم لكل رجل(١٠) •

كتب الصفار الى الخليفة يعلمه بانتصاره ويتقدم اليه بالطاعة، وبعث مع رسالته هدية من البزاة والمسك وطرائف أخرى ، ثم عاد الى سجستان ومعه أسيريه علي بن الحسين وطوق بن المغلس ، ولما

---

(٧) الطبري ٩/٣٨٤ ، والكامل ٧/١٩٢ •
(٨) الطبري ٩/٣٨٥-٣٨٦ . والكامل ٧/١٩٣ •
(٩) الكامل ٧/١٩٤ •
(١٠) وفيات الاعيان ٥/٤٥٢ •

فارق يعقوب فارس أرسل الخليفـــة عمالها عليها[١١] • ثم تحرك يعقوب في سنة ٢٥٧هـ للاستيلاء على فـــارس مجددا • فارسل اليه الخليفة المعتمد على الله ينكر عليه عمله • الا ان الموفق أخا الخليفة والمهيمن على شؤون الدولة رأى ان يهادن ابن الليث حتى يستطيع ان يتفرغ لحروب صاحب الزنج ، فكتب اليه بالولاية على طخارستان وسجستان والسند وبلخ ، فسار يعقوب الى بلخ ثم الى كابل • ولما عزم على العودة رأى أحد قواده قد حمل بعض أثقاله ، فغضب وقال : أترحلون قبلي ؟ وأقام وجيشه سنة كاملـــة في مدينة بست ، عاد بعدها الى سجستان[١٢] •

الاستيلاء على خراسان :

كان يعقـوب الصفار ، كما ذكرنا ، يطمـــع بالاستيلاء على خراسان ، وهو يعرف ان محمد بن عبـــدالله أعجز من ان يستطيع رده عنها • الا انه لم يكن هناك ما يسوغ له مهاجمتها • وقد سنحت له هذه الفرصة حينما هرب عبدالله السجزي الذي كان ينازعه على سجستان والتجأ الى محمد بن عبدالله في نيسابور • فارسل يعقوب الى الطاهري يطلب اليه ان يسلمه السجزي • ولما رفض محمد طلب يعقوب سار هذا نحوه بجيشه في سنة ٢٥٩هـ • ولما رأى الأمير محمد ان جيش الصفار صار على مقربة منه وانه لا قبل له به حاول ان يسترضيه ، فوجه اليه يستأذنه في تلقيـــه ، فلم يأذن يعقوب له ، فبعث محمد بعمومته ورجال من أهل بيته فتلقوه • فدخل يعقوب نيسابور في شوال ، فزاره محمـــد في مضربه الا انه اساء مقابلته ووبخه على تفريطه في عمله ، ثم حبسه واهل بيته[١٣] • ويقال انه القي القبض عليه وقيده وقبض على نحو مائة وستين رجلا من أهل

---

(١١) الطبري ٩/٣٨٦ ، والكامل ٧/١٩٤ـ١٩٥ •
(١٢) الكامل ٧/٢٤٧ •
(١٣) الطبري ٩/٥٠٧ ، والكامل ٧/٢٦١ـ٢٦٣ •

بيته وحملهم الى سجستان(١٤) • ويـــرى ابن الاثير ان سبب عدم استعداد الأمير محمد لمقابلة جيش يعقــــوب ان بعض أهل محمد وحاشيته لما رأوا ضعفه وادياره مالوا الى يعقوب وكاتبوه بدعوته من جهة ، وهونوا أمره على محمد وأقنعوه بان لا خوف على ولايته منه من جهة أخرى ، فركن محمد الى أقوالهم ولم يتحرز ويستعد لمقابلته(١٥) •

وهكذا استولى يعقوب الصفار على خراسان دون قتال • فرتب نوابه في أعمالها ، وكتب الى الخليفة يذم محمد بن عبدالله بن طاهر ويصفه بالتقصير في عمله ، وان العلويين تغلبوا في طبرستان لضعفه عن مقاومتهم • وادعى بأن أهل خراسان خرجوا اليه يسألونه المسير اليهم • الا ان الخليفة المعتمد على الله لم يقر تصرف يعقوب • اذ اجتمع جعفر بن المعتمد على الله والموفق في ديوان الجوسق وحضر القواد ، فذكر رسل يعقــــوب ان الشراة والمخالفين قد غلبوا على خراسان وضعف محمد عنهـــم ، وذكروا مكاتبة أهـــل خراسان ومساءلتهم يعقوب ان يقـــدم عليهم ، وانه لما صـار الى نيسابور أهلها وادخلوه المدينة • فتكلم أبو أحمد الموفق والوزير عبيدالله بن يحي وقالا للرسل ان أمير المؤمنين لا يقر يعقوب على ما فعله وانه يأمره بالانصراف الى العمــــل الذي ولاه اياه ، وانه لم يكن له ان يفعل ذلك بغير أمره ، فان رجع كان من الأولياء ، والا لم يكن له الا ما للمخالفين(١٦) •

الاستيلاء على طبرستان وفارس :

عندما دخل يعقوب الصفار نيسابور هرب عبدالله السجزي الى الحسن بن زيد في طبرستان ، فسار يعقوب في أثره • فلما صار قرب

(١٤) الكامل ٧/٢٦٣ ، وكتاب البلدان وفيــــه ان يعقوب حملهم في الاصفاد الى قلعة بم بكرمان •
(١٥) الكامل ٧/٢٦٢ •
(١٦) الطبري ٩/٥٠٧ •

مدينة سارية كتب الى الحسن يسأله ان يبعث اليه بعبدالله السجزي فينصرف عنه وانه جاء الى طبرستان من أجله وليس للحرب ، فابى الحسن تسليمه • فقامت الحرب بين الطرفين قرب سارية وهزم جيش الحسن ، فدخلها يعقوب كما دخل مدينة آمل ، وجبى خراجهما لسنة • واخذ جيشه يعقب الحسن في جبال طبرستان • الا ان كثرة الأمطار اعاقته عن الاستمرار في ملاحقته ، لاسيما وان الحسن افلت ودخل أرض الديلم • وكتب يعقوب الى الخليفة بما فعله بالحسن بن زيد من الهزيمة(١٧) • ثم سار الى الري التي التجأ اليها السجزي ، وكان الصلابي عاملا عليها فسارع الى القبض على السجزي وتسليمه ، فتسلمه يعقوب وقتله وعاد راجعا عن الري(١٨) •

وكان ابن واصل قد تغلب على فارس وقتل عاملها الحارث بن سيما ، فاضاف الخليفة فارس الى القائد موسى بن بغا مع الأهواز والبصرة والبحرين واليمامة مع ما كان اليه • فوجه موسى قائده عبدالرحمن بن مفلح واليا على فارس والأهواز • فلم علم ابن واصل بذلك زحف للقائه ، فالتقيا برامهرمز واقتتلا فانهزم جيش عبدالرحمن ووقع هو اسيرا بيد ابن واصل الذي غنم ما في عسكره من العدد والاموال ، ثم قتله ، رغم ان الخليفة ارسل اليه يأمره باطلاق سراحه(١٩) •

ولما اتصل بيعقوب الصفار خبر انتصار ابن واصل على عبدالرحمن بن مفلح تجدد طموحه في الاستيلاء على فارس وان يغنم ما أخذه ابن واصل من أموال وسلاح • فقصدها في سنة ٢٦١هـ بجيش كبير وكتب الى ابن واصل يطلب اليه الدخول في طاعته • فحبس ابن واصل رسل الصفار ، وتوجه في يوم شديد الحر لملاقاة

---

(١٧) الطبري ٩/٥٠٨–٥٠٩ ، والكامل ٧/٢٦٨ •
(١٨) الطبري ٩/٥١٠ ، والكامل ٧/٢٦٦ وفيه جاء اسم الصلابي : الصلاتي •
(١٩) الطبري ٩/٥١٢–٥١٣ ، والكامل ٧/٢٧٥ •

جيشه ، وكان قد عزم على مباغتته • الا ان يعقوب علم بخروج ابن واصل بجيشه نحوه فقصده • وكان التعب والعطش قد ارهقا جنود ابن واصل بحيث لم يستطيعوا مقابلة هجوم يعقوب فانهزموا أمامه من غير قتال • فتبعهم عسكر الصفار واستحوذوا على جميع ما كانوا غنموه من ابن مفلح • ومضى ابن واصل منهزما ، واستولى يعقوب على قلعته واحتوى على ما فيها من الأموال ، وكانت اربعين الف الفه درهم(٢٠) •

٣ ـ حرب الصفار مع الخليفة وهزيمته :

أقام يعقوب الصفار بعد انتصاره على ابن واصل ، بجرجان يعسف أهلها بالخراج ويأخذ أموال الناس • فاتى جماعة من أهلها الى حاضرة الخلافة فسئلوا عن سياسته فيهم فاشتكوا من جبروته وتعسفه واخذه أموالهم بالباطل • وكان الخليفة قد ادرك خطر يعقوب لمطامحه الواسعة وجشعه ، فأمر أمير بغداد عبيدالله بن عبدالله أن يجمع من كان ببغداد من حجاج خراسان والري وطبرستان وجرجان ويقرأ عليهم كتابه بانه لم يول يعقوب الصفار خراسان ولم يكن دخوله اليها وأسره محمد بن عبدالله بامره ويأمرهم بالبراءة منه(٢١) • فلما نمي الخبر الى يعقوب وانكشف له رأى الخليفة فيه خرج على رأس جيشه في المحرم سنة ٢٦٢هـ الى الأهواز ، ولما وصل عسكر مكرم بعث كتابا الى الخليفة يساله ان يوليه خراسان وفارس وطبرستان وجرجان والري وأمر الشرطة في سامرا وبغداد • أي أن يعترف الخليفة بتجاوز الصفار واستيلائه

---

(٢٠) الطبري ٩/٥١٤ ، والكامل ٧/٢٧٧ •

(٢١) الطبري ٩/٥١٢ ، ووفيات الاعيان ٥/٤٥٤ـ٤٥٥ وجاء فيه ان عبيدالله عمل ثلاثين نسخة من الكتاب ودفع الى اهل كل بلد نسخة منه ليذيعوا ما جاء فيه •

على هذه الولايات وان ذلك كان يأمر منه • فحاول الموفق ان يكسب بعض الوقت ليستعد لحربه فأجابه الى ما طلب ، وامر باطلاق من كان في الحبوس من اصحاب يعقوب ، وأحضر جماعة من التجار ، ويظهر انهم كانوا من تجار الولايات المذكورة ، ممن كانوا حينذاك بسامرا وبغداد ، وأعلمهم ان أمير المؤمنين الخليفة أمر بتولية يعقوب خراسان وطبرستان وجرجان وفارس والري والشرطة بمدينة السلام • وبعث الخليفة رسولا بذلك الى يعقوب • فعاد الرسول يقول ان يعقوب لا يرضيه الا ان يسير الى باب المعتمد على الله ، وانه سيتابع سيره عازما على دخول حاضرة الخلافة(٢٢) •

يظهر مما تقدم ان يعقوب الصفار عازم على اجتياح عاصمة الدولة العربية ووضع الخليفة تحت حمايته . لأنه اعتبر موافقته على طلباته دليلا على ضعف الدولة من ان ترده ، لاسيما وان جيوشها تحارب صاحب الزنج في جنوبي البلاد ، واراد أن لا تفوته الفرصة من تحقيق احلامه بالاستيلاء على مقر الخلافة والاطاحة بالدولة العربية •

وكان القواد الاتراك وقد ادركوا خطر يعقوب الصفار عليهم، ارتابوا بموقف الخليفة واخيه من مخالفة يعقوب ، واتهموها بالتواطؤ معه . وانه قدم الى عاصمة الخلافة بأمرهما(٢٣) • فغضب الخليفة من ذلك ومن عناد يعقوب ومكابرته واصراره على المخالفة، وادرك انه غدا خطرا يهدد كيان الدولة والخلافة ، فخرج على رأس جيشه من سامرا ، اذ كان الموفق قد سحب قسما كبيرا من جيوشه الموجهة الى حرب الزنج ، فهيأها لمقابلة الصفار • وكان يعقوب قد دخل مدينة واسط ثم سار منها الى دير العاقول • فتحرك الجيش

---

(٢٢) الطبري ٥١٦/٩ ، والكامل ٢٩٠/٧ ، ووفيات الاعيان ٤٥٥/٥ •
(٢٣) وفيات الاعيان ٤٥٥/٥ •
(٢٤) الطبري ٥١٧/٩ ، والكامل ٢٩١/٧ ، ومروج الذهب ٢٠٠/٤ •
(٢٥) مروج الذهب ٢٠٠/٤ ، ووفيات الاعيان ٤٥٩/٥ •

العربي الى سيب كوما والتقى بجيش الصفار في الموضع المعروف باضطريد بين السيب ودير العاقول • وفي يوم الاحد لتسع خلون من رجب سنة ٢٦٢هـ اشتبك الجيشان بقتال عنيف في معركة فاصلة • اذ وقف الخليفة في الميدان والى جانبه كبار القواد ، وكشف الموفق رأسه وحمل أمام جيشه • وسرعان ما هزم يعقوب وجيشه • وكان بعض اتباعه لما علموا بأن الخليفة على رأس جيشه وان ادعاءات صاحبهم كاذبة انضموا الى جيش الخليفة • وغنم الموفق ما في معسكر العدو من الدواب أكثر من عشرة آلاف رأس ، ومن الأموال ما يكل عن حمله ، ومن الدنانير والدراهم مبالغ طائلة • كما انقذ محمد بن عبدالله من أسر يعقوب ، وكان مثقلا بالحديد ، ففكت قيوده وخلع عليه وولي شرطة مدينة السلام(٢٤) •

وكان من جملة أسباب هزيمة يعقوب وجيشه اضافة الى ما ذكر ، ان الموفق أمر ببثق النهر المعروف بالسيب ، وارسلوا الماء على جيشه ، مما اربكه واعاق حركته ، وان أحد قواد الموفق وافى مؤخرة جيش يعقوب وطرح النار في مرابط الأبل والخيل فشردت وتفرقت في العسكر ، فاضطرب أصحاب يعقوب وظنوا انهم اخذوا من المؤخرة ، فكانت الهزيمة(٢٥) •

وقد برر يعقوب هزيمته بأنه لم يكن في تقديره ان بأمكان الخليفة محاربته وجيشه مشغول بحرب الزنج ، وان الرسل ستتردد بينهما للمفاوضة على ما يتم عليه الاتفاق ، اما وقد واجهه الموفق بجيشه فانه لم ير بدا من الاشتباك معه دون تنظيم واعداد • ولكن ما غنمه الموفق من أموال وعدد ودواب يدل على انه جاء مستعدا للحرب •

ويظهر ان كلا من الطرفين كان يحاول خداع الطرف الآخر • فان الخليفة لما توجه الى حربه كانت كتبه لم تزل ترد الى يعقوب يأمره بالانصراف ويحذره من سوء عاقبة فعله • وكانت أجوبة يعقوب تنطوي على التظاهر بالطاعة وانه قدم ليكون في خدمة أمير

المؤمنين والتشرف بالمثول بين يديه ، وان يموت في ركابه • الا ان المعتمد على الله أعتبر ذلك من مخاريق الصغار ، وقال : اعلموه انه ماله عندي الا السيف(٢٦) •

وجاء في الطبري انه قرىء على الناس كتاب بعد هزيمة يعقوب الصفار وانتصار الجيش العربي عليه جاء فيه : «ولم يزل الملعون المارق يعقوب بن الليث الصفار ينتحل الطاعة ، حتى أحدث الأحداث المنكرة من مصيره الى صاحب خراسان وغلبته اياه عليها •• ومصيره الى فارس مرة بعد مرة واستيلائه على أموالها ، واقباله الى باب أمير المؤمنين مظهرا المسألة في أمور اجابة أمير المؤمنين منها مالم يكن يستحقه استصلاحا له ، ودفعا بالتي هي أحسن ، فولاه خراسان •• فما زاده ذلك الا طغيانا وبغيا • فأمره بالرجوع فابى ، فنهض أمير المؤمنين لدفع الملعون حين توسط الطريق بين مدينة السلام وواسط • واظهر يعقوب اعلاما على بعضها الصلبان • فقدم أمير المؤمنين أخاه أبا أحمد الموفق بالله ولي عهد المسلمين بالقلب •• فشرع واشياعه في المحاربة فحاربه حتى اثخن بالجراح •• وولوا منهزمين •• وسلم الملعون كل ما حواه ملكه»(٢٧) • ويظهر ان ما ذكره الطبري انما هو جزء من كتاب أوسع ، لأن ابن خلكان ذكر فقرات عديدة أخرى اضافة الى ما ذكره الطبري(٢٨) • فقد ذكر ابن خلكان ان الصفار التمس أشياء أخرى ان رد عنها قصد أبواب الخليفة لاثارة الفتنة وابتغاء الغلبة • أي انه قدم للقتال وليس كما جاء في تبريره هزيمته • وهذا الكتاب بمثابة بيان حربي اذيع في الناس يبرر سبب محاربة الصفار ، ويزف البشرى بهزيمته والانتصار عليه ، ورجوعه مدحورا •

---

(٢٦) وفيات الاعيان ٥/٤٥٩ •
(٢٧) كامل الكتاب في الطبري ٩/٥١٨-٥١٩ •
(٢٨) وفيات الاعيان ٥/٤٥٩-٤٦٠ •

ومن الواضح ان قيادة الموفق وحسن بلائه في هذه الحرب، واشتراك كبار القواد الاتراك فيهـــا ، كانت أهم أسباب انتصار جيش الخلافة وقد امتدح عدد من الشعراء الموفق على ما أبداه من شجاعة لنصرة الخلافة • فقال محمد بن علي بن فيد الطائي في ذلك قصيدة منها قوله(٢٩) :

ولقد اتى الصـــغار في عدد لهـــا
حســـن فوافتهن نكبـــة نـــاكب

جلب القضـــاء اليه حتفا عاجـــلا
سقيا ورعيـا للقضـــاء الجـــالب

اغــواه ابليس اللعـــين بكيـــده
واغتـــره منـــه بوعـــد كاذب

الى أن يقول :

وولى عهـد المسلمـــين مـــوفق
بـــالله أمضى من شـــهاب ثـــاقب

وكأنـــه في الناس بـــدر طالـــع
متهلـــل بالنور بـــين كـــواكب

فل الجمـــوع بحـــزم رأى ثاقب
منـــه وافرد صـــاحبا عن صاحب

لله در موفـــق ذي بهجـــــة
ثبت المقـــام لدى الهيـــاج مواثب

يا فارس العـــرب الذي ما مثلـــه
في النـــاس يعـــرف آخر للنوائب

---

(٢٩) القصيدة في الطبري ٩/٥١٩ـ٥٢٠ •

من فادح الزمن العضــوض ومن لقا
جيش لدى غدر خئـــون غـــاصب

ومضى يعقوب بعد هزيمتـــه الى واسط يتخطف أصحابه أهل القرى فيأخذون سلاحهم وأسلابهم . وكان الموفق سار الى واسط وقد ازمع على تتبع الجيش المنهزم، الا انه مرض فعاد الى سامرا(٣٠) . ويقول ابن خلكان ان جيش الخليفة لم يتبع الصفار مخافة رجعته عليهـــم ، ولانشغالهم بالكسب والنهب(٣١) . فســـار يعقوب الى خوزستان ونزل جنديسابور . وارسل أحد قواده الى الاهواز فطرد منها عامل صاحب الزنج . ثم سار الى فارس فانتزعها من ابن واصل الذي أقره الخليفة واليا عليها ، وكان قد دخلها عندما شغل يعقوب بالحرب مع الموفق . ويظهر ان يعقوب كان يزمع الثأر لهزيمته في معركة اضطربد. لأنه لما انفذ اليه الخليفة رسولا يستميله، ويقلده اعمال فارس ، جلس للرسول وجعل عنده سيفا ورغيفا من الخبز ومعه بصل ، واحضر الرسول وقال له : قل للخليفة انني عليل فان مت فقد استرحت منك واسترحت مني ، وان عوفيت فليس بيني وبينك الا هذا السيف حتى آخذ بثاري أو تكسرني وتعقرني وأعود الى هذا الخبز والبصل ، واعاد الرسول(٣٢) .

ولم يلبث يعقوب الصفار ان مات كمدا في التاسع من شوال سنة ٢٦٥هـ وهو بجنديسابور فدفن فيها ، وخلف في بيت ماله خمسين ألف ألف درهم وثمانمائة ألف دينار . وهناك من يقول انه مات في الاهواز وحمل تابوته الى جنديسابور فدفن فيها(٣٣) .

---

(٣٠) الكامل ٧/٢٩٢ .
(٣١) وفيات الاعيان ٥/٤٦١ .
(٣٢) الكامل ٧/٣٢٥ـ٣٢٦ .
(٣٣) الطبري ٩/٥٤٤ ، ووفيات الاعيـــان ٥/٤٦١ـ٤٦٣ والكامل ٧/٣٢٥ ، ومروج الذهب ٤/٢٠٢ ، وفيه انه توفي لسبع بقين من شوال .

كان يعقوب رجلا عصاميا جديا حازما ، ومغامرا طموحا ، ذا تدبير وكفاية في الحروب . الا انه لم يكن رجل دولة بانيا بل هو الى التخريب والنهب أقرب .. لو تتبعنا فتوحاته وانتصاراته فيها لرأيناها انها كانت آنية موقتة . اذ بعد أن يستولى على بلد سرعان ما يخرج منه عائدا الى مقره في سجستان حاملا ما جباه من الخراج وما استولى عليه من أموال الناس وما احتواه من الجيش المهزوم أمامه ، وكأنه حارب لهذا الغرض . أما التنظيم والبناء ، ورعاية مصالح الناس ، والاهتمام بالقضاء وشؤون الزراعة ، فلم يذكر عنه شيء من ذلـــك . فانه عندما هاجم ممالك التـــرك المتاخمة لسجستان اكتفى بالنهب والعودة . ولما دخل شيراز حمل منها أربعة آلاف ألف درهم . وقد استولى على فارس عدة مرات ، وفي كل مرة يجبي أهلها قبل مغادرتها . ولما دخل جرجان ونيسابور أساء الى أهالي المدينتين يأخذ أموالهم تعسفا . فـــكان بهذا سفاكا للدماء طماعا بجمع الأموال .

كما كان يتصف بالحذر الزائد فلـــم يكن يطمئن الى أحد ، وبالزهد والبساطة في حياته ، فكان بعيدا عن اللهو والترف . وقد عرف عنه رعايته لجنوده وتفقده لشؤونهم بحيث كانوا ينقادون لأمره . وقد أفـــاض المسعودي في ذكر جوانب حياتـــه(٣٤) . ان التفصيلات التي يذكرها عنه تعطينا صورة عن شيخ قبيلة أقرب ما يكون الى البداوة ، يعيش على الغزو ، ولا يجلس الا ليتهيأ للحركة والانتقال وما يتطلب ذلك من تخفيف المتاع والأثاث بحيث لا تعوق سرعة حركته وتنقله . وهي صفات أبعد ما تكون عن صفات أمير متحضر يحكم عدة ولايات وعليه واجبات العناية بشؤون الناس فيها ، ومسؤولية عمرانها ورفاهها .

---

(٣٤) مروج الذهب ٢٠٢/٤ـ٢٠٦ .

٤ ـ عمرو بن الليث الصفار :

كان عمرو قد انضم الى أخيه يعقوب وظـل يعمل بمعيته ، فلمس منـه العسكر حسن السياسة والتدبير ، فلمـا مات يعقوب اجتمعت كلمتهم على تولية عمرو مكانه • فكتب عمرو الى الموفق بالسمع والطاعـة ، وطلب ان يتـولى ما كان يتولاه أخـوه من الولايات • فأجابه الموفق الى طلبه وولاه خراسان وفارس واصبهان وسجستان وكرمان والسند ، وسير اليه الخلع مع كتاب توليته(٣٥) • فولى عمرو احمـد بن عبدالعزيز بن ابي دلف على اصـبهان وولى عبيدالله بن عبدالله خلافته على الشرطة ببغداد وسامرا وخلع عليه وبعث اليه بعمود من ذهب(٣٦) •

ولما أرسل أحمد بن عبدالعزيز في سنة ٢٦٨هـ الى عمرو بن الليث الاموال المترتبة عليه ، وجه عمرو الى الموفق منها ثلاثمائة ألف دينار ، وخمسين منا من المسك ، ومثلها من العنبر ، ومائتي من من العود ، وثلاثمائة ثوب وشي وغيره ، وآنية من ذهب وفضة ، وغلمانا ودواب بقيمة مائتي ألف دينار(٣٧) • مما يدل على حسن علاقة عمرو بن الليث بالخلافة •

وقد اضطر عمرو بن الليث ان يسير في نفس السنة الى فارس لحرب عامله عليها محمد بن الليث الذي أظهر المخالفة ، فهزمه واستباح عسكره • وظفر بمحمد بن الليث وأسره ، ثم صار عمرو الى شيراز فأقام بها(٣٨) •

ان علاقـة عمرو بالخلافة ساءت في سـنة ٢٧١هـ اذ ادخل الخليفة المعتمد على الله اليه حجاج خراسان واعلمهم انه عزل عمرو

---

(٣٥) الطبري ٩/٥٤٥ ، والكامل ٧/٣٢٦ ويضيف والشرطة ببغداد •
(٣٦) الطبري ٩/٥٤٩ ، والكامل ٧/٣٣٣ •
(٣٧) الطبري ٩/٦٠٦ ، والكامل ٧/٣٧١ •
(٣٨) الطبري ٩/٦٠١ ، والكامل ٧/٣٧٠ •

بن الليث عما كان قلده من الولايات ، ولعنه بحضرتهم وأمر بلعنه على المنابـر ، واشخص الموفق القائد صاعد بن مخلـد الى فارس لحربه(٣٩) • وازدادت علاقة عمرو بالخلافـة سوءا بحيث نشبت الحرب بينه وبين جيش الخليفة بقيادة أحمد بن عبدالعزيز بن أبي دلف في سنة ٢٧٣هـ فانهزم جيش عمرو ، وكان قوامه خمسة عشر ألفا بين فارس وراجل ، واسر منهـم ثلاثة آلاف واستأمن ألف • وغنم ابن دلف من معسكر عمـرو من الدواب والبقر ثلاثين ألف رأس ، وما سوى ذلك كثير(٤٠) •

وفي السنة التالية سار الموفق بنفسه لمحاربة ابن الليث • فسير عمرو أحد قواده العباس بن اسحاق في جمـع كبير من العسكر الى سيراف ، وانفذ ابنه الى ارجان ، وجعل ابا طلحة شركب صاحب جيشه على مقدمته • فاستسلم أبو طلحة الى الموفق مستأمنا • فلما سمع عمرو بذلك توقف عن المسير الى حـرب الموفق • الا ان أبا طلحة عزم على العودة الى جـانب ابن الليث ، فقبض عليه الموفق بقرب شيراز وجعل أمواله لابنه أبي العباس • ثم سار الموفق بجيشه نحو عمرو الذي عاد الى كرمان ومنها الى سجستان • ويظهر ان الموفق لم يكن مستعدا لملاحقته ، فكر راجعا(٤١) •

وقد واجه عمرو بن الليث في أواخر حكمه خطر السامانيين الذين انشأوا امارتهم في ما وراء النهر ، وكانت نهايته على أيديهم اذ نازعوه السلطة • ولما سـار بجيوشه الى ما وراء النهر لمحاربة أحمد بن اسماعيل الساماني هزم جيشه وتمكن أحمد من أسره • وقد خيره بالمقام عنده أو توجيهه الى الخليفة ، فاختار عمرو توجيهه الى الخليفة ، فوجهه أحمد مقيـدا • وقضى بقية أيامه في

---

(٣٩) الطبري ١٠/٧ ، والكامل ٧/٤١٤ ، والمنتظم ٥/٨ •
(٤٠) الطبري ١٠/١٢ ، والكامل ٧/٤١٦ وفيه ان هذه الحرب كانت في سنة ٢٧١ •
(٤١) الطبري ١٠/١٣ ، والكامل ٧/٤٢٦ •

سجن المعتضد بالله[42] • وظل سجينا حتى قتل في سنة ٢٨٩هـ ودفن بالقرب من القصر الحسني بمدينة السلام[43] •

٥ ـ نهاية امارة بني الصفار :

أستمرت امارة الصفارين قائمـــة حتى أيام الخليفة المقتدر بالله • وكانت نهايتها على أيـــدي السامانيين • وذلك عندما دخل أحمد بن اسماعيل الساماني سجستان في سنة ٢٩٩هـ واخرج من كان بها من أصحاب بني الصفار • وقد استأمن اليه آخر أمرائهم المعدل بن علي بن الليث الصفار ومن معه من اتباعه • فوجه بهم الساماني الى هراة[44] • وبذلك طويت صفحة امارة الصفارين بعد أن عاشت زهاء ست وأربعين سنة •

---

(٤٢) الطبري ١٠/٨٣ و ٨٨ ، والكامل ٧/٥٠٠ـ٥٠٢ •
(٤٣) الطبري ١٠/٨٨ ، والكامل ٧/٥٠٢ ، ووفيات لاعيان ٥/٤٧٣ •
(٤٤) الطبري ١٠/١٤٥ ، ووفيات الاعيان ٥/٤٧٦ وفيه : المعذل بن علي •

الباب العاشر

مجالس خلفاء سامرا

١ ـ مجالس المعتصم بالله •

٢ ـ مجالس الواثق بالله •

٣ ـ مجالس المتوكل على الله •

٤ ـ مجالس خلفاء سامرا الآخرين •

الباب العاشر

مجالس خلفاء سامرا

الفصل الاول

مجالس المعتصم بالله

١ ـ المعتصم بالله والندماء :

كان الخليفة المعتصم بالله يغتنم بعض الفرص أحيانا لينفرد بأحد المقربين اليه ، ليتعرف منه على أحوال الناس • فقد كان يبحث عن أحوالهم غاية البحث ، ويتلطف في الاطلاع على أمورهم[١] • او ليفضى اليه بما يشغل باله ، أو ليستشيره في أمر من الامور • وكان هؤلاء عادة من رجال دولته أو ممن اعتـــادوا مجالسته ومنادمته • وقد أوردت بعض كتب التاريخ والأدب حكايات واخبارا عن المعتصم بالله وحاشيته وقدمائه • وسنورد بعض هذه الاخبار التي تكشف لنا بعض الصور عن حياته الاعتيادية ، وما كان يشغل باله أحيانا من المهام والمشاكل •

يذكر اسحاق بن ابراهيم المصعبي ان المعتصم بالله اختلى به ذات يوم وقال له : يا اسحاق في قلبي أمر أنـــا مفكر فيه منذ مدة

---

(١) اثار الاول /٨٦ •

طويلة ، وانما بسطتك في هذا الوقت لافشيه اليك • فقلت : قل يا سيدي • قال : نظرت الى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة انجبوا ، وانا اصطنعت أربعة لم يفلح منهم أحد • قلت : ومن الذين اصطنعهم أخوك ؟ قال : طاهر بن الحسين ، فقد رأيت وسمعت ، وعبدالله بن طاهر ، فهو الرجل الذي لم ير مثله ، وانت ، فانت والله الذي لا يعتاض السلطان عنك أبدا ، وأخوك محمد بن ابراهيم ، واين مثل محمد ؟ وأنا اصطنعت الأفشين فقد رأيت ما صار أمره ، واشناس فشل ، وايتاخ فلا شيء ، ووصيف فلا مغنى فيه • فقلت : يا أمير المؤمنين ، جعلني الله فداك ، أجيب علي أمان من غضبك ؟ قال : قل • قلت : يا أمير المؤمنين أعـــزك الله ، نظر اخوك الى الأصول فاستعملها فنجبت فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعا لم تنجب اذ لا أصول لها • قال : يا اسحاق ، لمقاسات ما تربي في طول هذه المدة اسهل علي من هذا الجواب(٢) •

يفهم من اشارة المعتصم بالله الى ما صار اليه أمر الأفشين ، ان هذا الحديث جرى ، ان كان قد جرى حقيقة ، بعد محاكمته وقتله • ولا يستبعد ان المعتصم بالله كان متألما من غدر الأفشين ومحاولته الانتقاض عليه ، بعد أن قربه كثيرا واعتمد عليه وأوكل اليه مهام الامور ، مما ترك في نفسه حزنا فاض على لسانه فتشكى منه ومن بقية قواده الى اسحاق المذكور • كما يحتمل انه كان قد ضاق ذرعا بهؤلاء القادة الاتـــراك ، فأراد أن يعبر بشكواه عن ندمــــه لانه اصطنعهم وقدمهم •

وللمقارنة بين رجال المأمون ورجال المعتصم بالله ، الذين ورد ذكرهم ، نرى ان في رجال المعتصم بالله من هو من أولاد الملوك وهو الافشين حيدر بن كاوس ملك أشروسنة • ولم يكن الافشين فاشلا في حياته العامة ، وقد صار قائدا عامـــا لجيوش الخليفة • وكذلك

(٢) كامل الخبر في الطبري ٩/١٢١ـ١٢٢ ، والكامل ٦/٥٢٦ـ٥٢٧ •

أشناس فهو من كبار القادة أيضا ، شديد الولاء للخليفة ، وكان له دور مهم في كشف مؤامرة العباس بن المأمون والقضاء عليها • وقد سبق للمعتصم بالله ان تعرضت حياتـــه للخطر عندما انتد به عمه ابراهيم بن المهدي ، أيام خلافته ببغداد ، لحرب ابن علوان الخارجي. فحامي عنه أشناس • وعندما قرر تشـــييد سامرا اعتمد عليه في تشييد قسم منها • وخير دليل على تقدير المعتصم بالله له انه توجه والبسه الوشاح تكريما له وتقديرا لخدماته • أما ايتاخ فقد كان موضع سر المعتصم بالله واعتماده ، فمن اراد قتله أو حبسه فانما يتم ذلك على يد ايتاخ • كما انـــه كان من مقدمي قواده • وكان وصيف حاجب المعتصم بالله وأحد كبار قواده • وان جميع هؤلاء قد سمت بهم قابلياتهم الى أرفع المراتب في الدولة • ولذا فلا مجال لاعتبارهم فاشلين بحيث يندم المعتصم بالله على اصطناعهم والاعتماد عليهم •

أما الذين امتدحوا على لسان المعتصـــم بالله فانهم لم يكونوا كلهم بدرجة قواده الذين اشرنا اليهم همة وكفاية • فان طاهر بن الحسين كان كبير قواد المأمون ، وقد قـــاد جيشه في حربه مع أخيه الأمين ، وتولى ابنه عبدالله امارة خراسان بعـــده بسلطات واسعة يسرت له حكمها بنجاح • هذا مع العلم بان المعتصم بالله وان أقر عبدالله بن طاهر على امارة خراسان التي كان المأمون عينه لها ، فانه كان سيء الرأي فيه(٣) • وهذا ما لا ينسجم ومدحه اياه • كما ان أباه طاهرا لم يكن خالص الولاء للمامـــون ، فانه حينما ولاه خراسان كان يخامره الشك في ولائه ويخشى غدره وخلعه الطاعة ، وبالفعل فانه لم يلبث الا يسيرا حتى قطـــع الخطبة للمامون الذي بادر الى التخلص منه(٤) • أمـــا اسحاق بن ابراهيم ، وهو صاحب الشرطة ، فلم يكن غير أداة بيد السلطة ينفذ ما يؤمر به • ولم يعرف عن أخيه محمد من الاعمال ما يميزه ولم يكن سوى قائد اعتيادي في الجيش • الا ان ما يجمع هؤلاء الاربعة انهم من عائلة واحدة

فارسية الاصل • كما يجمع القواد الاربعـــة الذين تشكى منهم المعتصم بالله انهم من الاتراك • وهذا ما يدفع الى الاستنتاج بأن القصة وضعت بهذا الشكل لتقليل من أهمية الاتراك الذين اصبحت لهم السلطة والغلبة في عهد المعتصم بالله ، والانتقاص من شأنهم برفع شأن آخرين من العنصر الفـــارسي ومن أسرة لها أنصارها واتباعها ، ولاعلاء مقامهم على مقـــام القواد الاتراك الذين ورد ذكرهم والذين كان لكـــل منهم اتباع وانصار كذلـــك ، وكانت منزلتهم في الدولة عالية جدا •

وهناك قصة يرويها القاضي التنوخي عن محمد بن عبدالملك الزيات ، خلاصتها(٥) : ان المعتصم بالله مر في أحد الايام ، بعد أن تولى الخلافة ، برحبـــة الجسر ببغداد ، ومعه وزيره محمـــد بن عبدالملك الزيات ، وكبير قضاته أحمد بن أبي دواد ، فتوقف قليلا وأمر أحد أفراد حاشيته أن يستفسر عن منجم كان يجلس هناك على قارعة الطريق • فعاد اليه واخبره انه قد مات منذ عهد قريب • ولما ساله ابن أبي دواد عن قصته معـــه ، ادعى المعتصم بالله بانه كان قصد ذلك المنجم في أيام غلبة ابراهيم بن المهدي على الامور ، وساله ان يخبره عن طالعه • فتنبأ له المنجـــم بانه سيتولى الخلافة ويفتح الآفاق ويبني البلدان ، وان أكابر دولته سيكونون من أصول دنية سافلة ، والتمس اليـــه أن يتذكـــره عندمـــا يتـــولى الامـــر ويحسن اليـــه فوعده المعتصم بـــالله بذلك • قال : ولمـــا بلغت الرحبة وقعت عيني على مكانه الذي اعتاد أن يجلس فيه ، فتذكرته وذكرت كلماتـــه ، وتأملتكما حولي وانتما أكبر أهـــل مملكتي واحدكما ابن زيات والآخر ابن قيار ، وهكذا صح جميع ما قال • وقد اسف المعتصم بالله لوفاة المنجم لأنه فاته الاحسان اليه •

ان نظرة بسيطة الى هذه القصـــة تكشف عن انها موضوعة لغرض معين • ورغم شيوع الالتجاء الى المنجمين في ذلك العهد للكشف عما يخبئه المستقبل ، وان المعتصم بالله كان يتطلع الى الخلافة في

فترة خلافة عمه ابراهيم بن المهدي ، وهي فترة اضطراب وقلاقل ، باعتباره أقرب الناس الى الخليفة المقتول والخليفة المتغلب ، وهما أخواه ، وقد قصد المنجم المذكور ليكشف له عما يخبئه له القدر • وبعد ان عرف المنجم هوية السائل أجابه بما يطمن تساؤله • فاضيف الى ذلك ما جاء عن كبار دولته بما يوحي بضآلة اصولها • والغرض من ذلك واضح اذا علمنا ان وزيـر المعتصم بالله وكبير قضاته عربيان ، لا يروق للفرس ان يتبوءا مثل هذه المناصب في الدولة •

ويروي الشابشتي ان المعتصم بالله سأل جلساءه يوما عن معنى تسمية طاهر بن الحسين بذي اليمينين • فقال محمد بن عبدالملك الزيات : معناه ذو الاستحقاقين ، استحقاق بجده ودنوه في الدولة وكان أحد النقباء ، واستحقاق بما له في دولة المأمون ، وقد قال الله تعالى «لأخذنا منه باليمين»(٦) ، وقال الشاعر(٧) :

اذا ما رايـة رفعت لمجـد
تلقاها عرابـة باليمـين

ويورد الثعالبي ما يشبه هذا ، الا انه يضيف ، وقال غيره : انما سمي ذا اليمينين لأن المأمون كتب اليه لما فرغ من أمر المخلوع : يا أبا الطيب يمينك يمين أمير المؤمنين ، وشمالك يمين ، فبايع بيمينك يمين أمير المؤمنين ، ففعل فلزمه هذا الاسم(٨) •

---

(٣) الديارات/١٣٩ •
(٤) الفخري/٢٠٥ •
(٥) نشوار المحاضرة ٧/٢١٢ـ٢١٥ •
(٦) سورة الحاقة ، الاية : ٤٥ •
(٧) الشعر للشماخ بن ضرار الغطفاني ، وعرابة رجل من الانصار • وكامل القصة في كتاب الديارات /١٤٢ •
(٨) ثمار القلوب/٢٩١ •

ومن مشاهير الأعلام الذين كانوا يحضرون مجلس المعتصم بالله الفيلسوف العربي الكبير يعقوب بن اسحاق بن الصباح الكندي • وكان عظيم المنزلة عند الخليفة مقربا اليه ، وقد اوكل اليه تأديب ابنه أحمد • نشأ الكندي ببغداد وكان أبوه أميرا على الكوفة أيام المهدي والرشيد • وقد عاصر المأمون والمعتصم بالله وابنيه الواثق بالله والمتوكل على الله . وكان مقربا اليهم وله عندهم منزلة سامية • وقال عنه ابن النديم انه فاضل دهره وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة ، وهو فيلسوف العرب ، وكتبه في علوم مختلفة ، وعدد له ٢٣١هـ كتابا(٩) • وقد برع الكندي في الفلسفة والمنطق والهندسة والحساب والفلك ، وله في أكثر هذه العلوم تواليف مشهورة من المصنفات الطوال ومن الرسائل القصار(١٠) • ولم يكن في الاسلام فيلسوف غيره احتذى في تواليفه حذو ارسطاطاليس ، وترجم من كتب الفلسفة الكثير ، واوضح منها المشكل ، ولخص المستعصي(١١) • ومن كتبه «كتاب الفلسفة الاولى فيما بعد الطبيعيات والتوحيد» وقد صنفه للخليفة المعتصم بالله • وبحث فيه عن الفلسفة وغايتها ، وما يجب أن يكون عليه الفيلسوف الكامل الفلسفة وعن غايته منها • وهو يفتتح الكتاب باهدائه الى المعتصم بالله بقوله(١٢) : «اطال الله بقاءك يا ابن ذرى السادات وعرى السعادات الذين من استمسك بهم سعد في دار الدنيا ودار الأبد ، وزينك بجميع ملابس الفضيلة . وطهرك من جميع طبع الرذيلة ••» •

وكان ممن يحضر مجالس المعتصم بالله عدد من الادباء منهم كبير ادباء عصره أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، عندما يكون في سامرا • قال الجاحظ في أول رسالته (في صناعات القواد) :

---

(٩) الفهرست/٣٧١ •
(١٠) تاريخ الحكماء/٣٦٧ •
(١١) عيون الانباء/٧٣ •
(١٢) رسائل الكندي/٩٧ •

دخلت على أمير المؤمنين المعتصم بـــالله فقلت له : يا أمير المؤمنين في اللسان عشر خصـــال : اداة يظهر بها البيان ، وشاهـــد يخبر عن الضمير ، وحاكم يفصل في الخطاب ، وناطق يرد به الجواب ، وشافع تدرك به الحاجة ، وواصف تعرف به الاشياء ، وواعظ ينهى عن القبيح ، ومعز يرد به الاحزان ، وخاصة يزهى بالضيعة ، وملة يونق الاسماع • وسمع عمـــر بن عبدالعزيز رجلا يتكلم فابلغ في حاجته ، فقال عمر : هذا والله السحر الحلال • وقال الشاعر :

وكائن ترى من صامت لك معجب
زيادتـــه أو نقصـــه في التكلـــم

لسان الفتى نصف ونصف فـــؤاده
فلـــم يبق الا صورة اللحـــم والدم

فخذ يا أمير المؤمنين أولادك بان يتعلموا من كل فنون الأدب ، فانك ان افردتهم بشيء واحد ثـــم سئلوا عن غيره لم يحسنوه • وضرب له أمثلة عن قواده وحرسه ، دلل بها عن ضحالتهم لأنهم لم يحسنوا سوى عملهم • فضحك المعتصم بالله حتى استلقى ، ثم دعا مؤدب ولده فأمره ان يأخذهم بتعليم جميع العلوم(١٣) •

٢ ـ المعتصم بالله والشعراء :

كان المعتصم بالله يحاول أن يقول الشعر أحيانا ، ويظهر انه لم يكن يحسن قوله •

على انه كان يستحسن الشعر الجيد ويحب سماعه ، وخاصة اذا كان في مدحه والاشادة بكرمه وفتوحاته • وكان الشعراء يجتمعون ببابه ، فبعث اليهم مرة يسألهم ان كان بينهم من يحسن ان يقول

(١٣) رسائل الجاحظ ١/٣٧٩ـ٣٩٣ ، وفي تاريخ بغداد ، ١٢/٢١٨ مع بعض التغيير •

فيه كما قال منصور التمري في أبيـــه هارون الرشيد ، وكان قد استحسن ذلك الشعر وهو :

خليفـــة الله ان الجـــود اوديـــة
أحلـــك الله منهـــا حيث تجتمـــع

من لـــم يكن بأمـــين الله معتصما
فليس بالصلـــوات الخمس ينتفـــع

ان اخلف القطـــر لم تخلف مخايله
أو ضـــاق أمـــر ذكرنـــاه فيتسع

فليدخل ، والا فلينصرف • وكان بين الشعراء محمد بن وهيب الحميري ، وهو شاعر بصري ، ولـــه شعر كثير يذكر فيه البصرة ويتشوق اليها ، وكان يستمنح بشـــعره ويتكسب بالمديح ، فقام وقال : فينا من يقول مثله ، ثم اندفع ينشد :

ثلاثـة تشرق الدنيـــا ببهجتهـــم
شمس الضحى وأبو اســـحاق والقمر

تحكي أفاعيلـــه في كـــل نائبـــة
الليث والغيث والصمصامة الذكـــر

فأمر المعتصم بالله بادخاله ، واحسن جائزته(١٤) •

وقد امتدحه أبو تمام الطائي بعـــدد من القصائد في مناسبات مختلفة • ولعـــل أروع ما مدحه به شعره الذي قالـــه فيه مسجلا انتصاره في غزو الروم وفتح عمورية التي ذكرنا بعض أبياتها • وقد مدحه بقصيدة مطلعها(١٥) :

---

(١٤) الاغاني ١٩/٧٤ـ٧٥ •
(١٥) كامل القصيدة في ديوان ابي تمام ٢/١٩١ـ١٩٧ •

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر
وغدا الثرى في حليه يتكسر[١٦]

ويقول فيها واصفا الربيع :

أربيعنا في تسع عشرة حجة
حقا لهنك للربيع الأزهر
ما كانت الايام تسلب بهجة
لو ان حسن الروض كان يعمر
أو لا ترى الأشياء ان هي غيرت
سمجت وحسن الأرض حين تغير

ثم ينتقل الى مدح الخليفة ، فيقول :

في الأرض من عدل الامام وجوده
ومن النبات الغض سرج تزهر
تنسى الرياض وما يروض فعله
أبدا على مر الليالي يذكر
ان الخليفة حين يظلم حادث
عين الهدى وله الخلافة محجر

ومدحه بقصيدة طويلة اشاد فيها بعدله وكرمه منها[١٧] :

جلا ظلمات الظلم عن وجه أمة
اضاء لـه من كوكب الحق آفله
ولاذت بحقويه الخلافة والتقت
على خدرها ارماحه ومناصله

(١٦) تمرمر : تموج وتضطرب لينا ورقة .
(١٧) كامل القصيدة في ديوان ابي تمام ٣/٢١-٣٠ .

أتته ممـــــدا قد اتاها كأنهـــــا
ولاشـــك كانت قبـــل ذاك تراسله

بمعتصم بـالله قـــد عصمت بـــه
عرا الدين والتفت عليهـــا وسائله

رعى الله فيـــه للرعيـــة رأفـــة
تزايله الدنيـــا وليست تزايلـــه

فاضحوا وقد فاضت اليـــه قلوبهم
ورحمته فيهـــم تفيض ونائلـــه

وقام فقـــام العـــدل في كل بلـــدة
خطيبا وأضحى الملك قد شق بأزله

وجـــرد سيف الحـق حتى كأنـــه
من السل مود عمـــده وحمائلـــه

رضينا على رغم الليالي بحكمـــه
وهل دافع أمرا وذو العرش قائله

ومدحه بقصائد أخرى ذكرنا بعضها في الفصل الخاص بشعراء سامرا ٠

وكان اسحاق بن ابراهيم الموصلي قد اتصل بالمعتصم بالله الذي كان يأنس به فاتخذه نديما يسامره وينشده الشعر ويغنيه الألحان٠ ولعل أول قصيدة مدحه فيها هي التي انشدها مهنئا بتوليه الخلافة ٠ ويروي عن اسحاق انه قال : لما ولي المعتصم بالله الخلافة دخلت اليه في جملة الجلساء والشعراء ٠ فهنأه القوم نظما ونثرا ، وهو ينظر الي مستنطقا ، فانشدته(١٨) :

---

(١٨) الاغاني ٥/٣٠٢-٣٠٣ ٠

لاح بالمفرق منك القتير
وذوى غصن الشباب النضير

هزئت أسماء مني وقالت
أنت يا ابن الموصلي كبير

ورأت شيبا برأسي فصدت
وابن ستين بشيب جدير

لا يرد عنك شيبي فاني
مع هذا الشيب حلو مزير

قد يفل السيف وهو جراز
ويصول الليث وهو عقير(١٩)

يا بني العباس انتم شفاء
وضياء للقلوب ونور

أنتم أهل الخلافة فينا
ولكم منبرها والسرير

لايزال الملك فيكم مدى الدهر
مقيما ما أقام ثبير

وأبو اسحاق خير امام
ماله في العالمين نظير

واضح الغرة للخير فيه
حين يبدو شاهد وبشير

زانه هدي تقى وجلال
وعفاف ووقار وخير

---

(١٩) الجراز : السيف القاطع ، والعقير : المجروح .

لو تبارى جـــوده الريح يومـا
نزعت وهي طليــــح حســير

وعندما تولى المعتصم بـالله الخلافة كان الشـاعر الحسين بن الضحاك يقيم في البصرة منذ أيام الخليفة المأمون الذي جفاه وابعده عن بلاطه لميله الى أخيه محمد الأمين • فاستقدمه المعتصم بالله الى حاضرة الخلافة واتخذه نديما يرافقه في نزهاته ورحلاته ، ولايغيب عن مجالسه • ولما دخل عليه أول مرة استأذنه في الانشاد ، فأذن له ، فقال[20] :

هلا ســـألت تلـدد المشـــتاق
ومتنت قبـــل فراقـه بتـــبلاق

حتى انتهى الى قوله في مدحه :

خـير الوفــود مبشر بخلافـــة
خصت ببهجتهــا أبــا اســحاق

وافتــه في الشهر الحــرام سليمة
من كــل مشــكلة وكل شــقاق

أعطته صفقتها الضمائر طاعـــة
قبـل الاكف بنـــأوكد الميثـــاق

سكن الانـــام الى امـام ســلامة
عف الضـمير مهــذب الأخــلاق

فحمى رعيتـــه ودافــع دونهـــا
وأجـــار مملقهـــا من الامـــلاق

فلما اتمها قال المعتصم بالله : اذن مني ، فدنا منه ، فملأ فمه جوهرا من جوهر كان بين يديه • ثم أمره بان يخرجه من فيه ، وأمر

---

(٢٠) الاغاني ٧/١٥٢-١٥٣ ، ومعجم الادباء ٤/٣١-٣٣ ، وفيهما : تلذذ المشتاق، والتلود : الحيرة والدهشة ، وهو اقرب الى المعنى •

أن ينظم ويدفع اليه ، ويخرج الى الناس وهو في يده ، ليعلموا موقعه من الخليفة ويعرفوا فعله ٠

ومدح الشاعر علي بن الجهم المعتصم بالله بقصيدة أشاد فيها بمآثره ، واقترح عليه ان يولي ابنه هارون العهد من بعده ، يقول فيها(٢١) :

وانت خليفة الله المعلى
على الخلفاء بالنعم العظام

وليت فلم تدع للدين ثأرا
سيوفك والمثقفة الدوامي

نصبت المازيار على سحوق
وبابك والنصارى في نظام

مناظر لايزال الدين منها
عزيز النصر ممنوع المرام

وقد كادت تزيغ قلوب قوم
فأبرأت القلوب من السقام

وعمورية ابتدرت اليها
بوادر من عزيز ذي انتقام

فقعقعت السرايا جانبيها
والحفت الفوارس بالسهام

رأت علم الخلافة في دارها
فخرت بين أصداء وهام

وقد هجا الشاعر دعبل الخزاعي المعتصم بالله الذي كان يبغضه لطول لسانه ٠ ولما بلغ دعبلا ان الخليفة يتهدده هرب الى الجبل ،

(٢١) ديوان علي بن الجهم/٣ـ١٢ ٠

وقال يهجوه وينكر عليه ان يكون الثامن من خلفاء بني العباس ، وذلك بقوله(٢٢) :

بكى لشـــتات القلب مكتئب صب
وفاض بفرط الدمع من عينه غرب(٢٣)

وقام أمـــام لم يـكن ذا هدايـــة
فليس لـــه ديـن وليس لـــه لب

وما كانت الأبنـــاء تأتي بمثلـــه
يملـــك يوما أو تدين لـــه العرب

ولكن كما قـــال الذين تتابعـــوا
من السلف الماضي الذي ضمه الترب

ملوك بني العباس في الكتب سـبعة
ولم تأتنـــا عن ثـامن لهـــم كتب

كذلك أهـــل الكهف في الكهف سبعة
خيـــار اذا عدوا وثامنهـــم كلب

وقد سئل دعبل عن هذه الأبيات فأنكر أن يكون قد قالها . ولما سئل عمن قالها ، قال : من حشاالله قبره نارا ابراهيم بن المهدي ، كافأني بذلك عن هجائي اياه ليشيط بدمي(٢٤) - الا ان ابا الفرج يقول ان دعبلا اعترف بعد ذلك بأنه قائلها(٢٥) .

---

(٢٢) ديوان دعبل الخزاعي/٥١-٥٣ .

ليتكيء عليها اكراما له(٢٦) .

(٢٣) غرب : سيل لا ينقطع من الدموع .

(٢٤) الاغاني ١٠/ ١٣٠ .

(٢٥) نفس المصدر ٢٠/١٥٥ .

ولما مات المعتصم بالله ورثاه وزيره محمد بن عبدالملك الزيات بأبيات من الشعر ، قال دعبل يعارضه بالأبيات التالية(٢٦) :

لقـــد قلت اذ غيبـــوه وانصرفوا
في شر قبـــــر لشر مدفـــــون

اذهب الى النـــار والعذاب فمـــا
خلتـــك الا من الشـــياطين

مـــا زلت حتى عقـــدت بيعـــة من
أضر بالمســـلمين وبـــــالدين

٣ ـ المعتصم بالله ومجالس الغناء :

كان المعتصم بالله يحب الطرب وسماع الغناء • فقد سافر مرة الى مصر قبل توليه الخلافة فذكر جارية له كانت غلبت عليه بجمالها ودلالها ، ولم يكن استصحبها معه • فدعا مغنيا وذكر له اشتياقه الى جاريته وطلب اليه ان يغنيه صوتا يشبه ما ذكره له • فاطرق المغني مليا ، ثم اندفع يغني :

وددت من الشـــوق المبـــرح انني
أعـــــار جناحي طائـــر فاطـــير

فما لنعيـــم لست فيـــه بشاشـــة
ومـــا لسرور لست فيـــه سرور

وان امرءا في بلـــدة نصف قلبـــه
ونصف باخـــرى غيرها لصـــبور

(٢٦) ديوان دعبل الخزاعي ٩٩ـ١٠٠ •

فقال المعتصم بالله : والله ما عدت ما في نفسي ، وأمر له بجائزة سنية(٢٧) .

واعتاد المعتصم بالله أن يعقد للغناء والطرب مجالس خاصة ، ويبر المغنين وغيرهم من المطربين ويصلهم بالاعطيات والهدايا . وكان بعض المغنين يتبارون ويتناظرون في حضرته . روي عن محمد بن احمد المكي المغني عن ابيه انه قال : ناظر أبي بعض المغنين ذات ليلة بين يدي الخليفة المعتصم بالله ، وطال تلاحيهم في الغناء . فقال ابي للخليفة يا أمير المؤمنين ، من شاء منهم فليغن عشرة أصوات لا أعرف منها ثلاثة ، وأنا أغني عشرة أصوات وعشرة وعشرة لايعرف أحد منهم صوتا منها . فقال اسحاق الموصلي: صدق يا امير المؤمنين، وأيده علوية ، فأمر له المعتصم بالله بعشرين ألف درهم(٢٨) .

اسحاق الموصلي والمعتصم بالله :

كان اسحاق بن ابراهيم الموصلي ، وهو كبير المغنين في عصره ، مختصا بالمعتصم بالله الذي كان يحترمه كثيرا ويقدر فيه موهبته الغنائية ومعرفته الواسعة في الألحان . ولم يعقد مجلس غناء للخليفة دون ان يحضره الا نادرا . وجاء في نهاية الأرب ان أول يوم جلس فيه اسحاق يغني للمعتصم بالله دفع اليه الخليفة مخدة ليتكيء عليها اكراما له(٢٩) .

وذكر عن اسحاق انه قال : اتيت امير المؤمنين المعتصم بالله يوما وعنده قينة كان معجبا بها وهي تغنيه . فلما سلمت عليه واخذت مجلسي ، قال لها : خذي فيما كنت فيه ، فغنت . فقال لي : كيف تراها يا اسحاق ؟ قلت : يا أمير المؤمنين أراها تقهره بحذق وتختله

---

(٢٧) العقد الفريد ٦/٦٢ ، وثمرات الاوراق للحموي ٢/١٥٩ مع تغيير طفيف .
(٢٨) الاغاني ١٦/٣١١ .
(٢٩) نهاية الارب ٥/٨ .

برفق ولا تخرج من شيء الا الى أحسن منه ، وفي صوتها قطع شذر أحسن من نظم الدر على النحور ، فقال : يا اسحاق لصفتك لها أحسن منها ومن غنائها(٣٠) .

وقال اسحاق : دخلت يوما على المعتصم على الله بسر من رأى وابنه هارون بين يديه ، وعنده علوية ومخارق . فغناه مخارق صوتا فلم ينشط له ، ثم غناه علوية فاطربه . فلما رأيت طربه لغناء علوية دون غناء مخارق اندفعت فغنيت لحني :

تجنبت ليلى أن يلج بك الهوى
وهيهات كان الحب قبل التجنب

فأمر لي بألف دينار ، ولعلوية بخمسمائة دينار ، ولم يأمر لمخارق بشيء(٣١) .

وقال محمد بن يزيد المبرد : دخل اسحاق الموصلي على المعتصم بالله يوما فرآه تعس النفس ، فقال له : أما ترى يا أمير المؤمنين طيب هذا اليوم وحسنه ؟ فقال الخليفة : ما يدعوني حسنة الى شيء مما تريد ولا انشط له . فقال : يا أمير المؤمنين ، انه يوم أكل وشرب ، فاشرب حتى انشطك . قال : أو تفعل ؟ قال : نعم . قال : يا غلمان قدموا الطعام والشراب ، ومدوا الستارة ، واحضروا الندماء والمغنين . فأتي بالطعام والشراب ، وحضر الندماء والمغنون ، فغنى اسحاق :

سقيت الغيث يا قصر السلام
فنعم محلة الملك الهمام

لقد نشر الاله عليك نورا
وخصك بالسلامة والسلام

---

(٣٠) الطبري ٩/١٢٢ .
(٣١) الاغاني ٥/٣٩٩ .
(٣٢) نفس المصدر ٥/٣٢٩ .

فطرب المعتصم بالله وشرب كثيرا · ولم يبق أحد بحضرته الا وصله وخلع عليه وحمله ، وفضل اسحاق على جميع الحاضرين في ذلك(٣٢) ·

ويروي أبو الفرج عن القائد عجيف بن عنبسة أنه حضر يوما مجلسا لأمير المؤمنين المعتصم بالله وعنده جماعة من المغنين بينهم عمه ابراهيم بن المهدي واسحاق الموصلي ومغنون آخرون ، فغناه اسحاق :

قـــل لمـــن صـــد عاتبـــا
ونـــأى عنـــك جانبـــا

فاستحسنه الخليفة وأمره باعادته ثـلاث مرات · ولما رأى ابراهيم بن المهدي شدة طرب المعتصم بالله على هذا الصوت سأله ان يأمر المغنين الحاضرين بأن ياخذوه · فأمر الخليفة اسحاق ان يلقيه عليهم ليتعلموه · فاعاده عليهم أكثر من خمسين مرة فلم يستطع واحدا منهم اداءه على وجه الصواب · فقال محمد بن الحارث ، وهو أحد المغنين الذين عجزوا عن تعلم الصوت : ومن يقدر ان يأخذ من ذلك الشيطان شيئا(٣٣) · وذلك ولاريب دليل على براعة اسحاق ومهارته في الغناء وتفوقه على غيره من المغنين ·

المغنون الآخرون :

من كبار المغنين الذين غنوا للمعتصم بـالله أبو المهنا مخارق الذي يعتبر من أجـود المغنين في أيامه · حدث مـوسى بن هارون الهاشمي قال : كنت واقفا بين يدي المعتصم بالله وهو جالس على حير الوحش ، والخيل تعرض عليه ، وهو يشرب ، وبين يديه علوية

---

(٣٣) الاغاني ٥/٣١٥ـ٣١٦ ·

ومخارق يغنيان • فعرض عليه فرس كميت أحمر ، فتغامز علوية ومخارق ، فغناه مخارق :

واذا مـــا شربوهـــا وانتشـــوا
وهبـــوا كل جـــواد وطمـــر

فتغافل الخليفة عنه ، فانبرى مخارق فغنى :

يهب البيض كالظبـــاء وجـــردا
تحت اجلالهـــا وعيس الـــركاب

فضك المعتصم بالله وقال : اسكتـــا يا ابني الزانيتين ، فليس يملكه والله واحد منكما • ثم دارا لدور فغنى علوية :

واذا مـــا شربوها وانتشـــوا
وهبـــوا كـــل بغال وحمـــر

فضحك المعتصم بالله وقال : أما هـــذا فنعم • وأمر لأحدهما ببغل وللآخر بحمار(٣٤) •

وعرض علوية على الخليفة المعتصم بـــالله رقعة في أمر رزقه واقطاعه ، وهو يشرب ، ودفعها اليه من يده ، فلما أخذها اندفع علوية يغني :

اني استحيتك ان أفـــوه بحاجتي
فاذا قـــرأت صحيفتي فتفهـــم

وعليـــك عهـــدالله ان خبرتـــه
أحـــدا ولا أظهرتـــه بتكلـــم

فقرأ الخليفة الرقعة وهو يضحك ، ثم وقع له بما أراد(٣٥) •

---

(٣٤) نفس المصدر ٥/٢٥٢_٢٥٣ •
(٣٥) نفس المصدر ١١/٣٥١ •

ومن المغنين الذين غنوا للمعتصم بـــالله عبدالله بن العباس الربيعي ، وهو حفيد الفضل بن الربيع وزير الخليفة محمد الأمين ، وكان مغنيا مجيدا • وقد حلف الا يغني الا لخليفة أو ولي عهد • واذا ما اراد أحد أولاد الخلفاء ان يعرف من الخليفة بعد أبيه ، هو والا عرف انه غيره •

أم غيره ، دعا عبدالله بن العباس وأمره بالغناء ، فيعرفه بيمينه ، فيستأذن الخليفة في ذلك • فان أذن له بالغناء علم انه ولي عهده ، والا عرف انه غيره •

قال عبدالله الربيعي : دعاني الواثق أيام المعتصم بالله ، وسأل اياه ان يأذن لي بالغناء ، فأذن لي • الا ان الخليفة دعاني من الغد ، فقال لي : لا يبلغني انك امتنعت من الغنـــاء عند احد ، فوالله لو امتنعت لأضربن عنقك ، فاعتق من كنت تملكه يوم حلفت وطلق من كان عندك يومئذ • وارحنا يمينك هذه المشؤومة • فقمت وانا لا أعقل جزعا منه • فاعتقت جميع ما كان بقي عندي من مماليكي الذين حلفت يومئـــذ وهم في ملكي ، ثم تصدقت بجملة مـــال ، واستفتيت في يميني أبا يوسف القـــاضي حتى خرجت منها(٣٦) • وغنيت بعد ذلك لاخواني جميعا حتى اشتهر أمري ، وبلغ المعتصم بالله أمري(٣٧) •

وغنى للمعتصم بالله كذلـــك المغني الطنبوري محمد بن أمية المعروف بأبي حشيشة ، وهو من المغنين الطنبوريين المجيدين ، وقد تقدم بصنعته على كل طنبوري آخـــر(٣٨) • وقد غنى أبو حشيشة لخلفاء سامرا جميعا ، وكان كل منهم معجبا بلحن معين من الحانة يغنيه اياه اذا حضر مجلس غنائه • وله كتاب الفه في اخبار مراتبه

---

(٣٦) المعروف ان ابـا يوسف قد توفي سنة ١٨٢ ، وذلك ممـــا يرجح ان هذه الفقرة مضافة على الخبر •

(٣٧) الاغاني ١٩/٢٢٤ •

(٣٨) نهاية الارب ٥/٣٥ •

الطنبوريين والطنبوريات • وقال أبو حشيشة : كان المعتصم بالله يحب ان اغنيه هذا الصوت(٣٩) :

أسرفت في ســــوء الصـــنيع
وفتـكت بي فتــــك الخليـــــع

وولعت بي متمرســــــــــا
والعــذر في طـــرق الولـــوع

صـــيرت حبـــك شـــافعا
فـــأتيت من قبــــل الشـــفيع

وحدث عمرو بن يانة المغني قال : خرجنا مع المعتصم بالله الى الشام فمررنا بدير مران ، وهو على قلعة مشرفة عالية تحتها مروج ومياه حسنة ، فنزل فيه الخليفة ، فأكل ونشط للشرب ، ودعا بنا • فلما شربنا أقداحا قال لحسين بن الضحاك : أين هذا المكان من ظهر بغداد ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين والله لبعض الغياض واجام هناك أحسن من هنا • قال : صدقت والله ، فقل أبياتا يغني بها عمرو • فقال : اما أن أقول شيئا في وصف هـــذه الناحية بخير فلا احسب لساني ينطق به ، ولكن أقول متشوقا الى بغداد ، فضحك الخليفة وقال له : قل ما شئت ، فقال(٤٠) :

يا دير مريـــان لا عريت من سكن
هيجت قلبي سقما يا دير مريانا(٤١)

هل عندك قســـك من علم فيخبرنا
أم كيف يسعف وجه الصبر من بانا

---

(٣٩) الاغاني ٢٣/٧٩ •

(٤٠) الاغاني ٧/١٩٣ـ١٩٤ •

(٤١) دير مريان بالقرب من بغداد على نهر كرخايا ـ الديارات/٣٣ •

حث المدام فـــان الكأس مترعـــة
مما يهيــج دواعي الشـــوق أحيانا

سقيا ورعيــا لكرخايا وســـــاكنها
وللجنينــة بالروحـــــاء من كانـــــا

فاستحسنها المعتصم بالله وأمـــــرني ومخارقا فغنينا فيها ، وشرب على ذلك . وأمر للجماعة بجوائز .

وتعتبر متيم الهشامية من المغنيات المجيدات في أيامها . وهي من مولدات البصرة وبها نشأت وتأدبت ، وكانت من أحسن الناس وجها وأدبا وغناء . أخذت الغنـــــاء عن اسحاق الموصلي ، وادركت اياه واخذت عنه بعض الأصوات . وغنت للمعتصم بالله . قالت : بعث الي المعتصم بالله بعـــد قدومه بغداد ــ أي في أول خلافتـــــه ــ فذهبت اليه ، فأمرني بالغناء ، فغنيت هذا الصوت :

هــــــل مســــــعد لبــــكائي
بعبـــــــــــــرة أو دمـــــــــــاء

وذا لفقــــــــــد خليـــــــــل
لســـــــــــادة نجبـــــــــــاء

فقال لي : أعدلي عن هذا الصوت الى غيره . فغنيت غيره من معناه ، فدمعت عيناه ، وقال : غني غير هذا . فغنيت :

أولئك قـــــــومي بعد عز ومنعـــــة
تفانوا والا تــذرف العين أكمـــــد

فبكى وقال : ويحك لا تغنيني في هذا المعنى شيئا البتة . فغنيت في لحني :

لا تأمن الموت في حـــــل وفي حـــــرم
ان المنايـــــا تغشى كـــــل انســـــان

واسلك طريقك هونا غـــير مكترث
فسوف يأتيك مــــا يمني لك الماني

فقال : والله لولا اني أعلـــم انك انما غنيت بمـــا في قلبك لصاحبك ـ وهو علي بن هشام الذي قتله المأمون وانك لم تريديني لمثلت بك ٠ ـ ولكن خذوا بايديهـــا فاخرجوها ٠ فاخذوا بيدي وأخرجت(٤٢) ٠

ولما انتقل المعتصم بالله الى سامرا أرسل الى متيم يستدعيها ٠ فجاءت وانزلها في الجوسق في دار كانت تسمى الدمشقي ٠ وكانت بين حين وآخر تستأذنه في الذهـــاب الى بغداد لزيارة أولادها ثم تعود(٤٣) ٠

وكانت متيم الهشامية أول من عقد من النساء في الازار زنارا وخيط أبريسم ثم تجعله في رأسها ، فيثبت الازار ولا يتحرك أو يزول(٤٤) ٠

وغنت متيم يوما بين يدي المعتصم بالله ، وعنده عمه ابراهيم بن المهدي ، اللحن الآتي :

لزينب طيف تعتـريني طوارقـــه
هدوا اذا ما النجـــم لاحت لواحقه

فاشار اليها ابراهيم ان تعيـــده ٠ فقالت للمعتصم بالله : يا سيدي ان ابراهيم يستعيدني الصوت لأنه يريد أن يأخذه ٠ فقال لها الخليفة : لا تعيديه(٤٥) ٠

ان المعتصم بالله تنكر للمغنية عريب ، التي كانت أديبة شاعرة ومغنية من اعلام العارفات بالغناء والضرب على العود ٠ أعجب بها

---

(٤٢) الاغاني ٧/٣٠٣ـ٣٠٤ ٠
(٤٣) الاغاني ٧/٢٩٤ ٠
(٤٤) نفس المصدر ٧/٣٠٢ ٠
(٤٥) نفس المصدر ٧/٢٩٥ ٠

المأمون فاشتراها وذهبت به كل مذهب ، ميلا اليها ومحبة لها ، حتى انها نسبت اليه فعرفت بعريب المأمونية • وكان المعتصم بالله قد اشتراها لما بيعت في ميراث المأمـــون واعتقها(٤٦) • الا انه غضب عليها • ويرى النويري ان سبب غضبه انه وجد كتابا وجهته الى العباس بن المأمون ، عندما كان المعتصم بالله يحارب في بلاد الروم ، تقول فيه : اقتل أنت العلج حتى أقتل أنا الأعور الليلي ها هنا(٤٧) • وتعني بالأعور الليلي هارون بن المعتصم بـــالله ، وكان أبوه قد استخلفه لما خرج في حملته على البيزنطيين • ويضيف النويري ان هذا من الامور التي لا تحتمل ، ولو لـــم يكن لها عندهم من المكانة العظمى والمحل الكبير لما ابقوها بعد الاطلاع من باطن حالها على هذه الطوية(٤٨) •

ومن المطربـين الذين اشتهروا على عهد المعتصم بـــالله زنام الزامر ، وهو يعتبر أول من اشـتهر من العرب باستعمال الناي ، ويقال انه أول من أحدثه ، وكان يضرب بزمره المثل • وذكر زنام ان المعتصم بالله وجد في علته التي توفي فيها افاقة فطلب ان يهيؤا له مركبه الزلال ليركب فيه ، فركبت معه وطلب الي أن أزمر له هذا الصوت :

يـا منـــــزلا لم تبـــل اطلالـــه
حاشـــا لأطلالـــك ان تبـــلى
لـم ابـــك أطلالـــك ، لكنني
بـــكيت عيشي فيـــك اذ ولى

---

(٤٦) نفس المصدر ٦٧/٢١ ، ونهاية الارب ١٠١/٥ •
(٤٧) نهاية الارب ١٠٦/٥ •
(٤٨) نفس المصدر •

والعيش أولى مـــا بـــــكاه الفتى

لابـــد للمحـــزون ان يســـلى

فما زلت أزمر الصوت المذكور ، حتى دعا برطلية فشرب منها قدحا • وجعلت أزمره وأكرره • وقـــد تناول منديلا بين يديه ، ومازال يبكي ويمسح دموعه فيه وينتحب ، حتى رجع الى منزله ، وهو لم يستتم شرب الرطلية(٤٩) •

---

(٤٩) الطبري ٩/١١٨-١١٩ ، والفخري/٢١٢ ، وجاء صدر البيت الاخير فيه : والعيش أحلى ما بكاه الفتى •

الفصل الثاني

مجالس الواثق بالله

مقدمـــة :

كان الواثق بالله محبا للنظر مكرما لأهله ، مبغضا للتقليد ، محبا للاشراف على علوم الناس وآرائهـــم ، ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة وغـــيرهم[1] • والى جانب مجالس اللهو التي اعتـــاد ان يعقدها لسماع الغناء والموسيقى ومناقشة الالحان ، فقد كان يعقد مجالس خاصة يحضرها رجال الادب والعلـــم والفلسفة والطب ، لبحث ما يثار من القضايا الادبية واللغوية والتأريخية والمواضيع العلمية والفلسفية المختلفة ، ولســـماع الشعر والاخبار ، وتفهم فحوى ومعاني ما يعرض من ذلك • فاذا ما ورد لفظ غريب مثلا تحرى الواثق بالله مع جلسائه عن معناه والشواهد الدالة عليه من شعر وغيره • وكذلك مناقشة آراء وقضايا علمية قد تعرض على المجتمعين • ومن المعتاد ان يشترك الخليفة في المناقشات التي تدور بين الحاضرين ، أو انه يوجه سؤالا معينا يطلب الى أحد الحاضرين الأجابة عليه ، ويدعو الاخرين الى مناقشة تلك الاجابة • أو أن أحد الجلساء يسأل سؤالا معينا فيجيب عليـــه أحد الحاضرين • والواثق بالله يستمع الى ما يورده السائل والمجيب ، وما يدور حول

---

(١) مروج الذهب ٤/٧٧ •

ذلك من جدل ومناقشة • ويتـــرك للجميع الحرية التامة في ابداء آرائهم وملاحظاتهم •

وكثيرا ما كان الواثق بالله يجيز من يحضر هذه المجالس من الادباء والمتطببين وغيرهم جوائز سنية تشجيعا لهم • ولا ينكر ان قيام الخليفة بعقد مثل هــذه المجالس وحضوره فيها وتشجيعه من يحضرها ، ومناقشة مــا يدور فيها ، يعتبر حافزا مهمـــا للعلماء والادباء على الســعي لتقديم خير ما يتوصلون اليـــه من معلومات وآراء • وان المناظرات التي كانت تقوم حول تلك الآراء والأفكار التي تعرض في أي موضوع من مواضيع الشريعة أو العلم أو اللغة أو الأدب مما يغني المعرفة الانسانية في هذه الحقول •

وكان الواثق بالله يطلب أحيانا ممن يجيب على اسئلة معينة أن يضيف أجوبته في كتاب • ولا ينكر ان شخصية الواثق بالله وشغفه بالعلم والأدب ، واعتناقه آراء المعتزلة ، وايمانه بحرية الرأي ، كان لها تأثير مهم في تنشيط الحركة العلمية والادبية على عهده •

٤ ــ من مجالسه العلمية :

اعتاد الواثق بالله ، كما أشرنا ، ان يتساءل في هذه المجالس عن قضايا ومواضيع علمية تتناول الطب وشؤون الصحة ، ومواضيع فلكية وفلسفية وغيرها • وكان في بعض الاحيان يخص باسئلته كبار الحاضرين من الفلاسفة والأطباء • وقد احتفظ لنا المؤرخ المسعودي بنماذج لما كان يدور من المناقشات في هذه المجالس(٢) • فقد سأل الواثق بالله يوما جلساءه من المتطببين والفلاسفة عن كيفية ادراك الطب ، وهل ان أصوله من الحس أم من القيـــاس ، أم انه يدرك بالعقل أو السمع • فأجاب الحاضرون اجابات مختلفة(٣) • ومن

---

(٢) مروج الذهب ٤/٧٧ــ٨٣ •
(٣) نفس المصدر/٧٧ــ٨٠ •

الأسئلة التي وجهها في أحد مجالسه ان يخبـــر كل واحد منهم عما حضره من الزهد في هذا العالم الذي هو عالم الدثور والفناء • فذكر كل واحد منهم مـــا سنح له من الاخبـــار عن زهد الفلاســـفة من اليونانيين والحكماء المتقدمين مثل ســـقراط وديوجانس • فقال الواثق بالله : قد اكثرتم فيما وصنتم وقد احسنتم الحكاية فيما ذكرتم . فليخبرني كل واحد عن أحسن ما سمع من نطق الحكماء الذين حضروا وفاة الاسكندر • فقال بعضهم : كل ما ذكروه حسن ، واحسن مـــا نطق به من حضر ذلك المشهد من الحكمـــاء ما قاله ديوجانس ان الاسكندر أمس انطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس ، وقد قيل انه لبعض حكماء الهند(٤) •

ويظهر مما رواه المسعودي ان حنين بن اسحاق العيادي كان ابرز من يحضر مجالس الواثق بالله من علماء الأطباء ، وكان حنين أمام وقته في الطب(٥) • وهو يتقن أربع لغات : العربية والسريانية والفارسية واليونانية ، مما ساعده على أن يكون حاذقا في الترجمة • وقد ترجم عددا من نفائس الكتب اليونانية الى اللغة العربية واللغة السريانية • كمـــا وضع عددا من الكتب الطبية التي نـــالت شهرة واسعة • وكان الخليفة المأمون قـــد اعجب به فعينه رئيسا لبيت الحكمة ، وشجعه على ترجمة الكتب اليونانية • وقد تقدمت منزلته عند الخليفة الواثق بالله ، الذي يخدم العلماء ويجالسهم •

سأل الواثق بالله في أحد مجالسه حنين بن اسحاق عن أول آلات الغذاء ، فقال حنين : أول آلات الغذاء في الانسان الفم وفيه الاسنان، والاسنان اثنتان وثلاثون سنا ، منهـــا في اللحى الاعلى ستة عشر سنا . وفي اللحى الاسفل كذلك • ومن ذلك أربعة في كل واحد من اللحيين عراض محدودة الأطـــراف تسميها الأطباء من اليونانيين

---

(٤) نفس المصدر/٨٣ •
(٥) وفيات الاعيان ١/٤٥٥ •

القواطع ، وذلك ان بها يقطع ما يحتاج الى قطعة من الاطعمة اللينة، كما يقطع هذا النوع من المأكول بالسكين ، وهي الثنايا والرباعيات • وعن جنبي هذه الاربعة في كل واحد من اللحيين سنان رؤوسهما حادة وأصولها عريضة ، وهي الأنياب وبها يكسر كل ما يحتاج الى تكسيره من الاشياء الصلبة مما يؤكل • وعن جنبي النابين في كل واحد من اللحيين خمس اسنان أخر عوارض خشن ، وهي الأضراس • ويسميها اليونانيون الطواحن لانها تطحن ما يحتاج الى طحنه مما يؤكل • وكل واحد من الثنايا والرباعيات والانياب له أصل واحد ، أما الاضراس فما كان منها في اللحى الاعلى فله ثلاثة أصول خلا الضرسين الاقصيين ، فانه ربما كان لكل واحد منهما أصول أربعة • وما كان من الاضراس في اللحى الاسفل فلكل واحد منها أصلان خلا الضرسين الاقصيين فانه ربما كان لكل واحد منهما أصول ثلاثة • وانما احتيج الى كثرة أصول الاضراس دون سائر الاسنان لشدة قوة العمل بها • وخصت العليا منها بالزيادة في الاصول لتعلقها بأعلى الفم •

فاستحسن الواثق بالله ما ذكره حنين بن اسحاق وطلب اليه أن يصنف له كتابا يذكر فيه جميع ما يحتاج الى معرفته من ذلك • فصنف له كتابا جعله ثلاث مقالات ، يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء والمسهل وآلات الجسد(٦) •

وكان من جملة ما سأل الواثق بالله حنين بن اسحاق واجاب عنها ، انه سأله عن الاشياء المغيرة للهواء • قال حنين : خمس ، وهي أوقات السنة ، وطلوع الكواكب وغروبها ، والرياح ، والبلدان ، والبحار • قال السائل : فكم هي أوقات السنة ؟ قال حنين : أربعة :

---

(٦) مروج الذهب ٤/٨٠ـ٨١ • ويلاحظ انه لم يرد بين كتب حنين كتاب بهذا الاسم • بل هناك كتاب بعنوان «كتاب الاغذية ثلاث مقالات» وقد يكون هو نفس الكتاب ـ تاريخ الحكماء/١٧٣ •

الربيع والصيف والخريف والشتاء • فمزاج الربيع معتدل الحرارة والرطوبة ، ومزاج الصيف حـــار يابس ، ومزاج الخريف بارد يابس • ومزاج الشتاء بارد رطب •

قال السائل : أخبرني عن كيفية تغيير الكواكب للهواء • قال حنين : ان الشمس متى قربت منها أو قربت هي من الشمس الهواء أزيد سخونة ، وخاصة كلما كانت اعظم • ومتى بعدت الشمس أو بعدت هي عن الشمس ، كان الهواء أزيد برودا •

قال : اخبرني عن كيفية اعداد الرياح ، قال حنين : اربع ، الشمال والجنوب والصبا والديور • أما قوة الشمال فباردة يابسة ، فان الجنوب فحارة رطبة ، وأما الصبا والدبور فمعتدلتان •

قال : فاخبرني عن أحوال البلدان في ذلك • قال حنين : هي أربع . الأول الارتفاع . والثاني الانخفاض ، والثالث مجاورة الجبال والبحار . والرابع طبيعة تربـــة الارض • والنواحي هي اربع : الجنوب والشمال والمشرق والمغرب فناحية الجنوب اسخن وناحية الشمال أبرد، وأما ناحيتا المشرق والمغرب فمعتدلتان • واختلاف البلدان بارتفاعها وانخفاضـــــها ، لان ارتفاعها يجعلها ابرد ، وانخفاضها يجعلها اسخن • والبلدان تختلف بحسب مجاورة الجبال لها • لأن الجبل متى كان من البلد في ناحية الجنوب جعل ذلك البلد أزيد بردا لأنه يستره من الرياح الجنوبية ، وانما تهب فيها الرياح الشمالية فقط • ومتى ما كان الجبل من البلد في ناحية الشمال جعل ذلك البلد اسخن •

قال : فاخبرني عن اختلاف البلدان عند مجاورتها البحار ، كيف اختلفت ؟ قال حنين : ان كان البحر من البلد من ناحية الجنوب فان ذلك البلد يسخن ويرطب ، وان كان من ناحية الشمال كان ذلك البلد أبرد •

قال السائل : فاخبرني عن البلد كيف اختلفت بحسب طبيعة تربتها ؟ قال حنين : ان كانت أرضها حجرية جعلت ذلك البلد أبرد وأخف • وان كانت تربة البلـــد حصيائية جعلت ذلك البلد أخف وأسخن ، وان كانت طينا جعلته أبرد وأرطب •

قال : فلم اختلف الهواء من قبل البحار ؟ قال حنين : اذا جاورت نقائع الماء أو جيفا أو بقولا عفنة ، أو غير ذلك مما يتعفن ، تغير هواؤها •

فلما كثر الكلام من الســـائل والمجيب ضجر الواثق ، فقطع المحاورة ، واجاز كل واحد ممن حضر المجلس(٧) •

ويتضح مما ذكره المسعودي عن مجلس الواثق بالله ان حنين بن اسحاق كان قد أجاب على عديد من أسئلة الخليفة في علم الطب . فصنف ذلك في كتاب أسماه «المسائل الطبيـــة» ذكر فيه أنواعا من العلوم(٨) • ويقول ابن أبي أصيبعة ان كتاب المسائل هذا هو المدخل الى صناعة الطب ، لانه جمع فيه جملا وجوامع تجري مجرى المبادىء والأوائل لهذا العلم ، وليس جميـــع الكتاب لحنين بل ان تلميذه حبيش الاعسم تممه ، ولذلك يعنون هذا الكتاب بكتاب المسائل لحنين بزيادات حبيش الاعسم ، وقيل ان حنين بن اسحاق شرع في تأليف هذا الكتاب في أيام الخليفة المتوكل على الله(٩) •

ويغلب على الظن ان حنين بن اسحاق جمع أجوبته في مجالس الواثق بالله ، وجعلها كتابا واحدا في عهد المتوكل على الله ، وان ابن أخته حبيش ساعده في جمعه واضاف اليه بعض المواضيع • على انه

---

(٧) وقيل ان الواثق بالله كلف أحد الحاضرين في المجلس ان يسال حنين بن اسحاق بحضرته وهو يسمع ما يدور من المناقشة • مروج الذهب ٤/٨١ـ ٨٣ •

(٨) مروج الذهب ٤/٨١ ، وجاء فيه اسم الكتاب «المسائل الطبيعية» •

(٩) عيون الانباء/٢٧١ •

مما تجدر ملاحظته ان اجوبة حنين بن اسحاق فيما يتعلق بالاسنان من حيث أنواعها ووظائفها ، أو فيما يتعلق بالعوامل المؤثرة في جو بلد ما ومناخه ، لا تكاد تختلف عما نعرفه اليوم • وذلك من الدلائل الواضحة على تقدم العلم والمعرفة حينذاك •

٢ ـ من مجالسه الأدبية :

غنت احدى المغنيات في مجلس الواثق بالله يوماً من شعر العرجي قوله :

أظلوم ان مصابكم رجلا
اهدى السلام اليكم ظلم

فاختلف من في المجلس من رجال اللغة في اعراب «رجل» فمنهم من نصبه باعتباره اسم ان ، ومنهم من رفعه على انه خبرها • والجارية المغنية مصرة على ان شيخها أبا عثمان المازني لقنها اياه بالنصب • فأمر الواثق بالله باشخاص المازني الى سر من رأى • قال أبو عثمان : فلما مثلت بين يديه ، قال : ممن الرجل ؟ قلت من مازن • قال : أي الموازن ؟ قلت : مازن ربيعة • فكلمني بكلام قومي وقال باسمك ؟ لأنهم يقلبون الميم باء والباء ميما ، فكرهت أن أجيبه على لغة قومي لئلا أواجهه بالمكر ، فقلت : بكر يا أمير المؤمنين • ففطن لما قصدته وأعجب به ، ثم قال : ما تقول في قول الشاعر : أظلوم ان مصابكم رجلا ، أترفع رجلا أم تنصبه ؟ فقلت : بل الوجه النصب • قال : ولم ذاك ؟ قلت : ان مصابكم مصدر بمعنى اصابتكم • فعارضني اليزيدي • فقلت : هو بمنزلة قوله ان ضربك زيدا ظلم • فالرجل مفعول مصابكم منصوب به والدليل عليه ان الكلام معلق الى ان تقول ظلم فيتم • فاستحسن الواثق بالله ذلك •

ثم سأل الواثق بالله أبا عثمان ، هل لك من ولد ؟ قال : نعم ، بنية يا أمير المؤمنين ، وقد انشدت عند مسيري اليك قول الأعشى :

اذا غبت عنـــا وخلفتنـــا
فانا ســـواء ومن قـــد يتم
أيا أبتـــا لا ترم من عندنـــا
فانا بخـــير اذا لـــم تـــرم
أرانـــا اذا اضمرتك البـــلا
د نجفى ويقطـــع منـــا الرحم

قال : فما قلت لها ؟ قلت : قول جرير :

ثقي بـــالله ليس له شريـــك
ومن عند الخليفـــة بالنجـاح

قال الواثق بالله : انت على النجاح انشاءالله ، ثم أمر لي بألف دينار ، وردني مكرما[10] ·

وحضر أبو عثمان المازني مجلس الواثـــق بالله ، وكان ابن السكيت أبو يوسف يعقوب بن اسحاق حاضرا · فقال الواثق لأبي عثمان : سله عن مسألة · فقال المازني : ما وزن نكتل من الفعل ؟ فقال ابن السكيت : نفعل · فقال الواثق بالله : غلطت ، ثم طلب الى المازني أن يفسره · فقال : نكتل تقديره نفتعل واصله نكتيل ، فانقلبت الياء ألفا لفتحة ما قبلها فصـــار لفظها نكتال ، فاسكنت اللام للجزم لانه جواب الأمر ، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين · فقال الواثق بالله : هذا هو الجواب ، لا جوابك يا يعقوب[11] ·

وحضر المازني يوما مجلس الواثق بالله وعنده نحاة الكوفة ، فقال له الخليفة : يا مازني هات مسألة · فقال : ما تقولون في قوله تعالى «وما كانت أمك بغيا» لم لم يقل بغية ، وهي صفة لمؤنث ؟

---

(١٠) درة الغـــواص / ٧٢ ـ ٧٤ والعقـــد الفريـــد ٢ / ١٠١ ، وعيون الاخبار ٣/٣٢ـ٣٣ ، واخبار النحويين البصريين /٥٧ـ٥٨ ووردت فيه الابيات ببعض التغيير ، وان الواثق بالله امر له بثلاثين ألف درهم · وجاء في وفيات الاعيان ٥/٤٤٠ـ٤٤١ ، وفي البصائر والذخائر ٥٧٢/٣ ان المناظرة جرت في مجلس المتوكل على الله ·

(١١) معجم الادباء ٥/٤٤٠ـ٤٤١ ·

فاجابوا باجابات غير مرضية • فقال الواثق بالله : هات ما عندك • قال : لو كانت بغي على تقدير فعيل بمعنى فاعلة لحقتها الهاء ، مثل كريمة وظريفة ، وانما تحذف الهاء اذا كانت مفعولة ، نحو المرأة قتيل ، وكف خضيب • وبغي هنا ليس بفعيل وانما هو فعول ، وفعول لا تلحقه الهاء في وصف التأنيث ، نحـــو امرأة شكور بئر شطون ـ أي بعيدة الرشا ـ وتقدير بغي بغوي قلبت الواو ياء ، ثم ادغمت في الياء فصارت ياء ثقيلة نحو سيد وميت فاستحسن الخليفة الجواب(١٢) •

وغنى أحد المغنين مرة في مجلس الواثق بالله بشعر الأخطل :

وشارب مربح بالكأس نادمني
لا بالحصور ولا فيهـــا بسوار

فسأل الواثق بالله جلساءه : أســـوار او سئار ؟ فاختلفوا في الاجابة • فوجه الى ابن الاعرابي محمد بن زياد اللغوي وهو يومئذ بسر من رأى ، يسأله في ذلك • فقال : سوار ، وثاب ، يقول لا يثبت على ندمائه • وسئار مفضل في القدح سؤرا ، وقد رويا جميعا • فأمر له الواثق بالله بعشرة آلاف درهم(١٣) •

ودخل ابن الاعرابي يوما على الواثق بالله وهو في أحد مجالسه الأدبية ، وكان الحسين بن الضحاك الشاعر موجودا • فقرأ الفتح بن خاقان شعرا لطرفة ، فقال :

أشجاك الربـــــع أم قدمـــه
أم رمـــــاد دارس حممـــــه

كسطـــــور الرق رقشـــــه
بالضـــحى مـــرقش يشـــمه

---

(١٢) نفس المصدر ٢/٣٨٥ـ٣٨٦ •
(١٣) نفس المصدر/٧/٧ •

تذكـــــرون اذ نقاتلكـــــم
اذ لا يضر معدمـــا عدمـــه

فقال ابن الاعرابي : زد الفا في أول البيت واجعله أتذكرون • فقال له الحسين بن الضحاك : قد خزم مرة بقوله : اذ لا يضر معدما، فهل يخزم بالت أخرى في أوله؟ أجاب ابن الاعرابي: ان العرب تخزم أول الشعر اذا احتاجت ان تصله بمـــا قبله ، تخزمه بالحرف أو الحرفين ، وقد خزمه طرفة في اذ أواسطه وفي الألف الاولى ، وانشد قول امرئ القيس :

فلعمرك ما ســعد بخلة آثــم
ولا نأنأ يوم الحفاظ ولا حصر

فخزم بالفاء ، وانشد قول قد بن مالك الوالبي :

تعالـوا نجمع الأمــوال حتى
نجحدل من قبيلتنــا المئينــا

والا فتعالوا نجتلــد بمهندات
نشق بهــا الحواجب والشؤونا

فخزم بقوله والا ، ولم يقل تعالـــوا نجتلد ، وخزم بالفاء في تعالوا ، فخزم مرتين ، فاعجب الواثق بالله بذلك • وشهد الحاضرون ان ابن الاعرابي أعلم الجميع • فأمـــر له الخليفة بعشرة آلاف درهم(١٤) •

ويقال ان الواثق بالله رأى في منامه كأنه يسال‌الله الجنة ، وان قائلا يقول له : لا يهلك على الله الا من قلبه مرت • فسال في اليوم الثاني جلساءه عن المرت ، فلم يعرفوا معناه • فوجه الى أبي محلم فحضر وسأله عن الرؤيا والمرت • فقـــال أبو محلم : المرت القفر الذي لا ينبت شيئا ، والمعنى على هذا لا يهلك على الله الا من قلبه

(١٤) اشمار الخليج/١٢٩ـ١٣٠ •

خاليا من الايمان خلو المرت من النبات . فطالبه الواثق بالله بشاهد من الشعر ، فبادر أحد الحاضرين فانشد :

مرت مرتاوة يحار بهـا القطا
ويصبح ذو علم بها وهو جاهل

فقال أبو محلم : والله لا ابرح حتى انشده مائة قافية معروفة لمائة شاعر معروف في كل بيت ذكر المرت . فأمر له الواثق بالله بمائة ألف دينار(١٥) . ويلاحظ ان الخبر ممعن في المبالغة من قدرة أبي محلم على انشاد مائة بيت لمائة شاعر وفي كل منها ذكر المرت ، وفي المبلغ الذي منحه الواثق اياه ، ويرجح انه بالدراهم لا بالدنانير اذا سلمنا بصحة مقداره .

وتلاحى الحسين بن الضحاك الشاعر ومخارق المغني في مجلس الواثق بالله في أبي نواس وأبي العتاهية ، ايهما أشعر من الاخر . فقال الواثق بالله : اجعلا بينكما خطرا يكون للغالب منكما ، فجعلوا بينهما مائتي دينار . فسأل الواثق بالله من ها هنا من العلماء . فقيل أبو ملحم ، فاحضروه فسئل عن ذلـك . فقال : أبو نواس اشعر واذهب في فنون العرب ، واكثر افتنانا من افانين الشعر . فأمر الواثق بالله بدفع الخطر الى الحسين بن الضحاك(١٦) .

٣ ـ عناية الواثق بالله باخبار الأولين :

أصحاب الرقيم (أصحاب الكهف) :

كان الواثق بالله كثير العناية بتتبع اخبار الأولين ، ومن ذلك ما يرويه ابن خرداذبة من ان الواثق بالله وجه محمد بن موسى المنجم الى بلاد الروم ليتحرى عن أصحاب الرقيم الذين يقال انهم يرقدون.

---

(١٥) تاريخ الخلفاء/٣٤٣ .
(١٦) الاغاني ٧/١٧٦ .

في أحد الكهوف هناك • وكتب الى ملك الروم ميخائيل الثالث ليساعده في مهمته • ويقول ابن خرداذبة ان ابن المنجم حدثه بان عظيم الروم وجه معه من صار به الى الموضع الذي فيه أصحاب الرقيم ، وهو يقع بين عمورية ونيقية[١٧] • ويقول ياقوت الحموي ان بين الموضع وبين طرسوس عشرة أيام أو أحد عشر يوما[١٨] • ويلاحظ ان المسافة بين عمورية ونيقية القريبة من القسطنطينية بعيدة ، وكذلك هي بين نيقية وطرسوس الواقعة جنوبي شرقي آسيا الصغرى • والمعروف ان الكهف المذكور يقع في مدينة افسوس على بحر ايجة جنوبي مدينة ازمير • ويغلب على الظن ان ابن خرداذبة والحموي اتخذا المدن المذكورة دليلا على موقع الكهف لشهرتها ومعرفتهما بها ، أو لأن الطريق بين هذه المدن هي التي كانت مألوفة للسير حينذاك •

يصف محمد بن موسى الطريق التي سلكوها حينما وصلوا الى جبل صغير فصعدوا الى ذروته ، ثم نزلوا الى سرب ينفذ الى الموضع الذي يرقد فيه اصحاب الرقيم • فمشوا مقدار ثلاثمائة خطوة فصاروا الى موضع فيه رواق على اساطين منقورة ، وفيه غرفة مرتفعة عليها باب حجري يرقد فيهاالموتى ، وعلى الغرفة رجل مكلف بحفظهم • ويقول ابن المنجم : ان الرجل كان يحيد عن ان تراهم أو نفتشهم ، ويزعم انه لا يأمن أن يصيبنا من ذلك آفة ، يريد التمويه ليدوم كسبة بهم • ثم يذكر كيف انه غامر بالصعود الى الغرفة وما قاساه من تعب ومشقة حتى وصلها ، فرأى الموتى في مسوح بالية تفرك باليد ، وان اجسادهم مطلية بالصبر والمرد والكافور لحفظها ، وجلودهم لاصقة بعظامهم • ولما لمس صدر أحدهم وجد خشونة في

---

(١٧) المسالك والممالك/١٠٦ـ١٠٧ •

(١٨) معجم البلدان ٣/٦١ ، والاثار الباقية/٢٩٠ ، وفيه ان اصحاب الكهف في مدينة افسيس وان المعتصم بالله وجه موسى بن شاكر الى ملك الروم . وان علي بن المنجم زار الكهف في أحد غزواته •

شعره . وقدم الموكل بحفظ الموتى الى محمد بن موسى وغلامه طعاما انكرا طعمه . ويقول ابن موسى انما أراد أن يقتلنا أو بعضنا ، فيصح ما يدعيه عند ملك الروم من انهم اصحاب الرقيم . فقلنا له: انما ظننا انك ترينا موتي يشبهون الأحياء وليس هؤلاء كذلك[١٩].

من الواضح مما بينه ابن المنجم ، ان هؤلاء الموتى ليسو هم الفتية الذين آووا الى الكهف ، وانما هم أموات آخرون جاء بهم الموكل المدعي ليوهم من يراهم ، ويتكسب بذلك .

على ان ابن خرداذبة يشير في مكان اخر من كتابه الى ما يعرف بهوتة الرقيم[٢٠] . وهي أشبه ما تكون بكهف أصحاب الرقيم . فيقول : «وبعد لؤلؤة تسلك الى قلعة ثم تأتي هوتة الرقيم ، وهي خسف في الارض بطول مائتي ذراع وعرض مائة ذراع ، في وسطها بحيرة حولها أشجار ، وحول الاشجار في أصل الجبل بيوت ومساكن .. ولها باب في الجبل تحت الارض يخرجك الى الوادي .. وقال الساكنون هناك : نحن ضعفي الروم لا نقاتل ، انما نخدم هؤلاء القوم الذين جعلهم الله ها هنا ، وهم في مغارة يصعد اليها من أرض الهوتة بسلم لعله أن يكون ثمانية أذرع أو نحو ذلك . فاذا هم ثلاثة عشر رجلا وفيهم غلام امرد ، عليهم جباب صوف واكسية صوف ، وعليهم خفاف ونعال ، وقد تناولت شعرات في جبهة أحدهم فمددتها فما تبعني منها شيء»[٢١] .

ويذكر المقدسي ان في مدينة طرسوس تلا عليه مسجد يقال انه مقام على الكهف ، ثم يذكر الهوية ـ الهوتة ـ ويقول «هي جوف جبل ، فذكر لنا ان بها أمواتا لا يدرى ما هم ، وعليهم حراس .. فانطلق بنا الى كهف مما يلي الجنوب من الهوتة طوله نحو عشرين

---

(١٩) المسالك والممالك/١٠٧ .
(٢٠) الهوتة : الارض المنخفضة او الطريق المنحدر الى الماء .
(٢١) المسالك والممالك/١١٠ـ١١١ .

ذراعا ، واذا فيه ثلاثة عشر رجلا رقودا على اقفيتهم •• فسألناهم عن أمرهم فزعموا انهم لا علم لهم بشيء من أمرهم •• ويظن انهم أصحاب الكهف»(٢٢) •

ويقول القزويني عند كلامــه عن مدينة افسوس «ان مدينة افسوس مشهورة بأرض الروم ، وهي مدينة دقيانوس الجبار الذي هرب منه أصحاب الكهف ، وبين الكهف والمدينة فرسخان • والكهف مستقبل بنات نعش لا تدخله الشمس ، فيه رجال موتى لم يتغيروا ، وعددهم سبعة ، ستة منهم نيام على ظهورهم ، وواحد في آخر الكهف مضطجع على يمينه وظهره الى جدار الكهف ، وعند ارجلهم كلب لم يسـقط من أعضائـه شيء •• وعلى الكهف مسـجد يقصده الناس»(٢٣) •

لقد وردت قصة اصحاب الكهف في القــرآن الكريم في الآيات (٨ـ٢٦) من سورة الكهف • وقد ذهب المفسرون الى ان المدينة التي كان الكهف قريبا منها هي طرسوس ، وقد لخص الزمخشري قصتهم في تفسيره(٢٤) • وجاء في التفسير المذكور ان معاوية بن أبي سفيان غزا الروم فمر بالكهف ، فقال لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم • فقال له ابن عباس : ليس لك ذلك ، فقد منع الله تعالى من هو خير منك ، فقــال «لو اطلعت عليهم لوليت منهم فــرارا»(٢٥) • فقال معاوية : لا انتهي حتى أعلم علمهم ، فبعث اناسا وقال لهم : اذهبوا فانظروا • ففعلــوا ، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهــم ريحا فاحرقتهم(٢٦) •

---

(٢٢) أحسن التقاسيم/١٥٣ـ١٥٤ •
(٢٣) اثار البلاد/٤٩٨
(٢٤) تفسير الكشاف ٢/٧١١ـ٧١٢ •
(٢٥) سورة الكهف ، الاية : ١٨ •
(٢٦) تفسير الكشاف ٢/٧٠٩ •

سد ياجوج وماجوج ورحلة سلام الترجمان :

يذكر ابن خرداذبـــة عند اشارته الى ردم ياجـــوج وماجوج وصنعة السد الذي بناه ذو القرنين ، ان الخليفة الواثق بالله رأى في منامه كأن السد قد انفتح ، فطلب رجلا يخرجه الى موضع السد ليكشف خبره · فاشار عليه كبير قواده اشناس بـــان يبعث لهذا الغرض سلام الترجمان لأنه يتكلم عدة لغات · فألف الخليفة بعثة تضم خمسين من أشداء الرجال يرأسهم سلام ، وقال له : أريد أن تخرج الى السد فتماينه وتجيئني بخبره · وجهزت البعثة بلوازم سفرها من اللبابيد والفـــرو وبمائتي بغل لحمل الزاد والماء · واعطى ابن سلام عشرة آلاف درهم ، كما اعطى أفراد البعثة ألف درهم ورزق سنة لكل منهم · وزودهـــم الخليفة بكتاب توصية الى اسحاق بن اسماعيل صاحب ارمينية وهو بتفليس يوصيه في انفاذهم الى ما بعثوا من أجله فكتب لهـــم اسحاق كتاب توصية الى صاحب بلاد السرير ·

وهكذا اخذ صاحب كل ولاية يمرون به يزدهم بكتاب توصية الى صاحب البلد الذي يليه لانفاذهم وتزويدهم بما يحتاجون اليه من زاد وغيره · حتى وصلت البعثة الى بلاد الخزر ، فاستقبلهم ملكها ووجه معهم خمسة أدلاء ، فساروا بهم ستة وعشرين يوما فدخلوا أرضا نتنة الرائحة · وكانوا قد تزودوا بخل يشمونه للتخلص من تلك الرائحة الكريهة · وساروا في تلك الأرض عشرة أيام فوصلوا أرضا خربة ساروا فيها عشرين يومـــا · وهي الأرض التي كان ياجوج وماجوج خربوها · فوصلوا الى الحصون القريبة من الجبل الذي فيه السد ·

ويقول سلام انهم وجدوا في تلـــك الحصون أقواما يتكلمون العربية وهم مسلمون ، وفيها مساجد · ولما علموا انهم جاءوا من سر من رأى موفدين من أمير المؤمنين الخليفة الواثق بالله ، تعجبوا

وقالوا انهم لم يسمعوا بذلك · وكانت المسافة بين كل حصن وآخر فرسخا الى فرسخين · ثم وصلوا مدينة ايكة وهي مسورة ولها أبواب حديدية وفيها مزارع وارحاء · وهي المدينة التي نزلها ذو القرنين بعسكره ، وبينها وبين السد مسيرة ثلاثة أيام · وفي الطريق حصون وقرى عديدة ·

وموضع السد كما وصفه سلام جبل مستدير ذكروا ان ياجوج وماجوج فيه وهما صنفان وان ياجـــوج أطول قامة من ماجوج ، وطول أحدهم ما بين ذراع الى ذراع ونصف · والسد الذي بناه ذو القرنين هو فج بين جبلين عرضه مائتا ذراع · وهو الطريق الذي يخرجون منه فيتفرقون في الارض · فحفر ذو القرنين هناك أساسا بعمق ثلاثين ذراعا وبناه بالحديد والنحاس حتى بلغ وجه الارض · ويسهب سلام في وصف تفصيلات السد وضخامة بابه · ووصف الحصنين اللذين عند الباب · ويقول انه رأى في أحدهما الآلات التي استخدمت في بناء السد من القـــدور والمغارف الحديدية الضخمة وبقايا اللبن الحديد قد التصقت ببعضها بفعل الصدأ · ويقوم على الحصنين رئيس يتولى عمله بالوراثة ، ووظيفته أن يتفقد في كل يوم اثنين وخميس باب الســـد ويتأكد من أن ياجوج وماجوج لم يحدثوا فيه حدثا ، ثم يقرع الباب عدة مرات ليسمع من وراءه من ياجوج وماجوج ويعلموا ان عليه حفظة ·

ويقول سلام انه تحرى عما اذا قد حصل بالباب شق أو غيره ، فلم يجد سوى شق دقيق كالخيط لا تأثير له بالنسبة لسمك الباب ، وانه حك موضع الشق فجمع مقـــدار نصف درهم وشده في منديل ليريه الخليفة · كما يقول انه سأل من هناك ما اذا كانوا قد رأوا من ياجوج وماجوج أحدا ، فذكروا له انهم رأوا مرة عددا منهم فوق الجبل فهبت ريح القتهم الى جانبهم ، وكان طول الواحد منهم شبرا ونصف الشبر في رأي العين ·

وبعد ان اتمت البعثة تحريها عادت راجعة الى عاصمة الخلافة • وقد اتبع الادلاء في العودة بهم طريق خراسان • فوصلوا الى نيسابور حيث استقبلهم أمير خراسان عبدالله بن طاهر وأكرمهم • وقد مات أكثر أفراد البعثة ولم يبق منهم سوى أربعة عشر رجلا وثلاثة وعشرين بغلا • فلما وصلت البعثة الى سر من رأى قدم سلام الترجمان تقريرا مفصلا الى الخليفة الواثق بالله ، فسر وحمدالله ، وأمر بصدقة ، ومنح رجال البعثة ألف دينار لكل رجل •

ويقول ابن خرداذبة ، حدثني سلام الترجمان بجملة هذا الخبر ، ثم أملاه علي من كتاب كان كتبه للواثق بالله(٢٧) •

لقد استغرقت البعثة في ذهابها ستة عشر شهراوفي ايابها اثني عشر شهرا وبضعة أيام • الا ان القزويني وياقوت الحموي يقولان ان الرحلة استغرقت ثمانيةعشر شهرا(٢٨) • ويلاحظ ان الطريق الذي سلكته البعثة في ذهابها الى موقع السد بدأ من تفليس قاعدة ارمينية ، ومنها الى بلاد السرير ، ثم بلاد اللان ، فبلاد الخزر التي بعث ملكها معهم ادلاء اجتازوا بهم أرضا منتنة حتى وصلوا الى مدينة ايكة ويرجح انها باكة التي تدعى اليوم باكو • وهي منطقة نفطية وان الروائح الكريهة كانت رائحة الغاز المنبعث من تلك الارض •

ويلاحظ كذلك ان وصف طريق العودة بمرور البعثة بخراسان فيه شيء من الاضطراب في ذكر المدن التي مرت بها ، حيث يقول سلام انهم وردوا سمرقند ثم ساروا الى اسبيشاب (اسبيجاب) ومنها عبروا نهر بلخ (جيحون) فصاروا الى اشروسنة ومنها الى بخارى وترمذ ثم نيسابور فالري ومنها الى سامرا • فمن المستغرب ان تصل البعثة من اقليم اذربيجان وهو غربي بحر الخزر الى سمرقند وهي من مدن ماوراء النهر ، ثم تعود البعثة شمالا الى مدينة اسبيجاب التي

---

(٢٧) المسالك والممالك/١٧٠ ، وكامل الرواية في الصفحات ١٦٢ـ١٧٠ • وتجد خلاصة وافية لها في معجم البلدان ٣/١٩٩ـ٢٠٠ •

(٢٨) اثار البلاد/٥٩٦ـ٥٩٧ ، ومعجم البلدان ٣/٢٠٠ •

تقع على أعالي نهر سيحون وتنحدر ثانية جنوبا الى اشروسنة بعد ان تعبر نهر بلخ • بينما تقع كل من اسبيشاب واشروسنة غربي نهر سيحون وهمــا بعيدتان عن نهر بلخ • كذلــك من المستغرب ان يستغرق طريــق العودة كما ذكر سلام مدة أقصر من المــدة التي استغرقتها رحلة الذهاب • لان طريق خراسان المشار اليه أطول كثيرا • ويظهر ان سلاما لم يحالفه الحظ في وصف طريق العودة ، وانه خلط كثيرا في المدن التي قال ان البعثــة مرت بها ، وانه لم يسجل مشاهداته في حينها ، وانما اعتمد على ذاكرته التي تشوشت فيها صور الرحلة الطويلة المتعبة واحداثها ، فكان هذا الاضطراب الذي ذكرناه •

على ان هذا الاضطراب قد شكك في صحة رواية ابن سلام عن رحلة بعثته • فقد شك بصحتها أبو الريحان البيروني اذ يقول ما خلاصته : ان الكتب المشتملة على ذكر البلاد والمدن ، وكتب المسالك والممالك تبين ان ياجوج وماجوج هم صنف من الاتراك يسكنون في مباديء الاقليمين الخامس والسادس ، وان في القصة ما يزيل الثقة بها من صفة أهل تلك البلاد من التدين بالاسلام والتكلم بالعربية مع انقطاعهم عن العمــران وانهم لم يكونوا يعرفون الخليفــة ولا الخلافة • وهو ينكر وجود أمة مسلمة منقطعة عن بلاد الاسلام ، لان البلغار الذين هم بالقرب من منقطع العمران ونهاية الاقليم السابع لا يجهلون الخلافة ، وانهم لا يعرفون من أمر هذا السد شيئا ، حتى يقول : واذا كانت شواهد هذا الخبر على هذه الهيئة لم يطمع منها في تعرف الحقيقة(٢٩) •

وكذلك طعن ابن رستة في صحة رواية سلام اذ يقول : وكتبناه نحن لنقف على ما فيه من التخليط والتزييد ، لان مثل هذا لا تقبل صحته(٣٠) •

---

(٢٩) الاثار الباقية/٤٢ •
(٣٠) الاعلاق النفيسة/١٤٩ •

أما المقدسي البشاري فانه ينقل ما جاء في كتاب ابن خرداذبة عن قصة سد ياجوج وماجوج دون ان يعلــــق عليها سوى انه يتخذ منها دليلا على رد من زعم ان السد في بلاد الاندلس(٣١) ٠

كما شك بها ياقوت الحموي الذي لخص في معجمه رحلة سلام الترجمان ، وقال في آخرها : قد كتبت من خبر السد ما وجدته في الكتب ، ولست أقطع بصحة ما اوردته لاختلاف الروايات فيه ، والله اعلم بصحته(٣٢) ٠

لا يستطيع القارىء ان يقرر مــــا اذا كان الارتباك في رواية سلام الترجمان يعود الى عدم دقته في تقريره الذي رفعه الى الخليفة وقد تشوشت في ذهنه أحداث الرحلة ، أم أن ابن خرداذبة لم يكن دقيقا أمينا في نقل الرواية ٠ فقد قال أبو الفرج الاصبهاني فيه : وهو ممن لا يحصل قوله ولا يعتمد عليه(٣٣) ٠

لقد ورد في آخر سورة الكهف من القــــرآن الكريم ، في الايات (٨٤ـ٩٩) خبر ذى القرنين وبنائه السد ، دون ان يذكر اسم ذى القرنين والمكان الذي بنى فيه السد ٠ وقد بقي ذلك موضع تساؤل المفسرين والمؤرخين المسلمين وذهابهم الى ان ذا القرنين هو الاسكندر المكدوني ، باعتبار انه كان صالحا وقد ملــــك قرني الدنيا : أي جانبيها شرقا وغربا ٠ وقد فسرت تســـميته بذى القرنين بعدة تفسيرات ذكرها الزمخشري في تفسيره(٣٤) ٠ ولخص قدامة بن جعفر رأي قدامى المؤرخين المسلمين في ذي القرنين والسد الذي بناه ٠ وذلك ان الاسكندر وصل في فتوحاته الى الصين فهادته ملكها ٠ ثم سار لاخضاع القبائل التركية ، فبلغـــــه عن قوم كثيري العدد من

---

(٣١) أحسن التقاسيم/٣٦٥ ٠
(٣٢) معجم البلدان ٣/٢٠٠ ٠
(٣٣) الاغاني ١١/٣٣٣ ٠
(٣٤) تفسير الزمخشري ٢/٧٤٣ ٠

هؤلاء الاتراك مفسدين في الارض • فاستشار ملك الصين في أمرهم، فاخبره انهم رعاة يحيط بارضهم من الشمال البحر الاخضر الذي لا مجاز فيه ، ومن الغرب والجنوب جبال شاهقة لا مسلك فيها ولا منفذ لهؤلاء الاتراك الا من درب واحد ضيق ، وانهم في زاوية من الارض، لو سد عليهم هذا المنفذ لبقوا فيه ، وكفى الناس شرهم وفسادهم • فعلم الاسكندر وجه الصواب فيما اشار به ملك الصين • فبنى سدا على ذلك الوادي ، وهو السد الذي وصفه القرآن الكريم[٣٥] •

ويقول البيروني ان صاحب اذربيجان أيام فتحها وجه انسانا الى السد من ناحية الخزر ، فشاهده ووصفه بانه بناء باسق سام أسود وراء خندق وثيق منيع[٣٦] •

وجاء في كتاب مختصر كتاب البلدان انه لما انتهى ذو القرنين الى موضع السد وبينه وبين الخزر شهران ، اجتمع اليه خلق كثير وقالوا ان خلف هذا الجبل أمما لا يحصيهم الا الله عزوجل ، وقد اخربوا علينا بلادنا وزروعنا • وان ياجوج وماجوج كانو يخرجون أيام الربيع الى أراضيهم فلا يدعون شيئا أخضر الا أكلوه ، ولا شيئا يابسا الا حملوه • وان ذا القرنين طلب اليهم ان يمينوه على أن يجعل لهم دونهم سدا • ثم أمر بالحديد فضرب منه لبنا عظاما ، واذاب النحاس ثم جعل ملاط اللبن النحاس ، وبنى به الفج وسواه مع قلتي الجبل • فلما فرغ منه أمر بالنحاس فأذيب وأفرغ عليه من فوقه فصار شبيها بالمصمت[٣٧] •

ومن الابحاث الحديثة عن سد ذي القرنين الدراسة التي قام بها العالم الهندي مولانا أبو الكلام آزاد ، وخلاصتها ان ذا القرنين هو الملك الفارسي كورش الذي حكم في منتصف القرن السادس قبل

---

(٣٥) الخراج وصناعة الكتابة/١٩٩ •
(٣٦) الاثار الباقية/٤١ •
(٣٧) مختصر كتاب البلدان/٢٩٨ـ٢٩٩ •

الميلاد ، وليس الاسكندر المكدوني • فقد توسع كورش في فتوحاته شرقا وغربـا • وان اسارى اليهود الذي جاء بهم الملـك العراقي بختنصر الى بابل بعد أن أزاله دويلتهم ، كانت تراودهم فكرة ظهور منقذ يخلصهم من الأسر ويعيدهم الى أورشليم ويساعدهم في اعادة بناء هيكل سليمان • وقد وصفوه على طريق الرمز بصورة كبش له قرنان ، أو عقاب له جناحان ، وكلا الوصفين يتضمنان معنى القوة والبأس • واعتبرت التوراة كورش بانه مسيح الله ، وقد اضفت عليه كثيرا من المدح والثناء • ومما برهن على ان كورش هو المدعو بذي القرنين العثور على تمثال لـه بحجم الانسان الطبيعي وعلى جانبيه جناحان كجناحي العقاب وعلى رأسه قرنان يحملان التاج • وهذا التمثال سواء قد تم صنعه في عهد كورش نفسه أو انه صنع في عهد خلفائه يدل على ان تصور ذي القرنين الذي أوجده اليهود للملك الذي سينقذهم قـد رسخ في ذهن كورش • ولهذا فقـد حقق لهم آمالهم في اعادتهـم الى أورشليم بعد ان استولى على مدينـة بابل وساعدهم على اعادة بناء هيكل سليمان •

أما ياجوج وماجوج فهم من القبائل المنغولية الرحالة • وكان موطنها الاصلي سهول منغوليا في شـمالي شرقي قارة آسيا • وقد انتشرت في خلال القرن السادس قبل الميلاد على سواحل البحر الاسود في المناطق الممتدة بين بحر الخـزر والبحر الاسود شمالي سلاسل جبال القوقاز التي تكاد تفصل بـين الشمال والجنوب الا في ممر ضيق ، كانت هذه القبائل تنحدر منـه لتغير على المناطق الواقعة جنوبي تلك البلاد • فلما وصـل كورش في فتوحاته شرقي البحر الاسود اشتكى اليـه السكان من هجمات قبائل ياجـوج وماجوج عليهم ، وتوسلوا اليه ان يجعل بينهم وبين تلك القبائل سدا يحول دون انحدارهم اليهم • فاستعان بهم وبنى السـد الحديدي الذي

---

(٣٨) مجلة العربي العدد (١٨٤) الصادر في صفر ١٣٩٤ ـ اذار ١٢٨/١٩٧٤ ـ ١٣٦ »

عرف باسمه ، في الممر المذكور ، وانقذهم من هجمات تلك القبائل البربرية ٠

أما الاسكندر المكدوني فقد ظهر بعد كورش بمائتي سنة ، وكانت فتوحاته قد امتدت شرقا حتى حدود الصين ، وشملت جميع ارجاء أمبراطورية فارس ، الا ان جيوشه لم تصل جبال القوقاز(٣٨) ٠

وثمة دراسة أخرى عن سد ذي القرنين جاءت في «ترجمة معاني القرآن الكريم الى اللغة الانكليزية» قام بها الاستاذ عبدالله علي من العلماء المسلمين في الهند وعميد الكلية الاسلامية بمدينة لاهور ، وذلك في معرض تفسيره سورة الكهف ٠ وهو لا يقر القول بان ذا القرنين هو الملك الفارسي كورش ، وان السد يقع في جبال القوقاز بين البحر الاسود وبحر الخزر ، كما توصل اليه مولانا أبو الكلام آزاد ٠ ويستند عبدالله علي في دحضه هذا الرأي على أن الوصف القرآني يشير الى ان السد قد اقيم بين جبلين ، بينما هو يقع حسب الرأي المذكور بين جبل وبحر ٠ وان الاسكندر كان تلميذا لارسطو الباحث عن الحقيقة ، وانه كان فاضلا ذا اخلاق عالية مما يضفي عليه صفة الصلاح التي وردت في الوصف القرآني عن ذي القرنين ٠ ويقول ان في القصص الاثيوبية التراثية مما يفيد بان الاسكندر يعتبر من أعاظم الانبياء ٠ وعلى هذا فهو يرى ان السد موضوع البحث يقع في أواسط آسيا قرب موضع اسمه (دربند) على بعد ١٥٠ ميلا جنوبي شرقي بخارى ، حيث يوجد ممر ضيق على الطريق الرئيسي بين تركستان والهند ، على خط العرض ٣٨ شمالا وخط الطول ٦٧ شرقا ، ويسمى الآن بالتركية بيت الماعز ٠ وكان يعرف سابقا بباب الحديد باللغات العربية والصينية والفارسية ٠ علما ان البوابة المذكورة لا وجود لها اليوم الا انهـا كانت موجودة في القرن السابع للميلاد وقد شاهدها الرحالة الصيني «هيون سيانك» في طريقه الى الهند ، حيث رأى بوابتين مغلفتين بالحديد وعليها أجراس ٠ وكانت بجوارهما بحيرة تسمى «اسكندر كول» ٠ وان ما

تعرف تاريخيا ان الاسكندر بعد ان غزا بلاد فارس وقبل ان يتوجه الى الهند مر ببخارى وسمرقند • وان البعثة التي أوفدها الواثق بالله من سامرا كانت قد ذهبت الى اواسط آسيا ووجدت هذا المضيق البالغ عرضه ١٥٠ ياردة ، وعليه ضلفتين مصنوعتين من طابوق من الحديد الملحوم بالرصاص ، وانهما مغلقتان دائما ، فاطمأنت الى سلامته وعادت لتخبر الخليفة بذلك(٣٩) •

وعلى هذا يرى الاستاذ عبدالله علي ان المقصود بذي القرنين هو الاسكندر المكدوني ، وان السد الذي بناه يقع في تركستان في أواسط آسيا ، وذلك استنادا الى ان الوصف القرآني أكثر انطباقا على الاسكندر وعلى المضيق المذكور • ويلاحظ ان هذا يطابق ما ذهب اليه المفسرون والمؤرخون المسلمون مما اشرنا اليه آنفا من ان ذا القرنين هو الاسكندر • بل لقد ذهب بعضهم الى القول بان ذا القرنين عربي من اليمن ، اذ يقول المقريزي ان اسمه الصعب بن ذي مراثد وانه من ملوك حمير ، وقـد غلط من ظن ان الاسكندر بن فليبس هو ذو القرنين الذي بنى السـد ، فان لفظة «ذو» عربية ، وذو القرنين من القاب العرب ملوك اليمن(٤٠) •

ان الذي يستنتج من رحلة سلام الترجمان ، مع ما اكتنفها من الخلط والاشتباه وما اعتورها من الشك ، ومهما تضمنت من مبالغة في وصف السد وبنائه وآثاره ، ان البعثـة كانت قد وصلت الى المنطقة التي يقع فيها السد ، سواء كانت نفس المنطقة التي توصل اليها أبو الكلام آزاد في تحقيقه أو التي توصل اليها بحث عبدالله علي • وهذا ما يوضح ان مكان السد كان معروفا في أيام الواثق بالله • ويلاحظ التشابه في وصف المنطقة في تحقيق أبي الكلام آزاد وبحث عبدالله علي وفي تقرير بعثة سلام ، حيث يؤكد التقرير على وجود الفجوة أو الممر في الجبل الذي شـيد فيه السد ، وهي الممر

---

(٣٩) ترجمة معاني القران الكريم الى اللغة الانكليزية /٧٥٣ـ٧٥٧ •
(٤٠) الخطط المقريزية ١/١٥٣ •

الذي كان يهبط منه المغيرون من الشـــمال الى الجنوب • وفي هذا المكان بنى ذو القرنين سده بحجـــارة الحديد ، وبارتفاع وسمك يعجز المغيرون عن اجتيازه أو اجتياحه ، وبذلك آمن أهل الجنوب من غارات القبائل الشمالية عليهم •

٤ ـ الواثق بالله والشعر والشعراء :

الواثق بالله والشعر :

كان الواثق بالله أديبا فصيحا وسمي المأمون الأصغر لسعة علمه وغزارة أدبه • كما كان شاعرا ويروي الشعر والاخبار بحيث لم يكن في خلفاء بني العباس أكثر رواية للشعر منه ، وله شعر جيد • ومما نسب اليه قوله(٤١) :

تنح عن القبيـــح ولا تـــرده
ومن اوليتـــه حسنا فـــزده

ستلقى من عـــــدوك كل كيد
اذا كاد العـــدو ولم تكـــده

وقوله(٤٢) :

دع المقادير تجـــري في أعنتها
واصبر فليس لها صبر على حال

تريك يوما وضيع القدر مرتفعا
الى السماء ويوما تخفض العالي

وهي أبيات عادية في لغتها وبسيطة في معانيها المألوفة • الا انه له أشعارا أخرى تمتاز بعذوبة ألفاظها ورقة معانيها ، تلك التي

---

(٤١) خلاصة الذهب المسبوك/٢٢٤ •
(٤٢) نفس المصدر •

قالها في التغزل بالخدم والجواري لمن كان يتعشقهم • فقد قال يصف أحد الخدم وقد ناوله وردا ونرجسا(٤٣) :

حياك بالنـــرجس والـــورد
معتـــدل القامـــة والقـــد

فالهبت عيناه نـــار الهـــوى
وزاد في اللوعـــة والوجـــد

أملت بالملـــك لـــه قربـــه
فصـــار ملكي سبب البعـــد

ورنحته ســـكرات الهـــوى
فمال بالوصـــل الى الصـــد

ان سئل البـــذل ثنى عطفـــه
واسبل الدمـــع على الخـــد

غر بمـــا تجنيـــه الحاظـــه
لا يعـــرف الانجاز للوعـــد

مولى تشكي الظلم من عبـــده
فانصفوا المـــولى من العبـــد

وقد اجمعوا ان ليس لأحد من الخلفاء مثل هذه الابيات •
وقال في خادم كان يهواه(٤٤) :

سأمنع قلبي من مـــودة غادر
تعبدني خيشا بمكـــر مكاشر

خطبت اليه الوصل خطبة راغب
فلاحظني زهوا بطـــرف مهاجر

---

(٤٣) تاريخ الخلفاء/٣٤٥ •
(٤٤) الاغاني ٢٩٨/٩ •

وروى انــه كان يحب جارية حملت اليه من مصر هديـــة ، فغضبت يوما فجلست مع صاحبات لها وقالت لهن : لقد هجرته ، ومنذ أمس وهو يروم ان أكلمه فلم أفعل ، فخرج الواثق بالله على غفلة فسمع قولها فأنشأ يقول(٤٥) :

يا ذا الذي بعذابي ظل مفتخرا
ما انت ا لامليك جار اذ قدرا

لولا الهـوى لتجارينا على قدر
وان أفق منه يوما فسوف ترى

وللواثق بالله أبيات من الشعر قالها وصنع فيها الحانا غنائية - وقد اورد أبوالفرج في كتابه بعضا منها - فقد قال(٤٦) :

ألا أيها النفس التي كادهـا الهوى
أفــانت ان رمت الســـلو غريمي

أفيقي فقد أفنيت صبري أو اصبري
لمـــا قـــد لقيتيـــه علي ودومي

ومن ذلك قوله(٤٧) :

أيا عبرة العينين قد ظمىء الخـــد
فما لكمـــا من ان تلمـــا به بـــد

ويا مقلة قد صار يبغضها الكـرى
كأن لـــم يكن من قبل بينهمـــا ود

لئن كان طول العهد أحــدث سلوة
فموعد بين العين والعبـــرة الوجد

---

(٤٥) شذرات الذهب ٢/٧٧ ، وتاريخ الخلفاء/٣٤٢ وفيه انه قال هذا الشعر في خادم له اهدي اليه من مصر ، وليست جارية .
(٤٦) الاغاني ٩/٢٩٣ .
(٤٧) نفس المصدر ٩/٢٩٦ .

وما أنـــا الا كالذين تخـــرمـــوا
على ان قلبي من قلوبهـــم فـــرد

وكان الواثق بالله الى جانب روايته الشعر يضرب الأمثال بما يحفظه منه ، في بعض المناسبات ، ويحسن اختياره ليطابق المناسبة • قال ابن حمدون : كان بين الواثق بالله وبعض جواريه شر فخرج كسلان ، فلم ازل انا والفتح بن خاقـــان نحتال لنشاطه • فرآني أضاحك الفتح ، فقال : قاتل الله ابن الاحنف حيث يقول(٤٨) :

عدل من الله ابكاني واضحكها
فالحمد لله عـدل كل ما صنعا

اليوم ابـكي على قلبي وأندبه
قلب الح عليه الحب فانصدعا

فقال الفتح : انت والله يا أمير المؤمنين في وضع التمثل موضعه أشعر منه وأعلم وأظرف •

وقالت جارية للواثق بالله ، وكان يهواها ، وقد جرى بينهما عتاب : ان كنت تستطيل علينا بعز الخلافة ، فانا ادل بعز الحب ، أتراك لم تسمع بخليفة عشق قبلك قط فاستوفى معشوقة حبه ، ولكني لا آرى لي نظيرا في طاعتك • فقـــال الواثق : لله در ابن الأحنف اذ يقول(٤٩) :

أما تحسبيني أرى العاشـــقين
بـلى ، لست أرى لي نظـــيرا

لعل الذي بيديـــه الأمـــور
سيجعل في الكره خـــيرا كثيرا

---

(٤٨) الاغاني ٨/٣٥٧-٣٥٨ ، وتاريخ بغداد ١٤/١٨-١٩ مع زيادة بيت ثالث . واضحكهم بدلا من اضحكها في صدر البيت الاول •
(٤٩) الاغاني ٨/٣٥٨ •

الواثق بالله والشعر :

أما الشعراء الذين عاصروا الواثق بالله فقد اتصل به اشهرهم. فقد مدحه أبو تمام الطائي بعـــدد من القصائد قالها في مناسبات مختلفة . ومن أولى قصائده في ذلك هي التي قالها يمدحه ويرثي المعتصم بالله ، ومنها(٥٠) :

ما للدموع تروم كـــل مرام
والجفن تاكل هجعـــة ومنام
يا حضرة المعصوم تربك مودع
مـــاء الحياة وقاتل الاعـــدام
ان الصفائح منك قد نضرت على
ملقى عظام لـــو علمت عظام
فتق المدامع ان لحــــدك حلة
سكن الزمان وممســـك الأيام
الى ان يقول في مدح الواثق بالله :
مادام هارون الخليفـــة فالهدى
في غبطة موصـــولة بـــدوام
انا رحلنـــا واثقين بواثـــق
بالله شمس ضحى وبـــدر تمام
لله أي حيـــــاة انبعثت لنـــا
يوم الخميس وبعـــد أي حمام
اودى بخير أمام اضطربت له
شعب الرجال وقام خـــير امام

---

(٥٠) ديوان ابي تمام ٢٠٣/٣-٢٠٩ .

ولما استخلف الواثق بالله صارت علاقة اسحاق الموصلي به مثل علاقته بأبيه . فقد اتخذه الواثق بالله نديمـــا ومجالسا ومغنيا . وكان يقدر فيه علمه بالشعر واللغة والفقه والموسيقى . ولم يكن مجلسه يخلو منه . قال اســـحاق : قدمت على الواثق بالله في بعض قدماتي ، فقال لي : أمـــا اشتقت الي ؟ فقلت : بلى والله يـــا امير المؤمنين ، وانشدته(٥١) :

أشكو الى الله بعدي عن خليفته
وما أعالج من سقم ومن كبر

لا استطيع رحيلا اذ هممت به
يومـــا ولا أقوى على الســـفر

أنوي الرحيل اليه ثم يمنعني
ما أحدث الدهـــر والايام في بصري

ثم استأذنتــــه في انشاد قصـــيدة مدحته بها ، فـــاذن لي ، فانشدته(٥٢) :

ضفت سعاد غـــداة البين بالـــزاد
واخلفتك فمـــا توفي بميعـــاد

ما أنس لا انس منهـــا اذ تودعنـــا
والحزن منها وان لـــم تبده بـــاد

لما أمرت باشـــخاصي اليك هفـــا
قلبي حنينـــــا الى أهلي وأولادي

ثم اعتزمت ولـــم احفل ببينهـــم
وطابت النفس عن فضـــل وحماد

---

(٥١) الاغاني ٥/ ٣٧١ـ٣٧٢ .

(٥٢) نفس المصدر ٥/٣٧٢ ، وكررها في ٩/٢٨٤ مع تغيير طفيف ببعض الكلمات .

كم نعمة لأبيــــك الخير افـــردني
بها وعـــم باخرى بعــــد افـــراد

فلو شكرت أياديـــكم وأنعمـــكم
لما احـــاط بها وصــــفي وتعدادي

لأشكرنك مـــا ناح الحمام ومـــا
حدا على الصبح في اثر الدجى حادي

وحظي الشاعر الحسين بن الضحاك عند الخليفة الواثق بالله ، اذ اتخذه نديما لا يكاد يفارقه ، واول قصيدة للحسين في الواثق بالله قالها يهنؤه بالخلافة ويرثي المعتصم بالله ، منها قوله(٥٣) :

ألم يرع الاســـلام موت نصـــيره
بلى حق أن يرتـــاع من مات ناصره

سيسلبك عما فات دولـــة مفضـــل
أوائلـــه محمـــــودة وأواخــــره

ثنى الله عطفيــــه وألف شـــخصه
على البر مــــذ شدت عليـــه مآزره

يصب ببذل المـــال حتى كأنمـــا
يرى بذلـــه للمـــال نهيا يبـــادره

وما قـــدم الرحمن الا مقدمـــــا
موارده محمـــــودة ومصــــادره

جرى لك من هارون بالسعد طائره
أمام اعتـــزام لا تخاف بـــوادره
هو الملك المجبول نفســـا على التقى
مسلمة من كـــل سوء عســـاكره

---

(٥٣) نفس المصدر ٧/١٥٦ـ١٥٧ .

لتغمد سيوف الحرب فالله وحـــده
ولي أمـــير المؤمنـــين ونـــاصره

فقال الواثق بالله : ان الحسين لينطق عن حسن طوية ، ويمدح بخلوص نية ، ثم أمر بأن يعطى لكل بيت قاله من هذه القصيدة ألف درهم ٠

وممن مدح الواثق بالله من الشعراء علي بن الجهم ، فقد دخل اليه بعد أن بويع بالخلافة ، وانشده(٥٤) :

قد فاز ذو الدنيا وذو الدين
بدولة الواثـــق هـــارون

افاض من عـدل ومن نائـــل
ما أحســن الدنيا مـــع الدين

قد عـم بالاحسان من فعلـــه
فالنـــاس في خفض وفي لـــين

ما أكثـر الداعي له بالبقـــا
واكثـــر التـــالي بآمـــين

٥ ــ الواثق بالله والغناء والموسيقى :

ولع الواثق بالله بالغناء :

كان الخليفة الواثق بالله حاذقا بالغناء والموسيقى والضرب على العود ، الى جانب اطلاعه الواسع وأدبه الوافر وروايته الشعر ٠ وعندما يبحث أبو الفرج الاصبهاني في غناء الخلفاء وأولادهم في كتابه ، يفرد فصلا طويلا لغناء الواثق بالله(٥٥) ٠ يشير فيه الى أهم

(٥٤) ديوان علي بن الجهم/١٨٨ ٠
(٥٥) الاغاني ٩/٢٧٦/٣٠٠ ٠

الالحان التي صنعها من اشعاره التي نظمها ولحنها بنفسه ، وعددها خمسة عشر صوتا • ويقول انه كان أعلم الخلفاء بالغناء ، وبلغت صنعته مائة صوت ، كما كان أحـــذق من غني بضرب العود(٥٦) • وكانت عريب اشهر واحذق مغنيات عصرها تكايده في الحانه ، ومع ذلك قالت : صـــنع الواثق بالله مائـــة صوت ما فيهـــا صوت ساقط(٥٧) •

وقد اعتاد الواثق بالله ان يستطلع رأي نديمه اسحاق الموصلي في الالحان التي يصنعها ، بعد ان ينسبها الى غيره ، وذلك قبل ان يظهرها • وكان اسحاق يأخذ نفسه في ذلك بقول الحق أشد أخذ(٥٨) • فاذا رأى اللحن جيدا امتدحه واوصى باظهاره ، وان كان فاسدا أو متوسطا ذكر ما فيه من مآخذ • فاذا كان للواثق بالله رغبة بذلك اللحن عمل على تقويمه واصلاح فساده ، والا تركه حسبما يوصي اسحاق بشأنه • كمـــا اعتاد الواثق بالله ان يقلـــد بعض أصوات اسحاق • وقد سئل اسحاق أي اللحنين أجود في «خليلي عوجا» لحنه أم لحن الواثق بالله ، فقال : لحني أجود قسمة وأكثر عملا ، ولحن الواثق بالله أطرب لانه جعل ردته من نفس قسمته وليس يقدر على أدائه الا متمكن من نفسه(٥٩) •

وكثيرا ما كان الواثق بالله يجمـــع بعض غلمانه ممن يتوسم فيهم جمال الصوت وحسن الاداء ، ويدربهم على انشاد الاصوات التي يصنعها • قال احد غلمانه : دعـــا بنا الواثق بالله مع صلاة الغداة فقال : هذا صوت خذوه ، ونحن عشرون غلاما كلنا يغني ويضرب ، ثم ألقي علينا :

---

(٥٦) نفس المصدر ٩/٢٩٣ •
(٥٧) نفس المصدر ٩/٢٧٧ •
(٥٨) نفس المصدر ٩/٢٨٧ •
(٥٩) نفس المصدر ٥/٣٦٤ •

أشكو الى الله ما القي من الكمد
حسبي بربي فلا أشكو الى أحد

ومازال يردده علينا حتى أخذناه(٦٠) .

وقال مخارق المغني : صنع الواثق لحنين ، فأمرني وعلوية وعريبا ان نعارض صنحته فيهما ، ففعلنا واجتهدنا ، ثم غنيناه ، فضحك واطمأن الى اننا لم نبلغ شأوه في التلحين(٦١) .

وروى يزيد المهلبي انه دخل على الواثق بالله يوما وهو خليفة، فرأى صبية اسمها رباب جالسة في حجره وهو يلقي عليها قوله :

ضيعت عهد فتى لعهدك حافظ
في حفظـــه عجب وفي تضييعك

وهي تغنيه ويردده عليها ، ومازال يردده حتى حفظته(٦٢) .

وللواثق بالله رأي طريف يبرر فيه عدم تحرجه من الغناء وضرب العود . فهو يرى ان الغناء «انما هو فضلة أدب وعلم مدحه الاوائل واشتهاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورحمهم والتابعون بعدهم ، وكثر في حرم الله ومهاجر رسوله»(٦٣) . وقد ألف محمد بن عمران بن موسى المرزباني ، وهو الراوية الاخباري ، كتابا عن الواثق بالله في وصف أحوال الغناء ونعوته وضروبه وطرقه، واخبار المغنين والمغنيات الأحرار والأماء والعبيد(٦٤) .

ومن مظاهر اهتمام الواثق بالله بالغناء والموسيقى انه لما علم بأن جده هارون الرشيد قد أمـــر ابراهيم الموصلي واسماعيل بن جامع وفليح بن العوراء ، ان يؤلفوا كتابا في الأغاني ويضمنوه

---

(٦٠) نفس المصدر ٩/٢٩٩ .
(٦١) الاغاني ٧/٢٩٩ـ٣٠٠ .
(٦٢) نفس المصدر ٢٠/٨٣ـ٨٤ .
(٦٣) نفس المصدر ٩/٢٧٦ .
(٦٤) الفهرست/١٩٨ ، ومعجم الادباء ٧/٥٢ .

المائة صوت المختارة ، اطلع على هذا الكتاب وامر اسحاق بن ابراهيم الموصلي بتهذيبه وتوسيمه(٦٥) ٠

وقد سبق ان اشرنا في البحث السابق الى بعض الاشعار التي قالها الواثق بالله وصنع فيها الحانا ٠

مجالسه الغنائية :

الواثق بالله والمغنون :

ولحب الواثق بالله فن الغناء والموسيقى فقد كان يكرم اسحاق الموصلي غاية الاكرام ، مقدرا فيه موهبته في التلحين وقدرته على الغناء ٠ وكان يميزه على غيره من المغنين والموسيقيين ٠ وقد قال مرة «ما غناني اسحاق الا ظننت انه قد زيد في ملكي ، ولا سمعته يغني غنـــاء ابن سريج الا ضننت ان ابن سريج قـــد نشر ، وانه ليحضرني غيره ، اذا لم يكن حاضرا ، فيتقدمه عندي وفي نفسي يطيب الصوت ، حتى اذا اجتمعا عندي رأيت اسحاق يعلو ورأيت من ظننته يتقدمه ينتقص ٠ وان اسحاق لنعمة من نعم الملك ، لم يحظ أحد بمثلها ، ولو ان العمر والشباب والنشاط مما يشترى لاشتريتهن له بشطر ملكي»(٦٦) ٠ اذ كان اسحاق كثير الشكوى من شيخوخته وتقدم عمره ٠

وكان اسحاق يحضر مجالس الواثق بالله منذ ان كان أميرا في عهد أبيه المعتصم بالله ٠ ولما خرج المعتصم بالله في حملته على بلاد الروم استخلف ابنه هارون بسر من رأى ٠ فعـــزم هارون على أن يقضي نهارا كاملا بين المغنين ٠ فوجه الى جلسائه وندمائه ومغنيه أن يبكروا في يوم حدده لهم فحضر الجميع ٠ فلم يأخذ مكانه على سريره ، بل جلس على الارض ٠ وطلب اليهـــم ان يجلسوا حلقة

---

(٦٥) التاج/٢٣ ٠

(٦٦) الاغاني ٥/٢٨٥-٢٨٦ ٠

حوله ، والى جانب كل واحد منهم مغن ، ليكون أكثر اختلاطا بهم · وبدأ هو نفسه فتناول عودا وغني فشربوا · ثم غني من بعده حتى وصل الدور الى اسحاق الموصلي فلم يغن · فغنوا دورا اخر ولم يغن اسحاق ، وكذلك فعل في الدور الثـــالث · فغضب هارون ونهض فجلس على السرير ، فقام الجميع وقوفا بين يديه · فدعا باسحاق وشتمه ، وقال له : أتتنزل لك واغني وترتفع عني ، وأمر بضربه ثلاثين مقرعة · وحلف الا يغني بقية اليوم غير اسحاق · فاعتذر اسحاق واعتذر الجلساء ، فعـــاد هارون الى مجلسه بينهم ، وأخذ اسحاق العود ومازال يغني حتى انقضى ذلك اليوم(٦٧) ·

كان الواثق بالله يغدق على اسحاق الموصلي الأموال · وقد قال اسحاق : ما وصلني أحد من الخلفاء بمثل مـــا وصلني به الواثق بالله ، وما كان أحد منهم يكرمني اكرامه(٦٨) · وكان اسحاق يحضر مجالس الخلفاء اذا جلسوا للشرب واللهو في جملة المغنين وعوده معه ، الى ايام الواثق بالله فانه كان اذا قدم عليه يحضر مع الجلساء بغير عود ، ولا يغني حتى يطلب اليه الواثق بالله · واذا طلب منه أن يغني جاؤه بعـــود فغنى به ، واذا فرغ رفع العـــود من بين يديه(٦٩) · وذلك اكراما له واعلاء لشأنه ·

وطلب الواثق بالله في بعض المشايا الا يبرح أحد من المغنين المجلس لانه عزم على الصبوح في اليوم التالي · فامسك الجميع عن معارضته الا اسحاق فانه اعتذر عن المبيت ، فرجاه الواثق بالله ان يبكر في الحضور غدا · وعندما التأم المجلس في اليوم التالي حضر اسحاق فجلس مع الندماء · وكان اذا امره الواثق ان يغني خرج عن صفهم قليلا وغنى الصوت الذي يأمره به ، فاذا فرغ من القدح

---

(٦٧) نفس المصدر ٩/٢٩٨ ·
(٦٨) نفس المصدر ٩/٢٨٣ ·
(٦٩) نفس المصدر ٩/٢٨٦ ·

قطع الصوت ولم يتمه ورجع الى صف الجلساء[٧٠] • وهذا لا شك أيضا من مظاهر تكريم اسحاق وتقدير فنه وعبقريته •

قال اسحاق الموصلي : انشدتني أم محمد الأعرابية لنفسها هذين البيتين وأنا حاج فاستحسنتهما وصنعت فيهما لحنا غنيته الواثق بالله فاستحسنه واستعاده مني حتى تعلمه ، وأمر لي بثلاثين ألف درهم ، والبيتين هما[٧١] :

عسى الله باظمياء ان يعكس الهوى
فتلقين ما قد كنت منك لقيت

ثراء فتحتاجي الي فتعلمي
بأني به أجزيك حين غنيت

وقال اسحاق : دخلت على الواثق بالله يوما فرأيته خاثر النفس كسلان ، فاخذت عودا ووقفت بين يديه فغنيته :

من الظباء ظباء همها السخب
ترعى القلوب وفي قلبي لها عشب

لا يفتربن ولا يسكن بادية
وليس يعرفن ما حر وما حلب

يا حسن ما سرقت عيني وما انتهبت
والعين تسرق أحيانا وتنتهب

اذا يد سرقت فالقطع يلزمها
والقطع في سرق العينين لا يجب

---

(٧٠) الاغاني ٩/٢٩٥-٢٩٦ •
(٧١) نفس المصدر ٥/٣٥٣ •

فهش الواثق لي ونشط ، ودعا بطعام خفيف فاكلنا ، واصطبح، وأمر لي بمائة ألف درهم[٧٢] ·

وغنى اسحاق الواثق بالله يوما في شعر كان قاله وهو عنده بسامرا ، وقد طال مقامه واشتاق الى أهله ، وهو :

يا حبذا ريـــح الجنوب اذا بـــدت
في الصـــبح وهي ضعيفة الأنفاس

قـد حملت برد النـــدى وتحملت
عبقـــا من الجثجـــاث والبسباس

فشرب الواثق بالله عليه واستحسنه ، وقال له : يا أبا محمد لو قلت مكان «يا حبذا ريح الجنوب» يا حبذا ريح الشمال ، ألم يكن أرق وأعذى وأصح للأجساد وأقل وخامـــة وأطيب للانفس ؟ قال اسحاق : ما ذهب علي ما قاله أمير المؤمنين ، ولكن التفسير فيما بعد . فقال : قل ، فقلت :

ماذا تهيج من الصبابـــة والهوى
للصب بعـــد ذهولـــه واليـــاس

فقال الواثق بالله : انما استطبت ما تجيء به الجنوب من نسيم أهل بغداد ، لا الجنوب ، واليهم اشتقت لا اليها · فقال : أجل يا أمير المؤمنين · فضحك وقال : قد اذنت لك بعد ثلاثة أيام فامض راشدا ، وأمر له بمائة ألف درهم[٧٣] ·

---

(٧٢) نفس المصدر ٥/٣٨٩ـ٣٩٠ · وقد ذكر الخبر نفسه في ص : ٣٥٥ من الجزء نفسه · وخاثر النفس : ثقيلها · والسخب جمع السخاب وهي القلادة من قرنفل ونحوه ، أو القلادة بصورة عامة · والصر : شـــد ضرع الناقة لئلا ترضع ولدها ·

(٧٣) الاغاني ٥/٤٠٦ـ٤٠٧ · والجثجاث : شجر اصفر طيب الرائحة ، ومثله البسباس ·

واصطبح الواثق بـــالله في يوم مطير ومعه اســـحاق الموصلي ومغنون اخرون ٠ واتصل شربهم وقـــد اسرفوا فيه حتى سقطوا صرعى فرقدوا في أماكنهم ٠ وأمر الخليفة خدمه بأن لا يحركوا أحدا من موضعه ٠ وعندما افاق أمر بانباههم فقاموا واصلحوا من شأنهم ٠ فجاء اسحاق الى الواثق بالله وهو جالس وفي يده كأس وهو يروم شربها والخمار يمنعه ، فقال له : يا اسحاق انشدني في هذا المعنى شيئا ٠ فانشده اسحاق قول الاشجع السلمي :

وقد طعنت الليل في اعجـــازه
بالكأس بـــين غطارف كالأنجم

يتمايلون على النعيـــم كأنهم
قضب من الهنـــدي لـــم تتثلم

وسعى بها الظبي الغرير يزيدها
طيبا ويغشمها اذا لـــم تغشم

والليل منتقب بفضـــل ردائه
قد كان يحسر عن أغـــر أرثم

واذا ادارتها الأكف رأيتهـــا
تثنى الفصيح الى لسان الأعجم

فطرب ، وقال : أحسن والله أشجع ، واحسنت أنت يا أبا محمد، أعد بحياتي ٠ فاعدتها وشرب كأسه ، وأمر لي بالف دينار(٧٤) ٠

وتناظر المغنون يوما في مجلس الواثق بالله ، فذكروا الضراب على العود وحذقهم ، وقدم اسحاق زلزلا على ملاحظ الذي كانت له الرياسة على جميعهم ٠ فقال له الواثق بالله : هذا حيف وتعد منك ٠

---

(٧٤) نفس المصدر ١٨/٢٢١_٢٢٢ ٠ يغشمها : يغتصبها ٠ والفرس الارثم : الذي في طرف أنفه بياض ٠

فقال اسحاق : يا أمير المؤمنين نجمع بينهما ونمتحنهما ، وسينكشف الامر ، فاحظرا • فاستأذن اسحاق في ان يمتحنهما ، فوافق الواثق بالله • فسمى اسحاق ثلاثة أصوات كان أولها :

علــق قلبي ظبيــة السيب
جهلا فقــد أغــري بتعذيبي

فتقدم زلزل وقصر عنه مــلاحظ • فعجب الواثق من مهارة اسحاق وسرعته في كشفهما • فطلب مــلاحظ ان يضرب اسحاق الصوت ليروا مهارته • فقبل اسحاق التحدي ، وطلب الى ملاحظ ان يشوش عوده ، ففعل ذلك • وقال اسحاق : ان ملاحظا قد خلط الأوتار تخليط متعمنت بحيث افسدها • ثم أخذ العود منه وجسه حتى عرف مواقعه ، وطلب الى ملاحظ ان يغني أي صوت يشاء • فغنى ملاحظ صوتا غريبا ، وضرب عليه اسحاق بذلك العود الفاسد التسوية ، ولم يخرج عن لحنه في موضع واحد حتى استوفاه • فقال له الواثق بالله : لا والله ما رأيت مثلك ولا سمعت به ، وطلب اليه ان يطرح ذلك على الجواري • فقال : هيهات يا أمير المؤمنين ، ان هذا لا تعرفه الجواري ولا يصلح لهن • قال له الواثق بالله : صدقت، ولئن مت لتموتن هــذه الصناعة معك ، وأمر لــه بثلاثين ألف درهم(٧٥) •

ودخل اسحاق مرة على الواثق بــالله يستأذنه في الانحدار الى بغداد ، فوجده مصطبحا فطلب اليه الواثق بالله أن يغنيه :

ألا ان أهل الدار ودعــوا الدارا
وان كان أهل الدار في الحي اجوارا

وقد تركــوا قلبي حزينا متيمــا
بذكرهم لو يستطيع لقد طــارا

---

(٧٥) الاغاني ٥/٢٨٠-٢٨٢ •

فتطير اسحاق من اقتراحه ، الا انـــه غناه اياه ، فشرب عليه مرارا ، وأمر له بثلاثين ألف درهم ، واذن له بالانصراف ، وكان آخر عهده به(٧٦) . فقد توفي الواثق بالله بعد ذلك بقليل .

وذكر أبو الحسن الصابي هذا الخبر على الشكل الآتي : ذكر اسحاق بن ابراهيم الموصلي قال : دخلت يوما على الواثق بالله وهو مصطبح ، فقال : غن يا اسحاق صـــوتا غريبا لم اسمعه منك حتى أكون عليه بقية يومي مسرورا . فكأن الله انساني الغناء كله الا هذا الصوت :

يا دار ان كان البلى قد محـــاك
فانـــه يعجــــبني ان أراك

أبكي الذي قـــد كان لي تالفا
فيك فآتي الدار من أجل ذاك

قال : فتبنيت الكراهية في وجهه ، وندمت على ما فرط مني ، وتجلدت . وشرب رطـلا كان في يده ، وعدلت عن الصـــوت الى غيره . فكان والله ذلك اليوم آخر جلوسي معه(٧٧) .

وكان الشـــاعر الحسين بن الضحاك يلازم الواثق بـــالله في مجالسه الغنائية وينادمه في شرابه . قال الحسين : شهدت الواثق بالله بعد موت المعتصم بالله بأيـــام في أول مجلس يجلسه . فغنته شارية جارية ابراهيم بن المهدي :

ما درى الحاملون يوم استقلوا
نعشــه للثـــواء أم للبقـــاء

فبكى وبكينا معه ، حتى شغلنا البكاء عن جميع ما كنا فيه . ثم تغنى بعض الحاضرين فقال :

---

(٧٦) نفس المصدر ٥/٤١٦ .
(٧٧) الهفوات النادرة/٣٢ .

ودع هريرة ان الركب مرتحل
وهل تطيق وداعا أيها الرحل

فازداد الواثق بالله بكاء ، وقال : مـــا سمعت كاليوم تعزية باب • ثم تفرق المجلس(٧٨) •

وحضر الحسين مجلسا للواثق بـــالله ، فشربوا الى أن انقضى أكثر الليل • فأمر الواثق بالله جلساءه بأن يبيتوا في مكانهم • فلما أصبح خرج اليهم وهم مقيمون ، فقال للحسين : هل وصفت ليلتنا الماضية وطيبها ؟ فقال : لم يمض شيء وأنا أقول الساعة ، وفكر قليلا ثم قال :

حثت صبوحي فكاهـــة اللاهي
وطاب يومي بقـــرب اشباهي

فاستثر اللهـــو من مكامنـــه
من قبـل يوم منغص نـــاهي

بابنة الكـــرم من كف منتطق
مـــؤزر بالمجـــون تيـــاه

يسقيك من طرفه ومن يـــده
ســـقي لطيف مجـــرب داهي

كاســـا فكأسا كأن شـــاربها
حيران بـــين الذكور والساهي

فأمر الواثق بالله بـــرد المجلس كهيئته ، واصـــطبح يومه ذاك معهم ، وقال : نحقق قولك ياحسين ونقضي لك كل أرب وحاجة(٧٩) •

وحدث الحسين بن الضحاك قال : دخلت ذات يوم على الواثق بالله ، وفي السماء لطخ غيم • فقـــال لي : ما الرأي عندك في هذا

---

(٧٨) الكامل ٧/٣١-٣٢ •
(٧٩) الاغاني ٧/١٦٠ •

اليوم ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ما حكم به واشار اليه قبلي أحمد بن يوسف ، فانه اشار بصواب لا يرد وجعله في شعر لا يعارض • قال : وما قال ؟ فقلت لقد قال :

أرى غيمـــا تؤلفه جنـــوب
واحســـبه سيأتينا بهطـــل

فعين الرأى ان تـــدعو برطل
فتشربه وتدعـــو لي برطـــل

فقال الواثق بالله : أصبتما • ودعا بالطعام والشراب والمغنين والجلساء ، واصطبحنا[80] •

وطلب الواثق بالله يوما الى الحســين بن الضحاك ان يرتجل ابياتا من الشعر • فساله في أي معنى يريد هذه الابيات • فقال : امدد طرفك وقل فيما شئت مما ترى بـــين يديك وصفه • وكان حولهما بساط من الخضرة محفوف بازهـــار تفتحت أنوارها • فارتج على الحسين ساعة ، وضاق ذرعا وخجل من موقفه • فتداركه الواثق بالله قائلا : ويحك مالك ، ألست ترى نور الصباح ونور أقاح ؟ فكان ذلك مما فتح القول على الحسين فاندفع يقول[81] :

ألست ترى الصبح قـد اسفرا
ومبتكر الغيث قـد أمطـــرا

واسفرت الأرض عن حلـــة
تضاحك بالأحمـر الأصـــفرا

ووافـــاك نيســـان في ورده
وحثك في الشراب كي تسـكرا

---

(٨٠) نفس المصدر ٧/١٥٩ــ١٦٠ •
(٨١) الاغاني ٧/١٩٦ــ١٩٧ •

وتعمـل كاسـين في فتيـة
تطارد بالأصـفر الأكبـرا

يحث كؤوسـهم مخطف
تجـاذب اردافـه المئـزرا

فلمـا تمازج ما شـذرت
مقـاريض أطرافـه شـذرا

فكـل ينـافس في بـره
ليفعـل في ذاته المنكـرا

فضحك الواثق بالله وقال : سنستعمل كل ما قلت يا حسين الا الفسق الذي ذكرته • ثم أمر باحضار الطعام فأكلوا جميعا • ثم قال : قوموا بنا الى حانة الشط ، فقاموا اليها • فشرب وطرب ، وما ترك يومئذ أحدا من الجلساء والمغنين والخدم الا أمر له بصلة • قال الحسين : فلما كان الغد غـدوت الى الواثق بالله ، فطلب الي أن أنشده شيئا ان كنت قلته في اليـوم السابق الذي كان من الأيام المعدودة ، فانشدته :

يا حانة الشط قـد اكرمت مثوانا
عودي بيـوم سرور كالذي كانا

لا تفقدينا دعـايات الامـام ولا
طيب البطالـة اسرارا واعلانـا

ولا تخالعنـا في غـير فاحشـة
اذا يطربنـا الطنبـور أحيانـا
وهاج زمرزنام بـين ذاك لنـا
شجدا فاهدى لنا روحـا وريحانا
حفت رياضـك جنات مجـاورة
في كـل مخترق نهـرا وبستانا

لازلت آهلة الأوطـان عامـرة
بأكرم الناس اعراقـا واغصانـا

وكان الواثق بالله يميل الى الفتح بن خاقان ويأنس به • وقد اعتل يوما علة شديدة ، ثم افاق وتعافى • فقال للحسين : يا حسين اكتب عني الى الفتح تدعوه الى الصبوح معي ، وكان قد عزم على أن يصطبح • فكتب الحسين الى الفتح يقول(٨٢) :

لما اصطبحت وعين اللهـو ترمقني
قـد لاح لي باكرا في ثـوب بذلته

ناديت فتحـا وبشرت المـدام به
لمـا تخلص من مكـروه علتـه

ذب الفتى عن حريم الراح مكرمـة
اذا رآه امـرؤ ضـدا لنحلتـه

فاعجل الينا وعجل بالسرور لنـا
وخالس الدهر في أوقـات غفلته

فلما قرأها الفتح بادر الى الحضور ، فاصطبح مع الواثق بالله وحاشيته •

الواثق بالله والمغنون الآخرون :

مخـارق :

اعجب الخليفة الواثق بالله بغناء مخارق كثيرا • وقال وزيره محمد بن عبدالملك الزيات : ان الواثق بـالله قال له : ما غناني مخارق قط الا قدرت انه من قلبي خلق(٨٣) • ويبدو انه كان شديد

---

(٨٢) نفس المصدر ٧/٢١٥-٢١٦ •
(٨٣) الاغاني ١١/٣٣٤ و ١٨/٣٤٥ •

الشغف بغنائه ، حتى انه خصص له حجرة في قصره ليكون قريبا منه دائما • ولا يسمح له بالذهاب الى منزله الا يوما واحدا في الاسبوع • وكانت جواري الواثق بالله اذا اختلفن في لحن ما ، أمرهن ان يعرضنه على مخارق ليقرر اللحن الصحيح • ويروي هارون ابن مخارق ان اباه انصرف مرة في نوبته الى منزله فصلى الغداة مع الفجر في صحن الدار في يوم صائف • فدخل خدم الواثق بالله ، وكان بعث بهم اليه ليصحح لهم صوتا كان قد طرحه عليهم فاختلفوا في ادائه • فاندفع مخارق يردد الصوت عليهم • ويبدو ان غناءه كان شجيا بحيث تجمع حوله جواري الدار وغلمانه ، كما بكي ابنه من فرط تأثره • فلما قطع مخارق الصوت حين استوفاه انفض الجمع من حوله(٨٤) •

وغنى مخارق يوما بحضرة الواثق بالله :

حتى اذا الليل خبا ضوءه
وغابت الجوزاء والمرزم

خرجت والوطء خفي كما
ينساب من مكمنه الأرقم

فاستملح الواثق بالله الشعر واللحن فصنع على نحوه(٨٥) •

قالت اذا الليل دجا فأتنا
فجئتها حين دجا الليل

خفي وطء الرجل من حارس
ولو درى حل بي الويل

وكان مخارق يلهي بغنائه أحيانا غلمان الخليفة عن اداء واجباتهم • فقد روى ابن حمدون انه كان مع عدد من الندماء

(٨٤) نفس المصدر ١٨/٣٥٢ـ٣٥٣ •
(٨٥) نفس المصدر ٩/٢٨٩ـ٢٩٠ •

والمغنين في مجلس الواثق بـــالله ، وكانت أمه عليلة ، فدخل اليها وامرهم ان لا يبرحـــوا مجالسهم ، فأبطأ عليهـــم • وكانت الليلة مقمرة ، فاندفع مخارق يغني • فاجتمع حولـــه غلمان القصر • وعندما خرج الواثق بالله نادى على غلام فلم يجبه أحد ، فتوسط الدار واخذ ينادي الغلمان بصوت عال • فبادر اليه ابن حمدون واخبره ان مخارقا يغني وان الغلمـــان تجمعوا يستمعون اليه ، وليس فيهم فضل ليسمعوا غير ما يسمعون من الغناء • فقال الواثق بالله : عذر والله لهم يا ابن حمدون ، وأي عـــذر • ثم شاركهم في الاستماع الى غناء مخارق(٨٦) •

ان تجمع عدد كبير من المغنين والموسيقيين في مجالس لهو الواثق بالله كان يثير في بعض الاحيان شيئا من التنافس بينهم • وقد يصل الى درجة الحقد يدفع بعضهم الى أن يكيد لدى الخليفة على البعض الآخر • فقد ذكر ان الواثق بالله كان يستشير اسحاق الموصلي فيما يصنعه من الأصـــوات • فحاول مخـــارق ان يكيد لاســـحاق عند الخليفة ، فقال له يوما : ان اسحاق يعرف ان الصوت الذي تعرضه من صنعتك فيقول لك ما يوافق هواك ، فاذا خرج عنك قال لنا ضد ذلك • فاراد الواثق بالله أن يتأكد من ذلـــك • فتبرع مخارق بأن يغني صـــوتا للواثق بالله بحضور اسحاق ، وتعمد ان يغـــير فيه بمواضع تخفى على الواثق بالله • فلما سأل الواثق بالله اسحاق عن رأيه في الصوت • قال اسحاق انه فاسد غير مرضي • فغضب الخليفة وتحقق له قول مخارق • فأمر فسحب اسحاق من المجلس حتى اخرج منه مطرودا ، وأمر بنفيه الى بغداد • ثم جرى ذكره يوما ، فقالت فريدة جارية الواثق بالله : يا أمير المؤمنين ان اسحاق كما تعلم يأخذ نفسه بقول الحق ، وان مخارقا قد كاده عندك اذ أفسد الصوت من حيث أوهمك انه زاد فيه نغما وجوده ، فاحضر اسحاق واغنيه اياه على صحته واسمع ما يقول • فأمر الواثق بالله باحضاره الى سامرا

---

(٨٦) الاغاني ١٨/٣٤٢ ، ونهاية الارب ٤/٢١٦ •

واظهر الرضا عنه • ففنته فريدة الصوت كما صنعه الواثق بالله ، فلما سمعه قال : هذا صـــوت صحيح الصنعة ، ولم اسمعه هكذا في المرة الاولى ، وابـــان المواضع الفاسدة ، واخبر بافســـاد مخارق اياها • فســكن غضب الواثق بالله عنه ، وتنكـــر لمخارق مدة لما فعله(٨٧) •

علويـــة :

هو علي بن عبدالله بن سيف واصـــله من الصغد • كان مغنيا مبدعا ، وصانع ألحان متفننا ، وضارب عود متقدما • وقد تخرج على ابراهيم الموصلي المغني القدير الذي عني بـــه جيداو فبرع في صنعته • وغنى للخليفة محمد الأمين ولعدد من الخلفاء بعده ، وعاش الى أيام المتوكل على الله •

وكان اسحاق الموصلي يتعصب في أكثـــر الأحيان لعلوية على مخارق المغني ، ويقول عنه : ان علوية أعرف بما يخرج من رأسه واعلم بما يغنيه ويؤديه لأنه محـــكم الغناء والصنعة(٨٨) • الا ان ياقوتا الحموي يقول عنه : رغم ان علويـــة كان واحد الناس في الغناء رواية وحكاية ودراية وصنعة وجودة ضرب ، وحسن خلق ، الا انه اذا رأى مخارقا ذاب كما يذوب الرصاص على النار(٨٩) •

غنى علوية يوما بحضرة الواثق بالله هذا الصوت(٩٠) :

من صاحب الدهر لــم يحمد تصرفه
عناد الدهـــر احـــلاء وامــــــراء

---

(٨٧) نفس المصدر ٥/٣٦٠ـ٣٦١ و ٩/٢٨١ـ٢٨٢ •
(٨٨) الاغاني ١١/٣٣٣ •
(٨٩) معجم الادباء ٧/٢٦٢ ، والاغاني ١٨/٣٧ •
(٩٠) الاغاني ١١/٣٤٥ •

فاستحسنه وطرب عليه • فقال علوية : والله لو شئت لجعلت الغناء في أيدي الناس أكثر من الجـــوز ، وكان اسحاق الموصلي حاضرا في المجلس فتضاحك ، وقال لـــــه : يا أبا الحسن اذا تكون قيمته مثل قيمة الجوز ، ليتك اذ قللته صنعت شيـــئا ، فكيف اذا كثرته ؟ فخجل علوية •

وغنى يوما بين يدي الواثق بالله ، واسحاق الموصلي حاضر :

خليل لي ساهجـــــره
لذنب لست اذكـــــــــره
ولـــــكني ســـــــأرعاه
واكتمــــه واســــــتره
واظهــــــــر انني راض
واســـــكت لا أخبـــــره
لكي لا يعلــــــم الواشي
بمـــــا عنـــدي فأكسره

فطرب الواثق بالله طربا شديدا واستحسن اللحن واستجاده ، وأمر لعلوية بألف دينار • ثم سأله بما اذا كان هذا اللحن له ، قال : لا يا أمير المؤمنين ، هو لهذا الهزبر ، يعني اسحاقا • فضحك الواثق بالله ، وقال : قد ظلمناه اذن ، وأمر لاسحاق بثلاثين ألف درهم(٩١) •

اعجب الواثق بالله بغناء علوية وقال عنه : علوية أصح الناس صنعة بعد اسحاق ، وأطيب صوتا بعد مخارق ، وأضرب الناس بعد زبرب ، وهو مصلي كل سابق قادر ، وثاني كل أول واصل متقدم ، وكان يصف غناءه انه مثل نقر الطست يبقى ساعة في السمع بعد سكوته(٩٢) • ومما يشبه هذا انه تساءل في أحد مجالسه من أحذق

---

(٩١) الاغاني ٥/٤٠ •

(٩٢) نفس المصدر ١١/٣٣٧ ، والمصلي في السباق هو التالي •

الناس بالصنعة ؟ قالوا : اسحاق ، قال : ثم من ؟ قالوا : علوية • قال : فمن أطيب الناس صوتا ؟ قالوا : مخارق ، قال : ثم من ؟ قالوا : علوية • قال : أعرفتم بانه مصلي كل سابق ، وقد جمع الفضائل كلها ، وهي متفرقة فيهم(٩٣) •

وأراد الواثق بالله يوم كان أميرا أن يضرب بين اسحاق ومخارق وعلوية ، ففعل ذلك في أحد مجالسه حتى تهاتروا فيما بينهم • ثم سأل اسحاقا كيف يرى مخارقا وعلوية ، فقال : أما مخارق فمناد طيب الصوت ، وأما علوية فهو خير حماري العبادي وهو شييء — يريد تصغيره — فوثب علوية مغضبا ، وطلب الى الواثق بالله أن يستحلف اسحاقا بان يصدق فما سيسأله عنه ، فحلف اسحاق ، فقال علوية : من أحسن الناس اليوم صنعة بعدك ؟ قال : انت ، قال : فمن اضرب الناس بعد ثقيف ؟ قال : انت ، قال : فمن أطيب الناس صوتا بعد مخارق ؟ قال : انت(٩٤) •

وكانت هناك منافسة شديدة بين علوية ومخارق الذي كان أعلى منه شأنا • فقد غنى علوية يوما بين يدي اسحاق الموصلي هذا الصوت :

هجرتك اشفاقا عليك من الأذى
وخوف لأعادي واتقاء النمائم

فقال له اسحاق : أحسنت يا أبا الحسن أحسنت • فقال علوية : أين أنا الآن من صاحبي — يعني مخارقا — مع قولك هذا لي ؟ قال : اذا غنيتما ملكا اختاره عليك واعطاه الجائزة دونك • فضجر علوية وقال : أف من رضاك وغضبك(٩٥) •

---

(٩٣) الاغاني ١١/٣٥٥ •
(٩٤) نفس المصدر ٥/٣٥١ـ٣٥٢ ، و «هو خير حماري العبادي» مثل يضرب في خلتين احداهما شر من الاخرى •
(٩٥) الاغاني ١٨/٣٦٩ •

وكان علوية أعسر ، ولذا كان عـــوده مقلوب الاوتار : البم اسفل الاوتار كلها ، ثم المثلث فوق المثنى ، ثم الزير • وكان اذا ضرب اخذه بيده اليمني وضرب باليسرى ، فيكون مستويا في يده مقلوبا في يد غيره(٩٦) •

عبدالله بن العباس الربيعي :

من المغنين الذين كانوا مقربين الى الواثق بالله ، الشاعر المغني عبدالله بن العباس ، حفيد الفضـــل بن الربيع • حضر يوما مجلس الواثق بالله ، وكان الجو ملبدا بالغيوم ، فـــلاح برق واستطار • فقال الخليفة لجلسائه : قولوا في هـــذا شيئا • فبادر عبدالله فقال هذين البيتين :

أعني على لامـــع بـــارق
خـفي كلمحـــك بالحــاجب

كأن تألقـــه في الســـماء
يـــدا كاتب أو يـــدا حاسب

وصنع فيهما لحنا غناه • فشرب الواثق بالله بقية يومه عليه ، واستحسن شعره معنى وصنعة ووصله بصلة سنية(٩٧) • وغني في حضرة الواثق بالله في يوم نوروز صـــوتا صنعه في بيتين من الشعر للمعلى الطائي هما :

باكر صبوحك صبحة النوروز
واشرب بكاس متـــرع وبكوز

ضحك الربيع اليك عن نــواره
آس ونسرين ومرما حـــوز

---

(٩٦) نفس المصدر ١٨/٢٣٨ •
(٩٧) الاغاني ١٩/٢٣٢ •

فاستعاده الواثق بالله وطرب كثيرا ، وأمر له بثلاثين ألف درهم(٩٨) .

وقال عبدالله بن العباس : دعانا الواثق بالله في يوم نوروز ، فلما دخلت عليه غنيته بشعر مدحته فيه ، وصنعت فيه لحنا ، وهو :

هيّ للنيروز جاما
ومداما وندامي
يحمدون الله والوا
ثق هارون الأماما
ما رأى كسرى انوشر
وان مثل العام عاما
نرجسا غضا وودا
وبهارا وخزامي

فطرب الخليفة واستحسن الغناء وشرب عليه حتى سكر ، وأمر لي بثلاثين ألف درهم(٩٩) .

كان عبدالله يتخذ سيبا لمعرفة أولياء العهد برأي الخلفاء فيهم . وسبق أن أشرنا الى غنائه للواثق بالله عندما كان أميرا ، لكي يعرف ما اذا كان أبوه المعتصم بالله سيوليه العهد بعده . فلما تيقن من ذلك أمر ابراهيم بن رباح فاقترض له ثلاثمائة ألف درهم ، ففرقها على الجلساء من الندماء والمغنين والموسيقيين . ولما علم الواثق بالله بغضب أبيه على عبدالله واطراحه اياه ، اطرحه هو أيضا . وعندما ولى الخلافة كان لايزال على جفائه ، فقال عبدالله :

---

(٩٨) نفس المصدر ١٩/٢٣٠ .
(٩٩) نفس المصدر ١٩/٢٤٢ .

مالي جنيت وكنت لا أجفى
أيام ارهب سطوة السيف

ادعو الهي ان أراك خليفة
بين المقام ومسجد الخيف

ودس من غناه الواثق بالله ، فلما سمعه سأل عنه ، فعرف قائلة فتندمم ودعا عبدالله فبسطه واكرمه ونادمه الى ان مات(١٠٠) •

وجمع الواثق بالله المغنين يوما ، وفيهم عبدالله ، ليصطبح ، فقال له : بحياتي الا صنعت هزجا حتى أدخل واخرج اليكم الساعة • فدخل الى جواريه • فقال عبدالله هذه الابيات وصنع فيها هزجا قبل ان يخرج عليهم الخليفة :

بأبي زور أتاني بالغلس
قمت اجلالا له حتى جلس

فتعانقنا جميعا ساعة
كادت الأرواح فيه تختلس

فقلت : يا سؤلي ويا بدر الدجى
في ظلام الليل ما خفت العسس

قال : قد خفت ولكن الهوى
آخذ بالروح مني والنفس

زارني يخطر في مشيته
حوله من نور خديه قبس

فلما خرج الواثق بالله من دار الحرم ، قال : يا عبدالله ما صنعت ؟ فاندفع عبدالله يغنيه الهزج الذي صنعه • فشرب حتى

---

(١٠٠) نفس المصدر ١٩/٢٤٧-٢٤٨ •

سكر ، وأمر لـــه بخمسة آلاف درهـــم ، وأمره ان يطرحـــه على الجواري[101] .

وقال عبدالله : جمعنا الواثق بالله يوما بعقب علة غليظة المته به وعوفي منها وصح جسمه . فدخلت اليـــه مع المغنين وعودي في يدي . فلما وقعت عيني عليه من بعيد وصرت بحيث يسمع صوتي ، ضربت وغنيت في شعر قلته في طريقي اليه وصنعت فيه لحنا ، وهو :

اسلم وعمـــرك الاله لأمـــة
بك اصبحت قهرت ذوي الالحاد

لو تستطيع وقتك كل اذيـــة
بالنفس والأمـــوال والأولاد

فضحك وسر وقال : احسنت يا عبـدالله وسررتني ، وتيمنت بابتدائك ، ادن مني ، فدنوت منه حتى كنت أقرب المغنين اليه . ثم استمادني الصوت فاعدته ثلاث مرات . وشرب عليه ثلاثة أقداح ، وأمر لي بعشرة آلاف درهم وخلعة من ثيابه[102] .

محمد بن الحارث :

كان أبـــوه الحارث رفيع القدر ومن وجود قـــواد الهادي والرشيد . وكان محمـــد من أصحاب ابراهيم بن المهـــدي ومن المتعصبين له على اسحاق الموصلي . وقـــد أخذ الغناء عن ابراهيم وجرى فيه على نهجه . ويعتبر محمد بن الحارث من أحسن المغنين اداء وأسرعهم أخذا للغناء . فقال اســـحاق بن ابراهيم المصعبي للخليفة الواثق بالله ان اسحاق الموصلي قال لي : ما قدر احد قط

---

(١٠١) الاغاني ١٩/٢٥٠ .
(١٠٢) نفس المصدر ١٩/٢٥٤ .

أن يأخذ مني صوتا مستويا الا محمد بن الحارث . فانه أخذ مني عدة أصوات كما اغنيها • فاستفسر الواثق بـــالله من محمد عن ذلك فقال : قد قال لي اسحاق الموصلي ذات مرة • فسأله عن احسن لحن اخذه من صنعته ، قال محمد : يزعم اسحاق انه لم يأخذ منه أحد قط هذا الصوت كما اخذته منه :

اذا المرء قاسى الدهر وابيض رأسه
وثلم تثليـــم الأنـــاء جوانبـــه

فليس في العيش خـــير وان بـــكى
على العيش أو رجى الذي هو كاذبه

فامره الواثق بـــالله ان يغنيه ، فغناه اياه واحسن واجـــاد • فاستحسنه الواثق بالله وأمره ان يردده ، فردده مرارا كثيرة حتى أخذه الواثق بالله عنه ، واخذته جواريه كذلك(١٠٣) •

وغنى اسحاق الموصلي يوما بحضرة الواثق بالله لحنه الآتي :

ذكرتـــك اذ مرت بنا أم شـــادن
أمـــام المطايـــا تشرئب وتســـنح

من المؤلفات الرمـــل ادماء حـــرة
شـــعاع الضحى في متنهـــا يتوضح

فامره الواثق بالله ان يعيده على الجواري ، واحلفه بحياته ان ينصح فيه • فقال اسحاق : لا تستطيع الجواري أن يأخذنه مني ، ولكن يحضر محمد بن الحارث فيأخـــذه ، وتأخذه الجواري منه • فاحضر محمد والقاه اسحاق عليه فاخذه منه ، واخذته الجواري عن محمد(١٠٤) •

---

(١٠٣) الاغاني ١٢/٤٨_٤٩ •
(١٠٤) نفس المصدر ١٢/٥٠_٥١ •

وغنى محمد بن الحارث الواثق بالله ببيت من الشعر مدحه به ، وقد نظمه ولحنه وهو :

أمنت بـــاذن الله من كـــل حادث
بقربك من خير الورى يا ابن حارث

فاستحسنه الواثق بالله ، وامر بالفي دينار(١٠٥) ٠

أبو حشيشة :

محمد بن أمية ، وابـــو حشيشة لقب غلب عليـــه ، كان من المتصلين بابراهيـــم بن المهدي ، ويعتبر من المغنـــين الطنبوريين المجيدين ٠ وقد قال : كنت أغني للواثق بـــالله ، وكان يختار من غنائي هذا الصوت(١٠٦) :

يا تاركي متلـــدد العـــواد
جـــــذلان العــــــداة

انظـــــر الي بعـــين را
ض نظـــرة قبل المـــات

خليتني بـــين الوعيـــــ
ـد وبـــين ألسنـــة الوشـــاة

مـــاذا يـــرجى بالعيـــا
ة منغص روح الحيـــــاة

عمرو بن بانة :

وهو أحد المغنين المشهورين في أيـــام الواثق بالله ، وسنتعرف عليه عند الكلام على مجالس المتوكل على الله الغنائيـــة ٠ وقد غنى

---

(١٠٥) نفس المصدر ١٧٧/٢٣ ٠
(١٠٦) نفس المصدر ٧٩/٢٣ ، ونهاية الارب ٣٧/٥ وجاء البيت الاول فيه :
يا تاركي متلذذ العذال جذلان العداة ٠

يوما بـــين يدي الواثق بالله بحضور اســـحاق الموصلي بلحن أبيه ابراهيم الموصلي :

بلوت أمور الناس طـــرا فأصبحت
مذقمة عندي براء من الحمـــــد

وأصبح عندي من وثقت يغيبـــــه
بغيض الايادي كل احســـــانه نكد

فغناه على ما أخذه من ابراهيم بن المهدي وقد غيره • فقـــال الواثق بالله لاسحاق : أتعرف هذا اللحن ؟ قال : نعم هذا لحن أبي ولكن ابراهيم بن المهدي زعم انه اصلحه فافســـده • فطلب اليه الخليفة ان يغنيه • فغناه اســـحاق واداه على حقيقته ، فاستحسنه الواثق بالله جدا • فغم ذلك عمرو بن بانة فقال لاسحاق : أفأنت مثل ابراهيم بن المهدي حتى تقول هذا فيه ؟ قال : لا والله ما أنا مثله ، واما الغناء فما دخولك انت بيننا فيه ، ما احسنت قط ان تأخذ فضلا من ان تغني ، ولا قمت باداء غناء ، فضلا عن ان تميز بين المحسنين ، والا فغن أي صوت شئت مما أخذته عنه وعن غيره ، فان لم أوضح لك ولمن حضر انه لا يسلم لك صوت من نقصان أجزاء وفساد صنعة ، فرمي به رهن • فاســـاء عمرو الجواب واغلظ في القول ، فأمضه الواثق بالله وطرده من مجلسه(١٠٧) •

الواثق بالله والمغنيات :

قلم الصالحية(١٠٨) :

احدى الجواري البصريات المولدات ، صفراء ، حسنة الغناء ، حاذقة بالضرب على العود • اخذت الغناء عن ابراهيم الموصلي وابنه

(١٠٧) الاغاني ٥/٣٩٤ـ٣٩٥ •
(١٠٨) هكذا ورد اسمها في الطبري ٩/١٥٣ ، وفي الاغاني ١٣/٢٤٧ ، الا انه جاء في الكامل ٧/٣٢ : علم الصالحية •

اسحاق ، وعن يحى المكي ، وهم رؤساء هـذا الفن في عصرهم • برعت في الغناء وفي صنع الألحان ولها نحو عشرين صوتا • وكانت جارية لصالح بن عبدالوهاب واشتراها الواثق بالله منه • ولشرائها قصة أوردها ابن الاثير مختصرة • فقد كان أحمد بن عبدالوهاب قال في الواثق بالله(١٠٩) :

أبت دار الاحبـة ان تبينـا
أجدك مـا رأيت لهـا معينا

تقطـع حسرة من حب ليـلى
نفوس ما أثـبن ولا جزينا(١١٠)

فصنعت فيه قلم لحنا غناه زرزر الكبير للواثق بالله فاعجبه ، ولما علم انه لقلم الصالحيـة احضر مولاها وطلب منه شراءها ، فاهداها اليه ، فقبلها وعوضه خمسة آلاف دينار • فماطله الوزير ابن الزيات في دفع المبلغ • فاعادت قلم الصوت على الواثق بالله ، فقال لها : بارك الله عليك وعلى من رباك • فقالت : وما ينفع من رباني ، أمرت له بشيء فلم يصل اليه • فكتب الى ابن الزيات يأمره بايصال المال الى صالح وان يضعفه له ، فدفع اليـه عشرة آلاف دينار(١١١) • ويقول أبو الفرج ان الواثق بالله لما اشتراها سماها احتياطا(١١٢) •

وكان الشاعر علي بن الجهم انشـد الواثق بالله عندما تولى الخلافة قوله :

---

(١٠٩) الكامل ٧/٣٢ •
(١١٠) ورد هذا البيت في الاغاني ١٢/٣٤٨ كما يلي
تقطع نفسـه من حب ليلى ونفوسا ما أثين ولا جزينـا
(١١١) مفصل الخبر في الاغاني ١٢/٣٤٧ـ٣٤٩ ، وفي نهاية الارب ٥/٧١ـ٧٢ •
(١١٢) الاغاني ١٢/٣٤٨ •

قد فاز ذو الدنيـا وذو الدين
بدولـة الواثـــق هـــارون

وانشده أيضا قوله يمدحه :

وثقت بالملك الواثق بـالله النفوس

فلحنت قلم الصالحية هــذين الشعرين وتغنت بهما ، وكان الواثق بالله يستحسن هذين الصوتين وغناءها(١١٣) .

فريـــدة :

كانت فريدة جارية لعمرو بن بانة أحد كبار المغنين في عهده ، وقد تولى تثقيفها وتدريبها على الغناء(١١٤) . واهداها الى الواثق بالله ، فكانت أثيرة عنده ، حظية لديه ، لمـــا امتازت به من جمال الوجه وحسن الغناء ، الى جانب حدة الذكاء وسرعة الفهم . وكانت تغني الأصوات التي يصنعها الواثق بالله ، فتجيد اداءها .

وقد كلف الواثق بالله المغنية شارية جارية ابراهيم بن المهدي ومن احسن مغنيات أيامها ان تتم تعليم فريدة فنون الغناء والضرب على العـــود . فتولت تعليمها لفترة قصيرة ثم تركتها لخـــلاف قام بينهما(١١٥) .

لقد استطاعت ان تتقن جميع الاصوات التي أخذتها عن كبار المغنين . قال محمد بن عبدالملك الزيات : سمعت فريدة تغني هذا الصوت(١١٦) :

---

(١١٣) نفس المصدر ١٣/٢٥٠ .
(١١٤) نفس المصدر ٤/١١٤ .
(١١٥) نفس المصدر ١٦/١٢ـ١٣ .
(١١٦) نفس المصدر ٤/١١٨ .

أخلاي بي شجو وليس بـــكم شجو
وكل امرىء مما بصـــاحبه خلـــو

اذاب الهوى لحمي وجسمي ومفصلي
فلم يبق الا الروح والجســد النضو

فما سمعت قبله ولا بعده غناء احسن منه ·

وغنى عمرو بن بانة الخليفة الواثق بالله يوما :

قلت حــلا فاقبلي معـــذرتي
ما كذا يجــــزي محب من أحب

فامره ان يتقدم الى الستارة وان يلقي هذا الصوت على جاريته فريدة · فلما ألقاه عليها تساءلت : هل حل أو خل ؟ فعلم عمرو انها تسأله عن صاحبتها «خل» في خفاء من الواثق بالله(١١٧) · وكانت خل جارية ربيت مع فريدة عند عمرو بن بانة ·

وغضب الواثق يوما على فريدة لكلام اخفته عنه ، فجلس في يومه للصبوح · فغناه عبدالله بن العباس الربيعي :

لا تأمني الصرم مني ان ترى كلفي
وان مضى لصـــفاء الود اعصـــار

ما ســـمي القلب الا من تقلبـــه
والرأى يعرف والاهواء اطـــوار

كم من ذوي مقـــة قبلي وقبلـــكم
خانوا فاضحوا الى الهجران قد صاروا

فاستعاده الواثق بالله مرارا ، وشرب عليه ، واعجب به ، وامر لعبدالله بألف دينار وخلع عليه(١١٨) ·

(١١٧) الاغاني ١١٥/٤ ·
(١١٨) نفس المصدر ٢٥١/١٩ ·

ويروي محمد بن الحارث قصة عن غيرة الواثق بالله من أخيه جعفر لما كان بينهما من نفـــرة وتباغض · اذ غضب ذات ليلة على جاريته فريدة وهي تغنيه وقد سحرته بجمالها ودلالها ، فتبادر الى ذهنه انها ستؤول بعد موته الى أخيه جعفر فآلمه ذلك مما دفعه الى ضربها وطردها من حجرته ، ثم مالبث ان صالحها(١١٩) ·

شـــارية :

أما شـــارية جارية ابراهيـم بن المهدي الذي دربهـــا على الغناء ، فقد اصبحت في أيام الواثق بـــالله احسن واشهر مغنية ، بحيث اخذت تنافس المغنية الشهيرة عريب المأمونية ، وغدا الناس بسر من رأى متحازبين ، قوم مع شارية وقوم مع عريب(١٢٠) ·

وكان الواثق بالله يقدر فنها ويحترمها ويسميها «ستي» وقد أوكل اليها تعليم جاريته فريدة ، فلم تأل جهدا في تعليمها أصول الغناء والضرب على العود حتى وقع بينهما خـــلاف ، فحلفت أن لا تطرح عليها بعد ذلك صوتا الا نقصت من نغمته(١٢١) ·

عـــريب :

لم تكن عريب مقربة من الواثق بالله ، رغم براعتها في الغناء · لانها كانت من مؤيدي العباس بن المأمون ضد المعتصم بالله · وقد سبق ان كشفت علاقتها بذلك أيام كان المعتصم بالله يحارب في بلاد الروم · وكانت تعرض بالواثق بـــالله منذ ان كان أميرا وتسميه الأعور الليلي(١٢٢) ، لانه كان كثير السهر · كما كانت تكايده فيما

---

(١١٩) مفصل الخبر في الاغاني ٤/١١٥ـ١١٨ ·
(١٢٠) الاغاني ١٦/١٤ ، ونهاية الارب ٥/٨٧ ·
(١٢١) الاغاني ١٦/١٢ـ١٣ ·
(١٢٢) نفس المصدر ٢١/٧٧ ·

يصوغه من الالحان ، فتصوغ في نفس الشعر لحنا وتسمى ان يكون أجود من لحنه(١٢٣) . فقد لحن الواثق بالله البيت الاتي(١٢٤) :

لم آت عامدة ذنبـــا اليك بلى
أقر بالذنب فــــاعف عن زللي

فصنعت فيه لحنا فكان أجود من لحنه ، وصنع الواثق بالله لحنا في البيت الآتي :

أشكو الى الله مــــا ألقي من الكمد
حسبي بربي ولا أشـــكو الى أحـــد

فصنعت فيه لحنا على غرار لحن الواثق بالله ، الا ان لحنها جاء أجود من لحنه كذلك(١٢٥) .

---

(١٢٣) نفس المصدر ٢١/٧٦ ، ونهاية الارب ٥/١٠٦ .
(١٢٤) نفس المصدر ٢١/٧٦ .

الفصل الثالث

مجالس المتوكل على الله

١ ـ المتوكل على الله والندماء :

أكثر المتوكل على الله من اصطناع الندماء ، فقرب اليه الادباء والشعراء والرواة . وكانت مجالسه لا تخلو من المناظرات الادبية التي كان يثيرها بين جلسائه ومنادميه . وكان نديمه الاول الذي لا يكاد يغيب عن ناظره ولا يصبر على فراقه هو الفتح بن خاقان أحد كبار القواد الاتراك وممن اوقف نفسه لخدمة الخلافة . وقد كان فطنا ذكيا ، غاية في الجـود ، زكي النفس ، حسن العشرة متوددا محببا الى كل من يكلمه(١) . ويقول المسعودي انه صار أغلب الناس على المتوكل على الله وأقربهم منه(٢) . فـكان يحضر جميع مجالس المتوكل على الله سواء للشرب والسماع ، أو للمناظرات الادبية أو للفكاهة والتندر ، حتى انه قتل معه في مجلس انسه . وقد اتخذه المتوكل أخا لما لمس فيه من مودة واخلاص ، وكان يقدمه على سائر ولده وأهله(٣) . ولمـا سافر الى دمشق كان الفتح معـادلا له على

---

(١) معجم الادباء ١١٩/٦ .
(٢) مروج الذهب ٨٦/٤ـ٨٧ .
(٣) الفهرست/١٧٥ .

جمازة[٤] • ومدحه البحتري بعديد من القصائد ، سماه فيها «أمين بني العباس» و «حسام أمير المؤمنين» و «طود الخلافة»[٥] لما كان يرى فيه من ولاء صادق للخليفة والخلافة •

كان الفتح بن خاقان أديبا كثير المطالعة ، حتى قيل ثلاثة لم ير أكثر منهم محبة للكتب والعلوم ، ومنهم الفتح ، فكان يحضر لمجالسة الخليفة ، فاذا خرج الخليفة لحاجة ما ، اخرج الفتح كتابا من كمه أو خفه واخذ يطالع فيه الى حين عودته[٦] • وكانت له خزانة كتب أشرنا اليها في البحث الخاص بدور الكتب • كما كانت له تصانيف حسنة منها كتاب اختلاف الملوك ، وكتاب الصيد والجارح ، وكتاب الروضة والزهر ، وكتاب البستان الذي يقول ابن النديم ان الذي ألفه هو محمد بن عبد ربة الملقب برأس البغل ونسبه الى الفتح[٧] • وكان الادباء والعلماء يتقربون اليه ويهدونه مؤلفاتهم • فقد قدم اليه الجاحظ كتاب التاج ، وقدم اليه العالم اللغوي محمد بن حبيب كتاب القبائل الكبيرة والايام[٨] • وذلك اعترافا برعايته لهم وعنايته بهم •

وللفتح شعر رقيق منه قوله يصف الورد[٩] :

أما ترى الورد يدعو الشاربين الى
حمراء صافية في لونها حبب

مداهن من يواقيت مركبة
على الزمرد في أجفانها ذهب

---

(٤) فوات الوفيات ٢/٢٤٦ •

(٥) راجع ديوان البحتري ـ طبعة صادر : ١/١٠٣ـ١٠٦ و ١/١١١ـ١١٣ و ١/١٩٠ـ١٩٣ •

(٦) الفهرست/١٧٥ ، ومعجم الادباء ٦/٥٦ •

(٧) الفهرست/١٧٥ـ١٧٦ •

(٨) كتاب التاج/٤ ، ومعجم الادباء ٦/٤٧٦ •

خاف المـــلال اذا طـــالت اقامتـــه
فصـــار يظهـــر أحيانـــا ويحتجب

وحدث المبرد قال : انشدني الفتح بن خاقان لنفسه(١٠) :

واني واياهـــا لكاالخمـــر والفتى
متى يستطع منهـــا الزيادة يزدد

اذا ازددت منها أزددت وجدا بقربها
فكيف احتـــراس من هوى متجـــدد

وقال ابن حمدون : لما قال الفتح هذه الابيات انشدتها المتوكل على الله فسألني عن قائلها ، فعرفته انه الفتح ، فاستحسنها(١١) ٠

وحدث علي بن الجهم قال : اني لعند المتوكل على الله ، والفتح بن خاقان حاضر ، اذ ادخل عليه نخاس ومعه جارية ، فقال له أمير المؤمنين : ما صناعة هذه الوصيفة ؟ قال : تقرأ بالألحان ٠ فقال الفتح : اقرأي لنا خمس آيات ٠ فاندفعت تقول(١٢) :

قد جـــاء نصر الله والفتـــح
وشق عنـــا الظلمة الصـــبح

خدين ملـــك ورجا دولـــة
وهمـــه الاشـــفاق والنصـــح

الليث الا انـــه ماجـــد
والغيث الا انـــه ســـمح

وكل بـــاب للندى مغلـــق
فانما مفتاحـــة الفتـــح

---

(٩) معجم الادباء ٦/١١٨-١١٩ ٠
(١٠) نفس المصدر ٦/١٢٢ ٠
(١١) نفس المصدر ٠
(١٢) نفس المصدر ٦/١٢٣-١٢٤ ٠

قال : فوالله دخل على المتوكل على الله من السرور ما قام الى الفتح فوقع عليه يقبلــــه • ووثب الفتح فقبل رجله • فأمــــر الخليفة بشرائها ، وبعث بها الى الفتح •

وقال الفتح : دخلت يومـــا الى المتوكل على الله فرأيته مطرقا متفكرا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ما هذا الفكر ؟ فوالله ما على ظهر الأرض أطيب منك عيشا ولا انعم منك بالا • فقال : يا فتح ، أطيب عيشا مني رجل له دار واسعة وزوجة صالحة ومعيشة حاضرة ، لا يعرفنا فنؤذيه ، ولا يحتاج الينا فنزدريه(١٣) •

قال البحتري : قال لي المتوكل على الله : قل في شعرا وفي الفتح ، فاني أحب أن يحيا معي ولا افتقده فيــــذهب عيشي ولا يفتقدني فيذل • فقلت(١٤) :

سـيدي انت كيف اخلفت وعــدي
وتثـــاقلت عن وفاء بعهــدي

لا ارتني الأيام فقدك يا فــــ
تح ولا عرفتك مـــا عشت فقـدي

اعظــــم الرزء ان تقــــدم قبلي
ومن الرزء ان تؤخــــر بعــدي

حسدا أن تكـــون الفا لغــــيري
اذ تفــــردت بالهــوى قبل وحدي

وقال البحتري : قد كنت عملت هذه الابيات في غلام كنت اكلف به ، فلما أمرني المتوكل بما أمر تنحيت فقلت الابيات واريته انني

---

(١٣) تاريخ الخلفاء/٣٥٣ •

(١٤) معجم الادباء ٦/١٢٠ ، وفوات الوفيات ٢/٢٤٧ ، وجاء في عجز البيت الاخير (نيل) بدلا من (قبل) •

عملتها في وقتي ، وما غيرت فيها الا لفظة واحدة ، فانني قد قلت : لا ارتني الايام فقدك ما عشت ، فجعلتها يا فتح ·

وبلغ من وفاء الفتح بن خاقان للمتوكل على الله انه رمى بنفسه عليه لما أغتالوه ليحميه من ضربات السيوف فقتل معه(١٥) ·

وكان من خاصة المتوكل على الله علي بن يحى بن أبي منصور المنجم ، وكان أديبا راوية للاشعار والاخبار ، وشاعرا محسنا ، اخذ الأدب وصنعة الغناء عن اسحاق الموصلي(١٦) · وكان قد اتصل بالفتح بن خاقان وعاونه في تأسيس خزانة كتبه · كما كانت لعلي نفسه خزانة كتب عامة ذكرنا عنها في موضوع دور الكتب · وله عدد من التصانيف ، منها كتاب الشعراء القدماء والاسلاميين ، وكتاب اخبار اسحاق بن ابراهيم ، وكتاب فن الطبيخ(١٧) · وقد قرب المتوكل على الله عليا اليه ، وكان قد قدمه اليه الفتح بن خاقان، فاغدق عليه الهبات واجزل له الارزاق . حتى قال علي : احصيت ما وصل الي من أمير المؤمنين المتوكل على الله من رزق وصلة ، فكان مبلغه ثلاثمائة ألف دينار(١٨) ·

وممن نادم المتوكل على الله أبو عبدالله أحمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن حمدون ، وكان اديبا شاعرا ومن شيوخ اللغة وقد درس عليه العالم اللغوي ثعلب · غضب عليه المتوكل على الله مرة فنفاه الى تكريت ، ثم بعث من قطع اذنه(١٩) ، ولكنه ما لبث ان اعاده الى مجلسه · ولما رضي عنه وهبه جارية يقال لها صاحب ، وكانت حسنة كاملة الأدب ، الا ان احد الخدم صدع ثنيتها فاسودت فشانها

---

(١٥) الطبري ٩/٢٢٧ ، ومروج الذهب ٤/١٢١ ·
(١٦) الفهرست/٢١١ ، وتاريخ بغداد ٢/١٢١ـ١٢٢ ·
(١٧) الفهرست/٢١١ ·
(١٨) معجم الادباء ٥/٤٦٥ ·
(١٩) الديارات ٦ـ٧ ·

ذلك عند المتوكل على الله ، فارسلها اليه وحمل معها كل ما كان لها ، وكان شيئا كثيرا(٢٠) .

ونادم المتوكل على الله كذلك الأديب الاخباري أبو العيناء محمد بن القاسم خلاد . وكان قد نشـــأ بالبصرة فطلب الحديث ودرس الادب على علمائهـــا . وكان من احفظ النـــاس وافصحهم لسانا واسرعهم جوابا واحضرهم نـادرة ، وكف بصره وقد بلغ اربعين سنة(٢١) . وكان يحضر مجلس الخليفة وقلما غاب عنه ، وقد روي عنه انه قال : قال لي المتوكل على الله قد اردتك لمجالستي . فقلت : لا أطيق ذلك ، وما أقول هذا جهلا بما لي في هذا المجلس من الشرف ، ولكني رجل محجوب ، والمحجوب تختلف اشارته ويخفى عليه ايماؤه ، ويجوز علي ان اتكلم بكلام غضبان ووجهك راض ، وبكلام راض ووجهك غضبان ، ومتى لم أميز هذين هلكت . فقال : صدقت ولكن تلزمنا . فقلت : لزوم الفـــرض الواجب ، فوصلني بعشرة آلاف درهم(٢٢) .

وعرضت جارية على المتوكل على الله ، فقال لأبي العيناء : هذه عرضت علي انها شاعرة ، فقل شيئا لتجيزه . فقال أبو العيناء : أحمدالله كثيرا . فقالت الجارية : حين انشاك ضريرا . قال : يا أمير المؤمنين قد احسنت في اساءتها(٢٣) .

وقال المتوكل على الله لأبي العيناء وقد دخل اليه : يا محمد ما بقي في المجلس أحد الا اغتابك غيري . فاجاب قائلا(٢٤) :

اذا رضيت عني كرام عشيرتي
فلازال غضبانا علي لئامهـــا

---

(٢٠) الديارات/٩ .
(٢١) تاريخ بغداد ٣/١٧٠ .
(٢٢) نفس المصدر ٣/١٧٤ .
(٢٣) البصائر والزخائر ٢/٢٦٥ .
(٢٤) الديارات/٩١ .

وقال له مرة : يا محمد الى كم تمدح الناس وتذمهم ؟ قال : ما اساءوا واحسنوا(٢٥) ٠

وكان ممن يحضر مجلس المتوكل على الله أيضا حسن بن موسى النصبي البغدادي الأديب المتوفى سنة ٢٥٠هـ ، وقد صنف عددا من كتب الغنـــاء والمغنين ، منها «كتاب الاغاني في أســـماء المغنين والمغنيات» وقد الفه للخليفة المتوكل على الله ، وكتاب الاغاني على حروف المعجم ، وكتاب مجردات المغنيات(٢٦) ٠

ذكرنا جانبا من ندماء المتـــوكل على الله ممن كانوا يحضرون مجالسه الادبية ، أو للشعر والسماع ٠ على انه كان له الى جانب ذلك ندماء يحيا معهم حياة لهو ومجون وعبث ، وعندما يكون معهم يطلق لنفسه العنان ٠ وقد اشتهر من هؤلاء أبو العبر ، وهو أبو العباس محمد بن احمد العباسي ، كان أديبا شاعرا يحضر مجالس الخلفاء منذ أيام الخليفة محمد الأمين ، فمـــال في أيام المتوكل على الله الى العبث والمجون لأنه رأى ان شعره لا ينفق بوجود البحتري وأمثاله ، ورأى الحماقة انفق ، وانفع له فاخذ في الحمق والمجون في الشعر والكلام(٢٧) ٠ وكسب بالحمق والمجون اضعاف ما كسبه كل شاعر كان في أيامه بالجد ، وحصل من المتوكل على الله على أموال جليلة(٢٨) ٠ وكان المتوكل على الله يرمي بأبي العبر في المنجنيق الى الماء وعليه قميص حرير ، فاذا علا في الهواء صاح : الطريق ، الطريق ، ثم يقع في الماء ، فيخرجه السباحون ٠ أو يجلسه على زلاقة فينحدر فيها

---

(٢٥) نفس المصدر/٨١ ٠

(٢٦) الفهرست/٢١٤ ، وهدية العارفـــين ١/٢٦٣ ومعجم الادباء ٣/٥ ، وجاء اسمه فيهما حبيش بن موسى الضبي ٠

(٢٧) تاريخ بغداد ٥/٤٠ ، وطبقات الشعراء/٢٤٢-٢٤٣ ٠

(٢٨) الاغاني ٢٣/١٩٧ ٠

حتى يقع في البركة ثم يطرح الشبكة فيخرجه كما يخرج السمك • وفي ذلك يقول أبو العبر في بعض حماقاته(٢٩) :

ويامـــــر بي الملـــــك
فيطـــــرحني في البـــــرك

ويصطـــــادني بالشـــــبك
كأني من الســـــــــمك

وقد نحا نحو أبي العبر نديـــم آخر للمتوكل على الله هو أبو العجل الذي كان من أدب الناس واحكمهم واكملهـــم عقلا ، عالما بالنحو والشعر ، عارفـــا بايام الناس واخبارهم ، وكان مـــع هذا مقترا عليه • فلما رأى ذلك تحامق وتجاهل ، وهو الذي يقول(٣٠) :

أيا عاذلي في الحمق دعني من العذل
فاني رخي البـــال من كثرة الشغل

فاصبحت في الحمقى أميرا مؤمـــرا
وما أحـــد في الناس يمكنه عـــزلي

وصـــير لي حمقي بغالا وغلمـــة
وكنت زمـــان العقل ممتطيـــا رجلي

ولما صار المتوكل على الله الى دمشق تلقاه أبو العجل راكبا على قصبة وفي احدى رجليه خف وفي الاخرى نعل ، وعليه دراعة وعلى رأسه قلنسوة • فنظر اليه المتوكل على الله فتبسم وقال : ويحك جننت بعدنا • فانشأ يقول(٣١) :

شهشـــــه على العقلـــــل
مـــــا هو من شـــــكللي

---

(٢٩) نفس المصدر ٢٣/٢٠١ •
(٣٠) طبقات الشعراء/٣٤١ •
(٣١) نفس المصدر/٤٥٣ •

صـــاحبه مفلـــولس
قليـــل ذى الحيلـــــل

قـــد اســـترحت من
اللـــوام والعذلـــل

فما ابـــالي مـــا الذي
قلت ومـــا قيـــل لي

وحمقي قد صير ذا العـــا
لـــم خـــولا للي

آمـــل ان يحمـــلني
حمـــقي على بغـــل

من عنـــد ذا الســـيد
والمنعـــم المفضـــل

أمـــير دين المـــؤ
منين المتـــوكل للي

فاستفرغ المتوكل على الله ضحكا وامر له بخلعة وحمله ، ووصلة بعشرة آلاف درهم ٠

وثمة نديم آخر للمتوكل على الله غلب عليـــه خبث اللسان والهزل هو محمد بن اسحاق الصميري الملقب بأبي العنبس ، وقد هاجى أكثر شعراء زمانه(٣٢) ٠ كان قاضيا في الصميرة فنسب اليها ٠ وكان مع استعماله الهزل عارفا باحكام النجوم وله فيه كتاب يمدحه المنجمون ٠ وعدد لـــه ابن النديم عددا من الكتب في مواضـــيع مختلفة(٣٣) ٠ وللصميري مع البحتري خـــبر طريف ماجن بين يدي المتوكل على الله ٠ اذ كان البحتري يوما ينشد المتوكل على الله قوله :

---

(٣٢) تاريخ بغداد ٢٣٨/١ ٠

عن أي ثغـــر تبتســـم
وبـــاي طرف تحتكـــم

وكان من عادة البحتري اذا انشد تشدن وتزاور في مشيه مرة جائيا ومرة القهقرى ، ويهز رأسه مرة ، ومنكبه اخرى ، ويشير بكمه ويقول احسنت والله لا يحسن احـــد ان يقول مثله • فضجر الخليفة من ذلك وقال للصميري ، اهجه على نفس الروي ، فقال أبو العنبس ارتجالا :

في أي ســـلح ترتـــطم
وبـــاي كف تلتقـــم
ادخلت رأسك في الحـــرم
وعلمت انـــك تنهـــزم

فغضب البحتري وخرج • الا ان المتوكل على الله ضحك كثيرا وأمر لأبي العنبس بعشرة آلاف درهم(٣٤) •

ويظهر من رواية أبي الفرج ان البحتري عزم اثر هذه الحادثة على الخروج الى منبج بغير اذن الخليفة ، اذ رأى ان العلم ضاع وان الأدب هلك • فنصحه أحد أخوانه الا يفعل من هذا شيئا لأن الملوك تمزح باعظم مما جرى ، واخذه الى الفتح بن خاقان ، فشكا البحتري اليه ، فقال له نحوا من ذلك وخلع عليه فسكن الى ذلك(٣٥) •

وكان المتـــوكل على الله أظهر في مجالســـه اللعب والمضاحك والهزل • فاحضر أصـــحاب الســـماجة ـ الممثلون الهزليـــون ـ واستأنس بحركاتهم • ويقول المسعودي لم يكن احد ممن سبقه من خلفاء بني العباس ظهر في مجلسه اللعب والمضاحك والهزل ، فانه

---

(٣٣) الفهرست/٢٢٢ـ٢٢٣ •
(٣٤) معجم الادباء ٦/٤٠٤ـ٤٠٦ •
(٣٥) الاغاني ٢١/٥٣ •

السابق الى ذلك ، واتبعه وزراؤه والمتقدمون من كتابه وقواده في الطرب والمجون[٣٦] • دخل اسحاق بن ابراهيم صاحب الشرطة يوما على المتوكل على الله والسماجة بين يديه ، وقد قربوا منه للقط الدراهم التي ينثرها عليهم • فلما رأى اسحاق ذلك ولى مغضبا • ولما سأله المتوكل على الله عما اغضبه ، قال : عساك تتوهم ان هذا الملك ليس له من الأعداء مثل ما له من الأولياء ، تجلس في مجلس يبتذلك فيه مثل هؤلاء الكلاب يتجذبون ذيلك وكل واحد منهم متنكر بصورة منكرة ، فما يؤمن ان يكون فيهم من احتسب نفسه ديانة أو نية فاسدة وطوية ردية . فيثب بك • فقال له : لا تغضب . فوالله لا تراني على مثلها أبدا • وبني للخليفة بعد ذلك مجلس مشرف ينظر منه الى السماجة وحركاتهم[٣٧] •

٢ ـ من مجالسه الأدبية :

كان المتوكل على الله يجلس في بعض الأحيان الى ندمائه وجلسائه من أهل الأدب، ليستمع الى اخبار الاولين وبخاصة الخلفاء السابقين، والى بعض الطرف والمناظرات الأدبية أو اللغوية والنحوية • وقد ورد ذكر الخليفة المأمون في أحد المجالس ، اذ ذكر القاضي يحيى بن اكثم فضائله ووصف علمه ومعرفته ونباهته • فسأله المتوكل على الله : كيف كان يقول في القرآن ؟ قال يحيى : كان يقول ما مع القرآن حاجة الى علم فرض ، ولا مع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وحشة الى فعل أحد ، ولا مع البيان والأفهام حجة لتعليم ، ولا بعد الجحود للبرهان والحق الا السيف لظهور الحجة • فقال المتوكل على الله : لم ارد منك ما ذهبت اليه من هذا المعنى • قال يحيى : القول بالمحاسن في المغيب فريضة على ذى النعمة • قال لـــه : فما كان يقول خلال

---

(٣٦) مروج الذهب ٤/٨٦ •

(٣٧) الديارات/٣٩ـ٤٠ •

حديثه ؟ فان المعتصم بالله كان يقول وقد انسيته • فقال يحيى : كان يقول : اللهم اني أحمدك على النعـــم التي لا يحصيها أحد غيرك ، واستغفرك من الذنوب التي لا يحيط بها الا عفوك • قال : فماذا كان يقول اذا استحسن شيئا أو يشر بشيء ؟ قال يحيى : كان يقول : ان ذكر الاء الله ونشرها وتعداد نعمه والحديث بها فرض من الله على اهلها ، وطاعة لأمره فيها ، وشكر له عليها ، فالحمد لله العظيم الآلاء السابغ النعماء بما هو اهله • فقال المتوكل على الله : صدقت هذا هو الكلام بعينه ، وهذا كله حكم ذى حنكة وعلم(٣٨) •

وكان المتوكل على الله معجبا بالامام محمد بن ادريس الشافعي وكان يتمنى لو انه ادرك ايامه ليتعلم منه • وسمع عنه انه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنـــام وهو يقول : يا أيها الناس ان محمد بن ادريس المطلبي قد صار الى رحمة الله وخلف فيكم علما حسنا فاتبعوه تهدوا • ثم قال المتـــوكل على الله : اللهم ارحم محمد بن ادريس رحمة واسعة ، وسهل علي حفظ مذهبه وانفعني بذلك • ويقول السيوطي : استفدنا من هذا ان المتوكل كان متمذهبا مذهب الشافعي ، وهو أول من تمذهب من الخلفاء(٣٩) •

وذكر العالم النحوي أبو عثمان بكر بن محمد المازني للمتوكل على الله ، وكان أخوه الواثق بـــالله معجبا بعلمه وقد اكرمه كثيرا ، فأمر بأشخاصه من البصرة الى سامرا • يقول المازني : لما دخلت اليه رأيت من العدد والسلاح والاتراك ما راعني ، والفتح بن خاقان بين يديه • وخشيت ان سئلت عن مسألة الا أجيب فيها • فلما مثلت بين يديه وسلمت قلت : يا أمير المؤمنين أقول كما قال الاعرابي :

لا تقلواهــا وادلواها دلـــوا

ان مع اليوم أخاه غدوا(٤٠)

---

(٣٨) الطبري ٩/٢٣٣ •

(٣٩) تاريخ الخلفاء/٣٥٢ •

(٤٠) القلو : السير العنيف ، والدلو السير الرفيق •

فلم يفهم عني ما اردت ، واستبردت فأخرجت • ثم دعاني بعد ذلك وطلب الي ان أنشده أحسن مرثية قالت العرب ، فانشدته قول ابي ذؤيب :

أمن المنون وريبها تتوجع ••

وقصيدة متمم بن نويرة : لعمري وما دهري بتأبين هالك ••

وقول كعب الغنوي : تقول سليمى ما بجسمك شاحبا ••

وقصيدة محمد بن مناذر : كل حي لاقى الحمام فمودى ••

وكلما انشدته قصيدة يقول ليست بشيء • ثم قال : من شاعركم اليوم بالبصرة ؟ قلت : عبدالصمد المعذل • قال : فانشدني له • فانشدته أبياتا قالها في القاضي ابن رباح ، وهي :

يا قاضية البصرة
قومي فارقصي قطرة
وقومي بروشنك
فماذا البرد والفترة
أراك قد تثيرين
عجاج القصف ياحرة
بتحذيفك خديك
وتجعيدك للطرة

فاستحسنها واستطار لها ، وأمر لي بجائزة • فجعلت أحفظ أمثالها فانشده اذا وصلت اليه فيوصلني(٤١) •

قال المبرد : حين فارقت البصرة واصعدت الى سامرا وردتها في أيام المتوكل على الله • فاتصلت ببندار بن عبدالحميد الكرخي ،

---

(٤١) معجم الادباء ٢/٣٨٦-٣٨٧ •

وكان واحد زمانه في رواية شعر العرب ، واصح الناس معرفة باللغة • وله في كل أسبوع يوم يحضر فيه مجلس المتوكل على الله • فرفع امري الى الفتح بن خاقان فوصفني للمتوكل على الله فأمر باحضاري الى مجلسه • وكان المتوكل على الله تعجبه الاخبار ، ويروي صدرا منها يمتحن بها من يراه بما يقع فيها من غريب اللغة • فلما دنوت من طرف بساطه استدناني حتى صرت الى جانب بندار • فاقبل علينا وقال : يا بندار ويا ابن يزيد ما معنى هذه الاحرف التي جاءت في هذا الخبر «ركبت الدجوجي وامامي قبيلة فنزلت ثم شربت الصباح فمررت وليس أمامي الا نجيم فرقصت أمامي فمنحت النحوص الخ ••» ؟ فبقيت متحيرا • فقال بندار : يا أمير المؤمنين في هذا نظر وروية • قال : اجلتكما الى الغد فانصرفا وباكراني غدا • فخرجنا من عنده ، فقال بندار : ان ساعدك الجد ظفر بهذا الخبر فاطلب فاني طالبة • فانقلبت الى منزلي وقلبت الدفاتر ظهرا لبطن حتى وقفت على هذا الخبر في اثناء اخبار الاعراب فحفظته • وباكرت بندار فانهضته معي وذهبنا الى مجلس المتوكل على الله • فرويت الخبر ثم فسرت الفاظه • فالتفت الى بندار وقال : ابن يزيد فوق ما وصفتم ، وامر باحضار الخازن ، وامره بأن يقول للحاجب يسهل دخولي عليه(٤٢) •

واعتاد المتوكل على الله ان يتخير لتأديب ولده مشاهير رجال اللغة والادب • فقد اختار لتأديب ابنه طلحة الملقب بالموفق عالم الأنساب والاخبار الزبير بن بكار • ولما ارسل يطلبه أمر له بعشرة آلاف درهم ، وعشرة تخوت من الثياب ، وعشرة بغال يحمل عليها رحله الى سامرا(٤٣) •

وطلب مرة الى قائده ايتاخ ان يتخذ بعض المؤدبين لولده • فأمر ايتاخ كاتبه سليمان بن وهب ان يتولى ذلك • فبعث سليمان

---

(٤٢) نفس المصدر ٢/٣٩١ـ٣٩٢ •
(٤٣) نشوار المحاضرة ٤/٢٧٧ـ٢٧٨ •

الى عدد من أدباء العصر فاحضرهم مجلسه • فجاء أبو جعفر النحوي أحمد بن عبيدالله بن ناصح ويعرف بابي عصيــــدة ، وابن قادم والأحمر وغيرهم • فقعد ابو عصيدة في آخر الناس • فلما اجتمعوا قال لهم سليمان بن وهب : لو تذاكرتم وقفنا على موضعكم من العلم واخترنا • فالقوا بينهم بيت ابن عنقاء الفزارى :

ذريني انما خطـــاي وصوتي
علي وانمـــا انفقت مـــال[44]

فقالوا : أترفع مال بانما اذا كانت بمعنى الذي ، ثم سكتوا • فقال احمد بن عبيد : هذا الاعراب ، فمـــا المعنى ؟ فاحجموا عن القول • فقيل له : فما المعنى عندك ؟ قال : اراد مالومك اياي انما انفقت مالا وليس عرضا والمال لا الام عليه • فجاءه خادم من صدر المجلس فاخذ بيـــده حتى تخطى به الى أعلاه ، وقـــال ليس هذا موضعك • فقال : لأن أكون في مجلس أرفع منه الى اعلاه أحب الي من ان أكون في مجلس أحط عنه • فاختير هو وابن قادم[45] •

٣ ـ المتوكل على الله والشعراء :

كان المتوكل على الله يحب سماع الشعر كثيرا ولاسيما اذا كان في مدحه ومدح أولاده ، ويجزل العطاء لمن يمدحه من الشعراء • وقد اتصل به من الشعراء الذين كانوا على أيامه عدد من كبارهم وعلى رأسهم البحتري وعلي بن الجهم ومــــروان بن ابي الجنوب ، واخرون غيرهم • ويظهر انه كان يعجبه ان يقول الشعر في بعض المناسبات ولكنه لم يحسن ذلك • قال جعفر بن عبدالواحد الهاشمي :

---

(٤٤) جاء البيت في نزهة الالباء/١٢٧ :
ذريني انما خطاي وصوبي — علي وان ما انفقت مال
وانه لابي غلفاء •

(٤٥) معجم الادباء ١/٢٢١ـ٢٢٢ •

دخلت على المتوكل على‌الله لما توفيت امه ، فقال لي : يا جعفر ربما قلت البيت الواحد فاذا جاوزته خلطت ، وقد قلت(٤٦) :

تذكرت لما فرق الدهر بيننـــا
فعـــزيت نفسي بالنبي محمد

فاجازه بعض من حضر المجلس بقوله :

وقلت لها : ان المنايـــا سبيلنا
فمن لم يمت في يومه مات في غد

وكان أبو عبادة الوليد الطائي البحتري عند قدومه الى سامرا اتصل بالفتح بن خاقان ومدحه واهداه كتاب الحماسة الذي صنفه • وقدمه الفتح الى الخليفة المتوكل على‌الله فاعجب بشعره وجعله من ندمائه واغدق عليه • فكرس البحتـــري شعره له ولولده ورجال دولته ، بحيث أصبح شاعر بلاط سامرا • واقام في سامرا في رعاية المتوكل على‌الله ومن جاء بعده من الخلفاء • ومن أوائل القصائد التي مدح بها المتوكل على‌الله تلك التي قالها عندما الغى الخليفة القول بخلق القرآن ، منها قوله(٤٧) :

أمير المؤمنـــين لقد ســـكنا
الى أيامـــك الغر الحســـان

رددت الدين فذا بعد ما قـــد
اراه فرقتـــين تخاصـــمان

قصمت الظالمـين بكـــل ارض
فاضحى الظلم مجهـول المـكان

---

(٤٦) تاريخ الخلفاء/٣٥٢ ، وبدائع البدائه/٦ وجـــاء فيه صدر البيت الثاني : وقلت لها : ان المنايا ••

(٤٧) القصيدة في ديوان البحتري ٤/٢٢٩٠_٢٢٩٢ •

وفي ســـنة رمت مــتجبريهم
على قـــدر بداهية عـــوان

فمـــا أبقت من « ابن دؤاد »
سوى جســد يخاطب بالمعــاني

ومدحه بقصيدة من غرر شعره وصف بها خروجه الى الصلاة يوم العيد ، ومطلعها(٤٨) :

أخفي هوى لك في الضلوع واظهـر
وألام في كمـد عليـك واعــذر

ويقول فيها :

الله مكن للخليفـــة «جعفـــر»
ملكا يحسنه الخليفة « جعفـــر »

نعمى من الله اصطفـــاه بفضلها
والله يـــرزق من يشـــاء ويقدر

فاسلم ، أمير المؤمنـــين ، ولا تزل
تعطى الزيادة في البقاء وتشـــكر

عمت فواضـــلك البريـــة فالتقى
فيها المقـــل على الغنى والمكثـــر

بالبــر صمت وانت افضـــل صائم
وبســـنة الله الرضـــية تفطر

فانعم بيوم الفطـــر عينا ، انـــه
يوم أغـــر من الزمان مشـــهر

أظهرت عز الملـــك فيه بجحفـــل
لجب يحـــاط الدين فيـــه وينصر

---

(٤٨) القصيدة في ديوان البحتري ٢/١٠٧٠-١٠٧٣ .

وعندما قتل المتوكل على الله رثـــاه بقصيدة طويلة وصديقه الفتح بن خاقان ، جاء في آخرها قوله(٤٩) :

صريع تقاضاه السيوف حشاشـة
يجود بهـــا والمـوت حمر اظافـــره

أدافع عنه باليدين ، ولـــم يكن
ليثني الاعادي اعزل الليـــل حاسره

ولو كان سيفي ساعة القتـل في يدي
درى القاتل العجـلان كيف أساوره

حـــرام علي الراح بعـــد أو أرى
دما بدم يجـري على الارض مائره

وهل يـرتجى ان يطلب الدم واتر
يد الدهر ، والموتور بالـدم واتره

آكان ولي العهـــد أضمر غـــدرة
فمن عجب ان ولي العهـد غـــادره

فلا ملي الباقي تـــراث الذي مضى
ولا حملت ذاك الدعـــاء منابـــره

أما الشاعر ابو الحسن علي بن الجهم بن بدر السامي فقد قربه المتوكل على الله واتخذه نديما • وقـــد مدحه ابن الجهم بعديد من القصائد ، منها تلـك التي استبشر بها بتوليه الخلافـــة ، وفيها يقول(٥٠) :

قالوا أتـــاك الأمل الأكبـــر
وفاز بالملـك الفتى الأزهـــر

---

(٤٩) القصيدة في ديوان البحتري ٢/١٠٤٥ـ١٠٤٩ •

(٥٠) القصيدة في ديوان علي بن الجهم/٢٦ـ٢٧ •

واكتست الدنيـــا جمالا به
فقلت قد قـــام اذا « جعفر »

ذاك الذي كانت الى ملكــــه
أبصارنا طافحـــة تنظـــر

الآن فليهن لذيـــذ الكـــرى
من كان تأميـــلا له يســـهر

يا دارت الارض الدني أصبحت
اقطارها من نـــوره تزهـــر

قد كان مشتاقـا الى خطبـــة
منك سرير الملـــك والمنبـــر

يا شهر ذى الحجة قـد اصبحت
تشـبهك الايـــام والأشـــهر

وعندما قتل المتوكل على الله رثاه متفجعا ، بقصيدة شنع فيها على مقتاليه ، وتعتبر من أطول القصائد التي قالها فيه ، وقد ختمها بقوله(٥١) :

عبيد أمـــير المؤمنين قتلتـــه
واعظم آفات الملـــوك عبيدها

أما والمنايا ما عمرن بمثله الـ
قبور وما ضمت عليه لحودها

أتتنا القوافي صارخات لفقده
مصلمة أرجازهـــا وقصيدها

---

(٥١) القصيدة في ديوان علي بن الجهم/٥٦ـ٦٤ .

ومن الشعراء الذين اشـــتهروا لتقربهم من الخليفة المتوكل على الله مروان بن ابي الجنوب وعندما تولى المتوكل على الله الخلافة كان مروان منفيا باليمامة من أيام الواثق بالله ، فبعث الى قاضي القضاة أحمد بن أبي داود بقصيدة مدحه فيها وهجا ابن الزيات ، وكان قد مات في حبس المتوكل على الله ، فلما ذكـــره ابن ابي دواد للخليفة أمر بأن يحمل الى سامرا . فقدم مروان على المتوكل على الله وانشده قوله(٥٢) :

رحل الشباب وليته لم يرحـل
والشيب حل وليته لـــم يحلل

فلما بلغ الى قوله :

كانت خلافة جعفـــــر كنبوة
جاءت بــلا طلب ولا بتمحل

وهب الاله لك الخلافــة مثلما
وهب النبـــــوة للنبي المرسل

أمر بخمسين ألف درهم :

ومما مدح به مروان المتوكل على الله قوله(٥٣) :

بدولة جعفر حمــد الزمـــــان
لنا بك كـــل يوم مهـــرجان

جعلت هديتي لك فيـــه وشيا
وخير الوشي مـــا نسج اللسان

ومن الشعراء الآخرين الذين امتدحوا المتوكل على الله ابراهيم بن العباس الصولى ، الكاتب الشـــاعر ، وكان يتولى ديوان زمام

---

(٥٢) الاغاني ٢٣/٢١٠ .
(٥٣) العقد الفريد ٦/٢٨٦ .

النفقات في عهد المتوكل على الله(٥٤) • وكان الخليفة معجبا باسلوبه في الكتابة وبمعانيه في الشعر ، فشمله برعايته وجعله من ندمائه • ومن بديع شعر ابراهيم الصولي في المتوكل على الله ما قاله يوم عقد الخليفة ولاية العهد لأوليائه الثلاثة ، وقد استأذنه في الانشاد فاذن له فقال(٥٥) :

أضحت عرى الاسـلام وهي منوطة
بالنصر والاعـــــزار والتأييـــد

بخليفــة من هاشـــم وثلاثـــة
كنفوا الخلافـــة من ولاة عهـــود

قمر توافت حولـــه اقمــــاره
فحففن مطلـــع ســـعده بسعوده

رفعتهـم الأيـــام وارتفعوا بـــه
فسعوا باكـــرم انفس وجـــدود

فاستحسن المتوكل على الله ذلك منه وأمر له بمائة ألف درهم •

وكان من الشعراء البارزين في ايـــام المتوكل على الله الشاعر الخليع الحسين بن الضحاك بن ياسر • الا انه كان قد تقدم به العمر وضعف بصره • وكان المتـــوكل على الله معجبا بشعره ، وقال عنه مرة : هو عندي أشـــعر أهل زماننـــا واملحهم مذهبا واظرفهم نمطا(٥٦) • فطلب اليه ان يلازمه وينادمه ، فلم يستطع لكبر سنه • وقد بلغ الحسين ان أحد جلساء الخليفة قال عنه : هو يطيق الذهاب الى القرى والمواخير والسكر فيها ويعجز عن خدمة الخليفة • فرفع الى ابن حمدون نديم الخليفة بابيات وسأله ان يوصلها اليه • فلما أوصلها ابن حمدون قال للخليفة : ان لو أطاق خدمة امير المؤمنين

---

(٥٤) الطبري ٩/١٦٣ •
(٥٥) الاغاني ١٠/٦٤ـ٦٥ •
(٥٦) الاغاني ٧/١٧٠ •

لكان اسعد بها • فقال له الخليفة : صدقت • وامر لابن الضحاك بعشرين ألف درهـم حملها ابن حمدون اليـــه • وكانت الابيات هي(٥٧) :

أمـــا في ثمانـــين وفيتهـــا
عذير وان انـــا لم اعتـــذر

فكيف وقد جزتهـا صـــاعدا
مع الصاعدين بتسع اخـــر

الى أن يقول :

قـــد بسط الله لي عـــذره
فمن ذا يلـــوم اذا ما عـــذر

واني لفي كنف مغـــدق
وعـــز بنصر ابي المنـــتصر

يبارى الرياح بفصـــل السـما
ح حـــتى تبلـــد او تنحسر

له أكـــد الرحى ميراثـــه
ومن ذا يخـــالف وحي السور

وما للحســـود واشـــياعه
ومن كذب الحق الا العجـــر

وقال الحسين في رثاء المتوكل على الله(٥٨) :

---

(٥٧) نفس المصدر ٧/٢٢٥ـ٢٢٦ •

(٥٨) اشعار الخليع/١١٣ ، ومروج الذهب ٤/١٢٤ ، وفيه البيتان الاخيران فقط ، والطبري ٩/٢٣٠ وفيه ان ابا الوارث قاضي نصيبين قال : رأيت في النوم آتيا يقول : يا نائم العين الخ •• مع تغيير في بعض الكلمات •

يا نائم الليل في جثمان يقظان
ما بال عينك لا تبكي بتهتان

ان الليالي لـم تحسن الى أحد
الا اساءت اليه بعـد احسان

اما رأيت خطوب الدهر ما فعلت
بالهاشمي وبالفتـح بن خاقان

وكانت فضل جارية المتوكل على الله شاعرة ، وقد قالت بعض الشعر فيه • وهي من مولدات البصرة ، كانت حسنة الوجه والقوام، على جانب كبير من الفصاحة وسرعة البديهة ، وقد طبعت على قول الشعر • وقد أهداها الى الخليفة المتوكل على الله أحد أعيان الدولة محمد بن الفرج الرخجي • فلما أدخلت عليه قال لها : أشاعرة انت يا فضل ؟ قالت : كذا يزعم من باعني واشتراني • فضحك وقال : انشدينا شيئا من شعرك ، فقالت على البديهة(٥٩) :

استقبل الملـك أمام الهـدى
عـام ثـلاث وثلاثينـا

خلافـة افضت الى جعفـر
وهو ابن سبع بعـد عشرينا

انا لنرجـو يا امام الهـدى
أن تملـك الناس ثمانينـا

فقال الخليفة للشاعر علي بن الجهم ، وكان حاضرا مجلسه : قل بيتا من الشعر لتجيزه • وكان ذلك امتحانا لها • لأن القدرة على النظم في الحال ، والاجازة ، أي اكمال الشعر الناقص المعنى ، يدل

(٥٩) الاغاني ١٩/٣٠٢ ، والمنتظم ٥/٧ ، مع بعض التغيير •

على الموهبة الشعرية وقوة البديهة وسرعة الفهم والاحاطة بالمعنى ٠ فقال ابن الجهم(٦٠) :

لاذ بهـا يشـتكي اليهـا
فلم يجـد عندهـا مـلاذا

فاطرقت فضل هنيهة ، ثم قالت :

ولم يـزل ضارعـا اليهـا
تهطـل اجفانـه رذاذا

فعاتبـوه فـزاد عشـقا
فمـات وجـدا فكان مـاذا

فطرب المتوكل على الله وقال : احسنت وحياتي يا فضل ، وأمر لها بألفي دينار ٠

وكانت فضل تساجل الشعراء والادباء ٠ ومما قالته في المتوكل على الله(٦١) :

قد بـدا شبهك يا مـو
لاي يحـدو بالظـلام

قـم بنـا نقض لبانا
ت اعتنـاق والتثـام

قبـل أن تفضحنا عـو
دة أرواح النيـام

ومما قالته بعد مقتل المتوكل على الله ، وقد سألها أحدهم صبيحة اغتياله عما نزل بهم البارحة ، فقالت وهي تبكي(٦٢) :

---

(٦٠) المنتظم ٥/٧ ، والاغاني ١٩/٣١٢-٣١٣ وفيه ان الخليفة اجازها بمائتي دينار ٠

(٦١) الاغاني ١٩/٣٠٧ ، وفوات الوفيات ٢/٢٥٤-٢٥٥ ، مع بعض التغيير ٠

(٦٢) الاغاني ١٩/٣١٠ ، والزحل : الثار ٠

ان الزمان بزَحل كان يطلبنا
ما كان أغفلنا عنـــه واسهانا

مالي وللدهر قد اصبحت همته
مالي وللدهر ما للدهر لاكانا

٤ ـ المتوكل على الله ومجالسه الغنائية :

نهج المتوكل على الله مع المغنين نهج أبيه وأخيه ، فرعى أرباب الموسيقى والغناء واغدق عليهم ، وشجعهم على الارتقاء بهذا الفن الذي تهفو اليه الأرواح وتطيب له النفوس • وقد ألف له حسن بن موسى النصبي كتاب الاغاني ، ذكر فيـــه أشياء لم يذكرها اسحاق الموصلي وعمرو بن بانة في كتابيهما ، وضمنه كل طريف وغريب من الأغاني وأسماء المغنين والمغنيات قبل الاسلام وبعده(٦٣) • وكان جنان ضارب العود وزنام الزامر لا نظـــير لهما في فنهما ، واذا ما اجتمعا على الضرب والزمر احسنا وفتنا واعجبا ، وقد انقطعا الى المتوكل على الله لا يغيبان عن مجلس غنائه ، وكان لا يشرب الا على سماعهما ، وفيهما قال البحتري(٦٤) :

هل العيش الا ماء كـــــرم مصفق
يرقرقـــه في الكأس مـــاء غمـــام

وعود بنـــان حين ساعد شـــدوه
على نغـــم الالحان نـــاي زنام

وكان المتوكل على الله ، رغم سرعـة تبدل مزاجه ، محبا للغناء مشوقا الى ســماعه • ويظهر انه كان يود لو انه يحســـن التلحين والغناء مثل أخيه الواثق بالله ، الا انه لم تكن له تلك القابلية • قال

---

(٦٣) الفهرست/٢١٤ •
(٦٤) ثمار القلوب/١٥٥ •

علي بن الجهم انصرفت ليلة من عند المتوكل على الله ، فلما دخلت منزلي جاءني رسوله يطلبني فراعني ذلك • فرجعت اليه وجلا ، فادخلت عليه وهو في فراشه • فلما رآني ضحك ، فايقنت بالسلامة • فقال : يا علي أنا مذ فارقتك ساهر وقد خطر على قلبي هذا الشعر الذي كان يغني فيه أخي قول الشاعر : قلبي الى ماضرني داعي •• فحرصت أن أعمل مثل هذا فلا يجيئني ، أو أن أعمل مثل اللحن فما أمكنني ، فوجدت في نفسي نتصا • فقلت : يا سيدي كان أخوك خليفة يغني وانت خليفة لا تغني • فقال : قد والله أهديت الى عيني نوما ، اعطوه ألف دينار • فاخذتها وانصرفت(٦٥) •

ودخل المتوكل مرة الى احدى جواريه وهي تغني :

أمن قطـر النـدى نظمت
ثغـرك أم من البـرد
وريقـك من سلاف الكـر
م أم من صـفوة الشـهد
أيـا من قـد جـرى مني
كمجـرى الروح في الجسـد
ضميرك شـاهدي فيمـا
أقاسـيه من الكمـد

فقال لها : ويحك لمن هذا الصوت ؟ قالت : أخذته من مخارق • قال : فالقيه على الجواري جميعا ، ففعلت • فلما اخذته عنها أمر باخراجهن اليه ودعـا بالنبيذ وأمر بالا يغنينه غيره ثلاثـة أيام متوالية(٦٦) :

وكان اسحاق الموصلي كبير مغني عصره قد كف بصره في أواخر أيام الواثق بالله ، واعتزل في منزله ببغداد ، فطلب المتوكل على الله

(٦٥) الاغاني ٨/٣٦٣ •
(٦٦) الاغاني ٨/٣٤٩ـ٣٥٠ •

احضاره الى سامرا • فلما دخل عليه رحب به واجلسه أمام سريره على مخدة اكراما له وتقديرا لمنزلته • فغناه اسحاق بشعره(٦٧) :

ما علة الشيخ عينـــاه باربعة
تغر ورقان بدمـــع ثم ينسكب

فطرب المتوكل على الله وأمر له بمائة ألف درهم •

وخرج المتوكل على الله يوما الى رقـــة بوصرا من قرى بغداد ، وكان يستطيبها لكثرة طيورها المغردة ، وكان معه اسحاق الموصلي فغناه :

أأن هتفت ورقاء في رونق الضحى
على فنن غض الشـــباب من الرند

بكيت كما يبكي الحزين صـــــبابة
وشـــوقا وتابعت الحنين الى نجـــد

فسر الخليفة وقال له : يا اسحاق هذه اخت فعلتك مع الواثق بالله لما غنيته :

طربت الى الاحيبيـــة الصغار
وذكرني الهوى قـــرب المزار

فكم اعطاك لما اذن لك بالانصراف الى أهلك ؟ قال : مائة ألف درهم • فأمر له بمثلها واذن له بالانصراف • وكان هذا آخر عهده به ، اذ توفي اسحاق بعد ذلك بشهرين • ولما بلغ المتوكل على الله خبر نعيه حزن عليه وقال : ذهب صـــدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته •

---

(٦٧) الاغاني ٥/٤١٤ ، ونهاية الارب ٥/٨-٩ وفيه ان الخليفة امر له بمائة الف دينار •

وكان عبدالله بن العباس الربيعي الشاعر المغني من المقربين الى المتوكل على الله وقد بره ووصله كثيرا • قال عبدالله : سمع المتوكل على الله لحني في شعري الذي امتدحته فيه(٦٨) :

الا اصبحاني يـــوم السعانين
من قهـــوة عتقت بكركـــين

عند انـــاس قلبي بهـــم كلف
وان تولـــوا دينا غـــير ديني

قد زين الملك جعفـــر وحكى
جـــود ابيه وبـــأس هارون

وأمن الخائف البـــرى كما
أخاف أهل الالحـــاد في الدين

فدعاني ، فلما جلست في مجلس المنادمة طلب الي أن أغنيه هذا الصوت • فغنيته ، فقال لي : يا عبدالله أين غناؤك في الشعر في أيامي هذه من غنائك في :

أماطت كساء الخزعن حر وجهها
وأدنت على الخدين بردا مهلهلا

ومن غنائك :

أقفـــر بعـــد خلـــة سرف
فالمنحنى فالعقيـــق فالجـــرف

ومن سائر صنعتك المتقدمـــة التي استفرغت محاسنك فيها • فقلت له : يا أمير المؤمنـــين اني كنت اتغنى في هذه الأصوات ولي شباب وطرب وعشق ، ولورد علي لغنيت مثل ذلك الغناء • فاستحسن قولي وأمر لي بجائزة(٦٩) •

---

(٦٨) الاغاني ١٩/٢٣٦ـ٢٣٧ •
(٦٩) الاغاني ١٩/٢٣٦ـ٢٣٧ •

وغاضبت قبيحة المتوكل على الله وهاجرته . فجلس مجلسا للغناء ، وحضر الجلساء والمغنون وفيهم عبدالله بن العباس الربيعي، وكان قد عرف الخبر فقال هذا الشعر وغنى فيه(٧٠) :

لست مني ولست منك فدعني
وامض عني مصاحبا بسلام

لم تجد علة تجني بها الذنـ
ـب فصارت تعتل بالأحلام

فاذا شكوت ما بي قالت
قد رأينا خلاف ذا في المنام

فطرب المتوكل على الله وأمر له بعشرين ألف درهم ، وقال له : ان في حياتك يا عبدالله لأنسا وجمالا وبقاء للمروءة والظرف . وفضله على بقية المغنين عندما غناه ذات يوم :

أحب الينا منك دلا وما يرى
له عند فعلي من ثواب ولا أجر

فطرب وقال له : أحسنت والله يا عبدالله ، أما والله لو رآك الناس كلهم كما أراك لما ذكروا مغنيا سواك أبدا(٧١) .

ودخل عبدالله الى المتوكل على الله في أواخر شعبان ، فانشده :

عللاني نعمتما بمدام
واسقياني من قبل شهر الصيام

حرم الله في الصيام التصابي
فتركناه طاعة للأمام

---

(٧٠) نفس المصدر ١٩/٢٣٧-٢٣٨ .
(٧١) نفس المصدر ١٩/٢٥٢ .

أظهر العدل فاستنار بـــه الد
ين واحيـا شرائـــع الاســلام

فأمر المتوكل على الله بالطعام فاحضر ، وبالندماء والجلساء ، فاتى بهم . فاصطبح فغناه عبدالله في هذه الابيات . فأمر له بعشرة آلاف درهم(٧٢) .

وقال عبدالله الربيعي كنت مقيما بسر من رأى وقد ركبني دين ثقيل أكثره عينة وربا ، فقلت في المتوكل على الله :

اسقياني ســـحرا بالكبره
ما قضى الله ففيـه الخيره

أكرم الله الامام المرتضى
وأطـال الله فينا عمـــره

ان اكن أقعدت عنه هكذا
قـدرالله رضـــينا قدره

سره الله وأبقـــاه لنـــا
ألف عـام وكفانا الفجره

وبعثت بالأبيات اليـه ، وكنت مستترا من الغرمـــاء . فقال لعبيدالله بن يحيى : وقع له : من هؤلاء الفجرة الذين استكفيت الله شرهم ؟ فقلت : المعينون الذين قد ركبني لهم أكثر مما اخذت منهم من الدين بالربا . فأمر عبيدالله ان يقضي ديني ، وأن يحتسب لهم رؤوس أموالهم ويسقط الفضل ، وينادى بذلك في سر من رأى حتى لا يقضى أحد أحدا الا رأس ماله . وســـقط عني وعن الناس من الأرباح زهاء مائة ألف دينار ، كانت أبياتي هذه سببها(٧٣) .

(٧٢) نفس المصدر ١٩/٢٥٦ .
(٧٣) الاغاني ١٩/٢٥٧ .

ومن المغنين المحسنين الذين غنوا للمتوكل على الله المغني البغدادي الملقب بالمسدود ، لأنه كان مسدود أحد المنخرين ومفتوح الآخر . وقد وهب صوتا شجيا وقدرة فائقة على تلحين الأغاني ولاسيما الاهازيج . وكان كثير التباهي على ما وهب من قدرة على التلحين والغناء ، ويقول : لو كان منخري الآخر مفتوحا لأذهلت بغنائي أهل الحلوم وذوي الألباب ، وشغلت من سمعه عن أمر دينه ودنياه ومعاشه ومعاده(٧٤) . وكان بالاضافة الى ذلك حاضر النادرة، جريئا في الاجابة ، مما كان يوقعه ببعض المآزق . فقد غضب الواثق بالله عليه لكلمة قالها فيه فأمر بنفيه من سامرا الى عمان . ثم ما لبث أن عفا عنه(٧٥) . ومن أجوبته القاسية انه غنى بين يدي المتوكل على الله مرة ، فاسكته وقال لمغن آخر أن يغني ، فقال المسدود : أنا أحتاج الى مستمع . فلم يفطن الخليفة الى ما قال ، والا كان عاقبه على قوله(٧٦) .

وكان المسدود من جملة المغنين الذين غنوا في دعوة اعذار المعتز بن المتوكل على الله(٧٧) . ولما طال حبس ابراهيم بن المدبر ، وهو من رؤساء الدواوين في سامرا ، ولم يجد حيلة للخلاص ، عمل أبياتا من الشعر وانفذها الى المسدود وسأله أن يعمل فيها لحنا ويغني بها المتوكل على الله ، واذا سأله عن قائلها عرفه انها له . ففعل المسدود ذلك . ولما سأله المتوكل على الله - قال : لعبدك ابراهيم بن المدبر ، فذكره المتوكل على الله واطلقه من سجنه ، والأبيات هي(٧٨) :

بأبي من بات عندي
طارقا من غير وعد

---

(٧٤) نفس المصدر ٢٠/٢٨٨ .
(٧٥) نفس المصدر ٢٠/٢٨٩-٢٩٠ .
(٧٦) نفس المصدر ٢٠/٢٩١ .
(٧٧) الديارات/١٥٤ .
(٧٨) الفرج بعد الشدة ١/١٢٣ .

بات يشكو شدة الشـــو
ق واشكو فـــرط وجدي

وتجنى فبـكي فانهـــل
در فـــــــــوق ورد

فيـــد تحت يـد طـــو
را وخـــد فـــوق خـد

ومن المغنين المشهورين في أيام المتوكل على الله عمرو بن بانة بن سليمان • وبانة اسم أمه وكان ينسب اليها • وأبوه من رجال الدولة وأحد كتابها ، فنشأ هو على حب الشعر والغناء فصار مغنيا مجيدا • وقد وضع كتابـا فن الأغاني والمغنين(٧٩) • وكان منزلـــه ببغداد ويتردد على سامرا •

وقد برع ابن بانة في محاكاة من يأخذ عنهم وتقليدهم • الا انه كان يذهب مذهب ابراهيم بن المهدي في تغيير الاصول(٨٠) • ورغم انه أخذ الغناء عن اسحاق الموصلي فقـــد خالفه في الأداء وتعصب عليه • وقال له مرة في جدل جرى بينهما : ليس مثلي يقاس بمثلك لأنك تعلمت الغناء تكسبا ، وتعلمته انا تطربا ، وكنت أضرب لئلا أتعلمه ، وكنت تضرب حتى تتعلمه(٨١) •

واختص عمرو بن بانة بالمتوكل على الله الذي كان يأنس به في مجالسه الغنائيـــة ، وجعله من ندمائه • وطلب عمرو يومـــا من الخليفة أن يأمر لـــه بدار لضيق منزله • فامر الخليفة وزيـــره عبيدالله بن يحيى بان يبتاع له منزلا يختاره • وكان هذا في أواخر شعبان ، وقد شغل عبيدالله برمضـــان ، فلم يتم شراء المنزل • ولما

---

(٧٩) وفيات الاعيان ١٤٨/٣ •
(٨٠) الاغاني ٢٦٩/١٥ •
(٨١) نفس المصدر ٢٧٠/١٥ •

آهل شوال حضر ابن بانة مجلس المتـــوكل علىالله فغناه من شعره وتلحينه :

ملاك ربي الأعيـــاد تخلقهـــا
في طول عمر يـــا سيد الناس

دفعت عن منـــزل أمرت بــــه
فانني عنـــه مباعـــد خـــاس

فمـــــر بتســـــليمه الي على
رغم عـــدوى بحرمـــة الكاس

أعوذ بـــالله والخليفـــة ان
يرجـــع ما قلتـــه عـــن راس

فدعا الخليفة بعبيدالله وعاتبه لعدم ابتياع المنزل الذي أمره به • فاعتذر عبيدالله بدخول الصوم وتشعب الأعمال • فتقدم اليه ان لا يؤخر ابتياع ذلك اليه • فابتاع له دارا في سر من رأى ، وفيها توفى عمرو[٨٢] •

لقد سبقت الاشارة الى المغني أبي حشيشة الذي غنى لخلفاء سامرا • وكان المتـوكل علىالله يستخفه ويحب غنـــاءه ، وكانت الأصوات التي يشتهيها عليه عديدة منها[٨٣] :

أطعت الهـوى وخلعت العذارا
وباكرت بعـــد القراح العقارا

ونازعك الكـــأس من هاشـــم
كريـــم يحب عليهـــا الوقارا

فتى فـــرق الحمد أموالـــه
يجر القميص ويرخى الازرارا

---

(٨٢) نفس المصدر ١٥/٢٧٤ـ٢٧٥٠

(٨٣) الأغاني ٢٣/٧٩ـ٨٠ ، ونهاية الارب ٥/٣٧ ٠

رأى الله جعفـــر خير الأنـــام
فملكــــه ووقــــاه الحـــذارا

وكان عثعث المغني الاسود مملوكا لمحمد بن يحيى بن معاذ فظهر منه جودة طبع وحسن أخذ وأداء . فعلمــــه الغناء وأدبه ، فبرع في صناعته . وصار من المغنين الذين اختص بهم المتوكل على الله . اذ كان أثيرا عنده ، يأكل بين يديه ، ولا يغيب عن مجالسه الغنائية . وكان حاضرا في المجلس الذي قتل فيه المتوكل على الله ، وقد اصابته ضربة في رأسه ، وهو من جملة من يروى عنهم الطبري كيفية قتل المتوكل على الله(٨٤) .

قال عثعث : دخلت يوما على المتــــوكل على الله وهو مصطبح على البركة وابن المارقي يغنيه قوله :

أقاتلتي بالجيد والقــد والخد
وباللون في وجه أرق من الورد

وقد طرب واستعاد الصوت مرارا وأقبل عليه . فصنعت هزجا في شعر البحتري في وصف البركة :

اذا النجوم تــراءت في جوانبها
ليلا حسبت ســماء ركبت فيها
وان علتها الصبا ابدت لها حبكا
مثل الجواشن مصقولا حواشيها
وزادها زينة من بعـــد زينتها
ان اسمه اليوم يدعى من أساميها

ولما سكت ابن المارقي اندفعت بالغنـــاء . فأقبل علي وقال لي : أحسنت وحياتي ، أعد . فاعدت فشرب قدحا . ولم أزل أغنيه

---

(٨٤) الطبري ٩/٢٢٤-٢٢٧ .

ويشرب حتى اتكأ ، ثم قال للفتح : بحياتي أدفع اليه الساعة ألف دينار ، وخلعة تامة ، وأحمله على شهري فاره بسرجه • فانصرفته بذلك جميعا(٨٥) •

٥ ـ المتوكل على الله وجواريه المغنيات :

عرف المتوكل على الله بكثرة جواريه ، الا انه اختص ببعضهن ممن امتزن بجمال فائق ، أو أدب بارع ، أو غناء جميل • وكانت محبوبة من جواريه المفضلات لديه • وهي من مولدات البصرة وكانت شاعرة مطبوعة سريعة الخاطر ، وجميلة تغني غناء مقبولا • وقد أهداها عبدالله بن طاهر الى الخليفة المتوكل على الله في جملة من الجواري • فصارت أقرب جواريه الى نفسه فكان يجالسها أو يجلسها خلف الستارة اذا جلس مجلس شراب •

قال المتوكل على الله يوما لشاعره علي بن الجهم انه دخل على زوجته قبيحة فوجدها قد كتبت اسمه على خدها بغالية المسك ، وطلب اليه ان يصف ذلك شعرا ، وكانت محبوبة حاضرة • فدعا ابن الجهم بدواة واخذ يفكر فيما يقول • فانبرت تقول على البديهة :

وكاتبة بالمسك في الخد جعفرا
بنفسي محط المسك من حيث أثرا

لئن كتبت في الخد سطرا بكفها
لقد اودعت قلبي من الحب اسطرا

فيا من لمملوك لملك يمينه
مطيع له فيما أسر وأظهرا

(٨٥) الاغاني ٢١٣/١٤ •

ويا من مناهـا في السريرة جعفـــر

سقى الله من سقيا ثنايـــاك جعفرا

فوجم علي بن الجهم لا ينطق بحرف • وأمر المتوكل على الله بان تبعث الابيات الى عريب المغنية لتلحنها حتى يغنى فيها(٨٦) •

وقال علي بن الجهم : كنت عند المتوكل على الله وهو يشرب ، فدفع الى جاريته محبوبة تفاحة مغلفـــة فقبلتها ، وانصرفت من حضرته • ثم بعثت اليه مع جارية لها رقعة فيها شعر لها في التفاحة المذكورة ، هو :

يا طيب تفاحـــة خلوتُ بهـــا

تشعل نار الهـــوى على كبدي

أبكي اليهـــا واشـــتكى دنفي

ومـــا الاقي من شدة الكمـــد

لـــو ان تفاحـــة بكت لبكت

من رحمتي هـــذه التي بيدي

ان كنت لا ترحمين مـــا لقيت

نفسي من الجهد فارحمي جسدي

فاستظرفها الحاضرون ، وأمر المتوكل على الله أن يغنى في هذا الشعر صوت شرب عليه بقية يومه(٨٧) •

وغضب المتوكل على الله مـــرة على جاريته محبوبة وهاجرها • فحاولت أن تترضاه فقالت الأبيـــات الاتية واخذت تغنيها وهي في حجرتها(٨٨) :

---

(٨٦) الاغاني ٢٢/٢٠٠ـ٢٠١ •
(٨٧) نفس المصدر ٢٢/٢٠١ •
(٨٨) نفس المصدر ٢٢/٢٠٢ •

أدور في القصر لا أرى احـــدا
أشـــكو اليـــه ولا يكلمـــني

حـــتى كأني ركبت معصـــية
ليست لهـــا توبـــة تخلصني

فهل لنـــا شـــافع الى ملـــك
قد زارني في الكرى فصالحني

حتى اذا ما الصباح لاح لنـــا
عـــاد الى هجره فصـــارمني

فلما سمعها المتوكل على الله صالحها ·

ولما قتل المتوكل على الله حزنت عليه محبوبة حزنا شديدا وقالت فيه مرات عديدة ، منها قولها(٨٩) :

أي عيش يطـــيب لي
لا أرى فيـــه جعفـــرا

ملكـــا قـــد رآتـــه عيني
قتيـــلا معفـــرا

كـــل من كان ذاهيـــا
م وحـــزن فقـــد بـــرا

غـــير محبوبـــة التي
لو ترى المـــوت يشترى

لأشـــترته بملكهـــا
كـــل هـــذا لتصبرا

ان مـــوت الكئيب
اصـــلح من أن يعمـــرا

---

(٨٩) الاغاني ٢٢/٢٠٢ ·

ويقال انها غنت القائد وصيف هذا الشعر فاشتد ذلك عليه فامر بقتلها • الا ان القائد بغا استوهبها منه فوهبها له فاعتقها • فخرجت من سامرا الى بغداد ، ثم خمل ذكرها •

وكانت المغنية فريدة أثيرة عند الواثق بالله • فلما مات تزوجها المتوكل على الله • وكان يريدها ان تغنيه فتأبى وفاء للواثق بالله • فاقام يوما على رأسها خادما أمره بضربها أو تغني • فاضطرت على الغناء له ، واندفعت تغني :

مقيم بالمجـــازة من قنـــوني
واهلك بالا جيفـــــر فالثماد

فلا تبعد فكـــل فتى ســـيأتي
عليه الموت يطـــرق أو يغادى

ثم ضربت بالعود الأرض ، ومرت تعـدو وهي تندب الواثق بالله(٩٠) •

وتجادلت عريب وخشف الواضحية في غناء علية بنت المهدي بحضرة المتوكل على الله • فقالت خشف : ان لها ثلاثة وسبعين صوتا • فقالت عريب : هي اثنان وسبعون صوتا • فقال المتوكل على الله : غنيا غناءها • فغنتاه ولم تزالا تغنيـــان غناءها حتى بلغتا اثنين وسبعين صوتا • وقد انسيت خشف الصـــوت الثالث والسبعين • فاسقط في يدها وتغلبت عريب • فلما كان الليل رأت خشف علية في نومها تقول لها ان الصواب معها وذكرتها بالصوت الذي كانت أنسيت ان تغنيه وهو(٩١) :

بني الحب على الجـــور فلو
انصف المعشوق فيه لسمج

---

(٩٠) نفس المصدر ٤/١١٨ ، والمجاز وقنوني والاجيفر والثماد مواضع في جزيرة العرب •

(٩١) نفس المصدر ١٠/١٧٤ـ١٧٥ •

ليس يستحسن في حــكم الهوى
عاشـــق يحسن تأليف الحجــج

لا تعيبن من محب ذلــــــــة
ذلة العاشق مفتـــاح الفــرج

وقليل الحب صرفــا خالصــا
لك خـــير من كثير قـــد مزج

فبكرت خشف الى المتوكل على الله وذكـرت له القصة ، فقال : رحم الله علية فما تركت ظرفها حية وميتـــة • واجاز المغنية خشفا جائزة سنية •

وكان المتوكل على الله يقول : انا ملك السلاطين ، والورد ملك الرياحين ، فكل منا أولى بصاحبه • وحرم الورد على جميع الناس واستبد به ، وقال انه لا يصلح للعامة ، فـــكان الورد لا يرى الا في مجلسه • وكان في أيام الورد يلبس الثياب الموردة ، ويفرش الفرش المورد ، ويورد جميع الآلات • واراد أن يشرب مرة على الورد الا انه لم يكن موسمه • فأمر بان تضرب لـــه دراهم رقيقة وزن كل منها حبتان وصبغت بالحمرة والصفرة والسواد ، وترك قسم منها على حالها • وتقدم الى الخدم والحواشي ان يعد كل منهم قباء وقلنسوة على خلاف لون قباء الآخر وقلنسوتـــه ، ففعلوا • ثم عمد في يوم تحركت فيه الريح الى الجلوس فنصبت له قبة واسعة اصطبح فيها مع ندمائه • ولبس الخدم الكسوة التي اعدوها • فأمر المتوكل على الله بنثر الدراهم كما ينثر الورد ، فنثرت بالتدريج ، فكانت الريح تحملها فتقف بين السماء والارض ، ويكون لها منظرا جميل مبهج • فكان ذلك اليوم من أحسن أيام أنسه وأظرفها •

---

(٩٢) الديارات /١٦٠ ، والذخائر والتحف/١٢١ـ١٢٢ •

الفصل الرابع

مجالس خلفاء سامرا الآخرين

١ ـ المنتصر بالله والشعر والغناء :

المنتصر بالله والشعراء :

لم يكن المنتصر بالله يحسن قول الشعر ، وما قاله منه على قلته كان ركيكا في تركيبه ، سطحيا في معناه ، ومما ينسب اليه قوله(١) :

متى ترفع الأيام من قد وضعنه
 وينقاد لي دهـــر علي جموح

أعلل نفسي بالرجــاء وانني
لأغدو على مــا ساءني واروح

ويظهر من معنى هذين البيتين انه قالهما في أواخر أيام أبيه المتوكل على الله ، عندما أخذ يسيء معاملته ويهينه ويسمعه ما يكره، بحيث بات يتمنى الخلاص منه وان يصير الأمر اليه ٠

وكان يزيد المهلبي أقرب الشعراء الى الخليفة المنتصر بالله ، وهو شاعر مجيــد من بني المهلب بن ابي صفرة ٠ وقــد صاحب

---

(١) خلاصة الذهب المسبوك/٢٢٧ ٠

المنتصر بالله منذ ان كان أميرا وكان منقطعا اليه • وصادف أن رآه المتوكل على الله عند ابنه وسمع كلامه وشعره فاعجب به واستحسنه وجعله من جلسائه • واراد المنتصر بالله من المهلبي ان يلازمه كما كان ، فلم يقدر على ذلك لملازمته مجلس الخليفة ، فعتب عليه • فلما افضت اليه الخلافة استأذنه المهلبي فحجبه أول الامر ، ثم ما لبث ان اذن له • فدخل عليه وسلم ، فامره بالجلوس • ثم التفت المنتصر بالله الى بنان بن عمرو المغني وكان حاضرا ، وقال له غن :

غدرت ولم أغدر وخنت ولـــم أخن
ورمت بديـــلا ولـــم اتبـــدل

وهو شعر من نظم المنتصر بـــالله نفسه • فغناه بنان ، فعلم المهلبي انه اراده بذلك ، فقال : والله ما اخترت خدمة غيرك ولاصرت اليها الا بعد اذنك • فقال المنتصر بالله : صدقت ، انما قلت هذا مازحا ، أتراني اتجاوز حكم الله عزوجل بقوله «وليس عليكم جناح فيما اخطأتم»(٢) • فاستأذنه المهلبي في الانشاد فاذن له فانشده عدة أبيات منها :

ألا يا قوم قد بـــــرح الخفاء
وبان الصـــبر مني والعـــزاء

جفاني سيد قـــد كان بـــرا
ولـــم أذنب فما هذا الجفـــاء

حللت بـــــداره وعلمت أني
بـــدار لا يخيب بهـــا الرجاء

أمنتصر الخلائف جـــدت فينا
كما جادت على الارض السماء

---

(٢) سورة الاحزاب ، الاية : ٥

ومعت الناس عدلا فاستقاموا
باحكام عليهن الضياء

وليس يفوتنا ما عشت خير
كفانا أن يطول لك البقاء

فاستحسن المنتصر بالله قوله ، وأكد له انه لايزال من ذوي ثقته ، وموضع اختياره ، وطيب نفسه ، ووصله بثلاثة آلاف دينار(٣) .

ولما هنأه بتوليه الخلافة بقوله :

ليهنك ملك بالسعادة طائره
موارده محمودة ومصادره

فأنت الذي كنا نرجى فلم نخب
كما يرتجى من واقع الغيث باكره

بمنتصر بالله تمت آمورنا
ومن ينتصر بالله فالله ناصره

أمر المنتصر بالله عريبا المأمونية ان تغني نشيدا في أول الأبيات ، وتجعل البسيط في البيت الأخير ، فعملته وغنته فيه(٤) .

وصلي المنتصر بالله صلاة عيد الأضحى سنة ٢٤٧هـ ، فانشده يزيد المهلبي عند انصرافه من الصلاة ، قوله :

ما استشرف الناس عيدا مثل عيدهم
مع الامام الذي بالله ينتصر

غدا بجمع كجنح الليل يقدمه
وجه أغر كما يجلو الدجى القمر

---

(٣) الاغاني ٩/٣٠٢-٣٠٣ .
(٤) الاغاني ٩/٣٠٤ .

يؤمهم صـــادع بالحـق أحكمــه
حزم وعلم بمـــا يأتي وما يـــذر

لو خير الناس فاختـــاروا لأنفسهم
أخط منـــك لما نالوه ما قـــدروا

فأمر له بالف دينار ٠ وطلب من المغني ابن المكي ان يغني هذه الأبيات(٥) ٠

ومن الأدباء الذين كان المنتصر ينادمهم الأديب الضرير أبو العيناء محمد بن القاسم بن خلاد ٠ وقد سأله المنتصر بالله يوما : ما أحسن الجواب ؟ قال : ما اسكت المبطـــل وصير الحق ٠ فقال له : أحسنت والله(٦) ٠

أما الشاعر البحتري فقد ابتعد عن بلاط المنتصر بالله لانه كان يتهمه بالاشتراك في مؤامرة اغتيال أبيـــه ٠ الا ان سياسة المنتصر بالله الودية تجـاه العلويين جعلت لسان البحتري ينطلـــق بمدحه بقصيدة جاء في أولها قوله(٧) :

حججنا البنيـــة شـكرا لمـــا
حبانـــا بـــه الله في المنتصر

من الحلم عند انتقاض الحلوم
والحزم عند انتقاض المـرر(٨)

تطـول بالعـــدل لمـــا قضى
وأجمـــل في العفو لما قـــدر

---

(٥) نفس المصدر ٠
(٦) تاريخ بغداد ١٧٧/٣ ٠
(٧) كامل القصيدة في ديوان البحتري ٨٤٨/٢ـ٨٥١ ٠
(٨) المرر جمع مرة ٠ وهي اصالة العقل وقوة الخلق ٠

ودام على خلـــق واحـــــد
عظيم الغناء جليـــل الخطـــر

المنتصر بالله والغناء :

ذكر أبو الفرج الخليفة المنتصر بالله في الفصل الخاص بالمغنين من الخلفاء وأولادهم ، وأورد بعضا من ألحانه ، وقال عنه : انه كان حسن العلم بالغناء سماعا وانشادا ، وقد اولع بذلك منذ ان كان أميرا ، فاذا قال شعرا لحنه وطلب الى المغنين ان يغنوه ، حتى شاعت بعض ألحانه • ومما اشتهر منها :

سقيت كأســـــا كشفت
عن ناظـــري الخمـــرا
فنشـــطني ولقـــــد
كنت حزينـــا خاثـــرا

ورغم ضعف الشـــعر تركيبا ومعنى فقد غني بـــه وتداوله الناس(٩) •

ونسب اليه المسعودي الشعرين التاليين ، وقد غناه بهما بنان بن عمرو المغني في ثاني يوم من العيد الاضحى • وكان المنتصر بالله قد صلى بالناس ، وهما قوله(١٠) :

رأيتك في المنـــام أقل بخـــلا
وأطـــوع منك في غـــير المنام
فليت الصبح بـــاد ولا نراه
وليت الليـــل اخـــر ألف عام

---

(٩) الاغاني ٩/٣٠٠ •
(١٠) مروج الذهب ٤/١٣١ـ١٣٢ •

ولو ان النعاس يباع بيعـــا
لأغليت النعـاس على الأنـــام

وقوله في نفس المعنى :

اني رأيتك في المنـــام كأنما
أعطيتني من ريق فيك البارد

وكأن كفك في يـــدي وكأنما
بتنـا جميعا في لحـــاف واحد

ثم انتبهت ومعصـماك كلاهما
بيدي اليمين وفي يمينك ساعدي

فظللت يومي كله متراقـــدا
لأراك في نومي ولست بـراقد

الا انه عندما استخلف ترك الغناء والتلحين ، ومنع اظهار ما سبق ان صنعه من شعر وألحان ، غير انـــه لم يترك السماع(١١) . فكان كثيرا ما يطلب الى المغنين الذين يرتادون مجلس انسه ولهوه كبنان بن عمرو وعريب المأمونيـــة وابن المكي ، ان يغنوا بعض الاشعار التي تقال فيه ويمتدح بها . كما حدث في الشعر الذي قاله في مدحه الحسين بن الضحاك ويزيد المهلبي .

وقد استدعى المنتصر بالله يوما عبدالله بن العبـــاس المغني الشاعر وطلب اليه ان يصنع لحنا في شعر كان قاله . وكان عبدالله قد اقسم ألا يغني في شعر المنتصر بالله ، فأطرق مليا ، ثم غنى شعرا قاله للوقت ، هو :

يا طيب يـــومي في قراح النرجس
في مجلس مـــا مثلـــه من مجلس

---

(١١) الاغاني ٩/٣٠١ .

تســقى مشعشعة كأن شــعاعها
نار تشب لبـــائس مستقبس

فسمعه المنتصر بالله ولم يصله بشيء[١٢] • ويظهر انه لم يكن مقربا اليه • فقد روى أحمد بن المرزبـــان ، صاحب المنتصر بالله ونديمه ، ان عبدالله جاءه مرة يسأله في عرض رقعة له على الخليفة ، فعرضها ، وتردد المنتصر بالله في اجابته الى طلبه ، حتى كلمه ابن المرزبان فيه ، فأمر بقضائها[١٣] •

وغنى بنان بن عمرو بين يديه شعرا لمروان بن أبي حفصة هو:

هل تطمسون من السماء نجومها
باكفكـم أو تسترون هلالهـــا

فقال له المنتصر بالله : اياك ان تغني بحضرتي في هذا الصوت واشباهه ، فما أحب أن أسمع أشعار آل أبي حفصة[١٤] • وحاول مروان ان يترضى المنتصر بالله فاستأذنه للدخول عليه ، فقال : والله لا اذنت للكافر ابن الزانية ، قولوا له لا وصلت الي أبدا • فلما بلغ هذا القول ابن أبي حفصة عمل الشعر الآتي :

لقد طال عهـــدي بالامام محمـــد
وما كنت أخشى أن يطول به عهدي

فاصبحت ذا بعـد وداري قريبـــة
فيا عجبا من قرب داري ومن بعدي

رأيتــك في بـــرد النبي محمـــد
كبدر الدجى بـــين العمامة والبرد

---

(١٢) الاغاني ١٩/٢٣٧ •
(١٣) نفس المصدر •
(١٤) الاغاني ٩/٣٠٥ •

وسأل بنان بن عمرو فصنع فيه لحنا وغنى به المنتصر بالله ، فلما سمعه سأل عن قائلـــه · فقيل له انه لمروان بن أبي حفصة · قال : أما الوصـــول الي فلا سبيل اليه ، ولكن أعطـــوه عشرة آلاف درهم يتحمل بها الى اليمامة(١٥) · فـــكأن ابن أبي حفصة سعى الى حتفه بنفسه ، اذ جعل المنتصر بالله يتذكـــره ويأمـــر بنفيـــه الى اليمامة · وكان سبب غضبه عليه ان ابن ابي حفصة كان يتقرب الى المتوكل على الله بما يصنعه من شعر يهجو به آل أبي طالب ، وذلك مالم يكن يرتضيه المنتصر بالله ، مما احفظه عليه ·

وروى عن يزيد المهلبي انه قال : غنى بنان بن عمرو يوما في مجلس المنتصر الصوت الآتي :

يا ربة المنـــــزل بالبرك
وربة السلطان والملـــك

تحرجي بـــالله من قتلنا
لسنا من الديلـم والترك

فضحكت · فقال لي المنتصر بالله : مم ضحكت ؟ قلت : من شرفه قائل هذا الشعر ، وشرف من عمـــل اللحن فيه ، وشرف مستمعه · قال : ومـــاذاك ؟ قلت : الشعر فيه للرشيد ، والغناء لعليـــة بنت المهدي ، وأمـــير المؤمنين مستمعـــه · فاعجبه ذلـــك ، ومازال يستعيده(١٦) ·

وكان المنتصر بالله يستهتر احيانا في لهوه وعبثه · فقد أراد أن يشرب يوما في الزقاق علانية أمام الناس ، فوافوا من كل جهة ليروه · ثم سار الى شاطىء دجلة وتوقف عنـــده ، فصرف الناس · واختلى بالندماء والمغنين ومن يصلح للأنس والخدمة(١٧) · ولعل ما دفعه الى

---

(١٥) الاغاني ٢٣/٢٠٥ . ومروج الذهب ٤/١٣٠
(١٦) الاغاني ١٠/١٦٨ ·
(١٧) بقية المسامرة في مروج الذهب ٤/١٥٦ـ١٥٨ ·

مثل هذا السلوك ، وهو الشرب واللهو جهارا أمام الناس هو رغبته في التنفيس عما كان يقاسيه من آلام نفسية بسبب شعوره بالذنب من جراء اشتراكه في التآمر على أبيه ٠

٢ ـ المستعين بالله والشعراء والندماء :

كان عهد الخليفة المستعين بالله مفعما بالأحداث ٠ فقد توالت هجمات الروم على الثغور العربية خــلال السنة الأولى من حكمه ، واشتد الصراع والتنافس بين القواد الأتــراك انفسهم من جهة ، وبينهم والخليفة من جهة أخرى ، لاسيما عندما قتل القائد اوتامش الموالي للخليفة ٠ وخرج في السنتين التاليتين بعض الزعماء الطالبيين في الكوفة وطبرستان ٠ وعندما قتل القائــد باغر التركي اشتد الخلاف بين القواد الاتراك ، مما اضطر المستعين بالله على مغادرة العاصمة سامرا والانحــدار الى بغداد مع مناصريــه من القواد الاتراك ٠ وتلى ذلك خلعه ومبايعة المعتز بالله بدلا عنه في سامرا ٠ ثم نشوب الحرب بين جيش المعتز بالله وجيش المستعين بالله وانتهائها بتنازل المستعين بالله عن الخلافة ٠

وهكذا كانت المدة التي أمضاها المستعين بالله في الخلافة مليئة بالاضطرابات والحروب ، مما جعله يصرف كــل وقته وجهوده في مجابهتها ٠ ولم يبق له متسع ليستمع الى المغنين والشعراء ، او يتمتع بمجالسة الندماء ، الا في النزر اليسير ٠

كان المستعين بالله حسن المعرفة بايام العرب واخبارهم ٠ قال أبو البيضاء مولى جعفر الطيار ، وكان من الرواة : وفدنا في أيام المستعين بالله من المدينة الى ســامرا ، وفينا جماعة من الطالبيين وغيرهم من الانصار ٠ فاقمنا ببابه نحوا من شهر ، ثم وصلنا اليه ٠ وتكلم كل منــا فانس الخليفة بنا وابتدأ يذكر مــكة والمدينة واخبارهما ٠ وكنت أعرف الجماعة بمــا شرع فيه فقلت : أيأذن

أمير المؤمنين في الكلام ؟ قال : ذاك اليك · فشرعت معه فيما قصد اليه · وتسلسل بنا الكلام الى فنون من العلم في اخبار الناس ، ثم انصرفنا · واقيم لنا الانزال والافضال · فلما كان في أول الليل جاءني خادم ومعه عدة من الأتراك والفرسان ، فحملت على جنيبة كانت معهم ، واتي بي الى المستعين بالله · فاذا هو جالس في الجوسق، فقربني وادناني ، ثـــم أخذ بعد ان آنسني ، في اخبـــار العرب وأيامها ، وانتهى بنا الكلام الى اخبار العذريين والمتيمين ، فقال لي : ما عندك من اخبار عروة بن حزام وما كان منه مع عفراء ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ان عروة بن حزام لما انصرف من عند عفراء بنت عقال توفي وجدا بها وصبابة اليها · فمر به ركب فعرفوه · فلما انتهوا الى منزل عفراء صاح صائح منهم :

ألا أيها القصر المغفل أهلـــه
نعينا اليكم عـــروة بن حزام

ففهمت عفراء صوته واشرفت عليه ، وقالت :

ألا أيها الركب المجدون ويحكم
بحق نعيتم عـــروة بن حزام ؟

فاجابها رجل من القوم :

نعم قد تركنـــاه بارض بعيدة
مقيما بهـــا في سبسب وآكام

فقالت لهم :

فان كان حقا ما تقولون فاعلموا
بأن قـــد نعيتم بدر كل ظلام

ثم سألتهم أين دفنوه ، فاخبروها ، فصارت الى قبره فلما رأته نزلت وانسلت اليه فأكبت عليه ، فما راعهم الا صوتها ، فبادروا

اليها فاذا هي ممتدة على القبر وقد ماتت ، فدفنوها الى جانب قبره(١٧) •

وقد مدح البحتري الخليفة المستعين بالله عند توليه الخلافة بقصيدة ذم فيها الوزير أحمد بن الخصيب واستعداه عليه ، منها قوله(١٨) :

ما الغيث يهمي صوب اسباله
والليث يحمي خيس اشباله(١٩)

كالمستعين المستعان الذي
تمت له النعمى بافضاله

تلو رسول الله في هديه
وابن النجوم الزهر من آله

ويحفظ الملك باشرافه
على نواحيه واطلاله

لابن الخصيب الويل كيف انبرى
بافكه المردى وابطاله

كاد امين الله في نفسه
وفي مواليه وفي ماله

ورام في الملك الذي رامه
بغشه فيه وادغاله(٢٠)

فانزل الله به نقمة
غيرت النعمة من حاله

(١٨) القصيدة في ديوان البحتري ٣/١٦٣٦-١٦٣٨ •
(١٩) خيس الاسد : عرينه •

ثم يقول :

فغرحة النـــاس بادبـــاره
كغيظهـــم كان باقبالـــه

يـا ناصرالدين انتصر موشكا
من كائـــد الدين ومغتالـــه

والرأي كـل الرأي في قتلـــه
بالسيف واستصفاء أموالـــه

وكان المستعين بالله قد استوزر بعـــد مقتل اوتامش وكاتبه شجاع أبا صالح محمد بن يزداد ، فمدح البحتري الخليفة بقصيدة أثنى فيها على وزيره الجديد بعد أن اشار الى سوء سيرة أوتامش وكاتبه ، منها قوله(٢١) :

لقد سرني أن العواقب روعت
عداكم برأسي تـامش وشجاع

وكان خبيثي ظاهـــر وسريرة
لكم ، وقبيحي رؤيـــة وسماع

أقاما قريني غية وضلالـــة
وباتا قتيلي غـــرة وضـياع

وقد أمرا بالرشد حينا فعاصيا
وكم آمر بالرشد غـــير مطاع

فقل للامـــام المستعين الذي له
تراث قصي من عـــلا ومساغ

أقم بابن يزداد الامـــور فانه
لها خير وال تصطفيـــه وراع

---

(٢٠) الادغال : ادخال ما يخالف الشيء ويفسده .
(٢١) ديوان البحتري ٢/١٢٤٢ .

أمانة صــدر واضطلاع كناية

وصحة عــزم واتســـاع ذراع

وعندما ترك المستعين بالله حاضرة الخلافة الى بغداد استصحب معه محمد بن الواثق بالله وغفل عن أن يأخـــذ معه المعتز والمؤيد ولدي المتوكل على الله • فلما نزل ببغداد علي محمد بن عبدالله بن طاهر خليفته فيها ، قال له محمد : يا أمير المؤمنين اين المعتز والمؤيد؟ قال : بسر من رأى • قال محمد : فجـــرى على لساني ان قلت شعر زهير :

أضاعت فلـــم تغفر لها غفلاتهـــا

فلاقت بيانـــا عنـــد آخر معهـــد

دما حول شلو تحجل الطـــير حوله

وبضع لحـــام واهـــاب مقـــدد

ومعنى البيتين : اضاعت البقرة ولدها اذ غفلت عنه بالرعي ، فلم تغفر لها السباع غفلتها وافترست ولدها ، فشهدت دماءه عند آخر موضع فارقته فيه ، ورأت بقية جسده وجلده والطيور تحوم حولها(٢٢) •

كما تنبأ عن مصير المستعين بالله عند شخوصه الى بغداد ، أبو علي أحمد بن الحارث اليمامي ، فقال(٢٣) :

مـــازال الا لـــزوال ملكـــه

وحتفـــه من بعـــده وهلكـــه

ومن الشعراء الذين امتدحوا المستعين بالله محمد بن عبدالله بن داود الهاشمي المعروف باترجة ، فقد قال(٢٤) :

---

(٢٢) الهفوات النادرة/١٩ـ٢٠ •

(٢٣) الطبري ٩/٢٨٢ •

(٢٤) تاريخ بغداد ٥/٨٥ •

غدوت بسعد غرة لــــك باكرة
فلازالت الدنيا بملكك عامـــره

ونال مواليك الغنى بك ما بقوا
وعزوا وعزت دولة لك ناصره

بعثت علينا غيث جود ورحمة
فنلنا بدنيا منك فضـــلا وآخره

فلا خائف الا بسطت امانـــــه
ولا معدم الا ســــددت مفاقره

تبين بفضل المستعين ـ بفضله
على غيره ـ نعماء في الناس ظاهره

ويقول الشاعر عندما انشدته الشعر دفع الي خريطة كانت في يده مملوءة دنانير ، ودعا بغالية وجعل يغلفني بيده ٠

وكان أهل بغداد قد احبوه ومالوا اليه ٠ وعندما علموا بامر خلعه وثبت العامة بمحمد بن عبدالله بن طاهر وتذمرت عليه(٢٥) ٠ وقال أحد الشعراء البغداديين في خلعــــه شعرا يعكس شعور أهل بغداد نحوه ، اذ يقول(٢٦) :

اني أراك من الفراق جزوعا
أمسى الأمام مســـيرا مخلوعا

وغدا الخليفة أحمــد بن محمد
بعد الخلافة والبهــــاء خليعا

كانت به الأيام تضـحك زهرة
وهو الربيع لمـــــن أراد ربيعا

---

(٢٥) الطبري ٩/٣٢٨ ٠
(٢٦) الطبري ٩/٣٥٠ـ٣٥١ ، ومروج الذهب ٤/١٦٧ ٠

فازاله المقــدور من رتب العلا

فثوى بواسط لا يحس رجوعا

وقد اكثر الشعراء القول عندما خلع المستعين بالله نفسه وبايع للمعتز بالله ، وكلها تؤكد ضـعـفه واستسلامه لتسلط الأتراك ، وتظهر الارتياح لخلافــة المعتز بالله • فقد قال البحتـــري يمتدح الخليفة المعتز بالله ويهجو المستعين بالله عند نفيه الى واسط بعدما اضطر على التنازل عن الخلافة ، منها قوله(٢٧) :

ألا هل اتاها أن مظلمة الدجى

تجلت وأن العيش سهل جانبه

وأنا رددنا المستعار مُذَمَّـماً

على أهله، واستأنف الحق صاحبه

عجبت لهذا الدهر أعيت صروفه

وما الدهر الا صرفه وعجائبه

متى أمل الدياك ان تصطفى له

عرى التاج أو تثنى عليه عصائبه

فكيف أدعى حق الخلافة غاصب

حوى دونــه ارث النبي أقاربه

بكى المنبر الشرقي اذ خار فوقه

على الناس ثور قد تدلت غباغبه

الى أن يقول :

ولم يكن المعتز بــــالله اذ سرى

ليعجز و (المعتز بــــالله) طالبه

---

(٢٧) ديوان البحتري ١/٢١٣ـ٢١٨ •

٣ ـ المعتز بالله والشعر والغناء :

بعد ان بويع المعتز بالله بالخلافة دخل في حرب مع المستعين بالله استمرت ما يقرب من السنة . وما أن انتهت الحرب حتى بدأ النزاع بينه وبين القواد الاتراك . وكانت الحرب قد استنزفت مالية الدولة واضعفت اقتصادها ، فلم تعد ايرادات بيت المال تفي بنفقات الجند الأتراك ، مما اثارهم عليه فاشتد صراعهم معه . على ان هذه الظروف العسيرة لم تمنع المعتز بالله من ان يغتنم الفرصة ليجلس الى ندمائه ويستمع الى شيء من الغناء ، والى اشعار بعض الشعراء .

كان للمعتزبالله بعض المعرفة بصنعة الغناء ، وقد ذكر ابو الفرج في الفصل الذي عقده عن اغاني الخلفاء واولادهم ان المعتز بالله لحن الشعر التالي وغناه(٢٨) .

لعمري لقد اصحرت خيلنا
باكناف دجلة للمصعب

فمن يك منا يبت آمنا
ومن يك من غيرنا يهرب

وانه كان ينظم شعرا ويلحنه ، أو يتركه لمغنين آخرين . فقد انشد لنفسه يوما بعض الأبيات ، منها قوله(٢٩) :

اني قمرتك يا سؤلي ويا أملي
أمرا مطاعا بلا مطل ولا علل

---

(٢٨) الاغاني ٣٠٥/٩ ، والشعر لعدي بن الرقاع قاله في الوقعة التي كانت بين الخليفة عبدالملك بن مروان ومصعب بن الزبير بطسوج مسكن بالعراق ، وقتل فيها مصعب .

(٢٩) الاغاني ٣١٨/٩ .

حتى متى ياحبيب النفس تمطلني
وقد قمرتك مرات فلم تف لي

وطلب الى عريب المغنية ان تغنيه ، فلحنته وغنته :

وشرب المعتز بالله في مجلس عقده ببستان مملوء من زهر النمام وبينه شقائق النعمان • فدخل اليه يونس بن بغا ، صديقه وألفه ، وعليه قباء أخضر ، فقال(٣٠) :

شبهت حمرة خده في ثوبـــــه
بشقائق النعمـــان في النمـــام

وقال لجلسائه ومغنيه : اجيزوا • فانبرى بنان المغني فقال :

والقد منه اذا بـــدا في قرطق
كالغصن في لـــين وحسن قوام

فأمره المعتز بالله ان يغني فيه • فصنع فيه لحنا وغناه •

واستدعى المعتز بالله يوما عبيـــدالله بن عبدالله ، وطلب اليه المقام عنده بسامرا ، وقال عبيدالله ان المعتز بالله أرسل الى شارية المغنية ان تخرج فتعاللت عليه ، فقال : عندي من يحب ان يسمعك ، واحب لك وله ذلك ، ولابد من حضورك • فخرجت فجلست خلف الستارة ، ثم قالت : لولا الزائر ما جئنا ، ثم غنت الصوت الآتي(٣١):

غشيت المنـــــازل بالأنعـــم
كمنعرج الوشـــم في الأعصم

ثم غنت بعده :

لقد راعني للبين صوت حمامة
على غصن بـــان جاوبتها حمائم

---

(٣٠) الاغاني ٩/٢١٨–٢١٩ •
(٣١) الديارات/ ١١٠–١١١ •

فقال لي الخليفة : كيف تسمع ؟ قلت : اسمع شيئا حظ العجب منه أكثر من حد الطرب • فاستحسن هذا الكلام مني • ثم اسمعني زمر زنام الزامر وقد ضعف وارعش وازمنه النقرس • واراني الآلة التي عملها أحمد بن موسى المهندس من صفر يرسل فيها الماء فيسمع له زمر السرناي ، ثم ادخلني الى شـبـاك وأمر أن يجمع بين الفيل والسبع فرأيتهما كيف يتواثبان ، ثـم قال لي : أذكر اني اريتك اليوم أربعة أشياء طريفة فايهما أظرف عندك ؟ قلت : غناء شارية • فقال : صدقت •

واصطبح المعتز بالله في أحد الايام واقتـرح على عريب صوتا فغنته ، فاستحسن غناءها وسر بـه ، فأمر له بثلاثين ألف درهم ، وفرق على الجلساء كلهم الجوائـز والخلع والطيب ، وكان الشعر الذي غنته لعلي بن الجهم ، وهو(٣٢) :

العين بعدك لم تنظر الى حسن
والنفس بعدك لم تسكن الى سكن

كأن نفسي اذا ما غبت غائبة
حتى اذا عدت لي عادت الي بدني

وجلس يوما مجلس غناء والجلساء والمغنون حوله ، وقد أعد الخلع والجوائز ، وكان يونس بن بغا بين يديه يسقيه • فدخل بغا واستأذن لأبنه لأن والدته على فراش الموت ، فأذن له فخرج • ففتر المعتز بالله عن السماع ونعس فنام • وقام الجلساء وتفرق المغنون • فلما عاد يونس مساء ورآه المعتز بالله عاد الى الشرب وعاد الندماء والمغنون ، فقال المعتز بالله :

تغيب فـلا أفـرح
فليتـك لا تبـرح

---

(٣٢) الاغاني ١٠/٢٢٦-٢٢٧ •

«وان كنت عـــــذبتني
بانـــك لا تسمح

فاصبحت ما بين ذيـــ
ن لي كبـد تجـرح

على ذاك يـا سـيدي
دنـوك لي أصلح

ثم قال للمغنين غنوة • فجعلوا يفكـرون ، فقال السليمان بن القصار الطنبوري : ويلك ألحان الطنبور أصلح وأخف فغن فيه أنت ، فغناه فيه لحنا • فدفع اليه دنانير الخريطة ـ وهي مائة دينار حكية ، ومئتان ، مكتوب على كـل دينار منها «ضرب هذا الدينار بالجوسق لخريطة أمير المؤمنين المعتز بالله(٣٣) •

وخرج المعتز بالله يوما الى دير مرمار تلبية لدعوة راهب الدير الذي قام بمـا يحتاجه موكب الخليفة ومجلسه • وجـاء بأولاد النصارى فخدموا المجلس أحسن خدمـة • فسر المعتز بالله سرورا عظيما ، ووصل الراهب صلة سنية • ثم اعتاد الخروج الى هذا الدير بين حين وآخر(٣٤) •

كان المعتز بالله يقول الشعر احيانا ، لاسيما في مجالسه الغنائية كما أشرنا آنفا • وعندما تمت له البيعة قال(٣٥) :

توحدني الرحمن بالعز والعلا
فأصبحت فوق العالمـين أميرا

ويقول أبو الفرج ان بنانا المغني أضـاف الى هذا البيت بيتا أخر ، وجعل المخاطبة عن نفسه للمعتز بالله ولحنه وغناه اياه :

---

(٣٣) الاغاني ٩/٣١٩ـ٣٢٠ ، والديارات/١٦٧ـ١٦٨ •
(٣٤) الاغاني ٩/٣٢١ـ٣٢٢ ، والديارات/١٦٥ •
(٣٥) الاغاني ٩/٣٢٢ •

توحدك الرحمن بالعز والعلا
فانت على كــل الأنــام أمير

تقاتل عنك الترك والخزر كلها
كأنهـم أســد لهن زئــير

ونسب الى المعتز بالله قوله(٣٦) :

يمــوت الفتى من عثرة بلســانه
وليس يموت المرء من عثـرة الرجل

وروى له ابنه عبدالله بن المعتز قوله(٣٧) :

ألا حي الحبيب فدتــه نفسي
بكأس من مدامــة خانقينــا

فاني قد بقيت مــع الليالي
اقاسي الهــم في يده سنينا

ودخل الزبير بن بكار على المعتز بالله ، وهو محموم ، فقال له : اني قلت في ليلتي هــذه أبياتا وقد اعيا علي اجــازة بعضها ، وانشد(٣٨) :

اني عرفت علاج الجسم من وجعي
وما عرفت عــلاج الحب والجزع

جزعت للحب والحمى صبرت لهــا
اني لأعجب من صبري ومن جزعي

---

(٣٦) تاريخ بغداد ٢/١٢٥ .
(٣٧) الاغاني ٩/٣٢٢ .
(٣٨) بدائع البداثة/١٢٩ ، وجاء بصيغة اخرى في الديارات/١٦٦ . والزبير بن بكار راوية وعالم بانساب العرب واخبارها توفى سنة ٢٥٦ وكان يؤدب الموفق في صغره .

من كان يشغلـــه عن حبه وجـــع
فليس يشغلني عن حبـــكم وجعي

فقال ابن بكار :

وما أمل الحبيب ، ليتني أبدا
مع الحبيب ، ويا ليت الحبيب معي

فأمر له على هذا البيت بألف دينار ٠

وكان جماعة من الشعراء قالوا في المعتز بالله ، حين استقامت له الخلافة ، أقوالا كثيرة ٠ فمن ذلك ما قاله محمد بن مروان بن أبي الجنوب من قصيدة(٣٩) :

قد عادت الدنيا الى حالهـــا
وسرنـــا الله باقبالهـــا

دنيا بـــك الله كفى أهلهـــا
مـــا كان من شـــدة أهوالها

وكان قـــد ملكهـــا جاهـــل
لا تصـــلح الدنيا لجهـــا لها

قد كانت الدنيا بـــه قفلت
فكنت مفتاحـــا لأقفالهـــا

ان التي فـــزت بها دونـــه
عـــادت الى أحسن أحوالهـــا

خلافـــة كنت حقيقـــا بهـــا
فضلـــك الله بسر بالهـــا

(٣٩) الطبري ٩/٣٥١-٣٥٢ ٠
(٤٠) مروج الذهب ٤/١٦٩ ٠

وقال الشاعر أبو علي البصير(٤٠) :

آب أمر الاسلام خير مآبه
وغدا الملك ثابتا في نصابه

مستقرا قراره مطمئنا
آهلا بعد نأيه واغترابه

وقد امتدح البحتري الخليفة المعتز بالله كما مدح أباه من قبل بعديد من القصائد قالها في مناسبات مختلفة . فقد مدحه عند انتصاره على المستعين بالله بقصيدة منها قوله(٤١) :

لقد أعطي المعتز بالله نعمة
من الله جلت أن تحد وتقدرا

تلافى به الورى من عظيمة
أناخت على الاسلام حولا وأشهرا

ومن فتنة شعواء غطى ظلامها
على الافق حتى عاد أقتم أكدرا

الى ان يقول :

أغر من الأملاك اما رأيته
رأيت ابا اسحاق والقرم جعفرا

تقدم في حق الخلافة سهمه
اذا رد عنها غيره فتأخرا

عمرت أمير المؤمنين مسلما
فعمر الندى والجود ان تعمرا

---

(٤١) ديوان البحتري ٢/٩٣١-٩٣٤ .

عندما قتل القائد التركي بغا الصغير ، وكان عزم على الوثوب بالخليفة ، قال البحتري قصيدة يشير الى ذلك ، ويهنىء المعتزل بالله بفشل بغا ومؤيديه ، منها(٤٢) :

للدهر عنـدي منـة مشكورة
شفت الذي في الصدر من أوغام

والله ما أسدى مبادئ نعمـة
الا تغمـد أهلهـا بتمام

طلب العمامة والقضيب وأين لم
تبلغ حماقـة ذلك الحجـام

أتراه وهـم انه أهل لهـا
سفها تعـدى هذه الاوهـام

قد رام تفـريق الموالي بعدما
جمعوا على ملك أغـر همام

متعزز بالله ، أصبح نعمـة
لله سـابغة على الاسـلام

الى أن يقول :

فاليوم عاودت الخلافة عزهـا
واضاء وجه الملك بعـد ظلام

أضحى بغـاء وأقربوه وحزبهم
وكأنهم حلـم من الأحـلام

طاحوا فما بكت العيون عليهم
بدموعها ، ومضـوا بغير سلام

---

(٤٢) ديوان البحتري ٣/٢٠١٩_٢٠٢٢ .

وحدث البحتري انه اتفق مع أبي معشر المنجم على زيارة المعتز بالله لما حبسه المستعين بالله ، والتودد اليه أملا في أن يحسن اليهما اذا ما آل الأمر اليه • فتوصلا حتى لقياه في حبسه ، فانشده البحتري أبياتا من الشعر كان قالها في القائد العربي محمد بن يوسف الثغري لما حبس • فاخذ المعتز بالله الرقعة التي بهـــا الابيات ، وطلب الى خادم له ان يحفظها لديه ويذكره بها ان فـــرج الله عنه ليقضي حق الشاعر • وأخذ أبو معشر طالع المعتز وقت عقد له بالعهد ، ووقت مبايعة المستعين بالله ، ونظر في ذلك ، وحكم له بالخلافة بمقتضى الطالع بعد فتنة وحروب ، وان المستعين بالله سيقتل • ولما بويع للمعتز بالله دخـــل اليه البحتري وابو معشر ، فانشـده البحتري قصيدة مدحه بها وهنأه بالخلافة وهجا المستعين بالله ، منها :

يجانبنـا في الحب من لا نجانبه
ويبعد عنا في الهوى من نقاربه

وكيف رأيت الحق قـر قراره
وكيف رأيت الظلم آلت عواقبه

وهي قصيدة طويلة ذكرنا بعضا آخر من أبياتها في فصل سابق • وقد استعاده المعتز بالله أبياتها مـــرارا فاعادها • ثم دعا بالخادم الذي كان معه في الحبس وطلب الرقعة التي فيها الشعر الذي انشده البحتري في الحبس ، وقال للبحتري انه قد أمر له بألف دينار لكل بيت منها ، ونصحه بأن يشتري بهذا المال ضيعة ينتفع بغلتها وتبقى لولده من بعده • وأمر لأبي معشر بألف دينار ، وجعله رئيس المنجمين في دار الخلافة ، وأجرى له في كل شهر مائة دينار رزقا وثلاثين دينارا نزلا(٤٣) •

---

(٤٣) مفصل القصة في : الفرج بعد الشدة ١/٩٣ـ٩٥ •

وعندما خلع المعتز بالله من الخلافة وقتل رثاه بعض الشعراء • وقد ذكر المسعودي مقاطع من بعض القصائد التي قيلت في ذلك ، منها قول أحدهم(٤٤) :

أصبحت مقلتي تسح الدموعا
اذ رأت سيد الانام خلوعا

لهف نفسي عليه ما كان اعلا
وأسراه تابعا متبوعا

الزموه ذنبا عن غير جرم
فثوى فيهم قتيلا صريعا

وبنو عمه وعم أبيه
أظهروا ذلة ، وابدوا خضوعا

ما بهذا يصح ملك ، ولا يغزى
عدو ولا يكون جميعا

٤ ـ المهتدي بالله :

كان المهتدي بالله حين ولي الخلافة قد اطرح الملاهي وحرم الغناء والشراب • وأمر باخراج المغنين والقيان المغنيات والراقصات من سامرا(٤٥) • ولم يعقد من المجالس سوى جلوسه لرد المظالم ، وقد أشرنا الى ذلك في سيرته • وجلس المهتدي يوما للمظالم فاستعداه رجل على ابن له • فأمر باحضاره ، فاحضر واقامه الى جنب الرجل • فسأله عما ادعاه عليه فأقر به ، فامره بالخروج له من حقه ، وكتب له بذلك كتابا • فلما فرغ قال الرجل : والله يا أمير المؤمنين ما أنت الا كما قال الشاعر :

---

(٤٤) مروج الذهب ١٧٩/٤ •

(٤٥) الكامل ٢٣٤/٧ ، وتاريخ بغداد ٣٥٠/٣ ، والفخري/٢٢٣ •

حكمتمـــــوه فقضى بينكـــم
أبلج مثل القمـــر الزاهـــر

لا يقبل الرشـــوة في حكمـــه
ولا يبـــالي غبـــن الخـــاسر

فقال له المهتدي بالله : أما أنت أيها الرجل فأحسن الله مقالتك ، وأما أنا فما جلست هذا المجلس حـــتى قرأت في المصحف «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين»(٤٦) الا انه لم تطل مدته اذ اشتد الصراع بينه وبين القواد الأتـــراك ، فانتهى به الامر الى القتل • وكان البحتري قد امتدحه في خلافته بعدة قصائد ، منها تلك التي يشيد فيها بورعه وتقواه ، وقوة عزيمته في مجابهة المشاكل التي كانت تواجهه ، وسعيه ليسود العدل والأمن في الدولة العربية • منها قوله(٤٧) :

بارك الله للخليفة في الملــــك
الذي حـــازه لـــه المقـــدار

رتبة من خلافة الله قـــــد طا
لت بها رقبـــة لـــه وانتظار

طلبته فقـــرا اليه ، ومـــا كا
ن به ســـاعة اليها افتقـــار

أخذ الأوليـــاء اذ بايعـــوه
بيدي مخبت عليـــه الوقـــار

وتجـــلى للناظـــــرين أبي
فيه عن جانب القبيح ازورار

---

(٤٦) تاريخ بغداد ٣/٣٤٩ ، والاية في سورة الانبياء : ٤٧ •
(٤٧) ديوان البحتري ٢/٨٥٢ـ٨٥٦ •

وأرتنا السجاد سيما طويـــل
الليـل في وجهـــه لها آثـــار

ولديه تحت السكينة والأخبات
سطو على العـــدى واقتـــدار

زاد في بهجة الخلافة نــــورا
فهو شمس للنـــاس وهي نهار

وأجار الدنيا من الخوف والحـ
ـيف ، فهل يشكر المجـير المجار

٥ ـ المعتمد على الله والشعر والغناء :

بدأ المعتمد على الله خلافته بالانصراف الى اللهو والملذات • وقد اشرنا عنـد الكلام عن سيرته الى ركونه الى أخيــه الموفق في ادارة شؤون الدولة ، فقام بذلك خير قيام ، فاوقف اسراف المعتمد على الله ومنع عنه المال لحاجة الدولة آنـــذاك الى الانفاق على تدبير أمور الحرب الداخلية وبخاصة مع الزنج • ومع هذا فقد كان للمعتمد على الله ندماؤه وجلساؤه ، وكانت له بعض مجالس اللهو والغناء • وقد اعتبره أبو الفرج ممن له صنعة في الغناء من الخلفاء ، ويروى عن القاسم بن زرزور ان المعتمد على الله القى عليه لحنا صنعه في هذا الشعر للفرزدق(٤٨) :

ليس الشفيع الذي يأتيـك مؤتزرا
مثل الشفيع الذي يأتيـــك عريانا

وللمعتمـــد على الله شعر غنت فيه شارية جارية ابراهيـــم بن المهدي ، هو(٤٩) :

(٤٨) الاغاني ٩/٣٢٣ •
(٤٩) الديارات/١٠٠ •

تأنيت بالحب دهـــــرا طويلا
فلم ار في الحب يومـــا سرورا

وروي عن جحظة النديم انه قـــال : كنت عند المعتمد على الله فغنت شارية بشعر مولاها ابراهيم بن المهدي ولحنه :

يا طول علـــة قلبي المعتـــاد
الف الكـــرام وصحبة الامجاد

ما زلت آلف كل قـــدم ماجد
متقدم الآبـــاء والأجـــداد

فاستحسن غناءها . فقالت : هذا غنائي وانا عارية فكيف لو كنت كاسية . فأمر لها المعتمد على الله بألف ثوب من جميع أصناف الثياب الخاصة ، فحمل لها ذلك . وذلـــك مالم يعمله خليفة من قبل(٥٠) .

وعرضت على المعتمد على الله جارية حسنة الغناء سريعة الخاطر، فامتحنها في الغناء والكتابة فرضي بما ظهر له من أمرها . ثم قال لأحد ندمائه ان يقارضها الشعر ، فقال لها النديم : وهبت نفسي للهوى .

فقالت بداهة : فجار لما أن ملك .

فقال : فصرت عبدا خاضعا .

فقالت : يسلك بي حيث سلك .

فأمر المعتمد على الله بشرائها ، فابتيعت بثلاثين ألف درهم(٥١) . ولاشك في ان صلته من الثياب الخاصة ، وشراء هذه الجارية ، كان في أول عهده ، قبل ان تكف يده عن بيت المال .

---

(٥٠) الاغاني ١٦/١٤ـ١٥ .
(٥١) نساء الخلفاء/١٠٢ .

قالت بدعة جارية عريب ، وكانت مثلهـــا أديبة مغنية ، ان المعتمد على الله كان يوجه ما ينظم من الشـــعر الى عريب لتصوغ له الالحان المناسبة ، فكانت تقول : ويلي كم أغنى في حروف ألف ، با ، تا(٥٢) ؟

ويبدو ان المعتمد على الله كان معجبا بغناء عريب وألحانها ، رغم تقدمها في العمر ، فأمر أحد ندمائه ان يجمع غناءها . فأخذ هذا منها دفاترها وصحفها ، وكانت قد جمعت فيها غناؤها ، وهو في ألف صوت(٥٣) .

ومن المغنين الذين غنوا للمعتمد على الله أبو حشيشة ، فقد غنى يوما بين يديه :

حرمت بـــــذل نوالــــك
واســـوءتا من فعـــالك

لمـــا ملكت وصـــــالي
أيســـتني من وصـــالك

فوهبه مائتي دينار . وقال أبـو حشيشة : كان المعتمد على الله يشتهى على أن أغنيه هذا الصوت(٥٤) :

قلبي يحبـــك يـــا مـــنى
قلبي ويبـــغض من يحبــك

لأكون فــــــردا في هـــوا
ك فليت شـــعري كيف قلبك

---

(٥٢) الديارات/١٠٠ .
(٥٣) الاغاني ٢١/٥٥ .
(٥٤) نهاية الارب ٥/٣٦-٣٧ .

وكان المغني أحمد بن يحيى المكي يحضر مجلس المعتمد على الله مع المغنين ويغني مرتجلا • فيوقع بقضيب على دواة ، أي انه يضبط وزن غنائه بضرب قضيب على دواة ، وكلاهما من معدن(٥٥) •

ويقال ان المعتمد على الله اصطبح يوما واقترح ان يغني بشعر أبي نواس :

يا كثير النـــوح في الدمن
لا عليها بـــل على السكن

سنة العشـــاق واحــــدة
فــاذا احببت فاســـتكن

فلم يزل يغني به يومه ، ثم اشتكى جوفه ومات في ليلته(٥٦)

وقد نادم المعتمد على الله عدد من الندماء منهم ابن خرداذبة أبو القاسم عبيدالله بن احمد ، وكان قد تولى البريد في اقليم الجبال ، فنادم الخليفة واختص به(٥٧) • وهو صاحب كتاب المسالك والممالك • وكنا ذكرنا شيئا عن سيرته في موضـــوع الجغرافية واشرنا الى ان تصنيفة كتابه المذكور كان استجابة لسؤال المعتمد على الله عن مسالك الأرض وممالكها وصفاتها ، وبعدها وغامرها(٥٨) •

ونادم المعتمد على الله أيضـــا أبوالحسن احمد بن جعفر الملقب بـ«جحظة» وهو شاعر مطبوع واديب بارع ، حاذق في صنعة الغناء على الطنبور • ألف كتابا عن المعتمـــد على الله ، اشبه بالمذكرات ، سماه «كتاب ما شاهده من أســـر المعتمد»(٥٩) • وكان جحظة ينظم الشعر ويلحنه ويغنيه • وكان عظيم الجثة فاذا قام الخليفة ورجع ،

---

(٥٥) الديارات هامش ص/١٥٤ •
(٥٦) الهفوات النادرة/٥٠ •
(٥٧) الفهرست/٢١٨ •
(٥٨) المسالك والممالك/٣ •
(٥٩) الفهرست/٢١٤ •

قام الندماء ، ونام هو ، وقال هــذا عوض القيام ، لأنه لا يقدر عليه(٦٠) • ومع قبح منظره وجحوظ عينيه كان أطيب الناس غناء ، واحسنهم مجالسة ، وفيه قال ابن الرومي(٦١) :

نبئت جحظة يستعير جحوظه
من فيــل شطرنج ومن سرطان
يا رحمتي لمنادميــــه تحملوا
ألــم العيــون للــذة الآذان

وكان للمعتمد على الله شعر جيد ، وشعر غير موزون • وربما قال الأبيات فيصح بعضها ويفسد باقيها • وذكر له الشابشتي بعضا من اشعاره(٦٢) • ويبدو ان المعتمد على الله كان يعتز بهذه الابيات القليلة التي يقولها من الشعر ، اذ اتخذ له وراقا يكتب شعره بماء الذهب(٦٣) • وقد وجدت في عهد المكتفي بالله الذي تولى الخلافة في سنة ٢٨٩هـ رقــاع ملفوفة فيها اشعار للمعتمـــد على الله مكتوبة بالذهب(٦٤) • ومما ذكره له الشابشتي قوله(٦٥) :

أصبحت لا أملــك دفعا لمــا
اســام من خسف ومن ذلــة
تمضي أمـور الناس دوني ولا
يشعر بي في ذكرهـا قلــة
اذا اشتهيت الشيء ولو بــه
عني ، وقالـوا : ها هنـا علة

---

(٦٠) الديارات/٢٦ •
(٦١) الملح والنوادر/١٩٨ •
(٦٢) الديارات/٩٨ــ١٠٦ •
(٦٣) تاريخ الخلفاء/٣٦٨ •
(٦٤) الديارات/١٠٠ •
(٦٥و٦٦) الديارات/١٠١ ، ويقول الحصري ان المعتمد على الله قال هذا الشعر او قيل على لسانه ــ جمع الجواهر/١٥٧ •

وقوله لما ضيق عليه ومنع من بيت المال(٦٦) :

أليس من العجـــائب ان مثلي
يرى ما قـــل ممتنعا عليـــه

وتؤخذ باسمه الدنيـــا جميعا
ومـــا من ذاك شيء في يديـــه

اليه تحمـــل الأموال طـــرا
ويمنع بعض مـــا يجبى اليـــه

وقوله في دير العلث(٦٧) :

يا طـــول ليلي بفم الصـــلح
أتبعت خســـراني بالربـــح

لهفي على دهـــر لنا قـــد مضى
بالقصر والقاطـــول والشلح

بالديـــر بالعلث ورهبانـــه
بين الشعانـــين الى الدنـــح

ومما وجد من شعره المكتوب بالذهب قوله(٦٨) :

طـــال والله عـــذابي
واهتمامي واكتئـــابي

بغـــزال من بني الأصفر
لا يعنيـــه مـــا بي

أنـــا مغـــرى بهـــواه
وهو مغـــرى باجتنـــابي

(٦٧) الديارات/٩٨ .
(٦٨و٦٩) الديارات/١٠٠ .

وإذا مـــا قلت : صلني
كان (لا) منــه جوابي

وكذلك قوله(٦٩) :

عجــل الحب بفرقـــة
فبقلبي منـــه حرقــة

مالـــك بـــالحب رقي
وأنـــا أملـــك رقـــة

انمـــا يستروح الصب
اذا اظهـــر عشـــقه

وكان الشاعر البحتري أشهر الشعراء الذين عاشوا في كنف المعتمد على الله ومدحوه • وحين بويع المعتمد على الله بالخلافة امتدحه ببضعة ابيات هي(٧٠) :

لقد امسك الله الخلافة بعدما
وهت ، وتلافي سربها ان ينفرا

بمعتمد فيهـــا على الله أسندت
اليه ، فالغتـــه الرضا المتخيرا

ولو لم يقم للمسلمين بحقهـــا
لغودر معروف العواقب منكرا

ولما بدا من ســـدة الملك طالعا
ذكرنا به خير الخلائف جعفرا

شمائل مبسوط اليدين الى الندى
ووجه اضاء الجود فيه فاسفرا

---

(٧٠) ديوان البحتري ٢/١٠٥٥ •

آتت بركات الارض من كل وجهة
واصبح غض العيش فينان اخضرا

وقد خبر الفتح المعجل اننا اذ
تبلناه ميمون القيـــام مظفرا

ومدحه بقصيدة اشاد فيها بورعــه ويقظته وعلمه وعفوه عن المسيئين اليــه • علما ان المعتمد على الله ، كما أشرنــــا ، كان قد انصرف الى ملاذه ولهوه تاركا شؤون الدولة الى أخيه • ومن هذه القصيدة قوله(٧١) :

ان الخلافــة أحمدت من احمد
شيما اناف بهـــا على الأحماد

ملك تحييه الملوك ، ودونـــه
سيما التقى وتخشـــع الزهاد

متهجد يخفى الصلاة وقد ابى
اخفاءها أثـــر السجود البادي

سمح اليدين اذا احتبى في مجلس
كان الندى صفة لذاك النادي

متيقظ عصمت بـــوادر أمره
بعرى من الرأي الأصيل شداد

ينسى الذنوب وما تقادم عهدها
ملقي الضغائن دارس الاحقاد

تعفو لعفو الله عنك تحريـــا
والعفو خير خلائـــق الامجاد

---

(٧١) نفس المصدر ٢/٧٣١ـ٧٣٤ •
راجع تفصيلات هذا المجلس في مروج الذهب ٤/٢٢٠ـ٢٢٦ •

ويقــول المسعودي ان المعتمد على الله كان شـــغوفا بالطرب ، والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع الملاهي • وكان يعقد مجالس للهو والمنادمة(٧٢) واكثر الاحاديث التي تدور فيها كانت عن الطرب وآلاته ، وأنواع اللهو عند مختلف الامم • ويقول ابن خرداذبة ان المعتمد على الله سأل في أحد مجالسه عن أول من اتخذ آلة العود • وقد حاول ابن خرداذبة ان يوضح البدايـــة لهذه الآلة وتطورها عند مختلف الأمم القديمة • فخلص الى ان العود يوناني صنعه أصحاب الهندسة على هيئة طبائع الانسان ، فـــان اعتدلت اوتاره جانس الطبائع واطرب • وان الطرب انما هو رد النفس الى الحالة الطبيعية دفعة • ثم تطرق الى أنـــواع الملاهي عند تلك الامم • فذكر آلات الطرب عند الروم والهند وأوصافها • وتكلم بعد ذلك عن الغناء عند العرب وكيف بدأ بالحداء • وكان نشوءه ان مضر بن نزار بن معد سقط عن بعيره في بعض اسفاره فكسرت يده فجعل يتأوه من الألم ويقول : يا يداه ، يا يداه • ويكرر ذلك بنغمة خاصة ، وكان حسن الصوت ، فلاحظ ان الأبل قد استوسقت وطاب لها السير • فأتخذ ذلك برجز الشعر ، وجعلوا كلامـــه أول الحداء ، ومن قول الحادي : يا هاديا يا هاديا ، ويا يداه يا يداه • ثم اشتق الغناء من الحداء • وكان الغناء ثلاثة اجناس : الركبان ، والسناد الثقيل ، والهزج الخفيف •

واشار ابن خرداذبة الى ان اول من غنى من العرب الجرادتان وهما قينتان لمعاوية بن بكر • وكانت العرب تسمي القينة الكرينة ، والعود المزهر ، ثم تطرق الحديث الى اختـــلاف الغناء باختلاف الأصقاع العربية • فكان غناء أهل اليمن بالمعازف وايقاعها على جنسين : حنفي وحميري ، والحنفي احسنهما • أما قريش فلم تعرف من الغناء الا النصب • وكانت الحيرة تعـــرف ضرب العود والغناء عليه ، ومنها انتقل ذلك الى أهل مكة •

والغناء على رأي ابن خرداذبة يرقق الذهن ، ويلين العريكة ، ويبهج النفس ويسرها ، ويشجع القلب ، ويسخي البخيل • وفضل الغناء على المنطق كفضل النطق على الخرس ، والبرء على السقم • وان المرأة العربية كانت لا تنوم وليدها وهو يبكي خوف ان يسري الهم في جسده ويدب في عروقه • ولذا فهي تنازعه وتضاحكه حتى ينام وهو فرح مسرور • فينمو جسده ويصفو لونه ودمه ، ويشفى عقله • والطفل يرتاح الى الغناء وعند سماعه يستبدل ببكائه ضحكا •

سر المعتمد على الله وشكر ابن خرداذبة على وصفه واطنابه • ثم سأله عن صفة المغني الحاذق وعن أنواع الطرب • فقال ان المغني الحاذق هو من تمكن من انفاسه ولطف في اختلاسه وتفرع في اجناسه • أما أنواع الطرب فهي ثلاثة : طرب محرك مستخف الأريحية ينعش النفس ، وطرب شجن وحزن لاسيما اذا كان في وصف ايام الشباب والشوق الى الأوطان ، وطرب يكون في صفاء النفس ولطافة الحس ولاسيما عند جودة التأليف واحكام الصنعة • وان الاستمتاع بأنواع الطرب يتطلب رفاهة الحس ورقة الشعور • اذ من غلظ حسه وتبلد شعوره ، كره سماع الغناء وتشاغل عنه بل عابه وذمه •

ثم انتقل ابن خرداذبة الى شرح علاقة الايقاع بالغناء ومنزلته منه ، واجناسه الأربعة ، وطرائقه الثمانية • وقد فرح المعتمد على الله في هذا المجلس وخلع على ابن خرداذبة وعلى من حضر من الندماء ، وكان مجلس لهو وسرور •

وفي مجلس آخر من مجالس المعتمد على الله طلب الخليفة من بعض الحاضرين من الندماء ان يصفوا له الرقص وانواعه ، وما هي الصفة المحمودة من الراقص وما يجب ان تكون عليه شمائله • فاجابه أحد الندماء بان الاقاليم والبلدان تختلف في رقصها ، وان

أنواع الايقاع في الرقص ثمانيـــة هي : الخفيف والهزج والرمل وخفيف الرمل وخفيف الثقيل الأول وثقيله وخفيف الثقيل الثاني وثقيلـــه • وان الراقص يحتاج الى أشياء في طباعـــه ، وأشياء في خلقته ، وأشياء في عمله • فأمـــا يحتاجه في طباعه فخفة الروح ، وحسن الطبع على الايقاع ، وان يكون مرحا حسن التدبير في رقصه والتصرف فيه • وان ما يحتاج اليه في خلقته فطول العنق والسوالف وحسن الدل والشمائل ، والتمايل في الاعطاف ، ودقة الخصر • وأما ما يحتاج اليه في عمله فمقدرة التصرف في ألوان الرقص واحكام كل حد من حدوده ، وحسن الاســـتدارة ، وثبـــات القدمـــين على مدارهما(٧٢) •

«السنوات الهجرية وابتداؤها وما يقابلها من السنوات الميلادية»

«عن اطلس التاريخ الاسلامي ، ص : ٢٤٤»

الهجرية	يبتدىء في	الميلادية	الهجرية	يبتدىء في	الميلادية
٢٢٠	٥ كانون الثاني	٨٣٥	٢٤٢	١٠ مايس	٨٥٦
٢٢١	٢٦ كانون الاول	٨٣٥	٢٤٣	٣٠ نيسان	٨٥٧
٢٢٢	١٤ كانون الاول	٨٣٦	٢٤٤	١٩ نيسان	٨٥٨
٢٢٣	٣ كانون الاول	٨٣٧	٢٤٥	٨ نيسان	٨٥٩
٢٢٤	٢٣ تشرين الثاني	٨٣٨	٢٤٦	٢٨ آذار	٨٦٠
٢٢٥	١٢ تشرين الثاني	٨٣٩	٢٤٧	١٧ آذار	٨٦١
٢٢٦	٣١ تشرين الاول	٨٤٠	٢٤٨	آذار	٨٦٢
٢٢٧	٢١ تشرين الاول	٨٤١	٢٤٩	٢٩ شباط	٨٦٣
٢٢٨	١٠ تشرين الاول	٨٤٢	٢٥٠	١٣ شباط	٨٦٤
٢٢٩	٣٠ ايلول	٨٤٣	٢٥١	٢ شباط	٨٦٥
٢٣٠	١٨ ايلول	٨٤٤	٢٥٢	٢٢ كانون الثاني	٨٦٦
٢٣١	٧ ايلول	٨٤٥	٢٥٣	١١ كانون الثاني	٨٦٧
٢٣٢	٢٨ آب	٨٤٦	٢٥٤	١ كانون الثاني	٨٦٨
٢٣٣	١٧ آب	٨٤٧	٢٥٥	٢٠ كانون الاول	٨٦٨

الهجرية	تبتدىء في	الميلادية	الهجرية	تبتدىء في	الميلادية
٢٣٤	٥ آب	٨٤٨	٢٥٦	٩ كانون الاول	٨٦٩
٢٣٥	٢٦ تموز	٨٤٩	٢٥٧	٢٩ تشرين الثاني	٨٧٠
٢٣٦	١٥ تموز	٨٥٠	٢٥٨	١٨ تشرين الثاني	٨٧١
٢٣٧	٥ تموز	٨٥١	٢٥٩	٧ تشرين الثاني	٨٧٢
٢٣٨	٢٣ حزيران	٨٥٢	٢٦٠	٢٧ تشرين الاول	٨٧٣
٢٣٩	١٢ حزيران	٨٥٣	٢٦١	١٦ تشرين الاول	٨٧٤
٢٤٠	٢ حزيران	٨٥٤	٢٦٢	٦ تشرين الاول	٨٧٥
٢٤١	٢٢ مايس	٨٥٥	٢٦٣	٢٤ أيلول	٨٧٦
٢٦٤	١٣ أيلول	٨٧٧	٢٧٣	٨ حزيران	٨٨٦
٢٦٥	٣ أيلول	٨٧٨	٢٧٤	٢٨ مايس	٨٨٧
٢٦٦	٢٣ آب	٨٧٩	٢٧٥	١٦ مايس	٨٨٨
٢٦٧	١٢ آب	٨٨٠	٢٧٦	٦ مايس	٨٨٩
٢٦٨	١ آب	٨٨١	٢٧٧	٢٥ نيسان	٨٩٠
٢٦٩	٢١ تموز	٨٨٢	٢٧٨	١٥ نيسان	٨٩١
٢٧٠	١١	٨٨٣	٢٧٩	٣ نيسان	٨٩٢
٢٧١	٢٩ حزيران	٨٨٤	٢٨٠	٢٣ آذار	٨٩٣
٢٧٢	١٨ حزيران	٨٨٥			

«المصادر والمراجع

١ ـ المصادر الاولية :

ابن ابي اصيبعة ، موفق‌الدين احمد بن القاسم بن خليفة :

عيون الانباء في طبقات الاطباء ·
تحقيق الدكتور نزار رضا ·
دار مكتبة الحياة ـ بيروت ، ١٩٦٠ ·

ابن أبي الربيع ، شهاب‌الدين أحمد بن محمد :

سلوك المالك في تدبير الممالك ·
دراسة وتحقيق : الدكتور ناجي التكريتي ·
تراث عويدات ـ بيروت ، ١٩٧٨ ·

ابن الأثير ، عزالدين ابوالحسن علي بن أبي الكرم الشيباني :

الكامل في التاريخ ـ الاجزاء (٦و٧و٨) ·
دار صادر ـ بيروت ، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م ·

ابن الاخوة ، محمد بن محمد بن أحمد القرشي :

معالم القربة في أحكام الحسبة ·
نشرة روبن لوي ـ مطبعة الفنون بكمبرج، ١٩٣٧ ·
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ·

ابن بطوطة ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد الطنجي :

رحلة ابن بطوطة (المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار) ·

مطبعة التقدم بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٣٢٢ ·

ابن جبير ، أبو الحسين محمد بن أحمد الاندلسي :

رحلة ابن جبير ·
نشرته المكتبة العربية ببغداد ·
مطبعة عبدالحميد أحمد حنفي ـ مصر ، ١٣٥٦ ـ ١٩٣٧ ·

ابن جلجل ، أبو داود سليمان بن حسان الاندلسي :

طبقات الاطباء والحكماء ·
تحقيق فؤاد سيد ·
مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للاثار الشرقية بالقاهرة ١٩٥٥ ·
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ·

ابن الجهم ، أبوالحسن علي بن جهم بن بدر :

ديوان علي بن الجهم ·
تحقيق : خليل مردم ·
لجنة التراث العربي ـ بيروت ، الطبعة الثانية ·

ابن الجوزي ، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي :

المنتظم في تاريخ الملوك والامم (الاجزاء : ٥و٦و٧)،
مطبعة حيدرآباد الدكن ، الطبعة الاولى ، ١٣٥٧ ·

ابن حمدون ، أبو المعالي محمد بن الحسن بن محمد بن علي :

تذكرة ابن حمدون ـ السياسة والاداب الملكية ·
مطبعة النهضة ـ الطبعة الاولى ١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٥م
نشرته مكتبة الخانجي بمصر ·

ابن حوقل ، أبوالقاسم محمد بن علي الموصلي :
صورة الارض ٠
مكتبة الحياة ـ بيروت ٠

ابن خرداذبة ، أبوالقاسم عبيدالله :
المسالك والممالك ٠
نشرة دي خوية ـ مطبعة بريل في لندن ، ١٨٩٨ ٠
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ٠

ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد الحضرمي :
(١) مقدمة ابن خلدون ٠
المطبعة الخيرية بمصر ، الطبعة الاولى ، ١٣٢٢ ٠
(٢) كتاب العبر ديوان المبتدأ والخبر (الجزء الثالث) ٠
دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ، ١٩٧٧ ٠

ابن خلكان ، أبوالعباس شمس‌الدين أحمد بن محمد :
وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان (٦) أجزاء ٠
تحقيق : محمد محي‌الدين عبدالحميد ٠
الطبعة الاولى ، مطبعة السعادة ، ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م

ابن خياط ، خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني :
تاريخ خليفة بن خياط (الجزء الثاني) ٠
تحقيق أكرم ضياء العمري ٠
مطبعة الاداب في النجف الاشرف ، ١٣٨٦ـ١٩٦٧ ٠

ابن دحية ، عمر بن ابي علي حسن بن علي الكلبي :
كتاب النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ٠
مطبعة المعارف ـ بغداد ، ١٣٦٥ـ١٩٤٦ ٠

ابن دقماق ، ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي :

الانتصار لواسطة عقد الامصار ·
المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ·
طبع بالاوفسيت على طبعة بولاق في سنة
١٣١٠هـ ·

ابن ربن ، أبو الحسن علي بن سهل بن ربن الطبري :

فردوس الحكمة ·
تحقيق الدكتور محمد زبير صديقي ·
مطبعة آفتاب برلين ، ١٩٢٨ ·

ابن رستة ، أبو علي أحمد بن عمر :

الاعلاق النفيسة ·
نشرة دي خوية ـ مطبعة بريل بليدن ، ١٨٩١ ·
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ·

ابن الساعي ، تاج الدين أبو طالب علي بن أنجب .

نساء الخلفاء ·
تحقيق الدكتور مصطفى جواد ·
دار المعارف بمصر ·

ابن سليمان ، ماري :

اخبار فطاركة كرسي المشرق ·
طبع في رومية الكبرى سنة ١٨٩٤ ·
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ·

ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا :
الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية ·
مطبعة الموسوعات بمصر ، ١٣١٧ ·

ابن طلحة ، أبو سالم محمد بن طلحة الوزير :
العقد الفريد للملك السعيد ·
المطبعة الرهبية ، ١٢٨٣ ·

ابن طيفور ، أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب :
بغداد ·
نشرة عزة العطار الحسني ـ ١٣٦٨ـ١٩٤٩ ·

ابن عبدالله ، الحسن :
آثار الاول في ترتيب الدول ·
مطبعة بولاق ـ مصر ·

ابن عبدالحكم ، أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله القرشي الانصاري :
فتوح مصر واخبارها ·
تحقيق شارل توري ·
مطبعة بريل بليدن ، سنة ١٩٢٠ ·
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ·

ابن عبد ربه ، أبو عمر أحمد بن محمد الاندلسي :
العقد الفريد (٧) أجزاء ·
تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الابياري
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ·
١٣٦٧ـ١٩٤٨ ·

ابن عذاري ، عبدالواحد بن علي التميمي المراكشي :
البيان المغرب في اخبـــار الاندلس والمغرب (الجزء الاول) ·
تحقيق : ج· س· كولان و ا · ليفي بروفنسال ·
دار الثقافة ـ بيروت ·

ابن العماد ، أبو الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي :
شذرات الذهب في اخبار من ذهب (جزآن) .
المكتب التجاري للطباعة والنشر ـ بيروت .

ابن الفراء ، أبو علي الحسين بن محمد :
كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة .
تحقيق صلاح الدين المنجد .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٧ .

ابن الفقية ، أبوبكر أحمد بن محمد الهمذاني :
مختصر كتاب البلدان .
نشرة دي خويه ، مطبعة بريل بليدن ، ١٣٠٢ .
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) .

ابن الفوطي ، ابوالفضل عبدالرزاق البغدادي :
الحوادث الجامعة في المائة السابعة .
عنيت بطبعه المكتبة العربية ببغداد باشراف مصطفى جواد .
مطبعة الفرات ـ بغداد ، ١٣٥١ .

ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم :
(١) تأويل مشكل القرآن .
تحقيق السيد أحمد صقر .
دار أحياء الكتب العربية ، ١٣٧٢ـ١٩٥٤ .
(٢) عيون الاخبار (٤) أجزاء .
دار الثقافة والارشاد القومي بمصر ، ١٣٨٣ ـ ١٩٦٣ .
نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب .
(٣) المعارف .

حققه : ثروت عكاشة .
مطبعة دار الكتب ـ مصر ، ١٩٦٠ .

ابن قدامة ، قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد الكاتب :
كتاب الخراج وصناعة الكتابة .
حققه الدكتور محمد حسين الزبيدي .
طبع بدار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٨١ .

ابن المدبر ، ابراهيم بن محمد بن عبيدالله :
الرسالة العذراء .
حققها الدكتور زكي مبارك .
مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهـــرة ، ١٣٥٠ـ
١٩٣١ ـ الطبعة الثانية .

ابن متي ، عمرو :
اخبار فطاركة كرسي المشرق .
طبع رومية الكبرى ، سنة ١٨٩٦ .
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) .

ابن المعتز ، عبدالله :
طبقات الشعراء .
تحقيق : عبدالستار احمد فراج .
دار المعارف ـ مصر ، ١٩٥٦ .
ابن منظور ، أبو الفضل جمال‌الدين محمد بن مكرم
الانصاري :
لسان العرب .
طبعة دار صادر ـ بيروت ، ١٩٥٥ـ١٣٧٤ .

ابن النديم ، محمد بن اسحاق بن محمد البغدادي :
الفهرست .

المكتبة التجاريـــة الكبرى ـ بمطبعـــة الاستقامة بالقاهرة ·

أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي :
ديوان ابي تمام (٤) أجزاء ·
تحقيق : محمد عبد عزام ·
دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة ·

أبو حيان ، علي بن محمد بن العباس التوحيدي :
البصائر والذخائر (٤) أجزاء ·
تحقيق : الدكتور ابراهيم الكيلاني ·
مطبعة الانشاء بدمشق ·

أبو الفداء ، عمادالدين اسماعيل :
المختصر في اخبار البشر (الجزء الثاني) ·
الطبعة الاولى بالمطبعة الحسينية المصرية ·
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ·

أبو الفرج ، علي بن الحسين الاصبهاني :

(١) كتاب الاغاني ·

أ ـ طبعـة وزارة الثقافة والارشـــاد القومي ، ١ـ١٦ ·

ب ـ طبعة الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ، الاجـزاء ١٧ـ٢٤ ـ تحقيـــق عبدالكريم العزبادي ، المطبعة الثقافية ، ١٩٧٠ ·

(٢) مقاتل الطالبيين ·
تحقيق السيد احمد صقر ·
دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ، ١٣٦٨ ـ ١٩٤٩ ·

الاصطخري ، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الكرخي :
كتاب الاقاليم .
نشره الدكتور ج. هـ. موللر سنة ١٨٣٩ .
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) .

الأزدي ، علي بن ظافر :
بدائع البدائة .
تحقيق : محمد ابوالفضل ابراهيم .
مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٠ .

الانباري ، أبوالبركات محمد بن ابي سعيد النحوي :
نزهة الالباء في طبقات الادباء .
تحقيق : الدكتور عطية عامر .
المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ، ١٩٦٣ .

البحتري ، أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي :
ديوان البحتري .
أ ـ طبعة دار صادر (جزآن) بيروت ، ١٩٦٢ ـ ١٣٨١ .
ب ـ طبعة دار المعارف بمصر (٤) أجزاء ، تحقيق : حسن كامل الصيرفي .

البخاري ، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل :
الأدب المفرد .
طبع بمطبعة الاوفسيت بمدينة طشقند ، ١٣٩٠ .

البغدادي ، أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر :
الفرق بين الفرق .
تحقيق : محمد زاهد بن الحسن الكوثري .
نشره السيد عزة العطار الحسني ، ١٣٦٧ـ ١٩٤٠ .

البغدادي ، اسماعيل باشا :
هدية العارفين ، اسماء المؤلفين وآثار المصنفين (جزآن) .
مطبعة المعارف باستانبول ، ١٩٥٥ .

البغدادي ، صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحسن :
مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع (٣) أجزاء .
تحقيق وتعليق : علي محمد البجاوي .
دار أحياء الكتب العربية ــ ١٣٧٧ــ١٩٥٤ .

البكري ، أبو عبيدا لله بن عبدالعزيز :
المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب .
طبع في الجزائر سنة ١٨٥٧ .
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) .

البلاذري ، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر :
فتوح البلدان .
راجعه وعلق عليه : رضوان محمد رضوان .
المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

البلخي ، أبو زيد أحمد بن سهل :
البدء والتاريخ (الجزآن ٤ و ٥) .
نشره كلمان هوار في باريس سنة ١٨٩٩ .
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) .

البيروني ، أبو الريحان محمد بن أحمد :
الاثار الباقية عن القرون الخالية .
نشره أدوار سخاو ، طبع في ليبزك سنة ١٩٢٣ .
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) .

البيهقي ، الشيخ ابراهيم بن محمد :
المحاسن والمساويء •
دار صادر ـ بيروت ، سنة ١٣٨٠ـ١٩٦٠ •

البيهقي ، ظهيرالدين علي بن زيد :
تاريخ حكماء الاسلام •
عني بتحقيقه ونشره : محمد كرد علي •
الطبعة الثانية بمطبعة المفيـــد الجديدة بدمشق ، ١٩٣٦ـ١٩٦٧ •

التنوخي ، القاضي أبو علي المحسن بن علي :
(١) كتاب الفرج بعد الشدة •
أ ـ طبعة مكتبة الخـــانجي بمصر بدار الطباعة المحمدية ١٣٥٧ـ١٩٥٥ ، (جزآن) •
ب ـ طبعة دار صادر بـــيروت ، تحقيق : عبود الشالجي (خمسة أجزاء) •
(٢) نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة (٨) أجزاء •
تحقيق : عبود الشالجي •
مطابع دار صادر ـ بيروت ، ١٩٧٣ •

الثعالبي ، أبو منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل :
ثمار القلوب في المضاف والمنسوب •
تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم •
دار نهضة مصر للطبـــع والنشر ـ مطبعة المدني بالقاهرة سنة ١٣٨٢ـ١٩٦٥ •

الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني :
(١) كتاب البيان والتبين (٤) أجزاء •
تحقيق وشرح : عبدالسلام محمد هارون •

مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ، ١٩٦٠ ٠

(٢) رسائل الجاحظ (جزآن) ٠
تحقيق وشرح : عبدالسلام محمد هارون ٠
مكتبة الخانجي بمصر ، ١٩٦٤ ٠

(٣) كتاب التاج في أخلاق الملوك ٠
تحقيق : أحمد زكي باشا ٠
المطبعة الاميرية بالقاهرة ، ١٣٢٢ـ١٩١٤ ٠

(٤) ثلاث رسائل للجاحظ ٠
نشرها يوشع فتكل ٠
المطبعة السلفية ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٢ ٠

(٥) كتاب التبصر بالتجارة ٠
عني بنشره والتعليق عليه : حسن حسني عبدالوهاب التونسي ، المطبعة الرحمانية بمصر ، الطبعة الثانية ـ ١٣٥٤ـ١٩٣٥ ٠

الجمحي ، محمد بن سلام بن عبدالله :
طبقات الشعراء ٠
اللجنة الجامعية لنشر التراث العربي ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت ، ١٩٦٨ ٠

الجهشياري ، أبو عبدالله محمد بن عبدوس :
كتاب الوزراء والكتاب ٠
تحقيق : مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبدالحفيظ شلبي ٠
مطبعة البابي الحلبي وأولاده ـ القاهرة ٠
الطبعة الاولى سنة ١٣٥٧ـ١٩٣٨ ٠

الحريري ، أبو محمد القاسم بن علي :
درة الغواص في أوهام الخواص .
طبع في ليبزك سنة ١٨٧١ .
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) .
الحموي ، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي :
(١) ارشاد الاريب الى معرفة الاديب (معجم الادباء)
(٧) أجزاء تحقيق : د. س. مرجليوث . مطبعة هندية بمصر ، ١٩٢٣ .
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) .
(٢) معجم البلدان (٥) أجزاء .
طبعة دار صادر ـ بيروت للطباعة والنشر ، ١٣٧٦ـ١٩٥٧ .
(٣) كتاب المشترك وضعا والمفترق صقعا .
نشره فرديناند وستفيلد في كوبنهجن بألمانيا سنة ١٨٤٦ .
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) .
الحموي ، تقي الدين أبوبكر بن علي بن حجة :
ثمرات الاوراق .
طبع بهامش كتاب المستطرف .
المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ١٣٧٩ .
الحنفي ، أحمد بن محمد الحموي :
النفحات المسكية في صناعة الفروسية .
تحقيق : عبدالستار القرغولي .
مطبعة التفيض ـ بغداد ، ١٣٦٩ـ١٩٥٠ .
الخطيب البغدادي ، الحافظ أبوبكر أحمد بن علي :
تاريخ بغداد أو مدينة السلام (١٤) جزء .
نشر دار الكتاب العربي ـ بيروت .

الخوارزمي ، أبو جعفر محمد بن موسى :
كتاب صورة الارض ٠
تحقيق هانس فون مزيك ٠
مطبعة أدولف هدلزهوزن في فيينا سنة ١٩٢٦ ٠
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ٠

الخوارزمي ، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف :
مفاتيح العلوم ٠
دار الطباعة المنيرية ـ بمطبعة الشرق ، ١٣٤٢ ٠
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ٠

الدينوري ، أبو حنيفة أحمد بن داود :
الاخبار الطوال ٠
مطبعة عبدالحميد أحمد حنفي ـ مصر ٠
بنفقة المكتبة العربية ببغداد ٠

الذهبي ، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز :
(١) كتاب دول الاسلام (جزآن) ٠
طبع بمطبعة جمعية المعارف العثمانية ـ الطبعة الثانية ، ١٣٦٤ ٠
(٢) العبر في خبر من غبر (جزآن) ٠
تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ٠
مطبعة الحكومة ـ الكويت ، ١٩٦٠ ٠

الراغب ، أبو القاسم حسين بن محمد الاصبهاني :
محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء (جزآن) ٠
المطبعة الشرقية بمصر ، ١٣٢٦ ٠

الرشيد بن زبير القاضي :
الذخائر والتحف ٠

تحقيق الدكتور محمد حميدالله
راجعه الدكتور صلاح الدين المنجد
طبع في الكويت ، ١٩٥٩ ٠

الزمخشري ، جارالله محمود بن عمر :
تفسير الكشاف عن حقـــائق غوامض التنزيل (٤)
أجزاء ٠
دار الكتاب العربي ، بيروت ٠

السجستاني ، أبوبكر عبدالله بن سليمان بن الاشعث :
كتاب المصاحف
نشره الدكتور ارثر جيفري ٠
المطبعة الرحمانية بمصر ، ١٣٥٥ـ١٩٣٦ ٠

سهراب (ويعرف بابن سرابيون) :
كتاب عجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة ٠
تحقيق : هانس فون مزيك ٠
طبع بمطبعة أدولف هولز هوزن في فيينا ، ١٩٢٩ ٠
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ٠

السيرافي ، أبو سعيد الحسن بن عبدالله :
أخبار النحويين البصريين ٠
تحقيق: طه محمد الزيني ومحمد عبدالمنعم خفاجي ٠
مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٧٤ـ
١٩٥٥ ٠

السيرافي :
رحلة السيرافي الى الهند والصين واليابان واندونوسية
دار منشورات البصري ٠
مطبعة دار الحديث ـ بغداد ، ١٣٨٠ـ١٩٦١ ٠

السيوطي ، جلال‌الدين عبدالرحمن بن أبي‌بكر :
(١) الاشباه والنظائر في النحو (٣) أجزاء .
مطبعة دار المعارف العثمانية ـ حيدراباد الدكن ،
١٣٦٠ .
(٢) تاريخ الخلفاء .
تحقيق : محمد محي‌الدين عبدالحميد .
مطبعة المدني ، مصر ، ١٩٦٤ .
(٣) بغيـة الوعاة في طبقات اللغويـين والنحويين
(جزآن) .
تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم .
مطبعة عيسى البـابي الحلبي وشركاه ، ١٣٨٤ ـ
١٩٦٤ .

الشابشتي ، أبوالحسن علي بن محمد :
الديارات
تحقيق : كوركيس عواد .
مطبعة المعارف ـ بغداد ، ١٩٦٦ ـ الطبعة الثانية .

الشهرستاني ، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم بن ابي‌بكر :
الملك والنحل (جزآن) .
تحقيق : محمد سيد كيلاني .
مكتبـة ومطبعة البـابي الحلبي بمصر ، ١٣٨١ ـ
١٩٦١ .

الشيزري ، عبدالرحمن بن نصر :
نهاية الرتبة في طلب الحسبة .
نشره السيد الباز العربي .
مطبعة لجنة التأليف والترجمـة والنشر ـ مصر ،
١٣٦٥ ـ ١٩٤٦ .

الصابي ، أبو الحسين هلال بن المحسن الصابي :
(١) رسوم دار الخلافة ٠
تحقيق : ميخائيل عواد ٠
مطبعة العاني ـ بغداد ، ١٣٨٣ـ١٩٦٤ ٠
(٢) الوزراء أو تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ٠
تحقيق : عبدالستار أحمد فراج ٠
دار أحياء الكتب العربية ، ١٩٥٨ ٠

الصابيء ، غرس النعمة أبوالحسن محمد بن هلال الصابيء :
الهفوات النادرة ٠
حققه : الدكتور صالح الاشتر ٠
من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ٠
الطبعة الاولى ، ١٣٨٧ـ١٩٦٧ ٠

الصفدي ، صلاح الدين خليل بن ايبك :
نكت الهميان في نكت العميان ٠
وقف على طبعه : أحمد زكي بك ٠
المطبعة الجمالية بمصر ، ١٩١١ ٠
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفست) ٠

الصولي ، أبوبكر محمد بن يحيى الصولي :
١ ـ شعر ابن المعتز (القسم الثاني) ٠
دراسة وتحقيق الدكتور يونس أحمد السامرائي ٠
دار الحرية للطباعة ـ بغداد ، ١٩٧٨ ٠
٢ ـ كتاب الاوراق (قسم اخبار الشعراء) ٠
عني بنشره : جي٠ هيورث دن ٠
مطبعة الصاوي بمصر ، ١٩٣٤ ٠

الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير :
(١) تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) الاجزاء:

٨ ، ٩ ، ١٠ .
دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ .
تحقيق : محمد ابوالفضل ابراهيم .

(٢) جامع البيان عن تأويـــل آي القرآن (الجزء الاول) .
مطبعة ومكتبة البابي الحلبي وأولاده بمصر .
الطبعة الثانية ، ١٣٧٣_١٩٥٤ .

الطرطوشي ، أبوبكر محمد بن محمد بن الوليد :
سراج الملوك .
المطبعة الاميرية ببولاق ، سنة ١٢٨٩ .
آثار البلاد واخبار العباد .
دار صادر ـ بيروت ، ١٣٨٠_١٩٦٠ .

القفطي ، أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف :

(١) انباه الرداة على انباء النحاة (٣) أجزاء .
مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٦٩_١٩٥٠ .

(٢) تاريخ الحكماء .
حققه يوليوس ليبرت .
طبع في ليبزك سنة ١٩٠٣ .
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) .

القلقشندي ، أبوالعباس احمد بن علي :

(١) صبح الاعشى في صناعة الانشا (الجزء ـ٣) .
طبع المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر .

(٢) مآثر الاناقة في معالم الخلافة .
تحقيق : عبدالستار أحمد فراج .
وزارة الارشاد والانباء في الكويت ، ١٩٦٤ .

القيرواني ، أبو اسحاق ابراهيم بن علي الحصري :
جمع الجواهر في الملح والنوادر
تحقيق محمد علي البجاوي .
الطبعة الاولى ـ دار أحيـاء الكتب العربية بمصر ،
١٣٧٢ـ١٩٥٣ .

الكاتب ، أبو جعفر احمد بن يوسف :
المكافأة .
صححه وعلق عليه : أحمد أمين وعلي الجارم .
الطبعة الاولى ـ المطبعة الاميرية ببولاق ، ١٩٤١ .

الكاتب ، محمد بن الحسن بن محمد البغدادي :
كتاب الطبيخ .
نشره الدكتور داود الجلبي .
مطبعة أم الربيعين ـ الموصل ، ١٣٥٣ـ١٩٣٤ .

الكتبي ، محمد بن شاكر بن احمد :
فوات الوفيات (جزآن) .
حققه : محمد محيي الدين عبدالحميد .
مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥٤ .

الكندي ، أبو يوسف يعقوب بن اسحاق بن الصباح :
(١) كتـاب الكندي الى المعتصم بـالله في الفلسفة الاولى .
حققه وعلق عليه : الدكتور أحمد فؤاد الاهواني
دار أحياء الكتب العربية بمصر ، ١٣٦٧ـ١٩٤٨ .

(٢) رسائل الكندي الفلسفية (جزآن) .
حققها واخرجها : محمد عبدالهادي أبو ريدة .
دار الفكر العربي .
مطبعة الاعتماد بمصر ، ١٣٦٩ ـ ١٩٥٠ .

الكندي ، أبو عمر محمد بن يوسف المصري :

كتاب الولاة وكتاب القضاة ·
تهذيب وتصحيح : رفت كست ·
مطبعة الآباء اليسوعيين ــ بيروت ، ١٩٠٨ ·
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ·

الماوردي ، أبوالحسن علي بن محمد بن حبيب البصري :

(١) الاحكام السلطانية ·
عني بتصحيحه : السيد محمد بدرالدين النعساني الحلبي ·
الطبعة الاولى ــ مطبعة السعادة بمصر ·

(٢) أدب القاضي (جزآن) ·
تحقيق : هلال السرحان ·
مطبعة الارشاد ــ بغداد ، ١٣٩١ــ١٩٧١ ·

المسعودي ، أبوالحسن علي بن الحسين :

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر (الجزء الرابع) ·
تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ·
الطبعة الخامسة ، سنة ١٣٨٧ــ١٩٦٧ ·

(٢) التنبيه والاشراف ·
عني بتصحيحه ومراجعتــــه : عبدالله اسماعيل الصاوي ·
مكتبة الشرق الاسلاميــــة ومطبعتها ، ١٣٥٧ ــ ١٩٣٨ ·

مسكوية . أبو علي أحمد بن محمد :

كتاب تجارب الامم (الجزء الاول) ·
اعتنى بتصحيحه وطبعه : هـ · ف· امدروز ·

مطبعة شركة التمدن الصناعية ، مصر ، ١٣٣٢ ـ ١٩١٤ و(الجزء السادس) منه وقد طبعه دي خوية في مطبعة بريل بليدن في سنة ١٨٦٩ ملحقا بكتاب العيون والحدائق في اخبار الحقائق ·
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ·

المقدسي ، أبو عبدالله محمد بن أحمد المعروف بالبشاري :
أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ·
طبعه دي خوية في مطبعة بريل بليدن سنة ١٩٠٦ ·
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ·

المقريزي ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي :
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية (جزآن) ·
مطبعة بولاق بمصر سنة ١٩٢٤ ·
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ·

مؤلف مجهول : العيون والحدائق في اخبـــار الحقائق (الجزء الثالث) ·
نشره دي خوية ·
مطبعة بريل بليدن في سنة ١٨٧١ ·
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ·

مؤلف مجهول :
اخبار الدولة العباسية (المؤلف من القرن الثالث) ·
تحقيق : الدكتـــور عبدالعزيز الدوري والدكتور عبدالجبار المطلبي ·
دار الطليعة للطباعة والنشر ـ بيروت ، ١٩٧١ ·

الهرثمي ، الشعراني :
مختصر سياسة الحروب ·

تحقيق : عبدالرؤوف عون ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة ·

المؤسســة المصرية العامة للتــأليف والترجمة والطباعة والنشر ، مطبعة مصر ، ١٩٦٤ ·

النويري ، شهابالدين أحمد بن عبدالوهاب :

نهاية الارب في فنون الادب (الاجزاء : ١ ، ٥ ، ٧) - نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ·

وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر ·

الوشاء ، أبو الطيب محمد بن اسحاق بن يحي :

الموشى ·

حققه : كمال مصطفى ·

الطبعة الثانية بمطبعة الاعتماد بمصر سنة ١٣٧٣هـ ١٩٥٣ ·

وكيع ، القاضي محمد بن خلف بن حيان :

أخبار القضاة (٣) أجزاء ·

صححه وعلق عليه : عبدالعزيز مصطفى المراغي الطبعة الاولى ـ المكتبة التجارية الكبرى ، ١٣٦٩ـ ١٩٥٠ ·

اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح العباسي:

(١) تاريخ اليعقوبي (جزآن) ·

دار صادر ـ بيروت ، ١٣٧٩ـ ١٩٦٠ ·

(٢) كتاب البلدان ·

طبع في مطبعة بريـــل في ليدن سنة ١٨٩١ مع كتاب الاعلاق النفيسة لابن رستة ·
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ·

(٣) مشاكلة الناس لزمانهم ·
تحقيق : وليم ملورد ·
الطبعة الاولى ـ دار الكتـــاب الجديد ، بيروت ، ١٩٦٢ ·

المراجع الحديثة :

أرنولد ، توماس :

تراث الاسلام ·
تأليف جمهرة من المستشرقين باشرافه ·
تعريف : جرجيس فتح‌الله ·
الطبعة الثانية ـ دار الطليعة ـ بيروت ، ١٩٧٨ ·

الأزميري ، اسماعيل حقي :

فيلسوف العرب ·
ترجمة : عباس العزاوي ·
مطبعة أسعد ـ بغداد ، ١٣٨٢ـ١٩٦٣ ·

أمير علي ، سيد :

مختصر تاريخ العرب ·
ترجمة : عفيف البعلبكي ·
دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦١ ·

أمين ، احمد :

(١) ضحى الاسلام (٣) أجزاء ·
الطبعة السابعة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ، ١٩٦٤ ·

(٢) ظهر الاسلام (الجزء الثاني والثالث) ·
الطبعة الثالثة ـ مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢·

اتينكهاوزن ، ريتشارد :
فن التصوير عند العرب ٠
ترجمة : الدكتـــور عيسى سلمان وســـليم طه
التكريتي ٠
وزارة الاعلام ـ بغداد ، ١٩٧٣ ٠

باتون ، ولتر ملفيل :
احمد بن حنبل والمحنة ٠
ترجمه وعلق عليه : عبدالعزيز عبدالحق ٠
دار الهلال بمصر ٠

باقر ، طه :
(١) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ٠
مطبعة الحوادث ـ بغداد ، ١٣٩٣ـ١٩٧٣ ٠
(٢) المرشد الى مواطن الاثار ٠
بالاشتراك مع فؤاد سفر ٠
مديرية الفنون والثقافة الشعبية بوزارة الارشاد ،
بغداد ، ١٩٦٢ ٠

بروكلمان ، كارل :
تاريخ الشعوب الاسلامية (الجزء الثاني) ٠
ترجمة : الدكتور نبيه فارس ومنير البعلبكي ٠
دار العلم للملايين ـ بيروت ، ١٩٤٨ ٠

بصمه‌جي ، الدكتور فرج :
كنوز المتحف العراقي ٠
وزارة الاعلام ، بغداد ، ١٩٧٢ ٠

بيتر ، نورمان :
الامبراطورية البيزنطية ٠
ترجمة : حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد

مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ، ١٩٥٧ ·

-جب ، هاملتون :
دراسات في حضارة الاسلام
ترجمة احسان عباس وآخرين ·
دار العلم للملايين ـ بيروت ، ١٩٦٤ ·

-جرونيباوم ، جوستاف · أ · فون :
حضارة الاسلام ·
ترجمة : عبدالعزيز توفيق جاويـــد ومراجعة : عبدالحميد العبادي ·
دار مصر للطباعة ، ١٩٥٦ ·

-جواد ، الدكتور مصطفى جواد ، بالاشتراك مع أحمد سوسة :
دليل خارطة بغداد المفصـــل في خطط بغداد قديما وحديثا ·
مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٣٧٨ـ١٩٥٨ ·

-الحاني ، الدكتور ناصر :
النقد الادبي وأثره في الشعر العباسي ·
مطبعة بغداد ـ ١٩٥٥ ·

-حسن ، الدكتور ابراهيم ، والدكتور علي ابراهيم حسن :
النظم الاسلامية ·
الطبعة الرابعة ـ مطبعة ألسنة المحمدية ، ١٩٧٠ ·

الخضري ، محمد :
محاضرات تاريخ الامم الاسلامية (الجزء الثالث) ·
الطبعة الثالثة ، مطبعة مصطفى محمد بمصر ·

الخليلي ، جعفر :
موسوعة العتبات المقدسة .
قسم سامراء ــ الجزء الاول .
دار التعارف ــ بغداد .
الطبعة الاولى ــ مطابع دار الكتب ، بيروت .

الخوري ، فارس :
موجز في علم المالية .
مطبعة الحكومة بدمشق ، ١٩٢٤ .

الخوئي ، السيد أبوالقاسم الموسوي :
البيان في تفسير القرآن (الجزء الاول) .
المطبعة العلمية في النجف ، ١٣٧٧ ، ١٩٥٧ .

خيرالله ، الدكتور أمين أسعد :
الطب العربي .
تعريب : الدكتور مصطفى أبو عزالدين .
المطبعة الامريكانية ــ بيروت ، ١٩٤٦ .

الدوري ، الدكتور عبدالعزيز :
(١) بحث في نشأة علم التأريخ عند العرب .
المطبعة الكاثوليكية ــ بيروت ، ١٩٦٠ .

(٢) تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري .
مطبعة المعارف ــ بغداد ، ١٩٤٨ .

(٣) النظم الاسلامية (الجزء الاول) .
مطبعة نجيب ــ بغداد ، ١٩٥٠ .

دوزي ، رينهارت :
المعجم المفصل للملابس عند العرب .

ترجمة : الدكتور أكرم فاضل ·
دار الحرية للطباعة ـ بغداد ، ١٣٩١ـ١٩٧١ ·

دي بور ، ت· ج· :
تاريخ الفلسفة في الاسلام ·
ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة ·
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ مصر ،
١٣٥٧ـ١٩٣٨ ·

دونلدسن ، م :
عقيدة الشيعة ·
تعريب : ع · م ·
مطبعة السعادة ـ مصر ، ١٣٦٥ـ١٩٤٦ ·

ديماند ، م· س :
الفنون الاسلامية ·
ترجمة : أحمد محمد عيسى ومراجعة الدكتور احمد
فكري ·
الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ ·

روزنتال ، فرانز :
علم التاريخ عند المسلمين ·
ترجمة : الدكتور صالح أحمد العلي ·
مراجعة : محمد توفيق حسين ·
مكتبة المثنى ببغداد ، ١٩٦٣ ·

الزركلي ، خيرالدين :
الاعلام ·
قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب
والمستعربين والمستشرقين ·
الطبعة الثانية ، (١٠) أجزاء ·

زيدان ، جرجي :
تاريخ التمدن الاسلامي (٥) أجزاء ·
مطبعة دار الهلال ، مصر ، ١٩٢٢ ·

سابق ، السيد :
فقه السنة (الجزء الثالث) ·
دار الكتـاب العربي ـ بـيروت · الطبعة الاولى ـ
١٣٩١ـ١٩٧١ ·

السامر ، الدكتور فيصل :
ثورة الزنج ·
الطبعة الثانية ـ مكتبة المنار بغداد ، ١٩٧١ ·

سركيس ، اليان :
معجم المطبوعات العربية والمعربة ·
مطبعة سركيس ـ مصر ، ١٢٨ـ١٣٤٦ ·

سوسة ، الدكتور أحمد سوسة :
ري سامراء في عهد الخلافة العباسية (جزآن) ·
مطبعة المعارف ـ بغداد ، ١٩٤٩ ·

الطائي ، الدكتور فاضل احمد :
أعلام العرب في الكيمياء ·
دار الرشيد للنشر ـ دار الحرية للطباعة ـ بغداد ،
١٤٠١ـ١٩٨١ ·

طوقان ، قدري حافظ :
تراث العرب العلمي ·
اصدار مجلة المقتطف سنة ١٩٤١ ·

عبدالرزاق ، مصطفى :
فيلسوف العرب والمعلم الثاني ·
دار أحياء الكتب العربية ـ ١٩٤٥ـ١٣٦٤ ·

عبدالقادر ، الدكتور علي حسن :
نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي ·
مكتبة القاهرة الحديثة ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٦ ·

العبيدي ، الدكتور صلاح حسين :
الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي ·
دار الرشيد للنشر ــ ١٩٨٠ ·

عثمان ، فتحي :
الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ــ الكتـــاب الاول في الظروف التاريخية والجغرافية لقيامها ·
الدار القومية للطباعة والنشر ــ القاهرة ·

علي ، عبدالله يوسف :
ترجمة معاني القرآن الكريم الى اللغة الانكليزية ·
دار الفكر ــ بيروت ·

العميد ، الدكتور طاهر مظفر :
العمارة العباسية في سامراء ·
دار الحرية للطباعة ــ بغداد ، ١٣٩٦ــ١٩٦٧ ·

عيسى ، الدكتور أحمد :
تاريخ البيمارستانات في الاسلام ·
المطبعة الهاشمية ــ دمشق ، ١٣٥٧ــ١٩٣٩ ·

فازيليف :
العرب والروم ·
ترجمة : الدكتور محمد عبدالهادي شعيرة ·
دار الفكر العربي ·

فراج ، عبدالستار احمد :
اشعار الخليع الحسين بن الضحاك ·
دار الثقافة ـ بيروت ، ١٩٦٠ ·

كويل ، ارنست :
الفن الاسلامي ·
ترجمة : الدكتور أحمد موسى ·
دار صادر ـ بيروت ، ١٩٦٦ ·

لسترانج ، كي :
(١) بغداد في عهد الخلافة العباسية ·
ترجمة : بشير فرنسيس ·
المطبعة العربية ـ بغداد ، الطبعة الاولى ، ١٣٥٥ ـ ١٩٣٦ ·

(٢) بلدان الخلافة الشرقية ·
ترجمة : بشير فرنسيس وكوركيس عواد ·
مطبعة الرابطة ـ بغداد ، ١٣٧٣ـ١٩٥٤ ·

لوبون ، الدكتور غوستاف :
حضارة العرب ·
ترجمة : عادل زعيتر ·
الطبعة الثانية ـ مطبعة دار أحياء الكتب العربية ، ١٩٤٨ ·

متز ، آدم :
الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (جزءآن) ·
ترجمة : محمد عبدالهادي أبو ريدة ·

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ،
١٣٥٩ـ١٩٤٠ ٠

مختار ، اللواء محمد باشا :

كتاب التوفيقــات الالهامية في مقارنـــة التواريخ البحرية بالسنين الافرنكية والقبطية ٠

الطبعة الاولى ـ المطبعــة الاميرية ببولاق ـ مصر ،
١٣١١ ٠

المخزومي ، الدكتور مهدي :

مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ٠

مطبعة دار المعرفة ـ بغداد ، ١٣٧٤ـ١٩٥٥ ٠

مرزوق ، الدكتور محمد عبدالعزيز :

العراق مهد الفن الاسلامي ٠

وزارة الاعلام ٠

مطبعة ثنيان ، ١٩٧١ ٠

المدني ، أحمد توفيق :

المسلمون في جزيرة صقلية ٠

المطبعة العربية ـ الجزائر ، ١٣٦٥ ٠

هرنشو :
علم التاريخ ٠

ترجمة : عبدالحميد العبادي ٠

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ،
١٩٣٧ ٠

هل ، يوسف :

الحضارة العربية .
ترجمة : الدكتور ابراهيم أحمد العدوي ، ومراجعة الدكتور حسين مؤنس .
مكتبة الانجلــو المصرية ـ القاهـــرة ، ١٣٧٥ ـ ١٩٥٦ .

اليسوعي ، الاب رتشرد يوسف مكارثي :

التصانيف المنسوبة الى فيلسوف العرب .
مطبعة العاني ـ بغداد ، ١٣٨٢ـ١٩٦٢ .